BOBST LIBRARY
3 1142 01158 9556

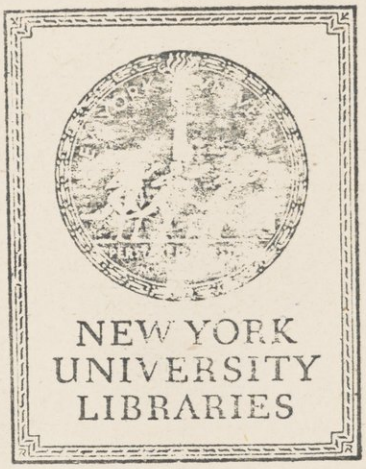

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

DATE DUE

NEW YORK UNIVERSITY
BOBST LIBRARY

CIRC

DEC 1-3 1985

NOV 22 '85

CIRC

70 WASHINGTON SQ. S.
NEW YORK, N.Y. 10012

VAR-2520.

(val. 4)

تاريخ الإسلام

السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى

الجزء الرابع

العصر العباسى الثانى

فى الشرق ومصر والمغرب والأندلس

٤٤٧ — ٦٥٦ / ١٠٥٥ — ١٢٥٨

تأليف

الدكتور حسن ابراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط سابقا ، وأستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعات
بنسلفينيا وكاليفورنيا والرباط سابقاً
وأستاذ التاريخ الإسلامى بمعهد الدراسات الإسلامية العليا
جامعة بغداد

الطبعة الأولى ١٩٦٨

ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

Hasan, Hasan Ibrāhim.

تاريخ الإسلام

السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى

Tarikh al-Islām al-Siyāsi.

الجزء الرابع

V.4

العصر العباسى الثانى

فى الشرق ومصر والمغرب والأندلس

٤٤٧ — ٦٥٦ / ١٠٥٥ — ١٢٥٨

تأليف

الدكتور حسن ابراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط ، وأستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعات
بنسلفينيا وكاليفورنيا والرباط سابقا
وأستاذ التاريخ الإسلامى بمعهد الدراسات الإسلامية العليا
جامعة بغداد

الطبعة الأولى ١٩٦٧

ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

Near East
DS
223
.H34
v.4
c.1

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير - عابدين
ت ٩٠٦٠١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

يسرنى أن أقدم إلى قراء العربية الطبعة الأولى من الجزء الرابع من كتابى «تاريخ الإسلام : السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى» الذى طالما انتظره القراء الكرام عقب ظهور الطبعة الأولى من الجزء الثالث من هذا الكتاب سنة ١٩٤٥ .

ويتناول هذا الجزء تاريخ الإسلام فى مدة قرنين وتسع سنين (٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) ، ويبدأ من السنة التى قبض فيها السلاجقة على أزمة الحكم فى الدولة العباسية إلى أن زالت الخلافة العباسية من بغداد على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وكان لهذا العصر ، على الرغم من ضعف الخلافة العباسية ميزاته ومظاهر حضارته . فقد ظهرت فيه دول كثيرة كان لها أثر كبير فى تقدم الحضارة الإسلامية . ذلك أن بغداد ، بعد أن كانت مركزاً لهذه الحضارة ، ظهرت إلى جانبها مراكز أخرى مثل القاهرة وبخارى وغزنة ومراكش ، ازدهرت فيها الحضارة والعلوم والآداب ، وذلك بفضل تشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء رجال العلم والأدب ، وبفضل اتساع أفق الفكر الإسلامى وذيوع العمران ورقى المجتمع الإسلامى .

وقد قسمت هذا الجزء إلى اثنى عشر بابا ، بحثت فى الباب الأول منها الدولة السلجوقية من ظهور طغرلبك إلى وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ . وتكلمت فى الباب الثانى على عصر سنجر السلجوقى وإخوته (٤٨٥ — ٥٥٢ هـ) ، فبينت مميزات هذا العصر ، ولا سيما فى عهد سلطنة بركياروق ومسعود وسنجر الذى انتهى بموته سنة ٥٥٢ هـ عصر السلاجقة العظام . وعالجت فى الباب الثالث الدول المستقلة التابعة للخلافة العباسية كدول الأتابكة فى دمشق والموصل وحلب والجزيرة وديار بكر وكرمان والموصل وغيرها . كما تكلمت على دولة خوارزم والدولة المرابطية فى المغرب والأندلس والدولة الأيوبية فى مصر .

وبحثت فى الباب الرابع غزوات المغول وسقوط بغداد على أيديهم فى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وزوال الخلافة العباسية التى عاش العالم الإسلامى فى ظلها زهاء خمسة قرون . وبحثت فى الباب الخامس الدول الإسلامية المستقلة غير التابعة لحكم العباسيين ، كالدولة الغورية ، والدولة الفاطمية فى عصرها الأخير ، والدولة الصليحية فى اليمن ، والدولة الموحدية فى المغرب والأندلس .

وبحثت فى الباب السادس العلاقات الداخلية ، كعلاقة العباسيين والفاطميين بالبيزنطيين ، وعلاقة العباسيين بالفاطميين ، وعلاقة الفاطميين بالمغرب وصقلية ، وعلاقة الفاطميين والعباسيين باليمن ، وأخيراً بحثت علاقة المسلمين بالصليبيين ، فبينت العوامل التى أدت إلى قيام الحروب الصليبية ، ودعوة المسيحيين إلى هذه الحروب ، وما تبع ذلك من تنظيم الحملات الصليبية على البلاد الإسلامية ، وأخيراً بحثت العوامل التى أدت إلى انتهاء الحروب الصليبية من المشرق وانتصار المسلمين عليهم ، وما كان لهذه الحروب من أثر فى الكنيسة وفى كرسى البابوية ، وما كان من تأثيرها فى الحياة الداخلية والاقتصادية عند ملوك أوربا ، وفى العلاقات الخارجية بين الدول المختلفة ، وفى علاقات القارة الآسيوية بأوربا ، وما تبع ذلك من اكتشاف الأراضى الجديدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر .

وقد بحثت فى الباب السابع الحركات السياسية والدينية واتجاهاتها المختلفة ، وما كان لها من أثر فى السياسة والدين والأدب والاجتماع وغير ذلك ، فتناولت الكلام على طائفتى القرامطة والدرزية ، ثم على طائفة النصيرية ، ثم على طائفتى النزارية فى فارس والشام ، والطيبية فى اليمن ، ثم على الدعوة المرابطية ، وأخيراً على الدعوة الموحدية .

وقد عرضت فى الباب الثامن لنظم الحكم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية ، فتكلمت على الخلافة عند الفقهاء والفلاسفة والأخلاقيين ثم على كل من هذه النظم . ثم عرضت فى الباب التاسع للحالة الاقتصادية ، مبيناً ما بلغه المسلمون من تقدم فى مضمار الزراعة والصناعة وما كان من اهتمام الخلفاء والسلاطين بتيسير الطرق البريه والبحرية التى كان لها أثر بعيد فى تقدم فن الملاحة ، وأصبح كثير من المدن الإسلامية مراكز تجارية هامة بين الشرق والغرب وزخرت أسواقها بمختلف السلع .

وفى الباب العاشر ألممت بحالة الثقافة ، فتناولت مراكز الثقافة ومعاهدها كالمسجد والزاوية والكتاب والمدرسة والمارستان وبيت الحكمة والمكتبة وديوان الإنشاء والرباط ، ثم بحثت أنواع العلوم كعلوم التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وعلم اللغة والأدب من نظم ونثر ، فتكلمت على أمراء الشعر فى المصر العباسى الأخير وفى مصر واليمن والمغرب والأندلس ، كالطغرائى وعمارة اليمنى والبهاء زهير وابن زيدون وابن عمار ، كما تكلمت على الشعر الفنى كالزجل والموشحات ، ثم تناولت أمراء النثر كأبى القاسم الحريرى صاحب المقامات المشهورة ، والقاضى الفاضل والفتح بن خاقان . ثم بحثت أنواع العلوم العقلية وما كان من اهتمام الخلفاء والسلاطين والأمراء بالطب والفلك وعلم النجوم والرياضيات والفلسفة والتاريخ والجغرافيا .

وفى الباب الحادى عشر تكلمت على الفن فى المشرق ومصر والمغرب والأندلس من تخطيط المدن كمراكش والرباط وقرطبة والقاهرة ، والمنشئات المعمارية من قصور وحمامات ومدارس ، والمنشئات الحربية كالأسوار ، والمنشئات الدينية التى تتمثل فى المساجد كالجامع الأزهر فى القاهرة ، وجامع القرويين بفاس ، ومسجد الكتبية بمراكش ، ومسجد ومنارة حسان بالرباط .

وأخيراً تناولت فى الباب الثانى عشر الحياة الاجتماعية فى العالم الإسلامى فى هذه الحقبة ، فبحثت فى طبقات المجتمع ، ومجالس الغناء والطرب ، وقصور الخلفاء والأمراء ودور العامة ، والملابس والطعام واللباس ، والأعياد والمواسم والمواكب والحفلات ، وأوقات الفراغ ، وبينت ما كان للمرأة من أثر فى المجتمع الإسلامى .

وقد سرت فى هذا الجزء على النهج الذى سرت عليه فى الأجزاء الثلاثة السابقة من هذا الكتاب ، فبحثت هذا العصر من نواحيه المختلفة : سياسية ودينية وثقافية واجتماعيه ، ليسهل على القارىء الإلمام بتاريخ هذا العصر الحافل بالأحداث الهامة ومظاهر الحضارة الإسلامية .

ويجد القارىء فى الهوامش وفى آخر الكتاب تنبيهاً على المصادر لمن أراد التوسع فى بحث مسألة من المسائل التاريخية التى لم يسمح المجال بالتوسع فيها . كما ذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر التى اعتمدت عليها مرتبة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، عربية وإفرنجية ، وذيلته بفهرس شامل لأسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة .

وأرجو أن أكون بهذا قد حققت ما ينشده القارىء من معلومات فى الموضوعات التى تناولتها بالبحث فى هذا الجزء .

وأخيراً أعتذر للقارىء عن وقوع بعض أخطاء مطبعية نتجت عن طبع هذا الجزء أثناء وجودى ببغداد مما استدعى إعادة طبع بعض الملازم . ويرى القارىء قائمة بالتصويبات التى لا يخفى معظمها على فطنة القارىء رجاء الرجوع إليها .

الجيزة فى ١٠ اكتوبر ١٩٦٧

حسن إبراهيم حسن

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة الكتاب . . . . . ج
محتويات الكتاب . . . . . و

الباب الأول

العصر السلجوقى الأول

من ظهور طغرلبك إلى وفاة ملكشاه

٤٢٩ — ٤٨٥ / ١٠٣٨ — ١٠٩٢

(١) ظهور السلاجقة ١
نسب سلاطين السلاجقة فى العراق ٣
(٢) طغرلبك ٤
البيت العباسى ٦
تسلسل نسب الخلفاء العباسيين ٨
ثورة البساسيرى ١١
أخلاق طغرلبك وصفاته ١٩
(٣) ألب أرسلان ٢٠
وفاة ألب أرسلان — صفاته ٢٣
(٤) ملكشاه ٢٥
(٥) الوزير نظام الملك ٣٠

الباب الثانى

عصر سنجر وإخوته

٤٨٥ — ٥٥٢ / ١٠٩٢ — ١١٥٧

(١) مميزات هذا العصر ٣٤
(٢) محمود بن ملكشاه ٣٦

صفحة

(٣) بركياروق بن ملكشاه ٣٨
(٤) محمد بن ملكشاه ٤٣
صفات محمد بن ملكشاه وأخلاقه — وفاته ٤٥
(٥) محمود بن محمد بن ملكشاه ٤٦
صفات محمود وأخلاقه — صفاته ٥٠
(٦) مسعود بن محمد بن ملكشاه ٥٢
(٧) نهاية عصر السلاجقة العظام ٥٨

الباب الثالث

الدول المستقلة التابعة للخلافة العباسية

أولا — دول الأتابكة :
من هم الأتابكة ؟ ٦٠
(١) أتابكية دمشق ٦٢
بيت زنكى ٦٥
(٢) أتابكية الموصل ٦٦
(ا) آقسنقر ٦٧
(ب) عماد الدين زنكى ٦٨
(ح) علاقة عماد الدين زنكى بالخلافة والسلطنة ٧٠
(٣) أتابكية حلب ٧٦
(٤) أتابكية سنجار ٧٧
(٥) أتابكية الجزيرة ٧٩
(٦) أتابكية إربل ٧٩
(٧) أتابكية ديار بكر ٨٠
(٨) بيت أرتق فى كيفا ٨٢
(٩) شاهات أرمينية ٨٤
(١٠) أتابكية أذربيجان ٨٦
(١١) سلاجقة كرمان ٨٧

صفحة

(١٢) سلاجقة سورية ٨٨
(١٣) سلاجقة العراق وكردستان ٨٨
(١٤) سلاجقة الروم ٨٩
(١٥) السلاجقة الدانشمندية ٩٠
(١٦) أتابكية كرمان ٩١
(١٧) أتابكية فارس ٩٣
(١٨) أتابكية لورستان ٩٤
ثانياً — دولة خوارزم ٤٧٠ — ٦٢٨ / ١١٧٧ — ١٢٣١ . . . . ٩٤
خوارزمشاه علاء الدين محمد ٥٩٦ — ٦١٧ هـ ٩٨
جلال الدين منكبرتى ١٠٢
ثالثاً — الدولة الأيوبية ٥٦٧ — ٦٤٨ / ١١٧١ — ١٢٥٠
صلاح الدين الايوبى (تسلسل نسب الايوبيين ١٠٦) ١٠٤
خلفاء صلاح الدين ١١٣
رابعاً — الدولة المرابطية ٤٤٨ — ٥٤١ / ١٠٥٦ — ١١٤٧
(١) قيام الدولة المرابطية (تسلسل نسب المرابطين ١١٧) ١١٥
(٢) يوسف بن تاشفين ١١٨
(٣) موقعة الزلاقة ١١٩
(٤) بعد موقعة الزلاقة ١٢٢
(٥) على بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ — ٥٣٧ هـ ١٢٥
(٦) نهاية الدولة المرابطية ١٢٩

الباب الرابع

غزوات المغول — سقوط بغداد

(١) معنى تتر ومغول ١٣٠
(٢) حالة المغول قبل ظهور چنكيزخان ١٣٢
(٣) حالة البلاد الإسلامية فى أوائل القرن السابع الهجرى . . . ١٣٤
(٤) چنكيز خان . . . . . .

صفحة

(١) اليساق ١٣٦
(ب) غزوات چنكيزخان . . . . . .
(١) رأى المؤرخين فى غزوات چنكيزخان ١٣٩
(٢) غزو التتار بلاد خوارزم ١٤١
(٥) وفاة چنكيزخان ١٤٧
تسلسل نسب المغول . . . . . ١٤٨ — ١٤٩
امبراطورية المغول بعد چنكيزخان . . . . . .
(٦) أجتاى : فتوحه فى آسيا وأوربا ١٥٠
(٧) كيوك ١٥٢
(٨) مانجوخان ١٥٣
(٩) كوبيلاى خان ١٥٤
(١٠) سقوط بغداد ١٥٤

الباب الخامس

الدول الإسلامية المستقلة
غير التابعة لحكم العباسيين

أولا — الغوريون والغزنويون

(١) ظهور الغوريين (نسب الغوريين ١٦٥) ١٦٣
(٢) علاء الدين حسين الغورى ١٦٦
(٣) غياث الدين محمد — زوال الدولة الغزنوية ١٦٧
وفاة غياث الدين محمد — صفاته ١٦٩
(٤) شهاب الدين محمد — حروبه مع الخوارزميين والخطا . . . ١٦٩
وفاة شهاب الدين محمد — صفاته ١٧٢
(٥) غياث الدين محمود — نهاية الدولة الغورية ١٧٣

ثانياً — الدولة الفاطمية

(١) المستنصر والمستعلى ١٧٧
(٢) الآمر والحافظ ١٨١

صفحة

(٣) سقوط الدولة الفاطمية ١٨٤
(٤) حملات شيركوه على مصر ١٨٩
(٥) صلاح الدين وسقوط الدولة الفاطمية ١٩٣
ثالثاً — الدولة الصليحية فى اليمن ١٩٧
رابعاً — اليمن قبل عهد الأيوبيين ٢١٠
(ا) بنو نجاح فى زبيد ٢١٠
(ب) بنو مهدى ٢١٢
خامساً — اليمن فى عهد الأيوبيين ٢١٤
سادساً — بنو رسول وبنو الرسى فى اليمن . . . . . .
(ا) بنو رسول ٢١٥
(ب) بنو الرسى ٢١٦
جدول بنى الرسى ٢١٧
سابعاً — الدولة الموحدية فى المغرب والأندلس ٢١٩
(١) عبد المؤمن بن على . . . . . .
(ا) مولده ونشأته ٢١٩
(ب) بيعتـــه ٢١٩
(ح) غزواته ٢٢٠
(ى) أخلاقه — وفاته ٢٢١
(٢) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ٢٢٢
(٣) يعقوب المنصور ٢٢٤
(ا) موقعة الأرك ٢٢٥
(ب) بين يعقوب المنصور وصلاح الدين ٢٢٨
(ح) إصلاحات يعقوب المنصور — أخلاقه — وفاته ٢٢٩
(٤) الناصر لدين الله ٢٣٠
(ا) موقعة العقاب ٢٣١
(ب) سقوط الدولة الموحدية ٢٣٢

الباب السادس

العلاقات الخارجية

صفحة

(١) علاقة العباسيين والفاطميين بالبيزنطيين ٢٣٤
(٢) علاقة العباسيين بالفاطميين ٢٣٥
(٣) علاقة الفاطميين بالحجاز ٢٣٧
(٤) علاقة الفاطمين بالمغرب وصقلية ٢٣٨
(٥) علاقة الفلاطميين والعباسيين باليمن ٢٤١
(٦) علاقة المسلمين بالصليبيين . . . . . .
(ا) أسباب الحروب الصليبية ٢٤٣
(ب) الدعوة إلى الحروب الصليبية ٢٤٥
(حـ) الحرب الصليبية الأولى ٢٤٥
(ء) الحرب الصليبية الثانية ٢٤٨
(هـ) الحرب الصليبية الثالثة ٢٥٠
(و) الحرب الصليبية الرابعة ٢٥١
(ز) لماذا انتهت الحروب الصليبية ؟ نتائجها ٢٥٢

الباب السابع

الحركات السياسية والدينية

(١) القرامطة ٢٥٤
نهاية القرامطة ٢٥٨
(٢) الدروز . . . . . .
(ا) دعاة الدروز ٢٥٩
(ب) أهم مميزات الدرزية ٢٦١
(٣) النصيرية ٢٦٥
(٤) الدعوة النزارية فى فارس والشام ٢٦٨
(٥) الدعوة الطيبية فى اليمن ٢٧٩
(٦) الدعوة المرابطية ٢٨٢

صفحة

(٧) الدعوة الموحدية . . . . . .
(ا) مولد ابن تومرت ونشأته ٢٩٢
(ب) دعوة ابن تومرت ٢٩٤
(ح) ابن تومرت وعلى بن يوسف المرابطى ٢٩٦
(ى) هرب ابن تومرت ٢٩٨
(هـ) بيعة ابن تومرت ٢٩٩
(و) الحكومة الموحدية ٣٠٠
(ز) غزوات ابن تومرت ٣٠١

الباب الثامن

نظم الحكم

(١) النظام السياسى . . . . . .
(ا) الخلافة
١ — الخلافة عند الفقهاء والفلاسفة والأخلاقيين ٣٠٣
٢ — الخلافة العباسية فى عهد سلاطين السلاجقة ٣٠٦
٣ — عود النفوذ إلى الخلفاء العباسيين ـ المقتدى والمسترشد . . ٣٠٧
٤ — احتفاظ الخلفاء العباسيين بسلطتهم الدينية ٣٠٨
٥ — زوال الخلافة العباسية فى بغداد ٣٠٩
٦ — تعدد الخلافة فى المغرب والأندلس وغيرهما ٣١٠
٧ — المرابطون والخلافة العباسية
(ا) موقف المغرب من الخلافة العباسية قبل المرابطين ٣١٠
(ب) المرابطون والخلافة العباسية ٣١٣
٨ — الخلافة الموحدية ٣١٦
٩ — الحفصيون والمرينيون ٣١٧
١٠ — الخلافة الفاطمية ٣٢٠
١١ — علاقة الأيوبيين بالخلافة العباسية ٣٢٢

صفحة

(ب) الوزارة
١ — الوزارة فى عهد السلاجقة ٣٢٤
٢ — الوزارة فى مصر ٣٢٩
٣ — الوزارة فى المغرب ٣٣٠
٤ — الوزارة فى الأندلس ٣٣١
(ح) الكتابة ٣٣٢
(ى) الحجابة ٣٣٥
٢ — النظام الإدارى . . . . . .
(ا) الإمارة على البـــلدان . . . . . .
١ — علاقة المسجد بادارة شئون الدولة ٣٣٦
٢ — نظرية الإمارة على البلدان ٣٣٧
(ب) الدواوين ٣٣٩
دور الضرب ٣٤١
(ح) البريد ٣٤٢
(ى) الشرطة ٣٤٥
٣ — النظـــام المالى . . . . . .
(ا) موارد بيت المال . . . . . .
١ — الخـــراج ٣٤٦
٢ — نظام الالتزام ٣٤٧
٣ — الجزية ٣٤٩
٤ — الزكاة ٣٥٠
٥ — الفيء والغنيمة ٣٥٠
٦ — العشـــور ٣٥٤
٧ — الضرائب فى العصر العباسى الثانى وفى مصر ٣٥٤
٨ — النظام المالى فى الأندلس ٣٥٩
٤ — النظام الحربى . . . . . .
(ا) الجيش فى العصر السلجوقى ٣٦٠
(ب) أسلحة الجيش ٣٦٣

صفحة

(ح) إمرة الجيش ٣٦٤
(ى) إمرة الجيش ٣٦٦
(هـ) الجيش فى المغرب ٣٦٨
(و) إمرة الأسطول ٣٧٢
(ز) البحرية فى مصر ٣٧٣
(ح) البحرية فى المغرب ٣٧٥

٥ — النظام القضائى :

(ا) القضاء فى العصر العباسى الثانى ٣٧٧
(ب) القضاء فى عهد الفاطميين والأيوبيين ٣٧٨
قانون الوراثة فى عهد الفاطميين ٣٧٩
(ح) القضاء فى الأندلس ٣٨٢
(ى) المظالم ٣٨٣
(هـ) الحسبة ٣٨٤

الباب التاسع

الحالة الاقتصادية

١ — الزراعة ٣٨٧

٢ — الصناعة

(ا) النسيج ٣٩١
الزخرفة فى العصر الفاطمى ٣٩٣
(ب) بناء السفن ٣٩٤
(ح) صناعة المعادن ٣٩٤
(ى) قصب السكر والزيت ٣٩٥
(هـ) صناعة الصابون والشمع ٣٩٦
(و) صناعة الزجاج والبلور والخزف ٣٩٦
(ح) صناعة الجلود ٣٩٨

صفحة

٣ — التجارة ٤٠٠
(ا) طرق التجارة ٤٠٤
(ب) مراكز التجارة ٤٠٦
(ج) الأسواق ٤١٢

الباب العاشر

الثقافة

١ — مراكز الثقافة ٤٢٠
٢ — معاهد الثقافة :
(ا) المسجد ٤٢١
(ب) الزاوية ٤٢٣
(ج) الكتاب والمدرسة ٤٢٤
(د) المارستان ٤٢٦
(هـ) بيت الحكمة ٤٢٧
(و) قاضى القضاة وداعى الدعاة ٤٢٧
(ز) المكتبات ٤٣٠
(ح) ديوان الإنشاء ٤٣٤
(ط) الرباط ٤٣٦

(ا) العلوم النقلية

تقسيم العلوم : ٤٣٩
١ — علم القراءات ٤٤٠
٢ — التفسير ٤٤٢
٣ — الحديث ٤٤٦
٤ — الفقه :
(ا) فقه الشيعة ٤٥٠
(ب) الفقه فى اليمن ٤٥٤
(ح) الفقه فى المغرب والأندلس ٤٥٥

صفحة

٥ — علم الكلام :
(ا) التوحيد فى الإسلام ٤٥٨
(ب) علم الكلام فى المغرب والأندلس ٤٦٧
٦ — النحـــو ٤٧٠
٧ — علم اللغة ٤٧٤
٨ — الأدب . . . . . .
(ا) الشعر :
١ — تمهيد ٤٧٧
٢ — الطغرائى ٤٨٠
٣ — شعراء اليمن ٤٨١
٤ — الشعر فى العصر الفاطمى الأخير ٤٨٣
الشعراء بين سنتى ٥٤٩ و ٥٦٧ هـ ٤٨٥
٥ — عمارة اليمنى ٤٨٦
البهاء زهير ٤٨٩
٦ — الشعر فى الأندلس . . . . . .
(ا) ابن زيدون ٤٩١
(ب) ابن عمار ٤٩٢
(ح) الشعر الفنى : الزجل والموشحات ٤٩٤
(ب) النـــثر :
١ — أبو القاسم الحريرى ٥٠١
٢ — القاضى الفاضل ٥٠٨
٣ — النثر فى المغرب والأندلس . . . . . .
(ا) ابن عطية ٥١٠
(ب) ابن أبى الخصال ٥١١
(ح) الفتح بن خاقان ٥١٣

(ب) العـــلوم العقلية

١ — الطب :
(ا) الطب فى العصر العباسى الثانى ٥١٥

صفحة
(ب) الطب فى العصر الفاطمى ٥٢٠ (ح) الطب فى المغرب والأندلس ٥٢١
(ى) المدارس الطبية ٥٢٢
٢ — الفلك والنجوم :
(ا) الفلك والنجوم فى العصر العباسى الثانى ٥٢٤
(ب) الفلك والنجوم فى مصر والمغرب ٥٢٨
٣ — الرياضيات ٥٣٠
٤ — الفلسفة :
(ا) أبو حامد الغزالى ٥٣١ (ب) ابن باجة ٥٣٧ (ح) ابن طفيل ٥٣٥
قصة حى بن يقظان ٥٤٠
(ى) ابن رشد ٥٤٢
ابن رشد وأرسطو ٥٤٣
(هـ) محيى الدين بن عربى ٥٤٧
٥ — التاريخ :
(ا) مؤرخو المشرق الإسلامى ٥٥٠
كتاب التراجم ٥٦٢
التواريخ المحلية ٥٦٤
(ب) مصادر العصر المغولى الأول ٥٦٦
(ح) مصادر تاريخ الفاطميين والأيوبيين ٥٧١
(ى) مصادر المغرب والأندلس ٥٨٠
٦ — الجغرافيا ٥٨٣

الباب الحادى عشر

الفن

١ — تخطيط المدن :
(ا) تقسيم المدن ٥٨٩ (ب) مدينة قرطبة ٥٩١ (ج) مدينة القاهرة ٥٩٢
(ى) مدينة مراكش ٥٩٥ (هـ) مدينة الرباط ٦٠٠
٢ — المنشئات المعمارية :
(ا) القصور ٦٠٢ (ب) الحمامات ٦٠٣ (ج) المدارس ٦٠٦

صفحة

٣ — المنشئات الحربية :

(ا) أسوار القاهرة ومناظرها ٦٠٩ (ب) قلعة الجبل ٦١١ (ج) جسر الجيزة ٦١٥

٤ — المنشئات الدينية — المساجد

(ا) الجامع الأزهر ٦١٦ (ب) مساجد العصر الفاطمى الأخير ٦١٩

(ج) جامع القرويين بفاس ٦٢٠ (د) مسجد الكتبية بمراكش ٦٢١

(هـ) مسجد ومنارة حسان ٦٢٣

الباب الثانى عشر

الحالة الاجتماعية

١ — طبقات المجتمع :

(ا) فى عهد العباسيين ٦٢٥ (ب) فى عهد الفاطميين والأيوبيين ٦٢٧

(ج) فى المغرب ٦٢٨ (د) فى الأندلس ٦٢٩

٢ — مجالس الغناء والطرب ٦٣١

٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ودور العامة ٦٣٤

٤ — الطعام ٦٣٦

٥ — الملابس ٦٤٠

٦ — المرأة ٦٤١

٧ — الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات

(ا) الأعياد والمواسم والمواكب ٦٤٣

(ب) الخطبة فى الأزهر ٦٤٥

(ج) الحج ٦٤٩

(د) حفلات الزواج ٦٥١

٨ — أوقات الفراغ ٦٥٣

المصادر ٦٥٧

الفهرست ٦٧٠

خطأ وصواب . . . . . .

الباب الأول

العصر السلجوقى الأول

من ظهور طغرلبك إلى وفاة ملكشاه

٤٢٩ — ٤٨٥ / ١٠٣٨ — ١٠٩٢

---

١ — ظهور السلاجقة :

ينتسب السلاجقة إلى سلجوق (بفتح السين) بن تقاق (بضم التاء) أحد رؤساء الأتراك . وكانوا يسكنون بلاد ما وراء النهر فى مكان يبعد عن بخارى بعشرين فرسخا[١]. وكان عدد السلاجقة ، كما يقول ابن خلكان ، يجل عن الحصْرْ والإحصاء ، لا يدينون بالطاعة لسلطان ، وكانوا إذا قصدهم جَمْع ورأوا أنه لاطاقة لهم به ، دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرمال فلا يصل إليهم أحد[٢] . والسلاجقة نوع من الأتراك الغزّ ويتصل نسبهم بالجد الأكبر بسلاطين الأتراك العثمانيين الذين أسسوا إمبراطوريتهم فى آسيا الصغرى ، ثم فى سورية ومصر والبحر الأبيض المتوسط وأوروبا وشمالى إفريقيا عن طريق سلاجقة الروم .

وقد اتسع سلطان السلاجقة حتى فاق سلطان البيت الغزنوى . وكان عصرهم أكثر ازدهارا وملكهم أعظم رقعة وقوتهم أعز سلطاناً ومنعة . وقد أخذوا فى سنة ٤٢٠/١٠٢٩ يجتاحون الجزء الشمالى والشرقى من بلاد الفرس حتى أقلقوا بال السلطان محمود الغزنوى . وإلى السلاجقة يرجع الفضل فى تجديد قوة الإسلام وإعادة تكوين وحدته السياسية . ولهم أهمية خاصة فى التاريخ ، لقيام الحروب الصليبية فى أيامهم ، وظهورهم على مسرح هذه الحروب ، وكذلك ظهور التتار الذين قضوا على الدولة الخوارزمية[٣] أولا ثم على الدولة العباسية .

---

(١) والفرسخ أربعة أميال .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٥٥ .

(٣) بضم الخاء وفتحها وفتح الباء وكسرها وسكون الزاى .

كان تقاق[١] أبو سلجوق كما وصفه ابن الأثير[٢] شهما ذا رأى وتدبير . وكان زعيم الأتراك الغز ، يرجعون إليه فى أمورهم ولا يخالفون له قولا ولا يعصون له أمراً ، وقد اتفق أن جمع ملك الترك عسكره وأراد المسير إلى البلاد الإسلامية . فنهاهم تقاق واحتدم النقاش بينهما فأغلظ له الملك القول ، فلطمه تقاق فشج رأسه . وأحاط بتقاق خدم الملك وأرادوا أخذه ، وحال أصحاب تقاق دون ذلك . ثم تم الصلح بينهما . وقد انجب تقاق ابنه سلجوق . ولما شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل الذكاء ، وعرف بعلو الهمة وسعة العقل والكرم حتى استمال قلوب رجال الدولة إليه ، فقربه ملك الترك إليه ولقبه بلقب « سباشى » ومعناه قائد الجيش ، ولكن زوجة الملك أوجست خيفة من سلجوق لما رأته من طاعة الناس له وانقيادهم إليه ، وحملت الملك على قتله .

ولما نمى هذا الخبر إلى سلجوق خشى على حياته ، فسار على رأس جماعته إلى دار الإسلام وتحول إلى الدين الحنيف وصح إيمانه وأقام هو وعشيرته بنواحى جَنْد[٣] ، وأخذ يغير على بلاد الأتراك الذين كانوا لا يزالون على الكفر . وكان ملكهم يأخذ الخراج من المسلمين الذين يعيشون فى بلاده . وقد طرد سلجوق عمال هذا الملك وضم بلاده إلى البلاد الإسلامية . وقد استنجد السامانيون بسلجوق لمساعدتهم على رد ما أخذه الترك من بلادهم ، فأرسل إليهم ابنه أرسلان على رأس جيش استرد هذه البلاد . وكان لسلجوق من الأولاد : أرسلان وميكائيل وموسى .

توفى سلجوق بجند بعد أن بلغ من العمر مائة وسبع سنين ، ثم قتل ابنه ميكائيل وهو يغزو بلاد الأتراك الكفار ، وترك من الأولاد بيغو ، وطغرلبك ، وشُغْرى بك داود ، فدانت لهم عشائرهم بالطاعة ، ثم عموا شطر بخارى ، فخشى أميرها خطرهم ، فأساء جوارهم وأراد الإيقاع بهم ، فالتجئوا إلى « بُغْراخان » ملك تركستان واحتموا به ، واستقر الأمر كما يقول ابن الأثير[٤] بين طغرلبك وأخيه داود على ألا يجتمعا عند بُغْراخان حتى لا يحيق مكره السيء بهم .

---

(١) بضم التاء ومعناه القوس الجديد .

(٢) الكامل فى التاريخ ج ٩ ص ١٧٦ .

(٣) بفتح الجيم وسكون النون .

(٤) الكامل ج ٩ ص ١٧٦ .

نسب سلاطين السلاجقة فى العراق

(٤٤٧ - ٥٥٢ / ١٠٥٥ - ١١٥٧)

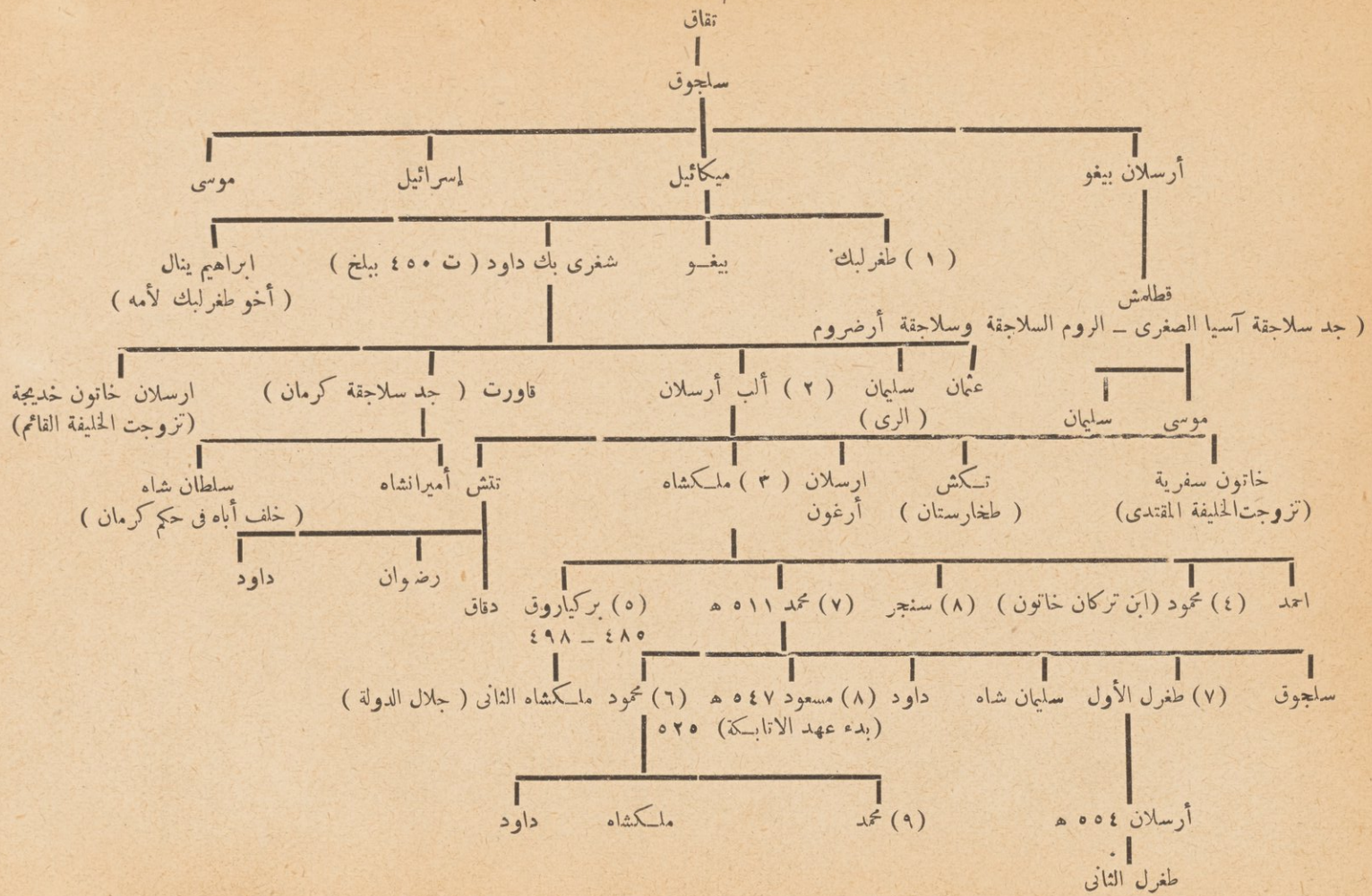

وقد برهنت الأيام على بعد نظر السلاجقة ، فقد حال بُغْراخان دون اجتماع هذين الأخوين عنده ، فلم يوفق ، فاحتال على أسر طغرلبك وتم له ما أراد ، فثارت ثائرة داود وقصد بغراخان فى عشائره ليخلص أخاه وأحل الهزيمة بجنده . وأطلق أخاه وعاد إلى جَنْد وبقوا هنالك حتى زالت الدولة السامانية . ولما ملك «إيلك خان» بخارى عظم نفوذ أرسلان ابن سلجوق (عم داود وطغرلبك) الذى سار إلى أذربيجان ، ولكنه لم يلبث أن أسر وحبس . وقد دارت بين السلاجقة والغزنويين فى عهد مسعود (بن يمين الدولة محمود الغزنوى) معارك طاحنة فى عهد مسعود ، انتهت بإقطاع دهستان لداود ونسا (بفتح النون) لطغرلبك ، وفراوة (بفتح الفاء) لبيغو ، ولقب كل منهم بلقب دهقان ، وبعث إليهم بالخلع. ولكن هؤلاء الإخوة من عشيرة السلاجقة لم يطمئنوا إلى دعوة السلطان مسعود وأخذوا يخادعونه بإظهار الطاعة له ، وطلبوا إليه أن يطلق عمهم أرسلان (بن سلجوق) . ولكن هذا الصلح لم يتم وانشغل مسعود ببلاد الهند .

(٢) طغرلبك

وفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) استولى طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق على مرو حاضرة خراسان وذكر اسمه فى خطبة الجمعة بلقب ملك الملوك . وفى شهر شعبان من هذه السنة التقى جيش طغرلبك بجيش الغزنويين عند باب مدينة سرخس وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً وشتت شملهم وطاردهم فى كل مكان وغنم أموالهم ، فكانت هذه الموقعة كما يقول ابن الأثير « هى التى ملك السلجوقيون بعدها خراسان ودخلوا قصبات البلاد » . وفى هذا الشهر استولى طغرلبك على نيسابور وأقيمت له الخطبة على منابرها وذكر اسمه مقروناً بلقب السلطان الأعظم[1]. واستقر بدار الإمارة وجلس للظالم يومين فى الأسبوع على ما جرت به العادة فى هذه البلاد .

وقد ذكر ابن الأثير بصدد كلامه على فتح نيسابور أن السلاجقة رأوا الكافور فظنوه ملحاً . ويذكر ابن الأثير أن طغرلبك أقام نوابه على الأقاليم المختلفة . ويرجع انتصار السلاجقة فى موقعة سرخس الحاسمة إلى أنهم قسموا جيشهم إلى ثلاث فرق كلما تبع الجيش الغزنوى إحداها طوقته الفرقتان الأخريان . وقد صمم السلطان مسعود

---

(١) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٩ .

الغزنوى على ملاقاة السلاجقة بنفسه فجمع جيشاً جراراً ، ثم رحل عن غزنه حاضرة سلطنته ميمما شطر خراسان . وقد ذكر ابن الأثير (٩ / ١٧٩) أن هذا الجيش بلغ مائة ألف سوى الخدم والأتباع .

استمرت الحروب بين السلاجقة والغزنويين ثلاث سنين ، ثم وقع الخلاف بين جند مسعود الغزنوى على الماء وازدحموا عليه ، وأصبح بعضهم يقاتل بعضاً . وكثر القتل بينهم واشتد النهب ، وتخلى بعضهم عن السلطان وفارقوه وأتاحوا بذلك الفرصة لجند داود السلجوقى ، فغنموا غنائم لا تحصى ، وسار طغرلبك إلى نيسابور فاستولى عليها فى أوائل سنة ٤٣٢ هـ . ولم يلبث أن قتل السلطان مسعود فخلفه أخوه محمد الذى لم يبق فى الحكم طويلا وقبض عليه أخوه داود بن مسعود وقتله هو وأولاده إلا عبد الرحيم[١] .

وفى سنة ٤٣٣ هـ استولى طغرلبك على جرجان وطبرستان وأقيمت له الخطبة فى هذه البلاد وفى السنة التالية استولى على خوارزم وكانت من أملاك الغزنويين وقصد إبراهيم ينال (أخا طغرلبك لأمه) همذان[٢] واستولى عليها .

وفى سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ - ١٠٤٢ م) استولى السلاجقة بقيادة طغرلبك على بلاد الديلم وكرمان[٣] ، وانتقل السلاجقة فى فتوحهم من نصر إلى نصر حتى جاءت سنة ٤٣٨ هـ التى حاصر فيها طغرلبك مدينة أصبهان وصالحه صاحبها على مال يؤديه إليه وعلى أن يقيم له الخطبة بأصبهان وأعمالها[٤] . وفى السنة التالية عقد الصلح بين أبى كاليجار البويهى والسلطان طغرلبك السلجوقى الذى تزوج بابنة أبى كاليجار ، وتزوج أبو منصور ابن أبى كاليجار بابنة الملك داود أخى طغرلبك[٥] .

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٨٠ .

(٢) ذكر ابن الأثير ج ٩ ص ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٦) فى حوادث سنة ٤٣٥ هـ أن أبا كاليجار البويهى أعاد همذان إلى أملاكه وبنى سور مدينة شيراز الذى بلغ طوله اثنى عشر ألف ذراع وعرضه ثمانية أذرع وله أحد عشر باباً . وقد فرغ من بناء هذا السور سنة ٤٤٠ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٩٠

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٩٦ ، ١٩٩ . وقد ذكر ابن الأثير (ج ٩ ص ٢٠٧) أن طغرلبك لما ظفر بأخيه إبراهيم ينال أكرمه وأحسن إليه ورد إليه كثيراً مما أخذ منه ولكنه اختار المقام معه .

(٥) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٠٧ .

البيت العباسى

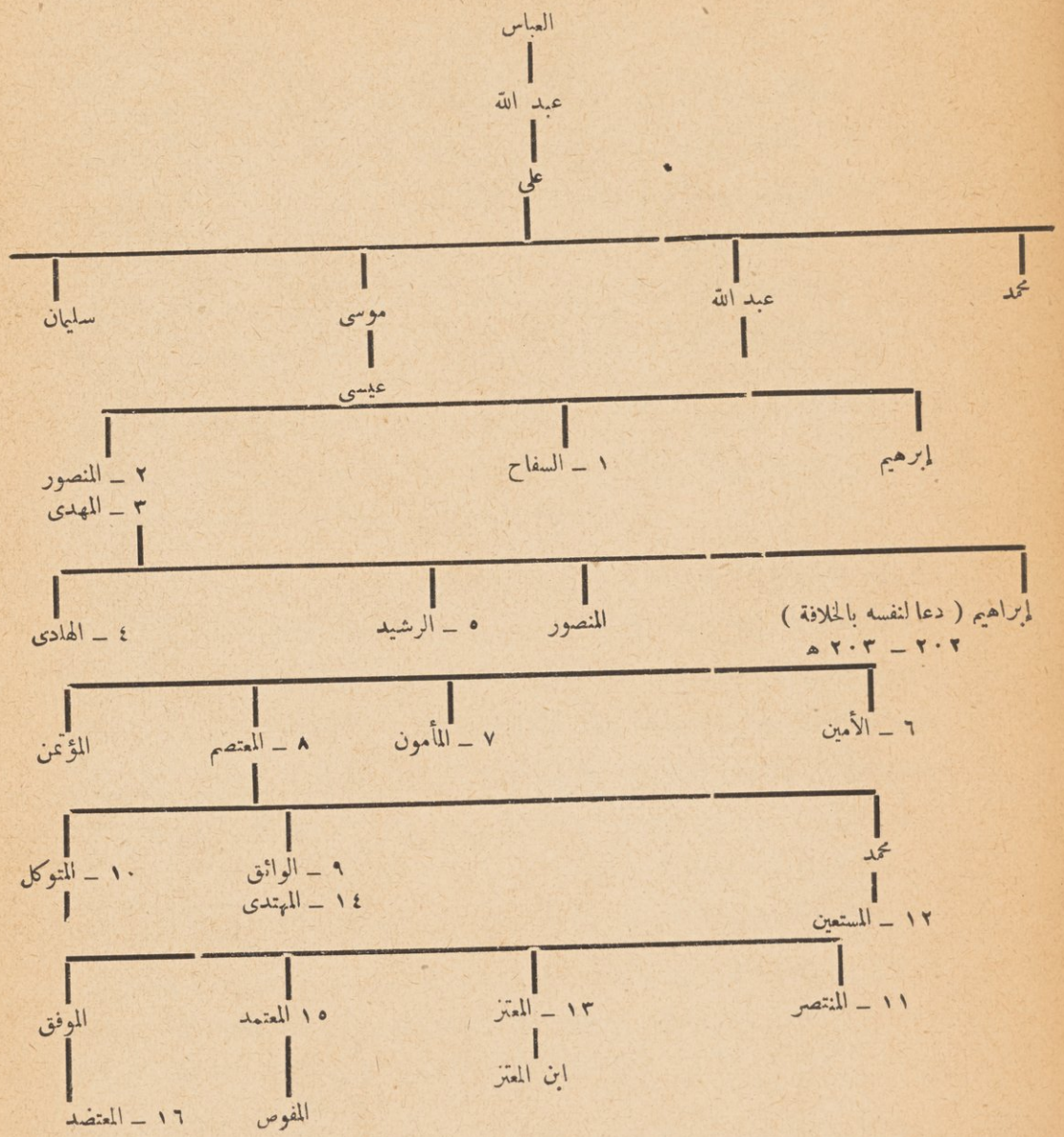

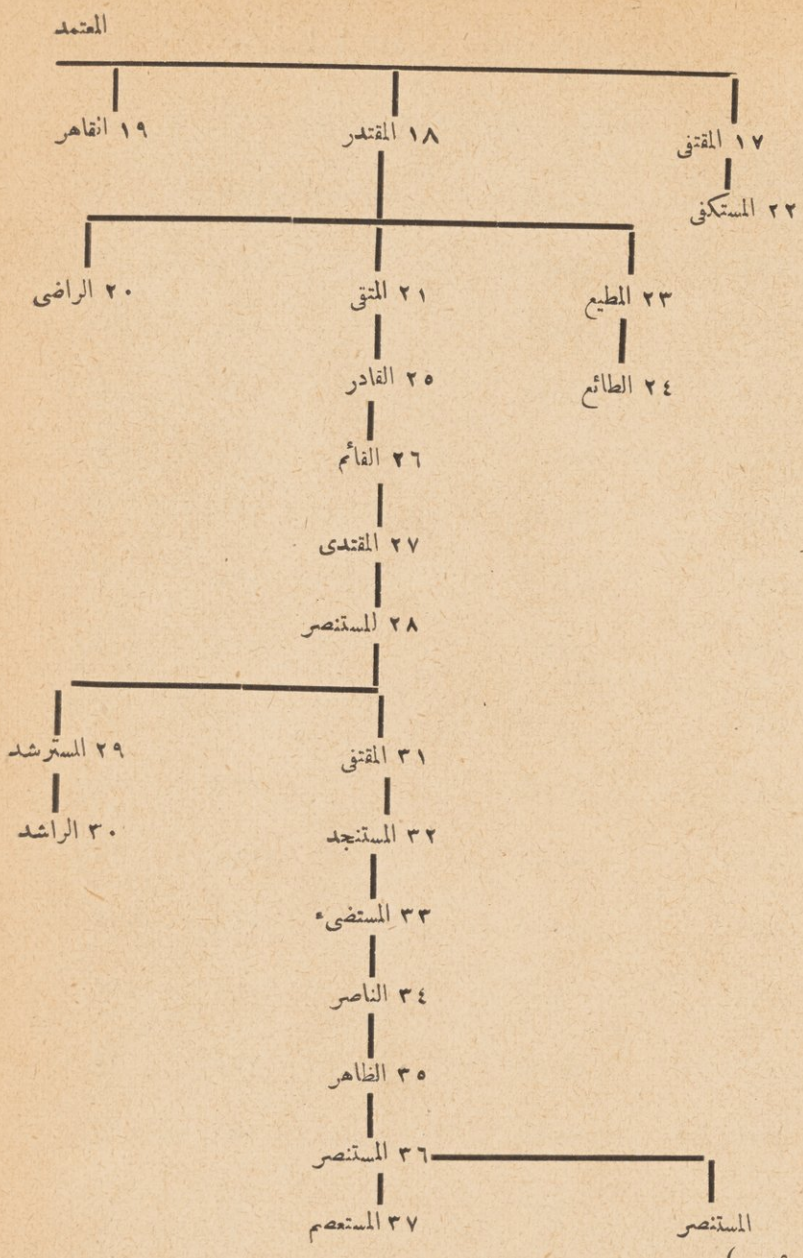
المعتمد
١٧ المقتفى
١٨ المقتدر
١٩ القاهر
٢٢ المستكفى
٢٠ الراضى
٢١ المتقى
٢٣ المطيع
٢٥ القادر
٢٤ الطائع
٢٦ القائم
٢٧ المقتدى
٢٨ المستنصر
٢٩ المسترشد
٣١ المقتفى
٣٠ الراشد
٣٢ المستنجد
٣٣ المستضىء
٣٤ الناصر
٣٥ الظاهر
٣٦ المستنصر
٣٧ المستعصم
المستنصر
(الخليفة العباسى بمصر)

تسلسل نسب الخلفاء العباسيين

١٣٢ — ٦٥٦ / ٧٥٠ — ١٢٥٨

١	١٣٢هـ	السفاح	٧٥٠م
٢	١٣٦	المنصور	٧٥٤
٣	١٥٨	المهدى	٧٧٥
٤	١٦٩	الهادى	٧٨٥
٥	١٧٠	الرشيد	٧٨٦
٦	١٩٣	الأمين	٨٠٩
٧	١٩٨	المأمون	٨١٣
٨	٢١٨	المعتصم	٨٣٣
٩	٢٢٧	الواثق	٨٤٢
١٠	٢٣٢	المتوكل	٨٤٧
١١	٢٤٧	المنتصر	٨٦١
١٢	٢٤٨	المستعين	٨٦٢
١٣	٢٥٢	المعتز	٨٦٦
١٤	٢٥٥	المهتدى	٨٦٩
١٥	٢٥٦	المعتمد	٨٧٠
١٦	٢٧٩	المعتضد	٨٩٢
١٧	٢٨٩	المكتفى	٩٠٢
١٨	٢٩٥	المقتدر	٩٠٨
١٩	٣٢٠	القاهر	٩٣٢

٢٠	٣٢٢ هـ	الراضى	٩٣٤ م
٢١	٣٢٩	المتقى	٩٤٠
٢٢	٣٣٣	المستكفى	٩٤٤
٢٣	٣٣٤	المطيع	٩٤٦
٢٤	٣٦٣	الطائع	٩٧٤
٢٥	٣٨١	القادر	٩٩١
٢٦	٤٢٢	القائم	١٠٣١
٢٧	٤٦٧	المقتدى	١٠٧٥
٢٨	٤٨٧	المستظهر	١٠٩٤
٢٩	٥١٢	المسترشد	١١١٨
٣٠	٥٢٩	الراشد	١١٣٥
٣١	٥٣٠	المقتفى	١١٣٦
٣٢	٥٥٥	المستنجد	١١٦٠
٣٣	٥٦٦	المستضىء	١١٧٠
٣٤	٥٧٥	الناصر	١١٨٠
٣٥	٦٢٢	الظاهر	١٢٢٥
٣٦	٦٢٣	المستنصر	١٢٢٦
٣٧	٦٤٠ — ٦٥٦	المستعصم	١٢٤٢ — ١٢٥٨

على أن الخلاف قد دب بين أفراد البيت السلجوقى . فقد طلب طغرلبك من أخيه إبراهيم ينال أن يسلم إليه مدينة همذان وما بيده من القلاع التى ببلاد الديلم . فامتنع إبراهيم عن إجابة أخيه إلى ما طلب . ويذكر ابن الأثير أن طغرلبك أمر بأخيه فضرب بين يديه وسملت إحدى عينيه وقطعت شفتاه ، ثم دارت الحرب بينهما وملك طغرلبك ما كان بيده من القلاع ، وتحصن إبراهيم بقلعة حصينة فصار إليه طغرلبك على رأس

جيش كثيف يتألف من مائة ألف مقاتل وأوقع الهزيمة بإبراهيم ، وأقيمت الخطبة له فى سائر ديار بكر ، كما أبرمت الهدنة بين طغرلبك وإمبراطور الروم وتبودلت بينهما الهدايا ، وعمر مسجد القسطنطينية وأقيمت فيه الصلاة وذكر اسم طغرلبك فى الخطبة « ودان الناس كلهم له وعظم شأنه وتمكن ملكه وثبت » .

هزم السلاجقة مودود بن مسعود الغزنوى فى خراسان ، ثم رد طغرلبك على كتاب الخليفة العباسى القائم ، وضمنه ما حل بالبيت السلجوقى من حيف وظلم على يد البيت الغزنوى ، وعبر عن شكره على ما أفاضه عليه الخليفة من خلع وما منحه إياه من ألقاب ، وأرسل طغرلبك إلى الخليفة « عشرة آلاف دينار عينا وأعلاقاً نفيسة من الجواهر والثياب والطيب وغير ذلك . وأرسل خمسة آلاف دينار للحاشية وألفى دينار لرئيس الرؤساء[١] » ، « وأرسل طغرلبك إلى الخليفة رسولاً يبالغ فى إظهار الطاعة والعبودية ، وإلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان . . . فأنكر الأتراك ذلك . . . فغولطوا فى الجواب . وكان رئيس الرؤساء يؤثر مجيئه ويختار انقراض الدولة الديلمية »[٢] .

ثم أخذ السلاجقة فى تقسيم البلاد الشاسعة التى دخلت تحت حوزتهم : فأصبحت بُسْت (بضم الباء وسكون السين) وهراة (بفتح الهاء) وسستان (بكسر السين الأولى وسكون السين الثانية) فى يد موسى بن قطلمش بن أرسلان بيغو (بكسر الباء وسكون الياء) ابن سلجوق ، وغدت مرو والعراق فى يد أبناء أخيه شغرى (بفتح الشين وسكون الغين) بك داود وطغرل على التوالى . أما أبناء شغرى فقد أصبحت فى يد قاورت (بضم الواو وسكون الراء) وكرمان وتون وطَبَسْ (بفتح الطاء والباء) وياقوتى أذربيجان وأبهر (بفتح الألف مع الهمزة والهاء وسكون الباء) وزنجان (بفتح الزاى وسكون النون) ، على حين انتخب الابن الثالث وهو ألب أرسلان ليكون مع عمه طغرل الذى اتخذ الرى حاضرة لدولته . وأعطيت همذان لإبراهيم ينال[٣] بن ميكائيل بن سلجوق ، على حين تسلم موسى بن قطلمش (بضم القاف وفتح الطاء وسكون اللام وكسر الميم) جرجان (بضم الجيم) ودامغان .

ولما تسلم الخليفة القائم كتاب طغرلبك أرسل إليه كتاباً رقيقاً . وبعد قليل أمر الخليفة بذكر اسم طغرلبك فى الخطبة ونقشه على السكة قبل اسم السلطان البويهى الملك

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢١٦ ، ٢٢٨ .

(٢) Browne, Lit. Hist. of Persia, Vol. II. p. 172.

(٣) وقد قتله طغرل بعد قليل (٤٤٩ / ١٠٥٧ ـ ١٠٥٨) لاتهامه بتدبير مؤامرة للغدر به .

الرحيم ، فخطب له يوم الجمعة لثمان بقين من شهر رمضان سنة ٤٤٧ هـ . ثم أرسل طغرلبك رسولاً من قبله يستأذن الخليفة فى دخول بغداد ، فأذن له ودخل بغداد لخمس بقين من هذا الشهر (ديسمبر ١٠٥٥ م) بصحبة الوزير رئيس الرؤساء فى موكب فخم يضم القضاة والأشراف والنقباء وأعيان الدولة وأمراء أجناد السلطان البويهى الملك الرحيم[١] .

وفى الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة قدم لطغرلبك فرس فركبها حتى وصل إلى دهليز « قصر السلام » . ثم نزل ومشى والأمراء بين يديه حتى وصل إلى إيوان الخليفة . فأسدلت الستارة . ولما ظهر وجه الخليفة القائم ، وعلى كتفه بردة الرسول وبيده القضيب النبوى ، قبل طغرلبك الأرض ، فأمره الخليفة بالصعود ومعه محمد بن المنصور الكندرى (بضم الكاف والدال وسكون النون) مفسراً ومترجماً . ثم وضع لطغرلبك كرسى جلس عليه ، وفُسر له تفويض الخليفة إليه . ثم تُوِّج وطُوِّق وسُوِّر وأُفيضت عليه سبع خلع سود من طراز واحد تمثل ملكة الأقاليم السبعة ، وعُمم بعمامة مذهبة ، وجمع بين تاجى العرب والعجم ، وقُلّد سيفاً محلّى بالذهب ، ثم عاد وجلس على الكرسى وسأل مصافحة الخليفة ؛ فمدّ إليه يده مرتين فقبّلها ووضعها على عينه . ثم قلده الخليفة سيفاً آخر كان بين يديه ، فتم له بذلك تقليد السيفين ، بمعنى أنه تقلد ولاية الدولتين ، فخاطبه الخليفة « بملك المشرق والمغرب » . ثم أُحضر عهده وقال الخليفة : هذا عهدنا يقرؤه عليك محمد بن منصور بن محمد[٢] صاحبنا ووديعتنا عندك . فاحفظه واحرسه فإنه الثقة المأمون ، وانهض فى دعة الله محفوظاً وبعين الكلأة[٣] ملحوظاً[٤] ، وذلك فى الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة سنة ٤٥١ هـ .

ثورة البساسيرى

وبعد دخول طغرلبك بغداد بقليل واجه كثيراً من الاضطرابات التى أثارها الجنود الأتراك فى دار الخلافة ، والقلاقل التى سادت الموصل وديار بكر وسنجار (بكسر السين) وغيرها ، ولم يكن بد من أن يقضى طغرلبك عليها بنفسه . وبعد قليل عاد طغرلبك إلى بغداد

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٢٨

(٢) لقب عميد الملك وجمع بين السيف والقلم ثم لقب سيد الوزراء . البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٦ .

(٣) يقال كلأه الله بعين العناية أى حرسه .

(٤) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٣ — ١٤ .

لمواجهة الثورة التى قام بها الأتراك بزعامة أبى الحارث البساسيرى الذى أقام الدعوة للخليفة الفاطمى المستنصر على منابر بغداد وغيرها نحواً من سنة .

وقد تبدلت سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبى كاليجار (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) الذى اتخذ من تقربه إلى الفاطميين وسيلة لإرهاب العباسيين ، كما حال دون تقرب العباسيين من السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بنى بويه . حتى إن أبا كاليجار تقرب من المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الفاطميين فى فارس ، الذى تقلد فيما بعد منصب داعى الدعاة فى مصر ، واتهم باعتناق عقائد الإسماعيلية مذهب الفاطميين . وقد دأب الخليفة المستنصر الفاطمى على مناوأة الخلفاء العباسيين . لذلك نراه يؤيد أبا الحارث البساسيرى فى ثورته على الخليفة العباسى القائم ، ويمده بالمال والرجال ، ويبعث داعيته الجرىء هبة الله الشيرازى لإثارة حماسة جند البساسيرى ، وحثهم على إذكاء الثورة فى وجه الخليفة العباسى ، ولم يدخر الخليفة الفاطمى وسعاً فى إمداد البساسيرى بالأموال الضخمة والجند من بلاد الشام(١) .

ولم يكتف الخليفة الفاطمى بذلك ، بل عمل على توحيد كلمة الأتراك بزعامة البساسيرى والعرب بزعامة دبيس بن على بن مَزْيد أمير عرب الفرات ، ولقبه بألقاب منها الأمير ، وسلطان ملوك العرب ، وسيف الخلافة ، وصفى أمير المؤمنين ، ومنحه ولاية مايفتح من البلاد شرقى نهر الفرات(٢) . وكان من أثر تدخل الخليفة الفاطمى أن انتصر البساسيرى وأنصاره على جيوش الخليفة العباسى فى موقعة سنجار سنة ٤٤٩ هـ (٣) .

ولم يقف نشاط الفاطميين فى مناوأة العباسيين عند هذا الحد ، فقد قام المؤيد فى الدين بدور هام فى نشر الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى بلاد العراق ، واعتمد فى ذلك على تأييد السلطان أبى كاليجار البويهى الذى عرف بميله إلى الفاطميين . أما الخليفة العباسى القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ / ١٠٣١ — ١٠٧٥) فقد وجد فى المؤيد فى الدين خطراً يهدد دولته ومذهبه السنى فى فارس ، فعمل على القضاء على جهوده ، وبعث إلى أبى كاليجار يطلب إليه تسليم داعى الفاطميين ، ويهدد بدعوة السلاجقة إلى دخول بغداد.

---

(١) السيرة المؤيدية للمؤيد فى الدين ، مخطوط بمكتبة القاهرة ، ورقة ١٨٤

(٢) انظر عهد المستنصر إلى ابن مزيد فى كتاب السيرة المؤيدية للمؤيد فى الدين ، ص ١٩١ — ١٩٣

(٣) ابن منجب الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٤٤.

وقد بين المؤيد فى الدين فى سيرته ما بذله من جهود فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى فى شيراز ، وإحلال اسمه محل اسم الخليفة العباسى ، وكيف أثار هذا العمل غضب الخليفة العباسى الذى طلب من أبى كاليجار تسليم هذا الداعى إليه ، فلم يحفل السلطان البويهي بذلك . بل إنه ذكر اسم الخليفة الفاطمى فى الخطبة بدل اسم الخليفة العباسى (١) .

ومن هذا ندرك مدى علاقة المودة التى قامت بين أبى كاليجار البويهى وبين الفاطميين وكيف اتخذ من هذه العلاقة سلاحاً بشهره فى وجه العباسيين ، حتى يحول بينهم وبين التقرب إلى السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بنى بويه فى ذلك الحين (٢) .

وكان من أثر ذلك أن أصبح أبو كاليجار يسمع محاضرات المؤيد فى الدين ويدرس كتب الاسماعيلية (٣) .

وقد نقل هارولد باون (٤) عن كتاب Fârs-nâmeh أن الدعوة لطائفة الإسماعيلية أو السَّبعية ، الذين كانوا يعرفون بالباطنية فى ذلك الوقت ، قد وجدت طريقها إلى قلوب الديالمة فى فارس على يد ذلك الداعى القدير ، الذى نجح فى تحويل أبى كاليجار إلى عقائد هذا المذهب .

وفى الحق أن الديلم قد أصبحوا — كما يقول المؤيد فى الدين (٥) — « إلى صاحب مصر داعين وباسمه مبايعين » ، وأصبحوا « يتخذون المؤيد أباً لهم وأخاً وصاحباً ، واتخذه الكل سراً ومَفْزَعاً فى كل شىء (٦) ، وأخذ أكثر ندماء أبى كاليجار البويهى يدينون بعقائد المذهب الإسماعيلى (٧) .

وكان من أثر ذلك أن ثار إبراهيم ينال على أخيه طغرلبك ، وانتهز البساسيرى فرصة نشوب الحرب بينهما ، واستولى على بغداد فى شهر ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ ، وقتل الوزير

---

(١) السيرة المؤيدية مخطوط ص ٩٥ — ٩٦

(٢) المصدر نفسه ، مخطوط ص ٩٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١٥ .

(٤) Harold Browen, The Last Buwayhids, J. R.A.S. (1929),p.234.

(٥) السيرة المؤيدية ص ٤ .

(٦) السيرة المؤيدية ص ١٣

(٧) المصدر نفسه ص ١٩ .

ابن مسلمة ، لكن الخليفة « استذم بذمام[١] قريش فحماه من القتل » . ودخل البساسيرى بغداد ، كما يقول أبو المحاسن بالرايات المستنصرية ، فمال إليه أهل الكرخ وأغلبهم من الشيعة ، وزيد فى الأذان حيّ على خير العمل ، وأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمى على منابر بغداد ، ثم قبض البساسيرى على الخليفة العباسى وحبسه[٢] .

كان أبو الحارث البساسيرى من قواد بنى بويه الأتراك ، وقد زاد نفوذه وتفاقم خطره فى عهد الملك الرحيم ، حتى أصبح الخليفة العباسى والسلطان البويهى معه مسلوبى السلطة ضعيفى الجانب . وسرعان ما استولى البساسيرى على البلاد ، وانتشر ذكره وطار صيته ، وتهيبته أمراء العرب والعجم ، ودعى له على كثير من منابر العراق والأهواز ونواحيها ، وجبى الأموال ، وغدا الخليفة القائم لا يقطع أمراً قبل الرجوع إلى رأيه[٣] .

وقد عزا ابن الأثير[٤] تبدل العلاقة بين الخليفة القائم والبساسيرى إلى تقريب الخليفة أبا الغنائم وأبا سعد صاحبى قريش بن بدران العقيلى اللذين وصلا سراً إلى بغداد ونسب ذلك إلى رئيس الرؤساء (وزير القائم) ، ورماه بأنه خرب البلاد وأطمع الغز (وهم فرع من السلاجقة) .

وكان ابن مسلمة الذى يعرف برئيس الرؤساء قد وزر للخليفة القائم ، وكان يكره بنى بويه لتشيعهم . ويسعى جهده فى إحلال السلاجقة السنيين محلهم فى حكم بغداد ، وبذلك يستطيع العباسيون القضاء على الفاطميين . يؤيد ذلك هذه الرسالة الممتعة التى بعث بعث بها المؤيد فى الدين الشيرازى ، وكان سفيراً للفاطميين إذ ذاك فى العراق ، إلى وزير طغرلبك ، ليوقع الخلاف بين السلاجقة والعباسيين من جهـــة ، ويقرب بين الفاطميين والسلاجقة من جهة أخرى . وهاك بعض ماجاء فى هذه الرسالة : « يعلم سيدى الأجل عميـد الملك (أبو نصر محمد بن منصور الكندرى) أننى كنت خاطبت حضرته وهو يومئذ مقيم بالرى ، خاطباً لمودته وطالباً لاتشاج الحال[٥] بينى وبينه ، لما كان يبلغنى من محاسن أوصافه وجميل خلاله وخصاله ، ولأن يكون التعارف بيننا

---

(١) الذمام : الحرمة يريد أنه تمنع منه بذمة قريش فحماه من القتل . فى الأصل واستزم بزمام قريش وهو تحريف . والمعنى هنا استعاذ بشرف قريش من شر القتل .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦ ، ١٢ .

(٣) الخطيب البغدادى : كتاب تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ .

(٤) ج ٩ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(٥) الاتشاج : الاشتباك أى الائتلاف أو الصداقة .

سلماً إلى التعارف بين سلاطيننا ، خلد الله ملكهم ، وتأكد سبب المودة بينهم ، انتهاء منا إلى ما قال الله سبحانه وتعالى (لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمرَ بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) (سورة النساء ٤ : ١١٤) واتفق من الأمر سبق ابن مسلمة إلى باطله ، حتى عمل سحره ونفذ كيده ، وحصل الركاب العالى (السلطان طغرلبك) ببغداد . وانبثت الكتب يميناً وشمالا بكون قصده لقضاء حق الخليفة (القائم) والسلام عليه والتبلغ بعده إلى مصر[١] » .

أما الخطيب البغدادى فيرى أن الخليفة القائم قد صح عنده سوء عقيدة البساسيرى . وشهد عنده جماعة من الأتراك أنه عرَّفهم وهو إذ ذاك بواسط ، عزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة ، فكاتب الخليفة طغرلبك يستنهضه على المسير إلى العراق .

وقد ذكر الذهبى[٢] أن الخليفة القائم نُمى إليه أن البساسيرى كان يكاتب الفاطميين فى مصر ، وطلب إلى الملك الرحيم أن يبعد البساسيرى . وكان ذلك من أهم العوامل التى أدت إلى استيلاء طغرلبك على العراق .

وفى الحق أن العداء الذى قام بين الخليفة العباسى والبساسيرى كان عداء بين العباسيين والبويهيين ، وبعبارة أخرى بين السنيين والشيعيين . وقد كشف الخليفة القائم عن حقيقة تقرب بنى بويه من الفاطميين على يد المؤيد فى الدين الشيرازى ، وأدرك الخطر الذى يهدد الخلافة العباسية السنية من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية . وليس من شك فى أنه كان بين جند بنى بويه من الديلم والأتراك عدد غير قليل ، على رأسهم البساسيرى ، يرى وجوب تحويل الخلافة إلى الفاطميين . فعمل الخليفة العباسى القائم على الحد من نفوذ البساسيرى وأنصاره ، وعزم على إبعادهم عن بغداد ، وتمهيد السبيل لدخول السلاجقة إليها . ولم يكن استنجاد الخليفة العباسى بالسلاجقة إليها أمراً مستبعداً ؛ فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة ، فاستعانوا بالفرس على العرب فى تأسيس دولتهم ثم استعانوا بالأتراك على الفرس منذ عهد المعتصم ، وراسلوا بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرلبك السلجوقى ليخلصهم من تحكم البساسيرى وأنصاره حينما أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين فى مصر ، بل إنه أوفد الرسل إلى خوارزم شاه ليقيهم شر السلاجقة . وكانت العوامل التى دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستنجاد ببنى بويه والسلاجقة وخوارزم شاه هى نفس العوامل التى دفعتهم إلى الاستنجاد بالتتار .

---

(١) الخطيب البغدادى . تاريخ بغداد ج ٩ ص ٤٠٠ .

(٢) تاريخ الإسلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، مخطوط مصور رقم ٣٩٦ تاريخ ج ٣ ورقة ٢٢ .

ومهما يكن من شيء فقد أرسل الخليفة العباسى إلى طغرلبك رسولا يدعوه إلى دخول بغداد[١] . ويقول ابن الأثير[٢] فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ إن طغرلبك « أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة ، والمسير إلى الشام ومصر ، وإزالة المستنصر العلوى صاحبها » .

وقد أعد طغرلبك لذلك الأمر الخطير عدته . ولما وصل إلى حلوان هاجت بغداد وماجت ، وانتشر عِقد نظامها ، وأجفل الناس إلى غربيها ، وعسكر الأتراك بظاهرها ، وسمع الملك الرحيم بقرب طغرلبك من بغداد ، فأصعد من واسط إليها وفارقه البساسيرى فى الطريق لمراسلة وردت من القائم فى معناه إلى الملك الرحيم ، أن البساسيرى خلع الطاعة وكاتب الأعداء ، يعنى المصريين ، وأن الخليفة له على الملك (الرحيم) عهود ، وله (أى الملك الرحيم) على الخليفة مثلها . فإن آثره (يعنى طغرلبك السلجوقى) فقد قطع مابينهما ، وإن أبعده وأصعد إلى بغداد ، تولى الديوان تدبير أمره . فقال الملك الرحيم ومن معه : نحن لأوامر الديوان متبعون وعنه (يعنى البساسيرى) منفصلون »[٣] .

على أن الأتراك الذين رضوا بإبعاد البساسيرى أدركوا أن الخليفة إنما قصد إقصاءه ليفسح الطريق لدخول طغرلبك . ثم وصل الملك الرحيم إلى بغداد فى منتصف شهر رمضان ، وأظهر إخلاصه للخليفة ، وقبل وساطته بينه وبين طغرلبك . فكان الملك الرحيم فى ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأن الخليفة قد عقد النية ووطد العزم على الاستعانه بالسلاجقة وإزالة سلطان بنى بويه . وقد أشار الخليفة على الملك الرحيم وأنصاره بأن يدينوا بالطاعة لطغرلبك الذى دخل بغداد دون كبير عناء[٤] .

على أن زعزعة الحالة المالية فى مصر ، وعودة المؤيد فى الدين إليها ، وقيام المنافسة بين العنصرين العربى والتركى فى جيش البساسيرى ، وعودة طغرلبك إلى بغداد بعد أن قضى على فتنة أخيه إبراهيم ينال — كل ذلك قد ساعد على القضاء على ثورة البساسيرى وقتله بعد أن أقام الخطبة للفاطميين على منابر بغداد نحواً من سنة .

---

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨ — ٩ .

(٢) الكامل : ج ٩ ص ٢٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ٩ ص ٢٢٨ . انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤١١ — ٤١٣ .

وسرعان ما ردّ طغرلبك الخليفة إلى قصره معززاً مكرماً (٤٥١ هـ) وحارب البساسيرى وانتصر عليه وقتله وحمل رأسه إلى بغداد[١]. ولما رجع الخليفة إلى قصره لم ينم بعدها إلا على فراش مصلاه ، ولزم الصيام والقيام ، ولم يضع رأسه بعدها على مخدة .

وقد ذكر المؤرخون أن البساسيرى لما سجن الخليفة العباسى أخذ الخليفة يكتب قصته وأنفذها إلى مكة فعلقت فى الكعبة ، وفيها يشكو إلى الله فعل البساسيرى ويطلب إليه أن يجازيه على بغيه وعدوانه . وإليك نص هذا الكتاب عن السيوطى[٢] : « اللهم إنك العالم بالسرائر المطلع على الضمائر . اللهم إنك غنىٌّ بعلمك واطلاعك على خلقك عن إعلامى . هذا عبد قد كفر نعمك وما شكرها وألغى العواقب وما ذكرها . أطغاه حلمك حتى تعدّى علينا بغيا وأساء إلينا عُتُوًّا وعدوا[٣] . اللهم قلّ الناصر واعتزّ الظالم . وأنت المطلع العالم المنصف الحاكم ، بك نعتزّ عليه وإليك نهرب من يديه . فقد تعزّز علينا بالمخلوقين ، ونحن نعتزّ بك . وقد حاكمناه إليك ، وتوكّلنا فى إنصافنا منه إليك ، ورفعنا ظلامتنا هذه إلى حرمك ووثقنا فى كشفها بكرمك ، فاحكم بيننا بالحق وأنت أحكم الحاكمين » .

كان أمراء بنى بويه يقيمون فى بغداد ويجمعون كل السلطة فى أيديهم . ثم جاء السلاجقة العسكريون يحكمون العراق ويستأثرون بالسلطة . وكان الخلفاء العباسيون يعيشون فى أيام السلاجقة من إقطاعات مقررة يديرها عمال على رأسهم الوزير وكاتب الإنشاء كما كانت الحال فى أيام بنى بويه[٤] . ولم يكن لهؤلاء الخلفاء شىء سوى ذكر اسمهم فى الخطبة ونقشه على السكة ، كما كانوا يقضون أوقاتهم فى بناء القصور وترميمها[٥] .

على أننا إذا دققنا النظر وتتبعنا الحوادث التاريخية فإننا نستطيع أن نهتدى إلى هذه النتيجة وهى أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت بصفة عامة أحسن بكثير من معاملة بنى بويه لهم . ولعل ذلك كان راجعاً إلى هذه الحقيقة وهى أن السلاجقة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٤٢ — ٢٤٤ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

(٣) يعنى اعتداء .

(٤) البندارى : زبدة الفكرة ص ١٩٤ .

(٥) Le Strange; Baghdad during the Abbasid Caliphate. p. 327.

كانوا يدينون بعقائد المذهب السنى مذهب العباسيين . فقد أصبح السلاجقة كغيرهم من الشعوب التركية يتمسكون بعقائد المذهب السنى بمجرد تحولهم إلى الإسلام . وقد عرفوا بشدة تحمسهم لهذا المذهب وتمسكوا كغيرهم من الأتراك بعقائد المذهب الحنفى .

وقد وصف ابن الأثير(١) الاجتماع الذى عقد بين السلطان طغرلبك عند ما عاد إلى بغداد سنة ٤٤٩ هـ على أثر إخضاعه الموصل وقضائه على مناوأة دُبَيْس (بضم الدال وفتح الباء وسكون الياء) بن مزيد وقريش بن بدران وبين الخليفة القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ/١٠٣١ - ١٠٧٥) فقال :

« وجلس الخليفة يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة جلوساً عاماً ، وحضر وجوه عسكر السلطان وأعيان بغداد ، وحضر السلطان فى المساء وأصحابه حوله فى السميريات(٢). فلما خرج من السميرية أركب فرساً من مراكب الخليفة ، فحضر عند الخليفة ، والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع ، وعليه بردة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبيده القضيب الخيزران ؛ فقبل السلطان الأرض وقبل يده وأجلس على كرسى ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك ، وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده وردّ عليك مراعاة عباده . فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك فى ذلك واجتهد فى نشر العدل وكفّ الظلم وإصلاح الرعية . وأمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه ؛ فقام إلى موضع لبسها فيه ، وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه ، وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب ، وأعطى العهد وخرج . وأرسل إلى الخليفة خدمة (هدايا) كثيرة ، منها خمسون ألف دينار وخمسون مملوكاً أتراكاً من أجود ما يكون ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من السلاح وغيرها» . كما تظهر هذه العلاقات الحسنة فى ارتباط البيتين السلجوقى والعباسى برباط المصاهرة فى كثير من المناسبات .

---

(١) الكامل ج ٩ ص ٢٣٧ .

(٢) بضم السين مع التشديد وفتح الميم وسكون الياء ضرب من السفن .

تقدمت السن بالسلطان طغرلبك إذ بلغ السبعين ، وكان عقيما لم ينجب ولداً . ولكن أطماعه لم تقف عند حد ، فملك هذه الدولة الشاسعة الأرجاء ، بل إنه بعد وفاة زوجته فى سنة ٤٥٤ (١٠٦١ - ١٠٦٢ م) خطب إبنة الخليفة القائم (وقيل أخته) . ثم غادر طغرلبك بغداد إلى بلاد الجبل ، فوصل إلى الرى ومعه ابنة أخيه أرسلان خاتون زوجة الخليفة . فمرض فى الطريق ومات فى شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) بعد أن حكم الدولة العباسية سبع سنين وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوما . وكان وزيره الكندرى على بعد سبعين فرسخاً من الرى ، فطوى هذه المسافة فى يومين ، ولم يكن طغرلبك قد دفن بعد ، فتولى الوزير الكندرى دفنه ، ووزع جميع ما كان يملكه على الجند ، وأجلس سليمان ابن داود أخا طغرلبك على العرش ، وكان عمه ألب أرسلان قد أوصى بأن يخلفه من بعده .

أخلاق طغرلبك وصفاته — وفاته

كان طغرلبك ، على ماوصفه ابن الأثير ، عاقلا حليما من أشد الناس احتمالا وأكثرهم كتماناً لسره ، وكان يحافظ على الصلاة ويصوم يومى الاثنين والخميس ، وكان يلبس الثياب البيض ، وكان كريماً ، فقد روى المؤرخون أن أخاه إبراهيم ينال أسر بعض ملوك الروم فافتدى نفسه بأربعمائة ألف دينار ، فأبى إبراهيم وحمله إلى السلطان طغرلبك . فأرسل إمبراطور الروم إلى الأمير نصر الدولة بن مروان يطلب وساطته عند طغرلبك فى إطلاق سراحه . فأرسل السلطان ذلك الرومى بصحبة أحد رجاله دون أن يأخذ منه فداء . وقد قدر الإمبراطور هذا الصنيع وعبر عن إعجابه به وتقديره إياه ، فرد مع رسوله إلى طغرلبك « مالم يحمل فى الزمان المتقدم ، وهو ألف ثوب ديباج ، وخمسمائة ثوب أصناف[١] ، وخمسمائة رأس من الكراع ، إلى غير ذلك ، وأنفذ مائتى ألف دينار ، ومائة لبنة فضة ، وثلثمائة شهرى [٢] (بكسر الشين) . وثلثمائة حمار مصرية ، وألف عنز بيض الشعور سود العيون والقرون . وأنفذ إلى ابن مروان عشرة أمناء مسكا [٣] ، وعمر ملك الروم الجامع الذى بناه مسلمة بن عبد الملك بالقسطنطينية وعمر منارته وعلق فيه القناديل ، فى محرابه قوسا ونشابة ، وأشاع المهادنة » [٤]

---

(١) يعنى من التحف المتنوعة

(٢) جاء فى القاموس فى مادة شهر : الشهرية (بالكسر) ضرب من البراذين وهو يناسب المعنى هنا

(٣) لعله يقصد الأوعية المحكمة التى يؤمن على ما فيها

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠

وقد ذكر البنداري[١] أن أبا الحسن على الماوردى أقضى القضاة وصاحب كتاب الأحكام السلطانية الذى يعد أول كتاب وضع فى النظم الإسلامية بوجه عام والمتوفى سنة ٤٥٠ هـ لما حمل رسالة الخليفة القائم إلى طغرلبك سنة ٤٣٣ هـ ، كتب إلى الخليفة كتابا ضمنه الطعن فى طغرلبك والقدح فيه وذكر مساوئه . ولكن هذا الكتاب وقع من غلام الماوردى وحمل إلى طغرلبك ووقف على ما تضمنه ، ولكنه ختمه وكتم ما فيه ، واستمر فى إكرام الماوردى واحترامه . وكان طغرلبك يدارى هفوات الناس بحلمه ، كما كان كثير الصدقات حريصاً على بناء المساجد كثير التعبد والتهجد ، وكان يقول : إنى أستحى من الله أن أبنى داراً ولا أبنى إلى جانبها مسجدا .

وكذلك روى البنداري[٢] عن عميد الملك الوزير الكندرى أن طغرلبك لما مرض مرض الموت قال : إنما مثلى فى مرضى مثل شاة تسد قوائمها لجز الصوف ، فتظن أنها تذبح فتضطرب . حتى إذا أطلقت تفرح ، ثم تشد قوائمها للذبح ، فتظن أنها لجز الصوف وتسكن فتذبح . وهذا المرض شد القوائم للذبح . وتوفى وله من العمر سبعون سنة على ما تقدم .

(٣) ألب أرسلان ٤٥٥ — ٤٦٥ / ١٦٠٣ — ١٠٧٢ .

خلف طغرلبك ألب أرسلان ابن أخيه داود صاحب خراسان ومعه وزيره نظام الملك برغم نص طغرلبك على تولية سليمان بن داود لأن أمه كانت عنده ، فحقق رغبتها فى ابنها . وقد جلس على عرش السلطنة بمساعدة الوزير الكُنْدرى (بضم الكاف والدال وسكون النون) المعروف بعميد الملك ، كما أن أخاه ألب أرسلان وعمه قطلمش ثارا عليه وحلت به الهزيمة ، وجلس ألب أرسلان على عرش السلطنة[٣] بمساعدة وزيره نظام الملك . وقد أدت هذه المحاولة إلى قتل الوزير الكندرى الذى قبض عليه وأرسل إلى مرو حيث اعتقل نحواً من سنة ، ثم قتل بيد غلامين أرسلهما إليه السلطان الجديد بعد أن وزر للسلطان طغرلبك ثمانى سنين وشهوراً ، وكان عمره إذ ذاك نيفاً وأربعين سنة[٤] .

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٤) البنداري ص ٢٧ — ٢٨ .

وكان الوزير الكندرى فصيحاً بالعربية شاعراً ، ولما شعر بدنو أجله قال لمن شهر السيف عليه : فل لنظام الملك : « بئسما عوّدتّ الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان ، ومن حفر قَليبًا (بئراً) وقع فيه » ودعا الله أن يُحل لعنته به وبالسلطان وأن يلقى كل منهما نفس المصير[١] .

وقد استجاب الله لدعاء الوزير الكُنْدرى ، فقد حلت لعنته بالوزير نظام الملك وقتل على أيدى الباطنية ، وقتل السلطان ألب أرسلان ببلاد ما وراء النهر كما سيأتى .

وهكذا ظهر هذا الوزير الذى لا يضارعه وزير شرقى آخر ، كما يقول « براون »[٢]، بهذا العمل الذى ينم عن القسوة وسفك الدماء ، وحلت به لعنة سلفه ، وختمت حياته بنفس الطريقة التى ختمت بها حياة سلفه . وفى العصر السلجوقى الذى يشتمل على خمس وخمسين سنة (٤٣٠ — ٤٨٥ هـ) أُسندت مقاليد الدولة إلى أحد مشهورى الوزراء الذين أنجبتهم بلاد الفرس ، وهو نظام الملك الذى اشتهر بحكمته وحزمه .

اختلف المؤرخون فى السنة التى ولد فيها ألب أرسلان ؛ فذكر بعضهم أنه ولد سنة ٤٢٠ هـ[٣] (وقيل سنة ٤٢٤ هـ أو سنة ٤٣١ هـ) . وكان عهده رغم قصره (٤٥٥ — ٤٦٣ هـ) حافلا بجلائل الأعمال . ففى السنة الأولى من حكمه أخضع خَتْلان بفتح الخاء وسكون التاء) وهَراة (بفتح الهاء) وصِغانيان (بكسر الصاد والنون) فى الشمال الشرقى ، وكان أصحابها قد شقوا عليه عصا الطاعة ، وردّ البيزنطيين فى آسيا الصغرى على أعقابهم بعد أن فتح كثيراً من قلاعهم وغنم غنائم لا تحصى وأسلم كثير من أهالى هذه البلاد . وقد اشترك ملكشاه بن ألب أرسلان والوزير نظام الملك فى هذه الحروب سنة ٤٥٦ هـ[٤] . وبعد قليل أخضع ألب أرسلان جَنْد حيث دفن جده الأكبر سلجوق مما جعل لها أهمية خاصة فى نظره ، وقمع الثورة التى قامت فى فارس وكرمان . وفى سنة ٤٥٧ هـ أخذ فى بناء المدرسة النظامية ببغداد ، وفى السنة التالية ولى عهده ابنه ملكشاه ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٢ .

(٢) Lit. Hist. of Persia, vol, II p. 175.

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٣ — ١٥ . وقد ذكر ابن خلكان (ج ٤ ص ١٦٢) أن ألب أرسلان ولد سنة ٤٢٤ هـ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٧ .

فبايعه أمراء دولته ، وذكر اسمه فى الخطبة فى جميع البلاد التى دانت لسلطانه ، وأقطع بلاده أفراد البيت السلجوقى[١] .

كذلك أقطع ألب أرسلان من بلاد خصومه الفاطميين حلب ومكة والمدينة ، وأقيمت الخطبة بحلب للخليفة العباسى القائم وللسلطان ألب أرسلان[٢] ، ولعل من أهم الأحداث التى وقعت فى عهد السلطان ألب أرسلان ذلك الانتصار الحاسم الذى أحرزه على جيش البيزنطيين فى ملازجرد[٣] سنة ٤٦٣ هـ ، وكان هذا الجيش يتكون من مائتى ألف مقاتل[٤] فى أقل تقدير (من الروم والروس والغز من جميع العشائر والأكراج والخزر والفرنجة والأرمن) ، على حين لم يزد جيش السلاجقة على ١٥,٠٠٠ ، وما تبع هذا الانتصار من أسر إمبراطور الروم .

وقد ذكر جمهرة المؤرخين (كابن الأثير والبندارى وصاحب كتاب راحة الصدور) ما كان من أسر امبراطور الروم ديوجينيس رومانوس (Diogenes Romanus) ، ذلك أن أحد غلمان سعد الدين جوهر — آئين (ويسميه ابن الأثير كوهرائين) هو الذى أسر الإمبراطور ، فأراد قتله ، فقال له خادم مع الملك : لا تقتله فإنه الملك . وكان هذا الغلام قد عرضه جواهر — آئين أحد أمراء ألب أرسلان على الوزير نظام الملك فرده استحقاراً له . فأثنى عليه جواهر — آئين ، فقال نظام الملك مازحاً : عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً . ومن أعجب المصادفات أن هذا الغلام هو الذى أسر الإمبراطور . فلما أسره

---

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٠ ص ١٩) أنه أقطع مازندران الأمير إيتاخ بيغو وبلخ أخاه سليمان بن داود ، وخوارزم أخاه أرسلان أرغون ، ومرو ابنه الآخر أرسلان شاه ، وصغانيان وطخارستان أخاه إلياس ، وولاية بغشور ونواحيها مسعود بن أرتاش (أحد أقارب السلطان) ، وولاية اسفزار مودود بن أرتاش .

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٢ ، ٢٣ — ٢٤ .

(٣) بكسر الجيم (ويسميها ابن الأثير ملاذكرد على مقربة من أخلاط غربى آسيا الصغرى .

(٤) نقل براون (ج ٢ ص ١٧٧ هامش (١) عن مخطوط راحة الصدور التى صنفها الراوندى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) أن عدد جند الروم بلغ ٦٠٠,٠٠٠ . وذكر البندارى ٣٠٠,٠٠٠ وابن الأثير : ٢٠٠,٠٠٠ . ويتناول كتاب راحة الصدور تاريخ السلاجقة . وكانت نسخته الخطية الفريدة فى حوزة (شيفر) (وهى الآن بالمكتبة الأهلية بباريس فى الملحق الفارسى) . وقد نشر براون (Vol. II, p. 297) وصفا لهذه المخطوطة فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية بانجلترا (١٩٠٢) ص ٥٦٧ — ٦١٠ ، ٨٤٩ — ٨٨٧) . وقد طبع محمد إقبال هذه المخطوطة سنة ١٩٢١ فى ليدن ضمن سلسلة جب التذكارية . انظر براون : تاريخ الأدب فى إيران ترجمه الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ١٣٥ هامش ٢ ، ص ٢٠٩ هامش رقم ٢ .

أحضره عند جواهر ـ آثين ، فقصد السلطان ألب أرسلان وأخبره بنبأ أسر الإمبراطور ، فأمر بإحضاره . فلما أحضر ضربه السلطان ثلاثة مقارع بيده وقال له : ألم أرسل إليك فى الهدنة فأبيت ؟ فقال : دعنى من التوبيخ وافعل ما تريد . فقال السلطان : ما عزمتَ أن تفعل بى إن أسرتنى ؟ قال : أفْعلُ القبيح ، قال السلطان : ما تظن أننى أفعل بك ؟ قال : إما أن تقتلنى وإما أن تُشَهِّرنى فى بلاد الإسلام ، والأخرى بعيدة وهى العفو وقبول الأموال واصطناعى نائباً عنك . قال : ما عزمتُ على غير هذا . ففداه السلطان بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وأن يرسل إليه عساكر الروم أى وقت طلبها ، وأن يطلق كل أسير فى بلاد الروم ، وقد استقر الأمر على ذلك وأنزله فى خيمة وأرسل إليه خمسة عشر ألف دينار[١] يتجهز بها ، وأطلق سراح جماعة من أمرائه وقواده ، وخلع عليه وسيّر معه عسكراً أوصلوه إلى مأمنه وشيعه السلطان فرسخا[٢] .

وفى هذه السنة فتح إتسز أحد أمراء ملكشاه بن ألب أرسلان مدينة الرملة وحاصر بيت المقدس ، وكانت بأيدى الفاطميين ، ففتحها واستولى على ماجاورها من البلاد عدا عسقلان[٣] .

وفاة ألب أرسلان ـــ صفاته

وفى أوائل سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) سار ألب أرسلان إلى بلاد ما وراء النهر على رأس مائتى ألف مقاتل استدعى نقلهم أن يعقد على نهر جيحون جسراً وعبر عليه فى أكثر من عشرين يوما . وقد أتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يسمى يوسف النِّرْزمى (بفتح النون . مع التشديد وسكون الراء وفتح الزاى)[٤] . وقد وقفت هذه القلعة فى وجه ألب أرسلان

---

(١) ذكر ابن الأثير عشرة آلاف ونقل براون عن كتابه راحة الصدور أنه خمسة عشر ألف .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص ٢٤ ـ ٢٥ . البندارى : تاريخ آل سلجوق ص٣٧ ـ ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه . ج ١٠ ص٢٥

(٤) أو البرزمى أو الخوارزمى (بضم الخاء وفتح الواو وسكون الزاى). وقد ذكر صاحب كتاب راحة الصدور الاسم الأول وذكر الاسم الثانى صاحب كتاب سلاجقة كرمان (ص ١٢) وذكر الاسم الثالث ابن الأثير والبندارى (ص ٣٧) Browne, vol. II, p. 179

وحمل هذا المستحفظ غلامان حتى قرب من السلطان فأمر بأن تضرب أربعة أوتاد لتشد أطرافه الأربعة إليها ، ويعذبه ثم يقتله ، فقال له المستحفظ : أمثلى يقتل هذه القتلة ؟ فغضب ألب أرسلان وأخذ قوسه وجعل فيها سهماً وأمر بحل قيده ، ورماه بسهم فأخطأه. وكان مدلا برميه ، فنزل عن سريره فعثر ووقع على وجهه ، فبادره يوسف بسكين كانت معه ، وجرح سعد الدولة آتين ، وانتقل السلطان إلى خيمة أخرى ، وضرب خادم أرمنى يوسف بمرزبة على رأسه فقتله . وحضر الوزير نظام الملك وأوصاه ألب أرسلان بأن يكون ابنه ملكشاه ولى عهده (١) . ومما يؤثر عن ألب أرسلان أنه قال حين أيقن بدنو أجله : مامن وجه قصدته وعدو أردته إلا استعنتُ بالله عليه . ولما كان أمس ، صعدت على تل عال فارتجت الأرض تحتى من عظم الجيش وكثرة العسكر ، فقلت فى نفسى أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد علىّ ، فعجزنى (فأعجزنى على الأصح) الله تعالى بأضعف خلقه . وإنى أستغفر الله تعالى وأستقبله (٢) من ذلك الخاطر (٣) .

وكان ألب أرسلان يطمع فى السير بهذا الجيش الجرار إلى أقصى بلاد الصين ، فقال : فرأيت عسكرى فى أجمل حال فقلت : أين مَنْ له قدر مصارعتى وقدرة معارضتى بهذا العسكر إلى أقصى الصين « فخرجت علىّ منيتى من الكمين » (٤)

وتوفى ألب أرسلان فى اليوم العاشر من سنة ٤٦٥ هـ ، فحمل جثمانه إلى مرو ودفن بجوار أبيه وله من العمر أربعون سنة وشهوراً . وكانت مدة سلطنته تسع سنين وستة أشهر وأياما . وقد ترك من الأولاد ملكشاه الذى خلفه فى السلطنة وإياز وتكش وأرسلان أرغون وبورى برس (برش ؟) وتُتُش وثلاثا من البنات منهن سارة وعائشة (٥)

كان ألب أرسلان ، كما وصفه ابن الأثير (٦) ، كريماً عادلا عاقلا ، وكان رحيم القلب مقراً بأنعم الله عليه . وكان يتصدق على الفقراء ، ولا سيما فى شهر رمضان الذى كان يتصدق فيه بخمسة عشر ألف دينار . وقد اشتمل ديوانه على أسماء كثير من الناس فى جميع البلاد

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٢.

(٢) أى أطلب منه أن يقيلنى ويعفينى من الذنب الذى ارتكبته باغترارى بقوتى .

(٣) ابن الأثير . الكامل ج ١٠ ص ٢٧ — ٢٨ .

(٤) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٥ .

(٥) ابن الأثير : ج ١٠ ص ٢٨ . البندارى ص ٤٥

(٦) ج ١٠ ص ٢٨

التى دانت له كانوا ينعمون بصلاته وعطاياه. ولم يعرف عن عهده وقوع جناية أو مصادرة، بل كان يكتفى بجمع الخراج مرتين تيسيراً للمزارعين، وكان ألب أرسلان يكره السعايات؛ فقد كتب إليه بعض السعاة ظلامة تركت على مصلاة. وهى خاصة بوزيره نظام الملك ذكر فيها فداحة الرسوم والأموال التى كان يستأثر بها لشخصه. ولما قرأ ألب أرسلان هذه الرسالة سلمها إلى وزيره وقال له: خذ هذا الكتاب فإن صدقوا فيما كتبوه فهذِّب أخلاقك وأصلح أحوالك، وإن كذبوا فاغفر لهم زَلتهم وأَشْغلهم بهم يشتغلون به عن السعاية بالناس. وقد عرف ألب أرسلان بحسن السمعة والمحافظة على العهود، حتى أذعن له الناس بالطاعة ودانوا له بالولاء وقصدوه من كافة أرجاء بلاده الشاسعة الأطراف التى امتدت من أقاصى بلاد ما وراء النهر إلى أقاصى بلاد الشام. ولا عجب فقد « عظمت مملكته (كما يقول ابن خلكان)[1] ورُهبت سطوته، وفتح من البلاد ما لم يكن لعمه طغرلبك مع سعة ملك عمه ». وكان ألب أرسلان حريصاً على ردع جنده وكفهم عن أخذ أموال الرعية. وقد بلغه أن بعض خواص مماليكه سلب إزاراً، فأمر بالمملوك فصلب. وكان ذلك رادعا للناس عن التعرض لمال غيرهم.

٤ — ملكشـــــاه

(٤٦٥ - ٤٨٥ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢)

أسس طغرلبك وإخوته ملكا عظيما، وجاء بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود، فانتصر على الروم وأسر إمبراطورهم مقابل فدية كبيرة، وهادنه خمسين سنة. ولما قتل ألب أرسلان سنة ٤٦٥ هـ، خلفه ابنه ملكشاه الذى اتسع ملكه اتساعاً عظيما ودعى له على منابر البلاد الممتدة من حدود الصين شرقاً إلى أقاصى بلاد الشام غرباً ومن البلاد الإسلامية فى الشمال إلى جنوبى بلاد اليمن، وأدى له أباطرة الروم الجزية.

ولد ملكشاه سنة ٤٤٧ هـ، وكان فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره حين آلت إليه مقاليد هذه السلطنة الشاسعة الأرجاء. وكان مليح الوجه. وأسند الوزارة إلى نظام الملك وزاد أعطيات الجند. وكان ألب أرسلان قد أوصى ابنه ملكشاه أن يعطى عمه قاورت بن داود (وكان بكرمان) أعمال فارس وكرمان وبعض المال

---

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦١.

الذى عينه ، وأن يعطى أخاه أياز بن ألب أرسلان . ما كان لداود وهو خمسمائة ألف دينار[١] .

وقد بدأ عهد ملكشاه بقيام الاضطربات فى أطراف البلاد التى كانت خاضعة لحكم السلاجقة . فقد استولى ألتكين (بفتح الألف مع الهمزة وسكون اللام وكسر التاء والكاف) صاحب سمرقند على ترمذ وشتت جيوش أياز أخى ملكشاه ، وأسر إبراهيم الغزنوى عمه عثمان ونقله مع خزائنه إلى غزنه ، ولكن جوشتكين (بضم الجيم وسكون الشين وكسر التاء) (وكان من أكبر أمراء الدولة السلجوقية) ومعه أنوشتكين[٢] جد ملوك الدولة الخوارزمية التى سيأتى الكلام عليها ، تتبع آثارهم ونهب بعض بلادهم . ولعل أشد هذه الاضطرابات خطراً تلك التى أثارها قاورت عم السلطان ملكشاه وأول ملوك السلاجقة بكرمان الذى سار إلى الرى مطالباً بالسلطنة . وقد التقى الجيشان على مقربة من همذان ودارت بين ملكشاه ومعه وزيره نظام الملك وبين قاورت معركة حامية الوطيس دامت ثلاثة أيام وثلاث ليال انتهت بهزيمة قاورت وتشتيت شمل جنده الذين ولوا الأدبار وأسره وقتله وسمل عيون ابنيه أميرانشاه وسلطان شاه . أما سلطان شاه فلم يتم سمل عينيه للدرجة التى تحول دون قدرته على أن يخلف أباه فى حكم كرمان . وتقديراً للخدمات الجليلة التى أداها الوزير نظام الملك فى هذه الأزمة الخطيرة وما ظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته ، منحه السلطان ملكشاه لقب أتابك وقال له : «قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد، وحلف له ، وأقطعه إقطاعات من جملتها طوس مدينة نظام الملك ، ثم لقبه بلقب « أتابك » ومعناه « الأمير الوالد » (أو مربى الأمير)[٣] .

وفى السنة التالية (٤٦٧ هـ) مات الخليفة القائم (وكان فى السابعة والسبعين من عمره

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٨ ـ ٢٩

(٢) بفتح الألف مع الهمزة وكسر التاء .

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٩ ـ ٣٠

بعد أن ولى الخلافة أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياما [١] . وفى عهده (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) مات ابن سينا الذى يسمونه شيخ الفلاسفة ، ومهيار الديلمى الشاعر ، وأبو الحسين البصرى شيخ المعتزلة ، وأبو الحسن الماوردى قاضى القضاة وصاحب كتاب الأحكام السلطانية ، وابن حزم الظاهرى صاحب كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل . والخطيب البغدادى صاحب كتاب تاريخ بغداد ، وابن رشيق صاحب كتاب العمدة ، وابن عبد ربه الذى خلف لنا كتابه العقد الفريد المشهور فى عالم الأدب والتاريخ .

وعلى الرغم من أن السلطان ملكشاه السلجوقى وجه همته إلى الأعمال الحربية مثل أبيه ، شجع العلم ونشر الحضارة ، وحفر الترع وأقام الجسور وحصن المدن ، كما ولع بالفلك وشجع دراسة العلوم الدينية والعقلية بمعونة وزيره المشهور نظام الملك الذى أسس المدرستين العظيمتين اللتين تعرفان باسمه فى بغداد ونيسابور ، وتعرف كل منهما باسم المدرسة النظامية ، كما أسس المدرسة الحنفية ببغداد .

وفى سنة ٤٦٧ هـ أسس ملكشاه المرصد وعين فيه جماعة من أعيان المنجمين ، نخص بالذكر منهم عمر الخيام (عمر بن إبراهيم الخيامى) وأبا المظفر الأسفزارى وميمون ابن النجيب الواسطى وغيرهم . وقد بطل هذا المرصد بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ. ويذكر ابن الأثير أن ملكشاه ووزيره نظام الملك جمعا جماعة من المنجمين وجعلوا النيروز أول نقطة من الحمل .

خلف الخليفة القائم ابنه المقتدى (٤٦٧ — ٤٨٧ هـ) . وبعد سنة استرد الخليفة المستنصر الفاطمى نفوذه ، فى مكة . على أن ذلك النفوذ لم يدم أكثر من سنة وفقد هذا الخليفة الفاطمى دمشق . وبعد سنتين (٤٧٤ هـ) تزوج الخليفة المقتدى ابنة السلطان ملكشاه الذى مات ابنه داود فى السنة نفسها ، فجزع عليه جزعا شديداً وحزن حزنا عميقاً وحال دون غسله . ولما دفن لم يطق السلطان المقام وخرج للصيد وأمر بالنياحة عليه عدة أيام [٢] . وبعد ثلاث سنين ولد له ابن آخر هو سَنْجر [٣] (بفتح السين والجيم وسكون النون) ، فخفف السرور بالمولود الجديد حزنه على ابنه المفقود . وفى سنة ٤٨١ هـ ولد لملكشاه ابن آخر هو بركيا روق .

---

(١) كانت أمه أم ولد تسمى قطر الندى (وقيل علم) وكانت أرمنية (وقيل رومية) (ابن الأثير ج ١٠ ص ٣٥)

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٦ ـ ٤٥ .

(٣) إشارة إلى سنجار (بكسر السين) القريبة من الموصل .

وفى ذلك الوقت استجاب الله لدعوة الوزير الكندرى . فقد وردت الأنباء إلى بغداد بوفاة جمال الملك ابن الوزير نظام الملك ، وكان يتولى بلخ ، وأعمالها . وقد قيل فى سبب قتله إن جَعْفَرك أحد مضحكى السلطان ملكشاه كان يسخر من الوزير نظام الملك فى خلواته مع السلطان . ولما بلغ ذلك جمال الملك ، طوى المراحل إلى والده وإلى السلطان وهما بأصبهان ، فاستقبله أخواه فخر الملك ومؤيد الملك ، فأغلظ لهما القول ، لإغضائهما عما بلغه من سخرية جَعْفَرك بأبيهم . ولما مثل جمال الملك بين يدى السلطان رأى هذا المضحك يساره ، فانتهره فلما خرج جعفرك أمر جمال الملك بإخراج لسانه من قفاه وقطعه فمات ، ثم سار مع السلطان وأبيه إلى خراسان ، وأقاموا بنيسابور مدة ، ثم أرادوا العودة إلى أصبهان وتقدمهم الوزير نظام الملك ، وقد أوعز السلطان إلى أحد خدم جمال الملك بقتله ، فدس له السم فى إناء مملوء بالفقاع ، فشربه فمات ، ثم لحق السلطان بوزيره وعزاه فى ابنه (١) .

زار السلطان ملكشاه بغداد مرتين فى عهده . فكانت الزيارة الأولى فى سنة ٤٧٩ هـ (مارس ١٠٨٧ م) بعد أن فتح حلب وحمص وغيرهما من البلاد التى تمتد من الرها إلى بلاد الشام . وكان الوزير نظام الملك بصحبة السلطان . وفى الغد خرج السلطان ملكشاه إلى الحلبة ولعب بالجوكان والكرة (البولو) ، وزار مشهد موسى الكاظم الإمام السابع عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية وأضرحة معروف الكرخى المتصوف ، وأحمد بن حنبل ، وأبى حنيفة وغيرها من المشاهد المعروفة ، كما زار مشهد على بن أبى طالب ، ومشهد ابنه الحسين . وهذا يدل على بعد نظر السلطان ونظر وزيره وعدم تحيزهما لمذهب خاص .

وقد أرسل السلطان ملكشاه إلى الخليفة المقتدى كثيراً من الهدايا النفيسة . ثم مثل بين يدى الخليفة فخلع عليه ، ثم خرج ، وظل الوزير نظام الملك يقدم الأمراء ، كل أمير باسمه وإقطاعه وعدة عساكره ، « وفوض الخليفة إلى السلطان أمر البلاد والعباد » ، وخلع الخليفة الخلع على الوزير نظام الملك . كما زار الوزير المدرسة النظامية ببغداد وخزانتها ، وألقى على الطلاب درساً فى الحديث وأملى عليهم جزءاً آخر . وأقام السلطان

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٥ .

ببغداد إلى شهر صفر سنة ٤٨٠ هـ ، ثم رحل إلى أصبهان[١] .

وفى ذلك الوقت زوج السلطان ملكشاه أخته زليخة خاتون من محمود بن شرف الدولة (وأقطعه الرحبة وحران وسروج والرقة والخابور) ، كما زوج ابنته من الخليفة العباسى المقتدى ، على حين ولدت زوجته تركان خاتون ابناً أسماه محموداً قدر له أن يلعب دوراً قصيراً فى الاضطرابات التى سادت البلاد بعد موت أبيه ، لأن ابنه الآخر أحمد الذى عزم السلطان على أن يخلفه من بعده مات بمرو وهو فى الحادية عشرة من عمره بعد مولد أخيه محمود بسنة . وفى الوقت نفسه عقد السلطان ملكشاه مع البيت الغزنوى محالفة كان من أثرها أن تزوجت ابنة السلطان ملكشاه من السلطان مسعود الثانى الغزنوى وكان فى مقتبل العمر .

وأما زيارة السلطان ملكشاه الثانية لبغداد فقد كانت فى سنة ٤٨٤ هـ (أكتوبر ١٠٩١ م) . أى قبل وفاته بسنة . وفى المدة التى تخللت هاتين الزيارتين فتح السلطان ملكشاه بخارى وسمرقند وغيرهما من مدن بلاد ما وراء النهر ، وتسلم وهو فى كاشغر الجزية من إمبراطور الروم . ولم تكن أحوال الدولة السلجوقية فى يوم من الأيام أعظم ازدهاراً منها فى ذلك الوقت . فقد ذكر « براون » نقلا عن كتاب راحة الصدور أن الملاحين الذين نقلوا ملكشاه وجيوشه على سفنهم عَبْر نهر جيحون قد تسلموا من الوزير نظام الملك حوالات وتسلموا قيمتها النقدية من العامل السلجوقى بأنطاكية ليدركوا مدى اتساع أملاك السلطان . وفى اللاذقية التى تعد ميناء سورية اليوم ركب السلطان ملكشاه جواده على ساحل البحر الأبيض المتوسط وشكر الله سبحانه على ما حباه من سعة الملك ، كما منح رجال حاشيته إقطاعات فى سورية وآسيا الصغرى ، على حين اتجه جيشه النظامى الذى بلغ ٤٦٫٠٠٠ مقاتل (دونت أسماؤهم فى ديوان الجيش) نحو حدود الصين[٢] . كما ملك ملكشاه بلاد اليمن واستولى على عدن[٣] .

وكان ملكشاه كما وصفه ابن خلكان « أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان

---

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٢) Browne, Vol. II, pp. 183, 184.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٥ .

العادل »[١] ، وكان يجلس للمظالم بنفسه ويقضى بين الناس بالقسطاس المستقيم ، كما كان بابه مفتوحاً لكل قاصد بحيث يستطيع أى شخص من أفراد شعبه أن يتصل به فى سهولة ويسر لرفع ظلامته أو التعبير عما لحقه من اضطهاد . وكانت السبل فى أيامه آمنة ، والقوافل تسير من بلاد ما وراء النهر إلى أقصى بلاد الشام فى أمن وطمأنينة[٢] ، كما حفر ملكشاه الآبار فى طريق مكة وبنى منارة القرون بالسبيعى فى طريق مكة ، وبنى منارة أخرى ببلاد ما وراء النهر ، وأسقط المكوس عن حاج بيت الله ، وقد سارت مهارته فى الصيد على كل لسان[٣] .

الوزير نظام الملك

وفى السنين التى تميزت بازدهار العهد السلجوقى كان نظام الملك ساعد ملكشاه الأيمن ومدبّر ملكه ومستشاره الأمين ، « فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد » على حد تعبير ابن خلكان »[٤] . وكان نظام الملك هو وأولاده الإثنى عشر يقبضون على زمام الأمور ، وقد ذهبوا كما ذهب البرامكة فى العصر العباسى الأول من قبلهم ضحية الدسائس والمؤامرات التى دبرها لهم حسادهم المنافسون .

وكان نظام الملك أبو الحسن على بن إسحاق من أبناء الدهاقين بطوس ، وقد توفيت أمه وهو رضيع ، فكان أبوه يطوف به على المرضعات فيرضعنه حسبة[٥] ، حتى شب وتعلّم العربية وعرف بعلو الهمة واشتغل بالعلم فتفوق فيه ، وسمع الحديث . وقد أسندت إليه بعض أعمال الدولة ، ثم أخذ يترقى فى سلكها ، وكان يطوف بلاد خراسان ووصل إلى غزنة فى صحبة بعض الحكام ، ثم اتصل بخدمة أبى على بن شاذان متولى الأمور ببلخ ، من قبل داود أبى السلطان ألب أرسلان ، فظهرت كفاية نظام الملك وأمانته ، وتقرب إليه وتحسنت أحواله لديه . فلما حضرت أبا على بن شاذان الوفاة أوصى به ألب أرسلان ، وزكاه عنده ، فأسند إليه أعماله. ثم أصبح وزيراً له ومشيراً حتى ولى

---

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٧١ ، ٣٧٣ — ٣٧٤ .
(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٧٢ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٩ .
(٤) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٩٦ .
(٥) دون مقابل أى ابتغاء مرضاة الله .

السلطنة بعد عمه طغرلبك ، فأسند إليه الوزارة ، وعهد إليه بنشئة ابنه ملكشاه وقال له : هذا حسن الطوسى (يعنى نظام الملك) فتسلَّمْه واتخذه ولداً لا تخالفه .

وكان نظام الملك عالماً ديّناً جواداً عادلا حليما كثير العفو طويل الصمت . وكان مجلسه حافلا بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح ، وقد اشتهر ببناء المدارس فى البلاد وخصص لها النفقات العظيمة وأملى الحديث ببغداد ونيسابور وغيرهما من مدن خراسان .

وكان نظام الملك منقطعاً للعبادة يؤدى الصلوات فى أوقاتها، إذ كان يأمر مؤذنه بالصلاة إذا حان وقتها ، وينبهه إذا حان وقت الأذان ، كما أسقط المكوس والضرائب وأزال على المنابر لعن الأشعرية (١) الذى كان من آثار عهد البويهيين الشيعيين . وكان الوزير عماد الملك الكندرى قد حسن للسطان طغرلبك لعن الرافضة ، فوافقه على ذلك ، فأضاف إليهم الأشعرية . وكان يجل أهل العلم ويجلسهم فى المكان اللائق بهم . ومما يؤثر عن نظام الملك أنه تمنى لو كانت له قرية ومسجد ينفرد فيه للعبادة. ثم تمنى بعد ذلك أن تكون له قطعة أرض يتقوت من ريعها ومسجد يعبدالله فيه . وقد تمنى فى أواخر أيامه أن يمنحه الله رغيفاً يتبلَّغ به ومسجداً يعبد الله فيه . ومن هنا ندرك ميل نظام الملك نحو الزهد والتقشف فى نهاية حياته وصدوفه عن الدنيا وزخرفها .

وكان من عادة نظام الملك أن يشرك الفقراء معه فى الطعام ويقربهم إليه . وقد أثر عنه أنه كان ليلة يتناول الطعام مع عميد خراسان ، وجلس إلى جانب العميد شخص فقير قد قطعت يده . ولاحظ نظام الملك أن العميد يتأفف من الأكل مع هذا الفقير ، فأمر العميد أن ينتقل إلى الجانب الآخر من السماط ، وقرب هذا الفقير إليه فأكل معه .

مات نظام الملك فى العاشر من شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ بعد أن تقلد الوزارة لألب أرسلان وملكشاه نحواً من ثلاثين سنة . وقد تضاربت أقوال المؤرخين فى أسباب قتله :

(١) قيل إنه كان على مقربة من نهاوند ، وكان صائماً ، وبعد أن غربت الشمس

---

(١) كان الأشعرية سنيين مؤولين يلتقون مع الشيعة فى كثير من الآراء : ويبدو من هذا أن السلاجقة كانوا يسيرون على السنة السلفية، أى على نهج السلف الصالح . وقد اتخذ الاشعرية مذهبا وسطا بين المعتزلة وبين السلف الصالح . ولذلك أطلق عليهم أهل السنة والجماعة .

تناول طعام الإفطار ثم خرج إلى خيمة لزيارة أهله ، فاعترضه صبي ديلمي من الباطنية يحمل في يده ظلامة ، وسأله أين يتناولها ، فمد نظام الملك يده ليأخذها ، فطعنه الصبي بسكين في قلبه ، فسقط الوزير مغشياً عليه وحمل إلى مضربه فمات ، وهرب القاتل فأدركه رجال الوزير وقتلوه[١] .

(٢) وقيل إن السلطان ملكشاه دس إليه من قتله ، لأنه سئم طول حياته واستكثر ما بيده من الإقطاعات وما بيد أولاده وأحفاده من الكور .

(٣) وقيل إن « تُرْكان خاتون » زوجة السلطان ملكشاه المفضَّلة كانت تطمع في تولية ابنها الصغير محمود العهد بعد أبيه ، وكان يعضدها في ذلك وزيرها تاج الملك ، على حين كان الوزير نظام الملك يميل إلى تولية ابنه الأكبر بركياروق ، وكان إذ ذاك في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره .

(٤) ولعل السبب المباشر الذي أدى إلى هذه النكبة قد جاء عن طريق ذلك المسلك الذي ينم عن الصلف والغطرسة من أحد أحفاد الوزير نظام الملك ، وهو عثمان بن جمال الدين والي مرو (وكان السلطان قد أمر بدس السم لأبيه قبل ذلك بعشر سنين) بسبب قتله مضحك السلطان . وقد قصد أحد مماليك السلطان (وكان يعد من أعظم أمرائه) دار الخلافة مستغيثاً شاكياً اضطهاد عثمان له وتنكيله به ، الأمر الذي أثار استياء السلطان حتى إنه أرسل إلى وزيره نظام الملك مع بعض أرباب دولته رسالة يقول فيها : إن كنت شريكي في الملك ويدك مع يدي في السلطنة فلذلك حكم ، وإن كنت نائبي وبحكمي فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة . وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة وولي ولاية كبيرة ، ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة وطمعوا إلى أن فعلوا كذا وكذا . وأطال القول وأرسل معهم الأمير « يلبرد » ، وكان من خواصه وثقاته ، وقاله له : تعرَّفْني ما يقول ، فربما كتم هؤلاء شيئاً » .

وقد غضب الوزير الشيخ لكلمات التقريع التي تضمنها هذا الكتاب وأجاب في شيء من عدم الروية قائلا : « إنّ ثبات تلك القلنسوة منوط بهذه الدواة ، وإن اتفاقهما[٢] رباط كل رغيبة وسبب كل غنيمة . ومتى قُطعت هذه زالت تلك[٣] . فإن عزم على

---

(١) ابن خلكان : ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢) يعني أن عظمة الملك ترجع إلى تضامن نظام الملك مع السلطان .

(٣) يعني أن السلطان إذا جحد وفك هذا التضامن زالت قوة الملك .

تغييرى فليتزود للاحتياط قبل وقوعه وليأخذ الحذر من الحادث أمام ظروفه » .

ولكن هؤلاء الرسل رأوا أن يكتموا ما سمعوه من الوزير رعاية لحق السلطان ، وكان الأمير يلبرد قد أنمى إلى السلطان كل مافاه به الوزير ، فعزل عن منصبه ،وخلفه أبو الغنائم تاج الملك الذى تمتع بحماية تركان خاتون ، وأجريت تغييرات كثيرة فى مناصب الدولة الكبرى . لذلك قتل السلطان وزيره نظام الملك خشية أن يقوم بتنفيذ ما هدده به ولا سيما أن أغلب الولايات كانت فى يد أبنائه وأحفاده وأن له أنصاراً كثيرين .

مات السلطان ملكشاه بعد ذلك بخمسة وثلاثين يوما . وقد رثى نظام الملك كثير من الشعراء ، فقال شبل الدولة مقاتل بن عطية :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤةً يتيمةً صاغها الرحمن من شرف
عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيرةً منه على الصدف

وبموت السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) انتهى العصر السلجوقى الأول الذى يمكن أن يسمى العصر الذهبى للدولة السلجوقية أو عصر نظام الملك ، « وانحلت الدولة ووقع السيف » (١) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٥ — ٧٦ . Browne, Vol. II, p. 185.

الباب الثانى

عصر سنجر[1] وإخوته

٤٨٥ — ٥٥٢ / ١٠٩٢ — ١١٥٧

(١) مميزات هذا العصر :

يبتدىء هذا العصر الذى يشغل نحو خمس وستين سنة ميلادية من موت السلطان ملكشاه وينتهى بموت ابنه سنجر . ومع أن سنجر قبض على زمام الحكم فى الدولة السلجوقية مدة إحدى وأربعين سنة فقط (٥١١ — ٥٥٢ / ١١١٧ — ١١٥٧) حكم فيها خراسان ، فإنه كان فى الواقع الشخص المسيطر على البيت السلجوقى من سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) . فقد حكم خراسان وبلاد ماوراء النهر قبل توليته السلطنة حكما يتميز بالحكمة والحزم ، ووقفت بلاده إلى حد كبير بمنأى عن هذه الحروب الدموية التى دارت بين إخوته وعكرت صفو الدولة السلجوقية . على أنه قبل نهاية حكم سنجر قاست الدولة السلجوقية كثيراً من ألوان التخريب والدمار على أيدى الأتراك الغز ، ولكن هذا التخريب وذاك الدمار المخيف قد قدر له أن يزول نهائيا عن طريق الفتح المغولى بنحو سبعين سنة ، لذلك يمكن أن نطلق على هذا العصر « عصر سنجر » الذى يعتبر موته نهاية لعهد « السلاجقة العظام » فى إيران .

وثمة أوجه للشبه بين سنجر وغيره من سلاطين السلاجقة من حيث طول حياته وأعماله المجيدة ، بل إنه يفوق — على ما ورد فى كتاب «راحة الصدور»[2] — سائر سلاطين السلاجقة .

---

(١) ولد سنجر بسنجار ببلاد الجزيرة . ولذلك سمى باسم هذه المدينة . وقد ذكر براون (Vol. II, p. 303, note 4 . وترجمة ص ٣٧٩ هامش رقم ٢) أنه سمى سنجر (بفتح السين) . وسنجر بالتركية من فصيلة الصقر وطائر من طيور الصيد : وكانت تسمية أولاد السلاجقة بأسماء الحيوانات شائعة بينهم وبين غيرهم من الأتراك . من ذلك أرسلان ومعناه الأسد وطغرل ومعناه الصقر أو الباز .

(٢) يتناول كتاب راحة الصدور تاريخ السلاجقة . وقد كتب الراوندى هذا الكتاب فى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) كما تقدم فى الباب الأول .

ومنذ قلده بركياروق ولاية خراسان (٤٩٠ هـ) قام سنجر بتسع عشرة غزوة من الغزوات المظفرة فى مدى أربعين سنة ، فقد استطاع أن يستولى على غزنة وأن ينصب عليها بهرامشاه على أن يؤدى له إتاوة مقدارها ألف دينار فى اليوم . كذلك أسر سنجر أحمد خان ملك سمرقند الذى ثار على أثر وفاة بركياروق سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) [١] . كما أخضع سنجر ولايتى سجستان وخوارزم . أما من الناحية السياسية فلم يعد لآل سلجوق ما كان لهم من القوة والنفوذ أيام حكم ألب أرسلان وملكشاه . وإننا لو صرفنا النظر عن الحروب الدموية التى وقعت بين أبناء ملكشاه فى بداية هذه الفترة ، والغارات المستمرة التى قام بها الأمراء الثائرون ، فإننا نجد أنه كانت هناك بيوت ملكية أخرى تنازع «السلاجقة العظام» السيطرة وتعمل على إضعاف نفوذهم . وكان من أشد هذه البيوت خطراً ملوك جبال الغور فى الشمال الشرقى من إيران الذين استطاعوا بفضل قوتهم النامية أن يوجهوا الضربة القاضية للبيت الغزنوى . كذلك أصبح ملوك خوارزم أو حكام « خيوة » أكبر خصم للسلاجقة على أثر تولية «أتسز» الخوارزمى الحكم فى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) . وكذلك نرى سلاجقة كرمان يحكمون الولايات الجنوبية الغربية من إيران ، كما نجد الإسماعيلية أو « ملاحدة ألموت» ينشرون الرعب والفزع فى إيران ويرتكبون ألواناً من العنف والقسوة ليس فى فارس وحدها بل فى بلاد الشام أيضاً .

٤٢٩ — ٥٥٢هـ	السلاجقة العظام	١٠٣٧ — ١١٥٧م
٤٢٩	طغرلبك : ركن الدين أبو طالب	١٠٣٧
٤٥٥	ألب أرسلان : عضدالدين أبوشجاع	١٠٦٣
٤٦٥	ملكشاه : جلال الدين أبو الفتح	١٠٧٣
٤٨٥	محمود : ناصر الدين	١٠٩٢
٤٨٧	بركيا روق : ركن الدين أبو المظفر	١٠٩٤
٤٩٨	ملكشاه الثانى	١١٠٤
٤٩٨	محمد : غياث الدين أبو شجاع	١١٠٤
٥١١ — ٥٥٢	سنجر معز الدين أبو الحارث	١١١٧ — ١١٥٧

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٢) محمود بن ملكشاه (٤٨٥ — ٤٨٧ هـ)

وقد ظهر فى عهد سنجر كثير من مشهورى العلماء والأدباء . وقد ألف كثير من هؤلاء باللغة العربية أو بالفارسية أو بالفارسية والعربية معاً . وممن ألف بالعربية الفرا البغوى والزمخشرى فى التفسير واللغة وأصول الدين والإمام أبو حامد الغزالى فى علم الكلام ، والقشيرى فى التصوف . وألف فى اللغة الزوزنى والتبريزى والجواليقى والميدانى مؤلف الأمثال . ومن الشعراء الأبيوردى والطغرائى صاحب لامية العرب . وممن اشتهر بالنثر الحريرى صاحب المقامات . ومن المؤرخين ابن مَنْدة مؤرخ أصبهان ، كما ظهر فى هذا العصر من الجغرافيين أبو زيد البلخى ، وكذلك اشتهر عصر سنجر بظهور كثير من كتاب الفرس الذين اشتهروا بالشعر والنثر ، كما ظهر فى ذلك العصر كثير من المؤلفات الهامة التى وضعت بالعربية فى فارس . ومن مشهورى الشعراء فى ذلك العصر الشيخ فريد الدين العطار (ت٥١٤/١١٢٠) ونظامى الجَنْجى (ت١١٤٠) وعمر الخيام (ت ٥١٥ / ١١٢١ — ١١٢٢) والأزرقى (٥٢٦ / ١١٣٠) ومسعود بن سعد (٥٢٦/١١٣١) وأديب صابر (٥٧٨/١١٤٣ - ١١٤٤) ومُعِزِّى (٥٤٢/١١٤٧ - ١١٤٨) وعمعق (بفتح حرفى العين وسكون القاف) البخارى (٥٤٣/١١٤٨ — ١١٤٩) ، كما ظهر الصنعانى ، ونظامى عروضى السمرقندى ، والأنورى ، ورشيد الدين وطواط ، والسُّوزنى شاعر الفكاهة وطائفة أخرى أقل أهمية من المغنين .

أما عن كتب النثر التى ظهرت فى هذا العصر فنذكر من بينها على سبيل المثال هذه الموسوعة الطبية « ذخيرت — خوارزمشاهى » (٥٠٤/١١١٠) وترجمة كليلة ودمنة التى وضعها نصر الله بن عبد الحميد (٥٣٨/١١٤٣ - ١١٤٤) ومقامات القاضى حميد الدين أبو بكر البلخى (٥٥٧/١١٦٠) وجهار مقاله لنظامى عروضى السمرقندى (حول هذا الوقت تقريبا) وتعد من أهم ما كتب فى هذا العصر .

وقد ترك ملكشاه عند وفاته عدة أولاد اشتهر منهم أربعة هم : بركياروق وكان فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ، ومحمد وكان أصغر من بركياروق بستة أشهر ، وسنجر وكان فى الثامنة من عمره ، ومحمود وكان طفلا لم يناهز الرابعة من العمر ، وكان بركياروق بن زبيدة التى تنتمى إلى البيت السلجوقى بأصبهان[1] .

---

(١) Browne II, pp. 298—299.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص٧٩ — ٨٠.

أما محمود فقد كانت أمه « تُركان خاتون » التى اشتهرت بذكائها ودهائها ونفوذها تقيم مع ابنها الصغير فى بغداد . وقد اتخذت من مواهبها وكثرة أعوانها ووجودها إلى جانب الخليفة العباسى فى بغداد سبيلا إلى تولية ابنها محمود السلطنة ، إذ كتمت خبر وفاة زوجها ملكشاه وأرسلت إلى أمراء الدولة سراً تطلب إليهم البيعة لابنها الصغير ورغبتهم بالمال ، فبايعوه . كما أرسلت إلى الخليفة المقتدى تطلب إليه إقرار ابنها فى السلطنة ، فامتنع أول الأمر لصغر سنه ، ولكنه عاد فلبى طلب تركان خاتون وأقر محموداً فى السلطنة ولقبه « ناصر الدنيا والدين » . وقد استعانت تركان خاتون فى تحقيق رغبتها بابن الخليفة (جعفر بن ماه — مالِك أخت ملكشاه) وتدبير وزيرها تاج الملك الذى قام بنوع من الوصاية على ابنها الصغير ، لأن الشرع لا يجيز ولايته فى هذه السن ، كما أفتى بذلك الإمام الغزالى . وقد ذكر اسم السلطان الجديد فى الخطبة على منابر بغداد فى يوم الجمعة ٢٢ شوال سنة ٤٨٥ هـ كما خطب له فى الحرمين الشريفين(١) .

وقد خشيت تركان خاتون أن ينازع بركياروق أكبر أبناء ملكشاه أخاه الصغير محمود فى السلطنة ، فأرسلت الأمير بُغا إلى أصبهان ، فوصل إليها بعد أسبوع من مغادرته بغداد وقبض على بركياروق وأثار بذلك مخاوف أمه زبيدة . ولكن أحد أولاد نظام الملك أخرجه من السجن فى جنح الظلام وحمله إلى ساوَة (بفتح الواو) وآبا والرى ونصّبه ملكا على هذه البلاد . وكان بركياروق دون الثالثة عشرة من عمره حتى إنه لم يكن من السهل أن تحمل رأسه الصغيرة تاجه المثقل بالجواهر .

ويذكرنا هذا بتلك الأسطورة التى أخذها عن ابن هشام براون(٢) فى صدد كلامه على عظمة آل ساسان الملكية واعتلائهم العرش حيث يقول : « وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه الذى به تاجه ، وكان تاجه من القُنْقُل(٣) العظيم فيما يزعمون ، يضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة ، معلقاً بسلسلة من ذهب فى رأس طاقة فى مجلسه ذلك . وكانت عنقه لا تحمل تاجه ، إنما يُستر عليه بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك .

---

(١) كانت زبيدة ابنة ياقوتى بن داود وابنة عم السلطان ملكشاه :

(٢) Vol. I, p. 128 نقلا عن ابن هشام (طبعة وستنفلد) جـ ١ ص ٤٢ ، انظر تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٦٣١ — ٦٣٢ .

(٣) بضم القافين وسكون النون : الخوذة العظيمة .

ثم يدخل رأسه فى تاجه ، فإذا استوى فى مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا سجد هيبة له » .

وقد دارت الحروب بين جند السلطان محمود تؤيدهم أمه تركان خاتون والوزير تاج الملك وجند بركياروق تؤيدهم أمه زبيدة وأبناء الوزير نظام الملك وبعض الأمراء الذين انحازوا إلى جيش بركياروق ، وخاصة يلبرد وكمشتكين ، وحلت الهزيمة بجند محمود فعادوا إلى أصبهان ، وسار جند بركياروق فى إثرهم وحاصرهم فيها ، ثم عدل بركياروق عن الحصار مقابل خمسمائة ألف دينار وعاد إلى همذان . وقد انتهز أنصار الوزير نظام الملك هذه الفرصة فأخذوا بثأره إذ قتلوا الوزير تاج الملك فى المحرم سنة ٤٨٦ هـ ، لمالأته على قتل نظام الملك طمعاً فى الوزارة ، فقلد بركياروق عز الدولة بن نظام الملك الوزارة وفوض إليه أمور دولته[١] .

(٣) بركياروق بن ملكشاه (٤٨٧ ـ ٤٩٨/١٠٩٤ ـ ١١٠٤)

على أن تركان خاتون (أم محمود) عادت تدبر الدسائس ضد بركياروق ، ولكى تصل إلى غايتها أوعزت إلى الملك إسماعيل بمهاجمة ابن أخته بركياروق ووعدته بالزواج منه إذا هو قام بهذا العمل (٤٨٦ — ١٠٩٣) . ولكن الهزيمة حلت باسماعيل . وفى ٣ فبراير سنة ١٠٩٤ (١٤ المحرم سنة ٤٨٧ هـ) نودى ببركياروق سلطاناً ببغداد .

وفى اليوم التالى لتولية بركياروق السلطنة توفى الخليفة المقتدى فجأة وخلفه ابنه المستظهر (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) . وقد أطرى ابن الأثير[٢] والسيوطى[٣] المقتدى فذكرا من محاسنه أنه أمر بنفى المغنيات والبنات اللاهيات من بغداد ، وأمر الناس ألا يدخلوا الحمام إلا بمئزر ، وخرّب أبراج الحمام ومنع اللعب بها منعاً للمقامرة . كما منع جريان ماء الحمامات إلى نهر دجلة محافظة على نقاء ماء هذا النهر وصحة الناس . كما ألزم أصحاب الحمامات بحفر آبار خاصة للمياه المستعملة ومنع الملاحين من أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين . وكان المقتدى أحسن خلفاء بنى العباس قوة نفس وعلو همة[٤] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٨٠ — ٨١ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٨٥ — ٨٦ :

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٠

(٤) ذكر ابن خلكان (ج ص٤ ٣٧٥) أن السلطان ملكشاه أوجس خيفة من تدخل الخليفة =

ولـكن سرعان ما قام « تُتُش » بثورة أشد خطراً مما تقدمها من الثورات وهزم ابن أخيه بركياروق وحمله إلى أصبهان حيث سجن . ومع أن السلطان محمود استقبل أخاه الأكبر بركياروق بمظاهر العطف والرعاية ، فقد حبس الأمير « أنرو بُلْكا » بركياروق وصمم على أن يجعله غير صالح للحكم بسمل عينيه .

وكان من حسن حظ بركياروق أن مرض أخوه محمود بالجدرى ومات فى خلال أسبوع قبل أن يقوم الأمير « أنرو — بلكا » بتنفيذ خطته القاسية فأجلس بركياروق على كرسى السلطنة من جديد ، وانتهت دسائس تركان خاتون أم محمود التى قتلت فى خريف سنة ١٠٩٤ م (٤٨٧ هـ) . وقد ساعد موتها على تهدئة الأحوال . ثم مرض بركياروق بالجدرى بعد أخيه ولـكنه برىء منه . وقد استمال مؤيد الملك وزير بركياروق أمراء السلاجقة فى العراق وخراسان إليه فعظم شأن بركياروق وكثر جنده[1] . وفى السنة الثالثة هزم بركياروق عمه تتش وقتله ، كما قتل عمه الآخر أرسلان أرغون الذى ثار عليه بخراسان فقتل على يد أحد غلمانه فى مرو (٤٩٠ هـ) ، ونجا بركياروق نفسه من الموت بأعجوبة إذ أصابه رجل من الباطنية بطعنة كادت أن تؤدى بحياته ، ثم استولى بركياروق وبصحبته أخوه سَنْجر على خراسان بعد موت عمه أرسلان أرغون ونصب أخاه سنجر ملـكا عليها سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) ، وأسند وزارته إلى أبى الفتح على بن الحسين الطُّغرائى الشاعر المشهور . وبينما كان بركياروق بخراسان خرج عليه محمد ابن سليمان ويعرف بأمير أميران (وهو ابن عم ملكشاه) ، وقد توجه إلى بلخ ، ولـكن سنجر أخا بركياروق أحل به الهزيمة وأسره وحمله إلى خراسان وسمل عينيه . وفى هذه السنة قامت الدولة الخوارزمية على يد قطب الدين محمد بن أنو شتـكين[2] .

= المقتدى فى شئون الحـكم ، فعمل على إبعاده عن حاضرة الدولة وأمره بالرحيل إلى البصرة ، بل إنه لقب نفسه بلقب أمير المؤمنين . ذلك اللقب الذى لم يطلق إلا على الخلفاء أنفسهم ، بل إنه حمل الخليفة على أن يخلع أكبر أبنائه وهو المستظهر وأن يعهد لابنه الأصغر جعفر بن بنت السلطان ألب أرسلان ويسلم إليه البـلاد ويخرج هو إلى البصرة . على أن السلطان مرض فى تلك الأيام ومات ، وكفى الخليفة شر هذا السلطان .

(١) ابن الأثير : الـكامل ج ١٠ ص ٨٧ . ابن خلـكان ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) الـكامل ج ١٠ ص ٩١ ، ٩٧ .

وبعد أن جعل بركياروق أخاه سنجر ملكا على خراسان عاد إلى العراق[١] . ولكن فى سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) هدد نفوذه أخوه محمد الذى قام فى وجهه مطالباً بالسلطنة بتأييد مؤيد الملك بن نظام الملك[٢] .

وكان مؤيد الملك من أكفأ أبناء نظام الملك . وقد أصبح للسلطان بركياروق عدوا لا تلين قناته بعد عزله إياه من الوزارة . وبتأثير مؤيد الملك قلد الخليفة المستظهر (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) محمداً بن ملكشاه السلطنة بدل أخيه بركياروق ولقبه « غياث الدنيا والدين » وخطب له على منابر بغداد (١٤ رجب سنة ٤٩٣ هـ) . وقد طالت الحروب بين محمد وأخيه بركياروق نحواً من خمس سنين (٤٩٢ — ٤٩٧ هـ) ، ودارت بينهما خمس معارك طاحنة انتهت بانتصار بركياروق على أخيه محمد ، وأرسل إليه الخليفة ، على ما جرت به العادة فى ذلك العصر ، خلع السلطنة وأقيمت له الخطبة فى بغداد (٤٩٧ هـ)[٣] .

وفى هذه الفترة بدأ الصليبيون حملاتهم على البلاد الإسلامية . وقد دخل بركيارون بغداد ، ومد هو وأصحابه أيديهم إلى أموال الناس ، فخرج عن طاعته صدقة بن مزيد صاحب الحلة وقطع الخطبة له فى بلاده وخطب لأخيه محمد . وقيل إن وزير السلطان بركياروق أرسل إلى صدقة يطالبه بأداء مليون دينار كانت مستحقة لبيت المال عدا الإتاوة التى لم تؤد عن السنين السابقة وهدده بأخذ بلاده فلم يأبه صدقة به ، فأرسل إليه بركياروق جندا طرده من بلاده . وفى هذه السنة أمر بركياروق بقتل الباطنية فى فارس[٤] .

---

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٩٨ — ٩٩ .

وفى هذه السنة دارت الحرب بين رضوان وأخيه دقاق صاحب دمشق ابنى تتش بن ألب أرسلان ثم تم بينهما الاتفاق على أن يخطب لرضوان بدمشق قبل دقاق وكذلك بأنطاكية .

(٢) كان بركياروق (٤٨٧ — ٤٩٨ هـ) قد عزل مؤيد الملك بن الوزير نظام الملك عن الوزارة وأسندها إلى عز الملك (أخى الوزير المخلوع) . وكان بين هذين الأخوين خلاف على ثروة أبيهما وتنافس على الوزارة .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٤) انظر ما ذكره ابن الأثير (ج ١٠ ص ١١٦ — ١٢٠ ، ١٢٤) عن الإسماعيلية أو الباطنية فى فارس .

اجتمع محمد بأخيه سنجر (وهما لأم واحدة) فى جرجان ، والتقى به إيلغازى بن أرتق وأحسن خدمته . ثم سار محمد إلى بغداد واستقر بدار السلطنة ، فاستبشر الناس بقدومه وخرجوا للقـــائه ، وعبر الخليفة عن سروره لإساءة بركياروق وجنده إلى أهل بغداد[١] .

على أن الهدوء لم يسد بغداد برحيل بركياروق عنها ودخول أخيه محمد إليها . فقد رحل السلطان محمد وأخوه سنجر عن بغداد مرة أخرى عائدين إلى بلادهما : فقصد الأول همذان ويمم الثانى شطر خراسان . وقد سمع الخليفة أن بركياروق قد تناوله بما يسيئه فاستقدم أخاه محمداً ، وكان فى واسط ، إلى بغداد فلحق أخاه بركياروق ودارت الحرب بينهما ، وعانى كل من الجندين كثيراً من شدة البرد وهطول الأمطار وقطع الجسور وهدم القناطر وانتشار الفساد ونهب الأموال وسفك الدماء وتخريب البلاد، واستولى الملل على النفوس وتطرق الوهن إلى القلوب وتعرضت السلطنة للغزو الخارجى. وقد تدخل العقلاء بين الأخوين وأخذت عليهما العهود والمواثيق بأن يجنحا إلى السلم ويكفا عن الحرب . وبذلك تم الصلح بينهما على أن يكون بركياروق السلطان ومحمد الملك، وأن يضرب لمحمد البوق ثلاث مرات فى اليوم وأن يكون له حكم « جَبْزه » وأعمالها وأذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل ، وأن يمده السلطان بركياروق بالجند ليفتح ما يستعصى عليه من البلاد ، وتعهد كل منهما باحترام هذه المواثيق ، وبذلك انصرف بركياروق قاصداً « ساوَة » وانصرف محمد قاصداً « أسد أباد » ، وقصد كل أمير إقطاعه ، وأرسل الخليفة العباسى خلع السلطنة إلى بركياروق وأقيمت له الخطبة ببغداد . على أن الحرب لم تلبث أن عادت سيرتها الأولى بين بركياروق ومحمد (٤٩٥ هـ/ ١١٠١ — ١١٠٢ م)[٢] .

طالت الحروب بين بركياروق وأخيه محمد أكثر من خمس سنين دارت بينهما فيها معارك طاحنة قبل أن يتم الصلح بينهما قبل وفاة بركياروق بنحو سنتين ، ثم عقد الصلح بينهما من جديد ، لأن « الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد ، فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعا فيها محكوما عليها ، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين . وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه

---

(١) المصدر نفسه جـ ١٠ ص ١١٣ — ١١٥ .

(٢) ابن الأثير جـ ١٠ ص ١٢٢ — ١٢٣ .

ليدوم تحكُّمهم وانبساطهم وإدلالهم . وكان السلطان بركياروق حينئذ بالرى والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين . وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيه وببلاد أرانية وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ماعدا تكريت ، وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وببعضها لمحمد . وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعاً . وأما خراسان فإن السلطان كان يخطب له فى جميعها ، وهى من حدود جرجان إلى بلاد ماراء النهر ولأخيه السلطان محمد » .

وقد اضطر السلطان بركياروق إلى الصلح مع أخيه ، ولانعدام المال بخزانته وازدياد طمع جنده فيه ، فأرسل الرسل إلى أخيه محمد فأجابه إلى ذلك وتم الصلح بينهما على :

(١) ألا يعترض بركياروق على ضرب الطبول على دار محمد .

(٢) ألا يذكر اسم بركياروق بجانب اسم محمد فى الخطبة فى البلاد التى يحكمها .

(٣) أن يكون الاتصال بينهما عن طريق الوزراء .

(٤) ألا يتعرض أحد العسكرين لعسكر الآخر فى داخل حدود كل منهما .

(٥) أن يكون من نصيب محمد البلاد الممتدة باسبيندروذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام والبلاد التى كانت تحت حكم سيف الدولة بالعراق (١) .

ولما وصلت رسل السلطان بركياروق إلى بغداد تحمل إلى الخليفة المستظهر شروط الصلح بين الأخوين ، أقيمت الخطبة لبركياروق ببغداد فى ١٩ جمادى الأولى سنة ٤٩٧ هـ(٢) .

ولم يكد الحظ يبتسم لبركياروق حتى اشتد به المرض . ولما أحس بدنو أجله بايع ابنه ملكشاه الثانى ومات فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٩٨ هـ (١٠٩٤ م) وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، بعد أن ظل فى السلطنة اثنتى عشرة سنة وأربعة أشهر .

---

(١) يعنى تحت حكم صدقة بن مزيد وكان يملك الحلة ويلقب سيف الدولة . وقد دخل تحت نفوذه الحلة والبصرة وواسط وكان يلقب أيضاً ملك العرب ، لأن العرب وغيرهم كانوا يستجيرون به من السلطان أو الخليفة أوغيرهما . وكان صدقه نفسه يقول أنا ملك العرب (ابن الأثير ج ١٠ ص ١٦٥، ١٦٩) انظر ابن الأثير ج ١٠ ص ١٣٧ ،

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٣٨ — ١٣٩ .

ولا ريب أن الحروب التى طالت بين الأخوين واختلاف الأحوال من الرخاء إلى الشدة ومن السلطنة إلى الملك قد أثرت فى صحة بركياروق وأنهكت قواه مع حداثة سنه . ولم يغنه استقرار الأحوال بعد إبرام الصلح الأخير مع أخيه محمد وانقياد المخالفين إليه ، عن ملاقاة الأجل المحتوم ؛ فأدركته منيته فى بروجرد (بضم الباء وكسر الجيم) . وكان بركياروق ، كما وصفه ابن خلكان[١] ، « مسعوداً عالى الهمة لم يكن فيه عيب سوى ملازمته للشراب والإدمان عليه » .

(٤) محمد بن ملكشاه ٤٩٨ — ٥١١ / ١١٠٤ — ١١١٧

أقيمت الخطبة لملكشاه الثانى بن بركياروق عقب موت أبيه ، ولم يكن قد بلغ الخامسة من عمره ، وخطب له على المنابر ، ولقبه الخليفة جلال الدولة ، وهو لقب جده ملكشاه ، وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٧ هـ . ولم يكد هذا الطفل يستقر على عرش السلطنة أسابيع أو أشهراً قليلة حتى عزل وسملت عيناه على ما جرت به العادة فى ذلك العصر[٢] .

وبذلك صفا الجو لمحمد بن ملكشاه ، فقلده الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ / ١٠٩٤ - ١١١٨) من جديد ، ولقبه غياث الدين ، وعظمت هيبته وكثرت جيوشه وأمواله ، ولم يبق له منازع ، وأصبح الحاكم الفعلى للولايات الفارسية زهاء ثلاث عشرة سنة (٤٩٨ — ٥١١ / ١١٠٥ — ١١١٨) بذل خلالها جهداً كبيراً فى القضاء على قوة الباطنية المتزايدة إذ قتل عبد الملك بن عطاش صاحب قلعة أصبهان[٣] ؛ وفيما عدا ذلك لم يقع فى عهد السلطان محمد ما يستحق الذكر سوى مناوأته ابن أخيه إياز الذى حاول خلعه وتقلد السلطنة مكانه . وعلى الرغم من إبرام الصلح بينهما ، لم يفتر إياز عن مناوأة السلطان محمد ودبر مؤامرة لقتله ، ولكن أمر هذه المؤامرة قد كشف واغتيل إياز عند دخوله قصر السلطنة[٤] . أضف إلى ذلك هذه الحملة التى شنها السلطان محمد على الأمير صدقة بن مَزْيد (بفتح الميم والياء وسكون الزاى) صاحب الحلة والبصرة وواسط الذى انضم إلى الأمير إياز واستولى على البصرة (٤٩٩ هـ) ثم على قلعة تكريت[٤] وزادت

---

(١) وفيات الأعيان حـ ١ ص ٢٤٢ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ .
(٣) ابن الأثير جـ ١٠ ص ١٦١ — ١٦٣ .
(٤) المصدر نفسه جـ ١٠ ص ١٤٤ — ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٠ — ١٥١ ، ١٥٤ .

الدهشة بين صدقة والسلطان محمد وخشى كل منهما الآخر وامتنع صدقة عن الاجتماع بالسلطان وتوسط الخليفة المستظهر فى إصلاح ذات البين بينهما ، وسار صدقة بن مزيد من الحلة إلى بغداد على رأس خمسين ألف عربى ، فأرسل الخليفة الرسل والكتب إلى أصبهان مستنجداً بالسلطان محمد بن ملكشاه الذى استشار المنجمين ، فأشار عليه أحدهم بحرب صدقة[١] ، ونشبت الحرب بين جند صدقه بن مزيد وجند السلطان محمد وحلت الهزيمة بالسلاجقة وأسر كثير من جندهم ووقع الاضطراب فى صفوفهم ، ولم تغن محاولات الخليفة فى إقرار الصلح بينهما ، ثم عاد السلاجقة فجمعوا صفوفهم وحملوا على جند صدقة وهزموهم هزيمة منكرة . وقد ضرب أحد جند الأتراك صدقة على وجهه فشوهه وأصابه آخر بسهم فى ظهره وتعلق به غلام فجذبه عن فرسه ، فسقط إلى الأرض فضربه الغلام بالسيف فقتله ، وحمل رأسه إلى السلطان ودفن وهو فى التاسعة والخمسين من عمره بعد أن ظل فى الإمارة إحدى وعشرين سنة ، وقتل من أصحابه أكثر من ثلاثة آلاف فارس بينهم جماعة من أهل بيته وأسر ابنه دبيس بن صدقة ، وهرب ابنه الآخر بدران ابن صدقة إلى الحلة وأخذ ما لا يحصى من الأموال ، كما استولى على آلاف الكتب ، وذلك سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م)[٢] .

ويقترن هذا النصر بهذه القصة العجيبة الخاصة بمعرفة الطالع على أيدى المنجمين على ما ورد فى كتاب «جهار مقاله»[٣] (المقالات الأربع) تأليف النظامى العروضى السمرقندى الذى ترجمه الأستاذ إدوارد براون إلى الإنجليزية وتكلم عنه فى الجمعية الآسيوية الملكية بإنجلترا سنة ١٩٠٢ (ص ٦٠٥)[٤] .

---

(١) النظامى العروضى السمرقندى : جهار مقاله ، ترجمه عزام والخشاب (القاهرة ١٣٦٨/١٩٤٩) ص ٧١ — ٧٢ .

(٢) ابن الأثير جـ ١٠ ص ١٦٥ ١٦٩ .

(٣) Browne, II, p. 302 (1) Anecdote XXIX (pp. 102 — 104).

(٤) وقد ذكر السمرقندى (ترجمة ص ٧١ — ٧٢) أن هذا المنجم لم يكن واسع العلم وأن الخمر قد لعبت بلبه فيما بعد فقال لأحد ندماء السلطان : « إنى علمت أن الأمر لا يعدو واحدا من اثنين إما أن يهزم هذا الجيش أو ذاك ، فإن هزم ذلك الجيش لقيت التشريف ، وإن حلت بهذا الجيش الهزيمة فمن ذا يبالى بى ؟ ولما علم السلطان بذلك أمر بطرد هذا المنجم الغرنوى .

كان صدقة بن مزيد ، على ما وصفه ابن الأثير[١] ، « جواداً حليما صدوقاً ، كثير البر والإحسان ، ما برح ملجأ لكل ملهوف ، يلقى من يقصده بالبر والتفضل ، ويبسط قاصديه ويزورهم . وكان عادلا ، والرعايا معه فى أمن ودعة . وكان عفيفاً لم يتزوج على امرأته ولا تسرّى عليها ، فما ظنُّك بغير هذا . ولم يصادر أحداً من نوابه ولا أخذهم بإساءة قديمة . وكان أصحابه يودعون أموالهم فى خزانته ، ويُدلُّون عليه إدلال الولد على الوالد . ولم يسمع برعية أحبت أميرها كحب رعيته له . وكان متواضعاً . . . يحفظ الأشعار ويبادر إلى النادرة رحمه الله ، لقد كان من محاسن الدنيا[١] » .

عاد السلطان محمد إلى بغداد سنة ٥٠١ هـ ورفع الضرائب والمكوس وغيرها بعد أن شكا منها أهل بغداد[٢] . وبعد خمسة أشهر عزم على الخروج من بغداد والعودة إلى أصبهان . وفى سنة ٥٠٢ هـ استولى السلاجقة بقيادة مودود على مدينة الموصل وكان الجاولى قد استولى عليها قبل ذلك بسنتين . واستمرت الحروب بين السلاجقة بقيادة مودود صاحب الموصل وطغتكين صاحب دمشق وإياز بن إيلغازى وغيرهم وبين بلدوين ملك بيت المقدس . وأسر بلدوين فى طبرية بعد معركة طاحنة ، ثم سار الأمير آقسنقر البرسقى (والد عماد الدين زنكى) وكان السلطان محمد قد ولاه الموصل بعد قتل مودود ،[٣] ومعه مسعود بن محمد فعبرا الفرات ودارت بينهما وبين الفرنجة عدة معارك انتهت بانتصار الفرنجة . كما دارت الحروب بين أمراء السلاجقة أنفسهم .

صفات محمد بن ملكشاه — وأخلاقه — وفاته

كان السلطان محمد عادلا حسن السيرة شجاعا ، ومما يدل على عدله أن خازن بيت ماله قتل على أيدى الباطنية ، فأمر السلطان بعرض مافى خزانته من مال وجواهر . وكان بهذه الخزانة درج به كثير من نفيس الجواهر ، فأقر السلطان بأن الخازن عرض عليه هذا الدرج قبل موته بأيام وأعلمه أن أصحابه وكانوا تجاراً غرباء قد حفظوه عنده ، فأمر السلطان

---

(١) جـ ١٠ ص ١٦٩ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ .

(٣) قتل مودود سنة ٥٠٧ هـ على يد أحد الباطنية بعد أن أدى صلاة الجمعة بالجامع الأموى بدمشق ، وقيل إن طغتكين صاحب دمشق هو الذى دبر مؤامرة لقتل مودود . ابن الأثير جـ ١٠ ص ١٨٧ .

أحد غلمانه بأن يحتفظ بهذه الجواهر ويسأل عن أصحابها وقد أيقنوا من ضياعها ويئسوا من الحصول عليها . ولما أحضرهم الخادم سلم السلطان محمد إليهم الجواهر [١] .

كان السلطان محمد بن ملكشاه ، على ما وصفه ابن خلكان [٢] ، « رجل الملوك السلجوقية وفحلهم ، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة ، والبر للفقراء والأيتام والحرب للطائفة الملحدة (يعنى الباطنية) ، والنظر فى أمور الرعية » .

وقد أورد ابن خلكان [٣] أن الإمام أبا حامد الغزالى نصح للسلطان محمد بن ملكشاه بأن يتحلى بحميد الصفات ومكارم الأخلاق وأن يعلم أنه بقدر عناية الإنسان بهذه الحياة الدنيا ، ينبغى أن يعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة وأنه يجب أن يفكر فى الوقت نفسه فى هذه الحياة الآخرة ، لأن الإنسان مهما امتد به الأجل لابد صائر إلى هذا المصير المحتوم ، فيقول: « اعلم ياسلطان العالم أن بنى آدم طائفتان : طائفة غفلاء (غافلون) نظروا إلى شاهد حال الدنيا وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ولم يتذكروا فى اليقين الأخير ، وطائفة عقلاء جعلوا اليقين الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم ، وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم ، وما الذى ينزل من الدنيا فى قبورهم ، وما الذى يتركون لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله » .

مرض السلطان محمد بن ملكشاه . ولما اشتد به المرض وشعر بدنو أجله أحضر ابنه محموداً وقبله وبكى كل منهما وأمره أن يجلس على عرش السلطنة وينظر فى أمور الناس . وكان إذ ذاك فى الرابعة عشرة من عمره ، وفى اليوم الرابع والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ٥١١ هـ مات السلطان محمد بمدينة أصبهان ، وكان فى السابعة والثلاثين من عمره [٤] . وخطب لابنه محمود بالسلطنة فى اليوم التالى .

(٥) محمود بن محمد بن ملكشاه ٥١١ — ٥٢٥ — /١١١٧ — ١١٣١

كان محمود فى الرابعة عشرة من عمره حين جلس على عرش السلطنة كما تقدم ، وخطب له بأصبهان فى ٢٥ ذى الحجة سنة ٥١١ وببغداد فى ١٣ المحرم سنة ٥١٢ هـ . وفى شهر

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٩٨.

(٢) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٦٤ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٤ ص ١٦٤ .

(٤) خطب للسلطان محمد بالسلطنة ببغداد أول مرة فى شهر ذى الحجة سنة ٤٩٢ هـ وقطعت خطبته مرات عدة .

ربيع الثانى من هذه السنة توفى الخليفة المستظهر بعد أن ولى الخلافة أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما . وكانت أيام هذا الخليفة ، كما يقول ابن الأثير ، أيام سرور للرعية ، فكأنها من حسنها أعياد . وكان غزير العلم حسن الخط ، يحب الخير ولا يميل إلى أذى الناس[1]، وقد خلف المستظهر ابنه المسترشد (٥١٢ — ٥٢٩ ١١١٨ — ١١٣٥) .

وفى عهد السلطان محمود شق أخوه طغرل صاحب ساوة وآوة وزنجان عصا الطاعة عليه سنة ٥١٣ ﻫ (١١١٩ م) وزادت الوحشة بينهما . وفى هذه السنة دخل محمود فى حرب دامية مع عمه سنجر لأنه خشى أن يغلب على دولته . وكان سنجر كما وصفه البندارى[2] « السلطان الأعظم عماد آل سلجق ، وسلطنته ببلاد خراسان إلى العراق إلى ما وراء النهر إلى غزنة وخوارزم والترك ، قد عمت ونمت ، ودولته قد علت وسمت ، وهو شيخ البيت وعظيمه وحافظ عزه ومديده » .

ويظهر أن محموداً هو الذى بدأ بالعدوان ، فقد أرسل إلى والى سمرقند كتابا يقول فيه إنه عزم على المسير بجيوشه ميمما شطر بلاد عمه سنجر ويطلب إلى هذا الوالى أن يفاجىء عمه سنجر وهو بجيوشه من خلفه ، وبذلك تقع جيوش عمه بين طرفى الكماشة . كما طلب مساعدة ملك العرب دبيس بن صدقة وغيره من الأمراء ، ولما علم سنجر بما دبره له ابن أخيه عزم على قصد بلاد الجبل والعراق والاستيلاء على ما بيد محمود ، لصغر سنه واستئثار وزيره وحاجبه بالحكم . وقد وصل جيش السلطان محمود إلى الرى وأصبحت مقدمة جيش سنجر على مقربة منها . وبعث الأمير على بن عمر إلى سنجر يذكره بوصية أبيه السلطان محمد لابنه محمود بتعظيم عمه سنجر والرجوع إلى رأيه وتنفيذ أمره على أن يحافظ سنجر على السلطنة لولده [3] .

على أن جهود الأمراء الذين تدخلوا فى الصلح لم تحل دون احتدام القتال بين الفريقين ، واستهان محمود بعسكر عمه واطمأن إلى كثرة خيله وشجاعة عسكره ، وحملت الهزيمة بميمنة سنجر وميسرته واضطرب أمر جيشه وارتدوا على أعقابهم . ولكن سنجر صمد على القتال وأطلق مامعه من الفيلة نحو جيش محمود ، فتراجعت خيله بأصحابها ، وأشفق سنجر على

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣ .

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١١٠

(٣) المصدر نفسه ص ١١١.

السلطان الصغير وقال لأصحابه: «لا تفزعوا الصبي بحملات الفيلة فـكفوها عنهم» . وحملت الهزيمة بالسلطان محمود وقطعت الخطبة له وأقيمت للسلطان سنجر فى ٢٦ جمادى الأولى سنة ٥١٣ هـ .

سار محمود بعد أن حلت به الهزيمة إلى أصبهان ، ويمم سنجر شطر همذان ، ورأى قلة عسكره ، فراسل ابن أخيه فى الصلح . ولم تكن هذه الهزيمة سيئة الأثر بالنسبة إلى السلطان الصغير ، لأن سنجر استمع إلى شفاعة أمه ، وكانت جدة السلطان محمود ، فأشارت عليه بالصلح [١] . فلقى سنجر ابن أخيه بالقبول وعفا عن كبوته وجعله ولى عهده وقلده ولاية العراق التى حكمها نحواً من أربع عشرة سنة ، وزوجه من ابنته « ماه ـ ملك خاتون » التى ماتت بعد ذلك بقليل (٥٢٣ هـ) ، وحزن أبوها على وفاتها حزناً عميقاً حتى إنه بعث فى طلب الشاعر البخارى عمقمق (بفتح العين الأولى والثانية وسكون الميم) ، وكان قد تقدمت به السن ، لينظم قصيدة فى رثائها [٢] .

وفى سنة ٥١٤ هـ خرج مسعود صاحب الموصل وأذربيجان على أخيه السلطان محمود . وقد عزا المؤرخون ذلك إلى أن بعض الأفراد وعلى رأسهم دبيس بن صدقة دعوا مسعوداً لطلب السلطنة وحملوه على مناجزة أخيه محمود ، وساعدهم على ذلك تفرق جند محمود بعد انهزامه أمام جيوش عمه سنجر ، بل إنهم دعوا لمسعود بالسلطنة بأذربيجان والموصل والجزيرة ثمانية وعشرين يوماً ، وضربوا له الطبول التى تضرب للسلاطين خمس مرات فى اليوم . ولكن محموداً انتصر بمساعدة آقسنقر البرسقى على أخيه مسعود الذى هرب وتفرق أصحابه واختفى عن الأنظار . ولكن محموداً رق لحال أخيه وأرسل آقسنقر للبحث عنه . ولما عثر عليه أخبره بعفو أخيه عنه وأعاده إلى عسكره . وأمر السلطان بحسن استقباله والحفاوة به وأمنه وأحسن إليه [٣] . وقد كوفىء الأمير آقسنقر بولاية مدينة الموصل وأعمالها وما ينضاف إليها كالجزيرة وسنجار وغيرها لاخلاصه للسلطان وحسن تدبيره وما أبلاه فى حروبه مع أخيه مسعود والفرنجة وما أظهره من حسن السياسة فى استمالة مسعود [٤] ، ثم زوجه أم مسعود وقلده ولاية

---

(١) ماتت خاتون جدة السلطان محمود بمرو سنة ٥١٥ هـ واحتفل بجنازتها وعزائها احتفالا لم يشهد له مثيل .

Browne, Vol. II, p. 303. ٢٠٨ — ٢٠٧ ص ١٠ (٢) ابن الأثير ج

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

بغداد وعهد إليه بقتال دبيس بن صدقة بن مَزْيد صاحب الحلة إذا تعرض للبلاد . وقد دارت بين جند السلطان وجند دُبَيْس بن صدقة حروب كثيرة ، كما خرج الخليفة المسترشد لحربه بعد أن تسلم منه رسالة يهدده فيها بتخريب بغداد . وعبر الخليفة نهر دجلة وعليه قباء أسود وعمامة سوداء وطرحة ، وعلى كتفه البردة وفى يده القضيب وفى وسطه منطقه . وحلت الهزيمة بدبيس بن صدقة ، ولكنه عاد فاستولى على البصرة ثم غادرها والتحق بالفرنجة واشترك معهم فى حصار حلب وأطمعهم فى أخذها فلم يظفروا بها ، ثم فارقهم والتحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وحسن له الاستيلاء على العراق سنة ٥١٩ (١) .

ويظهر أن خروج الخليفة المسترشد إلى حرب دبيس بن صدقة وقيادته الجيش بنفسه وما أحرزه من نصر وظفر عليه بسبب التفاف الجند حوله قد أثار مخاوف السلطان محمود حول ازدياد قوة الخليفة ، وأشار عليه بعض خاصته بالتوجه إلى بغداد ووضع حد لهذه المخاوف . ولما علم الخليفة بعزم السلطان محمود نصح له بأن يرجىء الذهاب إلى بغداد حتى تهدأ الأحوال بعد ما تعرضت له من ضعف بسبب حرب دبيس ، وما أصاب الأهلين من وهن لاشتداد وطأة الغلاء وندرة الأقوات ، فحمل ذلك السلطان محموداً على الظن بأن نصيحة الخليفة إنما صدرت عن سوء نية ، فقوى عزمه على دخول بغداد ، وأبى الخليفة إلا أن يرحل عنها مع أولاده وأهل بيته ، وبكى الناس لخروجه وأرسل السلطان يستعطفه ويسأله العودة إلى داره . وتشبث الخليفة برأيه وأثار بذلك غضب السلطان ، ونشب القتال بين السلطان والخليفة فدارت الدائرة على جند الخليفة ودخل السلطان محمود بغداد فى المحرم سنة ٥٢١ هـ ونهب عسكره دار الخلافة ودور بعض الأمراء . عند ذلك عبر الخليفة إلى الجانب الشرقى من بغداد على رأس ثلاثين ألف مقاتل وبدأ القتال . على أن خروج أبى الهيجاء مع عسكره من جيش الخليفة وانضمامه إلى جيش السلطان محمود ، ووصول عماد الدين زنكى صاحب واسط على رأس جيش كثيف وأسطول قوى لنصرة السلطان ـ كل ذلك قد أدخل اليأس إلى قلب الخليفة فجنح إلى السلم ، واعتذر له السلطان عما حدث وعفا عن أهل بغداد وأبى أن يحرقها كما أشار عليه بذلك أحد رجاله ، وأقام إلى ١٠ ربيع الثانى سنة ٥٢١ هـ وعاد إلى همذان ، ثم عاد إلى بغداد سنة ٥٢٣ هـ ، بعد

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

أن التقى بعمه سنجر ، ومعه دبيس بن صدقة لإصلاح ذات البين بين دبيس بن صدقة والخليفة . ثم عاد السلطان محمود إلى همذان ، ولكن « دبيس » عاد فخرج عن طاعة الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذى بعث إليه جيشاً يتألف من عشرة آلاف فارس ، فغادر البصرة واختفى[١] .

وفى سنة ٥٢٤ هـ دعا بعض الأمراء مسعوداً من جرجان وحملوه على مناجزة أخيه السلطان محمود[٢] . وقد أثارت هذه الأنباء مخاوف السلطان فسار من بغداد إلى همذان . ولما وصل إلى كرمانشاه لقيه أخوه مسعود وتبددت بذلك الأراجيف بخروجه عليه ، فندبه السلطان للقيام ببعض المهام فى أرانية ، وقيل إنه أقطعة مدينة كنجة وأعمالها وسيره إليها ، فبقى بها حتى مات السلطان محمود[٣] .

صفات محمود وأخلاقه ـ وفاته

لا ريب أن عهد السلطان محمود يتسم ببعض الأخطاء التى غلا البندارى فسماها مفاسد وهى تتلخص فيما يلى .

(١) إنه أثار فى مستهل خلافته هذه الحرب ضد عمه سنجر مع اتساع نفوذه وبسطة سلطانه ووصية أبيه له بطاعته والعمل بمشورته .

(٢) إنه شجع ملك العرب دبيس بن صدقة من مَزْيد وقربه إليه برغم حروبه المستمرة وتخريبه البلاد وطمعه الذى لايحد ومناوأته الخليفة واستمالة الأمراء إليه عن طريق الرشوة مما ساعد على نشر الفساد فى البلاد .

(٣) إنه أساء معاملة عامله بفارس وطالب الأهالى بالأموال ، مما أدى إلى قيام الوحشة بينهما وامتناع هذا العامل فى إرسال المال وكان قد أعده لإرساله ، مما أدى إلى عصيانه على السلطان ، فاختل نظام هذه البلاد .

(٤) إنه أساء معاملة جماعة من أمراء مازندران وغيرهم كانوا بخدمة السلطان ، وكانوا

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥ ، ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

(٢) وقد قيل إن مسعوداً كان عند عمه سنجر بخراسان وإنه حمله على ذلك .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٥٤ .

ينتسبون إلى الأكراد . وكان أبوه السلطان محمد قد تألفهم بإحسانه ، وأثار بذلك سخطهم فعادوا إلى بلادهم المنيعة وشنوا عصا الطاعة وجاهروا بالعصيان .

(٥) استيلاء أمراء السلاجقة على الأموال من الذهب والفضة والحلى والجواهر والأثاث والتحف وغيرها التى خلفها السلطان محمد ، حتى أصبحت بيوت الأموال خاوية على عروشها .

(٦) تشتيت شمل مماليك السلطان وإضعاف شأنهم حتى لا يناوئوا حكمه أو يفكروا فى الخروج عليه .

(٧) تشتيت وزيره أبى القاسم الأنسباذى الدركزينى الجنود التى كانت على حصار قلعة ألموت بعد أن أشرف هؤلاء الجنود على فتح هذه القلعة وتتبع أهلها جند السلطان وقتلهم عدداً كبيراً منهم .

(٨) تولية الأمير سلجق أخى السلطان بلاد فارس بدل الأمير قيصر الذى هرب إلى خراسان وبث شكواه إلى الأمير سنجر .

(٩) أخذ رجال الحاشية مماليك السلطان الصغار وإخراجهم المغنيات من الجوارى والإماء من دار الحرم إلى دورهم ، وانقطاعهم إلى سماع غنائهن .

(١٠) تسلط الحاشية على السلطان واجتراؤهم عليه واتخاذهم من صغر سنه وقلة تجاربه سبيلا للتأثير عليه[١] .

على أنه برغم هذه العيوب التى عددها البندارى كان السلطان محمود ، على ما وصفه ابن الأثير ، حليما كريماً يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه ، مع القدرة ، قليل الطمع فى أموال الرعايا عفيفاً عنها كافًّا لأصحابه عن التطرق إلى شىء منها[٢] . وذكر ابن خلكان[٣] أن محموداً كان متوقد الذكاء ملماً بالعربية ، حافظاً للأشعار والأمثال ، عارفاً بالتواريخ والسير ، شديد الميل إلى أهل العلم والخير . وكانت السلطنة فى أواخر أيامه قد ضعفت وقلت أموالها ، حتى إنهم عجزوا عن إقامة وظيفة صاحب الشراب ، فدفعوا له يوما بعض صناديق خزانة المال الفارغة ، فباعها وأنفق ثمنها .

---

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١١٠ ـ ١١٤ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٢٥٥ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

أما ميل السلطان محمود إلى العفو فيتجلى من موقفه من أخيه طغرل الذى خرج عليه وإرساله الهدايا إليه ووعده بزيادة إقطاعاته برغم عصيانه له وتشبثه برأيه . كذلك نرى محموداً برغم انتصاره على أخيه مسعود يرق لحاله ويطيب له قلباً ويؤمنه ، كما يتجلى من موقفه من الخليفة المسترشد الذى عبر عن سخطه حين علم بعزم محمود على دخول بغداد وما كان من نشوب القتال بينهما وإلحاق الهزيمة بجند الخليفة — على الرغم من هذا نرى محموداً يستعطف الخليفة ويعتذر إليه ويعفو عن أهل بغداد الذين ناوئوه العداء وقاتلوه ولا يستمع إلى بعض خاصته الذين أشاروا بحرق بغداد حاضرة العباسيين ثم يعود إلى همذان بعد قليل ، ثم يعمل على إصلاح ذات البين بين ملك العرب صدقة ابن دبيس وبين الخليفة ، ثم يعفو للمرة الثانية عن أخيه مسعود الذى حمله بعض الأمراء على مناجزته طمعاً فى السلطنة ثم يندبه للقيام ببعض المهام ويزيد من إقطاعه . ولعل من أبرز محاسن السلطان محمود هذه الحروب التى شنها على الصليبيين وعلى الباطنية وفتحه قلعة أَلَموت فى فارس وقلعه بانياس فى الشام ، وكانتا من أمنع معاقل هذه الطائفة التى تفاقم خطرها وتطاير شررها فى ذلك العصر .

وفى رأينا أن هذه العيوب التى أخذها بعض المؤرخين على محمود إنما ترجع إلى حداثة سنه وقلة تجاربه مما أدى إلى طمع أمراء دولته فى أموال الدولة واشتطاطهم فى جمع الضرائب الفادحة التى أثقلت كاهل الناس فكرهوا الحكم السلجوقى وتبرموا به . هذا إلى قيام المنافسة بين هؤلاء الأمراء وتفرق كلمتهم واستبدادهم بالأمر . ولو مد الأجل بالسلطان وحنكته التجارب لكان له شأن آخر بين سلاطين السلاجقة .

وفى شهر شوال سنة ٥٢٥ هـ (١١٣١ م) مات السلطان محمود بهمذان ، وخلف ابنه داود وخطب له فى بلاد الجبل وأذربيجان . وكان محمود فى السابعة والعشرين ومات بعد أن ولى السلطنة اثنتى عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما .

(٦) مسعود بن محمد بن ملكشاه [1] ٥٢٧ — ٥٤٧/١١٣٢ — ١١٥٢ .

ولد مسعود بن محمد بن ملكشاه من حظية تسمى « نيست » . وبعد وفاة السلطان محمد زوجها خلفه وابنه السلطان محمود من الأمير « منكوبرس » والى السلطان محمد بالعراق

---

(١) يفهم من هذا أن محمداً ومسعوداً لم يكونا من أم واحدة .

وعهد بتنشئة ابنه مسعود إلى الأمير « مودود » صاحب الموصل . وقد اشتبك مودود هذا فى عدة معارك انتصر فيها على الصليبيين . وفى شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ ، خرج مودود إلى المسجد الأموى ويده فى يد طُغْتكين صاحب دمشق ، وبعد صلاة الجمعة ضرب رجل مودوداً ضربة قاتلة ، فحمل إلى دار طغتكين الذى قيل إنه هو الذى دبر هذه المؤامرة لأنه خشى أن ينتزع مودود دمشق منه . ولما اتصل نبأ مقتل مودود بمسامع السلطان محمد عهد بتنشئة ابنه مسعود إلى أتابكه آق سُنْقُر وأقطعه الموصل والجزيرة(١) .

وبعد وفاة السلطان محمود سنة ٥٢٥ هـ خطب لابنه داود بأذربيجان وبلاد الجبل . وقد دخل داود فى حرب مع عمه مسعود الذى استولى على تبريز وتم الصلح بينهما فى المحرم سنة ٥٢٦ هـ . ثم رحل مسعود إلى بغداد وأوفد وهو فى طريقه إليها رسله إلى الخليفة العباسى المسترشد يطلب إليه إقامة الخطبة له . ولكن الخليفة رأى أن يرجع فى هذا الأمر إلى سنجر ، وكان عميد البيت السلجوقى ، وأشار عليه بأن تكون الخطبة له وحده(٢) .

وقد ظل أنصار سنجر أكثر من خمسة أشهر حتى وصل إلى الرى (ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـ) ووصل بعده طغرل بن محمد بن ملكشاه ليلا ، وقابل عمه سنجر فى صبيحة اليوم التالى . وكان الخبر قد وصل بأن سعود بن محمد قد استعد للجلوس على عرش السلطنة ، فزهد أخوه طغرل فيها وعزم على الرحيل . ولما أحس سنجر بهذا العزم أرسل إلى طغرل وزيره وحاجبه يحملان إليه رسالته بتوليته سلطنة العراق وولاية العهد من بعده .

بعد ذلك سار سنجر إلى نهاوند ، والتقى جيشه ، وعلى ميمنته طغرل وعلى ميسرته خوارزم شاه ، بجيش مسعود الذى حلت به الهزيمة وأسر هو ووزيره وبعض أمرائه . ثم خلع سنجر على ابن أخيه طغرل وزوده بنصائحه وودعه وانصرف إلى الرى(٣) . بعد ذلك قفل سنجر راجعاً إلى خراسان لأنه بلغه أن نائبه فيها قد عصاه (جمادى الآخرة سنة ٥٢٦ هـ) . أما طغرل فقد انصرف إلى الرى وحكم فى الحقيقة باسم سنجر ، ولكنه

---

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٥٧ .

(٣) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٢ — ١٤٥ .

لم يحسن علاقته بالسلطان والخليفة معاً[١] ، وقد صحب طغرل وزيره الدركزينى (بفتح الدال مع التشديد والكاف وسكون الراء) .

وأما داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه الذى ولاه أبوه عهده فقد سار إلى همذان وناصره أتابكه ومربيه آقسنقر الأحمديلى ، ولكن بعض أمرائه الأتراك انضموا إلى عمه طغرل ، ثم التقى الجمعان وحلت الهزيمة بداود وأتابكه آقسنقر[٢] .

وقد ذكر البندارى [٣] أن الدركزينى وزير طغرل انفرد بأمور الدولة وطغى وبغى وبالغ فى إيذاء الناس واشتط فى مصادرة الأموال . وقد بلغ من ضجر طغرل بسوء تصرفات وزيره أن أرسل إليه يقول : « إنك أسأت سمعتى وأسمعت مساءتى وفضحت أمرى وأمرت بفضيحتى . ألم يكفك سلخ جلود العظماء حتى شرعت فى استفراغ دماء الضعفاء واستنزاف دماء الفقراء » .

ثم سمع السلطان طغرل بتحرك جيوش أخيه مسعود وخروجه مع الأمير آقسنقر فى جموع كثيرة ، فيمم طغرل شطر أذربيجان ودخل تبريز وأقام فى قلعتها حتى ينتهى فصل الشتاء وتفتح الطرق . وقصد مسعود بغداد ومر فى طريقه على أصبهان ثم اتجه غربا وأحل الهزيمة بجند أخيه طغرل ، ثم عاد إلى همذان[٤] ، واستولى على البلاد التى مر بها ، [٥] والتف حوله الجند من كل حدب وصوب ، وأحلت جيوش مسعود الهزيمة بجيوش داود بن محمود [٦] .

دخل داود بغداد . ولما علم بقرب وصول مسعود إليها خرج إليه ولقيه ودخلا معاً بغداد . ونزل مسعود بدار السلطنة (صفر ٥٢٧ هـ) وأقيمت الخطبة له ولداود من بعده ، وخلع الخليفة عليهما ، واستولى مسعود على بلاد طغرل الذى لم يلبث أن مرض ومات بهمذان ودفن بها فى أوائل سنة ٥٢٨ هـ بعد أن ولى السلطنة سنتين وشهراً أو شهرين. وكان داود ، كما يقول البندارى [٧] ، « جامعاً للخلال التى تفتقر إليها السلطنة من الحزم

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٥ — ١٤٦ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٦٠ .
(٣) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٧ — ١٤٨ .
(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .
(٥) البندارى ص ١٤٩ — ١٥١ ، ١٥٤ — ١٥٥ .
(٦) المصدر نفسه ص ١٥٥ — ١٥٦ .
(٧) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٥٧ .

والتحفُّظ والعزم والتيقظ» . وقد قامت الوحشة بين الخليفة المسترشد وبين مسعود ودارت الحرب بينهما ، وأسر الخليفة وحبس بقلعة قريبة من همذان . ولما بلغ ذلك أهل بغداد حَسَوْا التراب على رءوسهم وبكوا ، وخرج النساء حاسرات يندبن الخليفة ومنعوا الخطبة والصلاة . قال ابن الجوزى : وتعرضت حاضرة العباسيين عشرين يوما كانت تقع الزلازل خمسا أو ست مرات فى اليوم وأخذ الهلع من قلوب الناس كل مأخذ ، حتى إن سنجر عميد البيت السلجوقى بعث إلى ابن أخيه مسعود يقول : «ساعة وقوف الولد غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين ويقبل الأرض بين يديه ويسأله العفو والصفح ، ويتنصل غاية التنصل ، فقد ظهر عندنا من الآيات السماويه والأرضية مالا طاقة لنا بسماع مثلها ، فضلا عن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل.. وتشويش العساكر وانقلاب البلدان . ولقد خفت على نفسى من جانب الله وظهور آياته وامتناع الناس من الصلاة فى الجوامع ومنع الخطباء مالا طاقة لى بحمله . فالله الله ! تتلافى أمرك وتعيد أمير المؤمنين إلى مقر عزه ، وتحمل الغاشية[1] بين يديه كما جرت عادتنا وعادة آبائنا ، فنفذ مسعود ما أمر به وقبّل الأرض بين يدى الخليفة ووقف يسأله العفو . ثم أرسل سنجر رسولا آخر ومعه عسكر يستحث مسعوداً على إعادة الخليفة إلى « مقر عزه » . وقد ذكر السيوطى أن جند السلطان سنجر ضم سبعة عشر من الباطنية ، قيل إن مسعوداً هو الذى دسهم ، وأنهم هجموا على الخليفة وهو فى خيمته وقتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه ، ولم يشعر بهم حرس الخليفة إلا بعد أن ارتكبوا جريمتهم ، فقبضوا عليهم وقتلوهم .

على أن السلطان مسعوداً ظهر بمظهر الحزن ، فجلس للعزاء ، واشتد بكاء الناس ، ونمى هذا النبأ إلى أهل بغداد ، فخرجوا حفاة ممزقى الثياب ، وخرجت النساء ناشرات الشعور يلطمن ويرثين الخليفة الذى كان محبَّباً إليهم لما عرف عنه من الورع والتقوى والشجاعة وبعد الهمة والعدل والرفق بالناس . ويعزو المؤرخون انهزام الخليفة إلى تخلى جند الأتراك الذين انضووا تحت لواء السلطان مسعود ، على الرغم من تفوق جيش الخليفة الذى ضم كثيراً من الفقهاء والصوفية والشعراء والأطباء ، وقد وصف السيوطى[2] الخليفة المسترشد فقال إنه كان خطيباً مفوهاً وأديباً لامعاً وشاعراً مجيداً ، كما كان محدثاً متفقهاً فى الدين ، خطب المسترشد يوم عيد أضحى فقال :

---

(١) لعل سنجر يقصد أن مسعوداً يجب أن يقف خاشعاً متضرعاً أمام الخليفة سائلا إياه العفو والصفح عما بدر منه ، ذاكراً أقوال يوم القيامة على ماورد فى سورة الغاشية والغاشية هى يوم القيامة الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا سلطان ولا جاه إلا من أتى الله بقلب سليم

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٦ .

«الله أكبر ماسبحت الأنواء وأشرق الضياء وطلعت ذكاء (الشمس) ، وعلت على الأرض السماء . الله أكبر ما همى سحاب ولمع سراب وأنجح طلاب وسرّ قادما إياب ، إلى آخر ما ذكره فى خطبته البليغة . ثم جلس ثم قام فخطب وقال : اللهم أصلحنى فى ذريتى وأعنى على ماوليتنى وأوزعنى شكر نعمتك ووفقنى ، وانصرنى » .

كان المسترشد كما يقول السيوطى ذا همة عالية وإقدام ورأى وهيبة ، « ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب ، وأحيا رسم الخلافة ونشر عظامها ، وشيد أركان الشريعة وطرز أكمامها وباشر الحروب بنفسه » .

قتل المسترشد بمدينة مراغة فى الخامس عشر من شهر ذى القعدة سنة ٥٢٩ هـ [١] .

مات الخليفة المستظهر سنة ١١١٨/٤٨٧ ، وأغتيل كل من المسترشد وابنه الراشد على أيدى الباطنية : الأول (بتحريض سنجر على ما قيل) والثانى بمراغة حيث كان أسيراً فى يد السلطان مسعود فى ٢٩ أغسطس سنة ١١٣٥ (٥٢٩ هـ) ، واغتيل الثالث فى أصبهان بعد أن عزله السلطان نفسه بسنتين (يونيه ١١٣٨ / ٥٣٣) . وفى الحق أن خلفاء عصر سنجر لم يكونوا أكثر من ألاعيب فى أيدى السلاجقة .

وقد ذكر النظامى العروضى السمرقندى أن الخليفة المسترشد خرج من بغداد على رأس جيش كثيف كامل العدة قاصداً بلاد سنجر فى محاولة يائسة كلفته حياته لوضع حد لقوة السلاجقة ، وأنه خطب فى طريقه خطبة الجمعة التى امتازت بالبلاغة . وقد عبر فيها عن ضيق صدره وخيبة أمله من السلاجقة وبث شكواه منهم فى هذه الكلمات فقال :

« فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبغوا علينا (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) » [٢] .

ولى الخلافة بعد المسترشد ابنه الراشد (٥٢٩ — ٥٣٠ / ١١٣٥ — ١١٣٦) ، فسار على سياسة أبيه . وقد حزن لوفاة أبيه ، ودفعه حب الثأر له على إهانة رسول السلطان مسعود وإثارة العامة عليه وتحريضهم على تخريب داره . وكانت خاتمة الخليفة الراشد كخاتمة أبيه . فقد سار مسعود إلى بغداد وحاصرها وأرغم الخليفة على الهرب إلى الموصل

---

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٦١ — ١٦٢ .

(٢) جهار مقاله ترجمة ص ٣٠ — ٣١ . Browne, Vol. II, 304—305

والاحتماء بزنكى. بل إننا نرى السلطان مسعودا يجمع القضاة والشهود ويحملهم على الكتابة بذم الخليفة ، فكتبوا محضراً بخلعه (١) .

وقد ذكر صاحب الفخرى (ص ٢٧١) أن السلطان مسعوداً استشار الوزير الزينبى (٢) فيمن يوليه الخلافة فقال له : يامولانا ! هناك رجل يصلح لها ، فسأله عن اسمه فقال له : يامولانا إن سميته أخاف أن يقتل ، ولكن إذا دخلنا بغداد سميته لك . فلما احتاجوا إلى إجلاس خليفة ، سمى الزينبى له أبا عبد الله محمد المقتفى عم الراشد ، فبايع له وأجلسه على سرير الخلافة (٣) . وقد قتل الراشد وهو على باب أصبهان سنة ٥٣٢ هـ ، وقيل إنه قتل على يد الباطنية كأبيه من قبل (٤) .

ولما آلت الخلافة إلى المقتفى (٥٣٠ — ٥٥٥/١٣٦ — ١١٦٠) عول على ترسم خطى آبائه ونجح كثيراً فى هذه السبيل ، ولم تكن جهوده موجهة ضد السلطان مسعود مباشرة ، وإنما كانت موجهة ضد بعض أمراء البيت السلجوقى ، فإن بعض هؤلاء الأمراء تسلطوا على محمد (بن محمود أخى مسعود) وحرضوه على الخروج على السلطان وأشاروا عليه بالسير معهم إلى بغداد (٥٤٣ هـ) . وقد استمع إليهم محمد هو وأخوه ملكشاه وحاصروا بغداد وقتلوا أكثر من خمسمائة من أهلها وأبوا رفع الحصار إلا بعد أن يدفع إليهم الخليفة ثلاثين ألف دينار . وهنا ظهرت شجاعة الخليفة الذى رجع إلى رأى يحيى بن محمد بن هبيرة ، وكان يتولى زمام قصره ، فأشار عليه بأن يستخدم هذا المال فى جمع الجند لرد خطر العدو . ويقول البندارى (٥) : إن هذا العمل أرضى السلطان مسعوداً وساعده على جمع جيش قوى استعان به الخليفة فى حروبه المقبلة .

أصيب السلطان مسعود بالحمى ومات بهمذان فى أول شهر رجب سنة ٥٤٧ هـ ، وكان ، كما وصفه ابن الأثير (٦) ، « حسن الأخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس . . . وكان

---

(١) الفخرى ص ٢٧٣ .

(٢) هو أبو القاسم على ويرجع نسبه من جهة أمه إلى زينب بنت سليمان بن عبد الله بن العباس .

(٣) الفخرى ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١١ — ٢٨ .

(٥) زبدة النصرة ونخبة العصرة ص ١٨١ . ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٦٠ ، ٦٦ .

(٦) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٥ .

كريماً عفيفاً عن الأموال التى للرعايا ، حسن السيرة فيهم . (وكان) من أحسن السلاطين سيرة وألينهم عريكة ، سهل الأخلاق لطيفاً . وقد ماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقى فلم تقم بعدها راية يعتمد عليها ولا يلتفت إليها » .

ولى السلطنة بعد مسعود ابن أخيه ملكشاه (بن محمود بن محمد) الذى قضى وقته فى اللهو واللعب وترك شئون الدولة إلى خاصبك بن بلنكرى ، فلم ير فيه الرجل الذى يستطيع النهوض بأعباء السلطنة ، فاستدعى أخاه محمد بن محمود وولاه السلطنة[1] . وهنا دخل النزاع بين الخليفة العباسى والسلطان فى طور جديد .

(٧) نهاية عصر السلاجقة العظام .

على أن عصر السلاجقة العظام لم ينته فى الحقيقة بوفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ ، بل امتد حتى وفاة سنجر سنة ٥٥٢ هـ . فقد بدأت المتاعب التى عكرت صفو السلاجقة بهذه الثورة التى قامت على يد أتسز خوارزم شاه الذى أعلن استقلاله سنة ٥٣٥ هـ . (١١٤٠ — ١١٤١ م) . وفى السنة التالية هزم كفار الأتراك سنجر وأسروا زوجته وهزموا مائة ألف من جنده ، كما ضاعت مرو وسَرَخْس (بفتح السين والراء وسكون الخاء) ونَيْسابور وبَيْهق (بفتح الباء والهاء وسكون الباء) .

وفى سنة ٥٤٧ هـ قوى أمر الغور بزعامة علاء الدين الذى حاصر هَراة ونهبها ثم ملك بلخ ، فقصده سنجر وأحل الهزيمة بالغور وهزم علاء الدين . ولما مثل بين يدى سنجر قال له : ياحسين ! لو ظفرت بى ما كنتَ تفعل ؟ فأخرج له قيداً من الفضة وقال له : كنت أقيدك بهذا وأحملك إلى فيروزكوه (حاضرة الغور) » . ولكن سنجر استماله إليه ، فخلع عليه ورده إلى حاضرة ملكه .

وفى سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) هزم سنجر هزيمة منكرة على أيدى الغز الأتراك الذين ملكوا طوس ونيسابور وقتلوا كثيراً من الأهالى من بينهم طائفة من العلماء عرفوا بزهدهم وورعهم ، كما أمر سنجر نفسه . وكان من الناحية العملية سجيناً بأيدى الغز ولو أنه عومل بشىء من الاحترام ظاهراً ، ولم يستطع أن يتنقّل حيث شاء أو يحمى رعاياه البؤساء حتى خريف ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) حين نجح بعض أنصاره وخدمه فى إطلاقه عن طريق

---

(١) المصدر نفسه ج ١١ ص ٧٢ — ٧٣ .

إرشاد بعض حراسه وحملوه إلى مرو حاضرة خراسان التى اتخذها حاضرة لدولته[١] . وهنا أخذ سنجر يجمع الجند ، ولكن الحزن الذى ملك عليه نفسه لما وصلت إليه بلاده من التخريب والإقفار وتقدم سنه أدى إلى وفاته بعد ذلك بأشهر قليلة (١٤ ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٦ — ١١٥٧) ودفن كجده ألب أرسلان فى مرو فى البناء المعروف بدولت — خانه الذى بناه هناك » . وقد ذكر ابن الأثير[٢] أنه دفن فى قبة بناها لنفسه وسماها قبة الآخرة . « وكاد يعود إليه ملكه فأدركه أجله » كما يقول ابن خلكان[٣] ، ومات سنجر وقد بلغ الثانية والسبعين بعد أن حكم ، على ما ذكره البندارى[٤] ، إحدى وستين سنة حكم فيها خراسان وبلاد ما وراء النهر إحدى وأربعين سنة . وقد تلقب بلقب ملك عشرين سنة ، وأقيمت له الخطبة على أكثر منابر الدولة السلجوقية المترامية الأطراف نحو أربعين سنة ، « وخطب له بالعراقين والشام وديار بكر وديار ربيعة والحرمين ، وقد ضربت الدنانير باسمه فى الخافقين ، وتلقب بالسلطان الأعظم معز الدنيا والدين » .

---

(١) يقول ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص ٨٥) إن سنجر أسر فى أيدى الغز من ٦ جمادى الأولى سنة ٥٤٨ إلى شهر رمضان سنة ٥٥١ هـ .

(٢) الكامل ج ١١ ص ٩٠ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٤٨ .

(٤) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ .

الباب الثالث

الدول المستقلة التابعة للخلافة العباسية

أولاً — دول الأتابكة

من هم الأتابكة ؟

كان الجيش فى عهد السلاجقة يقوده مماليك من الأتراك الذين عرفوا بطول أجسامهم وجمال خلقتهم . وكان هؤلاء المماليك يشترون بالمال ويعتنقون الإسلام وينشئون نشأة إسلامية خالصة فى بلاط الخليفة أو السلطان حيث يتصلون اتصالا وثيقاً بأمراء السلاجقة . وكان هؤلاء الأمراء يجلبون بصفة عامة من بلاد القفجاق[1] شمالى البحر الأسود . وتسند إلى هؤلاء المماليك بعض الوظائف كرياسة الخدم وتنظيم القصور ، ومنهم من يلحق بحرس الخليفة أو السلطان . وإذا ما أدى هؤلاء المماليك خدمات هامة للدولة أو أظهروا كفاءة خاصة أو صفة حربية ممتازة وبرهنوا على إخلاصهم وولائهم وصلوا إلى أعلى المناصب فى الجيش والبلاط أو أسند إليهم حكم إقليم من أقاليم الدولة السلجوقية المترامية الأطراف .

على أن هذا النظام كانت له نتائج خطيرة . وكان هؤلاء الأرقاء الذين عرفوا بالشجاعة والإقدام إذا ما بلغوا سن الرجال وظهرت مواهبهم الممتازة وأسند إليهم حكم إحدى الولايات يتمردون على ساداتهم ويحلون محلهم فى حكم الولايات . وهكذا أخذ الضعف يدب فى جسم الدولة السلجوقية ، فتفككت هذه الإمبراطورية وانقسمت إلى دويلات ، وانتقل النفوذ والسلطان إلى هؤلاء المماليك الذين خاضوا المعارك باسم السلاطين وأصبحوا أوصياء أو « أتابكة » على أبناء هؤلاء السلاطين .

وبموت السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) أفل نجم البيت السلجوقى فى العراق ، وتقاسم ملك السلاجقة دول كثيرة تعرف بدول الأتابكة (ويعبر عنها بأتابك العسكر) .

---

(١) Lane — Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 159.

روى القلقشندى (١) عن السلطان عماد الدين فى تاريخه أن أتابك أصله أطابك ومعناه الوالد الأمير . وأول من لقب بهذا اللقب نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ ولقب بألقاب منها «أتابك» ومعناها الأمير المسن ، وقيل إن اتابك معناه الأب الأمير ، ومعناه الأمير الكبير سناً ، وهو عادة يكون أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل . وأتابك كلمة تركية معناها مربى الأمير ، لأن « أتا » معناها مربى و « بك » معناها الأمير .

وكان السلاجقة يعهدون بتربية أبنائهم إلى المقربين إليهم من الأتراك الذين ترعرعوا فى كنفهم . وإذا عين السلطان أحد أبنائه على مدينة من المدن أو ولاية من الولايات أرسل معه هذا التركى (المربى) ليعاونه فى الحكم ويسدى إليه ما يراه من النصائح . ويمنح هذا الشرف لكبار رجال الدولة وقواد الجيش . وسرعان ما أصبح هؤلاء الأتراك أصحاب النفوذ الفعلى فى الولايات التى عهد إليهم بالحكم فيها ، فيعملون لحسابهم الخاص ويتخذون لأنفسهم الألقاب التى تروق لهم (٢) . وقد ساعد على ضعف الدولة السلجوقية بعد موت ملكشاه نشوب الحروب بين أبنائه وأحفاده ، واتخذ الأتابكة من ذلك فرصة لفرض سيطرتهم على البلاد التى تحت حكمهم وتسابقوا إلى توسيع رقعة بلادهم كل على حساب الآخر . وبذلك نشأ الصراع بين أفراد البيت السلجوقى كما نشأ بين الأتابكة ، وعمل بعض الخلفاء بعد موت السلطان مسعود على استرداد نفوذهم فى العراق (٣) .

وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكة إلى درجة الملك وأورثوه أولادهم من بعدهم . ومن ثم أطلق على هذه الأسرات أو الدول فيما بعد اسم دول الأتابكة . وإلى جانب هذه الدول دول أخرى ولاها بعض السلاجقة قوادهم فأورثوها أبناءهم ، ويلقبون بلقب شاهات . ومن هؤلاء الشاهات شاهات خُوارَزْم وشاهات أرمينية . ومن دول الأتابكة أتابكية كيفا وماردين ، وأتابكية دمشق (٤) ، وأتابكية دانشمَنْد (٥) ، ثم أتابكيات الموصل والجزيرة وسورية وأذربيجان وفارس . وعلى هذا النحو نرى .

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٠٣ .

(٤) وتسمى الدولة البورية التى أسسها طغتكين الذى عينه تتش على دمشق .

(٥) وقد أسسها محمد بن جمشتكين فى كبادوكيا وشملت سيواس وقيصرية وملطية .

Cambridge Mediaeval History, vol. IV, pp. 313—315

(١) طغتكين مملوك تُتُش (بضم التائين) السلجوقى يعين ابنه ووريثه الصغير دُقاق « أتابك » ، ثم يستأثر هذا الأتابك بالملك فى دمشق بعد وفاة ابن السلطان فتقوم أتابكية دمشق .

(٢) وكان عماد الدين زنكى مؤسس أتابكية الموصل والجزيرة وحلب وغيرها ابن آقسنقر ابن أحد مماليك ملكشاه ثالث سلاطين السلاجقة .

(٣) ويرجع أصل أتابكيه أذربيجان إلى رجل من بلاد القفجاق كان مملوكا للسلطان مسعود السلجوقى فى العراق .

(٤) وكان أنوشتكين جد شاهات خوارزم يشغل وظيفة الساقى (حامل الكأس) فى بلاط السلطان ملكشاه .

(٥) وكان أرتق (بضم الألف مع الهمزة والتاء وسكون الراء) وسلغر (بفتح السين والغين وسكون اللام) مؤسسا الأسر فى ديار بكر وفارس من قواد السلاجقة .

(٦) وكان خانات البجتچنيين (Begtigimids) والهزاراسبيديين Hazarâspids والقُطْلغينيين Kutlughs قواداً لمماليك السلاجقة .

(٧) وفى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) كانت أراضى الإمبراطورية السلجوقية عدا بلاد الأناضول فى أيدى قواد السلاجقة الذين أدخلوهم فى خدمتهم .

هكذا انقسمت الدولة السلجوقية العظيمة إلى دويلات الاتابكة المتعادية المتنافرة مما مهد السبيل لاسترداد بعض الخلفاء العباسيين بعض ما كان لهم من سلطان ، وأتاح الفرصة للصليبيين لشن حروبهم على البلاد الإسلامية ، كما مهد ذلك السبيل للمغول لاحتياج أقاليم بلاد ماوراء النهر وفارس والعراق . ولنتكلم فى شىء من الإيجاز عن أهم دول الاتابكة .

٤٥٧ — ٥٤٩ هـ ١١٠٣ — ١١٥٤ م

(١) أتابكية دمشق

البوريون أو أسرة بورى

٤٩٧	سيف الإسلام ظهير الدين طُغْتكين	١١٠٣
٥٢٢	تاج الملك بورى	١١٢٨

(١) Lane - Poole, op cit., p. 96

٥٢٦	شمس الملوك إسماعيل	١١٣٢
٥٢٩	شهاب الدين محمود	١١٣٤
٥٣٣	جمال الدين محمد	١١٣٨
٥٣٤ — ٥٤٩	مغير الدين أبق (أو أنز، ت ٥٦٤ هـ)	١١٣٩ — ١١٥٤

[آل زنكى]

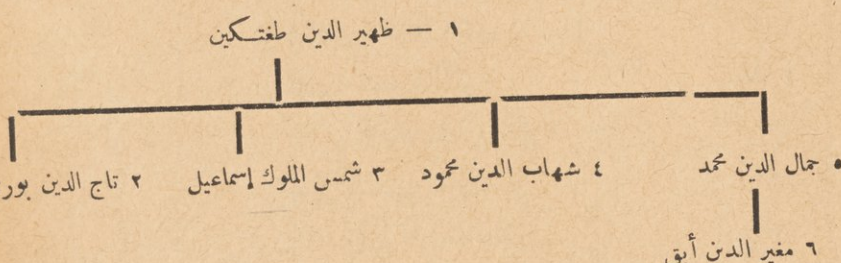

تنسب هذه الدولة إلى طغتكين أحد قواد الجيش السلجوقى ، وكان مملوكا لتُتُش ابن ألب أرسلان ، وكان والياً على دمشق عند وفاة أخيه ملكشاه[١] . وكان يطمع فى السلطنة بعد وفاته واستطاع أن يمد نفوذه على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمذان ويقيم الخطبة لنفسه فى بغداد[٢] . وقد قتل تتش سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) فى أثناء صراعه مع السلطان بركياروق ، وانفرد ابنه دقاق (ضم الدال) بحكمها ، فاتخذ طغتكين « أتابك » له ، فحكم البلاد باسمه[٣] .

وقد استمرت أتابكية دمشق تحت نفوذ أسرة طغتكين حتى آل حكمها إلى أسرة زنكى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) باستيلاء نور الدين محمود بن زنكى عليها لتقوية جيوشه للوقوف فى وجه الصليبيين[٤] ، ثم انتقل هذا النفوذ إلى الأيوبيين فى عهد صلاح الدين

---

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٩٠ .

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٠٣ .

Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 161.

(٤) ابن الأثير : الباهر ص ١٨٨ — ١٩١ .

الأيوبى الذى قلد أمورها إلى الأفضل ، ثم انتقل هذا الحكم إلى العادل بعد وفاة أخيه صلاح الدين[1] .

(٢) بيت زنكي

٥٢١ — ٦٣١ هـ	(أ) أتابكة الموصل	١١٢٧ — ١٢٣٤
٥٢١	عماد الدين زنكى (مع حلب)	١١٢٧
٥٤١	سيف الدين غازى الأول	١١٤٦
٥٤٤	قطب الدين مودود	١١٤٩
٥٦٥	سيف الدين غازى الثانى	١١٦٩
٥٧٦	عز الدين مسعود الأول	١١٨٠
٥٨٩	نور الدين أرسلان شاه الأول	١١٩٣
٦٠٧	عز الدين مسعود الثانى	١٢١٠
٦١٥	نور الدين أرسلان شاه الثانى	١٢١٨
٦١٦	ناصر الدين محمود	١٢١٩
٦٣١	بدر الدين لؤلؤ	١٢٣٣
٦٥٧ — ٦٦٠	إسماعيل بن لؤلؤ	١٢٥٩ — ١٢٦٢

[المغول]

٥٤١ — ٥٧٧ هـ	(ب) أتابكة سورية	١١٤٦ — ١١٨١ م
٥٤١	نور الدين محمود بن زنكى	١١٤٦
٥٦٩ — ٥٧٧	الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود	١١٧٣ — ١١٨١

[أتابكية الموصل وسنجار ، ٥٧٧ هـ ؛ ثم الأيوبيون ٥٧٩ هـ]

٥٦٦ هـ — ٦١٧	(ج) أتابكة سنجار	١١٧٠ — ١٢٢٠ م
٥٦٦	عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود	١١٧٠

---

(١) Lane—Poole. op. cit. pp. 213—215.

بيت زنكى

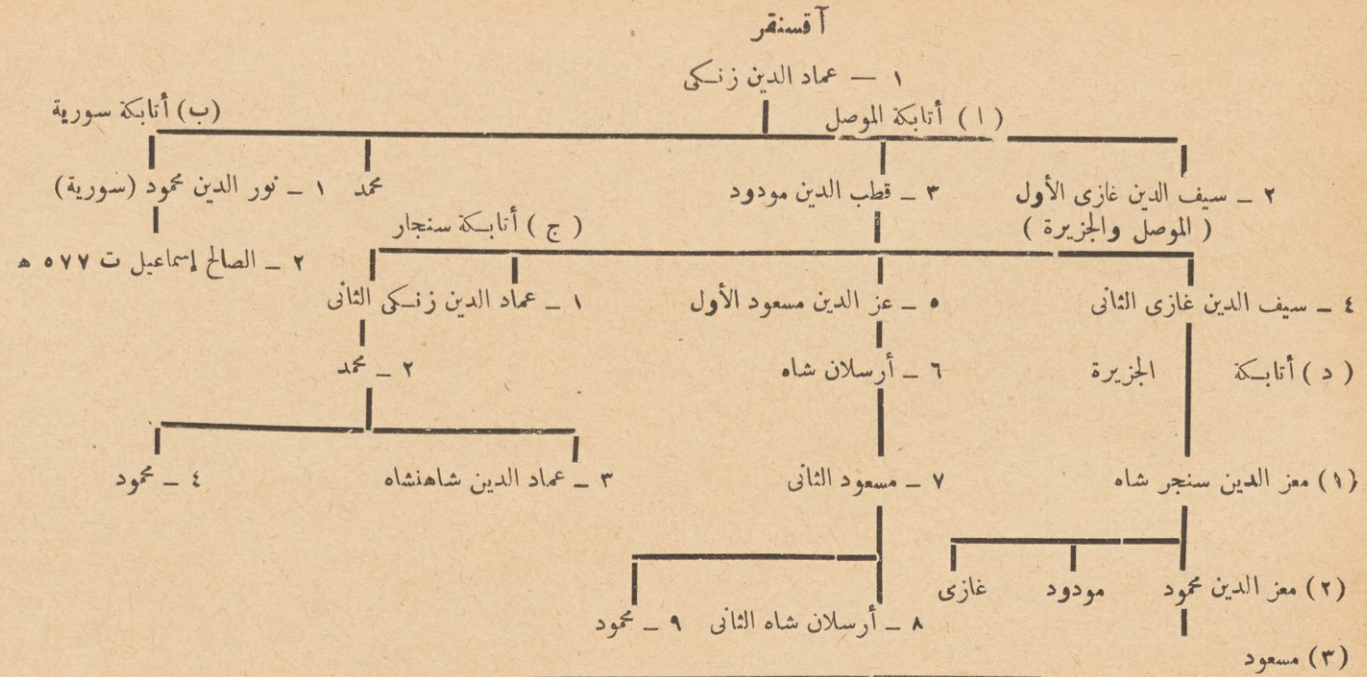

بدر الدين لؤلؤ (وزير محمود بن مسعود الثانى)

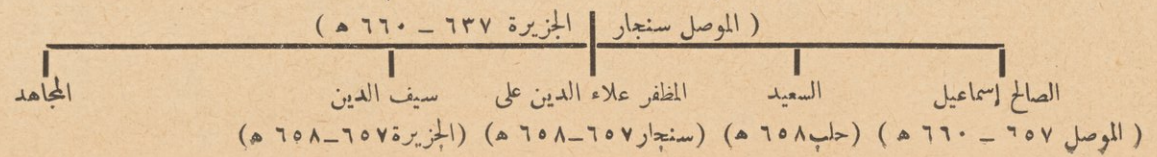

٥٩٤	قطب الدين محمد	١١٩٧
٦١٦	عماد الدين شاهنشاه	١٢١٩
٦١٦ — ٦١٧	محمود	١٢١٩ — ١٢٢٠

[الأيوبيون]

٥٧٦ — ٦٤٨	(د) أتابكة الجزيرة	١١٨٠ — ١٢٥٠
٥٧٦	معز الدين سنجر شاه	١١٨٠
٦٠٥	معز الدين محمود بن سنجر	١٢٠٨
٦٣٩ — ٦٤٨	مسعود	١٢٤١ — ١٢٥٠

[الأيوبيون]

(٢) أتابكية الموصل[1] ٥١٦ — ٦٦٠ / ١١٢٢ — ١٢٦٢ .

كانت الدولة السلجوقية فى عهد سلاطينها الثلاثة الأول قوية الجانب مهيبة السلطان . فلم يجرؤ أحد من الأمراء أو القواد على الاستقلال بولايته . وهذا يرجع إلى اتحاد أفراد البيت السلجوقى وعدم تطلعهم إلى الملك إذ كان جل همهم المحافظة على استقلال دولتهم . ولكن الخلاف أخذ يدب إلى جسم الدولة بعد وفاة السلطان ملكشاه (٤٨٥ هـ) إذ قام الصراع بين أفراد البيت المالك رغبة فى الاستيلاء على السلطنة مما أنهك قواهم العسكرية وبدد مواردهم المالية وأطمع فيهم القواد ، فاستطاع بعضهم أن يؤسسوا إمارات محلية تتمتع بالاستقلال . وكان بعض هؤلاء القواد ينتمون إلى البيت السلجوقى والبعض الآخر من مماليك سلاطين هذا البيت وقواده .

وقد تركز معظم هذه الإمارات فى الجهات الشمالية من الدولة السلجوقية أى فى أواسط

---

(١) وتسمى هذه الأتابكية أيضاً «دولة بنى زنكى» ، وقد ذكر لينبول (pp. 162—163) أن حكم هذه الأسرة بدأ فى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) لأن عماد الدين زنكى تقلد فى هذه السنة حكم بعض البلاد ومنها الموصل والجزيرة ونصيبين . واعتبر زامباور (ص ٢٢٦) سنة ٥١٦ هـ بداية حكم هذه الأسرة حتى تولى عماد الدين زنكى حكم مدينة واسط .

وجنوبى آسيا الصغرى والجزيرة والشام وأذربيجان وغيرها . وهى مناطق وعرة المسالك تمتاز بغاباتها الكثيفة ويسكنها التركمان الشجعان . كما تمتاز هذه المناطق بحصونها المنيعة ، إذ كان بعضها محاطا بسورين كمدينة آمد .

(١) آقسنقر :

كان آقسنقر (بسكون القاف الأولى وضم السين والقاف الثانية) الحاجب مملوكا تركيا من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقى . وقد تربى معه منذ صغره ، حتى قيل إنه « لصيقه » ورافقه فى طفولته وصباه . فلما تولى ملكشاه السلطنة سنة ٤٦٥ هـ بلغ آقسنقر منزلة رفيعة عنده وأصبح من كبار أمرائه وأخلص أصدقائه حتى إنه كان يعتمد عليه فى كثير من أمور دولته ، وعلت منزلته فلقبه قسيم الدولة (١) و « الحاجب »(٢) .

ويظهر أن إيثار السلطان ملكشاه آقسنقر قد أثار حنق الوزير نظام الملك ، فعمل على إبعاده .

وفى سنة ٤٧٧ هـ أمر ملكشاه آقسنقر بالمسير مع عميد الدولة بن فخر الدولة إلى الموصل والاستيلاء عليها من العقيليين(٣) . وفى سنة ٤٧٩ هـ اشترك آقسنقر مع السلطان ملكشاه فى الاستيلاء على حلب من نواب العقيليين فيها ، ثم قلده السلطان ولايتها (٤) .

ولا يبعد أن تكون تولية آقسنقر حلب استجابة لوزيره نظام الملك الذى أراد إبعاد آقسنقر عن بلاط السلطان ، فتسلم « قسيم الدولة » حلب وأعمالها كحماه ومَنْبِج واللاذقية وكفر طاب وفرض طاعته على صاحب شَيْزَر (٤٨١ هـ)(٥) ، كما وسع نطاق ولايته فضم إليها حمص (٤٨٣ هـ) وحصن أفامية (٤٨٤ هـ) ، واشترك مع السلطان ملكشاه فى مهاجمة العقيليين وانتصر عليهم على مقربة من الموصل(٦) . وبعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ضم آقسنقر مدينة تكريت إلى أملاكه(٧) .

---

(١) ابن الأثير : الباهر ص ٤ .
(٢) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٧ — ٢١٨ .
(٣) ابن الأثير : الباهر ص ٥ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٥ .
(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩ — ١٢٠
(٦) المصدر نفسه ص ١٢١
(٧) ابن الأثير : الباهر ص ١١ — ١٨ .

وفى سنة ٤٧٨ هـ أصبح آقسنقر نائباً لتتش (أخى السلطان ملكشاه) الذى طمع فى السلطنة بعد وفاة أخيه (٤٨٥ هـ) وحاول استخلاصها لنفسه من بركياروق ابن ملكشاه واستولى على معظم بلاد الجزيرة ثم على الموصل . ثم اتجه تتش إلى أذربيجان لمحاربة السلطان بركياروق ، فلما تقارب الجيشان اتفق آقسنقر مع بعض الأمراء على الإنضمام إلى السلطان بروكياروق[١] ، وضعفت بذلك قوة تتش فعاد إلى الشام . وقد عزا المؤرخون موقف آقسنقر إلى عدم تولية تتش إياه بعض البلاد التى استولى عليها وتقريبه بعض الأمراء عليه[٢] .

أمر السلطان بركياروق آقسنقر بالمسير إلى حلب لوضع حد لمطامع عمه تتش ، والتقى الجيشان على مقربة من هذه المدينة ، فانتصرت قوات تتش وأسر آقسنقر ثم قتل سنة ٤٨٧ هـ .

وفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) حارب تتش السلطان بركياروق على مقربة من الرى ، ولكن الهزيمة حلت به وقتله أحد مماليك آقسنقر واستتب الأمر لبركياروق[٣] .

(ب) عماد الدين زنكى

كان عماد الدين زنكى عند وفاة أبيه فى العاشرة من عمره ، وكان يقيم بمدينة حلب ، فخاطه السلطان بركياروق برعايته واهتم بتربيته ؛ وأقطع مماليك أبيه الإقطاعات الواسعة فى الموصل وعهد إليهم بتربيته[٤] .

ولما بلغ عماد الدين زنكى مبلغ الرجال ظهرت مواهبه وشجاعته ، واشترك مع ولاة الموصل فى جميع المعارك التى نشبت مع الصليبيين فى الجزيرة والشام وتل باشر ومعرة النعمان وطبرية وفى الرها وسميساط ، وأظهر فى هذه المعارك شجاعة نادرة أكسبته شهرة عظيمة بين المسلمين[٥] ، ولما توفى السلطان محمد بن ملكشاه (٥١١ هـ) خلفه ابنه محمود فى السلطنة . وكان السلطان محمد قد عهد إلى « جيوش بك » بتربية ابنه مسعود وجعله « أتابك » له على الموصل ، فلما مات السلطان محمد دفع جيوش بك مسعوداً إلى التوجه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٨٢ — ٨٣

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٩ .

(٣) ابن الأثير : الباهر ص ٣٠ — ٣٧

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٤٦ .

(٥) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٨٣ — ١٨٩ . الباهر ص ١٧ — ٢٠ .

إلى بغداد للجلوس على عرش السلطنة فيها ، وانضم إليهما عماد الدين زنكى ، ولكن هذه المحاولة انتهت بالإخفاق واستتب الأمر للسلطان محمود بن ملكشاه[١] .

وفى سنة ٥١٤ هـ شق جيوش بك عصا الطاعة ثانية على السلطان محمود . ولكن عماد الدين زنكى أبى الانضمام إلى « جيوش بك » الذى حلت به الهزيمة[٢] ، وقد قدّر السلطان محمود لعماد الدين زنكى موقفه ، فولى آقسنقر البرسقى[٣] ولاية الموصل (٥١٥ هـ) وأمره بتقديم عماد الدين زنكى على سائر الأمراء والرجوع إلى رأيه ومشورته[٤] .

وقد استطاع عماد الدين زنكى أن يكتسب رضا سلاطين السلاجقة وأن يتنقّل فى حكم البلاد بفضل ما أوتيه من حزم وشجاعة . ففى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) تقلد ولاية مدينة البصرة[٥] ، فعمل على حمايتها من هجمات العرب ، ولا سيما دُبَيْس بن صدقة أمير بنى مزيد بالحلة ، وقضى على الفوضى التى انتشرت فى ربوعها ، واستطاع كل من عماد الدين زنكى والبرسقى الذى كان يشغل منصب شحنة بغداد[٦] أن يصدا هجمات دبيس بن صدقة وبشتتا جنده ويأسراه ، وعاد الخليفة إلى بغداد[٧] .

وفى سنة ٥١٧ هـ عزل البرسقى من شحنكية العراق وأعيد إلى الموصل لجهاد الصليبيين ، فاستدعى عماد الدين زنكى ، وكان بالبصرة ، لموافاته بالموصل ، ولكنه آثر البقاء بأصبهان مع السلطان محمود الذى قربه إليه وزوجه من أرملة أحد كبار أمرائه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣ — ٢٠٥ .

(٢) ابن الأثير : الباهر ص ٢٢ — ٢٣ .

(٣) ويلقب أيضا قسيم الدولة سيف الدين . انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٨ — ٢٢٠ .

(٤) ابن الأثير : الباهر ص ٢٤ .

(٥) ابن الأثير : الباهر ص ٤٥ .

(٦) الشحنة (بكسر الشين مع التشديد وسكون الحاء وفتح النون) فى اللغة الجماعة من المحاربين يقيمون فى البلد لحمايتها والدفاع عنها من هجوم العدو ؛ وأطلق هذا اللفظ على من يقوم برياسة هؤلاء المحاربين . والشحنكية معناها محافظ المدينة أو الإقليم .

(٧) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣١ — ٢٣٢ . الباهر ص ٢٥ — ٢٧ . ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

فى احتفال فخم شهده السلطان[١] . وفى السنة التالية أقطع هذا السلطان عماد الدين زنكى البصرة ، فقضى على الفوضى التى سادتها ، ثم ولاه واسط للدفاع عنها إذا ما فكر الخليفة فى إرسال جيش للاستيلاء عليها[٢] ، وقد قدر السلطان كفاية زنكى فولاه شحنكية العراق[٣] .

وفى سنة ٥١٩ هـ ساءت العلاقة بين الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذى سار إلى العراق لفرض سيطرته عليه ، وأرسل الخليفة جيشاً إلى واسط للاستيلاء عليها ، ولكن الهزيمة حلت بهذا الجيش ، ثم وصل السلطان إلى بغداد ولحق به زنكى على رأس قواته البرية والنهرية ، واضطر الخليفة إلى طلب الصلح ، فتم له ما أراد[٤] . ولم يطل مقام السلطان محمود ببغداد لاعتلال صحته ، فعاد إلى أصبهان حاضرة سلطنته ، وقبل رحيله ولى عماد الدين زنكى شحنكية بغداد والعراق بالإضافة إلى الولايات التى كان يحكمها . وقد ظل زنكى فى هذا المنصب نحواً من أربعة أشهر ، ثم صدر منشور السلطان بإقطاعه الموصل والجزيرة والشام[٥] . وسلمه ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجى وجعله أتابك لهما ، ومنذ ذلك الحين أطلق على زنكى لقب « أتابك »[٦] .

وفى سنة ٥٢٢ هـ استولى عماد الدين زنكى على حلب التى كان الصليبيون يهددونها من حين إلى حين .

(ح) علاقة عماد الدين زنكى بالخليفة والسلطنة

تقلّبت أحوال عماد الدين زنكى من حيث علاقته بالسلطان والخليفة . على أن هذه التقلبات لم تزعزع مركزه فى ولاية الموصل والجزيرة والشام ، فقد سار السلطان محمود إلى عمه سنجر شيخ السلاجقة وصاحب الكلمة العليا فى السلطنة لتصفية الخلافات القديمة بينهما . وكان دُبَيْس بن صدقة أمير الحلة عند سنجر ، فطلب من السلطان محمود العمل على

---

(١) ابن الأثير : الباهر ص ٢٧ — ٢٨ . الكامل ج ١٠ ص ٢٣٧ .
(٢) الباهر ص ٢٨
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٤٤ .
(٤) ابن الأثير : الباهر ص ٢٨ — ٣١ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٤ — ١٩٦ .
(٥) ابن الأثير : الباهر ص ٣٥ . الكامل ج ١٠ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ .
(٦) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٧ ، انظر مادة عماد الدين زنكى فى ابن خلكان ج ٢ ص ٧٩ — ٨٠ .

تحسين علاقته بالخليفة وتوليته الموصل والجزيرة والشام بدلا من عماد الدين زنكى . ولما وصل السلطان محمود إلى بغداد (المحرم سنة ٥٢٣ هـ) عرض على الخليفة طلب سنجر ، وكان عماد الدين زنكى قد علم بما دبر له ، فأسرع السير إلى بغداد وبذل الأموال الضخمة لكل من الخليفة والسلطان لإقراره فى منصبه من جديد .

وقد مال الخليفة والسلطان إلى تحقيق رغبة عماد الدين زنكى لعوامل كثيرة ترجع إلى ما كان يضمره الخليفة من الكراهية والبغضاء لدبيس بن صدقة ، لتحديه إياه وموقفه العدائى منه وشنه الغارات على بغداد ومساعدته الصليبيين على المسلمين . أما السلطان محمود فقد خشى أن يتخذ سنجر من تولية دُبَيْس على الموصل ذريعة لزعزعة نفوذه وتقويض سلطانه فى العراق[١] .

وفى سنة ٥٢٥ هـ ساءت العلاقة بين عماد الدين زنكى والخليفة المسترشد ، فقد طلب الخليفة تسليم دبيس بن صدقة ، وكان معتقلا فى دمشق ، على أن عماد الدين زنكى أطلق دبيساً وأحسن إليه وأعطاه الأموال ، ولعل زنكى أراد بذلك أن يراقب دبيساً ويحدّ من نشاطه إذا سولت له نفسه مناوأته . أما الخليفة فإنه كان يرمى من وراء تسليم دبيس أن يضع حداً لمناوأته إياه[٢] .

وفى سنة ٥٢٥ هـ سمع عماد الدين زنكى وهو فى طريقه إلى حمص نبأ وفاة السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه ، فطلب إلى الخليفة المسترشد أن يقيم الخطبة لألب أرسلان (وكان هو وأخوه الخفاجى تحت إشراف زنكى) . وكان عماد الدين زنكى يرمى إلى الاستئثار بالنفوذ باسم هذا الأمير الصغير إذا آلت إليه السلطنة . لكن الخليفة اعتذر عن إجابة زنكى إلى طلبه بحجة أن ألب أرسلان لا يزال طفلا غير صالح للحكم ، وأن السلطان محمود كان قد عهد بالسلطنة وهو بأصبهان لابنه داود فى الوقت الذى أقام عمال الأقاليم الخطبة لهذا السلطان الجديد ، وأضاف إلى ما تقدم أنه فى انتظار رأى سنجر كبير البيت السلجوقى وسلطان خراسان وما وراء النهر[٣] .

وفى سنة ٥٢٦ هـ استمال مسعود (بن محمد بن ملكشاه) حاكم أذربيجان عماد الدين زنكى وطلب مساعدته فى المطالبة بعرش السلاجقة مقابل تقليده مدينة إرْبل التى كانت

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٩٩ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٤٦

تابعة له ، وتم الاتفاق بينهما على المسير إلى بغداد لمطالبة الخليفة بإقامة الخطبة لمسعود والاعتراف به سلطاناً على العراق [١] . على أن سلجوقشاه سبق أخاه مسعوداً وسار إلى بغداد على رأس جيش كبير . ولكنه توجه (وهو فى طريقه إلى بغداد) إلى تكريت لإيقاف تقدم زنكى[٢] وعلى مقربة من هذه المدينة دارت بين الفريقين موقعة انتهت بانهزام عماد الدين زنكى ، فيمم شطر تكريت حيث أكرم نجم الدين أيوب وفادته وسهل له سبيل عودته إلى الموصل . ومن هنا نشأت العلاقة بين بيت زنكى والبيت الأيوبى ، تلك العلاقة التى كان لها أثر بعيد فى الأحداث التاريخية التى ظهر فيها نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى بطل الحروب الصليبية فى عصره[٣] .

وقد أدرك مسعود وسلجوقشاه أن الصراع بينهما يتيح الفرصة لتدخل عمهما سنجر على إحباط هذه الخطة ، فاستمال إليه عماد الدين زنكى ودبيس بن صدقة ، وطلب إليهما التوجه نحو بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة له فيها ثم لطغرل بن محمد بن محمود ابن ملكشاه من بعده ، وتعهد سنجر بإضافة منصب شحنكية بغداد إلى عماد الدين زنكى[٤] ، وبأن يقطع « دبيس » إمارة الحلة[٥] ولكن سنجر انتصر على جيوش مسعود وسلجوقشاه وأجلس طغرل بن محمد على عرش سلطنة العراق . ثم حلت الهزيمة بزنكى ودبيس ، واستطاع مسعود أن يجلس على عرش سلطنة العراق وإيران بموافقة عمه سنجر .

وكان من أثر هذه المعارك أن ساءت العلاقة بين عماد الدين زنكى والسلطان مسعود من ناحية وبين الخليفة المسترشد من ناحية أخرى . وفى شهر رمضان سنة ٥٢٧ هـ سار الخليفة إلى الموصل على رأس جيش قيل إنه بلغ ثلاثين ألف مقاتل وحاصرها ثمانين يوماً ، واتخذ مسعود من حصار الخليفة الموصل فرصة للاستيلاء على بغداد بمساعدة

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤٧

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٥٧ ، جـ ١١ ص ١٣٨

(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤ ، جـ ٦ ص ١٤٣ ـ ١٤٤

(٤) الشحنكية أو الشحنة معناها منصب محافظ المدينة أو الإقليم كما تقدم .

(٥) ابن الجوزى : المنتظم جـ ١٠ ص ٢٦ . ابن الأثير الكامل جـ ١٠ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ ، كتاب الباهر ص ٤٤ .

دبيس بن صدقة . ولذلك اضطر الخليفة إلى العودة إلى بغداد ، وعقد الصلح مع زنكى (٥٢٨ هـ) وتبودلت الهدايا بينهما ، وأرسل ابنه سيف الدين غازى يؤكد طاعته للخليفة وولاءه له[١] .

ثم طلب الخليفة المسترشد من عماد الدين زنكى رفع الحصار عن دمشق والتوجه إلى بغداد ليشترك فى النزاع الذى قام بينه وبين مسعود (٥٢٩ هـ) ، ودارت الحرب بين الخليفة والسلطان قبل وصول جيش زنكى ، وأسر الخليفة ثم قتل على أيدى الباطنية ، وأخذت البيعة للراشد (ذو القعدة سنة ٥٢٩ هـ)[٢] . وكان من أثر انهزام جيش الخليفة المسترشد وزنكى أن ضاعت الفرصة فى تولية ألب أرسلان عرش السلطنة ، الأمر الذى قد يؤدى إلى سيطرة كل من الخليفة وزنكى على شئون العراق باسم السلطان الصغير . كما كان من أثر هذه الهزيمة أن زاد التوتر بين عماد الدين زنكى والسلطان مسعود الذى حاول اغتيال زنكى ليتخلص من نفوذه ، فاستدعاه للتوجه إلى أصبهان . ولكن دبيس بن صدقة أخبر زنكى بنوايا السلطان وحذره من غدره . ولما علم السلطان مسعود بما فعله دبيس أمر به فقتل ، وعلم زنكى بذلك فأسف على مقتل دبيس وقال : « فديناه بالمال وفدانا بالروح » .

أراد الخليفة الراشد أن يثأر لمقتل أبيه ، فألب الأمراء على السلطان مسعود الذى رماه بتدبير هذه المؤامرة التى انتهت بقتل أبيه واستعان بعماد الدين زنكى ، وأقيمت الخطبة لداود بن محمود (بن محمد بن ملكشاه) فى بغداد . ثم قام النزاع بين الخليفة الراشد والأمراء الذين حثهم على قتال مسعود الذى توجه إلى بغداد . واستطاع عماد الدين زنكى أن يصد قواته أول الأمر ، ثم اضطر إلى الخروج من بغداد بصحبة الخليفة متجهاً إلى الموصل . ودخل مسعود بغداد ، وخلع الخليفة الراشد وولى المقتفى الخلافة (فى ١٨ ذى الحجة سنة ٥٢٩ هـ)[٣] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٢ ، ٦ ؛ وكتاب الباهر ص ٤٧ ، ٤٨

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٠ ـ ١١ ؛ وكتاب الباهر ص ٤٩ ـ ٥٠

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٥ ، ١٧ . ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٦٥ ـ ٦٦ .

وقد اقتصرت إقامة الخطبة للخليفة الجديد (المقتفى على بعض أنحاء العراق ، على حين استمرت للخليفة الراشد الذى كان يقيم فى الموصل ويتمتع بحماية زنكى . واستطاع أعوان المقتفى أن يقنعوا عماد الدين زنكى بأخذ البيعة للخليفة الجديد ، فكافأه باقطاعه بعض أملاكه الخاصة وزاد فى ألقابه (٥٣٠ هـ)[١] ، وأخذ كل من الخليفة الجديد وعماد الدين زنكى العهود والمواثيق كل على الآخر ، وأرسل محضر بخلع الراشد وتوليه المقتفى ، فقرىء على منابر مساجد الموصل وأقر قاضى القضاة والوزير وزنكى . عند ذلك اتجه الراشد إلى مراغة (فى أذربيجان) ثم سار إلى أصبهان حيث قتل على أيدى الباطنية كما قتل أبوه من قبل[٢] . وقد عزا ابن الجوزى[٣] موقف زنكى إلى ضعف قواته العسكرية خلال صراعه ضد السلطان مسعود وتعرض إمارته لهجوم جيوشه وخوفه من بطش السلطان سنجر . وكان زنكى يرمى إلى تحقيق سياسته وهى توحيد الموصل والجزيرة والشام لتكوين جبهة إسلامية موحدة تقف فى وجه الصليبيين .

وقد أدى موقف عماد الدين زنكى من السلطان مسعود إلى تحسن العلاقة بينهما . وفى شهر ربيع الأول سنة ٥٣٢ هـ بعث السلطان مسعود رسوله إلى الموصل يحمل الخلع إلى زنكى .

وقد أدرك عماد الدين زنكى خطورة الأحوال فى شمالى الشام وتهديد الصليبيين مدينة حلب ، فأرسل قاضيه إلى السلطان مسعود يطلب منه العودة لدرء هذا الخطر ، على أن القاضى خشى أن تستخدم قوات السلطان فى تهديد إمارة زنكى نفسها فقال : « إننى أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة فيرسل قواته ، فإذا وصلوا إمارتنا استولوا عليها » . على أن عماد الدين زنكى آثر المصلحة الدينية على المصلحة الشخصية ، فرد على قاضيه ردا تتمثل فيه هذه الروح الإسلامية العالية فقال : « إن الصليبيين قد طمعوا فى البلاد ، وإن هم استولوا على حلب لم يبق فى الشام إسلام . وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار » .[٣] وفى شهر رمضان سنة ٥٣٢ هـ وصل رسول السلطان مسعود إلى عماد الدين زنكى وهو على أبواب مدينة حمص يهنئه على ما أحرزه من نصر على الصليبيين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٨ — ١٩ ؛ الباهر ص ٥٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب : ج ١ ص ٧٠ .

(٣) ابن الجوزى : المنتظم : ج ١٠ ص ٦٧ .

ويخلع عليه الخلع التى أرسلها إليه السلطان ومنحه[١] كثيرا من الألقاب مثل : الأمير الكبير العادل المؤيد المظفر المنصور الأوحد عماد الدين ... زنكى بن أق سنقر نصير أمير المؤمنين[٢] .

أما علاقة عماد الدين زنكى بالسلطان مسعود فقد ساءت فى سنة ٥٣٨ هـ حين حاول هذا السلطان الاستيلاء على إمارة زنكى بسبب اتساع رقعة إمارته وضخامة ثروة بلاده وعظم قوته الحربية[٣] . وكان زنكى يرمى من وراء سياسته إلى تأليف أصحاب الأطراف على السلطان مسعود السلجوقى ليشغله عن الالتفات إليه ، وبذلك يستطيع أن يوطد نفوذه فى بلاد الموصل من جهة ، ويوسع رقعة بلاده على حساب البلاد الإسلامية المجاورة من جهة أخرى[٤] ، ويحارب الصليبيين من جهة ثالثة . وبهذه السياسة استطاع عماد الدين زنكى أن يستولى على الرها من أيدى الصليبيين (١١٤٤/٥٣٩) الذين عدوا ضياعها نذيراً لزوال نفوذهم فى بلاد الشام وفتح الطريق أمامهم إلى العراق . لذلك كانت سياسة السلطان مسعود إزاء عماد الدين زنكى تقوم على المداراة والمهادنة بسبب الدور الخطير الذى كان يقوم به فى دفع الخطر الصليبى ، إذ أن إمارته كانت فى الواقع تقف سداً منيعاً فى وجه ذلك الخطر الذى لا يبعد أن يمتد إلى بلاد السلطان مسعود نفسه .

وقد حاول عماد الدين زنكى أكثر من مرة أن يفرض نفوذه على مدينة دمشق ، ولكنه لم يستطع تحقيق سياسته لمساعدة الصليبيين أتابكة هذه المدينة . إذ كانوا يدركون أن استيلاء زنكى على هذه المدينة يهدد بقاءهم فى بلاد الشام ، لأهمية موقع دمشق الحربى ، ووقوعها على الطريق التجارى بين البلاد الواقعة على نهر الفرات ومصر . وقد استرعت دمشق أنظار كل من عماد الدين زنكى وأبنائه من بعده ، كما شغلت بال حكام

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٣ ـ ٢٤ ؛ الباهر ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٢) ابن القلانسى ص ٢٨٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٨ .

(٤) أقام بعض الأمراء إمارات محلية تتمتع بالاستقلال الفعلى . ومن أهم هذه الإمارات من حيث علاقتها بحكم عماد الدين زنكى : إمارة أرتق ، وإمارة دياربكر ، وإمارة أرمينية . وهناك أتابكيات أخرى نذكر منها أتابكية كيفا ، وشاهات أرمينية ، وأتابكية فارس ، وأتابكية كرمان . وهناك مدن متفرقة يحكم كلا منها أمير شبه مستقل مثل جزيرة ابن عمر (وكانت تابعة للموصل) ، وسنجار ، وحران ، والرقة ، وشهر زور ، والحديثة ، وعانة .

بيت المقدس ، حتى تمكن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى من الاستيلاء عليها سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، ومهد بذلك السبيل لاستيلائه على مصر .

(٣) أتابكية حلب

قتل عماد الدين زنكى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) كما ذكرنا ، وانقسمت أملاكه بين أبنائه ، فتولى نور الدين محمود مدينة حلب وسار على سياسة أبيه فى جهاد الصليبيين ، وتولى سيف الدين غازى الموصل وبلاد الجزيرة[١] . وبعد فترة من الزمن زال الفرع السورى وحل محله فرع آخر استقر فى سنجار ، ثم قامت فيما بعد دويلة أخرى فى الجزيرة ، وبذلك أخلى فرع سنجار السبيل للأيوبيين سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) . أما الفروع الأخرى فقد دخلت تحت حكم لؤلؤ مملوك ووزير بيت زنكى فى الموصل ، وظلت الحال على ذلك حتى دخلت هذه الدويلات جميعاً تحت حكم المغول .

وقد عمل محمود على توحيد البلاد الشامية تحت سلطانه ليستطيع محاربة الصليبيين ، واتخذ الصليبيون من موت عماد الدين زنكى فرصة لاسترداد مدينة الرها ، ولكن ابنه نور الدين محمود لم يمكنهم من الاستيلاء عليها[٢] . وبلغ من أهمية الرها فى نظر الصليبيين بعد استيلاء عماد الدين زنكى عليها وبقائها فى أيدى المسلمين أن فكر الصليبيون فى إرسال الحملة الصليبية الثانية على بلاد الشام لاسترداد الرها من أيدى المسلمين . وقد وصلت هذه الحملة فى عهد نور الدين محمود ، غير أن زعماءها انحرفوا عن هدفهم الأصلى واتجهوا صوب دمشق ، وبذلك أخطأ الصليبيون باتجاههم إلى هذه المدينة التى كانت الحليف الوحيد للصليبيين ضد نور الدين محمود[٣] . وكان ذلك من أهم الأسباب التى أدت إلى إخفاق الحملة الصليبية الثانية .

وقد فكر نور الدين محمود فى الاستيلاء على دمشق ليتحصن بها ضد الصليبيين وتم له ما أراد سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، كما استطاع أن يستولى على بعض القلاع الصليبية الأخرى[٤] ، وأن يمد نفوذه إلى مصر بمساعدة أسد الدين شيركوه وابن أخيه

---

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ص ١٥٧ — ١٥٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٥١ — ٥٢ .

(٣) Barker, The Crusades, p. 54.

(٤) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ص ١٨٨ — ١٩١

صلاح الدين الأيوبى الذى أصبح أكبر زعيم فى الشرق بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) . فقد توجه صلاح الدين إلى حلب بحجة إنقاذ الصالح إسماعيل ابن نور الدين محمود الذى لم يزد عمره على إحدى عشرة سنة من أيدى أفراد حاشيته الذين تحالفوا مع « ريمند » صاحب طرابلس ، ولكن صلاح الدين رفع الحصار عن هذه المدينة حين سارع « ريمند » إلى مساعدة أمير حلب .

وفى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) سار سيف الدين غازى الثانى (بن قطب الدين مودود) أتابك الموصل لمساعدة ابن عمه صاحب حلب ، والتقت القوتان المتحالفتان بصلاح الدين عند الموضع المسمى « قرون حماه » حيث انتصر صلاح الدين ، كما انتصر على سيف الدين غازى فى السنة التالية . وبذلك خضعت بلاد الجزيرة لسلطان صلاح الدين ، فاعترف له أمير حلب بالسيادة على كافة البلاد الممتدة من مصر إلى نهر الفرات[١] .

وفى سنة ٥٧٧ (١١٨١ م) توفى الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود ، وكان قد أوصى قبل وفاته بولاية حلب لابن عز الدين مسعود أمير الموصل . ولتباعد هاتين الولايتين بعضها عن بعض عرض عماد الدين صاحب سنجار على عز الدين مسعود أن يأخذ عماد الدين « حلب » ويأخذ عز الدين « سنجار » ، وبذلك تصبح أملاك عز الدين متقاربة بعضها من بعض . وكانت سياسة عماد الدين ترمى إلى محاربة صلاح الدين والحد من سلطانه . لهذا لم ير صلاح الدين بدا من السير إلى مدينة حلب (٥٧٩ / ١١٨٣) واضطر عماد الدين إلى تسليمها إليه مقابل إعادته إلى ولايته الأصلية سنجار[٢] . وبذلك آلت ولاية حلب إلى صلاح الدين ثم إلى ابنه الظاهر من بعده[٣] واستمرت فى أيدى الأيوبيين حتى استولى عليها هولاكو التتارى وفر الناصر صاحب حلب إلى الكرك (بفتح الكاف والراء) حيث تحصن ضد المغول[٤] .

(٤) أتابكية سنجار ٥٦٦—٦١٧ / ١١٧٠ - ١٢٢٠

أسس هذه الأتابكية عماد الدين زنكى (الثالث) بن قطب الدين مودود صاحب الموصل الذى كان قد أوصى بالملك لابنه الأكبر عماد الدين زنكى الثانى ، ثم عدل عن وصيته

---

(١) Lane - Poole, Hist, of Egypt in the Middle Ages, pp. 199—200.

(٢) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ص ٢٣١ — ٢٣٤ . الكامل ج ١١ ص ٢٢٤ .

(٣) لينبول A Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 213

(٤) Raschdi - El din, Histoire des Mongols de la Perse, p. 341

لابنه الأصغر سيف الدين غازى الأول بإيعاز أحد خواصه[١] ويدعى فخر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين لمسايرته عمه نور الدين محمود صاحب حلب . كما كان يضمر له العداء، فلما توفى قطب الدين سنة ٥٦٥ هـ ، وعلم نور الدين ومحمود باستبداد فخر الدين عبد المسيح بابن أخيه سيف الدين وسوء سياسته قال : « أنا أولى بتدبير أولاد أخى وملكهم » . ثم سار نور الدين محمود إلى الموصل واستولى (وهو فى طريقه إليها) على مدينة سنجار ، ولما حاصر نور الدين الموصل أسرع فخر الدين عبد المسيح إلى تسليمها إليه ، فولاها ابن أخيه سيف الدين غازى[٢] ، كما ولى سنجار وأعمالها عماد الدين زنكى الثانى (٥٦٦ / ١١٧٠)[٣] .

وقد أدى هذا التقسيم إلى قيام الخلاف بين الأخوين لتولى عماد الدين زنكى مدينة الموصل وأعمالها على حين تولى أخوه الأكبر إمارة سنجار التى تقل عنها أهمية[٤].

وقد تجلى هذا الخلاف بين هذين الأخوين حين استنجد الصالح إسماعيل (بن نور الدين محمود) أمير حلب بسيف الدين غازى صاحب الموصل (٥٧٥ هـ) لمساعدته ضد صلاح الدين . فقد طلب سيف الدين من أخيه عماد الدين أن يمده بالجند ليسير بهم إلى بلاد الشام ، فرفض أن يجيبه إلى طلبه ، وكان ذلك بإيعاز من صلاح الدين الذى أطمعه فى الملك بحجة أنه أكبر من أخيه سيف الدين غازى . وقد انتهى هذا الخلاف بحصار سيف الدين غازى مدينة سنجار ، ولكنه عاد فرفع هذا الحصار خوفاً من أن يسرع صلاح الدين بعد انتصاره فى بلاد الشام إلى نجدة خليفة عماد الدين[٥] .

وصفوة القول أن أسرة زنكى حكمت إمارة سنجار إلى أن استولى عليها الأيوبيون فى عهد الملك الأشرف سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ثم خرب المغول معظم بلاد هذه الإمارة وما جاورها سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م)[٦].

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٥٩ .
(٢) المصدر نفسه جـ ١١ ص ١٦٢ — ١٦٣ .
(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٦٣ .
(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٨٩ — ١٩٠ .
(٦) المصدر نفسه جـ ١١ ص ٢٣٢ .

(٥) أتابكية الجزيرة ٥٧٦ ـ ٦٤٨ / ١١٨٠ ـ ١٢٥٠

ذكرنا من قبل أنه بعد وفاة عماد الدين زنكى سنة ٥٤١ هـ انقسمت أملاكه بين ولديه نور الدين محمود الذى قبض على زمام الحكم فى سورية ، وسيف الدين غازى الذى حكم الموصل والجزيرة ، ثم استقر فرع آخر فى سنجار ، ثم قامت دويلة أخرى فى الجزيرة .

ذلك أنه لما حضرت سيف الدين غازى صاحب الموصل الوفاة سنة ٥٧٦ (١١٨٠ م) أراد أن يوصى بأن يخلفه ابنه معز الدين سنجر شاه ، وكان فى الثانية عشرة من عمره . على أن أمراء دولته ذكروا له ما كان من تفاقم خطر صلاح الدين الأيوبى فى بلاد الشام ، وأشاروا عليه بتولية أخيه عز الدين مسعود لما عرف به من الشجاعة ورجاحة العقل ، فنزل سيف الدين غازى على رأيهم وولى أخاه حكم الموصل من بعده ، وولى ابنه سنجر شاه مدينة الجزيرة وقلاعها[١] . ولذلك قامت هناك أتابكية صغيرة مستقلة .

على أن سنجر شاه كان سيء السيرة مدمنا الشراب ، محباً لمجالس النساء مولعاً بالطرب . وقد اتصف عهده بالعسف والظلم واستحلال دماء الأبرياء والأشرار على السواء . وبلغ من تعسفه أنه كان يعاقب بقطع الألسنة والآذان والأنوف ، وامتد شره إلى أبنائه فأقصاهم عن قصره . وقد روى المؤرخون أن ابنه معز الدين محمود قتله سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) وقد لعبت الخمر بلبه وهو فى أحد مجالس النساء ، وتولى حكم بلاد الجزيرة من بعده ابنه وقاتله معز الدين محمود .

وقد خضع أمراء الجزيرة لصلاح الدين الأيوبى الذى استطاع أن يوحد أمراء شمالى العراق وهى الموصل وسنجار والجزيرة وإربل وغيرها ، وأن يوجهها لحرب الصليبيين[٢] . وكانت هذه البلاد من نصيب العادل وأولاده من بعده حتى غزاها المغول .

(٦) أتابكية إربل ٥٣٩ ـ ٦٣٠ / ١١٤٤ ـ ١٢٣٢

فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) عين عماد الدين زنكى أحد قواده الأتراك ، وهو

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

(٢) Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 207.

زين الدين على بن بكتكين نائباً عنه فى الموصل . وفى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) ضم زين الدين سنجار وتكريت وإربل[١] وغيرها تحت نفوذه . وعند وفاة زين الدين على فى إربل (١١٦٧/٥٦٣) هرب ابنه الأكبر مظفر الدين كوكبُرى إلى حران ، وانتقل حكم إربل إلى ابنه الأكبر زين الدين يوسف تحت وصاية الأمير مجاهد الدين قيماز . وعند وفاة يوسف سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) عين صلاح الدين الأيوبى صاحب النفوذ فى سورية وبلاد الجزيرة ، مظفر الدين كوكبرى خلفاً لأخيه فى إربل وشهرزار ، وأعطى البلاد التى كان يحكمها من قبل ، وهى حران والرها وسُمَيْساط إلى ابن أخيه تقى الدين عمر . وقد مات كوكبرى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) . ولما لم يكن له أولاد ذكور أوصى بأن يكون حكم إربل إلى الخليفة العباسى ، فظلت تحت حكمه حتى استولى عليها المغول أثناء غزوهم البلاد الإسلامية[٢] .

بيت بكتجين أتابكة إربل وغيرها

٥٣٩	زين الدين على كوجك بن بكتجين	١١٤٤
٥٦٣	زين الدين يوسف بن على (فى إربل) ت ٥٨٦ هـ	١١٦٧
٥٦٣	مظفر الدين كوكُبرى بن على (فى حران)	١١٦٧
٥٨٦ — ٦٣٠	مظفر الدين كوكبرى بن على (فى إربل)	١١٩٠ — ١٢٣٢
	[العباسيون — المغول]	

(٧) أتابكية ديار بكر[٣]

كان أرتق (بن أكسب) مؤسس هذه الأسرة قائداً تركياً من قواد الدولة السلجوقية . وقد تقلد ولاية بيت المقدس بعد أن فتحها تُتُش السلجوقى صاحب دمشق ، وقد تولى سُكْمان وإيلغازى (ابنا أرتق) اللذان اشتهرا فى حروبهما مع الصليبيين بفلسطين حكم ديار بكر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) إلى أن ضم الفاطميون هذه المدينة

---

(١) وهى قلعة حصينة من أعمال الموصل وأهلها أكراد استعربوا

(٢) op. cit., p. 165.

(٣) تعرف هذه الأتابكية بالدولة الأرتقية نسبة إلى مؤسسها أرتق بن أكسب ، وقد شملت هذه الأتابكية ماردين وميافارقين وبعض الحصون المجاورة كحصن كيفا .

سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م)، ثم عادا إلى الرها والعراق على التوالى. وفى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) عين السلطان محمد السلجوقى، إيلغازى والياً على بغداد، وفى السنة نفسها قلد أخاه سُكمان حصن كَيْفا بديار بكر، فضم إليها ماردين. ولكن حكمها انتقل فى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) إلى أخيه إيلغازى، ومن ثم أصبح هناك فرعان من بيت أرتق يتوليان الحكم فى كَيْفا وماردين.

وبعد هذه الأعمال الحربية التى قام بها آل أرتق فى كيفا على يد سكمان الذى حارب « بولدوين » وجوكلين Jocelin من الفرنجة عاش هذا الفرع فى اطمئنان، يدين حكامه بالطاعة لصلاح الدين الأيوبى الذى كافأهم بضم آمد إلى بلادهم (١١٨٣/٥٧٩)، وظل هذا الفرع حتى انقرض على يد السلطان الكامل الأيوبى (١٢٣١/٦٢٩). وقد حكم فرع صغير من بيت أرتق فى كيفا الذين كانوا يحكمون خَرْتَبرت بديار بكر من سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) إلى سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م). أما بنو أرتق بماردين فقد كوفىء إيلغازى (مؤسس بنى أرتق بماردين الذى يعد من أبطال المسلمين فى جهاد الصليبيين) بولاية حلب سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م)، ثم قلده السلطان محمود السلجوقى ولاية ميافارقين (بديار بكر)، واستمر أبناؤه يحكمون ماردين وميافارقين حتى سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م).

على أن موقع هذه الدولة كان من العوامل التى أضعفت وحدة المسلمين بسبب المنازعات التى قامت بينهم، ثم غزا المغول معظم مدن هذه الأتابكية سنة ٦٢٨ هـ وعاثوا فيها فساداً فى أثناء مطاردتهم جلال الدين المنكبرتى آخر شاهات الدولة الخوارزمية، وقد استسلمت الدولة الأرتقية لتيمورلنك ودخلت فى دولة قَراقيونلى Karâ-Kuyunlî المغولية سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م). على أن أهمية أمراء ماردين قد زالت بعد أن استقر نفوذ الأيوبيين فى سورية وبلاد الجزيرة، ولكن حلب قد سقطت سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) على يد بَلَك بن إبراهيم أحد زعماء بيت أرتق الذى استولى على « عانة » (٤٩٧ هـ) وخرتبرت (٥١٥ هـ). وكان بلك بن إبراهيم من القواد الذين اشتهروا بحروبهم مع الصليبيين.

---

(١) زامباور: الأسرات الإسلامية ص ٢٢٨ — ٢٢٩. لينبول:

The Muhammadan Dynasties, pp. 166—169

(٨) بيت أرتق فى كيفا

٤٩٥	معين الدولة سُكْمان الأول	١١٠١
٤٩٨	إبراهيم	١١٠٤
٥٠٢	ركن الدولة داود	١١٠٨
٥٤٣	فخر الدين قرا — أرسلان	١١٤٨
٥٧٠	نور الدين محمد	١١٧٤
٥٨١	قطب الدين سُكْمان الثانى	١١٨٥
٥٩٧	ناصر الدين محمود	١٢٠٠
٦١٩ — ٦٢٩	ركن الدين مودود	١٢٢٢ — ١٢٣١

[الأيوبيون]

٥٠٢ — ٨٠١ هـ	(ب) بيت أُرتق فى ماردين	١١٠٨ — ١٤٠٨ م
٥٠٢	نجم الدين إيلغازى	١١٠٨
٥١٦	حسام الدين تُمُرْتاش	١١٢٢
٥٤٧	نجم الدين أَلْبى	١١٥٢
٥٧٢	قطب الدين ايلغازى	١١٧٦
٥٨٠	حسام الدين يولُقْ - أرسلان	١١٨٤
٥٩٧	ناصر الدين أُرتق - أرسلان المنصور	١٢٠٠
٦٣٧	نجم الدين غازى الأول السعيد	١٢٣٩
٦٥٨	قرا - أرسلان المظفر	١٢٦٠
٦٩١	شمس الدين داود	١٢٩٢
٦٩٣	نجم الدين غازى الثانى المنصور	١٢٩٤
٧١٢	عماد الدين على أَلْبى العادل	١٣١٢
٧١٢	شمس الدين صالح	١٣١٢
٧٦٥	أحمد المنصور	١٣٦٣

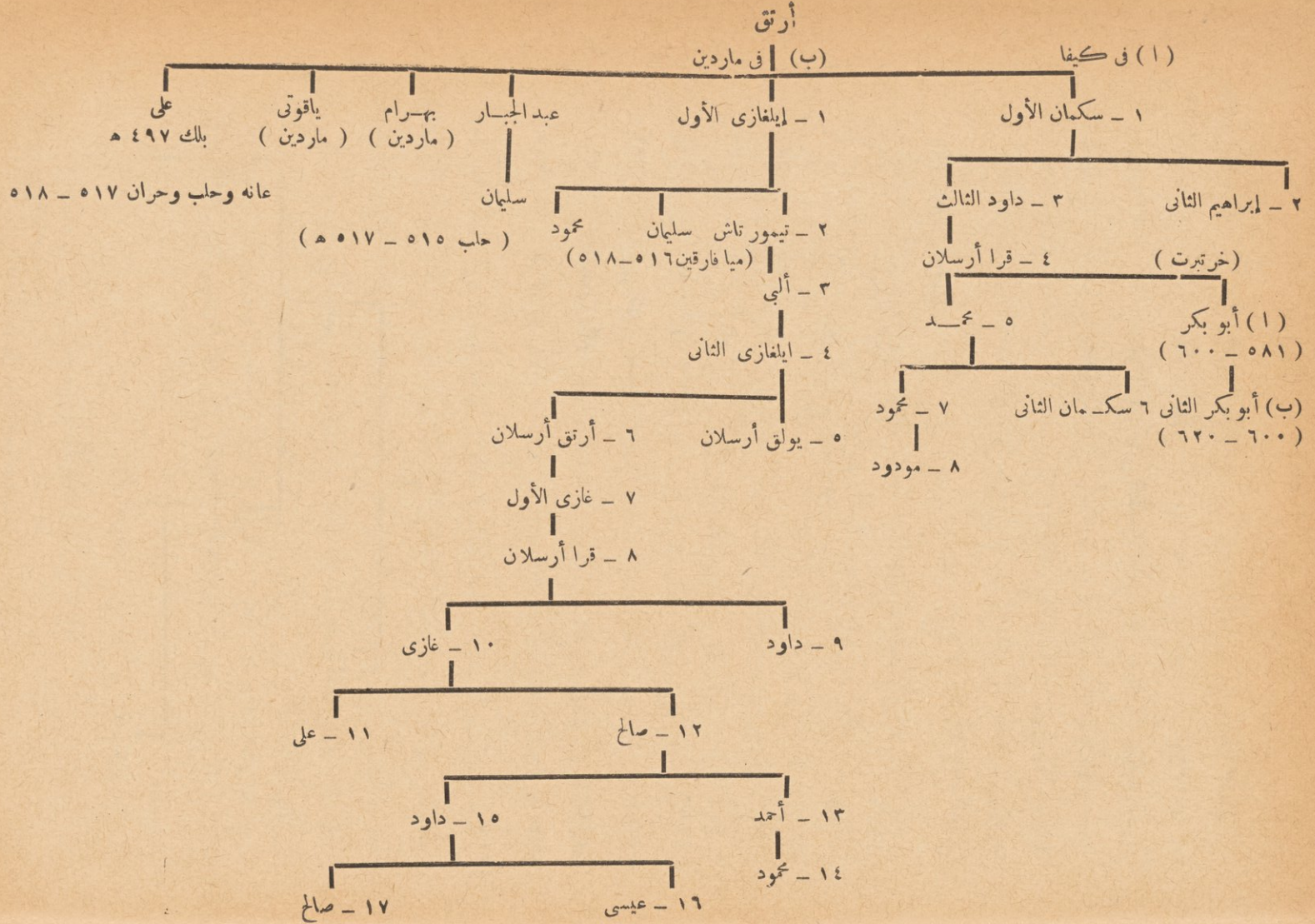
أرتق
(ا) فى كيفا
(ب) فى ماردين
١ ـ سكمان الأول
١ ـ إيلغازى الأول
عبد الجبار
بهرام (ماردين)
ياقوتى (ماردين)
على بلك ٤٩٧ هـ
٢ ـ إبراهيم الثانى
٣ ـ داود الثالث
(خرتبرت)
٤ ـ قرا أرسلان
(ا) أبو بكر (٥٨١ ـ ٦٠٠)
٥ ـ محمد
(ب) أبو بكر الثانى (٦٠٠ ـ ٦٢٠)
٦ سكمان الثانى
٧ ـ محمود
٨ ـ مودود
سليمان (حلب ٥١٥ ـ ٥١٧ هـ)
عانه وحلب وحران ٥١٧ ـ ٥١٨
٢ ـ تيمور تاش
سليمان
محمود (ميا فارقين ٥١٦ ـ ٥١٨)
٣ ـ ألبى
٤ ـ ايلغازى الثانى
٥ ـ يولق أرسلان
٦ ـ أرتق أرسلان
٧ ـ غازى الأول
٨ ـ قرا أرسلان
٩ ـ داود
١٠ ـ غازى
١١ ـ على
١٢ ـ صالح
١٣ ـ أحمد
١٤ ـ محمود
١٥ ـ داود
١٦ ـ عيسى
١٧ ـ صالح

٧٦٩	محمود الصالح	١٣٦٧
٧٦٩	داود المُظَفَّر	١٣٦٧
٧٧٨	مجد الدين عيسى الطاهر	١٣٧٦
٨٠٩ —	صالح	١٤٠٦ —
٨١١		١٤٠٨

[قَرَا قيُونلى]

(٩) شاهات أرمينية

٤٩٣	سُكْمان القُطبى	١١٠٠
٥٠٦	ظاهر الدين إبراهيم شاه أرمان	١١١٢
٥٢١	أحمد	١١٢٧
٥٢٢	ناصر الدين سكمان الثانى	١١٢٨
٥٧٩	سيف الدين بكتِمرُ	١١٨٣
٥٨٩	بدر الدين آقْسُنْقُر	١١٩٣
٥٩٤	المنصور محمد	١١٩٨
٦٠٣ —	عز الدين بَلْبان	١٢٠٦ —
٦٠٤		١٢٠٧

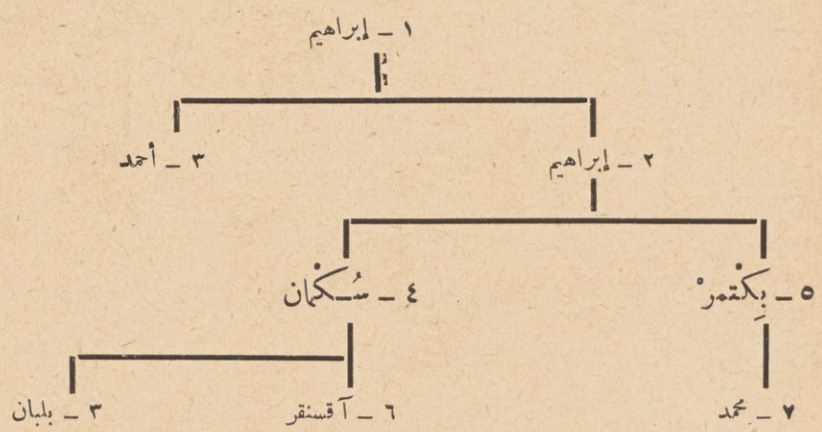

[الأيوبيون]

(*) الأسطر المنقوطة تدل على علاقة السيد بمملوكه .

تطلعت أنظار العرب منذ أيام عثمان بن عفان إلى حكم أرمينية [١] وكان يتنازعها البيزنطيون والعرب . ولما ولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة سنة ٤١ هـ (٦٦١ م) دعا أهل أرمينية إلى الطاعة مع دفع الجزية فخنع أهلها إلى الطاعة وظلت خاضعة للحكم العربى . وعلى الرغم من الحروب المريرة التى قامت بين العرب الأوائل والأرمن نهضت البلاد فى عهدهم ثم حكمها العباسيون . ولكن ظهور القومية الأرمنية أطاح بالحكم العربى واستولى عليها البيزنطيون وظلت على ذلك حتى استردها قواد السلاجقة الذين أخذوا يشنون الغارات عليها من سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) .

على أن السلاجقة نهضوا فى عهد ألب أرسلان الذى وجه حملاته إلى أرمينية من الرى ، فأخضع أران والكرج وغيرها من البلاد الواقعة شرقى أرمينية . وسار الإمبراطور رومانوس الرابع (٤٦٣ / ١٠٧١ م) على رأس جيش جرار بلغ مائة ألف مقاتل لصد التقدم السلجوقى ، واسترد حصن « ملاذ جَرد » أمنع القلاع الواقعة على الحدود . غير أن السلاجقة أرغموا الجيش البيزنطى على الارتداد إلى بلاد « بين النهرين » وأسر ألب أرسلان الإمبراطور البيزنطى . وكانت هذه الهزيمة إيذانا بانتهاء حكم الدولة البيزنطية ، واقترنت بسقوط بلاد الأناضول العربية وأرمينية وكبادوكيا وهجرة جماعات كبيرة من الأرمن نحو الغرب فرارا من الغزاة ، وأسسوا فى كيليكيا دولة أرمينية مستقلة استمرت حتى زالت على أيدى المغول فى آسيا الصغرى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى .

وقد انقسمت أرمينية فى عهد الحكم السلجوقى إلى مناطق إدارية تختلف مساحتها ، ويحكم كلا منها أمير يتمتع بقسط كبير من الاستقلال . وكانت دولة أخلاط الواقعة فى الجنوب الغربى والتى أسسها سُقْمان القطبى سنة ٤٩٣ هـ (١١٠٠ م) [٢] أقوى الدويلات إذا قورنت بالدويلات السلجوقية التى قامت فى أرمينية ، على الرغم من أن هذه الإمارة التى كان أغلب سكانها من الأرمن لا تمثل إلا خمس بلاد أرمينية ، ولما انقرضت أسرة بنى سقمان (٥٨١ / ١١٨٥) انتقل الحكم إلى « مملوك بك تيمور » (١١٨٥ — ١١٩٧ م) . ثم استولى الأيوبيون على هذه البلاد (٦٠٤ / ١٢٠٧) ، وأقام السلطان الملك العادل (الذى

---

(١) بفتح وكسر الهمزة .

(٢) Lane-Poole, Muhammadan Dynasties, p. 170

أعاد توحيد دولة أخيه صلاح الدين) ابنه الأوحد أميراً على خلاط ، ثم خلفه أخوه الأشرف[١] . ولما مات العادل استقل الأشرف بحكم هذه البلاد ووسع رقعة بلاده حتى بلغت بلاد الأكراد[٢] . وفى سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) سقطت مملكة خلاط التى كان يحكمها المظفر غازى آخر ملوك الأيوبيين ، باستيلاء هولاكو التتارى عليها ، كما فتح أرمينية[٣] وكردستان والعراق وبلاد ما بين النهرين .

(١٠) أتابكية أذربيجان[٤]

٥٣١	شمس الدين إيلدجز	١١٣٦
٥٦٨	محمد البهلوان چاهان	١١٧٢
٥٨١	قزل ـ أرسلان عثمان	١١٨٥
٥٨٧	أبو بكر	١١٩١
٦٠٧ ـ	مُظَفَّر الدين أُوزبك	١٢١٠ ـ
١١٢٥	٦٢٢	

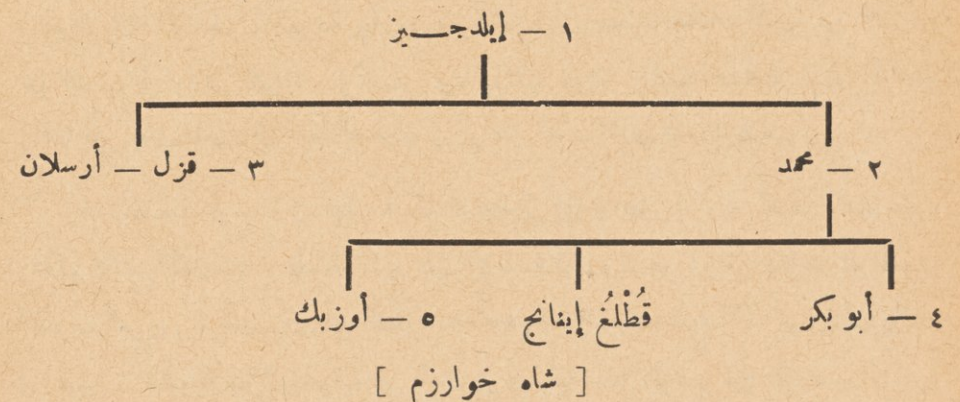

---

(١) وكانا يحكمان تحت إشراف أبيهما العادل .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٢٢٦ .

انظر مادة أرمينية فى ترجمة دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) ليفيول : الأسرات الإسلامية ص ١٧١ .

أسس هذه الدولة إيلْدِجز وهو مملوك تركى كان من المقربين فى بلاط السلطان مسعود السلجوقى فى بلاد العراق . وقد اشتراه من بلاد القفجاق[١] . فاشتغل فى أول أمره فى مطبخ السلطان مسعود ، ثم أخذ يترقى فى سلك البلاط فى العراق ، وأخيراً تقلد إقليم اران فى شمالى أذربيجان . وقد تزوج من أخت زوجة السلطان وكانت أرملة . وقد أخذ ايلدجز يوسع نفوذه فاستولى على معظم بلاد أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وأصبهان والرى وامتد نفوذه من تفليس إلى مكران[٢] . وكان ابنه محمد الحاكم الفعلى للعراق بالإضافة إلى ولاية أذربيجان . وقد خلف أباه بعد وفاته سنة ١١٧٢/٥٦٨ . على أن هذه البلاد الشاسعة الأطراف انكمشت إلى أذربيجان فى عهد الأتابك أبى بكر محمد الذى اتخذ مدينة تبريز حاضرة له . وظلت هذه البلاد تحت حكم هذه الأسرة حتى استولى جلال الدين المنكبرتى آخر شاهات خوارزم عليها من أوزبك البهلوان آخر أمرائها سنة ١٢٢٧/٦٢٢ وتزوج من أرملته وهى ابنة طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة فى العراق[٣] ثم استولى المغول على هذه البلاد سنة ٦٢٨ / ١٢٣١ .

وقد روى المؤرخون أن هولاكو اتخذ من أذربيجان مكاناً لحفظ الأسلاب والغنائم التى استولى عليها فى حروبه لبعدها ومناعتها . وبذلك أصبحت أذربيجان ذات أهمية خاصة فى العصر المغولى .

(١١) سلاجقة كِرْمان

٤٣٣	قاورت بك : عماد الدين قرا أرسلان	١٠٤١
٤٦٥	كرمان شاه	١٠٧٢
٤٦٧	حسين	١٠٧٤
٤٦٧	سلطان شاه : ركن الدين	١٠٧٤
٤٧٧	تُوران شاه	١٠٨٤

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٧٤ .

(٢) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ١٩٨ — ٢٠١ .

(٣) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ٢٣٤ .

٤٩٠	إميران شاه	١٠٩٧
٤٩٤	أرسلان شاه	١١٠٠
٥٣٦	محمد الأول (*) : مغيث الدين	١١٤١
٥٥١	طُغْرل شاه : محيي الدين	١١٥٦
منافسون	بهرام شاه أرسلان شاه الثانى تركان شاه	١١٦٧
٥٨٣	محمد الثانى +	١١٨٧

[التركمان الغزّ]

* كان محمد فى حروب متصلة قبل وفاة بركياوق بسنوات كثيرة

+ كان سنجر والياً على خراسان عشرين سنة قبل أن يجلس على عرش السلطنة .

(١٢) سلاجقة سورية

٤٨٧	تتش بن ألب أرسلان	١٠٩٤
٤٨٨	رضوان بن تتش (فى حلب)	١٠٩٥
	(دقاق بن تتش فى دمشق ٤٨٨ — ٤٩٧)	
٥٠٧	ألب أرسلان الأخرس بن رضوان	١١١٣
٥٠٨—٥١١	سلطان شاه بن رضوان	١١١٤—١١١٧

[الأرتقيون ، البوريون]

(١٣) سلاجقة العراق وكردستان

٥١١	محمود : مغيث الدين	١١١٧
٥٢٥	داود : غياث الدين	١١٣١
٥٢٦	طغرل الأول	١١٣٢
٥٢٧	مسعود : غياث الدين	١١٣٣
٥٤٧	ملكشاه : معين الدين	١١٥٢

٥٤٨	محمد	١١٥٣
٥٥٤	سليمان شاه	١١٥٩
٥٥٦	أرسلان شاه	١١٦١
٥٧٣ — ٥٩٠	طغرل الثانى	١١٧٧ — ١١٩٤

[شاهات خوارزم]

(١٤) سلاجقة الروم

(آسيا الصغرى)

٤٧٠	سليمان الأول بن قطلمش	١٠٧٧
٤٧٩	فترة	١٠٨٦
٤٨٥	قليج أرسلان داود	١٠٩٢
٥٠٠	ملك شاه الأول	١١٠٦
٥١٠	مسعود الأول	١١١٦
٥٥١[1]	عز الدين قليج أرسلان الأول	١١٥٦
٥٨٤	قطب الدين ملك شاه الثانى	١١٨٨
٥٨٨	غياث الدين كيخُسْرو الأول	١١٩٢
٥٩٧	ركن الدين سليمان الثانى	١٢٠٠
٦٠٠	قليج أرسلان الثانى	١٢٠٣
٦٠١	كيخُسْرُو الأول أُعيد إلى الحكم	١٢٠٤
٦٠٧	عز الدين كيْكاوُس الأول	١٢١٠
٦١٦	علاء الدين كيْقباد الأول	١٢١٩
٦٣٤	غياث الدين كَيْخُسْرو الثانى	١٢٣٦

(١) عاش قليج أرسلان إلى سنة ٥٨٨ هـ لكنه قسم بلاده بين أولاده قبل وفاته ببضع سنين

٦٤٣[1]	عز الدين كيقاوس الثانى	١٢٤٥
٦٥٥	ركن الدين قليج أرسلان الرابع	١٢٥٧
٦٦٦	غياث الدين كيخسرو الثالث	١٢٦٧
٦٨٢[2]	غياث الدين مسعود الثانى	١٢٨٣
٦٩٦ –	علاء الدين كَيْقُباد الثانى	١٢٩٦ –
٧٠٠		١٣٠٠

[المغول ؛ الأتراك العثمانيون الخ]

(١٥) السلاجقة الدانشمندية

فى سيواس وقيصرية ومَلَطِية

محمد الأول بن جُمُشْتِكين بن تِلو دانِشْمَنْد

٤٩٩	غازى بن جمشتكين	١١٠٥
٥٢٩	محمد الثانى بن غازى	١١٣٤
٥٣٧	ذو النون بن محمد الثانى	١١٤٢
	يغى (أو يعقوب) أرسلان بن غازى	
٥٦٠	إبراهيم بن محمد الثانى	١١٦٥

[سلاجقة الروم]

بينما كان السلاجقة يوسعون رقعة إمبراطوريتهم فى آسيا الصغرى ، وطد رئيس تركى آخر هو جمشتكين بن دانشمند قوته فى كبادوكيا فى مدن سيواس وقيصرية ومَلَطِيَة . وفى المدينة الأخيرة هُزم الفرنجة ، وقد قام خلفاء جمشتكين بدور رائع فى الحروب الصليبية ، على أن هذه الأسرة سرعان ما اندمجت فى جارتها السلجوقية العظيمة وهى سلاجقة الروم .

---

(١) حكم بالاشتراك مع أخيه قليج أرسلان الثالث وكيقباد .

(٢) سمح أباقاخان المغولى لمسعود بحكم سيواس وأرزنجان وأرضروم بعد وفاة أبيه كيكاوس سنة ٦٧٧ هـ خلال حكم ابن عمه كيخسرو الثالث الإسمى الذى خلفه سنة ٦٨٢ هـ ، ويظهر أن « مسعود » أعيد إلى مملكته على إثر عزل ابن أخيه كيقباد فى سنة ٧٠٠ هـ وأنه حكم أربع سنين. ولكن الأربعة السلاجقة الأخيرين لم يحكموا إلا تحت سيطرة إيلخانات المغول فى فارس .

(١٦) أتابكية كرمان

٦١٩ — ٧٠٣ هـ	(خانات قُطْلُغ)	١٢٢٢ — ١٣٠٣ م
٦١٩	بُرَاك حاجب قطلغ خان	١٢٢٢
٦٣٢	ركن الدين خوجة الحق	١٢٣٤
٦٥٠	قطب الدين محمد	١٢٥٢
٦٥٥	قطلغ خاتون (أرملة قطب الدين محمد، كان ابنها حجاج الحاكم الرسمي بين سنتي ٦٥٥ و٦٦٠ هـ)	١٢٥٧
٦٨١		١٢٨٢
٦٩٣		١٢٩٣
٦٩٤		١٢٩٤
٧٠١ — ٧٠٣		١٣٠١ — ١٣٠٣

[ولاة من المغول حتى سنة ٧٤١ هـ ثم المُظَفَّريون]

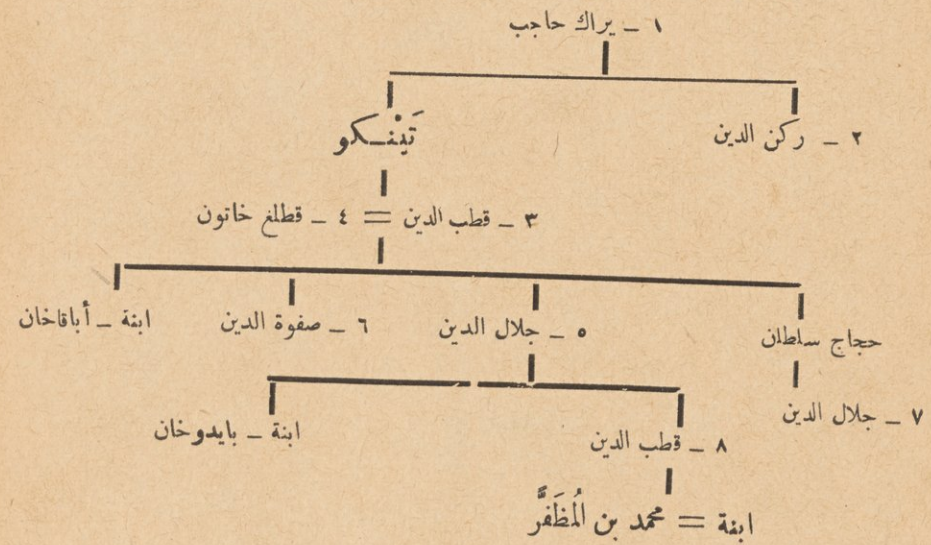

نجح بُراك حاجب ، وهو أحد القواد فى دولة الخطا الذين دخلوا فى خدمة خوارزم شاه محمد[١] فى كرمان سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م) . على أن هذه البلاد ظلت خاضعة اسمياً للخوارزميين فى عهد جلال الدين منكبرتى الذى كان بران حاجب نائباً له . وقد أراد بران أن يستقل بهذه البلاد عن الخوارزميين سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م) ، فأرسل إلى المغول يحثهم على محاربته ، فلما علم جلال الدين خوارزمشاه بذلك سار على رأس جيش كبير لحرب براق الذى تحصن فى إحدى قلاعه وأبى أن يقابله وأرسل إليه رسالة يقول فيها :

« إننى أنا العبد المملوك ، ولما سمعت بمسيرك إلى هذه البلاد ، أخليتها لك ، ولو علمتُ أنّك تُبقى على لحضرت بابك ، ولكنى أخاف هذا جميعه[٢] » .

وقد أدرك جلال الدين منكبرتى أن الدخول فى حرب مع براق حاجب يصرفه عن الاستمرار فى حرب المغول ، فرأى أن يهادنه ، وأرسل إليه الخلع وأقره على هذه البلاد .

وقد بقيت هذه الأسرة فى حكم كرمان ثم خضعت للمغول حيث أقر « أُغطاى » براك حاجب على حكم بلاده ، ومنحه لقب « قُطْلغ خان » ، واستمرت هذه الأسرة فى حكم كرمان مع ولائها لإيلخانات المغول فى فارس ، وقد تزوج اثنان من هؤلاء المغول من بنات هؤلاء الحكام .[٣]

---

(١) راجع ما كتبه حافظ أحمد محمود عن دولة الخطا فى كتابه « الدولة الخوارزمية والمغول ص ٤٦ — ٦٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٢٠٩ .

(٣) لينبول The Muhammadan Dynasties, pp. 179—180.

(١٧) أتابكية فارس ٥٤٣ ـ ٦٨٦ / ١١٤٨ ـ ١٢٨٧

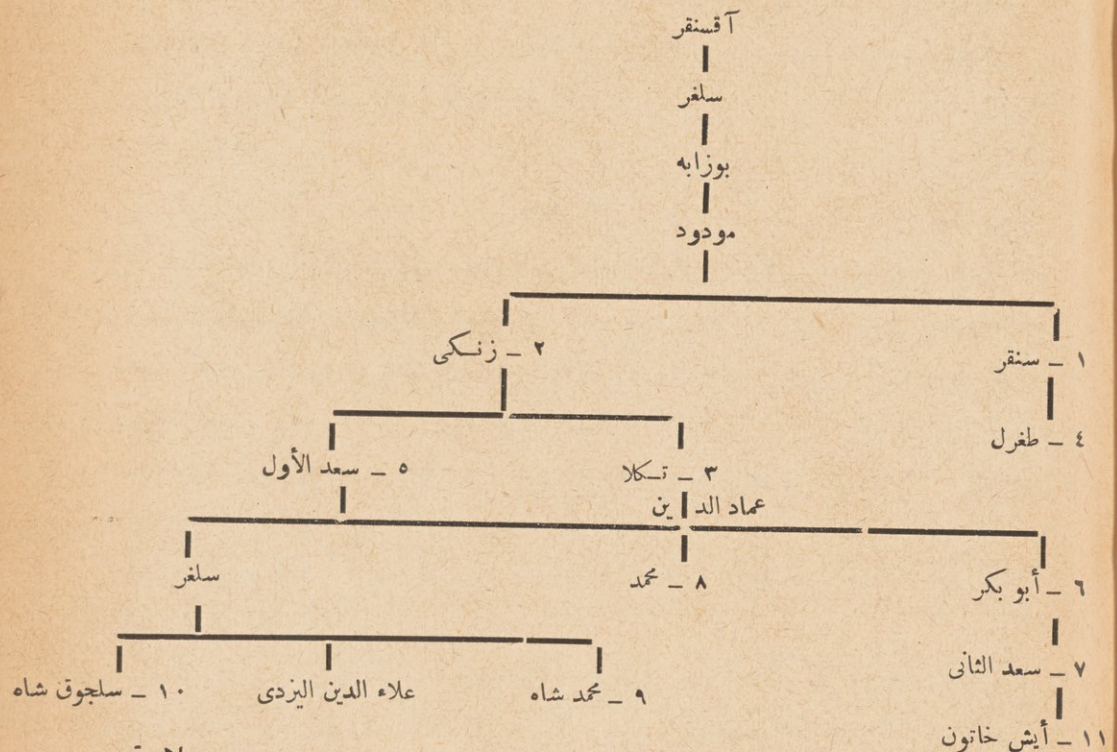

			هجرية	ميلادية
١	مظفر الدين سنقر بن مودود		٥٤٣	١١٤٨
٢	مظفر الدين زنكى بن مودود[٢]		٥٥٦	١١٦٠
٣	تكلا بن زنكى		٥٧٠	١١٧٤
٤	طغرل بن سنقر		٥٩٠	١١٩٣
٥	سعد الأول بن زنكى		٥٩٩	١٢٠٢
٦	أبو بكر بن سعد		٦٢٣	١٢٢٥
٧	سعد الثانى بن أبى بكر	[٣]	٦٥٨	(١٢٥٩)
٨	محمد بن سعد الأول		٦٥٨	١٢٥٩

(١) وتعرف هذه الأتابكية أيضاً بالدولة السلغرية

(٢) كان نائبا لأرسلان بن طغرل السلطان السلجوقى .

(٣) توفى بعد اثنى عشر يوما من وفاة أبيه .

هجرية			ميلادية
٦٦٠	٩	محمد شاه بن سلغرشاه	١٢٦٢
٦٦١	١٠	سلجوق شاه بن سلغرشاه	١٢٦٢
٦٦٣ — ٦٨٦	١١	أيش خاتون بنت سعد الثانى	١٢٦٤ — ١٢٨٧

[حكم المغول]

تنسب هذه الأتابكية إلى سلغر قائد إحدى قبائل التركمان التى هاجمت خراسان وانضمت إلى السلطان طغرلبك السلجوقى الذى عينه فى بلاطه . وقد استولى أحد خلفائه وهو سنقر بن مودود على إقليم فارس سنة ٥٤٣ / ١١٤٨ حيث أسس دولة حكمت قرناً ونصف قرن . وقد مد سنقر نفوذه على كرمان ، واتخذ شيراز حاضرة لملكه . واستولى سعد بن زنكى (٥٩٩ — ٦٢٣ هـ) على أصبهان ثم مد نفوذه على العراق العجمى (٦١٤ هـ) ، والتقى بجيوش خوارزشاه علاء الدين محمد فى مدينة الرى ، ولكن الهزيمة حلت به . ومع ذلك أكرمه خوارزشاه وأعاده إلى بلاده وأخذ جزءا منها واكتفى بإقامة الخطبة له على المنابر (١) .

ولما توفى سعد بن زنكى سنة ١٢٢٥/٦٢٣ م تولى بعده ابنه أبو بكر (٦٢٥-٦٥٨ هـ) الذى استطاع أن يوسع رقعة بلاده إلى بلاد البحرين ، وأن يخضع جميع جزر الخليج العربى ولما أغار جنكيزخان على البلاد الإسلامية رأى من الحكمة أن لا يقف فى سبيله ، فأرسل إليه الهدايا الثمينة ، فلما دخل چنكيزخان بلاده لم يتعرض بسوء . ثم خضعت هذه البلاد لهولاكو (٢) .

(٢٢) أتابكية لورستان ٥٤٣ — ٨٢٧/١١٤٨ — ١٤٢٣

أسس هذه الأتابكية أبو طاهر بن محمد أحد قواد أتابكية فارس . وقد قامت هذه الدولة فى إقليم جبلى حصين تسكنه قبائل بربرية منذ زمن بعيد وخضع حكامها لحكم دولة إيلخانات المغول فى فارس ، وظلت فى حكم لورستان حتى سقطت على يد إبراهيم بن شاه رُخْ .

ثانياً : دولة خُوارزم ٤٧٠ — ٦٢٨/١١٧٧ — ١٢٣١

انقسمت الدولة الإسلامية فى ذلك العصر إلى دويلات متعادية متنافرة من بينها دولة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٤٦

(٢) Raschid—Eldin, Histoire des Mongols de la Perse, p. 323.

خوارزم[١] . وقد جرت عادة السلاجقة أن يكافئوا أتباعهم من السقاة والحجاب وحراس الملابس الخاصة ، بإقطاعات من الأرض . وقد بدأ أنوشتكين[٢] ملكه سنة ١٠٧٧/٤٧٠ ، ثم استطاع خلفاؤه بعد ذلك التخلص من كل صلة لهم بالسلاجقة ، وظلوا يحكمون هذه الدولة حتى زالت فى عهد آخر ملوكهم جلال الدين مَنْكبرتى الذى كانت له مواقف رائعة من البطولة أمام المغول من سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) إلى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) .

كان أنوشتكين يشغل وظيفة « الساقى » فى بلاط ملكشاه السلجوقى . وكانت هذه الوظيفة من أهم وظائف البلاط : فهو الذى يشرف على الأسمطة التى تقام فى الأعياد والمواسم وعند استقبال سفراء الملوك ، كما يشرف على تقطيع اللحوم وتقديم الماء والمشروبات أثناء الطعام وبعده[٣] . وثمة وظيفة أخرى هى وظيفة « الجاشنكير » الذى يقوم بذوق أصناف الطعام والشراب المختلفة قبل تقديمها إلى السلطان[٤] .

خلف أنوشتكين ابنه قطب الدين محمد ، وقد نشأ نشأة عالية ، وعرف بالأدب ونوفر عليه وانصرف إلى العلم . وكان عالى الهمة ، فعينه السلطان بركياروق بن ملكشاه السلجوقى حاكما على بلاد خوارزم ، ولقبه خوارزم شاه أى ملك خوارزم . ولما ملك السلطان سنجر خراسان سنة ٥١٢ هـ ، أقر قطب الدين محمد خوارزم شاه على خوارزم وأعمالها ، فظل محببا إلى السلطان إلى أن مات سنة ٥٢١ هـ ، فخلفه ابنه أتسز ، فسار سيرة أبيه واكتسب محبة السلطان . وكان أتسز أول من طمع فى الاستقلال من أفراد هذا البيت . ولكن سنجر آخر سلاطين السلاجقة الأقوياء فى فارس عزله إثر ثورته عليه

---

(١) أو خورازميا وهى كيفا الحالية . وكان يطلق على كل من الحى والحاضرة اسم خوارزم، ويطلق على حكامها لقب خوارزمشاه أو ملك خيوه . وهم من أتراك بلاد ما وراء النهر الذين جاءوا من خيوة ونشروا سلطانهم بين نهرى الكنج ودجلة ، وإن كان هذا السلطان لم يتوطد تماماً بين سكان فارس والهند .

(٢) يسميه النسوى فى كتابه « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى » (ص ٣٤) « نوشتكين » . وهذا المؤرخ يعد حجة فى تاريخ فترة من فترات حكم الدولة الخوارزمية فوق أنه انخرط فى سلك الوظائف فى دولتهم فى عهد جلال الدين منكبرتى بوجه خاص ، وكان من أبرز رجال هذه الدولة .

(٣) انظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ٤٦٠ .

سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) . ثم عاد أتسز إلى ولايته بعد قليل وتمنع هو ومن خلفه من شاهات خوارزم بما يتمتع به الملوك المستقلون ، وبلغ نفوذه جَنْـد (بفتح الجيم وسكون النون) على نهر سيحون .

وفى سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) سار أتسز إلى مدينة مرو ، فهزمه سنجر هزيمة منكرة ، وقتل ابنه فى هذه الموقعة . وكان من أثر انتصار سنجر فى هذه الموقعة أن استولى على خوارزم وأقطعها ابن أخيه غياث الدين سليمان شاه . ولما عاد سنجر إلى مرو استرد آتسز حاضرة ملكه ، ثم فكر فى الثأر لمقتل ابنه ، فحرض الكفار من الخطا الأتراك فهاجموا بلاد سنجر وهزموه هزيمة منكرة فى صيف سنة ٥٣٦ هـ وقتلوا مائة ألف من جنده وأسروا زوجته واطروه إلى الهرب إلى ترمذ وبلخ[١] .

وفى هذه الأثناء أعلن آتسز استقلاله ، ثم تقدم إلى مرو فاحتلها . ويذكر ابن الأثير[٢] فى حوادث سنة ٥٣٦ هـ أن آتسز لم يكن ينوى التعرض لمدينة مرو كما فعل بمدينة سرخس ، ولكنه اضطر إلى مهاجمتها حين علم بقتل جماعة من أتباعه[٣] . وكانت هذه الموقعة أول موقعة خسرها سنجر ، كما كانت فاتحة لسلسلة أخرى من الهزائم التى حلت به فيما بعد . ثم فتح آتسز مدينة نيسابور وأمر بحذف اسم سنجر من الخطبة (١١٤٢/٥٣٧) . وفى السنة التالية حاول سنجر محاصرة خوارزم ، ولكنه عجز عن ذلك ، فقبل الصلح مع آتسز الذى مات فى ٩ جمادى الآخرة سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) قبل موت سنجر فى شهر ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ بقليل .

وهكذا تربع آتسز على عرش إمبراطورية شاسعة الأرجاء تنافس إمبراطورية السلاجقة فى أبهى أيامها ، وتمتد من جبال أورال إلى الخليج العربى ومن جبال السند إلى حدود الفرات وتضم جميع ولايات إيران عدا ولايتى فارس وخوزستان . وقد استطاعت الدولة الخوارزمية أن تمد رقعتها وتثبت أقدامها أكثر من قرن ، ولم تسقط إلا بسبب كارثة عامة لم تكن فى الحسبان ، غيرت من وجه التاريخ وأنزلت المصائب والويلات بالجنس البشرى ، ونعنى بهذه الكارثة غزوات المغول .

---

(١) الكامل ج ١١ ص ٣٣ ـ ٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٣) براون : تاريخ الأدب فى إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٣٨٢ هامش رقم (٣)

٤٧٠ — ٦٢٨ هـ	شاهات خوارزم[1]	١٠٧٧ — ١٢٣١ م
٤٧٠	أنوشتكين	١٠٧٧
٤٩٠	قطب الدين محمد	١٠٩٧
٥٢١	أتسز	١١٢٧
٥٥١	إيل أسلان	١١٥٦
٥٦٨	سلطان شاه محمود ت ٥٨٩ هـ	١١٧٢
٥٦٨	تُكُش	١١٧٢
٥٩٦	علاء الدين محمد	١١٩٩
٦١٧ — ٦٢٨	جلال الدين منكبرتى	١٢٢٠ — ١٢٣١

[المغـــــول]

١ — أنوشتكين

٢ — قطب الدين محمد

٣ — أتســز

٤ — إيل — أرسلان

٥ — سلطان شاه

٦ — تكش

تاج الدين على شاه (كردستان)

يونس خان (الرى)

ناصر الدين ملكشاه (خراسان ت ٥٩٣ هـ)

٧ — علاء الدين محمد

أرسلان شاه

ركن الدين جورنشى (ت ٦١٩ هـ)

غياث الدين شيرشاه (ت ٦٢٧ هـ)

٨ — جلال الدين منكبرتى (ت ٦٢٨ هـ)

(١) Lane-Poole, Muhammadan Dynasties, pp. 176—177

وفى عهد الخليفة المستضىء العباسى (٥٦٦ — ٥٧٥/١١٧٠ — ١١٨٠) توفى خوارزم شاه إيل أرسلان بن أتسز (٥٦٨ هـ) ، فملك بعده ابنه الأصغر سلطان شاه محمد تحت وصاية أمه . وقد خرج عليه أخوه الأكبر علاء الدين تكش (بضم التاء والكاف) (٥٦٨ — ٥٩٦ / ١١٧٢ — ١١٩٩) الذى استولى على بلاد خوارزم واستقل بها وقضى على ملك السلاجقة فى العراق (٥٩٠ هـ) بقتل طغرل بن ألب أرسلان السلجوقى . وقد اتسع ملك علاء الدين فى الشرق على حساب دولة الخطا ، وبذلك امتد نفوذه من بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى بلاد الرى التى استولى عليها وقضى على السلاجقة . ولكن ملكه فى الرى لم يكن ثابتاً ؛ فقد عول الخليفة العباسى الناصر (٥٧٥ — ٦٢٢/١١٨٠ — ١٢٢٥) على أن تكون له سيادة الرى بعد رحيل خوارزم شاه تكش عنها ، فأرسل إليها جيشاً استردها من عامله ، فعاد إلى الرى واستردها من جند الخليفة .

خوارزمشاه علاء الدين محمد ٥٩٦ ـ ٦١٧/١١٩٩ ـ ١٢٢٠

بقى علاء الدين تكش فى الحكم حتى توفى سنة ٥٩٦ هـ ، فخلفه ابنه علاء الدين محمد (٥٩٦ — ٦١٧/١١٩٩ — ١٢٢٠) الذى امتدت الدولة الخوارزمية فى عهده من حدود العراق غرباً إلى حدود الهند شرقاً ، ومن شمالى بحر قزوين وبحر آرال شمالا إلى الخليج العربى والمحيط الهندى جنوباً .

وفى سنة ٦٠٤ هـ وطلب سلطان سمرقند مساعدة خوارزمشاه علاء الدين محمد مساعدته على قتال الخطا الذين اشتدت وطأتهم وعم شرهم فى تركستان وبلاد ما وراء النهر ، فولى خوارزمشاه أخاه على شاه طبرستان بالإضافة إلى جرجان وقلد نواباً عنه فى حكم أقاليم خراسان وأبرم الصلح مع غياث الدين محمود الغورى واعترف بما كان تحت يده من بلاد الغور . ثم عبر خوارزمشاه نهر جيحون ودارت المعارك بين جيوشه وجيوش سلطان سمرقند وبين ملك الخطا . وقد دارت الدائرة على جيش المسلمين وقتل الخطا كثيراً منهم وأسروا خوارزمشاه علاء الدين محمد وأميراً كبيراً من أمراء دولته يقال له شهاب الدين مسعود ، وعادت الفالة إلى خوارزم . وقد احتال هذا الأمير فى إطلاق سراح مولاه ، فعرض عليه أن يتظاهر بخدمته عله يتمكن من خلاصه . فقام خوارزمشاه بخدمة شهاب الدين مسعود ، وكان يعظمه ويقدم له الطعام ويخلعه ثيابه وخُفه . فقال الخطائى الذى أسرهما لابن مسعود : أرى هذا الرجل يعظمك فمن أنت ؟ فقال : أنا فلان وهذا

غلامى ، فقام إليه (الخطائى) وأكرمه وقال : لولا أن القوم عرفوا بمكانك عندى لأطلقتك ، ثم تركه أياماً ، فقال له ابن مسعود : إنى أخاف أن يرجع المنهزمون فلا يرانى أهلى معهم فيظنون أنى قُتلت فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك ثم يقتسمون مالى فأهلك . وأحب أن تقرر علىّ شيئاً من المال حتى أحمله إليك ، فقرر عليه مالا وقال له : أريد أن تأمر رجلا عاقلا يذهب بكتابى إلى أهلى ويخبرهم بعافيتى ويحضر معه من يحمل المال ثم قال : إن أصحابكم لا يعرفون أهلنا ، ولكن هذا غلامى أثق به ويصدقه أهلى ، فأذن له الخطائى بانفاذه ، فسيره وأرسل معه الخطائى فرساً وعدة من الفرسان يحمونه ، فساروا حتى قاربوا خوارزم ، وعاد الفرسان عن خوارزمشاه ، ووصل خوارزمشاه ، فاستبشر به الناس وضربت البشائر وزينوا البلد وأتته الأخبار بما صنع كذلك بنيسابور وبما صنع أخوه على شاه بطبرستان »[١] .

ولما علم على شاه صاحب طبرستان وجرجان بفقد أخيه خوارزمشاه علاء الدين محمد بايع لنفسه[٢] . ثم عاد خوارزمشاه إلى بلاده واحتال فى القبض على ابن خرميل صاحب هراة . وقد ذكر ابن الأثير[٣] أن قائد خوارزمشاه لما قرب من هراة خرج ابن خرميل مع كبار رجال إمارته للقائه ، فأمر هذا القائد أصحابه فقبضوا عليه ، ولكنهم لم يتمكنوا من أخذ هراة[٤] . وأبى الوزير ابن خرميل تسليم المدينة ، فأمر القائد الخوارزمى بقتل ابن خرميل وطلب النجدة من خوارزمشاه ، فبعث إليه عشرة آلاف فارس حاصروا هذه المدينة ومنعوا وصول المؤن إليها ثم استولوا عليها (سنة ٦٠٥ هـ) . ثم أمر خوارزمشاه علاء الدين محمد خاله « أمير ملك » وكان قد أنابه عنه فى حكم هراة بالمسير إلى « فيروزكوه » قصبة بلاد الغور والاستيلاء عليها ، فسلم إليه غياث الدين محمود الغورى وطلب منه الأمان . وقد أرسل أمير ملك بهذا النبأ إلى خوارزمشاه واستطلع رأيه فى شأن غياث الدين محمود فأمر بقتله (٦٠٥ هـ)[٥] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ص ١٠٨ ـ ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ١١١

(٣) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ١٠٩

(٤) ذكر ابن الأثير (الكامل جـ ١٢ ص ١٠٩) قد حصنها وعمل لها أربعة أسوار محكمة البناء وحفر حولها خندقاً .

(٥) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ١١٠ — ١١١ .

وبذلك استقرت أقدام خوارزمشاه علاء الدين محمد فى خراسان ، ثم سار إلى بلاد ما وراء النهر فملكها وهزم الخطا هزيمة منكرة ، ثم عاد إلى خوارزم . وهنا زوج ابنته من سلطان سمرقند وأعاده إلى بلده فملكها من جديد . على أن هذا السلطان قابل هذا بالإساءة ، فغدر بالخوارزميين فى بلاده وهم بقتل زوجته ابنة خوارزمشاه علاء الدين محمد . وهنا ثارت ثائرة خوارزمشاه وسار إلى سمرقند واستباحها بجنده ثلاثة أيام أمعنوا فيها فى قتل الأهلين حتى قيل انهم قتلوا نحو مائتى ألف . ثم سلم إليه صاحب سمرقند وطلب الأمان ، فأمر به خوارزمشاه فقتل[1] .

وفى سنة ٦١١ هـ استولى خوارزمشاه علاء الدين محمد على كرمان ومكران والسند[2] وفى السنة التالية عظمت قوة خوارزمشاه علاء الدين محمد باستيلائه على كافة أقاليم خراسان ، وملك « باميان » واشتدت قوته وعظم سلطانه وهابه الملوك والأمراء . وأصبح بحيث يستطيع الاستيلاء على غزنة . فأرسل إلى صاحبها تاج الدين الدز يطلب إليه أن يقيم الخطبة له ويضرب السكة باسمه . فأشار عليه كبار أمراء دولته بإجابة خوارزمشاه إلى طلبه درءاً لخطره وتلافياً لشره ، فنزل على رأيهم . وأسرع علاء الدين خوارزمشاه السير إلى غزنة ودخلها واستولى على قلعتها وقتل من بها من الجند الغوريين ولا سيما الأتراك .

---

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٢ ص ١١٢ — ١١٣) أن طائفة عظيمة ببلاد الصين بينهم وبين الخطا عداوة قديمة وحروب طويلة . فلما سمعوا بما حل بالخطا من الهزيمة على يد خوارزمشاه علاء الدين محمد خرجوا من بلادهم وقصدوا بلاد الخطا عند ذلك أرسل ملك الخطا إلى خوارزمشاه يطلب إليه أن يتناسى كل منهما ما كان بينهما من حروب ويطلب مساعدته ضد التتر ويخوفه من الأخطار التى تحدق ببلاده إذا ما انتصروا عليه وأرسل التتر فى الوقت نفسه إلى خوارزمشاه علاء الدين محمد يخوفونه من من الخطا ويطلبون منه العون ويعدونه بعدم التعرض لبلاده إذا تم لهما النصر على عدوهما المشترك . وقد أجاب خوارزمشاه كلا من الخطا والتتر بالمساعدة وسار بجنده حتى أصبح على مقربة من المكان الذى عسكر فيه الفريقان المتنازعان ، وتظاهر بأنه مع كل فريق . ثم نشب القتال بين الخطا والتتر وانهزم الخطا هزيمة منكرة . وهنا سنحت الفرصة لخوارزمشاه علاء الدين محمد فجعل يقتل الخطا ويأسرهم ويطاردهم . ونجا منهم فئة قليلة ساروا مع ملكهم حتى بلغوا مكاناً جبليا تحصنوا فيه . وبذلك طمع كل من التتر وخوارزمشاه فى بلاد الخطا ، وأخذ خوارزمشاه يشن الغارات على البلاد الإسلامية القريبة من بلاد التتر ويتخربها خوفاً من امتلاكهم لها . ثم انشغل ملك التتر بحرب عسكر جنكيزخان وخلفائه الذين قضوا على هؤلاء التتر وعلى الدولة الخوارزمية جميعاً .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٢٥ .

ثم ترك خوارزمشاه غزنة وخلف عليها ابنه جلال الدين منكبرتى . ولما علم « الدز » بهذا النبأ ، وكان غائباً عن غزنة[١] ، هرب هو ومن معه من الجند إلى لاهور : فلحقته جيوش أتباع شهاب الدين محمود الغورى وأحلت به الهزيمة وقتلته[٢] .

وبين سنتى ٦٠٧ و ٦١٤ هـ بسط خوارزمشاه علاء الدين محمد نفوذه على بلاد ما وراء النهر وأحل الهزيمة بالخطا وملك إيران بعد حروب طاحنة مع الغور فى خراسان . واستولى على بلاد الجبل وفارس ، وتمكن من السيطرة على الأقاليم المطلة على المحيط الهندى جنوباً بما فى ذلك كرمان ومكران ، وأخيراً استطاع الاستيلاء على البلاد الواقعة غربى نهر السند بعد استيلائه على غزنة حاضرة الغور (١٢١٥/٦١٢) .

ومما يلاحظ فى حياة خوارزمشاه علاء الدين محمد أنه انتحل عقائد المذهب الشيعى (٦١٤ هـ) ومهد السبيل للقضاء على الخلافة العباسية فى بغداد . وقد حاول الاستيلاء على مدينة بغداد ليستأثر بالسلطة التى كان يتمتع بها بنو بويه والسلاجقة من بعدهم فطلب من الخليفة العباسى الناصر (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ) أن يأمر بذكر اسمه فى الخطبة بدل السلاجقة فأبى الخليفة واشتدت العداوة والبغضاء بينهما حتى حذف خوارزمشاه علاء الدين محمد اسم الخليفة العباسى من الخطبة على منابر بلاده ونصب أحد الأشراف من سلالة على بن أبى طالب خليفة . ولعل عدم إجابة الخليفة خوارزمشاه علاء الدين محمد إلى ذكر اسمه فى الخطبة بدل السلاجقة راجع إلى تحوله إلى عقائد المذهب الشيعى .

وهكذا ترى خوارزمشاه علاء الدين محمد بدلا من أن يجمع قوته لصد الكارثة التى تهدد بلاده من الناحية الشمالية الشرقية ، يزج بنفسه فى خصومة حامية مع الخليفة العباسى ثم يزداد الأمر سوءا بوقوع كارثة أخرى كان سببها اشتداد البرد وقسوة الشتاء فى هذه الديار بصورة لم تعهدها البلاد من قبل[٣] وكان من المحتمل أن يؤجل وقوع الكارثة إلى حين لو أن علاء الدين محمد لم يقم بهذه الفعلة الطائشة بتحريض عامل مدينة « أونزار » على قتل التجار الذين أرسلهم جنكيزخان بعد ما ألقى فى روعه أنهم ليسوا تجاراً فى الحقيقة وإنما هم جواسيس للمغول ، حتى لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن هذه الكارثة

---

(١) كان الدز يقيم بغزنة أربعة أشهر الصيف .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٨ .

(٣) براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ترجمة ج ٢ ص ٥٥٦ — ٥٥٧

كانت السبب المباشر فى غزوات المغول بل إن علاء الدين محمد تمادى فى سياسته التى تدل على قصر النظر بقتله رسول جنكيزخان التركى وإعادة الرسولين المغوليين الآخرين إلى مولاهما بعد أن أمر بحلق لحاهما .

لذلك ثار چكنيزخان لقتل تجاره وإهانة رسله ، فعقد جمعية عامة من المغول « قوريلتاى » وقرر مهاجمة « خوارزم » . ولم يقو علاء الدين محمد على صد تيار المغول وأخذ يتقهقر أمام جحافلهم التى دخلت خراسان وانطلقت تتبعه وتطارده من بلد إلى بلد ، فأسرع إلى ناحية الغرب صوب بحر قزوين ، وتركه أتباعه ثم مرض بالبرص واشتدت عليه علته ومات شريداً طريداً بعد أن استبد به اليأس وانتابه المرض فى جزيرة من جزر بحر قزوين ، تاركا ملكه لابنه الشجاع جلال الدين منكبرتى ، ووقعت أمه « توكان خاتون » مع زوجاته وأولاده وجواهره فى أيدى المغول ، وهيأ بذلك الفرصة لسقوط دولة خوارزم العظيمة .[١] .

وقد وصف ابن الأثير [٢] مصير علاء الدين محمد فى هذه العبارة فقال : « ومن أعظم الأمور أن سلطانهم خوارزم شاه محمدا قد عدم لا تعرف حقيقة خبره : فتارة يقال مات عند همذان وأخفى موته ، وتارة دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفى موته لئلا يقصدها التتر فى إثره ، وتارة يقال عاد إلى طبرستان وركب البحر فتوفى فى جزيرة هناك . وبالجملة فقد عدم ثم صح موته ببحر طبرستان (أى بحر قزوين أو بحر الخزر) .

جلال الدين منكبرتى

وقد هام أولاد علاء الدين محمد خوارزم شاه الثلاثة على وجوههم فى الولايات الفارسية ، بل إن آخرهم ، وهو جلال الدين منكبرتى (بفتح الميم والكاف والباء وسكون النون) قد هرب إلى الهند حيث عضده سلطان دلهى الذى تزوج ابنته ، وبعد سنتين عاد جلال الدين إلى بلاده التى ورثها عن أبيه . يقول براون [٣] : « وفى هذه الأيام الحالكة التى وقعت فيها غزوة المغول ... نجد أن جلال الدين خوارزم شاه بما حباه الله من شخصية لامعة يسطع حظه كالشهاب الثاقب والبرق الخاطف ، ثم تخمد ناره وينطفىء أواره دون أن

---

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٥٥٨ — ٥٥٩

(٢) الكامل ج ١٢ ص ٢٤٦

(٣) تاريخ الأدب فى إيران ، ترجمة الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ٥٦٩ .

ينتج أثرا أو يجدى نفعا . ولربما خلت صفحات التاريخ من ذكر أمير مثله امتاز بجرأته وإقدامه ... فى هذه الأحوال المضطربة نجد أن جلال الدين يستجمع قوته ويتمنطق بسيفه ، ثم يمضى أمام الصاعقة على عجل فيحتمى بالحدود الهندية . فإنه عند مابلغ جيشه الصغير نهر السند وجد نفسه وقد أحاطت به جموع كبيرة من المغول ، فقاومها وأبدى من ضروب الشجاعة والجلد الشىء الكثير ، ولكنه أدرك فى النهاية أنه قد خسر الموقعة ، فهجم على أعدائه هجوم اليائس ، ثم يمم بوجهه شطر النهر وألقى بدرعه عن جسدد ، ثم امتطى صهوة جواده وعبر النهرر ، . وتبعه قوم من أتباعه ، فعملوا مثل مافعل . ولكن أكثرهم غرقوا أو أغرقتهم سهام المغول الذين كانوا يحدون فى أثرهم ، وغرقت أم جلال الدين وبعض نساء حرمه[١] .

وقد سجل شهاب الدين النسوى[٢] كاتب جلال الدين منكبرتى أن جلال الدين حارب فى عدة ميادين : حارب المغول الذين كانوا يتعقبونه وحارب أخاه غياث الدين الذى خانه ، وحارب حاكم كرمان ، كما حارب الخليفة فى بغداد ، وحارب التركمان والحشاشين ، وفتح ولاية چورچيا .

وفى سنة ١٢٢٩/٦٢٧ أخذ جلال الدين منكبرتى يدعو أمراء المسلمين للتحالف معه على محاربة المغول ، وكاد أن ينجح فى تأسيس هذا الحلف ، ولكن جيشاً من المغول قوامه ثلاثون ألف مقاتل حمل عليه فجأة واضطره إلى الهرب شمالا حيث استطاع أن يستولى على مدينة كنجه[٣] . وانقلب حظ جلال الدين وخمد نشاطه وأدمن الشراب وبدت عليه الهموم فأصبح كسير القلب سريع البكاء ، وما زال يهرب أمام جحافل المغول من بلد إلى بلد حتى انتهى به المكان إلى قرية كردية ، فقتله أحد الفلاحين (١٥ أغسطس سنة ١٢٣١/ ٦٢٩ هـ)[٤] ، قبل أن يعرف شيئاً عن وصول المغول ،

---

(١) وقد قيل إنهن سألن جلال الدين أن يأمر بإغراقهن خشية أن يقعن فى أيدى المغول ، ورأى جلال استحالة العبور بهن فأمر بإغراقهن .

D' Hossou, Histoire des Mongols, tome I, pp. 258,306 et seq.

(٢) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، وقد كتبها النسوى بالعربية وترجمها « هوادس » إلى الفرنسية ، ونشرت دار الفكر العربى بالقاهرة سيرة السلطان جلال الدين سنة ١٩٥٣ ، أنظر براون .

(٣) وهى المعروفة الآن باسم إليزافتبول Elizavetpol

(٤) براون : تاريخ الأدب فى إيران ترجمة ص ٥٧٢ .

وبذلك حقق المغول الغرض الأول من غزواتهم وهو القضاء على الدولة الخوارزمية . وقد أحاط كثير من الشك نهاية جلال الدين منكبرتى ، وحامت الإشاعات حول مصيره ، فظن بعض أنه ما زال حياً ، وأنه قد خرج ثانية من مخبأه .

يقول براون : ونهاية جلال الدين هذه وما أحاطها من شك فى مصيره تمثل لنا حال أى بطل تتعلق به الآمال فى ساعات اليأس العصيبة . . . حيث نجد الأوهام الشعبية تنتهى بالبطل إلى حياة الزهد والتقشف ثم الموت فى سن الشيخوخة ميتة الأولياء والصالحين(٢) .

ثالثا — الدولة الأيوبية

(٥٦٧ — ٦٤٨ / ١١٧١ — ١٢٥٠)

صلاح الدين الأيوبى

ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٦ م) بقلعة تكريت (بفتح التاء) ، وهى بلدة مشهورة بين بغداد والموصل . وكان أبوه نجم الدين أيوب والياً عليها . ثم انتقل صلاح الدين مع أسرته إلى الموصل ، فأقطعه صاحبها عماد الدين زنكى كثيراً من الأراضى ، وكان نجم الدين من أتباعه المخلصين .

ولما فتح عماد الدين زنكى بعلبك ولى نجم الدين أيوب قلعتها ، فبقى والياً عليها حتى توفى عماد الدين . فلما حاصر مجد الدين أرتُق صاحب دمشق قلعة بعلبك ، أرسل نجم الدين أيوب إلى سيف الدين غازى بن زنكى يطلب منه النجدة . فلم يلب طلبه لانشغاله بإصلاح أمور الموصل ، حتى إذا ما ضاق الأمير نجم الدين ذرعا نزل عن قلعة بعلبك لصاحب دمشق ، ثم سار مع أخيه أسد الدين شيركوه إلى دمشق ، ورافقه فى سفره ابنه صلاح الدين يوسف ، وكان إذ ذاك فى مقتبل الشباب .

وقد اتصل أسد شيركوه عم صلاح الدين بنور الدين محمود بن عماد الدين زنكى صاحب حلب وأصبح من أكابر أمراء دولته ، فأقطعه حمص والرحبة وأسند إليه قيادة

---

(١) الكامل ج ٢١ ص ٢٤٦ .

(٢) براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ترجمة ص ٥٧٢ .

(٣) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٣ — ١٤٥

جنده . ولما عزم نور الدين على ضم دمشق إلى حوزته طلب من أسد الدين شيركوه أن يكتب إلى أخيه نجم الدين أيوب (أبى صلاح الدين) ليعاونه على فتحها ، فلبى نجم الدين طلب أخيه أسد الدين ، وبذلك تمكن نور الدين من الاستيلاء على دمشق . وأصبح أسد الدين ونجم الدين من كبار أمراء جيش نور الدين محمود[١] . ولما لجأ شاور وزير العاضد الفاطمى إلى نور الدين طالباً منه العون على العودة إلى الوزارة ، أرسل معه حملة بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الذى ظهر على مسرح السياسة منذ ذلك الحين[٢] .

وقد خلف شيركوه شاور فى الوزارة (١٧ ربيع الثانى سنة ١٨/٥٦٤ يناير سنة ١١٦٩) ، وخلع عليه الخليفة[٣] . على أن شيركوه لم يتمتع طويلا بهذا المنصب ؛ إذ وافته منيته بعد ثلاثة أشهر ، فتقلد الوزارة من بعده ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى . وقد رأى صلاح الدين أن مركزه قد أصبح شديد الحرج بعد أن آلت الوزارة إليه ، لأنه أصبح وزيراً للخليفة الفاطمى الشيعى ونائباً عن نور الدين محمود صاحب دمشق السنى . فاضطر إلى الدعاء لهما فى الخطبة ، ثم أخذ يقوى مركزه فى مصر ويعمل على اكتساب محبة أهلها ليشتد بهم أزره ويستقل بهذه البلاد .

وكان النصر الذى أحرزه صلاح الدين على الفرنجة فى دمياط بدء طور جديد فى تاريخ النزاع بين مصر والصليبيين . فبعد أن كانوا يوالون الغارات على مصر فى عهد الفاطميين، قصروا جهودهم على الدفاع عن إمارة بيت المقدس .

ولما خرج صلاح الدين لاستقبال أبيه نجم الدين أيوب قال له : « هذا أمر لك (يعنى الوزارة) وهى السلطنة الآن وتدبير ملك مصر ، ونحن بين يديك » ، فقال له أبوه : « يا بنى ! ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت أهل له » ، وأبى قبول الوزارة ، فأسند إليه ابنه صلاح الدين إدارة بيت المال ، وأقطع أقاربه بعض الإقطاعات .

وعلى الرغم من أن صلاح الدين أصبح صاحب النفوذ المطلق فى مصر بعد وفاة الخليفة العاضد الفاطمى ، ظل يخشى منافسة نور الدين له . فأمر بذكر اسمه فى الخطبة

---

(١) المصدر نفسه جـ ٦ ص ١٤٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٢١ . ابن خلكان جـ ٦ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٣٦ — ١٣٧ . ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٤٧ — ٤٨ .

تسلسل نسب الأيوبيين

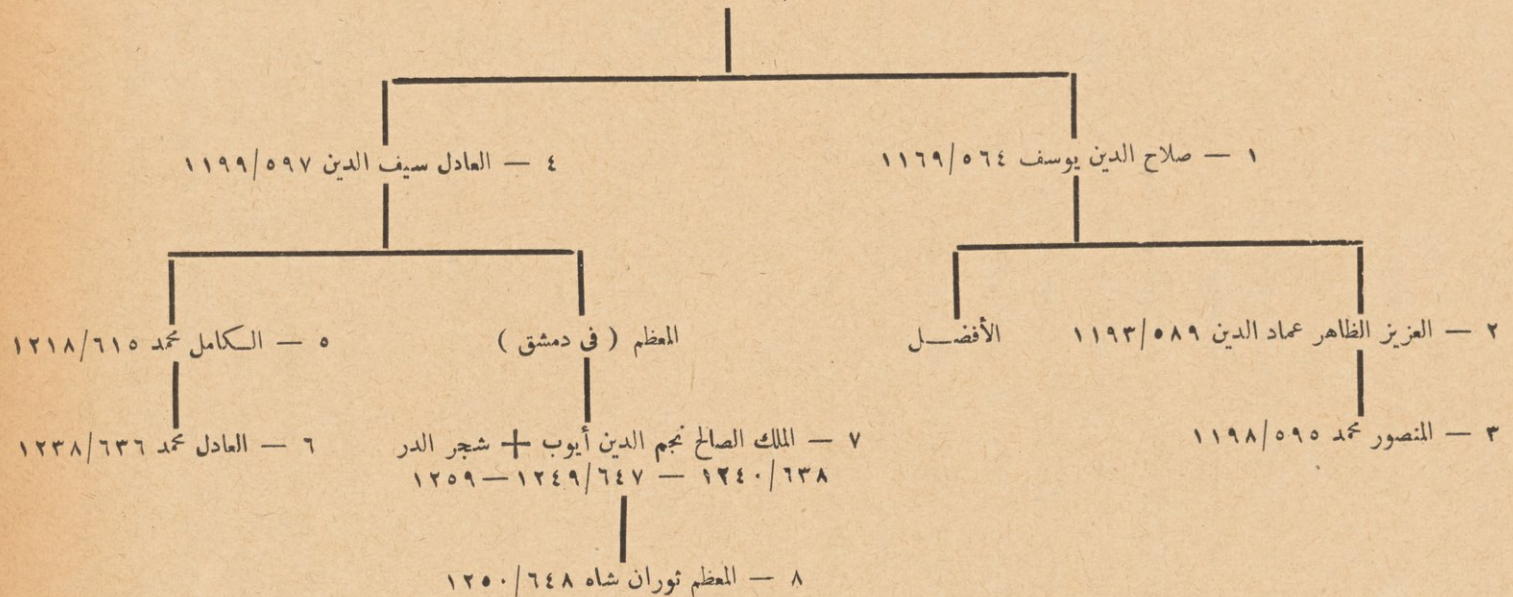

بعد ذكر اسم الخليفة العباسى ، وضرب النقود باسمه ، وأرسل إليه الهدايا حتى لا يرتاب فى ولائه . كذلك حرص على الاحتفاظ بمكان يأوى إليه إذا غضب عليه نور الدين ، فوجه أخاه شمس الدولة قدران شاه بن نجم الدين أيوب إلى السودان ليقف على أحوال هذه البلاد التى قد يلجأ إليها صلاح الدين إذا مادعت الضرورة ، ثم عهد إلى أخيه بغزو بلاد اليمن ، فاستولى عليها وأقام الخطبة للخليفة العباسى .

ويمكن تقسيم عهد صلاح الدين الأيوبى منذ تولى زمام مصر إلى ثلاثة أدوار : الأول فى مصر ، والثانى فى الشام ، والثالث فى فلسطين . فالأول هو طور الدفاع ، والثانى طور إعداد العدة والتأهب ، والثالث طور الهجوم . وفى هذه الأدوار الثلاثة كان صلاح الدين يوجه كل جهوده للدفاع عن رغبته الصادقه فى إخراج الصليبيين من بلاد الشام وإنشاء إمبراطورية إسلامية متحدة تستطيع أن تقذف بالفرنجة إلى ساحل البحر بل إلى أبعد من ذلك .

فى الدور المصرى (١١٦٩ — ١١٧٤ م) وقف صلاح الدين موقف الدفاع أمام الصليبيين وأنصار الفاطميين وأمام نور الدين صاحب دمشق الذى حكم صلاح الدين هذه البلاد باسمه ، ومن ثم كانت سياسته فى هذا الدور تنطوى على صد الاعتداء فى الداخل والخارج وتقوية سلطانه من الناحيتين السياسية والحربية .

أما فى الدور الثانى أو الدور الشامى (١١٧٤ — ١١٨٦ م) الذى يبتدى بوفاة نور الدين ، فقد ظهر صلاح الدين بمظهر أكبر حاكم إسلامى فى الشرق الأدنى ونشر نفوذه فى الشام والجزيرة ، وأعد العدة لجمع القوات الإسلامية للصراع النهائى مع الصليبيين .

وفى الدور الثالث أو الدور الفلسطينى (١١٨٦ — ١١٩٣ م) وجه صلاح الدين كل جهوده إلى الحرب المقدسة مع الصليبيين ، تلك الحرب التى انتهت بصلح الرملة الذى أعقبه بعد شهور موت بطل الإسلام (١) .

ذلك أنه لما توطدت قدم صلاح الدين فى مصر ، خشى السلطان نور الدين صاحب دمشق إزدياد نفوذه وفكر فى خلعه . بيد أن الحظ بسم لصلاح الدين بوفاة نور الدين

---

(١) Lane-Poole, Hist of Egypt in the Middle Rges, p. 203.

سنة ٥٩٦ هـ (١١٧٤ م) وعلى الرغم من أن الفرصة قد سنحت لصلاح الدين بأن يبسط سلطانه على البلاد الإسلامية فى الشرق ظل يرقب الحوادث خشية أن يعرقل أهل الشام أعماله ، فأظهر احترامه للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، وظل يضرب النقود باسمه ويخطب له على المنابر . غير أن هذا الملك لم يلبث أن وقع تحت نفوذ وزرائه وبطانته ، وقام الخلاف بينه وبين صلاح الدين الذى بعث إلى هؤلاء الوزراء كتابا شديد اللهجة يهددهم فيه بالمسير إلى دمشق وإنزال العقاب بهم على سوء تصرفهم . وبعد قليل استدعى أحد أمراء دمشق صلاح الدين لاحتلال المدينة ، فأسرع صلاح الدين بالمسير إليها دون أن يكترث بوجود الصليبيين فى طريقه ، وتمكن من الاستيلاء على دمشق (١١٧٥/٥٧٠) ثم أرسل إلى أتابك الشام كتابا يؤكد له فيه أنه إنما جاء إلى هذه البلاد ليقدم فروض الطاعة للملك الصالح إسماعيل الذى رد عليه رداً شديداً اتهمه فيه بالتمرد ونكران الجميل وأثار بذلك استياء صلاح الدين الذى زحف إلى حلب وأوقع بأهلها ، ثم فك الحصار واتجه إلى حمص لمحاربة الصليبيين (١) .

ثم حاول صلاح الدين التفاهم مع الملك الصالح ، فأرسل إليه كتابا يعرض فيه استعداده للتخلى عن حماه وحمص وبعلبك على أن يقره على ولاية دمشق ومصر . وقد أبى الملك الصالح إجابة هذا الطلب ، فلم ير صلاح الدين بدآ من محاربته ، فاشتبك مع جيش إسماعيل فى معركة بالقرب من حماه وانتصر عليهم ثم حاصرهم فى حلب وأرغمهم على طلب الصلح . ولكى يستدروا عطف صلاح الدين أرسلوا إليه ابنة نور الدين ، وكانت لا تزال فى دور الطفولة ، فتلقاها بالحفاوة وأحسن وفادتها وقدم إليها الهدايا . ثم سألها عما تطلبه لقومها ، فقالت إنهم يريدون بلدة « إعزاز » ، فوهبها هذه البلدة . ونزل لأخيها الملك الصالح إسماعيل عن جميع المدن التى استولى عليها من إمارة حلب ، وأصبح صلاح الدين بهذا الصلح صاحب الأمر فى دمشق وحمص وحماه .

ولما عاد صلاح الدين إلى مصر بعد سنتين أخذ ينظم أمورها ووجه همته إلى تحصينها ليأمن شر غارات الأعداء ، فعهد إلى وزيره بهاء الدين قراقوش فى بناء قلعة منيعة على قمة جبل المقطم غربا لتكون مركزاً لحكومته ومعقلا لجنده وليتقى بها خطر الفاطميين وأشياعهم فى الداخل إذا حدثتهم أنفسهم بإذكاء نار الثورة والخروج على سلطانه .

---

(١) ابن خلكان ج ٦ ص ١٦٥ — ١٦٦ :

ثم أخذ صلاح الدين فى بناء سور عظيم يضم الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع والقاهرة (٥٧٢ هـ) [١] .

وقد ظل صلاح الدين يعمل على توحيد كلمة المسلمين حتى توفى الملك الصالح إسماعيل (٥٧٧ هـ) ، فبسط سلطانه على حلب (٥٧٩ هـ) والموصل ، وأصبح بذلك الحاكم المسيطر على غربى آسيا ، وأصبح الصليبيون محصورين بين قوات صلاح الدين المتحدة فى الشمال والجنوب والشرق [٢] .

وكان صلاح الدين منذ تولى زمام الحكم فى مصر يبذل قصارى جهده لإخراج الصليبيين من المشرق : فلما اتصل به نبأ إغارة « رينولد » صاحب حصن الكرنك (بفتح الكاف والراء) على سواحل بلاد الحجاز وقطعه طريق الحج وأخذه بعض قوافل المسلمين وهم فى طريقهم إلى بيت الله ، أغار صلاح الدين على الولايات الصليبية وهزم الصليبيين هزيمة منكرة فى موقعة حطين (بكسر الحاء والطاء مع التشديد) القريبة من طبرية سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٧ م) ، ثم أخذ يطاردهم حتى استولى على حصن طبرية بعد قليل ، ويصف العماد الأصفهانى ما أحرزه صلاح الدين من نصر فى قصيدة ننقل منها هذا البيت .

حَطَطْتَ على حطين قَدْرَ ملوكهم ولم تبقَ من أجناس كفرهم جِنْسا

ونظم ابن الساعاتى قصيدة أخرى فى هذا الفتح استهلها بهذا البيت :

جَلَتْ عزماتك الفتح المبينا فقد قرّت عيونُ المؤمنينا

ولما فرغ صلاح الدين من طبرية واصل زحفه حتى بلغ عكاء فحاصرها واستولى عليها ، ثم وقعت فى يده نابلس والرملة وقيسارية وأرسوف ويافا وبيروت ، كما سقطت فى يده صور فى طرابلس وعسقلان ، وبذلك أخذ صلاح الدين يعد العدّة لاسترداد بيت المقدس ، فسار إليها على رأس جيش كبير ، ولما اقترب منها بعث فى طلب أشرافها وخاطبهم بقوله إنه يحترم مدينة القدس ولا يرغب فى انتهاك حرمتها بإراقة الدماء ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٣٩ — ١٤٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٥٢ ابن خلكان ج ٦ ص ١٦٨ .

(٢) ابن خلكان ج٦ ص ١٦٩ — ١٧٠ — ١٧١ .

ولذلك ينصح لهم بترك استحكاماتهم وتسليم مدينتهم من غير حرب على أن يعوِّضهم عن أملاكهم بالأموال والأراضى ، لكن الصليبيين رفضوا إجابة هذا الطلب ، فلم ير صلاح الدين بدأ من محاصرة بيت المقدس .

ولما رأى الصليبيون أنهم أصبحوا عاجزين عن المقاومة وأشرفوا على الهلاك ، طلبوا الصلح وتعهدوا أن يسلموا بيت المقدس إلى صلاح الدين وأن يخرجوا منها بأموالهم وأولادهم مقابل فدية يدفعها كل منهم . فكان يؤخذ من الرجل عشرون دينارا ومن المرأة خمسة دنانير ومن الطفل ديناران[٢] ، وضمن لهم صلاح الدين سلامة الرحيل إلى صور أو إلى طرابلس .

ثم دخل صلاح الدين بيت المقدس فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكان جميع الفرنجة قد غادروها ، ثم أمر صلاح الدين بترميم ما دمرته الحروب من مبانيها وإعادة تشييد المساجد والمدارس التى هدمها الصليبيون ، كما وضع نظاماً خاصاً لإدارتها .

ولما وصل إلى أهل أوربا نبأ سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين أخذ رجال الدين يدعون الشعوب المسيحية وملوك أوربا لإعداد حرب صليبية أخرى ، ولم تلبث أن تدفقت النجدات على صور ، واشترك فى هذه الحرب ثلاثة من أعظم ملوك أوربا شأناً وهم : فريدريك بربا روسا إمبراطور ألمانيا . وكان على رأس مائة ألف جندى ، وفيليب الثانى ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وبينما كان الألمان يزحفون على أنطاكية غرق ملكهم فى الطريق ولم يصل من جنده إلى بلاد الشام إلا القليل ، أما جيوش ريتشارد وفيليب فقد وصلت إلى عكاء واستولت عليها .

على أن هذه الحملة الصليبية قد قضى عليها لوقوع النزاع بين فيليب وريتشارد ، فعاد فيليب إلى بلاده وانفرد ريتشارد بمحاربة المسلمين ، وأظهر من الشجاعة والفروسية ما أثار إعجاب أعدائه فلقبوه « قلب الأسد » . وقد انتصر ريتشارد أولا على جيش صلاح الدين فى أرسوف ثم تابع زحفه على عسقلان ، غير أنه لما شاهد بنفسه خرائب قلعتها أدرك أنه أمام خصم عنيد ، فشرع فى بدء المفاوضات معه وانتهت بإبرام صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ . (١١٩٢ م) . ومن أهم شروطه : وقف الحرب بين الفريقين ثلاث

---

(١) ابن خلكان ج ٦ ص ١٧٤ وما يليها .
(٢) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٨٧ .

سنين ، وأن يترك بيت المقدس تحت حكم المسلمين على أن يسمح للمسلمين بالزيارة وأداء مناسك الحج ، وأن يقوم الصليبيون بحماية ساحل الشام من صور إلى يافا . وأن يرد المسلمون المخلفات الدينية إلى المسيحيين(١) .

ولم تمض سنة واحدة على إبرام هذا الصلح حتى حقق صلاح الدين أهم أغراضه فى الحياة ، وهو إخراج الصليبيين من بيت المقدس وإعادة وحدة المسلمين ، وقد أنهكت هذه الحروب الطويلة قواه وأضعفت صحته ، وأصيب بالحمى وتوفى بدمشق فى شهر مارس سنة ١١٩٣ م ، ودفن بها وقد حزن المسلمون بوفاة هذا الزعيم العظيم الذى أعاد إلى الإسلام قوته ، وصدّ تيار الصليبيين الذى كاد يجتاح بلادهم . فقد رثاه الشعراء بمرثيات خالدة تعرفها كتب الأدب . فمن ذلك قول بعضهم :

أين الذى كانت له طاعاتنا ... مبذولةً ولربه طاعاته
أين الذى شَرُف الزمان بفضله ... وسمتْ على الفضلاء تشريفاته
ملك على الإسلام كان محاميا ... أبداً لماذا أسلمتْه حُماته
يا راعياً للدين حين تمكنت ... منه الذئاب وأسلمته رعاتُه
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائما ... رضوانُ ربٍّ العرش بل وصلواته(٢)

لم يكن للمسلمين قبل انتصارهم الحاسم فى موقعة حطين شبر واحد فى أرض فلسطين غربى نهر الأردن ، لكن هذه الأرض قد أصبحت بعد صلح الرملة أرضاً إسلامية ، اللهم إلا إذا استثنينا هذا الجزء الضيق الذى يقع بحذاء الساحل ويمتد من صور إلى يافا ، وقد خرج صلاح الدين من هذه الحروب بقوة لا تقهر ، وانتشر أتباعه فى كافة البلاد الواقعة بين جبال كردستان وصحراء ليبيا ، وسارعوا إلى تلبية دعوته إذا ما دعاهم للجهاد ، وعمل على محالفة ملك چورچيا وملك أرمينية وسلطان قونية وإمبراطور القسطنطينية(٣) .

وكان صلاح الدين مثلا للآداب العالية والصفات الحميدة ، وكان كما وصفه ابن

---

(١) Lane-poole, Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 211.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٦٠ .

(٣) Ibid, p. 211.

خلكان[١] ، كثير التواضع واللطف ، قريباً من الناس ، رحيم القلب ، كثير الاحتمال والمداراة ، يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم ، ويستحسن الأشعار الجيدة ويرددها فى مجالسه .

ولما استولى صلاح الدين على بيت المقدس وقع فى يده كثير من الأسرى ، فوفد عليه رهط من النساء وناشدته أن يفك سراح أزواجهن وأولادهن ، وقلن له إنهن إذا رحلن عن هذه البلاد فقدن أزواجهن ، ولو ردهم إليهن لأزال بؤسهن وعشن سعيدات بفيض كرمه وواسع رحمته ، فتأثر صلاح بتوسلاتهن وأمر برد الأسرى إلى أقاربهم ، ووزع الصدقات على اليتامى والأرامل . وعمل على إسعاف الجرحى ومعالجة المرضى بحجاج المسيحيين .

وهناك كثير من القصص الذى تدل على حسن السياسة التى سار عليها صلاح الدين مع أهالى المدن المفتوحة . وهى سياسة تنطوى على كثير من حسن المعاملة والعطف والرعاية وإغداق الهبات وتحقيق الرغبات ، مما تفيض به الكتب التى عنى مؤلفوها بتدوين سيرة صلاح الدين الحافلة بضروب الشجاعة والفروسية .

وكان صلاح الدين محباً لمجالس العلم ميالا لمناقشة رجال الفقه وأصول الدين[٢] ، وقد وصفه عبد اللطيف البغدادى طبيب بغداد فى هذه العبارة فقال : وجدته أميراً جليلا مهيب الطلعة جديراً بالاحترام والتقدير ، وديعاً متواضعاً ذكياً سمح النفس واسع الإدراك ، ثم قال : وجدته فى ندوة من العلماء يتذاكرون العلوم ، ورأيته وهو يحسن الإنصات ثم يشترك فى الحديث ، وكان صلاح الدين — « مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة — كثير التواضع واللطف قريباً من الناس ، رحيم القلب كثير الاحتمال والمداراة ، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم . . . وكان يستحسن الأشعار الجيدة ويرددها فى مجالسه »[٣] ويقول لينيول[٤] ، ويكفى صلاح الدين فخراً أنه أدخل نظام المساجد المدرسية فى القاهرة . . . وكان تطبيقه فى القاهرة مما جعلها فى مصاف مراكز العلم الإسلامية الشهيرة .

---

(١) انظر ترجمة يوسف بن أيوب الملقب الملك الناصر صلاح الدين فى ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٩ — ٢١٨ .

(٢) لينيول Saladin, p. 20. .

(٣) ابن خلكان ج ٦ ص ٢٠٦ .

(٤) ترجمة ص ١٧٢ . Hist, of Egypt in the Middle Ages

خلفاء صلاح الدين

وقد ترسم خلفاء صلاح الدين خطاه ، ففى عهد أخيه العـــادل جمع جان دى بريين (Jean de Brienue) جيشاً من الجرمان واستولى على دمياط سنة ١٢١٨ م . ويقال إن العادل مات فى شهر أغسطس من هذه السنة حزناً على ضياع دمياط ، وأوصى قبل وفاته ابنه الـكامل بإخراج الصليبيين منها : فبنى الاستحكامات جنوبى دمياط وفى المنصورة ، وحسم النزاع الذى قام بينه وبين أقاربه ، وجاءته الإمدادات من حلب وحمص وحماه وغيرها . ثم التقى بالصليبيين عند المنصورة ، وأغرق السفن فحجزت ماء النيل وحال بذلك دون تقدمهم ، وحلت الخسائر بالصليبيين بسبب فيضان النيل وإحاطة المسلمين بهم من كل ناحية وتفشى الحمى فى جندهم ، واضطر الصليبيون إلى طلب الصلح (١٢٢١م) ، فرأى السلطان الـكامل من حسن السياسة وبعد النظر أن يجيبهم إليه ، حتى لا تقوم حرب صليبية أخرى للأخذ بثأرهم ، وسمح للصليبيين بالجلاء عن دمياط ، وعقدت بين الفريقين هدنة أمدها ثمانى سنين . ورحل الصليبيون عن مصر بعد أن أقاموا فيها أربعين شهراً (١) .

على أن هذا الصلح الذى عقد بين السلطان الـكامل والصليبيين لم يحل دون وقوع حرب صليبية أخرى ، فقد خرج الإمبراطور فردريك الثانى بحملته إلى فلسطين ، وتزوج من ابنة الملك جان بريين وارثة عرش أورشليم . واضطر الملك الـكامل — بسبب قيام النزاع بينه وبين أخيه الملك المعظم صاحب دمشق — إلى عقد صلح مع فردريك سنة ١٢٢٩ م على أن ينزل السلطان الـكامل عن بيت المقدس ، وأن يظل مسجد عمر وماحوله فى حوزة المسلمين ، وأن يطلق سراح جميع أسرى المسيحيين ؛ وتعهد الإمبراطور بأن يدافع عن السلطان الـكامل أمام أعدائه حتى المسيحيين منهم . ومما ساعد على عقد هذا الصلح ماعرف به فردريك من حرية الرأى ، وميله إلى المسلمين . وقد حامت الشكوك فى صدق إخلاصه للمسيحية ، حتى إن البابا قال إنه تابع من أتباع محمد لاجندى من جند المسيح .

عاش السلطان الـكامل بعد إبرام هذا الصلح تسع سنين . وتقدمت مصر فى عهده تقدماً عظيما ، فقد عمل على تحسين الرى ، وأتم تحصين قلعة القاهرة ، وأسس كثيراً من

---

(١) Lane-Poole, pp. 218—224.

معاهد العلم . وكان الكامل — كما وصفه ابن خلكان [١] — « سلطاناً عظيم القدر جليل الذكر محباً للعلماء ، متمسكاً بالسيرة النبوية ، حسن الإعتقاد ، معاشراً لأرباب الفضائل ، حازماً فى أموره ، لايضع الشىء إلا فى موضعه فى غير إسراف ولا إقتار »[٢] .

ولما توفى الكامل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) ، ولى أمراء مصر الأمير أبا بكر ، ولقبوه بالملك العادل ، فساء ذلك الصالح أيوب بن الكامل ، وكان أبوه قد أبعده عن حصن كيفا (الضفة الغربية لنهر دجلة) ، وهمّ بمغادرة الشام ليستولى على مصر ، فاعتقله الناصر صاحب الكرك ، ولكنه مالبث أن أطلق سراحه ، وتحالف معه على أن تكون مصر له ، وبلاد الشام للناصر ، وتآمر مماليك الكامل على خلع العادل ، واستدعوا الصالح أيوب ، وولوه السلطنة سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م)[٣] .

وفى عهد الملك الصالح أيوب (١٢٤٠ — ١٢٤٩م) جرد لويس التاسع ملك فرنسا حملة على مصر ، واستولى على دمياط ، ثم عسكر بالقرب من البحر الصغير بالمنصورة ، وانتصر أول الأمر ، وكاد يقتحم قصر السلطان ، لولا أن رده المماليك بقيادة بيبرس ، الذى انقض بجيشه على الصليبيين وقلب نصرهم هزيمة[٤] . ولما أخذ الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة ، توفى الملك الصالح (نوفمبر ١٢٤٩ م) ، وكان ابنه وولى عهده الملك المعظم « توران شاه » بحصن كيفا ، وقد أخفت زوجته شجر الدر موته ، حتى لايتطرق الوهن إلى نفوس المسلمين . ثم قدم توران شاه بن الملك الصالح أيوب مصر ، ونزل بقصر السلطنة بالمنصورة ، ونقل أسطولا من المراكب على ظهور الجمال إلى مكان بعيد عن مرسى الأسطول الفرنسى ، حيث ركبت أجزاء السفن ، واستولى على اثنتين وثلاثين سفينة فرنسية ، ومنع وصول المؤن والذخائر إلى جيش لويس فى المنصورة ، ودارت الدائرة على الفرنسيين[٥] ، واضطر لويس إلى التقهقر نحو دمياط ، فطارده المسلمون

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦٦ .

(٢) هكذا ورد فى الأصل ولعله يريد من غير إسراف ولا تقتير .

(٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٢٦٧ و ٢٩٤ — ٢٩٦ .

(٤) Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France, pp. 38—39.

(٥) Ibid., p. 46.

حتى فارسكو ، وقضوا على جيشه سنة ١٢٥٠ م . ومرض لويس بالحمى ، وأسر هو وكثير من رجاله ؛ ولم يفك أسره إلا بعد أن تعهد الفرنسيون بإخلاء دمياط[١] . وهكذا أخفق الصليبيون فى كل حملاتهم على مصر .

بعد ذلك انتشرت سطوة المماليك الذين كانوا يكونون الجزء الأعظم من جيش الملك الصالح أيوب . واشتد أزرهم بهذا النصر الذى أحرزه بيبرس المملوكى فى موقعة فارسكور ، وأضمروا السوء لتوران شاه ، الذى أثار غضبهم لسوء معاملته إياهم فقتلوه وولوا شجر الدر زوجة الملك الصالح أيوب سلطانة عليهم . وبقتل توران شاه زالت الدولة الأيوبية فى مصر وقامت دولة المماليك البحرية ، التى حكمت هذه البلاد من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٣٨٢ م .

رابعاً — الدولة المرابطية

(٤٤٨ — ٥٤١ / ١٠٥٦ — ١١٤٧)

(١) قيام الدولة المرابطية

أجمع المؤرخون على أن المرابطين[٢] أو الملثمين[٣] من قبيلة لمتونة (بفتح اللام

---

(١) Ibid., pp. 51—57.

(٢) سموا المرابطين لأنهم تتلمذوا على عبد الله بن ياسين فى الرباط الذى أنشأه للدرس والعبادة فى صحراء المغرب حيث قبيلة لمتونة .

(٣) سموا الملثمين لأنهم كانوا يضعون على وجوههم لثاما يقيهم هاجرة الصحراء وبردها كما يفعل العرب ، وقيل فى سبب هذه التسمية إن طائفة من قبيلة لمتونة أغارت على عدو لهم ، فسار العدو إلى بيوتهم ، ولم يكن فيها إلا الشيوخ والنساء والصبيان ، فأمر الشيوخ النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن ويضيقن ثيابهن حتى لا يميزهن العدو ، ويحملن السلاح ، وسار الشيوخ والصبيان أمام النساء اللاتى طوقن البيوت ، فلما أشرف العدو هاله هذا الجمع العظيم وظنه رجالا يقاتلون قتال المستميت دفاعاً عن حرمهم . فاحتال العدو على استدراجهم للخروج من بيوتهم ، حتى إذا تبعوهم قاتلوهم خارج بيوتهم ، فبينا العدو منشغل بجمع الأنعام من المراعى ، أقبل رجال لمتونة ، وأصبح العدو بينهم وبين النساء ، فقتل عدد كبير من العدو . ومن ثم جعل اللمتونيون اللثام سنة وغدوا لا يزيلونه ليلا ولا نهاراً حتى لا يعرف الشيخ من الشاب (ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٣٣) .

قال ابن خلدون (العبر ج ٦ ص١٨٢) : « كان هؤلاء الملثمون فى صحاريهم . . . وكانوا على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة . . . وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه (أى على الدين) فدانوا له واستوثق لهم (أى للملثمين) الملك ، ثم افترقوا ، وكانت رياسة كل بيت منهم فى بيت مخصوص » . انظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ١٨ (٣) .

وسكون الميم) البربرية الصنهاجية ، ويكادون يتفقون على أن صنهاجة من القبائل العربية الحميرية ، وأنهم ساروا من اليمن إلى الشام ومنها إلى الساحل الأفريقى حيث اتجهوا نحو المحيط الأطلسى واستوطنوا صحراء المغرب لمشابهتها لصحراء العرب . وكانوا بقيادة عقبة ابن نافع ، ثم كثر عددهم فى عهد موسى بن نصير[١] . وعلى الرغم من أن ابن خلدون لايطمئن إلى عروبة جمهرة القبائل البربرية المغربية بصفة عامة ، يقرر عروبة صنهاجه وكتامة من بين تلك القبـــائل البربرية[٢] ، ويغلب الرأى القائل بيمنية صنهاجه لا بمضريتها[٣]

المرابطون ٤٤٨ — ٥٤١ هـ / ١٠٥٦ — ١١٤٧

[المغرب الأقصى وجزء من الجزائر والأندلس]

هجرية		ميلادية
٤٤٨	أبو بكر	١٠٥٦
٤٨٠	يوسف	١٠٨٧
٥٠٠	على	١١٠٦
٥٣٧	تاشفين	١١٤٣
٥٤١	إبراهيم	١١٤٦
٥٤١	إسحاق	١١٤٧

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣٢ .

(٢) العبر ج ٦ ص ١٦٥ .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس (طبعة الرباط ١٩٢٦) ج ٢ ص ٥ .

تسلسل نسب المرابطين

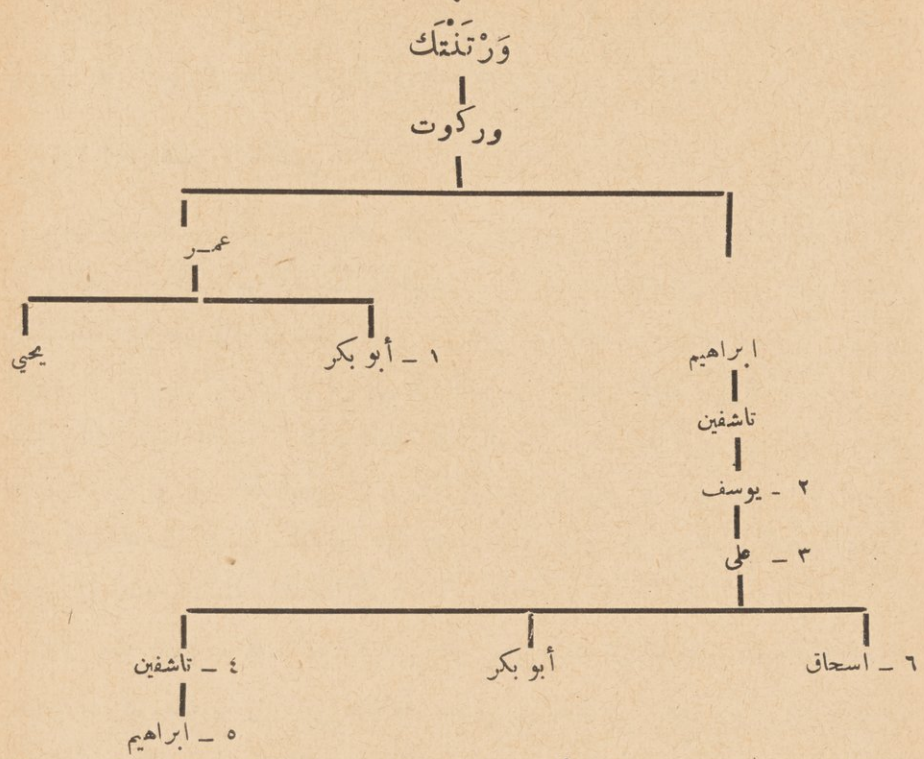

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن صنهاجة (بفتح الصاد والجيم وسكون النون) تحذ من هوارة (بفتح الهاء والراء والواو مع التشديد) وهذا لا يعارض الرأى القائل بأن صنهاجة حميرية الأصل ، لأن هوارة تحذ من حمير[١] .

وكانت قبيلة لمتونة التى أنجبت تلك الدولة العظيمة تقيم بصحراء المغرب التى تمتد جنوباً حتى بلاد السودان[٢] ، وتتجول أحياناً فى تلك القفار الشاسعة ، شأنها فى ذلك شأن العرب الرحَّل ، وكانت تدين بالإسلام الذى لم تكن تعرف أحكامه إلا لماما ، ولم تكن القبائل الصنهاجية التى تقيم فى ربوع الصحراء ، مثل جُداله (بضم الجيم) ومسوفة (بكسر الميم وضم السين مع التشديد) ولمطة (بفتح اللام والطاء وسكون الميم ومسراته (بكسر الميم وسكون السين وفتح التاء) وتكلاته (بكسر التاء الأولى وفتح التاء الثانية) ومنداسة بفتح الميم وسكون النون) وبنى وارث وبنى مسفير (بفتح الميم وسكون السين)

(١) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٢) ابن خلدون : العبر (طبعة بولاق) ج ٦ ص ١٨٢ .

وبنى ذخير بفتح الذال وسكون الراء) وبنى زياد وبنى موسى وغيرها[١] خيراً من لمتونة من الناحية الدينية ، غير أن اللمتونيين كانوا متعصبين للإسلام متحمسين له عاملين على نشره فى بلاد السودان بقيادة أميرهم أبى عبد الله بن يتفاوت اللمتونى[٢] .

(٢) يوسف بن تاشفين

ولما توفى الأمير يحيى بن إبراهيم اللمتونى ولى عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر ابن إبراهيم ، وقلده أمر الحرب والجهاد ، ثم ندب المرابطين لغزو بلاد السوس والمصامدة ، فزحف إليها فى جيش عظيم ، وجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونى ، ثم سار أبو بكر بن عمر إلى بلاد السوس ، فغزا قبيلة جزولة ، وفتح مدينة ماسة وتارودانت عنوة ، وكانت قاعدة بلاد السوس وكان بها قوم من الشيعة البجلية الذين ينتمون إلى عبد الله البجلى الذى سار إلى بلاد السوس فى أيام عبيد الله المهدى ، ونشر فيها المذهب الشيعى ، فقاتلهم عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر وانتصرا عليهم ، فعادوا إلى مذهب السنة والجماعة[٣] .

وفى سنة ٤٥٣ هـ عاد أبو بكر بن عمر من مهمته فى الصحراء التى استغرقت نحو سنتين ، وقد هاله ما رأى من ضخامة جيوش يوسف بن تاشفين ، وأدرك أنه لا قبل له بمناوأته ؛ فنزل له عن السلطة وسلم إليه أمر المغرب أمام شيوخ لمتونة وأعيان الدولة المرابطية وأمراء المصامدة والكتاب والشهود[٤] ، وقد جرت عادة المرابطين أن تعقد البيعة للأمير حسب هذا الترتيب ، أفراد الأسرة المالكة ، فالأمراء ، فرؤساء القبائل ، وعمال الدولة ، ثم يرسل إلى عمال الدولة فى المغرب والأندلس منشور يتضمن هذه البيعة ويقرأ فى المساجد ، فيتقدم الناس لبيعة الأمير الجديد ، كما جرت عادة المرابطين بتبادل الكتب مع الخليفة العباسى الذى يقرّ هذه البيعة ويباركها[٥] ، وكان يوسف بن تاشفين ،

---

(١) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٦ .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٢ .

(٤) الحلل الموشية (لمؤلف مجهول) ص ١٦ .

(٥) راجع كتاب الخليفة المستظهر العباسى إلى يوسف بن تاشفين بإقراره على ما بيده فى كتاب الحلل الموشية ص ٧١ . ابن أبى زرع . روض القرطاس ج ٢ ص ٨٠ .

كما وصفه ابن الأثير : « رجلا ديّناً خيّراً حازماً داهية مجرباً » ، وأنه أحسن السيرة فى الرعية ولم يأخذ منهم سوى الزكاة « وكان أمير المسلمين وطائفته على نهج السنة واتباع الشريعة ، فاستغاث به أهل المغرب ، فسار إليها وافتتحها حصناً حصناً وبلداً بلداً بأيسر سعى ، فأحبه الرعايا وصلحت أحوالهم . . وملك البلاد المتصلة بالحجاز ، مثل سبتة وطنجة وسلا وغيرها »[١] .

قامت الدولة المرابطية على أساس دينى ، ومع ذلك فإن تلك الفترة التى بدأت بحكم يوسف بن تاشفين يمكن أن تعتبر فترة سياسية أكثر منها دينية ، إذ كانت السيادة فيها لقبيلة صنهاجة الصحراوية على قبيلة زناتة صاحبة الأمر فى المغرب قبل قيام الدولة المرابطية ، ولكى يضمن يوسف بن تاشفين بقاء السيادة لقبيلته ، نراه يصانع قبائل المصامدة الجبلية ، فيبدأ بها عبد الله بن ياسين فى توزيع خمس الغنائم التى استولى عليها فى حرب درعة وسجلماسة على فقهاء المصامدة[٢] ، ويعد يوسف بن تاشفين أول ملك بربرى حكم المغرب وكوّن جيشاً قوياً تتمثل فيه جميع القبائل المغربية بصفة عامة .

(٣) موقعة الزلاقة :

ولا يقف طموح يوسف بن تاشفين عند بسط سلطانه على المغرب الأقصى ، بل إنه كون أعظم دولة مغربية للمرة الأولى فى التاريخ المغربى وهى الدولة المرابطية ، إذ امتد سلطانه من السودان جنوباً إلى جبال البرانس شمالا ، ومن المحيط الأطلسى غرباً إلى حدود تونس شرقا ، بل لقد اعتبر بعض المؤرخين يوسف بن تاشفين أعظم حكام المسلمين فى عصره ، إذ كانت الدولة العباسية فى المشرق قد تطرق إليها الضعف والانحلال ، وأخذت الدولة الفاطمية فى الأفول ، واتخذ الصليبيون من هذا الضعف فرصة للاستيلاء على المدن المقدسة بفلسطين وغيرها من البلاد التى امتد إليها ظل الإسلام ، وشدد نصارى الأندلس بصفة خاصة الخناق على ملوك الطوائف ، وكاد حكم هذه البلاد يخرج من أيدى المسلمين ، لولا أن قيّض الله لهم يوسف بن تاشفين الذى لبى نداء ملوك الطوائف ورد جيوش الفونس السادس على أعقابهم .

---

(١) الكامل ج ٩ ص ٢٣٢ .

(٢) ابن أبى زرع روض القرطاس ج ٢ ص ٨٥ .

ويذكر عبد الواحد المراكشى[١] أن أبا عمرو عبّاد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ولى أمور إشبيلية وأعمالها سنة ٤٣٩ هـ، وتلقب « المعتضد بالله » . وقد قيل إن هشاماً المؤيد الأموى كان يقيم بقصر المعتضد العبادى وأنّه ولاه الحجابة . وفى سنة ٤٥٥ هـ أعلن المعتضد موت هشام المؤيد وأظهر أنه ولاه عهده ليكون أميراً على بلاد الأندلس من بعده .

وفى سنة ٤٦٣ هـ نزلت قبيلتا لمتونة ومسُّوفة من البربر رحبة مراكش واتخذوها داراً لملكهم لوقوعها فى مكان متوسط من بلاد المغرب الأقصى .

وقد ولى المعتمد على الله حكم إشبيلية ، ويشبهه المؤرخون بالخليفة الواثق العباسى فى سعة اطلاعه وغزارة أدبه ، وكان شعره — كما وصفه المراكشى[٢] « كأنه الحلل المنَشَّرة » ، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس » .

تغلب المعتمد على قرطبة سنة ٤٧١ هـ من بنى جهور (بفتح الجيم والواو وسكون الهاء) . وكان المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة قد استولى عليها ، فاستنجد عبد الملك ابن جهور بالمعتمد بن عباد الذى استولى على قرطبة فأصبحت تابعة لإشبيلية ، ولكن أهلها ثاروا على الظافر بن المعتمد وقتلوه لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم لبنى أمية ، غير أن المعتمد بن عباد قضى على هذه الفتنة وولى ابنه الآخر المأمون أمور قرطبة ، فظل بها إلى أن قتله المرابطون .

وقد وجد المعتمد بن عباد أمير إشبيلية فى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين فى المغرب الرجل الذى يستطيع أن يعتمد عليه فى الصمود أمام أعدائه المسيحيين ، وفى سنة ٤٧٩ هـ عبر المعتمد البحر قاصداً مدينة مراكش حاضرة الدولة المرابطية مستنجداً بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين[٣] ، وكان إذ ذاك بمدينة سبتة ، وطلب إليه الحضور لنجدة المسلمين والجهاد ضد المسيحيين فى الأندلس ، فلبى ابن تاشفين نداء المعتمد وقال له : « أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد

---

(١) المعجب ص ٩٥ .

(٢) المعجب ص ١٠١ — ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٠ .

إلا أنا بنفسى » وأقبل من بقى من جند ابن تاشفين فى مدينة مراكش حتى تكامل عددهم ، ثم عبر البحر من سبتة فى أسطول يتألف من مائة سفينة تحمل سبعة آلاف فارس وعدداً كبيراً من الرجال ميمما شطر مدينة الجزيرة الخضراء ، وتلقاه المعتمد بن عباد فى وجوه أهل دولته ، وقدم إليه الهدايا والتحف .

ثم اتجه ابن تاشفين نحو شرق الأندلس وطلب إليه المعتمد أن يدخل إشبيلية حاضرة ملكه ليستريح فيها أياماً من وعثاء السفر ومشقة الطريق قبل أن يلتقى بعدوه ، فأبى ابن تاشفين وقال : « إنما جئت ناوياً جهاد العدو ، فحيثما كان العدو توجهت وجهه . . . .. هلمّ (إلى) ما جئنا له من الجهاد . وقصد حصن ألفونس السادس ملك قشتالة[1] ، وقد بلغ جيش يوسف بن تاشفين زهاء عشرين ألفاً ، عدا المتطوعين من المسلمين الذين جاءوا من سائر بلاد الأندلس ، وجمع ألفونس من أقاصى مملكته جيشاً جراراً كامل العدة والسلاح والخيل[2] ، وفى سهل الزلاقة على مقربة من بطليوس وقف جيش المعتمد فى المقدمة وعسكر جيش ابن تاشفين خلف أكمة عالية من الجبل .

ويصف لنا عبد الواحد المراكشى ما ابتكره ألفونس السادس من ضروب الحيل والخداع لمنازلة المسلمين وإلحاق الهزيمة بهم ، واختلفت الرسل بين الفريقين المتحاربين فى تحديد يوم القتال ، وبعث قائد المسيحيين يقول للمسلمين : « الجمعة لكم والسبت لليهود وهم وزراؤنا ، وكتابنا وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم ، والأحد لنا ، فإذا كان ما نريده من الزحف » . ثم جاء يوم الجمعة وخرج يوسف بن تاشفين للصلاة ، وأوجس المعتمد بن عباد خيفة من ناحية المسيحيين وظل فى جنده شاكى السلاح ، وحمل المسيحيون على المسلمين ، ففاجأهم جند المعتمد وحمل المرابطون السلاح واستووا على ظهور خيلهم ، واختلط الفريقان ، وأظهر المرابطون من ضروب البسالة ما كفل لهم النصر ، وأخذ المسلمون يطاردون أعداءهم ويقتلونهم فى كل مكان ، حتى قيل أنهم أفنوهم عن آخرهم ، وذلك فى منتصف شهر رجب (وقيل فى أوائل رمضان) سنة ٤٧٩ هـ ، واستولى المسلمون على ما كان معهم من مال وسلاح ودواب وغيرها ، وقد آثر بها يوسف بن تاشفين ملوك الأندلس ، فأحبوه .

---

(١) المراكشى : المعجب ص ١٣٠ — ١٣٢ .

(٢) ذكر ابن الأثير : (الكامل ج ١٠ ص ٥٧) أن جيش ألفونس كان يتألف من خمسين ألف مقاتل .

وهكذا لبى يوسف بن تاشفين نداء الجهاد وأحرز هذا النصر المؤزّر فى موقعة الزّلاقة التى تعد من المواقع الحاسمة فى التاريخ ، وضمن للإسلام قوته وعزته فى بلاد الأندلس أربعة قرون أخرى .

كان انتصار المسلمين فى الزلاقة فاتحة يمن وبركة ، ولا غرو فقد أثار هذا النصر إعجاب المسلمين بيوسف بن تاشفين ولهجت الألسنة بإطرائه والثناء عليه ودعوا له على منابرهم ، وقد عبّر يوسف عن رغبته فى زيارة الأندلس ومشاهدة معالمها ، وكان فى خلال زياراته يظهر إعجابه بمواهب المعتمد العبادى ويشيد بكرم ضيافته ، وكان يظهر الحنين إلى مراكش حاضرة ملكه ويصغّر من شأن الأندلس ، وهو — كما يقول المراكشى[١] — يُسِرّ حسواً فى ارتغاء »[٢] .

وقد علق أشباخ[٣] على هذه الموقعة فقال : إن يوسف بن تاشفين لو استطاع أن يَستغل نتائج انتصاره فى موقعة الزلاقة ، لكانت أوربا الآن تدين بالإسلام ، ولرأينا القرآن يدرس فى جامعات موسكو وبرلين ولندن وباريس .

(٤) بعد موقعة الزلاقة

لقد أثارت هزيمة ألفونس السادس فى موقعة الزّلّاقة التى جرح فيها وقتل معظم جنده عوامل الحقد والضغينة على المعتمد بن عباد ، لأنه هو الذى دعا يوسف بن تاشفين إلى قتال نصارى الأندلس ، لذلك عوّل ألفونس على أخذ الثار من المعتمد ، فأخذ يجمع الثأر الجند ويستعد لمهاجمة إشبيلية ، وركّز غاراته على مملكة ابن عباد ، وأخذ يوجّه ضرباته إلى حصن « لييط » . فضاق ابن عباد بذلك ذرعاً وجاز البحر إلى بر المغرب والتقى بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين واستغاث به ، وقد عاد ابن عباد إلى بلاده وجاز

---

(١) المعجب ص ١٣٥ .

(٢) مثل يضرب لمن يريد أن يعينك وإنما يقصد النفع لنفسه : كمن يؤتى بوعاء من اللبن ويظهر أنه يريد الرغوة خاصة لا يريد غيرها ، وهو فى أثناء ارتغائه يحسو اللبن جرعة جرعة .

(٣) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ص ١١٧ . أنظر أيضا عبد الله كنون : المدخل ص ٤٨ . المراكشى : المعجب ص ١٧٨ . ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٦٣ السلاوى الاستقصا ج ٢ ص ٤١ .

ابن تاشفين البحر إلى الجزيرة الخضراء حيث تلقاه ابن عباد ، وقد رأى ابن تاشفين أن يوحِّد جهود المسلمين فى جهاد النصارى ، فكتب إلى ملوك الأندلس يدعوهم إلى منازلة النصارى ، وطلب أن يكون اجتماع الجيوش المشتركة فى حصن لبيط[١] .

ولما وصلت جيوش يوسف بن تاشفين إلى هذا الحصن ساءه عدم استجابة أمراء الأندلس إلى دعوته ، إذ لم يستجب لها سوى ابن عبد العزيز صاحب مرسية والمعتمد ابن عباد ، ولكن ذلك لم يثبط من عزيمة أمير المسلمين ، إذ ضيق على هذا الحصن وأخذ يشن الغارات على بلاد النصارى ، على أن قيام النزاع بين المعتمد بن عباد وابن عبد العزيز الذى قُبض عليه بأمر يوسف بن تاشفين ، قد أضعف جند المسلمين ، واضطر أمير المسلمين أن يولى وجهه شطر ليورفه فثغر المرية ، حيث جاز منه البحر إلى عدوة المغرب ، « وقد تغيَّر (ابن تاشفين) على أمراء الأندلس لكونه لم يأته منهم أحد إلى نزول حصن « لبيط » . وبذلك خلا الجو لألفونس السادس ، فنزل على الحصن وأطلق من بقى به من النصارى ، ثم يمم شطر طليطلة ، واسترد المعتمد بن عباد هذا الحصن .

وقد أقام يوسف بن تاشفين ببلاد المغرب إلى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، حيث جاز البحر إلى الأندلس للمرة الثالثة للجهاد فى سبيل الله والاستيلاء على الأندلس من أمراء المسلمين . وقد سار يوسف حتى بلغ طليطلة وحاصر ألفونس بها . . . . وقطع ثمارها وضرب أحوازها (أحياءها) وقتل وسبى كثيراً من أهلها ، ولم يأت لمساعدة يوسف أحد من أمراء الأندلس الأمر الذى أثار حنقه عليهم ، فلما رجع من غزو طليطلة سار نحو غرناطة ، فنازل صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس لأنه صالح ألفونس السادس وظاهره عليه . فلما اشتد الحصار على غرناطة لم يجد صاحبها بداً من طلب الأمان ، فأمنه يوسف بن تاشفين على أن يسلم إليه بلاده ، ثم حمل عبد الله بن بلكين وأخوه تميم صاحب مالقة إلى مراكش[٢] .

جاز يوسف بن تاشفين البحر إلى المغرب فى شهر رمضان سنة ٤٨٣ هـ ، وأناب عنه الأمير سيرى بن أبى بكر اللمتونى فى حكم هذه البلاد ، وأمره أن يتتبع آثار ألفونس السادس صاحب طليطلة ، وأن يخضع الإمارات الإسلامية لحكم المرابطين ويلحق

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٦٦ — ٦٧ .
(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٧ — ٦٩ .

أمراءها بالمغرب ، كما أمره أن يقاتل من يخالف هذه الرغبة ، وألا يتعرض للمعتمد ابن عباد حتى يستولى على سائر الإمارات ويولى عليها أمراء جنده .

وقد استولى سيرى على جَيَّان فى أوائل سنة ٤٨٤ هـ ، ثم سار نحو قرطبة ، فاستولى عليها من صاحبها المأمون بن المعتمد (صفر سنة ٤٨٤ هـ) ، ثم يمم شطر قرمونة فدخلها عنوة (ربيع الأول سنة ٤٨٤ هـ) ، فلم يجد المعتمد بن عباد بداً من الاستنجاد بألفونس السادس الذى أمده بعشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل ، فوجه الأمير سيرى إليه جيشاً ، والتقى الجمعان على مقربة من حصن المدور وانتصر عليه . ولم يزل الأمير سيرى يضيق الخناق على المعتمد حتى سقطت إشبيلية (٢٢ رجب سنة ٤٨٤ هـ) ، وأرغم على طلب الأمان فى نفسه وولده وأهله ، فبعث بهم سيرى إلى أمير المؤمنين ، فأنزلهم أغمات القريبة من مراكش . وفى شهر شوال من هذه السنة دخل المرابطون بقيادة يوسف بن داود بن عائشة مدينة مُرْسية وأعمالها . ثم دخل المرّية فهرب صاحبها معز الدولة بن صُمادح بحراً إلى إفريقية بأمواله وعياله . وفى سنة ٤٨٥ هـ أمر يوسف بن تاشفين قائده ابن عائشة بالمسير إلى دانية فاستولى عليها ، كما استولى على شاطبة من صاحبها ابن منقذ ، ثم سار ابن عائشة إلى بلنسية فاستولى عليها من القادر ابن ذى النون ، وكان يخضع لألفونس السادس ويدفع إليه الجزية ، « فملك يوسف بملكه خمسة أمراء فى سنة ونصف . وهم : ابن عباد ، وابن حبوس (غرناطة) وابن الأحوص ، وابن عبد العزيز ، وعبد الله بن بكر (جيّان)[1] .

كان يوسف بن تاشفين حسن السيرة خيراً عادلا يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم ، ويسند إليهم مناصب الدولة ، وقد قيل إن حجة الإسلام الغزالى لما سمع ما اتصف به يوسف بن تاشفين من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه ، فوصل إلى الإسكندرية وأخذ فى الاستعداد للرحيل ، ولكنه علم بنبأ وفاته فعدل عن رأيه ، وكان يوسف بن تاشفين معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين ، وكان يحب العفو ويصفح عن الذنوب ، ويستمع إلى الموعظة فى خشوع ، وقد حكم الدولة المرابطية حتى مات لثلاث بقين من شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٦٩ — ٧٧ . المقرى : نفح الطيب ج ٦ ص ١٠٤ — ١١٠ .

وقد بلغ يوسف التسعين سنة ملك منها المغرب والأندلس مدة خمسين سنة ، وقد أجمع المؤرخون على أن عهد يوسف بن تاشفين كان عصر المرابطين الذهبي ، فقد أخذت الدولة المرابطية فى الضعف بعد موته ، وخلفه أمراء كانوا أقل منه حنكة وأضعف قوة ، وصادفتهم ظروف سيئة فى الداخل والخارج عجلت بسقوط دولتهم ولا سيما بعد ظهور الدعوة الموحدية على يد المهدى محمد بن تومرت .

(٥) على بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ — ٥٣٧ / ١١٠٦ — ١١٤٣ .

عرفت الملكية فى المغرب لأول مرة فى الاسلام بعد قيام دولة الأدارسة الذين أخذوا نظرية الإمامة عن أسلافهم العلويين الذين اقتبسوا نظرية الحق الملكى التى كانت سائدة فى بلاد الفرس فى عهد الساسانيين ، أضف إلى ذلك اعتقادهم بأحقيتهم بالخلافة بعد الرسول . وقد رحّبت قبيلة أوربة (بفتح الألف والراء والباء وسكون الواو) بإدريس الأول وسلمت إليه مقاليد الحكم وساعدته على ضم جزء كبير من المغرب ، فى الوقت الذى استولى بنو مدرار على زمام الحكم فى سجلماسة ، واحتل البرغواطيون سهول المحيط الأطلسى ، واحتل بوصالح مدينة نكور (بفتح النون) فى الشمال . وقد ساعد البربر الأدارسة على إقامة حكم وراثى فى المغرب لأنهم من بيت الرسول الكريم ، ولما كان من اضطهاد العباسيين لهم ، ثم لشدة تمسكهم بالإسلام ، واستمرت الحال على ذلك حتى انقضى عهد الأدارسه سنة ٣٧٥ هـ .

وكان المرابطون أول من أسس ملكية وراثية من أبناء المغرب أنفسهم ، وكانت دولتهم أول دولة وحدت المغربين الأقصى والأوسط ، وقامت بدور خطير فى نشر الإسلام فى المغرب والسنغال . وقد جمعوا بين الجهاد والثقافة الإسلامية معاً ، وقضوا على بدع البرغواطيين ، وفلوا شوكة الزناتيين المتنازعين المتنافرين ، وأنقذوا بلاد الأندلس من الضياع .

وقد أدرك يوسف بن تاشفين كل هذه الأمور حين فكر فى أخذ البيعة لابنه علىّ ، إذ كان يخشى أن يعود الأمر فوضى من بعده ، وأن تنفصم عرى هذه الوحدة وتنتهى هذه الرسالة التى عمل جاهداً على تبليغها زهاء نصف قرن ، لذلك رأى يوسف بن تاشفين أن يستخلف من ينوب عنه فى مباشرة هذه التبعات الخطيرة . ولو أنه ترك الأمر شورى للمرابطين ليختاروا من بعده من أحبوا ، لأصبح من العسير أن يجتمع الناس على شخص معين ، لأنه لم يكن ثمة نظام مستقر للانتخاب فى وقت أصبحت بلاد الأندلس مهددة

بغارات نصارى الشمال ، لذلك فكر يوسف فى البيعة لابنه ، إذ أنه رأى أن هذا الأمر يدخل فى نطاق سلطته ، كما يتبين ذلك من عهده له الذى جاء فيه .

« . . . فلأنه (يعنى يوسف بن تاشفين) بما لزمه من هذه الوظيفة وخصّه الله بها من النظر فى هذه الأمور الدينية الشريفة ، فقد أعزّ الله رماحه ، وأحدّ سلاحه ، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالى واهتزازاً وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً (١) » .

وقد تمت هذه البيعة بمدينة قرطبة سنة ٤٩٦ هـ ، فبايعه جميع أمراء لمتونة وفقهاؤها وأشياخها . وكان على بسبتة التى ولد فيها (٢) . ولم يكن على بن يوسف أكبر إخوته .

وكان يوسف بن تاشفين يخشى معارضة المصامدة حين أوصى ابنه علياً قبل وفاته بوصايا ثلاث تتلخص فيما يلى :

(١) ألا ينال سكان الأطلس ومن وراءه من المصامدة بسوء .

(٢) أن يهادن بنى هود أمراء سرقسطة من ملوك الطوائف التى أسسها سليمان بن محمد ابن هود بن الجذامى أحد قادة الثغر الأعلى (٣) .

(٣) أن يحسن إلى أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم . وقد اشتهروا بثوراتهم على الدول التى تعاقبت على حكم الأندلس ، لأن عدداً كبيراً من أهلها كانوا من المولدين والفقهاء الذين تزعموا هذه الثورات (٤) .

---

(١) الحلل الموشية ص ٦٤ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٧٧ .

(٣) استولى سليمان بن هود على لاردة سنة ٤٣١ هـ . ولقب نفسه المستعين ، وضم سرقسطة التى بقيت فى أيدى أولاده إلى أن سقطت فى يد أحد أبناء روذمير سنة ٥١٢ هـ . وتقرب عبد الملك بن هود إلى النصارى سنة ٥٠٣ هـ . وقد خرج عبد الله بن فاطمة قائد المرابطين فى الأندلس على على بن يوسف ابن تاشفين وحاول الاستيلاء على سرقسطة . ولكن الهزيمة حلت بجيشه أمام جيش ابن روذمير الذى استنجد به عبد الملك بن هود .

(٤) وقد أدت هذه الفتن إلى طرد الثوار ، فلجأ بعض إلى طليطلة وقصد آخر المغرب والإسكندرية . ثم ثارت قرطبة على المرابطين بزعامة القاضى ابن حمدين سنة ٥٣٩ هـ ، وطرده أهلها واستنجدوا بيحيى ابن غانية آخر ولاة المرابطين . وقد قيل إن يوسف بن تاشفين أوصى ابنه عليا بأن يحسن إلى أهل قرطبة لأنها كانت مركزاً علميا .

ولد أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين بمدينة سبته سنة ٤٧٧ هـ ونشأ فى بيت أبيه كما ينشأ أبناء الأشراف . وكان أبو الطاهر تميم أول من بايع أخاه علياً على الرغم من أنه أكبر منه سناً ونادى فى المرابطين : « قوموا فبايعوا أمير المسلمين »[١] ، فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة والفقهاء وشيوخ القبائل . ولم يتخلف عن بيعة على إلا ابن أخيه يحيى بن أخيه الأكبر أبى بكر . وكان يلى مدينة فاس . وله مواقف مشهورة فى أيام جده يوسف بن تاشفين ، كما كان أبو بكر نائباً عن أبيه يوسف قبل انتصاره فى موقعة الزلاقة المشهورة فى الأندلس . لذلك تطلع يحيى بن أبى بكر إلى الحكم بعد جده يوسف لأنه ابن الأخ الأكبر من أبناء يوسف ، وامتنع عن مبايعة عمه على الذى سار إلى مدينة فاس لتأديب ابن أخيه وإدخاله فى طاعته . ولكن يحيى قد فر أمام جيوش عمه الذى استولى على فاس ، وتمت له بذلك البيعة فى جميع أنحاء الدولة المرابطية التى امتد نفوذها على المغرب والجزائر والأندلس ، وتلقب بلقب أمير المسلمين . كما كان أبوه من قبل . وسار على نهج أبيه فى الجهاد فى سبيل الله وحماية البلاد من خطر النصارى . وكان على بن يوسف يكره الظلم ويميل إلى حياة الزهد والتقشف ويعظم الفقهاء ويقربهم إليه ولا يقطع أمراً دون الرجوع إلى رأيهم[٢] .

وقد وضع على بن يوسف نصب عينيه القضاء على مقاومة النصارى بزعامة ألفونس السادس صاحب طليطلة الذى اشتد طمعه وأخذ يشن الغارات على أطراف الولايات الإسلامية فى الأندلس بعد موت يوسف بن تاشفين بطل الزلاقة . كذلك عمل على بن يوسف على القضاء على الدعوة الموحدية التى قام بها المهدى بن تومرت فى مستهل سنة ٥١٥ هـ ، وأخذ يهدد الدولة المرابطية ويعمل على زوالها . لذلك لم يكن بد من أن يعمل على بن يوسف على القضاء على هذين الخطرين فى وقت واحد .

فأما نصارى الأندلس فقد ولى على بن يوسف أخاه « تميم بن يوسف » غرناطة ، وأسند إليه قيادة الجيش المرابطى فى الأندلس . وقد استطاع تميم أن يحل الهزيمة بالنصارى فى موقعة « إقليش » التى تعد من أكبر المعارك التى دارت بعد موقعة الزلاقة بين المرابطين والنصارى . ففى سنة ٥٠٢هـ حاصر تميم حصن إقليش ، فاستنجدت حاميته بألفونس السادس وكان مريضاً ، فأشارت عليه زوجته بأن يرسل ابنه على رأس جيش كبير يفوق جيش

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ١٧١ .

المسلمين عدداً وعدة . وانتهت هذه المعركة بهزيمة النصارى هزيمة منكرة وقتل ابن ألفونس السادس ومعظم من كان معه من الأمراء ونحو عشرة آلاف من زهرة جنده[١]. ولما اتصل نبأ هذا الانتصار بعلى بن يوسف امتلأ حماساً وقرر أن يجتاز البحر إلى الأندلس لاستئصال شأفة النصارى فيها .

وفى السنة التالية (٥٠٣ / ١١٠٨) جاز على بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للجهاد فى مائة ألف جندى . وبعد أن قضى شهراً بقرطبة خرج إلى مدينة « طلايوت » ففتحها عنوة ، كما فتح سبعة وعشرين حصناً من أعمال طليطلة ، من بينها حصن مجريط (وهى مدريد الحالية) ووادى الحجارة ، ثم يمم شطر طليطلة حاضرة أسبانيا النصرانية إذ ذاك ، وحاصرها شهراً ، ثم سار نحو قرطبة .

وفى سنة ٥٠٤ هـ فتح المرابطون شريش وبطليوس والبرتغال ويابرة وأشبونة (لشبونة) . وقد ذكر ابن الأثير أن علياً بن يوسف هزم الفرنجة هزيمة منكرة وأسر عدداً كبيراً منهم وغنم غنائم لا تحصى[٢]. ولكن النصارى استطاعوا فى سنه ٥١٣ هـ أن يستولوا على مدينة سرقسطة ، كما استولوا على قلعة أيوب شرقى بلاد الأندلس ، وكانت تعد من أمنع قلاع الأندلس . وكانت هذه الهزائم من بوادر ضعف الحكم المرابطى فى هذه البلاد .

وفى سنة ٥١٣ هـ (وقيل سنة ٥١٤ هـ) قامت فتنة عظيمة بين أهل قرطبة وجند المرابطين . ويرجع ذلك إلى تعدى أحد عبيد الوالى المرابطى على امرأة ، فاستغاثت بالمسلمين وقامت الحرب بين العبيد وأهل قرطبة . ويذكر ابن الأثير أن الفقهاء طلبوا من الوالى أن يأمر بقتل أحد العبيد الذين أثاروا هذه الفتنة ليكون ذلك رادعاً لمن تحدثه نفسه بأن يعبث بالتقاليد الإسلامية . ولكن الوالى لم يستمع إلى طلبهم ، وقامت الحرب بين أهل قرطبة وجند المرابطين ، وحاصر الأهالى دار الوالى ونهبوه وأحرقوا دور المرابطين ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من بلدهم ، واضطر الوالى إلى الهرب . ولما اتصل ذلك بمسامع أمير المسلمين على بن يوسف أنكر ذلك وجمع الجند من صنهاجة وزناتة وسائر البربر وغيرهم ، وعبر البحر إلى الأندلس سنة ٥١٥ هـ ، وحاصر قرطبة ، فقاتله أهلها لحماية حرمهم وأموالهم وتدخل الوسطاء فى الصلح فعدل على عن قتالهم[٣].

---

(١) الحلل الموشية ص ٦٤ .
(٢) الكامل ١٠ ص ١٨٥ .
(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢١١ .

(٦) نهاية الدولة المرابطية :

وفى سنة ٥١٦ هـ بدأ ابن تومرت يناوىء سلطان المرابطين الأمر الذى أضعف قوتهم فى الأندلس ، ووقعت بين الفريقين معركة البحيرة . وكان جيش الموحدين بقيادة محمد البشير الونشريشى الذى قتل فى هذه المعركة ، وفقد ابن تومرت أكثر أصحابه العشرة وآلافا من زهرة جنده ، واشتد به المرض فمات فى سنة ٥٢٤ هـ[1] .

خلف ابن تومرت عبد المؤمن بن على ، وكان سياسياً محنكا وقائداً ماهراً . استطاع أن يعيد إلى الموحدين قوتهم ويرد إليهم هيبتهم ، فاستولى على كثير من بلاد السوس فى حياة على بن يوسف بن تاشفين . ولما مات على بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، ولى من بعده ابنه تاشفين . وقد استخلف على مراكش ابنه إبراهيم ؛ وأخذ يحارب عبد المؤمن ويتعقبه فى كل مكان يحل به رغبة فى القضاء على قوة الموحدين التى أخذت تنمو وتشتد . وقد سار تاشفين إلى مدينة تلمسان فدخلها : ثم أتى عبد المؤمن بن على ؛ فخرج تاشفين إلى قتاله ، واتخذ الجيش المرابطى مواقعه فى السهل وربض الجيش الموحدى فى الجبال المحاذية له . وكان تاشفين قد فر إلى مدينة وهران (فى الجزائر الآن) ليتخذها حاضرة لدولته فحاصره الموحدون .

ولما اشتد الحصار على تاشفين وتكاثرت عليه الخيل والرجال ، صعد تاشفين إلى ربوة تشرف على البحر فى ظاهر مدينة وهران ، وفى أعلاها رباط يأوى إليه المتعبدون ، وعلم أبو حفص بن عمر بن يحيى صاحب المهدى بن تومرت بانفراد تاشفين فى ذلك الرباط ، فقصده الموحدون وأحاطوا به وأحرقوا باب الرباط ، فخرج تاشفين راكباً فرسه فأسرع الفرس لينجو من النار طالباً النجاة ، فصادفته صخرة هوى تاشفين من فوقها بفرسه ، فقتل وقتل من كان معه من خاصته ، واحتز الموحدون رأسه وحملوها إلى تينمل (مركز الدعوة الموحدية) . وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ — ١١٤٥ م)[2] ، فولى المرابطون بعده أخاه إسحاق بن على بن يوسف .

---

(١) الحلل الموشية .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ٦ ص ١١١ .

الباب الرابع

غزوات المغول — سقوط بغداد

(١) معنى تتر ومغول :

تختلف كلمة تتر بالمعنى العام باختلاف العصور . فقد أطلق هذا اللفظ على جماعتين من قبائل التتر ورد ذكرهما فى نقوش الأرخون (بضم الألف مع الهمزة وضم الخاء) التركية التى ترجع إلى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، كما أطلق هذا الإسم على المغول عامة أو على فريق منهم خاصة .

وفى جميع الفتوحات المغولية التى وقعت فى القرن السابع الهجرى كان الفاتحون يسمون التتر فى كل مكان نزلوا فيه ، سواء أكان فى الصين أم فى البلاد الإسلامية أم فى بلاد الروسيا وغربى أوربا . ويسمى ابن الأثير أسلاف جنكيزخان باسم التتر ، وهم التتر الأوائل ، وكانوا يعرفون عند قدماء اليونان باسم سكيثيا Scythia أو سكوتيا .

ولم يظهر اسم المغول على صفحات التاريخ حتى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . ومن المرجح أنه أطلق على تلك العشائر التى انضوت تحت لواء زعيم إحدى قبائلهم كان يحمل ذلك الاسم . ثم بسط ذلك الزعيم سلطانه على سائر العشائر المتحالفة ؛ ومن ثم أطلق عليهم اسم المغول من باب إطلاق اسم البعض على الكل[١] .

وقد نزحت طائفة حربية من هؤلاء المغول إلى بعض بلاد آسيا الصغرى ؛ وكان أعقابهم (الذين صاروا أتراكا بلاشك) يسمون بالتتر السود (قَرَاتَتَر) . وقد عاشوا عيشة بدوية وقت حملات تيمورلنك على البلاد الريفية الواقعة بين أماسيا وقيصرية ، وكانوا نحو ثلاثين أو أربعين ألف أسرة . وقد نفاهم تيمورلنك إلى أواسط آسيا ، فأنزلهم بايزيد الثانى العثمانى بعض الأماكن فى بلاد كاشغر وخُوارَزْم ، ثم عاد هؤلاء التتر السود بعد

---

(١) Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, pp. 228—229.

وفاة تيمورلنك إلى آسيا الصغرى واستقروا بها من جديد . كذلك نرى فى الروسيا وشرقى أوربا اسم تتر يطلق غالباً على جميع الشعوب التركية ماعدا العثمانيين .

ويرى بعض مؤرخى المسلمين أن التتر شعب كبير من الأمة التركية ، ومنه تفرعت معظم بطونها وأفخاذها ، وهو مرادف للترك عند الفرنجة ، حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تتراً ، ومنهم العثمانيون والتركمان . وقد أطلق لفظ تتر من باب التوسع فشمل جميع المغول ، وبخاصة المنكوس Manchus كما كانت الحال فى بلاد الصين .

وأما كلمة تتر بالمعنى الخاص فإنها لاتطلق إلا على شعب بعينه وهم سكان حوض نهر الفلجا الذين يعيشون فى تلك البقعة من الأرض التى تمتد من بلاد قازان إلى أستراخان ، وكذلك على سكان شبه جزيرة القرم ، وجزء من سيبريا ، ويتكلمون اللغة التركية القديمة . وقد استبدلت كلمة تتر بعد جنكيزخان فى بلاد منغوليا وأواسط آسيا بكلمة مغل (بضم الميم والغين) ، ولايزال هذا اللقب مستعملا إلى اليوم فى بلاد الأفغان بين أعقاب المغول الذين لايزالون يحتفظون بلغتهم حتى الآن .

وقد أدخل جنكيزخان تلك التسمية رسمياً فى بلاده . على أن كلمة Mongol لم تسد قط فى معظم البقاع الغربية .

ويقول مؤرخو الترك ونسابوهم إن ألنجاخان (بفتح الألف مع الهمزة واللام وسكون النون) أحد ملوك التتر فى الأزمنة الغابرة ولد له توأمان هما « تتارخان » و « مُغل خان » كما هو الحال فى ربيعة ومضر عند العرب . وقد استمر أبناء تتارخان على صفاء إلى أن وقع النزاع بينهما فى عهد « إيلخان » ملك المغل و « سُنج خان » ملك التتار ، وأدى هذا النزاع إلى حروب انتهت بانتصار التتار وقتل إيلخان ملك المغل . ومن ثم أصبحت السيادة للتتار ، فاستذلوا المغول مدة طويلة حتى جمع هؤلاء جموعهم واتحدوا وحاربوا التتار وفلوا شوكتهم واستردوا ماضاع من حريتهم ؛ فعادت بذلك سيادتهم ، وأصبح الملك متوارثاً فيهم إلى زمن « يسوكى بهادرخان » والد جنكيزخان .

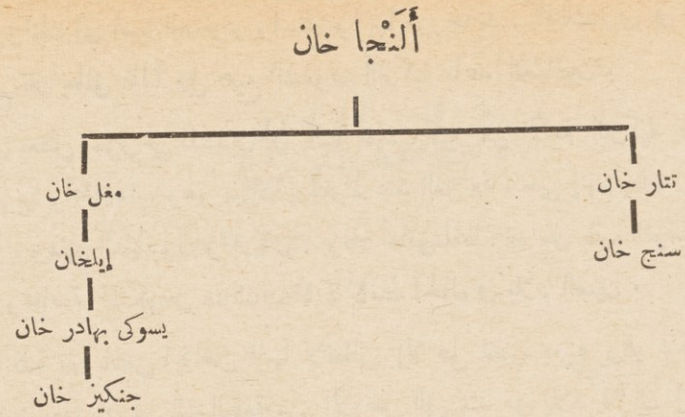

وسواء أصح التفسير الأول أم التفسير الثانى فإن هناك قرابة ملحوظة بين المغول والتتر الذين اندمج بعضهم فى بعض على مر العصور ، حتى إنه ليبدو عدم استطاعة المؤرخين والجغرافيين التميز بين هذين الشعبين .

(٢) حالة المغول قبل ظهور جنكيزخان

ظهر المغول فى عالم التاريخ حول نهاية القرن الثانى عشر الميلادى من وراء ذلك الغموض الذى كان يكتنف تاريخهم قبل ذلك الوقت . . ويبدأ تاريخهم بالفاتح العظيم جنكيزخان الذى نقل لنا مؤرخو حياته أقوالا مختلفة عن أسلافه . وإن سلسلة نسبه مسألة يحوطها الشك كما هى الحال عند غيره من الملوك والأمراء الذين ظهرت عظمتهم مرة واحدة . وليست هناك مصادر تاريخية نستطيع أن نقف منها على أصل المغول ، اللهم إلا ذلك القصص الذى هو بالأساطير أشبه . وكل ما نستطيع أن نذكره عن تاريخ المغول الأول أنهم ظهروا فى الجهات الشمالية من بلاد الصين فى الأراضى التى نبتت فيها أصول قبائل الهون والترك الذين كانت صلة النسب بينهم واضحة جلية .

وكانوا قبائل من البدو الرّحل تطوف فى ذلك الصقع الواقع شمالى صحراء جوبى كما تقدم . وكان المغول فى القرن الثانى عشر الميلادى إحدى القبائل الخاضعة لسلطان « كين » الذى فتح الشمال الشرقى من بلاد الصين . وهم من قبائل الفرسان الرحالة الذين يعيشون فى الخيام ، غذاؤهم الرئيسى لحوم الخيل ومنتجات ألبانها ، كما كانوا يحترفون رعى الأغنام والصيد فى وقت السلم ، وحمل السلاح فى زمن الحرب ، كما هو الشأن فى حياة الأمم البادية . وكانوا ينزحون إلى الجهات الشمالية ابتغاء مراعى الصيف إذا ما ذابت الثلوج ، وينزحون إلى الجنوب سعياً وراء مراعى الشتاء كما هى عادة الرحل من

سكان السهول الفسيحة ، وكانوا يسعون وراء الربح من تبادل الجلود والدواب مع أقربائهم الخطا Khitâns أو مع الترك والصينيين .

وقد احتفظ المغول بديانتهم وعاداتهم الأولى التى هى من أهم مميزاتهم البارزة ؛ فقد كانت حياتهم رعوية ونظامهم قبلياً ، مع طاعة لرؤسائهم وحب للحرب والسلب والنهب ، وكانت ديانتهم عبادة الكواكب يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرّمون شيئاً ، فكانوا يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير ، وكانوا إباحيين لا يعرف الولد منهم أباه وكانت الشامانية Shamanism الديانة القديمة المغول الذين كانوا ، برغم اعترافهم بأله عظيم قادر لا يؤدون له الصلاة ، ولا يلقون إليه بالمودة ، يعبدون عدداً من الآلهة المنحطة ، وبخاصة تلك الحيوانات الشريرة التى كانوا يتقدّمون إليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم ، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التى كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم وكان المغول يلجئون إلى القسيسين ، وهم الشامان والسحرة ، أو إلى رجال الحكمة الذين كانوا يعتبرونهم ذوى نفوذ خفى وسلطان غريب على أرواح الموتى إذا ما أرادوا الفوز فى الدنيا والآخرة ، على حد اعتقاد قدماء المصريين فى كهنة المعابد . ولم تكن ديانة المغول معدودة ضمن تلك الأديان التى تستطيع أن تقاوم جهود الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار ذات اللاهوت المنظم الذى يملك قوّة الإقناع وسدّ حاجات العقل وذات الهيئات المنظمة للمعلّمين الدينيين(١) ، تلك التى كانت تحيط بالمغول من اليهودية والمسيحية والإسلام ، ولنتناول الآن الكلام فى إيجاز عن حالة بلاد الصين موطن المغول والبلاد الإسلامية قبل ظهور جنكيز خان فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) بلغت أسرة تانج (بسكون النون) العظيمة أقصى غايات الانحلال والضعف وانقسمت بلاد الصين إلى عشر دويلات متفرّقة متعادية ، ثم قامت أسرة جديدة حكمت هذه البلاد هى أسرة سُنْج (بضم السين وسكون النون والجيم) التى وحدت هذه الولايات نوعاً ما تحت سلطانها ، واستمرت فى الحكم من سنة ٩٦٠ إلى سنة ١١٢٧ م برغم ما كان يكتنف عهدها من كفاح مستمر مع أمم الهون الشمالية التى كانت تغير على الساحل الشرقى لتلك البلاد .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٢٣٥ .
Lane-Pool, Muhammadan Dynasties, p. 20.

وفى ذلك الوقت ظهر أحد أهل بلاد الخطا الذى آلت إليه السيادة ردحاً من الزمن ، ثم انتهى الأمر بإخضاعهم ، وتحوّلت السلطة فى الشمال إلى إمبراطورية أخرى من الهون هى إمبراطورية « كين » التى اتخذت « بكين » حاضرة لها ؛ ومن ثمّ انكمشت أسرة سنج نحو الجنوب وعرفت بين سنتى ١١٢٧ و ١٢٩٥ م باسم مملكة سُنج الجنوبية . وفى الشرق أيضاً كان جل الطوائف الآسيوية تحت إمرة حكام مختلفى الجنسيات والأهواء ، وأصبحت تلك الطوائف تتطلع إلى فاتح جديد يلم شملها ويوحّد كلمتها .

وفى مستهل القرن السابع الهجرى كانت أرجاء الهند الشمالية التى كانت فى بادىء الأمر جزءاً من إمبراطورية خوارزم من البلاد التى امتدت إليها تلك الغارات . فقد فتحها فى سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) شخص يدعى قطب الدين ، آلت إليه الولاية على بلاد الهند بعد أن كان عبداً رقيقاً ، وأقام ولاية إسلامية منفصلة فى دلهى . وقضت البرهمية على الديانة البوذية فى بلاد الهند منذ زمن بعيد ، ولم يكن المسلمون فى ذلك الوقت إلا أقلية فى هذه البلاد .

٣ — حالة البلاد الإسلامية فى أوائل القرن السابع الهجرى :

هكذا كانت الحال فى شرقى آسيا فى البلاد التى نبتت فيها أصول المغول .

أما فى البلاد الإسلامية ، ففى أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) كانت الدولة العباسية التى لا تزال قائمة فى بغداد تشمل جزءاً من بلاد العراق يمتد من تكريت إلى الفاو ومن حلوان إلى عانة ، واقتصرت سلطة الخليفة فى خارج رقعة بلاده الضيقة على المظهر الدينى .

وكان العالم الإسلامى منقسما إلى دويلات كثيرة انشغل حكامها بالتوسع كل على حساب الآخر ، ولم يدرك هؤلاء الحكام خطر الغزو المغولى إلا بعد أن أغارت جيوش المغول الجرارة على الدولة الخوارزمية . ثم لم تلبث هذه الغارات أن امتدت إلى بلاد الصين وتركستان وجزء من الهند وإيران وآسيا الصغرى وأوربا الشرقية . ولم يفكر حكام المسلمين المتنازعون فى إقامة حلف إسلامى يصد التيار المغولى الجارف قبل أن يستفحل خطره .

وفى بغداد نفسها قام النزاع بين القواد الذين طالبوا بزيادة أرزاقهم ، وتفاقمت العداوة

والبغضاء بين الشيعيين والسنيين ، واشتد خطر فيضان نهر دجلة ، فاختل الأمن وتدهورت الحالة الاقتصادية ، حتى إن نصف أراضى العراق قد أصبح خرابا كما يقول رشيد الدين (١)

اضف إلى ذلك إهمال نظام الرى منذ بداية العصر العباسى الثانى (٢٣٢ هـ) حتى تحولت أجزاء كثيرة من جنوبى العراق إلى مستنقعات بعد أن كانت أراضيها عماد ثروة الدولة العباسية وازدهار حضارتها . كما قامت فى الشرق إمبراطورية خوارزم العظيمة التى كانت فى أول الأمر تحمى الخلافة العباسية من الشرق والشمال الشرقى بقوة جيوشها وضخامة أموالها . على أن علاء الدين محمد خوارزم شاه طمع فى الاستيلاء على بغداد وانتزاع السلطة من الخليفة العباسى كما فعل بنو بويه والسلاجقة من قبله . ولكنه اضطر إلى التراجع بسبب هبوب عاصفة ثلجية عارمة . وبسبب تقدم المغول نحو بلاده وإحلالهم الهزيمة بجيوشه حتى إنه اضطر إلى الهرب إلى جهات بحر قزوين حيث مات فى إحدى جزره (٦٢٠ هـ) .

وبعد هذه الحرب الخاطفة أو الاستطلاعية بعبارة أدق عاد المغول إلى بلادهم . على أن جلال الدين منكبرتى الذى عاد من الهند (٦٢٢ هـ) بعد أن فر إليها أمام جيوش جنكزخان ، بدلا من توجيه اهتمامه وأخذه الحيطة لدرء خطر المغول ، نراه يجمع فلول جيش أبيه علاء الدين خوارزم شاه محمد ، ويعيد سيطرته على العراقين العربى والعجمى ويحارب أمراءهما ويخرب أرضهما وينهب أموالها (٢) . بل يهدد بغداد نفسها ، حتى اضطر أمراء المسلمين إلى محاربته فى السنة نفسها ، فنرى الملك الأشرف بن الملك العادل الأيوبى يتفق مع كيفان بن كيخسرو صاحب سلطنة الروم على محاربة جلال الدين منكبرتى ويحلان به الهزيمة ، وفى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠/ ١١٢٣ م) أغار المغول على جلال الدين منكبرتى وهزموه هزيمة منكرة ، ففر إلى الجبال حيث قتل على يد أحد الأكراد كما تقدم (٣)

هذا فى المشرق الإسلامى . أما فى الولايات الإسلامية الأخرى فقد كانت الجزيرة ومصر ومعظم بلاد الشام تحت سلطان خلفاء صلاح الدين الأيوبى . ولكن انقسام الدولة الأيوبية بعد وفاة الملك العادل أخى صلاح الدين سنة ٦١٥ هـ بين أولاده الذين انشغلوا بالمنازعات والحروب ، وتهديد الدويلات الصليبية التى كانت لا تزال قائمة فى سوريا وفلسطين لسوريا ومصر ، كل ذلك حال دون إقامة حلف إسلامى يستطيع الوقوف فى

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ المجلد الثانى ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) أبو الفداة المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٤٣ ومايليها

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٥٣ .

وجه المغول . لذلك لم يكن سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) حدثا مفاجئاً ، وإنما كان نتيجة حتمية لضعف العالم الإسلامى وإتاحة الفرصة للمغول لشن غاراتهم وغزو البلاد الإسلامية الذى بدأ فى سنة ٦١٧ هـ

٤ — جنكيزخان :

(أ) اليساق

لما مات يسوجاى سنة ١١٧٥ م آلت السلطة إلى ولده الصغير « تيموجين » (Tīmûjīn) ولم يكن قد ناهز الثالثة عشرة من عمره كما لم يكن قد تلقب بعد بذلك اللقب الرفيع وهو « جنكيزخان » . ولقد صرف تيموجين السنين الأولى من عهده فى ترقية آلاته الحربية وضم المغول والقبائل المتصلة بهم فى جيش واحد منظم .

قضى تيموجين ثلاثين سنة فى نزاع متصل مع أعدائه فى الداخل ، استطاع فيها أن يفرض سلطانه على قبيلته وعلى القبائل المجاورة لها ، ثم وجد الطريق مهيأة والظروف مواتية لكى يحقق مطامعه فى توسيع رقعة امبراطوريته على حساب البلاد الإسلامية .

وفى سنة ١٢٠٦ م أقام تيموجين وليمة لرؤساء القبائل ، وأعلن الشامان أو القسيس الأعظم فى هذا الحفل العظيم الذى جمع أمراء البلاد ونبلاءها « أن السماء قد خلعت على تيموجين لقباً أرفع من اللقب الذى كان يلقب به أسلافه وأن اسمه قد أصبح من الآن « جنكيزخان » أى الملك صاحب القدرة والبطش . وبذلك بدأ جنكيزخان فى سن الثالثة والأربعين يحكم البلاد دون منازع[١] .

ولما أمن جنكيزخان شر أعدائه فكر فى ترقية حالة بلاده الاجتماعية والخلقية بوضع قانون يكون أشبه بكتاب دينى يسيرون على هديه فى معاملاتهم وأحكامهم ، فوضع لهم « اليساق » أو « الياسة » . وقد روى المقريزى[٢] خلاصة هذا اليساق نقلا عن أحمد ابن البرهان الذى اطلع على نسخة منه بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد . وكذلك ذكر القلقشندى[٣] « أن السياسة كلمة مغولية أصلها « ياسة » ، فحرفها أهل مصر وزادوا بأولها سيناً فقالوا سياسة ، وأدخلوا عليها الألف واللام ؛ فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية وما الأمر فيها إلا ما قلت لك ، واسمع إذن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر

---

(١) Lane-Poole : Muh. Dynsties, pp. 203, 206.

(٢) خطط ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٣) صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١٠ .

والشام ، وذلك أن جنكيزخان القائم بدولة التتر فى بلاد الشرق لما غلب « أونك خان » وصارت له دولة ، قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه « ياسة »[١] ، ومن الناس من يسميه « يسق » ، والأصل فى اسمه ياسة » . وياسة كلمة تركية قديمة معناها القانون الاجتماعى[٢] .

ومما شرعه جنكيزخان فى هذا اليساق : « قتل الزانى ، ومن تعمد الكذب أو السحر أو تجسس على أحد ، أو دخل بين شخصين يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر . ومن بال فى الماء أو على الرماد قتل ، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها قتل بعد المرة الثالثة ، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذن قومه قتل . ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان فى يده قتل » .

ومما شرعه جنكيزخان أيضاً أن تكتف قوائم الحيوان ويمرس (أى يدلك قلبه) إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه » ومن ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح ، ومن وقع ثوبه أو شىء من متاعه وهو يكر أو يفر فى حالة القتال وكان وراءه أحد وجب عليه أن ينزل ويناول صاحبه ماسقط منه فإن لم ينزل ولم يناوله إياه كان جزاءه القتل ، ومن أحكام اليساق الأساسية تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة ما ، كما شرط ألاّ يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب مؤنة ولا كلفه ، وألاّ يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء والأطباء ومن عداهم من أرباب العلوم وأهل التقشف والزهد والتعبد والمؤذنين ومغسلى الأموات شىء من ذلك . وألزم الناس ألا يأكل أحد من طعام غيره حتى يأكل منه أولا ولو كان أميراً ومن يناوله أسيراً ، وألا ينفرد أحد بأكل شىء وغيره يراه بل يجب أن يشركه فى طعامه ، وألا يتميز أحد بالشبع على أصحابه ، وإن مر أحد بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منهم أن يمنعه الطعام ، وألزمهم ألا يدخل أحد يده فى الماء بل يتناوله بشىء ، ومنعهم من غسل ثيابهم حتى تبلى ، كما منعهم من أن يفرقوا بين الطاهر

---

(١) وقد قيل إنه لما تم وضع هذا الكتاب أمر جنكيزخان بكتابته نقشاً فى صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده .

(٢) ومن ألفاظ ياسة : سهياسة ومعناها القوانين الثلاثة (سه بالفارسية معناها ثلاثة ، وياسة بالتركية معناها القانون الاجتماعى ، وسهيسق وسهياق كلمة واحدة لمعنى واحد . وأوج (معناها ثلاثة) وياسة (معناها قانون) أى الثلاثة قوانين . ومما يؤكد أن كلمة سياسة ليست عربية الأصل عدم ذكرها فى القرآن الكريم ولا فى اللغة المنقولة عن الأعراب .

والنجس . وحرم تفخيم الألفاظ ومنح الألقاب ، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه باسمه المجرد . كما ألزم جنكيزخان قواده بعرض العساكر والأسلحة إذا أرادوا الخروج للقتال ، وأن يعرض كل واحد مامعه حتى الإبرة والخيط ، فمن وجد أنه قصر فى شىء مما يحتاج إليه عند عرضه عوقب . وألزم نساء العسكر بالقيام بما على الرجال من الواجبات عند غيبتهم كلفة يقومون بها للسلطان . وألزمهم عند رأس كل سنة أن يعرضوا بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن من يشاء لنفسه أو لأولاده . واتخذ أمراء العسكر وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات .

ومما شرعه جنكيزخان فى اليساق أنه إذا أذنب أحد الأمراء ولو كان كبيراً وبعث إليه رسولا لينزل به عقابه ، وجب عليه أن يسرع إلى تنفيذ طلب الرسول وهو خاضع ذليل حتى ينفذ فيه العقوبة التى أمر بها الملك ، ولو كانت العقوبة تقضى بإزهاق روحه . كما ألزم الأمراء ألا يترددوا على غير الملك ، ومن تردد منهم على غيره قتل . وأقام جنكيزخان البريد حتى يقف على أخبار بلاده أولا فأولا ، وعهد إلى ابنه جغطاى بالإشراف على تنفيذ ماجاء فى اليساق ، ويقول المقريزى [1] فى ذلك : « فلما مات جنكيزخان التزم من بعده من أولاده وأتباعهم حكم السياسة كالتزام أول المسلمين حكم القرآن وجعلوا ذلك ديناً لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه » .

ولا شك أن هذه الشريعة التى وضعها جنكيزخان قد ساعدت على تقدم المغول من النواحى العسكرية والإجتماعية ، كما حرمت التعرض للأديان والملل وحالت بذلك دون قيام الإختلافات الدينية أو المذهبية التى جرت على المسلمين كثيراً من المصائب والويلات . هذا إلى أن هذه الشريعة قد ساعدت على وجود جند قوى مزود بكامل العدد والعدة ، وقواد لايعرفون غير طاعة السلطان وحب الوطن . وجعلت من النساء عنصراً يعتمد عليه فى وقت الحاجة ، كما جعلت من المغول شعباً بصيراً بعواقب الأمور يربأ بنفسه عن عيوب المجتمع وشروره ، نشأ على المبادىء الديمقراطية السليمة التى لاتعنى بالألقاب ولا تميز بين الناس مهما اختلفت طبقاتهم وتباينت صفاتهم .

أما عن تحريم اليساق التمييز بين النجاسة والطهارة ، فلعل من نتائجه عدم غسل الثياب إلى أن تبلى ، ولعله يرمى من وراء ذلك إلى تعويد شعبه التقشف فى المعيشة وتركه الترف الذى يجر إلى الضعف فيفسد الروح العسكرية ، وأما رفع المؤن عن أولاد على بن أبى طالب وتعظيمه لأهل الدين من المسلمين ، فلعل جنكيزخان كان متأثراً بالشيعيين الذين كانت بلاده

---

(١) خطط ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

نحيط بهم فى كثير من جهات إمبراطوريته ، ثم إنه أراد بذلك آخر الأمر أن يتودد إلى المسلمين بتعظيم آل نبيهم ورجال الدين عندهم ، فى الوقت الذى كان يعمل على الاستيلاء على بلادهم ، مؤملا أن يلقى تأييد رجال الدين الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير فى ذلك العصر .

وعلى الرغم مما نأخذه على « السياق » فى بعض النواحى ، فلا شك أنه يعتبر أساساً صالحاً لبناء النظم الإدارية والاجتماعية عند المغول ، كما أنه يعد خطوة تطورية فى ديانتهم ، ويعتبر كذلك متأثراً فى بعض النواحى بالديانات السماوية ، كتحريم الزنا والقتل والغدر والكذب ونحو ذلك إذا عرفنا أن ديانتهم القديمة كانت لا تحرم شيئاً . لذلك استطاع جنكيزخان بأحكام السياق أن ينشر نفوذه فى البلاد الصينية والإسلامية .

(ب) غزوات جنكيز خان

(١) رأى المؤرخين فى غزوات جنكيز خان

كانت الغارات التى شنها المغول آخر الغارات التى شنتها القبائل الرحالة على مدنيات الشرق والغرب ، تلك المدنيات التى كانت تختنق تحت أدران الترف والعبودية ، على حين كانت الشعوب الرحالة تتقدم من حيث التفكير وتعبئة الجيوش واستعمال آلات الحرب ، وتنساب من بلادها كالسيل يغمر تلك المدنية البالية ويسير بالعالم نحو عهد جديد .

وبينما كان جنكيزخان مشتغلا بمحاربة إمبراطورية كين بلاد الصين قَتَلَ خوارزم شاه سفراءه فحوّل إمبراطور المغول وجهه شطر بلاد خوارزم الإسلامية ، وانسابت فرسانه فيها مزوّدين بأحسن أنواع السلاح ، كما كان لديهم البنادق والبارود وآلات الحصار التى أخذوها عن الصينيين ، ومن ثمّ نزلت بالمسلمين وأمم الغرب الطامة الكبرى والمصيبة العظمى .

وقد وصف سير توماس أرنولد[1] ما قام به المغول من ضروب الوحشية فى غزواتهم

---

(١) The Preaching of lalam, pp. 218—219. ترجمة المؤلف الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

للبلاد الإسلامية فى هذه الكلمات « لا يَعْرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولا من غزوات المغول ؛ فلقد انسابت جيوش چنكيزخان انسياب الثلوج من قُنَن الجبال ، وا كتسحت فى طريقها الحواضر الإسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة ، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى خرائب وأطلال بالية ، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور الفخمة المحاطة بالحدائق الغناء والمروج الخضراء ، فبعد أن تحوّل جيش المغول عن مدينة هَرَاة خرج أربعون من أهليها من مخبئهم ، فراراً من الموت ، وكان هؤلاء التعساء هم البقية الباقية من سكانها الذين كان يربو عددهم على المائة ألف ، ووقفوا مُهْطِعِين مُقْنِعى رءوسهم يبكون أطلال مدينتهم ، وقد أخذ الفزع والهلع من نفوسهم كل مأخذ . وفى مدينة بخارى التى اشتهرت برجال العلم والورع اتخذ المغول إصطبلاً لخيولهم ومزقوا المصاحف واتخذوا منها وطاءً لدوابهم ، كما سبوا من نجا من الأهلين من القتل وجعلوا مدينتهم أثراً بعد عين . وهكذا كان مصير مدينتى سمرقند وبلخ وغيرهما من أمهات مدن آسيا الوسطى التى كانت من قبل فخر الحضارة الإسلامية وموطن الأولياء وكعبة العلوم ، كما كان ذلك أيضاً مصير بغداد التى ظلت قروناً عدة حاضرة الخلافة » .

يقول « دوسون »[1] : إن تاريخ المغول يمتاز بطابع الفوضى ووحشيتهم لا تترك إلا صوراً بغيضة . وأن حكمهم كان انتصاراً للفساد والفوضى . ويختلف رأى سير هنرى هاوارث عن رأى دوسون ، فيقول : إن المغول جنس من الأجناس التى درجت تحت ظلال الفقر وشظف العيش ، يجرى فى دمائهم مزيج قوى من الحديد — ينبعث فى فترات منظمة ليقضى على الترف والثراء اللذين سادا فى ذلك العصر ، ويحطم الفن والثقافة التى لا تترعرع إلا فى ظل الرخاء وبسطة العيش والأمن ، ويُحوّل هذه الجنان التى جهد الإنسان فى غرسها وتعهدها إلى صحرا جرداء مقفرة ، فهم أشبه بالوباء والقحط ، وأشبه بآلة تدمير وتخريب أتت على شعوب كانت غارقة فى بحار الترف والنعيم ، ثم ذهبت ضحية غارات المغول ، كما قال « دوسون » إن الفتوحات المغولية أدت إلى اتصال أمم

---

(١) Dr. Hosson, Histoire des Mongols Amesterdam, 1834. rome I, pp. 7—8.

الشرق والغرب . وإن الطباعة والبوصلة البحرية والأسلحة النارية وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية قد انتقلت إلى أوربا بتأثير هذه الغارات .

كما يرى « دوسون » أن قصة المغول وإن كانت تثير الأسى والحنق ، فهى مع ذلك ضرورية لتفهم مدى التقدم البشرى .

ويعجب « ليون كاهون »[١] بنظام المغول الإدارى الدقيق وانعدام روح التعصب الدينى فيهم ، ويطرى صفاتهم الحربية التى هى من صفات كل الشعوب التركية .

ومن العقبات التى قامت فى سبيل نشر سيادة المغول فى كافة أرجاء العالم ، تلك المملكة التى كانت تسمى قديماً قَرَه خطاى أى بلاد الخطا السوداء ، وكانت تمتد إلى حدود بلاد تركستان الشرقية الحديثة تقريباً ، وكان يحكمها جماعة من الأمراء يسمون خانات الغور . وقد فرضت هذه المملكة احترامها على فارس وبلاد ماوراء النهر . على أن چنكيزخان وجنده سرعان ما انقضوا على بلادهم وأصبحت لهم السيادة على أهل كاشغر وبقية إقليم غورخان[٢] .

٣ — غزو التتار بلاد خوارزم :

وكان من أثر تفاقم العداوة بين الخليفة العباسى وعلاء الدين خوارزم شاه محمد ، أن اعتقد بعض المؤرخين أن الخليفة العباسى الناصر استدعى التتار ليشغل بهم خوارزم شاه حتى يأمن شره ويحول بذلك دون ما يحدق ببلاده من خطر هجوم جيوش خوارزم شاه . ولا يبعد أن يكون لذلك ظل من الحقيقة . فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة من قبل ، فراسلوا بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرلبك السلجوقى ليخلصهم من تحكم البساسيرى حين أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين فى مصر ، بل لقد أوفد أحدهم الرسل إلى خوارزم شاه ليقيهم شر السلاجقة . وكانت العوامل التى دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستنجاد ببنى بويه والسلاجقة وخوارزم شاه هى نفس العوامل التى دفعتهم إلى الاستنجاد بالتتار ، اللهم إلا إذا استثنينا هذا الفارق بين هؤلاء وأولئك : فقد كان هؤلاء مسلمين على حين كان التتار وثنيين ، بيد أن هذا العامل الدينى لا يضعف من

---

(١) Introduction à I' Histoire d' Asie Turks et Mongols, des oringines à 1405, pp. 79, 111—118.

(٢) Lane-Poole, Muhmamadan Dynasties, pp. 203—204.

صحة هذه الرواية ، إذا لاحظنا أن الخليفة لم يبال بما فعل لتخليص ملكه ، وأنه كان يرمى من وراء عمله إلى شغل خوارزم شاه بالتتار ليكتفى شره ، ولم يكن يتوقع أن هؤلاء التتار يستطيعون الوصول إلى بلاده ، لبعد الشقة ووقوف جند خوارزم شاه القوى فى سبيلهم .

ولكن ابن الأثير[١] يذكر أن غزو التتار بلاد خوارزم وتوجيه أنظارهم للبلاد الإسلامية يرجع إلى سوء التفاهم الذى وقع بسبب قتل تجار المغول الذين ترددوا على بلاد خوارزم .

وقد توجس خوارزم شاه خيفة من تهديد التتار فأرسل رسله إلى بلاد چنكيزخان ليتفقدوا جيشه ويقفوا على مدى قوته ، فعادوا بعد مدة وأخبروه بكثرة جند التتار ، ووصفوا له شدة صبرهم على القتال ، وعملهم بأيديهم ما يحتاجون إليه من السلاح . فندم خوارزم شاه على ما فعل ، وزاد قلقه من ناحية التتار . ثم جاءته الأخبار بأن التتار قد ساروا لقتاله ، فاستشار أحد فقهاء دولته — وكان يثق به ويرجع إليه فى مهام أموره — فأشار عليه بأن يعسكر بجيوشه على ضفة نهر سيحون الذى كان يفصل بين المملكة الخوارزمية وبلاد الترك — وبذلك يستطيع أن يقضى على قوات چنكيزخان بعد أن يكون التعب قد أنهك قواهم لبعد الشقة ووعورة الطريق . ثم عقد خوارزم شاه مجلساً ضم أمراءه وذوى الرأى فى دولته ، فأشاروا عليه بأن يترك التتار حتى يعبروا نهر سيحون ويسلكوا ما وراءه من الجبال والوهاد والمفاوز ؛ وبذلك يستطيع القضاء على قواتهم .

وكان من أثر إرسال چنكيزخان رسوله إلى خوارزمشاه يتهدده بالحرب ، أن قتل خوارزم شاه هذا الرسول وحلق لحا من كان معه من التتار ، وجمع عساكره وقصد تخوم تركستان ، وانقض على بلاد التتار بعد مسيرة أربعة أشهر ، فلم يلق إلا جموعاً قليلة تخلفت مع النساء والصبيان والأطفال لاشتغال الجند بمحاربة أحد ملوك التتار ، فأوقع بهم وغنم ما معهم . ولما علم التتار بما فعل خوارزم شاه أدركته طائفة منهم تحت قيادة أحد أولاد چنكيزخان قبل أن يخرج من بلادهم ، واقتتل الفريقان ثلاثة أيام كاملة ، « واشتد بهم الأمر حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرنه راجلا ، ويتضاربون بالسكاكين ، وجرى الدم على الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته[٢] » . على أن هذه الحرب لم تنجل عن انتصار أحد الفريقين ، فعاد التتار إلى

---

(١) الكامل جـ ١٢ ص ٢٣٦ .

(٢) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ٢٣٨ .

بلادهم ، وعاد المسلمون إلى بخارى ، وأخذ خوارزم شاه يعد العدة لقتال التتار ، وعسكر بالقرب من مدينة بلخ .

أما التتار فقد يمموا شطر بلاد ما وراء النهر حتى وصلوا إلى مدينة بخارى بعد وصول خوارزم شاه بخمسة أشهر ، وكان بها عشرون ألفاً من جند خوارزم شاه ، ففارقوا المدينة ، فدخلها جنكيزخان فى ٤ ذى الحجة سنة ٦١٦ هـ وقتل الجند الذين اعتصموا بالقلعة عن آخرهم وأخرج الأهالى لا يملكون سوى ثيابهم التى عليهم . ثم نهب جنده المدينة وأسروا من بقى بها من الأهالى واقتسموهم ، وقد آثَرَ كثير منهم القتل حتى لا يرى ما نزل بإخوانه من كرب وبلاء . ثم ألقى التتار المنابر والمصاحف فى الخندق ، وأشعلوا النار فى المدارس والمساجد وغيرها من المبانى حتى أصبحت بخارى كأن لم تَغْنَ بالأمس[1] .

رحل التتار بعد ذلك نحو سمرقند قصبة بلاد ما وراء النهر وكعبة العلماء والأدباء ومعين الثروة والرخاء ، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى مشاةً على أقبح صورة ، وقتلوا منهم من أعياه المشى . وكان بسمرقند خمسون ألفاً من جند خوارزم شاه ، ارتجفت قلوبهم وخارت قواهم لما علموه من فظائع التتار الذين قدّموا فرسانهم ، ومن بينهم الرجالة والأسرى والأثقال ، ومع كل عشرة من الأسرى علم ، فزاد هذا فى مخاوف أهل المدينة ، وكانوا فى عدد كبير ذكر ابن الأثير أنه بلغ سبعين ألفاً ، واشتبكوا مع رجالة التتار ، فارتد هؤلاء ، فتبعهم أهل المدينة ، ولم يدروا أن الأعداء قد وضعوا لهم كميناً ، حتى إذا ما جاوزوه خرج عليهم هذا الكمين من مخبأه ، فحال بينهم وبين المدينة ، ورجع الباقون الذين قاتلوهم أولا ، وحاصرهم التتار من كل ناحية وقتلوهم عن آخرهم .

وقد تفاقمت مخاوف الجند الخوارزميين لهذا الانكسار الذى حل بأهل سمرقند ، وطلبوا الأمان من التتار ظناً منهم أنهم يبقون عليهم لأنهم كانوا أتراكا مثلهم . ومن ثم خرجوا فى أهلهم وأموالهم . فطلب منهم التتار أن يسلموا سلاحهم وأموالهم ثمناً لأمانهم . ثم وضع التتار السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم ، ونهبوا المدينة وعاثوا فيها فساداً . فأحرقوا الجامع ، واستولوا على الأموال وسبوا الأهلين ، وقتلوا الشيوخ والعجزة ، وكان ذلك فى المحرم سنة ٦١٧ هـ .

وقد بلغ من خوف جند الخوارزميين من التتار أن أصبحوا بحيث لا يستطيعون

---

(١) راجع ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

مواجهتهم ، ويحدثنا ابن الأثير أن خوارزمشاه علاء الدين محمد أرسل مرة عشرة آلاف من الجند ومرة عشرين ألفا فلم يجرءوا على مواجهة التتار وعاذوا أدراجهم .

ولما تم للتتار فتح بخارى وسمرقند عولوا على القبض على خوارزم شاه ، فبعث جنكيزخان عشرين ألفا من خيرة جنده وقال لهم : « اطلبوه ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه » ، فسار هؤلاء الجند ميممين غربى خراسان . ومن ثم أُطْلِق عليهم اسم التتار المغرِّبة تمييزاً لهم عن سائر طوائف التتار ، فوصلوا إلى مدينة قِنْج آب (أى الخمس مياه) ، فلم يجدوا هناك سفنا يعبرون عليها ، فعملوا صناديق كبيرة من الخشب ألبسوها جلود البقر حتى لا ينفذ إليها الماء ووضعوا فيها الأسلحة والأمتعة ، ثم سيروا الخيل فى الماء وأمسكوا بأذنابها وشدوا تلك الصناديق إليهم ؛ فكانت الخيل تجذب الرجل والرجل يجذب هذه الصناديق ، وبذلك أمكنهم العبور دفعة واحدة .

نيسابور ومازندران :

ولما علم المسلمون بذلك تفرقوا أمام التتار ، وهرب خوارزم شاه فى بعض خاصته إلى نيسابور ، فقصده التتار ولم يتعرضوا بشىء لأهالى البلاد التى مروا بها ، إذ كان همهم اللحاق به . فلما أحس خوارزم شاه بقربهم هرب إلى مازندران ، اقتفى التتار أثره من غير أن يعرجوا على نيسابور . وهكذا أصبح خوارزم شاه يتنقل من بلد إلى بلد والتتار المُغَرِّبون فى إثره ، حتى وصل أخيراً إلى الرى ثم إلى همذان ثم إلى حدود العراق . فلما جاء التتار ملكوها بسهولة لم تكن منتظرة وأعملوا السيف فى رقاب أهلها وسلبوا أموالهم(١) .

ولما تم للتتار فتح مازندران استأنفوا سيرهم قاصدين بلاد الرى فى طلب خوارزم شاه وقد فر إليها من مازندران ، وقبضوا على أمه ، وكانت فى طريقها إلى بلاد الجبل هربا من التتار ومعها من الأموال والجواهر والأمتعة ما لا يدخل تحت حصر وأرسلوها إلى جنكيزخان فى قَرَه قورم حاضرة ملكه (٦٢٠ / ١٢٢٣) .

ثم دخل التتار بلاد الرى على حين غفلة من أهلها فأذاقوهم كل صنوف العذاب وسبوا الحريم واسترقوا الأطفال ، ثم مضوا قُدُماً فى طلب خوارزم شاه فنهبوا ما صادفوه فى طريقهم من القرى والمدن ومثلوا بأهلها .

---

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٤٣ .

ثم وصل التتار إلى همذان ، وكان خوارزم شاه قد وصل إليها ، فغادرها وخرج والى المدينة إلى التتار ، فقدم إليهم الأموال والثياب والدواب وطلب منهم الأمان فأجابوه إلى طلبه . ثم ساروا إلى زنجان ثم إلى قزوين فدخلوها عنوة وتقاتلوا مع الأهالى بالسكاكين وقتلوا منهم زهاء أربعين ألفاً .

وقد قصد التتار بعد ذلك أذربيجان فصالحهم صاحبها على مال ودواب ، وكان منصرفاً إلى اللهو وإدمان الشراب ليلا ونهاراً . وكانت أذربيجان فى عهد العباسيين من الأقاليم القليلة الأهمية ، ولم تقم لها قائمة سياسية إلا عندما هبت ريح المغول . ذهب التتار إلى أذربيجان فراراً من البرد والثلوج والأمطار ، فوصلوا إلى تبريز وبها صاحب أذربيجان فصالحهم ، ثم يمموا ناحية البحر لقضاء الشتاء لقلة البرد وكثرة المراعى ، فوصلوا وهم فى طريقهم إلى بلاد الكرج وأوقعوا بأهلها وقتلوا أكثر جندها ، فأرسل الكرج إلى صاحب أذربيجان فى طلب الصلح والاتفاق على قتال التتار ، كما تعاهدوا مع صاحب بلاد الجزيرة ويدعى الملك الأشرف بن الملك العادل وأعدوا العدة لقتال العدو المشترك إذا ما انصرم الشتاء وحل الربيع . ولكن التتار لم يابثوا أن تحركوا من مشتاهم قبل حلول الربيع قاصدين بلاد الكرج ، وانضم إليهم كثير من التركمان والأكراد لمشاركتهم إياهم فى الجنس ، وتقدم التتار نحو بلاد الكرج فنهبوا أهلها وقتلوهم ، ثم واصلوا السير نحو تفليس (حيث أدركهم التتار) ، فهزموا أهل هذه البلاد هزيمة منكرة وقتلوا منهم عدداً لايحصى (ذو القعدة سنة ٦١٧ هـ) . وفى ذلك يقول ابن الأثير[1] :

« ولقد جرى لهؤلاء التتار مالم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه . طائفة تخرج من حدود بلاد الصين لاتنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان ، وتالله لا أشك أن من يجىء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ، ينكرها ويستبعدها والحق بيده ، فمتى استبعد ذلك ، فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ فى زماننا فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها . . . يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم . . . ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثلما دفعوا إليه الآن . وتعدت هذه الطائفة منهم النهر إلى خراسان فملكوها وفعلوا

---

(١) الكامل ج ١٢ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

مثل ذلك . هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ماوراء النهر وملكوها وخربوها ثم إلى الرى وبلد الجبل وأذربيجان [كذا] . وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم ، والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم فى أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ، ووصلوا مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ، ولم يقدر المسلمون على إزعاجهم عنها ولا إخراجهم منها . وباقى ديار مصر على خطر ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

كان ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ) معاصراً لغارة المغول ، وكان صديقاً لابن الأثير ، وقد استطاع أن ينجو بنفسه من غارتهم ، وأن يخلف لنا صورة واضحة لما كانوا يلقونه فى النفوس من رعب وفزع ، كما يتضح ذلك من إشاراته المتفرقة فى كتابه « معجم البلدان » وفى خطاب أورده ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان ، وقد وجهه ياقوت[1] إلى القاضى الأكرم جمال الدين أبى الحسن على الشيبانى القفطى وزير صاحب حلب فى كتابه الذى أرسله إليه من الموصل فى سنة ٦١٧ هـ على أثر وصوله إليها من خوارزم هارباً من التتار يصف فيها ماحل بخراسان من التخريب والتدمير ولأهلها من الخطوب والويلات وما تعرض له من الأخطار حتى وصل إلى الموصل ، كما عبر ياقوت عن أسفه العميق وحزنه الدفين لتركه مدينة مرو الزاهرة العامرة بمكتباتها ، وقال إن ما اشتملت عليه من الكتب النادرة قد أنساه الأهل والأحباب والوطن والأصحاب . ثم وصف الرخاء والعمران اللذين كانت تنعم بهما خراسان حتى أصبحت شبيهة بجنة المأوى ورياض الخلد . ومما قاله ياقوت :

« فإنا لله وإنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر وتهدم العمر ، وتفت فى العضد . . وتشيب الوليـــد وتنخب لب الجليد ، وتسود القلب وتذهل اللب ، فحينئذ تقهقر المملوك[2] على عقبه ناكصاً ومن الأوبة إلى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آيساً . . . فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار وابتلاء واصطبار . الخ »[3] .

---

(١) دون القفطى صورة هذا الخطاب فى كتابه الذى سماه « إنباء الرواة على أنباء النحاة » ونقله ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١٨١ — ١٨٨ فى ترجمة ياقوت الحموى .

(٢) يتكلم ياقوت عن نفسه ويصف حاله وما صادفه من أخطار .

(٣) براون : تاريخ الأدب فى إيران ، الترجمة العربية جـ ٢ ص ٥٥٢ — ٥٥٣ .

(٥) وفاة جنكيزخان :

وفى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٣ م) مات جنكيزخان وكان فى الستين من عمره بعد حياة حافلة بالنصر والظفر . وكان ، كما يقول لينبول : قد أسس فى مدى عشرين عاما أوسع إمبراطورية شاهدها العالم وأقامها مقتفياً فى ذلك السياسة التى رسمها له أبوه من قبل[١]. وكانت إمبراطورية المغول إمبراطورية حربية إدارية كما هو الشأن فى جميع الدول التى أسسها أقوام من الرُّحَّل . وكانت كافة السلطات تتركز فى شخص الملك ، كما كانت علاقة الدولة برعاياها تقوم على أساس فرض الضرائب للإنفاق على الجيش . ويكفى أن نقول إنه بعد الثلاثين سنة التى قضاها « جنكيزخان » فى ذلك الصراع العنيف ضد أعدائه فى الداخل ، والتى استطاع خلالها أن يثبت دعائم سلطانه على عشائره وعلى العشائر المجاورة على الرغم مما قام فى سبيله من الصعاب وما دُبّر له من المؤامرات — على الرغم من هذا كله وجد جنكيزخان نفسه قادراً على تكريس العشرين سنة الباقية من حياته فى سبيل تحقيق أغراضه الواسعة وأطماعه الكبيرة[٢] .

وقد استعان جنكيزخان فى إدارة إمبراطوريته الواسعة برجل من إمبراطورية كين ذى كفاءة نادرة وهو Yeliu Chutsai ، وكان ملماً بالتقاليد والعلوم الصينية جديراً بالاضطلاع بمهام دولة المغول بعد وفاة جنكيزخان ، كما كان بلا ريب أحد أبطال السياسة الذين عرفهم التاريخ . وكان ليليوشتسى أكبر الأثر فى تحسين العلاقة بين خانات المغول وبين رعاياهم ، كما أنقذ كثيراً من المدن والآثار الفنية من الدمار ، وجمع السجلات والنقوش مما ينهض دليلا على ولعه بالعلوم والفنون ، حتى إن منافسيه حين اتهموه بالرشوة لم يجدوا عنده إلا بعض الآلات الموسيقية والوثائق التاريخية الهامة .

وإلى يليوشتسى وإلى جنكيزخان يرجع الفضل فى ترقية الآلات الحربية وبلوغها حد الكمال . هذا إلى ما امتاز به عهد جنكيزخان من ذلك التسامح الدينى الذى ساد كل أرجاء آسيا .

---

(١) Lane-Poole, Muhammadan Dynasties, p. 202

(٢) Lane-Poole, Op. Cit., p. 206.

القبائل المغولية وبطونها

جنكيزخان

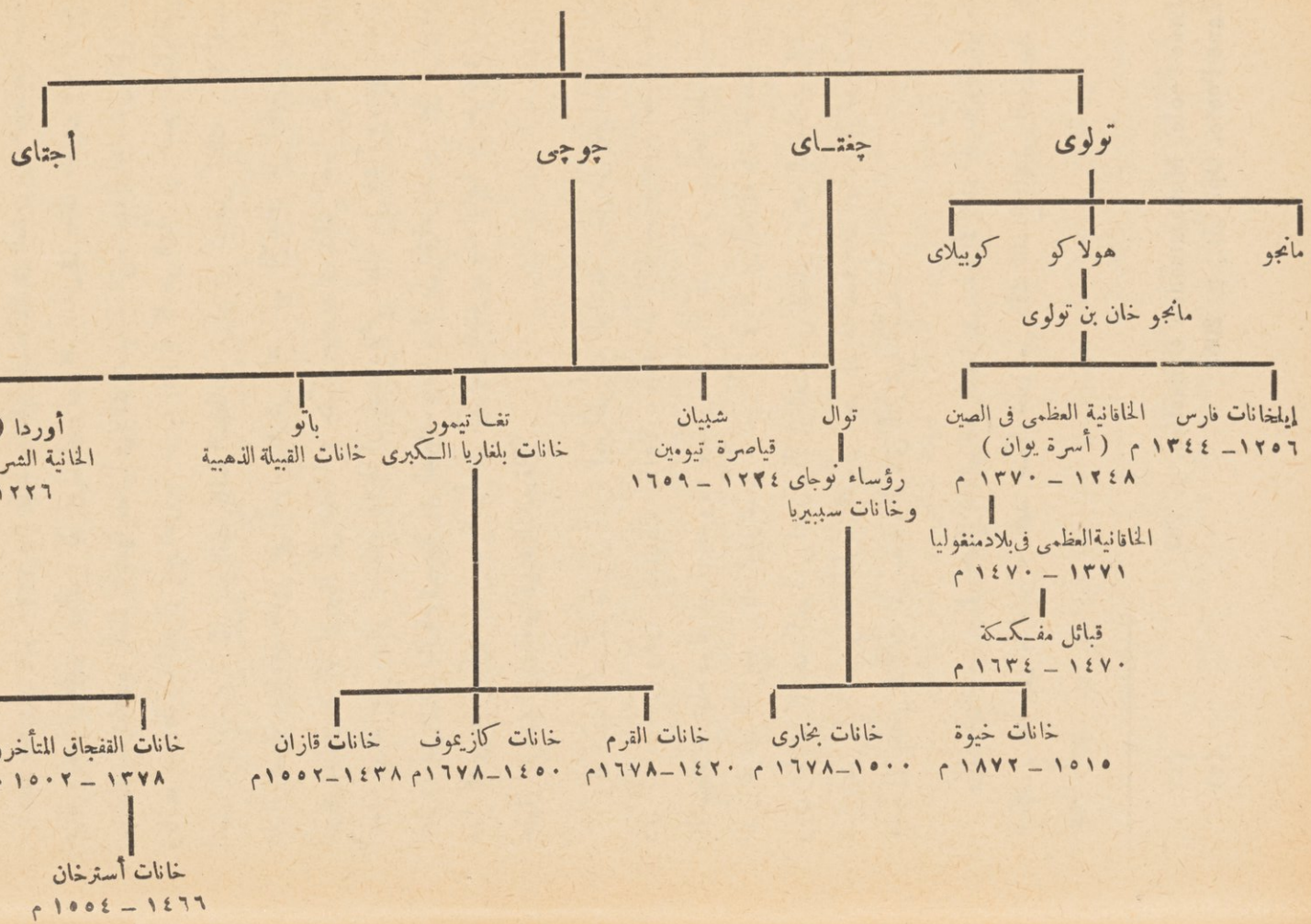

خاقانات المغول

جنكيزخان	٦٠٣ / ١٢٠٦
أجتاى	٦٢٤ / ١٢٢٧
توراكينا (فترة بين موت أجتاى ، وكيوك)	٦٣٩ / ١٢٤١
كيوك	٦٤٤ / ١٢٤٦
مانجو	٦٤٦ / ١٢٤٨

أسرة يِنْ Yuen

كوبيلاى	٦٥٥ / ١٢٥٧
أو لجايتو	٦٩٣ / ١٢٩٤
كويوك	٧٠٦ / ١٣٠٧
بُيانتو	٧١١ / ١٣١١
جِجِن إلى توغان تيمور	٧٢٠ - ٧٣٢ / ١٣٢٠ - ١٣٣٢

الإمبراطورية المنحلة

بليكتو Biliktu	٧٧١ / ١٣٧٠
أسوخال إلى ديان	٧٨٠ - ٨٧٥ / ١٣٧٨ - ١٤٧٠

قبائل منقسمة

بودى	٩٥١ / ١٥٤٤
كودانج إلى لنجدان	٩٥٥ - ١٠٤٣ / ١٥٤٨ - ١٦٣٤ (١)

---

(١) Lane-Poole, Muhammadan Dynasties, pp. 215—216.

إمبراطورية المغول بعد جنكيزخان

٦ — أُجتَاى : فتوحه فى آسيا وأوربا .

ظلت حاضرة المغول بعد وفاة جنكيزخان فى مدينة « قره قورم » فى منغوليا ، حيث خلفه ثالث أولاده أجتاى (٦٢٤ — ٦٣٩ / ١٢٢٧ — ١٢٤١) فأصبح خاقان امبراطورية المغول . وقد استاء أتباع جغطاى من تعيين أجتاى خليفة لجنكيزخان ، لمخالفة ذلك لتقاليد المغول التى تقضى بأن يعين أكبر الأبناء سناً . وعند جلوس أجتاى على العرش وزّع الهدايا على كبار رجاله ، وذبح أربعين فتاة وكثيراً من الخيل على روح أبيه ـ وفقاً للتقاليد والعادات المرعية عند المغول .

وكان أول ماقام به المغول فى عهد إمبراطورهم الجديد أن تعقبوا البقية الباقية من إمبراطورية كين (أو الأسرة الذهبية) حتى دانت كلها لسلطانهم فى سنة ١٢٣٤ ، بعد أن حكمت البلاد الشمالية من بلاد الصين أكثر من قرن . وقد ساعدت المغول فى تلك الحروب أسرة سُنج التى كانت على عرش الإمبراطورية فى الجنوب ، وبذلك سعت تلك الأسرة إلى حتفها بظلفها بانضمامها إلى المغول ضد إمبراطورية كين إذ وهنَتْ قوتها أمام ذلك العدو الغاشم . ولم ينس أُجتَاى أن فتوحات أبيه فى غربى آسيا تضطره للاحتفاظ بسيادته على مملكة خوارزم ، برغم عنايته أول الأمر بتوسيع إمبرطوريته فى أخصب بقاع الصين وأغناها ، وأصبح يشعر بهذا الواجب ويجعله نصب عينيه منذ رجوع جلال الدين منكبرتى من الهند واسترداده البلاد التى ورثها عن أبيه وتقدمه غرباً حتى وصل إلى تفليس وكيلات.

حينئذ أرسل اجتاى إلى جلال الدين قوة مكوّنة من ثلثمائة ألف مقاتل، وتعقّب هذا الجيش المغولى عدوّه فى سرعة عجيبة ؛ ولكن جلال الدين كان قد هرب إلى جبال الأكراد حيث قتله أحد الفلّاحين . وبذلك حقق المغول الغرض الأول من غزواتهم . وقد جعل المغول هذا الفتح خطوة لغيره من الفتوح ، فاندفعوا نحو الغرب وأغزوا السير ، فاحتلوا ديار بكر وإربل وكيلات ، ثم تقدّموا إلى أذربيجان ، وفى العام التالى (١٢٣٦ م) غزوا جورجان وأرمينية الكبرى مرتكبين أقسى الفظائع وأشدّها هولا . ومن المدن التى فتحوها تفليس .

وكان أجتاى قد وجّه فى سنة ١٢٣٥ م ثلاثة جيوش فى نواح مختلفة : أحدها إلى كوريا ، وثانيها ضد أسرة سونج وكانت تحكم مايلى نهر يانج تسى كيانج ، وأرسل ثالثها غرباً نحو شرقى أوربا ، وعلى رأس هذا الجيش الأخير القائد « باتو بن جوجى » أكبر إخوة أجتاى ، وقد اتخذ سابوتاى Sabutai المشهور مستشاراً له ، فسقطت بلغاريا أمام القوة التى على رأسها سابوتاى ، على حين تقدم باتو نحو نهر الفلجا . واخترق جند المغول الغـــابات التى فى طريقهم حتى ظهروا أمام ريازان Ryazan أو المدينة الجميلة ، وصوّبوا سهامهم إليها ، وهددوا أسوارها وخربوا حصونها ، ثم استولوا عليها فى ٢١ ديسمبر سنة ١٢٣٧ م . « وانتقم المغول لمن مات من جندهم فى هذه المعارك ، فذبحوا الأمير وأمه وزوجه وأولاده وحاشيته وجميع سكان المدينة دون أى اعتبار للجنس أو السن ، فمات البعض بالخوازيق والبعض الآخر قتل بالسهام لمجرد التسلية ، وسلخ الآخرون أو وضعت تحت أظافرهم المسامير أو شظايا الخشب ، وحرق القسيسون فى النار أحياء ، واختطفت الفتيات العذارى والراهبات من الكنيسة أمام أقربائهن « حتى لم تبق عين لتبكى على الأموات » .

ثم سقطت موسكو فى يد الغزاة ، وانتقم المغول من أهالى إحدى المدن أخذاً بثأر قوة من جيوشهم أحل بها أهلها الهزيمة ، فأحل بهم أتباع « باتو » كل أنواع التعذيب ، وأتوا من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان ، حتى عرفت هذه المدينة باسم فاتحها Mobalig كما عرفت أيضاً باسم مدينة الويل والثبور .

وعلى أثر هذا الانتصار تقدم المغول نحو كييف Kiev أم المدائن الروسية واستولوا عليها عنوة وسحقوا المدينة حتى أصبحت أثراً بعد عين .

ولقد دمر المغول فى تلك الحروب الجزء الأعظم من بلاد الروسيا ، وانقسم جيشهم إلى فريقين : فريق أغار على بلاد المجر بقيادة « باتو » وأغار فريق آخر على بولندة بقيادة « بيدار » Baidar وكيدو Kaidu . وقد تقدم باتو نحو بست Pest ببلاد المجر دون أن يلق أية مقاومة فى طريقه ، فاحتشدت هناك جميع القوى المجرية لمقاومته فى تلك المروج الواســـعة ، فانقض عليهم « باتو » بجيشه وهم فى سباتهم وأوقع بهم ، وأتى عليهم جميعاً ذبحاً وقتلا حتى امتلأ الطريق بأشلاء القتلى على مسيرة

يومين ، ولم يُنقِذِ الملك بيلا الرابع (Bela) من الموت إلا خفة حصانه وسرعة عَدْوه ، فاتبعه نفر من المغول واقتفوا أثره حتى ساحل الأدرياتيك مخربين مدمرين كل ماوجدوه فى طريقهم . ومن ثم استولى باتو على بست وعبر نهر الطونة على الثلج فى عيد الميلاد من سنة ١٢٤١ م .

وبينما كان باتو ينعم بانتصاره كانت القوة التى تحت قيادة بيدار وكيدو تشعل النار فى بولندة ، وقد اتصل بهم نبأ موت أجتاى ، واستدعاء باتو للرجوع إلى بلاد المغول فى الوقت الذى كان يعمل فيه قواده وجنوده السيف فى كل الجهات .

وكان أجتاى مسرفاً فى شرب الخمر كما هى عادة الكثيرين من المغول حتى مات بسبب ذلك فى ١١ ديسمبر سنة ١٢٤١ م .

٧ — كيوك :

ثم خلف أجتاى ابنه كيوك (٦٤٤ — ٦٤٦ / ١٢٤٦ - ١٢٤٨) . ولايحفظ لنا التاريخ إلا القليل عن أخباره وأخلاقه ، فقد ألقى بزمام الدولة إلى وزيرين من المسيحيين ، كما امتلأ بلاطه بالرهبان والعلماء من المسيحيين أيضاً ، وشيد كنيسة أمام خيمته .

أما عن معاملة كيوك لفقهاء المسلمين فى بلاطه فقد روى الجوزجانى عن بعض الثقات أن البوذيين طالما أوغروا صدره ضد المسلمين وحملوه على اضطهادهم . وكان فى هذه البلاد أحد الأئمة الذين اشتهروا بالعلم والورع بين المسلمين ، وهو نور الدين الخوارزمى . وقد التمس من كيوك بعض القسس من المسيحيين وفريق من قسيسي عُبّاد الأوثان من البوذيين أن يستدعى ذلك الإمام ليناظروه ويحاجوه طالبين منه إقامة الحجة على فَوْق الدين الإسلامى وإثبات رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) وإلا كان مصيره القتل إن هو أعيته الحجة . وقد أجابهم الخان الأعظم إلى طلبهم وأرسل فى طلب الإمام ، وطرحت على بساط المناقشة مسألة صحة دعوة محمد للنبوة وسلوكه فى حياته ، مع موازنته بسلوك غيره من الرسل . ولما كانت أدلة هؤلاء ضعيفة وخالية من كل وسائل الإقناع ، نفضوا أيديهم من تلك المساجلة بالبراهين والحجج ولجئوا إلى طرق العسف . وسألوا كيوك أن يسأل هذا الإمام أن يسجد سجدتين وفق الأحكام الإسلامية والتعاليم المحمدية حتى تتبين أمامهم

وأمام الخان حركات عبادتهم غير المستملحة (فى نظرهم). فأمر كيوك ذلك الإمام ومن معه بالصلاة، فخروا على الأرض سجداً، فقام بعض الكفار الذين دعاهم كيوك وأهانوهم وأخذوا يضربون الأرض برءوسهم، كما اقترفوا معهم بعض الأعمال المخزية. على أن الإمام ومن معه لم يأبهوا لكل هذا واستمروا فى صلاتهم من غير أن يقطعوها. ولما انتهى الإمام من صلاته وسلم، رفع رأسه نحو السماء قائلا: (واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية) (سورة الأعراف ٧ : ٢٠٥).

ثم طلب كيوك أن يؤذن له بالانصراف وعاد إلى داره هو ومن معه[١].

يقول سير توماس أرنولد[٢]، «ولكن على الرغم من هذه المصاعب، أذعن المغول[٣] والقبائل المتبربرة التى دانت بدين هذه الشعوب الإسلامية التى ساموها الخسف وجعلوها فى مواطىء أقدامهم. ولابد أن يكون هناك كثيرون من أنصار النبى قد انتشروا فى طول إمبراطورية المغول وعرضها، مجاهدين فى طى الخلفاء لجذب هؤلاء الكفار إلى حظيرة الإسلام».

٨ — مانجو خان:

وكان من حسن حظ أوربا أن قامت الاضطرابات والفتن فى بلاط قره قورم سنين عدة، ومن ثم ظهرت على تلك الإمبراطورية مظاهر التفكك وعوامل الانحلال. ففى سنة ١٢٥١ م أصبح مانجوخان بن تولوى (٦٤٦ - ٦٥٥/١٢٤٨ - ١١٥٧) خاقانا على بلاد المغول.

وبعد سنتين من توليته على العرش زار بلاطه وليام روبرك (Wiliam of Rubruk) وغيره من الرهبان المسيحيين، حيث استقبلوا بمظاهر الإكرام والحفاوة. وقد وصف روبرك هذا قصر مانجوخان فى «قره قورم». ومن هذا الوصف نقف على البون الشاسع بين حياة القصور وبين الحياة الرعوية التى كان يعيشها أسلافه. فكان قصره «محاطا بأسوار مبنية بالآجر، وبطرفه الجنوبى ثلاثة أبواب، والقاعة الوسطى تماثل الكنيسة.

---

(١) Raverty, p. 1160 et seq.

(٢) The Preaching of Islam, pp. 226—227.

(٣) كانت ثلاثة أرباع الجيوش المغولية أتراكا فى القرن الثالث عشر الميلادى.

ويحتوى هذا القصر على ما يشبه صحن الكنيسة ، ويفصل جناحى القصر ردهة فسيحة ، تتوسطها عمد مرفوعة كان يجلس فيها رجال البلاط . وأمام العرش شجرة من الفضة على حافتها السفلى أربعة أسود يخرج من أفواهها الخمر والنبيذ ، فتنصب فى أربعة أحواض من الفضة ، وفى أعلى الشجرة تمثال من الفضة يضرب البوق لملء خزانات تلك الينابيع الأربعة إذا ما نضب خمرها .

وقد عين مانجوخان أخاه كوبيلاى خان حاكما عاما على بلاد الصين . وفى عهده أخضعت كافة بلاد إمبراطورية سنج (بضم السين وسكون النون) ، وباخضاعها غدا المغول فى البلاد الشرقية صينيين من حيث ثقافتهم ونظمهم ، كذلك غزا مانجو خان بلاد التبت وخربها ، كما ولى أخاه هولاكو قيادة حملة لغزو بلاد فارس وسورية .

٩ — كوبيلاى خان :

خلف مانجوخان أخوه كوبيلاى (٦٥٥ — ١٢٥٧/٦٩٣ — ١٢٩٤) بعد سنة من وفاته قضاها زعماء المغول فى العودة من أطراف تلك الإمبراطورية النائية : من بلاد المجر وسورية والصين إلى حاضرة الإمبراطورية ، حيث انعقدت جمعية الأعيان لانتخاب خلف لمانجوخان ، وأصبح كوبيلاى خان الخان الأعظم . وكان قبل اعتلائه العرش شديد الاهتمام بشئون بلاد الصين ، فاتخذ بكين حاضرة لملكه بدلا من قره قورم ، واستقل هولاكو ببلاد الفرس وسورية وآسيا الصغرى ، على حين توزعت جيوش المغول فى بلاد الروسيا وما يليها من بلاد آسيا ، وكذا بعض الكتائب الصغيرة فى بلاد تركستان . وفى عهد كوبيلاى سقطت مدينة بغداد على يد هولاكو .

١٠ — سقوط بغداد :

وبعد أن أتم هولاكو إعداد حملته ، سار ميمما نحو الغرب . ولم يكد يصل إلى بلاد تركستان وما وراء النهر حتى قدّم إليه أمراؤها فروض الطاعة والولاء ، ثم وجه همه إلى القضاء على طائفة الباطنية فى فارس ، فأرسل إلى ملوك إيران كتباً يدعوهم فيها إلى مساعدته . ومما جاء فى هذه الكتب : « جئنا بأمر الخان الأعظم لتخريب حصون الإسماعيلية وقتل هذه الفئة ومحوها من الوجود ، فإذا أتيتم إلينا ووافقتم على مشروعنا بتقديم المساعدة من الرجال والذخائر وآلات الحرب ، فإنى أعدكم بالبقاء فى بلادكم آمنين ،

تتمتعون بقصوركم وجيوشكم ، أما إذا أظهرتم العكس سرت إليكم بعد إتمام مشروعى بعون الله وخربت بلادكم دون الالتفات إلى ماتقدمونه من الأعذار »[١] .

وعلى أثر وصول هذه الكتب إلى الملوك خرجوا لمقابلة هولاكو محملين بالهدايا ، وأتت إليه الرسل من العراق وخراسان وأذربيجان وجورجيا ، فرحب بقدومهم . ثم عبر هولاكو نهر جيحون ونزل بحدائق طوس ، ومنها سار إلى قلاع طائفة الإسماعيلية . وهناك دارت بينه وبينهم معركة انتهت بهزيمتهم وأسر زعيمهم ركن الدين خورشاه وقتله .

انتصر هولاكو على الإسماعيلية ووصل إلى مدينة همذان التى اتخذها مركزاً لقيادته ، ثم أرسل إلى الخليفة العباسى المستعصم بالله كتاباً يعاتبه فيه على عدم إمداده بالجند فى أثناء محاربته طائفة الإسماعيلية ، وطلب إليه .

(١) أن يهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه .

(٢) أن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه والدويدار يحملان رسالته إليه .

وختم هولاكو كتابه بقوله إنه إذا استمع الخليفة لهذا النصح تجنب حقده عليه ، وإلا عرض جيوشه للهزيمة أمام جيوش المغول التى قهرت جيوش خوارزم وإيران[٢] .

وقد أوفد الخليفة المستعصم شرف الدين بن الجوزى يحمل كتابه إلى هولاكو يدعوه فيه إلى الإقلاع عن غروره والعودة إلى بلاده . ومما جاء فى هذا الكتاب : « لقد جعلت نفسك فوق العالم أجمع ، وظننت أن أوامرك هى أوامر القضاء ، كيف تطلب منى طلباً لاتستطيع تنفيذه ؟ أيخيل إليك أنك بذكائك وقوة جيشك وشجاعتك ستأسر نجماً من النجوم ؟» ثم أخذ الخليفة يذكره بمجد الخلافة فقال : « إن ملايين من الفرسان والرجالة على استعداد للقتال ، وهم رهن إشارتى ، حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر»[٣] . ثم ختم الخليفة كتابه بقوله : فما بالك بخنادق رعيتى وحصونهم ؟ فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان . وإن كنت تريد الحرب فلاتتوان لحظة ولا تعتذر إذا عزمت ، إن لى ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة على أتم استعداد لخوض غمار الحرب[٤]

---

(١) D'Ohsson, Histoire des Mongols, Tome iii, pp.137—138.

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ المجلد الثانى ج ١ ص ٢٦٨ .

(٣) Quatremère, Histoire des Mongols, p. 335

(٤) جامع التواريخ : المجلد الثانى ج ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

وقد حمل شرف الدين بن الجوزى ومن معه من الرسل مع هذه الرسالة بعض التحف والهدايا ، فلم يهتم بها هولاكو ، وأبدى امتعاضه من العبارات التى تضمنها كتاب الخليفة إليه وقال : « لقد ألقى الله فى روع هؤلاء القوم مثل هذه الأوهام »[١]، ورد على الخليفة برسالة يهدده فيها ويتوعده ، ومما جاء فيها : « إنك تركت نهج آبائك ، فاستعد للحرب وانتظر جيشاً قوياً ، ولو أن الشيطان وضع عراقيله أمام خططى لانتصرت عليه بعون الله »[٢] .

ولما عاد رسل الخليفة وأدرك ماينطوى عليه رد هولاكو من تهديد ووعيد ، استطلع رأى وزيره ابن العلقمى ، فأشار عليه بأن يتألفه ببذل الأموال والنفائس وقال . « ينبغى أن تدفعه ببذل المال ، لأن الخزائن والدفائن تجمع لوقاية عزة العرض وسلامة النفس ، فيجب إعداد ألف حمل من النفائس وألفاً من نجائب الإبل وألفاً من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدات ، وينبغى إرسال التحف والهدايا فى صحبة الرسل الكفاة الدهاة مع تقديم الاعتذار إلى هولاكو وجعل الخطبة والسكة باسمه »[٣] .

وقد مال الخليفة إلى قبول هذا الرأى أول الأمر ، ولكن مجاهد الدين أيبك ، وكان يلقب الدويدار الصغير ، الذى كان يضمر العداوة والبغضاء للوزير ابن العلقمى ، استمال بعض الأمراء إليه ، وبعثوا إلى الخليفة برسالة يقولون فيها إن الوزير إنما رأى هذا الرأى مدفوعاً فى ذلك بمصلحته الخاصة ، وإنه يعرضهم بذلك إلى البلاء على أيدى المغول ، وتعهدوا للخليفة بأخذ الحيطة لدرء خطر هولاكو والقبض على رسله وأخذ مامعهم من الأموال وتعذيبهم بكل ألوان العذاب[٤] .

وهكذا لم يكن لتبادل المراسلات بين هولاكو والخليفة المستعصم من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لابد منها . وقد رأى هولاكو الاستيلاء على البلاد التى فى طريقه إلى بغداد . ولما تأكد أنه قد أصبح فى استطاعته السير إلى هذه المدينة دون تعرضه للمصاعب استطلع رأى الفلكيين ، على ماجرت به عادة المغول إذا أقدموا على غزو بلد

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٦٥ .جامع التواريخ المجلد الثانى ج ١ ص ٢٧١ .
(٢) كترمير ص ٣٣٩ .
(٣) جامع التواريخ ، المجلد الثانى ج ٢ ص ٢٧١ .
(٤) المصدر نفسه المجلد الثانى ج ٢ ص ٢٧٢ .

من البلاد . وقد حاول حسام الدين الفلكى ، وكان سنياً يعطف على الخليفة ، أن يثنى هولاكو عن عزمه . وقال له : « إن كل ملك تجاسر حتى هذه اللحظة على معاداة أبناء العباس والتعرض لمدينة بغداد ، زال عرشه وانتهت حياته . وإذا أبى الأمير أن يستمع لنصائحى وتمسك برأيه ، كان ذلك سبباً فى حلول ست مصائب وهى : موت الخيل ، وإصابة الجند بأمراض مختلفة ، وعدم طلوع الشمس ، وانعدام سقوط المطر ، وحدوث هزات أرضية يعانى منها العالم ، وإقفار الأرض[١] » .

أما نصير الدين الطوسى الذى اشتهر بمؤلفاته فى الدين والأخلاق ونظم الحكم والفلك ، فقد انضم إلى جانب أمراء المغول الذين تمسكوا بضرورة غزو بغداد ، كما استبعد وقوع الكوارث بحاضرة الخلافة على أثر سقوطها . ومما قاله لهولاكو : « إن كثيرين من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ماتوا دفاعاً عن الدين ، ومع ذلك لم تقع كارثة من الكوارث ، وإن كثيرين من الناس خرجوا على بنى العباس ولم يلحقهم أذى ، وضرب لذلك مثلا بطاهر بن الحسين الذى قتل الخليفة الأمين »[٢] .

ولما أيقن هولاكو أن فى استطاعة قواته الاستيلاء على بغداد ، أخذ فى تنفيذ خططه الحربية التى وضعها فى أثناء إقامته بهمذان ، وتنحصر فى حصار هذه المدينة بجيوشه من جميع النواحى ، فأنفذ حملة بقيادة أحد قواده ، « باجو » لمهاجمة بغداد من ناحية الغرب ، وسار هو على رأس فريق من الجيش لمحاصرتها من ناحية الشرق (٦٥٥ / ١٢٥٧) وبصحبته كثير من أمراء المسلمين من أمثال أبى بكر سعد زَنْكى أتابك Atabeck شيراز ، ونصير السعدى الكاتب والشاعر الفارسى المشهور ، وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل ، وسكرتيره الخاص عطا مَلك الجوينى صاحب التاريخ المشهور بتاريخ جهان جشا Jahân-Gushà ونصير الدين الطوسى الفلكى والحكيم المشهور [٣] .

ولم يكد هولاكو يبلغ مدينة « دينور » على بعد عشرين فرسخاً من همذان حتى لقيه شرف الدين بن الجوزى رسول الخليفة العباسى ومعه رسالة يهدده فيها ويعده بدفع جزية سنوية إذا عاد إلى بلاده . غير أن هولاكو لم يعبأ بما جاء فى كتاب الخليفة وقال لسفيره ساخراً :

---

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 224—225.

(٢) Ibid., Vol, III. p. 226.

(٣) براون ، ترجمة ج ٢ ص ٢٨٣ .

« لقد قطعنا طريقا طويلا ، فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة ؟ إننا بعد أن نتشرف بالمثول بين يديه وبعد أن نتحدث معه ، سنسمع أوامره ونعود مباشرة » . ثم تابع هولاكو المسير ، وأمر « باجو » بأن يسرع إلى عبور نهر دجلة ومهاجمة بغداد من ناحية الغرب . ولما تمكنت قوات باجو من عبور هذا النهر دارت الحرب بين الفريقين ، وحلت الهزيمة بالجيش العباسى فى العاشر من المحرم سنة ٦٥٦ هـ . واستولى باجو وجنده على الجانب الغربى من بغداد ونزلوا فى أحياء المدينة على شاطىء نهر دجلة وسيطروا على جميع أجزائها .

وكان من أثر انشغال الجيش العباسى بمقاومة المغول الذين هاجموا بغداد من ناحية الغرب أن خلا الجو لهولاكو ، فترك معسكره فى « خانقين » وتابع سيره إلى بغداد وعسكر من جهة بغداد الشرقية بجند لا يحصى عدده حتى وصفه بعض المؤرخين بأنه كالجراد المنتشر . وقال ابن كثير [١] إن هذا الجيش المغولى بلغ مائتى ألف مقاتل . وقد تدفق على بغداد الشرقية كثير من أهالى بغداد الغربية خشية أن ينكل بهم المغول بقيادة باجو . يقول ابن طباطبا [٢] .

« وسار الناس من دُجَيْل والإسحاقى ونهر ملك (بفتح الميم) ونهر عيسى ودخلوا المدينة بنسائهم وأولادهم ، حتى كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه فى الماء . وكان الملاح إذا عبر أحداً فى سفينة من جانب إلى جانب يأخذ أجرته سواراً من ذهب أو طرازاً من زركش أوعدة من الدنانير . فلما وصل العسكر السلطانى (أى جند هولاكو) إلى دُجَيْل وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس ، خرج إليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيش مجاهد الدين أيبك الدّويدار ، وكان عسكراً فى غاية القلة ، فالتقوا بالجانب الغربى من بغداد قريبا من البلد ، فكانت الغلبة فى أول الأمر لعسكر الخليفة ، ثم كانت الكرة للعسكر السلطانى فأبادوهم قتلا وأسراً ، وأعانهم على ذلك نهر فتحوه فى طول الليل . فكثرت الوحول فى طريق المنهزمين ، فلم ينج منهم إلا من رمى بنفسه فى الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه إلى الشام ، ونجا الدويدار فى جمعية من عسكره ووصل إلى بغداد ، وسار « باجو » حتى دخل البلد من جانبه الغربى ، ووقف بعساكره محاذى التاج ، وجاست عساكره خلال الديار ، وأقام محاذى التاج أياما . وأما حال العسكر السلطانى فإنه فى يوم

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٠ .

(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٩٦ — ٢٩٨ .

الخميس رابع المحرم من سنة ٦٥٦ هـ ثارت غبرة عظيمة شرقى بغداد على درب يعقوبا بحيث عمت البلد . فانزعج الناس من ذلك وصعدوا إلى أعالى السطوح والمناير يتشوفون ، فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان وخيوله وافيفه وكراعه ، وقد طبق وجه الأرض وأحاط ببغداد من جميع جهاتها . ثم شرعوا فى استعمال أسباب الحصار ، وشرع العسكر الخليفى فى المدافعة والمقاومة إلى اليوم التاسع عشر من شهر المحرم سنة ٦٥٦ هـ ، فلم يشعر الناس إلا ورايات المغول ظاهرة على سور بغداد من برج يسمى « برج العجمى » من ناحية باب من أبواب بغداد يقال له « باب كلواذى » (بفتح الكاف والذال وسكون اللام) . وكان هذا البرج أقصر أبراج السور ، وتقحم (اقتحم على الأصح) العسكر السلطانى هجوما ودخولا : فجرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة فما الظن بتفاصيله ؟ . »

وكان ما كان مما لست أذكره فظن ظناً ولا تسأل عن الخبر

هذا ما ذكره « صاحب الفخرى » بعد أربع وأربعين سنة من وقوع هذه الكارثة (أى قبل أن ينتهى من وضع كتابه سنة ١٣٠١/٧٠١) . ولم يكن الفخرى - كما يقول براون[١] - يكتب ما يشاء ويسجل ما يريد ، ولكنه كان يكتب ما يكتب وهو يعلم أنه يعيش تحت حكم مغولى أيام غازان خفيد هولاكو .

ولما رأى الخليفة المستعصم أنه لا مفر من دخول المغول مدينة بغداد عول على التسليم ، فأرسل رسوله شرف الدين بن الجوزى ثانية إلى هولاكو يحمل إليه كثيراً من الهدايا الثمينة معلناً رضاه بالتسليم ووقف القتال . ولم تمض على ذلك بضعة أيام حتى خدعه المغول بالوعود الكاذبة . وقد ذكر ابن كثير[٢] أن الوزير ابن العلقمى كان قد اجتمع بهولاكو مع أهله وأصحابه وحشمه ، ثم أشار على الخليفة بالخروج إلى هولاكو والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف الخراج لهولاكو والنصف الآخر للخليفة .

وفى يوم الأحد ٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م) خرج الخليفة لملاقاة هولاكو ، وكان بصحبته أولاده الثلاثة وهم : ولده الأكبر أبو العباس أحمد ، وولده الأوسط أبو الفضائل عبد الرحمن ، وولده الأصغر أبو المناقب مبارك ، وثلاثة آلاف

---

(١) تاريخ الأدب فى إيران . ترجمة الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ٥٨٧ .
(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

من القضاة والفقهاء والصوفية والأمراء وأعيان المدينة . ولما اقترب هذا الركب من دار هولاكو حجبوا عن الخليفة ولم يبق معه إلا سبعة عشر شخصاً منهم . ولما أحضر الخليفة بين يدى هولاكو كان الاضطراب يبدو عليه ، فقال له هولاكو : « أنت المضيف ونحن الضيوف فأحضر ما يليق بنا » . وقد بلغ من اضطراب الخليفة أنه لم يعد يعرف المكان الذى أودع فيه مفاتيح خزائنه ، فأمر بكسر عدة أقفال ، وأحضر لهولاكو ألفى ثوب وعشرة آلاف دينار وكثيراً من الجواهر والنفائس ؛ فلم يلتفت هولاكو إليها ومنحها كلها للأمراء ، ثم قال للخليفة : إن الأموال التى تملكها على وجه الأرض ظاهرة ، وهى ملك عبيدنا ، ولكن أذكر ما تملكه من الدفائن . وما هى ؟ وأين توجد ؟ فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب فى ساحة القصر . فحفروا الأرض ، فكان الحوض مليئاً بالذهب الأحمر ، وكان كله من سبائك تزن الواحدة مائة مثقال . وقد أحصى نساء القصر فكن سبعمائة بين زوجة وسرية وخادمة(١).

ثم طلب هولاكو من الخليفة أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بحجة عمل تعداد لهم . فأنفذ الخليفة رسولا من قبله ينادى الناس فى طرقات المدينة بأن يلقوا السلاح ويخرجوا من الأسوار . غير أنهم لم يكادوا يلبون طلبه ، حتى أمر هولاكو جنده فانقضوا عليهم وقتلوهم شر قتله . ولما استقر هولاكو بقصر المأمونية شرقى بغداد سمح لجنده بدخول المدينة فعاثوا فيها أسبوعاً كاملا ، وهدموا مساجدها ليحصلوا على ذهب قبابها ، وجردوا القصور مما بها من التحف النادرة ، وأتلفوا عدداً كثيراً من الكتب القيمة فى مكتباتها ، وأهلكوا كثيراً من رجال العلم فيها(٢).

وقد أعمل جند المغول السيف فى رقاب أهل بغداد أربعين يوماً سلبوا فيها أموالهم وأهلكوا كثيرين من رجال العلم ، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن ، وتعطلت المساجد والمدارس والربط ، وأصبحت المدينة قاعاً صفصفاً ليس بها إلا فئة قليلة مشردة الأذهان . وكان القتلى فى الطرقات كأنها التلال . ولما نودى بالأمان خرج من تحت الأرض من اختفوا فى المطامير والمقابر ومن لجأ إلى الآبار والحشائش كأنهم الموتى قد نبشت

---

(١) جامع التواريخ : المجلد الثانى ج ٢ ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

(٢) أنظر Brown, Lit. Hist. of Persia, Vol. II, p. 463, seq. ، الترجمة ص٥٨٦ .

قبورهم ، وقد أنكر بعضهم البعض ، فلم يعرف الأب ابنه ولا الأخ أخاه ، ثم انتشر الوباء فحصدهم بمنجله حصداً ذريعاً ، وفسد الهواء وعم الوباء[١] .

وقد انتهت هذه الحوادث المحزنة بقتل الخليفة المستعصم وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم .

وقد اختلف المؤرخون فى عدد الأنفس التى أزهقتها المغول على أثر دخولهم بغداد ، فذهب بعضهم إلى أنها بلغت ثمانمائة ألف ، وقدرها السبكى[٢] بتسعمائة ألف ، وذهب ابن كثير[٣] إلى أنها بلغت مليوناً وثمانمائة ألف ، عدا من غرق أو هرب . على أنه مما لا شك فيه أن هذه المدينة فقدت معظم سكانها فى هذه الكارثة وضاعت الثروة الأدبية والفنية التى عنى الخلفاء العباسيون بجمعها منذ بنى أبو جعفر المنصور بغداد واتخذها حاضرة لدولته .

وبسقوط بغداد زالت الدولة العباسية وزالت الخلافة التى عاش فى ظلها العالم الإسلامى زهاء خمسة قرون . ولم تعد بغداد مركز الإسلام ومعين الثروة والرخاء وكعبة العلماء ، ولم يحدثنا التاريخ أن حضارة زاهرة كالحضارة الإسلامية فى بغداد قد اختفت فى مثل هذه السرعة ، وأصبحت حاضرة العباسيين طعمة تلتهمها النيران المستعرة وتغرقها الدماء المهرقة .

وقد أمر هولاكو قبل رحيله بتجديد بناء مسجد الخليفة وضريح موسى الكاظم[٤] .

وقد أسهب فى وصف هذا التخريب عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩ /١٣٣٨) فى كتابه « مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع لياقوت الحموى (ت ٦٢٩/١٢٢٩) . وقد جمع عبد المؤمن هذا الكتاب حول سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) وزاد عليه وأخرجه فى أربعة أجزاء (لندن ١٨٥٣ م) ، فأشار فى الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ١٦٣) إلى التخريب الذى قامت به الجيوش الفارسية والتركية والمغولية التى كان يخرب كل منها ما بناه من سبقه من السلاطين .

وقد اختلفت أقوال المؤرخين فى الدور الذى قام به مؤيد الدين بن العلقمى وزير الخليفة المستعصم فى تسليم بغداد ، فبعضهم يرى أن هذا الوزير أثار مخاوف الخليفة من خطر المغول ونصح له بالاستعداد لحربهم وأخذ الحيطة لدرء خطرهم ، وكان هذا الوزير ،

---

(١) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة فى أعيان المائة السابعة ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ص ١١٥ .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٢ .

(٤) انظر Le Strang, Baghdad During the Abbasid Caliphate, p. 343.

كما وصفه صاحب الفخرى ، « من أعيان الناس وعقلاء الرجال » . إلا أن بعض خاصة الخليفة قللوا من شأن المغول وأدخلوا فى روع الخليفة أن وزيره يبالغ فى تصوير هذا الخطر ليفيد من الأموال التى تخصص لتجنيد الجند وتزويدهم بالسلاح . ويتهم الجوزجانى فى كتابه طبقات ناصرى هذا الوزير بأنه قلل من عدد الجند الذين أسندت إليهم مهمة حماية المدينة وزين للخليفة التسليم إرضاء لأطماعه وانتقاماً للاضطهادات التى تعرض لها الشيوعيون على يد ابن الخليفة الأكبر . ولذلك اتفق ابن العلقمى مع نصير الدين الطوسى الذى اتخذه هولاكو وزيراً له والذى كان يدين بعقائد المذهب الشيعى كابن العلقمى على تسليم بغداد للمغول ، بل لقد ذهب ابن كثير إلى القول بأن الوزير ابن العلقمى وبنى جلدته من الشيعيين قد أشاروا على هولاكو بألا يدخل فى صلح مع الخليفة بحجة أن مثل هذا الصلح لن يدوم ، بل إنهم حسنوا له قتل الخليفة . كما ذهب هذا المؤرخ[١] إلى القول بأن ذلك كان راجعاً إلى العداء المستحكم بين السنيين وبين الشيعيين الذين نهبت دورهم قبل فتح بغداد على أيدى المغول ، فاشتد حنق الوزير ابن العلقمى ، كما ذكر السيوطى[٢] ، فراسل التتار وأطمعهم بالمسير إلى العراق وفتح بغداد وإزالة الدولة العباسية وإقامة خلافة علوية على أنقاض الخلافة العباسية[٣] .

على أن هذه الآراء لا تتفق مع هذه الحقيقة التاريخية وهى أن فتح المغول بغداد كان جزءاً من مشروع سياسى يهدف إلى اتساع رقعة إمبراطورية المغول بعد أن تم لهم فتح إمبراطورية الصين الشمالية وأواسط آسيا وإيران وچورچيا والقوقاز والروسيا وبولندة وغيرها ، أضف إلى ذلك أن قتل المغول أهل بغداد قد شمل السنيين كما شمل الشيعيين الذين نهبت دورهم فى الكرخ وهى محلة الشيعة ببغداد . وإذا كان المغول قد قربوا إليهم ابن العلقمى فإنهم مع ذلك قد تخلصوا منه ، إذ أن حياته لم تمتد بعد مقتل الخليفة المستعصم أكثر من ثلاثة أشهر . ومما هو جدير بالملاحظة أن الجوزجانى يغلو فى سنيته أكثر مما يغلو ابن طباطبا فى تشيعه . هذا إلى ما عرف به الوزير ابن العلقمى من شغفه بالكتب وتقريب العلماء والأدباء ، حتى لقد اشتملت مكتبته على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب ، وأهداه كثير من الشعراء دواوينهم[٤] . وكان كما يقول ابن طباطبا[٥] « عفيفاً عن أموال الديوان وأموال الرعية متنزهاً مترفعاً » .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ وما يليها .

(٣) السبكى : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٠ .

(٤) براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ترجمة ج ٢ ص ٥٨٩ .

(٥) انظر كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

الباب الخامس

الدول الإسلامية المستقلة

غير التابعة لحكم العباسيين

أولا — الغوريون والغزنويون :

١ — ظهور الغوريين :

آذن نجم البيت الغزنوى بالأفول وشهد عصر سنجر زوال هذه الأسرة النهائى على أيدى ملوك الغور الجبليين وهم أفغانيو « فيروز كوه » الأشداء ، وكان ظهير الدولة إبراهيم (٤٥١ — ٤٩٢ / ١٠٥٩ — ١٠٩٩) جلس على عرش السلطنة حين بدأ الغوريون فى الظهور . وقد اتصف هذا السلطان بقوة الشكيمة : فقد حدث نقص شديد فى الخبز فى غزنه ، وأغلق الخبازون حوانيتهم وشعر الفقراء بالعسر والضيق واستغاثوا بالسلطان الذى بعث فى طلب الخبازين وسألهم عن سبب ندرة القمح ، فأجابوا بأن صاحب المخبز السلطانى احتكر الدقيق لرفع سعره ، فأمر السلطان بوضعه تحت حوافر الفيـــل حتى يموت ، وبعد موت صاحب المخبز أمر السلطان بأن يعلق جسمه بين أنياب الفيل ويطاف به فى طرقات المدينة . وصدر منشور يعلن للناس أن ذلك هو مصير كل خباز يغلق حانوته. وقد زاد نظام الملك (١) أنه لم يأت مساء ذلك اليوم حتى وضع عند باب كل حانوت من حوانيت بائعى الخبز خمسون مقطفاً (والمقطف يحتوى على مائة رطل من الخبز) ، وبلغ الخبز من الوفرة بحيث زهد الناس فى شراء أكثره .

مات السلطان ظهير الدين إبراهيم الغزنوى سنة ٤٩٢ هـ ، وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٢ — ٥٠٨/١٠٩٩ — ١١١٤) . ثم خلفه أبناؤه الثلاثة شيرزاد (ت ٥٠٩/١١١٥) وأرسلان (ت ٥١٢/ ١١١٨) وبهرام شاه الذى خنق أخاه وجلس على العرش من بعده (٥١٢/ ١١١٨) وحكم الدولة الغزنوية المتداعية حتى نهاية سنة ٥٤٧/ ١١٥٢ . وقد

---

(١) سياسة نامة (نشرة شيفير) ص ٤٢ نقلا عن Browne, II, p. 305.

انتهى حكم بهرام شاه بنكبة حلت به . ذلك أنه فى شهر ذى القعدة سنة ٥٢٩ هـ ارتاب سنجر فى ولائه وعدم إخلاصه فى الوفاء بوعوده ، كما نمى إليه أنه ظلم الناس واغتصب أموالهم . فسار سنجر إلى غزنة (١) . وقد أدركه الشتاء واشتد البرد به وبجنده وكثر هطول الأمطار وتعذر وصول القوت للجند والعلوفة للماشية . وما زال سنجر كذلك حتى قرب من غزنة وأرسل إليه بهرام شاه يستعطفه ويسأله الصفح عما بدر منه ، فأرسل إليه سنجر يعده بالعفو عنه إذا حضر عنده وعاد إلى طاعته : فأذعن بهرام شاه لأمر سنجر ، ولكنه لما قرب من معسكره تملكه الخوف وولى هاربا ولم يعرج على غزنة ، فسار سنجر إليها ودخلها وجبى أموالها ، وكتب إلى بهرام شاه يلومه ويحلف له أنه ما أراد شراً ولا ببلده مطمعاً ، وإنما قصده لإصلاحه ورده إلى طاعته ، « فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنقل ويقول إن الخوف منعه من الحضور ولا لوم على من خاف من السلطان وتضرع إلى السلطان أن يعفو عنه وأن يسبغ عليه عطفه ، فأجابه سنجر إلى إعادة بلده إليه ، وترك غزنة وقفل راجعاً إلى بلده : فوصل إلى بلخ فى شهر شوال سنة ٥٣٠ هـ ، وعاد بهرام شاه إلى غزنة (٢)

وبعد اثنتى عشرة سنة دبر بهرام شاه مؤامرة لقتل صهره قطب الدين محمد الغورى . وقد ثأر أخواه سيف الدين سورى وعلاء الدين حسين لمقتل أخيهما هذا فى سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) بطرد بهرام شاه من غزنة وهربه إلى الهند ، وتقلد سيف الدين سورى ولايتها نيابة عن أخيه علاء الدين . على أنه قد دبرت مؤامرة ضد سيف الدين فى الشتاء التالى . ولما امتلأت الطرق بالثلوج دعى بهرام شاه للعودة إلى بلاده ، فقبض على سيف الدين سورى على حين غفلة وشهر به فى المدينة وقد جلل وجهه بالسواد وهو ممتط بقرة ، ثم شنق أو صلب (٣) . وقد ذكر ابن الأثير (٤) أن علاء الدين حسين الغورى (٥٤٤ - ٥٥١ هـ)

---

(١) ذكر ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٠ — ١٩١) أن غزنة كانت قد دخلت فى حكم سنجر سنة ٥١٠ هـ : وكان بهرام شاه بن ألب أرسلان الغزنوى قد استنجد به وطلب منه الحضور إلى غزنة . وقد تغلب جيش سنجر على جيش أرسلان شاه وجلس بهرام شاه على سرير جده محمود الغزنوى صاحب الفتوحات الإسلامية فى الهند .

(٢) ابن الأثير : الكامل المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٦ — ٦٧ .

(١) الغـــــوريون ١١٤٨ - ١٢١٥ ٥٤٣ هـ - ٦١٢

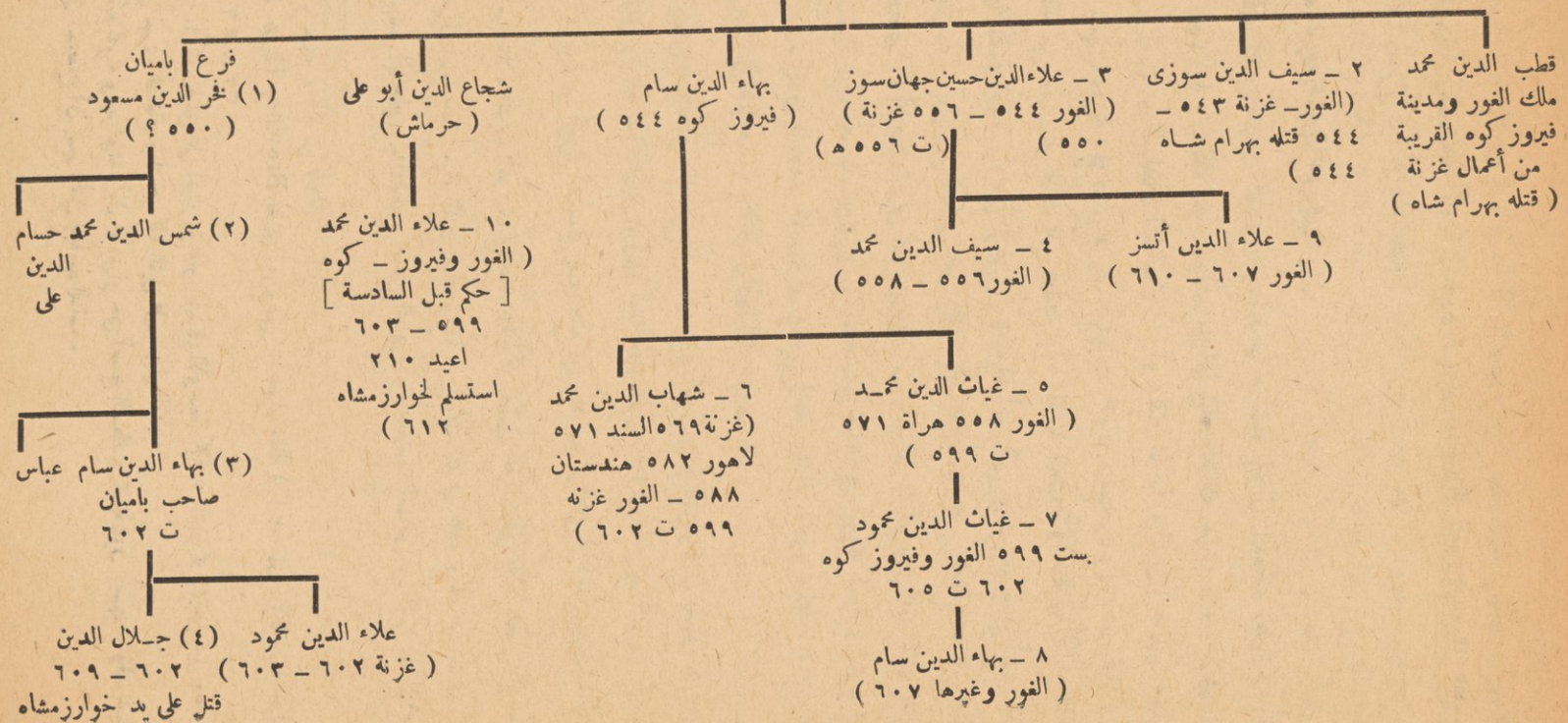

عاد إلى غزنة وخربها ، وتعد هذه السنة (٥٤٣ هـ) ابتداء الدولة الغورية حيث عظمت قوة الغور وعلا شأنهم وتركوا بلادهم الجبلية .

٢ — علاء الدين حسين الغورى .

وقد قابل علاء الدين حسين الغورى إساءة بهرام شاه بإنزال العقاب الصارم بأهل غزنة (٥٥٠ / ١١٥٥) ، وذلك بعد موت بهرام شاه بثلاث سنين واستخلاف ابنه خسروشاه . وإن لقب « السلطان المعظم » (١) أو ملك الدنيا والدين (جهان سوز) الذى تلقب به ، ونهب مدينة غزنة وتخريب عمارات محمود ومسعود وإبراهيم الغزنويين ليدل دلالة واضحة على مدى الويلات التى حلت بهذه المدينة العتيدة فى خلال الأيام الثلاثة التى تعرضت فيها لنقمة الغور . وعلى الرغم من هذه المآسى التى حلت بغزنة على أيدى الغور لم يصب الأدب بسوء ، بل على العكس من ذلك كان محل تقديرهم . فقد ذكر نظامى عروضى السمرقندى (٢) أن علاء الدين الغورى حين أمر بنهب غزنة وتخريب عماراتها « اشترى مدائح محمود ومسعود وإبراهيم (الغزنويين) بالذهب وخبأها فى خزانة كتبه » ، ولم يجرؤ أحد فى عسكر علاء الدين فى هذه المدينة أن يسمى أحد ملوك الغور سلطانا ، على حين كان الملك نفسه يقرأ فى الشاهنامة ماقاله مؤلفها الفردوسى .

« أول ما ينطق به الطفل الرضيع فى مهده « محمود » (الغزنوى) تتمثل فى جسمه صولة الفيل ، وفى روحه علم جبريل ، وفى كفه مطر الربيع ، وفى قلبه نهر النيل (٣) .

ملك العالم محمود ، ذو العزة القعساء الذى جمع بين الذئب والحمل (٤) على مورد الماء » .

ولما قوى أمر علاء الدين الغورى واتسع سلطانه نصّب العمال على بلاد الغور الواسعة . ومن هؤلاء العمال ابنا أخيه بهاء الدين سام وهما : غياث الدين محمد وشهاب الدين محمد . وقد استمالا إليهما الأهلين بالعدل وحسن السيرة ، فأحبهما الناس وانتشر ذكرهما فى

---

(١) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٧ .

(٢) Browne, II, p. 306 نظامى عروضى : جهار مقاله (ترجمه إلى الانجليزية براون) ترجمة عربية ص ٣٦ — ٣٧ .

(٣) كثيرا ما كان يطلق على أنهار وبحار الشرق الأوسط كلمة « النيل » تشبيها بنيل مصر . كما يطلق المغاربة على نهرى السنغال والنيجر كلمة النيل على سبيل التشبيه .

(٤) أى أنه لقوته وضراوته أذل الأشرار حتى أصبح الضعاف لا يخشون بأسهم ، وقد شبه هذا بقوله إن السلطان استطاع أن يسير الحمل بجانب الذئب .

الآفاق ، فأضمر لهما بعض أمراء الدولة الحسد وأوغروا عليهما صدر عمهما علاء الدين حسين ورموهما بتدبير قتله والاستيلاء على ملكه . ولما بعث علاء الدين فى طلب ابن أخيه امتنعا عن الحضور . إذ نمى إليهما الخبر بما دبره لهما عمال السوء ، فسير إليهما عمهما علاء الدين جيشاً حلت به الهزيمة . وأظهر غياث الدين وشهاب الدين العصيان لعمهما وقطعا الخطبة له على منابر البلاد . ولم يجد علاء الدين بداً من المسير إليهما بنفسه . ولكن الهزيمة حلت به وأسر . على أن ابنى أخيه أحسنا معاملته وأجلساه على العرش ووقفا فى خدمته واستدرا بذلك عطفه ، حتى إنه بادر إلى زواج غياث الدين من إحدى بناته واتخذه ولياً لعهده .

(٣) غياث الدين محمد — زوال الدولة الغزنوية

توفى علاء الدين حسين سنة ٥٥٦ هـ . وكان كما وصفه ابن الأثير[١] ، من أحسن الملوك سيرة فى رعيته ، ثم خلفه ابنه سيف الدين محمد (٥٥٦ — ٥٥٨ هـ) . وفى عهده نشط دعاة الاسماعيلية وكثر أتباعهم ، فطردهم هذا السلطان من بلاده . وقد تبادل المراسلات والهدايا مع الملوك والأمراء . . ولم يعمر سيف الدين محمد فى سلطنة الغور ، وذلك أنه سار من جبال الغور على رأس جيش لحرب الغز ببلخ . وقد اتفق أن خرج سيف الدين محمد من معسكره فى جماعة من خاصته ، وسمع بذلك أمراء الغز ، فألحوا فى طلبه وأوقعوا به ، فقاتلهم ، فقتل مع بعض خاصته ، وذلك فى شهر رجب سنة ٥٥٨ هـ . وأسر بعض آخر وهرب الباقون ، ولحق عسكره ببلادهم . وكان سيف الدين محمد فى العشرين من عمره[٢] .

ولما قتل سيف الدين محمد جلس غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام على العرش وخطب له على منابر الغور . ولما قوى أمره جمع جيشاً جراراً سار بقيادة أخيه شهاب الدين . فاستولى على غزنة من الغز ، وكانوا قد حكموها خمس عشرة سنة أذاقوا فيها الأهلين ألوان التعذيب وعاملوهم معاملة قوامها الظلم والجور . ثم سار شهاب الدين الذى عرف بحسن سيرته وعدله إلى كرمان وعبر نهر السند واستولى على بعض بلادها الجبلية ، ثم عاد الغز فملكوا غزنه من جديد[٣] .

---

(١) الكامل ج ١١ ص ١٠٩ .
(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١١٨ — ١٠٩ .
(٣) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٢٤ .

وفى سنة ٥٥٩ هـ ، سار شهاب الدين على رأس جيش كثيف من الخراسانيين والغور ، فعبر نهر السند وحاصر لاهور واستولى عليها من يد صاحبها الغزنوى خسروشاه (٥٥٥ — ٥٨٢/١١٦٠ — ١١٨٦) وأحسن معاملته ، ثم طلب أخوه غياث الدين محمد إرسال خسروشاه إليه ، فأمر به فقتل فى إحدى القلاع . وبذلك زالت الدولة الغزنوية على يد شهاب الدين الغورى سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) ، وتداعى سلطان الغزنونين فى الهند ، وانقسمت دولتهم إلى دويلات إسلامية مستقلة[١] . وكان سلاطين الغزنونين كما ذكر ابن الأثير[٢] « من أحسن الملوك سيرة ، ولا سيما جدهم محمود (الغزنوى) ، فإن آثاره فى الجهاد معروفة وأعماله الآخرة مشهورة » .

استقر سلطان غياث الدين الغورى وقوى أمره واتسعت رقعة مملكته وكثر عدد جنده ، وأصبح بحيث يستطيع أن يعلن نفسه سلطاناً على البلاد . لذلك نراه يبعث إلى أخيه شهاب الدين يأمره بإقامة الخطبة له بالسلطنة على منابر الهند حيث استقر سلطان الغور فى لاهور ، وبعد أن كان لقب غياث الدين محمد « شمس الدين » ، أصبح الآن يلقب بألقاب « غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين » ، كما تلقب أخوه شهاب الدين بلقب عز الدين[٣] .

وفى سنة ٥٩٧ هـ عول غياث الدين على استرداد خراسان من خوارزم شاه محمد ، فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يطلب إليه المسير إلى هذه البلاد وفتح حاضرتها مرو . ثم استولى على سرخس وطوس وهراة ، ثم لحق به أخوه شهاب الدين وساعده على فتح نيسابور وحاصر بعض قلاع الإسماعيلية وطهر البلاد منهم ونشر الإسلام فى ربوعها . ثم قامت الجفوة بين غياث الدين وأخيه شهاب الدين . وقد عزا ابن الأثير[٣] ذلك إلى أن صاحب قهستان شكا إلى غياث الدين أخاه وقال إنه حاصر بلده وخرج على العهد الذى أبرم بينهما . وبينما كان شهاب الدين مشغولا بحصار حصن الإسماعيليه أتاه رسول

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٢٤ .
(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٩ . حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ١٠٢ .
(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٦٩ .
(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٦٨ — ٦٩ .
(٥) الكامل ج ١٢ ص ٧٠ .

أخيه يطلب إليه الرحيل من قهستان ، فأبى ، فانفذ الرسول أمر أخيه ، فسل سيفه وقطع أطباب سرادق (حبال) شهاب الدين ، فرحل مع عسكره غاضباً وأبى المقام بغزنة ورحل إلى بلاد الهند[١]. وقد ذكر ابن الأثير[٢] فى حوادث سنة ٥٩٥ هـ أن خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش استرد ما أخذه الغور من خراسان .

وفاة غياث الدين محمد — صفاته

توفى غياث الدين الغورى سنة ٥٩٩ هـ . وقد اتسع ملكه . وكان كما وصفه ابن الأثير[٣] ، مظفراً منصوراً فى حروبه ، لم تنهزم له راية قط . وكان جواداً حسن الاعتقاد كثير الصدقات ، وقد شيد الخانقاهات فى الطرق ، وأسقط المكوس ، ولم يتعرض إلى مال أحد من الناس . ومن مات ببلده أودع ماله ليوزعه القضاة على مستحقيه طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية . وإذا وصل إلى بلد من البلاد عم إحسانه الفقهاء وأهل الورع والدين وخلع عليهم وفرض لهم العطايا فى كل سنة من خزانته ، كما وزع الأموال على الفقراء . وكان يشمل بعطفه ورعايته كل من وصل إلى حضرته من العلويين والشعراء وغيرهم . وقد أولع بالأدب والبلاغة وعرف بحسن الخط حتى كان ينسخ المصاحف بخطه ويقفها على المدارس التى بناها . وعلى الرغم من ميل غياث الدين محمد إلى عقائد المذهب الشافعى وبنائه المساجد لأصحاب هذا المذهب ، لم يؤثر أصحاب مذهب على مذهب ، بل كان يسوى بينهم وبين غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى ، كما أثر عنه أنه تحول إلى هذا المذهب على يد محمد بن محمود المرورزى ، وكان من فقهاء الشافعية . وكان غياث الدين يقول : التعصب فى المذاهب من الملك قبيح[٤] .

شهاب الدين محمد — حروبه مع الخوارزميين والخطا

ولما مات غياث الدين (٥٩٩ — ٦٠٢ هـ) حال أخوه شهاب الدين دون تولية ابنه محمود ، وجلس على العرش ، ولكنه ولى محموداً بست . وكان لغياث الدين مغنية كلف بها

---

(١) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ٦٩ — ٧٠ .
(٢) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ٧٢ .
(٣) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ٧٥ .
(٤) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ٧٥ — ٧٦ .

فتزوجها . فلما مات لم ينس شهاب الدين ما لحق به من إساءة أخيه حين حاصر إحدى قرى قهستان وطهر الإسماعيلية منها ، فقبض على زوجة أخيه وضربها هى وابنها ضرباً مبرحاً واستولى على ما كان لها ولأهلها من مال وممتلكات وسيرهم إلى بلاد الهند فى أقبح صورة ونبش قبور موتاهم .

وفى شهر رجب سنة ٦٠٠ هـ استرد خوارزم شاه محمد مدينة هراة من ابن أخت شهاب الدين الغورى . وفى هذه السنة ترك شهاب الدين الغورى غزنة حاضرة ملكه قاصداً لاهور لغزو بلاد الهند . ولما علم خوارزم شاه محمد بذلك حاصر مدينة هراة ؛ فلم ير شهاب الدين بدأ من العودة إلى خراسان . ثم أغذ السير حتى بلغ ظاهر مدينة مرو حاضرة خراسان ، ودار القتال بين جند شهاب الدين وجند خوارزم شاه الذى استنجد بالخطا من أتراك بلاد ماوراء النهر ، فساروا إلى بلاد الغور . ولما علم شهاب الدين الغورى بذلك عدل عن الاستمرار فى القتال مع خوارزم شاه محمد وعاد إلى بلاده والتقى بمقدمة جيش الخطا (صفر سنة ٦٠١ هـ) وأحل بهم الهزيمة . ثم دهمه جيش كثيف من الخطا أحل الهزيمة بشهاب الدين وأسره وكثرت الأراجيف بقتله . ثم صالحه الخطا وأطلقوا سراحه بعد أن قتل أكثر جنده ونهب جميع خزائنه ، ثم سار شهاب الدين إلى غزنة ولحق به أحد مماليكه إلى الهند ودخل المولتان وقتل نائبه فيها ، واستولى على البلاد وأساء السيرة فى الرعية وظلمهم وأخذ أموالهم وأدعى السلطنة لنفسه . ولما نمى خبره إلى شهاب الدين سار إلى الهند وقبض عليه وقتله (جمادى الآخرة سنة ٦٠١ هـ)[1] .

ولم ينس شهاب الدين هزيمته على أيدى الخطا الأتراك وعول على أخذ الثأر منهم وغزو بلادهم . وقد ذكر المؤرخون أنه سار على رأس جيش يتألف من عشرين ألف مقاتل قاصداً الخطا . ولما وصل إلى بلادهم فرق عسكره فى مفازة قليلة الماء ، وكان الخطا قد نزلوا بطرفها ، وكلما خرجت طائفة من الغور فاجأهم الخطا وفتكوا بهم قتلا وأسراً ، ومن سلم منهم فقل هارباً إلى بلاده . وقد وصل شهاب الدين وقد أعياه التعب والارهاق هو وجنده دون أن يعلم بما حل بجنده الذين تعرضوا للهلاك ، فقاتل الغور الذين بلغ عددهم أضعاف عدد جنده وحصروه فى « أندخوه » وكادت الهزيمة تحل بجيشه . وهنا فكر شهاب الدين فى خدعة حربية تكللت بالنجاح . فقد أمر طائفة من جنده بأن تسير ليلا وتعود إليه فى الصباح ، وظل الخطا أن المدد قد أتى من بلاد الغور وأخذ الخوف يدب

---

(١) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ٧٧ — ٧٨ .

إلى قلوبهم . وكان صاحب سمرقند يدين بالطاعة للخطا ، وقد خشى أن يظفروا بالمسلمين . لذلك نراه يثير مخاوف الخطا من تدفق الأمداد على شهاب الدين ، وأشار عليهم بأن يجنحوا للسلم ويطلبوا الصلح ، فوافقوا على رأيه ، وأرسل صاحب سمرقند إلى شهاب الدين سراً يشير عليه بأن يتظاهر بالامتناع عن إجابة الغور إلى الصلح أولا ثم يجيبهم إليه قبل فوات الفرصة . فلما أتت رسل الخطا تظاهر شهاب الدين بقوته وأبى قبول الصلح ، ثم عاد فأجابهم إليه ، وأبرم الصلح بين الفريقين على ألا يغير أحدهما على الآخر . وبذلك عاد شهاب الدين محمد بن سام الغورى إلى بلاده وتخلص من هزيمة محققة على أيدى الخطا (١) .

ولما ذاع نبأ مقتل شهاب الدين محمد على أيدى الخطا وأن أصحابه لم يقفوا له على أثر ، تنافس أمراء دولته على الحكم وقامت الثورات فى أطراف بلاده . ومن هؤلاء الثائرين « دانيال » صاحب جبل الجودى (٢) ، وكان قد أسلم . فلما بلغه مقتل شهاب الدين إرتد عن الإسلام . كما ثار « بنو كوكر » وأدخلوا صاحب جبل الجودى فى طاعتهم وقطعوا الطريق بين لاهور وغزنة .

وقد أرسل شهاب الدين مملوكه قطب الدين أيبك قائده فى الهند والمولتان يأمره بأن يدعو بنى كوكر إلى الطاعة ويتهددهم بالحرب إذا لم يجنحوا للسلم . فلم يثق زعيمهم بقوله وهدد بتخريب البلاد وكثرت جموعه وقويت شوكته وجبى الأموال باسمه . ولما نمى ذلك إلى شهاب الدين أمر مملوكه قطب الدين بالعودة إلى بلاده وقتال بنى كوكر ، فعاد إلى دهلى واستعد للحرب . وأقام شهاب الدين فى « فرشابور » مهد الغور إلى منتصف شهر شعبان سنة ٦٠١ هـ ، ثم عاد إلى غزنة واستعد لحرب الخطا . وفى شهر ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ سار على رأس جيش كبير ، وانقطعت أخباره من غزنة وفرشابور وانتشرت

---

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٧٨ .

(٢) لعل هذا الجبل هو المذكور فى القرآن فى سورة هود (١١ : ٤٤) التى تنص على أن سفينة نوح عليه السلام قد رست على جبل الجودى حين أمر الله سبحانه وتعالى الماء بأن يكف قائلا (وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) وكان دانيال وأصحابه يقطنون البلاد الجبلية المنيعة بين لاهور والمولتان .

الأراجيف بهزيمته ، ولكنه كان قد أغز السير إلى بنى كوكر ، فدهمهم ونشب بينهما القتال وأقبل قائده قطب الدين فى عسكره ونادوا بشعار الإسلام وأحلوا الهزيمة ببنى كوكر وطاردوهم فى كل مكان حتى بلغوا أكمة احتمى بها الكوكرية ، فأضرم جند شهاب الدين النار فيها وغنم المسلمون « مالم يسمع بمثله حتى إن المماليك كانوا يباعون كل خمسة بدينار . وهرب زعيم الكوكرية بعد أن قتل إخوته وأهله » . أما ابن دانيال فقد استجار بقطب الدين أيبك ، فأجاره وشفع فيه إلى شهاب الدين فأجابه إلى طلبه واستولى على قلعته وعاد إلى لاهور ، وأخذ يستعد لحرب الخطا ، ثم عاد إلى غزنة ، وأرسل إلى بهاء الدين سام صاحب « باميان » يأمره بالاستعداد للمسير إلى سمرقند (١) .

كذلك خرج على شهاب الدين الغورى « النبراهيـة » ، وكانوا يسكنون البلاد الجبلية المحيطة بولاية « فرشابور » . وكانوا على الوثنية ، إذا ولد لهم بنت وقف أبوها على باب داره ونادى : من يتزوج هذه ؟ من يقبلها ؟ فإن أجابه أحد تركها وإلا قتلها . وكان للمرأة عدة أزواج . وطالما أغاروا على حدود بلاد الغور وأوقعوا بالمسلمين . وإذا وقع فى أيديهم أسير من المسلمين أمعنوا فى تعذيبه .

وقد قيل إنهم أسروا رجلا من فرشابور فأمعنوا فى تعذيبه أياما . وقد سأل زعيم النبراهية هذا الأسير عن حالة البلاد الإسلامية وقال له : لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطينى ؟ فقال له : « يعطيك الأموال والإقطاع ويرد إليك حكم هذه البلاد التى لكم » . فأعاد هذا الزعيم الأسير إلى شهاب الدين يعرض عليه قبوله الإسلام ، فعاد ومعه رسول « بالخلع والمنشور بالإقطاع » . وسار هذا الزعيم مع جماعة من أهله إلى شهاب الدين فأسلموا على يديه ، ثم عادوا إلى بلادهم واستراح الناس من شرهم (٢) .

وفاة شهاب الدين محمد — صفاته :

امتد ملك شهاب الدين محمد الغورى على غزنة وبعض بلاد خراسان ، وقتل وهو يصلى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٨٦ — ٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٨٧ — ٨٨ .

العشاء على أيدى بعض الكوكرية من الهنود أخذاً بالثأر لما ألحقه بأهلهم من قتل وتشريد وكان شهاب الدين قد عاد من لاهور يحمل مالا يحصى من الأموال التى اشتملت على ألف ومائتى حمل . وكان شهاب الدين قد أمر جنده فى الهنـــد باللحاق به كما أمر جنده بخراسان بالاستعداد والتأهب حتى يصل إليهم ليغزو بلاد الخطا الجبلية .

ولما قتل شهاب الدين اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الدين وطلبوا منه الاحتفاظ بالأموال والملك إلى أن يتفقوا على من يخلفه فى الحكم من البيت الغورى ، ثم أخفوا جراحه وأظهروه بمظهر الحى ووضعوه على المحفة . وسار الوزير والأمراء والمماليك أمامه حتى وصلوا إلى غزنة حيث دفن شهاب الدين فى ٢٨ من شعبان سنة ٦٠٢ هـ .

وكان شهاب الدين كثير الغزو فى بلاد الهند . وكان حسن السيرة ، عادلا يحكم بين الناس بما يوجبه الشرع ، فيحضر القاضى إلى قصره فى أيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء فإذا أصدر القاضى أحكامه أخذ كبار رجال الدولة فى تنفيذها لا فرق بين صغير وكبير وشريف ووضيع . وكان شهاب الدين يدين بعقائد المذهب الشافعى (وقيل بعقائد المذهب الحنفى) ، ولكنه كان لا يفرق بين مذهب ومذهب ، وكان العلماء يجتمعون بحضرته فيتناولون المسائل الفقهية وغيرها . ومن هؤلاء الفقهاء فخر الدين الرازى الذى كان يقوم بالوعظ فى قصر الأمير ، وقد أثر عنه أنه وعظ يوما فختم وعظه بقوله مخاطباً شهاب الدين ياسلطان ! لا سلطان يبقى . . . وإن مردنا إلى الله ، فبكى شهاب الدين وأكثر من البكاء .

وكان شهاب الدين رقيق القلب لين الطبع ، لقيه صبى علوى وهو راكب فدعا له وقال إنه ما أكل شيئاً منذ خمسة أيام ، فعاد شهاب الدين لساعته ومعه الصبى وأمر فقدم له أشهى الطعام أمامه ، ثم بعث فى طلب أبيه وسلمه إليه . ووزع كثيراً من المال على العلويين (١) .

غياث الدين محمود :

لم ينجب شهاب الدين محمد ولداً ذكراً يخلفه فى الحكم ، ومال وزيره مؤيد الملك ومعه الأتراك إلى تولية غياث الدين محمود (ابن أخيـــه غياث الدين محمد) صاحب بست وأسفزاين ، ومال العلويين إلى تولية بهاء الدين سام صاحب باميان وابن أخت

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٨٩ — ٩٠ .

شهاب الدين[1] ، وسار بعض أمراء الغور إلى بهاء الدين سام ونقلوا إليه نبأ مقتل خاله وحثوه على المسير إلى غزنه ليجلس على عرش السلطنة . فكتب بهاء الدين إلى أمراء الغور بغزنة يعلمهم بمسيره إليهم ، كما كتب إلى أحد الأمراء وهو علاء الدين محمد (بن شجاع الدين أبي على) صاحب « فيروزكوه » يستدعيه إليه ويعده الجميل ، وإلى غياث الدين محمود ابن غياث الدين محمد ، وإلى ابن خزميل وإلى هراة يأمرهما بإقامة الخطبة له ، ولم يكن يظن أن أحداً منهما يخالفه .

سار بهاء الدين سام إلى غزنة فى عسكره ومعه ابناه علاء الدين محمود وجلال الدين ، ولم يكد يسير مرحلتين حتى شعر بصداع أخذ يتزايد وأيقن بالموت ، فعهد إلى ابنه علاء الدين بالملك من بعده وأمره بأن يسير مع أخيه إلى غزنة وأن يرفقا بالرعية ويبذلا الأموال لكسب محبة الناس ، وأن يصالحا غياث الدين محمود على أن تكون له خراسان وبلاد الغور ، وأن يحتفظا بغزنة والهند . ثم توفى بهاء الدين سام وبلغ ابناه علاء الدين وجلال الدين غزنة ونزلا بدار السلطنة فى مستهل شهر رمضان سنة ٦٠٢ هـ ، وتلقاهما أمراء الغور وأهل البلاد ، كما تلقاهما الأتراك على كره منهم .

أما غياث الدين محمود فقد كان مشغولا بحرب علاء الدين محمد بن شجاع الدين أبي على صاحب « فيروزكوه » . وكان غياث الدين يشعر بقوة منافسه بهاء الدين . لهذا رأى التريث حتى تنكشف الأمور ، فلما انتشر خبر وفاة بهاء الدين بايع الأمراء غياث الدين وجلس على العرش ، وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين محمد ، وأقيمت الخطبة له بسلطنة الغور (١٠ رمضان سنة ٦٠٢) . وقد أمر غياث الدين محمود الأمير تاج الدين الدز (بضم الدال مع التشديد مع تشديد الزاى) بأن يخرج ابنى بهاء الدين سام محمد وأخوه ونصبا ابن أختهما « سام » عليها ولقباه بهاء الدين . وقد عظم شأن سام وأخذ يجمع منها ، وقد لبى الدز طلب غياث الدين ، وكان فى الواقع يريد أن يتخذ من ذلك وسيلة

---

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٢ ص ٩٠) أن غياث الدين محمد أخا شهاب الدين محمد لما أدخل فى حوزته باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود . وزوجه أخته ، فولدت له ولداً سماه سام . فلما مات شمس الدين خلفه ابنه الأكبر عباس ، وكان من أم تركية . فغضب غياث الدين على محمد وأخوه ونصبا ابن أختهما « سام » عليها ولقباه بهاء الدين . وقد عظم شأن سام وأخذ يجمع الاموال . وتطلع إلى الجلوس على عرش الغور . وذكر ابن الأثير (المصدر نفسه ج ١٢ ص ٩٣) أن غياث الدين محمود (بن غياث الدين محمد) وبهاء الدين سام كانا قد تعاهدا فى عهد شهاب الدين محمد أن تكون خراسان لغياث الدين وغزنة والهند لبهاء الدين .

لامتلاك غزنة ، وأرغم علاء الدين محمود على الخروج من غزنة ، ونهب الأتراك ما كان معه وألقوه عن فرسه وأخذوا ثيابه ولم يتركوا له غير سراويله ، ولما علم الدز بذلك اعتذر إلى علاء الدين وبعث إليه بدواب وثياب ومال ، فأخذ ما لبسه منها وترك الباقى . فلما وصل إلى « باميان » ركب حماراً ولبس السواد وقال : أريد أن يرى الناس ما صنع بى أهل غزنة حتى إذا ماعدت إليها وخربتها ونهبتها فإنه لا يلومنى أحد . ثم دخل دار الإمارة وأخذ يجمع الجند . أما الدز فقد عمل على استخلاص الملك لنفسه ، فعرض الوزارة على مؤيد الملك وزير شهاب الدين محمد ، فأجابه على كره منه ، كما طلب الدز من غياث الدين محمود أن يخاطبه بالملك ويعتقه من الرق ويزوج ابنه من ابنته (أى من ابنة الدز) فلم يجبه غياث الدين إلى طلبه لوجود الفارق الاجتماعى فى الكفاية الزوجية[١] .

وأما علاء الدين محمد بن شجاع الدين أبى على ، فقد ولاه السلطان شهاب الدين بلاد الغور وما يليها . ولما بلغه قتل شهاب الدين سار إلى « فيروزكوه » خوفاً من أن يسبقه إليها غياث الدين محمود فيملكها ويستولى على خزائنها ، كما حاول « الدز » استمالة كبار الأمراء إليه ودعاهم إلى مساعدته على حرب خوارزم شاه علاء الدين محمد وبهاء الدين صاحب باميان ، ولم يهتم بشأن غياث الدين محمود استخفافاً به واستهتاراً لشأنه ، فبايعوه وبايعوا ابنه من بعده . ولما بلغ غياث الدين محمود خبر موت بهاء الدين سام كما تقدم أمر بإقامة الخطبة له بالسلطنة[٢] .

وقد استتب الأمر لغياث الدين محمود فدخل فى طاعته « ابن خرميل » والى هراة ، وكان قد عزم على الدخول فى طاعة خوارزم شاه . ثم عاد والى هراة فخلع طاعة غياث الدين محمود وانضم إلى خوارزم شاه حين علم بأن علاء الدين محمود وأخاه جلال الدين قد سارا نحو غزنة لاستردادها من يد الدز (٦٠٣ هـ) . وانتهز خوارزم شاه هذه الفرصة فاسترد بلخ وكانت تابعة لغياث الدين . أما الدز الذى خان عهد مولاه غياث الدين واستولى على غزنة وطرد علاء الدين وأخاه جلال الدين صاحبى باميان منها ، فقد دهمته جيوش علاء الدين الغورى ، فخرج لقتالها فطارداه إلى كرمان ، فاستولى عليها ، ثم عاد إلى غزنة واستردها من جديد ، واختلف مع أخيه جلال الدين فى اقتسام

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٢ ص ٩٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٩٣ — ٩٤ .

الغنائم ، وظهر بخلهما فكرهما أهل غزنة ومالا إلى حكم غياث الدين محمود لكرمه وإحسانه . ثم افترق الأخوان ، فأقام علاء الدين بغزنة ، وذهب جلال الدين إلى باميان ، مما أطمع « الدز » فى السير إلى غزنة وإعادتها إلى حوزته من جديد ، ولما تحقق أمله فى الاستيلاء على غزنة طمع فى استرداد كرمان التى استولى عليها وأحسن إلى أهلها .

ولم تقف المتاعب التى أثارها الدز فى وجه الغور عند هذا الحد ، فقد قتل علاء الدين محمود صاحب باميان ، ثم يمم شطر باميان فأسر أخاه جلال الدين وعاد به إلى غزنة ، وفى سنة ٦٠٣ هـ عاد عباس (عم علاء الدين وجلال الدين) إلى ملك باميان [١].

ولنعد إلى الكلام على علاقة غياث الدين محمود بالدز ، فقد طلب من الدز أن يقيم الخطبة له ، ولكنه استمر فى تمرده حيث أمر الخطيب بأن يخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب لدين وتلقبه بتاج الدين الدز ، الأمر الذى أثار حنق أهل غزنة ، إذ كانوا يعاونونه ظناً منهم أنه يحتفظ بولائه لغياث الدين محمود ويعترف بسلطنته . فلما أرسل غياث الدين محمود يعاتب الدز على تمرده أصر هذا على طلب عتقه ، فلم يجد غياث الدين بداً من إجابته إلى طلبه وبعث إليه بالهدايا والخلع ، وبذلك صفا الجو بين الدز وغياث الدين محمود ولكن هذا الصفاء لم يدم طويلا ، إذ طلب « ابن خرميل » صاحب هراة الدخول فى طاعة غياث الدين وأبدى استعداده لإخراج « الدز » من غزنة بالقوة ، فإذا تم له ذلك قسم مال غزنة ثلاثة أقسام : قسم للسلطان غياث الدين محمود ، وقسم لخوارزم شاه ، وقسم للعسكر ، وكان خوارزم قد أرسل إلى غياث الدين يعرب عن رغبته فى مصاهرته . وقد وافق غياث الدين على طلب خربل ، ولما اتصل هذا النبأ بمسامع الدز عاد إلى تمرده وقطعه الخطبة لغياث الدين [٢] ، واستولى على بست وغيرها ، كما أمر صاحب سجستان بقطع الخطبة لخوارزم شاه علاء الدين محمد ، وهدد ابن خرميل بالإغارة على بلاده ، وأطلق علاء الدين صاحب باميان من أسره وسير معه خمسة آلاف فارس لإعادته إلى ملكه وزوجه ابنته . ثم استولى قائد خوارزم شاه على مدينة هراة من ابن خرميل وقتله (٦٠٥ هـ) [٣] ، ثم أمد خوارزمشاه علاء الدين محمد خاله « أمير ملك » بالمسير إلى فيروزكوه قصبة بلاد الغور ، فاستولى عليها وقتل غياث الدين الغورى (٦٠٥ هـ) .

---

(١) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ١٠٢

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٣) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ١١٠ — ١١٢ .

ولم يلبث علاء الدين محمد أن استولى على كافة أرجاء خراسان وملك باميان ، وأصبح بحيث يستطيع الاستيلاء على غزنة وقتل من بها من الجند الغوريين ولا سيما الأتراك . وهرب الدز (وكان غائباً عن باميان) إلى لاهور ، فلحقت به جيوش أتباع شهاب الدين محمود وأحلت به الهزيمة وقتلته . وبذلك زالت الدولة الغورية على أيدى الخوارزميين بعد أن أنهكت قواها فيما شنته من حروب على الخطا والخوارزميين وعلى بلاد ما وراء النهر والهند وخراسان وغيرها .

ثانياً — الدولة الفاطمية

١ — المستنصر والمستعلى .

ذكرنا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب أن الخليفة الظاهر الفاطمى (٤١١ — ٤٢٧ هـ) لم تدم خلافته طويلا وأن ابنه المستنصر بويع فى شهر شعبان سنة ٤٢٧ هـ ، وهو فى السابعة من عمره ، وظل فى الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر . غير أن مصر لم تتمتع فى هذه المدة بالرخاء والطمأنينة سوى فترة قصيرة ، ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية كان من أثرها أن تزعزع مركز الخلافة الفاطمية وتطرق إليها الضعف والوهن .

وفى الشطر الأول من عهد المستنصر امتد سلطان الفاطميين على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالى أفريقيا . وكان اسمه يذاع فى الخطبة على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ، وفى صقلية واليمن والحجاز والموصل ، بل وفى بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحوا من سنة . ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث أن خرج عن سلطان الفاطميين ، كما رفض أهل شمالى إفريقيا عقائد المذهب الفاطمى نهائياً (٤٧٥ هـ) وزال سلطانهم من بلاد المغرب الأقصى الذى استولى عليه الفاطميون وانتزعوه من الأدارسة سنة ٣٤٧ هـ ، وأبطلت الخطبة للفاطميين فى اليمن على يد نواب صلاح الدين الأيوبى فى هذه البلاد .

جدول الخلفاء الفاطميين

		هجرية	ميلادية
١	المهدى أبو محمد عبيد الله	٢٩٧	٩٠٩
٢	القائم أبو القاسم محمد	٣٢٢	٩٣٤
٣	المنصور أبو طاهر إسماعيل	٣٣٤	٩٤٥
٤	المعز أبو تميم معـــد	٣٤١	٩٥٢
٥	العزيز أبو منصور نزار	٣٦٥	٩٧٥
٦	الحاكم أبو على المنصور	٣٨٦	٩٩٦
٧	الظاهر أبو الحسن على	٤١١	١٠٢٠
٨	المستنصر أبو تميم معد	٤٢٧	١٠٣٥
٩	المستعلى أبو القاسم أحمد	٤٨٧	١٠٩٤
١٠	الآمر أبو على المنصـور	٤٩٥	١١٠١
١١	الحافظ أبو الميمون عبد المجيد	٥٢٤	١١٣٠
١٢	الظافر أبو المنصور إسماعيـل	٥٤٤	١١٤٩
١٣	الفائز أبو القـاسم عيسى	٥٤٩	١١٥٤
١٤	العاضد أبو محمد عبد الله	٥٥٥	١١٦٠
		٥٦٧	١١٧١

واستولى روجر النرمندى على صقلية التى كانت تابعة للفاطميين منذ أواخر القرن الثالث الهجرى وخلع أمير مكة والمدينة طاعتهم سنة ٤٦٢ هـ .

وعلى الرغم من النزاع الذى قام فى أوائل عهد المستنصر بين التسترى والفلاحى ، وتدخل أم الخليفة فى إدارة شئون الدولة ، تمتعت مصر بشىء من الطمأنينة والرخاء . فقد أمدنا ناصر خسرو عند زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ بوصف ضاف لثروة البلاط الفاطمى وأبهته ، وما كانت تتمتع به القاهرة فى ذلك الوقت من يسر ورخاء (١) .

(١) Nasiri Khusraw : Safar Namah Ced. Charles Schefer, Paris, (1881) p. 127 et seq.

تسلسل نسب الخلفاء الفاطميين

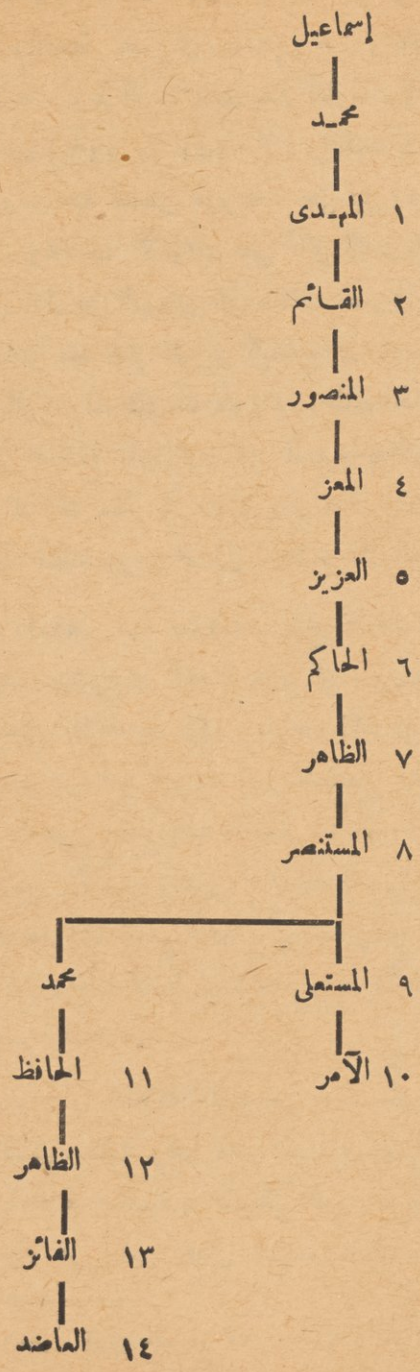

غير أن هذا الرخاء الذى كانت تتمتع به مصر فى ذلك الحين لم يدم طويلا ، فقد حلت بالقاهرة الأيام السيئة ، وعاودتها المصائب التى لم تشعر بها قبل قرن من تأسيسها . فقد عم الوباء والقحط مصر فى سنة ٤٤٦ هـ ، وانقطع ماء النيل ، فأهملت الزراعة ، وانتشرت المجاعة ، وعم الوباء الذى يعتبر أطول وباء عرفته مصر فى العصور الوسطى ، وامتد ثمانى سنين (٤٤٦ — ٤٥٤ هـ) ، ونكبت به جميع الأمم الإسلامية من مصر إلى سمرقند ، ودونت عنه قصص مروعة ، حتى قيل إنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس . وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والقطط ، ثم أكل بعضهم بعضاً . وليس أدل على الفوضى التى سادت مصر فى ذلك العهد من تقلد أربعين وزيراً فى تسع سنوات بعد قتل الوزير اليازورى فى سنة ٤٥٠ هـ . ثم عاد القحط والغلاء وما أعقبه من الوباء والموت فى سنة ٤٥٩ هـ ، وظلت الحال كذلك حتى سنة ٤٦٤ هـ . واقترنت هذه الشدة التى اصطلح المؤرخون على تسميتها « الشدة العظمى » بقيام الفتن والحروب الأهلية ، حتى تدارك مصر بدر الجمالى والى عكاء ، الذى استدعاه الخليفة المستنصر فى سنة ٤٦٦ هـ . فأعاد النظام ووجه همه إلى إصلاح حال البلاد وقضى على المفسدين (١) .

ولما مات المستنصر سنة ٤٨٧ هـ ، بويع ابنه المستعلى دون أخيه الأكبر نزار الذى ولاه أبوه عهده ، وشرع فى أخذ البيعة له أثناء مرضه ، غير أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى أخذ يماطل الخليفة حتى توفى . ويرجع ذلك على ما ترويه بعض المراجع العربية إلى أن الأفضل دخل مرة أحد أبواب قصر المستنصر راكباً بغلة ، فلما رآه نزار ، قال له : إنزل يا أرمنى يانجس . فحقد عليه الأفضل ، وانتهز فرصة وفاة المستنصر وحال بينه وبين الخلافة ؛ فاجتمع بالأمراء وكبار رجال الدولة ، وأثار مخاوفهم من نزار ، وأشار عليهم بتولية أخيه الصغير أبى القاسم أحمد ، ثم بايعه ولقبه المستعلى بالله ، وأخذ قاضى القضاة البيعة له من كبار رجال الدولة وأعيانها ، ودعا الأفضل إسماعيل وعبد الله ابنى المستنصر لمبايعة أبى القاسم ، فبايعاه .

ولما رأى نزار أن الخلافة أفلتت من يده ، سار إلى الإسكندرية مع أخيه عبد الله ، وابن مصال اللكى ، فتقبله واليها ناصر الدين أفتكين التركى قبولا حسناً ، وبايعه هو وأهل الإسكندرية بالخلافة ولقبوه « المصطفى لدين الله » . فلما علم الوزير الأفضل بذلك ، خرج لقتال نزار على رأس جيش كثيف ، فدارت الدائرة على الأفضل أولا وعاد

---

(١) ابن ميسر . تاريخ مصر ص ١٣ — ٢٣ ، ٣٤ .

إلى القاهرة ، وأخذ يعد العدة لقتال نزار ، واستمال بعض أتباع من العربان ، ثم خرج إليه على رأس جيش كبير حاصره حصاراً شديداً . ولما رأى ابن مصال أن الدائرة ستدور عليهم ، جمع ماله وفر إلى بلاد المغرب ، ثم اضطر نزار وأفتكين إلى طلب الأمان ، فأمنهما الأفضل ، ثم انتقم من نزار بأن وضعه بين حائطين وبنى عليه ، فمات ، كما قتل أفتكين نائب الإسكندرية .

وفى عهد المستعلى[١] بدأ الصليبيون يغيرون على سواحل بلاد الشام ، فاستولوا على نيقيا ، ودخلت أنطاكية فى حوزتهم ، ووصلوا إلى بيت المقدس . فلما علم الوزير الأفضل بذلك خرج إليهم فى عشرين ألف مصرى واشتبك معهم فى معركة قتل فيها كثير من أتباعه ، واضطر إلى الاتجاه إلى عسقلان ، ثم عاد إلى مصر فى سنة ٤٩٣ هـ ، وأعد جيشاً كبيراً تحت قيادة سعد الدولة النواسى ، الذى التقى بالفرنجة فى عسقلان ، ودارت بين الفريقين معركة حامية قتل فيها سعد الدولة ، وواصل الفرنجة فتوحاتهم حتى استولوا على المدن الساحلية ببلاد الشام وفلسطين[٢] .

٢ — الآمر والحافظ :

وبعد وفاة المستعلى ١٠ صفر سنة ٤٩٥ هـ ، ولى ابنه الآمر الخلافة ، وقبض الأفضل على زمام الأمور فى البلاد .

وقد عنى الفاطميون عناية عظيمة بحفظ رسومهم الدينية حتى فى أيام انحلال دولتهم حين كان لوزرائهم السلطة المطلقة . وإن مقتل الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى لأظهر مثال لتلك العناية ؛ لأن الأفضل يميل ميل السنيين ، فألغى الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد فاطمة وعلى رضى الله عنهما ، ومولد الخليفة القائم بالأمر . وقد كان ذلك كافياً لتقويض دعائم حكم الفاطميين الذين كانوا يعملون دائماً على تأبيد دعواهم التى تقوم على أنهم من سلالة على كرم الله وجهه .

وقد شرح لنا ابن القلانسى[٣] (ت ٥٥٥ هـ) الأحوال التى أحاطت بمقتل الأفضل شرحاً وافياً . وابن القلانسى هذا توفى بعد الأفضل بنحو أربعين سنة ، وقد اعتمد فيما ذكره

---

(١) وكان ابن أخت الأفضل بن بدر الجمالى .

(٢) أبو المحاسن ج ٥ ص ١٤٦ — ١٤٨ .

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

على الاعتقاد بأن مقتل الوزير كان بتدبير الخليفة الفاطمى وأنصاره لبواعث سياسية وحزبية . وقد نسب ابن ميسر مقتل الأفضل إلى عداء جماعة الباطنية(١).

أما عن أخلاق الوزير الأفضل ، فيقول ابن ميسر(٢) : « كان من العدل وحسن السيرة فى الرعية والتجار على صفة جميلة ، يجاوز ما سمع به قديماً وشوهد أخيراً . ولم يعرف أحد صودر فى زمانه . ولما حضر الإسكندرية ، كان بها يهودى يبالغ فى سب الأفضل وشتمه ولعنه . فلما دخل الأفضل قبض عليه وأراد قتله . . . فقال : إن معى خمسة آلاف دينار ، خذها منى واعتقنى واعف عنى . فقال لليهودى : الله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك ، وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئاً . ومحاسن الأفضل كثيرة : وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع أخذ شىء من التركات على العادة القديمة ، وأمر بحفظها لأربابها ، فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضى بثبوت استحقاقها أطلقها فى الحال » .

وقد أعاد الخليفة الآمر دار العلم بعد أن أغلقها الأفضل ، عند ما نمى إليه أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التى يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة : وهى الشافعى والحنفى والمالكى ، يترددان على هذا المكان ، وأن كثيرين من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا هذا المذهب .

ولى الحافظ الخلافة بعد مقتل ابن عمه الآمر على يد فريق من الباطنية . وقد قويت شوكة الوزير أبى على بن الأفضل ، وتلقب الأكمل ، فقبض على الخليفة وحبسه واستولى على ما فى القصر من الذخائر والأموال وادعى أن ذلك كله كان لأبيه . وكان هذا الوزير إمامياً ، فدعا للإمام الثانى عشر ودعا لنفسه على المنابر بهذه الألقاب : ناصر إمام الحق هادى العصاة إلى اتباع الحق مولى الأمم ومالك فضيلتى السيف والقلم ، كما أزال عبارة « حى على خير العمل ، ومحمد وعلى خير البشر » من الأذان ، وأسقط ذكر إسماعيل ابن جعفر الصادق من الخطبة(٣).

---

(١) وفى الحق أن الخلف بين روايتى هذين المؤرخين يسير . فإن الفاطميين أنفسهم كانوا باطنيين ، وكانوا فى أعمالهم يصدرون عن العقائد الباطنية التى كان قوامها إدعاؤهم علم الباطن وأن لهم قوى غير قوى البشر .

(٢) تاريخ مصر ص ٥٨ .

(٣) ابن ميسر تاريخ مصر ص ٧٥ .

وكان من أثر السياسة التى اتبعها أبو على بن الأفضل أن كرهه الشيعيون المصريون وصمموا على قتله ، فكمن له جماعة منهم وقتلوه وأخرجوا الحافظ من سجنه .

ثم قدم بهرام الأرمنى وإلى الغربية إلى القاهرة (جمادى الثانية سنة ٥٢٩ هـ) وحاصرها ، فلم ير الخليفة الحافظ بدأ من توليته الوزارة على الرغم من أنه نصرانى ، وعلى الرغم من أنه كان يتحتم على الوزير بحكم منصبه أن يصعد المنبر مع الخليفة فى الأعياد ليزرر عليه المزرة (الستارة) التى تحجبه عن الناس ، ولأن القضاة كانوا ينوبون عن الوزراء منذ أيام بدر الجمالى . وكانت هذه النيابة تذكر فى الوثائق الرسمية وتدون فى وثائق الزواج .

وقد تقلد بهرام الوزارة على الرغم مما أظهره الناس من سخط عليه ، وسرعان ما تزايد نفوذه وأحضر إخوته وأهله من تل باشر وأرمينية ، وسمح لبنى جلدته من الأرمن بالإقامة فى مصر ، حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً .

وقد صادر هؤلاء الأرمن أموال المسلمين وبنوا الكنائس والأديرة لدرجة أقلقت بال المسلمين ، فرفعوا شكاياتهم إلى الخليفة ، وبعث الأمراء إلى رضوان بن الوخشى والى الغربية يطلبون منه المسير إليهم ؛ فلبى رضوان طلبهم ، وجمع ثلاثين ألف رجل سار بهم إلى القاهرة ، وانضم تحت لوائه عسكر المسلمين فى جيش بهرام ، الذى اضطر إلى الرحيل والذهاب إلى أخيه الباساك والى قوص .

وهكذا خلا الجو لرضوان فتقلد الوزارة (جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ) وتلقب بالأفضل ، واستولى على ممتلكات أعوان بهرام وقتل كثيراً منهم ، على أن ذلك لم يرض الخليفة الحافظ بل أغضبه ، فأحضر بهرام وأسكنه فى قصره واضطر رضوان إلى الخروج إلى والى صرخد[1] ، حيث جهز جيشاً كبيراً عاد به إلى القاهرة وحارب جند الخليفة بقرب باب الفتوح . غير أنه أرغم على المسير إلى الصعيد حيث طارده الأمير أبو الفضل ابن مصال وانتهى الأمر بحبسه فى القصر . ولم ينته النزاع إلا بعد وفاة بهرام سنة ٥٣٥ هـ .

ولما تولى أبو على الأفضل (الملقب بالأكمل) وزارة الحافظ ، عزله وشل يده عن التصرف فى أمور الدولة (٥٢٤ هـ) ومنع الناس من زيارته إلا بإذن منه ؛ ثم استولى على ما فى القصر ، ومنع ذكر اسم الخليفة من الخطبة[2] ودخلت مصر فى طور السقوط .

---

(١) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق .

(٢) ابن ميسر ص ٧٥ .

٣ — سقوط الدولة الفاطمية :

لقد أدى انتشار حكومة الأشراف (الحكومة البيروقراطية) إلى تدبير مؤامرات سرية وأحزاب سياسية ، ومهد السبيل لسقوط الدولة الفاطمية التى مزقها الانقسام فوقعت فى أيدى المغيرين عليها .

وكان النزاع المتصل بين الوزراء المتنافسين والحزبية فى الجيش سبباً فى وقوع القلاقل فى أيام الوزير بهرام الأرمنى المسيحى (١) .

وقد خلف بهرام فى الوزارة رضوان بن الوخشى ، وكان شاعراً فذا وجندياً مقداماً ، تلقب لأول مرة فى العهد الفاطمى بلقب « ملك » ، وصار ذلك من ألقاب الوزراء الفاطميين الذين أتوا بعده . غير أن رضوان لم يلبث أن عزل من الوزارة ، ففر إلى الشام . وهناك طلب إلى زنكى أتابك الموصل مساعدته . على أن أسامة بن منقذ الذى أوفده الخليفة الحافظ إليه استرضاه بالمال وأمنه على حياته . ولكن الخليفة لم يف بعهده ، فقد حبسه عشر سنوات تمكن فى آخرها من الفرار ، ثم جمع أنصاراً واستقر فى الجامع الأقمر أمام القصر ، غير أن جنود الخليفة السودانيين هزموا أنصاره وشتتوا شملهم وقتلوه (٢) .

وبعد يومين من مقتل رضوان توفى الخليفة الحافظ ، فنشب النزاع بين الجند السودانيين والجنود الأتراك . وولى ابنه الظافر — وسنه ست عشرة سنة — الخلافة وعادت المنازعات بين الوزراء المتنافسين سيرتها الأولى .

وقد ابتدأ هذا الخليفة الشاب حكمه بطرد الوزير ابن السلار ، وكان يلقب بالملك العادل ، وقلد الوزارة نجم الدين بن مصال ، وكان مكروهاً من الأهلين . وسرعان ما جمع ابن السلار فرقة من أعوانه وسار بهم إلى الجيزة (١٤ رمضان سنة ٥٤٤ هـ / ١١٥٠ م) . وفى اليوم التالى حل محل منافسه فى الوزارة ـ وكان ذلك أمراً مألوفاً فى ذلك الحين ـ وقد فر ابن مصال حين رأى تقدم ابن السلار ، ولم يكن قد مضى عليه فى الوزارة أكثر من خمسين يوماً .(٣)

---

(١) أبو صالح ص ٨٤ . أسامة بن منقذ ص ٢٢ و ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤ .

(٣) ذكر ذلك أسامة بن منقذ (ص ٦). أما الذهبى (مكتبة بودليان بأكسفورد) ، مخطوطات Laud. القسم الشرقى رقم ٣٠٤ ، ورقة (١٠٥ ا) وأبو الفدا (ج ٣ ص ٢٣) فقد ذكرا أنه لم يمكث فى الوزارة إلا أربعين يوماً .

وقد التجأ ابن مصال بعد هزيمته إلى كورة الحوف حيث تمكن بما جمعه من أموال الخليفة من حشد قوة كبيرة ، ثم استقر فى الصعيد فاتبعه ، العباس وبيب ابن السلار . وفى مدينة دلاص جنوبى الواسطى التقى الجندان ، فدارت الدائرة على ابن مصال ، وقتل وحمل رأسه إلى القاهرة . وبهذا استراح ابن السلار من منافسه ، وقلده الخليفة الوزارة ، لكنه أخذ يكيد له وعمل على طرده من الوزارة[١] .

وقد طلب ابن السلار العون من نور الدين فى غزو مدينة طبرية ، ليمنع غزو الصليبيين لمصر على أن يسير هو بنفسه إلى غزة وعسقلان[٢]. وقد أدرك نور الدين من هذا الرجاء أن مصر لم تعد قادرة على أن تقف وحدها فى وجه الصليبيين مما أتاح له الفرصة فى الامارة عليها . ومن هنا طمع نور الدين فى غزو مصر ، كما أصبح الصليبيون على علم تام بحال هذه البلاد .

وقد أبى نور الدين امتشاق الحسام لمحاربة الصليبيين . ورأى أنه يغرر بنفسه إذا دخل فى حرب معهم أو مع أهل دمشق ، إذ كان هؤلاء وأولئك أعداءه على السواء .

لهذا كله وقف المتنافسان (نور الدين والصليبيون) بعضهما لبعض بالمرصاد ، وأخذ كل فريق يراقب حركات الفريق الآخر .

أما عن أحوال مصر الداخلية إذ ذاك ، فقد كان ابن السلار الذى تلقب بالملك العادل سيف الدين (ذلك اللقب الذى يدل على انضوائه تحت لواء المذهب الفاطمى) سنياً مغالياً . وربما كان ذلك سبباً فى تدبير الخليفة المكائد له حتى يخلص من شره . غير أن أنصار ابن السلار الكثيرين قد حالوا دون استقرار سلطة الفاطميين الدينية . أضف إلى ذلك النزاع الذى قام بين ابن السلار السنى وبين ابن مصال المغربى الأصل ، ذلك النزاع الذى كان فى الحقيقة نزاعاً بين السنيين والشيعيين . وكان ابن السلار يطمع فى مساعدة نور الدين ، لنشر المذهب السنى فى مصر وإحلاله محل المذهب الشيعى .

وكان ابن السلار — كما يقول ابن خلكان — من أصل كردى ، ومن قبيلة

---

(١) أسامة بن منقذ ص ٥ و ٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ٧ — ١٣ .

الزرزرى[١] ، نشأ فى قصر القاهرة وشغل مناصب مختلفة فى الصعيد ، وتدرج فى هذه المناصب حتى تقلد الوزارة فى عهد الخليفة الظافر فى رجب سنة ٥٤٣ هـ (نوفمبر ١١٤٨م).

وقد أظهر ابن السلار أخيراً اعتناقه للمذهب السنى ، وصار شافعى المذهب (وهو المذهب الذى كان يتبعه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين) . ولما ولى الإسكندرية بعد وصول الحافظ السلفى الفقيه الشافعى فى ذى العقدة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١١٨ م) ، عامله بكل تجلة وإكرام ، وأنشأ فى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) مدرسة للشافعية أسند إليه إرادتها[٢]. وبهذا هيأ ابن السلار السبيل إلى رجوع المذهب السنى إلى مصر . وقد اعتمد الخليفة الظاهر فى الكيد لابن السلار واغتياله على يد نصر بن عباس ، وهو شاب فى سن الخليفة ومن أخص خواصه . وكان من أمره أخيراً أن قتل الخليفة الظافر والوزير ابن السلار معاً .

وقد دخل عباس القاهرة غداة مقتل الوزير وتقلد الوزارة وخلع عليه الخليفة[٣] . ولقد صدق ليبنول فى قوله «إن مقتل ابن السلار بيدحفيد زوجته نصر ، وما تبعه من مقتل الخليفة بنفس هذه اليد الأثيمة يعتبر من أخفى حوادث التاريخ فى مصر» . ويقص علينا ذلك أسامة بن منقذ ، ذلك الرجل العظيم الذى اعتاد الصيد مع رجال بلاط الخليفة وكان صديقاً حميما وضيفاً لابن السلار ، كما كان مع هذا من الذين دبروا أمر اغتياله .

وقد وضع الخليفة الذى تملكه الفرح لمقتل ابن السلار ، رأس القتيل فى بيت المال ، ونفح قاتله بعشرين صحفة فيها ٢٠,٠٠٠ دينار ، وحرضه على قتل أبيه بعد ذلك . لكن عباساً استشعر الخطر ، فأعد العدة ليسم ابنه . وكان لتدخل أسامة بين نصر وأبيه أثر فى إصلاح ذات بينهما ، إذ وعد نصر بأن يقتل الخليفة إذا زاره فى داره .

وفى اليوم التالى ، بينما كان أسامة جالساً فى الدهليز ، إذ سمع صليل السيوف . وقد أثار قتل الخليفة أهالى القاهرة ؛ فنشبت المعارك فى طرقات المدينة وأخذ النسوة والأطفال يرجمون أتباع الوزير عباس بالحجارة من نوافذ دورهم . ولم يلبث هؤلاء الأعوان أن اعتزلوه . ولم يكن لعباس طاقة بمقاومة سخط الأهلين وثورة انتقامهم ، ففر

---

(١) يفتح الزاى الأولى مع التشديد وفتح الراء الثانية وسكون الراء الأولى ، قبيلة قريبة من برقة . انظر Quatremère, Notices Sur les Curdes in «Notices et Extraits» Vol. XIII, p. 315.

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

(٣) تاريخ أسامة بن منقذ ص ١٣ — ١٤ .

هو وابنه نصر إلى سورية [١] . غير أنه لقى حتفه على يد جماعة من الفرنجة أرسلتهم أخت الخليفة الظافر فى إثره (ربيع الأول سنة ٥٤٩ / ١١٥٤) . أما ابنه نصر فقد أرسل إلى القاهرة (ربيع الأول سنة ٥٥٠) ، فعذبه نساء البلاط وطيف به فى المدينة ، وصلب حياً على باب زويلة ، وترك معلقاً هناك شهوراً كثيرة [٢] ؛ ثم أحرقت جثته (١٠ المحرم سنة ٥٥١ / ١١٥٦ م) [٣] .

وقد ترك الخليفة المقتول طفلا فى الرابعة من عمره ؛ فدعى له بالخلافة وتلقب بالفائز سنة ٥٤٩ هـ . وقد قص نساء القصر شعورهن لما راعهن من قتل الخليفة حداداً عليه ، ثم أرسلوا هذه الشعور إلى الأمير طلائع بن رزيك والى الأشمونيين ، وتضرعن إليه أن يجىء لتخليصهن [٤] . ثم سار ابن رزيك إلى القاهرة واستولى على دار المأمون (قصر عباس) [٥] .

وقد أخذ ابن رزيك فى إعادة الأمن إلى نصابه وأعاد عصر سيادة القانون [٦] .

وكان ابن رزيك — الذى تلقب بالملك الصالح — الرجل الذى تحتاج إليه مصر فى ذلك الحين . أما تلك المأساة فقد أفقدت الفاطميين عسقلان آخر معاقلهم فى فلسطين ، وقد استولى عليها الصليبيون [٧] .

أما الصليبيون فإنهم لم يستمروا فى سيرهم إلى مصر ، إذ فت فى عضدهم وزعزع قوتهم فى بيت المقدس نماء قوى البلاد المتاخمة لها ، وإخفاق الحملة الصليبية الثانية تحت قيادة كنراد Conrad ولويس السابع ، واستخلاف نور الدين على عرش الشام واستقرار أمره

---

(١) أسامة بن منقذ ص ١٩ وما يليها .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩ و ٢٠ .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٥٠٠ .

(٤) Lane-Poole, History of Egypt in The Middle Ages, p. 173.

(٥) هذا القصر بناه الوزير المأمون البطائحى ، وتحول فيما بعد على يد صلاح الدين إلى مدرسة للأحناف ، تعرف بالمدرسة السيوفية .

(٦) ابن ميسر ص ٩٤ . ابن خلكان ج ١ ص ٢٩٨ وما يتبعها .

(٧) ابن ميسر ص ٨٦ .

Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 36.

فى حلب شمالا ودمشق شرقاً ، وقد تلقب ببطل الإسلام وقوى أمره بضم دمشق إليه سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٤ م) ، وكان فى حلف دفاعى مع الصليبيين [١] .

وقد قتل الوزير طلائع بن رزيك (رمضان سنة ٥٥٦ / ١١٦١) بدسيسة صهره (زوج ابنته) الخليفة العاضد ، الذى زالت الخلافة الفاطمية فى أيامه ، وانتقص هذا الوزير سلطته . ويجمل هنا أن نأتى بما أمدنا به عمارة اليمنى ، وكان شاهد عيان لما حدث فى مصر فى عهد الخليفتين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين .

لقد نصح ابن رزيك وهو على فراش الموت ابنه أبا شجاع العادل أن يحذر شاور ويتجنب خلعه من منصبه . وكان شاور عربى الأصل ، اتصل بابن رزيك ونال حظوة لديه ، فولاه الصعيد ، وغدا مركزه من الخطر بحيث لم يجرؤ ابن رزيك على عزله من منصبه . فلما توفى ابن رزيك خلفه ابنه العادل فى الوزارة ؛ غير أنه لم يلبث أن خلع وحل محله شاور فى الوزارة ، ثم قتل طى بن شاور ابن رزيك فى ٢٢ المحرم سنة ٥٥٨ هـ (يناير ١١٦٣ م) .

وقد أثار شاور بذلك سخط الأهلين ، وأجمع أنصار العادل بن رزيك على خلع شاور من الوزارة [٢] . ولما علم ضرغام أمين الباب وأمير البرقية بهذا الحادث ، أشعل نار الثورة وهزم جند شاور الذى فر إلى سورية ، وقتل أبنيه طى وضرغام وحل محل شاور فى الوزارة (رمضان ٥٥٨ / ١١٦٢) [٣] .

وقد تدخل نور الدين والفرنجة تدخلا جدياً فى شئون مصر منذ ذلك الحين . وكان من أثر إغارة هاتين القوتين على مصر وسياسة شاور المزعزعة ، وإسراف ضرغام فى قتل قواد مصر — كان من أثر هذه العوامل مجتمعة ما عجل بسقوط الدولة الفاطمية [٤] .

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٦ .

(٢) عمارة اليمنى : النكت العصرية ص ٨٨ .

(٣) أبو شامة : مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ج ٤ ص ١٦٥ .

Receuil des Histoires des Croisades, Historiens orientsux, tome IV, p. 165.

النكت العصرية ص ٦٧ و ٧٨ ؛ ابن الأثير ج ١١ ص ١١٧ .

(٤) عمارة : النكت ص ٨٨ . ابن الأثير ج ١١ ص ١١٧ .

طلب شاور النجدة من نور الدين بدمشق ، وأظهر له أنه على استعداد لأن يقوم بنفقات الحملة وأن ينزل له إذا تم له الأمر عن ثلث خراج مصر جزية سنوية[١] . وكان نور الدين يعلم ما لمصر من المركز السياسى الخاص ، بمعنى أن من يملكها يمكنه أن يسيطر على غيرها من البلاد ، كما كان يعلم أنها معين خصب للخراج .

ويمكن تلخيص الأسباب التى من أجلها عزم نور الدين على إرسال حملة إلى مصر فيما يلى :

أولا — رغبته فى إجابة شاور الذى تضرع إليه وطلب الاستعانة به .

ثانياً — شغفه بالاطلاع على حقيقة الحال فى مصر ، وقد اتصل به أن قوتها الحربية كانت ضعيفة جداً ، وأنها كانت فى حالة اضطراب شديد .

(٤) حملات شيركوه على مصر :

هكذا عجلت الحوادث تدخل نور الدين . ذلك أن ضرغام اختلف مع عمورى ملك بيت المقدس الجديد فى الجزية السنوية التى كان يدفعها إليه ؛ فسار عمورى إلى مصر سنة ١١٦٣/٥٥٩ ليفرض عليها الجزية كرهاً ، وحلت الهزيمة بضرغام فى بلبيس ، فأراد أن يتجنب الهزيمة النهائية . فأوحى له قصر نظره فتح سدود النيل — وكان فى إبان فيضانه — فأغرق البلاد ، وتم له ما أراد من رجوع عمورى إلى فلسطين .

وعلم ضرغام بالمفاوضات التى دارت بين شاور ونور الدين ؛ فسارع إلى عقد حلف مع عمورى ، وزاد مقدار الجزية . وسرعان ما ظهر نور الدين على مسرح القتال . وقبل أن يتمكن عمورى من المسير إلى مصر (جمادى الثانية ٥٥٩ / إبريل سنة ١٠٦٤ م) ، سار شاور إليها مع جند قوى من التركمان من دمشق يقوده أسد الدين شيركوه ، وعلى مقدمته صلاح الدين الأيوبى . والتقى الفريقان فى بلبيس ؛ فانهزم المصريون ، غير أنهم لموا شعثهم واجتمعوا تحت أسوار القاهرة[٢] .

واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين عدة أيام ، تمكن شاور فى أثنائها من الاستيلاء على الفسطاط ، بينما كان ضرغام يحتل القصر فى القاهرة . وأراد ضرغام

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٢١ .

(٢) عمارة ، النكت (ص ٦٨ وما يتبعها) . ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢٠ و ١٢١) .
Lane-Poole, History of Egypt in the Middle Ages, p. 117.

أن يجمع الأموال ؛ فوضع يده على أموال الأوقاف ، فأخذ الناس ينفضون من حوله ، وامتنع الخليفة والجيش عن مؤازرته ، وسار فى طرقات القاهرة يدعو الناس للثورة ، فلم يلق منهم إلا صياح الاستهزاء حتى جفل حصانه من صياح الناس ، فألقاه على الأرض وقطع رأسه وطيف به فى الطرقات[١].

وقد أدرك شاور غرضه ؛ فتقلد الوزارة وتوطدت أقدامه . ولوثوقه بقوته ، خان عهده مع أسد الدين شيركوه ، وأبى أن يدفع الجزية المتفق عليها بينهما ، ومد له الفرنجة يد المساعدة ، فحاصروا شيركوه فى بلبيس وحملوه على العودة بجنده إلى الشام (ذو الحجة سنة ٥٥٩ / ١١٦٤) . وانتهز نور الدين مسير عمورى إلى مصر فهزم قواته فى فلسطين ، فاضطر إلى العودة لحماية بلاده[٢].

ولكن شيركوه لم يخفق تماماً فى حملته على مصر ، إذ عرف ما كان يسود هذه البلاد من الفوضى ، فأطمعه ذلك فى امتلاكها . لذلك بقى فى الشام مدة يعد العدة فى تجهيز حملة ثانية أملا فى تأسيس إمبراطورية لنفسه ، واستمر حتى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) يدبر الخطط بالاشتراك مع نور الدين[٣].

لقد ظهرت أهواء شاور المضطربة وسياسته الخرقاء واضحة جلية فى وزارته الثانية ، ولم يلبث أن ظهر قلقه واضطرابه بعد أن استرد قوته واستقر فى مركزه . وفى اليوم التالى من وصوله إلى القاهرة ، سار شيركوه إلى بلبيس وهزم الجيوش المصرية .

على أن نجم شاور أخذ فى الأفول ، فجرح أخوه جرحاً بليغاً وحاصر الفرنجة بلبيس ، وأرغموا نور الدين على العودة من فلسطين إلى الشام ، ولم يلبثوا أن عادوا هم أيضاً إلى فلسطين .

ولم تكن حالة مصر الداخلية بأقل اضطراباً من حالتها الخارجية ، فلم يجد شاور بداً من قمع ثورة يحيى بن الخياط أحد أنصار ابن رزيك[٤] (عمارة ص ٦٧) ، الذى طلب الوزارة لنفسه ؛ وتلا ذلك الاضطرابات التى أثارها بنو لواتة . وأدهى من هذا كله ما بلغه من إعداد نور الدين العدة لغزو مصر مرة أخرى[٥] .

---

(١) النكت العصرية ص ٧٣ .
(٢) ابن شداد ص ٤٣ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) قتله شجاع بن شاور . حياة عمارة ص ٣٤٨ .
(٥) عمارة ص ٦٧ و ٧٥ ـ ٧٨ .

لذلك طلب شاور مساعدة الفرنجة ثانية ووعدهم موطناً ثابتا فى مصر ؛ فأرسل نور الدين إلى هذه البلاد جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه ، ورأى أن اتفاق شاور مع الفرنجة يكسبهم قوة فى مصر ويهدد مركزه فى الشام . وغادر جيش شيركوه الشام فى ربيع الأول سنة ٥٦٢ هـ (ديسمبر - يناير ١١٦٦ - ١١٦٧ م) ، ووافق وصولهم إلى مصر وصول الفرنجة[١] .

وقد سار الجيشان بحذاء شاطىء النيل حتى وصلا إلى القاهرة . فضرب عمورى سرادقه قريباً من الفسطاط . والتقى الفريقان ثانيا فى موقعة البابين ، على بعد عشرة أميال جنوبى مدينة المنيا ؛ فأحرز شيركوه بقوته القليلة نصراً مبينا . وبذلك توطدت أقدامه فى الصعيد . غير أنه لم يكن من القوة بحيث يمكنه أن يتابع انتصاراته ويسير إلى القاهرة ؛ فاختار أهون الأمرين ، وسار فى الصحراء شمالا حتى وصل إلى الإسكندرية فدخلها من غير مقاومة .

أقام أسد الدين شيركوه صلاح الدين والياً على الإسكندرية ، وجعل معه نصف الجيش وعاد النصف الآخر إلى الجنوب ، وأخذ يجبى الأموال فى الصعيد . أما قوى الفرنجة والمصريين المتحدة فقد حاصرت الإسكندرية براً ، على حين كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحراً . ولم يكن مع صلاح الدين إلا ألف من أنصاره ؛ فأغز شيركوه السير إليه ، واصطلح الفريقان على أن يترك شيركوه مصر فى مقابل خمسين ألف دينار ، ثم عاد شيركوه إلى الشام ، لأن جيشه قد ضعف كثيراً فى حربه مع الفرنجة والمصريين . هذا إلى ما انتابه من البؤس وما حاق به من الأخطار[٢] . إلا أنه قد أصبح ملماً بأحوال مصر الداخلية ، وعقد العزم على امتلاكها قبل أن تقع فريسة فى أيدى الفرنجة .

هكذا انتهت حملة الفرنجة والغز على مصر . وقد ارتد الأولون إلى فلسطين والآخرون إلى الشام ؛ وبذلك زالت مخاوف شاور ، ولكن إلى حين . فقد ابتدأت حملة شيركوه الثالثة على مصر وانتهت بانتصاره على الفرنجة والمصريين واحتلاله البلاد[٣] .

---

(١) أبو شامة : Receuil, tome IV, p. 168

(٢) ابن شداد ص ٤٤ و ٤٥ .

(٣) النكت العصرية ص ٨١ .

وترجع حملة شيركوه الثالثة على مصر إلى زحف الفرنجة عليها من جديد . وكانت هذه الحملة بقيادة شيركوه يصحبه أخواه ، وابن أخيه صلاح الدين وغيرهم من ذوى قرباه وجيوشه(١) .

وهنا تجلت سياسة شاور المتقلبة ثانياً ، فقد أرسل إلى شيركوه كتاباً يطلب فيه المساعدة . وصادف هذا الرجاء قبولا من نفس شيركوه ، لأن اتحاده مع شاور معناه هزيمة الفرنجة من جهة وتخلصه من شاور من جهة أخرى .

وقد سار الفرنجة نحو مصر ، ووصلوا إلى بلبيس (صفر ٥٦٤ نوفمبر ١١٦٨) . ولم يبقوا — كما يقول المؤرخ اللاتينى وليم الصورى William of Tyre على أحد من الناس على اختلافهم شباناً وشيباً ، ذكوراً وإناثاً(٢) . وقد أسخط عمورى بعمله جميع المصريين فانحازوا إلى شيركوه ، وأمر شاور بإحراق مدينة الفسطاط ليحول دون استيلاء الفرنجة عليها . وقد استمرت النيران بها أربعة وخمسين يوما ، ولا تزال آثار هذا الحريق بادية بأطلال الفسطاط حتى اليوم فى التلال الرملية التى تغطى القمامة المدفونة فى الفضاء الممتد عدة أميال جنوبى القاهرة . وأسرع الناس بعد هذا لائذين بالقاهرة التى ساد أهلها الحماس استعداداً لصد هجوم الصليبيين(٣) .

غير أن الفرنجة لم يهاجموا القاهرة ، فقد دخل شاور معهم فى مفاوضات تعهد فيها بدفع مقدار من المال لعمورى . لكن سياسة شيركوه لم يكن يسودها الإخلاص ، فقد كتب إلى نور الدين فى دمشق يطلب منه المعونة ، على حين كتب الخليفة العاضد نفسه بذلك إلى نور الدين ، ووضع فى رسالته خصلا من شعور النساء إمعاناً فى الضراعة ، حتى لا يرد توسله بعد ذلك(٤) . وقد بلغ من تأثر نور الدين أنه بعث أسد الدين شيركوه إلى مصر فى جيش بلغ سبعين ألفاً(٥) .

---

(١) ابن شداد ص ٤٥ و ٤٦ .

(٢) ذكر أبو شامة (ص ١٣٧) أن عمورى قتل عدداً كبيراً من الأهلين وأتلف معظم المدينة وأحرق أكثر مبانيها وجعل الناس فيها فريقين ، قتل أحدهما بحد السيف ، واستبقى الآخرين شكراً لله على ما أتاه من نصر .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٦ . أبو شامة ص ١١٥ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤) ص ١٩٣ — ١٩٤

وكان نور الدين قد صمم على غزو مصر ، إذ كان يود أن يذهب بنفسه ، لولا أنه كان مشغول البال بحالة بلاد الجزيرة المزعزعة ، فأرسل فى الحال قوة من ألفين اختارهم من حرسه الخاص وستة آلاف من التركمان بقيادة شيركوه . يعينهم عدد كبير من الأمراء ومن أقاربه ، وكذا صلاح الدين ، وكان يد عمه اليمنى (١) .

وصل شيركوه إلى القاهرة فى السابع من شهر جمادى الثانية ، وكان عمورى لا يزال أمام أسوارها وحال دون تقدمه . ورأى عمورى الذى خدعه شاور تفوق شيركوه عليه فى الحرب ، فعاد إلى فلسطين من غير حرب . ودخل شيركوه القاهرة ، فقابله الناس بالترحاب ، واستقبله الخليفة الذى قدر صنيعه وخلع عليه (٢).

وكان شيركوه يعتقد أن الفرصة لن تتاح له بامتلاك مصر ما بقى شاور فيها . لذلك قرر أن يقبض عليه فى إحدى زياراته له ، واضطلع صلاح الدين بتنفيذ هذه المكيدة . وقتل شاور بأمر الخليفة الذى ولى شيركوه الوزارة فى ١٧ ربيع الثانى سنة ٥٦٤ الموافق ١٨ يناير ١١٦٩) وخلع عليه ، فظل فيها حتى مات فى ٢٢ جمادى الثانية من السنة نفسها (٢٣ مارس سنة ١١٦٩)(٣) .

(٥) صلاح الدين وسقوط الدولة الفاطمية :

لقد مهدت الأحوال والحوادث الماضية الطريق لسقوط الفاطميين قبل أن يلى صلاح الدين الوزارة خلفاً لعمه أسد الدين شيركوه . وقد أصبحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى على صد الغزوات الأجنبية ، لما مُنيت به من التطاحن الحزبى ومنافسات الوزراء المصريين .

وقد بدأت مواهب صلاح الدين تظهر بعد تقلده الوزارة بعد عمه فوطد العزم على

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٦ .

(٢) شرحه ص ١٣٦ و ١٣٧ .

(٣) ابن شداد ص ٤٧ و ٤٨ . ابن خلكان ج ٢ ص ٥٠١ و ٥٠٢ .

ذكر أبو شامة (ص ١٤٥) أن صلاح الدين نفسه هو الذى قتل شاور . وذكر الذهبى (مكتبة بودليان بأكسفود ، مخطوطات Land ، القسم الشرقى رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٥ ا) أن شيركوه ولى الوزارة قبل مقتل شاور .

تأسيس دولة واسعة الأرجاء . ولكى يصل إلى غرضه ، خصص كل جهوده لطرد الصليبيين من البلاد[١] .

وقد عمل صلاح الدين على تقوية مركزه فى مصر تدريجيا ، لكى لا يفقد ثقة المصريين ولا يثير حسد نور الدين . فبدأ يعمل على إضعاف نفوذ الخليفة فكسب ثقة الأهلين واستمال قلوبهم بكرمه ، وأخذ الناس يسارعون إلى طاعته[٢] وأسند مهام الدولة إلى رجال من أنصاره .

وكان الخليفة العاضد ورجال القصر من جند وأتباع لا يخفون عداءهم لصلاح الدين . لذلك قامت المكائد بزعامة « نجاح » كبير الخصيان السود للقضاء على صلاح الدين ، فعملوا على إصلاح ذات البين بينهم وبين الصليبيين لغزو مصر ، فإذا ماخرج لهم صلاح الدين ، هاجمه المتآمرون من مؤخرته ، ووقع بين نارين ، وقضوا عليه وعلى جنده من التركمان .

ولما علم صلاح الدين بما دبره له أعداؤه قبض على كبير الخصيان ، وقُطعت رأسه (ذو القعدة ٥٦٤ يوليو ١١٦٩) وقتل كثير من بنى جلدته . فأثار ذلك حنق جند الخليفة ، وكان أكثرهم من السودانيين ، فثار منهم خمسون ألفاً للأخذ بثأر نجاح . واشتبكوا مع جند صلاح الدين فى معركة عنيفة فى المكان المعروف ببين القصرين ، أحرق فيها كثيرة من الدور والحوانيت . ودارت الدائرة أخيراً على السودانيين ، وأحرق حيهم المعروف بالمنصورية ، وطوردت فلولهم إلى الجيزة عن طريق النيل ، ومنها إلى الصعيد حيث استمروا فى ثورتهم عدة سنين ، إلى أن قُضى عليهم نهائياً سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م)[٣] .

ولما توطدت أقدام صلاح الدين فى مصر ، أخذ فى إرسال الحملات ضد الصليبيين ، فغزوا ولايتى الكَرَك والشُّوبك بذهاب سلطانهم فى فلسطين .

وكان من أثر ذلك أن اتحد الصليبيون مع البيزنطيين وساروا بحراً إلى مصر ؛ فنزلوا أولا على مقربة من دمياط ، واستولى جماعة منهم على قصر عكاء (ربيع الثانى ٥٦٥ هـ

---

(١) ابن شداد ص ٤٨ و ٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٩ .

(٣) ابن شداد (ص ٥٢ .) ، وابن لأثير (ج ١١ ص ١٣٩ و ١٤٠) .

١١٦٩ — ١١٧٠) . ولما علم نور الدين بمسير الفرنجة إلى دمياط ، بادر إلى نجدة صلاح الدين فحاصر الكرك (شعبان ٥٦٥ / ١١٧٠)[١] .

وقد أعد صلاح الدين الذى آلت إليه السلطة المطلقة جيوشه وملأ دمياط بالذخائر والجند ، ووعد بإرسال المدد إلى المدينة ، ووزع عليهم الهدايا والهبات .

وقد نجح نور الدين فى احتلال جزء من مملكة النصارى بفلسطين ، وأرسل الأمداد إلى صلاح الدين الذى كان يعضده الخليفة العاضد طوال مدة الحصار الذى استمر خمسين يوماً ، وأمده بنحو مليون دينار . وقد جعلت هذه الأمور إغارات الفرنجة عديمة الجدوى ؛ فاضطروا لرفع الحصار[٢] بعد أن أحرقت مراكبهم ، واستولى المصريون على آلاتهم الحربية وقتلوا عدداً عظيماً من جندهم[٣] .

وبعد انتصار صلاح الدين على الفرنجة ، طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه فوصلت أسرته (جمادى الثانية ٥٦٥ / ١١٧٠) ، فقلد أباه بيت المال ، وأخلص له إخوته[٤] .

وقد شجع إخفاق الفرنجة فى غزوهم دمياط — ذلك الإخفاق الذى يتمثل فيه ابن الأثير بالمثل المشهور عن النعامة وهو : « خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين » — صلاح الدين على أن يبدأ حياة الفتح بغزو الصليبيين فى بلاد الشام ؛ وبذلك بدأت سلسلة الإغارات التى لم تنته إلا بمعاهدة الصلح مع ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا بعد اثنتين وعشرين سنة .

وقد اعتبر المصريون الشيعيون والتركمان السنيون صلاح الدين حامياً لهم ، فاتفقوا معه على محاربة الصليبيين أعدائهم جميعاً : وشجعهم على ذلك ما شاهدوه فى القاهرة من

---

(١) ابن شداد ص ٥٠ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٢ .

(٣) ابن شداد ص ٥٢ .

(٤) ابن شداد ص ٥٢ .

الأسلاب التى غنمها صلاح الدين من الفرنجة (١) ، ولما استقرت قدم صلاح الدين فى مصر أسند المناصب الدينية إلى الفقهاء المتضلعين فى عقائد المذهب السنى ، وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة ، وسقطت إلى الحضيض سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وأزال صلاح الدين من الجيش بعض العناصر التى كان يشك فى اخلاصها . ولما أيقن نور الدين محمود أن صلاح الدين استأثر بالنفوذ دون الخليفة الفاطمى فى مصر . لأن رجالات الدولة قد انضووا تحت لوائه ، أرسل إليه كتاباً يطلب إليه فيه أن يجل اسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمى .

غير أن صلاح الدين تردد فى تنفيذ هذه الرغبة ، إذ كان يخشى أن يثير هذا العمل أهالى مصر ، الذين كانوا لا يزالون متعلقين بالفاطميين إلى ذلك الحين . بيد أن هذا العذر لم يرض نور الدين ، ولم يكن بد من أن يقوم صلاح الدين بتنفيذ أمره .

وكان الخليفة الفاطمى العاضد مريضاً فى ذلك الوقت . فعقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم فى ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة بدل اسم الخليفة الفاطمى ، فوافقه بعضهم وأخذوا على عاتقهم تعضيده ، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح .

وكان فى هذا المجلس رجل فارسى يعرف بالأمير ، حل بمصر أخيراً . ولما رأى ترددهم عرض أن يتولى تنفيذ رغبة صلاح الدين . فصعد المنبر قبل الخطيب فى أول جمعة من المحرم ودعا للمستضىء العباسى . وفى الجمعة التالية أمر صلاح الدين الخطباء أن يقيموا الخطبة للخليفة العباسى . وهكذا تم ذلك التغيير من غير أن يلقى أية مقاومة . ولم ينتطح فيها عنزان ولم يختلف فيها اثنان (٢) .

ولم يخبر العاضد أحداً من أسرته بذلك الحدث وقالوا « إن عوفى فهو يعلم وإن توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته » : وتوفى هذا الخليفة فى العاشر من المحرم ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) من غير أن يعلم بهذا الحدث التاريخى العظيم : فجلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على القصر .

وكان صلاح الدين قد أقام قبل وفاة العاضد الفاطمى للطواشى بهاء الدين قراقوش على

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٥٧ .
(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٤٨ — ١٤٩ .
(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٩ .

القصر ، وأسكن أولاد العاضد وأعمامه وسائر أسرته فى جناح منه ، وأخرج الموالى من الذكور والإناث ، وأعتق بعضهم .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد ، بعد أن حكمت مصر عصراً طويلا كان عصر يسر ورخاء وتسامح دينى وثقافة . وإن زوال الدولة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السنيين وإعادة الخطبة إلى الخليفة العباسى ، بعد أن قطعت فى مصر كسائر الولايات الفاطمية الأخرى مدة قرنين وثمانى سنين — كان فى الواقع انتصاراً للسنة على الشيعة(١) .

ثالثا : الدولة الصليحية فى اليمن :

قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب بفضل جهود دعاة اليمن من أمثال ابن حوشب وابن فضل وغيرهما من اليمنيين الذين كان لهم أثر بعيد فى نشر الدعوة الإسماعيلية فى اليمن والبحرين واليمامة وفى السند والهند ومصر والمغرب .

وقد تعرضت الإسماعيلية فى اليمن لخطر جسيم ، بسبب قيام النزاع بين ابن حوشب (منصور اليمن) وعلى بن فضل الذى خرج على الدعوة الإسماعيلية ولم يعبأ بنفوذ عبيد الله المهدى الذى أسس الدولة الفاطمية فى أواخر سنة ٢٩٦ هـ . بل لقد خلع طاعة المهدى وحارب ابن حوشب ، واستولى على عدن لاعة وحاصره بجبل مسور نحواً من ثمانية أشهر .

وكانت هذه الحرب من العوامل التى كان لها أثر بعيد فى إضعاف الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن . فقد مات ابن فضل مسموماً فى سنة ٣٠٣ هـ ، وخلفه ابنه ، وكان ضعيفاً ، فتمكن السنيون من القضاء عليه دون أن يحرك أنصار ابن حوشب ساكناً ويقدموا إليه أية مساعدة . وكذلك كان لموت منصور اليمن فى سنة ٣٠٢ هـ أثر كبير فى إضعاف هذه الدعوة الإسماعيلية ببلاد اليمن . فقد كان خلفاء منصور اليمن يأملون فى بقاء رياسة الدعوة فى أيديهم ، ولكن عبيد الله المهدى قضى على هذه الآمال بتوليته عبد الله بن عباس

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٨١ وما يليها .

الشاوى بعد منصور اليمن ، مما أثار حنق أبنائه ، حتى إن أحدهم خلع طاعة المهدى ، وقتل الشاوى الذى آلت إليه رياسة الدعوة ، ولم يصغ إلى نصيحة أخيه جعفر بن منصور اليمن الداعى صاحب المؤلفات الإسماعيلية الكثيرة ، فتحول إلى المذهب السنى .

وقد اتخذ السنيون من هذا الخلاف الذى تفاقم بين الإسماعيلية فى اليمن فرصة للقضاء على هذا المذهب وأنصاره ، مما حمل البقية الباقية من أنصار الفاطميين على التستر ونشر دعوتهم فى الخفاء ، حتى لا يتمكن السنيون من استئصاله ، وظلوا على ذلك منذ أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، حتى ظهرت قوتهم من جديد على يد على بن محمد الصليحى حول منتصف القرن الخامس الهجرى فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى .

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية فى اليمن على يد على بن محمد الصليحى - وكان أبوه القاضى محمد بن على من القضاة السنيين فى هذه البلاد . ولما انتقلت الدعوة الإسماعيلية فى اليمن إلى عامر بن عبد الله الزواحى (نسبة إلى زواحى وهى قرية من أعمال حراز) داعى دعاة الاسماعيلية فى اليمن ، تقرب إلى القاضى محمد بن على الصليحى الذى توسم فيه مخايل الذكاء والنجابة والعلم والتفقه فى الدين . وقد قيل إنه كان عند عامر الزواحى كتاب حلية الصليحى من كتاب الضوء ، وهو من ذخائر الأئمة العلويين ، فأوصى إليه بكتبه قبل وفاته .

وقد تحول على بن محمد الصليحى إلى المذهب الإسماعيلى وهو فى حداثة سنه ، وتفقه فى أصول هذا المذهب . ثم حل محل عامر بن عبد الله الزواحى بعد وفاته ، وأحيا الدعوة الإسماعيلية القديمة ، وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم . ولما استقرت قدم على بن الصليحى فى معظم أرجاء بلاد اليمن ، كتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمى فى مصر يستأذنه فى إظهار الدعوة الإسماعيلية له فى هذه البلاد ، فأذن له الخليفة بذلك بعد أن تبادل كل منهما الهدايا ، ووجه إليه المستنصر «برايات وألقاب وعقد له الولاية»[1] وقد شمر على الصليحى عن ساعد الجد وأخذ يتنقل فى البلاد داعياً إلى الإمام الفاطمى . ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد ذاعت فى كافة أرجاء اليمن . ولم يبق من اليمن كما يقول عمارة اليمنى ، سهل ولا وعر ولا بر ولا بحر إلا فتحه على الذى اتخذ صنعاء حاضرة لدولته . ويقص علينا عمارة اليمنى[2] أن على بن محمد الصليحى شيد

---

(١) الحامدى اليمانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣ .

(٢) تاريخ اليمن ص ٢ وما يليها .

الصليحيون باليمن

اسم الوالى	سنة الولاية
١ — أبو كامل على بن محمد الداعى (استولى على مكة ٤٥٥ هـ)	٤٢٩ هـ
٢ — المكرم أحمد بن على	ـ ٤٥٩
٣ — المنصور أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر بن على	٤٨٤ أو ٤٨٧
	ـ ٤٩٢

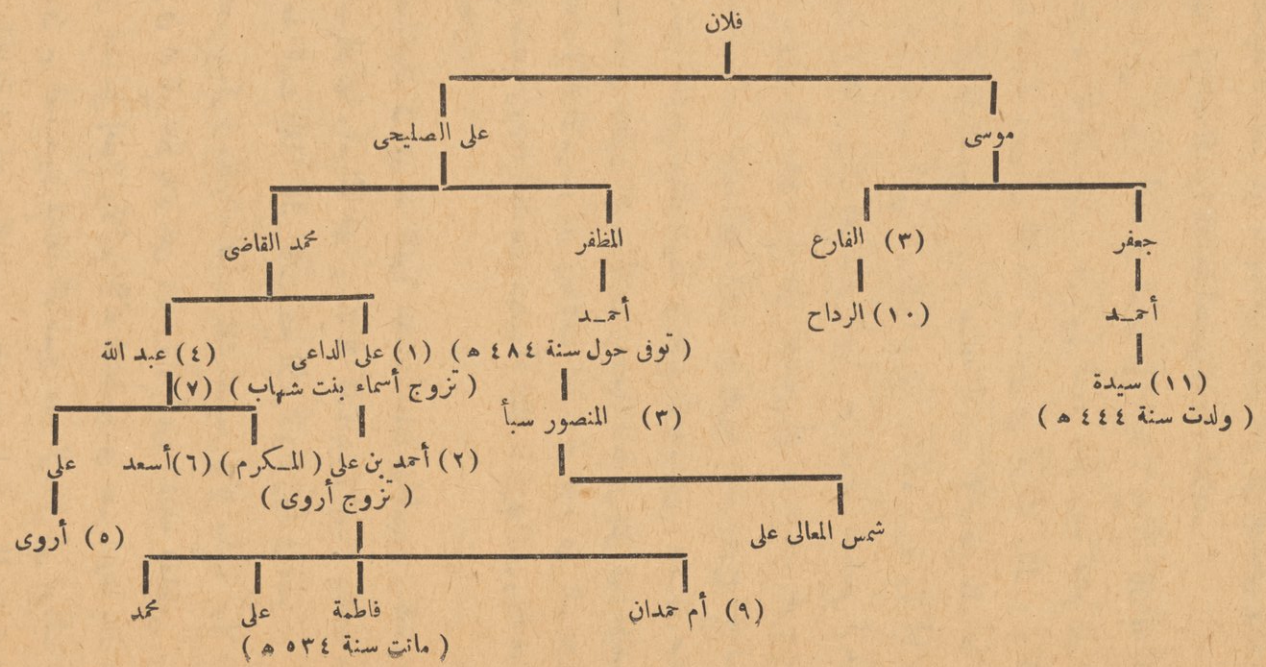

فى اليمن القصور والدور وغيرها من المساكن الفخمة التى أصبحت بعد انقراض الدولة الصليحية مصدراً لمواد البناء من طوب وحجارة وأخشاب لكل من أراد بناء دار له . وهكذا أقيمت الخطبة للخليفة المستنصر على منابر اليمن وذكر اسم على الصليحى وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب ، وزالت الدعوة للخليفة العباسى فى هذه البلاد .

ولى على بن محمد الصليحى صهره أسعد بن شهاب على زبيد ، مع أنه كان قد أقسم بألا يوليها إلا لمن يعطى له مائة ألف دينار . فلما ولى أسعد حكم زبيد تقدم إلى على الصليحى بأموال كثيرة فقال له : من أين لك هذا واستولى على خزانته وقال : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . وكان على الصليحى ، برغم اعتناقه المذهب الإسماعيلى متسامحاً مع السنيين : فقد سمح لهم بإظهار المذهب السنى الذى كانوا يدينون بعقائده . وقد ولى أبا على محمد القم الوزارة وديوان الإنشاء . وكان القم شاعراً أديباً . على أن عليا الصليحى لم يترك لوزيره شيئاً من النفوذ . وفى سنة ٤٦٠ هـ بلغ عليا الصليحى أن ابن طرف خرج عليه بمؤازرة زعماء الحبشة والسودان ، فسار إليهم وأحل بهم الهزيمة عند سفوح الجبال . وبعد أن استتب الأمر لعلى الصليحى ونشر نفوذه فى جميع أرجاء اليمن ، عاد إلى صنعاء وأقام بها اثنتى عشرة سنة وولى حصون اليمن وقلاعها ومدنها الهامة من يثق فى إخلاصهم وولائهم ، وانضوى تحت لوائه الأمراء وكبار رجالات اليمن . ثم عزم على التوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج بصحبة زوجته أسماء بنت شهاب أم الملك المكرم الذى ولاه صنعاء فى أثناء غيبته ببلاد الحجاز .

ولما كان ملوك الصليحيين فى اليمن قد قاموا بخدمات جليلة للفاطميين ، فقد وجد الخلفاء أن منح الألقاب لملوكها وأمرائها خير وسيلة لاكتساب ولائهم . وكانت هذه القبائل تطلق على أبناء هذا البيت ألقاباً كالتى كانت تمنح للأمراء والوزراء فى مصر .

وكان الخليفة المستنصر يذكر فى مكاتباته ألقاب الملك الصليحى فى كل مناسبة . ولا غرو فقد كان على الصليحى فى الواقع يحكم بلاد اليمن باعتباره نائباً عن الخليفة الفاطمى ، كما حرص هو وخلفاؤه من بعده على إظهار ولائهم للأئمة الفاطميين فى مصر . ومما يدل على هذه التبعية التى كان يدين بها الصليحيون للخلفاء الفاطميين هذه الرسائل التى تبودلت بين على بن محمد الصليحى والخليفة المستنصر الفاطمى . فقد بعث المستنصر إلى على فى عيد

الفطر من سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) برسالة يقره فيها على ولاية اليمن ويذكر له أثره فى نشر الدعوة الإسماعيلية فى بلاده[١] .

ونستطيع أن نخلص مما تقدم بأن الخلفاء الفاطميين كانوا ينظرون إلى الصليحيين نظرتهم إلى كبار رجال دولتهم ، فيمنحونهم هذه الألقاب الضخمة تشجيعاً لهم على الاستمرار فى بث الدعوة لهم واستمرار ولائهم لهم . كما كانت هذه الألقاب تقابل من ناحية الصليحيين بالارتياح والشكر للإمام الفاطمى على هذه العناية ، كما كانت هذه الألقاب من جهة أخرى تظهرهم أمام رعاياهم بمظهر القوة وتمكن من نفوذهم على أنه امتداد لنفوذ الإمام الفاطمى .

وبلغ من ثقة الخليفة المستنصر بعلى الصليحى واطمئنانه إلى ولائه أن منحه لقب «الأمير الأجل مشرف المعالى تاج الدولة سيف الإمام المظفر فى الدين نظام المؤمنين» ، كما لقبه أيضاً « منتخب الدولة وصفوتها ذا المجدين ، منجب الدولة وغرسها ذا السيفين ، نجيب الدولة وصنيعتها ذا الفضلين »[٢] . كما عهد إليه المستنصر بإقرار الأمور فى مكة والمدينة وإعادتها إلى حظيرة الدعوة الفاطمية . واستطاع على الصليحى ، بما أوتيه من الذكاء أن ينهج نهجاً جديداً فى بث عقائد المذهب الإسماعيلى ، فاتخذ من موسم الحج فرصة لنشر تعاليم المذهب . وكان يولى العامة ، وهم السواد الأعظم فى كل مجتمع ، ومنهم الجنود ، وعن طريقهم تجبى الأموال ، اهتماماً خاصاً . وكان يجذبهم إليه بتدينه وتفقهه فى عقائد المذهب السنى . على أنه لم يظهر حقيقة مذهبه إلا لمن يثق به . وبذلك استطاع على الصليحى أن يوطد أقدام الفاطميين فى بلاد الحجاز ، وأن يعيد الخطبة إلى الخليفه الفاطمى على منابرها . وقد أشاد الخليفة المستنصر بفضل على الصليحى وخلع عليه لقب « عمدة الخلافة »[٣] .

وكان موسم الحج من سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) فاتحة عهد جديد فى نجاح الدعوة الإسماعيلية على يد على الصليحى ، فقد قيل إنه بايعه ستون رجلا من قبيلة همدان على نصرة الدعوة أو الموت دونها . وكان هذا من غير شك نصراً ، ولا سيما إذا عرفنا أن هؤلاء الذين بايعوه على نصرة الدعوة الإسماعيلية كانوا فى عزة ومنعة من قومهم . وهكذا اعتمد على الصليحى فى نشر دعوته على الخاصة والعامة على السواء .

---

(١) سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله مخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن ـ نشرها الدكتور عبد المنعم ماجد (القاهرة ١٩٥٤) .

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر رقم ٣ ص ٣٤ .

(٣) المصدر نفسه . رسالة رقم ٢ ص ٣٢ .

وقد استطاع على الصليحى أن يجمع اليمن تحت لواء واحد . وهذا — كما يقول عمارة اليمنى[١] — أمر لم يعهد فى جاهلية ولا إسلام ، « ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعلى بن محمد الصليحى ، فإنه استولى على اليمن سهله وجبله وشماله وجنوبه وشرقه فى مدة يسيرة بعد أن قهر ملوكه » . وهو لذلك لا يقل عن بعض القواد الفاتحين الذين ظهر اسمهم على صفات التاريخ ، وذلك بفضل ما أحرزه من انتصارات وما قام به من أعمال مجيدة فى خلال هذه المدة القصيرة من حكمه .

وكان على الصليحى إدارياً ممتازاً ، أمر ولاة الأقاليم بأن يسيروا وفق السياسة التى رسمها لتكون أساساً ومنهجاً ومرجعاً له فى كل ما يشكل عليه . وكانوا يرجعون إليه فى كل شئون الدولة . كما كان يدعوهم إلى « مسار » حاضرة ملكه ويجتمع بهم من حين إلى حين للنظر فى مهام أمور الدولة ، ويذكرهم بواجباتهم وبالمسئوليات الخطيرة الملقاة على عاتقهم . وكانت أمور الدولة والدعوة مركزة فى شخصه ، إلا أنه كان مقيداً بالسياسة التى رسمها لنفسه من إقامة الحق وبسط العدل . ومن هذا يتضح كيف حكم على الصليحى بلاد اليمن حكما مستنيراً[٢] .

وقد أدخل على الصليحى كثيراً من وجوه الإصلاح فى بلاد الحجاز ، فخصص أموالا وفيرة للبيت العتيق وتشجيع موسم الحج ، وأحسن معاملة الناس ، ونشر العدل بينهم ، واستمالهم إليه ، وردع القبائل التى كانت تعترض طريق الحج ، وتحمل ديات القتلى من ماله الخاص ، فكسب بحسن سياسته رضا الخليفة وثقة كثير من أهالى البلاد الإسلامية بتسهيل سبل الحج وإشاعة الطمأنينة ونشر الأمن .

كما كسا على الصليحى الكعبة بالديباج الأبيض ، وجلب الأقوات إلى الحجاز ، مما ألهج نفوس أهليه بالثناء عليه والدعاء له . وقد أقام سياسته على أساس العدل والحق ، كما تقدم ، وأثر عنه أنه قال : « أنصف المظلوم واقمع الظالم » . وهذا يذكرنا بقول أبى بكر الصديق فى خطبته التى ألقاها فى اليوم الذى بايعه فيه المسلمون : « والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه »[٣] .

---

(١) تاريخ اليمن (طبعة كيبى Kay ص ١٨) .
(٢) عمارة اليمنى ص ٣٠٨ .
(٣) المصدر نفسه .

وكان الخليفة المستنصر الفاطمى يبعث إلى على الصليحى بأنباء الأحداث الهامة فى مصر ليذيعها على الناس ويعلمها من فوق منابر بلاده . فلما أغار عرب بنى هلال على إفريقية وهزموا المعز بن باديس فى معركة حيدران (بفتح الحاء وسكون الياء وضم الدال) فى المغرب ، بعث الخليفة الفاطمى إلى على الصليحى بنبأ هذا النصر(١). وقد بلغ من تعلق على الصليحى بالخليفة الفاطمى أن كتب إليه يستأذنه فى السفر إلى مصر ليحظى بلقائه ، وبعث إليه بكتابه مع الداعى لمك بن مالك ، فأرسل إليه الخليفة كتاباً يأذن له بالحضور إلى مصر . ولكن على الصليحى ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، واستخلف ابنه المكرم بصنعاء ، واغتيل على الصليحى على يد سعيد الأحول بن نجاح وهو فى طريقه إلى مكة(٢).

ولم تفتر علاقة الفاطميين بالصليحيين بوفاة على الصليحى ، بل توثقت فى عهد ابنه أحمد المكرم . ذلك أن الخليفة المستنصر ما كاد يسمع بنبأ مصرع على الصليحى ، حتى كتب إلى ابنه المكرم يعزيه فى وفاة أبيه ويقره على ملكه ويعهد إليه بشئون الدعوة الفاطمية فى اليمن وينصح له بأن يسير سيرة أبيه فى بسط العدل وحسن السيرة(٣).

ولم يفت الخليفة المستنصر أن يغدق على المكرم الألقاب والنعوت التى تقربه من الخليفة وتحببه فيه وتشجعه على السير وفق سياسة أبيه ، فلقبه بهذه الألقاب الضخمة التى كانت مألوفة فى ذلك العصر : من هذه الألقاب : « أمير الأمراء شرف المعالى عز الملك منتخب الدولة وغرسها ذو السيفين أبو الحسن بن الأجل الأوحد أمير الأمراء عمدة الخلافة شرف المعالى تاج الدولة الإمام المظفر فى الدين نظام المؤمنين(٤) .

وكان أحمد بن على الصليحى ضخم الجسم فارع الطول فارساً مقداماً ، اتصف بالشجاعة والكرم : وكان الخليفة المستنصر الفاطمى قد لقبه المكرم سنة ٤٥٦ هـ ، وذلك فى حياة أبيه ، واصبح ولياً للعهد بعد وفاة أخيه الأكبر محمد الأعز ، وأخذ يتدرب على إدارة شئون البلاد حتى تسلم عرش الدولة الصليحية .

وكانت الصعاب تحيط بالمكرم فى أول عهده . فقد قتل أبوه وهو فى طريقه لأداء

---

(١) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٥ ص ٤٥ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢١٥ .
(٣) الهمدانى وحسن سليمان ص ٢١٦ .
(٤) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٧ .

فريضة الحج كما تقدم ، وأسرت أمه الملكة السيدة الحرة الصليحية أسماء بنت شهاب وغيرها من حرائر بنى الصليحى ، وقضى على خيرة رجال دولته . وتفاقم خطر بنى نجاح كما سيأتى الكلام عليهم بعد قليل ، وكاد يقضى على الدولة الصليحية لأن أعداءها تربصوا بها الدوائر ، وأخذ بعض الولاة ينقضون عهدهم حتى كاد نفوذ الصليحيين يتلاشى من كافة أرجاء بلاد اليمن ، ولم يبق فى أيديهم إلا التعكر ، وكان العبيد قد حاصروه ، وتآمرت القبائل من كهلان وعنس ، وزبيد ويحصب على الصليحيين ، وامتد التمرد إلى صنعاء نفسها حيث كان المكرم يقيم فيها مع جماعة من الموالين من أتباعه .

ولعل السبب فيما أحاط بالمكرم من صعاب وما انتشر فى دولته من روح التمرد فى أوائل عهده ، يرجع إلى أن أهل اليمن فى ذلك العهد لم يألفوا الخضوع لسلطان حكومة مثل تلك الحكومة المركزية التى أقامها على الصليحى ، الذى لم يستطع برغم ما بذله من جهد أن يحمل اليمنيين على الخضوع لسلطة حكومة مركزية . كما أن خضوع اليمن كلها لسلطان على الصليحى لم يكن عن رغبة من أهلها ، بل كان نتيجة للحرب التى شنها على ولاياتهم المختلفة ، وما استعان به من دهاء وسياسة فى سبيل توحيد دولته . لذلك لا عجب إذا وجد الحكام فى موت على بن محمد الصليحى فرصة سانحة للعودة إلى ما كانوا عليه من دويلات وإمارات وولايات مستقلة .

على أن المكرم قد صمم على قتال الخارجين عليه . واستطاع بفضل ما أوتيه من الشجاعة وصدق العزيمة أن يذلل هذه الصعاب وأن يتخذ من ذلك اليأس الذى ولدته هذه الحالة التى يكتنفها الاضطراب مصدراً للشجاعة والإقدام ، واستطاع هو وأعوانه أن يرفعوا الحصار عن صنعاء ، وتتبعوا الأعداء وانتصروا عليهم . وكان أهم المواقع التى انتصر فيها جند المكرم موقعة الملوى ، وموقعة ذى أشرق ، وموقعة زبيد .

ولعل تخليص الملكة السيدة الحرة أسماء أم الملك المكرم يعد من أهم الأحداث التى وقعت فى عهد هذا الملك الصليحى . وقد ذكر عمارة اليمنى أن السيدة الحرة دبرت مؤامرة لقتل سعيد الأخول بن نجاح . وكان من أثر ذلك أن قتل أبوه وأسرت أمه . فلما آل الملك إلى المكرم عمل على تخليص أمه من الأسر . وقد روى المؤرخون أن المكرم وقف تحت طاقة أمه الملكة أسماء بنت شهاب فقال لها ، وكانت لا تعرفه : أدام الله عزك يامولاتنا ، فقالت : مرحباً بأوجه العرب . ثم سألته من هو ، فقال لها : أنا أحمد بن على بن محمد ، فقالت : إن أحمد بن على فى العرب كثير ، فاحسر لى عن وجهك حتى أعرفه ، فرفع اللثام عن وجهه ، فقالت : مرحباً بمولانا المكرم ، من كان

بجيشه كمجيئك فما أخطأ ولا أبطأ ثم دخل رؤساء العرب فسلموا عليها وقد كشفت عن وجهها ، وكانت هذه عادتها فى أيام زوجها لسمو قدرها عمن يحتجب عنه النساء . فنزل المكرم عن ظهر جواده وسجد لله شكراً على ما أحرزه من نصر وعفر خده فى التراب ، وأحرقت الدار التى اعتصم بها العبيد (١) .

اختط المكرم أحمد الصليحى فى مدينة ذى جبلة كثيراً من القصور والدور ، كدار العز التى كانت تطل على النهرين . كما شيد المساجد ، وبنى قبراً لأمه السيدة الحرة أسماء ، واستخلف عمران بن الفضل على صنعاء . وقد عرف المكرم — كما عرف أبوه من قبل — بحسن السيرة فى الرعية . وآثر أن يعامل الناس بالحسنى حتى يجذب إليه قلوبهم ، كما نال تقدير الرعية بما أحرزه من نصر وظفر . وفى يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٤٦٠ هـ خرج سعيد الأحول من بنى نجاح من تهامة على رأس جيش كبير وقصد صنعاء ، فتصدى المكرم الصليحى لقتاله وانتصر عليه وأرغمه على الهرب . وأقبل الناس على المكرم يطلبون منه الأمان ، فأجابهم إلى ذلك . وفى اليوم التاسع والعشرين من شهر رجب سنة ٤٦١ هـ توجه المكرم إلى صنعاء فدخلها ، وحمد الله وأثنى على الإمام المستنصر الفاطمى وعزا إليه ما أحرزه من نصر وما تم له من فتح . (٢)

وكان الخليفة المستنصر يهتم بما يجرى فى اليمن ويتابع ما يصيبه الصليحيون من نصر . فلما علم أن المكرم انتصر على سعيد الأحول بن نجاح ، كتب إليه يعلن سروره ويعرب عن اغتباطه بهذا النصر . (٣)

وقد ساد الأمن فى أنحاء دولة المكرم بعد أن قضى على الفتن والثورات حتى عاد إلى صنعاء فى شهر شعبان سنة ٤٦١ هـ ، وهنا عول على الأخذ بالثأر من سعيد بن الأحول وبنى جلدته ليستريح من شرهم ، وكان يرى فيهم عدوه التقليدى ، فقام المكرم من صنعاء وقصد سعيداً الأحول فى زبيد ، ثم جاءته الأخبار بأن سعيداً تحرك إلى المخلاف أو إلى عدن ، فاتجه المكرم بمن معه من همدان وأهل حراز نحو جبل الشعر حيث عسكر سعيد ومن معه من الأحباش الذين استولى الرعب على قلوبهم ، وحمل المكرم عليهم وهزمهم هزيمة منكرة ، وقتل سعيداً الأحول وحمل رأسه إلى المكرم الصليحى ، كما قتل من بنى نجاح

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : اليمن البلاد السعيدة ص ٨٩ — ٨٠ .

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٣٠

(٣) مسجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٨ .

بلال بن نجاح وأخوه مالك . وعاد المكرم إلى زبيد ، وصلى بالناس وخطب فيهم خطبة أفاض فيها بالدعاء لأبيه وحمد الله على ما أولاه من نعمة النصر عليهم والأخذ بثأره . ثم ترك المكرم زبيد بعد أن ولى عليها السلطان أبا حمير سبأ بن أحمد المظفر الصليحى ، وعزم على متابعة فلول جند جياش بن نجاح ، ولكنه علم أنه هرب إلى بلاد الهند . (١)

وقد تتابعت كتب المستنصر الفاطمى إلى المكرم الصليحى الذى ظل على ولائه للفاطميين ، حتى لقد ولاه الخليفة ولاية عمان سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، كما أمره بالعمل على تثبيت السيادة الفاطمية فى بلاد الحجاز وأن يؤيد الأمير عبد الله بن على العلوى أمير الأحساء . وفى ٢٩ ذى الحجة سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) بعث الخليفة المستنصر ينبئه بتقليد أمير الجيوش بدر الجمالى والى عكاء منصب الوزارة ، وما بذله من جهود فى سبيل إقرار الأمن والسكينة فى ربوع البلاد .

توفى المكرم فى سنة ٤٨٤ هـ بعد أن أصيب بالفالج ، وكان قد أوصى بأن يخلفه ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر . ولكن زوجته السيدة أرْوَى الحرة لم ترض بهذا الاختيار ، لأنها كانت تريد أن تولى ابنها عبد المستنصر ، وكان لا يزال طفلا ، وكتبت إلى الخليفة المستنصر ترجوه أن يقر ابنها على بلاد اليمن ، وقد أجابها الخليفة الفاطمى إلى طلبها ، وأخذ يرسل الرسائل باسم عبد المستنصر . ولكن أمراء اليمن لم يعترفوا بهذا الغلام ، واحتدم النزاع بين الداعى أبى حمير سبأ بن أحمد الصليحى وأبى ربيع سليمان ابن الأمير الزواحى أخى الملكة آروى الصليحية . وهدد النزاع الذى قام بين الصليحيين والزواحيين النفوذ الفاطمى فى بلاد اليمن فأرسل الخليفه المستنصر الفاطمى إلى طرفى النزاع ينهاهم عن هذا الخلاف ، ويأمرهم بطاعة السيدة الحره وابنها عبد المستنصر . ويشيد بالخدمات التى أداها على الصليحى وولده أحمد المكرم وزوجته السيدة الحرة (٢) .

ويظهر أن النفوذ الفاطمى فى اليمن كان لا يزال على قوته وأن الأحداث لم تكن لتستطيع أن تضعف من شأنه بدليل استجابة الفريقين المتنازعين لنداء الخليفة الفاطمى وتأييدهم السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر . وكتبت السيدة الحرة إلى الخليفة الفاطمى تزف إليه هذا النبأ ، فرد عليها برسالة يبدى فيها سروره واغتباطه (٣) .

---

(١) الهمدانى وحسن سليمان : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ١٢٧ — ١٣٢ .

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٣٨ ص ١٣١

(٣) المصدر نفسه ، رسالة رقم ٣٦ ص ١٢١ .

على أن عبد المستنصر لم يعمر طويلا ، فقد وافته منيته ، واحتدم النزاع بين الداعى سبأ بن أحمد وبين السيدة الحرة ، لأنه كان يريد أن يئول إليه حكم بلاد اليمن وأن يتزوج منها . ولكن السيدة الحرة أبت عليه ذلك . فسار سبأ إليها على رأس جيش عظيم ، ونشب القتال بين الفريقين ، وطلب سبأ من الخليفة الفاطمى أن يتدخل فى أمر هذا الزواج ، فكتب الخليفة إلى السيدة الحرة يأمرها بإجابة سبأ إلى طلبه حسما للنزاع ودرءاً للفتن ، فتزوجته نزولا على أمر الإمام الفاطمى ، مما يدلنا على مبلغ نفوذ الفاطميين فى نفوس اليمنيين .

وقد أنفذ الخليفة المستنصر رسولا إلى السيدة أروى فقال لها : « وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعى الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبى حمير سبأ بن أحمد بن المظفر على ما حضر من المال ، وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف وألطاف » . ولم يسع السيدة الحرة إلا أن تلبى نداء الإمام الفاطمى ، ورضيت أن تتزوج بمن تكرهه . وإن دل هذا على شىء ، فإنما يدل على ما كان للخلفاء الفاطميين من نفوذ روحى فى بلاد اليمن ، لأن السيدة أَرْوَى اعتبرت الخروج على أمر الخليفة خروجاً على الدين[١] .

وقد ظلت السيدة الحرة على ولائها للخليفة المستنصر الفاطمى ، تراسله وتراسل أمه وأخته ، حتى وثق بها هذا الخليفة كل الثقة ، وعهد إليها أن تنظم الدعوة الإسماعيلية فى الهند وفى عمان ، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة فى هذه البلاد[٢] . كما ظلت العلاقة بين الصليحيين قوية وثيقة بعد وفاة المستنصر فى سنة ٤٨٧ هـ . فبادرت السيدة الحرة إلى الاعتراف بالخليفة المستعلى برغم أنه لم يغز بإجماع أنصار الفاطميين فى مصر . فقد عمد الأفضل بن بدر الجمالى إلى إقصاء نزار بن المستنصر عن العرش ، وبايع أخاه أبا القاسم أحمد ، ولقبه المستعلى بعد أن هدد الأمراء وحملهم على تأييده . وكتب الخليفة الجديد إلى السيدة الحرة رسالة يرجع تاريخها إلى ١٨ صفر سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ — ١٠٩٦) يصف فيها ثورة أخيه نزار وتغلب وزيره الأفضل عليه ، وما كان من اعتقال نزار والقضاء على ثورته .

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٣٣ .

(٢) Hamdani, Letters of al-Mustansir (B.S.OS.) (1939), vol. III, part II, p. 321.

وفى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ — ١١٠٢ م) آل حكم التعكر إلى الملك المفضل ، وكانت التعكر — التى اتخذ ملوك اليمن إحدى مدنها وهى ذو جبلة حاضرة لهم — تحت حكم السلطان عبد الله بن محمد الصليحى أخى على بن محمد مؤسس الدولة الصليحية فى اليمن . وقد صحب المفضل وعبد الله عليّا الصليحى فى الحج وقاتلا معه وهما فى طريقهما إلى الحج . فلما جلس المكرم على عرش الدولة الصليحية ولى أسعد بن عبد الله الصليحى على التعكر ، ولكنه كان سيء السيرة ، فصرفه الملك المكرم عنها . وقد عظم شأن الملك المفضل الصليحى وامتد نفوذه على كثير من أرجاء اليمن . وكان سمحاً عادلا كريماً يسهر على تدبير شئون بلاده[١] .

وفى سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م) قدم إلى اليمن ابن نجيب الدولة ، وكان أميناً على خزانة الكتب الأفضلية ، متفقهاً فى الدين ، غزير العلم واسع الدهاء ، إلى حد أنه تقرب إلى الملك واصبح موضع ثقة ، فقلده الوزارة ووكل إليه النظر فى شئون دولته والعمل على قمع الفتن والثورات[٢] .

ولما مات الملك المفضل سنة ٥١٥ هـ ، وخلفه المأمون البطائى ، قوى شأن ابن نجيب الدولة وتفاقمت سلطته حتى آل إليه الأمر ، وكتبت السيدة الحرة إلى الخليفة الآمر الفاطمى فى مصر ، وأرسلت إليه هدية من الجواهر النفيسة بلغت قيمتها أربعين ألف دينار ، وأعربت عن ولائها له ، وأكدت له رضاء الشعب اليمنى على ابن نجيب الدولة[٣] .

كان عهد ابن نجيب الدولة عهد استقرار وأمن فى ربوع اليمن ودعم لعلاقاتها مع مصر الفاطمية حتى مات ، فكان ذلك إيذاناً بقيام الفتن والثورات بين أمراء اليمن وحكامها من ذوى المطامع حتى استتب الأمر إلى الداعى محمد بن سبأ ، وهو من سلالة على الصليحى مؤسس الدولة الصليحية ومن أشراف بلاد اليمن حتى مات سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) وآل الملك من بعده إلى عمران بن محمد بن سبأ .

ولم يتأثر دعاة الإسماعيلية فى اليمن بما أصاب الفاطميين من نزاع وفرقة إثر وفاة الخليفة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، فظلت السيدة الحرة تقيم الدعوة للخليفة المستعلى وتدين له بالولاء ، برغم تفشى النزارية وتأييد الخولانيين لهم ، مما هدد بلاد

---

(١) عمارة اليمين : تاريخ اليمن ص ٣٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣ و ٤٧ .

اليمن بمثل ما أصاب مصر من فرقة ونزاع . ولما علم الخليفة الآمر (٤٩٥ — ٥٢٤) بذلك ، أرسل الداعى على بن إبراهيم بن نجيب الدولة إلى بلاد اليمن فى سنة ٥١٣ هـ ليقف إلى جانب السيدة الحرة ويعينها فى صراعها مع أعدائها . وظل ابن نجيب الدولة يعين الملكة الحرة فى تدبير شئون البلاد واستقرار الأمور فيها . كما أرسل المأمون البطائحى وزير الآمر إلى ابن نجيب الدولة قوة من الفرسان ، تشد أزره فى نضاله مع أمراء اليمن . ولكن هذا الداعى الفاطمى خرج على الفاطميين وانحاز إلى النزارية ؛ فأرسل الخليفة الآمر يطلب منها تسليم الداعى ، فقبض عليه وأرسل إلى القاهرة حيث قتل[1] .

وقد حفظ الخليفة الفاطمى الآمر للسيدة الحرة إجابته إلى طلبه وتنفيذ أمره ، فأرسل إليها فى شهر ربيع الأول من سنة ٥٢٤ هـ يبشرها بمولد ولى عهده أبى القاسم الطيب ، ويطلب إليها أن تذيع هذا النبأ فى بلاد اليمن . ولما قتل الآمر فى سنة ٥٢٤ هـ كتم الأمير عبد المجيد بن محمد (الحافظ) ابن المستنصر أمر هذا الطفل[2] . وبذلك صرفت الخلافة عن الإمام الطيب بن الآمر ، وساء ذلك التصرف السيدة الحرة ، فاعتبرت إمامة الحافظ باطلة ، برغم مابذل من جهود فى سبيل استمالته إليها ، وظلت السيدة الحرة تدعو للطيب على منابر بلادها ، بل عملت على إقامة الدعوة له فى بلاد الحجاز . ولم يجد الحافظ بدأ من أن يرسل إلى آل زريع فى اليمن يطلب إليهم أن يدعو له ، وقلد على بن سبأ بن زريع حكم هذه البلاد ولقبه « الداعى المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين » .

وبذلك انقسمت الإسماعيلية ببلاد اليمن إلى فريقين : فريق يؤيد الطيب ، وفريق يؤيد الحافظ . وكان من أثر هذا الانقسام أن ساءت أحوال بلاد اليمن ، ولاسيما بعد وفاة السيدة الحرة فى سنة ٥٣٢ هـ . فى الوقت الذى آذنت الخلافة الفاطمية بالزوال ، وما لبث الأتابك نور الدين محمود بن زنكى أن تدخل فى شئون مصر ، وتقلد صلاح الدين الأيوبى الوزارة ، وقضى على الخلافة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وتطلع إلى بلاد اليمن ، فأرسل حملة بقيادة أخيه الأمير توران شاه ، الذى استولى على هذه البلاد ، وقضى على نفوذ الفاطميين فيها ، كما قضى على النفوذ الفاطمى فى مصر نفسها .

هكذا استمرت هذه الوحدة فى العقيدة الإسماعيلية بين مصر والمغرب والشام واليمن بضعة قرون ، كانت وحدة فى النواحى السياسية والثقافية والحضارية . وكانت مدارس

---

(١) عمارة اليمنى ص ٤٣ — ٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٢ .

صنعاء والقاهرة والقيروان ودمشق تتبادل الدعاة والعلماء والطلاب ، وتترابط فى وحدة فكرية عميقة الجذور . وإن انقسام العالم الإسلامى إلى كتلتين مذهبيتين متنازعتين : الكتلة السنية فى العراق ، ثم الكتلة الشيعية فى مصر واليمن والشام قد انتهى إلى اتحاد عام شامل تحت راية الجهاد لطرد الصليبيين من بلاد الشام وإنقاذ العالم الإسلامى مما حاق به من هذا العدوان الأثيم[1] .

رابعا — اليمن قبل الأيوبيين :

(بنو نجاح فى زبيد (٤١٢ — ٥٥٤ / ١٠٢١ — ١١٥٩)

كان نجاح مؤسس دولة بنى نجاح من أرقاء الحبشة وآخر نظار السراى فى الدول الزيادية وقد حكم زبيد إلى أن توفى سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) . واستولى الصليحيون إذ ذاك على المدينة المنورة التى أصبحت جزءاً من ممتلكاتهم إلى سنة ٤٧٧ هـ . وقد بعث على بن محمد الصليحى جيشاً يتكون من خمسة آلاف رجل لقتال بنى نجاح وأنزلوا بهم الهزيمة .

وبذلك استقر الملك للصليحيين وازدهرت الحضارة فى عهدهم ، وظهر العلماء والفقهاء مثل جياش بن نجاح . ومما يدل على استتباب الأمر للصليحيين ما كان من وفود مائة وسبعين سلطاناً من أمراء اليمن على الصليحى يعلنون ولاءهم له ويلتمسون حمايته ، فرد عليهم بهذه العبارة : « إنا أدركنا ثأرنا واسترجعنا ملكنا ، وقد أحسنا إليكم وحملنا إليكم الصيانة والعفو » . فردعليه أحدهم بقوله : « والله يامولانا لئن فعلت ذلك لنازعتك قحطان فى ملك تهامة ، ولئن كرهته بذلك ليهيجن حفائظها ، ولتطلبن دخولها » . فأجاب بقوله :

لاتقطَعنْ ذَنَب الأفعى وترسلها إنْ كنتَ شهماً فأتْبع رأسَها الذَّنبا

ثم دارت الأيام دورتها على الصليحيين واسترد بنو نجاح سلطانهم على بلاد اليمن وقتلوا من الصليحيين خلقاً كثيراً . ويقص علينا عمارة اليمنى — وكان شاهد عيان لما كان يجرى فى اليمن من أحداث بنى نجاح — فيقول : فرأيت شيخاً منهم (يعنى من الصليحيين) اتقى الحربة بولده ، فنفذت منهما جميعاً ، نعوذ بالله من جهد البلاء . قال جياش : لا أنسى رأس الصليحى فى عود المظلة وقراءة المقرىء : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل

(١) أنظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٩ ـ ٢٤٨ واليمن : البلاد السعيدة ص ٧١ ـ ٨٩ .

شيء قدير[١] ، ولا أنسى قول الشاعر العثمانى من قصيدة أنشدها مرتجلا فى هذا المقام يصف المظلة :

ما كان أقبح وجهه فى ظلها ما كان أحسن رأسه فى عودها !

فانظر إلى تفانى الشعراء فى إرضاء بنى نجاح بقتل عدوهم الصليحى وتقبيح وجهه فى حياته مع تجميله فى وفاته . وهذا يدل على الشماتة حتى عند وفاة العدو . ولاشك أن قصر عهد أسرة الصليحيين إنما ترجع إلى ما اتصفوا به من البعد عن التسامح والعفو عند المقدرة الذى يجذب القلوب ويشيع الطمأنينة فى النفوس .

وكان من أثر هزيمة الصليحيين على أيدى بنى نجاح أن هاجر هؤلاء إلى الهند فراراً من حنق أعدائهم . وعاد الأمر فى اليمن إلى بنى نجاح ، وامتلأت صدور الناس هيبة من أول ملوكهم وهو سعيد بن نجاح بعد مقتل على الصليحى ، وتغلب الولاة على ما كان فى أيديهم من القلاع ، واستقر الأمر فى تهامة لسعيد الأحول بن نجاح فى سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ م)[٢] .

وقد تقلبت زبيد أكثر من مرة فى خلال حياة سعيد الأحول بين أسرتين . وبعد سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) استمرت زبيد بصفة مستديمة تحت حكم بنى نجاح حتى أفسحت دولتهم (التى وقعت تحت حكم سلطان الوزراء) الطريق إلى المهديين فى سنة ٥٥٤ هـ (١٠٥٩ م) .

ولم يكن لأولاد فاتك بن جياش من الأمر إلا الظاهر فقط ، كإقامة خطبة الجمعة بذكر اسمهم بعد اسم الخلفاء العباسيين ونقشه على السكة ، وركوبهم بالمظلة فى أيام المواسم . أما السلطة الفعلية فقد كانت فى أيدى الوزراء من الأحباش . وكانت السلطة فى عهد المنصور بن فاتك بن جياش (٥٠٣ — ٥١٧ / ١١٠٩ — ١١٢٣) فى أيدى الوزراء كما كانت فى عهد أبيه . ومن هؤلاء الوزراء أنيس الفاتكى ، وهو من الأحباش أيضاً . وقد امتاز بالشجاعة ولو أنه اتصف بالشدة . وقد أثرى هذا الوزير ثراء كبيراً من الأموال التى استولى عليها من بنى نجاح ، حتى إنه بنى قصراً عظيما اتخذه داراً لإقامته ، بلغ عرض كل قاعة من قاعاته ثلاثين ذراعاً ، وعرض كل مجلس من مجالسه أربعين ذراعاً ، وسك

---

(١) سورة آل عمران ٣ : ٢٦ .

(٢) عمار اليمنى : تاريخ اليمن ص ٦٠ — ٦٤ .

النقود باسمه ، وأراد أن يفتك بالمنصور بن فاتك ، ولكن المنصور دبر له كميناً وقضى عليه ، واستولى على أمواله ، وجواريه ، ومن بينهن جارية مغنية تدعى « علم » تزوجها المنصور فولدت له ابنه فاتك الثانى ابن المنصور الذى آل إليه الحكم فى سنة ٥٠٣ هـ (١) .

وقد خلف أنيس الفاتكى الوزير وزراء امتاز عهدهم بالمنافسة على الوزارة ، وقامت الفتن فى البلاد . ومن هؤلاء الوزراء أبو منصور مفلح الفاتكى ، وكان حبشياً كذلك ؛ امتاز بالأدب والشجاعة والكرم .

ولما مات فاتك الثانى انتقل حكم اليمن إلى فاتك الثالث ابن منصور (٥٣١ — ٥٥٣ / ١١٣٦ — ١١٥٨) . وفى عهده ظهرت فى بلاد اليمن طبقة من العبيد ، منهم ريحان الأكبر ، وإقبال ، ومسرور ، الذين علا نفوذهم على نفوذ الوزير . وكان من أثر تآمرهم على الوزير مفلح أن أبعد بحجة محاربة ثوار عدن ، فظل مقصياً حتى مات سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) . وتقلد الوزارة من بعده طائفة من العبيد حتى زالت دولة بنى نجاح وقضى عليها على بن مهدى سنة ٥٥٤ هـ (١١٧٣ م) . وقد اضطربت البلاد بعد وفاته ، ولم يستقر الحكم بعد أن استولى عليها بنو مهدى ، وكانوا من الخوارج .

(ب) بنو مهدى (٥٥٤ — ٥٦٩/١١٥٩ — ١١٧٣)

خلف المهديون أو بنو مهدى بنى نجاح فى زبيد . وكان على بن مهدى والياً ونقيباً فى تهامة . جذب إليه أشياعاً أطلق عليهم الأنصار والمهاجرون . وفى سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) بدأ على بن مهدى يحتل الحصون ويخضع البلاد ، واستطاع أخيراً أن يهاجم زبيد ويغزوها (١١٥٩/٥٥٤) .

وقد استقر على بن مهدى فى يوم الجمعة ١٤ رجب سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩) ، ولكن عهده لم يدم أكثر من شهرين ، ومات فى شهر شوال من تلك السنة ، وخلفه ابنه المهدى (٥٥٤ — ٥٥٨ /١١٥٩ — ١١٦٢) ، ثم ابنه الثانى عبد النبى الذى خلع وخلفه أخوه عبد الله ، ولكن الحكم مالبث أن عاد إلى عبد النبى من جديد . وقد بسط نفوذه على جميع بلاد اليمن ، وعلى تهامة وبعض المراكز والمدن المجاورة ، إلا عدن التى ظلت تدفع له الجزية فحسب (٢) .

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٠ — ٧١ .

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٩٦ — ٩٧ .

وقد ذكر المؤرخون أن عدد الإمارات اليمنية التى خضعت لسلطان عبد النبى بلغ خمسة وعشرين ، وأن ثروته قد زادت زيادة تتجلى فيما تركه من المجوهرات والقصور العظيمة والملابس الثمينة .

وكان بنو مهدى لا يثقون فى أتباعهم إلا إذا ذبحوا أحد أبنائهم ، ولو كانوا من عشيرته . وكان هؤلاء الأتباع يتفانون فى تحقيق هذه الرغبة ، وذلك بتضحية أبنائهم ، ولو كانوا من عشيرته . وكان هؤلاء الأتباع يتفانون فى تحقيق هذه الرغبة ، وذلك بتضحية أبنائهم ، اعتقاداً منهم بنبوة حكام هذا البيت وأنهم ينتسبون إلى على بن أبى طالب . وقد استقر الحكم فى بنى نجاح حتى فتح الأيوبيون بلادهم فى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) [١]

(ج) بنو زُرَيْع [٢] فى عدن

٤٧٦ — ٥٦٩ / ١٠٨٣ — ١١٧٣

نصب المكرم الصليحى عباساً ومسعوداً ابنى المكرم حاكمين على عدن سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) . وقد استمر حكمهما المشترك أجيالا عدة . وقد انتهك أبو السعود وأبو الغارات استقلال ملك صنعاء ، ولكنهما لم يستطيعا الاستمرار بصفة دائمة . وكانت هذه الدولة أهم دول اليمن بعد الصليحيين . وقد دامت حتى فتحها الأيوبيون سنة ٥٦٩ هـ .

وقد لقى ملوك بنى زريع صعاباً كثيرة حتى توطد ملكهم فى آخر الأمر فى عدن . وكانت هذه الولاية من أمنع ولايات اليمن ، وبعد سبأ ابن أبى السعود بن زريع أول ملوك هذه الأسرة وكان تقليد أمراء هذه الولاية الحكم يصدر من الخليفة الفاطمى فى مصر منذ عهد الحافظ . ومن الشعراء الذين مدحوا بنى زريع شاعر مصرى من الإسكندرية يدعى ابن قلاقس . ومن قصائده فى مدح ياسر بن بلال وزير محمد بن سبأ :

سافر إذا حاولت قـــدراً ساء الهلال فصار بدراً

وفى أواخر عهد دولة بنى زريع ضعف نفوذ حكامها حتى صار الأمر إلى وزيرهم ياسر بن بلال الذى قبض على زمام الحكم فى عهد محمد عمران بن محمد بن سبأ ، فكان آخر ملوك بنى زريع ، ثم دخل الأيوبيون بلاد اليمن فى سنة ٥٦٩ هـ ١١٧٣) [٣] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٩ .
(٢) بضم الزاى وفتح الراء وسكون الياء
(٣) عمارة اليمنى ص ١١٧ — ١١٨ .

خامسا — اليمن فى عهد الأيوبيين :

وكما شاركت اليمن فى الجهاد بعد ظهور الإسلام ، كذلك شاركت فى الجهاد ضد الصليبيين والتتار . ذلك أنه لما قامت الدولة الأيوبية فى مصر على يد صلاح الدين الأيوبى قامت المنازعات بين حكام اليمن : فكانت عدن ومخلاف الجند (بفتح الجيم والنون) فى يد بنى زريع ، وكانت صنعاء وبعض مخاليفها فى يد بنى حاتم ، وكانت صعدة (بفتح الصاد وسكون العين والجوف فى يد الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان الزيدى . وكان المخلاف السليمانى فى يد الشريف غانم ابن يحيى بن حمزة ، وزبيد وما حولها فى يد عبد النبى مهدى الحميرى . وقد قامت بين حاكم المخلاف السليمانى وحاكم زبيد منازعات انتهت بقتل غانم بن يحيى واستنجاد أخيه بالخليفة العباسى فى بغداد ، فكتب إلى السلطان صلاح الدين فى مصر ، فأرسل أخاه توران شاه إلى اليمن سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) .

ويعتبر الفتح الأيوبى لبلاد اليمن أعظم حدث فى تاريخ بلاد العرب الوسيط ، فقد وحد أمراء بيت صلاح الدين بين اليمن ومصر وسورية وبلاد الجزيرة ، وفتح توران شاه زبيد وصنعاء ثم استولى على عدن ، وأناب عنه حطان بن كامل بن منقذ الكنانى فى حكم زبيد وعاد إلى سورية (٥٧١ / ١١٧٥) ، فأضاف إليه أخوه صلاح الدين ولاية الإسكندرية ، وبقى نوابه فى اليمن إلى أن توفى سنة ٥٧٦ هـ ، فولى صلاح الدين عليها أميراً من قبله . ثم ولى أخاه طغتكين بن أيوب بلاد اليمن فبقى بها حتى مات سنة ٥٩٣ هـ ، وخلفه ابنه العزيز إسماعيل ، ولكنه أساء السيرة فقتله أمراؤه وخلفه أخوه الناصر .

وهكذا توالى ولاة الأيوبيين على بلاد اليمن قرابة نصف قرن (٥٦٩ — ٦٢٥ / ١١٧٣ — ١٢٢٨) .

وإليك سلسلة نسب الأيوبيين فى بلاد العرب من حيث صلتها بالفرع الذى كان على حكم مصر ، نذكره هنا لأهميته لتاريخ بلاد اليمن .

هجرية		ميلادية
٥٦٩	الملك المعظم شمس الدين توران شاه (الأول) بن أيوب	١١٧٣
٥٧٧	الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب (وصل إلى اليمن ٥٧٨ هـ)	١١٨١
٥٩٣	معز الدين إسماعيل بن طغتكين	١١٩٦
٥٩٨	الملك الناصر أيوب بن طغتكين	١٢٠١
٦١١	الملك المظفر سليمان بن سعد الدين شاهنشاه (الثانى) (توفى سنة ٦٤٩ هـ)	١٢١٤

٦١٢ — ٦٢٥ هـ الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل ١٢٥١ — ١٢٢٨م

سادسا — بنو رسول وبنو الرسّى فى اليمن

(ا) بنو رسول (٦٢٦ — ٨٥٨ / ١٢٢٩ — ١٤٥٤)

خلف بنو رسول الأيوبيين فى حكم اليمن سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م). وقد جاءوا إلى هذه البلاد مع الأيوبيين، وامتد نفوذهم من حضرموت إلى مكة، وظل حكمهم سائداً أكثر من قرنين. وهم ينتسبون إلى أول ملوكهم وهو على بن رسول الذى ينتهى نسبه إلى الغساسنة الذين هاجروا من اليمن إلى الشام بعد انكسار سد مأرب.

وكان على بن رسول قد ولى مكة سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م)، ثم استخلفه الملك المسعود الأيوبى على اليمن فبقى بها نائباً عن الأيوبيين الذين كانوا يحكمون مصر والشام، ثم استقل على بملك اليمن وأسس الدولة الرسولية، فى تعز، وتلقب بالملك المنصور، وأعلن أنه يحكم اليمن نيابة عن الخليفة العباسى. ثم قتل على سنة ٦٤٨ هـ، فخلفه ابنه الملك المظفر يوسف صاحب جامع المظفرية فى تعز. وقد طال عهده باليمن حتى مات بقلعة تعز سنة ٦٩٤ هـ. وقد أرسل المظفر يوسف إلى قلاوون سلطان المماليك فى مصر هدايا نفيسة وخطب وده واتحدت مصر مع بلاد اليمن فى ذلك العصر.

خلف المظفر يوسف ابنه الأشرف عمر — وهو صاحب جامع المظفرية فى اليمن — ولكن عهده لم يطل، وتوفى سنة ٦٩٦ هـ، ثم خلفه أخوه الملك داود. وفى عهده توطدت الوحدة بين اليمن ومصر، وتبودلت الهدايا والتحف بين حكام البلدين، واعتنق ملك اليمن عقائد المذهب الشافعى، واشتغل بالعلم، وعنى بجمع الكتب، حتى إن خزانة كتبه حوت مائة ألف مجلد. وقد قرب إليه العلماء وأجزل لهم العطاء حتى توفى سنة ٧٢١ هـ، فخلفه ابنه المجاهد على الذى عاصر كلا من محمد بن قلاوون المملوكى وابنه الناصر حسن. وقد أساء المجاهد السيرة فقتله أنصار المجاهد الذى أعيد إلى ملكه وعزل مرتين، ثم خلفه ابنه الأفضل عباس، ثم تتابع بنو رسول على حكم اليمن حتى زالت دولتهم سنة ٨٥٨هـ(١٤٥٤م).

لم يزد جند اليمن فى عهد بنى رسول على ألفى فارس ، وكان هناك فوق ذلك نحو هذا العدد من الجند الغرباء . وكان زى الملك وعامة الجند يتكون من القباء الضيق الأكمام ويتمنطقون بالمناطق المشدودة ، وعلى رءوسهم تخافيف ، وكانون ينتعلون الخف المصنوع من الحرير ، وشعار الملك عبارة عن قماش أبيض يتخلله كثير من الورود .

وكان من أهم موظفى الدولة النائب والوزير والحاجب وكاتب السر وكاتب الجيش ومقدم ديوان المال ، وكان ملوك اليمن يحاكون سلاطين المماليك فى مصر فى زيهم وفى أكثر مظاهر السلطان ، حتى إن التوقيع على الرسائل كان على مثال توقيع سلاطين المماليك فى مصر ، وقد تضمن هذا التوقيع عبارة : « الشاكر لله على نعمائه » .

وكان للتجار مركز فى الدولة اليمنية ، لأن التجارة كانت أهم موارد الدولة فى عهد بنى رسول . وكانت بلاد الهند تمد اليمن بالسلع والسفن ، وتعتمد اليمن على أرباب الصناعات فى مصر والشام . وكان أمراؤها يجزلون لهم الرواتب ويحسنون معاملتهم ويقربون إليهم مهرة الصناع ، وبذلك يخففون من غربتهم ، ويمنحونهم ما يعوضهم عن ترك أوطانهم بما يوفرونه لهم من أسباب الرفاهية ورغد العيش . وكان اليمنيون يهتمون براحة الغرباء الوافدين على بلادهم ويكرمون وفادتهم ويفيدون من مواهبهم وكفاياتهم .

(ب) بنو الرّسى ـ الأئمة الزيديون (بصعدة وصنعاء)

(٢٨٠ — ٨٩٣/٧٠٠ — ١٣٠٠)

ويرجع تاريخ بنى الرسى إلى أيام الخليفة المأمون العباسى ، فقد خرج فى عهده محمد بن إبراهيم ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ودعا إلى نفسه إلى أن مات ، فخلفه أخوه القاسم الذى بث دعاته ـ وهو على حال استتاره زهاء عشرين سنة — فبايعه أهل مكة والمدينة والكوفة وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم ، وكاتبه أهل البصرة والأهواز وحثوه على الظهور . وقد بعث الخليفة المأمون إلى بلاد اليمن جندا يطلبونه . فاختفى فى حى من البدو . ولما ولى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ شدد فى طلب القاسم ، فانتقض عليه أمره (سنة ٢٢٠ هـ) وهرب إلى الهند وأقام بها حتى مات سنة ٢٤٥ هـ ، وعاد ابنه الحسين بن القاسم الرسى إلى اليمن ، وإليه ينسب بنو الرسى .

وكان أنصار بنى الرسى من الزيدية وغيرهم يقولون بأحقيته بالخلافة ، وكان أول من خرج منهم باليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى ودعا إلى نفسه ، وتلقب الهادى وبويع بالإمامة سنة ٢٨٨ هـ . وقد جمع حوله جمعاً من الشيعة وحارب إبراهيم بن يعفر (وقيل أسد بن يعفر من أعقاب التبابعة بصنعاء وكحلان) ، وملك صنعاء وضرب السكة باسمه ، والتف الناس حوله وقوى نفوذه بينهم . ثم عاد إلى صعدة حيث توفى سنة ٢٩٨ هـ .

وخلف يحيى بن الحسين ابنه محمد المرتضى ، ثم تتابع على ملك اليمن ملوك من بنى الرسى حتى دب الخلاف بينهم وأتاحوا بذلك الفرصة لتغلب السليمانيين أمراء مكة فى القرن السادس الهجرى . فدعا المنصور عبد الله إلى الخليفة الناصر العباسى ، وخطب له على منابر الديلم والجبل ، وظلت الحال على ذلك حتى جاء المتوكل أحمد السليمانى ، فبايع الزيدية أحمد ابن الموطىء بن الحسين المنتجب بن القاسم الرسى . وكان أحمد بن الموطىء فقيهاً أديباً عالماً نقياً قواماً صواماً . وقد سار إلى صعدة واستولى عليها من يد أحمد المتوكل زعيم السليمانيين الذى بايعه سنة ٦٤٩ هـ . واستمر حكم الزيدية بصعدة فى عقب أحمد بن الموطىء .

جدول بنى الرسى

٢٨٠ — ٧٠٠ هـ

(١) العهد الأول

أبو محمد القاسم الرسى ترجمان الدين بن إبراهيم طباطبا (توفى ٢٤٦ هـ) .

	هجرية
الحسين بن القاسم	٢٤٦
الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم (توفى ٢٩٨ هـ)	٢٨٠
المرتضى أبو القاسم محمد بن يحيى (اعتزل الحكم سنة ٣٠١ وتوفى سنة ٣١٠ هـ)	٢٩٨
الناصر أحمد بن يحيى (توفى سنة ٣٢٥ هـ)	٣٠١
المنتجب الحسين بن أحمد (توفى سنة ٣٢٤ هـ)	—
المختار أبو محمد القاسم بن أحمد	٣٢٤
المنصور يوسف الداعى بن يحيى	—
القاسم المنصور بن على الإليانى (توفى سنة ٣٩٣ هـ)	—
المهدى الحسين بن القاسم المنصور	٣٩٣

	هجرية
جعفر بن القاسم المنصور	—
أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن	٤٢٦
الناصر أبو الفتح الديلمى بن الحسين بن محمد	٤٣٠
استولى الصليحيون على صنعاء	٤٥٤
عمران بن الفضل (حاكم صليحى)	٤٨٠
سبأ بن أحمد (حاكم صليحى)	—
حاتم بن الغشيم الهمدانى	٤٩٢
عبد الله بن حاتم	٥٠٢
معن بن حاتم	٥٠٤
حميد الدولة حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل	٥٣٢
المتوكل أحمد بن سليمان بن محمد (توفى سنة ٥٦٦) (عاد الرسيون للحكم مؤقتاً)	٥٣٢
على الوحيد بن حاتم (هزمه توران شاه (الأول) الأيوبى سنة ٥٦٩)	٥٥٦

(٢) العهد الثانى

	هجرية
المنصور عبد الله بن حمزة (ولد سنة ٥٦١ هـ وتوفى فى المحرم سنة ٦١٤)	٥٩٣
استرد صنعاء	٥٩٤
الناصر عز الدين محمد بن عبد الله (بصعدة حتى سنة ٦٢٣ هـ) المحرم	٤١٦
الهادى نجم الدين يحيى بن حمزة	٦١٤
المهدى أحمد بن الحسين بن أحمد بن القاسم (توفى سنة ٦٥٦ هـ)	٦٢٣
المتوكل شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة	٦٥٦
المنتصر داود	٦٨٠
(فرع من قرابة بعيدة نسبهم مشكوك فيه)	
أحمد الإمام	٦٤٦
أبو محمد الحسن	—
يحيى بن محمد	—
حسن بن فلان	—

	هجرية
إبراهيم بن أحمد	٦٧٠
المطهر بن يحيى (ضد المنتصر داود ، توفى سنة ٦٩٧)	٦٧٤
محمد بن المطهر	٦٩٧
المطهر بن محمد	—
صلاح الدين بن المطهر	—

الدولة الموحدية فى المغرب

(١) عبد المؤمن بن على ٥٢٤ — ٥٥٨ / ١١٣٠ — ١١٦٣

(ا) مولده ونشأته :

يرجع نسب أبى محمد عبد المؤمن بن على بن يعلى [١] إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [٢] . وقد أجمع المؤرخون على أن عبد المؤمن ينتمى إلى قبيلة جومية الزناتية . وقد ولد فى سنة ٤٨٧ هـ بضيعة من أعمال تلمسان (ببلاد الجزائر الآن) تعرف بتاجرا [٣] . وكان أبوه على فقيراً يشتغل بعمل الأوانى الفخارية . وقد طلب عبد المؤمن العلم بالمساجد من صغره ، فتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، واقتبس بعض علوم اللغة والدين ، ثم التقى بأستاذه محمد بن تومرت ، فأتم دراسته عليه . وقد عرف عبد المؤمن بشدة ذكائه ونال قسطا وافراً من علوم الدين واللغة مع ما امتاز به من قوة الشخصية التى بوأته مكانة عالية بين الموحدين [٤] .

(ب) بيعته :

بايع أصحاب المهدى محمد بن تومرت العشرة عبد المؤمن بن على فى شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ . وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة البيعة الخاصة ، لأن موت المهدى ظل فى طى

---

(١) ويقول المراكشى : (المعجب ص ١٧٦) هو عبد المؤمن بن على بن علوى الجومى .

(٢) ابن أبى زرع روض القرطاس ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٣) ضبطه بن خلكان (وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٤٢ — ١٤٨) تاجرة (بتاء مربوطة فى آخر الكلمة (بدلا من الألف المقصورة) .

(٤) وقد وصف (المراكشى المعجب ص ١٩٧) عبد المؤمن فقال : « وكان معتدل القامة وضيء الوجه جهورى الصوت فصيح الألفاظ جزل المنطق . وكان محبا إلى النفوس لا يراه أحد إلا أحبه .

الخفاء أكثر من سنتين ، ثم بايع الموحدون عبد المؤمن البيعة العامة فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٥٢٦ هـ (١) . وذلك بجامع تينمل (٢) . وقد اختار الموحدون عبد المؤمن لزعامتهم لما عرفوه من اختصاص المهدى له وتقريبه إليه واطرائه لصفاته وتقديمه إياه فى الصلاة ، إلى ما لمسوه من فضله وعلمه ودينه وقوة عزيمته وحسن سياسته ورجاحة عقله وشجاعته (٣) . وقد قاتل جيوش تاشفين بن على بن يوسف بتلمسان ثم ووهران حيث لقى حتفه (٤) . ثم استولى عبد المؤمن على مدينة فاس ثم على مدينة مراكش حاضرة المرابطين بعد حروب دامية . ثم قبض على إسحاق بن على بن يوسف بن تاشفين آخر أمراء المرابطين وقتله ، وأتته القبائل من كل حدب وصوب ودخلت فى طاعته ، واستوثق له أمر المغرب ولم يبق له منازع . ثم فتح عبد المؤمن بلاد إفريقية ، ومد نفوذه إلى برقه ، وفتح بلاد الأندلس ، وخطب له على جميع المنابر فى هذه البلاد (٥) .

ولما أخضع عبد المؤمن جميع قبائل المغرب فكر فى فتح بلاد الأندلس وإعادة مجد المسلمين إلى ما كان عليه فى عهد الأمويين وقد منى نفسه باسترداد طليطلة حاضرة النصارى وطردهم نهائيا من هذه البلاد . وتاقت نفسه للجهاد ، فعزم على غزو الفرنجة براً وبحراً ، فأمر بانشاء الأساطيل فبنى أربعمائة سفينة .

وقد قيل إن المهدى ابن تومرت لما توفى تطلعت نفوس العشرة للخلافة ، وكادت الفتنة تقع بين القبائل وتختلف كلمة الموحدين ، فاجتمعوا على عبد المؤمن بن على لأنه لم تكن له بالمغرب قبيلة تنافس القبائل التى ينتمى إليها أصحابه العشرة . ولما أخذت البيعة لعبد المؤمن كان العشرة أول المبايعين له ، ثم تبعهم الخمسون من الأشياخ ثم كافة الموحدين .

(ج) غزواته :

كانت حروب عبد المؤمن بعد أن بويع بالخلافة تهدف إلى غرضين هما : إخضاع القبائل المغربية للدعوة الموحدية ، والقضاء على الدولة المرابطية . ولم يكد عبد المؤمن

---

(١) ذهب ابن صاحب الصلاة (المن بالإمامة) إلى أن الموحدين أخفوا وفاة ابن تومرت ثلاث سنين وعلى ذلك تكون البيعة العامة قد تمت سنة ٥٢٧ هـ . وقد أجمع المؤرخون على أن وفاة المهدى كانت سنة ٥٢٤ هـ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٣٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٧ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٢٠٢ .

(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٣٢ .

يلى أمور الموحدين حتى وجه همته إلى جهاد أعدائه « وقتال أهل الزيغ والعناد عن طاعته » فغزا نادلا (بسكون الدال مع اللام المقصورة) فى سنة ٥٢٦ هـ وانتصر عليها . ثم غزا بلاد « درعة » وفتحها ، كما غزا قبائل تيغر (بفتح التاء وسكون الياء) وفازار وغياثة (بكسر العين) .

وفى شهر صفر سنة ٥٣٤ هـ تفرغ عبد المؤمن لحرب المرابطين حتى سقطت دولتهم سنة ٥٤١ هـ . فقد حاصر مراسيها على جميع سواحل بلاده [١] . ثم جمع الجند وأخذ فى صنع الأسلحة على اختلافها ، حتى كان يضرب من السهام وحدها عشرة قناطير فى اليوم . ثم خرج عبد المؤمن فى سنة ٥٥٨ هـ من مراكش حاضرة ملكه للجهاد ببلاد الأندلس ، ولما وصل إلى رباط سلا كتب إلى جميع أهالى المغرب وإفريقية والسوس يدعوهم للجهاد . فأجابه عدد كبير من الموحدين وقبائل العرب والبربر ، قيل إن عددهم بلغ ثلثمائة ألف مجاهد وثمانين ألف متطوع من الفرسان ومائة ألف راجل [٢] .

(د) أخلاقه — وفاته :

كان عبد المؤمن بن على يؤثر أهل العلم ويجل العلماء ويعظمهم ويقربهم إليه ويحسن إليهم . كما كان يبعث فى طلبهم من مختلف البلاد ويوفر لهم أسباب الراحة ويسكنهم بجوار قصره ويساعدهم على طلب العلم بتوفير المأكل والمشرب لهم فى غير إسراف ولا تقتير . كما كان ينوه بذكر المتفوقين . وقد قسم عبد المؤمن الطلبة إلى طائفتين : طلبة الموحدين ، وطلبة الحضر . وكان يقصد من ذلك تمييز طلبة المصامدة عن غيرهم [٣] ويحثهم على التعمق فى دراسة عقائد المهدى بن تومرت . وكان عبد المؤمن نفسه من رجال العلم المعدودين . فقد كان كما وصفه ابن أبى زرع [٤] فصيح اللسان عالما بالجدل ، متفقها فى علم الأصول ، حافظا للحديث صحيح الرواية متبحراً فى العلوم الدينية والعقلية ، إماما فى النحو واللغة والقراءات ملما بالتاريخ والسير ، أديبا شاعراً . وقد اختار عبد المؤمن كتابه من أدباء عصره . كأبى جعفر بن عطية ، وأخيه عطية بن عطية . وأبى الحسن بن عياش وغيرهم .

---

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٢٨ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٠٢ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧٢ .

كما اتخذ عبد المؤمن وزراءه من العلماء النابهين ، كعبد السلام بن محمد الجومى ، وأبى جعفر بن عبد المؤمن ، واتخذ قضاته من الفقهاء النابهين أيضا ، كأبى عمران موسى بن سهل من أهل تينمل ، وأبى يوسف حجاج بن يوسف ، وأبى بكر بن ميمون القرطبى .

وكان المرض أقوى من عزم عبد المؤمن ودأبه على الجهاد ، فقد وافته منيته فى شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ .

(٢) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن : ٥٥٨ — ٥٨٠ / ١١٦٣ — ١١٨٤

ولد أبو يعقوب يوسف فى ٣ رجب سنة ٥٣٣ هـ[١] . وقد عهد عبد المؤمن إلى ابنه الأكبر محمد بالخلافة من بعده ، فبايعه الناس ، وقد اضطرب أمر محمد بعد وفاة أبيه وكاد الحكم يخرج من أسرة عبد المؤمن ، وقد اتفق الموحدون بزعامة أخويه يوسف وعمر على خلعه لأنه لم يكن يصلح للحكم[٢] وبايعوا أخاه يوسف ، ولم يتخلف عن بيعته سوى أخويه السيد أبى محمد صاحب بجاية وأبى عبد الله صاحب قرطبة ، وظلا على ذلك حتى سنة ٥٥٩ هـ حيث قدم عليه كل منهما وداناله بالطاعة وبايعاه[٣] .

كان أبو يعقوب يوسف حسن السياسة والتدبير محباً للجهاد . فلما ولى الخلافة سار على سياسة أبيه . فجمع الأموال الضخمة وأنفق أكثرها فى شراء السلاح وتدريب الجند . وقد قضى على ثورة « مَرْ زدغ » (بفتح الميم والزاى وسكون الراء والدال) الغمارى (بضم الغين) الصنهاجى الذى تبعه خلق كثير من غمارة وصنهاجة وأوربة (بفتح الألف مع الهمزة والراء والباء وسكون الواو) .

ودخل يوسف مدينة نازا[٤] وأحل به الهزيمة وقتله وحمل رأسه إلى مدينة مراكش حاضرة الموحدين . وكان ذلك سنة ٥٥٩ هـ .

وفى سنة ٥٦٥ هـ أمر يوسف بن عبد المؤمن أخاه أبا حفص بحرب نصارى الأندلس فسار على رأس جيش يتألف من عشرين ألف جندى سوى المتطوعين ، وغزا الموحدون طليطلة

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٧٢ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٣٦ .

(٣) ابن أبى زرع ج ٢ ص ١٨٣ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٨٤ .

وأحوازها وسبوا النساء وغنموا الأموال . ثم عاد جيشهم ظافراً منتصراً . وفى سنة ٥٨٠ هـ عزم يوسف على حرب نصارى الأندلس[١] بجيش جرار يضم قبائل عرب إفريقيا وزناتة ومصمودة وغمارة وصنهاجة وأوربة ، وقد جاز هذا الجيش إلى بلاد الأندلس فنزل بمرسى جبل الفتح (جبل طارق) ثم سار إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى اشبيلية ، واستولى على مدينة شنترين (بفتح الشين والتاء وسكون النون) غربى الأندلس فى شهر ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ . ثم غزا هذا الجيش الموحدى مدينة أشبونة (لشبونة حاضرة البرتغال الآن) ، على أن النصارى استطاعوا أن يستميلوا إليهم فريقاً من الجيش الموحدى . فقد أعلنوا ليلا أن يوسف بن عبد المؤمن قد ارتحل عائداً إلى المغرب وأوقعوا بذلك الاضطراب فى صفوف الجيش الموحدى ، وأخذ الجند يفرون من المعركة . ولما تأكد النصارى المحاصرون أن جند الموحدين قد انفضوا من حول يوسف بن عبد المؤمن فكوا الحصار ووصلوا إلى خيمة يوسف فمزقوها واقتحموا هذه الأخبية ، فقاتلهم يوسف بسيفه ، ولكنه طعن عدة طعنات وقتل ستة من حرسه وثلاث من جواريه حاولن تلقى الضربات عنه حتى وقع على الأرض . ولما شعر الجيش الموحدى أن النصارى قد دبروا هذه الخدعة للتخلص من يوسف بن عبد المؤمن عادوا إلى القتال ، ونشبت بين الفريقين معركة انتهت بانتصار المسلمين . غير أن يوسف بن عبد المؤمن لم يلبث أن مات متأثراً بجراحه وهو فى طريقه إلى الجزيرة الخضراء ، وذلك فى ١٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ وحمل جثمانه إلى تينمل ودفن بجوار أبيه[٢] .

كان يوسف بن عبد المؤمن من أعظم خلفاء الموحدين حبا للعلم وأهله ، وتقديراً لرجاله لأنه عاش فى الأندلس فى حياة أبيه الذى ولاه إشبيلية . وقد ذكر المراكشى أن يوسف بن عبد المؤمن كان ملماً بكلام العرب حافظاً لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والإسلام ، وأنه لقى وهو فى إشبيلية كثيراً من اللغويين والنحاة والمفسرين ، كأبى إسحاق إبراهيم بن عبد الملك (ويعرف بابن مُلكون) ، وكان من أحسن الناس

---

(١) بلغ يوسف بن عبد المؤمن أن ألفونس أغار على قرطبة وغرناطة ورندة (بفتح الراء والدال وسكون النون) ومالقه وغيرها . السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) ابن أبى زرع ج ٢ ص ١٩٣ .

قراءة للقرآن وحفظاً للغة وتبحراً فى النحو . كما عكف يوسف على دراسة الفلسفة والفلك والطب . وقد أولع بجمع الكتب من أنحاء الأندلس والمغرب . وكان يبعث فى طلب العلماء[١]. ومن أشهر علماء عصره الفيلسوف أبوبكر بن طفيل ، فقد كان عالما بجميع فروع الفلسفة . وقد تتلمذ على أبى بكر الصائغ المعروف بابن باجة . ولابن طفيل مصنفات هامة فى الطبيعيات والإلهيات وغيرها . كما خلف لنا رسالة « حى بن يقظان » المعروفة . ومن الفلاسفة الذين عاشوا فى عصر يوسف بن عبد المؤمن الفيلسوف العظيم أبو الوليد ابن رشد ، والوزير الطبيب أبو بكر بن زهر (بضم الزاى وسكون الهاء) ، وكان ملماً بالطب حافظاً للغة والأدب ، مشاركاً فى الفقه والحديث والتفسير ، ومنهم الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجد . وكانت مدينة مراكش فى عهد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن من أهم مراكز الثقافة الإسلامية فى العلوم والآداب والفنون[٢]. كما كانت تتطلع إليها أنظار المسلمين للدفاع عن حوزة الإسلام ضد مطامع النصارى فى بلاد الأندلس .

(٣) يعقوب المنصور : ٥٨٠ — ٥٩٥/١١٨٤ — ١١٩٩

ولد أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن من أم ولد رومية تسمى «ساحر» . وقد ذكر المراكشى أن البيعة أخذت له فى حياة أبيه[٣]. وخالفه فى ذلك جمهور المؤرخين ، فذكر ابن أبى زرع أن الموحدين بايعوه عقب وفاة أبيه[٤]، وقد استوزر يعقوب المنصور ابن أبى حفص الهنتاتى وقلد أخاه يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن قيادة الجيش الموحدى فى الأندلس .

وقد صادف يعقوب المنصور فى أوائل عهده مشكلتين كبيرتين : الأولى قيام ابن غانية فى وجهه ، والثانية تمرد نصارى الأندلس وعملهم على إضعاف العرب والاستيلاء على أملاكهم فى هذه البلاد .

---

(١) المراكشى ص ٢٣٧ — ٢٤٠ .

(٢) السلاوى . الاستقصا ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) المعجب ص ٢٦١ .

(٤) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٤٢ .

فقد وجه على بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلس رجلين من قبيلة مسوفة هما : يحيى ومحمد ، ويعرفان بابن غانية (نسبة إلى أمهما) . فأما يحيى فكان فارساً شجاعاً ، كما كان فقيها ورعاً ، وقد ولاه على بن يوسف مدينة بلنسية ، ثم ولاه قرطبة فظل على ولايتها حتى مات . وأما محمد فقد تقلد بعض أعمال قرطبة من قبل أخيه يحيى ، فلما اضطرب أمر الأندلس بعد موت على بن يوسف وقوى نفوذ الموحدين ، خشى محمد بن غانية على نفسه فعبر جزيرة « ميورقة » مع أهل بيته وحشمه فملكها ، كما استولى على جزيرتى منورقة ؛ ويابسة ، وعاش فى هذه الجزر ودعا للخلفاء العباسيين فيها ، وكان لمحمد من الأولاد : عبد الله وإسحاق والزبير وطلحة . وقد آل الحكم إلى ابنه إسحاق ثم إلى حفيده على بن إسحاق الذى حارب يعقوب المنصور الموحدى ببلاد المغرب ورأى الفرصة قد سنحت له بعد موت يوسف بن عبد المؤمن لانشغال الموحدين بحرب نصارى الأندلس . فاستولى على بن إسحاق بن غانية على بجاية ثم على قلعة بنى حماد وما حولها من البلاد . وقد خرج يعقوب المنصور من مراكش حاضرة ملكه لحرب ابن غانية الذى لم يقو على حربه على الرغم من مساعدة بهاء الدين قراقوش قائد صلاح الدين الأيوبى له وانتصر يعقوب المنصور على ابن غانية وحلفائه من العرب والمصريين وعاد إلى بلاده سنة ٥٨٤ هـ [١] .

(١) موقعة الأرك [٢] :

أما المشكلة الثانية التى واجهت يعقوب المنصور فهى تمرد نصارى الأندلس وطمعهم فى أملاك المسلمين فى هذه البلاد . فقد عبر يعقوب المنصور إلى الجزيرة الخضراء (٣ ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ) ، وسار حتى نزل شنترين ، وأغار على مدينة أشبونة وما جاورها وقطع ماصادفه من الثمار وحرق المزروعات وقتل وسبى كثيراً من الأهالى ، ثم عاد إلى المغرب بعد أن أسر ثلاثة عشر ألفاً من النصارى . ويعتبر هذا الجواز الأول إلى الأندلس [٣] .

وكان من أثر جواز يعقوب المنصور إلى الأندلس للمرة الأولى وما أحرزه على المسيحيين من نصر أن طلب الفونس الهدنة خمس سنين . فأجابه يعقوب إلى طلبه . ولكن ألفونس

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٦٧ — ٢٦٩ .

(٢) بفتح الألف مع الهمزة وفتح الراء .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٢ .

لم يكد يسترد قوته ويعد العدة لحرب الموحدين حتى نقض الهدنة وكتب إلى يعقوب المنصور كتاباً يطلب إليه فيه أن ينزل له عن بعض الحصون والمدن . ومما جاء فى هذا الكتاب :

« اللهم باسمك فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح . أما بعد ، فإنه لايخفى على ذى ذهن ثاقب ولاذى عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية ، كما أنى أمير الملة النصرانية . وقد علمت الآن ماعليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال أمر الرعية وإخلادهم إلى الراحة . وأنا أسومهم بحكم القهر وأخلاء الديار وأسى الذرارى وأمثل بالرجال . ولا عذر لك فى التخلف عن نصرتهم ، إذا أمكنتك يد القدرة »[1] .

ولما تسلم يعقوب المنصور هذا الكتاب مزقه وكتب على ظهر قطعة منه قوله تعالى : (إرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون)[2] . ثم ذيل هذه الآية القرآنية بهذه الكلمات : « ماترى لا ماتسمع »[3] .

وقد دعا يعقوب المنصور الجند من الأمصار وضرب السرادقات بظاهر مدينة مراكش . ولما تجمع الجند جاز بهم إلى بلاد الأندلس . وكان جيشه يضم قبائل العرب وزناتة ومصمودة وغمارة والمتطوعين من القبائل المغربية والأغراز والرماة والموحدين والعبيد . وقد سار الخليفة الموحدى فى إثرهم فى موكب عظيم يضم أشياخ الموحدين والفقهاء والزهاد . ثم سار هذا الجيش لملاقاة العدو حتى أصبح على بعد مرحلتين من حصن الأرك ، وذلك فى ٣ شعبان سنة ٥٩١ هـ . وعقد يعقوب المنصور اللواء لأبى يحيى بن أبى حفص الهنتاتى وبقى هو على رأس الجيش الموحدى . ولقى جيش أبى يحيى الهنتاتى ظنا منه أنه جيش الخليفة يعقوب المنصور . وحمى القتال بين الفريقين ، واستشهد أبو يحيى ، وأيقن العدو أن يعقوب المنصور قد قتل ، وأنه قد أحرز النصر على جيش الموحدين ، ثم أقبل يعقوب المنصور بجيشه وطوق جيش العدو الذى أصبح بين جيش يعقوب المنصور وجيوش زناتة والمصامدة وغمارة والعرب التى كان يقودها أبو يحيى الهنتاتى : فولى النصارى الأدبار وأعمل فيهم

---

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٢) سورة النمل ٢٧ : ٣٤ — ٣٧ .

(٣) السلاوى ج ٢ ص ١٦٧ .

المسلمون السيف وأسروا عدداً كبيراً منهم ، ودخل الموحدون حصن « الأرك » ، ونجا الفونس ونحو ثلاثين فارسا من حرسه الخاص (٣ شعبان ٥٩١ هـ) [١] .

ويذكر ابن أبي زرع أن أسرى الأرك كانوا أربعة وعشرين ألفا[٢] وأن يعقوب المنصور أطلق سراحهم . وقد ذكر ابن الأثير أن يعقوب المنصور نادى فى عسكره : من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح .

ولما حلت الهزيمة بألفونس ، حلق رأسه ونكس صليبه وركب حماراً وأقسم ألا يركب فرساً ولا بغلا ولا ينام على فراش حتى تنتصر النصرانية[٣] . ثم جمع جموعاً عظيمة ، فطلب يعقوب المنصور المدد من بلاد المغرب ودعا الناس للجهاد ، والتقى مع العدو فى شهر ربيع الأول سنة ٥٩٢ هـ وهزم النصارى هزيمة منكرة ، وغنم ما معهم من أموال وسلاح ودواب . ثم سار إلى طليطلة فحاصرها وأغار على ما يجاورها من البلاد وفتح عدداً من الحصون ، ثم عاد إلى إشبيلية فأقام بها حتى سنة ٥٩٣ هـ . ثم سار إلى بلاد النصارى الذين طلبوا الصلح ، فعدل يعقوب المنصور عن متابعة الجهاد وأجابهم إلى الصلح وعقد معهم هدنة أمدها خمس سنين ، إذ نمى إليه خبر إغارة على بن إسحاق وعاد إلى مدينة مراكش حاضرة ملكه بالمغرب . وكانت هذه الموقعة العظيمة آخر المعارك التى انتصر فيها المسلمون على نصارى الأندلس .

وقد طمع على بن إسحاق صاحب غانية فى بلاد إفريقية لتغيب يعقوب المنصور الموحدى عن المغرب ثلاث سنين للجهاد ضد النصارى فى الأندلس ، فقصد إفريقية ، وخرّب جنده هذه البلاد وعاثوا فيها فساداً ، وعزم على المسير إلى بجاية ومحاصرتها ، ثم إلى بلاد المغرب نفسها . ولما اتصل هذا النبأ بمسامع يعقوب المنصور ، هادن النصارى فى الأندلس حتى يتفرغ لحرب ابن غانية كما فعل من قبل[٤] .

---

(١) المراكشى : العجب ص ٢٨١ — ٢٨٢ . السلاوى : الاستقصاء ج ٢ ص ١٦٩ — ١٧٣ .

(٢) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٢ ص ٤٨) أن عدد قتلى النصارى فى موقعة الأرك بلغ مائة وستة وأربعين ألفا ، وأن عدد الأسرى بلغ ثلاثة عشر ألفا ، وأن المسلمين غنموا مائة وثلاثة وأربعين ألفا من الخيام ، ومن الخيل ستة وأربعين ألفا ، ومن البغال مائة ألف ، ومن الحمير مائة ألف . وقد قتل من المسلمين عشرون ألفا .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤٨ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤٨ — ٤٩ .

(ب) بين يعقوب المنصور وصلاح الدين :

استولى الصليبيون على سواحل الشام وملكوا بيت المقدس فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، ولم تستطع الدولة الفاطمية أن تخرج الصليبيين كما لم يستطع ذلك العباسيون لأن هاتين الدولتين قد تطرق إليهما الضعف والوهن . فلما آل الأمر إلى صلاح الدين الأيوبى فى مصر والشام، عزم على الجهاد ، وأخذ يستولى على مواقع الصليبيين حتى استولى على بيت المقدس سنه ٥٨٣ هـ ، فتأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين وتتابعت أساطيلهم على الإسكندرية . لذلك فكر صلاح الدين فى طلب النجدة من يعقوب المنصور الموحدى وأرسل إليه هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلا من العود ، وستمائة مثقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوساً عربية بأوتارها ، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة[١]

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً[٢] جاء فيه : « الحمد لله الذى استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الأرض ، وأغنى من أهلها من سأله القرض ، وأجرى على يده النافلة والفرض ، وزين سماء الملة بدرارى الذرارى التى بعضها من بعض »[٢] وكان عنوان الكتاب : من صلاح الدين إلى أمير المسلمين ، وفى أوله الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب . ويذكر السلاوى أن يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين ، وأن يعقوب أسرها فى نفسه ، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً . وقد قيل إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة ، وحال دون استيلاء الصليبيين على سواحل الشام ، وقد دلل ابن خلدون[٣] بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق فى إنشاء الأساطيل الجهادية .

ولا يبعد أن يكون استنجاد صلاح الدين بيعقوب المنصور الموحدى راجعاً إلى حاجة

---

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) قال السلاوى (الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣) أن هذا الكتاب من إنشاء عبد الرحيم بن على البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل .

(٣) العبر ج ٦ ص ٤٩٠ .

الأسطول المصرى إلى بعض قطع من الأسطول البحرى الموحدى لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحراً ، إذ عنى المغاربة فى عهد الموحدين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس وليكونوا دائما على أهبة الاستعداد لحرب نصارى الأندلس الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدى المسلمين بسبب الحروب المتصلة التى كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس . على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحدى لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح لأنه لم يلقبه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلا على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين ، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن يعقوب المنصور كان دائما على أهبة الاستعداد لحرب النصارى فى الأندلس . وإذا كان صلاح الدين الأيوبى قد استرد بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ، فإن يعقوب المنصور قد جاز جوازه الأول إلى الأندلس سنة ٥٨٥ هـ ، أى بعد استرداد بيت المقدس بسنتين ، ثم جاز الجواز الثانى إلى الأندلس حتى وقعت معركة « الأرك » الكبرى سنة ٥٩١ هـ . ومن هنا ندرك أن عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين الديوبى ، إن صح ما ذكره بعض المؤرخين ، كان راجعاً إلى تربص النصرانية بالإسلام فى الأندلس والمغرب معاً .

(ج) إصلاحات يعقوب المنصور — أخلاقه — وفاته .

اختط أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مدينة الرباط ورسم حدودها وبدأ بناءها قبل وفاته [١] . فلما ولى ابنه يعقوب المنصور شرع فى إتمام بناء هذه المدينة ، وبنى بها مسجداً عظيما متسع الفناء له مئذنة شامخة على هيئة منار الإسكندرية ، يصعد إليها بغير درج ، وتسمى الآن منارة حسان .

وكان عبد المؤمن بن على قد هدم سور مدينة فاس فى أثناء حروبه مع المرابطين ، فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور [٢] . ومما ساعد يعقوب على إقامة هذه المنشئات هذه الأموال الضخمة التى تدفقت على دولته . فقد ذكر المراكشى [٣] تحت عنوان

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٦٦ .

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٧٤ .

(٣) المعجب ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

« اتساع الدولة وزيادة الخراج » أن يعقوب المنصور كان يرتفع إليه خراج إفريقية وجملته فى كل سنة مائة وخمسين بغلا ، هذا من إفريقية (بلاد تونس الآن) وحدها ، ماعدا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها ، والمغرب وجزيرة الأندلس قاطبة .

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التى هى أقرب إلى الخيال . فقال بعض إنه بايع ابنه الناصر بعد عودته من موقعة الأرك ، ثم زهد فى الدنيا وساح فى الأرض حتى وافته منيته . وقال بعض آخر إنه ذهب للحج وعاد منه زاهداً فمات فى الطريق ودفن بالشام[1] . ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه مات بالمغرب سوى عبد الواحد المراكشى ، فقد ذكر أن يعقوب المنصور كان يتوق إلى فتح مصر وأن ذلك لم يزل عزمه حتى مات فى مستهل سنة ٥٩٥ هـ ، ودفن بتينمل مع آبائه[2] . ويبدو أن ما ذكره المراكشى أقرب هذه الروايات إلى الصواب ، لأن قبر يعقوب المنصور مازال إلى الآن يزار بمدينة تَيْنْمِلّ مع قبر أبيه يوسف وجده عبد المؤمن بن على .

(٤) الناصر لدين الله :

بايع يعقوب المنصور ابنه محمدا بالخلافة من بعده ، ثم جددت له البيعة بعد وفاة أبيه ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ[3] . وقد ثار على الموحدين فى مستهل عهد الناصر لدين الله رجل يدعى « علودان الغمارى » ، ولكن الناصر أحل به الهزيمة ، ثم سار إلى فاس فأتم سورها . وكان عبد المؤمن بن على قد خربه فى حروبه مع المرابطين ، ثم بنى أكثره فى عهد يعقوب المنصور على ماتقدم . ثم اتجه الناصر لدين الله إلى حرب ابن غانية بإفريقية ، وكان قد استولى على المهدية ، ثم نازل تونس سنة ٥٩٩ هـ ، وهزم الحامية الموحدية فيها ، وفرض الضرائب الفادحة على الأهلين ، وكادت إفريقية تقع فى يده ، إذ عين العمال على الأقاليم ، وأمر بذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة على ماكانت عليه الحال فى عهد المرابطين .

فلما علم الناصر لدين الله بذلك وهو بمدينة مراكش ، استشار الموحدين والفقهاء فى أمر ابن غانية ، فأشاروا عليه بمسالمته . ولكن الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى أحد العشرة من صحابة المهدى بن تومرت (وقد أقام أبناؤه الدولة الحفصية بتونس) أشار

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٥٤ .
(٢) المراكشى : المعجب ص ١٧٤ .
(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩١ .

على الناصر بقتاله ، فعمل برأيه ، وسار الجيش الموحدى لحرب ابن غانية تؤيده سفن الأسطول بقيادة يحيى بن أبى زكريا الهزرجى . فلما علم ابن غانية بقدوم الناصر ، فر من تونس إلى القيروان ، ثم اتجه إلى قفصة ثم إلى قابس ثم عاد إلى المهدية[١] ، وحاصر ابن غانية وانتصر عليه ، ففر إلى بلاده سنة ٦٠٢ هـ . وفى سنة ٦٠٣ هـ قلد الناصر لدين الله وزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى ولاية إفريقية ، فقبل هذا المنصب بعد تردد[٢] ، وبقى الحكم فى عقبه بعد سقوط الدولة الموحدية بالمغرب .

موقعة العقاب :

ولما أغار ألفونس ملك أسبانيا النصرانية على ثغور المسلمين فى الأندلس ونهبها وسبى نساءها وأطفالها ، كتب الناصر لدين الله إلى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى صاحب إفريقية يستشيره فى الغزو ويطلب إليه المساعدة ، لم يلب نداءه ، وأخذ الناصر الموحدى يستعد لقتال نصارى الأندلس[٣] . وكان الناصر مستبداً برأيه ، فكتب إلى رعاياه بإفريقية والمغرب والأندلس يدعوهم إلى جهاد العدو ، فأتته الجيوش من سائر البلاد . ثم خرج من مدينة مراكش فى ٩ شعبان سنة ٦٠٧ هـ ، واجتاز البحر بجيوشه ، واستقر بجزيرة طريف حيث لقيه قواد الأندلس ورؤساؤها وفقهاؤها ، ثم نزل مدينة إشبيليه .

وقد قسم الناصر جيشه إلى خمس فرق : فجعل العرب فرقة ، وزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل المغرب فرقة ، وجعل المتطوعة فرقة ، وجند الأندلس فرقة ، والموحدين فرقة . وأمر كل فرقة بأن تنزل فى ناحية من نواحى الأندلس ، وأوقع بذلك الرعب فى قلوب النصارى ، حتى طلب منه ملك بمبلونة الأمان واستسلم له ، فأمنه وأكرمه . ثم حاصر الناصر حصن « سلبطرة » الذى لا يوصل إليه إلا من طريق واحد شديد الوعورة ، وأمر جنده بإحاطة هذا الحصن الذى امتنع على جيش الموحدين[٤] . وقد أشار أحد شيوخ الموحدين المحنكين على الناصر بأن يعدل عن حصار هذا الحصن لصعوبة اقتحامه وأن يسير إلى ناحية أخرى ، ولكنه أخذ برأى وزيره أبى سعيد بن جامع الذى أشار عليه بأن يظل على حصار هذا الحصن حتى تستسلم حاميته . وقد ظل الحصار نحو

---

(١) السلاوى : الاستقصاء ج ٢ ص ١٩٢ .
(٢) المصدر نفسه والجزء والصفحة .
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٦ .
(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٧ .

ثمانية أشهر[١] حتى مل الجند وقلت الأقوات . ولما سمع ألفونس بما آل إليه جند المسلمين من ضعف ، دعا المقاتلين من سائر ممالك النصارى واحتل قلعة رباح من قائدها الموحدى أبى الحجاج يوسف بن قادس الذى فر مع رجاله .

ولما علم الناصر لدين الله الموحدى بذلك أغار على حصن « سلبطرة » واستولى عليه ، ثم التقى الجيشان فى حصن العُقاب ، فسار النصارى نحو فرقة المتطوعين الموحدية فقضوا عليها ، وولى الناصر الأدبار ، تاركا وراءه مئات الآلاف من القتلى . وقد دارت هذه الموقعة المشئومة فى ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ ، وتعتبر هذه الموقعة نذيراً بنهاية قوة المسلمين بالمغرب والأندلس على السواء ، بل إنها تعتبر نذيراً بقرب سقوط الدولة الموحدية التى لم تقم لها بعدها قائمة[٢] .

وقد توفى الناصر الموحدى فى ١٠ شعبان سنة ٦١٠ هـ ودفن فى اليوم التالى .

(٥) سقوط الدولة الموحدية :

لم يتصرف الناصر لدين الله فى موقعة العقاب تصرف القادة المحنكين كما كان أسلافه من قبل ، كعبد المؤمن ويعقوب المنصور . وليس من عجب فى ذلك فقد تولى الحكم ولم يكن قد ناهز السابعة عشرة من عمره . ولذلك كان يصدر عن رأى وزرائه الذين كانوا يوجهونه كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم ، حتى لقد اتهم المؤرخون وزيره أبا سعيد بن جامع بأنه كان غير أمين فى نصحه[٣] .

وكانت هزيمة « العقاب » ضربة شديدة بعيدة الأثر فى تقريب نهاية الحكم الموحدى فى المغرب والأندلس . « فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والأندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية »[٤] .

ثم مات الناصر لدين الله كمداً على ما لحق به من هزيمة منكرة فى موقعة العقاب ، وولى بعده ابنه أبو يعقوب يوسف الثانى ، وكان فى السادسة عشرة من عمره ، فطمع بعضهم فى الملك[٥] وصار الوزراء يولون صغار الأمراء لتحقيق أغراضهم وإشباع أهوائهم ،

---

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ .
(٢) المراكشى : المعجب ص ٣٢٢ .
(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٧ .
(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٠٠ .
(٥) المراكشى : المعجب ص ٣٢٧ .

ولم يخلص العرش الموحدى لأحد من بنى عبد المؤمن دون قيام الفتن والاضطرابات وانتشار الفوضى . وظلت الحال على ذلك حتى زالت الدولة الموحدية سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) .

وبعد يوسف بن الناصر ولى أبو محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (أخو يعقوب المنصور) ، وكان شيخاً كبيراً لم يستطع أن ينهض بأعباء الحكم ، فنزل عن العرش للعادل (بن يعقوب المنصور) ، وقد مات مخنوقاً بعد أن نزل عن العرش بثلاثة عشر يوماً ، وقد أبى كثير من الموحدين أن يبايعوا العادل ، واشتعلت نار الفتنة فى المغرب والأندلس ، فدعا أخوه المأمون حاكم إشبيلية لنفسه ، وقامت الثورات فى المغرب والأندلس .

وهنا كفر المأمون بالموحدين ومبادئهم وأخذ يلعن المهدى بن تومرت ويحط من شأن مبادئه وينادى بوجوب الرجوع إلى مذهب أهل السنة . وكان عهده عهد محن وخطوب ومنازعات تفرقت فيها كلمة الموحدين . فصارت جماعة معه وجماعة مع يحيى ابن الناصر الذى زالت دولة الموحدين فى عهده[1] .

ثم مات المأمون سنة ٦٣٠ هـ وولى بعده ابنه الرشيد ، فاستمال الموحدين بإعادة الدعوة الموحدية إلى ما كانت عليه . وفى عهده حدثت أحداث تنذر بسقوط الموحدين ، كظهور قبيلة بنى مرين (بفتح الميم وكسر الراء) التى حاربها الرشيد ، فأحلت به الهزيمة غير مرة . ثم مات الرشيد غريقاً فى صهاريج بستانه بمراكش سنة ٦٤٠ هـ ، وولى بعده أبو الحسن السعيد على (بن المأمون بن المنصور) الذى عقد الهدنة مع بنى مرين . ولم يلبث أن قتله بنو زيان حكام تلمسان ، فتولى بعده أبو حفص عمر الذى تلقب بالمعتضد . ولكنه لم يكد يستقر على عرشه حتى خرج عليه أمير موحدى يدعى أبا العلاء إدريس (ويلقب بأبى دبوس) الذى تحالف مع المرينيين ، ولكنهم غدروا به وقتلوه غيلة سنة ٦٦٧ هـ ، وكان ذلك نهاية الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى ، وحلت محلها الدولة المرينية[2] .

---

(١) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢١٥ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٣٣٦ .

الباب السادس

العلاقات الخارجية

---

(١) علاقة العباسيين والفاطميين بالبيزنطيين

ذكر ابن الأثير[١] أن الهدنة أبرمت بين السلطان طغرلبك السلجوقى وإمبراطور الروم وأن الهدايا تبودلت بينهما ، وأن مسجد القسطنطينية قد عمر وأقيمت فيه الصلاة وذكر اسم طغرلبك فى الخطبة .

وفى سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣م) غزت جيوش أحد ملوك الروم البلاد الإسلامية وأسر هذا الملك ، ففدا نفسه بأربعمائة ألف دينار . فلم يقبل إبراهيم ينال منه هذا العرض وحمله إلى السلطان طغرلبك . وقد طلب الملك البيزنطى من نصر الدولة بن مروان أن ينقل رغبته فى افتداء نفسه إلى السلطان ؛ فتم له ما أراد وأرسل طغرلبك الملك بغير فداء ، فعبر عن سروره بهدية أنفذها إلى السلطان لم يحمل مثلها على حد تعبير ابن الأثير[٢] .

وكان من أثر ذلك الانتصار الذى أحرزه السلاجقة على جيش الروم فى « أخلاط » غربى آسيا الصغرى سنة ٤٦٣ هـ وأسر « ديوجينس رومانوس » وتعرضه للقتل على يد أحد غلمان السلاجقة أن أحضر الإمبراطور إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقى . وعلى الرغم مما توقعه هذا الإمبراطور من القتل أو التشهير فى بلاد الإسلام أو العفو ، قبل ألب أرسلان العفو وقبول الفداء ، واستقر الرأى بينهما على قبول الفداء وقدره مليون وخمسمائة ألف دينار ، وأن يكون جند الروم على أهبة الاستعداد إذا ما طلبها السلطان السلجوقى ، وأن يطلق أسرى المسلمين فى بلاد الروم .

وقد أطلق سراح الإمبراطور مع جماعة من أمرائه وقواده ، كما منحه السلطان خمسة عشر ألف دينار يستعين بها على السفر إلى بلاده ، وعقد معه هدنة أمدها خمسون سنة ،

---

(١) الكامل جـ ٩ ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر نفسه جـ ١٠ ص ١٠ .

وخلع عليه ورده إلى مأمنه وشيعه فرسخا . ولما بلغ الروم نبأ هذه الموقعة خلعوا هذا الإمبراطور . فلما وصل إلى إحدى قلاعه وعلم بهذا النبأ لبس الصوف وتزهد ، وأوفد إلى الإمبراطور الجديد رسولا ينقل إليه ما استقر عليه الرأى مع السلطان السلجوقى ، فآثر قبول المعاهدة ، ولكنه لم يستطع أن يرسل إلى السلطان غير مائتى ألف دينار وطبقا من ذهب عليه جواهر تقدر بتسعين ألف دينار ، وأكد الإمبراطور الجديد لألب أرسلان أنه يرسل المبلغ المتفق عليه لعجز الدولة عن ذلك . وقد أشاد الشعراء بهذا النصر المؤزر[١].

وكانت العلاقة بين الدولة الفاطمية والبيزنطيين فى أوائل عهد المستنصر على شىء من الصفاء . ففى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) تم الاتفاق بين الخليفة الفاطمى والإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ — ١٠٤١ م) على أن يطلق الروم خمسة آلاف من أسرى المسلمين مقابل عمارة كنيسة القيامة التى خربها الحاكم ، كما تم الاتفاق بين المستنصر والإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢ — ١٠٥٤ م) فى سنة (٤٤٦ / ١٠٥٤) الذى تعهد بأن يمد مصر بالغلال والأقوات لمقاومة المجاعة التى حلت بها فى هذه السنة . غير أن هذا الإمبراطور توفى قبل تنفيذ هذا الاتفاق ، واشترطت الإمبراطورة تيودورا (١٠٥٤ — ١٠٥٦ م) على الخليفة الفاطمى أن يتعهد بمساعدتها إذا اعتدى على بلادها ، واشتبك الفريقان فى معارك برية كتب النصر فيها للفاطميين . ولكن أسطول البيزنطيين انتصر على الفاطميين فى مياه الشام وأسر كثيراً من قوادهم فطلب الخليفة المستنصر المهادنة ، وأوفد فى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٧ م) القاضى أبا عبد الله القضاعى لتسوية الخلاف بين البلدين[٢] .

(٢) علاقة العباسيين بالفاطميين

كان للعوامل السياسية أثر كبير فى عداء البويهيين للفاطميين ، لأنهم كانوا يخشون خطر الفاطميين على بلادهم . وقد ذكر المؤرخون أن عضد الدولة بن ركن الدولة البويهى استعد لغزو مصر ، ثم جمع العلويين ببغداد وسألهم عن نسب الفاطميين إلى على فأقروه وشهدوا بذلك .

---

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٣٧ — ٤٢ . ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) أبو الفدا ج ٢ ص ٦٢ . انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٥٩ .

ويعتبر هذا العمل بدءاً لتدوين محاضر المجالس العباسية التي عقدت ببغداد في القرن الخامس الهجري ، وأنكر فيها نسب الفاطميين إلى آل البيت ، وذلك لأن العباسيين لما أدركوا عجزهم عن مناهضة الفاطميين والقضاء عليهم بالحرب ، وهالهم إقامة الخطبة للحاكم الفاطمي في بلاد الموصل ، فكروا في القضاء على مذهبهم بالطعن في نسبهم إلى علي وفاطمة ، أو بإثارة الشك على الأقل في هذا النسب في نفوس المسلمين .

وقد ذكر أبو المحاسن في تاريخه أنه في شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ ، أمر الخليفة القادر العباسي بتدوين محضر في نسب الخلفاء الفاطميين أشهد فيه القضاة والأئمة أن الحاكم الفاطمي وأسلافه لا ينتسبون إلى علي بن أبي طالب (١) .

وممن وقع على هذا المحضر الشريف الرضي وأخوه المرتضى ، وابن الأزرق الموسوي ، ومحمد بن عمر بن يحيى العلويون ، والقاضي أبو محمد عبد الله بن الأكفاني ، والقاضي الجزري ، والإمام أبو حامد الإسفرايني (٢) والفقيه أبو محمد الكشفلي (٣) والفقيه أبو الحسين القدوري (٤) الحنفي ، والفقيه أبو علي بن حمكان ، وأبو القاسم التنوخي (٥) ، والقاضي أبو عبد الله الصيمري (٦) .

على أن الفاطميين أخذوا يضاعفون جهودهم في نشر دعوتهم وصادفوا كثيراً من النجاح في هذه السبيل ، على الرغم مما تركه هذا المحضر من أثر في نفوس بعض المسلمين . لذلك نرى الخلفاء العباسيين يكتبون في سنة ٤٤٤ هـ محضراً آخر يطعنون فيه في نسب الفاطميين (٧) ،

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) كان من أئمة زمانه في الفقه ، حتى كان يحضر مجلسه أكثر من ثلثمائة فقيه ، كما قام بالتدريس في مسجد عبد الله بن المبارك في قطيعة الربيع بن يونس ، وكان يحضر درسه سبعمائة متفقه : الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٦٨ — ٣٧٠) ، ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩ — ٢٠) .

(٣) بفتح الكاف وضم الفاء ، نسبة إلى كشفل إحدى قرى خراسان .

(٤) بضم القاف والدال ، انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بالعراق ، وكان من أشهر القضاة ، وله كتاب في الفقه يسمى مختصر القدوري .

(٥) هو علي بن المحسن بن علي بن محمد . اشتهر بالأدب ، وصحب أبا العلاء المعري ، وأخذ عنه ، وتقلد قضاء كثير من النواحي كالمدائن وقرميسين . وألف كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (القاهرة سنة ١٩١٨ — ١٩٢١) الذي ترجمه إلى الإنجليزية د . س . مرجليوث (لندن سنة ١٩٢٢) ، وتوفي سنة ٤٤٧ هـ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١١٥ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٧) المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٣ .

ثم يكتبون فى سنة ٤٨٨ هـ محضراً آخر لتنفير قلوب المسلمين من الفاطميين [١] . وكان هؤلاء الذين طعنوا فى نسب الفاطميين مدفوعين فى هذا الأمر بعوامل الخوف أو منساقين بميولهم وعدائهم للمذهب الفاطمى .

وكذلك كان الخليفة المستنصر الفاطمى لا يفتر عن الانتقام من الخلفاء العباسيين . ولذلك نراه يؤيد البساسيرى فى خروجه على الخليفة العباسى القائم ويتعهد بإمداده بالمال والرجال . ومن ثم يبعث داعيته الجرىء المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى سفيرا من قبله لإثارة حماسة جند البساسيرى وحثهم على إذكاء نار الثورة فى وجه الخليفة العباسى . ولم يدخر الخليفة الفاطمى وسعا فى إمداد البساسيرى بالأموال الضخمة والجند الذين بعث بهم إليه من بلاد الشام ، كما أرسل إليه كتابا يعبر فيه عن تقديره لموقفه [٢] .

(٣) علاقة الفاطميين بالحجاز :

وقد أخذ الفاطميون منذ عهد المعز لدين الله يهتمون ببسط نفوذهم فى بلاد الحجاز ، لأنهم كانوا يعلمون أن من يسيطر على الحرمين الشريفين يتمتع بالزعامة الروحية فى العالم الإسلامى كله ، ويكسب خلافته قوة أمام العالم الإسلامى من ناحية ، وأمام الشعوب التى يحكمونها وأمام العالم كله من ناحية أخرى . هذا إلى أن هذا الأمر يقلل من شأن الخلافة العباسية ، لأن أمير المؤمنين حقا هو الذى يستطيع أن يبسط نفوذه على الحرمين فى مكة والمدينة [٣] .

وقد أقام الحسن بن جعفر أمير مكة الخطبة للمعز الفاطمى على منابر بلاده فى سنة ٣٥٨ هـ [٤] ، كما أقيمت الخطبة لهذا الخليفة الفاطمى فى المدينة المنورة [٥] . وبذلك انتشر النفوذ الفاطمى فى بلاد الحجاز . وفى عهد العزيز انقطعت الخطبة للفاطميين [٦] ، وظلت

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٧ .
انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٩ — ٤١٠ .
(٢) المؤيد فى الدين : السيرة المؤيدية ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ١٨٤ .
(٣) محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب (القاهرة سنة ١٩٥٠) ص ١٤ .
(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٤٥ — ١٤٦ .
(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٧٢ .
(٦) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٠١ .

السيادة الفاطمية مزعزعة حتى سنة ٣٨٠ هـ حين أرسل العزيز الفاطمى حملة حاصرت مكة والمدينة وأعادت الخطبة للفاطميين ، وقطعت الدعوة للعباسيين[١] . وظلت الحال على ذلك حتى سنة ٤٠٠ هـ ، حين خلع أمير مكة طاعة الفاطميين ، ولكنه لم يلبث أن اعتذر[٢] إلى الخليفة الفاطمى ودخل فى طاعته ؛ فعفا عنه وأعاده إلى إمارة الحرمين وأقام له الخطبة ونقش اسمه على السكة[٣] . وظلت بلاد الحجاز تدين بالطاعة للفاطميين فى عهد الظاهر والمستنصر ، وأقام شكر بن أبى الفتوح الدعوة للخليفة المستنصر فى الحرمين حتى توفى سنة ٤٥٣[٤] .

ولما ولى محمد بن أبى هاشم إمارة مكة ، خلع طاعة الفاطميين ودعا للخليفة القائم العباسى ؛ فسير المستنصر على بن محمد الصليحى إلى مكة فى سنة ٤٥٥ هـ فأعاد النفوذ الفاطمى إلى الحرمين . على أن الأزمة الاقتصادية التى تعرضت لها مصر فى أواخر عهد المستنصر حالت دون استمرار سيادتها على بلاد الحجاز ، بعد أن انقطع ما كان يرد إليها من أموال . فأعاد أمير مكة الخطبة للخليفة القائم العباسى ، وراسل السلطان ألب أرسلان السلجوقى سنة ٤٦٢ هـ .

(٤) علاقة الفاطميين بالمغرب وصقلية :

استمرت تبعية بلاد المغرب للفاطميين حتى وليها المعز بن باديس الذى خرج على الفاطميين وعلى المذهب الإسماعيلى ، وشد أزر أهل السنة ودخل فى طاعة الخليفة العباسى ودعا له على منابر بلاده ونقش اسمه على السكة . ويؤيد هذه التبعية ذلك الدينار الذى ورد بمجموعة متحف برلين وقد نقش عليه : فى الوجه الأول : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، محمد رسول الله . الوجه الثانى : باسم الله ضرب بمدينة عز الإسلام القيروان سنة إحدى وأربعين وأربعمائة . يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله »[٥] .

---

(١) نفس المرجع والصفحة .
(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٥٧ .
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٨ .
(٤) ابن خلدون العبر : ج ٤ ص ١٢٢ .
أنظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٧ — ٢٣٩ .
(٥) حسن أحمد محمود ، بنو زيرى وسياستهم الداخلية ص ١٧٤ .

كما خطب المعز بن باديس للخليفة العباسى القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) على منبر جامع القيروان[١] ، وأمر باتخاذ السواد شعار العباسيين .

وإن من يتتبع العوامل التى أدت إلى زوال السيادة الفاطمية ببلاد المغرب ، يرى أن ذلك يرجع إلى انتصار مذهب مالك وسيطرة فقهاء المالكية فى القيروان على الدولة الزيرية ، فى الوقت الذى شغل فيه الخليفة المستنصر الفاطمى بالفتن والثورات والمجاعات .

ولم يقف المستنصر الفاطمى من هذه الأحداث الخطيرة التى تمخضت عن خروج إفريقية عن طاعة الفاطميين موقف المتفرج ، فقد عمل على الانتقام من بنى زيرى الذين خرجوا عليه برغم ما أسداه آباؤه لهم من مآثر فاطلق نحوهم قبائل الرياحية والزغبية[٢] من بنى هلال .

وقد خرجت قبائل هلال وسليم وزغبة ورياح وعدى والأثيج من مضاربهم بصعيد مصر سنة ٤٤٠ هـ وانقضوا على إفريقية ، وأوقعوا بالمعز بن باديس فى موقعة حيدران[٣] (٤٤٣ هـ) ، ودخلوا القيروان وخربوها ، وأتوا على تراثها الزاهر ، وضعف ملك بنى زيرى بعد ذلك حتى لم يعد يجاوز أسوار مدينة المهدية[٤] . وقد طرب المستنصر الفاطمى لهزيمة الزيريين ، واستطاع أن ينتقم لنفسه منهم ، وعبر عن سروره فى الرسالة التى بعث بها إلى على بن محمد الصليحى صاحب اليمن[٥] .

وقد ظلت الخطبة تقام للعباسيين فى المغرب حتى قامت دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت . ولما توفى ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٨ م) خلفه عبد المؤمن بن على ، الذى قطع الخطبة للخليفة العباسى المقتفى ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين[٦] . والآن ننتقل إلى الكلام على علاقة الفاطميين بصقلية :

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) من بطون بنى هلال الذين استقروا بصعيد مصر فى عهد الفاطميين .

(٣) قطعت الخطبة للفاطميين فى إفريقية سنة ٤٣٥ هـ وخرج العرب من مصر فى طريقهم إلى بلاد المغرب فى سنة ٤٤٠ هـ . ووقعت موقعة حيدران فى سنة ٤٤٣ هـ ، أى أن زحف العرب استغرق ثلاث سنوات (٤٤٠ — ٤٤٣ هـ) .

(٤) حسن أحمد محمود : بنو زيرى وسياستهم الداخلية ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٥) سجلات وتوقيعات الإمام المستنصر بالله ، رسالة رقم ٥ ص ٤٥ .

(٦) أبو المحاسن ج ٥ ص ٥٠ — ٥١ .

ظل ولاة صقلية من قبل الفاطميين منذ أوائل القرن الخامس الهجرى فى نزاع متصل مع الروم . وكان لهذا أثره فى إضعاف نفوذ الفاطميين فى هذه الجزيرة . فلما ولى الأكحل أمور هذه الجزيرة ، جمع أهلها وقال لهم : « أحب أن أفرغكم من الإفريقيين الذين شاركوكم فى بلادكم . والرأى إخراجهم ، فقالوا : قد صاهرناهم وصرنا شيئاً واحداً[1] . ،، على أن الأكحل لم يعبأ بذلك ، وأرسل إلى الإفريقيين من أهل صقلية ، فلبوا طلبه ، وظل يحمى أملاكهم ويأخذ الخراج من أهل الجزيرة . غير أن هذه السياسة التى اتبعها هذا الوالى أساءت إلى أهالى صقلية : فسار فريق منهم إلى المعز بن باديس الصنهاجى أمير إفريقية وشكوا إليه ما حل بهم ، وهددوا بتسليم بلادهم إلى الروم . فسير معهم ابنه عبد الله[2] الذى حاصر الأكحل وقتله . وثار فريق من الأهالى وولوا عليهم « حسن الصمصام » أخا الأكحل . ولكن هذا الوالى لم يكن حسن السياسة ، فثار عليه أهل الجزيرة ، واستعان بعضهم بالفرنجة ومنوهم الاستيلاء على البلاد ، فرحبوا بهذه الدعوة واستولوا على كثير من مدنها .

ولما رأى المسلمون ما حل بهم من الهزيمة ، سار فريق منهم إلى المعز بن باديس وطلبوا إليه العون على طرد الروم . فأرسل إليهم أسطولا غرق أكثر رجاله . ولم يلبث ابن باديس أن توفى ، وخلفه ابنه تميم ، فأبطل ذكر اسم الخليفة المستنصر الفاطمى فى الخطبة (٤٤٣ هـ) ونشر الدعوة للقائم العباسى . وبذلك تقلص نفوذ الفاطميين فى بلاد المغرب وصقلية ، وظلت الدعوة تقام لبنى العباس فى هذه البلاد حتى قامت دولة الموحدين كما تقدم .

أرسل تميم بن المعز بن باديس أمير إفريقية أسطولا لمساعدة المسلمين فى صقلية على طرد الروم منها . ولم يكد هذا الأسطول يصل إلى الجزيرة حتى قامت الفتنة بين أهلها وبين تميم ابن المعز ، وانتهز النرمنديون هذه الفرصة ، وأخذوا يعملون على الاستيلاء على جميع بلاد الجزيرة وثغورها ، وضيقوا الخناق على المسلمين واشتعلت الحرب بينهم وبين النرمنديين زمنا طويلا حتى اضطر المسلمون إلى التسليم ، وتم لروجر النرمندى الاستيلاء على الجزيرة سنة ٤٨٣ هـ[3] .

---

(١) أمارى : المكتبة الصقلية جـ ١ ص ٢٧٣ وما يليها .

(٢) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٣) أمارى : المكتبة الصقلية جـ ١ ص ٢٧٢ .

هكذا فقدت الدولة الفاطمية نفوذها فى صقلية بعد أن قام ولاتها بكثير من الاصلاحات فيها ، ونشروا فى بلادها ألوية العدل ، وعنوا بحفر الترع وترقية الزراعة ، فزادت ثروة سكانها ، وعمت الخيرات فيها ، وافتن أهلها فى ضروب الترف والنعيم . وظل المسلمون لا يمتازون عن النصارى فى شىء ، يتمتع كل منهم بعقيدته وأسلوب معيشته : وقد تشبه نساء النصارى بنساء المسلمين فانتقبن النقب الملونة ، وانتعلن الأخفاف المذهبة ، ولبسن الحرير الموشى بالذهب ، وتزين بكل ما يتزين به المسلمات : ولم يرهق الفاطميون النصارى بالضرائب ، بل اكتفوا بأخذ الجزية منهم : دينارين من أغنيائهم ، ودينار واحد من أرباب الحرف والصناعات .

وقد شهد عصر الخليفة المستنصر زوال النفوذ الفاطمى من بلاد المغرب وصقلية . ويرجع ذلك إلى انشغاله باخماد الفتن الداخلية التى صحبها الغلاء والوباء مما أدى إلى ضعف مصر . كما قطعت الدعوة للمستنصر بعد وفاة الصليحى فى اليمن سنة ٤٧٣ هـ .

ولم يكتف الفرنجة باستيلائهم على جزيرة صقلية ، بل تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ساحل أفريقيا الشمالى ، فاستولوا على المهدية حاضرة الدولة الفاطمية الأولى .

(٥) علاقة الفاطميين والعباسيين باليمن :

وقد راجت الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن على يد على بن محمد الصليحى (ت ٤٥٩ هـ). وكان أبوه من القضاة السنيين فى هذه البلاد . وقد استمال عامر بن عبد الله الزواحى داعى دعاة الإسماعيلية فى اليمن ، على بن محمد الصليحى ، فتحول إلى المذهب الإسماعيلى وهو فى حداثة سنه ، وتفقه فيه ، ثم حل محل عامر بن عبد الله بعد وفاته ، وأحيا الدعوة الإسماعيلية القديمة ، وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم . كما استطاع على بن محمد الصليحى أن يحتل بعض قلاع اليمن ويقضى على مناوئيه (سنة ٤٣٩ هـ) . ولما استقرت قدمه فى هذه البلاد ، « كتب إلى صاحب مصر ، وهو معد المستنصر من بنى عبيد ، ووجه إليه بهدايا ، فوجه معد المستنصر إليه برايات وألقاب ، وعقد له الولاية[1] » (سنة ٤٥٣) . ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كان على بن محمد الصليحى قد ملك معظم بلاد اليمن .

---

(١) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣ .

وقد استعان الخليفة المستنصر بعلى بن محمد الصليحى فى إزالة نفوذ العباسيين من بلاد الحجاز وإعادة سلطان الفاطميين عليها . ولما تم له ما أراد قضى على الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فيها ، ولكنه لم يلبث أن قتل فى سنة ٤٥٩ هـ [١] وهو فى طريقه إلى مكة ، وقام بالأمر من بعده ابنه الملك المكرم بن على الصليحى (ت ٤٧٨ هـ) ، ثم قامت من بعده السيدة أروى الحرة الصليحية زوجة المكرم (٥٣٢ هـ) بنشر الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن ، تلك الدعوة التى لا تزال منتشرة على أيدى البهرة فى الهند .

وقد استطاع على الصليحى أن يوطد نفوذ الفاطميين فى الحجاز وأن يعيد الخطبة للخليفة الفاطمى على منابرها ، فأشاد المستنصر بفضله وخلع عليه لقب « عمدة الخلافة » [٢] .

وكان الخليفة المستنصر يبعث إلى على الصليحى بأنباء الأحداث الهامة التى تقع فى مصر ليذيعها على الناس ويعلمها من فوق منابر بلاده .

ولم تتبدل العلاقات بين الفاطميين والصليحيين بوفاة على الصليحى سنة ٤٥٩ هـ ، بل توثقت فى عهد ابنه أحمد المكرم الذى أقره الخليفة الفاطمى على بلاد اليمن وعهد إليه بالاضطلاع بشئون الدعوة الفاطمية فى اليمن [٣] . وظلت كتب المستنصر إلى المكرم تواتيه لأنه ظل على ولائه للفاطميين . وقد عرف له الخليفة الفاطمى هذا الولاء ، فولاه عمان سنة ٤٦٩ هـ ، وأمره أن يعمل على تثبيت السيادة الفاطمية فى الحجاز وأن يؤيد الأمير عبد الله بن على العلوى أمير الأحساء [٤] . وقد ظلت السيدة الحرة على ولائها للخليفة المستنصر الفاطمى ، فعهد إليها بأن تنظم الدعوة الإسماعيلية فى الهند وفى عمان ، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة فى هذه البلاد [٥] .

---

(١) ابن خلدون : ج ٤ ص ٢١٥ .

وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاته ، فقال بعضهم إنها كانت سنة ٤٦٣ هـ ، وقال بعض آخر إنها سنة ٤٧٣ هـ . ولكن الرسائل التى تبودلت بين المستنصر الفاطمى وبين الصليحيين تؤيد موته سنة ٤٥٩ هـ. راجع سجلات المستنصر فى مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن The Letters of Al-Mustansir B. S. O. S. p. 323.

(٢) جاء فى رسالة رقم ٢ (ص ٣٢) . وقد خوطب رسلك بما يذكرون لك مما يقوى نفسك ويشرح صدرك ويشد أزرك . وزاد أمير المؤمنين فى نعوتك « عمدة الخلافة » لاعتماده عليك .

(٣) حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ٢١٦ .
راجع سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٢ ص ٣٣ .

(٤) راجع Hamdanî, Letters of Al-Mustansir (Bsos), 1934, Vol, III, Part II, pp. 316 — 317.

(٥) Ibid., p. 321.

(٦) علاقة المسلمين بالصليبيين :

(ا) أسباب الحروب الصليبية

تطلق الحروب الصليبية على الحملات التى وجهها المسيحيون فى أوربا إلى الشرق من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجرى (الحادى عشر إلى الثالث عشر الميلادى) للاستيلاء على بيت المقدس من أيدى المسلمين . وتمتاز هذه الحروب فى بدايتها على الأقل بصفتها الدينية وانعدام كل المميزات الجنسية والقومية ، إذ أصبح المتحاربون شعباً واحداً هو الشعب المسيحى . ومن ثم أطلق على هذه الحروب الحروب الصليبية .

ومن أهم الأسباب التى دفعت المسيحيين إلى خوض غمار هذه الحروب :

(١) ظهور السلاجقة فى بلاد الأناضول وآسيا الصغرى التى انتزعوها من الدولة البيزنطية فى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وهددوا القسطنطينية وانتزعوا بيت المقدس (٤٧١/١٠٧٨) من الفاطميين . وكان المسيحيون يزورون بيت المقدس فى أمن وطمأنينة . فلما جاء السلاجقة وقفوا للصليبيين بالمرصاد وأثاروا بذلك الحجاج المسيحيين الذين كانوا لشدة تعلقهم بالدين فى العصور الوسطى يعتقدون أن الحج إلى بيت المقدس يؤدى إلى غفران الذنوب والسعادة الأبدية .

وليس هذا عجيباً لأن الناس فى هذه الحروب ، وعلى الأخص فى عهد الإقطاع ، كانوا يقترفون بسبب جهلهم الآثام ، وكانوا يخشون قوة الكنيسة ويعتقدون أن لا منجاة لهم من هذه الآثام إلا بالأعمال الصالحة ، كالصوم والتقشف فى الملبس والحج إلى الأماكن المقدسة التى وطئتها أقدام المسيح وصلب على أرضها من أجل خلاص العالم . فإذا كان ثواب الحج إلى هذه الأماكن عظيما ، فإن ثواب قتال المسلمين ، أو الكفار (على ما كان يعتقد المسيحيون فى ذلك الوقت) لتخليص هذه الأماكن المقدسة أعظم . ومع ذلك فإنه يبدو أن الأخبار التى ذاعت قبل الحروب الصليبية عن تعصب السلاجقة وسوء معاملتهم الحجاج مبالغ فيها .

(٢) ظهور الروح الحربية فى الكنيسة ، تلك الروح التى قامت أول الأمر على المودة والمحبة والإخاء وحب السلام ولكنها لم تلبث أن أصبحت مصدراً لحروب دموية استمرت عدة قرون . وذلك يرجع إلى دخول العناصر المتبربرة فى الدين المسيحى واحتفاظها بنزعتها

الحربية التى درجت عليها قبل اعتناقها هذا الدين ، وإلى رغبة الكنيسة فى بسط نفوذها على الشرق كما فعل الإسلام من قبل وتأسيس مستعمرات لاتينية فيه ، ورغبة الكنيسة الغربية فى السيطرة على جميع العالم المسيحى ليكون تحت سلطة حكومة دينية واحدة رئيسها البابا . أضف الى ذلك الروح التى كانت سائدة بين الفرسان والأشراف وميلهم إلى الحروب والمخاطر فى سبيل الدفاع عن الكنيسة ورغبتهم فى تكوين إمارات فى الشرق ، ورغبة الرقيق فى التخلص من نظام الإقطاع الذى كان يربطهم بالأراضى ، وكذا التخلص من أداء ديونهم أو من زوجاتهم أو من المحاكمة على اقترفوه من الجرائم .

(٣) انتصار البابوية على الإمبراطورية وتفوق نفوذ البابا على غربى أوربا مما جعل دعوته مسموعة وكلامه مطاعا .

(٤) رغبة المدن التجارية مثل البندقية وجنوه وبيزا فى نشر تجارتها فى الشرق .

ومن العوامل التى مهدت السبيل لقيام الحروب الصليبية :

(١) انقسام دولة السلاجقة عقب موت السلطان ملكشاه وتفكك الوحدة الإسلامية وعدم وجود زعيم قوى يجمع شتات القوات الإسلامية . أضف إلى ذلك ضعف الدولة الفاطمية وعدم قدرتها على درء خطر المسيحيين عن سواحل الشام ومصر .

(٢) قيام المدن الإيطالية ، وخاصة جمهوريات جنوة والبندقية وبيزا ، وتغلب قواتها البحرية على قرصان البحر الأبيض المتوسط من العرب وأهل بلاد المغرب ، واحتلال النورمنديين جنوبى إيطاليا وصقلية مما سهل على الصليبيين عبور هذا البحر إلى فلسطين .

(٣) تحول المجريين إلى المسيحية الأمر الذى فتح الطريق بين غربى أوربا والشرق .

(ب) الدعوة إلى الحروب الصليبية

استولى أحفاد طغرلبك على آسيا الصغرى وهددوا القسطنطينية . وقد قيل إن إمبراطور الروم أرسل إلى البابا أربان الثانى يطلب مساعدته ، كما قيل أيضا إن بطرس الناسك هو الذى أثار الحرب الصليبية الأولى بسبب ما كان يذيعه من اضطهاد السلاجقة حجاج المسيحيين . على أنه يظهر من أقوال المؤرخين أن بطرس الناسك لم يذهب قط إلى فلسطين ولم ير البابا أربان إلا بعد أن أعلنت الحرب الصليبية الأولى ، وأنه بعد إعلان الجهاد جمع شرذمة من الغوغاء رجالا ونساء وسار بهم إلى فلسطين . ومهما يكن من شىء فإنه مما لا ريب فيه أن

البابا أربان الثانى رحل فى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) إلى فرنسا وعقد فى مدينة « كليرمونت » مجمعا حضره كثير من رجال الدين والفرسان ، وشرح لهم حال المسيحيين فى بيت المقدس وما يلاقيه الحجاج المسيحيون من المشاق والآلام . ودعا النصارى إلى حمل السلاح والذود عن الهيكل المقدس .

ولم يكد البابا يتم خطابه حتى أحاط به الآلاف من الناس ، وأقسموا الأيمان على أن يأخذوا بناصر دينهم . فعلق البابا لكل من المتطوعين صليبا من الخشب على ذراعه الأيمن ، فأصبح هذا الصليب شعار الحرب . ومن ذلك الوقت أطلق على هذه الحروب اسم الحروب الصليبية . ثم أعلن البابا حماية الكنيسة لأملاك المحاربين وأسراتهم ومضاعفة جزاء من يشترك فيها ، وغفران ذنوب الخاطئين ودخول من يموت منهم فى جنات النعيم . وقد بث البابا الأساقفة فى طول فرنسا وعرضها لنشر دعوة الجهاد . ومن هؤلاء بطرس الناسك ، وكان خطيبا مفوها ، وسرعان ما سرت روح الحرب الدينية إلى نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم وتسربت إلى أعماق نفوسهم ، فهرعوا من كل صوب وحدب واتحدت أوربا المتنازعة المنقسمة إلى دوقيات بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية لأول مرة ، على حين كان المسلمون إذ ذاك منقسمين على أنفسهم متنازعين .

وعلى أثر إعلان الدعوة إلى الحروب الصليبية اجتمعت طبقات من الغوغاء وساروا فى غير نظام ولا استعداد تحت قيادة بطرس الناسك ، يريدون تخليص بيت المقدس . فجعلوا ينهبون البلاد التى مروا بها ، مقترفين فى طريقهم الجرائم الشنيعة ، حتى أدى الأمر إلى قيام المجريين والبيزنطيين فى وجههم . ولما وصلوا إلى القسطنطينية رأى الإمبراطور أن يتقى شرهم ، فساعدهم على السير إلى آسيا الصغرى والتقدم إلى « نيقيا » ، حيث قابلهم السلاجقة وأفنوهم على بكرة أبيهم (٤٨٩ / ١٠٩٦) .

(ج) الحرب الصليبية الأولى

فى هذه الأثناء كان الاستعداد للحملة الصليبية الأولى قائما على قدم وساق فى أكثر ممالك أوربا . وقد قام البابا بتنظيم هذه الحملة ، فقرر أن تبدأ سيرها فى ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) وأن يكون اجتماعها خارج أسوار القسطنطينية . غير أنه لم يكن لهذه الجيوش قائد يجمع شملهم ويوحد كلمتهم . أما الزعامة فقد عهدت إلى عدد من خيرة الأشراف والقواد وأغلبهم من فرنسا وهم :

(١) جودفرى دوق اللورين الأسفل مع إخوته .

(٢) بولدوين .

(٣) يوستيس .

(٤) روبرت دوق نورمنديا وابن وليم الفاتح .

(٥) روبرت كونت فلاندر .

(٦) ستيفن كونت شارتر .

(٧) ريمون كونت تولوز .

(٨) هيو أوف فيرماندوا .

(٩) بوهيمند دوق تورنتم وابن أخيه تانكرد .

ولم يكن لهؤلاء الزعماء خطة مشتركة بل عمل كل منهم مستقلا عن الآخرين . أما ملوك أوربا فإنهم لم يشتركوا فى هذه الحملة ، إذ كان فيليب الأول ملك فرنسا وهنرى الرابع إمبراطور ألمانيا مطرودين من رحمة الكنيسة ، وكان ملوك أسبانيا فى حرب مع المسلمين ، على حين كان ملك إنجلترا شابا صغيراً لا يهمه من أمور الدين شىء . لذلك سارت هذه الحملة تحت لواء البابا يقودها نفر من الأشراف . وكان سيرها على مثال البرابرة أثناء غزواتهم لرومة لا جيشا منظما بالمعنى المعروف مما جعلها تنوء بمطالب الحياة القومية .

وقد اتخذ كل زعيم طريقا خاصا مع جنده . وقد قيل إنهم بلغوا مليونا من الرجال والنساء والأطفال والخدم ، بينهم عدد من المحاربين يختلف بين ٢٠٠ ألف و ٣٠٠ ألف مقاتل . فلما وصلوا إلى أبواب القسطنطينية خشى الإمبراطور « أليكسيوس » عاقبة أمرهم ، لكنه استطاع أن يتفق مع بعض قوادهم على أن يردوا إليه ما عسى أن يستولوا عليه من أملاكه على أن يمدهم بما يحتاجون إليه من المؤن والذخائر .

ثم عبر الصليبيون البوسفور وحاصروا مدينة نيقية ، فنقل قليج أرسلان صاحب سلطنة الروم ملكه إلى قونية ، فاتفق الروم مع السلاجقة على أن يدخلوها وحدهم . فغضب الصليبيون لذلك ، لأن الإمبراطور لم يسمح لهم بسلب المدينة . ثم تقدم الصليبيون إلى دوريليم حيث هزموا جيوش أرسلان ، بينما تفرغ الإمبراطور البيزنطى لاسترداد آسيا الصغرى ويئس من الاتفاق مع الصليبيين ، فكف عن مساعدتهم وأخذ يناهضهم لاسترداد ما دخل تحت حوزتهم .

وقد اختلف بولدوين وتانكرد كل يريد أن تكون الأولوية للوائه ؛ فانسلخ بولدوين إلى الرها تلبية لدعوة أميرها ، فاستقل بها وأسس فيها إمارة لاتينية . أما سائر الصليبيين فقد زحفوا على أنطاكية وحاصروها (أكتوبر ١٠٩٧) تسعة أشهر قاسوا فيها أشد آلام المرض والجوع حتى دب اليأس فى نفوسهم ، ثم دخلوها عنوة (١٠٩٨ م) ومثلوا بأهلها أشنع تمثيل وقتلوا منهم عشرة آلاف وأمروا عليها بوهيمند .

وباستيلاء الصليبيين على أنطاكية خلا لهم الطريق ، فاستأنفوا الزحف على أورشليم ، واقتصر الإمبراطور البيزنطى على إمدادهم بالمرشدين ، فدخلوها عنوة فى يونية سنة ١٠٩٩م. وكان عدد جيش الصليبيين إذ ذاك أربعين ألفاً ، مما يدل على معظم الخسارة التى لحقت بهم منذ رحلوا إلى أرض المشرق . وقد حدثت على أثر دخول الصليبيين مذبحة شنيعة قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً ، حتى خاضت خيولهم فى بحر من الدماء كما ذكر جودفرى فى رسالته إلى البابا يهنئه فيها بالظفر .

وعلى أثر هذا الفتح انتخب جودفرى ملكا على بيت المقدس لما امتاز به من البسالة والإقدام ، فاكتفى بلقب حامى قبر المسيح .

ثم أخذ الصليبيون يقتحمون المدن الباقية فى فلسطين ، وسهل عليهم هذه المهمة تلك المساعدات التى كانت تقدمها أساطيل المدن الإيطالية ، فاستولوا على عكاء ثم على صور ، وأنشئوا إمارة طرابلس وولوا عليها ريموند . وعلى أثر استيلاء الصليبيين على بيت المقدس عاد عامة جندهم إلى أوطانهم ، وبذلك انتهت الحرب الصليبية الأولى .

كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس أهم نتائج هذه الحرب . فلم يحفل الغربيون بالخسائر الفادحة التى حلت برجالهم . ولما عاد المحاربون إلى أوطانهم قوبلوا بكل مظاهر الحفاوة والترحيب ، وقد أثارت الحكايات التى نشرها المحاربون بين مواطنيهم كثيراً من ضروب الحمية والحماس التى مهدت لهم السبيل لتنظيم حملة صليبية أخرى إلى المشرق . كما تكونت أربع إمارات لاتينية فى الشام هى :

(١) بيت المقدس ويحكمه جودفرى ثم أخوه بولدوين من بعده .

(٢) أنطاكية وأميرها بوهيمند ثم ابن أخيه تانكرد من بعده .

(٣) طرابلس وأميرها ريمند .

(٤) الرها وأميرها بولدوين .

كما استطاعت الدولة البيزنطية أن تسترد جزءاً كبيراً من آسيا الصغرى ، وبدأت جمهوريات جنوة والبندقية وبيزا تؤسس علاقاتها التجارية مع الشرق بفضل مساعدة الصليبيين ، ورحل إلى فلسطين كثير من الغربيين واتخذوها دار إقامة واندمجوا مع الأهالى وتصاهروا معهم ، وأصبحت هذه البلاد النائية وطناً لهم . كذلك قامت العلاقات بين أمراء الصليبيين وأشرافهم وفق نظام الإقطاع الذى كان سائداً فى أوربا . فكانت كل إمارة مستقلة عن الأخرى على الرغم من أنهم اعتبروا ملك بيت المقدس سيداً لهم . وأصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة السائدة بسبب تغلب العنصر الفرنسى : ولذلك أطلق العرب اسم الفرنجة على الصليبيين جميعاً .

ولتحقيق تضامن الصليبيين فى الدفاع عن الأراضى المقدسة والعناية بالمرضى والجرحى والحجاج ، قامت عدة جمعيات دينية لتحقيق هذه الأغراض ، وأهم هذه الجمعيات : طائفة فرسان المعبد ، وفرسان القديس يوحنا ، ويسمى أعضاء هذا المعهد Templars وكان يتحتم على هؤلاء الأعضاء الطاعة والطهارة والعفاف . ولذلك انضم إليهم كثير من فرسان الغرب وأغدق عليهم الأغنياء الخيرات ، فأثروا وكونوا قلاعاً وضياعاً فى أوربا وآسيا .

(د) الحرب الصليبية الثانية (١١٠٠ — ١١٠٤ م):

لم يحسن الصليبيون فى الشرق سياستهم مع أنفسهم ولا مع إمبراطور الروم لما كان بينهم من المنافسة والحقد والضغينة والمكائد . وطالما تحالف المسيحيون مع المسلمين ضد غيرهم من المسيحيين . وتمتاز فترة هذه الحروب بوجود زعيم قوى جمع شتات المسلمين هو عماد الدين زنكى الذى وجه همته نحو إخراج الصليبيين من الشرق . وكان عماد الدين عاملا من قبل العباسيين على الموصل والعراق ذات العلاقات التجارية بأكثر بلاد الشام ، وفى سنة ٥٣٩ هـ (١٤٤٤ م) تقدم عماد الدين حتى استولى على الرها وهدد كلا من أنطاكية وبيت المقدس ، ففزع الفرنجة من خطر هذا الهجوم ، وطلب الصليبيون فى الشرق معونة دول أوربا . غير أن الحال فى أوربا قد تبدلت بوفاة البابا أربان الثانى ، فلم يلب أهل أوربا نداء الصليبيين بنفس الروح القديمة ، وذلك لقيام النزاع بين رجال الكنيسة على البابوية وضعف البابوات أنفسهم ، وازدياد ثروة أهل أوربا لرواج تجارتهم مما أدى إلى تغيير يذكر فى حالة الشعوب .

وبشغل المصالح السياسية أذهان الناس لم يعودوا يهتمون بتأييد الكنيسة ، وبدءوا يعتقدون أن سلطة البابا يجب ألا يتعدى سلطته الروحية . أضف إلى ذلك إزدياد قوة الملكية فى عهد لويس السادس ملك فرنسا ، وتأسيس رودجر النورمندى مملكة تضم صقلية وجنوبى إيطاليا ، وازدياد الثروة وازدياد النزعة الاستقلالية فى مدن سهل لومباردى ، وإيقاظ الحركة الفكرية ، إذ بدأ الناس يفكرون تفكيراً حراً غير متأثر بالتعصب الدينى . كما كان لدراسة القانون الرومانى أثر بعيد فى حرية الفكر ، وأخذ الشعراء ينظمون قصائدهم فى الغزل والخمر . وهكذا أضحى الناس لا يفكرون إلا فى التمتع بمظاهر هذه الحياة الجديدة .

لذلك كله أصبح من الصعب أن تنشب حرب صليبية أخرى . ومع ذلك فقد استطاع برنارد أوف « كليرفو » (Bernard of Glairvaux) أن يجمع بحسن بيانه وقوة حجته عدداً كبيراً من المسيحيين للدفاع عن البلاد التى كلفتهم ثمناً غاليا من المال والرجال .

على أن هذه الحرب تمتاز عن الحرب الصليبية السابقة بانضمام لويس السابع ملك فرنسا وكنراد الثالث إمبراطور ألمانيا بعد بضعة شهور . ولكن الفرنسيين والألمان اختلفوا بادىء ذى بدء فى خطة العمل حتى اضطروا إلى مواصلة سيرهم إلى الشام بطريق البحر ، فوصل الفرنسيون إلى أنطاكية . أما جيش الألمان الذى كاد أن يستأصل بدسيسة إمبراطور الروم فقد سار إلى عكاء ، واتفق الفريقان على الاستيلاء على دمشق ليسيطروا على الطريق الداخلى الموصل إلى الشام ، وارتكبوا بذلك خطئاً حربياً ، لأن أمير دمشق كان موالياً للصليبيين ، غير أن قوات عماد الدين زنكى (الذى توفى سنة ١١٤٦/٥٤١) أحاطت بهم من كل جانب تحت قيادة ابنيه سيف الدين الذى خلفه فى ولاية الموصل ، ونور الدين محمود الذى خلفه فيما بعد فى ولاية حلب ، واضطر الصليبيون إلى التقهقر ، وأرغم كنراد الثالث إمبراطور ألمانيا على العودة إلى بلاده بسبب مرضه ، وتبعه ملك فرنسا بعد قليل .

ويعتبر ذلك إخفاقاً تاما للصليبيين ومشجعاً للمسلمين . وقد هيأ هذا الإخفاق الظروف لاستيلاء نور الدين على دمشق سنة ١١٥٤/٥٤٩ ثم على حلب سنة ١١٥٩/٥٥٤ ، فعمل نور الدين على الاستيلاء على الولايات اللاتينية فى الشام ، لولا انتقال ميدان القتال إلى مصر .

وقد أخفقت الحرب الصليبية الثانية إخفاقاً تاماً وساعدت على تقوية الوحدة بين المسلمين . كما ظهر ضعف الصليبيين فى الشام ، فقل عدد الحجاج ، وضجر أهل أوربا لهذا

الإخفاق ، فلم يفكروا فى قيام حرب صليبية أخرى قبل وقت طويل .

(هـ) الحرب الصليبية الثالثة

اشتهر فى هذه الحرب زعماء كثيرون من المسلمين ، منهم نور الدين وصلاح الدين . أما نور الدين فقد قوى مركزه فى الشام باستيلائه على دمشق وحلب كما تقدم ، وأصبحت مملكة الصليبيين معرضة لهجمات المسلمين ، غير أن مسرح القتال انتقل فجأة إلى مصر بسبب ضعف الخلافة الفاطمية عقب موت الوزير الصالح طلائع بن رزيك (١١٦١/٥٥٧) واستيلاء أسد الدين شيركوه (ومعه ابن أخيه صلاح الدين) على بلبيس ثم على الفسطاط . ولكنه اضطر إلى العودة إلى الشام بعد أن وقف على ضعف مصر ، وأخذ يعمل على الاستيلاء عليها ، وفكر فى إعداد حملة ثانية على مصر . ولكن سرعان ما فكر الصليبيون فى إرسال حملة لغزو مصر ، وأغاروا على بلبيس ، فاستنجد الخليفة الفاطمى العاضد بنور الدين الذى أنفذ إلى مصر أسد الدين شيركوه على رأس جيش كثيف من التركمان ، فوصلوا إلى القاهرة وانضم إليهم المصريون ، وأرغم عمورى على العودة إلى فلسطين ، فدخل شيركوه القاهرة ورحب به المصريون وخلع عليه الخليفة الفاطمى .

ثم بدأ الوزير شاور يكيد المكائد لأسد الدين شيركوه الذى قتله فى يناير سنة ١١٦٩ (٥٦٥ هـ) واستقر فى مكانه فى الوزارة . غير أن المنية عاجلت شيركوه فى مارس من هذه السنة ، فخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى فى الوزارة ، فلم يلبث أن أزال الخلافة الفاطمية ، وامتد سلطانه إلى حلب والموصل بعد وفاة نور الدين ، ثم إلى غربى آسيا ، وأصبح الصليبيون محصورين بين قوات صلاح الدين من كل جانب .

اشترك صلاح الدين فى الحرب الصليبية الثالثة اشتراكا أكسبه تلك الشهرة التى يعرفها له التاريخ ، حيث استولى على كثير من القلاع والحصون التى كانت فى أيدى الصليبيون ، وسقط فى يده بيت المقدس . وقد هال انتصار صلاح الدين أهل أوربا وحرك هممهم بعض ملوكها ، فأعدوا العدة لحرب صليبية جديدة ، وأخذ هؤلاء الزعماء يكونون جيوشاً منظمة ، ودعوا حكامهم إلى تنظيم حملة جديدة لاسترداد هذه الأقاليم المفقودة .

وقد انتهت هذه الحرب الصليبية الثالثة بعقد صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد سنة ٥٨٨ (١١٩٢) وأصبحت فلسطين أرضا إسلامية ، ما عدا الجزء الضيق الذى يقع بجذاء الساحل ويمتد من صور إلى عكاء .

(و) الحرب الصليبية الرابعة (١٢٠٢ — ١٢٠٤ م)

كان الضعف قد أخذ من دول الغرب كل مأخذ بعد ما فقدوه من العدد والعدة فى حروبهم مع الشرق ؛ فخارت عزائمهم وضعفت نفوسهم . إلا أنه كان لا يزال هناك عدد غير قليل من الناس على استعداد لتلبية نداء البابا إنوسنت الثالث الذى استطاع أن يجمع حوله آلاف الفرسان ويتفق مع الدوق داندولو رئيس جمهورية البندقية أن يمدهم بالسفن والمؤن مقابل مبلغ من المال ، على أن يقتسموا معه ما عسى أن يستولوا عليه من الغنائم والأراضى .

ولما كان من المتعذر على الصليبيين أن يدفعوا ثمن نقل هؤلاء الفرسان ، عرض عليهم الدوج ، وكان رجلا مسنا ذا مكر ودهاء ، أن يشتركوا معه فى إخضاع مدينة « زارا » (الواقعة على بحر الأدرياتيك) تنفيذاً لأغراضه التجارية ، مقابل إعفائهم من هذا الدين . فهاجم الفريقان المدينة وخربوا ما فيها (٥٩٩ / ١٢٠٢) ، ثم طلبوا من البنادقة أن ينقلوهم على سفنهم إلى مصر أهم مراكز القوى الإسلامية فى ذلك الحين .

ولما كانت مصر ذات علاقات تجارية مع البندقية ، رأى الدوج أن يحول الصليبيين عن غرضهم الأصلى ، وعرض عليهم مهاجمة القسطنطينية لضغينة كانت فى نفسه ، ولأن هذه المدينة كان لها الزعامة بين مدن البحر الأبيض المتوسط . وقد عزز أغراض الدوج استنجاد أليكسيس (Alexius) ابن الإمبراطور المخلوع من عرش القسطنطينية بالصليبيين لاسترداد عرش أبيه مقابل مبلغ كبير من المال ، على أن تشترك معهم فيما بعد قوى إمبراطوريته فى إخضاع المسلمين .

وعلى الرغم من أن هذا العمل لا يتفق والغرض الأساسى للحملة ، رحب به الصليبيون ، غير مبالين بتهديد البابا بحرمان زعمائهم من رحمة الكنيسة ، لأن أغراضهم كانت أغراضا دنيوية مصدرها حب المال من أى طريق . فتحول الصليبيون إلى القسطنطينية واستولوا عليها ، ثم اختلفوا مع الإمبراطور لأنه لم يدفع لهم الأموال التى وعد بدفعها ، فاشتطوا فى جمع الأموال وأدى ذلك إلى قيام الثورة وفرار الإمبراطور عن حاضرة ملكه . فدمر الصليبيون المدينة ونهبوا ما فيها ، وحطموا التماثيل والتحف ، ثم اقتسموا البلاد فيما بينهم ، وانشئوا فيها ما عرف باسم الإمبراطورية اللاتينية ، واختاروا بولدوين دوق فلاندر إمبراطورا على القسطنطينية .

وفى هذه الأثناء اشتبك اللاتينيون فى حرب مع البلغار قتل فيها الإمبراطور بولدوين ، وتزعزعت الإمبراطورية حتى هاجمها الإغريق الذين أقاموا حاضرتهم فى نيقية ، فقضوا عليها سنة ٦٦٠ — ٦٦١ / ١٢٦١ واستردوا ملكهم .

ولم يكن للحملة الصليبية الرابعة نتيجة سوى إضعاف وسائل الدفاع عن القسطنطينية .

أما الحملات التى تلت هذه الحروب فلم تكن ذات أهمية من حيث نتائجها ، لأن العاطفة الدينية التى انقدت فى الحرب الأولى قد خمدت جذوتها وحلت محلها الروح المادية . وليس أدل على ذلك من أن الحملات التى وجهت إلى مصر كانت ابتغاء الربح التجارى بدلا من أن توجه إلى بيت المقدس .

(٧) لماذا انتهت الحروب الصليبية ؟ نتائجها :

إذا كانت الحروب الصليبية قد وقفت عند هذا الحد فإن الفكرة ظلت فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، حين دعا البابوات أهل أوربا إلى خوض غمارها ضد المسلمين . ومع ذلك فقد لبى بعض ملوك فرنسا هذا النداء ، لا لغرض سوى اتخاذ هذه الفكرة ذريعة لجمع الضرائب .

على أن أسباب انتهاء الحروب الصليبية ترجع إلى أن الصليبيين كانوا بصفة عامة فى مبدأ أمرهم جماعات غير منظمة أو غير موحدة تحت لواء زعيم واحد يجمع شملهم ويلم شعثهم . وقد ظهرت بين صفوفهم المنافسة والمطامع الشخصية ، ثم اتجهوا أخيراً نحو الغنم المادى ، وانحرفوا عن الروح الدينى الذى قامت الحروب الصليبية من أجل تحقيقه .

وقد ظهرت النزعات القومية وحلت محل النزعات الدينية ، فأصبحت كل مملكة فى حاجة إلى الاحتفاظ بقوتها لصالح وطنها ، كما آثرت المدن التجارية المصلحة الاقتصادية على بذل الجهود فى سبيل ما يسمى الحروب الدينية .

وهكذا انتهت الحروب الصليبية بطرد الصليبيين من المشرق وانتصار المسلمين بفضل اتحاد كلمتهم وتوحيد جهودهم وبعدهم عن الحزازات الشخصية ، مما جعلهم قوة يخشى بأسها وشوكة فى جانب الأوربيين الذين كانوا يهدفون إلى استعمار هذه الجهات .

ومن هنا نرى أن الحروب الصليبية لم تحقق الأهداف التى قامت من أجلها ؛ إذا كانت الدولة اللاتينية التى قامت ببيت المقدس قصيرة الأجل . ومع هذا فقد كان للحروب الصليبية نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة ولا سيما فى البلاد التى قامت على أرضها هذه

الحروب ، وكذلك البلاد التى أقامت هذه الحروب . فقد صانت هذه الحروب الدولة البيزنطية وحالت دون إغارة السلاجقة على أوربا وامتلاكهم جزءا كبيراً منها . كما قوت مركز البابوية وعلى الأخص فى العهد الأول من هذه الحروب . وجعلت الحروب الصليبية من الفروسية نظاما ثابتاً وساعدت على ظهور جماعات الرهبان الحربية ، وأضعفت نظام الإقطاع ، إذ باع كثير من الأشراف أراضيهم ونزلوا عن ممتلكاتهم الإقطاعية للحصول على المال والاندماج فى سلك الحروب الصليبية . وكان من أثر ذلك أن قامت طائفة أشراف جديدة ، وزالت بعض الفوارق التى تميز الطبقات بعضها عن بعض . كما ظهرت الطبقات الوسطى من العمال الأحرار .

وكذلك بثت الحروب الصليبية فى شعوب أوربا وملوكها روح الاتحاد من أجل هدف واحد ، ودعمت مراكز الملوك ، وقضت على نظام الإقطاع الذى حل محله نظام القومية بين الشعوب ، كما ساعدت على نشاط حركة الملاحة لزيادة السفن التجارية التى قامت بنقل الجيوش المحاربة إلى المشرق ، وساعدت على استيلاء المسيحيين على موانى الشام وفتح أبواب التجارة بين الشرق والغرب ، وأتاحت الفرصة للغربيين على الوقوف على معالم الحضارة الإسلامية العريقة . فجعلوا ينقلون إلى بلادهم الأقمشة المزركشة والحرير والسجاجيد والمرايات وأنواع النباتات والحيوانات ، مما ساعد على نماء ثروة أوربا وتقدمها الصناعى .

وبهذا أيقظت الحروب الصليبية النشاط الأدبى فى أوربا ، فأخذ الكتاب يكتبون القصص ويدونون حياة أبطالهم . ومن نتائج هذه النهضة الأوربية ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية وإنشاء مدرسة لتعليم اللغات السامية بباريس ، كما اقتبس الأوربيون نظم الزراعة من الشرق ، وزاد اهتمامهم بالرحلات والكشف على أثر ما نقله الصليبيون إلى بلادهم من أخبار بلاد المشرق ، وظهر من بينهم رحالون عظماء ، مثل ماركو بولو فى القرن الثالث عشر ، وخرستوف كولمب الذى كشف القارة الأمريكية سنة ١٤٩٢ ، وماجلان الذى كشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ م .

وبعد فقد أثرت الحروب الصليبية على أوربا من نواح أهمها : تأثير هذه الحروب فى الكنيسة وفى كرسى البابوية ، كما أثرت فى الحياة الداخلية والاقتصادية عند ملوك أوربا بصفة عامة ، ثم إنها أثرت أيضاً فى العلاقات الخارجية بين الدول المختلفة ، وفى العلاقات التى تربط القارة الآسيوية بأوربا وما تبع ذلك من اكتشاف الأراضى الجديدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر .

الباب السابع

الحركات السياسية والدينية

(١) القرامطة :

كان أهل حران وثنيين ينتمون فى الغالب إلى أصل إغريقى . وقد رحلوا من بلادهم الأصلية فراراً من بطش المسيحيين بهم بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمى للدولة الرومانية الشرقية فى عهد الإمبراطور جستنيان . ومع ذلك فقد تمسك هؤلاء المهاجرون بالثقافة اليونانية ولا سيما بالثقافة الأفلاطونية الحديثة . Neo-Platonic Philosophy. وفى العصر العباسى نقل وثنيو حران فلسفة اليونان وعلومهم إلى بغداد .

وكانت الكوفة التى ظهر فيها الدعاة العباسيون فى مستهل القرن الثانى للهجرة مهداً لتشيع متطرف غير إسلامى ، وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطاً من مذاهب ونحل شتى على أثر اتصاله بالديانات والعقائد التى كانت سائدة فى بلاد العراق قبل ظهور الإسلام : كالصابئة التى يعبد أتباعها النجوم والكواكب ، والمانوية ، والزرادشتية .(١) ومن الفرق الشيعية الغالية السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ الذى وضع مذهب تناسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها فى جسد آخر . ومذهب الوصاية(٢) الذى أخذه عن اليهودية دينه القديم . كما أخذ عن الفرس نظرية الحق الإلهى(٣) . بل إن السبئية أتباع ابن سبأ ألهوا علياً . كذلك نرى الكيسانية الذين ظهروا فى عهد عبد الملك ابن مروان الأموى يبنون معتقداتهم على أساس معتقدات المجوس المزدكية التى ظهرت فى بلاد الفرس فى القرن الخامس الميلادى ، والبراهمة فى الهند ، والفلاسفة القدماء ،

---

(١) وهى ديانة تقول بأن فى العالم قوتين هما الخير والشر ، ويرمز لإله الخير بالنور ولإله الشر بالظلمة ، وكانت هذه الديانة سائدة فى فارس وشرقى بلاد العرب ولا سيما جهة البحرين .

(٢) وقد قال إن عليا وصى محمد وإنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين .

(٣) وقد قال إن عليا هو الخليفة بعد النبى وإنه يستمد الحكم من الله .

والصابئة ، ويعتقدون بنبوة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية أولاد على بن أبى طالب (١)

وفى العصر العباسى الأول ظهرت طائفة الراوندية (٢) الذين عبدوا أبا جعفر المنصور وصعدوا إلى الخضراء (وهى القبة التى بناها المنصور ببغداد) فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون. ولا يزال يعزى إلى طائفة النصيرية من الفرس حتى اليوم القدرة على الطير فى الهواء كما يعزى ذلك إلى بعض البوذيين. (٣) وقد نظر المنصور إلى الراوندية كأعداء سياسيين لدولته لأنهم من اتباع عدوه أبى مسلم الخراسانى الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسروى ، كما نظر إليهم باعتبارهم زنادقة يريدون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها ، فقتلهم شر قتلة ، ولكنه لم يستطع أن يقضى عليهم ، فظهروا فى صور مختلفة نراها فى ثورة المُقَنَّع الخراسانى (٤) الذى ادعى الألوهية وزعم أن الله خلق آدم فتحول فى صورته ثم فى صورة نوح ثم فى صورة إبراهيم وغيره من الأنبياء ، ثم فى صورة محمد ثم فى صورة أبى مسلم الخراسانى ، ثم زعم أنه انتقل منه إليه (٥) .

ومن هذه الطوائف طائفة الخرّمية (٦) . أصحاب بابك (بفتح الباء الثانية) الخرمى من سلالة أبى مسلم الخراسانى . وتعد حركته استمراراً لحركة المقنع والراوندية وغيرهم . ثم ظهر من طوائف الشيعة الغالية : القرامطة والدروز والنصيرية . ذكرنا من قبل أن الخليفة العزيز الفاطمى عمل على استرداد بلاد الشام وفلسطين من أفتكين

---

(١) أنظر كتابى تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٣٩٥ ، ٤٠٤ وما يليها .

(٢) نسبة إلى روان (بفتح الواو) القريبة من أصبهان وكانت مهد دعوتهم .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٣٠٩ .

(٤) انظر كتابى تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٥) ذكر النوبختى (كتاب فرق الشيعة ص ٤٢ — ٤٣) أن المقنع كان فى مبدأ أمره ينتحل مذهب الرزامية (أتباع رزام وكانوا كيسانية الأصل) . وقالوا بتناسخ الأرواح ، واعتقدت طائفة منهم أن أبا مسلم صار إلهاً لحلول روح الله فيه وأنه حى لم يمت .

(٦) قيل إنهم سموا خرمية نسبة إلى خرما (بضم الخاء وفتح الراء مع التشديد) لمرأة مزدك التى اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها (وكان ذلك أيام قباذ أبى كسرى الأول المعروف بأنو شروان) . وقد نشأت من طائفة الخرمية المزدكية طائفة الخرمية البابكية التى تنسب إلى بابك الذى ادعى الألوهية فى عهد المأمون العباسى وتفاقم شره فى عهد المعتصم .

والقرامطة ، [١] وأنه أرسل جوهرا الصقلى على رأس جيش كبير تمكن من الاستيلاء على الرملة ، وكان القرامطة قد هربوا منها وعادوا إلى البحرين . ثم سار جوهر إلى دمشق فحاصرها ستة أشهر ، واضطر إلى التقهقر حين علم بوصول الحسن الأعصم القرمطى الذى استنجد بأفتكين ، وبما شطر عسقلان ، وحاصرا بها جوهرا ، فاضطر هذا إلى طلب الصلح كما تقدم . ومهد بعمله إلى الموقعة الحاسمة التى دارت على نهر الطواحين بالقرب من الرملة بين الفاطميين بقيادة العزيز وبين القرامطة بزعامة الحسن الأعصم ، والأتراك بزعامة أفتكين ، وحلت الهزيمة بالقرامطة وأفتكين الذى سيق إلى القاهرة مع بعض أنصاره من الأتراك والديلم [٢] ، وعادت دمشق إلى أيدى الفاطميين الذين أقيمت الدعوة لهم على منابرها.

وقد أضعفت هذه الحروب القرامطة وفككت وحدتهم ، حتى إن جماعة منهم ثاروا على آل الحسن الأعصم ، واضطروهم إلى الهجرة إلى أوال [٣] ، حيث انتقم منهم أبناء أبى طاهر [٤] . واتخذ الخليفة العزيز ، الذى كان اليد المحركة التى أوقعت الاضطراب فى صفوف القرامطة ، من ذلك فرصة لجذب هؤلاء القرامطة وإعادتهم إلى حظيرة الفاطميين . ويقول ابن خلدون [٥] : « ورجعوا إلى دعوة العلويين ومحاربة بنى العباس » . واستمر القرامطة على ولائهم للفاطميين إلى أن زالت دولتهم من جزيرة أوال سنة ٤٥٨ هـ ، ومن البحرين بعد أن قضى عليهم السنيون فى سنة ٤٧٠ هـ ، وذلك فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى . ولكنهم لم يقوموا بأعمال حربية منذ سنة ٣٧٥ هـ .

وقد استطاع الخليفة العزيز الفاطمى بحسن سياسته أن يستميل القرامطة من جديد إلى حظيرة الفاطميين وأن يثير حفيظتهم على العباسيين . يؤيد هذه الحقيقة ما ذكره ابن خلدون [٦] من أن القرامطة « رجعوا إلى دعوة العلويين (أى الفاطميين) ومحاربة بنى

---

(١) يقصد بذلك قرامطة البحرين .

(٢) يقول المقريزى (خطط ج ٢ ص ٨ — ٩) إن حارة الديلم سميت بهذا الاسم بعد أن نزل بها أفتكين ومن معه من أولاد معز الدولة بن بويه .

(٣) بضم الألف مع الهمزة .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩١ .

(٥) المصدر نفسه . انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٠ — ٤٠١ .

(٦) العبر ج ٤ ص ٩١ .

العباس » [١] . وكان من أثر هذه السياسة التى انتهجها الخليفة العزيز الفاطمى أن هاجم القرامطة الكوفة فى سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ — ٩٨٣ م) ، ولم يرتحلوا عنها إلا بعد أن أخذوا من أهلها مبلغا كبيراً فى مقابل رفع الحصار عن مدينتهم [٢] .

على أن صمصام الدولة (٣٧٢ — ٣٧٦ هـ) بن عضد الدولة البويهى استطاع أن يصمد أمام القرامطة الذين حاولوا الاستيلاء على الكوفة غير مرة ، وأن يردهم عنها وينزل بهم الخسائر الفادحة مما أوهن من قوتهم وآذن بقرب نهايتهم ، « وزال من حينئذ ناموسهم [٣] » كما يقول ابن الأثير [٤] .

وكان من أثر هزيمة القرامطة أمام جيوش صمصام الدولة البويهى أن تشجع أحد البدو الأقوياء فهاجم القرامطة فى الأحساء مركز قوتهم ونفوذهم وأحل بهم الهزيمة ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على أكبر معاقلهم ؛ فعرج على القطيف واستولى على ما فيها من أموال القرامطة ، ثم سار إلى البصرة وأعلن ولاءه للخليفة العباسى الطائع (٣٨١ هـ) [٥] . وعلى الرغم مما لحق بالقرامطة من هزائم ظلوا مصدر خوف للعباسيين . يدل على ذلك أنهم أغاروا فى السنة التالية على البصرة وحالوا دون وصول الحجيج إلى الأراضى المقدسة مما أقلق بال العباسيين والبويهيين على السواء [٦] . وفى سنة ٤٠٣ هـ نرى القرامطة يحاولون الوقوف فى وجه الحجاج من جديد ، كما يحاولون الاستيلاء على الكوفة [٧] .

وقد استمرت العلاقات الطيبة سائدة بين القرامطة والفاطميين فى عهد الحاكم ، ولاسيما بين القرامطة وطائفة الدروز التى ظهرت فى عهد هذا الخليفة الفاطمى . فقد حاول حمزة

---

(١) الواقع أن الفاطميين استطاعوا أن يمزقوا وحدة القرامطة وأن ينتزعوا السلطة من بيت الحسن الأعصم الذى دارت بينه وبين الفاطميين حروب طويلة فى عهد المعز والعزيز . وقد آلت زعامة القرامطة إلى ستة منهم أطلق عليهم « السادة » . وقد اشتهر منهم جعفر وإسحاق من أبناء عمومة الحسن الأعصم. وكان لهذين الزعيمين أثر كبير فى الثورة التى قام بها أفتكين ضد الفاطميين ، ثم فى ثورة القرامطة على العباسيين بعد ذلك . المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) يعنى بذلك أنه لم يعد لمبادئهم قوة الانتشار والشيوع بعد ذلك .

(٤) الكامل ج ٩ ص ١٥ — ١٦ .

(٥) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ١٠٠ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٩ .

(٧) De Goeje, Les Carmathes du Bahrain, p. 195.

ابن على مؤسس المذهب الدرزى أن يتصل بقرامطة البحرين ليجذبهم إلى مذهبه ، واستطاعت قوة من القرامطة الاستيلاء على مدينة الملتان الهندية [١] ، فهاجمهم السلطان محمود الغزنوى وردهم على أعقابهم (٣٩٦ هـ) ، فارتد زعيمهم إلى جزيرة سرنديب (سيلان) حاملا معه أهله وماله [٢] .

نهاية عهد القرامطة :

وكانت نهاية القرامطة فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى . وقد مرت هذه النهاية فى طورين ، انتهى الطور الأول منهما بطردهم من جزيرة أوال وانتهى الثانى باستئصال شأفتهم من بلاد البحرين . ففى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) خرجت جزيرة أوال عن طاعة القرامطة فى البحرين وخضعت للعباسيين بعد سلسلة من الثورات التى قام بها السنيون فى هذه الجزيرة . فقد بنى هؤلاء السنيون مسجدا لجذب التجار إلى جزيرتهم . ولما فرغوا من بناء هذا المسجد خطبوا فيه للخليفة العباسى دون الخليفة الفاطمى . كذلك ثار أهل أوال على حكم القرامطة لأنهم عزلوا واليهم وفرضوا عليهم ضريبة جديدة أثارت حنقهم ، فأشعلوا نار الثورة وقضوا على قوات القرامطة البرية والبحرية وآل الحكم فى هذه الجزيرة إلى السنيين [٣] .

وكانت هزيمة القرامطة فى جزيرة أوال بعيدة الأثر عليهم فى بلاد البحرين نفسها . فقد اتصل السنيون فى بلاد البحرين بالسلاجقة وبالعباسيين فى العراق ، فبعثوا إليهم فى سنة ٤٦٢ هـ بجيوش جرارة أحلت بهم هزائم متتالية ، واضطر القرامطة إلى الارتداد إلى بلاد الأحساء . وقد شجعت هذه الهزائم العباسيين والسلاجقة ، فأرسلوا إلى الأحساء جيوشا جرارة بقيادة طائفة من أمهر قوادهم ، وأذاعوا المنشورات يستحثون فيها الناس على الانضواء تحت لواء هؤلاء القواد « فى جهاد المبطلين والقرامطة الملحدين . . . وفى استئصال ذكرهم وتطهير تلك البقعة من دنس كفرهم » [٤] . وقد التف السنيون فى البحرين حول الثوار وأنصار العباسيين ، وأحاطوا بالقرامطة فى شمالى الأحساء ، وانتصروا عليهم فى موقعة « الخندق »

---

(١) وتقع على سمت غزنة .

(٢) Defremery, Essai sur l'Histoire des Ismaeliens, pp. 30—31.

(٣) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ ، القسم الأول ، ورقة ١٠٧ .

(٤) La Fin de l'Empire des Carmathes du Bahrain (J.A., 1895), pp. 16—17.

سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ — ١٠٧٨ م) . وتعد هذه الموقعة من المواقع الحاسمة فى التاريخ ، لأنها قضت على دولة القرامطة الذين ظلوا زهاء قرنين مصدر رعب وفزع للدولة العباسية بوجه خاص . وعلى الرغم من ذلك ظل أثر القرامطة باقياً فى البحرين وعمان بعد موقعة الخندق بكثير ، حتى لقد تأثر بتعاليمهم الخوجات من أتباع « أغا خان » ، ولا سيما العمانيين منهم[1] .

(٢) الدروز[2]

١ — دعاة الدروز :

وفى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) تأثر المذهب الشيعي بما طرأ عليه من تغيرات عظيمة : وذلك راجع إلى تأثر بعض الشيعيين بالفلسفة الإغريقية وأخذهم ببعض العقائد المبنية على الرجعة والتناسخ . ومن ثم أصبح المذهب الشيعى فى عهد الفاطميين خليطاً من الدين والفلسفة ، ونشأت بسبب ذلك مذاهب أخرى كمذاهب القرامطة والدروز والنزارية فى فارس وخراسان والشام والطيبية فى اليمن وغيرها .

وفى أوائل القرن الخامس الهجرى قامت طائفة الدرزية أو الدروز وهم من غلاة الإسماعيلية الذين ألهوا الحاكم ، وخرجوا بذلك على الإسماعيلية ثم المعتدلين الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة . وقد قامت هذه الحركة الشيعية على أيدى الفرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم ويؤمنون بنظرية الحق الملكى المقدس . ومن أعظم هؤلاء الدعاة تأثيراً فى هذه الحركة حمزة بن على الزوزنى ، والحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم ، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخارى الدرزى ، الذين جهروا فى مصر بتأليه الحاكم .

رحل حمزة بن على إلى مصر سنة ٤٠٥ هـ ، وانتظم فى سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون إلى دار الحكمة التى أسسها الحاكم سنة ٣٩٥ هـ وأخذ ينشر فى الخلفاء الدعوة إلى

---

(١) انظر Badger, G. P., The History of the Imams and Sayyids of Oman (London, 1871).

(٢) الدرزى (بالفتح) : واحد دروز الثوب ونحوه ، وهو فارسى معرب . ويقال درز بالدال والذال ، وأولاد درزة : السفلة والسقاط والغوغاء من الناس والخياطون والحاكة ، وهم من أسافل الناس . والدرزى (بالفتح) الخياط . والعامة تضم الدال فتقول درزى ، وفى الجمع درزى ، والصواب درزى فى المفرد ودرزية فى الجمع ، والشائع اليوم دروز وهو خطأ .

تأليه الحاكم ، ثم جهر بدعوة ألوهية الحاكم (٤٠٨ هـ) ، وصنف كتاباً ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت فى آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى على بن أبى طالب ، وأن روح على انتقلت إلى العزيز ، ثم إلى ابنه الحاكم ، بمعنى أن الحاكم قد أصبح فى نظرهم إلهاً عن طريق الحلول (Incarnation) .

ويظهر أن هذه الدعوة قد أوهنت صرح الدعوة الإسماعيلية المعتدلة فى مصر . وقد شجع الحاكم حمزة وأنصاره ، حتى إنه كان كثيراً ما كان يلتقى بهم فى القرافة ويظهر عطفه عليهم ، ويسأل حمزة عن عدد أنصاره ومدى ما وصل إليه فى هذه الحركة من نجاح[١] . وكان من أثر هذا التشجيع أن غلا حمزة فى تلقيب نفسه بألقاب كثيرة مثل الإمام ، والدليل على عبادة الله ، والداعى إلى توحيد الله ، والناطق بحق الله ، والبرهان على الله ، والرسول الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . . . وأنه السبيل إلى معرفة مولانا جل ذكره (أى الحاكم) والطريق إلى توحيده ، والحجة إلى عبادته[٢] » . ويعتبر حمزة بن على المؤسس الحقيقى لمذهب الدرزية ؛ فقد استغل الحسن ابن حيدرة الفرغانى الأخرم ، ومحمد بن إسماعيل البخارى الدرزى فى نشر عقائد هذا المذهب ، وشجع الأخرم فى سنة ٤٠٩ هـ على الجهر بتأليه الحاكم .

وقد ذكر أبو المحاسن أن الأخرم ذهب إلى جامع عمرو على رأس خمسين رجلا ممتطين دوابهم ، وسلموا إلى القاضى السنى فتوى صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم . وقد أثار الأخرم بذلك حنق السنيين فانقضوا عليه وعلى رجاله وفتكوا بهم ، وتمكن هو من الهرب ، ولكنه قتل بعد قليل[٣] .

ولكن قتل الأخرم لم يضعف من هزيمة غلاة الإسماعيلية فقد ظهر على أثر مقتله فى سنة ٤٠٩ هـ الداعى محمد بن إسماعيل الدرزى[٤] ، وكان قد وصل إلى مصر فى سنة ٤٠٨ هـ ، فرحب به الحاكم وأجزل له العطاء . وقد سلك الدرزى فى سبيل تأييد ألوهية الحاكم مسالك

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٢) كتاب النقط والدوائر ، وهو من كتب الدرزية ، وقد ذيل ببعض رسائلهم ، وهى (١) الرسالة الموسومة ببدء الخلق ، (٢) نبذة من شرح البيان ومجرى الزمان (٣) الرسالة الموسومة بكشف الحقائق ، نشره سيبولد الألمانى (١٣١٩/١٩٠٢) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٣ .

(٤) وإليه تنسب طائفة الدرزية ، على الرغم من أن حمزه بن على يعتبر المؤسس الحقيقى للمذهب الدرزى .

شتى ، فألف الكتب فى ذلك ، واستعان بنفوذ الخليفة الحاكم فى نشر هذه الدعوة بين رجال البلاط والموظفين .

ولم يكن هذا كل ما قام به الدرزى فى سبيل نشر دعوته ، فقد تسمى بسند الهادى (حمزة بن على) ، وحذا حذو أستاذه فى نقل رياسة هذه الدعوة إليه ، فكتب إلى ختكين داعى دعاة الإسماعيلية يطلب إليه الانضواء تحت لوائه ، كما كتب إلى ولى عهد المسلمين عبد الرحيم بن إلياس الذى كان يمثل عقيدة الحاكم التوحيدية وإلى غيرهم يدعوهم إلى دعوته ، مما يدلنا على مدى تغلغل نفوذ أنصار المذهب الدرزى . على أن ختكين قاوم هذه الحركة واشترك مع السنيين فى القضاء عليها ، وشكا إلى الحاكم جرأة الدرزى وأنصاره وغلوهم . ووجدت هذه العقيدة أنصاراً من بين المصريين طمعاً فى التقرب إلى الخليفة الذى ناصر هذه الحركة وعطف عليها . كما أخذ الدرزى فى قراءة كتابه الذى صنفه فى عقائد المذهب الدرزى فى الجامع الأزهر ، وأثار بذلك سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعيين ، حتى كادوا يقتلونه لولا أنه هرب إلى بلاد الشام ، وأقام بوادى تيم الله بن ثعلبة غربى دمشق ، وأخذ ينشر الدعوة فى تأليه الحاكم ويقرأ على كل أهالى هذه الجهات كتبه التى لم تلق قبولا لدى كثير من المصريين الذين اضطهدوه ، وأظهر الحاكم استياءه من دعوته خوفا من رعاياه . وقد استطاع الدرزى أن يستميل إلى دعوته كثيراً من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية . ولا يزال هذا المذهب منتشراً فى جبال لبنان وحوران .

وليس من شك فى أن الحاكم كان يناصر هذه الدعوة ويشجع الدرزية فى مصر أولا وفى الشام ثانياً ، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله ، بدليل أنه اتخذ جواسيس من النساء يندسسن فى دور بعض الناس . وكان من واجبهن اكتشاف مايحدث فيها ، ثم تقديم تقاريرهن إليه فى اليوم التالى . فإذا أصبح الخليفة استدعى أهل هذه الدور للمثول بحضرته وأخبرهم بما حدث فى دورهم ، كما اتخذ الحاكم جواسيس عهد إليهم بأن يقدموا إليه تقارير مستوفاة عن كل ما يحدث فى الطرقات ، حتى أصبح بعض الناس يعتقد أنه يعلم الغيب .

٢ — أهم مميزات الدرزية :

قامت طائفة الدرزية فى أوائل القرن الخامس الهجرى كما تقدم ، ولاتزال إلى الآن تحتفظ بشىء من مميزاتها وخصائصها كطائفة من طوائف المذهب الإسماعيلى . ولايزال كثير من الأسس التى وضعها حمزة بن على وغيره من دعاة الدرزية الأوائل قائماً إلى اليوم .

ومن أهم هذه الخصائص اتخاذ الدرزية تقويماً يؤرخون به حوادثهم ، ويبدأ من سنة ٤٠٨ هـ ، وهى السنة التى ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم على يد حمزة بن على وأنصاره . ويعبرون عن ذلك بكشف المكنون ، أى ظهور التوحيد .

ومن هذه الخصائص إغلاق باب الاستجابة الخارجية ، بمعنى أن هذه الاستجابة تغلق أبوابها فى وجه كل من لاينتمى إليها ، أى من لايكون درزيا أو موحداً على حد تعبيرهم . ويبررون ذلك بقولهم إن الدعوة قد أبطلت وأغلقت الأبواب ، فمن لم يؤمن بقى كذلك إلى الأبد ، ومن آمن فقد آمن بلا ردة[١] . ومن ثم نرى الدرزية ينقسمون إلى طائفتين :

الأولى : طائفة الروحانيين ، وتكون الطبقة المستنيرة التى تلم بأصول المذهب الدرزى ، وتنقسم هذه الطائفة إلى رؤساء وعقلاء (أو عقال) وأجاويد ، فالرؤساء هم الذين بيدهم مفاتيح جميع أسرار الدرزية ، والعقلاء بيدهم الأسرار الداخلية التى تتعلق بالتنظيم الداخلى للمذهب ، والأجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية التى تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب .

والطائفة الثانية هى طائفة الجسمانيين . وتنقسم قسمين : الأمراء الجسمانيون ، والعامة أو الجهال . فالأمراء الجسمانيون بيدهم شئون الحرب والزعامة الوطنية ، والعامة أو الجهال هم الذين لايعرفون من أصول المذهب إلا اسمه ، ولايحق لطبقتى الجسمانيين الدخول ، بحال من الأحوال ، فى مجالس طائفة الروحانيين ، ويعتبرون جهالا مهما علا كعبهم فى التعليم والثقافه[٢] .

ولا يسمح لأحد من أعضاء طائفة الجسمانيين بالانتظام فى طائفة الروحانيين إلا بعد اجتياز اختبار طويل صعب يظهر فيه استعداده لتلقى أصول المذهب الدرزى والاطمئنان إلى أنه سوف يصبح عضواً نافعاً متفقها فى عقائده ، بل بعد أن يؤخذ عليه عهد يتبرأ فيه من جميع الأديان والمذاهب ، ويتعهد بالدفاع عن هذه الطائفة ويحافظ على أسرارها . وقد وضع حمزة بن على صيغة هذا العهد الذى أسماه « ميثاق ولى الزمان »[٣] .

---

(١) حمزة بن على الدرزى : التاليد فى مذهب أهل التوحيد (نشره ميخائيل شارويم) ص ٢٣ :
Hitti, The Origins of the Druze People and Religion, p- 43. (٢) راجع
Chrestomathie Arabe, Vol- II, p- 52 (٣)

وقد خلف حمزة بن على وغيره من دعاة الدرزية الأقدمين كثيراً من المؤلفات التى كشفت عن كثير من غوامض هذا المذهب ، ومنها نتبين أنهم من غلاة الإسماعيلية ، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلى فى جوهره[١] .

ولذلك نرى أن الدروز يرمون المعتدلين من طائفة الإسماعيلية بالجمود ، كما يكفرون فى الوقت نفسه المسلمين عامة ويسمونهم الكفار أو المشركين فى الوقت الذى يطلقون على أنفسهم الموحدين ، على حين نرى سائر المسلمين يكفرون الدروز ولا يعدونهم من الفرق الإسلامية : فقوم يكون البشر إلههم ومعبودهم ، وحمزة بن على نبيهم وناطقهم[٢] . كذلك نرى كثيرين من علماء المسلمين يرمون طائفتى الدروز والنصيرية بالزندقة ويبيحون دماءهم ويحرمون مصاهرتهم والتقرب منهم[٣] .

ولكى يقوى حمزة بن على مؤسس المذهب الدرزى الرابطة بين أنصار مذهبه جعل العهد الذى يؤخذ على المستجيبين وثيقة مقدسة تلزم هؤلاء المستجيبين بالتفانى فى سبيل المذهب والتماسك بين أفراد هذه الطائفة وإليك نصها :

« توكلت على مولانا الحاكم الفرد الصمد المنزه عن الأزواج والعدد ، أقر فلان بن فلان إقراراً أوجبه على نفسه وأشهد به على روحه فى صحة من عقله وبدنه وجواز أمره ، طائعاً غير مكره ولا مجبر ، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها ، وأنه لا يعرف غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره ، والطاعة فى العبادة ، وأنه لا يشرك فى عبادته أحداً مضى أو حضر أو يُنتظر ، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره ، ورضى بجميع أحكامه له وعليه ، غير معترض ولا منكر لشىء من أفعاله ، ساءه ذلك أم سره . ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذى كتبه على نفسه وأشهد به على روحه وأشار به على غيره أو خالف شيئاً من أوامره ، كان بريئاً من البارى المعبود وحرُم الإفادة من جميع الحدود ، واستحسن العقوبة من البارى العلى جل ذكره . . . ومن أقر أنه ليس فى السماء إله معبود ولا فى الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره ، كان من الموحدين الفائزين .

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٥٤ — ٣٦٠ .
(٢) طه أحمد شرف : الإسماعيلية وتاريخهم السياسى حتى سقوط بغداد ، مخطوطة ج ١ ص ٣٣٥ .
(٣) المحبى : تاريخ خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر (القاهرة ١٨٦٧) ج ٣ ص ٢٦٩ .

وكتب فى شهر كذا وكذا ومن سنة عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة بن على بن أحمد هادى المستجيبين المنتقم من المشركين والمرتدين بسيف مولانا الحاكم جل ذكره وشدة سلطانه وحده »(١) .

وعلى الرغم من أن الدرزية قد انطووا على أنفسهم حتى أصبحوا جماعة مغلقة لايعرف الناس من أمرهم شيئاً ، نراهم يعاونون المسلمين فى صراعهم مع الصليبيين معاونة صادقة فى سبيل الاحتفاظ بالسهل الساحلى فى لبنان . وكانت لهم فى الوقت نفسه مواقف حربية رائعة فى حصار قلعة الشقيف(٢) . كما نرى أن الدروز يعاونون هولاكو التتارى إبان إغارته على بلاد الشام ، بدليل إقطاعه إياهم بعض البلاد . وكذلك قام الدروز بدور ملحوظ فى أثناء فتح الأتراك العثمانيين بلاد الشام ومصر (١٥١٦ — ١٥١٧ م) فى عهد السلطان سليم الأول . فكان لمساعدة فخر الدين معن الأول أحد رؤساء الدروز أثر بعيد فيما أحرزه العثمانيون من نصر . ولا غرو فقد أظهر الدروز كثيراً من ضروب الشجاعة والبسالة فى تلك الحروب ، مما جعل السلطان العثمانى يعترف بهذه المساعدة ويمنحهم الجوائز(٣) .

وقد وقع فى أيدى الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا كثير من مخطوطات الدروز التى عثر عليها فى خلواتهم ، وذلك عند قيام الثورة السورية فى وجه حكم محمد على سنة ١٨٣٨ .

كما نرى الدروز يحملون السلاح فى وجه المارونيين جيرانهم المسيحيين فى الشمال ، مما أدى إلى تدخل فرنسا وإرسالها حملة حربية لوضع حد لذلك النزاع ، وانتهى هذا التدخل الفرنسى بوضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى عقب الحرب العالمية الأولى . كذلك لانفسى ثورة الدروز بزعامة آل الأطرش ضد الانتداب الفرنسى الذى انتهى باستقلال كل من سوريا ولبنان سنة ١٩٤٦(٤) .

---

(١) دى ساسى : الأنيس المفيد ج ٢ ص ٨٢ — ٨٤ . ويقصد بسنة عبد مولانا السنة التى دعى فيها بتأليه الحاكم بأمر الله أى سنة ٤٠٨ هـ .

(٢) ولعلها شقيف نيرون وهو حصن على مقربة من صور . وتطلق كلمة شقيف على عدة أماكن ببلاد الشام ، وتشير إلى الأماكن الحصبة : فهناك شقيف أرنون فى جبل قريب من بانياس من أعمال دمشق يقع بينها وبين الساحل ، وشقيف دركوش وهى قلعة بنواحى حلب جنوبى حارم ، وشقيف دبين وهى قلعة قرب أنطاكية . انظر لفظ شقيف فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) كريم خليل : الدروز والثورة السورية ص ٢٥ .

(٤) Hitti, Op. cit- , pp. 2, 48-

انظر طه أحمد شرف : الإسماعيلية وتاريخهم السياسى ج ١ ص ٣٣١ وما يليها .

(٣) النصيرية :

كانت طائفة النصيرية[١] تقيم فى شمالى الشام قبل طائفة الدروز فى لبنان . وهم من الشيعة الغالية ، وموطنهم جبل النصيرية (أو الأنصارية) ، وهو جزء من جبل لبنان . وتمتد بلادهم شرقا إلى سهل حماه وحمص وحلب ، وشمالا إلى ماوراء أنطاكية على حدود بلاد الأناضول .

وبينما نرى اسم « علوى » قد أطلق حديثا على أتباع هذه الطائفة ، فإن اسمهم الأصلى (النصيرية) يذكرنا باسم مؤسس هذه الطائفة . وقد يذكرنا باسم الشخص الذى كان يدعو إلى عقائدهم ، وهو الفقيه الشيعى محمد بن نصير المتوفى سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) . وكان من أتباع الحسن العسكرى الإمام الحادى عشر عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية[٢] . ويقدم لنا أتباع ابن نصير — كما يقول رينى دوسو[٣] — مثلا واضحا للجماعة التى انتقلت مباشرة من الوثنية إلى طائفة الإمامية الاثنا عشرية . وهذا يفسر لنا نقط الخلاف الشديد بينهم وبين الإسماعيلية . وثمة تفسير آخر لايزال مألوفا عند السنيين الذين يجاورونهم ، ولكنه يدخل بلاريب — فى نطاق الاشتقاق المتداول لهذا الاسم فيجعله ذا صلة بلفظ نصرانى أو نصارى ، مما يقرب إلى الذهن أن النصيرية لايزالون يحتفظون ببعض تقاليد (طقوس) دينية خاصة ، فيحتفلون ببعض الأعياد المسيحية ، كعيد الميلاد وعيد الفصح (القيامة) ويعتبرونهما من الأعياد الكبرى . كما أن بعضهم يحمل أسماء مسيحية الأصل مثل متى ويوحنا (جون) وهيلانة .

وبالإضافة إلى المبادىء التى اقتبسها النصيرية من المسيحية فإن ديانتهم تحتفظ بقسط وافر من الأسرار الشبيهة بأسرار الدروز ، وماتزال تحتفظ بمعالم واضحة تنبىء عن معتقداتهم وعقيدتهم التى هى مزيج من عناصر غير متجانسة تماماً ، تقوم على أساس نظام دينى يتصل

---

(١) ذكر أبو الحسن الأشعرى (مقالات الإسلاميين ، طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد ، جزءان ، القاهرة ١٣٦٩ / ١٩٥٠) ص ٦٦ — ١٠٢) ، فرق الشيعة الغالية ، كالخطابية ، والتميرية أصحاب محمد بن نصير التميرى ، والسبئية والكيسانية ، والراوندية ، والرزامية ، والأبومسلمية والقرامطة ، والمباركية وغيرها .

(٢) ذكر النوبختى (كتاب فرق الشيعة ص ٧٨) أن محمد بن نصير النميرى أله الحسن العسكرى وادعى أنه نبى قد بعثه الحسن العسكرى . وكان ابن نصير يقول بالتناسخ والحلول وتأليه الأئمة .

(٣) Dussaud, p. 51.

بعبادة النجوم والكواكب . وقد اقتبست هذه التعاليم فى القرون الأولى للعصر المسيحى بعض المبادىء الروحية عند المسيحيين . ومع ذلك فإن هذه المبادىء قد اتخذت بعد ذلك مظهراً معيناً فى الأطوار التى مر بها الإسلام . فقد أتخذ على يدى دعاة الإسماعيلية فيما بعد بعض أشكال غامضة مبنية على الإلحاد .

ويظهر أن حسين بن أحمد الخشبى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) هو الذى وضع عقائد مذهب النصيرية الذى يفد أتباعه لزيارة ضريح حسين القريب من حلب ويولون هذا الضريح مايليق به من الإحترام والإكبار . ويعرف هذا الضريح باسم ضريح الشيخ برقق (بفتح الباء والقاف الأولى وسكون الراء) .

ويقوم نظام النصيرية على التجسد[١] ، ويدور حول هذه الأسماء الثلاثة التى تكون التثليث الشبيه بتثليث النصارى . ويتمتع هؤلاء بالوحدانية والخلود . وهذه الأسماء الثلاثة التى يرمزون إليها فى قائمة مذهبهم هى التى تكون تثليثا شبيها بالتثليث الكائن فى النصرانية . ويرمز إلى هذا التثليث عند النصيرية بحروف ع م س ، ويقولون إن الله حل فى ثلاثة هم : على بن أبى طالب ويرمزون إليه بالمعنى ، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ويرمزون إليه بالاسم ، وسلمان الفارسى ويرمزون إليه بالباب[٢] .

وتعتبر النصيرية عليا الإله[٣] . ولذلك أطلق عليهم اسم «العلوية» (أى الذين يعبدون

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٥ . البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٥٤ — ٢٥٥ . الشهرستانى : الملل والنحل ص ١٤٣ — ١٤٥ .

(٢) انظر اعترافات أحد المرتدين عن المذهب النصيرى التى نشرت تحت عنوان « الباكورة السليمانية » وقد ترجمها ا . سالسبورى إلى الإنجليزية فى مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية (سنة ١٨٦٦ مجلد ٨ ص ٢٢٧ — ٣٠٨) ، والمجلة الأسيوية الفرنسية سنة ١٨٧٩ ص ١٩٢ وما يليها .

Browne, Lit, Hist, of Persia, vol. I, p. 203, n, 2.

(٣) وقد قالت الشيعة بإمامة على ، ومنهم المقداد بن الأسود ، وسلمان الفارسى ، وأبو ذر الغفارى ، وعمار بن ياسر . وقال بعضهم إن عليا إمام تجب طاعته بعد الرسول الذى استودعه هو وأولاده من العلم ما يحتاج إليه الناس من الدين وجميع العلوم . ولذلك استحق الإمامة بعد النبى لعصمته وقرابته وسابقته وعلمه وسخائه وزهده وعدالته فى رعيته ، واستشهدوا على ذلك بقول الرسول : « على منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » (النوبختى : كتاب فرق الشيعة ص ١٥ — ١٦) . أما سلمان الفارسى فقد كان أكبر الصحابة الذين يجلهم الرسول ، حتى إن طائفة من النصيرية أدخلته فى نظامهم القائم على التثليث . وقد علت منزلة سلمان عند الرسول وحسنت صحبته حتى عده من آل البيت فقال : « سلمان منا أهل البيت » . كما أثر عن الرسول أنه قال : « سلمان ابن الإسلام » . وكان أول من أسلم من الفرس ، فعده الرسول أول ثمار الفرس . وهو الذى أشار على الرسول بحفر الخندق حول المدينة وأدى ذلك إلى ازدياد قوة الإسلام وسرعة انتشاره وإلى ضعف روح المقاومة عند أعداء الإسلام . الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٧٩ — ٨٠ . انظر كتابى زعماء الإسلام ص ٩٣ — ١٠٠ .

عليا) منذ الانتداب الفرنسى فى ديارهم بعد الحرب العالمية الأولى . وعلى هو الكائن الأسمى والنور المشع الذى ينبعث عن فيضه محمد (صلى الله عليه وسلم) وسلمان الفارسى . وتتكون جماعة النصيرية من قبائل يقوم بينها تحالف ، كالكلبية والخياطين والحدادين وبعض قبائل العرب اليمانيين الذين ارتحلوا شمالا فى العصر الجاهلى ثم اختلطوا مع الشماليين كالآراميين وغيرهم واحتفظوا بلغتهم الجنوبية التى اختلطت قليلا أو كثيراً باللغة الآرامية التى لاتزال آثارها بادية فى بعض اللهجات العربية وفى أسماء الأشخاص والقرى والأنهار والجبال . وتاريخ النصيرية عبارة عن سجل للحروب التى نشبت بينهم وبين جيرانهم للاضطهادات التى تعرضوا لها باعتبارهم ملحدين أو وثنيين ، الأمر الذى أثار شعور جمهور المسلمين (ومنهم الشيعيون المعتدلون) ضد هؤلاء النصيرية الذين ظهروا فى نظر المسلمين زنادقة مغالين[١] .

ويقيم الآن نحو ثلثمائة ألف من أتباع هذا المذهب ، معظمهم من الفلاحين فى شمالى ووسط بلاد الشام . وهم يعيشون فى قراهم الجبلية حتى كيلكيا التركية . وقد احتفظوا بمعظم أساليب معيشتهم وتقاليدهم التى نشئوا عليها منذ العصور الوسطى . وهم يمتنعون عن أكل لحم الجمل والأرنب وثعبان الماء والسمك الذى لا قشر له[٢] .

ويعتبر النصيرية والقرامطة والدروز والنزارية وغيرهم من فرق الإسماعيلية حتى فى نظر الشيعة الاثناعشرية الذين يؤلفون السواد الأعظم من الشيعة ، من الغلاة ، لأنهم يمارون فى ألوهية الله ولا يؤمنون بأن النبوة قد انتهت بمحمد . ومن هؤلاء الغلاة فرقة ذهبت إلى أن جبريل أخطأ فدفع الرسالة إلى محمد بدلا من على . وفرقة أخرى تسمى التختجية (بفتح التائين والياء مع التشديد وسكون الخاء وكسر الجيم) (قطاع الخشب) فى غربى الأناضول ، والعلى إلهية (المؤلهة عليا) فى فارس وتركستان (ومنهم جماعة فى شمالى العراق) ، ويمت إليهم القزل (بضم القاف والزاى) باشيه (بكسر الشين وفتح الياء مع التشديد) (الرءوس الحمر) فى شرقى الأناضول ، والبكتاشية فى تركيا وألبانيا[٣] .

---

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٢) Samné, La Syrie, pp. 337 — 342.

(٣) History of the Arabs Hitti, op. cit., pp. 448—449.

(٤) الدعوة النزارية فى فارس والشام :

شرع الخليفة المستنصر الفاطمى قبل وفاته سنة ٤٨٧ هـ فى أخذ البيعة لابنه الأكبر نزار . غير أن الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى أخذ يماطله حتى توفى الخليفة قبل أن تتم البيعة لنزار ، وبادر إلى تولية ابنه الأصغر أبى القاسم أحمد ولقبه المستعلى بالله . وكان من أثر ذلك أن قام النزاع بين أنصار الفاطميين فى مصر .

وقد ظهر أمر الباطنية أو الإسماعيلية فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى . فقد اجتمع منهم ثمانية عشر صلوا صلاة العيد جهارا فى مدينة ساوة ، ولكنهم حبسوا ثم اطلق سراحهم. ويذكر ابن الأثير أن هؤلاء الباطنية دعوا مؤذنا من أهل أصبهان إلى إعتناق مذهبهم فلم يجبهم إلى دعوتهم ، فخافوا أن ينم عليهم فقتلوه . فكان ذلك أول دم أراقته الباطنية . ولما نمى خبر هذا الحادث إلى نظام الملك وزير السلطان ملكشاه ، أمر بالبحث عن المتهم ، وانحصرت التهمة فى نجار يسمى « طاهر » ، فقتل ومثل به فى الأسواق ، فكان أول قتيل من أنصار هذه الطائفة . وسرعان ما انتقم الباطنية من الوزير نظام الملك وقتلوه وقالوا : قتل نجارا فقتلناه به[1] ، ولم يلبث أن استولى الباطنية على موضع عند قاين كان صاحبه يدين بعقائد هذا المذهب . وقد حدث أن اجتازت قافلة من كرمان فى طريقها إلى قاين ، فخرج الباطنية عليهم وقتلوهم عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا رجل استأنف سيره إلى قاين وأخبر أهلها بهذا الحادث ، فخرجوا إلى جهادهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من هزيمتهم .

ولما قتل الوزير نظام الملك ومات السلطان ملكشاه ، تفاقم خطر الباطنية وقويت أطماعهم والتأمت جموعهم فى أصبهان حيث نشروا دعوتهم وأخذوا يلحقون الأذى بمخالفيهم ، وأمضوا فى سرقة أموالهم وتقتيلهم وادخلوا الفزع فى قلوب الأهليين ، حتى كان الأمراء يضعون الدروع تحت ثيابهم[2] . وكان الباطنية إذا مر بهم شخص أخذوه إلى إحدى دورهم وقتلوه وألقوا بجثته فى بئر قد حفر لهذا الغرض . وسرعان ما استولى الباطنية على كثير من القلاع ، نذكر من بينها قلعة أصبهان التى بناها السلطان ملكشاه السلجوقى ثم اتصل أحمد بن عبد الملك بن عطاش الطبيب[3] بمتولى هذه القلعة . وقد نال المسلمين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١١٦ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ .
(٣) وكان داعيا إسماعيليا نابها فى فارس .

منه ضرر عظيم من أخذ الأموال وقتل النفوس وقطع الطريق وإلقاء الرعب والفزع فى القلوب ، حتى كانوا يقولون : إن قلعة يدل عليها كلب ويشير بها كافر لا بد وأن يكون خاتمة أمرها الشر ، ومنها الموت» . وقلعة ألموت بنواحى قزوين ، قيل إن ملكا من ملوك الديلم كان يكثر من الصيد ، فأرسل يوما عُقابا وتبعه فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة ، فوجده موضعا حصيناً ، فأمر ببناء قلعة عليه فسماها ألموت (بفتح الألف مع الهمزة وفتح اللام) ، ومعناها فى لغة الديلم : تعليم العقاب(١).

وكان من تلاميذ ابن عطاش ، الحسن بن على (بن محمد بن جعفر بن الحسين) بن الصباح الحميرى(٢). وكان الحسن ، كما وصفه ابن الأثير(٣) ، « رجلا شهماً كافيا عالما بالهندسة والحساب والنجوم والسحر وغير ذلك » . وكان الحسن كأبيه يدين بعقائد الإمامية الاثنا عشرية ، ثم وقع تحت تأثير أحد دعاة الفاطميين . وقد اتهم عامل الرى (وكان زوجا لابنة الوزير نظام الملك) الحسن الصباح بتلقى تعاليم الدعاة المصريين ، أو بعبارة أخرى دعاة الفاطميين الذين جاءوا من مصر . وقد هرب الحسن الصباح ولم يدركه عامل المدينة ، وتنقل فى البلاد وانتهى به المطاف إلى مصر ، فأكرمه داعى الدعاة وغيره من كبار رجال الدولة ، وأكرمه الخليفة المستنصر وأمده بالمال . ولما مثل بين يدى الخليفة أمره أن يقيم الدعوة باسمه فى بلاده ، فقال له الحسن : فمن الإمام بعدك ؟ فأشار إلى ابنه الأكبر نزار ثم غادر الحسن الصباح مصر ومر بالشام والجزيرة وديار بكر وعاد إلى خراسان ، ودخل كاشغر وبلاد ماوراء النهر ، واطمأن إلى أهالى ألموت ، وأظهر الزهد ولبس المسوح ودعاهم إلى الدخول فى دعوته ، فتبعه أكثرهم ، واستمال صاحب القلعة (وكان علويا) الذى أحسن الظن به وقربه إليه وتبرك به .

ولما أحكم الحسن الصباح الأمر واطمأن إلى قوته ، دخل يوما على صاحب القلعة ، وأمر أصحابه فأخرجوه منها إلى دامغان ، وأعطاه ماله وملك القلعة . ولما بلغ هذا النبأ الوزير

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١١٧ .

(٢) قيل إن الحسن لم يسمح لأنصاره بأن يذكروا هذا النسب قائلا إنه يؤثر أن يكون عبد الإمام المختار من أن يكون له ابنا لا ينظر إليه الناس بعين الاعتبار .

Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. II, p. 202.

(٣) ج ١٠ ص ١١٨ .

نظام الملك بعث بعسكر كثيف حاصروا الحسن حتى ضاق ذرعاً ، فأرسل شخصاً قتل الوزير السلجوقى ، ثم جهز محمد بن ملكشاه جيشا آخر حاصر القلعة تمهيداً لاستردادها ، ولكن على غير جدوى[١] . وبعد استيلاء الباطنية على قلعة ألموت ، وقعت فى أيديهم قلاع أخرى حصينة[٢] .

ويدل استيلاء الباطنية على هذه القلاع على قوة أتباع الحسن الصباح الذين انفصلت دعوتهم بعد وفاة المستنصر عن الدعوة الفاطمية ، لأنهم تبنوا دعوة نزار دون أخيه المستعلى الذى خلف أباه فى القاهرة . ومن ثم انقسمت الإسماعيلية الفاطمية إلى فريقين : فريق نادى بإمامة المستعلى ، فسموا المستعلية أو الإسماعيلية فى مصر ، وفريق نادى بإمامة نزار الابن الأكبر للمستنصر ، فسموا النزارية أو الحشاشين (أو الحشيشية) ، وهو الاسم الذى اشتهروا به ، كما يعرفون أيضا بالباطنية . وقد قام هؤلاء بدور هام فى محاربة المستعلية والسلاجقة والصليبيين الذين انتشروا أيضاً فى بلاد الشام . وكان اعتناق الحسن الصباح العقيدة النزارية مؤذناً بتطور جديد فى تاريخ هذه الدعوة . فقد ابتدع نظرية جديدة هى نظرية الإمام المستور والدعوة إليه ، بعد أن كانت الدعوة الإمامية تعتمد منذ سنة ٢٩٦ هـ على الإمامة الظاهرة (exoteric) لا على المستورة (esoteric) . كما استطاع الحسن الصباح أن يستغل الدعوة النزارية خير استغلال ، فأصاب نجاحاً بعيد المدى ، وأفلح فى تكوين نظام جديد ، وأنشأ دولة إسماعيلية خالصة فى وسط دولة العباسيين السنيين .

وقد تركزت جهود الحسن الصباح بعد موت المستنصر فى نشر الدعوة لنزار ، واحتفظ بأنصاره القدامى من الإسماعيلية فى فارس وخراسان ، فالتفوا حوله ؛ كما عمل على ضم

---

(١) ابن الأثير : ج ١ ص ١١٦ — ١١٨ .

(٢) ذكر ابن الأثير (ج ١٠ ص ١١٨ — ١١٩) أسماء هذه القلاع وهى : شاه دز (بكسر الدال وزاى مشددة) وخالنجان (بفتح اللام وسكون النون) قرب أصبهان ، وطبس (بفتح الطاء والباء) وتون ، وقاين (بكسر الياء) وزوزن (بفتح الزاى الأولى والثانية وسكون الواو) وخور ، وخوسف (ضم الخاء وفتح السين) فى قوهستان ، ووشمكوه (بفتح الواو وسكون الشين وضم الكاف) بقرب الأنبار ، وأستوناوند (بضم الألف مع الهمزة والتاء وفتح الواو وسكون النون) فى مازندران (بفتح الزاى وسكون النون وفتح الدال) وأردهات (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الراء وفتح الدال) وجردكوه (بكسر الجيم وسكون الراء والدال) ، وقلعة الناظر فى خوزستان ، وقلعة التنبور على مقربة من أرجان (بفتح الراء مع التشديد) ، وقلعة خلادخان فى فارس (بسكون الدال) .

انظر Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. II, p. 204.

عناصر جديدة إلى دعوته . ومن أهم ما تمتاز به دعوة الحسن الصباح إلى نزار ، العمل على تكوين مجتمعات إسماعيلية بحتة تستقر فى أماكن حصينة ، يجتمع فيها كل دعاة النزارية لمحاربة أهل السنة والنيل منهم . فأصبح للحسن مئات من القلاع والحصون القوية فى أقاليم رودبار وقوهستان والطالقان وغيرها . كما وجه الحسن الصباح دعاته نحو بلاد الشام لنشر الدعوة النزارية ومحاربة السلاجقة والمستعلية والصليبيين . ومن ثم أصبح فى كل إقليم أتباع وفى كل مدينة أنصار .

وقد امتازت دعوة الحسن الصباح فى ذلك الحين بأنه استغل مبدأ التعليم من الإمام المعصوم . فادعى أنه لا يمكن لإنسان أن يعرف شيئاً عن طريق غير طريق الإمام أو نائبه . وما دام هو نائب الإمام فقد أصبح مصدر العرفان . وكان هذا المبدأ من العوامل التى شجعت الحسن الصباح على حمل السيف فى وجه الدولة العباسية السنية . كما لجأ إلى التأويل ، فأول القرآن للنزارية تأويلا يتفق ونزعاته السياسية ، فاعتقد الدعاة أنه أحق بتعيينهم ، وقدسه المستجيبون . كما استغل عقيدة الإمام ونائبه وحجته كشرط أساسى للدين الحق . ولذلك سمى أشياع هذه الدعوة الباطنية وسميت دعوتهم الدعوة الجديدة .

وقد راع الدولة العباسية خطر دعوة الحسن الصباح ، فحملت كثيراً من العلماء على الرد عليه . فألف أبو حامد الغزالى كتابه « المستظهرى » أو فضائح الباطنية ، ليرد به على النزارية بصدد نظريتهم فى الإمام المعصوم .

وقد عمل الحسن الصباح على تنظيم جماعته تنظيما دقيقاً يضمن لها البقاء . ولذلك قسم جماعته إلى مراتب ودرجات ، وجعل المحبة والأخوة والمرحمة ، الرباط الذى يربط الأفراد الذين ينتمون إلى رتب دعوته على اختلافها ، وجعل للأعضاء شروطاً ، وحدد لهم حدوداً خاصة بهم . ولم يشأ أن يجند أتباعه جميعاً ليشهروا السلاح فى وجه أعدائه ، بل جعل حمل السلاح مقصوراً على فئة امتازت بقوة أبدانها ، يهددون الأعداء بخناجرهم المسمومة ، فسموا الفداوية ، لأنهم يبذلون نفوسهم رخيصة فى سبيل إمامهم ونائبه . أما أهم مراتب الدعوة النزارية فهى :

المرتبة الأولى أو مرتبة شيخ الجبل[1] ، وعدد أفرادها سبعة ، منهم نائب الإمام ورئيس الدعوة الجديدة . فكان الحسن يلقب نفسه بلقب رئيس الدعوة ، ولا سيما بعد أن احتل

---

(١) وقد أطلق الصليبيون هذ التسمية ، أى شيخ الجبل فسموه الشيخ أو شيخ الجبل .

قلعة ألموت فى سنة ٤٨٣ هـ . كما اتخذ لقب مولانا وسيدنا وشيخ الجبل . وكان هو وحده الذى يعين الدعاة ويعزلهم ، فأطلق عليه بعض الناس لقب داعى الدعاة . وكان سلطانه لا يحد : يصدر أوامره من ألموت فيطيعها النزارية فى كل مكان . وقد جعل وظيفة رئيس الدعوة مقصورة على المتفانين فى الإخلاص للمذهب الإسماعيلى . ولم يجعل لمبدأ الوراثة أى اعتبار . كما تظاهر جماعته بالتقشف والورع والمحافظة على الشريعة ، حتى إنه قتل أحد أبنائه لاتهامه بشرب الخمر .

المرتبة الثانية أو مرتبة كبار الدعاة ولا يجاوز عدد أفرادها ثلاثة ممن يثق الحسن الصباح بهم ثقة تامة ، لأنه قسم العالم أقساماً ثلاثة : جعل على رأس كل قطر أو « بحر » واحداً من هؤلاء الدعاة الثلاثة ، وهم أشبه بنظام أئمة المذاهب . على أنه لم يترك لهم شيئاً من الحرية ، بل ظل الرأس المدبر والعقل المفكر . ومن أشهر هؤلاء الدعاة الكبار كيابزرك أُميد والحسين القَيْنى ، وأبو طاهر .

المرتبة الثالثة وهو مرتبة الدعاة وهم أكثر عدداً من أفراد المرتبة الثانية ويتلقون أوامرهم من رؤساء الدعوة فى ألموت أو من كبار الدعاة فى الأقاليم الثلاثة . وكانوا يتلقون العلم فى مدارس القاهرة أول الأمر ، ثم ينتقلون إلى ألموت ليتعلموا أسرار الدعوة . وقد اشترط الحسن الصباح فى الداعى أن يكون بارعا فى التشكيك ، ماهراً فى التلبيس ، ليخدعوا العامة ويدخلوهم فى عقيدتهم . وقد كون هؤلاء الدرجات العليا ، وكانوا على علم بعقائد وأغراض وسياسة هذا النظام ، وكانوا على شىء من الإلمام بأسرار هذا النظام .

المرتبة الرابعة أو مرتبة الرفاق ، وكانوا على شىء من الإلمام بأسرار هذا النظام ، يتولون تثقيف الدعاة وإعدادهم لمهمتهم ، ويتفانون فى المحافظة على المذهب ، متسلحين بأسلحة العلم من فقه ومنطق وفلسفة . ويلى هؤلاء اللصقاء أو الأتباع الذين أقسموا يمين الطاعة والولاء دون أن يفهموا كثيراً مما ينطوى عليه هذا المذهب .

المرتبة الخامسة : الفداوية أو الفدائيون ، الذين كانوا يستخدمون فى قتل الأعداء غدراً ، ويضحون بأنفسهم فداء لرئيسهم . ولا يشترط فى الفداوى أن يتعمق فى دراسة أسرار المذهب ، إنما يشترط فيه التفانى فى طاعة الرئيس والتضحية إلى أبعد الحدود . فأصبحوا آلات انتقام فتاكة ، وخلفوا عصراً مليئاً بالخوف والفزع . وكانوا يتصفون بالشجاعة النادرة وحب المخاطر والعزيمة التى لا تقهر ، والصبر الذى لا ينفد ؛ يظل الواحد منهم يترقب الفرصة شهوراً بل سنين للفتك بعدوه . ويشترط فى الفداوى أيضاً أن يكون من الشبان الأقوياء الذين يجيدون عدة لغات .

المرتبة السادسة : اللاصقون ، وهم ينتسبون إلى الدعوة ، ولكنهم ليسوا من الدعاة ولا من الفداوية ، إنما يأخذون العهد على الناس دون أن يكون لهم حق نشر الدعوة . ويأخذون العهد على المستجيبين دون أن يتعمقوا فى فهم أصول المذهب .

المرتبة السابعة : المستجيبون ، وهم عامة الناس أو المؤمنون المبتدئون ، لايعرفون الكثير عن المذهب الإسماعيلى . إنما عملهم الرئيسى زعزعة عقائد الناس ، وبث الذعر فى نفوسهم .

وكانت الدعوة النزارية تتسلح بأسلحة مختلفة لتنتشر بين الناس . فكان الدعاة يتوسلون بالوسائل الآتية :

١ — التفرس ، ويقصد به إدراك مكنونات النفس ، ويطلق على ذلك الاستيطان (من الباطنية) ليتبينوا قوة إرادة الفرد ومبلغ سهولة انقياده .

٢ — التأنيس وهو من الأنس وهو بعث الأمن والطمأنينة فى نفوس المدعووين وإشباع ميولهم وإعطائهم كل مايميلون إليه ، كل حسب ميوله .

٣ — التشكيك وهو زعزعة عقيدة المدعوين ، ويعتبر خطوة جريئة من أخطر الخطوات ، يستطيع بها الداعى أن يصل إلى قلب المريد فيزعزع عقيدته ويزلزل إيمانه .

٤ — التعليق وهو ترك المريد بعد تشكيكه متأرجحاً فى عقيدته مشوقاً إلى معرفة المذهب الإسماعيلى ، حتى تستبين نفسيته وتعرف شخصيته .

٥ — التدليس ، وهو أن يلجأ الداعى إلى التمويه ، ويدعى إدعاءات كاذبة تزيد فى إغراء المريد وتشويقه وإلهاب رغبته فى الدخول فى الدعوة .

٦ — التأسيس ، وهو تثبيت المعلومات والحقائق التى أدلى بها الداعى والمستجيب حتى تستقر فى ذهنه ويقبل عليها ويؤمن بها .

٧ — الخلع يقصد به إقصاء المريدين عن المذاهب السنية نهائياً بإسقاط الفرائض الشرعية فى الإسلام ، وذلك بالاستعانة بالتأويل غير المشروع .

توفى الحسن الصباح سنة ٥١٨ هـ بعد أن استقامت له الأمور ، وأقام دولة فريدة فى نوعها ، تتكون من قلاع متناثرة فى أقاليم مختلفة ، تقوم على نشر مذهب النزارية وتحارب أهل السنة وتناهض المستعلية بوجه خاص .

وهنا ينبغى أن نشير إلى العبارة التى وصف بها « ماركو بولو » هؤلاء الفدائيين فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فى وقت كانت قوة الحشاشين فى فارس قد قضى عليها مغول

هولاكو خان ، فاندثرت أو كادت (لأن الحشاشين فى سورية استمروا حتى هذا الوقت) ويقول ماركو بولو إن الشيخ كان يسمى فى لغتهم « علاء الدين »[١] . وقد اتخذ له وادياً بين جبلين وجعله مقفلا ، وحوله إلى حديقة غناء ، لها من جمال التنسيق والروعة والبهاء وفسحة الأرجاء مالم تشهده عين من قبل . فيها من كل الثمرات ، وبها قصور شاهقات تكسوها نقوش زاهيات ، تجرى من تحتها أنهار جاريات من خمر ولبن وعسل مصفى وماء فرات . وجاء فيها بغانيات فاتنات ، اختارهن من أجمل مافى العالم من بنات ، عازفات على مختلف أنواع الآلات ، مطربات بأعذب الأصوات راقصات ساحرات بطريقة تخلب الألباب وتذهل العقول . لأن الشيخ أراد أن يجعل أنصاره يؤمنون حقاً بأن هذه هى جنة الفردوس . من أجل ذلك أنشأها وحاكها على ماوصف به محمد صلى الله عليه وسلم جنته ، إذ الفردوس يجب أن يكون حديقة فيحاء تجرى من تحتها أنهار من الخمر واللبن والعسل والماء ، ملأى بحور الغساء ، حتى لقد آمن أهل هذه الجهات بأنها الجنة التى لايدخلها إلا من كان من أتباعه الحشاشين (أو الفدائيين) . وقام على مدخلها الوحيد الذى لاطريق للوصول إليه غير حصن منيع كفيل بأن يرد كل قوات العالم . وجعل الشيخ فى حاشيته جماعة من شباب البلاد تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين كما لو كانوا يختارون للتجنيد . وإلى هؤلاء الشبان يقص الشيخ القصص عن الجنة كما اعتاد النبى محمد من قبل ، وقد آمن هؤلاء الشبان بهذا الشيخ كما يؤمن المسلمون بنبوة محمد . وكان الشيخ يدخلهم فى جنته زمرة زمرة تتألف من أربعة أو ستة أو عشرة فى كل مرة ، فيسقيهم من منقوع الحشيش[٢] ، فينامون نوماً عميقاً ، ثم يحملون إلى داخل الجنة . حتى إذا ما استيقظوا من سباتهم ووجدوا أنفسهم فى هذه الحديقة وفى هذا المنظر الساحر ، آمنوا بأنها الجنة . وهناك تداعبهم الفتيات الحسان وتغازلهم كواكب البنات حتى يرضوا رغائب شبابهم كما يعمل كل شاب على شاكلتهم . ولو أنهم خيروا لما برحوا هذا المكان .

---

(١) وهو بلا ريب يقصد داعى الدعاة أو الرئيس الأكبر فى ألموت ، وهو علاء الدين محمد بن الحسن الذى خلف أباه جلال الدين سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) .

(٢) ومن ثم أطلق على الشيخ « صاحب الحشيش » . ويستبعد براون (تاريخ الفرس الأدبى ج ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦) أن شيخ الجبل قد شجع استعمال الحشيش (أو الأفيون أو أى مخدر آخر) لأنه يسبب الكسل والإهمال والضعف الذهنى الذى لايتناسب مع الواجبات الشاقة الدقيقة التى كان يعهد بها إلى المريدين . ولعل استعمال هذا المخدر اقتصر على إحدى الدرجات التى انقسم إليها نظام الاسماعيلية فى فارس .

ولقد حرص هذا الأمير أو الشيخ كما نسميه على أن يجعل بلاطه بحيث تتجلى فيه مظاهر العظمة والجلال . كما جعل بسطاء الشعب الملتفين حوله يؤمنون بأنه نبي عظيم . حتى إذا أراد أن يبعث أحد مريديه من الحشاشين ، سقا أحد شبابه من مخدره ، ثم حمل إلى الحديقة . حتى إذا ما أفاق من غشيته وجد نفسه فى القصر ثم فى الجنة ولما يكن قد استكمل نشوته ، ثم يقتاد بعد ذلك إلى حضرة الشيخ ، فيخر أمامه راكعاً فى كثير من التجلة ، معتقداً أنه فى حضرة نبي مرسل . عند ذلك يسأله الشيخ من أين أتى ، فيجيبه أنه أتى من الفردوس ، وأنها الجنة التى وصفها محمد فى القرآن . وكان طبعيا أن يغرى هذا الكلام أولئك الذين لم يدخلوا الجنة ، فتتولد لديهم رغبة ملحة فى دخولها . وهكذا إذا أراد الشيخ قتل أحد الأمراء ، قال لمثل هذا الشاب : إذهب فاقتل فلاناً ، وإذا ما عدت حملتك ملائكتى إلى الجنة ، وإن أنت مت فلا أقل من أن أرسل إليك ملائكتى لتعود بك إلى هذه الجنة . وبذلك أوجد الشيخ فى نفوس مريديه رغبة جامحة فى دخول جنته إذا ما حققوا له رغبته . وعلى هذا النحو ساق الشيخ رجاله إلى إعدام وقتل كل من أراد التخلص منه . وكان من أثر هذا الرعب الذى ألقاه فى القلوب أن أصبح كل الأمراء من أتباعه ، ليكسبوا محبته وتقوم علاقتهم به على أساس المحبة والسلام وليتقوا شر الاغتيال .

وهذه الطاعة العمياء التى يتصف بها الفدائيون جعلت اختيارهم مقيدا بصفات خاصة تنحصر فى الشجاعة والطاعة وعدم معرفة دقائق وأسرار هذا النظام بدرجاته الفلسفية العليا . ويظهر هذا فى جلاء ووضوح فيما ذكره المؤرخون عن زيارة الكونت هنرى دى شامبانى Henry de Champagne ملك أورشليم لشيخ سوريا . وإذ هما يسيران يوما رأيا بعض الصبيان فى جلاليب بيضاء جالسين فوق ذروة برج عال ، فالتفت الشيخ إلى ضيفه الكونت يسأله عما إذا كان قد رأى رعية أطوع لسيدها من رعاياه . ودون أن ينتظر الكونت منه جوابا ، أومأ الشيخ بيده إلى صبيين ، فقفزا مسرعين من فوق البرج ليلقيا حتفهما فى البقعة التى سقطا فيها .

ومع أن الفدائيين لم يتعلموا أسرار مذهبهم وخفاياه كانوا مدربين بعناية فائقة على حمل السلاح واستعماله . وقد تعودوا على تحمل المشاق وأساليب التنكر ، بل إنهم كانوا ملمين أحيانا ببعض اللغات الأجنبية ، حتى اللغات الأوروبية ، لأن هؤلاء الذين ندبوا لاغتيال المركيز كنراد أمير مونت فيرات ، كانوا يتحدثون باللغة الفرنسية بدرجة كافية ، وكانوا يحملون جوازات مرور باعتبارهم رهبانا مسيحيين خلال ستة أشهر يقضونها فى معسكر

الصليبيين ، منتهزين الفرصة لتحقيق أغراضهم . ويندر طبعاً أن يعيش هؤلاء الفدائيون بعد فرائسهم . وكانوا يقتلون الأمير المسلم فى يوم الجمعة وفى المسجد أو بيت الله ، ويقتلون الأمير المسيحى أو الدوق فى يوم الأحد وفى أقدس الأماكن لديه وهى الكنيسة على مشهد من جماعة المصلين . وفى عقيدة أتباع الحسن الصباح أن الموت فى سبيل تحقيق أغراض « الشيخ » على هذه الصورة المروعة أشرف ميتة ، وفيها توكيد لضمان السعادة ، حتى إن أمهات الفدائيين كن يبكين إذا عاد إليهم أبناؤهم أحياء يرزقون .

وكان تهديد الفدائيين لغيرهم فى بعض الأحيان كافيا لقضاء مآربهم والوصول إلى غاياتهم . فإذا ماسار زعيم إلى معقل من معاقلهم لمهاجمته ، فقد يستيقظ من نومه فيجد بجواره خنجراً قد أغمد فى الأرض ، وقد ألصقت به ورقة قد تكون كافيه لترده على أعقابه وتثنيه عن عزمه ، كما حدث ، على ماقيل — لملكشاه السلجوقى ، ولصلاح الدين الأيوبى ، ولو أن هذا القول بحاجة إلى ما يؤيده .

ولما اندثرت معاقل الفدائيين نهائيا ووقع شيخهم الثامن والأخير « ركن الدين خُرْشاه » أسيرا فى أيدى المغول وأعدموه فى الوقت الذى زالت فيه الخلافة العباسية فى بغداد ، كان نشاط الحشاشين لا يزال على قوته .

وقد ذكر ابن الأثير (١) أن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه استولى على قلعة ألموت سنة ٥٢٤ هـ .

أما عن فرقة الحشاشين فى سورية فقد جعلت لهذا النظام شهرة فى أوروبا وأضاف إلى لغاتها كلمة جديدة . ويبدأ تاريخ هذه الفترة السياسية بالاستيلاء على قلعة بانياس حول سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) (٢) .

وهذه القصة الحقيقية عن الشيخ « راشد الدين سنان » المشهور الذى جعل الفرع السورى من هذا النظام يستقل عن النظام الفارسى قد أمدتنا بمعلومات تعد من أقوى القصص تأثيرا فى النفوس وبتفاصيل وافية تتصل بتاريخ هذا المذهب وما قام به دعاته من أعمال وما أدخلوه على أنظمتهم من أساليب .

---

(١) راجع S. Guyard, Un grand Maitre des Assassins (J. A. 1877)
أى « أحد عظماء شيوخ الحشاشين » (المجلة الاسيوية الفرنسية ١٨٧٧) .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٢٥٤ .

وحتى هذا اليوم لا يزال أعقاب هذه الفرقة القوية برغم تشتتها منتشرة فى الشرق : فى سوريا وفارس وخراسان وفى شرقى أفريقيا وفى أواسط آسيا والهند ، حيث نجد « أغاخان » الذى يرجع نسبه إلى ركن الدين خورشاه آخر شيوخ ألموت الذى ينتمى إلى نزار بن المستنصر الفاطمى من سلالة إسماعيل ، الإمام السابع من طائفة الإمامية السبعية أو الإسماعيلية والذى يرجع نسبه إلى على وفاطمة .

من كل ما تقدم نرى أن طائفة النزارية انتشرت فى بلاد فارس وخراسان والشام . ولم يقتصر نشاطهم على هذه البلاد ، بل امتد نفوذهم الروحى منذ أيام الحسن الصباح إلى بلاد الهند نفسها . فقد كونوا لأنفسهم دولة ذات طابع خاص ، وقاموا بدور كبير فى حياة سلاطين السلاجقة وفى حياة الخلفاء الفاطميين والعباسيين . كما كان لهم أثر بعيد فى الحروب الصليبية ، ووقفوا فى وجه المغول فى فارس . ولما انتهى أمرهم بقتل زعيمهم وإمامهم ركن الدين خورشاه سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) لم تستسلم جميع قلاع « الدعوة النزارية » ، بل بقى منها قلاع حمل دعاتها السلاح فى وجه المغول ، واشتركوا مع المماليك فى موقعة عين جالوت وغيرها من المواقع .

وقد مر تاريخ النزارية فى العصر الذى أفردناه لهذا الجزء من كتابنا (٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) بدورين ، يعرف أولهما بدور الستر الأول كما يعرف بدور الدعاة ؛ ويعرف الدور الثانى بدور الظهور الأول أو دور الأئمة .

أما دور الستر الأول أو دور الدعاة (٤٨٨ — ٥٥٩ هـ) ، فيبدأ بمقتل نزار بن المستنصر ، ويمتاز بأن رياسة الدعوة كانت فى أيدى جماعة من كبار دعاة النزارية ، هم الحسن الصباح (ت ٥١٨ هـ) وخليفتيه ألكيابزر (بسكون اللام وكسر الكاف وضم الباء وفتح الزاى جميد (بضم الجيم وفتح الميم وسكون الياء) (٥١٨ — ٥٣٢ هـ) ، وابنه محمد الأول (٥٣٢ — ٥٥٧ هـ) . وفى هذا الدور كان هؤلاء الدعاة يدعون للأئمة المستورين من أبناء نزار ، معارضين فى ذلك الخلافة والإمامة الفاطمية .

وأما الدور الثانى أو دور الظهور الأول أو دور الأئمة فيبدأ بإعلان الحسن الثانى رئيس الدعوة النزارية (٥٥٧ — ٥٦١ هـ) الإمامة ، وادعائه بأنه من سلالة نزار بن المستنصر ، فسمى نفسه القاهر بن الهادى بن نزار . ومن ذلك الحين أصبح رؤساء الدعوة

---

(١) الكيا = الرئيس ، وبزر جميد = من يهب الأمل والرخاء .

النزارية يعرفون بالأئمة بعد أن كانوا يلقبون بالرؤساء أو الدعاة ، وقد جاء بعد القاهر أربعة من الأئمة هم : محمد الثانى (٥٦١ — ٦٠٧ هـ) ، وجلال الدين حسن (٦٠٧ — ٦١٧ هـ) ، وعلاء الدين محمد (٦١٧ — ٦٥٣ هـ) ، وركن الدين خورشاه (٦٥٣ — ٦٥٥هـ).

وفى هذا الدور نرى هؤلاء الأئمة يعملون على أن يرثوا الفاطميين فى الأمور السياسية والدينية ، وأن يقفوا فى وجه العباسيين باعتبارهم الوارثين الحقيقيين لعلى وفاطمة وأبنائهما من بعدهما ، واستطاعوا بذلك أن يقوموا بالدور الذى تقدمت الإشارة إليه .

على أن تاريخ النزارية لم ينته بمقتل ركن الدين خورشاه وانقضاء دور الستر الأول أو دور الأئمة سنة ٦٥٥ هـ ، فقد دخل هؤلاء النزارية أنفسهم فى دور جديد يعرف بدور الستر الثانى ، ويبدأ من سنة ١٢٥٧ م وينتهى فى سنة ١٨١٧ م وذلك بظهور الإمام النزارى الجديد محمد حسين (١٨١٧ — ١٨٨١) الذى تلقب بلقب أغاخان . وقد انتشرت النزارية فى عهد الستر الثانى فى فارس وخراسان وفى الهند .

وعلى الرغم من الغموض الذى يكشف تاريخ هؤلاء النزارية بدأ تاريخهم فى الظهور منذ مستهل القرن التاسع عشر ، بدليل أن بعضهم تقلد الحكم فى بعض الولايات الفارسية . فقد تقلد الشام خليل الله مثلا ولاية كرمان . ويتولى الشاه [1] محمد حسين إمامة النزارية فى سنة ١٨١٧ تزوج من ابنة فتاح على شاه فارس . وقد قيل إنه طمع فى الوصول إلى العرش عن طريق زوجته . واضطر محمد حسين إلى الهجرة إلى أفغانستان بعد أن أخفق فى الثورة التى أشعلها فى جنوبى فارس ، لأن وزير هذه البلاد كان قد طلب الزواج من ابنة هذا الإمام ، فرفض طلبه لأنه عده غير كفء لابنته .

وقد قام محمد حسين بمساعدة الإنجليز فى فتح أفغانستان ، فمنحوه معاشا ضخما ولقبوه بصاحب السمو أغاخان . ولم يكتف الإنجليز بذلك ، بل إنهم عملوا على تقوية الرابطة بينه وبين أتباعه فى بلاد الهند وغيرها .

وبعد وفاة على شاه بن محمد حسين (١٨٨١ — ١٨٨٥) تولى رياسة النزارية أغاخان محمد شاه جد صدر الدين بن على الأغاخان الحالى . ويشتهر كل من هؤلاء بكثرة زياراتهم

---

(١) يلاحظ أن هذا اللقب كان نوعا من التستر لإحاطة الأئمة النزارية بنوع من الغموض بخلاف لقب شاه الذى يطلق على ملوك فارس .

لأتباعهم الذين يعرفون باسم « الخوجات » . وينتشر هؤلاء الأتباع فى الهند ، وعلى الأخص فى ولايات بمبادى وكلكتا والبنجاب وكشمير وأحمد أباد وسورات وغيرها ، كما ينتشر بعضهم فى فارس وأفغانستان وعمان وسائر بلاد الخليج العربى ، وفى شرقى القارة الإفريقية ولا سيما فى زنزبار .

من ذلك نرى أن الخوجات اليوم وعلى رأسهم أغاخان يمثلون طائفة النزارية أتباع نزار بن المستنصر ، كما يمثل البهرة طائفة الطيبية أتباع الإمام الطيب بن الآمر بن المستعلى . فالخوجات أو الأغاخانية يمثلون الدعوة الجديدة ، على حين يمثل البهرة الدعوة القديمة .

(٥) الدعوة الطيبية فى اليمن

نهج أنصار الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن نهج أنصار الدعوة الفاطمية فى فارس وخراسان والشام . فقد نادى أهل اليمن من أنصار الخليفة المستعلى بابنه أبى القاسم ، وكان صغيرا ، ونقلوه إلى بلادهم فى سنة ٥٢٦ هـ ، وأقاموا الدعوة له ولقبوه الإمام الطيب ، ولم يعترفوا بإمامة الخليفة الحافظ . وبذلك أسسوا الدعوة الطيبية فى اليمن ، وساروا فى ذلك الأمر على منوال أنصار نزار بن المستنصر فى فارس الذين لم يعترفوا بإمامة أخيه المستعلى ونقلوا إليها أحد أبناء نزار وأسسوا الدعوة النزارية فى فارس وخراسان والشام .

ولم يقتصر نفوذ الطيبية على بلاد اليمن . فقد قامت الدعوة للطيب بمصر فى بادىء الأمر ، ونقشت الدنانير باسمه فى الإسكندرية سنة ٥٢٥ هـ . وقد جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار فى الإسكندرية سنة خمس وعشرين وخمسمائة .

أبو القاسم المنتظر بأمر الله أمير المؤمنين

الإمام

محمـــد(١)

وهذا يدل على أن أنصار الطيب اتخذوا مدينة الإسكندرية أولا مركزاً لحركتهم مستقراً لدعوتهم .

وبذلك خرجت بلاد اليمن عن طاعة الخليفة الحافظ الفاطمى ولم تعترف بشرعية حكمه أو أحقيته بالخلافة والإمامة ، لأن الملكة الحرة أروى الصليحية كانت قد تلقت من الآمر

---

(١) Lavoix, Catalogue des Monnaies musulmanes, p. 163, pièce no. 489.

كتابا يبشرها فيه بمولد ولى عهده ، فعرفت أن الحافظ اغتصب الخلافة وأنه لا حق له فى إقامة الدعوة الإسماعيلية التى انقسمت بسبب ذلك إلى مستعلية نسبة إلى المستعلى ، وطيبية نسبة إلى الإمام الطيب بن الآمر وحفيد المستعلى .

وقد عمل الخليفة الحافظ على مناوأة الدعوة الطيبية فى اليمن ، فاستعان ببنى زريع[1] الذين ظلوا على ولائهم للحافظ وخلفائه ، كما ظلوا يقاومون الدعوة الطيبية حتى أبطل نواب صلاح الدين الأيوبى هذه الدعوة كما ذكرنا .

ومن أهم ما تمتاز به الدعوة الطيبية فى ذلك العصر ، أنها كانت تدعو إلى إمام مستور . هو الطيب وأبناؤه من بعده على حين دعا بنو زريع إلى إمام ظاهر ، هو الحافظ وخلفاؤه من بعده .

ومن أهم ما تمتاز به الدعوة الطيبية أيضاً انفصال الدعوة عن الدولة . فقد أصبح الصليحيون ، ولا سيما فى عهد الملكة السيدة أروى (بفتح الألف مع الهمزة والواو وسكون الراء) الصليحية ، يمثلون الدولة ، على حين أصبح الداعى المطلق يمثل الدعوة نفسها ، الأمر الذى أدى إلى اتساع نفوذ هذا الداعى بين أنصار الدعوة الطيبية . ولا عجب فى ذلك ، فقد أصبح هذا الداعى يمثل الإمام المستور ، يعنون بذلك الطيب وأبناءه .

وإذا وازنا بين مركز الداعى الكبير لاماك بن مالك ومركز ذؤيب بن موسى الوادعى الداعى المطلق من حيث أثر كل منهما فى الدعوة الإسماعيلية فى اليمن ، وجدنا أن مركز الأول لا يتعدى الدعوة والدعاة هناك ، بحيث إنه كان يستمد تعاليمه ، وأصول الدعوة من داعى الدعاة فى مصر . أما الثانى فقد كان بالإضافة إلى ذلك يعتبر المنبع الأوحد لعلوم الإمام المستور ومعارفه . فلا نجد داعيا يكتب فى التأويل إلا بعد الرجوع إليه ، بعد أن كان ذلك مباحاً للجميع قبل عصر الدعوة الطيبية . ومن ثم أصبحت الطريقة الوحيدة لبقاء أصول المذهب الإسماعيلى مقصورة على دراسة آداب الدعوة . فلم تعد حاجة إلى مؤلفات يتجه فيها مؤلفوها نحو التجديد ، بل لقد أصبح من الواجب أن يقتصروا على ما ورد فى كتب الدعوة القديمة والمحافظة عليه واختصاره ونشره فى مؤلفات سهلة المنال[2] . (Compendiums)

---

(١) بضم الزاى وفتح الراء وسكون الياء .

(٢) Hamdani, Some Un Known Ismaili Author (JRAS,1933), p. 369.

لذلك رأى القائمون بالدعوة اليمنية من واجبهم أن يعملوا ما استطاعوا للحصول على المؤلفات الإسماعيلية القديمة والمحافظة عليها بإخراج هذه المختصرات . ولهذا نستطيع أن نجد المعلومات التى تضمنتها فلسفة إخوان الصفا ، وهم إسماعيلية فى ميولهم ، وفى أبحاث الداعى أبى حاتم الرازى ، وأبى يعقوب السجستانى الداعى ، وأحمد حميد الدين الكرمانى وغيرهم من قدامى الدعاة وأعلامهم ، بل فى الأبحاث التأويلية للقاضى جعفر بن منصور اليمن والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، يرى الباحث كل ذلك فى مؤلفات الدعاة فى عصر الدعوة الطيبية . ولم يكن هذا كله إلا لأن بقايا الإسماعيلية المستعلية من أنصار الخليفة المستعلى بن المستنصر وابنه الآمر يرون أن الإمامة الفاطمية لم يعد لها وجود منذ استتار الإمام الطيب ، وأن تراث الدعوة القديمة يجب المحافظة عليه على هذا النحو الذى أشرنا إليه[١].

ومن أهم الكتب التى تمثل هذا الأسلوب الجديد كتاب « عيون الأخبار » للداعى عماد الدين إدريس بن الحسن بن الوليد (٧٩٤ — ١٣٩٢/٨٧٢ — ١٤٦٨) فقد بحث فيه تاريخ الدعوة الإسماعيليه وتطوره . ويعد هذا الكتاب أحسن كتاب وضع فى هذه الناحية . ولعماد الدين كتب أخرى ألفها على غرار مؤلفات الدعوة القديمة .

كما تمتاز الدعوة اليمنية فى هذا الدور بأنها كانت قوية فى البداية ، إذ كانت تعضدها وتشد من أزرها قوة الصليحيين السياسية . إلا أنها لم تنل مثل هذا التأييد فى أخريات هذا الدور بسبب ما تعرضت له جماعة الإسماعيلية من ضعف ووهن نتيجة لزوال نفوذ الصليحيين وبنى زريع فى اليمن على يد عبد النبى بن مهدى[٢]. ثم على يد توران شاه بن أيوب . فأخذ أتباع الدعوة اليمنية فى هذه البلاد يتحولون تدريجياً إلى جمعية سرية دينية كل همها أن تعيش عيشة هادئة وأن تحتفظ بتراث هذه الدعوة .

وكذلك نستطيع أن نتميز عنصراً آخر جديداً فى هذه المرحلة . هو أن اليمن لم تقطع صلتها تماما بمصر ، إذ بقى بنو زريع على ولائهم لخلفاء مصر (نواب الأئمة) حتى قضى ابن مهدى على سلطانهم على ماسبق . وبعبارة أخرى نرى أنه على الرغم من أن أنصار الدعوة اليمنية فى اليمن كانوا يعتبرون الحافظ ومن جاء بعده من الخلفاء خارجين على الدعوة اليمنية

---

(١) Hamdani Ismaili Esoteric (Islamic Cultue, 1927), p. 211.

(٢) كان أبوه مهدى يدعى أنه إسماعيلى وأنه أحد دعاتهم (ابن الجوزى : مرآة الزمان) . وفى الحق أن المهدى وابنه كانا خارجين على المذهب الإسماعيلى ولم يكون ولم يكونا إسماعيليين .

أو الإمامة الحق التى تتمثل فى الطيب المستور - على الرغم من ذلك ظل آل زريع يخطبون على منابرهم باسم هؤلاء النواب . لهذا نستطيع أن نقول إن آل زريع كانوا يمثلون الجانب الظاهرى من الدعوة المستعلية ، على حين يمثل أنصار الدعوة اليمنية الجانب السرى منها . يتضح ذلك من هذه العبارة التى نقلها عمارة اليمنى عن الملكة الحرة الصليحية إذ يقول : « ثم نقلت السيدة دعوة الحافظ إلى آل زريع » وقالت : « حسب بنى الصليحى ماعلموه من أمر مولانا الطيب » . ثم صارت الدعوة اليمنية فى أبناء حاتم بن إبراهيم إلى هذا الوقت[١] ، أى إلى نهاية القرن السادس الهجرى .

وقد ظلت الدعوة الطيبية تعمل فى الخفاء فى بلاد اليمن . كما انتقلت هذه الدعوة إلى بلاد اليمن حيث يمثلها هنا وهناك البهرة الذين ينتظرون الإمام من أبناء الطيب . ويشتهر البهرة بالتجارة ويختلفون مع الخوجات أتباع أخاخان[٢] . ولا غرو فإن البهرة يدعون للإمام الطيب حفيد المستعلى ، ويدعو الخوجات لإمامهم أغا خان الذى يرجع نسبه إلى نزار بن المستنصر .

(٦) الدعوة المرابطية :

كان يحيى بن إبراهيم الجدالى رجلا صالحا متحمسا للإسلام عاملا على نشره تواقا إلى التزود بأحكامه وقد رحل عن بلاده لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول سنة ٤٤٠ هـ . وفى طريق عودته إلى بلاده مر بمدينة القيروان بإفريقية (وهى بلاد تونس الآن) ، مركز إفريقية العلمى إذ ذلك ، والتقى فيها بالشيخ الصالح أبى عمران الفارسى ، وكان من فقهاء المالكية ، وانضم إلى حلقة دروسه . ولما رأى أبو عمران ميل يحيى للعلم ، سأله عن اسمه وقبيلته ووطنه ، فأجاب أنه يحيى بن إبراهيم من جدالة إحدى قبائل صنهاجة الجنوب[٣] .

وقد ارتاع أبو عمران حين اختبر يحيى بن إبراهيم فى بديهيات الإسلام وعرف أنه لا يفقه منها شيئا ولا يحفظ من الكتاب والسنة حرفاً على الرغم من أنه أمير قومه . غير أنه « صحيح النية والعقيدة واليقين ، جاهل بما يصلح دينه » فقال له أبو عمران : وما يمنعك

---

(١) تاريخ عمارة اليمنى ص ١٠٢ .

(٢) وهم النزارية المحدثون .

(٣) الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية (لمؤلف مجهول الاسم) ص ٩ .

من التعلم ؟ قال يحي : « ياسيدى ! إن أهل بلادى قوم عمهم الجهل ، وليس فيهم من يقرأ القرآن . وهم مع ذلك يحبون الخير ويرغبون فيه ويسارعون إليه ، لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرس لهم العلم ويفقههم فى دينهم ويدعوهم إلى العمل بالكتاب والسنة ويعلمهم شرائع الإسلام ويبين لهم سنن النبى صلى الله عليه وسلم . فلو ابتغيت الثواب من الله تعالى بتعليمهم الخير ، لبعثت معى إلى بلادنا بعض طلبتك ، يقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين . فيكون لك فى ذلك الأجر العظيم والثواب الجسيم إذ تكون سبباً لهدايتهم » [١] .

وقد تأثر الفقيه أبو عمران الفاسى بكلام يحي بن إبراهيم وهم بتلبية طلبه ، لأنه رأى فى ذلك تقربا إلى الله بنشر دينه وإشاعة الخير بين أهل هذه البلاد الذين تفشت فيهم الجهالة. ولما عرض الفقيه أبو عمران هذا الأمر على تلاميذه النابهين لم يوافقه أحد منهم لبعد الشقة وإشفاقهم من دخول الصحراء ، فدله الفقيه على رجل من فقهاء المغرب يدعى « واجاج بن زللو » اللمطى ، وكان يقيم بمدينة نفيس [٢] ، (يفتح النون وكسر الفاء) وهو فقيه من أهل السوس الأقصى ، أخذ العلم عليه وانقطع للعبادة والعلم ، وأسس مدرسة للمالكية فى بلده وكثر عدد تلاميذه . وقد بعث أبو عمران الفاسى مع يحي بن إبراهيم برسالة إلى واجاج فرحب به وأكرمه ودله على أحد تلاميذه وهو الشيخ عبد الله بن ياسين الجزولى ، فقبل الذهاب مع يحي بن إبراهيم اللمتونى إلى الصحراء حيث مواطن جدالة ولمتونة.

عرف عبد الله بن ياسين الجزولى فهدى المرابطين بالتبحر فى العلم . والتفقه فى الدين . وكان فوق ذلك زعيما شجاعا وقائدا مقداما ومجاهدا مخلصا [٣] . وقد أهلته هذه الصفات الممتازة لإرساء أساس الدولة المرابطية التى خدمت الإسلام ونشرت أحكامه الصحيحة فى الجنوب المغربى وفى السودان ثم ولت وجهها شطر الشمال ، فجددت عزة الإسلام فى الأندلس وأعادت شوكته ولاسيما فى عهد يوسف بن تاشفين .

ولما رأى عبد الله بن ياسين ما كانت عليه لمتونة من القوة والرغبة فى الدين قال لهم : « إنكم إن صبرتم ونفذتم دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد فتحتم ما كان أمامكم

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٩ .

(٢) الحلل الموشية ص ٩ — ١٠ .

(٣) الكامل ج ٩ ص ٢٣١ .

ستفتحون إن شاء الله ماوراءكم » وأمرهم بالخروج من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة، وكان أهلها تحت طاعة أمراء مغراوة (بكسر الميم وسكون الغين) الزناتية . وكان بين لمتونة بقيادة عبد الله بن ياسين وبين مغراوة حروب كثيرة[١] .

تدرع عبد الله بن ياسين بالصبر فى نشر دعوته. ولم يكد يستقر به المقام فى بلاد لمتونة وجدالة حتى أخذ يعلمهم الدين ويبين لهم شرائعه . ولما رأى أن البربر فى ذلك الوقت كانوا يهملون شعائرهم الدينية ، أخذ يحثهم على إصلاح سلوكهم ، فأعرضوا عنه ، ففكر فى الرحيل عن ديارهم [٢] ولكن يحيى بن إبراهيم الجدالى تشبث ببقائه وقال له : « إنى لا أتركك تنصرف وإنما أتيت بك لانتفع بعلمك فى خاصة نفسى ودينى ، وما على فيمن ضل من قومى . ثم أشار على عبد الله بن ياسين بأن يفرأ بدينهما ويعتصما بجزيرة نهر السنغال[٣] بنوا بها رباطاً اتخذوه مركزاً لعبادتهم ، وأخذوا يعلمون الناس التفقه فى دينهم والمحافظة على شعائرهم والإقلاع عن عاداتهم المخالفة للدين .

وسرعان ما تجمعت حول عبد الله بن ياسين طائفة من تلاميذه ، وخاصة من جدالة ومسوفة ولمتونة أخذت فى الزيادة حتى بلغت نحو ألف شخص قاموا على نشر مبادىء الإسلام . ومن كلمات عبد الله بن ياسين المأثورة قوله لتلاميذه .

« اخرجوا على بركة الله ، وأنذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته . فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه ، فخلوا سبيلهم ، وإن أبوا ذلك وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم ، استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا »[٤] . وتعتبر هذه العبارة منهجا أساسيا وضعه عبدالله بن ياسين لدعاة المرابطين من بعده .

---

(١) الحلل الموشية ص ١١ .

(٢) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ٩ ص ٢٣١) أن اللمتونيين رجوا يحيى بن إبراهيم وعبد الله بن ياسين الذى أخذ يعلمهم عقائد الإسلام وفرائضه فقالوا : « ما ذكرت من الصلاة والزكاة فصحيح فهو قريب ، وأما قولك من قتل يقتل ومن سرق يقطع ومن زنى يجلد أو يرجم فأمر لا نلتزمه ، إذهب إلى غيرنا » .

(٣) ويذكر ابن خلدون (العبر ج ٦ ص ١٨٣) عند كلامه على هذه الجزيرة : « وأخذه أبوبكر ، فنبذوا عن الناس فى ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحضاحا فى المصيف وغمراً فى الشتاء » . ولعل ابن خلدون قد وقع فى هذا الخطأ الذى وقع فيه الشريف الادريسى (كتاب المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٨) إذ كان يطلق اسم النيل على نهر النيجر .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٤ — ١٦ . أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة المؤلف ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

وأخيراً قاد عبد الله بن ياسين أتباعه وسماهم المرابطين لازومهم رابطته ، وأخذ يعلمهم القرآن والسنة وأحكام الدين : وهذا الاسم مأخوذ من الرباط ، أى الخلوة التى اتخذها عبدالله بن ياسين فى جزيرته بنهر السنغال . هذا ما ذكره صاحب القرطاس . أما ابن عذارى (بكسر العين) فإنه يرى رأياً آخر فى هذه التسمية ، حيث يذكر أن تسمية المرابطين بهذا الاسم ترجع إلى موقعة حربية استبسلت فيها قبيلة لمتونة الصنهاجية ، فأطلق عليهم عبد الله ابن ياسين اسم المرابطين لصبرهم وحسن بلائهم ورباطة جأشهم[١] .

وذكر ابن الأثير [٢] أن عبد الله بن ياسين عقد لأبى بكر بن عمر شيخ لمتونة اللواء وسماه أمير المسلمين ، وحث من حسن إسلامه قومه على الجهاد فى سبيل الله وسماهم المرابطين .

ويرجع استعمال لفظ رباط إلى زمن أبعد من هذا . ومعنى المرابطين : الأتقياء المجاهدون فى سبيل الله . وهذا اللفظ مأخوذ من الرباط ، وهو حراسة الحدود ، حيث كان يذهب المخلصون للدين لمساعدة حاميتها . وقد ورد لفظ رباط فى القرآن الكريم حين أذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالجهاد ، أى القتال فى سبيل الله ، وذلك لتأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ضد من يقف فى سبيلها ، فقال جل شأنه فى سورة الأنفال (٢٢ : ٣٩ — ٤٩) (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون) .

كان الأثر الدينى فى قيام دولة المرابطين أقوى من الأثر السياسى ، إذ كانت الروح الدينية تقوم على الجهاد . ولم يكن « أمير المسلمين » الذى تلقب به أمراء المرابطين غير ملك مجاهد . وكان المجلس الاستشارى يتألف من رجالات الدولة ، وكان الفقهاء من أبرز أعضاء هذا المجلس . وقد ظهرت هذه الحياة الدينية فى رباط السنغال ، وهو المكان الذى يرابط فيه المسلمون للجهاد ويدافعون عن الدين وعن البلاد . وكانت هذه الربط تقام فى الأماكن التى يخشى فيها من هجمات الأعداء . ثم تحول هذا اللفظ إلى « ثغر » أى مدينة حصينة .

على أن الرباط قد أصبح له معنى آخر فى شمالى إفريقيا . فقد كان فقهاء المالكية يلقون دروسهم بمساجد القيروان من أجل الدفاع عن مذهب مالك ودعوة الناس إلى

---

(١) أحمد مختار العبادى : مجلة تطوان ، العدد الخامس ١٩٦٠ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٢) الكامل ج ٩ ص ٢٣٢ . انظر ما ذكرناه عن هذه التسمية بصدد كلامنا على الدولة المرابطية (الباب الثالث من هذا الكتاب) .

التزهد والتعبد، وضربوا المثل بأنفسهم وبالإمام مالك . وقد فضل كثير منهم أن يعتزل حياة المدن التى سادتها الاضطرابات السياسية والفوضى وفساد العقيدة ويرحلون إلى رباطات ينقطعون فيها إلى العبادة وتلقين العلوم الدينية . ولعل هذه الرباطات كانت فى بداية أمرها على هذه الصفة بمثابة رد فعلى سلبى ضد المذاهب الجديدة التى تختلف مع المذهب السنى كالمذهب الشيعى والمذهب الخارجى البرغواطى . وإذا كانت الربط قد ظلت كذلك فى إفريقية والمغرب الأوسط حيناً من الدهر ، فإنها فى المغرب الأقصى قد تحولت من ربط للتزهد وتدريس العلم إلى مراكز حربية لكفاح المذاهب الأخرى . وقد امتاز رباط السنغال بأنه لعب دوراً هاماً فى ثلاث من النواحى ، إذ كان المؤمنون يتلقون فيه العلم ، ويتعبدون فيه ويتطلعون إلى جهاد المشركين والقضاء على عناصر الفتنة فى شمالى المغرب . وبذلك كان رباط السنغال مدرسة ومعبداً ونواة لدولة لعبت فيما بعد دوراً بعيد الأثر فى تاريخ المغرب والأندلس معا . وفى رباط السنغال تشكل الجهاز السياسى الأول الذى جمع عدداً من الشيوخ والفقهاء ، على رأسهم يحيى بن إبراهيم الجدالى وعبد الله بن ياسين . وإذا كان عبد الله بن ياسين رجل فقه من حيث تكوينه الدينى ، فقد كان من الناحية العملية القوة الدافعة للحركة المرابطية من الناحية السياسية أيضاً ، لأنه هو الذى وحّد بين قبائلهم ووضع لهم الخطط الحربية فى الوقت الذى كان يحيى بن إبراهيم الموجه السياسى من الناحية النظرية فحسب .

ولم يلبث عبد الله بن ياسين أن أخضع جميع الصحراء ، وكون جيشاً كبيراً وجمع أموالا ضخمة من الغنائم وتودد إلى قبيلة مصمودة ، وبعث بأموال عظيمة من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبة المصامدة وقضاتها .

ولم يكن الأمير أبو بكر بن عمر اللمتونى أقل حماساً فى نشر الإسلام من سلفيه عبد الله ابن يتفاوت ويحيى بن إبراهيم . فلم يكد يلى منصبه الجديد فى رئاسة المرابطين حتى أمره عبد الله ابن ياسين بالجهاد فى سبيل الله . « وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين ، كثير الطاعة له فيما يأمره به وينهاه عنه : فمن حسن طاعته له أنه قال له يوما : وجب عليك الأدب قال له : فيم ياسيدى ؟ قال له : لا أعرفك به حتى آخذه منك . فكشف له (يحيى بن عمر) عن بشرته ، فضربه عشرين سوطاً ثم قال : إنما ضربتك لأنك باشرت القتال وأصليت

الحرب بنفسك ، وذلك خطأ منك . فإن الأمير لايقاتل ، وإنما يقف ويحرض الناس ويقوى نفوسهم ، فإن حياة الأمير حياة عسكر وموته فناء جيوشه [١] » .

وهذه العبارة إن دلت على شيء فإنما تدل على تفانى يحيى بن عمر فى الإخلاص لدعوة عبد الله بن ياسين وشدة طاعته له ، كما تدل على إلمام عبد الله بن ياسين بأساليب القتال وإدارة دفة المعارك الحربية .

وقد ظل يحيى بن عمر منقاداً لزعيمه الروحى عبد الله بن ياسين ، واستولى المرابطون على جميع بلاد الصحراء ، وغزوا بلاد السودان ، واتجهوا صوب الشمال ، ففتحوا درعة وسجلماسة وقضوا على أهل البدع وأحلوا محلها أحكام الإسلام . ولم يذهب عبد الله بن ياسين إلى سجلماسة ودرعة حتى استنجد به الفقهاء وكتبوا له وليحيى بن عمر وشيوخ المرابطين كتاباً يطلبون إليهم أن يقوموا بفتح بلادهم وتطهيرها من الآثام وتخليصها من عسف أمراء زناته . فلما وصل هذا الكتاب إلى عبد الله بن ياسين جمع شيوخ المرابطين وقرأه عليهم وشاورهم فى الأمر فقالوا : « أيها الفقيه ! هذا مما يلزمنا ويلزمك ، فسر بنا على بركة الله ، فدعا لهم بخير وحضهم على الجهاد » . وقد كتب الله النصر للمرابطين على أمراء مغراوة الذين كانوا حكام درعة وسجلماسة ، واستولوا على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم ، وقام عبد الله بن ياسين بتوزيع الغنائم على ماجاء فى كتاب الله وسنة رسوله ، إذ أخرج الخمس وقسمه على فقهاء درعة وسجلماسة وأهل التقوى والصلاح . ثم وزع الأربعة الأخماس الباقية على المحاربين [٢] .

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذا الغزو لم يكن غزواً سياسياً يرمى إلى التوسع الإقليمى وبسط سلطان المرابطين السياسى ، وإنما كان جهاداً فى سبيل الله ونصرة دينه .

وقد استشهد الأمير يحيى بن عمر فى إحدى غزواته سنة ٤٤٧ هـ ، فقلد عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر اللمتونى قيادة الجيش المرابطى (المحرم سنة ٤٤٨ هـ) ، وأمره بغزو بلاد السوس والمصامدة . وفى شهر ربيع الثانى من سنة ٤٤٨ هـ عين أبو بكر بن عمر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين الذى لمع نجمه وعلا شأنه فى الدولة المرابطية . واستطاع أبو بكر بن عمر فى زمن قصير أن يستولى على معاقل بلاد السوس ويخضع قبائلها :

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٢ .

ففتح جزولة وماسة وتارودانت قاعدة السوس وخلصها من أيدى الشيعة البَجَلية . ثم اتجه أبو بكر لحرب قبائل المصامدة ، ففتح جبل دَرَن ومدينة نَفيس وسائر بلاد جَدْميوَة . ووفدت عليه القبائل فبايعته ، ثم سار إلى مدينة أغمات ، وبها يومئذ أميرها لَقُوط بن يوسف بن على المغراوى الذى لم يستطع مقاومة المرابطين ، ففر إلى أبناء عمومته بنى يَفرن ملوك سلا وتادلا (بسكون الدال) . واستطاع المرابطون أن يدخلوا مدينة أغمات سنة ٤٤٩ هـ ، واتخذوها حاضرة لهم حتى تأسست مدينة مراكش .

ثم اتجه عبد الله بن ياسين إلى تامسنا[1] حيث كانت قبائل برغواطة تقيم بساحلها وتستعد للقائه . وقد أوغلت هذه القبائل فى الكفر والضلالة ، وكان بعضها يدين بالمجوسية فقاتلها عبد الله بن ياسين لانضوائها تحت لواء الإسلام . وكان البرغواطيون بقيادة أبى جعفر عبد الله من سلالة اليسع بن صالح بن طريف المتنبى الكذاب[2] . وكانت بينه وبين عبد الله بن ياسين حروب طاحنة أصيب فيها عبد الله بن ياسين بضربة أودت بحياته . ولما حضرته الوفاة قال للمرابطين :

---

(١) يطلق هذا الاسم على الناحية الممتدة بين سلا وآسفى فى سهول المحيط الأطلسى ولا سيما فى سهول الشاوية الحالية جنوبى الدار البيضاء .

(٢) ذكر ابن أبى زرع (روض القرطاس ج ٢ ص ٢٥ : ٢٦) أن صالح بن طريف ينتمى إلى أصل يهودى ، وأن موطنه الأصلى بلاد الأنداس . وقد أسلم فى عهد هشام بن عبد الملك بن مروان ، ورحل إلى المشرق ودرس العلوم الإسلامية ، ثم قدم بلاد المغرب ونزل بلاد تامسنا فوجد بها قبائل من البربر قد فشا فيهم الجهل ، فادعى النبوة وتسمى « صالح المؤمنين » وقال لهم : أنا صالح المؤمنين الذى ذكره الله فى كتابه العزيز الذى أنزله على محمد عليه السلام . ثم أخذ يشرح لهم ديانته (١٢٥ هـ) . وجعل الصيام فى شهر رجب لا فى شهر رمضان ، وفرض عليهم عشر صلوات خمس بالليل وخمس بالنهار ، وقرر أن الأضحية واجبة على كل من اتبعه فى الحادى والعشرين من شهر المحرم . وشرع لهم فى الوضوء غسل الصرة والخاصرتين ، وجعل فى صلاتهم الإيماء ، لا سجود فيها إلا فى الركعة الأخيرة حيث يكون السجود خمس مرات . وأمرهم بأن يخرجوا العشر من جميع الثمار . وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء ، وحرم الزواج من بنات العم . كما أمرهم أن يطلقوا ويرجعوا كما يشاءون . وأمر بقتل السارق حيث وجد ، وحرم رأس الحيوان ولحم الدجاج ، واعتمد فى الصلاة على أذان الديكة التى حرم ذبحها . ومن ذبح ديكا ألزم بعتق رقبة . ووضع صالح بن طريف المتنبى قرآناً يقرءونه فى صلاتهم ويتلونه فى مساجدهم ، وزعم أنه نزل عليه وأنه أوحى به من الله تعالى . ومن شك فى شىء من ذلك فهو كافر . واشتمل قرآنه المزعوم على ثمانين سورة سماها بأسماء النبيين وغيرهم ، منها : سورة آدم وسورة نوح وسورة يونس وسورة موسى وسورة هارون وسورة فرعون وسورة بنى إسرائيل وسورة الديك وسورة الجزاء وسورة إبليس وسورة الجمل الخ .

« يا معشر المرابطين ! إنى ميت من يومى هذا لا محالة ، وإنكم فى بلاد عدوكم . فإياكم أن تجبنوا أو تتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم[1] . وكونوا أعوانا على الحق وإخوانا فى ذات الله . وإياكم والتحاسد على الرياسة ، فإن الله يؤتى ملكه من يشاء من خلقه ، ويستخلف فى أرضه من أراد من عباده » .

وتوفى عبد الله بن ياسين عشية هذا اليوم (الأحد ٢٤ من شهر جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ) ، ودفن بموضع عال يعرف بكريفلة على مقربة من مدينة الرباط بين الرمانى وابن سليمان وبنى على قبره مسجد لايزال حتى الآن .

وقد استمر الأمير أبو بكر بن عمر فى حرب البرغواطيين حتى قضى على دعوتهم ، ثم تفرغ لحرب الصحراء ، تاركا أمر المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين ، ثم نزل له عن الحكم بعد عودته كما تقدم .

إن العوامل التى أحاطت بالدعوة المرابطية ، ومدى تأثر عبد الله بن ياسين بالبيئة التى عاش فيها ، وتكوينه الدينى ، وروح الحماسة التى اتصف بها فى نشر الإسلام لجديرة بالبحث ، لما لها من الصلة الوثيقة بالدعوة المرابطية وقيام الدولة المرابطية ، وإبراز شخصية هذا المصلح الاجتماعى .

اتفق جمهور المؤرخين على ثلاث نقط أساسية لاشك فى صحتها وهى :

(١) أن عبد الله بن ياسين ينتسب إلى قبيلة جزولة .

(٢) أنه تلقى العلم على واجاج بن زَلّو بمدينة نَفيس .

(٣) أنه ينتمى إلى مدرسة واجاج بن زللو تلميذ أبى عمران الفاسى أحد أئمة المذهب المالكى .

أما عن قبيلة جزوله فقد أشار إليها ابن خلدون[2] عند كلامه على تفرع الشعوب البربرية حيث يقول : « وأما شعوب البرانس ، فعند النسابين أنهم يجمعون سبعة أجذام

---

(١) وهذا مقتبس من قوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) .

(٢) العبر ج ٦ ص ٨٩ — ٩٠ .

وهى : أزداجة ، وأوْربة ، وعَجيسة ، وكِتامة ، وصَنهاجة ، وأوريغة ، وزاد سابق بن سليم وأصحابه لمطة وهسكورة وجَزولة »[١] .

على أنه مما لا شك فيه أن صنهاجة المرابطين قد هاجرت إلى الصحراء قبل الفتح الإسلامى بزمن طويل . وسواء أكانت جزولة قبيلة برنسية قائمة بذاتها أم كانت فخذا أو بطنا من صنهاجة أو من مصمودة ، فإن موطنها هو جنوبى السوس على ساحل المحيط الأطلسى الذى عرف نوعا من النشاط الحضارى . وعلى ذلك فإن عبد الله بن ياسين ينتمى إلى عنصر بربرى ينتمى إلى أرومة عربية على أساس أن صنهاجة وكتامة قبيلتان عربيتان كما أثبت ذلك ابن خلدون .

وأما عن مدينة نفيس ، فقد قامت فيها مدرسة واجاج بن زللو شيخ عبد الله بن ياسين ، وشهدت منذ الفتح الإسلامى التطورات الفكرية والسياسية والدينية التى تلقى كثيرا من الضوء على شخصية ابن ياسين . وإذا رجعنا إلى الوراء رأينا أن عقبة بن نافع الفهرى استولى على هذه المدينة وأخضع الروم المسيحيين والبربر . ولا يبعد أن يكون قد بنى فيها مسجدا بعد أن جمع منها كثيرا من الغنائم . ثم بسط عبد الله بن ياسين نفوذه على الجنوب المغربى بعد أن ضم مدينة نفيس وجبال المصامدة . ويقول السلاوى[٢] إن إدريس الثانى لما فرغ من بناء مدينة فاس . . أقام بها إلى سنة سبع وتسعين ومائة ثم غزا بلاد المصامدة ودخل مدينة نفيس .

من ذلك نرى أن مدينة نفيس التى تلقى عبد الله بن ياسين العلم فى مدرستها كانت مركزا حضاريا أكثر من قرنين قبل قيام الدولة المرابطية . وسواء أولد عبد الله بن ياسين فى هذه

---

(١) خالف تيراس Terrasse, Histoire du Maroc, tome I. p. 196. ابن خلدون بقوله: إذا كان من السهل معرفة المغرب المصمودى برغم ما يحيط الجزء الخاص بالمصامدة من شك ، فإننا على العكس من ذلك نرى صعوبة ما فى تحديد مواطن صنهاجة فى المغرب . ويبدو أن ساحل المحيط الأطلسى الصغير كان قد انتشرت فيه صنهاجة وجزولة ولمطة . وقال المؤلف نفسه فى موضع آخر (ج ٢ ص ٢١٣) إنه كانت هناك فيدراليات مهمة تحتل الصحراء الغربية فكانت لمطة وتاركة وسرتة وجزولة على اتصال بالجنوب المغربى . وقد اختلف المؤرخون فى نسب جزولة ، فجعلها بعضهم فخذا وبطنا من صنهاجة ، وعدها بعض آخر قبيلة برنسية قائمة بذاتها كصنهاجة ومصمودة وغيرهما من القبائل المشهورة .

(٢) الاستقصا ج ١ ص ١٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٦ .

المدينة ، أم قضى فيها شطراً من حياته ، أم وفد إليها من مكان آخر لتلقى العلم على واجاج ابن زللو ، فإنه مما لا ريب فيه أنه كان لهذه المدينة أثر بعيد فى تكوين شخصية عبد الله بن ياسين من جهة ، وفى أنه وقف عن طريقها على المشاكل السياسية والحركات الفكرية التى عرفها المغرب فى أيامه من جهة أخرى .

وأما عن المذهب المالكى الذى كان عبد الله بن ياسين يدين بتعاليمه ، فإن الإسلام لم يكد يستقر فى المغرب حتى تعرضت للاختلافات المذهبية التى انتشرت فى الشرق الإسلامى زهاء ثلاثة قرون حتى قدر للمذهب المالكى أن تكون له السيادة بعد أن ظل فى صراع مستمر مع غيره من المذاهب . وكانت سيادة هذا المذهب من أبرز نتائج الدعوة المرابطية .

ويظهر أن فقهاء المذهب المالكى ظلوا منذ سقوط دولة الأدارسة سنة ٣٧٥ هـ إلى قيام الدولة المرابطية فى صراع مع المذاهب الأخرى من شيعة وخوارج وبرغواطية ، عاملين على توطيد مذهبهم ، فأقاموا شبكة من المراكز تمتد من إفريقية (تونس الحالية) إلى السوس الأقصى . وقد اشتهر من هذه المراكز : القيروان ، وفاس ، ونفيس . وإذا كانت الخصومة قد اشتدت بين المالكية السنيين وبين الدويلات التى قامت فى المغرب من شيعيين وخوارج وبرغواطيين ، فإن المالكية قد ظلوا خلال هذا الصراع يعقدون الآمال على ظهور زعامة إسلامية توحد العالم الإسلامى وتعيده إلى السنية والسلفية . لذلك لم يكن عمل هؤلاء المالكية ذا صبغة فقهية فحسب ، بل كان كذلك مظهرا دينيا وسياسيا يهدف إلى بعث حركة إصلاحية تنطلق من أحد هذه المراكز لتقيم الدولة المغربية السنية فى المغرب أولا ثم فى سائر العالم الإسلامى ثانيا .

وإذا كان الفقيه المالكى واجاج بن زللو اللمطى قد تحمل مشاق الرحلة من الجنوب المغربى ليأخذ العلم على الفقيه أبى عمران الفاسى المالكى فى القيروان ، ثم يعود إلى هذا الجنوب المغربى ليؤسس مدرسة للفقه المالكى تضم طائفة من أبناء الجنوب رغبة فى إعداد جيل يقوم بنصرة هذا المذهب ، فقد كان عبد الله بن ياسين أحد أولئك التلاميذ الذين كانوا يهيئون للقيام بهذا الدور الذى يتفق وأهداف المالكية . وليس من شك فى أن غرض واجاج بن زللو فى مدرسته بنفيس قد تحقق فى شخص عبد الله بن ياسين الذى لم يغادر نفيس يوم ندبه شيخه للتوجه إلى الصحراء مع الأمير الملثم يحيى بن عمر إلا وهو مؤمن بأن المغرب فى حاجة ملحة إلى الإصلاح ، وأن أستاذه لم يندبه للرحيل إلى بلاد صنهاجة إلا لثقته فيه لأن يبنى قوة حربية وجهازا سياسيا يتفق وأهداف فقهاء المذهب .

المالكى ونشر تعاليمه بين أولئك الصحراويين الذين لم يفسدهم تناحر الفرق وتنازع الأهواء. ومما يؤيد هذا الرأى أن عبد الله بن ياسين كان يبعث فى بعض الأحيان بخمس الغنائم من الصحراء إلى أستاذه واجاج بنفيس ، وأنه توجه فى بعض غزواته إلى بلاد المصامدة بدعوة من أستاذه .

وصفوة القول أن شخصية عبد الله بن ياسين قد توافر لها من المؤثرات الفكرية والسياسية ما جعل من صاحبها مصلحا وداعية دينية ، إذ سار فى توجيه الدعوة وفق خطة مرسومة تهدف إلى إقامة دولة وتوحيد أمة وتوطيد دعائم مذهب . أما تأثير عبد الله ابن ياسين فى توجيه الدعوة المرابطية فيتبين فى جلاء ووضوح فى اعتناق هؤلاء البدو الرحل الذين أصبحوا بفضل تعاليمه مسلمين حقا متمسكين بتعاليم الإسلام على هدى من تعاليم مذهب مالك ، ثم يتفانون فى نصرة هذا المذهب الذى أصبح المذهب الرسمى للدولة المرابطية ، ويحاربون هؤلاء الذين انحرفوا عن جادة الإسلام .

(٧) الدعوة الموحدية :

(١) مولد ابن تومرت ونشأته

ولد محمد بن تومرت بقرية إيجلى[١] بجبال الأطلس ببلاد السوس بالمغرب الأقصى ، وذلك فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى . وينسب ابن تومرت إلى قبيلة هرغة إحدى بطون قبيلة مصمودة التى تعتبر أكثر قبائل القرن عددا وأشدها بأسا وأوفرها ثراء ، وهى تنتشر فى أغلب أراضى المغرب الأقصى[٢] .

---

(١) المراكشى : معجب ص ١٨٧ . ويذكر الزركشى (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٢ — ٣) أنها تسمى إيكلين .

(٢) ويذكر الشريف الإدريسى (وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ، نشره هنرى بيرس Henrè Perès ، الجزائر ١٩٥٧ ص ٣٥) أن مصمودة هى القبيلة الأولى نزلت المغرب فعمرته ، وقد ذكر البكرى (المسالك والممالك ص ١٥٣ — ١٥٤) أن كتامة بطن من مصمودة . وعلى ذلك يكون الشعب المصمودى قد انتشر فى المغربين الأوسط والأقصى ، وفى مصر فى العصر الفاطمى حيث كان أكثر جيشها من قبيلة كتامة . وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن صنهاجة فرع من المصامدة (المصدر نفسه) . وعلى ذلك يكون هذا الشعب المصمودى قد انتشر فى صحراء المغرب حتى السودان (عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٣٨) . ويذكر ابن خلدون بعض قبائل مصمودة فيقول : « وقبائل هؤلاء المصامدة كثيرة ، فمنهم هرغة (بفتح الهاء والغين وسكون الراء) قبيلة ابن تومرت ، وهنتانة =

ومن هنا يدرك أن ابن تومرت صاحب الدعوة الموحدية ينتمى إلى أكبر قبائل المغرب، وأن هذا الأمر قد هيأ له النجاح فى دعوته التى انتهت بقيام الدعوة الموحدية، لأن العصبية، كما يقول ابن خلدون[1]، تعد أهم عناصر نجاح المبادىء والدعوات.

وقد ذكر ابن تومرت أنه ينتسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم. ويشير المراكشى (المعجب ص ١٧٨) إلى أن ابن تومرت ينتسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق الأدارسة الذين أسسوا دولتهم بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ. وقد انقسم المؤرخون فى مسألة نسب ابن تومرت إلى بيت الرسول إلى طوائف ثلاث:

(١) طائفة أيدت صحة هذا النسب، لأن الانتساب إلى النبى صلى الله عليه وسلم شرط أساسى فى المهدى المنتظر. ومن هؤلاء المؤرخين أبو بكر بن على الصنهاجى الشهير بالبيدق وتلميذ ابن تومرت، وكان لا ينفك عنه كظله حتى توفى ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ.

(٢) وطائفة أنكرت نسب ابن تومرت إلى النبى صلى الله عليه وسلم. ومن هؤلاء ابن أبى زرع وابن عذارى.

(٣) وطائفة أخرى آثرت جانب الاعتدال والتزمت الحياد. ومن هؤلاء عبد الواحد المراكشى.

ويبدو أن ابن خلدون[2] يميل إلى صحة نسب ابن تومرت إلى الرسول الكريم وانتمائه إلى قبيلة مصمودة البربرية فيقول: «وعلى الأمرين فإن نسبه الطالبى وقع فى هرغة من قبائل المصامدة ووشجت عروقه فيهم والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم وانتسب بنسبتهم وصار فى عدادهم». ويرى ابن خلدون أن ذرية سليمان بن عبد الله أخا إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى قد انتشرت فى قبيلة مصمودة عن طريق المصاهرة، وكان محمد بن تومرت يدعى النسب إلى سليمان بن عبد الله.

= (بكسر الهاء وسكون النون وفتح التاء) وتينمل (بفتح التاء وسكون الياء والنون وكسر الميم) وجدميوه (بفتح الجيم الأولى وسكون الدال وكسر الميم الثانية وفتح الواو)، وجنفيسة (بفتح الجيم والسين وسكون النون)، ووريكة (بفتح الواو والكاف) ورجراجة (بفتح الراء وسكون الجيم الأولى وفتح الجيم الثانية) وهزميره (بفتح الهاء والراء وسكون الزاى)، ودكالة (بضم الدال، وحاحة، وأصارن، وبنو وزكيت (بفتح الواو وسكون الزاى)، وبنو ماكر، وليلانه (ابن خلدون): العبر ج ٦ ص ٤٦٢.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨٧.

(٢) العبر ج ٦ ص ٤٦٢.

وقد نشأ ابن تومرت فى بلاد السوس التى اشتهرت منذ ظهور الإسلام فى المغرب بحب الدين الحنيف والسعى لتحصيل علوم القرآن الكريم . وكان أهل بيته ، كما يقول ابن خلدون ، أهل نسك ورباط ، وقد شب محمد (بن تومرت) هذا قارئاً ، محباً للعلم ، وكان يسمى « أسافو » ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج من القناديل لملازمتها . من ذلك نرى أن ابن تومرت نشأ فى بيئة دينية ، وأنه انكب على طلب العلم ولازم بيوت الله للعبادة .

وبعد أن أخذ ابن تومرت بحظ من علوم الدين واللغة رحل إلى المشرق لطلب العلم ، فرحل إلى الأندلس ، ثم إلى مصر والشام ، ثم ألقى عصا التسيار بالعراق حيث جد فى طلب العلم . وكانت بغداد فى ذلك الحين من أعظم الحواضر الإسلامية فى العلم والأدب والحضارة . وقد تلقى ابن تومرت العلم على أعلام العلماء كأبى بكر الشاشى ، والمبارك بن عبد الجبار من علماء الكلام والأصول والحديث . وقيل إنه أخذ العلم على الإمام أبى حامد الغزالى . وقد تأثر بالثقافة الإسلامية فى بغداد وغيرها من الحواضر الإسلامية . وكان لهذه الثقافة أثر بعيد فى حياة ابن تومرت الذى أخذ على عاتقه أن ينقل إلى المغرب التوحيد الكلامى القائم على التأويل[1] وأن يصرف الناس عن المذهب التقليدى الذى ورثه فقهاء المالكية عن السلف الصالح ، والذى يأبى التأويل إباء تاماً عملا بقوله تعالى :

(هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم . يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) (سورة آل عمران ٣ : ٧) .

(ب) دعوة ابن تومرت

وهنا نسأل : على أى أساس قامت الدولة الموحدية ؟ وهل قامت على أساس دينى إصلاحى أم على أساس دينى وسياسى معاً ؟ ولماذا تسمت بهذا الإسم ؟

---

(١) يقصد علم الكلام الذى يؤول الآيات القرآنية تأويلا يبعد الذات الإلهية عن مشابهة الحوادث وعن التجسيم . مثال ذلك : (يد الله فوق أيديهم) (سورة الفتح ٤٨ : ١٠) فعلماء الكلام يفسرون اليد بالقدرة أى قدرة الله تؤيدهم بينما تقف السلفية موقفاً محايداً فلا يسمحون لأنفسهم بالتأويل .

ظل ابن تومرت سنوات يطلب العلم بالمشرق ثم عاد إلى بلاده حاملا أفكاراً جديدة وآمالا بعيدة . فحج بيت الله وأخذ ينشر الدعوة الموحدية فى مكة ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر . وكانت مكة إذ ذاك خاضعة للحكم الفاطمى . فلم يكن بد إذن من أن يندد بسوء حال المسلمين فى عهد الفاطميين . لذلك نرى ابن تومرت يغادر مكة ثم يتجه إلى الشام ثم إلى مصر مركز الدولة الفاطمية إذ ذاك . وقد قيل إنه اتصل بالفقيه أبى بكر الطرطوشى فى الإسكندرية . وهنا أخذت الدولة الفاطمية تطارد ابن تومرت خشية انتشار مبادئه الثورية بين الناس ، فركب البحر واتجه إلى المغرب ، وقد اختلف المؤرخون فى اسم المدينة التى نزلها ابن تومرت بعد خروجه من مصر . فيرى ابن خلدون أنه حل بمدينة طرابلس حيث أخذ ينشر مذهبه الجديد فى التوحيد الذى يقوم على تأويل المتشابه من القرآن الكريم والحديث الشريف ، مشدداً النكير على علماء المغرب فى عدولهم عن التأويل . ثم قام ابن تومرت بتدريس علم التوحيد لتوضيح مذهبه الجديد وأخذ الناس بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

على أن علماء المغرب المالكية السلفيين لم يتقبلوا مذهب ابن تومرت بل قاوموه فى عنف حتى « لقى بسبب ذلك أذايات فى نفسه احتسبها من صالح عمله » على حد تعبير ابن خلدون[1]. وقد ذكر البيدق أن ابن تومرت نزل بمدينة تونس ثم بمدينة قسنطينة ثم بمدينة بجايه ، ثم اتجه إلى تونس ، وكان طلبتها يأخذون العلم عليه . وقد أضاف البيدق قائلا : « وظل (ابن تومرت) على هذا أياماً . فلما كان بعض الأيام قال : نتوجه إنشاء الله نحو الغرب ، فخرجنا من تونس ونحن أربعة نفر كنا أول القدوم : سيدنا المعصوم ، ويوسف الدكالى ، والحاج عبد الرحمن ، وعبدكم الفقير المؤلف لهذا أبو بكر بن على الصنهاجى المكنى بالبيدق . فلم نزل نجد السير حتى وصلنا قسنطينة . » ثم يذكر البيدق أن ابن تومرت أقام بمدينة قسنطينة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ثم خرج منها إلى مدينة بجاية[2] :

ذكر ابن خلدون أن ابن تومرت التقى بتلميذه عبد المؤمن بن على بعد خروجه من مدينة بجاية بقرية تبعد عنها بفرسخ واحد[3] ويبالغ مؤرخو الموحدين فى وصف لقاء

---

(١) العبر ج ٦ ص ٤٦٧ .

(٢) البيدق : أخبار المهدى بن تومرت ص ٥١ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٤٦٧ .

ابن تومرت بعبد المؤمن ، فيذكرون أن المهدى عرفه قبل أن يلتقى به بعلامات كان قد عرفها بطريق التنجيم[١] والجفور[٢] ، وأن ابن تومرت قربه إليه وآثره على جميع أتباعه وهيا له السبيل لأن يخلفه فى زعامة الموحدين .

خرج ابن تومرت من هذه القرية ومعه عبد المؤمن بن على ، ومحمد البشير الونشريشى ، فمر بوجدة ومكناسة وسلا ، وانتهى به المطاف أخيراً بمدينة مراكش حاضرة المرابطين فى ذلك الحين . وكان ابن تومرت فى جميع هذه المدن يدعو إلى مذهبه ، آمراً الناس بالمعروف ناهياً عن المنكر مشدداً النكير على من يخالف الشرع . وكان فى الوقت نفسه يبشر بمبادىء التوحيد الكلامى سراً كلما أتيحت له الفرصة .

أطلق ابن تومرت على أتباعه اسم « الموحدين » إشارة إلى أنهم هم الذين يوحدون الله حقاً ، وتعريضاً بالدولة المرابطية التى رماها ابن تومرت بالكفر والتجسيم ، وأحل قتالها باعتبار المرابطين (فى رأيه) غير مؤمنين عملا بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) (سورة التوبة ٩ : ١٣) .

(ج) ابن تومرت وعلى بن يوسف المرابطى

كان ابن تومرت يمشى فى الأسواق آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، فيتلف المزامير وآلات اللهو ويريق الخمر ويكسر أوانيها . ولم يكن فى ذلك مأذوناً من السلطان ولا من القضاة ولا من المحتسبين التابعين للدولة المرابطية ، إذ كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومقاومة اللهو المنافى للشرع من اختصاص المحتسب وحده . وكانت الحسبة عملا حكومياً هاماً . من أجل هذا اعتبرت الدولة المرابطية عمل ابن تومرت مخالفاً لقوانين الدولة . وقد نبه ابن تومرت بأعماله الجريئة أذهان الناس . فلم يكن بد من أن يأمر السلطان على بن يوسف بإحضاره . « فلما مثل بين يديه نظر إلى تقشفه ورثاثة حاله ،

---

(١) كان التنجيم من العلوم التى عنى بها المسلمون فى ذلك الحين . حتى إن الخلفاء والسلاطين كانوا لا يحاربون إلا بمشورة المنجمين . وقد ندد أبو تمام بالمنجمين مادحا المعتصم العباسى بعد انتصاره على الروم فى موقعة عمورية بقوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

(٢) الجفر جلد الماعز الذى قيل إن به علوم الأولين ومعرفة الغيب قد دونها الإمام جعفر الصادق ثم ورثها عنه أئمة الشيعة .

فاستحضره وهان عليه أمره وقال له : ما هذا الذى بلغنا عنك ؟ قال : وما بلغك أيها الأمير ؟ إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة ولست بطالب دنيا ولا حاجة لى بها، غير أنى آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأنت أولى من يفعل ذلك فإنك المسئول عنه . وقد عاب الله تعالى قوما تركوا النهى عن المنكر فقال تعالى : (كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) (سورة المائدة ٥ : ٧٩) »[١] .

فلما سمع السلطان كلام ابن تومرت أكبره وعظمه وأشار إلى وزرائه بإحضار الفقهاء لمناظرته وتحقيق مقالته . ولما حضر الفقهاء قال لهم السلطان : « إنما بعثت إليكم لتختبروا أمره ، فإن كان عالما اتبعناه وإن كان جاهلا أدبناه »[٢] .

من ذلك نرى أن السلطان الورع على بن يوسف بن تاشفين قد تأثر بكلام ابن تومرت ، وأنه بعث إلى العلماء ليستمعوا بدورهم إلى آرائه ويختبروا علمه . فإن كان على حق قضت الضرورة باتباعه ، وإن كان على باطل فينبغى أن يؤدب . وإذا كان السلطان يريد أن ينزل العقاب بابن تومرت لما رأى ضرورة لطلب العلماء لمناظرته واختباره .

على أن علماء المرابطين برياسة مالك بن وُهَيْب حقدوا على ابن تومرت لأنهم عجزوا عن مناظرته . وقد اشتهر ابن تومرت بقوة الجدل والمناظرة فقال لهم . « قدموا من تقوم به حجتكم ، وتأدبوا بأدب أهل العلم وسلموا عند شروط المناظرة واتركوا اللجاج ،وقدموا أحدكم ممن تثقون بمعرفته وتأدبه . وكان جل من حضر ذلك المجلس أصحاب حديث وفروع (فقه) وليس فيهم من له معرفة بالأصول والجدل »[٣] .

ولما سمع مالك بن وُهَيْب كلام ابن تومرت استشعر حدة ذكائه وقوة عبارته وأيقن بعجزه وعجز علماء المرابطين عن دفع حججه ، فأشار مالك على السلطان بقتل ابن تومرت وقال مشيرا إليه : هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه ، وإن مر إلى بلاد المصامدة وقع لنا منه شر كثير . ولكن على بن يوسف الذى عرف بورعه وزهده استشعر حقد العلماء على ابن تومرت ، فلم يستمع إلى نصيحة مالك ولم يفكر فى قتل

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٠٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١١٠ .

ابن تومرت . ولما يئس مالك من حمل السلطان على قتل ابن تومرت أشار عليه بحبسه حتى يموت فى سجنه فقال على بن يوسف : علام نأخذ رجلا من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق ؟ وهل السجن إلا أخو القتل ؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء ، فخرج ابن تومرت مع أصحابه متوجها إلى بلاد السوس .

(د) هرب ابن تومرت

ثم فر ابن تومرت خشية أن يكيد له الفقيه مالك بن وهيب بمراكش ، وظل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فاجتمع حوله كثير من الناس . وقيل إنه نزل بأغمات على الفقيه المصمودى عبد الحق بن إبراهيم ، وأنه أخبره بمقصده وما جرى له مع السلطان وعلماء المرابطين فقال له عبد الحق : هذا الموضع (يعنى أغمات) لا يحميكم ، وإن أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد بلدة « تينمل » ، وبيننا وبينها مسافة يوم فى هذا الجبل ، فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكركم . فلما سمع ابن تومرت كلمة تينمل دار بخاطره أنه رأى هذا فى كتاب الحفر وتفاءل بأنه سوف ينتصر فى هذا الموضع ، فاتجه إليه[1] .

ويذكر ابن خلدون أن ابن تومرت لما ذهب إلى أغمات غير بها المنكر على عادته ، فضاق كثير من الناس به ذرعا وأغروا به السلطان على بن يوسف . فلما علم ابن تومرت بذلك ، خرج هو وأصحابه من أغمات خائفين يتدرون الطريق ، فلحق بقبيلة مسفيوة المصمودية ثم بقبيلة هنتانة ، حيث لقيه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتانى جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية ، ثم تركهم ابن تومرت ميمما شطر قبيلة هرغة ، فنزل على قومه سنة ٥١٠ هـ[2] .

ولا ريب أن فرار ابن تومرت هائماً على وجهه وتوديعه مدينة مراكش حاملا بين جنبيه عداء علماء المرابطين الذين عملوا على الإيقاع به وحملوا السلطان على طرده ، ثم مالمسه من ضعف هذا السلطان المرابطى الذى أمر بإبعاده وأبى الانتفاع بعلمه والاستماع إلى مبادئه — كل ذلك قد حدا بابن تومرت إلى القيام بعمل حاسم إزاء الدولة المرابطية التى سيطر عليها العلماء والفقهاء فى عهد على بن يوسف ، فبنى بهرغة رابطة للعبادة ، فاجتمع عليه

---

(١) السلاوى : الاستقصاء ج ٢ ص ٧٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٤٧٠ .

الطلبة من القبائل المختلفة . وأخذ يلقى عليهم درسا من كتابه « المرشدة » الذى ضمنه مذهبه الكلامى الجديد . وألف لأتباعه كتبا فى عقيدة التوحيد التى قام بشرحها بنفسه باللغة البربرية[١] . فذاع ذكره وعظم أمره ، واشتدت شوكته . وأخذ يفكر فى المهدوية التى تعتبر أول خطوة فى قيام الدولة الموحدية .

(هـ) بيعة ابن تومرت

ومما يدل على عناية ابن تومرت بإحلال التوحيد الكلامى القائم على التأويل محل توحيد السلف القائم على التسليم بظاهر الآيات ، أنه بعد أن حل بقومه بهرغة وبنى رابطة للعبادة والتدريس ، أخذ يدرس التوحيد الكلامى جهراً بعد أن كان يذيعه بين تلاميذه سراً[٢] . ولما اجتمع حول ابن تومرت كثير من الطلاب ، طلب إليهم مبايعته على التوحيد ، ثم مهد للخطوة التاليه ، وهى المهدوية : فأخذ يروى لطلابه الأحاديث التى جاءت فى المهدى المنتظر ، ويصور فساد المجتمع الإسلامى عامة والمرابطى خاصة ، وحاجة الناس إلى ظهور المهدى المنتظر ، وذكر لهم أن ظهوره قد آن أوانه لوجود هذه العلامات التى وردت فى الأحاديث التى أوردها الشيعة عن المهدى المنتظر . وقد ذكر ابن تومرت أن هذه العلامات تنطبق عليه من حيث اسمه ولقبه ونسبه النبوى . لذلك ادعى هذا الأمر لنفسه وقال : أنا محمد عبد الله ، ورفع نسبه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه ونادى بأنه المهدى المعصوم ، وروى فى ذلك كثيراً من الأحاديث حتى استقر فى الأذهان أن ابن تومرت هو المهدى ، وبسط يده فبايعوه وقال : أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رسول الله[٣] .

ويصف ابن القطان بيعة الموحدين لابن تومرت بالمهدوية فيذكر أنه حين وثق من منعته فى قومه عقد اجتماعا عاما وخطب فى قومه قائلا :

« الحمد لله الفعال لما يريد القاضى بما يشاء ، لاراد لأمره ولا معقب لحكمه . وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدى الذى يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلما وجورا .

---

(١) انظر كتابى انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ٢٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٧١ .
(٣) المراكشى : المعجب ص ١٨٨ .

يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور . مكانه المغرب الأقصى وزمنه آخر الزمن ، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى . وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم . وقد ظهر جور الأمراء وامتلأت الأرض بالفساد . وهذا آخر الزمان ، والاسم الاسم والنسب النسب والفعل الفعل[1] » .

وهناك رواية ينقلها ابن القطان عن اليسع أنه قال : « وسمعت أمير المؤمنين أبا محمد عبد المؤمن بن على (رضى الله عنه) يقول . لما فرغ الإمام المهدى رضى الله تعالى عنه من كلامه بادر إليه عشرة رجال منهم : أنا ، فقلت له : هذه الصفة لا توجد إلا فيك ، فأنت المهدى ، فبايعناه على ذلك[2] » والعشرة المذكورون هم . عبد المؤمن بن على ، وأبو محمد البشير الونشريشى ، وأبو إبراهيم الهزرجى ، وأبو حفص عمر بن على الصنهاجى ، وأبو الربيع سليمان بن الحضرى ، وأبو عمران موسى بن عمار ، وأبو يحيى ، وأبو بكر بن يحيت ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان ، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتانى (مؤسس الدولة الحفصية فى تونس) ، وعبد الله بن مَلْوية .

وهؤلاء العشرة هم المسلمون أهل الجماعة ، كانوا بمثابة مجلس وزراء لابن تومرت كما كانوا نواة للدولة الموحدية .

(و) الحكومة الموحدية

نظم ابن تومرت دولته تنظيما عسكريا على النحو الآتى .

(١) العشرة أو أهل الجماعة : وكانوا بمثابة الوزراء .

(٢) أهل الخمسين : وكانوا بمثابة أعضاء مجلس الشيوخ .

(٣) أهل السبعين : وكانوا بمثابة أعضاء مجلس الأمة .

(٤) الطلبة : وهم العلماء .

(٥) الحفاظ : وهم صغار الطلبة .

(٦) أهل الدار .

---

(١) أنظر ابن القطان : نظم الجمان ، مخطوط المعهد الإسلامى بمدريد ، نشره الدكتور محمود مكى ورقة رقم ١٥ .

(٢) المصدر نفسه ورقة ٢٠ .

(٧) قبيلة هرغة : وهى قبيلة المهدى بن تومرت .

(٨) أهل تِيْنْمُل : وهم جماعة منتخبه من عدة قبائل ، وهم الذين ألفوا الجيش الموحدى الذى استطاع أن ينشر الدعوة الموحدية ويؤسس الدولة الموحدية . وقد ظلت تينمل مركز الدعوة الموحدية حتى سقطت مراكش فى أيديهم سنة ٥٤١ هـ .

(٩) قبيلة جَدْمِيوة .

(١٠) قبيلة جَنْفيسة .

(١١) قبيلة هنتاتة .

(١٢) القبائل الموحدية .

(١٣) الجند .

(١٤) الغِرّات وهم عوام الناس[١] .

وكان المهدى بن تومرت يأخذ أتباعه بالشدة فى احترام القوانين والمواعيد والتمسك بالصفات الحميدة . وكان لكل طبقة من هذه الطبقات مكانها فى الحكم . كما رسم ابن تومرت لهذه الطبقات مالها من حقوق وما عليها من واجبات . وكانت الطبقات فى مجموعها متساندة كمجموعة لها كيانها ، وكان على الموحدين كافة أن يقوموا بأداء حقوق الله قبل كل شىء . وأن يواظبوا على الصلاة فى أوقاتها وقراءة تلك الأحزاب التى وضعها المهدى[٢] والكتب التى ألفها فى العقيدة الموحدية على أن تتلى بصفة مستمرة[٣] .

(ز) غزوات ابن تومرت

كانت غزوات المهدى بن تومرت التى سبقت موقعة البحيرة عبارة عن إخضاع القبائل التى أبت أن تدخل فى الدعوة الموحدية عن طواعية واختيار . فقد أرسل ابن تومرت إلى القبائل المختلفة كتباً يدعوها إلى الدخول فى سلك هذه الدعوة التى تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور (فى رأيه) وتنقذهم من التردى فى هاوية العقيدة المرابطية التى تؤدى إلى التجسيم والإشراك بالله . وقد حارب ابن تومرت قبائل رجراجة وقبائل جبل

---

(١) أنظر ابن القطان : نظم الجمان ، مخطوطة المعهد الإسلامى بمدريد .

(٢) وهى أشبه بالأوراد التى يتلوها المصلون عقب الصلاة .

(٣) عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ١٧٢ — ١٧٧ .

درن (الأطلس) : يقتل من عصا ويؤمن من اتبعه وانقاد له . وبذلك استطاع ابن تومرت أن يفتح جميع قلاع جبل درن وحصونه وأوديته ، فأطاعته قبائل هنتانه وجنفيسة وهرغة وغيرها (١) .

على أن البيدق يعتبر أن حرب المهدى ابن تومرت ضد قبائل الأطلس عبارة عن سلسلة من حروب ووقائع منفصلة . فيعقد البيدق لأخبار المهدى فصلا يتناول فيه سبع غزوات يشترك فيهـــا ابن تومرت بنفسه ويشج ويحمل من المعركة جريحاً على نحو ماحدث للنبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد (٢) .

وتعتبر موقعة « البحيرة » التى نشبت بين المهدى بن تومرت وبين الجيش المرابطى أهم المواقع . وكان الجيش الموحدى بقيادة أبى محمد البشير الونشريشى ، وقاد الجيش المرابطى أبو بكر على بن ناشفين ، وانتهت هذه الموقعة بقتـــل قائد الموحدين وهزيمة جيوشهم (٣) . وكانت هزيمة الموحدين صدمة عنيفة للمهدى بن تومرت الذى انتابه المرض ومات سنة ٥٢٤ هـ ، على ماذكرنا فى الباب الثالث من هذا الكتاب .

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١١٨ .
(٢) البيدق : أخبار المهدى بن تومرت ص ٥٧ .
(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٨٤ .

الباب الثامن

نظم الحكم

١ — النظام السياسى

(١) الخلافة عند الفقهاء والفلاسفة والأخلاقيين :

بدأ الفقهاء يبحثون مسألة الخلافة نظرياً فى عصر انحلال الدولة العباسية ، حين لم يعد للخليفة من الأمر شىء . وقد تناول موضوع الخلافة من الوجهتين النظرية والعملية كثير من فقهاء المسلمين ومؤرخيهم .

فأبو الريحان البيرونى[١] (ت ٤٤٠/١٠٤٨) أعلن فى وضوح ما آل إليه أمر الخلافة العباسية فقال : إنه لم يبق للخليفة من الأمر شىء ، اللهم إلا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته .

كذلك تعرض لمسألة الخلافة فقيه آخر هو أبو الحسن على الماوردى[٢] (ت ٤٥٠/١٠٥٨) الذى ولد فى عهد الخليفة العباسى الطائع (٣٦٣ — ٣٨١/٩٧٤ — ٩٩١) وتوفى فى عهد القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ / ١٠٣١ — ١٠٧٥) . ويعتبر الماوردى فى طليعة الذين بحثوا هذا الموضوع . فقد بحث الخلافة بحثاً نظرياً لا يتفق والحوادث التى وقعت فى عصره وقبل عصره ؛ فهو يقول : إن مركز الخليفة انتخابى ، ويذكر الشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يرشح لهذا المنصب الخطير . ثم يسرد تاريخ البيعة منذ أيام أبى بكر ، ويدلى بالحجة على أن بيعة كل من الخلفاء الراشدين صحيحة شرعاً ، كما يسرد شروط أهل الإمامة وواجبات الخليفة الدينية والإدارية والقضائية والحربية[٣] . على أن الماوردى قد تجاهل فى هذا البحث النظرى حقيقة ما وصلت إليه الخلافة فى عهده .

كما تناول موضوع الخلافة كاتب متأخر عن البيرونى والماوردى ، هو نظامى عروضى السمرقندى ، الذى يرى ضرورة قيام من يخلف النبى صلى الله عليه وسلم المحافظة على

---

(١) كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية (لندن ١٧٨٩) .

(٢) الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٧ هـ) (ص ٨ — ١٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤ — ٦ ، ٨ — ١٢ ، ١٣ — ٢٠ .

الشريعة ، كما يقول : إن هذا القائم بالأمر يجب أن يكون خير المجتمع ، ويقول أيضا : إن الخليفة لا يستطيع أن ينشر نفوذه ولا أن يدير دولته إدارة حازمة لاتساع رقعتها ، ولابد إذاً أن يكون له نواب يمثلونه فى الولايات النائية .

ومن الفقهاء الذين تكلموا عن الخلافة ابن حزم[١] (٤٥٦ / ١٠٦٤) فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ، والشهرستانى[٢] (٥٤٨ / ١١٥٣) الذى تكلم فى كتابه « الملل والنحل » (جـ ٤ ص ١٦٣ — ١٧١) عن آراء أصحاب الفرق فى الخلافة وفى إمامة الخلفاء الأول .

كما تناول موضوع الخلافة فريق من الفلاسفة والأخلاقيين الذين تأثروا بعلوم اليونان وفلسفتهم ، وبخاصة فلسفة أرسطو وأفلاطون . ومن فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بما كتبه أفلاطون فى جمهوريته : أبو نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ / ٩٥٠ ، والذى عاصر سيف الدولة الحمدانى واتصل به اتصالا وثيقا وتأثر بفلسفة أفلاطون فى جمهوريته ، فتكلم على دولة تعتبر مثلا أعلى عند الفلاسفة . وقد أفرد الفارابى فى كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » بابا عنون له بباب « القول فى العضو الرئيس »[٣] ، (وهو الخليفة والإمام فى العرف الإسلامى) تعتبر مثلا أعلى على رأسها الفلاسفة .

وقد شبه الفارابى الدولة بالكون الذى ينتظم عوالم متناسقة بدرجاتها المختلفة ، تخضع لسلطان الله سبحانه وتعالى ، كما شبه الكون بالروح الإنسانية من حيث مقاييس الذكاء ، وبجسم الإنسان من حيث تركيب أعضائه فى شكل منظم يسيطر عليه القلب . وبهذه الطريقة نفسها شبه الفارابى الدولة بنظام متعدد الدرجات . والدولة المثالية فى نظر الفارابى يشرف عليها زعيم يعرف ما هى السعادة الحق ، لأن الإنسان لا يستطيع الوصول إلى هدفه بدون هداية مثل ذلك الزعيم (الإمام أو الخليفة) . ولعل الفارابى لم يعن العناية المطلوبة فى بحث الحالة السياسية التى كان عليها العالم الإسلامى الذى كان يعيش فيه ، وأن هذه الحالة لا يمكن أن تنطبق على الخلافة إلا من الناحية النظرية ، ومن جهة النظرة الدينية فحسب[٤] .

---

(١) القاهرة ١٣١٧ هـ .

(٢) على هامش كتاب ابن حزم .

(٣) ص ٧٠ — ٨٠ .

(٤) Arnold, The Caliphate, pp. 121 — 122.

كذلك تعرض إخوان الصفا لمسألة الخلافة من وجهة نظرهم التى تتفق ونظرية الشيعة كما يرى أكثر الباحثين ، فقالوا : إن الملوك خلفاء الله فى الأرض ، وإن الملك حارس الدين وحارس الرعية ، فهو يحمل رعيته على الإذعان لأحكام الدين ونواهيه . وهذا يتفق مع النظرية الإسلامية العامة . ومن هؤلاء نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى[١] وقد تناول موضوع الحكومة فى كتابه سياسة نامة الذى وضعه سنة ٤٨٥ (١٠٩٢ م) ، فبحث مسألة إعداد الحكام وإدارة الدولة .

ومن أولئك الفلاسفة والأخلاقيين شهاب الدين سهراوردى (٥٨٧ / ١١٩١) الذى تأثر فى كتابه « حكمة الإشراق » بما كتبه أفلاطون فى جمهوريته ، ونصير الدين الطوسى الشيعى الذى دخل فى خدمة هولاكو التتارى وحثه على إزالة الخلافة العباسية ، وصحبه فى حصار مدينة بغداد سنة ٥٦٦ / ١٢٥٨ . فقد وصف فى كتابه « أخلاقى ناصرى » الإمام (أى الخليفة) كحاكم مثالى كما فعل أفلاطون وأرسطو من قبله . وكان نصير الدين الطوسى من أبرز الكتاب الذين خلفوا لنا مؤلفات فى الدين والفلسفة .

وقد عنى ببحث موضوع الخلافة فى العصر الأخير بعض المستشرقين من أمثال متز وجولد تسيهر وسير توماس أرنولد ، وغيرهم مثل عبد العزيز الدورى ، وحسن إبراهيم حسن ، وعلى إبراهيم حسن فى كتاب (النظم الإسلامية) ، وقد نقل إلى الأردية والفارسية .

ويرى ابن خلدون (ت ٨٠٨ / ١٤٠٥) أن الخلافة تطورت وتحولت عما كانت عليه فى صدر الإسلام ، وأنه لم يكن بأس من أن يختار المسلمون الخليفة من أصحاب العصبية أياً كانت جنسيتهم . ويقرر ابن خلدون نظريته التى تقوم على العصبية المطلقة لا العصبية القرشية التى بدأت عقب وفاة الرسول واختلاف الصحابة فيمن يخلفه ، ويرى أن الإسلام فى جوهره لا يفرض هذه العصبية القرشية على المسلمين . ونلاحظ أن ابن خلدون قد طبق روح عصره تماماً ، إذ رأى الخليفة فى القاهرة فى عصر المماليك لا يملك من أمر المسلمين شيئاً ، وأن الخلافة قد أصبحت صورية . وبذلك قرر نظريته وهى أن الخليفة يجب أن يكون من أهل العصبية المطلقة[٢] ,

---

(١) Siasset Naméh, 3 vols. (Paris, 1891, 1897).

(٢) ابن خلدون : مقدمة ص ١٩٣ — ١٩٦ .

بذلك نرى ابن خلدون يختلف مع جمهور السنة الذين يرون حصر الخلافة فى قريش ، ومع الشيعة الذين يريدون قصر الخلافة أو الإمامة على أسرة الرسول وفى بيت على وأبنائه من بعده . كما يختلف مع الخوارج الذين يرون أن الخلافة حق لكل عربى حر ، ثم اشترطوا الإسلام والعدل ، ومع المعتزلة الذين يقولون إن الإمامة اختيار من الأمة سواء أكان المرشح قرشياً أم غير قرشى .

بل لقد خالف ابن خلدون بن حزم (ت ٤٥٦ / ١٠٦٤) برغم تقديره له واتخاذه إياه قدوة ونبراساً له فى تاريخ المغرب والدين بصفة خاصة ، إذ جعل ابن حزم أمر القرشية الشرط الأساسى الأول فى الإمامة ، كما لم يجوز خلع الإمام إذا ظلم ، بل أشار بمنع المسلمين إياه من الظلم . فإذا لم يمتنع كان لهم أن يعزلوه [١] .

٢ — الخلافة العباسية فى عهد سلاطين السلاجقة :

لم تختلف حالة الخلفاء العباسيين أيام السلاجقة اختلافاً كبيراً عما كانت عليه فى أيام بنى بويه . وكان هؤلاء الخلفاء فى أيام السلاجقة يعيشون من إقطاعات مقررة كما كانت الحال فى أيام بنى بويه ، ولم يكن لهم من الأمر شىء سوى ذكر اسمهم فى الخطبة . وكانوا يقضون أوقاتهم فى بناء القصور وترميمها .

على أن معاملة السلاجقة السنيين للخلفاء العباسيين كانت أحسن بكثير من معاملة البويهيين الشيعيين لهم . يدل على ذلك ماحدث عند اجتماع الخليفة الطائع بعضد الدولة ابن بويه الذى لم يكن همه إلا إظهار ما كان يتمتع به من نفوذ وسلطان أمام رسول الخليفة الفاطمى العزيز .

كما تتجلى هذه العلاقات الطيبة التى سادت بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة فى هذه الخلع التى كانوا يتبادلونها . فقد كان الخليفة إذا ما ارتقى العرش يبعث فى طلب السلطان السلجوقى لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانية والهدايا ، كما كان السلطان السلجوقى يلتمس بعد توليته السلطنة التفويض من الخليفة العباسى [٢] . ويعزو المؤرخون هذه العلاقات الحسنة إلى هذه الحقيقة ، وهى أن السلاجقة كانوا يعتنقون

---

(١) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١١١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٠ ، ٦٤ .

المذهب السنى مذهب الخلفاء العباسيين . وذكر سير توماس أرنولد فى كتابه الخلافة « أن السلاجقة كانوا يحترمون الخليفة العباسى ، لا لمركزه السياسى بل لأنه خليفة رسول الله »(١)

كما تظهر تلك العلاقات واضحة جلية فى ارتباط البيتين السلجوقى والعباسى برباط المصاهرة . فقد تزوج طغرلبك من ابنة الخليفة القائم ، الذى زوج ابنه المقتدى من ابنة السلطان ألب أرسلان (٤٦٤ هـ) . كذلك تزوج الخليفة المستظهر (٤٨٧—٥١٢ هـ) من ابنة السلطان ملكشاه فى سنة ٥٠٢ هـ ، وتزوج الخليفة المقتفى (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) من فاطمة بنت محمد بن ملكشاه وأخت السلطان محمود(٢) ،

على أن هذه الروابط الوثيقة لم تحل دون قيام النزاع بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة الذين تعدوا على حرمة الخلافة إذا ماتدخل الخليفة فى شئون الحكم . وقد ذكر سير توماس أرنولد(٣) : أن السلاجقة اتخذوا لأنفسهم لقب « ظل الله » الذى كان يحتفظ به الخلفاء العباسيون لأنفسهم ، وأنهم أخذوا من الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) بردة الرسول التى كان يلبسها الخلفاء عند توليتهم الخلافة أو عند حضورهم الحفلات الدينية . كذلك لقب ملكشاه نفسه بلقب « أمير المؤمنين » ، ذلك اللقب الذى لم يطلق إلا على الخلفاء أنفسهم(٤) .

٣ — عود النفوذ إلى الخلفاء العباسيين — المقتدى والمسترشد :

وإن حسن معاملة سلاطين السلاجقة للخلفاء العباسيين بوجه عام قد أحيت فى نفوسهم الأمل فى إعادة ما كان للخلافة العباسية من نفوذ وسلطان ، حتى إنهم استطاعوا فى أواخر عهد السلاجقة أن يظفروا بشىء من السلطة ، وبخاصة عندما قام النزاع بين أفراد البيت السلجوقى .

---

(١) The Caliphate p. 80.

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٨ ، ٢٩ ، ١٩٩ .

(٣) Ibid., p. 80.

(٤) ذكر البنداري (تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢) أن سنجر تلقب بلقب ملك عشرين سنة وأقيمت له الخطبة على أكثر منابر الدولة السلجوقية ، كما تلقب بالسلطان الأعظم معز الدنيا والدين . وذكر ابن الأثير (الكامل ج ١١ — ٧١ — ٧٤) أنه تلقب بلقب غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين . وذكر ابن القلانسى (ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٣ و ٢٨٤) أن الخليفة المقتفى (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) خلع على عماد الدين زنكى كثيراً من الألقاب مثل الأمير الكبير العادل المؤيد المظفر المنصور الأوحد عماد الدين ، عمدة السلاطين قاهر الكفرة والمتمردين . أمير العراقيين والشام نصير أمير المؤمنين .

ولما آلت الخلافة إلى المقتفى (٥٣٠ — ٥٥٥ / ١١٣٦ — ١١٦٠) عول على ترسم خطا آبائه ، ونجح كثيراً فى هذه السبيل . وقد دخل النزاع بين الخليفة المقتفى والسلطان مسعود فى طور جديد . وكان هذا الخليفة — كما يقول السيوطى [١] — « قد حدد معالم الإمامة ومهد رسوم الخلافة ، ولم تزل جيوشه منصورة حيثما يممت » . وقد حاصر السلطان مسعود مدينة بغداد ، ولكنه عاد مخذولا .

٤ — احتفاظ الخلفاء العباسيين بسلطتهم الدينية :

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسى قد أصبح طوال عصر انحلال الدولة العباسية ألعوبة فى أيدى أمراء الأتراك أولا ، ثم فى أيدى بنى بويه والسلاجقة ثانياً ، ظل محتفظاً بسلطته الدينية فى عهد السلاجقة ، كما كان محتفظاً بها عند غيرهم من الأمراء المستقلين ، لأنه قد ثبت فى أذهان الناس أن الخلافة نظام لابد منه لصلاح العالم واستقامة أموره ، وأن الخليفة هو مصدر السلطات . لذلك نرى كثيراً من أمراء المسلمين الذين كونوا إماراتهم بقوة السيف يعترفون بسلطة الخليفة الدينية ويلجئون إليه للحصول على تفويض بالحكم باعتباره خليفة النبى صلى الله عليه وسلم ومصدر قوة المسلمين .

وإنما لجأ هؤلاء الأمراء الذين وصلوا إلى الحكم بالقوة إلى هذه السياسة ليكسبوا حكمهم صبغة شرعية فى نظر الشعوب المحكومة . نعم ! لقد اعترف بالخليفة العباسى السلطان محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١ / ٩٩٨ — ١٠٣٠) ، كما اعترف يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بخلافة المقتدى العباسى (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) ، وطلب إليه أن يعطيه تفويضاً شرعياً بتثبيته فى حكم بلاده .

من ذلك نرى أن الخلفاء العباسيين مازالوا يتمتعون فى ذلك الوقت بسلطة أدبية كبيرة فى داخل بغداد وفى خارجها . ويقول سير توماس أرنولد : إن الخليفة لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يعارض فى شىء ، بل يحتمل أنه كان يقابل مثل هذه المطالب بالارتياح والقبول ، لأنها اعتراف بسلطته النظرية فى وقت امتدت فيه رقعة الدولة الفاطمية على حساب الدولة العباسية المنحلة المتداعية [٢] . على أن الدولة الفاطمية ما لبثت أن تطرق إليها الوهن والانحلال ، فسقطت فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وظهر على مسرح السياسة

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢ .

(٢) Arnold p. 83.

صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى خطب للخليفة المستضىء العباسى (٥٦٦ — ٥٧٥ / ١١٧٠ — ١١٨٠) على منابر مصر واليمن وسورية ؛ فمنحه هذا الخليفة تفويضاً بحكم هذه البلاد ، كما منح الخليفة المستنصر (٦٢٣ — ٦٤٠ / ١٢٢٦ — ١٢٤٢) نور الدين عمر (١٢٢٩ — ١٢٤٩ م) تفويضاً بحكم بلاد اليمن ، وأعطى مثل هذا التفويض إيلتتمش (Iltutmish) أحد الملوك العبيد الذى اتخذ مدينة دلهى حاضرة لمملكته ، ومنحه لقب سلطان ، فنقش اسم الخليفة على السكة .

٥ — زوال الخلافة العباسية فى بغداد :

بموت مسعود سنة ٥٤٧ هـ أفل نجم البيت السلجوقى وتقاسمت ملك السلاجقة دول شتى عرفت باسم دول الأتابكة .

وفى مستهل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) كانت هناك دويلات إسلامية منفصلة متعادية فى غربى آسيا وشمالى إفريقيا . فكانت مصر وفلسطين ومعظم بلاد الشام تحت سلطان خلفاء صلاح الدين الأيوبى . وبسط السلاجقة سلطانهم على آسيا الصغرى ، فى الوقت الذى كانت فيه الخلافة العباسية لا تزال قائمة فى بغداد . كما قامت فى الشرق إمبراطورية خوارزم على أنقاض الدولة السلجوقية ، ونشر أمراؤها بين نهرى الكنج (بالهند) ودجلة (بالعراق) ، وإن كان هذا السلطان لم يتوطد تماماً بين سكان فارس والهند .

وكان من أثر تفاقم العداوة بين الخليفة العباسى وخوارزم شاه ، أن اعتقد بعض المؤرخين أن الخليفة الناصر استدعى التتار ليشغل بهم خوارزم شاه ، حتى يأمن شره ويحول بذلك دون مايحدق ببلاده من خطر هجوم جيوش خوارزم شاه . وفى شهر نوفمبر سنة ١٢٥٧ م (٦٥٥ هـ) سار هولاكو التتار إلى بغداد ، واستولى عليها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)[1] .

وقد ذبح المغول السواد الأعظم من الأهلين ، وأضرموا النيران فى المدينة ، وقتل الخليفة المعتصم وأولاده وزالت الخلافة العباسية من العراق كما تقدم فى الباب الرابع .

---

(١) الفخرى ص ٢٩٤ — ٢٩٧ .

٦ — تعدد الخلافة فى المغرب والأندلس وغيرهما :

كان الشائع على ألسنة العلماء أن الخلافة لا يمكن أن تكون متحدة فى شخص خليفة واحد ، وإن وجد أكثر من خليفة ، فإن سلطانه يكون غير شرعى ، بل تجب محاربته والقضاء عليه . ولكن بعد أن ضعفت الخلافة العباسية ولم يعد للخليفة شىء من السلطان تعدد الخلفاء :

١ — فقامت الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب أولا (٢٩٧ هـ) ثم فى مصر ثانياً (٣٦٢ هـ) :

٢ — وقامت الخلافة الأموية ببلاد الأندلس فى عهد عبدالرحمن الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) الذى تلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر بعد أن قنع أسلافه بلقب « بنى الخلفاء » ، وبذلك أصبح هناك ثلاث خلافات : الخلافة العباسية فى المشرق ، والخلافة الفاطمية ببلاد المغرب ثم مصر ، والخلافة الأموية بالأندلس ، كما تلقب حكام الموحدين فى المغرب الأقصى فيما بعد بلقب أمير المؤمنين .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الخلافة العباسية قامت على الحق الإلهى فى الحكم ، وأن الخلافة الفاطمية قامت على نظام التوريث الذى كان سائداً عند الفرس أيام آل ساسان ، وأن الخلافة الأموية بالأندلس لم تستمد من الله سبحانه ولا من الشعب ، وإنما هى نتيجة قوة عبد الرحمن الثالث ، كما كان نظام الخلافة الموحدية فى المغرب وراثياً .

٣ — وفى سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) اتخذ حاكم سجلماسة (جنوبى جبال أطلس لقب أمير المؤمنين .

٧ — المرابطون والخلافة العباسية :

(١) موقف المغرب من الخلافة العباسية قبل المرابطين

كانت الثورات فى المغرب الأقصى أشد منها فى سائر شمالى إفريقية وقد ساعد على ذلك بعد هذه البلاد عن القيروان ثم المهدية فالمنصورية حاضرة الفاطميين ، ومناعة جبال المغرب ، ووعورة الطرق ، الشىء الذى لم يكن مألوفاً لدى العرب الفاتحين .

وعلى الرغم من أن المرابطين فى المغرب كانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين لم يلقب أحد منهم نفسه بلقب خليفة أو أمير المؤمنين لأن الظروف السياسية لم تساعدهم

على منافسة الخلافة العباسية أو التغلب عليها فى عهد السلاجقة . فقد خطب إدريس الأول فى البربر يوم أخذت له البيعة فقال : « أيها الناس ! لا تمدن الأعناق إلى غيرنا ، فإن الذى تجدونه من الحق عندنا لايجدونه عند غيرنا » . ولهذا اكتفى الأدارسة بلقب « إمام » الذى شاع فى مخاطبتهم وكتاباتهم . وهذا اللقب هو اللقب الذى أطلقه الشيعة على الأئمة العلويين مما يقدم دليلا على أن الأدارسة كانوا متأثرين بمبادىء الشيعة وإن لم يتعصبوا أو يغالوا فى ذلك إذ أنهم نصروا مذهب السنة ونشروه بالمغرب . وقد ذكر ابن خلدون أن إدريس الأول بنى بمدينة تلمسان مسجداً صنع به منبر كتب عليه : بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم ، وذلك فى شهر صفر سنة ١٧٤ هـ .

على أن الفاطميين لما استولوا على إفريقية (وهى بلاد تونس الحالية) وأقاموا خلافتهم فى القيران سنة ٢٩٧ هـ ، امتنع الأدارسة عن الاعتراف بخلافتهم فى بادىء الأمر ، وعزلهم موسى بن أبى العافية فى رقعة ضيقة من ناحية الريف والغرب . أصبح النفوذ فى المغرب يتداول بين الفاطميين والأمويين ، حتى أعلن الحسن بن جنون آخر أمراء الأدارسة ولاءه للفاطميين واغتيل بسبب تقربه إليهم . أما الزناتيون الذين حكموا المغرب نحو قرن ونصف قرن قبل قيام الدولة المرابطية ، فإنهم لم يذعنوا للفاطميين إلا فى سنة ٣٠٧ هـ ، وظلوا على ذلك حتى زالت الخلافة الأموية فى الأندلس فى أوائل القرن الخامس الهجرى . وكان الزناتيون أكثر ميلا إلى الأمويين .

يمتاز النظام السياسى فى الدولة المرابطية فى جملته بالبساطة . ولم يدر بخلد عبد الله ابن ياسين منذ بث تعاليمه فى الصحراء أنه سيقيم دولة ، بل كان كل همه منصرفا إلى نشر التعاليم الإسلامية على وفق مذهب مالك كما ذكرنا .

أما اتخاذ المرابطين لقب أمير المسلمين فإنه يرجع إلى عوامل داخلية وخارجية انتهت بقيام دولتهم . وتنحصر العوامل الداخلية فيما يلى :

أولا : العامل السياسى ، وذلك أن مملكة غانة قد ظهرت فى مستهل القرن الخامس الهجرى بمظهر القوة والعظمة ، وفى مستهل هذا القرن سيطر الملثمون على تجارة السودان وعزموا سنة ٤٣٢ هـ على الاستيلاء على أهم مراكز الغانيين التجارية ، وهى مدينة أودغشت الغربية من نهر النيجر شمالى شرقى مدينة تمبكتو . على أن الملثمين انهزموا أمام الغانيين ،

ثم جمعوا صفوفهم ويمموا شطر الشمال ، وقاتلوا الزناتيين المتنازعين المتنافرين فى سجلماسة ونواحيها ومهدوا بذلك السبيل لقيام الدولة المرابطية .

ثانياً : العامل الاقتصادى . فقد كانت الحرب التى نشبت بين الملثمين والغانيين فى الواقع نزاعا على الطريق التجارى الذى يمر بسجلماسة شمالا وأودغشت جنوبا ، إذ كان أهل السودان يتبادلون السلع التجارية مع أهل الجنوب ، فيرسلون إليهم التبر والصوف والإبل ، على حين يرسل أهل الشمال القمح والقطانى ويسيطرون على تجارة الملح ويستولون من القوافل على مورد هام من المكوس . فلما أقصى الغانيون الملثمين من أودغشت ، فقد هؤلاء هذه الموارد وفكروا فى الزحف شمالا ، وكونوا الدولة المرابطية التى كان لها أثر بعيد فى حياة المغرب الاقتصادى .

ثالثاً : العامل الدينى ، وذلك أن الأشراف فى قبائل الملثمين كانوا يؤلفون الطبقة الارستقراطية . وقد فرض الزناتيون المكوس فى سجلماسه ، وعمل المرابطون على إقامة حدود الدين ونشر الإسلام فى كافة أرجاء المغرب ، وأسسوا دولة أخضعت المغرب ومدت نفوذها من طنجة شمـــالا إلى نهر النيجر جنوبا ومن وادى شلف شرقاً إلى المحيط الأطلسى غربا وإلى بلاد الأندلس شمالا .

أما العوامل الخارجية التى ساعدت على قيام دولة تعيد إلى المغرب الإسلامى وحدته وتصد عنه هجمات أعدائه وتحافظ فى ظل الخلافة العباسية على مبدأ الوحدة الإسلامية فى وقت تفككت فيه عرى العالم الإسلامى ونشط النصارى إلى استعادة أملاكهم بالأندلس . فقد أخذ نفوذ الفاطميين فى الضعف ، واستولى السلاجقة على بغداد ، وأخذ المسلمون يدخلون فى ذلك الصراع العنيف مع الصليبيين ، واحتل النورمنديون المهدية وزويلة من يد الصنهاجيين سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) ، ثم عادوا فاحتلوهما فى سنتى ٥١٧ ، ٥٤٤ هـ ، واحتل الصليبيون بيت المقدس سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) ، ودخل المرابطون فى حروب مع قشتالة وأراغون فى الأندلس . ولم يكن يحيى بن إبراهيم الجدالى شيخ لمتونه ولا عبد الله بن ياسين يفكران فى إقامة دولة وراثية . ومع ذلك فقد كانت إقامة هذه الدولة هى السبيل الوحيد إلى إنشاء نظام حكومى يضمن له الاستقرار ويتلاءم مع الأوضاع التى كانت سائدة بهذه البلاد فى ذلك العصر .

ولم يفكر المرابطون فى الاعتراف بالخليفة الفاطمى فى القاهرة ، لسوء اعتقادهم فيهم وعدائهم لهم بسبب تدخلهم فى شئونهم ، وتضامناً مع خلفائهم صنهاجة الذين قطعوا الخطبة

للفاطميين سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) . لذلك عدل المرابطون عن طريق مصر حين رحلوا لأداء فريضة الحج ، برغم ما قام به أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر الفاطمى من جهود فى سبيل استمالتهم [١] . وكان المرابطون ينظرون إلى الخليفة العباسى نظرة أسمى من نظرتهم إلى الخليفة الفاطمى ، رغبة فى المحافظة على الوحدة الإسلامية كما ذكرنا ، ولأنهم كانوا لا يخشون الخلافة العباسية التى تطرق إليها الضعف والانحلال .

(ب) المرابطون والخلافة العباسية

وقد نقش المرابطون اسمهم على السكة سنة ٤٥٠ هـ ؛ وكانت تحمل اسم عبد الله أمير المؤمنين [٢] . وهكذا أتخذت الدولة المرابطية مقومات الدولة بعد أن استولى أمراؤها على جزء كبير من بلاد المغرب ولاسيما على سواحل المحيط الأطلسى وجزء كبير من الصحراء ويرجح أن اسم عبد الله الذى نقش على السكة حتى نهاية الدولة المرابطية يقصد به الخليفة العباسى ، حتى لا تتغير السكة بتغير الخلفاء العباسيين . يدل على ذلك اسم عبد الله الذى ورد فى الرسالة التى بعث بها الخليفة العباسى المستظهر (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) إلى على بن يوسف ابن تاشفين [٣] . على أن اسم هذا الخليفة هو أحمد . ولما أتم يوسف بن تاشفين إخضاع المغرب (عدا طنجة وسبتة) [٤] وناحية تازا واستقرت الدولة المرابطية فى مراكش التى بنيت سنة ٤٥٤ هـ ، كان طبعيا أن يتخذ أمير المرابطين لنفسه لقباً يتمشى مع اتساع نفوذه . وقد رأى رؤساء المرابطين أن يتخذ يوسف بن تاشفين لنفسه لقب « أمير المؤمنين » ، ولكنه أبى ذلك وقال : « حاشا لله أن نتسمى بهذا الاسم ، وإنما يتسمى به خلفاء بنى العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وأنا راحلهم (رحلهم على الأصح) والقائم بدعوتهم » [٥] . وإنما تسمى يوسف بن تاشفين — كما يقول السلاوى - بهذا الاسم ، لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة [٦] . ومنذ ذلك

---

(١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٤ .

(٣) الحلل الموشية ص ١٧ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٣٨٠ .

(٥) الحلل الموشية ص ١٧ ، ١٨ .

(٦) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ٥٣ .

الحين اتخذ يوسف بن تاشفين لقب « أمير المسلمين وناصر الدين » ، وسار على ذلك أمراء المرابطين من بعده . وقد اتخذوا السواد شعار العباسيين شعارا لهم فى ملابسهم وأعلامهم. لجأ المرابطون إلى هذه السياسة لكى يكسبوا حكمهم صبغة شرعية . وقد كتب يوسف بن تاشفين بذلك إلى عمال دولته وأعيانها . وقد جاء فى هذا الكتاب .

« بسم الله الرحمن الرحيم ! وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما . من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة من أهل « فلانه » أدام الله كرامتهم ووفقهم لما يرضاه — سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر ، وميسر اليسر وواهب النصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر . وإنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله فى منتصف محرم سنة ست وستين وأربعمائة . وإنه لما من الله علينا بالفتح الجسيم ، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة بروض النعيم ، وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أمراء القبائل ، وهو أمير المسلمين وناصر الدين . فمن خطب الخطبة العلية السامية ، فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى ، والله ولى العدل بمنه وكرمه والسلام [1].

ولم يتعد المؤرخون لذكر السنة التى اعترف فيها الخليفة العباسى بإمرة يوسف بن تاشفين الذى بعث إلى الخليفة المقتدى ، على ما ذكر ابن خلدون [2] ، سفراء يطلبون منه الاعتراف بإمرته . فأجابه الخليفة إلى ماطلب .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن يوسف بن تاشفين اتخذ لقب أمير المسلمين وناصر الدين بعد انتصاره فى موقعة الزلاقة المشهورة على ألفونس السادس وحلفائه من المسيحيين بالأندلس فى سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٧ م) ، وأن أول من دعاه بهذا اللقب هو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، وأقره على ذلك الخليفة العباسى . على بن يوسف بن تاشفين اتخذ هذا اللقب ، على ما ذهب إليه بعض المؤرخين ، فى سنة ٤٦٦ هـ ، أى قبل موقعة الزلاقة بثلاث عشرة سنة .

---

(١) الحلل الموشية ص ١٨ .

(٢) العبر ج ٦ ص ٣٨٦ .

وقد ذكر صاحب كتاب الحلل الموشية (ص ١٧) أن زعيم المرابطين كان يلقب أول الأمر بلقب أمير المرابطين . وكان الأمير أبو بكر بن عمر أول من تلقب به بعد وفاة عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ . ولما سار أبو بكر بن عمر إلى الصحراء لحرب أعداء قبيلة لمتونة أصحاب اللثام فى الجنوب ، وخلف مكانه يوسف ابن تاشفين : أطلق عليه أمير المغرب (أى المغرب الأقصى) : وكان هذا هو أول لقب تلقب به يوسف بن تاشفين الذى ظل من الناحية الرسمية عاملا على المغرب من قبل أبى بكر بن عمر . وظل ابن تاشفين أميناً على عهده لأبى بكر ابن عمر حتى توفى أبو بكر سنة ٤٨٠ هـ . يدل على ذلك أن السكة المغربية ظلت تحمل اسم أبى بكر بن عمر إلى سنة ٤٨٤ هـ . ولما استنجد المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بيوسف بن تاشفين مستنصراً إياه على ألفونس السادس زعيم المسيحيين فى الأندلس ولبى نداءه ، تلقب يوسف بن تاشفين بلقب أمير جند المسلمين ، وذلك مقابل تسمية ألفونس السادس أمير المسيحيين .

فلما انتصر يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة المشهورة ، لقبه المسلمون بهذا اللقب تقديراً لجهاده وانتصاره على المسيحيين (١) . وقد ذكر ابن الأثير (٢) أن يوسف بن تاشفين لما عاد من بلاد الأندلس ودخل مدينة مراكش حاضرة ملكه خاطبه علماء الأندلس بأن طاعته ليست واجبة حتى يذكر اسم الخليفة العباسى المقتدى فى الخطبة ويأتيه عنه تقليد بإقراره ، فأرسل رسله إلى الخليفة المقتدى ببغداد فأتاه التقليد مع الخلع والأعلام ولقب بلقب أمير المسلمين وناصر الدين (٣) .

وقد قامت حول هذا اللقب مشكلة شرعية وهى : هل يجوز لخطباء المساجد أن يدعوا ليوسف بن تاشفين باعتباره أميراً للمسلمين ؟ على أن يوسف لم يصرح للخطباء بإقامة الدعوة له إلا بعد أن أرسل بعثة من رجال الدين إلى الخليفة العباسى المستظهر يستفتيه

---

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٧ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٥٧ .

(٣) وقد ذكر ابن الأثير (ج ١٠ ص ١٥٦) أن يوسف بن تاشفين لما إستولى على بلاد الأندلس جمع الفقهاء وأحسن إليهم فقالوا له : ينبغى أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك على الكافة ، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) رسولا يحمل هداياه ومعه كتاب يذكر فيه مافتح الله عليه من بلاد الفرنجة فى الأندلس وما قام به فى سبيل نصرة الإسلام، ويطلب إليه تقليدا بولاية البلاد التى دانت له ، فبعث إليه الخليفة تقليدا بالحكم ولقبه أمير المسلمين وأرسل إليه الخلع .

فى جواز حمل هذا اللقب ، فلم ير الخليفة بدأ من عرض هـذا الأمر على الفقهاء الذين اجتمعوا برياسة الإمام الغزالى سنة ٤٨٤ هـ ، وأفتوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب بعد أن أحرز هذا النصر الإسلامى المؤزر على المسيحيين فى موقعة الزلاقة . وهذا يدل دلالة واضحة على أن يوسف كان يصدر فى أعماله عن وازع دينى لا جريا وراء الشهرة ، لأن حياته كلها كانت تتسم بالزهد والتقشف .

على أن هناك شروطا أخرى يجب أن تتوافر فيمن يرشح لأمرة المسلمين فى الدولة المرابطية ، وهى أن يكون من قبيلة لمتونة ومن بيت وتنطق (بفتح الواو والتاء والطاء وسكون الراء والنون) بالذات ، وأن يكون ذا كفاية حربية عالية ، وأن يسير فى سياسته على وفق تعاليم مذهب مالك ، وأن يرجع فى إدارة دولته إلى رؤساء القبائل ، ويعمل برأى الفقهاء فى الأمور السياسية والدينية (١) .

وقد تأثر شعب النيجر بصفة عامة وشعب الفلانى (بضم الفاء) فى إفريقيا بصفة خاصة بأمراء المرابطين ، فأطلقوا على حكامهم لقب أمير المسلمين . وكان مذهبهم هو مذهب مالك ، ، مما يحمل على الظن أو شعب النيجر قد تأثر بالمرابطين الذين قاموا بنشر الدعوة الإسلامية فى حوض النيجر (٢) وأنهم أخذوا بتلك الشروط التى وضعها المرابطون لمن يرشح لحكم الدولة المرابطية .

٨ — الخلافة الموحدية :

كان الموحدون يرون أنهم أحق بالخلافة من غيرهم ، لأنهم أكثر المسلمين إيماناً وأصحهم مذهباً . ولا غرو فقد استولى الموحدون على الأندلس ، وامتد نفوذهم إلى طرابلس شرقا وإلى المحيط الأطلسى غرباً ، وحاولوا فى عهد يعقوب المنصور الموحدى (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) الاستيلاء على مصر وما يليها من بلاد المشرق الإسلامى ، وكان عصرهم فى المغرب والأندلس من أزهى العصور .

وقد أقر المهدى محمد بن تومرت : عبد المؤمن بن على ، على الجيش ، وقال لأتباعه . « أنتم المؤمنون وهذا أميركم (٣) » . وبهذا لم يجد أتباع المهدى بن تومرت حرجاً فى أن

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١١٤ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ١٢٣ .

(٣) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٨٨ .

يلقبوا عبد المؤمن بلقب أمير المؤمنين بعد أن خلف المهدى فى زعامة الموحدين . وبذلك اتخذ عبد المؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين فى المغرب لقب خليفة ، وتسمى أمير المؤمنين[١] ، ولا سيما أنه كان ينتسب أيضاً إلى بيت النبوة . وبذلك تحددت رسوم الخلافة ببلاد المغرب فى الوقت الذى أشرفت فيه الخلافة الفاطمية على الزوال (٥٦٧ / ١١٧١) :

٩ — الحفصيون والمرينيون :

وبعد سقوط دولة الموحدين فى المغرب والأندلس (٦٦٧ / ١٢٦٨) ظلت الدعوة الموحدية فى إفريقية (وهى بلاد تونس الحاليـــة) حيث أقيمت على أيدى الحفصيين (٦٢٥ — ٩٤١ / ١٢٢٨ — ١٥٣٤) ، وهم فرع من الموحدين ، ينتسبون إلى الشيخ أبى حفص يحيى ابن عمر الهنتاتى (من هنتاتة إحدى بطون مصمودة) . وقد قام الشيخ أبو حفص يحيى بدور هام فى نشر دعوة المهدى محمد بن تومرت وفى إسناد الخلافة الموحدية إلى عبد المؤمن بن على ودعم نفوذ الموحدين فى المغرب والأندلس ، بفضل زعامته لقبائل مصمودة التى تعتبر أكبر قبائل المغرب كافة[٢] . ويرى أكثر المؤرخين أن الحفصيين ينتسبون إلى جدهم أبى حفص عمر ، وقيل إنهم ينتسبون إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وبفضل انتساب الحفصيين إلى قريش وانتسابهم إلى الرسول وقرابتهم من الموحدين ، استطاعوا أن يكسبوا حكمهم صبغة شرعية وأن يؤسسوا دولة مستقلة امتد نفوذها الأدبى فى عهد السلطان أبى زكريا الحفصى سنة ٦٢٦ هـ من طرابلس شرقاً إلى سبتة غرباً وإلى بجاية جنوباً . وأعلن ابنه أبو عبد الله محمد بن أبى زكريا الحفصى نفسه خليفة وتلقب بلقب أمير المؤمنين المستنصر فى سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) ، أى بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدى التتار وقتل الخليفة المستعصم العباسى بسنة واحدة .

وعلى أثر ذلك بايع شريف مكة وأهل الحجاز الخليفة الحفصى باعتباره وارثاً للخلافة العباسية ودعا له على منابر بلاده ولقبه أمير المؤمنين[٣] . وبذلك أكسبت هذه البيعة

---

(١) وفى السنة الرابعة من ولاية عبد المؤمن أمر بسك نقود جديدة مربعة الجوانب تميزاً لها عن نقود المرابطين ونقش على أحد وجهيها : « لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله » ، وعلى الوجـه الآخر (الله مولانا ومحمد رسولنا والمهدى إمامنا) .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٣٣٩ — ٣٤١ .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٦ — ٢٠٠ .

الخلافة الحفصية صبغة شرعية ، وأقيمت الخطبة للخليفة الحفصى على منابر المغرب واعترف بنو مرين عند تأسس دولتهم بالخليفة الحفصى . كما أقيمت الخطبة للحفصيين على منابر الأندلس بعد أن حلت الهزيمة بالموحدين فى موقعة العقاب (Das Navas de Tolosa) فى ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) ، وزال سلطان الموحدين ، وسقطت هذه البلاد فى أيدى الأسبان ولم يبق فى أيدى المسلمين سوى منطقة جبلية فى جنوب شرقى أسبانيا ، حيث قامت مملكة غرناطة الإسلامية على أيدى بنى نصر أو بنى الأحمر الذين بايعوا الخليفة الحفصى أقوى حكام المغرب فى ذلك الحين ، وأقاموا له الخطبة على منابرهم ، وذلك لحماية دولتهم الناشئة من إغارات الأسبان .

وقد اقتدى بنو مرين فى المغرب الأقصى (٥٩١ — ٨٧٥ / ١١٩٥ — ١٤٧٠) ، وبنو زيان [1] فى المغرب الأوسط (٦٣٣ — ٧٩٦ / ١٢٣٥ — ١٣٩٣) ، الذين كون كل منهم دولته على أنقاض الدولة الموحدية ، بملوك بنى نصر الأحمر ، فى غرناطة ، فأقاموا الدعوة للخليفة الحفصى لكى يكسبوا حكمهم صبغة شرعية فى نظر شعوبهم . وقد ظلت الحال على ذلك إلى أن أقام يعقوب المنصور الذهبى المرينى (٦٥٦ — ٦٨٥ / ١٢٥٨ — ١٢٦٨) الدعوة لنفسه . وبذلك ظهرت فى المغرب الكبير خلافة قوية هى الخلافة الحفصية التى امتد سلطانها الروحى على بلاد الحجاز شرقاً ، وإلى المغرب والأندلس غرباً ، وغدت حاضرتها تونس مركزاً سياسياً وثقافياً هاماً جذب إليها السفراء والعلماء من كافة أرجاء العالم .

ويذكر السلاوى الناصرى أنه برغم تأصل الدعوة الموحدية فى نفوس أهل المغرب ، رأى بنو مرين أنهم بحاجة لتأييد الحفصيين ، فأقاموا الدعوة لهم « تأليفاً لأهل المغرب واستجلاباً لمرضاتهم وإثباتا لهم من ناحية أهوائهم ، إذ كانت صبغة الدولة الموحدية قد رسخت فى قلوبهم [2] » .

ولعل بنى مرين الذين ينتمون إلى قبيلة زناتة خطبوا ود الحفصيين المصامدة الذين هم أشد قبائل المغرب وأكثرهم عدداً ولم ينسوا ما لحق بهم من هزائم على أيدى المصامدة الذين أقاموا الدولة الموحدية ، فكانت مسألة المرينيين للحفصيين سياسة تدل على بعد النظر .

---

(١) أو بنو حمو أو بنو عبد الواحد أو بنو يغمراسن .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ٢٨ .

وقد شعرت مصر بخطر الخلافة الحفصية التى كانت تهدف إلى مد نفوذها إلى سورية والحجاز ، تلك السياسة التى كانت تتعارض مع السياسة التقليدية التى كانت مصر تنتهجها منذ عهد الطولونيين (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) ، فحرصت مصر على مد سلطانها إلى الحجاز والسيطرة على تجارة البحر الأحمر ، وعمل السلطان بيبرس أحد سلاطين المماليك الذى يرجع إليه الفضل فى صد غارات المغول وإلحاق الهزيمة بزعيمهم هولاكو فى موقعة عين جالوت[1] المشهورة ، وبالصليبيين فى الشام — حرصت على إحياء الخلافة فى مصر بعد أن زالت من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . وكان بيبرس يرمى من وراء ذلك إلى تقوية عرشه وجعل حكمه شرعيا فى البلاد ، كما كان يرمى إلى مد سلطانه على الحجاز والبحر الأحمر ، وإلى إضعاف نفوذ الحفصيين الأدنى فى المشرق .

ولما دب الضعف إلى الخلافة الحفصية أبطل يعقوب المنصور المرينى الدعوة للحفصيين بالأندلس والمغرب ، واتخذ ملوك بنى الأحمر فى غرناطة لقب خليفة . وأخذ بنو مرين يتدخلون فى شئون الدولة الحفصية واستولوا على حاضرتهم تونس غير مرة ، وتلقب سلاطينهم بلقب أمير المسلمين[2] .

وفى سنة ٦٥٦ هـ سقطت الدولة العباسية ، فانتهت الخلافة بنظامها القديم ، واختل نظامها حتى أصبح فى استطاعة كل أمير قوى تغلب على بلد من البلاد الإسلامية أن يلقب نفسه بلقب خليفة ، ولم ير مايدعو إلى الإلتجاء إلى الخلفاء العباسيين فى القاهرة للحصول على تفويض شرعى بالحكم . ولذلك نرى المغول بعد أن اعتنقوا الإسلام لايحفلون بالخلفاء العباسيين فى القاهرة : ففى فارس اعتنق غازان (١٢٥٩ — ١٣٠٤ م) الإسلام ، ودعى له على المنابر بهذه الألقاب وهى « السلطان الأعظم وسلطان الإسلام والمسلمين » ، وتلقب الشاه رخ (بضم الراء وسكون النون مع التشديد) بلقب ، خليفة ، كما تلقب أبوعبد الله محمد الحفصى فى تونس (١٢٤٩ — ١٢٧٧ م) بلقب خليفة ، وتلقب أبوعنان فارس (١٣٤٨ — ١٣٥٨ م) أحد أمراء الأسرة المرينية فى المغرب بألقاب خليفة وأمير المؤمنين وإمام ، واتخذ علاء الدين خلجى وأوزون حسن التركمانى (١٤٥٣ — ١٤٨٧ م) لقب خليفة . وكذلك كان شأن محمد شيبانى (١٥٠٠ — ١٥١٠ م) مؤسس دولة أزبك Uzbeck فى بلاد ماوراء النهر . بل لقد أطلق سلاطين المماليك فى مصر — مثل قايتباى وقانصوه الغورى — على أنفسهم لقب إمام .

---

(١) هى بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين .

(٢) السلاوى الاستقصا ج ٣ ص ٢٨ .

وبهذا التعدد فى نظام الخلافة أصبحت كلمة « خليفة » لاتدل على الحاكم الروحى المتسلط على العالم الإسلامى ، وإنما أصبحت تدل كما يقول سير توماس أرنولد[١] على مجرد حاكم ، أى أن سقوط بغداد كان معناه انقراض الخلافة بمعناها التقليدى[٢] .

١٠ — الخلافة الفاطمية

(٢٩٧ — ٥٦٧ / ٩٠٩ — ١١٧١)

كان قيام الخلافة الفاطمية فى المغرب فى أواخر القرن الثالث الهجرى نتيجة لهذا الصراع العنيف بين السنيين والشيعيين . فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين لأنهم أولاد على كرم الله وجهه ، وهو ابن عم الرسول الكريم وزوج ابنته فاطمة الزهراء وظل العلويون يناضلون فى سبيل هذه الزعامة ، بالسيف تارة وبالدهاء تارة أخرى ، حتى توجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية فى المغرب التى أصبحت تنافس الخلافة العباسية فى المشرق .

وقد قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته ، ولقيت نظرية الحق الملكى المقدس التى كانت سائدة فى بلاد الفرس فى عهد آل ساسان ، والتى أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد ، قبولا عند الخلفاء الفاطميين ، وأصبح الإمام فى نظر الناس ظل الله فى الأرض ، كما أصبح شخصاً مقدساً .

وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها ، الخليفة الفاطمى أو العلوى ، وأمير المؤمنين . ومن الألفاظ المحببة إلى الإسماعيلية ، لقب إمام ، وصاحب الزمان ، وسلطان ، والشريف القاضى ، كما يظهر من مخاطبة قاضى القضاة الخليفة فى صلاة الجمعة « الشريف القاضى الخطيب » . وكان السنيون يطلقون عليهم « العبيديين » ، نسبة إلى عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ؛ كما كان يطلق عليهم « العلويون » نسبة إلى على ابن أبى طالب ، و « الفاطميون » ، نسبة إلى فاطمه الزهراء ، كما كان يطلق عليهم « السلاطين » . وكان الفاطميون يقرنون اسم الله سبحانه بأسمائهم : فنجد مثلا : المعز لدين الله ، والعزيز بالله ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر لدين الله ، والمستنصر بالله .

---

(١) The Caliphate, p. 88.

(٢) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة ١٩٦٤) ص ٨١ — ٨٦ .

وقد اتخذ أمراء الأيوبيين لقب « ملك » . أما المماليك فقد تلقبوا بلقب « سلطان » وأصبح لقب ملك يطلق على بعض الأمراء وخاصة على بقايا الأيوبيين فى بلاد الشام .

وقد حذا الفاطميون حذو الأيوبيين والعباسيين فى تولية أبنائهم العهد . فكان الخليفة إذا شعر بدنو أجله ، عهد بالخلافة إلى أحد أبنائه ، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته . وكثيراً ما كان الخليفة الجديد يستر موت أبيه إذا وجد ما يهدد ملكه ، ثم أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة ، فلم يراعوا فى اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه . كما فعل بدر الجمالى وابنه الأفضل من تفضيل المستعلى على أخيه نزار الذى كان أبوه المستنصر قد عهد إليه بالخلافة من بعده لأنه أكبر أبنائه .

والواقع أن الفاطميين كانوا ينظرون إلى الخليفة الفاطمى باعتباره إماماً يرث أباه عن طريق التعيين بالنص ، وأنه لابد أن يعين الخليفة أو الإمام ولى عهده قبل وفاته ، حتى لا يخلو العالم من إمام . وكان لهذه الطريقة ميزاتها وعيوبها . فقد كان صغر سن الخليفة وقلة تجاربه ونقص كفايته من عوامل ضعف الخلافة الفاطمية وسقوطها فى النهاية (١) .

وبعد وفاة الخليفة المستنصر نصب الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ابن أخته أبا القاسم أحمد بن المستنصر ولقبه « المستعلى بالله » . وقد أدى ذلك إلى انقسام أشياع الفاطميين إلى فريقين : فريق نادى بإمامة المستعلى فسموا المستعلية ، وفريق آخر نادى بإمامة نزار الابن الأكبر للخليفة المستنصر ، فسموا النزارية .

وقد استبد بالسلطة فى عهد الآمر الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى . وقد اعتنق مذهب الإمامية الاثنا عشرية ؛ فأبطل الموالد الأربعة التى كان يحتفل بها الفاطميون فى كل سنة ، وهى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد على كرم الله وجهه ، ومولده فاطمة الزهراء ، ومولد الإمام الحاضر (الآمر) . ولكن هذه الموالد قد أعيد الاحتفال بها بعد أن قتل الوزير الأفضل بتدبير هذا الخليفة ، وذلك سنة ٥١٥ هـ .

ولى الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) الخلافة بعد مقتل ابن عمه الآمر بن المستعلى على يد فريق من النزارية . على أن الآمر ترك طفلا أقام أنصار الفاطميين الدعوة له فى اليمن ، ولقبوه الإمام الطيب . وبذلك خرجت بلاد اليمن عن طاعة الخليفة الحافظ ، وانقسمت الدعوة

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٢ — ٢٦٧ .

الإسماعيلية بسبب ذلك إلى مستعلية نسبة إلى المستعلى بن المستنصر ، وطيبيه نسبة إلى الطيب بن الآمر وحفيد المستعلى [١] .

وقد انتهز صلاح الدين الأيوبى فرصة مرض الخليفة العاضد الفاطمى ودعا للخليفة المستضىء العباسى (المحرم ٥٦٧ / ١١٧١) ، كما أمر بالدعاء له أيضاً على منابر بلاد اليمن والشام وفلسطين التى كانت تابعة للخلافة الفاطمية ، فنجحه الخليفة العباسى تفويضاً بحكم هذه البلاد ، وتم هذا التغيير دون أن يلقى أية مقاومة . وفى ذلك يقول ابن الأثير [٢] : « فلم ينتطح فيها عنزان » . ولم يلبث الخليفة الفاطمى أن توفى فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧ هـ .

وكان من أثر هذا التحول أن أصبحت مصر منذ ذلك الحين تابعة للخلافة العباسية تبعية إسمية ، وأصبح يدعى للخليفة العباسى على المنابر [٣] .

١١ — علاقة الأيوبيين بالخلافة العباسية :

ذكرنا من قبل أن صلاح الدين الأيوبى أمر بإقامة الخطبة للخليفة العباسى المستضىء على منابر القاهرة بدل الخليفة الفاطمى العاضد الذى مات فى شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) دون أن يعلم بهذا التغيير .

وقد أرسل صلاح الدين إلى نور الدين محمود صاحب حلب [٤] يخبره بذلك ، فأشاد أحد الشعراء بهذا الحادث وأنشد .

قد خطبنا للمستضىء بمصر ... نائب المصطفى إمام العصر
واستنارت غزائم الملك العا ... دل نور الدين الهمام الأغر

ولما علم الخليفة العباسى بإقامة الخطبة له بمصر أرسل إلى نور الدين وصلاح الدين الخلع إعرابا عن رضاه عليهما . وبذلك اعترف الأيوبيون بالخليفة العباسى فى بغداد وأقاموا له الخطبة على منابر بلادهم ، ونقشوا السكة باسمه .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧٦ — ١٧٧ ، ٢٦٦ — ٢٦٧ .
انظر ما ذكرناه فى الباب السابع .

(٢) الكامل فى التاريخ جـ ١١ ص ١٤٧ — ١٤٩ .

(٣) انظر كتابى : النظم الإسلامية ص ٩٠ وما يليها .

(٤) ذكر المؤرخون أن نور الدين محمود هو الذى أمر صلاح الدين بإقامة الخطبة للخليفة العباسى المستضىء .

ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب (نوفمبر ١٢٤٩) أخفت زوجته شجر الدر خبر موته حتى لا يتطرق الضعف إلى نفوس المسلمين أمام الصليبيين الذين تقدموا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا إلى المنصورة وكادوا يدخلون قصر السلطان . ولكن المصريين بقيادة بيبرس أحلوا الهزيمة بالفرنسيين وطاردوهم وقضوا على جيشهم فى موقعة فارسكور سنة ١٢٥٠ م وحملوهم على إخلاء دمياط .

وبذلك اشتد نفوذ المماليك الذين كانوا يكونون الجزء الأعظم من جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقتلوا ابنه توران شاه لسوء معاملته لهم ، وولوا شجر الدر زوجة أبيه السلطنة . فقربت إليها المماليك ومنحتهم الإقطاعات وخففت الضرائب عن الناس . ولكن المصريين كرهوا حكمها ، إذ لم تجر عادة المسلمين أن يتقلد حكمهم امرأة .

ولما أرسل أمراء المماليك إلى الخليفة العباسى المستعصم ببغداد يطلبون منه إقرار تولية شجر الدر حكم مصر ، أرسل إليهم كتاباً يقول فيه : « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأخبرونا حتى نسير إليكم رجلا »[١] . ولما علمت شجر الدر بذلك آثرت المحافظة على كيان الدولة ، وأعربت عن رغبتها فى خلع نفسها من الحكم حفظاً لكرامتها من أن تمتهن بالعزل ، فأشار عليها القضاة والأمراء بأن تتزوج من عز الدين أيبك[٢] أتابك[٣] العسكر ، وتفوض إليه أمور المملكة ، فنزلت عن حكم مصر بعد ثمانين يوماً[٤] أظهرت فيها حكمة نادرة فى تصريف الأمور .

ولما تخلت شجر الدر عن العرش نصب المماليك عز الدين أيبك سلطانا عليهم ولقبوه المعز . على أن أيبك أثار غضب زوجته شجر الدر بسبب خطبته إحدى أميرات الموصل فتآمرت على إغتياله ، فقتل سنة ١٢٥٧ م ، فانتقم له ابنه نور الدين الذى تقلد السلطنة من بعده ، فأوعز إلى بعض الجوارى فقتلها . ثم اجتمع العلماء والقواد ، وخلعوا نور الدين ، وقلدوا قطز (بضم القاف والطاء) سلطنة مصر .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦٨ .

(٢) بفتح الألف والباء وسكون الياء .

(٣) ومعناه مربى الأمير . وأول من لقب بهذا اللقب نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى ، الذى فوض إليه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ . وقد تحول هذا اللقب لقباً عسكرياً فى عصر المماليك فأصبح يطلق على القائد العام للجيش .

(٤) ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٩٠ .

وإلى بيبرس أحد قواد المماليك يرجع الفضل فى إلحاق الهزيمة بالمغول فى موقعة عين جالوت[١] . ولم يلبث أن اشتد نفوذه وتولى حكم مصر . وفى عهده انتقلت الخلافة إلى القاهرة بعد أن زالت من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)[٢] .

(ب) الوزارة

١ — الوزارة فى عهد السلاجقة

٤٤٧ — ٦٥٦ / ١٠٥٥ — ١٢٥٨

يلاحظ على عصر السلاجقة الذى يربو على قرنين من الزمان :

(١) كثرة الوزراء الذين اشتهر بعضهم بتشجيع العلوم والآداب ومهروا فى الإدارة والسياسة والحرب .

(٢) تفاقم خطر الباطنية فى فارس الذين ذهب ضحيتهم كثير من الوزراء وكبار رجال الدولة العباسية الذين عملوا على قمع هذه الحركة .

(٣) مصادرة أموال بعض الوزراء وحبسهم عند عزلهم من مناصبهم لابتزازهم أموال الناس وقضاء حاجاتهم عن طريق الرشوة .

(٤) ظهور المنافسة والدس والرشوة ابتغاء الوصول إلى دست الوزراء .

ومع ذلك فقد أسندت مقاليد الوزارة إلى كثير من مشهورى الوزراء ، نذكر منهم على سبيل المثال : الوزير الكُندرى ، وفخر الدولة بن جهير ، وابنه عميد الدولة ، وأبا شجاع ، ونظام الملك وأبناءه ، وابن صدقة ، والشريف أبا القاسم الزينبى ، وأنو شروان خالد ، وابن هبيره ومؤيد الدين بن العلقمى الذى زالت الدولة العباسية فى عهد وزارته .

بعد أن عاد الخليفة العباسى القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) إلى بغداد بمساعدة السلطان طغرلبك السلجوقى اتخذ أبا الفتح بن دارست وزيراً له[٣] ، فظل فى الوزارة حتى خلفه فخر الدولة بن جهير سنة ٤٥٤ هـ ، ثم عزل فى سنة ٤٦٠ هـ ، ثم أعيد إلى الوزارة .

وقد اشتهر من أولاد فخر الدولة بن جهير زعيم الرؤساء ، وكان يتولى ديوان الزمام ، كما اشتهر منهم عميد الدولة . وقد ذكر المؤرخون أنه حمل رسالة الخليفة القائم إلى السلطان

---

(١) بليدة بين بيسان ونابلس بفلسطين .

(٢) أنظر حسن إبراهيم حسن : المجمل فى التاريخ المصرى (القاهرة ١٩٤٢) ص١٩١ — ١٩٢ .

(٣) أنظر البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق .
ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٥٤ / ٤٦٧ .

طغرلبك السلجوقى فى الرى وأنه نجح فى مهمته بفضل زواجه من ابنة الوزير نظام الملك (٤٦٢ هـ) ، فقدر له الخليفة كفايته ومهارته السياسية فاستوزره . وفى سنة ٤٦٣ هـ رحل عميد الدولة بن جهير إلى نيسابور يحمل هدايا القائم إلى السلطان ألب أرسلان يطلب زواج ابنة السلطان من حفيد الخليفة .

وعلى الرغم مما اشتهر به عميد الدولة بن جهير من المهارة السياسية كان - كما وصفه ابن الأثير[١] وابن خلكان[٢] « عظيم الكبر يكاد يعد كلامه عدا ، وكان إذا كلم إنساناً كلمات يسيرة هنىء ذلك الرجل بكلامه » .

وقد ظل عميد الدولة فى الوزارة حتى عزل فى سنة ٤٦٧ هـ ، فخلفه ظهير الدين أبو شجاع[٣] وكان أديباً فذا ومؤرخاً لامعاً طالما أفاد المؤرخون من تاريخه الذى يتناول الكلام على الدولة العباسية من سنة ٣٦٩ هـ إلى سنة ٣٨٩ هـ ، وهو الجزء الذى عثر عليه المؤرخون من تاريخه ، ويعتبر ذيلا لكتاب تجارب الأمم لمسكويه . وكان أبو شجاع يقضى بين الناس بالعدل ويجلس للمظالم بعد صلاة الظهر ، فينادى الحجاب فى الناس : من كانت له حاجة فليعرضها .

وكان أبو شجاع ليناً حليما متسامحاً . فلما وقعت الفتن بين أهل السنة والشيعة فى الكرخ وباب البصرة ببغداد حرص هذا الوزير العالم على تهدئة الخواطر وحال دون إراقة الدماء . ولم يؤثر عن وزير حج بيت الله أيام وزارته غير أبى شجاع والبرامكة من قبله ، ثم اعتزل أبو شجاع الوزارة بعد أن أحس بكيد حساده له وتدبيرهم الدسائس من حوله ، وتزهد ولبس ثياب القطن وأقام بمدينة الرسول يكنس المسجد النبوى ويفرش الحصر ويشعل المصابيح وعليه ثوب من غليظ الخام[٤] .

ومما يؤثر عن أبى شجاع أنه برغم زهده وعلمه أقصى عن الوزارة سنة ٤٨٤ هـ فأنشد عند عزله هذا البيت :

تولاها وليس له عـدو وفارقها وليس له صديق[٥]

---

(١) الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣ (حوادث سنة ٤٦٣ هـ) .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٨٤ . ابن خلكان ج ٢ ص ٢٨٦ . البندارى . تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٨ .

(٤) الفخرى ص ٢٦٤ .

(٥) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٨ — ٧٩ .

ثم أعيد عميد الدولة بن جهير إلى الوزارة فى هذه السنة[١] . فظل فيها فى السنوات الأولى من خلافة المستظهر (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) . وكان عميد الدولة يعمل تحت نفوذ مؤيد الملك ابن نظام الملك ، وانتهى أمره بالعزل والسجن سنة ٤٩٢ هـ .

ومن وزراء العصر السلجوقى الأول أبو على الحسن بن على بن صدقة . وقد استوزره الخليفة المسترشد (٥١٢ — ٥٢٩ هـ) سنة ٥١٣ هـ ولقبه بهذه الألقاب وهى :

« جلال الدين سيد الوزراء صدر الشرق والغرب ظهير أمير المؤمنين[٢] » .

وكان ابن صدقة عالما بقوانين الملك واشتهر بحب الخير للناس . ولكن ظهير أمير المؤمنين لم يلبث أن عزل عن الوزارة ، لأن وزير السلطان السلجوقى حقد عليه ، ثم زال سوء التفاهم بين الوزيرين وأعيد ابن صدقة إلى الوزارة وخلع عليه الخليفة المسترشد وأمر أرباب الدولة أن يمشوا بين يديه إذا سار إلى ديوان الوزارة ، فكان « أول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه[٣] » .

ومن وزراء العصر السلجوقى الأول أو عصر السلاجقة العظام نقيب النقباء الشريف أبو القاسم على بن طراد الزينبى . وكان ملما بقوانين الوزارة وقواعد الملك . استوزره الخليفة المسترشد سنة ٥٢٣ هـ ، فظل فى الوزارة حتى سنة ٥٢٦ هـ . ثم أعيد إليها سنة ٥٣٠ هـ . وقد عبر له الخليفة المقتفى (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) عن تقديره لمواهبه وكفايته بهذه العبارة وهى : كل من ردت إليه الوزارة شرف بها إلا أنت فإن الوزارة شرفت بك ، وأمر أرباب المناصب العالية فى الدولة بأن يسيروا بين يديه إلى ديوان الوزارة[٤] » .

وقد استوزر سلاطين السلاجقة طائفة من مشهورى الوزراء من أمثال الكندرى (بضم الكاف والدال وسكون النون) ونظام الملك وأبنائه وأنو شروان خالد . فقد استوزر السلطان طغرلبك (٤٢٩ — ٤٥٥ هـ) عميد الملك الكندرى . ولما مات هذا السلطان أجلس الكندرى سليمان بن داود ، وكان عمه طغرلبك قد أوصى بأن يخلفه فى السلطنة . على أن ألب أرسلان ثار على أخيه وجلس على عرش السلطنة من بعده بمساعدة وزيره

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٩ .
(٢) الفخرى ص ٢٦٥ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٧١ .

نظام الملك . وسرعان ماقبض على الوزير الكندرى وأرسل إلى مرو حاضرة خراسان حيث اعتقل أكثر من سنة ، ثم قتل بأيدى غلامين أرسلهما إليه السلطان الجديد بعد أن وزر لطغرلبك ثمانى سنين وأشهراً كما تقدم[١] .

ولما ولى ألب أرسلان السلطنة بعد عمه طغرلبك سنة ٤٥٥ هـ أسند مقاليد الوزارة إلى نظام الملك وعهد إليه بتنشئة ابنه ملكشاه وقال له : « هذا حسن الطوسى (يعنى نظام الملك) فتسلمه واتخذه والدا لاتخالفه » . وقد اتخذ ألب أرسلان نظام الملك وزيرا له قبل أن يجلس على عرش السلطنة .

وكان نظام الملك ساعد السلطان ملكشاه الأيمن ومدبر ملكه ومستشاره الأمين . وقد قبض هو وأولاده الاثنا عشر على زمام الأمور فى الدولة السلجوقية ، « فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد » على حد تعبير ابن خلكان[٢] .

وكان من أثر الاضطرابات التى عمت أطراف الدولة السلجوقية ، وما أداه نظام الملك من خدمات جليلة وماظهر من شجاعته وكفايته فى الأزمات الخطيرة أن منحه السلطان ملكشاه لقب « أتابك » .

وكان نظام الملك عالما دينا جوادا عادلا حليما كثير العفو طويل الصمت . وكان مجلسه حافلا بالفقهاء . واشتهر ببناء المدارس النظامية المشهورة ، وأسقط المكوس والضرائب . وكان يجل أهل العلم ولايشجع الشعراء لأنه لم يكن يجيد نظم الشعر .

وقد ذهب نظام الملك وأبناؤه كما ذهب البرامكة وبنو سهل من قبل ضحية الدسائس التى دبرها لهم حسادهم ومنافسوهم . ومات نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ بعد أن تقلد الوزارة لألب أرسلان وملكشاه نحوا من ثلاثين سنة ، كما تقلد الوزارة لألب أرسلان صاحب خراسان من قبل عمه طغرلبك قبل أن يتولى السلطنة .

وقد ذكر المؤرخون أن عز الملك بن نظام الملك أخرج بركياروق أكبر أبناء ملكشاه بعد أن قبض عليه وأرسل إلى أصبهان حيث سجن . وذلك لإفساح الطريق لجلوس أخيه الصغير محمود على عرش السلطنة بعد موت أبيه . ولما ولى بركياروق السلطنة سنة ٤٨٧ هـ قلد عز الملك الوزارة وفوض إليه أمور دولته[٣] .

---

(١) انظر ص ٢٠ — ٢١ من هذا الجزء .
(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٩٦ .
(٣) البندارى ص ٨٠ — ٨١ .

وقد ساعد مؤيد الدولة بن نظام الملك محمد بن ملكشاه على أخيه السلطان بركياروق لأنه أقصاه عن الوزارة وأسندها إلى أخيه عز الملك بن نظام الملك . وقد قام الخلاف بين هذين الأخوين على ثروة أبيهما كما قام على التنافس على الوزارة [١] .

ومن وزراء هذا العصر من أبناء نظام الملك : أبو نصر أحمد . وقد حكم بين الناس بالعدل ورفع عنهم الظلم . روى ابن طباطبا [٢] أن الخليفة المسترشد (٥١٢ — ٥٢٩ هـ) لما عزم على عمارة سور بغداد فرض على الناس خمسة عشر ألف دينار ، فأدى الوزير أبو نصر هذا المال عن الناس من ماله الخاص . وقد تقلد أنوشروان خالد بن محمد القاشانى وزير الخليفة المسترشد الوزارة للخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة . وكان يعتذر عن قبول الوزارة . وهو الذى صنّف له الحريرى « المقامات الحريرية » . وقد اشتهر هذا الوزير بالتواضع حتى إنه كان يقوم لكل من دخل عليه كبيراً كان أو صغيراً .

ومن وزراء العصر السلجوقى الأول : محمد بن محمد بن جهير [٣] ومؤتمن الدولة بن صدقة ويحيى بن هبيرة . وقد جمع ابن هبيرة بين السياسة والعلم وبين الطيبة والدهاء وبين القلم والسيف . وإليه يرجع الفضل فى إزالة آخر نفوذ للسلطان السلجوقى فى العراق وإعادة هيبة الخلافة [٤] فى عهد المقتفى العباسى (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) . « ورزق من الشعر والشعراء مالم يرزقه أحد حتى زاد مامدح به من القصائد على مائتى ألف بيت [٥] .

ولما استوزر الخليفة الناصر (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ) مؤيد الدين القمى خلع عليه الوزارة ، فجلس فى كرسى الوزارة والناس بين يديه ، فبرز من حضرة الخليفة مكتوب لطيف فى قدر الخنصر بخط يد الخليفة ، فقرىء على الناس وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ! محمد بن برز القمى نائبنا فى البلاد والعباد . فمن أطاعه فقد أطاعنا ، ومن أطاعنا فقد أطاع الله ، ومن أطاع الله أدخله الجنة ؛ ومن عصاه فقد عصانا ، ومن عصانا فقد عصى الله ، ومن عصى الله أدخله النار » ، فسما القمى بهذا التوقيع فى أعين الناس وعلت منزلته [٦] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠٧ — ١٠٨ .
(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٧٢ .
(٣) الفخرى ص ٣٦٦ .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٥٩ — ٣٦٣ .
(٥) انظر ما كتبه الدكتور جواد على فى مجلة الأستاذ (بغداد ١٩٦٠) ص ١٢٨ .
(٦) الفخرى ص ٣٣٦ .

وكان مؤيد الدين محمد بن العلقمى آخر وزراء الخلفاء العباسيين وكان ، كما وصفه صاحب الفخرى ، من أعيان الناس وعقلاء الرجال . وقد عرف بشغفه بالكتب وتقريب أهل العلم ورجال الأدب . وكان عفيفاً عن أموال الناس مترفعاً عن أموال الدولة . وقد رماه خصومه بأنه زين للخليفة المعتصم تسليم بغداد لهولاكو وأنه اتفق مع نصير الدين الطوسى وزير هولاكو على ذلك . وكان كل من هـــذين الوزين يدين بعقائد المذهب الشيعى .

وقد عزا بعض المؤرخين ما قام به الوزير ابن العلقمى إلى ما حل بالشيعيين من الاضطهادات على يد أكبر أبناء الخليفة المستعصم . على أن موت هذا الوزير العالم النزيه بعد موت الخليفة بثلاثة أشهر لينهض دليلا على عدم صحة ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون الذين رموه بخيانة بلاده .

٢ — الوزارة فى مصر :

على الرغم من العظمة التى كان يتمتع بها الوزير فى العصر الفاطمى الأول كانت سلطته محدودة ؛ إذ كان بقاؤه فى مركزه يتوقف على رضا الخليفة . غير أن تلك العظمة لم تلبث أن تبدلت ، ولا سيما فى العصر الفاطمى الأخير (٤٦٥ — ٥٦٧/١٠٩٣ — ١١٧١) ، بمعنى أن الوزارة أصبحت وزارة تفويض بعد أن كانت وزارة تنفيذ .

وفى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) قامت وزارة التفويض ، كوزارة يحيى البرمكى وابنه جعفر فى عهد هارون الرشيد . فقد استدعى المستنصر بدر الجمالى والى عكاء لإصلاح أمور مصر على أثر « الشدة العظمى » التى استمرت بها سبع سنوات (٤٥٧ — ٤٦٥ هـ) ، بعد أن أخفق الوزير اليازورى فى تخفيف المجاعة التى اشتدت وطأتها . ويتبين لنا مبلغ تزعزع مركز الدولة الفاطمية[1] من تعاقب أربعين وزارة مختلفة فى تسع سنوات . وكان المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين من الضعف بحيث لم يبق لهم من الأمر شىء حتى أطلق على هذا العصر « عصر الوزراء العظام » .

وقد قبض بدر الجمالى على زمام السلطة سنة ٤٦٥ هـ . وظل فى مصر إلى أن مات فى خلافة المستنصر ؛ فتولى الوزارة بعده ابنه الأفضل الذى استبد بالسلطة حتى أصبح المستنصر فى عهده كالمحجور عليه حتى مات .

---

(١) ابن منجب : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٤٠ — ٤١ .

فولى الأفضل المستعلى بن المستنصر الخلافة دون أخيه نزار الذى كان أبوه قد ولاه العهد قبل وفاته .

وكان المستعلى مسلوب السلطة مع خاله الأفضل ، وظلت الحال على ذلك إلى عهد الآمر (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) الذى فكر فى قتله ، وتم ذلك ، فآلت الوزارة إلى أبى عبد الله المأمون بن البطائحى .

وكان النزاع الذى قام بين الخلفاء والوزراء من مميزات العصر الفاطمى الأخيرة وربما كان ذلك نتيجة تولى الأطفال عرش هذه الدولة . وقد بلغ من ازدياد سلطة الوزير فى هذا العصر أن أضيف إلى ألقابه ألقاب تدل على هذا المعنى . ومن هذه الألقاب التى تلقب بها أبو على الأكمل حفيد الوزير بدر الجمالى : «ناصر إمام الحق وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ، مولى النعم ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتى السيف والقلم» ، وتلقب رضوان بن الوخشى وزير الحافظ «السيد الملك الأفضل[1]» ، وظل الوزراء يتمتعون بهذا اللقب منذ ذلك الحين .

وفى أواخر عهد الخليفة العاضد الفاطمى (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ) تقلد الوزارة أسد الدين شيركوه بعد أن قتل شاور بأمر نور الدين محمود بن زنكى . ولكن شيركوه مات بعد أن حكم شهرين ، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذى تلقب بالملك الناصر بعد أن قضى على الدولة الفاطمية وأسس الدولة الأيوبية كما تقدم .

٣ — الوزارة فى المغرب :

لم يعن المؤرخون ببحث نظام الوزارة فى عهد المرابطين ، بل لقد اتخذوا من الكتابة والوزارة نظاماً ثابتاً . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن عمال الدولة كانوا يتمتعون بنفوذ طغى على نفوذ هؤلاء الذين كانوا يلونهم من كبار الموظفين . على أنه مما لا ريب فيه أنه كان للمرابطين موظفون يرجعون إلى مشورتهم ، وأنه كان لهم كتاب يشرفون على الدواوين المختلفة ، كديوان الرسائل أو ديوان الإنشاء ، مما جعل المؤرخين يخلطون بين هؤلاء وأولئك ، فيسمون هؤلاء المستشارين وزراء ، والآخرين كتاباً[2] .

---

(١) كتاب الاعتبار أو حياة أسامة (بن منقذ) (باريس ١٨٨٩) ص ٢٢ .

(٢) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٨ .

وكان للمرابطين وزراء إقليميون[١] لم يكونوا فى الواقع غير أصحاب ديوان الإنشاء[٢] كما كان لهم وزراء مركزيون يقيمون بمدينة مراكش .

ومهما يكن من شىء فإنه لم يكن عند المرابطين مجلس وزراء ، وإنما كانت هناك هيئة استشارية يشترك فيها طائفة من الفقهاء والأعيان والكتاب . وكان أهم هذه الدواوين : ديوان الرسائل أو الإنشاء ، ويرأسه موظف كبير يعرف بالكاتب . ولا يبعد أن تكون هناك دواوين متعددة يشرف على كل منها كاتب يقوم بعمل الوزير . ولم يتمتع الوزير فى عهد المرابطين بما كان يتمتع به وزراء التفويض مثلا فى عهد العباسيين والفاطميين ، ولا الحجاب فى عهد الأمويين فى الأندلس ، لتمتع نواب أمير المسلمين بالسلطة المطلقة فى نياباتهم . ولم يكن فى الدولة المرابطية مايطلق عليه اسم الوزير أو رئيس الوزراء ، لأن النفوذ كان ينحصر فى يد أمير المسلمين نفسه ، ولأن الدوله المرابطية كانت تقوم على مشورة الفقهاء على مذهب الإمام مالك أكثر مما تقوم على السياسة .

٤ — الوزارة فى الأندلس :

لم يكن إطلاق لفظ الوزارة فى الدولة الأموية شائعا كما كان فى الدولة العباسية فى الشرق وفى الدولة الفاطمية فى مصر ، بل كان يطلق على من يتقلد الوزارة فى الأندلس اسم الحاجب تارة واسم الوزير تارة أخرى . ولهذا نرى أن الحاجب فى الدولة الأموية فى الأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذى يحجب السلطان عن الخاصة والعامة كما كانت الحال عند الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين ، وإنما قصد به هنا من يتولى الوزارة بمعناها المعروف ، فكان الحاجب ، كما ذكر ابن خلدون[٣] ، يقوم بعمل رئيس الوزارة اليوم ، ويتولى رياسة مجلس الوزراء الذى يشرف على شئون الدولة .

وقد وزعت أعباء الوزير أو رئيس الوزراء كما يسمى اليوم بين جماعة من كبار موظفى الدولة الاستعانة بهم ومشاورتهم ، ويختار منهم الأمير أو الخليفة شخصاً يسميه الحاجب ، وجعل للمالية وزيراً ، وللرسائل وزيراً وللمظالم وزيراً ، وللنظر فى أحوال اهل الثغور أو الولايات وزيراً وهكذا . وقد جعل لهم مكان خاص يجتمعون فيه وينفذون أوامر

---

(١) المراكشى : المعجب ص ١٦٤ . صلة الصلة ص ٨٢ .

(٢) صلة الصلة ص ٨٢ .

(٣) مقدمة ص ٢٠٨ .

السلطان ، كل فى دائرة اختصاصه . واختير أحدهم للتردد على الأمير أو الخليفة والنيابة عنه فى كل وقت ، وقد عرف باسم الحاجب . وظلت الحال على ذلك حتى عهد ملوك الطوائف ، فأصبح اسم الوزارة عاما لكل من يجالس الملوك ويختص بهم ، وغدا الوزير الذى ينوب عن الملك يعرف بذى الوزارتين[١] .

ولم يكن مجلس الحاجب ، أو بعبارة أخرى مجلس الوزراء ، هو وحده الذى يدير شئون الدولة ، بل كان إلى جانبه مجلس آخر يسمى « مجلس الشورى » يرأسه الأمير أو الخليفة ، ويضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من أفراد البيت الأموى .

وكان عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) أول من لقب وزيره بذى الوزارتين ، مقتدياً فى ذلك بالعباسيين ، لجمعه بين خطتى السيف والقلم . ففى سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م) لقب الخليفة الأموى فى الأندلس أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذا الوزارتين ، وضاعف له راتبه . وكان هذا الموظف يقوم ببعض أعمال الحاجب إذا اشتد ضغط العمل عليه . وقد أسند الأمويين الوزارة أحياناً إلى غير المسلمين من أهل الذمة ، كما فعل عبد الرحمن الناصر مع حسداى بن شبروط الذى بعث به سفيراً إلى « أوتو » إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

ولما ضعفت الدولة الأموية فى الأندلس ازداد نفوذ الحاجب ، حتى إن الخليفة لم يعد له من الأمر شىء . وأحسن مثل لذلك المنصور بن أبى عامر الذى تخلص من جعفر المصحفى الحاجب فى عهد هشام المؤيد (٣٦٦ — ٣٩٩ هـ) ليصفو له الجو فى بلاد الأندلس ، وخلفه فى كرسى الحجابة ، وأصبح الحاكم المطلق للدولة الأموية فى هذه البلاد ، حتى دعى له على المنابر ، وضربت السكة باسمه بعد الخليفة ، ونقش اسمه على الملابس المنسوجة بالذهب كما كان ينسج اسم الخلفاء[٢] .

(د) الكتابة :

وقد زخر العصر العباسى الأول بطائفة من الكتاب لم يسمح الدهر بمثلهم . فقد اشتهر يحيى بن خالد البرمكى والفضل بن الربيع فى عهد هارون الرشيد ، والفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يوسف فى عهد المأمون ، واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات والحسن ابن وهب وأحمد بن المدبر فى عهد المعتصم والواثق .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) أنظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ (الطبعة السابعة القاهرة ١٩٦٥) ص ٢٦٣ — ٢٦٤ .

وكان ملوك فارس يسمون كتاب الرسائل تراجمة الملوك ، وكانوا يقولون لهم : لاتحملنكم الرغبة فى تخفيف الكلام على حذف معانيه ، وترك ترتيبه والإبلاغ فيه ، وتوهين حججه .

وكانت الكتابة فى عهد الفاطميين تلى الوزارة فى الرتبة ، فقد كانت إحدى المناصب العالية التى كان الخلفاء لايسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور ، كما كانت الخطوة الأولى إلى الوزارة إذا ماحاز صاحبها رضاء الخليفة .

وقد اتخذ المعز لدين الله الفاطمى جوهراً الصقلى كاتبا له سنة ٣٤١ هـ ، لأنه كان كاتبا بليغا ، كما كان عفاً جم الأدب فى كتابته . وكان الكاتب فى عهد الفاطميين فى مصر يقوم بعمل الوزير إذا رضى عنه الخليفة ، ويسمى أحيانا صاحب الوساطة . ومن ثم لم يكن هناك اختلاف فى الوظيفة بين الوزير والكاتب وصاحب الوساطة .

وكان صاحب الإنشاء والمكاتبات فى عهد الفاطميين يتقاضى راتبا شهريا قدره مائة وخمسون ديناراً ، ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت إدارته ثلاثين ديناراً . ويلى صاحب الإنشاء فى الرتبة صاحب القلم الدقيق ، الذى كان يوقع على الظالم ، ويجالس الخليفة فى خلوته ، فيدارسه كتاب الله ويتلو عليه سير الأنبياء والخلفاء وعظماء الرجال ويحدثه عن مكارم الأخلاق ، ويعلمه تجويد الخط ، وكان راتبه مائة دينار فى كل شهر ، وإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة ، فإذا انتهى المجلس ألقى فى هذه الدواة عشرة دنانير مكافأة له ، وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ند[1] ممزوج بالمسك ، ليتبخر به عند دخوله على الخليفة فى المرة التالية .

ولما أصبح الوزير فى آخر أيام الدولة الفاطمية صاحب السيف والقلم أخذ يجلس للمظالم ، وإلى جانبه صاحب القلم الدقيق بدل كاتب السر . وكانت له سلطة التوقيع تحت توقيع الوزير ، بل النظر فى الشكاوى قبل انعقاد مجلس النظر فى المظالم . ويلى صاحب القلم الدقيق فى الرتبة صاحب القلم الجليل ، ويقوم بتسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها فى الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها . وكان الكتاب يختارون عادة ممن اشتهروا بسعة الإطلاع فى الأدب وامتازوا بالقدرة فى فن الإنشاء[2] .

---

(١) الند (بالفتح) : عود يتبخر به وقيل : العنبر .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠ — ٤٩٢ .

وقد نبغ القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) فى الكتابة فى أيام الفاطميين حتى صار من كتاب البلاط ، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرجرائى يعهد إليه فى أن يكتب العلامة أو الإشارة ، التى تذيل بها الأوراق الرسمية لإعطائها الصيغة الرسمية ، وتتكون من هذه العبارة : « الحمد لله شكراً لنعمته[1] » . كذلك تقلد ديوان الرسائل فى عهد الخليفة الآمر الفاطمى ابن منجب الصيرفى ، وكان من البارزين فى طبقة البلاط والمؤرخين .

وممن نبغ فى الكتابة فى عهد الأيوبيين القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) . وقد تقلد منصب الوزارة فى عهد صلاح الدين الأيوبى وولديه من بعده ، وخلف لنا كثيراً من الرسائل التى تمتاز بغزارة المادة التاريخية ، كما تمتاز بسلامة الأسلوب ووضوحه .

وكان بعض كبار الموظفين فى عهد المرابطين فى المغرب يجمع بين الكتابة والاستشارة . وكان أكثر الكتاب من رجال الأدب فى الأندلس الذين عملوا فى بلاط ملوك الطوائف أو فى قصور العمال المرابطين ثم دخلوا فى خدمة أمير المسلمين . ونذكر من بين هؤلاء الكتاب : عبد المجيد بن عبدون ، وعبد العزيز الأنصارى ، وأبا جعفر بن عطية ، وابن أبى الخصال ، وابن عبدون اليابرى [2] . ويظهر أن هذا الاختيار كان راجعاً إلى درايتهم بأحوال نصارى الأندلس أكثر من الكتاب المغاربة ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى باب الثقافة .

وكانت الكتابة فى الأندلس تلى الحجابة (وهى الوزارة) فى الرتبة وتنقسم قسمين :

(١) كتابة الرسائل ويسمى صاحبها الكاتب .

(٢) كتابة الزمام ويعرف صاحبها بكاتب الجهبذة ، ويشترط فيه أن يكون من أهل الذمة ، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير [3] .

---

(١) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٨٧ — ٤٨٨ .

(٢) نسبة إلى يابرى (بسكون الباء) إحدى مدن البرتغال .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ . أنظر كتابى تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٢٦٦ .

(د) الحجابة :

وقد اقتدى الخلفاء العباسيون ببنى أمية ، فاتخذوا الحاجب ، وزادوا فى منع الناس عن لقاء الخليفة إلا فى الأمور الهامة . وهذا مايسميه ابن خلدون[١] الحجاب الثانى . فصار بين الناس وبين الخليفة دار الخاصة ودار العامة ، يقابل كل طائفة فى مكان معين على مايراه الحجاب . ثم تطرقوا عند انحطاط الدولة إلى حجاب ثالث أشد من الأولين[٢] .

وقد علت مرتبة الحاجب بارتقاء الحضارة الإسلامية فى أيام العباسيين ، فأصبح يستشار فى كثير من أمور الدولة . ومن أبرز الحجاب فى العصر العباسى الأول « الفضل بن الربيع » الذى أوقع بالبرامكة عند الرشيد ، وأوقع الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون .

وكثيراً ما كان الحاجب يتدخل فى أمور الدولة العباسية ويستبد بالنفوذ دون الوزير ، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه فى كل أمور الدولة ، ويحتم عليهم بألا يفصلوا فى الأعمال إلا بعد موافقته .

ولم يكن الحاجب فى عهد الفاطميين يتمتع بذلك النفوذ الذى كان يتمتع به فى البلاد الإسلامية الأخرى . ولم تقتصر الحجابة على الخلفاء الفاطميين وحدهم ، بل لقد اتخذ قاضى القضاة أو الوزير حاجباً أو أكثر يقفون بين يديه إذا جلس للحكم . ولكن الحاجب كان بلا ريب ، من رجال البلاط الفاطمى ، بدليل ماذكره القلقشندى[٣] عند كلامه على مجلس الملك فى عصر الفاطميين . وكان صاحب الباب من كبار الموظفين فى ذلك العصر .

وكانت الحجابة فى الدولة الأموية بالأندلس ، كما قال ابن خلدون ، لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم . فكانت فى دولتهم رفيعة للغاية ، كما نراه فى أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم ، ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها ، فكان المنصور بن أبى عامر وأبناؤه كذلك . ولما بدوا فى مظاهر الملك وأطواره ، جاء من بعدهم ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها ، وكانوا يعدونه شرفاً لهم . وكان أعظمهم ملكا بعد انتحال ألقاب الملك

---

(١) مقدمة ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٢) كتاب المحاسن والمساوىء ج ١ ص ١٢٤ .

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ — ٤٨٨ .

وأسمائه لابد له من ذكر الحاجب وذى الوزارتين ، يعنون به السيف والقلم ، ويُدْلون[1] بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة ، وبذى الوزارتين على جمعه لخطتى السيف والقلم .

وأما عن الحجابة فى المغرب فقد ذكر ابن خلدون[2] أنها لم تكن موجودة فى عهد الأمويين فى بلاد الشام ثم فى الأندلس ، وفى العراق فى عهد العباسيين ، لأن الدولة المرابطية تميزت بالبساطة . بل إنه كان من اليسير أن يتصل أى شخص بأمير المسلمين عن طريق الأعوان . وقد ساعد على ذلك ما امتاز به المرابطون من الزهد فى مظاهر الحياة ، حتى لقد كان لباسهم الصوف وطعامهم الشعير . وكان يوسف بن تاشفين يتفقد أحوال الرعية ويباشر شئونه بنفسه[3] كما كان عمر بن عبد الخطاب وعمر بن عبد العزيز من قبله ، بل إن عليا ابن يوسف بن تاشفين كثيراً ما كان ينصرف عن مباشرة شئون الدولة إلى التعبد والتبتل .

٢ — النظام الإدارى

(أ) الإمارة على البلدان

١ — علاقة المسجد بإدارة شئون الدولة :

كان الخلفاء الراشدون يستعينون فى إدارة شئون الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف من كبار الصحابة وأعيان المدينة ورؤساء القبائل ، وكانوا يجتمعون فى مسجد المدينة ، ولا يقطع الخليفة أمراً دون استشارتهم ، وكان نظام الحكومة فى الثلاثين السنة الأولى للإسلام أقرب مايكون إلى النظام الجمهورى .

وقد بحث سير توماس أرنولد[4] علاقة المسجد باعتباره مكان العبادة (أى المكان الذى يؤم فيه الخليفة أو الوالى الناس فى الصلاة) بإدارة شئون الدولة السياسية والاجتماعية ، وكيف يجمع الخليفة أو الوالى بين إمامة المسلمين وبين شئون الدولة أو الولاية فقال :

« لم يكن المسجد مكانا للعبادة فحسب ، بل كان أيضا مركز الحياة السياسية والاجتماعية . فكان النبى يستقبل فى المسجد السفراء ، ويدير شئون الدولة ، ويخطب جماعة المسلمين على المنبر فى الأمور السياسية والدينية . . . فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقهقر جيوش

---

(١) بضم الياء وكسر الدال وضم اللام مع التشديد من الإدلال وهو التيه والكبر .

(٢) مقدمة ص ٢٠٩ .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٥٥ .

(٤) The Caliphate pp. 36 — 38.

المسلمين فى العراق ، واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد . ومن فوق المنبر أيضاً ، وقف عثمان يدافع عن نفسه . كما كان الخليفة عند استخلافه يلقى من فوق المنبر على الجمهور خطبته الأولى التى بمثابة بيان عن سياسته فى الحكم » .

فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش يلقى منه الحاكم بيان سياسة الدولة كما هو الحال فى النظم الدستورية اليوم .

ونستطيع أن نضيف إلى ما تقدم ، أن المساجد كانت تستخدم منذ ظهور الإسلام لاجتماع العلماء فيها ، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم . ثم استخدمت المساجد معاهد للتعليم ، يتلقى فيها الأطفال اللغة العربية وأصول الدين ، كما اتخذها القضاة مكانا لعقد جلساتهم . وصفوة القول أنه لما لم يمكن الفصل بين السياسة والدين ، كان المسجد المكان الذى تذاع فيه الأخبار الهامة التى تتعلق بالصالح العام .

وقد ذكر سير توماس أرنولد أن المساجد سرعان ما فقدت أهميتها السياسية والاجتماعية ، فلم تعد تمثل عرش الخليفة وكرسى الوالى ولا منصة القاضى . وغدا عمل المساجد مقصوراً على إقامة الصلوات ، يمجد فيها الله ، ويصلى على النبى ، ويترحم على الصحابة ، ويدعى الخليفة باعتباره نائباً عن رسول الله فى المحافظة على الدين . ولم يبق فيها من مظاهر السياسة إلا ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ، ليكون ذلك اعترافا من الولايات الإسلامية بسلطة الخليفة الاسمية .

وغير خاف أن المساجد كانت كمعاهد العلم اليوم تدرس فيها العلوم الدينية والعربية والعقلية .

٢ — نظرية الإمارة على البلدين :

ذكرنا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب أن الفقهاء قسموا الإمارة على البلدان إلى إمارة عامة وإمارة خاصة . فالعامة على نوعين : إمارة استكفاء بعقد عن اختيار ، وإمارة استيلاء بعقد عن اضطرار[1] .

وكان الخليفة مصدر كل قوة كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة . وكان الوزير ساعد الخليفة الأيمن ، يقضى باسمه فى جميع شئون الدولة ، فكان له الحق فى تنصيب العمال وصرفهم والإشراف على جمع الضرائب .

(١) راجع كتاب الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢٨ وما يليها .

وقد ظهر بتوالى الأيام أن هذه الأعباء كانت مرهقة لايستطيع القيام بها رجل واحد . ومن ثم أصبح من الضرورى تعيين موظفين يعاونون الوزير فى الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها .

وكان الخليفة يختار عمال الأقاليم بنفسه للقيام على شئونها ، بيد أن سلطاتهم المدنية والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد ؛ فلم يترك العامل فى ولايته زمناً طويلا ، فإذا ماعزل من منصبه ، طلب إليه أن يقدم بياناً مفصلا عن شئون ولايته . ومع ذلك اكتسب بعض الولاة امتيازات خاصة ، حيث كانوا يقطعون هذه الولايات نظير اعترافهم بالسيادة للخليفة وتقديم بعض المساعدات المادية للدولة .

وكانت مصر فى عهد الدولة الفاطمية مقسمة إلى أربع ولايات هى :

(أولا) ولاية قوص ، وكانت أعظم ولايات مصر ، لأن عاملها يحكم جميع بلاد الصعيد ، ويتولى إقليم الأشمونين بالإضافة إلى عمله الأصلى .

(ثانياً) ولاية الشرقية ، وتلى ولاية قوص فى الأهمية . وكان عاملها يحكم منطقة بلبيس وقليوب وأشموم .

(ثالثاً) ولاية الغربية ، وتلى ولاية الشرقية فى المنزلة ، ويلى عاملها المحلة ومنوف وأبيار .

(رابعاً) ولاية الإسكندرية ، وتلى ولاية الغربية فى الرتبة ويلى عاملها إقليم البحيرة كله .

وكان يخلع على هؤلاء الولاة الأربعة من خزانة الكسوة بالبدنة ، وهو الثوب الذى يلبسه الخليفة يوم الاحتفال بفتح الخليج[1] .

وكانت هذه الولايات الأربع تضم كوراً أخرى صغرى فصلها ابن مماتى فى الباب الذى عقده للتقسيم الإدارى فى أواخر عصر الفاطميين وأوائل عصر الأيوبيين ، وهى الشرقية والمرتاحية ، والدقهلية ، وجزيرة قويسنا ، والغربية ، والسمنودية ، والدنجاوية (بكسر الدال مع التشديد وسكون النون) ، والمنوفية ، وجزيرة بنى نصر ، والقسطراوية (بضم التاء مع التشديد وسكون السين) ، والبحيرة ، وحوف رمسيس ، والكفور الشاسعة ، وفوة ، والمزاحمتين (بفتح الحاء والميم والتاء وسكون الياء) والجيزية ، والإطفيحية والبوصيرية ،

---

(١) القلقشندى : ج ٣ ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .

والقيومية ، والبهنساوية[١] ، والأشمونين ، والأسيوطية ، والإخميمية ، والقوصية[٢] .

وكان لأمراء المرابطين نواب ينوبون عنهم ويمثلونهم فى حكم المغرب والأندلس . وكانت وظيفة نائب أمير المسلمين سياسية وحربية معاً ، ويراعى فى اختياره أن يكون من أقرب الناس إليه متصفاً بالمهارة الحربية منفذاً لسياسة الدولة التى تقوم على التعاليم الإسلامية وفق مذهب الإمام مالك . وكان هؤلاء النواب يختارون عادة من ولاة العهود. فقد كان على بن يوسف نائباً لأبيه يوسف بن تاشفين . وكان تاشفين نائباً لأبيه على ، وإبراهيم نائباً لأبيه تاشفين . وقد تولى هؤلاء النيابة فى بلاد الأندلس . وكذلك كان يوسف ابن تاشفين من قبل نائباً لأبى بكر بن عمر قبل أن يصبح أميراً للمسلمين ، ثم أصبح أبو بكر بن عمر نائباً ليوسف بن تاشفين فى الصحراء بعد أن نزل عن سلطته .

وكانت سلطة النائب سياسية وحربية معاً كما ذكرنا . فقد كان يراقب أعمال العمال ويضع الخطط الحربية ويصدر بتعيينه منشور خاص يذاع على العمال . وكان نائب أمير المسلمين يستعين فى إدارة نيابته بطائفة من الكتاب أطلق عليهم الوزراء تجاوزاً .

(ب) الدواوين :

كان الوالى يعين من قبل الخليفة وينوب عنه فى حكم البلاد ، وهو الرئيس الأعلى للقضاء والصلاة والخراج والجند والشرطة وما إليها من أعمال الدولة .

وكانت الصلاة أهم أعمال الوالى لارتباطها بالإمامة الدينية ، وهى منشأ الحكم فى الإسلام. لذلك كان الوالى يقيم الصلاة فى الجمع والأعياد ، ويؤم الناس فى الصلاة أو يستخلف عليها . وقد قضت الضرورة بذلك حين تعددت المساجد الجامعة بعد أن أخذ الإسلام ينتشر فى مصر على أثر إقبال المسلمين على الزواج من القبطيات .

ولم يدخل على النظام الإدارى فى مصر الإسلامية تغيير يستحق الذكر حتى جاءت الدولة الفاطمية فأدخلت عليه كثيراً من التعديل .

---

(١) وهى محافظة المنيا الآن .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٨٥ — ١٠٨ .

انظر حسن إبراهيم حسن : كتاب تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٨٩ .

وفى عهد الفاطميين كانت هناك عدة دواوين على رأس كل منها موظف كبير . ومن هذه الدواوين : ديوان الجيش ، وكانت تعرض على صاحبه شئون الأجناد وخيولهم ، وديوان خزائن الكسوة والطراز ، ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأقلام ، وديوان الأحباس ، ويشبه وزارة الأوقاف اليوم ، وديوان الرواتب ، ويعد صاحبه استمارات الرواتب ويعرضها على الخليفة فى كل سنة(١) .

ومن هذه الدواوين أيضاً ديوان الشام وديوان الحجاز .

وكان عدد الموظفين فى عهد الفاطميين كبيراً : منهم صاحب الباب ، وحامل مظلة الخليفة ، وصاحب الرسالة (وكان يحمل كتب الخليفة إلى الوزير وغيره من كبار الموظفين) ، وصاحب بيت المال ، وهو بمثابة وزير المالية فى العصر الحاضر ، وحامل دواة الخليفة . وهناك كثير من المناصب الدينية ، من أهمها منصب قاضى القضاة ، وله النظر فى الأحكام الشرعية والإشراف على دور السكة وضبط عيارها .

ويلى قاضى القضاة فى الرتبة داعى الدعاة ، ويقوم بنشر الدعوة الفاطمية فى دار العلم والمساجد . ومن كبار الموظفين فى عهد الفاطميين ، المحتسب ، وكان له النظر فى الأسواق والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة ، والإشراف على الموازين والمكاييل ، وعلى استيفاء الديون . وكان ينتخب من وجوه المسلمين ، لأن وظيفته كانت دينية إلى حد كبير ، وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً .

ومن كبار موظفى الدولة فى العهد الفاطمى وكيل بيت المال ، ونائب صاحب الباب ، وكان يستقبل سفراء الدول وينزل كلا منهم فى المكان اللائق به . وهناك عدد كبير من القراء يقرءون القرآن فى حضور الخليفة فى مجالسه ومواكبه ، ويقال لهم قراء الحضرة(٢) .

ومن كبار الموظفين أيضاً تسعة يعرفون بالأستاذين المحنكين (بضم الميم وفتح الحاء والنون مع التشديد)(٣) منهم : صاحب بيت المال ، وصاحب الرسالة ، وزمام القصر .

---

(١) القلقشندى : ج ٣ ص ٤٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٥ — ٥٣٢ .

(٣) جمع أستاذ محنك ، أى رجل مدرب ، وكان يتلثم بطرف من عمامته ، ومعناه يجعل عمامته تحت ذقنه وفكيه (انظر Lane's Arabic-English Lexicon) . ومن الأساتذة المحنكين من يتولى شد التاج ، وصاحب المجلس ، ويشبه الآن كبير الأمناء ، وصاحب الرسالة ، وصاحب بيت المال ، وحامل الدواة ، وزمام الأقارب ، وزمام القصور ، ويعهد إليه بإدارة شئون القصر (القلقشندى ج ٣ ص ٤٨٤ و ٤٨٥) .

وكان راتب كل من هؤلاء مائة دينار فى الشهر ، وراتب كل من قاضى القضاة وداعى الدعاة مائة دينار ، وراتب كل من طبيبى الخليفة الخاصين خمسين ديناراً[١] .

ومن المناصب الدينية الهامة فى العصر الفاطمى وظيفة باب الأبواب وهو لقب شيعى لقب به جعفر بن منصور اليمن الذى تمتع بمركز رفيع فى الدولة الفاطمية فى المغرب ثم فى مصر حتى اتخذه الخليفة المعز « باب أبوابه » أى رئيس الدعاة . كما لقب حميد الدين الكرمانى المتوفى سنة ٤٠٨ هـ بلقب « حجة العراقين »[٢] .

دور الضرب :

وتبين لنا كتب السكة نواحى أخرى من التقسيم الإدارى ، ونعنى بها دور الضرب ، وهى البلاد التى كانت الحكومة تتخذها مراكز لسك النقود وضرب العملة . وليس من شك فى أن هذه البلاد كانت تمثل حواضر الأقاليم التى تقيم بها أمراء الولايات ، حيث تكون الدواوين ومقر الحكومة الإقليمية . وهنالك ناحية أخرى تبينها كتب السكة ، وهى السنة التى ضربت فيها النقود لأول مرة : فهى تبين التاريخ الذى أصبحت فيه هذه المدينة حاضرة للإقليم ، كما تبين السنة التى انقطع فيها ضرب النقود بمدينة من المدن ، وهى تدل أيضاً على التاريخ الذى انتهت فيه أهمية المدينة كحاضره لهذا الإقليم . وإليك ثبتاً بأسماء دور الضرب فى مصر والولايات التابعة للدولة الفاطمية ، مثل صقلية وإفريقية وبلاد الشام .

---

(١) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ . المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن : كتاب الدولة الفاطمية ص ٢٩٣ وما يليها .

دار الضرب Place of Unit	الإقليم	السنة التى بدأت فيها السكة	نهاية السكة	ملاحظات
الإسكندرية	مصر	٤٦٩	٥٥٥	
أيله	فلسطين	٥١٤	—	
تيماء	فلسطين	٥١٤	—	
حلب	الشام	٤٢٩	٤٤٤	
دمشق	الشام	٣٦٨	٤٤٦	
زويلة	إفريقية	٤١٤	—	
صقليه	صقلية	٣٤٣	٤٥٦	
صور	الشام	٤٣٠	٤٨٤	
طبرية	الشام	٣٩٥	٤٦٠	
طرابلس	الشام	٣٦٧	٤٧٥	
عسقلان	الشام	٥٠٧	—	
عكاء	فلسطين	٤٦٢	٤٩٥	
فلسطين	فلسطين	٣٥٩	٣٦٤	
القيروان	إفريقية	٣٠٣	٣٣٥	
مصر (الفسطاط)	مصر	٣٦١	٥٦٤	
المنصورية	إفريقية	٣٤١	٤٥٤	
المهدية	إفريقية	٣١٥	٤٢٠[1]	

(ج) البريد :

يرجع نظام البريد إلى أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم . على أن مقاديره أو مسافاته كانت متفاوته . وقد ذكر القلقشندى[2] أن معاوية بن أبى سفيان كان أول من أدخل نظام البريد فى الدولة الإسلامية ، وقد أخذه عن الروم أثناء حكمهم فى الشام . ثم أدخل عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) عدة تحسينات على نظام البريد ، وأصبح بذلك أداة هامة فى إدارة شئون الدولة .

(١) Lavoix, pp. 517-531

(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

وكان للبريد ديوان كبير فى بغداد (أشبه بمصلحة البريد الآن) ، وكان مزودا بمحاط على طول الطريق ، وذلك نظراً لاتساع رقعة الدولة الإسلامية فى ذلك العصر . وقد ظل حمام الزاجل مستخدماً فى نقل الرسائل حتى خلافة المعتصم العباسى ، وساعدت معالم الطرق التى أقامتها الدولة التجار فى أسفارهم ، كما كانت نواة للبحوث الجغرافية . على أن البريد كان خاصاً بأعمال الدولة وليس لنقل مراسلات الجمهور . وكان صاحب البريد يراقب العمال ويستطلع أخبار الأعداء . ويشبه هذا النظام قلم المخابرات فى أيامنا . وكانت مهمة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله فى الأقاليم وبالعكس ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة ، ينقل أخباره إلى ولاته كما ينقل أخبار ولاته إليه :

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذا النظـــام واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً فى إدارة شئون دولتهم .

وقد ذكر أبو المحاسن[1] أن شفيعاً اللؤلؤى كان صاحب البريد فى مصر سنة ٢٩٢ هـ . ومع أننا لانعرف الكثير عن إدارة البريد فى عهد الإخشيديين والفاطميين ، فقد ذكر المؤرخون أنهم اهتموا بحمام الزاجل كوسيلة من وسائل نقل الرسائل . واستخدم الفاطميون الحمام ، وأفردوا له ديواناً وجرائد بأنسابها[2] .

وقد بلغ نظام البريد فى عهد بنى بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) مبلغاً عظيما من الدقة والسرعة ، حتى كانت الدولة تنقل البريد فى أثناء الحرب بالجمازات[3] ، وهى أشبه بالعربات التى تجرها الخيل السريعة التى يركبها عمال البريد ورجال الحرب وأمثالهم ممن يتطلب عملهم السرعة . فإن الفاطميين لما عزموا على غزو مصر سنة ٣٠١ هـ ، استعمل على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر العباسى الجمازات من بغداد إلى مصر ليقف على حقيقة الحال فى كل يوم .

وكان لبنى بويه أثر كبير فى ترقية البريد . فقد أدخل عضد الدولة السعاة (وكان يقال لهم الفيوج) ، وهم طائفة من موظفى البريد تخصصوا فى نقل البريد من مكان إلى آخر .

---

(١) النجوم الزاهره جـ ٣ ص ١٤٨ .
(٢) القلقشندى : جـ ١٤ ص ٣٩٠ .
(٣) انظر تاج العروس .

وقد استعملت النار كوسيلة من وسائل المراسلة فى القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) على الساحل الإفريقى الشمالى ، حتى كانت الرسائل تصل من طنجة إلى سبتة فى ساعة واحدة ، ومن طراباس إلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات . ولم يبطل هذا النظام إلا فى سنة ٤٤٠ هـ ، حين أثار المعز بن باديس الفتن فى المغرب فى وجه الفاطميين الذين لم يعودوا يستطيعون حماية الحصون من البدو[١] .

كذلك اعتمد العباسيون على حمام الزاجل فى نقل الرسائل . وقد راج هذا النوع من البريد عند فرق الباطنية ، وخاصة الاسماعيلية ؛ فقد استعان عبد الله بن ميمون القداح بالطيور فى نقل الأخبار إلى أنصاره[٢] ، واهتم الفاطميون بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل . فقد ذكر القلقشندى[٣] أن الفاطميون بالغوا فى العناية بالحمام حتى أفردوا له ديواناً وجرائد (قوائم) بأنساب الحمام ، كما كان يفعل العرب فى معرفة أنساب الخيل .

وللبريد محطات تسمى السكك ، كانت تزود بالخيل وراكبيها فى كل سكة من سكك البريد على بعد ثلاثة أميال أو ستة . وكانت طرق البريد منتشرة فى المشرق والمغرب ، ومن أهمها :

١ — من بغداد إلى القيروان بحذاء نهر دجلة ، ويمر بالموصل وسنجار ونصيبين والرقة ومنبج وحلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية والرملة والقاهرة والإسكندرية والقيروان .

٢ — من بغداد إلى الشام بحذاء الضفة الغربية لنهر الفرات ، ماراً بالأنبار وهيت ودمشق .

٣ — من بغداد إلى الشرق ، مارا بحلوان وهمذان والرى ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند حتى يصل إلى الصين . ومن مرو يبدأ طريق آخر يمر فى أواسط خراسان حتى يصل إلى الطاقان ثم يخترق نهر جيحون حتى يصل إلى فرغانة[٤] .

وقد ارتقى نظام البريد فى مصر فى عهد الأيوبيين والمماليك ، فوضع له نظام يكفل ارتباط جميع أنحاء الدولة بشبكة خطوط من البريد البرى والجوى . وكان مركز هذه

---

(١) الأمير شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .
(٢) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٢٣٤ .
(٣) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩٠ .
(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٢٧٥ . تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢١١ — ٢١٥ .

الشبكة قلعة الجبل التى بناها صلاح الدين الأيوبى فى القاهرة سنة ٥٧٢ هـ ، حيث كان يتفرع منها أربعة طرق برية ، يمتد أحدها إلى قوص ، والآخر إلى عيذاب ، وثالث إلى الإسكندرية ، ورابع إلى دمياط ومنها إلى غزة . ومن قلعة الجبل تتفرع سائر خطوط البريد ، وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء الدولة ، وترد إليها الرسائل من الولاة . وأصبح البريد فى عهد الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك البحرية يرد على مصر مرتين فى الأسبوع .

(٤) الشرطة :

الشرطة هى الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالى فى استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين ، وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التى تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم . وقد عرفت الشرطة بذلك لأنهم أشرطوا أنفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها . وكان عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام العسس فى الليل . وفى عهد بن أبى طالب نظمت الشرطة ، وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة . وكان يختار من عليه القوم ومن أهل العصبية والقوة ، وهو أشبه بالمحافظ فى هذا العصر لأنه يتولى رياسة الجند الذين يساعدون الوالى على استتباب الأمن .

وكانت الشرطة تابعة للقضاء أول الأمر ، تقوم على الأحكام القضائية ويتولى صاحبها إقامة الحدود ؛ ولكنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء ، واستقل صاحبها بالنظر فى الجرائم . وقد أدخل هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) نظام « الأحداث » ، وكان صاحبه يضطلع بالأعمال العسكرية التى تعتبر وسطاً بين أعمال صاحب الشرطة والقائد [١] .

وكثيراً ما كانت الشرطة والحسبة تسندان لشخص واحد مما يدل على خطورة مركز صاحب الشرطة فى عصر الدولة الفاطمية . وكان ينوب عن صاحب الشرطة موظفون يعملون على حفظ النظام واستتباب الأمن فى الأقاليم ، ويساعد صاحب الشرطة القضاة والعمال ويقوم بتنفيذ أحكامهم .

ومن ذلك نرى أن الشرطة كانت تابعة للقضاء فى أول الأمر ، يقوم صاحبها بتنفيذ الأحكام القضائية ويتولى إقامة الحدود . ولم تلبث أن انفردت عن القضاء ، واستقل صاحبها بالنظر فى الجرائم . وكانت الشرطة تؤهل صاحبها للحجابة أو الوزارة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٨ — ٢١٩ .

وكانت الشرطة فى بلاد الأندلس على نوعين : شرطة كبرى وشرطة صغرى . وقد اختص صاحب الشرطة الكبرى ، كما يقول ابن خلدون[١] ، بالحكم على الخاصة من ذوى النفوذ والجاه ، واختص صاحب الشرطة الصغرى بالحكم على العامة .

وكان صاحب الشرطة فى إفريقية (بلاد تونس الحالية) يسمى فى أيام ابن خلدون « الحاكم » وفى بلاد الأندلس « صاحب المدينة » ، وفى مصر فى عهد المماليك « الوالى » .

٣ — النظام المالى

(١) موارد بيت المـــال

١ — الخراج :

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها . وقد سارت الدولة الإسلامية منذ ظهورها على هذه السياسة ، فأنشأت بيتاً للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة . وهو بهذا يشبه وزارة المالية فى العصر الحاضر ، وصاحبه يقوم بمهمة وزير المالية ، وكان يطلق عليه صاحب بيت المال .

والمال الوارد لبيت مال المسلمين ، إما أن يكون ضريبة أو عن أشياء أخرى غير الأرض. وأهم موارد بيت المال : الخراج ، والجزية ، والزكاة ، والفيء ، والغنيمة ، والعشور .

كان الخراج إما شيئاً مقدراً من مال أو غلة . كما صنع عمر بن الخطاب فى أرض السواد[٢] بعد فتحها ، وإما حصة معينة مما يخرج من الأرض ، وهذا مايسمى بالمعاملة أو المزارعة كما عامل النبى صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على نصف مايخرج من الأرض ، قليلا كان أو كثيراً .

وقد اختلف المؤرخون فى تقدير الخراج ، فقصره بعضهم على جزية الرءوس التى فرضت على أهل الذمة ، وقصره غيرهم على ضريبة الأرض .

ولم يكن الخراج ثابتاً . فقد كانت ضريبة الأرض تقل وتكثر حسب الاهتمام

---

(١) انظر ص ٢٩ من مقدمة ابن خلدون المحفوظة بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٠١٦ وعليها خط المؤلف .

(٢) سمى كذلك للخضرة والشجر والزرع ، أى الأرض الخصبة التى تزرع فيبدو وجهها مخضراً فاتماً كلون السواد .

التعمير وتحسين وسائل الرى ، كما أن جزية الرءوس كانت تتناقص بالتوالى لدخول أهل البلاد فى الإسلام .

وكان خراج أقاليم الشرق الإسلامى يقدر بالدراهم وخراج أقاليم المغرب يقدر بالدنانير (عدا برقة وإفريقية) . ويرجع السبب فى ذلك - على ما ظهر إلى أن مناجم الفضة كانت أكثر فى أقاليم المشرق منها فى أقاليم المغرب ، وبعكس ذلك مناجم الذهب . كما يلاحظ أيضاً أن مايصل إلى بيت المال ببغداد كان صافى مايتحصل من الجباية فى الأقاليم بعد دفع أرزاق الجند والموظفين وشراء المعدات الحربية وماتتطلبه مرافق الدولة من كرى الأنهار والترع وإصلاح الجسور ، ومايُنفق على الدواوين وعلى الخليفة ورجال البلاط .

وهناك ضرائب أخرى تجبى من أرباب الحرف والصناعات ومن التجار الوافدين على الدولة الإسلامية وغير ذلك من الضرائب .

٢ — نظام الالتزام :

يرجع نظام الإقطاع[١] أو الالتزام فى الإسلام إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقول المقريزى[٢] : « وقد كان خلفاء بنى أمية وخلفاء بنى العباس يقطعون الأراضى من أرض مصر النفر من خواصهم ، لا كما هو الحال اليوم (أى فى زمن المقريزى) ، بل يكون خراج أرض مصر يصرف منه أعطية الجند وسائر الكلف ، ويحمل مايفضل إلى بيت المال ، وماأقطع من الأراضى فإنه بيد من أقطعه » . وفى عهد صلاح الدين الأيوبى حتى زمن المقريزى ، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ كانت أراضى مصر تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده.

وكانت أرض مصر على سبعة أقسام : قسم يلحق بديوان السلطان ، وهو على ثلاثة أقسام: ما يجرى فى الديوان الخاص ، وما يجرى فى الديوان المفرد ، ومايقطع للأمراء والأجناد ، وقسم ثالث يحبس إيراده على المساجد والمدارس والخوانق[٣] ، وعلى جهات البر وعلى ذرية

---

(١) يقال : اقتطع طائفة من الشىء أخذها ، أقطعنى إياها أذن لى فى اقتطاعها واستقطعه إياها سأله أن يقطعه إياها . والإقطاعية جزء من أرض الخراج يقطعها الجند فتدر لهم غلتها فتصير لهم رزقاً وأجرا (راتب) .

(٢) خطط جـ ١ ص ٩٧ .

(٣) جمع خانقاه وهى كلمة فارسية معناها « بيت » . وقيل: أصلها خونقاه ، أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . والخوانق حدثت فى الإسلام حول سنة أربعمائة من الهجرة ، وجعلت الخلوة الصوفية فيها للعبادة.

واقفى تلك الأراضى وعتقائهم ، وقسم رابع يقال له الأحباس ، ينفق إيرادها على الذين يقومون بخدمة المساجد وإقامة الشعائر الدينية ، وقسم خامس يباع ويشترى ويورث ويوهب لأنه اشترى من بيت المال ، وقسم سادس لايزرع للعجز عن زراعته ، فترعاه المواشى أو ينبت الكلأ ونحوه ، وقسم سابع لايرويه ماء النيل فهو قفر كما هو الشأن فى الصحارى .

وقد أورد الماوردى[1] نوعى الإقطاع فقال : « وهو ضربان : إقطاع استغلال وإقطاع تمليك ؛ والثانى ينقسم إلى موات وعامر . والثانى وهو ضربان : أحدهما مايتعين مالكه ، ولانظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض فى حق لبيت المال إذا كانت فى دار الإسلام ، فإن كانت دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد ، فأراد الإمام أن يقطعها ليملكها المقطع إليه عند الظفر بها فإنه يجوز » .

ولم يكن الالتزام مقصوراً على إقطاع أجزاء من الأرض فى الولاية الواحدة ، بل قد يشمل ولاية برمتها . وقد ساد هذا النظام فى العصر العباسى حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية . فكانوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال عدا الهدايا والطرف ، كما كان متبعاً فى نظام الإقطاع الذى كان سائداً فى أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، وسار عليه الخلفاء العباسيون قبل المعتصم[2] .

ذكرنا من قبل أن السلطان ملكشاه السلجوقى منح الوزير نظام الملك لقب « أتابك » وأقطعه إقطاعات من جملتها طوس مدينة نظام الملك . وقد سار سلاطين السلاجقة على هذه السنة ، فكانوا يسندون إلى بعض مماليكهم الذين يظهرون كفاءة خاصة أو صفة حربية ممتازة حكم إقليم من أقاليم الدولة السلجوقية ويعهدون إليه بتنشئة أحد أبنائهم[3] . ولما ضعف البيت السلجوقى تقاسم هؤلاء الأمراء ملك السلاجقة وأورثوه أبناءهم . وكان هؤلاء الأمراء يقطعون الأمراء المقربين إليهم بعض الأقاليم والمدن بشرط أن يظلوا خاضعين لهم . فإذا ماحاول أحدهم بالاستقلال بإقطاعه قام السلطان أو الأمير بعزله وإقطاع الإقليم

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٧١ — ١٨٢ .

(٢) الكندى : كتاب الولاة والقضاة ص ١٦٣ ، ١٧٣ ، ١٨٠ — ١٨٤ ، ١٩٥ — ١٩٧ ، ١٩٨ — ٢٠٢ .

(٣) انظر ص ٢٦ .

أو المدينة أميراً آخر على أن هؤلاء المقطعين كانوا فى عصر السلاجقة العظام مرتبطين بالسلطان السلجوقى مباشرة ، وكانوا يقيمون الخطبة له وينفذون أوامره ويشتركون فى قتال أعدائه .

وكان بعض هؤلاء الأمراء المقطعين يتمتعون بنفوذ واسع واستقلال يكاد يكون تاماً . فعماد الدين زنكى مثلا أصبحت الالتزامات الإقطاعية التى كانت تربطه بالسلطان السلجوقى محدودة بل إنها تحولت إلى موقف عدائى فى بعض الأحيان . وقد أدرك زنكى ضرورة إقطاع قواده بعض الإمارات المحلية فى الجزيرة والشام وشرقى الموصل وفى الإمارات الصليبية . وكان كلما استولى على بلد « رتب أموره وأقطع أعماله الأجناد والأمراء » ، كما فعل بعد استيلائه على مدينة حلب سنة ٥٢٢هـ[١] . وكانت سياسة عماد الدين زنكى . ترمى إلى قيام المقطع بإدارة شئون الولاية باعتباره والياً من قبله ، أو لإبعاده الشخص الذى يرى فى وجوده بإحدى الولايات خطراً على نفوذه[٢] ، أو مكافأة لأحد المقربين إليه اعترافاً بولائه له وما أداه من خدمات ممتازة لدولته ، أو لتشجيع بعض الأمراء المناوئين له على تسليم حصونهم مقابل إقطاعهم بعض المناطق[٣] .

٣ — الجزية :

والجزية مبلغ معين من المال توضع على الرءوس ، وتسقط بالإسلام ، وثبتت بنص القرآن لقوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)[٤] . والفرق بين الجزية والخراج أن الخراج على الأرض (وليس على الرءوس) ، ولا يسقط بالإسلام ، وقد ثبت بالاجتهاد (لا بنص القرآن) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٤٦ .

(٣) ابن القلانسى ص ٢٧٠ .

(٤) سورة التوبة ٩ : ٢٩ .

وقد فرضت الجزية على الذميين فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان ، لأن الذميين والمسلمين رعية لدولة واحدة ، ويتمتعون بحقوق واحدة ، وينتفعون بمرافق الدولة العامة بنسبة واحدة . ولذلك أوجب الله تعالى الجزية للمسلمين نظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم فى الأقاليم الإسلامية التى يقيمون فيها[١] . ولذلك فرض الشرع الجزية على الأشخاص الذين يجب عليهم الجهاد لو كانوا مسلمين لأن كلتا الطبقتين تكافأتا فى الحقوق وتساويتا فى الواجبات . وكانت الجزية تجمع على النحو الآتى :

١ — أغنياء ويؤخذ منهم ٤٨ درهما .

٢ — متوسطو الحال ويؤخذ منهم ٢٤ درهما .

٣ — فقراء يكسبون ويؤخذ منهم ١٢ درهما .

٤ — ولا تؤخذ الجزية من مسكين يتصدق عليه ، ولا ممن لا قدرة له على العمل ، ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوى العاهات ، ولا من الرهبان إلا إذا كانوا من الأغنياء . ولا تجوز أن تفرض إلا على الرجال الأحرار والعقلاء ، كما أنها لا تفرض على امرأة أو صبى .

٤ — الزكاة :

والزكاة معناها الطهارة ، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للمساكين ، طبقا لقوله تعالى مخاطباً الأغنياء : (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم). فكما أن الخراج شىء من المال يطهره ، فكذلك يبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء ، ويذهب عن نفس صاحبه الشح والأثرة ، قال الله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)[٢] .

وقد منح الله سبحانه وتعالى بعض الناس بالأموال دون بعض نعمه منه وفضلا ، وجعل علامة الشكر لذلك منهم على هذه النعمة التى منحها الله إياهم أن يخرجوا بعض هذه الأموال لتنفق على الفقراء والمساكين وذوى الحاجة بوجه عام .

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ٦٩ — ٧٢ .

(٢) سورة البقرة ٢ : ٢٦١ .

والزكاة شرعاً : تمليك جزء من المال عينه الشارع يخرجه الغنى للفقير فى الحدود التى عينها الشارع وهناك خمسة أشياء يجب إخراج الزكاة منها وهى :

١ — زكاة النقد (الذهب والفضة) ، وتجب الزكاة فيهما إذا بلغ النصاب ؛ فنصاب الذهب عشرون مثقالا ، والمثقال يساوى بالعملة المصرية ٥١ قرشا تقريبا ، ونصاب الفضة مائتا درهم (والدرهم يساوى نحو أربعة قروش مصرية) . فإذا بلغ كل منهما النصاب المقرر وجب على المالك إخراج ربع العشر .

٢ — زكاة السوائم[١] ؛ وهى : الإبل والغنم . فأول نصاب الإبل خمس وفيها شاة ، وهكذا فى كل خمس شاة ، فإذا بلغت خمسا وعشرين ففيها بنت مخاض[٢] وفى ست وثلاثين بنت لبون[٣] ، وفى ست وأربعين حقه[٤] ، وفى إحدى وستين جذعه[٥] ، وفى ست وسبعين بنتا لبون . فإذا بلغت إحدى وتسعين ففيها حقتان إلى مائة وعشرين . ثم تستأنف الفريضة فيؤخذ فى كل خمس شاة مع الحقتين .

أما زكاة البقر والجاموس ، ففى كل ثلاثين تبيع أو تبيعة[٦] وفى أربعين مُسن[٧] إلى ستين ففيها ضعف ما فى الثلاثين ، ثم فى كل ثلاثين تبيع وفى كل أربعين مُسِنَّة .

أما نصاب الغنم (ضأنا ومعزا) ففى كل أربعين شاة ، وفى كل مائة وإحدى وعشرين شاتان ، وفى المائتين وواحدة إلى أقلّ من أربعمائة ثلاث شياة ، وفى أربعمائة أربع شياة ، وما زاد ففى كل مائة شاة .

ولا زكاة فى غير ما ذكر من الحيوان ؛ فلا زكاة فى الخيل والبغال والحمير إلا إذا كانت للتجارة ففيها زكاة التجارة .

---

(١) السائمة هى التى يرسلها صاحبها لترعى فى البرارى فى أكثر السنة بقصد الدر أو النسل أو السمن الذى يراد به تقويتها لا ذبحها ، فلو اتخذت للذبح أو الحمل أو الركوب أو الحرب فلا زكاة فيها .

(٢) هى ما بلغت من الإبل سنة ودخلت فى الثانية .

(٣) هى ما أتمت سنتين ودخلت فى الثالثة .

(٤) بكسر الحاء ما أتمت ثلاث سنين ودخلت فى الرابعة .

(٥) بفتح الجيم والذال ما أتمت أربع سنين ودخلت فى الخامسة .

(٦) التبيع : الذى يتبع أمه ، وهو ما أوفى سنة .

(٧) المسن : ما أوفى سنتين .

٣ — زكاة عُروض[١] التجارة ، ومنها ربع العشر ، بشرط أن تبلغ قيمتها نصابا من الذهب والفضة . وأن يحول عليها الحول .

٤ — المعدن والركاز ، وهما بمعنى واحد ، وهو شرعاً : مال عثر عليه تحت الأرض ، سواءاً كان خَلْقياً خلقه الله تعالى ، أو كان كنزا مدفوناً . قال الحسن البصرى : ما كان من ركاز فى أرض الحرب ففيه الخمس وما كان فى أرض السلم ففيه الزكاة (وهو ربع العشر).

٥ — زكاة الزرع والثمار : وحكم زكاتهما ، أنه يجب فيها العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالمطر أو السيح[٢] وهو نصف العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالدلاء ونحوها ، ويقصد بزراعته استغلال الأرض ونماؤها[٣] .

والزكاة تصرف على الأشخاص المذكورة فى قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وإبن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم[٤] ، وفى قوله الرسول الكريم : « أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم » .

وقد اختلف علماء اللغة وأهل الفقه فى الفرق بين الفقير والمسكين ، وفى حد الفقر الذى يجوز معه الأخذ من الصدقة . والعاملون عليها هم الجباة الذين يندبهم الإمام لتحصيل الزكاة ، والمؤلفة قلوبهم هم الذين كانوا يظهرون الإسلام ليتألف المسلمون بذلك قلوبهم . وقد انقطع هذا الفريق بعد ظهور الإسلام وانتشاره . ويقصد « بالرقاب » أن يعتق الرقيق لضمان ولائهم للمسلمين . والغارمون هم الذين ركبهم الدين . وقوله تعالى : (وفى سبيل الله) يراد بهم الغزاة ، وأهل الرباط الذين يعطون ماينفقون فى غزوهم سواء أكانوا فقراء أم أغنياء . و (ابن السبيل) الذى انقطعت به الأسباب عن ماله لبعده عن بلده ومستقره وأهله . فإنه يعطى من الصدقة وإن كان غنيا فى بلده .

وكان للزكاة ديوان خاص بها فى حاضرة الخلافة ، وله فروع فى سائر الولايات والبلدان .

---

(١) جمع عرض (بسكون الراء) وهو ما ليس بذهب ولا فضة .

(٢) وهو ماء يسقى الأرض دون أن يخرجه الإنسان من النهر ، ويطلق عليه عند فلاحى مصر رى الراحة .

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٠٨ — ١١٧ .

(٤) سورة التوبة : ٩ : ٦٠

٥ — الفيء والغنيمة :

والفيء كل مال وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال ولا إيجاف [١] خيل ولا ركاب [٢] .

وخمس الفيء يقسم خمسة أسهم متساوية : سهم للرسول ينفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه فى مصالحه ومصالح المسلمين ، وقد سقط بموته صلى الله عليه وسلم .

أما أربعة اخماس الخمس فسهم لذوى القربى ، ويراد بهم آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد اختلف فيهم : فقيل إنهم قريش كلها ، وقيل بنو هاشم وبنو عبد المطلب . وقيل بنو هاشم خاصة ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل ، وذلك عملا بقوله تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة [٣] بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب [٤]) ، وبقوله صلى الله عليه وسلم : « مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم » .

وكانت أربعة أخماس الفيء الباقية تقسم فى صدر الإسلام بين الجند فى الأعمال الحربية وما تتطلبه من شراء الأسلحة وغيرها من معدات الحرب . وقد ظلت الحال على ذلك حتى دون عمر الدواوين وقدر أرزاق الجند .

والغنيمة فى اللغة : ما يناله الرجل أو الجماعة بسعى ، وهى كل ما أصابه المسلمون من عساكر الكفار عن طريق الحرب .

وقد جرت العادة أنه إذا جمعت الغنائم لم تقسم حتى تنتهى الحرب لئلا يتشاغل الجند بها فتحل بهم الهزيمة كما حدث فى غزوة أحد . فإذا انتهت الحرب عجل أمير الجيش بقسمتها فى دار الحرب . ومع ذلك فإنه يجوز تأخيرها إلى دار الإسلام بحسب ما يراه أمير الجيش .

ويبدأ الإمام بإخراج الخمس من الغنيمة ، فيقسمه بين أهل الخمس على خمسة أسهم ، وهم الذين ورد ذكرهم فى قوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول

---

(١) الإيجاف : سرعة السير . والركاب الإبل التى يسافر عليها ، لا واحد لها من لفظها ، أى لم يستعمل فى تحصيله خيلا ولا إبلا ، بل حصل بلا قتال .

(٢) جمع ركب ويقصد بذلك الإبل وغيرها المستعملة فى الحرب .

(٣) مداولة من الأغنياء إلى الأغنياء دون الفقراء .

(٤) سورة الحشر ٥٩ : ٧ الدولة (بضم الدال) فى المال فقط . يقال صار الفيء دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا والجمع دولات ودول .

ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (سورة الأنفال ٨ — : ٤١) . وقد تقدم ذكرهم فى باب الفيء والأربعة الأخماس الباقية ملك للغانمين ؛ غير أن الإمام إذا رأى أن يمن على الأسرى باطلاقهم فعل ، وبطلت حقوق الغانمين فيهم .

٦ — العشور :

ويرجع نظام العشور إلى عهد عمر بن الخطاب . وكان تجار المسلمين الذين يفدون إلى دار الحرب (أى بلاد الكفار الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد) يدفعون العشر عن سلعهم ، فأمر عمر بأن يأخذ المسلمون العشر من تجار غير المسلمين الذين يفدون ببضائعهم إلى دار الإسلام ، وأمر بأن يؤخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين ربع العشر إذا بلغ ثمن السلعة مائتى درهم فأكثر . وللامام أن يزيد عن العشر أو أن ينقص عنه إلى نصف العشر ، أو أن يرفع ذلك عنهم إذا رأى فى ذلك مصلحة . ولا يزيد ما يؤخذ عن مرة واحدة من كل قادم بالتجارة فى كل سنة ولو تكرر قدومه . وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلاد أخرى ، وهذا ما نسميه فى الوقت الحاضر الضرائب الجمركية .

وهناك مورد آخر من موارد بيت المال ، هو الأموال التى لا يعلم لها مستحق كاللقطة ، ومال من يموت وليس له وارث ، والأموال التى صالح عليها المسلمون أعداءهم .

٧ — الضرائب فى العصر العباسى الثانى :

وكان الخلفاء العباسيون يعنون بشئون الزراع والتخفيف عنها . وقد ألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التى كانت تفرض على الحنطة والشوفان ، وأحل محلها نظام المقاسمة ، وهو دفع الضرائب النوعية (المتنوعة) بنسبة خاصة من المحصول . على أن النظام النقدى القديم ظل على النخيل والفواكه وأشباهها . ولما أدى ذلك النظام الجديد إلى اشتطاط الجباة فى جمع الضرائب توسع الخليفة المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) فى تطبيق النظام الذى أدخله أبوه المنصور فعممه ، وجعل الضرائب تجبى دائماً بالنسبة إلى المحصول . وإذا كانت الأرض ممتازة الخصوبة ولا تحتاج إلى عمل كثير ، كان على الزارع أن يقدم للحكومة نصف غلة أرضه . وإذا صعب عليه ريها دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعاً لحالة الأرض .

أما الكروم والبساتين والنخيل ، فكانت غلتها تقوم بالمال ويدفع عنها النصف أو الثلث . ويسمى هذا النظام المقاسمة ، تمييزاً له عن النظام القديم الذى كان يعرف

بالمحاسبة ويقضى هذا النظام بأن تجبى الضريبة بالنسبة إلى الأرض ، وهناك ثلاث طرق فى جباية الأرض .

١ — المحاسبة — وهى إما أن تكون نقداً أو نوعاً أو هما معاً .

٢ — المقاسمة — وهى ضريبة تؤخذ من المحصول .

٣ — المقاطعة — وهى ضريبة تجبى وفق اتفاقات معينة بين الحكومة والأمة ، ويدخل فى هذا النظام معظم أراضى الدولة . وكثيراً ما كان يعفى البعض من دفع الضرائب ، حتى فى العهود التى ساد فيها العسر والجدب .

وقد بلغت مساحة الجزء المنزرع فى عهد المعز لدين الله الفاطمى ٧١٤ ر ٢٨٥ فداناً ، وفى أيام بدر الجمالى الذى تقلد الوزارة فى سنة ٤٦٥ هـ نحو هذا القدر ، وانعدمت أو كادت فى أواخر عهد المستنصر . ولم يكن السبب فى ذلك راجعاً إلى انخفاض النيل أو حدوث الوباء ، وإنما كان راجعاً إلى سوء سياسة الحكام وعدم اهتمامهم بتنمية الزراعة وما تتطلبه من شق الترع وحفر الخلجان وإقامة الجسور ونحوها .

ويمكننا الوقوف على اطراد النقص فى مساحة الجزء المنزرع فى مصر وزيادة مقدار الخراج الموضوع على الفدان من الثبت[1] الآتى :

الوالى	السنة الهجرية	المساحة المزروعة	الخراج	الضريبة على الفدان
عمرو بن العاص	٢٠	٦ مليون فدان	٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار	٢/٣ دينار
هشام بن عبد الملك	١٢٥	٢ » »	٤٫٠٠٠٫٠٠٠ »	٢ »
المأمون	٢١٨	٢٫١٢٨٫٠٠٠ »	٤٫٢٥٧٫٠٠٠ »	٢ »
أحمد بن طولون	٢٧٠	؟	٤٫٨٠٠٫٠٠٠ »	
محمد الإخشيد	٣٣٤	٥٠٠٫٠٠٠ فدان	٢٫٠٠٠٫٠٠٠ »	٤ »
المعز لدين الله	٣٥٨	٢٨٥٫٧١٤ »	٢٫٠٠٠٫٠٠٠ »	٧ »
المستنصر فى أواخر حكمه	٤٨٧	٧٦٥٫٢٥٠ »	٣٫٠٦١٫٠٠٠ »	؟

(١) الثبت الفهرس .

وكانت محاصيل مصر فى العصر الفاطمى — ولا تزال — تنقسم إلى محاصيل شتوية ومحاصيل صيفية . وهنا أهم المحاصيل الشتوية نقلا عن ابن مماتى [١] .

نوع المحصول	الغلة بالفدان	ضريبة الفدان
القمح والشعير	٢ — ٤٠ أردب	٣ أرادب
الفول	٢٠ — ٢٠ أردب	٢ ½ — ٣ أردب
العدس	٥ — ٢٠ أردب	٢ ½ أرادب
الكتان	٣٠ حبلا	٣ — ٦ دينار
القرط (البرسيم)	٢ — ٤ أردب	١ دينار
البصل	١٠ — ٢٠ دينار	٢ دينار
السمسم	١ — ٦ أردب	١ دينار
القطن	٢ — ٨ قنطار	١ قنطار
قصب السكر	٤٠ — ٨٠ إيلوجه [٢]	٥ دينار
القلقاس	٥ — ٤٠ دينار	٤ دينار
الباذنجان	٣٠ دينار	٣ دينار
النيلة	٢٦ دينار	٣ دينار
العنب والفاكهة	٣ دينار	٣ دينار

وكانت الضرائب فادحة على المواد الضرورية ، كالقمح والشعير والفول والقصب والقلقاس والباذنجان والفواكه ، حتى إن متوسط الضريبة على الفدان الواحد بلغ أربعة دنانير .

وإذا كان الخراج قد بلغ ٣٫٠٦١٫٠٠٠ ديناراً فى عهد وزارة بدر الجمالى ، فإننا نستطيع أن نقدر مساحة الجزء الصالح للزراعة فى أيام المستنصر على الوجه الآتى :

$$\frac{٣٫٠٦١٫٠٠٠}{٤} = ٧٦٥٢٥٠$$ فداناً وهو مقدار قليل جداً كما نرى .

---

(١) كتاب قوانين الدواوين ص ٢٥٨ — ٢٧٠ .

(٢) الأيلوجة هى الحزمة الكبيرة .

ولو كان لدينا خريطة مفصلة لمصر ونواحيها فى أيام الفاطميين ، لاستطعنا أن نستعين بالإحصاء القيم الذى أورده أبو صالح الأرمنى فى كتابه (كنائس وأديرة مصر) ، حتى نقدر مساحة كل كورة بالتقريب ، فنحصل على مساحة معقولة للجزء المنزرع . وما دام أبو صالح الأرمنى قد أهمل مساحة كل كورة فلنكتف بأن نذكر أنه كان بمصر ١٢٢٨ ناحية و ٨٣٤ قرية . وأن خراجها قد بلغ ٣٫٠٦١٫٠٠٠ ديناراً[١] .

على أن أغلب مؤرخى مصر الإسلامية قد اتفقوا على أن سياسة الفاطميين كانت ترمى إلى العناية بالفلاحين وعدم إرهاقهم ومعاملتهم معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، ولاسيما فى عهد المعز والعزيز . على أنه لما بدأ أمر الخلفاء يضعف وبدأ نجم الوزراء يعلو وسلطانهم يمتد ، خرج أمر الرعية من يد الخلفاء فتصرف الوزراء حسب أهوائهم .

ولعل اليازورى هو الوحيد الذى استطاع أن يصلح ما أفسده من سبقه من الوزراء . فقد رأى أن يبيع قمح الحكومة بسعر معتدل دون أن ينتظر ارتفاع الأسعار كما كان يفعل الوزراء من قبل . وكان من أثر هذه السياسة أن خسرت الحكومة مبالغ كبيرة من المال ، وخلت مخازنها من القمح الاحتياطى الذى كان ضرورياً فى عهود الشدة التى جاءت بعد ذلك . ثم انتهز اليازورى فرصة زيادة المحصول فى إحدى السنين ، فحال دون إرهاق المرابين والتجار والفلاحين ، فمنعهم من شراء المحاصيل بأسعار منخفضة فى الوقت الذى كان الفلاح يعلن عن حاجته إلى المال . ثم أقام مخازن كبيرة للقمح فى مدينة الفسطاط ليحول دون انتشار خطر المجاعة .

وقد أمدنا المقريزى[٢] ببيان واف يشتمل على ما كان يجبى بالدنانير من عوائد الأرض ، وكل صنف من أصناف الصناعات ، وما تحصله الدولة من الرسوم الجمركية ومستخرجات المعادن ، ومن الزكاة وجزية الرءوس ، وما يتحصل من دار الضرب ، وما يدخل بيت المال من التركات التى لا وارث لها .

ومما ذكره المقريزى وغيره من المؤرخين يتبين لنا مقدار خراج مصر فى العصور المختلفة .

---

(١) انظر كتابى النظم الإسلامية (الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢) ص ٢٦٥ .

(٢) خطط ج ١ ص ١٠٣ — ١١١ .

الحاكم	الخليفة	مقدار الخراج بالدينار
عمرو بن العاص	عمر بن الخطاب	١٢٫٠٠٠٫٠٠٠
عبد الله بن سعد بن أبى سرح	عثمان بن عفان	١٤٫٠٠٠٫٠٠٠
أسامة بن زيد	سليمان بن عبد الملك	١٢٫٠٠٠٫٠٠٠
عبيد الله بن الحبحاب	هشام » »	٢٫٧٢٣٫٨٣٩
موسى بن عيسى الهاشمى		٤٫٢٥٧٫٠٠٠
أحمد بن محمد بن المدبر		٨٠٠٫٠٠٠
أحمد بن طولون		٤٫٨٠٠٫٠٠٠
خمارويه بن أحمد بن طولون		٤٫١٠٠٫٠٠٠
محمد بن طغج الإخشيد		٢٫٠٠٠٫٠٠٠
كافور الإخشيد		٣٫٢٧٠٫٠٠٠
جوهر الصقلى	المعـزَ	٣٫٤٠٠٫٠٠٠
وزارة يعقوب بن كلس	العزيز	٣٫٠٠٠٫٠٠٠
ـــــ	الحاكم	٣٫٤٠٠٫٠٠٠
وزارة اليازورى	المستنصر	٢٫٠٠٠٫٠٠٠ منها مليون من الشام
بدر الجمالى فى سنة ٤٨٧ هـ		٣٫١٠٠٫٠٠٠
الأفضل بن بدر الجمالى	المستعلى	٥٫٠٠٠٫٠٠٠
صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٨٥ هـ	—	٤٫٦٥٣٫٠٢٩
الظاهر بيبرس	—	١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ (١)

(١) انفرد ابن إياس (ج ٣ ص ٢٦٦) بإيراد هذا الرقم .

٨ — النظام المالى فى الأندلس :

وضع الامويون أساس النظام المالى فى الاندلس . وكان يتألف من الخزانة العامة ، وإدارة بيت المال ، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة .

وكان يشرف على الخزانة العامة أحد كبار الموظفين ، ويسمى « خازن المال » . ومقر هذه الخزانة القصر . وتودع فيها الأموال التى تجبى من المدن والقرى . ومن أهم هذه الأموال التركات التى يموت أصحابها دون أن يتركوا وارثاً ، والضرائب المفروضة على الأسواق ، والرسوم الجمركية التى تفرض على السفن ، والخراج ، والجزية ، والأعشار .

أما موارد بيت المال ، كما كان يسمى فى الأندلس ، فقد اقتصرت على ما يرد عليه من الأحباس (الأوقاف) . وكان مقر هذا الديوان المسجد الكبير بقرطبة ، ويقوم هذا الديوان على صيانة المنشئات الدينية ودفع رواتب موظفى المساجد ، وتوزيع الصدقات ، ويشرف عليها قاضى القضاة ونوابه فى الأقاليم برعاية الخليفة . ويشبه هذا الديوان من بعض الوجوه وزارة الأحباس ووزارة الشئون الاجتماعية الآن .

وأما موارد الأمير أو الخليفة الخاصة ، فكان يشرف عليها موظف يعرف « بصاحب الدية » ، ويشرف هذا الموظف على أرض الأمير أو الخليفة ، ويقوم بزراعتها جماعة من المزارعين ، على أن يستولوا على جزء قليل من غلاتها[1] .

وقد استمر هذا النظام فى الأندلس حتى استولى عليها المرابطون واتبعوا نظاماً يقوم على قواعد الإسلام الأساسية وهى الزكاة . فلما أراد عمال المرابطين أن يتبعوا النظام السابق رغبة فى جمع أكبر قدر من المال ثار أهالى الأندلس عليهم ، واضطر أبو الطاهر (أخو السلطان على بن يوسف) أن يقمع هذه الثورة التى اشتدت حتى جاء على بن يوسف فقضى عليها . كما كانت هذه الثورات من العوامل الهامة التى جعلت الأندلسيين يرحبون بالحكم الموحدى ليتخلصوا من وطأة الضرائب التى اشتط العمال فى جمعها على أيدى اليهود الذين اشتهروا إذ ذاك فى الشئون المالية .

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى (الطبعة السابعة ١٩٦٥) ج ٣ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

٤ — النظام الحربى

(١) الجيش فى العصر السلجوقى :

استمد العباسيون قوتهم من الجيش الذى نما نموا عظيما على أثر دخول كثير من الناس فى الإسلام وانضوائهم تحت لوائه . وقد بلغ عدد الجند فى عهد العباسيين مئات الألوف . وكان هؤلاء الجند يكونون الجيش النظامى للدولة ، تدفع لهم رواتبهم بانتظام ، ومن ثم قلت أرزاقهم تبعاً لزيادة عددهم . ولما بلغت قوة العباسيين أشدها فى بغداد ، أصبح الجندى يتقاضى راتباً شهرياً قدره عشرون درهما[1] . وكان إلى جانب الجند النظاميين طائفة أخرى من الجند المتطوعة من البدو وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا فى الحروب .

وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده . فمنهم الحربية وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح ، وهؤلاء من جند العرب ، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين . وفى العصر العباسى الثانى دخل فى الجيش عنصر جديد أصبح أشد خطراً من الفرس والخراسانيين ، هو عنصر الأتراك ويكونون القسم الرابع من الجيش .

وكان الجيش العباسى يتألف من عدة فرق تضم النظامية والمتطوعة . وتتألف هذه الفرق من المشاة أو الحربية ويتسلحون بالرماح والحراب والتروس ، ومن الرماة ويتسلحون بالسيوف والأقواس والتروس والنشاب ويلبسون الخوذ لتقى رءوسهم والتروس لتقى صدورهم ، ولها أجزاء للساعدين والساقين . ولكل فرقة من فرق الجيش فصيلة لقذف النفط يعرف رجالها بالنفاطين ، ويرتدون الملابس التى لا تؤثر فيها النيران لاقتحام الحصون المشتعلة .

وكان الجيش العباسى بوجه عام يتألف من الفرسان والمشاة أو الرجالة ، والمنجنيقيين والنشابين (وهم الذين يرمون النشاب) ، والنفاطين ، والزراقين (وهم الذين يقذفون بالنار الإغريقية التى اقتبسها اليونان من الشرق) ، والدبابين والعيارين ، وهم رماة الحجارة من المقالع ، وقد اشتهروا فى الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون ، كما كان الجيش يتألف من المهندسين والأطباء والبياطرة والمرتزقة .

---

(١) الدرهم يساوى أربعة قروش تقريبا .

وكانت صلاحية الجند للخدمة العسكرية ، وهو مايعبر عنه اليوم بالقرعة العسكرية أو التجنيد ، تقرر بعد اختبار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد . وقد وصف هلال الصابى[١] طريقة هذا الاختبار وتقدير مراتب النجاح أو الرسوب[٢] .

وقد ارتقى نظام الجاسوسية عند العباسيين ، إذ كانوا يستخدمون الرجال والنساء ، الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة متنكرين فى أزياء التجار والأطباء وغيرهم لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم .

ولكى يحمى العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم وهى الثغور . ومن هذه الثغور طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة ، ومرعش ، وملطية ، وكانت تقع طوراً فى أيدى العرب وطوراً فى أيدى الروم .

وقد بلغ الجيش فى عهد الدولة الزنكية درجة عالية من الرقى ودقة التنظيم حتى أصبح مثالا يحتذى فى البلاد الإسلامية الأخرى . وقد عنى عماد الدين زنكى عناية خاصة بتنظيم الجيش للقضاء على الإمارات المحلية المتنافسة فى الموصل والجزيرة والشام وتوحيدها فى جبهة إسلامية تستطيع الوقوف فى وجه الصليبيين .

لذلك وضع عماد الدين زنكى على رأس ديوان الجيش موظفاً كبيراً عرف باسم « أمير حاجب » كان يلى نائب السلطنة فى الرتبة . وكان هذا القائد « ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه ، وتارة بمشاورة السلطان ، وتارة بمراجعة النائب . وكان عليه تقديم من يُعْرض (على السلطان) ومن يردّ[٣] ، وعرض الجنـــد »[٤] كما كان ينظر فى مخاصمات الجند وما يتعلق بأمور الإقطاعات الخاصة وغير ذلك[٥] . وكان « أمير حاجب » يعتبر أكبر قواد عماد الدين زنكى .

وكان جيش الأيوبيين والمماليك من بعدهم يقوم على التقسيم العشرى ، بحيث ينظم أمراء الجند بشكل متدرج ، فيلقب أكبرهم بمقدم ألف ، ويليه أمير أربعين ، ثم أمراء العشرات

---

(١) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٣ — ١٤ .
(٢) انظر كتابى تاريخ الإسلام السياسى (الطبعة السابعة) ج ٣ ص ٢٨٥ .
(٣) يعنى ومن ترفض مقابلته .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩ .
(٥) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١٩ .

فالخمسات . وكان هذا التقسيم متبعاً عند السلاجقة قبل استيلائهم على بغداد سنة ٤٤٧ هـ . ويظهر أن عماد الدين زنكى اتبع نفس هذا التنظيم الذى يعد استمراراً للنظم السلجوقية من جهة وأساساً للنظم المملوكية من جهة أخرى .

وكان جيش عماد الدين زنكى يتألف من الخراسانيين والتركمان (١) الذين استعان بهم فى قتال الصليبيين ، ومن الشاميين وخاصة أهل حلب الذين اشتركوا فى كثير من المعارك ضد الصليبيين فى شمالى الشام وقاموا بدور هام فى الدفاع عن حلب وأعمالها . كما استعان عماد الدين زنكى بأهل حماه الذين اتخذهم حرساً خاصاً له . وهناك فرق أخرى من البدو والأكراد التى تألف منها جيش زنكى بقسميه النظامى (أو المرتزقة) والمتطوعة .

كذلك أدخل عمـــاد الدين زنكى نظام التجنيد الإجبارى فى المناطق المعرضة لخطر الصليبيين باعتباره نوعاً من الجهاد . كما اهتم بفرض حصار اقتصادى عند حصار المدن ليحول دون وصول المؤن إليها ، واشترك مع جنده فى الهجوم لإثارة الحماس فى نفوسهم ورفع روحهم المعنوية . وتجلت براعة زنكى وقواده فى استخدام أساليب القتال كنصب الكمائن (٢) وشن الغارات على معسكرات العـــدو والانسحاب بسرعة لإثارة الخوف فى نفوس الجند ونشر الفوضى فى صفوفهم (٣) .

وقد اهتم عماد الدين زنكى بترقية فن حصار المدن الحصينة المنتشرة فى الجزيرة والشام ، واعتمد على الجواسيس الذين كانوا يمدونه بأخبار العدو وتحركات جيوشه حتى يستطيع وضع خطة حربية سليمة (٤) ففى مدينة الرها طلب زنكى من أهل الحصن تسليمه فرفضوا ، فأمر بضربه بالمنجنيقات وأخذ جنده يوالون هجماتهم بلا انقطاع لقتال الحامية فى الوقت الذى أخذ النقابون ينقبون بعض الأماكن التى تحت الأبراج حيث وضعوا الأخشاب وأشعلوا فيها النيران ، فسقطت الأبراج واحترق السور وفتح زنكى الطريق أمام الجيش لدخول الحصن والاستيلاء عليه (٥) .

---

(١) ابن القلانسى ص ٢٧٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٩ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٤ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٤٠ .
(٥) ابن القلانسى ص ٢٧٩ .

(ب) أسلحة الجيش :

وقد كشف البحث الحديث خطأ النظرية التى ذهب اصحابها إلى أن المواد المفرقعة من اختراع اليونان والرومان الذين عرفوا المواد الملتهبة التى استخدمت قديماً فى الحروب . ومن بينها النار الاغريقية التى لاعلاقة لها بالمواد المفرقعة المتصلة بالنفط ، والتى ساعدت على تطوير مجرى الحرب وعاونت على القيام بكثير من الأعمال والمشاريع العمرانية ، كشق الطرق بين الجبال وما إليها .

ونقرأ كثيراً من أعمال النفط وفرق النفاطين التى اشتهرت فى الفتوح الاسلامية . ولا سيما فى العصر العباسى وما كان لها من أثر بعيد فى حصار المدن وتمهيد السبيل لفتحها بعد إحراق بيوتها الخشبية ، كما حدث فى حصار حصن هرقلة (بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف) فى عهد الرشيد . وكان لكل فرقة من فرق الجيش فصيلة من النفاطين (بفتح النون والفاء مع التشديد) لقذف النفط ، يرتدى رجالها الملابس التى لاتؤثر فيها النيران عند اقتحامهم الحصون المشتعلة .

وفى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أخذ الأوربيون عن المسلمين المواد المفرقعة المشتعلة على ملح البارود والكبريت والفحم . وقد دحض المستشرق الألمانى جرجى يعقوب الرأى القائل أن القديسة « بربارة » اخترعت هذا المسحوق حين أغار الوندال على إفريقية واستخدمته للمرة الأولى ، حتى أصبحت هذه القديسة شعاراً لفرق المدفعية عند كثير من الأمم حتى اليوم .

وقد عرف ثلج الصين (نترات البوتاسيوم أو ملح البارود) فى بلاد الصين فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) حيث نجد استخدام الصينيين المواد المفرقعة للمرة الأولى عند هجوم أجناى التتارى على إحدى المدن الصينية سنة ٧٨٢ هـ (١٣٣٢ م) . وهذه المواد المفرقعة عبارة عن أسهم نارية ومواد مدمرة كانوا يلقونها على العدو إذا حاصروه فى زاوية لايمكنه الإفلات منها . وقد أخذ المسلمون نترات البوتاسيوم عن الصين وأطلقوا عليها اسم ثلج الصين الذى استعمل كعنصر أساسى فى صناعة الأسلحة النـــارية التى تعرف باسم « طوربيد » . فوصفها حسن الرماح (بفتح الراء والميم مع التشديد) فى كتابه عن الرماية بأنها « بيضة تخرج وتحرق » . وقد عرف المسلمون النار الاغريقية كما عرفوا غيرها من أسلحة الحرب التى أخذها عنهم الأوربيون .

(ج) إمرة الجيش :

وقد عدد ابن طباطبا[١] الصفات التى يجب أن تتوافر فى قائد الجيش فقال : « قال بعض حكماء الترك : ينبغى أن يكون فى قائد الجيش عشر خصال من أخلاق الحيوان : جرأة الأسد ، وحملة (أى قوة تحمله) الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب على الجراح ، وغارة الذئب ، وحراسة الكركى ، وسخاء الديك ، وشفقة الدجاجة على الفراريج ، وحذر الغراب ، وسِمَن تَعْرُو ، وهى دابة تكون بخراسان تسمن على السفر والكد » .

وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة نفسه ، لأنه يعتبر نائبه فى القيادة وفى إمامة الصلاة . وإذا اجتمع أكثر من قائد فى مكان واحد ، عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس ، فيصبح هذا القائد بمثابة « قائد القواد » . وإذا انتهى الفتح ووقف القتال أصبحت مهمة هؤلاء القواد مقصورة على النظر فى أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم كما هو الحال فى عصرنا .

ويرجع إلى قواد العرب تنظيم طريقة القتال ؛ فقد كانوا فى الجاهلية يتبعون طريقة الكر والفر فى القتال ، فيكرون على العدو ، وإذا ما آنسوا فى أنفسهم ضعفاً فروا ، ثم عادوا فكروا ، وهكذا يسيرون على غير ضابط أو نظام .

غير أن قواد المسلمين لم يرتاحوا لهذه الطريقة ، ووجدوا أنها لا تكفل لهم النجاح ولا تصلح لقتال الجنود المنظمة ، ونزلت الآية الكريمة (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)[٢] . وأخذ المسلمون فى أيام النبى يقفون للقتال صفوفا كما يفعلون فى الصلاة ، ثم يسيرون لملاقاة العدو متضامين ، وليس لأحد منهم أن يتقدم عن الصف أو يتأخر عنه .

وفى عهد الأمويين والعباسيين اختلط العرب بالفرس وأخذوا عنهم نظام التعبئة . أى تقسيم الجيش إلى كتائب ، تكون إحداها فى الوسط تحت إمرة القائد العام وتسمى « قلب الجيش » ، وتوضع واحدة إلى يمينها وتسمى « الميمنة » ، وأخرى إلى يسارها وتسمى « الميسرة » ، ثم تكون أمامها كتيبة (من الفرسان فى الغالب) وتسمى « المقدمة » ،

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٥٧ .

(٢) سورة الصف ٦١ : ٤ .

وخلفها كتيبة تسمى « ساقة الجيش » ولذلك تركوا نظام الصفوف . وبعد تقدمهم فى المدنية تفننوا فى طرق تعبئة الجيوش .

وقد عدل العرب عن اصطحاب نسائهم معهم إلى ميادين القتال ، بعد أن كن يصحبن الجيش ويخصص لهن أماكن فى المدن الحصينة . وكان القواد يحافظون على حسن سلوك الجند ويشددون العقاب على كل من يعبث بالنظام أو يتعرض لأهالى البلاد المفتوحة بسوء . ومما ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر ، كما كان الجندى لا يمكث بعيدا عن أسرته أكثر من أربعة أشهر وكان الجند يكبرون ويتلون الآيات القرآنية فى أثناء سيرهم للغزو والجهاد وفى أثناء المعارك الحربية ، كما كانوا يدقون الطبول ويقرعون الصنوج لبث الحماس فى نفوسهم . وقد انصف الجندى المسلم بالتفانى فى القتال لاعتقاده بأن من يموت فى سبيل الله دخل الجنة .

ومما ذكره ابن الأثير[1] عن سير الخليفة المسترشد العباسى (٥١٢ — ٥٢٩ هـ) لحرب دبيس بن صدقة بن مزيد صاحب الحلة الذى هدد الخليفة بتخريب بغداد بعد أن كحل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أخاه ، نستطيع أن نتبين بعض الخطط التى كانت تتبع فى ندب الخليفة الأمير آقسنقر لحرب دبيس ، واستعد الخليفة لحربه واستنفر الشعب للقتال ووزع عليهم الأموال والسلاح . وفى شهر ذى الحجة سنة ٥١٦ هـ نادى «أهل بغداد النفير النفير الغزاة الغزاة ، وكثر الضجيج من الناس وخرج منهم عالم كثير لا يحصون كثرة ، وبرز الخليفة . . . وعبر دجلة ، وعليه قباء أسود وعمامة سوداء وطرحة ، وعلى كتفه البردة وفى يده القضيب وفى وسطه منطقة حديد صينى (أى من حديد صينى) ، ونزل الخيام ، ومعه وزيره نظام الدين أحمد بن نظام الملك ونقيب الطالبين ونقيب النقباء على بن طواد وشيخ الشيوخ صدر الدين بن إسماعيل وغيرهم من الأعيان . وكان البرسقى قد نزل بقرية جهار طاق ومعه عسكره . فلما بلغهم خروج الخليفة من بغداد عاد إلى خدمته فلما رأوا الشمسة (أى الشمسية) ، ترجلوا جميعهم وقبلوا الأرض بالبعد منه (أى على بعد منه). ودخلت هذه السنة ، فدخل الخليفة فى مستهل المحرم بالحديثة بنهر الملك ، واستدعى (آقسنقر) البرسقى والأمراء واستحلفهم على المناصحة فى الحرب ، ثم ساروا إلى النيل[2]

---

(١) ج ١٠ ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٢) يقصد نهر دجلة الذى كان يطلق عليه النيل أحيانا كما كان يسمى نهر النيجر النيل أيضاً وهذه الإطلاقات نشأت من عظم نهر النيل وشهرته حتى أصبح علماً على كثير من الأنهار .

ونزلوا بالمباركة ، وعبى (عبأ) البرسقى أصحابه ، ووقف الخليفة من وراء الجميع فى خاصته ، وجعل دبيس أصحابه صفاً واحداً ميمنة وميسرة وقلباً ، وجعل الرجالة بين يدى الخيالة بالسلاح . وكان قد وعد أصحابه بنهب بغداد وسبى النساء . فلما تراءت الفئتان بادر أصحاب دبيس وبين أيديهم الإماء يضربن بالدفوف والعبيد بالملاهى . ولم ير فى عسكر الخليفة غير قارىء ومسبح . فقامت الحرب على ساق . . فجعل عنتر بن أبى العسكر فى طائفة من عسكر دبيس على ميمنة البرسقى ، فتراجعت على أعقابها . . . وعاد عنتر وحمل حملة ثانية على هذه الميمنة ، فكان حالها فى الرجوع على أعقابها كحالها الأول . فلما رأى عسكر واسط ذلك ومقدمهم آقسنقر حمل وهم معه على عنتر ومن معه وأتوهم فبقى عنتر فى الوسط وعماد الدين من ورائه والأمراء البكجية بين يديه ، فأسر عنتر وأسر معه بريك بن زائدة وجمع من معهما ولم يفلت أحد . وكان (آقسنقر) البرسقى واقفاً على نشز (مرتفع عال) من الأرض ، وكان الأمير آق بورى فى الكمين فى خمسمائة فارس . فلما اختلط الناس خرج الكمين على عسكر دبيس ، فانهزموا جميعهم وألقوا نفوسهم فى الماء ، فغرق كثير منهم وقتل كثير . ولما رأى الخليفة اشتداد الحرب ، جرد سيفه وكبر وتقدم إلى الحرب . فلما انهزم عسكر دبيس وحملت الأسرى بين يديه ، أمر الخليفة أن تضرب أعناقهم صبراً . وكان عسكر دبيس عشرة آلاف فارس واثنى عشر ألف راجل ، وعسكر البرسقى ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل . ولم يقتل من أصحاب الخليفة غير عشرين فارساً . وجعل نساء دبيس وسراريه تحت الأسر سوى بنت إيلغازى وبنت عميد الدولة ابن جهير ، فإنه كان تركهما فى المشهد . وعاد الخليفة إلى بغداد فدخلها يوم عاشوراء من هذه السنة ... وأما دبيس بن صدقة فإنه لما انهزم نجا بفرسه وسلاحه وأدركته الخيل ففاتها وعبر الفرات . . . واختفى خبره بعد ذلك وأرجف عليه بالقتل ثم ظهر أمره ... » .

(ء) الجيش فى مصر :

وقد وجه الفاطميون عنايتهم إلى إعداد جيش قوى يكون عدتهم وقت الحروب . ويتكون هذا الجيش من الأمراء وطوائف الجند . ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لا تجاوزها إلى غيرها ، فالأمراء كانوا يطوقون بأطواق الذهب ، والبعض الآخر يركب فى المواكب بالقضب الفضية . أما طوائف الجند فتتكون من عدة عناصر ، كالمغاربة والأتراك والأكراد والغز والديلم والسودان . ولكل طائفة من هؤلاء قائد يشرف عليهم ويقوم

بترتيبهم فى مواقفهم . وينسب بعض هذه الطوائف إلى الخلفاء كالحافظية نسبة إلى الخليفة الحافظ الفاطمى والآمرية نسبة إلى الخليفة الآمر الفاطمى ، والبعض الآخر ينسب إلى الوزراء كالجيوشية نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى ، والأفضلية نسبة إلى الأفضل ابن بدر الجمالى (١) .

وفى عهد الأيوبيين اتخذ السلطان صلاح الدين الأيوبى جيشاً من الأكراد ظل عدة الدولة الأيوبية ، حتى جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فاقتنى عدداً كبيراً من المماليك كان معظمهم من الأتراك . ويرجع السبب فى ذلك إلى المنافسة التى قامت بينه وبين أخيه العادل الذى كان يرى أنه أحق منه بالملك ، فقبض عليه العادل وحبسه بقلعة الكرك ، فتفرق عنه جيشه من الأكراد ، ولم يبق معه غير مماليكه وطائفة من خواصه ، وأقاموا بالكرك حتى أطلق سراحه . فلما تولى نجم الدين أيوب سلطنة مصر بعد أخيه العادل ، حفظ للمماليك شجاعتهم وولاءهم حين تفرق عنه الأكراد ، فاستكثر من شرائهم ، وبنى لهم بجزيرة الروضة قلعة جهزها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية والأقوات ، وأنشأ بها جامعاً وستين برجاً » ولما تم بناء هذه القلعة انتقل إليها الملك الصالح بأسرته واتخذها داراً لملكه وأسكن فيها مماليكه البحرية .

وقد ظلت قلعة الروضة عامرة بالمماليك حتى زالت الدولة الأيوبية وولى المعز أيبك سلطنة مصر ، فأمر بهدمها ونقل جميع من بها إلى قلعة الجبل . ولما ولى الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك البحرية عرش مصر أعاد قلعة الروضة ، إلى ما كانت عليه فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وأسكن الأمراء فى أبراجها .

ويعد بيبرس أول من نظم جيوش المماليك تنظيما تاماً ، ولا عجب فقد كان قائداً ممتازاً ، ظهرت كفاءته فى موقعة المنصورة التى دارت بينه وبين الصليبيين وكان سلفه عز الدين أيبك الذى تزوج من شجر الدر رئيساً لقواد المماليك . وكان جيش المماليك يتألف من ثلاث طوائف : جنود نظامية تنفق عليهم الدولة ، ومماليك السلطان وتنفق عليهم الخاصة السلطانية ويؤلفون حرس السلطان ، وكانوا ذوى ثروة كبيرة ونفوذ عظيم بحيث كانوا يهددون السلطان بالخلع إذا شاءوا . أما الطائفة الثالثة فهم مماليك الأمراء وكانوا يحرسونهم . وقد حافظ المماليك على صبغتهم الحربية حتى بعد ضعف نفوذهم باستيلاء السلطان سليم الأول

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٢ .

على مصر سنة ١٥١٧ م . وكانوا ينظمون جيوشهم على هيئة مربعات ، يقف فرسانهم فى وسطها ثم يدور القتال بغير نظام ، لذلك لم يكن من الصعب إلحاق الهزيمة بهم على الرغم مما امتازوا به من الشجاعة والبسالة .

(هـ) الجيش فى المغرب :

عرفت قبيلة لمتونة المرابطية بشدة البأس وبراعة الرمى وقد أدخل يوسف بن تاشفين على الجيش المرابطى تعديلات جوهرية حتى أصبح من أعظم جيوش العالم عدداً وسلاحاً . وكان باعتباره أمير المسلمين هو القائد الأعلى للجيش . وعمل المرابطون على الاحتفاظ بخططهم الموروثة فى تنظيم المعارك (١) .

وقد اشتهر اللمتونيون بقوة البأس فى الحروب ، لا يفرون أمام العدو مهما تفوق عليهم فى العدد ، كما اشتهروا بركوب الخيل . لذلك كان معظم جيشهم من الفرسان . وكان أشجع جندهم من المشاة يقفون فى الصف الأول متقلدين الحراب الطويلة التى كانوا يغرسونها فى الأرض . وكانت قوة الفرسان لا تقل عن مائة ألف مقاتل من المدربين على الحروب والمزودين بأحسن السلاح ، ويتألف الجيش المرابطى من فرق يحمل كل منها علماً خاصاً عليه نقوش تميزها عن سائر فرق الجيش ، وعلى كل من هذه الفرق قائد خاص . ويسير الجند إلى حومة الوغى بين قرع الطبول وأصوات الأبواق ، وقد رتبت صفوفه حسب القبائل المغربية على اختلافها .

وكان ترتيب الجند المرابطى يقوم على نظام خماسى ، هو المقدمة ، والمؤخرة ، والميسرة ، والميمنة (ويؤلفان جناحى الجيش) ، والقلب : فالمقدمة تتألف من الجند المشاة ، والجناحان من وحدات الفرسان الخفيفة وحملة القسى وحملة النبال . ويتألف القلب من وحدات الفرسان الثقيلة ، وإليها يرجع الفضل غالباً فى إحراز النصر فى المعارك الحاسمة . أما القوى الخفيفة أو الاحتياطية فكان يقودها يوسف بن تاشفين باعتباره القائد الأعلى للجيش المرابطى . وتتألف من صفوة الجند وقوى الحرس على اختلافها (٢) .

وتنتمى كل فرقة من الجيش المرابطى إلى إقليم أو مدينة : فالأندلسيون مثلا يؤلفون قسما خاصا من الجيش ويحملون أعلام إشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة وغيرها .

---

(١) أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (القاهرة ١٩٥٨) ص ٤٧٨ .

(٢) أشباخ ص ٤٧٩ .

وتتألف قوة الحرس الخاص من أكثر الجند شجاعة وتمتاز بحسن القوام وقوة البدن والشجاعة والبراعة . وقد استعان يوسف بن تاشفين بتجار الرقيق فى إقليم غانة ، واختار أمهرهم ودربهم على جميع الفنون الحربية ، وزودهم بالسلاح والخيل ، وأنشأ منهم حرسه الخاص ، وكان يتألف من ألفى جندى .

وكان جند المرابطين يحاربون بنفس الروح الإسلامية التى تحلى بها الجند فى صدر الإسلام ، يحاربون للجهاد فى سبيل الله وليظفروا بإحدى الحسنيين ، النصر أو الاستشهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة الدين . وكان حب المرابطين للقتال فى سبيل الله يظهر ظهوراً واضحاً فى حروبهم ضد النصارى من الأسبان . ومن تقاليدهم الصلاة قبل بدء القتال وإذاعة أنباء النصر من أعلى المآذن وتلاوة البيانات الخاصة بالحروب من فوق المنابر فى كافة أرجاء الدولة المرابطية .

وكانت أسلحة الجيش المرابطى فى عهد يوسف بن تاشفين خفيفة تمثل البداوة ، وتتألف من درق اللمط وسيوف الهند ومزارق الزاف والقنا[1] الطوال . ولما طال مقام المرابطين فى الأندلس ، اقتبسوا كثيراً من أسلحة ملوك الطوائف والأسبان ، فاعتمدوا على الخيل مع اعتمادهم على الجمال التى يطلق عليها سفن الصحراء ، وتسلحوا بالزرد والدروع والسيوف . ويبدو أن أسلحة المسلمين فى الأندلس والمعارك التى خاضوها كانت فى مستهل الحكم المرابطى فى هذه البلاد على ماذكره أبو بكر الطرطوشى [2] حيث يقول :

« فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه فى بلادنا (الأندلس) ، وهو تدبير ففعله فى لقاء عدونا ، أن تقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة ، فيصفون صفوفهم ويركزون مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم فى الأرض ، وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون فى الأرض . وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه ، وخلفهم الرماة المختارون التى تمرق سهامهم من الدروع ، والخيل خلف الرماة . فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيئاتهم ، ولا يقوم رجل منهم على قدميه . فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب [3] .

---

(١) القنا جمع قناة وهى نوع من الرماح .

(٢) سراج الملوك ص ١٧٩ .

(٣) بفتح النون والشين مع التشديد .

والرجالة بالمزاريق ، وصدور الرماح تلقاهم ، فأخذوا يمنة ويسرة ، فتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله » .

ولننتقل الآن إلى الكلام على الجيش فى عهد الموحدين :

كان النظام الذى وضعه المهدى محمد بن تومرت نظاماً عسكرياً بحتاً ، وكان ذلك أمراً ضرورياً فى الجهاد ؛ فوضع لأتباعه نظاماً يسمى « الطبقات » تتميز بمقتضاه كل طبقة عن الأخرى فى وقت السلم والحرب . وفى مقدمة هذه الطبقات أهل العشرة وهم صحابة ابن تومرت ووزراؤه الذين منهم عبد المؤمن بن على الذى ولى الأمر بعد ابن تومرت . وكانت الطبقات كلها تشترك فى الحرب عند الضرورة . يدل على هذا موقعة البحيرة المشهورة التى هزم فيها المرابطون الموحدين هزيمة منكرة وفقد فيها ابن تومرت جل صحابته وتوفى بعدها بقليل . ولم يتخذ الجيش الموحدى طابعه الكامل إلا فى عهد عبد المؤمن ابن على الذى يعد من أعظم قواد العصور الوسطى (١) .

ولما آلت الخلافة إلى عبد المؤمن ألغى نظام الطبقات الذى لم يبق منه سوى مجلس الخمسين والسبعين . أما النظام الحربى فقد بقى على ما كان عليه فى عهد ابن تومرت .

وكان المرابطون — كما ذكرنا — يعتمدون على الفرسان . أما الموحدون فقد كانوا أهل جبال . لذلك كانوا يعتمدون فى حركاتهم الحربية على أنفسهم لا على دوابهم . وقد اقتبس عبد المؤمن تنظيم الصفوف من الطريقة الجرمانية ، ولعله أخذها عن جند الأسبان أو النرمانديين فى صقلية فى حرب تونس والمهدية . فقد جعل كل صف يتألف من عشرة من الجند ، ولكل وحدة قائدها الخاص . وكان عبد المؤمن يعنى عناية خاصة بتدريب الجند والقواد الذين كانوا يتميزون بخفة الحركة والبراعة الحربية . ويختار المشاة فى الجيش الموحدى من أبناء رجال القبائل الجبلية ولا سيما قبائل مصمودة ، الذين كانوا يحملون حراباً يبلغ طول كل منها اثنى عشر قدماً ، وتسمى « الأمراس » ، يقذفون بها فى وجوه الأعداء فى قوة وسرعة (٢) .

وكان الجيش الموحدى ينقسم بوجه عام قسمين : الأول هو الجيش النظامى ويختار من أبناء القبائل المغربية ، والثانى ويختار من رجال الحرس وكانوا من أهل الجنوب ،

---

(١) أشباخ : تاريخ المرابطين والموحدين ص ٣٠٥ .

(٢) الحلل الموشية ص ١١٥ — ١١٦ .

ويقوم أمير المؤمنين بنفسه باختيارهم من أشد الشبان قوة وأعظمهم إخلاصاً . ولا يشترط فيهم أن يكونوا من المغاربة ، بدليل وجود كثيرين من مسلمى الأندلس والصقالبة والسودانيين . وكان الجندى يتدرب تدريباً كافياً ويحصل على أكبر نصيب من المران الذى يعده للقتال ويكفل له البراعة فى وضع الخطط الحربية .

وكانت الدولة الموحدية تزود الجند النظاميين بالسلاح والغذاء والملابس ، وتقدم القبائل كل ما يطلبه أمير المؤمنين من شبان القبائل للاشتراك فى المعارك أو الجهاد ضد نصارى الأندلس . وكان كثير من المتطوعين يقدمون أنفسهم للجهاد فى سبيل الله ، بخلاف الجند الذين كانت القبائل المغربية تقدمهم للخدمة العسكرية الإجبارية . وكذلك كانت القبائل تسهم فى تقديم الذخائر والمؤن عند نشوب الحروب .

وإذا عزم أمير المؤمنين على خوض غمار الحرب ضد أعدائه ، عقد مجلساً حربياً يعرض أمام أعضائه العوامل التى دعت إلى القتال ، ويبحث مع قواد جيشه خطة المعركة وما يتصل بها من الهجوم أو الارتداد والخدع . وكانت الخدع البارعة من أهم فنون الحرب عند الموحدين ، كأن يتصنعوا الفرار أو يتظاهروا بالانهزام أو نحو ذلك . وكان للموحدين عيون يبثونها للوقوف على مواطن القوة أو الضعف عند العدو ، ثم يضعون خططهم على ضوء ما يتوافر لديهم من المعلومات الصحيحة . وإذا ما استقر الرأى على خوض غمار المعركة عرض أمير المؤمنين الجيش واشترك فى ترتيبه ، ثم ضرب قبته الحمراء ، يخفق عليها علمه الأبيض ، وارتدى ملابس القتال ، وامتطى فرسه المطهمة وقبض على سيفه المسلول بإحدى يديه ، وحمل المصحف الشريف فى يده الأخرى . وكان ذلك إيذاناً بنشوب المعركة التى تقوم عند الموحدين على فكرة التربيع (١) ، وتوضع كل فرقة من الجيش تحت إمرة قائد خاص تؤلف فرقته إحدى الزوايا الأربع التى يتألف منها المربع . وتتألف قوة الجيش الرئيسية من المشاة النظاميين الذين يقفون فى مقدمة الجيش ، ويتسلح جنده بحراب طويلة . ويلى هؤلاء صفوف من الجند تسلحوا بالسيوف وعليهم الدروع ، ثم يليهم حملة النبال والقسى .

وقد تفوق الموحدون على المرابطين فى فن الحصار ، حتى إن أكثر المدن منعة كانت تتحطم أمام سلاح الحصار الموحدى . وكان الموحدون يستعملون أسلحة متنوعة فى الحصار :

---

(١) الحلل الموشية ص ٩٨ .

فأحيانا يستعملون الحراقات ، أو يقومون بقذف كميات ضخمة من الأحجار ، أو يطلقون المياه الغزيرة فى قوة وعنف . وكان عبد المؤمن نفسه أستاذاً فى فن الحصار ففى حصار فاس التى قاومت أسوارها المنيعة مدة طويلة ، نرى عبد المؤمن يستعين بمياه النهر التى أمر بحفظها فى خزانات ضخمة ، ثم يطلقها دفعة واحدة على الأسوار . وكذلك نراه يحرق أبراج مدينة وهران بالنيران المحرقة المصحوبة بقذف الآلات ، ويفتح مدينة المهدية بحيلة مماثلة ، وذلك بتحطيم جدرانها القوية التى يسير عليها فارسان متحاذيان ويمثل هذه المهارة استولى عبد المؤمن على مدينة مراكش التى لم تقف أسوارها المنيعة عقبة فى سبيل فتحها . وعلى هذا النحو سقط فى أيدى الموحدين كثير من القلاع فى أضيق المفاوز الجبلية فى المغرب والأندلس ، وذلك بفضل آلات الحصار الضخمة التى كانت تقذف كتلا هائلة من الحجارة والكرات الملتهبة من الحديد .

(و) إمرة الأسطول :

كانت السفن الإسلامية تبنى فى معظم المرافىء البحرية السورية والمصرية ، كما كانت هذه السفن أضخم من السفن البيزنطية ، كما كثر عدد سفن البحرية التجارية ولقيت التجارة البحرية كل تشجيع . وكان بكل مرفأ منارة تدعى « الخشب » . ويظهر أن الأسطول لم يكن مؤلفاً من السفن التى ابتنتها الحكومة للمهام الحربية فحسب ، بل كان لزاماً على كل مقاطعة أو ثغر أن تقوم بتقديم عدد معين من السفن إذا طلب منها ، وذلك فى أيام الفاطميين فى مصر . وعلى هذا النحو سار صلاح الدين الأيوبى . ولكل سفينة حربية قائد (أو مقدم) يتولى القيادة فى سفينته ، ويقوم بتدريب الجند وتجهيز الحملات ، فى الوقت الذى نرى موظف آخرى يدعى « الرئيس » يتولى الإشراف على الملاحة ، ويدعى قائد الأسطول أمير الماء أو أمير البحر ومنه اشتق لفظ Amiral Admiral

ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية . ولكن العرب الذين تعلموا هذه الفنون من البيزنطيين أصبحوا أساتذة أوربا ، لما فطروا عليه من الشجاعة وحب المغامرة . يدلنا على ذلك أن بعض الإصطلاحات البحرية المستعملة فى أوربا لا تزال تحتفظ بعربيتها إلى اليوم . وكان أثر العرب فى شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص ، أبعد مدى من أثر غيرهم من شعوب أوربا . ويقول فون كريمر : ومما يوضح لنا أن الأسطول العربى القديم كان نموذجاً لأساطيل الأقطار المسيحية ، أن كثيراً من الاصطلاحات العربية البحرية لا تزال شائعة على ألسنة البحارة فى جنوبى أوربا . نذكر

من تلك الإصطلاحات كلمة Cable المأخوذة عن لفظ « حبل » العربى ، وكلمة Arsenal (وبالإيطالية Darsonal) المأخوذة عن لفظ « دار الصناعة » بالعربية ، وكذا كلمة Corvette المأخوذة عن لفظ « غراب » العربية .

(ز) البحرية فى مصر

اشتهرت مصر بصناعة المراكب النيلية التى كانت تسير فى النيل تحمل حاصلات البلاد بين الوجهين البحرى والقبلى ، كما اشتهرت أيضا بصناعة السفن التى تألف منها الأسطول المصرى . وكانت هذه السفن تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة الرومانية الشرقية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتنيس[1] والفرما[2] .

وقد اشتهر أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) بإنشاء المراكب الحربية ، وجعل لها حول جزيرة الروضة أحواضاً كانت تعرف باسم « صناعة الجزيرة » . وظلت صناعة السفن بجزيرة الروضة حتى نقلها محمد بن طغج الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) إلى فسطاط مصر فى المصنع المعروف باسم « صناعة السفن » ، فغدت المراكب الحربية والنيلية تصنع فى « صناعة مصر » تارة وفى « صناعة الجزيرة » تارة أخرى .

وقد اهتم الفاطميون بعد قيام دولتهم فى إفريقية بسيادة البحر الأبيض المتوسط ، لأنهم كانوا يقدرون أثر العامل البحرى فى قصة النضال بين الإسلام والمسيحية ، لذلك عنوا بإنشاء الموانى البحرية المحصنة ، فأسسوا مدينة المهدية واتخذوها قاعدة لأسطولهم فى البحر الأبيض المتوسط ، كما حرصوا على الاستيلاء على بعض القواعد البحرية الهامة لتثبيت سيادتهم على البحار ، فاستولوا على صقلية واتخذوا من موانيها قواعد يغيرون منها على موانى حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد أغار الفاطميون على بلاد الروم سنة ٣١٦ هـ ، وكانت هذه الحملة خاتمة لسلسلة من الحملات البحرية على هذه البلاد حيث أغارت على لمبارديا وقلورية (Calabria) واستولت على مدينة تارانت ، وحاصرت نابلى

---

(١) تنيس (بكسرتين وتشديد النون) : اسم مدينة قديمة كانت قائمة فى جزيرة صغيرة فى الجهة الشمالية الشرقية من بحيرة المنزلة .

(٢) الفرما (بالتحريك) من حصون مصر القديمة فى الجهة الشرقية من بحيرة المنزلة بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط .

ويممت شطر جنوة سنة ٣٢٣ هـ وأغارت على جزيرة سردانية ودمرت أساطيل الفرنجة ، ثم استولت على جزيرة قرسقة ، وغنم الفاطميون بذلك بلاداً ذات قيمة استراتيجية عظيمة . وبذلك رجحت كفتهم فى حوض البحر الأبيض المتوسط وعلا شأنهم فى العالم الإسلامى (١) .

ولم تقف عناية الفاطميين عند حد تكوين الجيش ، بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين بلاد الشام (وكانت تابعة لمصر) واستيلائهم على أمهات مدنها مثل أنطاكية وحلب ، أنهم فى حاجة ماسة إلى أسطول قوى ؛ فأنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين المراكب الحربية فى مدينة مصر وفى الإسكندرية ودمياط . وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة فى الموانىء الشامية مثل عكاء وصور وعسقلان .

وقد أنشأ المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بنى فيها ستمائة مركب ، وصفها المسبحى المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله . « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً » . ويحدثنا المقريزى (٢) أنه كان على رأس الأسطول المصرى فى ذلك العصر عشرة قواد ، عليهم رئيس هو «قائد القواد » ، ويسمى فى عهد الفاطميين « أمير الجيش» وفى عهد المماليك « ناظر الجيش » .

وكان هؤلاء القواد يتناولون مرتبات تبلغ عشرين ديناراً فى الشهر ، كما كان للأسطول ميزانية ضخمة من خراج الإقطاعات المحبوسة عليها . ولم يزل الأسطول المصرى محل عناية الفاطميين حتى قام النزاع بين الصليبيين ومصر ؛ فأمر شاور (٣) وزير الخليفة العاضد الفاطمى بإحراق الفسطاط ليحول دون وصول العدو ، كما أحرق مراكب الأسطول .

ولما زالت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ، وانتقلت السلطة إلى صلاح الدين الأيوبى ، اهتم بأمر الأسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وصدهم عن الموانى الإسلامية ، فخصص له ديواناً كبيراً عرف باسم « ديوان الأسطول » وأقر له ميزانية خاصة ، وعهد بهذا الديوان إلى أخيه العادل .

---

(١) ابن عذارى : المغرب ج ١ ص ١٩٨ .
Fournel : les Berbères. pp. 150 — 151

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ص ١٣٣ .

(٣) بفتح الواو هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار .

وكان معظم أفراد الشعب فى عهد الدولة الأيوبية يكرهون الحروب البحرية ، حتى كان السلاطين يضطرون لإرغام الناس على الاشتغال فى الأسطول إذا دعت الضرورة إلى تجهيزه . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أصبحت خدمة الأسطول فى عهد الدولة الأيوبية عاراً يسب به الرجل ، فإذا قيل لرجل : « يا أسطولى » غضب غضباً شديداً . ويظهر أن تلك الكراهية إنما جاءت على أثر تحول الحروب الصليبية إلى مصر ، فإذا قيل لرجل : يا أسطولى ، فكأنهم يعنون بذلك أنه مثل الصليبيين الذين حملتهم الأساطيل ، ويرمز بهذا إلى الشر ، وقد تغيرت نظرة الناس إلى رجال الأسطول واحترامهم لهم حتى أطلقوا عليهم « المجاهدين فى سبيل الله » و « الغزاة فى أعداء الله » .

(ح) البحرية فى المغرب :

كان المرابطين فى عهد يوسف بن تاشفين أسطول صغير يتألف من السفن التى تنقل الجند من المغرب إلى الأندلس . وكان عدد هذه السفن كبيراً بالنسبة إلى السفن الحربية . وقد ارتقى الأسطول المرابطى فى عهد على بن يوسف ، وأظهرت وحداته نشاطاً ملحوظاً فى البحر الأبيض المتوسط . يؤيد هذا ما ذكره الإدريسى [١] « من أن أحمد بن عمر كان والياً لأمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين على جملة من أسطوله » . ومن ثم نرى أن الأسطول المرابطى فى عهد على بن يوسف كان ضخما ، وأنه كان ينقسم إلى أقسام أو وحدات . وقد انتصر الأسطول المغربى على أسطول الفرنجة فى فتح بلنسية وجزر البليار [٢] . واشتهر من أمراء البحر فى عهد على بن يوسف : على ابن ميمون الذى كانت له جولات بحرية رائعة على سواحل الأندلس وإيطاليا وفرنسا .

ولما انتقل الحكم إلى الموحدين تفوقت قوتهم البحرية . وكانت سفنهم على نوعين : أحدهما يستعمل لنقل الجند والمؤن إلى السواحل الأندلسية كما كانت الحال فى عهد المرابطين ، وثانيهما يتألف من السفن الحربية . وقد ذكر المؤرخون أن أسطول الموحدين بلغ أربعمائة سفينة ألقت مراسيها على جميع سواحل بلاده [٣] .

---

(١) المغرب وأرض السودان ص ٥٤ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٥٧ .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٢٨ . ومن هذه السفن ١٢٠ سفينة بالمهدية (وكانت تسمى حلق المعمورة) ومائة سفينة بموانى سبتة وطنجة والريف ، ومائة سفينة بسواحل إفريقية (تونس الآن) ووهران ومرسى هنين ، و ٨٠ سفينة بعدوة الأندلس .

وقد تجلت عظمة الأسطول الموحدى منذ عهد عبد المؤمن بن على . ثم نهض نهضة مباركة فى عهد ابنه يوسف بن عبد المؤمن ، وظهرت قوته فى المعارك البحرية التى قامت بين الموحدين والقطلونيين على مقربة من طرطوشة فى بلاد الأندلس ، وفى موقعة المهدية التى كان يحتلها النورمانديون أصحاب صقلية ، وتغلب الموحدون بقيادة أمير البحر عبد الله ابن ميمون على أسطول النورمانديين الذين كان يتألف من مائتى سفينة على الرغم مما أظهروه من براعة فى القتال ، وأغرق وأحرق أكثر سفنهم .

وقد عنى عبد المؤمن بن على عناية خاصة بالجيش والأسطول ، وأنشأ المدارس الحربية لتخريج القواد الأكفاء والجند البواسل . ولكى يحافظ على الروح العسكرية جمع عبد المؤمن الشبان من القبائل المغربية ولا سيما من قبيلة مصمودة . وكانت المدارس الحربية تقوم إلى جانب الفنون الحربية بتدريس كتب المهدى محمد بن تومرت ونشر تعاليمه . ويحفظ الطلبة وصايا المهدى عن ظهر قلب .

ومن أهم مناهج الدراسة التدريب على استعمال الأسلحة على اختلافها ، وركوب الخيل والسباحة وأساليب الحصار براً وبحراً . وعلى مقربة من مدينة مراكش أنشأ الموحدون بركة « وضعت فيها القوارب والسفن الحربية الصغيرة المسماة سفن التدريب » حيث كان الطلاب يتدربون على التجديف وقيادة السفن وكل ما يتصل بالفنون الحربية .

وكان التعليم فى هذه المدارس على نفقة الدولة الموحدية ، عدا ما كان يمنحه الطلاب من الخيل والأسلحة . وفى هذه المدارس تخرج كثير من القواد وكبار الضباط وحكام القلاع [١] .

ولاشك أن هذه المدارس العسكرية والأساطيل البحرية والجيوش الجرارة كانت تعتمد على دعامة اقتصادية متينة ، بدليل ما ذكره عبد الواحد المراكشى [٢] أن خراج المغرب فى عهد الموحدين بلغ مايقرب من مائة وخمسين بغلا من إفريقية وحدها عدا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها .

---

(١) أشباح : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ص ٤٨٩ — ٤٩١ .

(٢) المعجب ص ١٥٥ .

٥ — النظام القضائي

(أ) القضاء فى العصر العباسى الثانى :

تطور النظام القضائى فى العصر العباسى تطوراً كبيراً ؛ فقد ضعفت روح الاجتهاد فى الأحكام لظهور المذاهب الأربعة وأصبح القاضى ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب . فكان القاضى فى العراق يحكم وفق أحكام مذهب أبى حنيفة ، وفى الشام والمغرب وفق مذهب مالك ، وفى مصر وفق المذهب الشافعى . وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع فى بلد من البلاد أناب القاضى عنه قاضياً يأخذ بمبادىء مذهب المتخاصمين.

كذلك تأثر القضاء فى هذا العصر بالسياسة ، لأن الخلفاء العباسيين عملوا على أن يكسبوا أعمالهم صبغة شرعية ، وحملوا القضاة على السير وفق رغباتهم فى الحكم ، حتى لقد امتنع كثير من الفقهاء عن تولى القضاء ، خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية ولا يتفق مع ذممهم وضمائرهم . وخير مثل لذلك الإمام أبو حنيفة النعمان الذى اعتذر عن تولى منصب القضاء فى عهد أبى جعفر المنصور .

وقد اتخذ العباسيون نظام « قاضى القضاة » ، وهو بمثابة وزير العدل اليوم . وكان يقيم فى حاضرة الدولة ، ويولى من قبله قضاة ينوبون عنه فى الأقاليم الإسلامية . وأول من لقب بهذا اللقب القاضى أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم) صاحب كتاب (الخراج » فى عهد هارون الرشيد . وكان قاضى القضاة فى الأندلس يسمى « قاضى الجماعة » ويقوم بتولية القضاة على الأقاليم .

وفى هذا العصر اتسعت سلطة القاضى ، فبعد أن كان ينظر فى القضايا المدنية والجنائية ، أصبح يفصل فى الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأوصياء . وقد تضاف إليه الشرطة والمظالم والقصص والحسبة ودار الضرب وبيت المال والإشراف على موارد الأحباس وسجلات الفتاوى الفقهية [1] وعلى الصلاة فى أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذى بناه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء ، والدعاء فى صلاة الإستسقاء [2] .

---

(١) أنشىء هذا السجل فى سنة ٢٩١ هـ : وكان قاضى القضاة يستفتى الفقهاء فى بعض القضايا المعروضة عليه . وجعل من هذه القضايا سجلا عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس .

(٢) كان قاضى القضاة يشرف على الصلاة أيضاً . ولذلك كان يسمى « صاحب الصلاة » . واستمرت الحال على ذلك حتى أفرد عبد الرحمن الناصر الأموى بالأندلس للصلاة شخصاً معيناً ولقضاء القضاء شخصاً آخر .

وقد أصبح فى كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب المختلفة وينظر كل منهم فى النزاع الذى يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه .

وقد عرف بعض قضاة هذا العصر بالعدل والنزاهة والزهد وتحرى الدقة فى الحكم ، ومن أحسن الأمثلة التى تؤيد هذا الرأى : أبوبكر محمد بن المظفر الشامى . فقد أثر عنه أنه لم يأخذ أجراً فى أثناء تقلده منصب القضاء ، كما عرف بالعدل ولم يحاب أحداً من المتقاضين فقد ذكر ابن الأثير[1] عند كلامه على حوادث سنة ٤٨٨ هـ (التى مات فيها هذا القاضى) أن أحد الأتراك شكا إليه رجلا فقال له القاضى : ألك بينة ؟ قال : نعم ! فلان والمشطب الفقيه الفرغانى ، فقال : لا أقبل شهادة المشطب لأنه يلبس الحرير ، فقال التركى : فالسلطان ونظام الملك يلبسان الحرير ، فقال : لو شهدوا عندى على باقة بقل لا أقبل شهادتهما .

وكان لقاضى القضاة ببغداد ديوان يعرف بديوان قاضى القضاة ، ومن أشهر موظفى هذا الديوان : الكاتب والحاجب وعارض الأحكام وخازن ديوان الحكم وأعوانه . وقد اقتضى تطور نظام القضاء فى هذا العصر التحرى عن الشهود . وكان القاضى يرتدى السواد شعار العباسيين ويغطى رأسه بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة[2] .

(ب) القضاء فى عهد الفاطميين والأيوبيين :

وقد ضعف نفوذ القاضى السنى بعد الفتح الفاطمى وألزم بأن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الشيعى ، بل أشرك معه قاض مغربى للنظر فى المظالم الخاصة بالمغاربة . وما لبثت سلطته أن قويت حتى أصبح ينظر أيضاً فى القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين . ثم زاد نفوذه حتى آل إليه النظر فى قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضى مصر والإسكندرية ، ثم استقل الشيعيون بالقضاء .

وكان منصب القضاء يعهد به فى العصر الفاطمى لبعض السنيين أحياناً ؛ إذ أن الفاطميين فى أواخر عهدهم لم يسيروا دائماً على قاعدة إسناد القضاء إلى المتشيعين خاصة . وكان سجل القاضى الذى كان يقرأ فى القصر وعلى منبر جامع عمرو يتضمن فقرة شرط فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقاً لقانون الشيعة ، وأن يكون معه فى مجلس القضاء أربعة من الفقهاء المتشيعين ، حتى لا يصدر الحكم مخالفاً للمذهب الشيعى .

---

(١) الكامل فى التاريخ ج ١٠ ص ٩٤ .

(٢) الكندى : كتاب القضاة ص ٣٧٨ .

على أن أبا على بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) الذى كان يدين بمذهب الإمامية الإثنا عشرية خرج على هذه القاعدة ، فعين فى سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة : اثنين من الشيعة ، واثنين من السنيين . وكان القاضيان الشيعيان أحدهما إمامياً والآخر إسماعيلياً . أما القاضيان السنيان فكان أحدهما شافعياً والآخر مالكياً . وقد أعطى هذا الوزير لكل من هؤلاء القضاة الأربعة السلطة المطلقة فى إصدار أحكامه وفق مذهبه . ولما قتل هذا الوزير عادت السلطة إلى الإسماعيلية من جديد وظلت على ذلك إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبى ، فعمل فى سنة ٥٦٤ هـ على القضاء على الخلافة الفاطمية ، وأسس مدرستين لتعليم الفقه ، إحداهما على مذهب الإمام الشافعى والأخرى على مذهب الإمام مالك ، ثم صرف جميع القضاة الشيعيين وعين بدلهم قضاة من السنيين الشافعية إذ كان صلاح الدين شافعى المذهب .

وبذلك أخذ المصريون يرجعون شيئاً فشيئاً إلى المذهب السنى الذى كانت له السيادة قبل الفاطميين ، وأخذ المذهب الشيعى بنوعية الإسماعيلى والإمامى فى الضعف إلى أن قضى عليه نهائياً (١) .

قانون الوراثة فى عهد الفاطميين :

ويجيز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل مايترك أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت . وهذا يخالف أحكام مذهب السنة التى تقضى بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة . ولقد تمسك القاضى الشيعى بتطبيق قانون الشيعة على أحكامه ، وغدا فى استطاعته أن ينقض مايصدره أبو الطاهر من أحكام .

وقد عدلت القاعدة التى تجيز للبنت بمقتضى قانون الشعة أن تستولى على جميع الثروة التى يخلفها أبواها إذا انفردت بالميراث إذا لم يكن هناك وارث سواها . والسر فى أن الشيعة يورثون البنت كل المال ويجعلونها حاجبة للأعمام أمران :

الأول أن أبا بكر أخذ فدك (قرية بخيبر) من يد فاطمة ، وكان رسول الله قد أعطاها تلك الضيعة للارتفاق بها ، فادعت أنها ترث ذلك ؛ فاحتج أبوبكر بأن الأنبياء لايورثون ، واستدل بحديث سمعه من رسول الله فى ذلك .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (طبعة القاهرة) ج ١ ص ١٩١ .

والثانى أن بنى العباس يدعون أيلولة ميراث رسول الله من إمامة المسلمين لهم ، لأنه عم رسول الله والوارث له يوم وفاته ، لأن ابنته لاتحرز كل المال ، وعلى أنزل من العباس فقالوا هم إنها تحرز كل الميراث ليمنعوا بنى العباس من دعواهم . وإلى ذلك يشير شاعر بنى العباس بقوله :

أنى[1] يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنـــات وراثة الأعمام ؟

وكان الداعى لحضور (أبى بكر) الطرطوشى أمر المواريث ما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام ، وهو ربع العشر ، وتوريث البنت نصف المال ، وكانوا يورثونها جميع المال مع وجود ذوى العصبية ، كما هو مذهب آل البيت . فاعتذر المأمون (البطائحى) بأن هذه قضية لم يقل بها (أى لم يؤخذ بها من قبل) ، وأن أمير الجيوش بدراً هو الذى ابتكرها . . . واستمرت المناقشة إلى أن قال المأمون للفقيه : أنا لا أرى مخالفتك . . . ، وكتب توقيع شملته العلامة الآمرية والمأمونية ، وهذا نصه بعد البسملة :

١ — يخلص لحرم ذوى الشيع الوارثات جميع موروثهم ، وهو المنهاج القويم لقوله : تعالى (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[2]

٢ — إن كل دارج من الناس (أى كل إنسان) على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم ، يحمل مايترك من موجوده على حكم مذهبه فى حياته ، والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته . . . ويحمل من سواهم على مذهب مخلفيهم ، ويشترك معهم بيت مال المسلمين فى موجودهم ، ويحمل إليه جزء من أموالهم التى أحلها الله لمن بعدهم[3] .

٣ — إن أخذ ربع العشر من أموال الأيتام يعود إلى ما كانت عليه الحال .

٤ — أن يعوض أمناء الحكم عن ربع العشر من مال المواريث الحشرية[4] .

٥ — من لاوارث له ، حاضراً أو غائباً ، فوجوده لبيت المال ، إلا مايستحقه زوج أو دَيْن عليه .

---

(١) أنى بمعنى كيف الاستفهامية .

(٢) سورة الأنفال ٨ : ٧٦ .

(٣) يعنى بذلك أن البنت التى تعيش مع أبيها بمفردها تتمتع بجميع ماله على ذلك جميع المذهب ، وليس للدولة أن تتدخل فى ذلك طالما يحمل إليها الضريبة التى ينص عليها الشرع .

(٤) يعنى الذين ليسوا من ورثة الصلب كالابن وابن الابن .

٦ — وإن كان المتوفى وارث غائب ، فليحتفظ الحكام والمستخدمون بتركته . وإذا حضر وأثبت استحقاقه فى مجلس الحكم بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتياب ، فليخرج الأمر بتسليمه إليه .

٧ — يعتمد القاضى ذلك بالباب (يعنى مجلس القاضى) ، ويصدر الإعلام به إلى سائر النواب . وبعد تلاوة هذا التوقيع بالمسجدين الجامعين[١] ، بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رءوس الأشهاد ، ترسل نسخ منه إلى جميع النواب عنه فى البلاد ؛ وليخلد (يسجل) فى مجلس الحكم بعد ثبوته فى ديوان المجلس والخالص الآمرى .

للبلتين بقيتا من ذى القعدة سنة ٥١٦ هـ[٢] »

ومما هو جدير بالذكر أن تغيير قانون الوراثة أوائل القرن الرابع قد حدث فى عهد العباسيين قبل هذا التغيير الذى حدث فى عهد الفاطميين ، وذلك أنه فى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) مات ببغداد رجل من أصحاب اليسار يدعى أبا عيسى أحمد ، ولم يخلف ولداً ، فآلت ثروته إلى بيت المال بمقتضى قانون الوراثة المعمول به فى ذلك الحين[٣] .

حدث ذلك فى خلافة المعتمد العباسى ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ (٨٦٩ — ٨٩٢ م) ، فأمر خلفه المعتضد ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ (٨٩٢ — ٩٠٢ م) بإرجاع القانون إلى ما كان عليه من قبل . وظلت الحال على ذلك إلى عهد المكتفى ٢٨٩ — ٢٩٥ هـ (٩٠٢ — ٩٠٨ م)[٤] ، فصدرت الأحكام فى الميراث على حسب التعديل الذى أدخل على هذا القانون من قبل[٥] . وقد أنكر الوزير على بن محمد بن الفرات هذا التعديل ، وعده مخالفاً لما جرت به أحكام قانون مذهب السنة ، فاستطاع أن يحصل على موافقة الخليفة بتعديل قانون الوراثة . وصدر مرسوم مذيل بإمضاء الخليفة المقتدر يقضى[٦] :

١ — بأن يصرف القائمون بأعمال المواريث فى سائر النواحى ويبطل أمرهم ، ويرد النظر فى أعمال المواريث إلى الحكام على ما كان يجرى عليه قبل أيام المعتمد على الله .

---

(١) جامع عمرو والجامع الأزهر .
(٢) المقفى الكبير للمقريزى ، ليدن ، مخطوط ١٦٤٧ ، المجلد الثالث ، ورقة ١١٩٥ — ١٩٧ب .
(٣) هلال الصابىء ، تاريخ الوزراء ص ٢٤٦ .
(٤) هلال الصابىء ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .
(٥) المصدر نفسه ص ٢٤٨ .
(٦) المصدر نفسه ص ٢٤٨ .

٢ — وبأن يرد على ذوى الأرحام ما أوجب الله عز وجل ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، ومن اتبعهم من أئمة الهدى .

٣ — وبأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته .

٤ — وأن يعمل على إذاعة ما أمر ، وإظهاره وقراءته على الناس فى المسجدين الجامعين بمدينة السلام (بغداد) ، ليكون مشهوراً متعارفاً ، والخبر به إلى الأدانى والأقاصى واصلا[١] .

(ح) القضاء فى الأندلس :

كان للقضاء مركز ممتاز فى الأندلس كما كان فى غيرها من البلاد الإسلامية . وكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء ، وذلك لتعلق هذه الوظيفة بالدين . وكان قاضى القضاة يسمى « قاضى الجماعة » أيضاً لأنه يقيم فى حاضرة الدولة . ويشترط فى القاضى أن يكون متبحراً فى الفقه مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة ، وأن يكون عربياً خالصاً . وطالما تقلد القضاء الموالى والمولدون والبربر . وأحسن مثل لذلك يحيى بن يحيى الليثى قاضى قضاة الأندلس ، وكان من أصل بربرى . ومن قبيلة مصمودة ، وكان قاضى الجماعة يختار غالباً من قضاة الأقاليم الأندلسية الذين تقلدوا بعض مناصب الدولة الهامة[٢] .

وكان قاضى الجماعة يقيم بقرطبة حاضرة الدولة الأموية فى الأندلس ، ويعين من قبل الأمير أو الخليفة ، وينوب عنه فى الأقاليم قضاة يسمى كل منهم مسدد خاص .

وكان القرآن والسنة مصدر التشريع فى الأندلس ، ويسير القضاة فى الأندلس والمغرب حتى اليوم ، على وفق مذهب الإمام مالك بن أنس ، ويقوم بتنفيذ هذه الأحكام الحكام والولاة .

ومن اختصاصات القاضى أيضاً الإشراف على موارد الأحباس ، وسجلات الفتاوى الفقهية[٣] ، والإشراف على الصلاة فى أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة ، أو بمسجد الزهراء الذى بناه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء ، والدعاء فى صلاة

---

(١) المصدر نفسه ٢٤٨ س — ٢٥٣ ، انظر كتابى تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣١٦ — ٣١٨

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(٣) أنشىء هذا السجل فى سنة ٢٩١ هـ . وكان قاضى القضاة يستفتى الفقهاء فى بعض القضايا المعروضة عليه ، واتخذ من هذه القضايا سجلا عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس .

الاستسقاء . وكان قاضى القضاة يسمى « صاحب الصلاة » ، حتى أفرد عبد الرحمن الناصر شخصاً معيناً للصلاة ولقضاة القضاء شخصاً آخر .

وكان القضاة فى الأندلس يعرفون الأسبانية القديمة (Romance) ، ويناقشون المتقاضين بها فى مجالس الحكم . وكان المسلمون يطلقون على هذ اللغة : اللغة الأعجمية أو العجمية أو اللاطينية (١) .

(٤) المظالم :

وكانت محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف العليا فى عصرنا ، تعرض عليها القضايا إذا عجز القاضى عن تنفيذ حكمه فى قضية رجل من علية القوم ، أو إذا لجأ إليها المتقاضى إذا اعتقد أن القاضى لم يحكم بالعدل . وكان الغرض الأساسى من إنشاء محكمة المظالم وقف تعدى ذوى الجاه والحسب . ولهذا كانت المظالم تسند إلى رجل جليل القدر كثير الورع يعرف باسم قاضى المظالم .

وكان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم . ويسمى رئيس هذا الديوان « صاحب المظالم » ، وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضى .

وكانت محكمة المظالم تنعقد تحت رياسة الخليفة أحياناً أو الوالى أو من ينوب عن أحدهما ، ويعين صاحب المظالم يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى . أما إذا انفرد بالمظالم نظر فيها طول أيام الأسبوع .

وكانت محكمة المظالم تنعقد فى المسجد ، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم وهم : الحماة والأعوان ، والحكام ويحيطون بالأحكام ويردون الحقوق إلى أصحابها ، والفقهاء الذين يرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الكتاب يقومون بتدوين أقوال الخصوم ، والشهود ويثبتون ما يعرفونه عن الخصوم ويشهدون على أن ما أصدره القاضى لاينافى العدل ، ومن اختصاصات قاضى المظالم :

١ — النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف ، وعمال الخراج إذا اشتطوا فى جمع الضرائب ، وكتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

---

(١) راجع ما ذكره أبو عبد الله محمد بن حارث الخشنى القروى فى كتاب القضاة بقرطبة الذى نشره ريبرا Julian Ribera (مدريد ١٩٤٤) ص ٩٦ ، ١٣٨ .

٢ — النظر فى تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها إليهم .
٣ — تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام .
٤ — مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد(١) .

ومن هنا نقف على مبلغ أهمية هذه الوظيفة وما كان لصاحبها من القوة ونفاذ الكلمة ، كما نقف أيضاً على ما وصل إليه النظام القضائى من الدقة والإتقان .

ويظهر أن نظام النظر فى المظالم قد ارتقى فى العصر العباسى الثانى . فقد ذكر ابن الأثير(٢) أن بعض سلاطين السلاجقة اشتهروا بالعدل واستمعوا إلى ظلامات الناس وعملوا على رفع الظلم عنهم . فقد قيل إن السلطان محمد بن ملكشاه اشترى مماليك من بعض التجار وأحالهم على عامل خوزستان ليتسلموا منه الثمن ؛ فأعطاهم بعضه وماطل فى تسليمهم البعض الآخر . وقد حضر هؤلاء التجار مجلس الحكم ، وكان ينعقد عادة برياسة السلطان . فلما رآهم أمر حاجبه بأن يسألهم عن سبب حضورهم مجلس الحكم فقالوا : لنا خصم يحضر معنا مجلس الحكم ، فقال الحاجب : من هو ؟ قالوا : السلطان ، وشرحوا له قضيتهم . فبعث السلطان فى طلب العامل وأمره بتسليم المال المستحق لهم وتشدد فى عقوبته ليكون ذلك مثلا لغيره . وكان هذا السلطان بعد ذلك يقول : لقد ندمت ندما عظيما حيث لم أحضر معهم مجلس الحكم فيقتدى بى غيرى ولا يمتنع أحد عن الحضور فيه وأداء الحق لصاحبه . وكان من أثر ذلك أن كف العمال عن الظلم وأخذ أموال الناس بغير حق .

(هـ) الحسبة :

وكانت سلطة القاضى — على ماهو معروف عن القضاء اليوم — موزعة بينه وبين المحتسب وقاضى المظالم . فوظيفة القاضى فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحيانا مما يستدعى الفصل فيها إلى السرعة ، ووظيفة قاضى المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب .

وكان القضاء والحسبة يسندان فى بعض الأحيان إلى رجل واحد ، مع ما بين العملين من التباين : فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، أما عمل المحتسب فمبنى على الشدة والسرعة فى الفصل (٣) .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧٣ — ٨١ .
(٢) الكامل ج ١٠ ص ١٩٨ .
(٣) الماوردى ص ٦١ — ٧٢ .

وكان المحتسب ينظر فى مراعاة أحكام الشرع ، ويشرف على نظام الأسواق ويحول دون بروز الحوانيت حتى لايعوق ذلك نظام المرور ؛ كما كان يستوفى الديون ، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنبا للتطفيف . وكان للموازين والمكاييل دار خاصة بها ؛ فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وسنجهم ومكاييلهم فيعايرها . فإن وجد فيها خللا صادرها ، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمره بإصلاحها . وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية[١].

وكان المحتسب يعاقب كل من يعبث بالشريعة أو يرفع الأسعار ، ويمنع التعدى على حدود الجيران ، وارتفاع مبانى أهل الذمة على مبانى المسلمين .

وقد ارتقى نظام الحسبة فى عهد الفاطميين ، فكان للمحتسب نواب يطوفون فى الأسواق ، فيفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهاة ، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع ، ويشرفون على السقايين لضمان تغطيتهم القرب ويرقبون لبسهم السراويل حتى لايخرجوا على الآداب العامة .

كما كان المحتسب يجلس للفصل بين الناس فى جامعى عمرو والأزهر . واتسعت سلطته حتى أصبح من واجب رجال الشرطة أن يقوموا بتلبية أوامره وينفذوا أحكامه . وكان يخلع عليه ويقرأ سجله بمدينتى مصر والقاهرة على المنبر .

وقد عرض الشَّيزرى[٢] للشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يتولى الحسبة ، وأضاف إلى ماذكرناه أن المحتسب كان يشرف على السلع المعروضة فى الأسواق ، فيشرف على بائعى الفراء وصانعى الحلوى ، وعلى شوائى اللحوم ، وعلى الرواسين أى بائعى الروس والأكارع ، وعلى قلائى السمك والهرائسيين أى صانعى الهريسة ، وهى طعام من خليط القمح واللحم . كما كان يشرف على الشرابيين أى صناع الأشربة ، وهى الأدوية السائلة ، وعلى البزازين أى بائعى الثياب ، وعلى الحاكة وهم الذين ينسجون الغزل قماشاً ، وعلى الخياطين لمراعاة جودة التفصيل ، وعلى الصباغين والدلالين والمنادين ، وعلى الصاغة ، والصيارف ، وعلى الحمامات وقومتها[٣] .

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

(٢) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، نشره الدكتور السيد الباز العرينى (القاهرة ١٩٤٦) .

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٢٢ — ٣٢٥ .

وقد تكلم الماوردى فى كتاب الأحكام السلطانية والمقريزى فى كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ، على ولاية الحسبة فى المشرق . وهى لاتختلف عنها فى المغرب والأندلس ، إلا أن ولاية الحسبة فيهما كانت أكثر تحديداً منها فى المشرق .

كما كانت الحسبة تقوم على مانقضى به الضرورة فى المعاملات هناك ، بحيث يمكن أن يقال إن نظام الحسبة فى المغرب والأندلس قد استمر طوال العصور الوسطى . وأحسن دليل على أهمية الحسبة أن ملوك الأسبان المسيحيين كانوا كلما استردوا من المسلمين إقليما ، أقروا المحتسب فى عمله ، وأصبحوا يطلقون عليه Almotacen ، وهو الوالى الذى يعهد إليه بالإشراف على الموازين والمكاييل . أما فى المغرب فليس أدل على أهمية الحسبة من استمرارها فى المدن الغربية حتى اليوم[1] .

---

(١) راجع ما ذكره ليفى بروفنسال فى
Hisstoire de l'Espagne Musulmane, Tome iii (L' Espagne du califat de Cordon, pp. 148—150. L' Espagne Musulmane au Xe Siècle, pp. 181—185.

الباب التاسع

الحالة الاقتصادية

١ — الزراعة

ذكرنا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٢٣٠) أن العباسيين عنوا بالزراعة وفلاحة البساتين التى قامت على دراسة عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية ، وأنهم توسعوا فى البحث النظرى ، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات ، كما عملوا على تنظيم الرى فى مصر والعراق واليمن وشمال شرقى فارس وبلاد ماوراء النهر ، وعنوا بشق الترع وصيانة السدود[١] ، وجعلوا لماء الرى ديوانا أطلقوا عليه «ديوان الماء»[٢] . كما عنوا بحراثة الأرض وتسميدها واستخدموا لذلك الأبقار واهتموا بتربية الحيوانات ، وخاصة البقر وبتربية الجاموس الذى جلبوه من الهند وتفريخ الدجاج وتربيته وحفظ الحمام فى أبراج لوقايته من الأفاعى[٣].

وكانت الحنطة تزرع بكثرة فى كافة أرجاء الدولة الإسلامية حيث يتوافر الماء كالعراق وخوزستان ومصر والمغرب والأندلس . وكانت زراعة الذرة تكثر فى جنوبى البلاد الإسلامية كجنوبى بلاد العرب وكرمان والنوبة .

ومن الحاصلات الزراعية النارنج والأترج الذى نقل من الهند منذ القرن الرابع الهجرى، فزرع فى عمان والبصرة والعراق والشام وطرسوس[٤] ، وكثرت زراعة قصب السكر فى كثير من البلاد الإسلامية ، وخاصة فى بعض بلاد الأفغان وفى بلاد الشام ومصر وخوزستان والعراق والمغرب والأندلس .

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .
(٢) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٤٥ .
(٣) متز : الحضارة الإسلامية ترجمة ج ٢ ص ٢٨١ — ٢٩٤ .
(٤) مسكويه ج ٢ ص ١٩٣ .

واشتهرت مصر بزراعة الليمون ، ومنه نوع يقال له التفاحى يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذة طعمه[١] . وقد ذكر الحسن الوزان[٢] أن سوق الزياتين بمدينة فاس كان يزخر بالزبد المملح والعسل والجبن الطازج والزيتون والليمون والجزر والكرنب ، وأن حوانيت هذا السوق كانت تزدان بزهرياته الزاهية التى كانت أثمانها تبلغ أضعاف أثمان السلع التى تباع فيها ، وفى هذه السوق تباع خوابى (مفردها خابية وهى الجرة الكبيرة) الزبد والعسل والزيت بالمزاد العلنى ، وينادى عليها أشخاص مكلفون بوزن الزيت عند بيعه بالجملة ، ويسع كل من هذه الخوابى نحو ستين كيلوا جراماً . أما سوق الزهور فإن الإنسان إذا شاهد هذه الزهور وتنوعها يعتقد أنه يشاهد أحسن البساتين وأجمل زهور الدنيا ، إذ يشاهد لوحة تضم أحسن وأزهى الألوان المتنوعة . ومن محاصيل المغرب القمح والذرة والشعير والجزر واللفت والفول الطازج .

وقد اشتهرت المغرب والأندلس بزراعة قصب السكر وصناعته . وكثرت زراعة القصب فى عهد السعديين كثرة عظيمة حتى إن السلطان أحمد المنصور الذهبى جلب الأعمدة الرخامية التى استعملها فى بناء قصره البديع بمدينة مراكش من البلدان الأخرى مقابل كميات كبيرة من السكر التى اشتهرت المغرب بصناعته . وكذلك اشتهرت المغرب والأندلس بزراعة الزيتون واستخراج الزيت منه ، كما اشتهرت باستخراج العقاقير (الأدوية) من النباتات المختلفة ، كما اشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والذرة والكتان والقطن والتوت لتربية دود القز ، وانتفع الأمويون بمياه الأنهار الكبيرة كنهر تاجة والوادى الكبير والوادى اليانع وإبرو (بسكون الباء) ، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول ، ووضعوا تقويماً للزراعة عرف بالتقويم القرطبى ، الذى أصبح دليلا ودستوراً لزراعة النباتات فى مواعيدها وأخذه عنهم غيرهم من الأمم .

وقد أسس محمد بن على بمدينة غرناطة حديقة للنباتات أبيح دخولها للأطباء لدراسة النباتات النادرة . وقام ابن البيطار النباتى المشهور الذى عاش فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) بغرس نباتات الشام وآسيا الصغرى وفارس ومصر ، ثم ضمه الملك الكامل الأيوبى إلى حاشيته ، وأصبح رئيس النباتيين ، وألف كتابه المشهور فى النباتات ومات سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) .

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) Leon I^e African, tome I. p. 195.

وقد حاول مسلموا المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التى لا تنمو إلا فى البلاد الحارة ، كالتوابل والقطن وقصب السكر والتوت . على أن زراعة أشجار التوابل لم يقدر لها النجاح[١] . وقد وجد المسلمون فى صقلية أرضاً مثمرة تمدهم بالتفاح والبندق والجوز والقسطل ، ويكثر بها الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها .

وكانت محاصيل مصر فى العصر الفاطمى — ولاتزال — تنقسم إلى محاصيل شتوية ومحاصيل صيفية ، وقد أورد ابن مماتى[٢] أسماء المحاصيل الشتوية وهى : القمح والشعير والفول والحمص والجلبان والعدس والكتان والقرط (بضم القاف وسكون الراء هو البرسيم) والبصل والثوم والترمس والكمون والكراويا والسلجم (نوع من اللفت) والبطيخ الأصفر والأخضر واللوبيا والسمسم والقطن وقصب السكر والقلقاس والباذنجان والسمسم النيلى والنيلة والفجل واللفت والخس والكرمب .

كما اهتم الفاطميون بزراعة الفاكهة على اختلاف أنواعها ، حتى كانت بساتين مصر تزخر بأشجار الكرم والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ والمشمش والموز والنخيل . كما عنى الفاطميون بزراعة الورود والياسمين والمرسين (بفتح الميم وسكون الراء) والريحان والخيار شنبر (بضم الشين والباء وسكون الميم[٣]) .

ولما كان الإنتاج الزراعى يتوقف على وفرة ماء الرى والعناية بخصب الأرض وجودتها ، كان طبيعياً أن يعنى الفاطميون عناية كبيرة بنظم الرى ، من صيانة الترع والمحافظة على الجسور . وهذه الجسور على نوعين : « جسور سلطانية » تقيمها الدولة ، و « جسور بلدية » يقيمها الفلاحون[٤] .

أما الجسور السلطانية فقد كانت الدولة تقوم بإنشائها لتنظيم الانتفاع بماء النيل . وتفرض الدولة الفاطمية الضرائب على الأراضى الزراعية لصيانة الجسور والمحافظة عليها .

أما الجسور البلدية فتقام فى القرية أو فى الناحية أو فى الكورة . ويتولى إقامتها أصحاب الإقطاع والفلاحون من أهل القرى المنتفعين بهذه الجسور . وتوزع نفقات إقامة هذه

---

(١) Heyd, tome I, p. 50. .

(٢) كتاب قوانين الدواوين ص ٢٥٨ — ٢٧٠

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(٤) المقريزى : خطط جـ ١ ص ١٠١ .

الجسور على الأفراد توزيعاً عادلا ، ويلتزم صاحب كل دار برعاية قسم معين من الجسر[١] .

وكانت الأراضى المصرية تشقها شبكة من الخلجان والأبحر[٢] والترع . وقد بلغ عدد خلجان مصر فى ذلك العصر ثمانية ، وعدد الأبحر خمسة وعشرين؛ أما عدد الترع فقد بلغ فى الوجهين البحرى والقبلى مائة وسبع عشرة[٣] .

وقد استتبع اهتمام الفاطميين بالترع والجسور اهتمامهم بمقاييس النيل ، فهى ضرورية لمعرفة الرخاء أو الكساد . إذ أنه كلما ارتفع مستوى النيل استبشر المصريون بوفرة المحصول وضمنت الدولة زيادة الخراج بنوعيه . فإذا بلغ مستوى الماء ستة عشر ذراعاً كان فى ذلك تمام الخراج وخصب البلاد . أما إذا بلغ ثمانية عشر ذراعاً كان ذلك نذيراً بحلول الفيضان ؛ وإذا نقص الماء عن أربعة عشر ذراعاً ، كان ذلك نذيراً بحلول القحط وما يصحبه من أزمات اقتصادية ، كما حدث فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى[٤] .

ولما فتح العرب مصر بنى عمرو بن العاص مقياساً للنيل بأسوان وآخر بدندرة ، وظلت الحال على ذلك حتى دخلت مصر فى طاعة الأمويين ، فبنى عامل مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان مقياساً بأنصنا ، وبنى عبد العزيز بن مروان مقياساً بحلوان . أما مقياس الروضة فيرجع إلى سنة ٩٧ هـ ، وذلك فى عهد ولاية أسامة بن زيد . وقد جدد الخليفة المتوكل العباسى هذا المقياس فى سنة ٢٤٧ هـ .

وقد أصلح أحمد بن طولون مقياس الروضة وهو عبارة عن عمود رخام أبيض مثمن الأضلاع ، فى موضع يصل إليه الماء عند انسيابه . وينقسم إلى اثنين وعشرين ذراعاً . والذراع مقسم إلى ٢٤ إصبعاً . أما الإثنا عشر ذراعاً الأولى ، فإن كل ذراع منها ينقسم إلى ٢٨ إصبعاً . وتبدأ زيادة النيل فى آخر بؤونة وأبيب ومسرى ، وتستمر فى شهر توت كله . وبالمقياس ذراعان يسميان منكرا ونكيراً ، وهما الذراعان الثالث عشر والرابع عشر . فإذا زاد الماء عنهما نصف ذراع استسقى الناس ، وإذا جاوز خمسة عشر ذراعا

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) جمع بحر وهى الترعة الكبيرة أو الرياح فى المصطلح الحديث .
(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٠٥ — ٢١٦ .
(٤) المقريزى : خطط ج ١ ص ٥٩ .
انظر كتابى « تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة » (القاهرة ١٩٦٤) ص ٥٧١ — ٥٧٢ .

ودخل فى السادس كان فيه صلاح لبعض الناس ، وإذا بلغ تسعة أذرع ، انساب فى خليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا وخليج المنهى . وقد جرت العادة أن تذاع نتائج المقياس على الناس ، فيخرج المنادى إلى طرقات القاهرة وسائر مدن مصر . ولكن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أمر بكتمان أمر المقياس ، لأن الناس إذا أحسوا بانخفاض النيل ، تسرب القلق إلى نفوسهم ، فأخفوا الغلال ، وامتنعوا عن بيعها حتى يرتفع السعر ، ويعمل الأغنياء على اختزان الغلال ، فيحدث الغلاء . وإذا أحس الناس بزيادة النيل هبطت الأسعار هبوطاً فاحشاً وأصيب كبار التجار بأفدح الأضرار . لذلك كان فى كتمان الزيادة عن العامة فائدة تامة .

وإذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعا ثم ستة عشر ذراعا وإصبعاً واحداً ، احتفل الخليفة بفتح خليج أمير المؤمنين . فإذا فتح الخليج فتحت الترع الأخرى ، وفاض الماء ، « وعمرت القيعان والبطاح فتعود أرض مصر أرضاً عامراً » (١) .

٢ — الصنـــاعة

(أ) النسيج :

كان للصناعة فى العصر العباسى الثانى حظ كبير من عناية الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين اهتموا باستخدام موارد الثروة المعدنية على إختلافها ، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان ، كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمالى فارس ، والنفط من بلاد الكرج .

وقد اشتهر بعض المدن الإسلامية بصناعة النسيج . ومن هذه المدن كازرون التى سميت دمياط الأعاجم . واشتهرت كابل بنسيج القطن الذى كانت تصدره إلى الصين . واشتهرت بلاد ما وراء النهر بزراعة القطن وصناعته ، كما انتشرت هذه الصناعة فى المغرب والأندلس ومن أهم مراكز صناعة القطن مرو ونيسابور . كذلك تفوق المسلمون فى صناعة الحرير والأطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة والسجاجيد : فامتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها ، واشتهرت خوزستان بمنسوجاتها وامتازت دمشق بصناعة الأقمشة الحريرية التى لا تزال تسمى «الدمسق» ، واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور والمنسوجات

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٥٨ .

الصوفية على اختلاف أنواعها . كما اشتهرت مرو باقليم طبرستان بصناعة الإبريسم . وتفوق أهل أرمينية بصناعة التكك الإبريسيمية التى كان يتراوح ثمن الواحدة منها بين دينار وعشرة دنانير . واشتهرت فارس وأرمينية وبلاد ما وراء النهر بصناعة الملابس والفرش الصوفية .

وقد ازدهرت صناعة النسيج بمصر فى العصر الفاطمى ، واشتهرت بصناعة الكتان الذى كثرت زراعته بكورة الفيوم . ومن أهم مراكز هذه الصناعة إقليم الفيوم ، ونواحى بحيرة تنيس (بكسر التاء والنون مع التشديد) ، وخاصة فى دمياط وشطا (بفتح الشين) ودبيق (بفتح الدال وكسر الباء) التى تنسب إليها الثياب الدبيقية ، وتنيس التى كانت تصدر إلى العراق وحدها ما تتراوح قيمته بين عشرين ألف وثلاثين ألف دينار سنويا (١).

وقد بلغ نظام الطراز فى مصر درجة كبيرة من الرقى فى العصر الفاطمى حيث ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية . والطراز فارسى الأصل معناه التطريز ، ثم أصبح يطلق على الثوب الموشى . ولا يرتدى هذا النوع من الثياب إلا الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء وأصحاب المناصب العالية . وبعد أن كان هذا اللفظ يطلق على الكتابة الموشاة أصبح يطلق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة على النسيج المنقوش أو الموشى بالخيط ، كما تطلق على النقوش التى توضع على الأشرطة المستعرضة من أى نوع ، سواء أكان من الحجارة أم من الفسيفساء أم الزجاج أم الفخار ، أم كان محفورا بالخشب (٢) . ويتبين مقدار مهارة المصريين وحذقهم فى تلك الصناعات من وصف الكسوة التى أمر الخليفة الفاطمى المعز بعملها للكعبة (٣) .

وهناك أنواع خاصة من الثياب اشتهرت فى هذا العصر ، نذكر منها : الثياب العتابية (٤) المصنوعة من الحرير ، والخسروانى (أو الخسروانى بضم الخاء وفتح الراء) ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى خسرو شاه أحد ملوك الفرس (٥) ، والقلمونى (بفتح القاف واللام) ،

---

(١) المقريزى . خطط ج ١ ص ٢٢٦ .

(٢) انظر الجوزى : سيرة جوذر توقيع رقم ٢١ ص ١٠٠ .

(٣) انظر هذا الوصف فى ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ وفى حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٨٣ .

(٤) ينسب إلى عتاب أحد أحياء بغداد اشتهر بصناعة هذا النوع من الثياب .

(٥) Lane, Arabic-English Lexicon

وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انعكست عليها أشعة الشمس . وقد نقلت صناعته من بلاد اليونان إلى مصر حيث أصبح يصنع فى دمياط وتنيس خاصة [١] ، والتسترى (بضم التاء مع التشديد وسكون السين وفتح التاء الثانية) ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى تستر أشهر مدن خوزستان ، والقرقبى (بضم القافين وسكون الراء) [٢] ، وهو نوع من القماش كان يصنع فى بلاد اليونان ، ثم أدخلت صناعته إلى مصر ، وأصبح يصنع فى دمياط وتنيس . وقد اشتهر هذا القماش بألوانه اللامعة التى تتغير دائما ولا سيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس ، والتصفية (بكسر النون مع التشديد وسكون الصاد ، وهى ثياب مصنوعة من الحرير والقطن .

وكان مضرب الخليفة الظاهر الفاطمى (٤١١ — ٤٢٧ هـ) منسوجاً من خيوط الذهب ومقاماً على أعمدة من الفضة ؛ وقد بلغت قيمته أربعة عشر ألف دينار . وكان مضرب الوزير اليازورى مجموعة رسوم فنية بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار ، واشتغل فى صنعه مائة وخمسون فناناً مدة تسع سنوات . وكان ارتفاع أعمدته مائة وعشرين قدماً واتساع محيطه ألف قدم تقريباً . وقد نقشت على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم [٣] .

الزخرفة فى العصر الفاطمى :

ولا بأس من أن نعرض هنا لذكر فن المنسوجات الزخرفية فى العصر الفاطمى . فقد كانت المنسوجات الفاطمية من حيث الزخرفة أربعة أنواع تمثل العصور الأربعة الرئيسية فى تاريخ الفاطميين وهى :

النوع الأول وينسب إلى عصر الخلفاء المعز والعزيز والحاكم ، وقوام زخارفه أشرطة من الكتابة توازيها أشرطة أخرى ، بها جامات بيضاوية الشكل يتداخل بعضها فى بعض ، وعليها رسم حيوان أو طائر أو ورود .

والنوع الثانى وينسب إلى عصر الظاهر والمستنصر . وقد تنوعت فيه الأشرطة الزخرفية ، وقوامها جامات عليها رسوم طيور وحيوانات محرفة عن الطبيعة ، وتحيط بها سطور من الكتابة الكوفية التى أصبحت عنصراً زخرفياً .

---

(١) ياقوت : انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان Dozy, Supplèment

(٢) القرقب طائر برى فى الغدر والمستنقعات . انظر معجم البلدان لياقوت .

(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤١٩ .

والنوع الثالث وينسب إلى عصر المستعلى والآمر ، وقد تطورت فيه الزخرفة وظهرت عناصر جديدة مثل الأشرطة والجدائل التى تتموج وتتداخل ويتخللها جامعات تضم رسوم طيور وحيوانات وكؤوساً بها فاكهة ، وتتلخها سطور من الكتابة الكوفية تتضمن اسم الخليفة ووزيره .

والنوع الرابع ويرجع إلى أواخر العصر الفاطمى ، وتتألف زخارفه من جدائل تتقاطع وتتشابك وتؤلف جامات عليها رسوم حيوانات أو رسوم نباتية مكتوبة بخط النسخ(١).

(ب) بناء السفن :

ولما فتح الفاطميون مصر شعروا بحاجتهم إلى أسطول قوى يصد البيزنطيين خاصة والصليبيين عامة عن بلاد الشام . فقد أنشأ الخليفة المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بنى فيها ستمائة مركب وصفها المسبحى المؤرخ المصرى فقال : «إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً . واشتهرت جزيرة الروضة بصناعة السفن الحربية ، وبنيت فى مصر دار صناعة لصناعة المراكب النيلية والشوانى(٢) .

كما أنشأ الفاطميون دوراً لصناعة السفن فى الإسكندرية ودمياط(٣) . وعنوا بجلب الأخشاب اللازمة لهذه الصناعة من مناطق الغابات فى كثير من جهات الصعيد . ولم يكن إنتاج البلاد من الخشب ملائماً لصناعة السفن الكبيرة لأنه لم يكن يمتاز بالصلابة المطلوبة . لهذا كان الفاطميون يستوردون الخشب من أوربا عن طريق البنادقة(٤) .

(حـ) صناعة المعادن :

وقد برع الصناع المصريون فى صنع المعادن والعاج والفسيفساء ، فعرفت مدينة الفسطاط(٥) بصناعة الحديد المستورد من أوربا وصقلية وشمالى إفريقية ، كما عرفت مدينة تنيس بصناعة المقصات والسكاكين (٦) . وراجت صناعة الذهب والفضة

---

(١) Migeon, Art musulman, tome II, pp. 300—309.

(٢) عن المقريزى : خطط ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٣ .

(٤) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٥٣ .

(٥) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٦٧ .

(٦) Sefar Nameh, p. 114.

اللتين استخدمهما الصناع فى صنع الحلى والسروج والسيوف وتذهيب المصاحف ووشى الملابس الفاخرة . وليس من شك فى أن هذه التحف التى أنتجها الفاطميون والتى تدل عليها آثارهم تلقى ضوءاً على تقدم هذه الصناعة ورقيها[١] . هذا إلى ما عرف به صناع مصر من مهارة ودقة فى صناعة النحاس والبرونز . وكان سوق المكفتين يشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت ، وهو ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة . وقد راجت صناعة النحاس المكفت رواجاً عظيما ، حتى لا تكاد تخلو دار فى القاهرة ومصر من عدة قطع من نحاس مكفت (مطلى)[٢] .

(٤) قصب السكر والزيت :

وكان قصب السكر من أهم الحاصلات الزراعية ولا سيما فى عصر الفاطميين فى مصر ، لأنه عماد صناعة السكر والعسل التى راجت رواجاً عظيما . وانتشرت مطابخ السكر فى جميع أرجاء البلاد : فى الفسطاط والمنيا والفيوم وديروط وأسيوط وقفط وسمهود ، حتى لقد ذكر ابن دقماق[٣] أن مطابخ السكر فى الفسطاط وحدها بلغت ثمانية وخمسين مطبخاً . كما انتشرت مصانع العسل فى أرجاء البلاد[٤] ، وكان الفاطميون يهتمون بهذه الصناعة اهتماماً عظيما . فأنشئوا المعاصر السلطانية وحملوا الفلاحين على نقل قصبهم إليها . ويخيل إلينا أن ذلك راجع إلى أن هذه الدولة كانت تجبى مقادير طائلة من خراج الأرض المزروعة قصبا[٥] .

وكذلك راجت فى مصر صناعة الزيت الذى كانت له أهمية كبيرة فى حياة أهل هذه البلاد لأن منه طعامهم ووقودهم . لذلك عنى المصريون عناية كبيرة بصناعة النباتات الزيتية ، فزرعوا الزيتون فى منطقة الفيوم والإسكندرية[٦] . كما كان السمسم يزرع فى جميع أرجاء البلاد[٧] . وكانوا يستخرجون زيت الزيتون من الزيتون وزيت الشيرج

---

(١) خطط ـ ج ١ ص ٤١٨ — ٤١٩ .
(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٢ .
(٣) الانتصار ص ٤١ — ٤٢ .
(٤) المقريزى : خطط ـ ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧٣ .
(٥) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٦٧ .
(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .
(٧) انظر ما ذكرناه عن الزراعة فى هذا الباب .

من السمسم[١] ، كما استخدموا الفجل والخس فى هذه الصناعة ، حتى إن هذه النباتات احتلت مكانة مرموقة فى الصناعة المصرية . وكانت أهم معاصر الزيت فى مدن صندفا بكورة البهنسا مركز بنى مزار بمحافظة المنيا ، وفى الفيوم والفسطاط[٢] . وكذلك اشتهرت المغرب والأندلس باستخراج الزيت من الزيتون الذى تكثر زراعته فى هذه البلاد[٣] .

(هـ) صناعة الصابون والشمع :

وقد اشتهرت البصرة بصناعة الصابون التى تقوم على الزيت . وانتشرت مطابخ الصابون بمدينة الفسطاط[٤] ، وقد ذكر الحسن الوزان[٥] أن الصابون كان يصنع فى الجبال المجاورة لمدينة فاس ، وأن أهل الجبال وأصحاب البغال (المكارون) كانوا يحملونه ويبيعونه لأصحاب الحوانيت فى مدينة فاس وغيرها ، كما كانوا يبيعونه سائلا . أولم تكن هناك إلا ركاكين قليلة مجتمعة ، لأنه لا يخلو حى من حياة المدن من حوانيت يباع فيها الصابون .

وقد انتشرت صناعة الشمع بالإسكندرية . وكان بمدينة القاهرة فى عهد المماليك كثير من الأسواق نخص بالذكر منها سوق الشماعين ، وكان يمتد من الجامع الأقمر الذى بناه الخليفة الآمر الفاطمى إلى سوق الدجاجين . وتباع فيه الشموع على اختلافها من موكبيه وقانوسية وطوافات ، وبلغت زنة بعض الشموع قنطارا . حتى إنها كانت تحمل على العجل لثقل وزنها[٦] وكان بمدينة فاس سوق أطلق عليه اسم « سوق الشماعين » . ويذكر الحسن الوزان أن صناعة الشمع فى المغرب بلغت درجة كبيرة من الدقة والجمال لم ير مثلها فى حياته .

(و) صناعة الزجاج والبلور والخزف :

وقد اشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج والخزف ، واتخذ طرازاً خاصا فى زخرفة الزجاج . وبلغت هذه البلاد فى نقش الزجاج بالذهب والألوان الأخرى درجة كبيرة من

---

(١) Nasir Khusrau, Safar Namèh.

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٦٢ .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٤) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٨ .

(٥) Description, de l'Afrique, tome l, p, 191.

(٦) حسن إبراهيم حسن : المجمل فى التاريخ المصرى ص ٢٠٦ .

(٧) كتاب وصف إفريقية (بالفرنسية) ج ١ ص ١٨٧ .

الإتقان . وكان الزجاج الملون المطلى بالميناء يصدر إلى كثير من جهات العالم[١] . وقد قيل إنه كان ببغداد أربعة آلاف معمل لصنع الزجاج وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف[٢] . كما اشتهرت بغداد بالصباغة المقتبسة من الفرس والتى بلغت درجة كبيرة من الدقة والجمال ، حتى إنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر ويكتبون عليه بالذهب المجسم ويصنعون الملوك أقداحا تبهر الأنظار . وكانوا يتخذون على الجامات (الكؤوس) صوراً يحكمون صناعتها بالرسم لتمثل الحقائق وصورا عليها صوراً تطير ، ومن فوقها العقبان تنقض عليها وهى تحاول الإفلات من مخالبها[٣] .

وقد ازدهرت صناعة الزجاج والبلور الصخرى فى العصر الفاطمى ، وبلغت هذه الصناعة درجة عظيمة من الرقى . يشهد بذلك هذه التحف التى تزخر بها متاحف القاهرة وأوربا . ويعزى ذلك إلى كثرة بناء المساجد والقصور والمدارس وتزويدها بالقناديل وألواح الزجاج والشمسيات وغيرها[٤] . كما أن حياة الترف عند الفاطميين واتخاذهم القصور والمناظر ، وتفننهم فى زخرفتها وتزيينها ووفرة ثرائهم كان من أهم الأسباب التى أدت إلى رواج هذه الصناعة الدقيقة .

وقد اشتهرت الفسطاط والفيوم والأشمونين والشيخ عبادة (بكورة البهنسا ، المنيا الآن) ، والإسكندرية بصناعة الزجاج[٥] الذى كان يصدر إلى البلاد الشرقية والغربية[٦] .

وزخرت خزائن الفاطميين بتحف الزجاج والبلور التى بلغت حد الإعجاز فى جمال الصناعة وإشراق الزخرفة[٧] .

وقد تفوقت صناعة الخزف ذى البريق المعدنى والزجاج والبلور ، فصنعت منه الأزيار الكبيرة والأوانى المستعملة فى حفظ العطور والبخور[٨] . ويدل على تفوق هذه

---

(١) أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(٢) أمين زكى : كتاب عمران بغداد ص ٥٠ .

(٣) نخله المدور : حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٢٥ . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٤) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٨١ .

(٥) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٤٢ .

(٦) Safar Naméh, p. 154.

(٧) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٣٤ .

(٨) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٤٩ .

الصناعة ماذكره الرحالة الفارسى ناصر خسرو الذى رأى التجار يصنعون مايبيعونه فى أوان من الخزف بدلا من الورق . كما رأى فى أسواق الفسطاط الأقداح والصحاف التى بلغ من جودتها أنه رأى يده بوضوح بظهر الإناء ، كما شاهد الرحالة المقدسى[١] توقيع صناع مصريين على بعض الفسيفساء فى الكعبة وأن جدران الأروقة من الظاهر ألبست بالفسيفساء التى حملها إليها صناع مصر والشام .

وقد كشف عباس بن فرناس (بكسر القاف وسكون الراء) الفلكى المسلم بالأندلس فى معمله طريقة لصنع البلور ، وهو الذى قذف بنفسه فى تجربة رائعة مدهشة على متن طائرة شراعية سبح بها عاليا فى الفضاء ، ثم وقع ونهض سالما ، وكان بذلك مبشراً بفكرة الطيران منذ العصور الوسطى . وقد اقتدى أهل الأندلس بزرياب المغنى والموسيقى المشهور فى عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) فى تفضيل الاكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة[٢] .

وقد اشتهرت سابور والكوفة وجور (جنوبى فارس) بصناعة الروائح العطرية المستخرجة من البنفسج والنيلوفر والنرجس والسوسن والزنبق والنارنج : واختصت مدينة جور باستخراج ماء الورد الذى كان يحمل إلى الصين والهند واليمن ومصر والمغرب والأندلس[٣] .

(ح) صناعة الجلود :

كذلك اشتهر المسلمون بصناعة الجلود . وكان يصنع بمصر ولاسيما بمدينة الفسطاط الأنطاع التى كانت تصدر إلى بلاد الشام . كما كان يصنع بالفسطاط الكمرانات[٤] وحقائب الجلد والسيور والقسى (بكسر القاف) التى فاقت قسى دمشق فى دقة الصناعة[٥] . وبرع المصريون فى صناعة السروج المحلاة بالذهب والفضة حتى كانت قيمة السرج

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٧٣ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٥١ — ٧٥٢ . بروفنسال : الشرق الإسلامى والحضارة العربية ـ الأندلسية ص ٣٠ — ٣٤ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٢٤ — ٣٢٥ .

(٤) جمع كمران وهو حزام مجوف من الجلد توضع فيه النقود الذهبية والنفائس ويربط حول وسط الإنسان .

(٥) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٦٧ .

الواحد تتراوح بين ألف دينار وسبعة آلاف دينار . وقد تبعت صناعة السروج صناعة اللجم من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة ، وقلائد وأطواق لأعناق الخيل . وقد بلغ من اهتمام الفاطميين بهذه الصناعة أن اتخذوا خزانة خاصة بالسروج أطلقوا عليها خزانة السروج[١] .

كذلك اشتهرت الأندلس بصناعة آلات الحرب من الترس والرماح والسروج واللجم والدرع[٢] .

وكذلك اشتهرت بلاد المغرب بصناعة المناطق الجلدية والأحزمة . وكان بمدينة فاس سوق خاصة للمحافظ والحقائب التى تصنع من الجلد والتى بلغت حد الإتقان والروعة[٣] ، وسوق آخر تصنع فيه الدلاء الجلدية . ثم يلى سوق الإسكافيين الذين يصنعون الأحذية على اختلاف أنواعها ، وكان به مائة وخمسون متجراً وحوانيت أخرى تباع فيها الأحذية ، وقد بلغ عددها نحو مائة وخمسين حانوتا . وهناك نوع آخر من الأحذية أرقى لايلبسها الصناع ولا الجنود ولا خدم القصور .

كما اشتهر أهل المغرب بصنع الدرق (بفتح الدال مع التشديد وفتح الراء) والترس من الجلد على الطريقة الإفريقية ، كما اشتهروا أيضاً بصناعة ركاب وسروج الخيل ، وكانوا يصنعون لكل سرج ثلاث طبقات من الجلد كل طبقة تعلو الأخرى ، والطبقة الوسطى أرقها . وتصنع هذه الطبقات بطريقة بديعة . كما اشتهر أهل المغرب الأقصى بصناعة الزرابى الجلدية الصغيرة والوسائد[٤] . واشتهرت لمطة (بفتح اللام والطاء وسكون الميم) بالمغرب الأقصى بصناعة الدرق[٥] .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٠ — ٥٩١ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٩٥ .

(٣) الحسن الوزان ج ١ ص ١٩٣ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٨ .

(٥) جمع درقة (بفتح الدال والراء والقاف) . وهى معربة عن لفظ فارسى هو « دريجة » . وهى درع بيضاوى الشكل غالباً ، يتراوح طوله بين قدم ونصف وقدمين . وتصنع الدرقة غالباً من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السميكة ، وأحياناً من جلد التمساح .

انظر Lane's Arabic- English Lexion

راجع ماذكره ابن حوقل فى كتابه المسالك والممالك حيث ذكر أن معدن الدرق اللمطية لايوجد له مثيل فى الدنيا .

٣ — التجـــــارة

اهتم المسلمون بتسهيل سبل التجارة ، فأقاموا الآبار والمحاط فى طرق القوافل ، وأنشئوا المنائر فى الثغور ، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من غارات القراصنة وأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد وسفنهم تمخر عباب البحار . وغدت بغداد حاضرة الدولة العباسية سوقاً نافقة للتجارة ، وأصبحت دمشق مركزاً هاماً للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو من أقاليم نهر الفرات إلى بلاد العرب ومصر ، وأصبح نهرا الفرات ودجلة وجداولهما شرايين تجارية هامة فى بلاد الدولة العباسيه (١) .

وكان لعناية الخلفاء العباسيين بتيسير الطرق البرية والبحرية أثر بعيد فى ترقية التجارة التى تقوم على تبادل السلع وفى تمهيد السبيل أمام الكاشفين والرحالة الذين وصفوا البلاد المختلفة وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة .

وفى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وضع أبو القاسم بن خرداذبة الفارسى فى كتابه المسالك والممالك (٢) دليلا للمسافرين وصف فيه الطريق البحرى الذى يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبلة (بضم الألف الثانية والباء) ويصل إلى بلاد الهند والصين . ويذكر ابن خرداذبه أن سفن المسلمين كانت تسير بمحاذاة ساحل الخليج العربى وساحل الهند حتى ملبار . وقد نشطت الحركة التجارية ونمت فى الملتان (بضم الميم وسكون اللام). والديبل (بفتح الدال مع التشديد وسكون الياء وضم الباء) فى السند (إحدى ولايات الباكستان الآن) . حيث تذهب إلى الهند والصين وتعود حاملة منتجات هذه البلاد (٣). وكانت قوافل البنجاب (شمالى الباكستان الآن) تنقل السلع عبر هضاب أفغانستان ، وكان التاجر المسلم يستطيع الذهاب إلى الصين ويمر بهضبة التبت (بضم التاء مع التشديد وفتح الباء مع التشديد) وقبائل الترك لشراء الحرير (٤) . واستطاع المسلمون أن يستقروا فى جنوبى مدينة شنغهاى . وكان للمسلمين فى هذه المدينة قاض مسلم يسير فى أحكامه بين المسلمين وفق أحكام الشريعة الإسلامية ويؤمهم فى الصلاة .

---

(١) Heyd, vol I, p. 26.

(٢) طبعة دى غوية (ليدن ١٣٠٦ هـ) .

(٣) Heyd, tome I, p. 36. سيرتوماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة ص ٣٦٢ .

(٤) Heyd, p. 36.

كما كان المسلمون يتبادلون التجارة مع الهند الصينية (تايلاند الحالية) والصين وشبه جزيرة الملايو[1]) . كما فتحت أمام تجار المسلمين جزائر الهند الشرقية المعروفة الآن باسم إندونيسيا ، ولاسيما مع جزيرة جاوه وهى أكبر جزائرها .

وقد بدأ المحيط الهندى يزدحم بالتجار الآسيويين ، وبخاصة تجار العرب الذين اعتادوا الرحلة إلى جنوبى بلاد الهند وجزيرة سيلان ، بل إنهم وصلوا إلى الصين نفسها . لكن ظهور الإسلام فى جزيرة العرب قد هيأ لهم الفرصة ليظهروا على مسرح التاريخ . وقد ظلوا من القرن السابع إلى القرن السادس عشر الميلادى سادة المحيط الهندى بلا منازع .

وكانت العلاقات التجارية بين أوربا وآسيا تعتمد على السلع التى يحملها هؤلاء العرب إلى سواحل الخليج العربى والبحر الأحمر . وقد أنشأ العرب محاط تجارية قبل المحاط التى أنشأتها أوربا ، فقد أنشئوا محاط فى فاليقوط وساحل ملبار وملقا ، وأقاموا علاقات تجارية مع جزر الهند الشرقية والفلبين وسيام ، ثم استقر العرب فى هذه البلاد . ويقال إنه أنشئت مستعمرة عربية كبيرة فى مدينة كانتون . ولم تكن هذه التجارة مقصورة على العرب والفرس ، فإن أهل هذه البلاد الشرقية كانوا يردون الزيارات . وبدأت السفن الهندية تصل إلى شرقى القارة الإفريقية وإلى ساحل بلاد العرب ، كما وصلت سفن الملايو وجاوة إلى مدغشقر . وكذلك وصلت سفن الصين ، بدليل أن كثيراً من العملة الصينية التى ترجع إلى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) والتى لا يبعد أن يكون العرب أو الهنود قد جلبوها معهم قد عثر عليها فى ساحل إفريقيا . ولا يبعد أن يكون الصينيون أنفسهم قد تعاملوا مع أهالى هذه البلاد ، لأن الكتب الصينية القديمة تتضمن إشارات إلى شرقى هذه القارة ، كما تتحدث بعض الكتب الصينية التى ترجع إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر عن زنجبار وعن أهلها من العرب الذين يرتدون عباءات زرقاء مصنوعة من القطن وينتعلون بنعال حمراء .

ومن ذلك يتضح أنه كان لشرقى إفريقيا نصيب من هذه العلاقات التجارية فى المحيط الهندى فى العصور الوسطى . فقد وجدت سلع الهند طريقها إلى أوربا عبر آسيا . وأهم هذه السلع : العاج الذى يكثر فى هذه البلاد حيث تكثر الفيلة التى تستخدم فى الحروب أو فى أغراض أخرى . كذلك وجد الذهب فى مناجم روديسيا ، وكان الخشب يحمل

---

(١) وهى إحدى ولايات ماليزيا التى تضم سنغافوره والملايو وشمالى برنيو وسروواك (بفتح السين والراء) .

من زنجبار إلى بلاد العرب . ولا ننسى تجارة الرقيق التى كانت تعد السلعة الأولى فى هذه التجارة .

غير أن هذه العلاقات التجارية التى قامت بين بلاد العرب وشرقى إفريقيا لم تتوطد إلا بنزوح العرب إلى هذه البلاد واستقرارهم فيها . وقد شاءت الصدف أن يكون هؤلاء المهاجرون من جنوبى الجزيرة العربية ، وأن يؤسس هؤلاء العرب إمبراطورية عربية تنشر نفوذها على الساحل الشرقى لهذه القارة (١) .

وقد حاول دعاة المسلمين أن يشقوا طريقهم إلى بلاد الحبشة وأن ينتشروا على حدودها الشرقية ، بالإضافة إلى من كان يفد إلى هذه البلاد من تجار المسلمين . وكان هؤلاء الدعاة والتجار يفدون إلى شرقى القارة الإفريقية عن طريق بلاد اليمن وحضرموت والبحرين ومصوع وزيلع وبربرة وزنزبار ومدغشقر . وقد أخذ الإسلام يشق طريقه معهم إلى بلاد الحبشة والصومال ، ليس عن طريق الفتح والغزو فحسب ، بل عن طريق التجارة كذلك ، حيث أخذ التجار المسلمون يفدون على هذه البلاد ويدخلون الكثيرين من أهلها فى الإسلام . ومن الساحل الشرقى نفذ الإسلام إلى نياسالاند ، بل لقد نفذ إلى كينيا وأوغندة وتنجانيقا ، وإلى أقصى جنوبى القارة الإفريقية (٢) .

ويمكن أن نلخص المسالك التى سلكها الإسلام وانتشرت منها التجارة إلى القارة الإفريقية فيما يلى :

١ — طريق شمالى إفريقيا : مصر ، برقة ، طرابلس ، إفريقية (بلاد تونس) ، المغرب الأوسط (الجزائر وجزء من مراكش) ، بلاد السوس الأقصى إلى مصب السنغال . ويتبع هذا الطريق طريق بحرى بعد نمو البحرية الإسلامية : من ثغور الشام ومصر إلى ثغور المغرب الأقصى (مراكش) .

٢ — طريق صحراوى : من واحات مصر الغربية ماراً بجنوبى بلاد المغرب حتى غربى القارة الإفريقية .

---

(١) Coolpand, East Africa and Its Invaders, pp. 15 — 21

أنظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية (الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٦٥) ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة ص ٣٨١ — ٣٨٧ .

٣ — طريق القوافل : من بلاد المغرب الأقصى إلى شمالى السودان ، ولاسيما من جنوبى تونس إلى بلاد برنو غربى بحيرة شاد ، ومن جنوبى الجزائر إلى بلاد « الحوصا » شمال « نيجيريا » ، ومن جنوبى مراكش إلى مصب السنغال ومنحنى النيجر .

٤ — والطريق الرابع يسير عبر الصحراء الشرقية ووادى النيل إلى بلاد النوبة وشمالى السودان .

٥ — والطريق الخامس من جنوبى بلاد العرب إلى ساحل أفريقيا الشرقية (١) .

وكان لاختراع البوصلة التى تهتدى بها السفن التى تمخر عباب المحيطات والبحار أثر كبير فى اتساع نطاق تبادل السلع وتمهيد السبيل أمام الرحالة والمكتشفين . وإلى الصين يرجع الفضل فى اختراع هذه الآلة التى لم تعرفها أوربا قبل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، أى قبل عصر كريستوفر كولمبس مكتشف القاره الأمريكية سنة ١٤٩٢ م . وقد ذهب ابن عذارى (٢) المراكشى المتوفى فى أواخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) إلى أن اختراع البوصلة كان فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وقيل فى القرن الثانى عشر .

وإلى الشرق يرجع الفضل أيضاً فى اختراع أهم وسائل المواصلات التى كان لها أثر كبير فى تقدم الحضارة الإسلامية : كالعربة ذات العجلات ، وحمام الزاجل ، والجمل . وكان استخدام الجمل فى شمالى القارة الإفريقية من الأحداث الهامة التى أدت إلى ربط أجزاء الدولة الإسلامية ونمو العلاقات الإقتصادية والثقافية بين أفريقيا وآسيا من ناحية ، وبين الشرق والغرب من ناحية أخرى ، وبين المغرب الأقصى والممالك والإمارات الإسلامية بحوض السنغال والنيجر . كما أثبت التاريخ أن يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية قد استعمل الجمل فى حربه ضد النصارى فى موقعة الزلاقة الشهيرة ٤٧٩ هـ . وقد علل أكثر مؤرخى الغرب بأن ذلك كان من عوامل انتصاره فى هذه الموقعة ، إذ ذعرت خيول النصارى من الجمال التى لم ترها من قبل ، كما أن أهل الأندلس لم يكونوا قد رأوا قط جملا من قبل ولا كانت خيلهم قد رأت صورها أو سمعت أصواتها .

---

(١) حسن إبراهيم حسن انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ٣٦ .

(٢) كتاب المغرب فى أخبار المغرب طبعة دوزى (ليدن ١٨٤٨ — ١٨٥١ ، وباريس ١٩٣٠) .

وقد اشتهرت بلاد العرب بكثرة الجمال ذات السنام الواحد ، واشتهرت بلخ ببلاد ماوراء النهر (أى نهر جيحون) بالجمال ذات السنامين (وتسمى البخاتى بفتح الباء والخاء) . وكانت الخيل التى كثر استعمالها فى أوربا فيما بعد ، تجلب إلى بغداد حاضرة الدولة العباسية ، من بلاد العرب ، ولاسيما من بلاد الحسا (أو الأحساء) على الخليج العربى ، كما جلب العرب الجاموس من موطنه الأصلى وهو بلاد الهند ، حيث نقل إلى العراق فى عهد الدولة الأموية [١] .

(ا) طرق التجارة :

أما وقد ذكرنا شيئاً عن عناية خلفاء المسلمين بالتجارة التى احتلت فى العصر العباسى الثانى المكانة الأولى فى التجارة العالمية ، يحسن أن نذكر أشهر طرق التجارة بين الشرق والغرب . والطريق الأول من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر . ويبدأ من مقاطعة بروفانس بفرنسا ، ويقوم به اليهود ، ويسميهم المسلمون فى ذلك الحين تجار البحر أو اليهود الراذانية نسبة إلى نهر الرون ، ويتكلمون العربية والفارسية واليونانية والفرنسية والصقلبية . ويجلب هؤلاء اليهود من الغرب الجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز [٢] . ثم أطلق هذا الاسم على الثوب المأخوذ من وبر الخز . وترسو سفنهم عند الفرما (وكانت من أهم الموانىء التجارية فى ذلك الحين) ، ثم يحملون هذه السلع على دواب الحمل إلى القلزم وهى مدينة السويس الحالية [٣] . أو إلى الاسكندرية ، وكانت ملتقى التجارة العالمية ، ومنها تنقل إلى الفسطاط أكبر مدن مصر التجارية فى ذلك الحين ، أو إلى القاهرة حاضرة الفاطميين والأيوبيين ومن جاء بعدهم من الحكام عن طريق النيل .

يقول « هيد » فى كتابه تاريخ التجارة فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى العصور الوسطى [٤] نقلا عن ابن خرداذبة إن السلع كانت تنقل من الفسطاط براً إلى القلزم ، ومنها تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانئه الهامة مثل جدة (وهى ميناء مكة المكرمة) حتى تصل إلى الهند والصين . ويحمل التجار فى عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود

---

(١) متز . الحضارة الإسلامية ترجمة أبى ريده ، ج ٢ ص ٢٨١ — ٢٩٤ .
(٢) الخزاسم دابة وقيل هو الذكر من الأرانب ويطلق فيعرف به الحرير فى العرف .
(٣) ابن خرداذبه . المسالك ص ١٥٤ .
(٤) ج ١ ص ٤١ .

والكافور والدارصينى . فإذا وصلوا إلى القلزم اتجهوا إلى الفرما أو إلى الإسكندرية ، ومنها إلى بروفانس ، وأحيانا يقصد بعضهم الإسكندرية .

ثانيا — والطريق الثانى يبدأ بحراً من بروفانس على أيدى تجار اليهود الراذانية إلى المشرق صوب أنطاكية حيث تنقل السلع على الدواب إلى بغداد عن طريق نهر الفرات وجداوله ، ثم إلى الأيلة على شاطئ دجلة فى زاوية الخليج الفارسى ، ثم إلى عمان والهند والصين .

ثالثاً — والطريق الثالث يبدأ من شمالى الروسيا إلى المشرق عن طريق بحر قزوين ، ثم إلى مرو حاضرة خراسان ، فبلخ وبخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين ، ويحمل هؤلاء التجار معهم جلود الخز وجلود الثعالب والسيوف والشمع والعسل ، وكان المسلمون يأخذون الجزية من هؤلاء التجار باعتبارهم المسيحيين .

ومما جعل لهذا الطريق أهمية تجارية اعتناق أهل الفلجا الإسلام فى أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . وينبغى ألا ننسى فتوح محمود الغزنوى فى بلاد الهند التى قيل إنه غزاها ثلاث عشرة غزوة ونشر الإسلام فى ربوعها ، وما كان لهذه الفتوح من أثر فى رواج التجارة ، ويرجع وجود النقود الإسلامية التى كشفت فى شمالى أوربا إلى هذا العصر ، وقد أصبحت بلاد الروس منذ ذلك الحين طريقاً هاماً بين شمالى أوربا وبلاد الشرق الإسلامى .

والطريق الرابع هو الطريق البرى ، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق مجتازاً المغرب الأقصى عن طريق سبتة والمغرب الأدنى عن طريق تلمسان ووهران والقيروان والمهدية والمغرب الأدنى عن طريق طرابلس وبرقة حتى يصل إلى مصر ، ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق ، ثم إلى العراق ماراً بالكوفة وبغداد والبصرة ، ثم إلى فارس ماراً بالأهواز ، ثم إلى كرمان والهند والصين [1] .

وكانت طرق التجارة تسلك طرق البريد . وقد عنى الفاطميون بطرق المواصلات البرية التى تسلكها القوافل التى تسير بالتجارة من بلد إلى آخر . فكان هناك طريق للقوافل يصل مصر ببلاد المغرب غرباً وببلاد الشام والعراق شرقاً .

---

(١) ابن خرداذبه . المسالك والممالك ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(ب) مراكز التجارة :

ومن أشهر مراكز التجارة أنطاكية على ساحل البحر الأبيض المتوسط الغربى ، وقد حصنها الخليفة العباسى المعتصم . وكانت من أهم مرافق بلاد الشام التجارية[١]. كما أصبحت أداة الاتصال بين الشرق والغرب . وغدت الفرما (وكانت مفتاح الديار المصرية)[٢] ، والإسكندرية من المراكز التجارية الهامة بين الشرق والغرب ، تنقل منهما التجارة الآتية من أوربا إلى البحر الأحمر ، والتجارة الآتية من الشرق إلى أوربا . . وكانت الإسكندرية - ولا تزال - أهم موانى البحر الأبيض المتوسط ؛ تفد إليها السفن حاملة منتجات الشرق والغرب . واشتهرت بمعدن الرخام والخرنوب والزيتون واللوز . وكانت من أهم مراكز صناعة الزيت والصابون[٣] وكانت السفن بعد إقلاعها من الإسكندرية ترسو أول الأمر فى ميناء برقة حيث تكثر السلع الشرقية والغربية . ومن برقة ترى سلسلة من الموانى التجارية الهامة مثل طرابلس والمهدية ووهدان ومليلة وسبته وطنجه .

وكانت الفسطاط عاصمة مصر التجارية فى عهد الفاطميين وهى ، كما يقول المقدسى[٤] « ناسخ بغداد ومفخر الإسلام ومتجر الأنام وأجل من مدينة السلام (يعنى بغداد) ، خزانة المغرب ومطرح المشرق ، آهل من نيسابور وأجل من البصرة ، وأكثر من دمشق . معدن الصلحاء ، طيب الشتاء ، أهل سلامة وعافية » . وكانت أسواق الفسطاط فى غاية النظافة والنظام ، تصطف فيها القياسير والدكاكين العامرة بمختلف أنواع السلع . وإليها ترد تجارة الشام والموصل والعراق وغيرها من بلاد المشرق الإسلامى .

ومن مراكز التجارة فى مصر فى العصر الفاطمى . مدينة أسوان ، وكانت قصبة إقليم الصعيد ، وكانت — ولا تزال — سوقاً لتجارة النوبة والسودان .

وتلى مدينة الفسطاط فى الأهمية مدينة دمياط ثالثة الثغور التى تقع على ساحل مصر الشرقى ، وهى تنيس والفرما ودمياط ، وقد برزت دمياط فى ميدان التجارة والصناعة وأضحت فى العصر الفاطمى مركزاً هاماً لصناعة النسيج ، كما كانت تبنى فيها السفن التجارية والحربية . ولعبت دمياط دوراً بارزاً فى قصة الصراع بين المسلمين والصليبيين .

---

(١) Heyd, tome I, pp. 43—44

(٢) اشتهرت بمصايد الأسماك ، المقدسى (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) ص ١٩٥ .

(٣) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ص

(٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٩٩ — ١٩٦ .

ومن مراكز التجارة فى العصور الوسطى عيذاب (بفتح العين وتسكين الياء) على ساحل البحر الأحمر . وقد نافست ميناء القصير ، ولعبت دوراً هاماً فى تجارة البحر الأحمر . وازدهرت عيذاب فى القرنين الخامس والسادس للهجرة لتحول طريق التجارة الفاطمية إلى الجنوب بسبب اشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة الذين كانوا أصحاب النفوذ فى بغداد حاضرة الدولة العباسية فى ذلك العصر ، ثم لاستيلاء الصليبيين على أيلة (بفتح الألف وسكون الياء وفتح اللام) الواقعة على زاوية خليج العقبة سنة (٥١٠هـ) ١١١٦م . وقد ذكر ابن جبير[1] أن أهل عيذاب جمعوا ثروة طائلة من السفن التى كانوا يمتلكونها ، وكانوا يحترفون التجارة وينقلون الحجاج ويقومون بصيد اللؤلؤ فى شهرى يونية ويولية من كل سنة .

وكان التجار والحجاج يفدون إلى ثغر عيذاب عن أحد طريقين : أحدهما طريق قوص ويتفرع إلى فرعين ؛ أحدهما يعرف بطريق « العبدين » ، ويعرف الثانى بطريق « دون » وهى قرية على شاطىء النيل . أما الطريق الثانى فهو طريق مدينة أسوان .

وعلى الرغم من شدة الحرارة وقلة الماء فى هذا الطريق فى الصيف ، يمتاز عن الطريق الأول بقصره ، فكانت القوافل تقطعه فى خمسة عشر يوماً . كما يمتاز هذا الطريق بخلوه من الجبال المتشابكة التى تكثر فى الطريق الأول . أضف إلى ذلك أن أسوان كانت ثغراً هاماً للتجارة مع بلاد النوبة . لذلك كان المسافرون يفضلون طريق أسوان على طريق مدينة قوص . وكانت المراكب تسير بالحجاج شرقاً إلى جدة ميناء الحجاز ، أو بالسلع جنوباً إلى بلاد اليمن وعدن حيث تستأنف سيرها إلى سواحل بلاد الهند والصين ، ثم تعود محملة بالبضائع إلى عيذاب ، ومنها إلى الساحل المصرى . لذلك كانت عيذاب من أعظم مراسى الدنيا ، لأن مراكب الهند واليمن كانت تفرغ فيها البضائع ، ويقلع منها الحجاج فى ذهابهم وإيابهم .

ومما لا شك فيه أن تحول طريق التجارة إلى الجنوب قد أدى إلى انتعاش كبير فى حالة عيذاب الاقتصادية ، لما تبع هذا التحول من جباية المكوس على السلع التى تمر بها ، أو الاستيلاء على جزء منها للاستهلاك المحلى ، كما استفاد الأهالى من اشتغال عدد كبير منهم فى شحن السلع وتفريغها ، مما أدى إلى رخاء أهل عيذاب ونشر الأمن بينهم .

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٣٥ — ٤٢ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص٦٠٢ — ٦٠٣

وقد ظل حجاج مصر والمغرب يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج عبر صحراء عيذاب التى لم تزل طريقاً للحاج فى ذهابهم وإيابهم أكثر من مائتى سنة (٤٦٠ هـ — ٦٦٠ هـ) .

ففى الشدة المظمى فى عهد المستنصر الفاطمى انقطع الحج برأ ، وظلت الحال على ذلك حتى كسا السلطان بيبرس الكعبة وعمل لها مفتاحاً ، ثم أرسل قوافل الحج برأ فى سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ — ١٢٦٨ م)[١] .

وكانت مصر فى عهد الفاطميين (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) ترتبط بعلاقات تجارية مع كثير من بلدان أوربا وبلدان الشرق ، فكان تجار مدينة « أمالفى » الإيطالية يجلبون المنسوجات الحريرية من مصر والشام ، ويجلبون من مصر مهرة الصناع لتزيين قصورهم بالفسيفساء . وكان لأهل « أمالفى » حى خاص بهم فى مدينة أنطاكية كما كان لهم كثير من الفنادق بمدينة الإسكندرية[٢] . وأخذت مراكب جنوة تشق طريقها إلى موانى مصر والشام وتحمل حجاج المسيحيين إلى يافا حيث يذهبون إلى بيت المقدس ، ويذهب تجار جنوة إلى أسواق مصر ليجلبوا الفلفل وجوز الطيب والقرنفل والشب والنطرون التى كان الفاطميون يحتكرون تجارته . كما كان لأهل جنوة جالية بالإسكندرية ، وقد أقامت حكومة البندقية علاقات تجارية واسعة مع الفاطميين فى مصر ونقلت سفنها منتوجات آسيا إلى أوربا[٣] .

وكانت الدولة البيزنطية ، برغم سوء علاقاتها مع مصر ، بحاجة إلى المصنوعات المصرية الممتازة التى تنتجها مصانع تنيس ودمياط ، ويقبل عليها الأباطرة لتزيين قصورهم . واحتلت المنسوجات المصرية مكانة مرموقة فى أسواق القسطنطينية حيث كان المصريون يجلبون الفراء الوارد من بلاد الروس ، وكان الفسطاط حى يقيم فيه تجار الروم[٤] .

وكانت العلاقات التجارية بين مصر وصقلية وثيقة فى العصر الفاطمى ؛ فكانت أكثر السفن تقلع من مصر إلى إيطاليا وجنوبى فرنسا مارة بموانى صقلية لتبيع ما تحمله من منتوجات مصر وتحصل فى مقابلها على قمح صقلية وفواكهها ومعادنها[٥] .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٦ — ٥٩٧ .

(٢) Hedy, tome l, pp. 104—106.

(٣) Ibid, tome l, pp. 107—129.

(٤) Ibid, tome l, p. 58.

(٥) المقريزى : خطط ج ١ ص ٩٦ .

ولم تقطع علاقة الفاطميين ببلاد المغرب بعد انتقال حاضرة خلافتهم إلى مصر . فقد كانت سفن المغاربة تقلع إلى مصر تحمل حجاج المغاربة كما تقدم أو تبتاع غلات بلاد العرب والحبشة والهند . وقد ذكر أبو عبيد البكرى أن سفن مصر كانت تحمل غلات بلاد المغرب مثل زيت الزيتون والفاكهة ، وتسير السفن إلى المهدية التى بناها عبيد الله المهدى فى إفريقية (بلاد تونس الحالية) وتستمر فى سيرها إلى المغرب الأقصى وتعود محملة بالسلع إلى الإسكندرية[١] .

وكان من أثر تقدم المسلمين فى فن الملاحة أن أخذ الشرق الإسلامى يتصل ببلاد الأندلس ، وأدى ذلك إلى قيام علاقات تجارية بينها وبين سائر البلاد الإسلامية ، حاملة منتجات هذه البلاد ، وكانت الأساطيل التجارية التى ترسو فى موانى إشبيلية ومالقة (بفتح اللام والقاف) ودانية والمرية (بفتح الميم وكسر الراء وفتح الياء مع التشديد) تنقل إلى جميع موانى البحر الأبيض المتوسط محاصيل الأندلس ومنتجات مصانع المدن الأندلسية والمغربية . ونذكر على سبيل المثال أغطية جنجالة وسجاجيد بسطه (بفتح الباء وسكون السين) وفراء سرقطة (بفتح السين والراء وضم القاف وسكون السين) وأوانى مالقة الفخارية المذهبة ، وحلى قرطبة المنقوشة وجلودها ، وأسلحة طليطلة ، وورق مالقة السميك . وقد شاهد ناصر خسرو[٢] فى أسواق الفسطاط قطعة من البلور الصخرى واردة من بلاد المغرب[٣] .

وكانت هذه العلاقات التجارية مستمرة مع مصر التى أصبح تأثيرها على الأندلس قوياً ، كما تدل على ذلك النقوش التى أثبتت وجود هذه العلاقات التجارية . فقد وجد اسم تاجر من الإسكندرية مات فى ميناء المرية سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) منقوشاً على أحد قبور المدينة ، يدل على أنه مات فى أثناء سفره فى العهد الذى كانت المرية تصنع أقمشة فاخرة ذات شهرة عالمية . وفى هذه الحقبة كان الأندلس مغربياً فى عهد المرابطين .

ويذكر البكرى[٣] أن برقة كانت تصدر إلى مصر الذبائح كما تفعل اليوم ، والصوف والعسل والقطران ، وأن القوافل كانت تحمل منتوجات السودان وغانة وحوض السنغال والنيجر إلى واحات مصر ، فتحمل التبر وبعض السلع التى ينتجها إقليم الواحات .

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٥ ، ٣٠ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٨٢ .

(٢) Sefar Nameh, p. 149.

(٣) المغرب ص ٥ .

وكان للمغرب علاقات تجارية واسعة مع أهالى البلاد الواقعة جنوبى الصحراء بين المغرب وبلاد السودان . فقد قال الشريف الإدريسى (١) عند كلامه على مملكة غانة : ومدينة ملال إلى مدينة غانة الكبرى نحو من اثنتى عشرة مرحلة فى رمال ودماس (قفار) لا ماء بها . وغانة مدينتان على ضفتى البحر الحلو (يقصد نهر النيجر) . وهى أكبر بلاد السودان قطراً وأكثرها خلقاً وأوسعها متجراً . وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى . وأهلها مسلمون ، وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . وهو يخطب لنفسه ، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسى . وله قصر على ضفة النيل (يقصد به نهر النيجر أيضاً) قد أوثق بنيانه وأحكم إتقانه ، وزينت مساكنه بضروب من النقوش والأدهان وشمسيات الزجاج . وكان بنيان هذا القصر فى عام عشر وخمسمائة من سنى الهجرة » .

وقد ذكر الشريف الإدريسى (٢) أنه كان بنهر النيجر جزيرة تقع شرقى مدينة غانة ، طولها ثلثمائة ميل وعرضها مائة ميل . ويحيط بها النهر فى سائر السنة . ويطلق الإدريسى على هذا النهر اسم النيل ، ولعله يظن أن نهر النيجر هو امتداد لنهر النيل . وبعد انتهاء موسم الفيضان فى شهر أغسطس وانخفاض مياه هذا النهر ، يقصد أهالى هذه الجهات الجزيرة بحثاً عن التبر ، « فيجد كل إنسان منهم فى بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيراً أو قليلا من التبر . وما يخيب منهم أحد . فإذا عاد النيل (أى النيجر) إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضا ، واشترى أكثره أرقلان (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الراء وفتح القاف)وأهل المغرب الأقصى ، وأخرجوه إلى دور السكك (أى دور صك النقود) فى بلادهم فيضربونه دنانير ويتصرفون بها فى التجارات والبضائع ، هكذا فى كل سنة .

وقد ذكر السلاوى (٣) نقلا عن أبى العباس أحمد الشريشى صاحب كتاب شرح المقامات الحريرية أن تجار المغرب كانوا يجتمعون فى سجلماسة حاضرة بنى مدرار ، ثم يسيرون فى قوافلهم إلى غانة ، فيقطعون المسافة فى ثلاثة أشهر ذهاباً وشهر ونصف إياباً ،

---

(١) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (نصوص من هذا الكتاب بعنوان « المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨ .

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٥ ص ٩٩ — ١٠٠ .

فيبيعون ما معهم من الأمتعة والأثقال بالتبر . ويحدثنا الشريشى أن التاجر المغربى كان إذا سافر إلى غانة بثلاثين حملا ، رجع منها بثلاثة أحمال أو حملين : واحد لركوبه وثان للماء وذلك بسبب اختراقه المفازة » . وكان التجار يقطعون هذه المفازة فى ستة عشر يوما لا يرون فيها ماء إلا ما حملوه على ظهور إبلهم . وقد أضاف الشريشى إلى ما تقدم أن أثمان أحمال الثلاثين جملا يوضع فيها من التبر ما يملأ مزوداً [١] واحداً وهذا يؤيد رأى الشريف الادريسى فى استخراج التبر واستعماله فى هذا العصر [٢] .

وقد جاءت عظمة غانة عن طريق اشتغالها بالتجارة وموقعها عند أطراف الصحراء الكبرى . وكان التجار البيض المستقرون يستطيعون التحكم فى التجارة السودانية من الذهب والرقيق ، وأن يبادلوها بالسلع التى تحملها القوافل من المغرب الأقصى ، وهى ملح الطعام والنحاس والفواكه المجففة . ويوجد الذهب فى بلاد تسمى ونقاره (بفتح الواو والراء وسكون النون) (Wangara) ، وكانت تقع خارج حدود مملكة غانة . وكانت شعوب الماندنجو يستخرجون الذهب من هذه الجهات ويبادلونه بالملح والسلع الأخرى المجلوبة من غانة . ويتم التبادل بطريقة تسمى التبادل الصامت (Dumb Barter) . ذلك أن تجار غانة يضعون متاجرهم على شاطىء أحد الأنهار ثم يختفون عن الأنظار ، فيتقدم أصحاب التبر إلى هذا المكان ويضعون بجوار هذه السلع قيمتها تبراً ، ثم ينسحبون . فيظهر أهل غانة من مخابئهم ، فإذا رضوا بكمية الذهب أخذوها ، وإن لم يرضوا اختفوا مرة أخرى حتى تزاد الكمية . وكانت هذه الطريقة فى المبادلة شائعة فى القارة الإفريقية فى العصور الوسطى .

وكانت تجارة الذهب تلعب دوراً هاماً فى اقتصاديات العصور الوسطى ؛ فكانت تصدر إلى بلاد المغرب وإلى غربى أوروبا [٣] .

وحول منتصف القرن السابع الميلادى أحرز بعض قبائل لمطة (بفتح اللام وسكون الميم وفتح الطاء) البربريه فى المغرب الأقصى نفوذاً سياسياً على زراع مملكة صنغاى (بضم الصاد

---

(١) المزود مخلاة يوضع فيها العلف للبعير ، والمزود كذلك هو موضع وضع علف الحيوانات فى الحظائر.

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ٧٤ — ٧٥ .

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ٩٨ .

وسكون النون) الذين استقروا على الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة (Dendi)[١] ، واستطاع هؤلاء البربر أن يؤسسوا أسرة حاكمة تسمى ديا (Dia) حكمت هذه للبلاد حتى سنة ١٣٢٥ م واتخذت كوكيا حاضرة لهم[٢].

وقد تمت علاقات هذه البلاد التجارية مع غانة وتونس وبرقة ومصر عن طريق تادمكة (أى مكة الجديدة) الذى يعد مركزاً هاماً لطرق القوافل . وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد فى تحول ملوك هذه البلاد إلى الإسلام فى القرن الحادى عشر الميلادى عن طريق شمالى إفريقية ، وإن كان كثير من رعاياهم قد ظل على الوثنية .

وفى ذلك الوقت نقلت حاضرة هذه البلاد على مقربة من طرق القوافل الرئيسى : إلى مدينة جوا (بضم الجيم) عند منحنى نهر النيجر . وقد أصبحت هذه المدنية من أهم مراكز التجارة فى السودان الغربى ، وهى تشبه مدينة غانة بالنسبة إلى البلاد الواقعة فى أعالى النيجر[٣].

(ح) الأسواق :

وقد اعتاد المسلمون أن يقيموا الأسواق فى أوقات معينة فى المدن التجارية الهامة التى تعتمد على الأسواق . وتقيم كل طائفة من التجار فى قسم من أقسام هذه الأسواق ، ولا يعودون إلى دورهم إلا فى المساء .

أما أسواق المدن فكانت تقام فى أيام معينة من الأسبوع ، وكانت الحوانيت فى مصر والشام وفلسطين والمغرب تمتد على طول الشوارع من الجانبين وحققت للتجار الغرباء فنادق أشبه بالأسواق الكبيرة . ويضع التجار ـ كما يذكر ابن الفقيه[٤] بضائعهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها ويغلقون غرفهم بأقفال رومية . ويطلق على هذه الأسواق أو المخازن (depots): الفنادق أو القياسر مفرده قيسارية .

---

(١) للوقوف على نشأة هذه المملكة راجع السعدى : تاريخ السودان (طبعة باريس ١٩٨) ص ٣٣ وما يليها . راجع كتاب الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٦٩ .

(٢) لايعرف موقعها بالضبط ، ويمكن أن يقال إنها تقع على حدود نيجيريا فى المنطقة الشمالية الغربية .

(٣) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية ص ٦٦ — ٦٧ .

(٤) كتاب البلدان ص ٥١ .

وهناك خانات أو مخازن كبرق ، كدار البطيخ بالبصرة ، ترد إليها جميع أصناف الفاكهة[١] . أما فى بلاد المشرق الاسلامى ، فكانت الحوانيت تكون صفوفاً فى مكان واحد .

كان الرومان يحكمون شمالى أفريقيا ، وقد أطلق على إمبراطورهم اسم « قيصر » . وكان بكل مدينة سوق كبيرة أطلق عليها اسم قيسارية (تحريف قيصرية) نسبة إلى قيصر . ويعلل المؤرخون الأفارقة ذلك بأن الموظفين الرومانيين كان لهم فى داخل المدن فنادق وحوانيت يبيعون فيها مايتقاضونه من هذه المدن عيناً (أى سلعاً) كضرائب وإتاوات ، ثم يبيعون هذه السلع فى تلك الحوانيت والفنادق فى داخل المدن . وكثيراً ماكان الأهالى ينهبون هذه المخازن . لذلك رأى أباطرة الرومان أن ينشئوا فى كل مدينة حياً صغيراً يجتمع فيه التجار ويحفظون فيه سلعهم ، ويختزن الموظفون المكلفون بالجبايات كل مايحصلون عليه من السلع ، وإذا أراد رجال المدينة أن يدافعوا عن أموالهم الخاصة اضطروا إلى أن يدافعوا ويحافظوا على أموال الإمبراطورية ويحولوا بذلك دون نهبها[٢] .

وكانت الدولة الفاطمية تجبى مبالغ كبيرة من الجمارك أو المكوس المفروضة على الصادرات والواردات . فكانت السفينة إذا رست فى الميناء صعد إليها موظفون معينون سماهم ابن جبير « الأمناء » ، ومهنتهم « تقييد جميع ماجلب فيها من بضائع ، ثم يساق التجار بعد ذلك إلى مكان التفتيش[٣] » . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى مقاومة التهريب حتى لاتفلت البضائع من الرسوم المقررة عليها . أما القوافل فإنها لم تكد تصل إلى حدود البلاد حتى يهرع إليها الأمناء لتحصيل الرسوم المستحقة عليها[٤] .

وكانت الدولة تتقاضى من تجار الروم الواردين على الثغور خمس ثمن السلع ، ومن الروم ١٠ ٪[٥] . وكانت نسبة الرسوم تبلغ أحياناً ٣٥ ٪ من قيمة السلع ، وقد تنخفض

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) الحسن الوزان (ليون الإفريقى) Description de l'Afrique, p. 199.

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٧ .

(٤) ابن مماتى: قوانين الدواوين ص ٣٤٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٢٦ .

إلى ٢٠ ٪ (١) ، ويرجع ذلك إلى اختلاف أنواع السلع وقيمتها وجنسيات التجار . فكان تجار المسلمين الوافدون من الشرق أو الغرب يؤدون رسوماً أقل مما يؤديه تجار المسيحيين . ولم يكن التجار الأوربيون يعاملون معاملة واحدة ؛ فكانت الرسوم الجركية تخفض على واردات دور الصناعة ، من الخشب والحديد بسبب حاجة الدولة إلى هذه المواد . هذا عدا رسوم إضافية يدفعها التاجر مقابل استخدام المترجمين والحالين وعمليات الوزن (٢) .

وإذا وصلت السلع إلى الميناء نقلت إلى الفندق أو الوكالة حيث يجرى تثمينها بواسطة سماسرة تعينهم الدولة التى تستولى على ما تحتاج إليه من بعض المواد كالحديد والخشب والقطران (٣) ، وتسمح للتجار الأوربيين بإقامة الفنادق فى الموانى الهامة ، ولكل جالية أوربية فندقها الخاص ، تقيم فيه وتحفظ فيه بضائعها . ويضم الفندق كنيسة صغيرة يقيمون فيها شعائرهم الدينية ، وفرن يصنعون فيه الخبز ، وحمام ، ودار لصنع النبيذ . وتختار الجالية واحداً من أفرادها يطلق عليه اسم الفندق للإشراف على الفندق ، وهو مسئول أمام الحكومة (٤) .

ويبدو أن الفنادق لم تكن منتشرة فى الموانى فحسب ، بل كانت منتشرة أيضاً فى داخل البلاد : فقد ذكر ابن حوقل أنه كانت هنالك فنادق بمحله صرد والبجوم والكريون (٥) . ولا يبعد أن يكون عدد هذه الفنادق قد تضاعف فى العصر الفاطمى بسبب رواج التجارة ووفرة رءوس الأموال وشدة إقبال التجار الأجانب على ارتياد أسواق مصر (٦) .

وكان التجار المسلمون يقيمون وكالات خاصة بهم بمثابة مخازن لبضائعهم ومنازل يقيمون بها عند ما يقيمون بمصر . وتصبح هذه الوكالات صلة بينهم وبين التجار المصريين

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣ .

(٢) Heyd, tome, l. pp. 391 — 392.

(٣) ابن مماتى ص ٣٢٧ .

(٤) المقريزى (خطط ج ٢ ص ٩٢ — ٩٤) ومنها فندق بلال المغيثى حيث تباع صناديق الذهب والفضة ، وفندق الصالح ، وفندق ابن قريش ، وفندق دار التفاح حيث ترد إليه الفواكه التى تنبت فى بساتين ضواحى القاهرة من التفاح والكمثرى والسفرجل . وتنقل من هذا الفندق إلى سائر أسواق القاهرة ، وفندق طرنطاى وينزل به تجار الزيت الوافدون من الشام .

(٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

(٦) البراوى ص ٢٧١ .

الذين كانوا بدورهم ينشئون وكالات من هذا النوع فى بلاد الشام والعراق والحجاز [١] .
أما القياسر فهى « كالخان العظيم تغلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض [٢] » . والقيسارية مجموعة من المبانى العامة على هيئة رواق من أروقة الدير ، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ، وأحياناً مساكن [٣] » . وقد كثرت القياسر فى العصر الفاطمى وعمرت بالتجار الوافدين عليها من كل فج [٤] . كما كثرت الخانات بمصر فى ذلك العهد [٥] وارتفعت إيجاراتها ، حتى بلغ إيجار الخان بمدينة الفسطاط إثنى ألف دينار فى السنة [٦] .

وقد وصف المقدسى [٧] أسواق الفسطاط فى عهد الفاطميين فقال : « به أطعمة لطيفة وأدامات (بضم الألف مع الهمزة) نظيفة ، وحلاوات رخيصة ، كثير الموز والرطب ، غزير البقول والحطب ، خفيف الماء صحيح الهواء » ، وكانت أسواقها فى غاية النظافة والنظام ، وتصطف فيها القياسر والدكاكين العامرة بمختلف أنواع السلع ، وقد بلغ من ازدحام أسواقها بالناس أن شبهت بالجوامع . ومن أشهر أسواقها : سوق القناديل ، وقد بلغ من روعة هذه الأسواق ما ذكره المقدسى [٨] الذى شاهد المدن العظام . فقال :

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٦٢ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٤١ .

(٣) انظر مادة قيسارية فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) أمدنا المقريزى (خطط ج ٢ ص ٨٦ — ٩١) بكلام مستفيض عن القياسر فى مصر . ومن هذه القياسر : قيسارية ابن قريش ، وقيسارية الشرب ، وقيسارية ابن أبى أسامة ، وقيسارية بيبرس ، وقيسارية سنقر الأشقر ، وقيسارية جهاركس ، وقيسارية العصفر حيث يدق العصفر ، وقيسارية العنبر ، وقيسارية الجامع الطولونى ، وقيسارية ابن ميسر الكبرى حيث يباع الكتان الأبيض والأزرق والطرح ، وقيسارية عبد الباسط وبها مارستان ووكالة .

(٥) ومن أهمها خان مسرور حيث كانت تباع مهمات الأساطيل والرقيق وخان السبيل لإيواء أبناء السبيل والمسافرين بدون أجر ، وخان منكورش ، وخان الخليلى (المقريزى : خطط ج ٤ ص ٩٣ — ٩٤) .

ويلاحظ أن بعض هذه الفنادق والقياسر والخانات يرجع إلى العهد المملوكى ، فان بعضها لا يزال باقياً حتى الآن .

(٦) انظر كتابى تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٨ — ٦٢٠ .

(٧) أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .

(٨) المصدر نفسه ص ١٩٩ .

« يطول الوصف بنعت أسواقها وجلالته ؛ غير أنه أجل أمصار المسلمين وأكبر مفاخرهم وآهل بلدانهم » .

وبرغم ازدحام الفسطاط بالسكان ، رخصت أسعارها ، فكان الثلاثون رطلا من الخبز تباع بدرهم ، والبيض تباع الثمانية بدانق (وهو سدس درهم) . وكان الموز والرطب فى غاية الرخص [١] . ويرد إليها من الصعيد : الأرز والصوف والتمور والخل والزبيب ؛ ومن تنيس الثياب الملونة ، ومن دمياط القصب ، ومن الفيوم الأرز والكتان ، ومن الفرما السمك ، كما كان يرد إليها الجلبان ودهن الفجل والزئبق [٢] .

وقد وصف ناصر خسرو [٣] مدينة الفسطاط بعد المقدسى بنحو نصف قرن ، فقال حين زارها بين سنتى ٤٣٩ و ٤٤١ هـ إن سوق القناديل كان يزخر بالتحف النادرة التى ترد إليها من جميع أنحاء العالم . وأن بها من الخانات ما لا يقل عن ألفى دكان يتراوح إيجار الواحد من دينارين إلى عشرة دنانير ، وبها من السفن أكثر مما كان ببغداد والبصرة ، كما رأى بها عمارات شاهقة بلغ عدد طبقاتها أربعة عشر طابقاً .

ومن مظاهر الحضارة بمدينة الفسطاط فى عهد الفاطميين الأسواق التجارية التى كانت عامرة بحوانيت البزازين (أى بائعى الثياب) والمأكولات على اختلاف أنواعها . ومن هذه الأسواق : سوق الدجاجين حيث يباع الدجاج والأوز (بكسر الألف مع الهمزة) ، وبه حانوت العصافير وآلاف الأقفاص التى بها هذه العصافير وأنواع الطير كالقمارى والهزارات والشحارير والببغاء والسمانى .

وكان سوق « الحلاويين » من أبهج الأسواق ، يشاهد فيه الأوانى وآلات النحاس الثقيلة الوزن البديعة الصنعة . ومن الحلاوات المصففة ، وتسمى المجمعة عدة ألوان . وفى هذا السوق معامل يصنع فيها من أمثال الخيول والسباع والقطط وغيرها ، وتسمى « العلاليق » ، وترفع بخيوط على الحوانيت ، منها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل ، وتشترى للأطفال ، ويقبل على شرائها الناس على اختلافهم . وتمتلىء أسواق الفسطاط والقاهرة وريف مصر بهذا النوع من الحلوى .

---

(١) المصدر نفسه ١٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ٢٠٣ .

(٣) Sefar Namêh, pp 127, 145, 149, 153.

وقد وصف الحسن الوزان أسواق مدينة فاس وصفاً شائقاً فقال : إنه كان لكل حرفة سوقها الخاص ، وإن أهم هذه الأسواق كان يحيط بجامع القرويين . نذكر من هذه الأسواق على سبيل المثال سوق العدول وكان لهم ثمانون دكاناً ، وسوق الإسكافية حيث تصنع أحذية الأطفال ، وسوق النحاسين ، وسوق الفاكهة ويضم خمسين حانوناً ، وسوق الزهور . وقد ذكر الوزان أنه إذا شاهد الإنسان كثرة الزهور وتنوعها اعتقد أنه إنما يشاهد أحسن البساتين وأجمل زهور الدنيا ، وبعبارة أخرى خيل إليه أنه يشاهد لوحة تضم أجمل وأزهى الألوان .

ومن أهم أسواق مدينة فاس سوق الحقائب والمحافظ التى تصنع من الجلد الفاخر ، وقد بلغ عدد حوانيته الثلثمائة .

ومن أسواق فاس سوق الجزارين وسوق الثياب المصنوعة من صوف المغرب ، وسوق الأسلحة ، وسوق السماكين ، وسوق الدجاج ، وسوق الدقيق ، وسوق الخيوط التى يصنع منها نسيج القنب والكتان والقطن ، وسوق صانعى سروج الخيل ، وسوق الحدادين ، وسوق صانعى الرماح . وهناك أحياء تباع فيها الأغطية الصوفية والثياب الحريرية كالقلانس والمراتب والزرابى الجلدية الصغيرة ، ويشغل الخياطون ثلاثة أحياء . وهناك حى خاص بطى وخياطة العمائم ، وحيان لبائعى المنسوجات والقمصان والثياب النسوية ، وهؤلاء هم أغنى تجار فاس ، ويجنون من وراء ذلك أرباحا طائلة . ثم يأتى حى تباع فيه الملابس المصنوعة من النسيج المجلوبة من أوربا ، وأخيراً يأتى حى تباع فيه الفوط والحصر والقمصان البالية .

وقد ذكر الحسن الوزان عند كلامه على سوق العطارين بمدينة فاس أنه كان يشغل شارعا مستقيما به نحو مائة وخمسين حانوتا . وكان هذا الشارع يغلق من طرفيه ببابين جميلين يمتازان بمتانتهما . وكان العطارون يدفعون أرزاق الحرس الذين يجوبون الشارع خلال الليل ومعهم كلاب وفوانيس (١) .

وذكر المراكشى (٢) أن الخراج بلغ فى عهد الموحدين وقر مائة وخمسين بغلا من إفريقية وحدها ، عدا بجاية وأعمالها ، وتلمسان وأعمالها ، وأن عبد المؤمن بن على وجه

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٥٥ .

همه لتشجيع الزراعة وإصلاح الحالة الاقتصادية ببلاد الأندلس، وإن الازدهار الاقتصادى الذى عرفه المغرب فى عهد الموحدين يرجع إلى اتساع رقعة الدولة الموحدية واستتباب الأمن واستقرار الحياة، وتشجيع التجارة والصناعة التى تتمثل فى إنتاج الأسلحة وفى البناء والتشييد ونشر الثقافة وغيرها من مظاهر العمران (١).

وقد روى عباس بن إبراهيم (٢) عن الإدريسى (٣) الذى وصف مراكش فى عهد المرابطين بقوله: « وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة ».

العملة:

وإلى الصين يرجع الفضل فى إدخال العملة المعدنية والعملة الورقية التى أطلق عليها المسلمون اسم الورق (بفتح الواو وكسر الراء) وأخذها عنهم الأوربيون. ومن المرجح أن الصين قد عرفت هذه النقود قبل الميلاد بنحو تسعة قرون. ويشك بعض فى هذا الرأى، فيزعم أن العملة المعدنية اخترعت فى بلاد اليونان أولا، ويذكر بعض آخر أن انتقال هذا النوع كان نتيجة غزوات المغول فى القرن الثالث عشر الميلادى.

وكانت العملة المستعملة فى الأسواق: العملة الذهبية وهى الدينار، وهى مشتقة من دينار يوس Denarius اليونانية، والفضية وهى الدرهم وهو فارسى الأصل. وكان الدينار شائعا فى البلاد الغربية للدولة الإسلامية، وخاصة فى البلاد التى كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل الإسلام. أما الدرهم فكان استعماله شائعا فى العراق وفارس. إلا أن استعمال الدنانير لم يلبث أن أصبح فى القرن الرابع الهجرى شائعاً فى بلاد العراق وغيرها من البلاد الإسلامية.

وكان الدينار يختلف من حين إلى حين ومن بلد إلى بلد. فتارة يساوى ١٠ دراهم، وتارة يساوى ١٣ درهما، وتارة أخرى يساوى ١٥ درهما.

ومن وسائل التعامل الصك. وهو أشبه بالشيك الآن. وقد ذكر الخوارزمى (بضم الخاء وفتح وكسر الراء وسكون الزاى) فى كتابه مفاتيح العلوم أن الصك كان يجمع فيه أسماء المستحقين وعددهم وما يستحقونه من المال. ثم يوقع الخليفة أو السلطان أو الأمير

---

(١) عبد العزيز بن عبد الله: مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ ص ٤.

(٢) الإعلام فيمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ج ١ ص ٦٣ ومايليها.

(٣) نزهة المشتاق (نصوص بعنوان المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس) ص ٦٧.

بتوقيعه فى آخر الصك باعتماد دفع هذه الأرزاق أو الرواتب . وكثيراً ما ذكر الفردوسى لفظ « شيك » .

ومع هذا الاختراع انتقلت الألفاظ والاصطلاحات الخاصة به ؛ وهى ترجع إلى أصل فارسى أو عربى . وما زالت هذه الصكوك متداولة فى اللغات الأوربية حتى اليوم . ففى اللغة الهندية مثلا (ويطلق عليها الأردية بضم الألف مع الهمزة وفتح الياء مع التشديد) تجد أفال (بفتح الألف الأولى مع الهمزة) وهى حوالة (بفتح الحاء) العربية .

وقد ذكرنا فى الباب الأول أن الملاحين الذين نقلوا السلطان ملكشاه السلجوقى هو وجيوشه عبر نهر جيحون تسلموا من وزيره نظام الملك حوالات تسلموا قيمتها من العامل السلجوقى بانطاكية ليدركوا مدى اتساع أملاك هذا السلطان .

وقد حرم الإسلام التعامل بالربا ، ولكن اليهود والنصارى أباحوه لأنفسهم فى بعض الأحيان . ومن المعلوم أن التجارة فى العصور الإسلامية الأولى ، بل إلى عهد قريب ، كانت تقوم على الثقة المتبادلة .

الباب العاشر

الثقافة

١ — مراكز الثقافة الإسلامية

كان من أثر كثير من الدول التى استقلت عن الخلافة العباسية أن نشطت الحركة الفكرية وراجت الثقافة وزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم ، ومن ثم نرى صدى هذه النهضة فى بلاط كل من الغزنويين فى الشرق والفاطميين والأيوبيين فى مصر والأمويين فى الأندلس ، والمرابطين والموحدين فى المغرب .

أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التى اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية . وخير مثل لذلك هذه الآثار التى خلفها العلماء من السنيين والشيعيين ، وما كان لها من أثر فى النهضة العلمية التى يتميز بها هذا العصر على الرغم مما انتاب العالم الإسلامى بوجه عام من تفكك وانحلال ، وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف ووهن ، ولو أن قيام هذه الدول قد ساعد على زيادة الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار العلم تبعاً لذلك .

كانت هناك فى العصر العباسى الثانى مراكز عدة للثقافة جذبت إليها رجال الأدب منها :

١ — أصبهان والرى حيث أقام بوجه عام الصاحب إسماعيل بن عباد الذى تقلد الوزارة لمؤيد الدولة ابن ركن الدولة البويهى . وكان بلاط بنى بويه هنالك كعبة يؤمها العلماء ورجال الأدب .

٢ — البلاط السامانى فى بخارى حيث زخرت مكتبة نوح بن نصر السامانى بكثير من الكتب النادرة .

٣ — بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير فى طبرستان القريبة من بحر قزوين .

٤ — بلاط خوارزم شاه مأمون الثانى بن مأمون فى خيوة . وقد آلت بلاده إلى حكم محمود الغزنوى .

٥ — بلاط السلطان محمود الغزنوى فى غزنة . وكان من أحسن السلاطين ميلا للأدب وتشجيعاً للعلماء .

٦ — بلاط السلاجقة فى مرو حاضرة خراسان حيث أقام أمراء السلاجقة ولا سيما فى عهد السلطان سنجر ثم فى عهد أمراء الخوارزميين . وقد أقام ياقوت الحموى طويلا فى هذه المدينة وأخذ العلم على علمائها وأفاد من خزائن كتبها . وقال إن مرو « أخرجت من الأعيان وعلماء الدين والأركان ما لم تخرج مدينة مثلهم » . كما أطنب ياقوت فى وصف خزائن الكتب فى مرو حين فارقها أمام غارات التتار سنة ٦١٦ هـ التى قال عنها : « وفيها عشر خزائن للوقف لم أر فى الدنيا مثلها كثرة وجودة[1] » .

٧ — بلاط الحمدانيين فى الموصل وفى حلب ولا سيما فى عهد سيف الدولة الحمدانى .

٨ — بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين فى مصر . وقد عاد للفسطاط رونقها وبهاؤها بعد تخريب مدينة القطائع على أثر زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ، فنبغ فى عهد الإخشيديين كثير من الفقهاء والعلماء والمؤرخين والشعراء . وبذت القاهرة الفسطاط والقطائع فى عهد الفاطميين ، وأصبحت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم مراكز هامة للثقافة ، ولا سيما بعد أن حول يعقوب بن كلس الأزهر فى سنة ٣٧٨ هـ إلى جامعة تدرس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية . وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة ، وألحقوا بها مكتبات تحتوى على مئات الألوف من المصنفات .

٩ — وقد نافست قرطبة : بغداد والقاهرة وبخارى وغزنة وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية ، وأصبحت حاضرة الأمويين فى الأندلس سوقاً نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب ، وجذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها للتزود من الثقافة الإسلامية .

٢ — معاهد الثقـــافة

(١) المسجد :

كان المسجد أعظم معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة وغيرها من العلوم ، وأصبح كثير من المساجد مراكز هامة للحركة العلمية ، وانصرف بعض فقراء المسلمين لطلب العلم فى المسجد النبوى الشريف حيث بنى الرسول الصُّفة ، وهى مكان مظلل فى شمالى المسجد يأوى إليه فقراء المسلمين الذين حبسوا أنفسهم لطلب العلم .

---

(١) أنظر لفظ مرو فى معجم البلدان لياقوت .

وكان المسجد فوق اعتباره مكان العبادة والمكان الذى يؤم فيه الخليفة الناس فى الصلاة ، مركزاً لإدارة شئون الدولة أو الولاية . وكان المنبر أشبه بالعرش ، يلقى منه بيان الخليفة لسياسة الدولة ، ويلقى فيه خطبته الأولى ويبين فيها سياسته فى الحكم . وفى المسجد تذاع القرارات الهامة التى تتعلق بالصالح العام ، ويستقبل الخليفة السفراء ويدبر شئون الدولة . والمسجد هو المكان الذى يتخذه علماء التفسير والحديث مقراً لهم ، وهو المعهد الذى يتلقى فيه الأطفال اللغة العربية وأصول الدين ، وهو المكان الذى اتخذه القضاة لعقد جلساتهم ، بل لقد اتخذ بعض المساجد أماكن يلجأ إليها المسلمون ويصدون منها الأعداء . وسرعان ما فقدت المساجد أهميتها واقتصرت على إقامة الصلوات الخمس وذكر اسم الخليفة فى الخطبة ، وذلك بعد انتشار المعاهد والجامعات . على أن بعض المساجد ما يزال حتى الآن معاهد دراسية تدرس فيها العلوم الدينية ، ويقوم بذلك أئمة المساجد .

وكان مسجدا عمرو وابن طولون من أهم مراكز الثقافة فى عهد الطولونيين والإخشيديين ، ثم أصبح الأزهر فى عهد الفاطميين مركزاً هاماً للثقافة ومثابة للعلماء وخاصة فقهاء المذهب الشيعى . وأهم خصائص الأزهر أنه وإن كان قد بدأ كغيره من المساجد ، لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب الكثير من مختلف العلوم والفنون . وكان يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله الفاطمى أول من فكر فى تحويل الأزهر إلى جامعة . وكان العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء والسلاطين والأمراء يشجعون الطلاب من وطنيين وأجانب ، فيقدمون إليهم المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل الراحة من غير أجر ، وأصبح يدرس فى الأزهر التوحيد والفقه واللغة والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم(١) .

ومن هذه المعاهد الثقافية مسجد القرويين بفاس . وقد أنشىء حول منتصف القرن الثالث الهجرى ، ثم أصبح مركزاً هاماً للثقافة الإسلامية . كما أصبحت هذه الجامعة شاهداً على ديمقراطية التعليم وعلى طرق التدريس ومراحل التعليم وتخصيص كراسى الأستاذية وشروط التعيين فى وظائف التدريس ومراسيم تعيينهم ودرجاتهم العلمية والإجازات الفخرية ومجالس أوصياء الكليات ، والمساكن الجامعية للأساتذة والطلاب والمكتبات الجامعية . وفى هذه الجامعة الإسلامية وضع أساس التقاليد الجامعية التى تسير عليها الجامعات فى الأمم الراقية ، كحفلة افتتاح الدراسة ، وحفلة التخرج ، وسلطان الطلبة

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٦٣ .

وغير ذلك من الشواهد التى تدل دلالة واضحة على أن المسلمين سبقوا الأوربيين فى ديمقراطية التعليم . ومن ثم ظهرت بجامعة القرويين بفاس طائفة من العلماء الذين تفوقوا فى مختلف العلوم والفنون .

وقد جذبت مساجد قرطبة الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية . ومن ثم ظهرت فيها طائفة من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين وغيرهم .

(ب) الزاوية :

ومن معاهد العلم « الزاوية » ، وهى مأخوذة من الفعل انزوى ينزوى ، وبمعنى اتخذ ركناً من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد . وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى هذا الانزواء ، فأنشئوا لهم مساكن ملحقة بالمسجد ، كما نشاهد ذلك ماثلا حتى الآن ببعض مساجد فاس والقاهرة . ثم تطورت الزوايا فيما بعد إلى أبنية صغيرة منفصلة فى جهات مختلفة من المدينة فى شكل دور أو مساجد صغيرة يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس ، ويتعبدون فيها ويعقدون بها حلقات دراسية فى علوم الدين وما يتصل بالدين من العلوم النقلية والعقلية . كما يعقد فيها مشايخ الطرق الصوفية حلقات الذكر . وتطلق الزاوية أيضاً على المعهد والرباط الذى تنشئه إحدى الفرق الصوفية كالقادرية والتجانية والسنوسية والشاذلية والخلوتية . وتنتشر الزوايا فى كثير من أرجاء المدن والقرى .

وتطلق كلمة زاوية فى المغرب على مسجد خاص بطائفة من الصوفية أو ضريح لأحد الأولياء ، تتصل بها غالباً مقبرة يدفن فيها بعض من لهم علاقة بالطريقة أو قرابة بالولى . وكثيراً ما تلحق بالزاوية حجرات ينزل فيها الضيوف والمنقطعون للعلم أو العبادة . وكانت الزاوية المغربية « مدرسة دينية وداراً لضيافة الأغراب » .

وفى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) انتشرت الزوايا فى المغرب ، وأنشئت بها كتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم الدين ومبادىء العلوم ، الأمر الذى حدا بملوك بنى مرين أن يطوروا هذه الكتاتيب إلى مدارس وكليات ، ليسهموا فى الحركة العلمية بجانب جامعة القرويين بفاس وغيرها من مدارس الزوايا فى داخل المدن وفى خارجها وقد خصص ابن مرزوق التلمسانى المتوفى سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) الفصل الثانى

والأربعين من رسالته عن أبي الحسن المريني المسماه « المسند الصحيح الحسن » للكلام على الزوايا التي شيدها هذا الملك المغربي[١] .

وقد تطورت الزوايا بالمغرب في القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) حين اشتدت وطأة النصارى على المسلمين في الأندلس ، وامتدت أطماعهم إلى احتلال السواحل المغربية . ولما ضعفت الدولة عن الدفاع عن البلاد ، أخذت الزوايا تدعو إلى الجهاد ومقاومة الأجنبي ، وبلغت أوج ازدهارها في القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ، واستطاعت أن تجلس على العرش المغربي أسرة الشرفاء السعديين ، وأن تقف معهم جنباً إلى جنب في الجهاد ضد المسيحيين المحتلين . وقد وفقت هذه الزوايا إلى طردهم من بعض الثغور المغربية .

كذلك تطورت الزوايا في المغرب في خلال القرنين العاشر والحادى عشر للهجرة (السادس عشر والسابع عشر للميلاد) ، حتى أصبح عددها يقرب من عدد المساجد أو يفوقها ، واختلط فيها أمر الصالحين بمدعى الصلاح من ذوى الأغراض الفاسدة والمشعوذين . على أن هنالك بعض الزوايا التي لم يحد أهلها عن سبيل الدين وأجمع الناس على صلاحهم واستقامة سلوكهم ، وظهرت نتائج أعمالهم ، كالدلائيين والفاسيين والناصريين .

ولم تكن هذه الزوايا الثلاث بمعزل بعضها عن البعض الآخر ، على الرغم من اختلاف مواقعها ، وإنما كان يجمع بينها التزاور في حل المشاكل الاجتماعية . ومن المقرر عند الأشياخ أن العلم إنما أحياه بالمغرب ثلاثة من الشيوخ هم : سيدى محمد بن أبي بكر الدلائي ، وسيدى محمد بن ناصر في درعة ، وسيدى عبد القادر الفاسي[٢] . وإلى جانب هذه المراكز الدينية الهامة كانت زاوية العياشية ، وهي ربيبة الدلائيين ، تقوم بدور مماثل في منحدرات الأطلس المطلة على أراضي تافيلالت وواحات الصحراء ، ولا تزال محتفظة بمكتبتها التي تزدخر بكثير من الكتب إلى اليوم .

(حـ) الكتاب والمدرسة :

والكتاب مشتق من كتب ، والمكتب (بضم الميم وسكون الكاف وكسر التاء) أو للمكتِّب (بضم الميم وفتح الكاف وكسر التاء مع التشديد) هو الذى يعلم التلاميذ الكتابة .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، العدد التاسع ، المجلد العاشر ص ٣٣٢ .
(٢) محمد بن أحمد الفاسي : المورد الهني ، مخطوط ، الخزانة العامة بالرباط ورقة ٢ ب .

ولم تكن هناك مكاتب خاصة يتلقى فيها التلاميذ العلوم الدينية بانتظام ، بل كانوا يختلفون إلى المسجد . ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . وكانت المدرسة الأولى بهذا المعنى هى المدرسة البيهقية فى نيسابور[١] .

وقد ذكر ابن الأثير أن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) أسس المدرستين المشهورتين اللتين تعرفان باسمه فى بغداد ونيسابور ، وتعرف كل منهما باسم المدرسة النظامية . كما أسس نظام الملك المدرسة الحنفية ببغداد . وكان الإمام الغزالى يقوم بالتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد ثم فى نيسابور فى أواخر القرن الخامس الهجرى . ولما زار السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك بغداد سنة ٤٧٩/١٠٨٦ ، زار الوزير المدرسة النظامية وجلس فى خزانة كتبها وطالع بعض الكتب وألقى على الطلاب درساً فى الحديث وأملى عليهم جزءاً آخر[٢] ، كما أجرى هذا الوزير الجرايات والمخصصات المالية على مدارسه وأملى الحديث ببغداد وخراسان وغيرهما[٣] ، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن نظام الملك كان من رجال العلم المشهورين فى ذلك العصر ومن أكبر المشجعين على نشر الثقافة عامة والثقافة الإسلامية خاصة .

كما بنى نظام الملك الرصد وعين له جماعة من أعيان المنجمين على رأسهم عمر الخيام . وكان نظام الملك يجمع بداره الفقهاء والعلماء الذين كانوا يلقون منه كل مظاهر التكريم والتشجيع . وقد طلب إليه السلطان نظام الملك أن يكتب له كتاباً فى السياسة ، فألف كتابه المشهور « سياسة نامة » الذى يشير إليه الفردوسى باسم « سير الملوك » .

وقد ذكر ابن خلكان[٤] أن مجلس نظام الملك كان عامراً بالفقهاء والصوفية ، وأنه كان يغدق الأموال على الصوفية .

وقد أخذ نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى هذا النظام عن الفرس فى القرن السادس الهجرى ، ثم نقله صلاح الدين الأيوبى إلى مصر حيث أبطل المذهب الشيعى

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٦٣ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٨ .
(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٧٧
(٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٩٦

مذهب الفاطميين وأقام المذهب الشافعى مقتدياً فى ذلك بنور الدين محمود الذى بنى عدة مدارس للشافعية والحنفية فى دمشق وحلب وغيرهما[١] .

وقد عنى صلاح الدين الأيوبى عناية خاصة ببناء المدارس ومن مدارس الأيوبيين فى مصر مدارس الناصرية والقمحية والسيفية ، والمدرسة الفاضلية التى أسسها فى سنة ٥٨٠ هـ القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى الذى تقلد ديوان الإنشاء فى عهد الخليفة الحافظ الفاطمى (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) واتخذه صلاح الدين وزيراً له . وكان بهذه المدرسة مكتبة تشتمل على مائة ألف مجلد . ومن المدارس التى أنشئت فى عهد الأيوبيين « دار الحديث » التى بناها الملك الكامل « بين القصرين »[٣] ، وتعرف باسم المدرسة الكاملية .

(٤) المارستان :

وقد اهتم العباسيون بنشر العلوم الطبية ، فأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية التى يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد فى موسم الحج ، حيث يعرضون نتائج أبحاثهم كما يعرضون نباتات البلاد الإسلامية ويصفون خواصها الطبية . وقد أصبحت بغداد فى الشرق وقرطبة فى الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية . وقد اقتبس المسلمون فكرة البيمارستان عن السريان الذين تفوقوا فى مهنة الطب فى العصر العباسى الأول ، وقد وضع بعض الخلفاء والسلاطين والأمراء فى المساجد خزائن للأدوية والأشربة وعينوا لها الأطباء لإسعاف المصلين ، وبنوا المارستان للمرضى وأباحوها للناس من غير تمييز فى الأديان والمذاهب ، وقدموا لهم العلاج والطعام بدون مقابل .

ومن أحسن الأمثلة لذلك المارستان الذى أسسه أحمد بن طولون فى أرض العسكر سنة ٢٥٩ هـ وأدخل عليه ضروباً من النظام جعلته فى مستوى أرقى المستشفيات فى الوقت الحاضر . وفى سنة ٣١١ هـ أسندت إمارة مارستان الرى إلى محمد بن زكريا الرازى أشهر أطباء عصره ، ثم أسندت إليه إمارة مارستان بغداد فى عهد الخليفة المكتفى (٣١١ هـ) ،

---

(١) المقريزى خطط ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٧ — ٣٥٩ المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) يعنى القصر الشرقى الكبير الذى بناه جوهر للخليفة المعز الفاطمى والقصر الغربى الصغير الذى بناه العزيز الفاطمى .

ووقد بنى عضد الدولة البويهى (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) كثيراً من المارستانات ، نذكر منها المارستان العضدى ببغداد[١] ، وأسس الأيوبيون فى مصر كثيراً من المارستانات[٢] ، وأنشأ يعقوب المنصور الموحدى بالمغرب المارستان فى مدينة مراكش ، وكان يتفقده بعد صلاة الجمعة فيعود المرضى بنفسه[٣] .

(هـ) بيت الحكمة :

ذكرنا من قبل أن كسرى أنو شروان أسس فى جنديسابور من أعمال خوزستان دارا للعلم بقى أثرها حتى قامت الدولة العباسية . وكان بيت الحكمة الذى يرجح أن يكون هارون الرشيد هو الذى وضع أساسه قد ألحق به ابنه المأمون مرصدا، وخزانة أمدها بالكتب والمصنفات حتى أصبحت من أكبر خزائن الكتب فى العصر العباسى .

وقد نهض المذهب الإسماعيلى على أيدى الفاطميين نهضة بعيدة الأثر من حيث استخدام الدعوة الإسماعيلية لمصلحة الدولة الفاطمية وبسط نفوذها ، فاعتمد عبيد الله الفاطمى أول الخلفاء الفاطميين على المدارس التى أطلق عليها اسم مدارس الدعوة لنشر عقائد المذهب الإسماعيلى بين أشياعه سراً . وقد راجت مدارس الدعوة فى المهدية حاضرة الدولة الفاطمية الناشئة فى عهد عبيد الله المهدى ، ثم راجت فى المنصورية حاضرة هذه الدولة فى عهد حفيده المنصور ، ثم فى القاهرة فى عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين . وقد عرفت هذه المدارس فى مصر باسم « مدارس الحكمة » التى كان لها شأن كبير فى نشر الثقافة الإسماعيلية . ومن هذه المدارس « دار الحكمة » التى أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله . ولم يكن هذا النوع من المدارس مقصوراً على القاهرة وحدها ، وإنما جاوزها إلى أقاليم الدعوة الرئيسية أو بحارها وجزرها كما كان يطلق عليها فى ذلك الحين[٤] .

(و) قاضى القضاة وداعى الدعاة :

وقد عمل دعاة الفاطميين فى مصر على ترويج المذهب العلنى [٥] بين السنيين والشيعيين ،

---

(١) ابن خلكان . وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤١٨ .

(٢) انظر لينبول : سيرة القاهرة (ترجمة المؤلف) ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٣) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٤) Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. I, pp. 305—306

نقلا عن بروكلمان : تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ٢٠١ وما يليها .

(٥) للفاطميين دعوة علنية يذيعونها بين الناس ولهم تعاليم سرية يلقنونها للخاصة من الدعاة .

بحيث يرضى هؤلاء ولا يثير سخط السنيين . لذلك نرى جوهراً والمعز يدخلان عبارات مذهبية كعبارة « حيّ على خير العمل » فى الآذان والقنوت [١] فى صلاة الجمعة ، والدعاء من فوق المنابر لآل بيت الرسول وللخليفة الفاطمى القائم بالأمر ، كما جهروا بالبسملة فى خطبهم وصلاتهم ، إلى غير ذلك . ومما يلفت النظر أن المؤرخين قد تصدوا لهذه التغييرات المذهبية . أما الدعوة السرية فلم يتناولها أحد بالبحث ، بل إن المؤرخين يكادون يجمعون على أن دراسة عقائد المذهب الإسماعيلى وأصوله لم تبدأ إلا فى أواخر عهد الخليفة العزيز بالله ، وكان الدعاة الفاطميون يتناولونها بالبحث والدراسة .

وقد بلغ من عناية الفاطميين بنشر عقائد مذهبهم أنهم فتحوا أبواب قصورهم لأنصارهم من الإسماعيلية ، وأصبح داعى الدعاة يشرف على مجالس الدعوة .

وقد أسندت رياسة الدعوة الإسماعيلية فى عهد الفاطميين إلى موظف كبير أطلق عليه « داعى الدعاة » . وكان يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه . وكثيراً ما كانت وظيفة قاضى القضاة وداعى الدعاة تسند إلى رجل واحد . ويساعد داعى الدعاة فى نشر التعاليم الفاطمية إثنا عشر نقيبا ، وله نواب ينوبون عنه فى البلاد . وبذلك يعتبر الصلة بين الخليفة وأتباعه من الإسماعيلية .

ومن أهم أعمال داعى الدعاة رياسة الدعوة الإسماعيلية ، وأخذ العهد على المريدين ، إما مباشرة أو بواسطة نوابه فى مصر وفى غيرها من البلاد التى ساد فيها المذهب الإسماعيلى ، والإشراف على المحاضرات التى تلقى بمجالس الدعوة . بل لقد بلغ من عناية الفاطميين بهذه المجالس أن المحاضرات التى يلقيها داعى الدعاة ونوابه كانت تعرض على الخليفة لإقرارها قبل أن تلقى على الناس [٢] . وهذا يدل على أن الخلفاء الفاطميين كانوا بصفة عامة من أفقه الناس بعقائد المذهب الفاطمى وتعاليمه .

---

(١) يقرأ القنوت بعد الركوع فى الركعة الثانية فى صلاة الصبح عند الشافعية ، ويقرأ قبل الركوع فى الركعة الثالثة فى صلاة الوتر عند الأحناف ويبدأ القنوت بالعبارة الآتية : اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثنى عليك الخير كله . أما عند الشيعة فإن القنوت يبدأ بعد الركعة الأولى أو قبل الركوع مباشرة أو عند الوقوف بعد الركعة الثالثة من الوتر (بعد صلاة العشاء) . ويكون القنوت فى أبسط صوره بعبارة « إنا لك قانتون » .

(٢) المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، السيرة المؤيدية ، مخطوط بجامعة القاهرة ص ١٢١ .

ومن خصائص داعى الدعاة جمع النجوى من « المؤمنين والمؤمنات » يعنى الإسماعيلية (وكانت ثلاثة دراهم وثلثا) ، وتدوين اسم من يؤدى أكثر من المال المقرر للنجوى . ومن سراة الإسماعيلية مَن دفع النجوى ثلاثة وثلاثين ديناراً . وفى هذه الحالة يعطى شارة فاطمية هى عبارة عن رقعة مذيلة بتوقيع الخليفة تحمل العبارة الآتية : « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك » (١) .

وقد خصص لداعى الدعاة مكان بقصر الخليفة يشرف منه على نشر الدعوة ، فيتصل بالدعاة ويزودهم بتعليماته ، ويقدمون له فى يومى الإثنين والخميس ما أعدوه من المحاضرات التى تلقى فى أصول المذهب الإسماعيلى .

وكان داعى الدعاة يعقد المجالس ويقرأ على الناس مصنفاته فيحاضر الرجال ، كما يعقد فى الأزهر مجلسا خاصا للنساء يسمى مجلس الدعوة يلقنهن فيه أصول هذا المذهب . وكانت هذه المجالس تفرد للناس كل حسب طبقته ؛ فكان لأهل البيت مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، ولخدم القصور مجلس ، وللحوم وخواص نساء القصور مجلس خاص بهن .

وإذا فرغ داعى الدعاة من إلقاء محاضرته على أنصار المذهب الإسماعيلى ، أقبلوا عليه يقبلون يده ، فيمسح على رءوسهم بالجزء الذى يحمل توقيع الخليفة من محاضرته .

وممن تقلد منصب داعى الدعاة : أسرة أبى حنيفة النعمان المغربى ، وابنه على بن النعمان ، والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى .

وكان قاضى القضاة يلى الوزير فى الرتبة ، وتعلو رتبته رتبة داعى الدعاة . وكان بعض فقهاء الإسماعيلية يجمعون بين المنصبين . ومما يدل على صحة هذا القول أنه إذا انعقد مجلس الملك فى قاعة الذهب بقصر الخليفة ، وأخذ زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب أمكنتهم عند الأبواب ، وأخذ غيرهم أمكنتهم المخصصة لهم ، أخذ الأمناء فى تقديم من ينبغى تقديمه للخليفة . فكان الوزير أول من يقدم إلى الخليفة ، فيحيى أمير المؤمنين بلثم يديه وطرف ردائه ، فيأذن له الخليفة بوسادة يجلس عليها إلى جانب الخليفة الأيمن . ثم يتلوه قاضى القضاة ، فيقترب من الخليفة ويحييه برفع يده اليمنى ويشير بسبحته قائلا : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » . وبهذا يتميز على سائر أعضاء

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٩١ .

المجلس اعترافا بمركزه الدينى الرفيع . ثم يسمح لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعاتهم (١) .

كما يتضح ما كان يتمتع به قاضى القضاة من مركز رفيع فى عهد الفاطميين من احتفال الخليفة بصلاة الجمعة . فقد كان قاضى القضاة قبل وصول الخليفة إلى الجامع يحمل المبخرة ، فيبخر المنبر والقبة التى يقف تحتها الخليفة عند إلقاء الخطبة . وقاضى القضاة هو الذى يدخل على الخليفة وهو فى قاعة الخطابة فيشير ببدء الصلاة ، وقاضى القضاة هو ذلك الموظف الكبير الذى يقف مع الوزير على باب هذه القاعة ، وهو الذى يلى الوزير فى التبليغ عن الخليفة عند إقامة الصلاة . وإذا خرج الخليفة من الجامع بعد الصلاة سار الوزير عن يمينه ، وسار قاضى القضاة عن يساره يتبعه داعى الدعاة (٢) .

(ز) المكتبات :

لما نشطت حركة الترجمة والتأليف فى العصر العباسى وتقدمت صناعة الورق ، تبع ذلك ظهور كثير من الوراقين الذين يقومون بنسخ الكتب ، واتخذ العلماء والأدباء أماكن يجتمعون فيها للتزود من العلم ، فكثرت المكتبات التى تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية وغيرها ، وأصبحت هذه المكتبات فيما بعد من أهم مراكز الثقافة الإسلامية . وقد عمل الخلفاء العباسيون على إمداد بيت الحكمة الذى قيل إن هارون الرشيد هو الذى وضع أساسه كما ذكرنا ، بمختلف الكتب ، وظلت هذه الخزانة قائمة حتى استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٨ — ٥٠٠ .

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٨١ .

وذكر القلقشندى أن الخلفاء الفاطميين كانوا يركبون فى مناسبات متعددة ، لكنهم عنوا عناية خاصة ببعض المواكب التى كانت تسمى بالمواكب العظام ، وهى : موكب أول العام الهجرى ، وأول رمضان ، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدى الفطر والأضحى ، وجبر الخليج (القلقشندى ج ٣ ص ٥٠٣ — ٥٢٠) . أما المواكب الأخرى فكانت تسمى المواكب المختصرة ، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات فى السنة عند الركوب لمناظرهم ويكون ذلك عادة فى أيام السبت والثلاثاء (شرحه ج ٣ ص ٥٢١) .

حسن إبراهيم حسن : الأزهر : تاريخه وتطوره (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٢ — ٢٧ .

ومن أشهر المكتبات فى العصر العباسى الثانى مكتبة نوح بن نصر السامانى (١) ، ومكتبة الصاحب إسماعيل بن عباد (٢) . كذلك نقل السلطان محمود الغزنوى كثيراً من المؤلفات إلى غزنة ، واحتوت مكتبة مؤيد الدين بن العلقمى وزير المستعصم آخر خلفاء العباسيين ببغداد على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب (٣) .

وقد أشاد ياقوت الرومى بمكتبات مدينة مرو حاضرة خراسان التى استوطنها مدة طويلة ، وقال إنها كانت عامرة بالكتب ولا سيما فى عهد السلطان سنجر السلجوقى ، وإنه كان بها عشر خزائن لم ير فى الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها خزانتان فى الجامع نذكر منها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر الزنجانى ، وكان فقاعياً للسلطان سنجر.(٤) وكانت تحتوى على اثنى عشر ألف مجلد ، وخزانة نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى . وقد نوه ياقوت بالفوائد الجليلة التى ساعدته على جمع مادة كتابه معجم البلدان وغيره فقال : « فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها ، وأنسانى حبها كل بلد وألهانى عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن » . وقد بلغ من ولع ياقوت وإفادته من الكتب التى زخرت بها المكتبة » ما شغله عن الأهل والوطن ، وأذهله عن كل صفى وسكن ، فظفر منها بضالته المنشودة وبغية نفسه المفقودة(٥) » .

وكذلك اتخذ الفاطميون فى مصر من مساجدهم وقصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة ، وألحقوا بها مكتبات تحتوى على مئات الألوف من المصنفات . وقد أمدت الدولة الفاطمية مكتبة « دار العلم » التى كانت متصلة بدار الحكمة بكثير من المؤلفات للاطلاع والنسخ والبحث والدراسة ، وأبيح للناس الانتفاع بما يحتاجون إليه من المواد والأقلام والأوراق والمساند دون مقابل .

كما استفادت مكتبة القصر الشرقى فى القاهرة من غيرة يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .
(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٣٦ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) ذكر ياقوت (انظر لفظ مرو فى كتابه معجم البلدان) الزنجانى كان فى مبدأ أمره يبيع الفاكهة والريحان ثم سار شراباً لسنجر .
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٨٤ فى ترجمته لياقوت .

الفاطمى الذى عرف بولعه بجمع الكتب التى نقل عدد عظيم منها من داره الخاصة إلى مكتبة القصر الخلافى بعد وفاته . وكان بمكتبة القصر عدد من الرفوف مقسم إلى أقسام ، لكل قسم منها باب . وقد روى المقريزى[١] أنه كان بالقصر الشرقى أربعون خزانة منها خزانة تحتوى على ١٨٫٠٠٠ مجلد . وكانت هذه المكتبة — كما يقول أبو شامة[٢] — « من عجائب الدنيا » ،حتى لقد قيل إنه كان فيها ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبرى . وقد اختلف المؤرخون فى عدد الكتب التى كانت بمكتبة القصر ؛ فذكر ابن واصل أنها اشتملت على ١٢٠,٠٠٠ مجلد ، وذكر ابن أبى طى وابن الطوير وعماد الدين الأصفهانى[٣] أن هذا العدد بلغ ٢٠٠,٠٠٠ ، ٦٠٠,٠٠٠ ، ٢,٠٠٠,٠٠٠ على التوالى .

وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين فى عدد الكتب التى كانت بمكتبة القصر الشرقى ، فهناك مسألتان جديرتان بالملاحظة تحملان على الظن بأن عدد هذه الكتب بلغ ٦٠٠,٠٠٠ على الأقل على ما ذكره ابن الطوير .

والملاحظة الأولى أنه لما مات الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) نقل الخليفة الآمر من قصره ٥٠٠,٠٠٠ مجلد إلى مكتبة القصر[٤] .

والملاحظة الثانية أنه بعد سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) حمل من مكتبة القصر ١٠٠,٠٠٠ مجلد إلى المدرسة الفاضلية التى أسسها القاضى الفاضل عبد الرحيم ابن على البيسانى سنة ٥٨٠ هـ .[٥]

ومع ذلك فقد عانت المكتبة الكبرى فى القصر ما عاناه غيرها من المكتبات من المصائب التى حلت بالخلافة الفاطمية فى عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٧٨ هـ) وعند سقوط الدولة الفاطمية (٥٦٧ هـ) وفى غضون المجاعة التى أصابت البلاد فى عهد دولة المماليك البحرية سنة ٦٩٤ هـ (١١٩٤ — ١١٩٥ م[٦] .

---

(١) خطط جـ ١ ص ٤٠٩ .

(٢) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) ج ١ ص ٢٠٠ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ص ٢٦٨

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٥٧ .

(٥) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٣٦٦

(٦) انظر كتابى تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٢٨ — ٤٣٥ .

وقد انتقل كثير من التراث اليونانى والفارسى الذى استحوذ عليه العباسيون إلى قرطبة بفضل جهود عبد الرحمن الأوسط . وبذل عبد الرحمن الناصر جهوداً متصلة فى توجيه الدراسة الأندلسية فى ميدان العلوم والطب ، وضمت مكتبة الحكم الثانى فى قصره بقرطبة بين خزائنها أربعمائة ألف مجلد . وكانت هناك طائفة من الباحثين والسماسرة والناسخين تعمل لحساب هذا الخليفة وتبحث عن المؤلفات التى يستطيعون العثور عليها فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، ويعمل عدد كبير من الناسخين والمجلدين والمزخرفين فى إنماء هذه المكتبة الفخمة وتجميلها .(١) وكذلك قلد أشراف قرطبة ووجهاؤها الخليفة الأموى فى الأندلس وأخذوا فى تكوين مكتبات خاصة . ومن هذه المكتبات مكتبة المنصور بن أبى عامر الحاجب التى زخرت بكثير من الكتب النفيسة . ولكن كثيراً من مجلدات هذه المكتبة قد تعرض للحريق على يد المنصور بن أبى عامر نفسه . فقد أراد بعمله هذا أن يحول دون تفاقم سخط رجال الدين الذين عرفوا بكراهيتهم للفلسفة ، فأمر بإحراق كتبها فى ميادين قرطبة ، وأحرق بعضها بيده ، فسمى حامى الإسلام .

كما أمر المنصور الحاجب بإحراق جميع الكتب الخاصة بالكتب القديمة . وليس من شك فى أنه كان يقصد بهذا العمل إرضاء فقهاء المالكية السلفيين الذين كانوا يكرهون الفلسفة ويعتبرونها خطراً يهدد مذهبهم السلفى .

وقد ظل نفوذ المالكية قوياً وبغضهم للفلسفة شديداً حتى عهد المرابطين بالمغرب . فقد حملوا السلطان على بن يوسف بن تاشفين على إحراق كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام أبى حامد الغزالى زعماً منهم أنه من صميم الفلسفة وأنه خطر على الدين . وبذلك أمر السلطان على بن يوسف بإحراق هذا الكتاب بالأندلس والمغرب . وكان هذا العمل السيىء من العوامل الأساسية التى تذرع بها المهدى بن تومرت صاحب دولة الموحدين فى حرب الدولة المرابطية ورميها بالجمود ثم بالتجسم فى التوحيد لسيرها على مذهب السلف الصالح الذى لا يؤول الآيات القرآنية . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على قوة نفوذ علماء المالكية وتحكمهم فى المجال السياسى فى ذلك العصر الذى كان للدين فيه شأن كبير ، ليس فى العالم الإسلامى فحسب ، بل فى العالم أجمع ، ولا سيما فى أوربا التى كان علماء المسيحية فيها يبيعون صكوك الغفران .

---

(١) بروفنسال : الشرق الاسلامى والحضارة العربية ـ منشورات الجنرال فرانكو للابحاث العربية الاسبانية (تطوان ١٩٥١) ص ١٨ — ١٩ .

(ح) ديوان الإنشاء

لما كثرت أعمال الوزراء فى العصر العباسى الأول أصبح من الضرورى تعيين طائفة من كبار الموظفين يعاونون الوزير (أو رئيس الوزراء كما يسمى الآن) فى الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها. ويسمى كل من هؤلاء «الكاتب». ومن هؤلاء كاتب الرسائل ومهنته إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، وكذلك مراجعة الرسائل الرسمية ووضعها فى الصيغة النهائية وختمها بخاتمه.

كذلك كان كاتب الرسائل يجلس مع الخليفة أو أمير الأمراء أو السلطان أو عامل الإقليم فى مجلس القضاء للنظر فى المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة.[1] ويتولى كاتب الرسائل مكاتبة الملوك والأمراء عن الخليفة. وكثيراً ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه.

وقد ذكر ابن خلدون[2] الصفات التى يجب أن تتوافر فى الكاتب عامة وفى كاتب الرسائل خاصة فقال إنه يجب أن يختار من علية القوم، وأن يكون متصفاً بالمروءة والحشمة والعلم والبلاغة.

وكانت الكتابة سبيلا إلى الوزارة فى كثير من الأحيان، فنجد المتوكل يتخذ أبا الوزير كاتباً بعد وزيره عبد الملك بن الزيات دون أن يلقبه بلقب الوزير.

وقد ذكر ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٩٩ — ٢٠٠) أن أبا الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوى (ت ٥٤٦٩) كان إمام عصره فى النحو وأنه كان يراجع الرسائل التى تحرر بديوان الإنشاء ويصلح ما فيها من نحو أو لغة. وكذلك ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٩٢ — ٢٩٣) أن أبا محمد عبد الله بن برى (بفتح الباء وكسر الراء مع التشديد) المقدسى الأصل اشتهر بالنحو واللغة والرواية، وأنه كان كابن بابشاذ يراجع كل ما يحرر من الرسائل فى ديوان الإنشاء ويصلح ما فيها من لغة أو نحو قبل أن ترسل إلى الملوك والأمراء.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥ — ٢٠٦.

(٢) مقدمة ص ٢١٥.

وكانت الكتابة فى عهد الفاطميين تلى الوزارة فى الرتبة ويتولاها الذين عرفوا بالكفاية والقدرة على معالجة الأمور . فإذا نال صاحبها رضاء الخليفة رشحه للوزارة ، وكان يطلق على صاحب الإنشاء فى عهد الفاطميين « صاحب الرسائل » و « صاحب الدست الشريف ، ويتسلم المكاتبات الواردة ويعرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها ، ويستشيره الخليفة فى أكثر أموره . وكذلك كان يطلق على صاحب الرسائل « كاتب السر » . وكان أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى أول من تلقب بهذا اللقب فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى فى سنة ٤٥٤ هـ (١١٥٩ م) [١] .

ويلى صاحب الانشاء فى الرتبة فى عهد الفاطميين « صاحب القلم الدقيق » . ويوقع على المظالم ويجلس مع الخليفة فى خلوته ، فيذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله أو سير الأنبياء والخلفاء وعظماء الرجال ، ويحدثه عن مكارم الأخلاق . وقد يعلمه تجويد الخط . ويتقاضى مائة دينار فى الشهر . فإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة ، فإذا انتهى المجلس ألقى فى هذه الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير وقرطاس .

ولما غدا الوزير صاحب السيف والقلم فى الشطر الأخير من أيام الفاطميين وأصبح يجلس المظالم ، كان صاحب القلم الدقيق يجلس إلى جانبه ويقوم مقام كاتب السر ، ويوقع تحت توقيع الوزير ، بل ينظر فى الشكاوى قبل انعقاد المجلس [٢] .

ويلى « صاحب القلم الدقيق » فى الرتبة « صاحب القلم الجليل » ، ويقوم بتسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها فى الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها [٣] ، وكانت مرتبته أدنى من مرتبة صاحب القلم الدقيق ، وتسمى وظيفته الخدمة الصغرى .

وقد اشتهر من كتاب البلاط الفاطمى أبو عبد الله القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) . وقد عهد إليه الوزير أبو القاسم الجرجرائى فى أن يكتب العلامة أو الإشارة التى تذيل بها الأوراق لإعطائها الصيغة الرسمية . وتتكون هذه العلامة من العبارة الآتية : « الحمد لله شكراً لنعمته » . كما اشتهر بالكتابة فى هذا العهد ابن منجب الصيرفى الذى تقلد

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٢٨١ . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٨٠ ـ ٢٨١

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠ — ٤٩١ .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٩١ — ٤٩٢ .

ديوان الرسائل فى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) فى عهد الخليفة الآمر ، وقد ظل فى منصبه إلى سنة ٥٣٦ هـ . وكان من البارزين فى طبقة البلاط والمؤرخين . وقد خلف لنا كتابه « الإشارة إلى من نال الوزارة » (فى عهد الدولة الفاطمية)[١] .

وكانت الكتابة فى الأندلس تلى « الحجابة » (الوزارة) فى الرتبة وتنقسم قسمين : كتابة الرسائل ويسمى صاحبها « الكاتب » ، ويشترط فيه أن يكون بليغاً حسن الأسلوب جزل العبارة ، « وكاتب الزمام » ويعرف بكاتب الجهبذة (ويشترط فيه ألا يكون ذمياً) ، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير[٢] .

وقد نهضت الكتابة فى عهد المرابطين ونفق سوقها بمدينة مراكش ، إذ سيطر المرابطون على الأندلس وعلى المغربين الأقصى والأوسط . وكان بدهياً أن تتطلب هذه الدولة المترامية الأطراف طائفة من رجال الأدب لتحرير الرسائل المتنوعة عن لسان أمير المؤمنين إلى عمال دولته وقوادها وكبار موظفيها . وقد وجد المرابطون فى أدباء الأندلس ما يسد هذه الثغرة بعد استيلائهم على هذه البلاد وهى فى أوج عزها الأدبى ومجدها العلمى فى عهد ملوك الطوائف ، حتى إنه اجتمع ليوسف بن تاشفين ولابنه على كما يقول المراكشى[٣] : « من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار » .

وكان على رأس هؤلاء الأدباء ابن قصيرة ، وابن عبدون ، ومروان بن أبى الخصال ، وأخوه عبد الله بن أبى الخصال ، وأبو جعفر بن عطية المراكشى . ولم يكن هؤلاء الكتاب أشهر كتاب الأندلس ، بل لقد اشتهر غيرهم ، ولا سيما الكتاب الإقليميون الذين لم تتح لهم الفرصة للعمل فى بلاط أمراء المرابطين .

الرباط :

والرباط لا يقل أهمية عن المسجد من حيث كونه مكاناً تشع منه الدعوة إلى الإسلام . فقد كان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى معرضاً للخطر من ناحية البيزنطيين ، ولكى يحمى المسلمون أنفسهم من إغاراتهم المتعددة ، أقاموا الحصون فى بعض المدن

---

(١) ياقوت : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج ٥ ص ٤٢٢ — ٤٢٣ .
(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .
(٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٦٤ .

الواقعة على تخوم دولتهم ، مثل طرسوس وأذنة والمصيصة ومرعش وملطية . وكانت هذه الحصون — أو الثغور كما كانت تسمى — تقع طوراً فى أيدى العرب ، وطوراً فى أيدى الروم . وإلى عمر بن الخطاب يرجع الفضل فى إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود فى أثناء الطريق ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل ، ولا يستريحون إلا فى أكواخ صغيرة مصنوعة من سعف النخل . ولذلك بنيت « العواصم » وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة . وفى عهد عمر بن عبد العزيز رأت الدولة الأموية أن تجد أعمالا جديدة غير الفتح والغزو للمرابطين من جند العرب فى الولايات الإسلامية حتى لا يكونوا عيالا على بيت المال .

ولما استولى أبو جعفر المنصور العباسى على المدن الواقعة على حد سورية المقابل لآسيا الصغرى ، حصن هذه المدن وأحكم بناءها من جديد ، وأطلق عليها اسم الثغور . ولما ولى هارون الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ أنشأ ولاية جديدة سماها « الثغور » ، وجعل لها نظاماً عسكرياً خاصاً ، وأقام فيها المعاقل ، وأمدها بحاميات دائمة ، ومنح الجند بالإضافة إلى أرزاقهم أراضى قاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسراتهم . فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتصلة التى قامت بين المسلمين والبيزنطيين . وقد سار أبناء الرشيد على نهجه فى جهاد الروم . وكان من أبرز الحروب التى قامت بين ابنه المعتصم وبين الروم ، موقعة عمورية الشهيرة التى انتصر فيها المعتصم على الروم انتصاراً حاسماً يتمثل فى قصيدة أبى تمام الشهيرة التى سخر فيها بالمنجمين ومجد إقدام الخليفة المعتصم فقال فى مطلع قصيدته المشهورة :

السيفُ أصدقُ أنباء من الكتب فى حَدّه الحَدُّ بين الجِدّ واللَّعِبِ

وكان العلماء والشعراء الذين يؤثرون حياة الراحة يلجئون إلى هذه الثغور للتفرغ للدرس والبحث . كما كان يتوافد غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الاسلامية ويرابطون فيها وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال العظيمة ويحتفلون فيها بالأعياد ، حتى أصبح عيدا الفطر والأضحى فى هذه الثغور من محاسن الاسلام .

وكان المسلمون - كما نعلم - يغزون بلاد الدولة البيزنطية صيفاً وشتاء . ولذلك سميت هذه الغزوات الصوائف والشواتى . وكان الخلفاء يعهدون إلى ولاة عهودهم أو إلى قضاة قضاتهم قيادة الصوائف والشواتى ، لأنهم كانوا يعدونها نوعاً من الجهاد فى سبيل الله . فقد قاد يحيى بن أكثم جند المسلمين لحرب البيزنطيين فى عهد الخليفة العباسى المأمون ،

وقادهم أحمد بن أبي دؤاد فى عهد الواثق . وسار الأمويون فى الأندلس على نهج الأمويين والعباسيين فى الشرق فى تولية قضاتهم قيادة الصوائف لحرب الروم نيابة عنهم . ومن هؤلاء القضاة منذر بن سعيد قاضى قضاة الأندلس الذى تولى قيادة الصوائف فى عهد عبد الرحمن الناصر[١] .

وقد أنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، السفن الحربية فى مصر (وهى الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع) ، وفى الإسكندرية ودمياط . وكان بعض وحداتها تسير للمرابطة فى الموانى الشآمية مثل عكاء وصور وعسقلان[٢] .

ولقد عرف المغرب الرباط قبل أن يعرف الزاوية ، ولعل عهده به يرجع إلى زمن الفتح الإسلامى فى القرن الأول الهجرى . فرباط شاكر المعروف عند الفرنجة بسيدى شكير (بضم الشين) على ضفة وادى نفيس جنوبى مراكش ، هو مدفن شاكر أحد أتباع الفاتح العظيم عقبة بن نافع الفهرى ، بناه يعلى (بفتح الياء) بن مصلين (بفتح الميم وسكون الصاد) أحد رجال رجراجة (بفتح الراء) السبعة الذين يقال إنهم وفدوا على الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة ، فأسلموا وعادوا إلى المغرب دعاة للدين الحنيف . وكان شاكر يقاتل فيه كفار بورغواطة[٣] . وقد جدد المولى محمد بن عبد الله هذا الرباط سنة ١١٧٨ هـ . ١٧٦٤ م)[٤] .

ويمتاز الرباط بطابعه الحربى بالإضافة إلى وظائفه الدينية من العبادة وتلاوة القرآن والتفقه فى الدين . وهو بذلك لا يختلف عن الرابطة إلا من حيث كونها تبتدىء حيث ينتهى ، فتجعل هدفها الأول العبادة وتحصيل العلم ، وتهيىء المرابطين فيها بعد ذلك للجهاد ، على ما نجده فى رابطة عبد الله بن ياسين الجزولى[٥] . وقد اجتمع

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ص١٩٣ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٠٣ .

(٣) يوسف بن الزيات التادلى : التشوف إلى رجال التصوف (نشره مسيو فور ، (الرباط سنة ١٩٥٨) ص ٢٦ .

(٤) انظر مجلة المغرب التى كان يصدرها محمد الصالح ميسة بالرباط ، المقال الافتتاحى عدد شهرى ربيع — جمادى سنة ١٣٥٥ هـ (يونية — يولية ١٩٣٦) .

(٥) انظر الأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبى زرع (الرباط ١٣٥٥/١٩٣٦) ج ٢ ص ١١ وما يليها حيث تجد ترجمة مطولة لعبد الله بن ياسين .

فى هذه الرابطة نحو ألف من رجال صنهاجة كما تقدم ، فكان عبد الله يعلمهم أمور الدين أولا ، ثم أمور الجهاد فى سبيل نشر الدين الحنيف . وكان للجهاد فى عهد عبد الله ابن ياسين غرضان :

الأول : فتح بلاد السودان ، وتحويل أهلها إلى الإسلام .

الثانى : نشر مذهب الإمام مالك بين شعوب أفريقيا الشمالية[1] .

وقد تطور أمر عبد الله وتلاميذه إلى أن أسسوا دولة المرابطين . وكان عبد الله منقطعاً للعلم والجهاد فى رباط شاكر ، ثم انتقل إلى أقصى الصحراء ليرشد قبائل صنهاجة ويفقههم فى أمور الدين . ومات وهو يقاتل كفار بورغواطة سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) ، وقبره معروف بكريفلة على الطريق الذاهبة من الرباط إلى الرمانى[1] .

(ا) العلوم النقلية

تقسيم العلوم :

ظهرت فى الدولة الإسلامية عوامل متعددة كان لها أثر بعيد فى تكوين مجتمع إسلامى جديد ، وأهم هذه العوامل :

(١) التوسع فى الفتوح الإسلامية إلى أقصى السند شرقاً وإلى أقصى المغرب والأندلس غربا .

(٢) اختلاط العرب بغيرهم من الأمم كالفرس والروم والهنود والصينيين وغيرهم .

وبفضل هذين العاملين دخلت فى الإسلام علوم جديدة إلى جانب العلوم الدينية .

وقد أخذ المسلمون بحظ وافر من العلوم على اختلافها ، وميز كتابهم بين العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم والعلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية ، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة أو الدخيلة .

وتشمل العلوم النقلية : علم القراءات ، وعلم التفسير ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة والأدب ، وتشمل العلوم العقلية الطب والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفلك والنجوم والموسيقى والسحر والتاريخ والجغرافية .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ٦٥ .

وقد قسم ابن خلدون العلوم إلى علوم آلية كالنحو واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والجغرافية ، وإلى علوم مقصودة بالذات كالتفسير والحديث والفقه . وهناك تقسيم آخر للعلوم وهو العلوم النقلية والعلوم العقلية . ففى الأولى اعتمد العرب على دينهم ولغتهم ، وفى الثانية اعتمدوا على ما نقلوه من الأمم الأخرى . والآن نتحدث عن العلوم النقلية والعلوم العقلية التى اشتغل بها المسلمون فى العصر العباسى الثانى (٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) .

١ — علم القراءات

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن العباسيين عنوا بعلم القراءات الذى يعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن الكريم ، وأن الأساس الذى قام عليه هذا العلم هو فى القرآن نفسه وفى نصوصه نفسها ، وبعبارة أخرى فى قراءاته . ويعتبر علم القراءات أول محاولة لتفسير القرآن الكريم . ويرجع أكثر الاختلافات فى القراءات إلى رجال عاشوا فى القرن الأول ، كابن عباس وعائشة وعثمان بن عفان وابنه أبان ، وإلى قراء معترف بهم كعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب وغيرهم ممن أثنى عليهم التابعون وغيرهم (١) .

كانت الآية أو الآيات أو السورة ينزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم ، فيقوم النبى بتبليغها لأصحابه فور نزولها . وكان أكثر الصحابة يحفظ ولا يقرأ وأقلهم يحفظ ويقرأ . وأكثر هؤلاء القراء سبعة هم : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن ثابت ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعرى . ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يكتفى بحفظ الحفاظ ، بل كان يطلب إلى كتاب الوحى أن يكتبوا كلام الله المنزل . ومن أشهر هؤلاء الكتاب عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد ابن ثابت ، وأبى بن كعب . وكان هؤلاء يدونون القرآن فى العسب واللحاف والعظام والرقاع . ومن هنا يعلم أن القرآن الكريم كان مكتوبا فى عهد النبى كما كان محفوظا فى الصدور مرتب الآيات (٢) .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٢) كثرت القراءات فى نهاية القرن الثانى للهجرة ، ولكن الناس أجمعوا على صحة قراءة سبعة قراء هم : عبد الله بن عامر المتوفى بالشام سنة ١١٨ هـ . وأبو معبد عبد الله بن كثير المتوفى بمكة سنة ١٢٠ هـ ، وأبو بكر عاصم المتوفى بالكوفة سنة ١٢٧ هـ ، وأبو عمرو بن العلاء المتوفى بالبصرة سنة ١٥٤ هـ ، ونافع بن نعيم المتوفى بالمدينة سنة ١٦٩ هـ ، وأبو الحسن على بن حمزة الكسائى المتوفى بالبصرة سنة ١٨٩ هـ ، وأبو عمارة حمزة بن حبيب المتوفى سنة ٢١٦ هـ . ومن أشهر رواته ابن هشام. =

ومن أشهر القراء فى العصر العباسى الثانى عبد الله بن أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادى . وقد اشتهر فى الأدب والنحو والتفسير والحديث والقراءات والنسب والفرائض والحساب . وقد حفظ القرآن الكريم وقرأه بالقراءات المختلفة . وقد ذكره العماد الأصفهانى فى الخريدة وعدد فضائله وذكر أنه كان بجانب إلمامه بالعلوم الدينية ولا سيما القراءات شاعراً ، وإن لم يؤثر عنه أنه كان من فحول الشعراء . ومن شعره يصف الشمعة :

صفراء من غير سَقامٍ بها كيف وكانت أمها الشافيهْ
عاريةٌ باطنها مكتسٍ فاعجبْ لها عاريةً كاسيهْ

وقد توفى ابن الخشاب ببغداد سنة ٥٦٧ هـ (١) .

وقد اشتهر كثير من القراء فى المغرب والأندلس حيث عنى أهل هذه البلاد بالعلوم الدينية ومنها علم القراءات . ومن أشهر هؤلاء القراء أبو الطاهر إسماعيل بن خلف الأنصارى . وكان من أهل سرقسطة شرقى بلاد الأندلس . وكان ابن خلف إماما فى علم القراءات كما كان من مشهورى أدباء عصره . وقد خلف لنا كثيراً من المؤلفات التى تشهد بتفوقه العلمى . ومن هذه المؤلفات : « كتاب العنوان » . وكان الفقهاء فى الأندلس يرجعون إليه فى حياته وبعد وفاته . وقد أثنى عليه ابن بشكوال فى كتاب الصلة . ولم يزل ابن خلف منصرفا إلى علم القراءات حتى توفى سنة ٤٥٥ هـ (٢) .

ومن أشهر القراء أحمد بن محمد ، ويعرف بابن العريف . وكان من أهل المرية ببلاد الأندلس . وكان فوق اشتغاله بكثير من العلوم الدينية يعنى عناية خاصة بالقراءات ويهتم بطرائقها المختلفة ، كما اشتهر بالورع والتقوى . ومن مؤلفاته كتاب « المجالس فى التصوف » . وقد بلغ من تبحره فى العلم والتفاف الناس حوله ، ولا سيما أهل الزهد والتقوى ، أن أثار حسد منافسيه ، فوشوا به عند السلطان على بن يوسف أمير المرابطين الذى استدعاه إلى مدينة

= ثم جاء القراء الثلاثة فصارت بهم القراءات عشراً وهم : أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمى المتوفى بالبصرة سنة ٢٢٥ هـ ، وأبو محمد خلف بن هشام المتوفى بالمدينة سنة ٢٣٠ هـ ، وابو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومى المتوفى بالمدينة سنة ٢٣٠ هـ . ثم جاءت قراءات أربع نسبت لمحمد بن محيص المكى ، والأعمش الكوفى والحسن البصرى ويحيى اليزيدى ، فأصبحت القراءات أربع عشرة ، والمشهور والمتواتر منها القراءات السبع .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢١١ .

مراكش . ولكن ابن العريف لم يكد يصل إلى هذه المدينة حتى أدركته منيته ودفن بها (٢٣ صفر سنة ٥٣٦ هـ) . وقد أثر عن هذا السلطان أنه أسف على استدعائه لما عرفه عن صلاحه وتقواه (١).

ومن أشهر قراء المغرب فى ذلك العصر أبو العباس أحمد (ابن عبدالله بن أحمد بن هشام ابن الحطيئة اللخمى الفاسى) . وقد ولد بمدينة فاس سنة ٤٧٨ هـ وتلقى العلم بها ، ثم هاجر مع أهله إلى مصر واستقر بها . وقد عرف بالصلاح والزهد وعفة النفس ، كما كان ملماً بالأدب. وقد عده المؤرخون والفقهاء إماما فى القراءات السبع . وقد أقام بجامع راشدة فى القاهرة . فقد ذكر ابن خلكان(٢) أنه وقعت بمصر فى أيامه مجاعة ، فسار إليه أعيان البلاد وسألوه قبول مساعدتهم ، فامتنع . فاتفقوا على أن يخطب أحدهم ابنته الوحيدة . فتزوجها شخص من الأثرياء يعرف بالفضل بن يحيى الطويل الذى طلب من هذا الفقيه أن تعيش زوجته مع إبنتها ، فوافق على ذلك وقضى أيامه ينسخ الكتب ويعيش من أجره القليل حتى توفى فى شهر المحرم سنة ٥٦٠ هـ.

٢ — التفسير :

لاريب أن العرب الذين عاصروا نزول الوحى قد أدركوا معانيه ووقفوا على الأسباب التى أدت إلى نزول الآيات القرآنية. غير أن الأمم الاسلامية الأخرى وخاصة الفرس ، كان يصعب عليها إدراك معانى الآيات والظروف التى أحاطت بنزولها ، ولهذا نشأ علم التفسير .

وقد اتجه المسلمون كما ذكرنا فى الأجزاء السابقة فى تفسير القرآن اتجاهين ، يعرف أولهما : باسم التفسير بالمأثور ، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة . ومن أشهر مفسرى هذا النوع محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وابن عطية الأندلسى المتوفى سنة ٥٤٦ ، والقرطبى المتوفى سنة ٦٧١ هـ . وقد اتسع التفسير بالمأثور على مر الأزمان بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا فى الإسلام . .

أما النوع الثانى من التفسير فيعرف باسم التفسير بالرأى ، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل . ومن أشهر مفسرى هذا النوع المعتزلة والباطنية .

أما المعتزلة فإنهم لم يتقيدوا بالتفسير بالمأثور ، وإنما كانوا يعتمدون فى دعم آرائهم

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥١ — ١٥٢

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٣

على العقل . وقد فسروا بعض الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع مبادئهم العقلية ، وأسسوا تعاليمهم على أسس دينية من القرآن الكريم واستخدموا التفسير فى رد حجج خصومهم . ولما كان المعتزلة يؤمنون بمبدأ التنزيه أو بالأحرى بمبدأ نفى الصفات عن الله سبحانه وتعالى ، فقد أخذوا يفسرون القرآن على وفق آرائهم التى تقوم على العقل مخالفين فى ذلك تعاليم مدرسة التفسير بالمأثور . ولذلك نرى مفسرى المعتزلة يلجئون إلى التأويل فيما يتعارض مع مبدئهم فى نفى صفات الله، وخالفوا المفسرين بالمأثور فى رؤية الله يوم القيامة . من ذلك تفسيرهم قوله تعالى فى سورة القيامة (٧٥ : ٢٢ — ٢٣) : (وجوهٌ يومئذ ناضرةٌ إلى ربها ناظرة) أن رؤية الله إنما تكون على المجاز لا على الحقيقة ، على حين يقول المفسرون بالمأثور إن عباد الله الصالحين يرون ربهم عيانا . وقد استدل المعتزلة بقوله تعالى فى سورة الأنعام (٦ : ١٠١). (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير) قائلين إن الأبصار لا تدركه فى الدنيا بدليل قوله تعالى على لسان موسى فى سورة الأعراف (٧ : ١٤٣) . (رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إليك قال لن تراتى ، ولكنْ أنظر إلى الجبل فانْ استقر مكانه فسوف ترانى) : « وإذا كانت رؤية الله فى الدنيا مستحيلة فهى فى الآخرة أحرى ».(١) وبذلك حبذ جولدتسيهر طريقة المعتزلة فى تفسير القرآن وجعلهم العقل مقياساً للحقائق الدينية ، لأنهم كافحوا الخرافات والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء التى وجدت طريقها إلى الدين (٢) .

ومن أشهر مفسرى العصر العباسى الثانى (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ) الشريف العلوى المعروف بعلم الهدى المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ . وكانت له أمالى فى الشعر والأدب شرحها شرحاً لغوياً دقيقاً ، كما فسر الآيات القرآنية التى وردت فى هذه الأمالى تفسيراً يتمشى مع تفسير المعتزلة ، واقتبس كثيراً من تفاسير أئمة المعتزلة كالجبائى وغيره .

ومن أشهر مفسرى المعتزلة فى هذا العصر العباسى أبو يونس عبد السلام القزوينى (ت ٤٨٣ هـ) . وقد فسر القرآن تفسيراً مطولا ، حتى إن تفسير الفاتحة وحدها شغل سبع

---

(١) جولدتسيهر : المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ترجمة ص ١١٠ — ١١١ .
أنظر كتابى تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٣٤٢ .

(٢) جولدتسيهر : المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن ص ١١٣ — ١١٥
حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٤٢ .

مجلدات . ويرجع السبب فى عدم ذيوعها بين الناس إلى ضخامتها وما تحويه من عقائد السنيين أحيانا .

ويضع بعض الكتاب أبا القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمى الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) اللغوى المشهور وصاحب الكشاف فى مرتبة الطبرى فى تفسيره . ولئن كان الطبرى قد أخذ ببعض القصص الإسرائيلية ، فإن الزمخشرى قد بالغ فى ذلك وأدلى برأيه فى كل ما يتعلق بالتفسير ، حتى إنه نال إعجاب المستشرقين . وقد أشاد به جولدتسيهر وعقد له فصلا خاصا فى كتابه مناهج التفسير الإسلامى .

والزمخشرى من أئمة علماء المعتزلة ، وربما كان هذا سر إعجاب جولدتسيهر[1] به ، وقد أثر عن الزمخشرى أنه كان إذا قصد صديقاً وطلب أن يؤذن له فى الدخول قال : قل لفلان أبو القاسم المعتزلى بالباب . وهذا يدل على اعتزازه بانتمائه للمعتزلة .

وكان الزمخشرى إمام عصره فى التفسير والحديث واللغة ، « تشد إليه الرحال فى فنونه[2] » . ومن مؤلفاته كتاب الكشاف فى تفسير القرآن الكريم الذى يقول فيه ابن خلكان [3] إنه « لم يصنف قبله مثله » . ومن كتبه المحاجاة بالمسائل النحوية ، وكتاب المفرد والمركب فى اللغة العربية ، وكتاب الفائق فى تفسير الحديث ، وكتاب أساس البلاغة فى اللغة ، وكتاب ربيع الإبرار ونصوص الأخبار ، وكتاب متشابه أسامى الرواة ، وكتاب النصائح الكبار والنصائح الصغار . ومن كتبه أيضاً كتاب ضالة الناشد والرائض فى علم الفرائض ، وكتاب المفصل فى النحو ، وكتاب الأنموذج فى النحو ، وكتاب المفرد والمؤلف فى النحو . وللزمخشرى كذلك كتاب رءوس المسائل فى الفقه ، وكتاب شرح أبيات سيبويه ، وكتاب المستقصى فى أمثال العرب ، وكتاب صميم العربية ، وكتاب سوائر الأمثال ، وكتاب شقائق النعمان فى حقائق النعمان ، وكتاب شافى العى من كلام الشافعى ، وكتاب القسطاس فى علم العروض ، وكتاب المنهاج فى علم الأصول . وله أيضاً ديوان الرسائل وديوان الشعر ، وكتاب الأمانى فى كل فن إلى آخر

---

(١) المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن س ١٣٧ . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٢ ص ٢٩٠ :

(٣) رحل الزمخشرى إلى مكة وأقام بها مدة ، ولذلك أطلق عليه « جار الله » . وكان هذا الاسم علماً عليه ، ثم طلب العلم فى مدينة بخارى ، وهناك سقط عن دابته فانكسرت رجله . وقد توفى بخوارزم سنة ٥٣٨ هـ ، وذلك بعد رحلته من مكة .

(٢) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٥٧ .

ما خلف لنا من تراث إسلامى يشهد بعلو كعبه فى شتى الثقافات الإسلامية[١] .

ومن أشهر مفسرى هذا العصر أبو الحسن على بن أحمد بن محمد بن على) بن مَتُّوية (ت ٤٦٨ هـ) . وكان أشهر علماء عصره فى النحو والتفسير الذى أخذه عن أبى إسحاق الثعلبي المفسر المشهور الذى وصفه ابن خلكان (ج ١ ص ٦١) فقال إنه « كان أوحد زمانه فى علم التفسير » . ومن مؤلفاته : « التفسير الكبير الذى فاق غيره من التفاسير » . كما وضع ابن متويه فى التفسير عدة كتب نذكر منها البسيط ، والوسيط ، والوجيز . وقد ذكر ابن خلكان[٢] أن أبا حامد الغزالى اعتمد على مؤلفات ابن متويه وأفاد من من علمه وأعجب به حتى إنه اقتبس أسماء كتبه الثلاثة فى التفسير .

ولابن متويه كتب أخرى فى التفسير نذكر منها كتاب « أسباب نزول القرآن » و « التحبير فى شرح أسماء الله الحسنى » ، كما شرح ديوان المتنبي شرحاً وافياً اعتمد عليه الأدباء الذين جاءوا بعده . وقد أخذ ابن متويه العلم على الثعلبي المفسر المشهور وتوفى ابن متويه فى نيسابور سنة ٤٦٨ هـ .

أما الباطنية فقد اتخذوا التفسير وسيلة لنشر مبادئهم ولجئوا إلى التأويل . فنراهم يفسرون قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) [٣] بأن قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم) أى اسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطنى ، ومن قوله (يرسل السماء عليكم مدراراً) بأن السماء هى الإمام ، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم ؛ ومعنى (يمددكم بأموال وبنين) أن الأموال هى العلم والبنين هم المستجيبون ، ومعنى (يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) أن الجنات هى الدعوة السرية أو الباطنية والأنهار هى العلم الباطنى[٤] . وكذلك فسر الباطنية قوله تعالى [٥] (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين) ، أن الشيطان هو عمر بن الخطاب ، والإنسان هو أبو بكر الصديق . ومعنى اكفر لا تؤمن بإمامة على بن أبى طالب . وتفسيرهم

---

(١) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٥٤ — ٢٦٠ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٦٤ — ٤٦٦ .
(٣) سورة نوح ١٨ : ١٢ .
(٤) Guyard, p. 209.
(٥) سورة الحشر ٥٩ : ١٦ .

قوله تعالى (الشمس والقمر بحسبان) [١] أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين ، وإن إبليس وآدم المشهورين فى القرآن هما أبو بكر وعلى ، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلى والطاعة له فأبى واستكبر [٢] .

والشيعة يقدسون الإمام ويؤولون كثيراً من الآيات القرآنية للتدليل على علو مقام الإمام والولاية له ، فيقولون فى قوله تعالى فى سورة الأنعام (٦ : ١٢٢)(وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس) : النور هو الإمام الذى يأتم به المسلم ، وفى قوله تعالى فى سورة النمل (٢٧ : ٩٠) (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار) : الحسنة معرفة الولاية وحب أهل البيت للامام، والسيئة إنكار الولاية وبغض أهل البيت ، والأئمة هم الهداة الذين قال الله فيهم فى سورة الرعد (١٣ : ٧) (ولكل قوم هاد) [٣] .

هذان هما نوعا التفسير كما عرفا فى العصور السابقة . ولئن كان التفسير بالرأى يبدو لأول وهلة أعم وأشمل من التفسير بالمأثور ، فإنه مما لا ريب فيه أن الذين أخذوا به قد بالغوا فى استعماله حتى خرجوا به عن المقصود من تفسير القرآن الذى يراد به أن يكون واضحا جليا لا غموض فيه ولا إبهام ، على نحو ما ترى فى تفسير الأستاذ الإمام محمد عبده الذى نراه يعتمد على الرأى المستمد من أقوال السلف ، والذى يرجع إلى جوهر القرآن وروح الدين . وهو يعمل رأيه فى هذا بالتوسع فى شرح الآيات القرآنية دون أن يتقيد بتفسير من سبقه، بحيث أصبح تفسيره مزيجا من التفسير بالمأثور مادام صحيحا، ومن التفسير بالرأى الذى لا يفسر القرآن فى نطاق إطارات ضيقة محدودة ، إذ أن القرآن إنما جاء لهداية البشر ، بحيث إذا سئلنا عن يوم القيامة ، على ما يقوله الأستاذ الإمام محمد عبده : هل بلغتم الرسالة ؟ وهل تدبرتم ما بلغتم ؟ استطعنا الإجابة على ذلك معتمدين على استخدام الرأى والعقل ، ولكن فى نطاق الجوهر الأساسى للقرآن الكريم .

(٣) الحديث .

إذا عرفنا أن الحديث الشريف هو أحد أصلين قام عليهما التشريع الاسلامى باتفاق

---

(١) سورة الرحمن ٥٥ : ٥ .

(٢) الغزالى : فضائح الباطنية (نشره جولدتسيهر — ليدن سنة ١٩١٦) ص ١٣ .

(٣) عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٥٢ .

جميع المذاهب الإسلامية ، أدركنا أهمية هذا العلم فى الثقافة الدينية الإسلامية خاصة وفى الثقافة الفكرية عامة . فالسلفيون ، وفى مقدمتهم الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل ومن اتبع طريقهم كالظاهرية والحزمية ، قد جعلوا التشريع الإسلامى قائماً على القرآن الكريم والحديث الشريف . وزاد الأحناف ثم الشافعية الرأى والقياس كما هو معروف فى علم أصول الفقه . ومن هنا نرى الحديث الشريف يلى القرآن فى الأهمية ، وكان له رجال عرفوا باسم المحدثين .

وقد نال الحديث حظاً وافراً من جهود الفقهاء . ولكن المصادر التى اعتمد عليها المسلمون لدراسة الحديث قليلة نذكر منها « الصحيحين » (البخارى ومسلم) وأبا داود السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ صاحب السنن ، وأبا عيسى محمد بن عيسى الترمذى المتوفى سنة ٢٧٨ هـ صاحب الجامع ، وأبا عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، وأبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ صاحب السنن.

ومن أشهر المحدثين الذين ظهروا فى المشرق فى طليعة القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن منده (بفتح الميم والدال وسكون النون) المتوفى سنة ٥١١ هـ . وهو من أهل أصبهان . وقد وصفه ابن خلكان فى هذه العبارة فقال: « هو محدث بن محدث بن محدث بن محدث بن محدث بن محدث. وكان جليل القدر وافر الفضل واسع الرواية ، ثقة حافظا فاضلا مكثرا صدوقا ، كثير التصانيف ، حسن السيرة بعيد التكلف . أوحد أهل بيته فى عصره . خرج التخاريج لنفسه ولجماعة من الشيوخ الأصبهانيين » .

وعلى الرغم من شهرة ابن منده الواسعة فى علم الحديث فإنه يُعَدُّ من المؤرخين المعدودين ، وقد صنف كتاب « تاريخ أصبهان » وغيره .

ومن مشهورى علم الحديث بالمشرق فى القرن السادس الهجرى ، المحدث الفقيه أبو محمد (الحسين بن مسعود بن محمد) المعروف بالفرّاء البغوى ، وكان متبحراً فى العلم ، وقد صنف كثيراً من الكتب فى الحديث والتفسير والفقه . ومن مؤلفاته كتاب « شرح السنة فى الحديث » . وكتاب « التهذيب فى الفقه » ، وكتاب « معالم التنزيل فى تفسير القرآن الكريم » ، وكتاب « المصابيح » ، وكتاب « الجمع بين الصحيحين » ،

ومما يلفت النظر إسهام النساء فى الاشتغال بالعلوم الدينية ولا سيما فى علم الحديث .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢١٧ .

(٢) بفتح الباء الموحدة والعين المعجمة بعدها واو نسبة إلى بلخ بخراسان .

ومن هؤلاء النساء : كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية التى اشتهرت برواية صحيح البخارى . وتوفيت بمكة سنة ٤٦٤ هـ[١] .

ومن أشهر المحدثين فى العصر الفاطمى أبو طاهر أحمد بن محمد الحافظ السَّلَفى . وكان من أهل أصبهان ، وكان حافظا غزير العلم شافعى المذهب . وقد اختلف إلى كثير من البلاد يطلب الحديث على بعض أعلام الفقهاء ، وقد رحل من بغداد إلى صور حيث ركب البحر إلى الإسكندرية فوصل إليها فى شهر ذى القعدة سنة ٥١١ هـ (١١١٨ م) . ولما استقر به المقام استمع إلى دروسه كثير من أهالى البلاد . وفى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) أنشأ الوزير الفاطمى العادل بن السلار فى الإسكندرية كلية عين السلفى عميداً لها ، فظل يتقلد هذا المنصب حتى توفى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م)[٢] .

وقد جعل أهل المغرب موطأ الإمام مالك من أصول كتب الحديث . ولا عجب فقد كان مالك إمام محدثى المدينة فى عصره ، كما كان أول فقيه وجه أنظار المسلمين إلى ضرورة الاعتماد على الحديث الشريف باعتباره أحد أصلين قام عليهما الفقه الإسلامى .

وقد اهتم الموحدون فى المغرب بموطأ المهدى محمد بن تومرت باعتباره صورة مصغرة لموطأ الإمام مالك ، وذلك بعد حذف الأسانيد ، واهتم الخليفة الموحدى الثالث يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) بعلم الحديث اهتماما خاصاً ، حتى إنه قام بإصلاح فقهى أساسه إعتبار الحديث الشريف بالإضافة إلى القرآن الكريم مصدرا للتشريع فى العبادات والمعاملات ، وأمر بإحراق أهم الكتب التى تناولت الكلام على مذهب مالك ، مثل مدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعى ، وواضحه ابن حبيب[٣] . كما أمر بوجوب أخذ الفقه من كتب عشرة عدها أمهات كتب الحديث وهى الصحيحان (البخارى ومسلم) ، والترمذى ، وموطأ مالك ، وأحاديث المهدى محمد بن تومرت فى الطهارة ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وسنن البزار ، ومسند ابن أبى شيبة ، وسنن الدارقطنى ، وسنن البيهقى .

وكذلك ندرك مدى اهتمام المغرب الأندلسى بعلم الحديث فى جميع العصور ولا سيما فى القرن الخامس الهجرى ، حيث ظهر الفقيه المحدث الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ، والشيخ عبد الله بن ياسين زعيم دولة المرابطين المتوفى سنة ٤٥٣ هـ . وفى القرن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٦ .
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧ — ٣٨ .
(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٧٩ .

السادس الهجرى ظهر المهدى محمد بن تومرت المتوفى سنة ٥٢٤ هـ ، كما ظهر الخليفة الموحدى المحدث يعقوب المنصور المتوفى سنة ٥٩٥ هـ[١] .

ومن أشهر المحدثين فى الأندلس الحافظ القرطبى أبو عمر يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٢ هـ) الذى يقول أبو الوليد الباجى إنه لم يكن بالأندلس مثله فى الحديث . ومن أشهر كتبه : كتاب « الاستدراك لمذاهب الأعصار فيما تضمنه الموطأ من معانى الرأى والآثار » . وقد جمع ابن عبد البر الصحابة فى كتاب سماه « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » . ومن كتبه كتاب « الدرر فى المغازى والسير » ، وكتاب « بهجة المجالس وأنس المُجالس »

كما نبغ فى علم الحديث فى المغرب والأندلس : أبو الوليد الباجى ، وأبو الوليد بن رشد جد ابن رشد الفيلسوف المشهور ، وابن عاصم مؤلف « التحفة » . وتعتبر النسخة التى نقلها المحدث المشهور ابن سعادة من صحيح البخارى فى سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) المرجع الأساسى فى رواية صحيح البخارى فى كافة بلاد المغرب والأندلس . ومن هؤلاء المحدثين أيضاً أبو على الحسين بن أحمد الغسانى الجيانى (ت ٤٩٨ هـ) صاحب كتاب « تقييد المهمل » الذى ضبط فيه كل لفظ يقع فيه اللبس من كتاب الصحيحين ، ويقع هذا الكتاب فى جزأين ، ويعد الجيانى من أعظم المحدثين الذين ظهروا ببلاد الأندلس .

٤ — الفقه

ذكرنا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٣٤٨ — ٣٤٩) أنه قد ظهر فى العصر العباسى الثانى بعض أعلام الفقهاء الذين كونوا لهم مذاهب فى الفقه وأن هذه المذاهب لم يقدر لها الاستقرار والذيوع أمام المذاهب الأربعة . ومن فقهاء هذا العصر داود الظاهرى[٢] الذى كانت له طريقة خاصة تتلخص فى الأخذ بظاهر نص القرآن والسنة وعدم قبول الرأى والقياس . ولذلك سمى داود الظاهرى ، ويعرف أتباعه بالداودية أو الظاهرية[٣] . والظاهرية — كما يقول ابن خلدون[٤] — قد جعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص والإجماع وردوا القياس الجلى والعلة المنصوصة إلى النص . وبذلك خرج داود على علم الأصول والقواعد الفقهية التى وضعها أئمة المذاهب الأربعة ولا سيما

---

(١) عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٣٠٧ .
(٢) وينسب إلى قاشان القريبة من أصبهان ، وكان شافعى المذهب .
(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٣٠٣ .
(٤) مقدمة ص ٣٩٠ .

الإمام الشافعى[١] . وكان ابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ من أتباع المذهب الظاهرى[٢] . ثم انفصل ابن حزم عن الظاهرية واشتغل بمذهب خاص عرف به سمى المذهب الحزمى وعرف أتباعه بالحزمية .

وهناك مذاهب أخرى فى الفقه انقرضت كمذهب سفيان الثورى[٣] المتوفى سنة ١٦١ هـ . وقد أخذ عنه الأوزاعى (ت ١٨٠ هـ) إمام أهل الشام[٤] ، ومذهب إسحاق ابن راهويه (بفتح الهاء والواو وسكون الياء) (ت ٢٤٠ هـ) . وفى القرن الثالث الهجرى نرى من المذاهب : المذهب الشافعى ، والمذهب المالكى ، والمذهب الحنفى ، ومذهب الثورية ، ومذهب الداودية أو الظاهرية . وقد ساد من هذه المذاهب فى القرن الرابع الهجرى : المذهب الحنفى ، والمذهب المالكى ، ومذهب الداودية . كما نرى مذاهب أخرى أقل انتشاراً كالمذهب الحنبلى ومذهب الراهوية ومذهب الأوزاعى . على أن السيادة قد أصبحت على مر الزمن للمذاهب الأربعة المشهورة وظلت على ذلك إلى وقتنا هذا . وقد وقف الاجتهاد عند هذه المذاهب . وفى ذلك يقول ابن خلدون[٥] :

« ووقف التقليد فى الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم[٦] ، وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر من تشعب الاصطلاحات فى العلوم ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد » .

وقد ظهر فى وقتنا الحاضر الاتجاه إلى توحيد المذاهب الفقهية والرجوع إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة فى استخلاص الفروع الفقهية مع الاستئناس بآراء الأئمة حتى يسير المسلمون فى اتجاه واحد فى أمور دينهم مما عساه أن يضع حداً للخلافات المذهبية التى جرت على المسلمين كثيراً من ألوان الشقاق والفرقة .

(ا) فقه الشيعة :

وقد نهض المذهب الإسماعيلى نهضة بعيدة الأثر على أيدى الفاطميين الذين اعتمدوا على المدارس التى أطلقوا عليها فى المغرب « مدارس الدعوة » لبث عقائد المذهب

---

(١) ولداود مؤلفات كثيرة ذكرها ابن النديم (الفهرست ص ٣٠٣ — ٣٠٥)

(٢) انظر كتابى تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٤٧ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٠ .

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ٤ ص ٢١٤ .

(٥) مقدمة ص ٣٩١ — ٣٩٢ .

(٦) أى لم يبق منهم أحد .

الإسماعيلى على أساس تعاليم الفقه الشيعى . وقد عرفت هذه المدارس باسم مدارس الحكمة ، ومنها دار الحكمة التى أنشأها الخليفة الحاكم الفاطمى . وقد امتدت هذه المدارس إلى أقاليم الدعوة الفاطمية أو بحارها وجزرها كما كان يطلق عليها فى ذلك الحين .

وكان الخلفاء الفاطميون بصفة عامة من أفقه الناس بعقائد المذهب الفاطمى وتعاليمه ، كما كان لداعى الدعاة ونوابه أثر كبير فى نشر الفقه الشيعى على المبادىء التى كانت تلقى فى المساجد والقصور وفى دور العلم كمدارس الدعوة ومدارس الحكمة . وكان هؤلاء الدعاة يصنفون الكتب ويعدون المحاضرات التى تتناول المسائل الفقهية التى يستمدونها من أئمة أهل البيت . وقد أنجبت الدعوة الإسماعيلية دعاة كان لهم شأن كبير فى عالم الدعوة وفى عالم الأدب والفلسفة والتأليف . ومن بين هؤلاء الدعاة أو الفقهاء : أبو حاتم الرازى (ت ٣٢٢ هـ) فى بلاد الديلم ، وأبو يعقوب السجزى (ت ٣٣١ هـ) وأبو حنيفة النعمان المغربى (ت ٣٦٣ هـ) الذى عاصر الفاطميين فى المغرب وترك مؤلفات ذات غناء فى الفقه الإسماعيلى .

وقد بلغت الدعوة الإسماعيلية ذروتها على يد الخليفة المعز لدين الله وقاضى قضاته أبى حنيفة النعمان المغربى ، وباب أبوابه جعفر بن منصور اليمن (٤٠٨ هـ) . وكان لهذه المدرسة أثرها البعيد فيما خلفه من جاء بعده من الدعاة ، مثل حميد الدين الكرمانى الذى يعد من فلاسفة الإسماعيلية ودعاتهم فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله والذى كان يلقب بحجة العراقين . وقد ألف الكرمانى فى الرد على بدعة الدرزية فى تأليه الحاكم رسالة سميت «الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله » ، يثبت فيها عقيدة الإسماعيلية فى وحدانية الله سبحانه . ومن أشهر كتبه كتاب « راحة العقل » ، وله رسائل فى أدب الإسماعيلية ، وكتاب « المجالس البغدادية » وكتاب « المجالس البصرية » جمع فيهما محاضراته فى تأويل الآيات المتشابهة (١) .

ومن أشهر فلاسفة الإسماعيلية وفقهائهم المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، ويعرف بالمؤيد فقط . وقد غلب عليه لقب المؤيد فى الدين ، ويسمى « هبة الله » و « السلمانى » نسبة إلى سلمان الفارسى . وقد انحدر المؤيد فى الدين من أسرة اتخذت التشيع لها دينا والفاطمية مذهبا . وأخذ المؤيد يرقى مدارك الدعوة الاسماعيلية حتى تقلد رياسة الدعوة

---

(١) أنظر كتاب أسرار النطقاء (من المنتخب) ص ٨٥ — ٩٣ و ٩٩ وحسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٢٥٨ وما يليها .

فى شيراز وأصبح حجة بلاد فارس حول سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) ، واتصل بالسلطان أبى كاليجار البويهى وكسب عطفه وتوثقت صلته به ، واستطاع بقوة حجته وبلاغته أن يستميله إلى الدعوة الإسماعيلية ، ثم سار إلى الأهواز ودعا الناس إلى إقامة الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمى . ثم رحل المؤيد فى الدين إلى الموصل ولجأ إلى قرواش بن المقلد العقيلى ، ولكنه لم يستجب لدعوته ، فرحل إلى مصر سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) ومثل بين يدى الخليفة المستنصر الذى قلده ديوان الإنشاء . واستمال أبا الحارث البساسيرى التركى الذى انتصر جنده على جند طغرلبك السلجوقى أول الأمر ونشر الدعوة الفاطمية فى العراق وخطب للخليفة الفاطمى فى بغداد نحواً من سنة[١] .

وقد تقلد المؤيد فى الدين رياسة الدعوة الفاطمية وأصبح داعى الدعاة فى سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٨م)[٢] ، كما برع المؤيد فى العربية والفارسية وخلف كثيراً من الكتب التى تعد بحق من أمهات كتب الإسماعيلية إلى اليوم[٣] . ومن مؤلفاته كتاب « المجالس المؤيدية » و « ديوان المؤيد » و « سيرة المؤيد فى الدين » و « شرح المعاد » وكتاب « الإيضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير » وكتاب « الابتداء والانتهاء » و « قصيدة الاسكندرية » وتسمى أيضاً « ذات الدوحة » ، وكتاب « تأويل الأرواح » وكتاب « المسألة والجواب » وكتاب « أساس التأويل »[٤] .

ومن أهم آثار المؤيد فى الدين كتاب « المجالس المؤيدية » ، وهو مجموعة محاضرات ألقاها فى مجالس الدعوة يشرح فيها عقائد المذهب الفاطمى ، ويصور « ديوان المؤيد » عقائد الفاطميين تصويراً كاملا . كما عرض المؤيد لمبدأ التأويل وإعجاز القرآن والرأى والقياس .

ومن أهم مؤلفات المؤيد فى الدين التى تعرض لفلسفة الإسماعيلية كتاب « المجالس المستنصرية » . فقد تناول الكلام على أصول عقائد الإسماعيلية وتعرض للعبادات ولقواعد الإسلام العملية من الفرائض والسنن ، ورفع من شأن إمام العصر وهو المستنصر بالله . ويشتمل هذا الكتاب على خمسة وثلاثين مجلساً تتناول هذه المسائل وهى :

---

(١) المؤيد فى الدين : ديوان المؤيد فى الدين : نشره محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩) مقدمة ص ١٧ و ١٩ و ٢٢ و ٢٨ و ٣٠ . السيرة المؤيدية : مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٦٠٥٦ ص ١٦ .

(٢) ديوان المؤيد فى الدين مقدمة ص ٤٩ .

(٣) Ivanow, A Guide to Ismaili Literature

(٤) Ibid., p. 413.

١ — توحيد الله وتنزيهه ونفى الإشراك والقرناء له .
٢ — الاعتراف بالأنبياء والرسل وعصمتهم من كل خطأ وأن محمداً خاتم النبيين .
٣ — القول بوصاية على وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم .
٤ — التصديق بما جاء فى القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطنا .
٥ — إبطال الرأى والقياس فى كل أمور الدين ووجوب الأخذ عن الأئمة(١) .
٦ — القول بالظاهر والباطن معا .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نذكر عالماً أندلسياً رحل إلى مصر واتخذها وطناً له ، ذلك هو الفقيه المالكى المشهور أبو بكر الطرطوشى(٢) الذى ينتسب إلى مدينة طرطوشة شرقى مدينة بلنسية بالأندلس ، حيث ولد سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) . وقد تنقل فى الحجاز والشام والعراق ، وتلقى العلم على أئمة العلماء والفقهاء فى أمهات المدن الإسلامية كمكة وبيت المقدس وبغداد والبصرة ، ونزل الإسكندرية واستوطنها وقام بالتعليم فيها ، وبقى بها إلى أن مات سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) .

ولم يلبث الطرطوشى أن تقرب إلى الوزير الفاطمى المأمون البطائحى وأهدى إليه « سراج الملوك »(٣) . وكان من مظاهر سرور الوزير بهذا الكتاب أن رتب للطرطوشى خمسة دنانير فى كل يوم ، فلم يقبل منها غير دينارين كان الوزير الأفضل بن (أمير الجيوش) بدر الجمالى قد أجراهما عليه .

وقد أسهم الفقيه الطرطوشى فى تعديل قانون الوراثة فى عهد الفاطميين ، ذلك القانون الذى يقضى بأن ترث البنت كل ما يتركه أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت . وهذا يخالف قانون مذهب السنة الذى يقضى بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة . ثم عدلت هذه القاعدة التى تجيز بمقتضى قانون الشيعة بأن تستولى البنت على جميع الثروة التى يخلفها أبواها إذا انفردت بالميراث . وقد قضى هذا التعديل بأن يرث كل من الشيعيين والسنيين على وفق مذهبه والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته . وقد تم هذا التعديل سنة ٥١٦ هـ .

وتوريث البنت جميع الثروة يخالف ما ورد فى القرآن الكريم ، إذ فصّل الميراث فى سورة النساء (٤ : ١١ — ١٢) تفصيلا واضحا .

---

(١) ديوان المؤيد فى الدين ص ٣ - ١ .
انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الجامع الأزهر (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٣ — ٣٥ .
(٢) بتشديد الطاء الأولى مع ضمها وسكون الراء . انظر لفظ طرطوشة فى معجم البلدان لياقوت .
(٣) ويقال إن كتابه يسمى سراج الهدى .

(ب) الفقه فى اليمن :

انتشر مذهب مالك ومذهب أبى حنيفة فى اليمن ،وفى القرنين الثالث والرابع للهجرة وقع فى هذه البلاد حدثان عظيمان :

الأول — فتنة القرامطة التى عمت بلاد العراق .

والثانى — قيام الإمام الهادى يحيى بن الحسين العلوى الذى دعا إلى اعتناق عقائد الشيعة فى اليمن :

ولد يحيى سنة ٢٤٥ هـ واشتغل بالعلم منذ حداثة سنه فى الحجاز والعراق وانتشر نفوذه فى اليمن سنة ٢٨٠ هـ . ويذكر المؤرخون أن يحيى دخل اليمن بدعوة من أهلها . وقد انتشر فيها مذهب القرامطة وجاهدهم جهاداً كبيراً ، وألف كثيراً من الكتب قيل إنها جاوزت الأربعين . ووضع أساس الفقه الهدوى التى كانت تسير عليه الدولة اليمنية الزيدية حتى قيام الجمهورية العربية اليمنية .

وقد شق المذهب الشافعى طريقه إلى اليمن إلى جانب الزيدية ، حتى أصبح للمذهب الشافعى فى هذه البلاد أنصار يعملون على نشره ولا سيما بجهة زبيد وبيت الفقيه . وقد ظهر هذا المذهب على يد القاسم بن محمد الجحى إمام الشافعية فى صنعاء وعدن ، وامتد فى أواخر القرن الرابع الهجرى إلى المعافر ولحج وأبين وأهل الجند والسحول وغيرها . وممن أخذ الفقه عن القاسم الجحى : جعفر بن عبد الرحيم المخائى الذى قام بالتدريس والفتيا ومات سنة ٤٦٠ هـ .

ومن علماء اليمن القاضى محمد الصليحى وابنه على بن محمد . وقد تفقه فى عقائد المذهب الشيعى وأسس الدولة الصليحية فى هذه البلاد فى القرن الخامس الهجرى .

ومن أشهر علماء اليمن : زيد بن عبد الله اليفاعى . وقد أخذ الفقه وعلم الكلام على مشاهير علماء اليمن ومكة ،ثم عاد إلى اليمن وسكن الجند حيث التف حوله كثير من الطلاب. ثم هاجر إلى مكة حيث قضى فيها اثنتى عشرة سنة . واشتهر بالزهد والورع وعاش من غلة أرضه واستغل ثروته فى التجارة . وقد نبه ذكر زيد بن عبد الله فى مكة وبرز على فقهائها ، ثم عاد إلى اليمن سنة ٥١٢ هـ وبقى بها حتى مات سنة ٥١٤ هـ .

ومن أشهر فقهاء اليمن : عبد الله بن يحيى الصعبى . وقد أخذ عليه الفقه كثير من الطلاب؛ وكان إماما فى العربية . ومن فقهاء اليمن أيضا : أبو بكر بن محمد اليافعى الذى تقلد قضاء

اليمن (من إب إلى عدن) من قبل الداعى محمد بن سبأ . وقد أخذ الفقه على أخواله ونبغ فى اللغة العربية والشعر وعلم الكلام ومات سنة ٥٥٢ هـ .

ومن أشهر فقهاء اليمن أيضاً : عمر بن على بن سمره الجندى اليمنى . وقد خلف لنا كتابه « طبقات فقهاء اليمن » . ويعد من أقدم المصنفات اليمنية فى هذا الموضوع . وكان هذا الكتاب المرجع الذى يعتمد عليه الفقهاء الذين ألفوا فى الطبقات والتراجم . وقد استمد الجندى مادته من كتب الفقه والحديث والتاريخ .

وكان الجندى شافعى المذهب . وقد ترجم لنفسه فى ثنايا كتابه ، فذكر أنه أخذ العلم عن أشهر علماء اليمن ، وأنه تقلد القضاء فى « أَبْيَن » سنة ٥٨٠ هـ ، وحج بيت الله من عدن عن طريق البحر وزار جزيرة كمران فى ذهابه وإيابه . وتعد أسرة ابن سمرة من الأسر العريقة ذات الجاه والثراء . وقد ذكر مؤلفو التراجم والسير أن ابن سمرة انتهى من وضع كتابه سنة ٥٨٦ هـ ولم يجزموا برأى فى سنة وفاته . ويظهر أنه توفى فى السنة التى أتم فيها كتابه . ويلاحظ أنه يستطرد أحيانا فيذكر شيئاً من تاريخ الأسرات والدول التى تداولت الحكم فى اليمن .

ولما كان الجندى يدين بعقائد المذهب الشافعى وجب أن نأتى بكلمة عن انتشار هذا المذهب فى بلاد اليمن مستعينين فى ذلك بما أورده هذا المؤلف نفسه فى كتابه .

كان مذهب مالك ومذهب أبى حنيفة قبل قدوم الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين إليها سنة ٥٨٠ هـ وانتشار الدعوة الشيعية على يده وظهور دعوة على بن فضل وابن حوشب. ولما ظهر مذهب الإمام الشافعى لقى فقهاء اليمن بعض أئمة الشافعية فى مكة والمدينة وبغداد والفسطاط وغيرها ، وأخذوا عنهم علمهم وكتبهم وعادوا بها إلى اليمن حيث انتشر هذا المذهب من صنعاء إلى عدن فى القرن الرابع الهجرى ، ثم عم انتشاره بعد ذلك إلى القرن السادس الهجرى[1] .

(ح) الفقه فى المغرب والأندلس :

جاء إقرار مذهب مالك فى الأندلس رداً على إقرار العباسيين مذهب إبى حنيفة بالمغرب . ففى القرن الرابع الهجرى تدخل الأمويون فى سياسة المغرب ونشروا المذهب المالكى بين أتباعهم . على أن الاضطرابات السياسية التى سادت هذه البلاد فى عهد الزنانيين لم تتح الفرصة لظهور علماء من المغرب متفقهين فى المذهب المالكى بسبب عدم ضمان حياة

---

(١) الجندى : طبقات فقهاء اليمن ص ١٢ ـ ١٣

الاستقرار التى تساعدهم على الإنتاج العلمى . وقد نقل مذهب مالك إلى إفريقية فى القرن الثالث الهجرى على أيدى علماء تلقوا العلم عن تلاميذ مالك ، نخص بالذكر منهم أبا القاسم ومن تلاميذه أسد بن الفرات وسحنون (١) .

ثم جاء المرابطون فى عصر ظهور كبار الفقهاء كأبى عمران الفاسى ، وعبد الله بن ياسين والقاضى عياض - وكلهم من المغاربة الذين تلقوا العلم ببلاد الأندلس . وقد تلقى عبد الله ابن ياسين العلم بقرطبة(٢) نحواً من سبع سنين ، ثم أتمّ دراسته على وجّاج بن زلو الذى تلقى العلم بدوره عن أبى عمران الفاسى بالقيروان ، ثم أسس أول مدرسة لفقه المالكية فى نفيس على مقربة من أغمات . وكان مذهب مالك يتناسب وبساطة المرابطين الصحراوية الذين كانوا ينظرون إلى علماء أهل المدينة باعتبارهم رمز الإسلام ورسل المحبة والصفاء .

وقد قويت سلطة فقهاء المذهب المالكى فى عهد المرابطين ولا سيما فى بلاد الأندلس . وكان كتاب « إحياء علوم الدين » لأبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ قد وصل إلى الأندلس والمغرب ، وشقت الصوفية التى تقوم على محاسبة النفس طريقها إلى هذين البلدين(٣) ، وأصبحت الهوة تتسع فى الأندلس بين الصوفية وبين الفقهاء الذين خشوا على نفوسهم من دخول كتاب « إحياء علوم الدين » للغزالى الذى جمع بين أحكام الفقه وآداب المتصوفة ، فأفتوا على ابن يوسف بن تاشفين » بمصادرته وإحراقه . ومما هو جدير بالملاحظة أن فقهاء المالكية قد قاوموا كتاب إحياء علوم الدين لسببين :

الأول — أن الاتجاه الفقهى فى هذا الكتاب يسير على مذهب الإمام الشافعى .

الثانى — أن كتاب الإحياء كتاب صوفى فى روحه يسير على الفلسفة الكلامية التى كان يحرمها المالكية ويخشون منها على مذهبهم . ولذلك أفتوا بإحراق الكتاب .

وكان زعيم فقهاء المالكية بالأندلس ابن حمدين وزعيمهم بالمغرب مالك بن وهيب(٤) . وقد تم إحراق هذا الكتاب بين سنتى ٥٠٠ و ٥٠٥ هـ .

ومما يدل على قوة نفوذ الفقهاء فى الدولة المرابطية ما كان يتمتع به عبد الله بن ياسين من نفوذ ، حتى إن أمراء المرابطين كانوا بعد موته لا يبرمون أمراً من أمور دولتهم دون استشارة الفقهاء . ومن أكبر الأدلة على قوة نفوذ الفقهاء أن أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين حين هم بمساعدة مسلمى الأندلس ضد النصارى لم يرد بدأ من الرجوع إلى رأى

---

(١) المقرى: نفح الطيب ج ٢ ص٢١٨ .
(٢) الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ١٠ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٥ .
(٤) الحلل الموشية ص ٨٥ .

الفقهاء الذين أفتوا بوجوب حرب النصارى ، ثم أملوا على الأمير الكتاب الذى يجب أن يوجهه إلى ألفونس السادس ملك المسيحيين فى الأندلس . وكانت هذه الرسالة على نمط الرسائل التى كان يرسلها النبى والخلفاء الراشدون إلى الملوك . ومما يدل على صحة هذا الرأى ما ذكره المراكشى[1] أن على بن يوسف بن تاشفين « كان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشورة الفقهاء » . ويذكر لنا التاريخ أن الفقهاء فى الأندلس طلبوا إلى يوسف بن تاشفين القدوم إلى بلدهم وأفتوا بخلع ملوك الطوائف . بل إن على بن يوسف ابن تاشفين حين فكر فى تسوير مدينة مراكش سنة ٥١٩ هـ استفتى الفقهاء فى المغرب والأندلس ، وقد اشترك ابن رشد الأندلسى فى مجلس على بن يوسف وأفتى بصحة هذه الفتوى . كذلك أفتى ابن رشد على بن يوسف بإبعاد النصارى المعاهدين بغرناطة إلى المغرب لمساعدتهم « ابن روذمير » وغدرهم بالمسلمين ، فتم ترحيلهم إلى المغرب ولا سيما إلى مكناسة وسلا[2] .

(٥) — علم الكلام

علم الكلام هو البحث فى أمور العقيدة الإسلامية مثل توحيد الله ، والكلام فى ذاته سبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله ، ثم الكلام فى الأنبياء والرسل . ويتناول كثير من كتب علم الكلام مسائل عصمة الرسل والإمامة . وقد يعرض هذا العلم لمسائل غيبية كالبعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك ، ثم يعرض هذه المسائل على مقاييس العقل والمنطق فى معرض جدلى كلامى منطقى . ويعد علم الكلام أساس الفلسفة الإسلامية ، بل لقد تميزت به هذه الفلسفة الكلامية عند المسلمين عن الفلسفة اليونانية .

ويعتبر علم الكلام وليد النهضة الثقافية الإسلامية التى تأثرت بثقافات اليونان والفرس والسريان فى العصر العباسى الأول . وقد حملت المعتزلة لواء علم الكلام الذى سيطر على الفكر الإسلامى حيناً من الدهر ، وكان له أثر بعيد فى دفع العقلية العربية خاصة والإسلامية عامة فى ميدان التفكير الإسلامى العام .

ومن أشهر متكلمى المعتزلة : أبو الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥ هـ . ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام المتوفى سنة ٢٣١ هـ من تلاميذ أبى الهذيل

---

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٧١ .

(٢) الحلل الموشية ص ٧٦ .

العلاف . وكان للنظام منزلة لا تدانى فى عصره . وقد تتلمذ له أبو عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الذى تنسب إليه فرق « الجاحظية » من المعتزلة[١] .

وكان علم الكلام بدعة من أكبر البدع فى الإسلام . وقد شدد النكير على هذا العلم أهل الحديث (السنة السلفية) الذين كانوا يرون أن ما جاوز البحث فى الأحكام الفقهية ابتداع[٢] . وكان رجال مذهب السلف الصالح يرمون علماء الكلام بالكفر والزندقة . وقد روى السبكى أن أحد تلاميذ الشافعى جعل يسأله فى علم الكلام ، فكان الشافعى يجيبه بأخصر جواب ، ثم التفت إليه قائلا : « يابنى ! هذا علم (يقصد علم الكلام) إن أصبت فيه لم تؤجر ، وإن أنت أخطأت فيه كفرت ، فهل لك فى علم إن أصبت فيه أجرت وإن أخطأت لم تأثم ؟ قال (التلميذ) : وما هو ؟ قال (الشافعى) : الفقه ، فلزمته وتعلمت عليه الفقه[٣] » .

وبعد تأويل الآيات المتشابهات فى القرآن الكريم أهم الفوارق التى تفصل أهل السنة السلفية عن المعتزلة .

(١) التوحيد فى الإسلام :

ذكر الله سبحانه وتعالى التوحيد فى أغلب آيات القرآن الكريم إما مباشرة وإما ضمناً بطريق التذكير بقصص الأنبياء السابقين الذين أرسلوا لتوحيد الله قبل كل شىء[٤] ، وليست أحكام الفروع إلا وسيلة لعبادة ذلك الواحد الأحد . ومن تحصيل الحاصل الاستشهاد بآيات قرآنية تثبت التوحيد لأنها أكثر من أن تذكر . وقد عقدت بعض السور القرآنية جميعها للتوحيد كسورة « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد[٥] » .

وإن هذه السور التى كانت مطلع الوحى ونزلت على النبى الكريم بمكة المكرمة كلها تدور على محور الوحدانية ومحاربة الشرك[٦] . ثم كان التوحيد أول أركان الإسلام فى

---

(١) أنظر كتابى تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٤٩ — ٣٥٠ .

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة أبى ريدة ص ٥١ .

(٣) السبكى : طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٤١ .

(٤) وفى ذلك يقول الله تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (سورة يوسف ١١ : ١٢٠) .

(٥) سورة الاخلاص ١١٢ .

(٦) انظر على سبيل المثال سور : العلق ٩٦ ، المزمل ٧٣ ، المدثر ٧٤ .

الحديث النبوى الشريف . « بنى الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

ولقد وضع علماء المسلمين أمر التوحيد فى المنزلة الأولى فى كل العصور . ومن هذا قول الإمام الغزالى : « لا إله إلا الله كلمة نتيجتها معرفة الوحدانية وثمرتها الإقرار بالفردانية . وذلك هو المقصود من وجود الموجودات ، وكون الكائنات . ولولا معرفة الوحدانية والاقرار بالفردانية ، لما سحب ذيل الوجود على موجود ، ولما أخرج من كتم العدم مفقود ، وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (١) ، كما يتضح ذلك من الحديث القدسى المأثور عن الرسول الكريم وهو : « عبدى خلقتك من أجل التوحيد وخلقت الأشياء كلها من أجلك » .

وفى القرآن الكريم آيات محكمات تنزه الله تنزيهاً تاماً وتباعد بين مشابهة الذات الالهية بالمخلوقات كقوله تعالى : «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير» (٢) ، وقوله تعالى : «هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم» (٣) ، وقوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ... » (٤) .

وثمة آيات أخرى يفهم ظاهرها مشابهة الله لمخلوقاته ، وتسمى الآيات المتشابهات وذلك كقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى »(٥) وقوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم »،(٦) وقوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده »(٧) وقوله تعالى : « وإنا فوقهم قاهرون »(٨) .

---

(١) الغزالى : التجريد فى علم التوحيد، مخطوط مكتبة الأسكوريال (Escorial) ورقة رقم ١٧ قسم ٧٦٢ .

(٢) سورة الشورى (٤٢ : ١١) .

(٣) سورة الحشر (٥٩ : ٢٢ — ٢٤) .

(٤) سورة البقرة (٢ : ٢٥٥) .

(٥) سورة طه (٢٠ : ٥) .

(٦) سورة الفتح (٤٨ : ١٠) .

(٧) سورة الأنعام (٦ : ١٨) .

(٨) سورة الأعراف (٧ : ١٢٧) .

وهذه الآيات المتشابهات كانت مثار جدل عنيف بين علماء المسلمين ، ولا سيما بين السلفيين وعلماء الكلام .

وقد وقف السلفيون ومن سار على نهجهم موقف الحياد التام إزاء الآيات المتشابهات ، فلم يسمح لهم ورعهم بأن يعمدوا إلى تأويلها ، بل سلكوا سبيل الحذر ، وحملهم على ذلك أمران : أحدهما ظاهره المنع الوارد فى القرآن الكريم ، إذ يقول الله جل شأنه مخاطباً نبيه الكريم :

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ، هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ . رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ »(١) .

فالسلفيون قد تركوا أمر تأويل هذه الآيات إلى الله إذ لا يعلم تأويلها إلا هو حسب النص القرآنى ، وآمنوا بهذه المتشابهات من غير بحث . قائلين ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا .

والأمر الثانى : — أن التأويل أمر مظنون فيه بالاتفاق ، والقول فى ذات الله سبحانه وتعالى بالظن غير جائز . والكلاميون لا يعتبرون التأويل ظناً ، بل يؤمنون بما يرونه من تأويل . هذا إلى أن التأويل المظنون ليس من شرائط الإيمان وأركانه(٢) .

ومن أبرز رجال المدرسة الفلسفية الإمام مالك ، والإمام الشافعى والإمام أحمد ابن حنبل رضى الله عنهم .

يقول الشهرستانى فى الإمام مالك : « أما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ، ولا تهدفوا للتشبيه ، فمنهم مالك بن أنس رضى الله عنه إذ قال فى تفسير قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) : « الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » . كما ذكر الشهرستانى من رجال هذه المدرسة السلفية أحمد بن حنبل وداود الظاهرى

---

(١) سورة آل عمران (٣ : ٧ — ٨) .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل (ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨) .

الأصفهانى[١] وتلميذه ابن حزم . وكان شعار السلفيين : فر من الكلام فى أى صورة تكون كما تفر من الأسد .

ويعبر عن شعور السلفيين نحو علم الكلام قول حانق ينسبونه إلى الشافعى وهو : حكمى على رجال علم الكلام أنه يجب أن يضربوا بالسياط والنعال وأن يطاف بهم مشهرين فى المجامع والقبائل وينادى عليهم : هذا جزاء من ينبذ القرآن والسنة فى ناحية وينكب على علم الكلام الذى إن أصاب المرء فيه لم يؤجر وإن أخطأ فيه كفر[٢] .

ومن أشهر السنيين السلفيين فى العصر السلجوقى شيخ الإسلام عبد الله الأنصارى (٣٩٦ — ٤٨١ / ١٠٠٦ — ١٠٨٨) . ويعد من أئمة العلماء والمحدثين وكبار الصوفية . وكان حنبلى المذهب ، شديد التعصب لرأيه ، ولقى بسبب ذلك كثيراً من العنت والاضطهاد من الفلاسفة وعلماء الكلام ، حتى دبروا له المكايد للتخلص منه غير مرة ورموه بالكفر عند الوزير نظام الملك فى عهد السلطان ألب أرسلان السلجوقى . إذ اتفق هؤلاء العلماء على إغارة صدر السلطان على الأنصارى واجتمعوا عنده لشكواه ، وكانوا قد وضعوا صنما صغيراً من النحاس فى محرابه ، وقالوا إن الشيخ يقول بالتجسيم وإن فى محرابه صنما يقول إن الله على صورته . ثم طلب هؤلاء العلماء إلى السلطان أن يبعث فى طلب الأنصارى ، فأرسل السلطان (وقد تملكه الغضب) من يحضر الصنم من قبلة الشيخ فأحضر ، ثم أمر بالشيخ فحضر ، وحضر العلماء ووجوه المدينة إلى مجلس السلطان فوجدوا أمامهم صنما ، فاتجه السلطان إلى الأنصارى قائلا : ماهذا ؟ (مشيراً إلى الصنم) ؟ فقال الشيخ : هذا تمثال عمل لعبة للأطفال . فقال السلطان غاضباً : لست أسأل عن هذا ، فقال الشيخ : عم تسألون يا مولاى ؟ فأجابه (السلطان) : إن هذه الجماعة تقول إنك تعبده كما تقول عنك إنك تقول إن الله على صورته ، فقال الشيخ : (سبحانك هذه بهتان عظيم) ، قالها بهيبة وقوة ، فأدرك السلطان أن الجماعة قد افترت عليه كذباً ، فاعتذر السلطان للشيخ وأعاده إلى بيته معززاً مكرماً ، كما اعترفت هذه الجماعة بأنهم دبروا هذه المكيدة للشيخ للخلاص منه ، ولما يلاقونه من تعصبه ، فأمر السلطان بأن يشتروا أرواحهم بثمن غال فرضه عليهم عقابا لهم .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١١٨ — ١١٩ .

(٢) ابن تيمية : العقيدة والشريعة لجولدتسيهر (القاهرة ١٩٤٦) ص ١١٤ .

انظر عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤) ص ١٣٣ — ١٣٧ .

وللشيخ عبد الله الأنصارى هذا مؤلفات تشهد له ببراعته فى الأدب والزهد . ومن مؤلفاته كتاب ذم الكلام[١] .

كان اهتمام المسلمين عظيما فى مجال علم التوحيد كما تقدم ، فقد كتب فيه السلفيون والمعتزلة ، كما عنى الشيعة كثيراً بالبحث فى هذا العلم . ومن أهم ما كتبه الشيعة فى علم الكلام : كتاب المجالس المستنصرية للمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى وداعى دعاة الفاطميين فى فارس . ويعد من أهم آثارهم فى علم الكلام ، وهو مجموعة مذهب محاضرات ألقاها هذا الداعى فى مجالس الدعوة يشرح فيها عقائد المذهب الإسماعيلى الفاطميين[٢] .

ويعد ديوان المؤيد فى الدين من أهم مؤلفاته ، لأن شعره فى هذا الديوان يصور عقائد الفاطميين تصويراً تاماً . فقد تحدث عن الولاية والتوحيد ، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذكر الولاية والإشارة إلى وجوب طاعة الأئمة . ومن ذلك قوله فى منظومته :

وهم أُولو الأمر أئمة الهُدى ... عِصْمَةُ مَنْ لاذَ بهم من الردى
مفروضةٌ طاعتُهم على الأمم ... قاطبةً مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمِ
اقرأ : أطيعوا الله والرسولا ... ثُمَّ أولى الأمر بهم موصولا
ثلاثُ طاعاتٍ غَدَتْ مَعْلومهْ ... فى آيةٍ واحدة مَنْظومه[٣]

وكما عرض المؤيد لمبدأ التأويل وإعجاز القرآن والرأى والقياس ، كذلك عرض لنظرية المثل والممثول . فالإسماعيلية يذهبون إلى القول بأن النبى صلى الله عليه وسلم يعلم بتأويل ما أتى به ، وأنه أول الراسخين فى العلم وأفضلهم ، وعنه أخذ كثير من الراسخين فى العلم . وكما أن النبى كان يعلم تأويل القرآن ، فإن من قام مقامه فى كل عصر يعلم هذا التأويل . كما يذهب الإسماعيلية إلى القول بأن القرآن الكريم بحاجة إلى أن يخرج كنوز

---

(١) وهو بالمتحف البريطانى (Add- ٢٧/٥٢٠) .
نظامى عروضى : جهار مقاله (ترجمة) ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٢) وقد بلغ عدد هذه المحاضرات ثمانمائة محاضرة . ويرجح الدكتور محمد كامل حسين (ديوان المؤيد فى الدين ، مقدمة ص ٦٠) أن المؤيد ألقى بعض هذه المحاضرات بعد أن ارتقى إلى رتبة داعى الدعاة فى سنة ٤٥٠ هـ .

(٣) ديوان المؤيد ص ٦١ .

معانيه ويؤولها ، لأن له معان غير المعانى التى تتداولها ألسنة العامة . وهذه المعانى هى سر إعجاز القرآن ، وإعجازه ليس فى لفظه بل فى معناه ، وفى ذلك يقول المؤيد :

إن كان إعجاز القُران لفظا ولمْ يَنَلْ معناه منه حظاً
صـــادفتمُ مَعْقُودَه مَحْلولاَ مِنْ أجل أن أنكرتُمُ التأويلا[1]

والإمامة فى نظر الإسماعيلية هى قيادة العالم وحمل معرفة الحقيقة إليه . ولابد من وجود هذا المرشد فى كل عصر حتى لا يبقى العالم جاهلا ، وأن علياً والأئمة من ذريته هم الذين اختصوا بتأويل القرآن دون غيرهم من الناس . ويقول المؤيد :

وتأويله مستودعٌ عند واحد وإنْ لم تسائله فزوراً تأولتَ
وأَحْمَدُ بيت النور لا شك بابُه أبو حسن والبيت من بابه يُؤتى
للعـلم قومٌ به خُصُّوا ، أقامهم رَبُّ الورى للورى فى أرضه عَلَما[2]

ولم يأخذ الفاطميون بالقياس فى التفسير والفقه وطعنوا فى فتاوى الصحابة ، وذهبوا إلى أن الفقهاء من أهل المذاهب الأولى قد حرفوا القرآن الكريم لأنهم لم يفهموا معناه وإن فهموا لفظه ، كما يتضح ذلك من قول المؤيد :

وهو الذى قد حَرَّف الكتابا عن وجهه وجانَبَ الصوابا
يثبتُ شيئاً ليس فيه وحُكْمِ آىٍ أُحْكِمَتْ يَنْفيه[3]

كما يعتقد الإسماعيلية أن الدين وعلومه وقف على الأئمة من أهل البيت ، وأن هذه العلوم هى علوم الباطن ، ولذلك سموا الباطنية ، لأن اعتقادهم بهذا العلم هو قوام عقيدتهم . قال المؤيد :

ورُبَّ معنى ضَمَّه كلام كمثل نور ضَمَّه ظلامُ
باق بقاء الحَبِّ فى السنابل فى مَعْقِلٍ من أحرز المعاقل[4]

---

(١) ديوان المؤيد ص ١١٠ .

ونلاحظ فى هذا الكتاب التوحيدى الشيعى أنه اهتم اهتماماً خاصا بأمور الأئمة العلويين وما يتمتعون به من حقوق يجب على المسلمين القيام بها نحوهم كجزء من العقيدة الإسلامية ، إذ جعلوا الإمامة ركناً سادساً لأحكام الإسلام الخمسة التى وردت فى الحديث المشهور بنى الإسلام على خمس .

(٢) ديوان المؤيد ص ١٠٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٤ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٠٦ .

وإن استخلاص الباطن من الظاهر هو ما يطلق عليه نظرية المثل والممثول(١) وهو تفسير الباطن من الظاهر ، أى تفسير الأمور العقلية غير المحسوسة بما يقابلها ويماثلها من الأمور الجسمية المحسوسة . وهذا الاسم مستمد من أقوال الفاطميين : « إن الله جعل لهم مَثَلاً دالا على ممثوله فعرفوا الممثول بمثله ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كُلِّ مَثَلٍ لعلهم يتذكرون) (٢) . فأخفى الله سبحانه الممثول (٣) وستره وجعل مثله طريقاً إلى معرفته اختباراً لعباده وامتحاناً لهم ، قال المؤيد :

والذى قال فى الكتاب تعالى مَثَلٌ ذاك تحتَه ممثول
أقصد : حَمَا مَمْثولَه دون المثل ذا إبَرُ النحل وهذا كالعسل(٤)

كما رد المؤيد على الفرق المختلفة فى تفسير رؤية الرحمن ، ورد على الفرق التى أثبتت رؤية الرحمن أو أنكرتها ، فأثبت أن الرؤية تنقسم قسمين : أحدهما محسوس والآخر معقول وهو رؤية العقل . فالبصر لا يتعدى المبصرات الجسيمة والعقل لا يدرك إلا المدركات العقلية ، والرؤية إما رؤية حس أو رؤية عقل . قال المؤيد :

فالعقل للمرء أداةٌ كالبصر ذا : باطنٌ فيه وهذا قد ظَهَرَ
كلاهما يُدْرِك بالمجانسهْ مَقالةً صَحَّت بلا مُمارَسَهْ
وليس من جنس العقول اللهُ يا قومُ : كى تُدْرِكْهُ حاشاه (٥)
كما تعالى أن يكون كالصور مجسما كيما يلاقيه البصر

فكأن المؤيد قد رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالأبصار ، كما رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالعقول ، وخالف بذلك أهل السنة الذين أثبتوا الصفات وخالفوا المعتزلة الذين رفضوا الصفات . يدل على ذلك قوله .

فالفرقتان اجتمعا مُشَبِّهةٌ خَبَّاطةٌ عَشْواء جهلٌ وعَمَهْ(٦)

---

(١) الظاهر والباطن يقابلهما المثل والممثول . فالمثل : الظاهر ، والممثول : الباطن . ولكل مثل ممثول كما أن لكل ظاهر باطناً . والله يضرب الأمثال للناس ، أما بواطن هذه الأمثال أو ممثلوها فلا يعلمه إلا الأئمة وحدهم ، لأنهم أصحاب علم الباطن .

(٢) سورة الزمر . ٣٩ : ٢٧

(٣) يقصدون به الله سبحانه وتعالى ، والمثل يقصدون به الشبه والنظير .

(٤) ديوان المؤيد ص ١٠٧ .

(٥) يعنى أن الله يرتفع عن أن تدركه العقول البشرية .

(٦) ديوان المؤيد ص ١١١ .

أما نظر المؤيد إلى ما ورد فى آيات الكتاب العزيز من ذكر اليد والقدم والعين وغير ذلك من الصفات الجسمية ، فإن للمؤيد فى ذلك رأياً يتفق مع التأويل الذى ذهبت إليه الإسماعيلية والمعتزلة . فهو يرى أن اليد هى النعمة ، وهى القوة ، كما يتبين ذلك من قوله :

وقائلٌ لله وَجْـهٌ ويَدُ وقوله : هـذا لديه رشَدُ
وقائلٌ : ذلك حُـكْمٌ باطلُ إنْ صَحَّ ذا ، فاللهُ شَخصٌ ماثلُ[1]

أما رأى المؤيد فى الأحرف التى وردت بأوائل السور كقاف ونون وألم وكهيعص، فإنه يتفق مع رأى الإسماعيلية القائلين بالتأويل . وهو يرى أن لهذه الحروف معانى مستورة خفية لا يعلمها إلا خزنة علم الله . كما عرض المؤيد لقصص الأنبياء وسار فيها على نهج الفاطميين الذين خالفوا جمهرة المفسرين فيما ذهبوا إليه عن الأنبياء . ذلك أن الفاطميين يقولون بعصمة الأنبياء ، على حين يشير بعض هذا القصص إلى أن الأنبياء غير معصومين . وقد قال الفاطميون: إن لهذه الآيات تفسيراً ظاهرياً ، وظاهرها ما قال به جمهرة المفسرين ، أما باطنها فإنه يبعد الأنبياء عن المعاصى . كما سمى الفاطميون الأنبياء النطقاء ، لأن النطق — كما قالوا — قسمان : أحدهما ما يتميز به الإنسان عن البهائم ، وهو النطق عما فى الدنيا ، والآخر النطق عما فى الدار الآخرة الذى يتميز به أهل التأويل الذين يتكلمون من وراء حجاب أى الذين يدركون الغيب . وعلى هدى هذه الآراء عرض المؤيد لقصة آدم ، وقصة إبراهيم ، والفلك ، وطوفان نوح ، وقصة لوط ، وقصة داود ، وقصة يوسف ، كما عرض لزواج النبى بزينب بنت جحش [2] .

ومن أهم الكتب التى تعرض لفلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب المجالس المستنصرية. [3] فقد عرض مؤلفه لعقائد المذهب الإسماعيلى فى إيجاز ، وقد أشار إلى هذه العقائد ، ولكنه

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٤ .

(٢) انظر مقدمة ديوان المؤيد ص ١٣٤ — ١٥٢ .

(٣) ذكر إيفانوف فى كتابه «المرشد إلى أدب الإسماعيلية» A Guide to Ismaili Literature أن هذا الكتاب ينسب إلى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، وأنه غير كتابه المعروف باسم ، المجالس المؤيدية» . ويشك الدكتور محمد كامل حسين الذى قام بنشر كتاب المجالس المستنصرية فى نسبة هذا الكتاب إلى المؤيد فى الدين، ويستند فى قوله هذا إلى أن التأويل على ما ورد فى كتاب المجالس المستنصرية يختلف عن التأويل الذى ورد فى كتاب المجالس المؤيدية إذ أن المؤلف الواحد لا يرى رأيين مختلفين فى مسألة واحدة كما أن صاحب كتاب المجالس المستنصرية كان يميل إلى الاعتماد على الفقه فى آرائه أكثر من اعتماده على =

مسها مساً رقيقاً فى الوقت الذى عرض فيه المؤيد فى الدين لأصول هذه العقائد التى لا بد من أن يلم بها المستجيب . لذلك لم يسرف فى التأويل إسرافا يثقل على السامع الذى لا عهد له بعلم الباطن من قبل . ولهذا نراه يعرض للعبادات ولقواعد الإسلام العملية من الفرائض والسُّنن . وانفرد هذا الكتاب بأنه رفع من شأن إمام العصر المستنصر بالله الفاطمى وأعلى ذكره وغالى فى تمجيده . ولما كان المستنصر هو الإمام التاسع عشر بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد عمد الداعى إلى أن يتخذ من هذا العدد التاسع عشر أصلا من أصول الدين ، فجعل لكل دعامة سبع فرائض واثنتى عشرة سنَّة . فيكون مجموعها تسع عشرة إشارة إلى الإمام المستنصر[1]. ولم ينفرد فلاسفة الدعوة الإسماعيلية باتخاذ الأعداد أصولا لآراء دينية . فقد اتخذ الفيثاغوريون من كل عدد أصلا لدراساتهم ، كما اتخذ العبرانيون العدد سبعة أصلا لبعض عقائدهم ، وكما فعل الحرانيون حين اتخذوا العدد خمسة أصلا لعقيدتهم . وكذلك كان قدماء المصريين مُثَلّثة[2]، والزرادشتيون مخَمّسَة . وهاك أهم ما يمكن أن يستخلص من هذا الكتاب :

١ — توحيد الله وتنزيهه ونفى الإشراك والقرناء له .

٢ — الاعتراف بالأنبياء والرسل وأنهم معصومون من كل خطأ ، وأن محمداً خاتم النبيين .

٣ — القول بوصاية على بن أبى طالب وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم جميعاً .

٤ — التصديق بما جاء به القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطناً .

٥ — إبطال الرأى والقياس فى كل أمور الدين ووجوب الأخذ عن الأئمة .

٦ — القول بالظاهر والباطن معاً بمعنى أنه لا يقبل الظاهر دون الباطن ولا الباطن دون الظاهر[3] .

وقد انفرد هذا الكتاب بأنه أفرد مجلساً تحدث فيه الداعى إلى معشر المؤمنات بما يوحى بأن الدعوة كانت توجه إلى الرجال والنساء .

= التأويل أى أنه كان سائرا على مذهب السلف الصالح ، بخلاف المؤيد فى الدين ، فانه كان يؤثر التأويل . وقد خلص ناشر كتاب المجالس المستنصرية إلى القول بأن هذا الكتاب ينسب إلى الداعى علم الإسلام ثقة الإمام لا إلى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى .

راجع كتاب المجالس المستنصرية للداعى علم الإسلام (القاهرة ١٩٤٧) .

(١) كتاب المجالس المستنصرية ، مقدمة ص١٧

(٢) المصدر نفسه ، مقدمة ص ١٨ .

(٣) المصدر نفسه ، مقدمة ص ١٨ .

ويشتمل هذا الكتاب على خمسة وثلاثين مجلساً : عرض فى المجلس الأول منها لوجوب التأويل ، وعرض فى المجلس الثانى الى المجلس السادس للفرائض والسنن ، وعرض فى المجالس من السابع عشر إلى الرابع والعشرين إلى حسن المعاملة ، كالبر بالوالدين وصلة القرابة وحفظ الجار ، ومعاملة الزوجين ، ومعاملة العبيد ، وتعرض فى المجلس الخامس والعشرين إلى المجلس الثلاثين لصيام رمضان (١) .

٢ — علم الكلام فى المغرب والأندلس :

كان المغرب يسير على وفق العقيدة السلفية ، وظل أهل هذه البلاد على هذه العقيدة حتى ظهر المهدى محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية ، إذ كانت دعوته توحيدية محض. فقد تحدى علماء المرابطين ورماهم بالشرك والتجسم لأنهم يتمسكون بظاهر الآيات المتشابهات، وظل يقاومهم حتى سقطت الدولة المرابطية وقامت الدولة الموحدية تحمل مذهبا كلاميا جديداً دعا إليه ابن تومرت . وفى ذلك يقول المراكشى : « وكان جل ما يدعو إليه (ابن تومرت) علم الاعتقاد على طريق الأشعرية . وكان أهل المغرب . . . ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه شديداً أمرهم فى ذلك » (٢) .

وليس من شك فى أن ابن تومرت كوّن عقيدة من المذاهب الإسلامية التى سبقته ، ولكنه خرج آخر الأمر بعقيدة توحيدية متميزة خاصة به . فالعقيدة التومرتية تعتبر مزيجا من المذاهب الكلامية ؛ فهى ليست أشعرية بحتة كما ذكر المراكشى وابن خلدون ، ولا خارجية كما أدركها علماء المرابطين ، كما أنها ليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها ، ولا سلفية تنأى عن الرأى والتأويل ، وليست غزالية كما توهمها « أندريه چوليان » ، بل هى مزيج من أغلب المذاهب المذكورة وغيرها . وقد أغفل المؤرخون جانبا هاما فى وضع هذه العقيدة وهو المذهب الحزمى .

فقد تأثر ابن تومرت إلى حد ما بمذهب العلامة الأندلسى « ابن حزم » ، مما يرجح الرأى القائل بأن ابن تومرت قضى شطراً من حياته الدراسية بالأندلس قبل أن يقصد إلى معاهد الشرق ، وأنه نهل إلى حد ما من معين الثقافة الحزمية التى كانت تتألق حينئذ بقرطبة .

---

(١) المصدر نفسه ص ٥ — ١٤٧ :
أنظر كتابى : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦٥ — ٥٠٠ .
(٢) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٨٤ .

ولكى نبين مدى تأثر ابن تومرت بآراء ابن حزم فى العقيدة ، كان من الضرورى أن نعقد مقارنة بينهما فى هذا الصدد ، ولكنه من العسير أن نعقد مقارنة كاملة بين الإمام ابن حزم ، وبين المهدى بن تومرت فى ميدان التوحيد لسبب أساسى وهو أن ابن حزم له مذهب كلامى مفصل واضح المعالم محدد المنهج ، إذ قد ناضل المعتزلة والأشعرية والخوارج والشيعة والمرجئة وغيرهم ، وانتهى من هذا النضال إلى نتائج تميز مذهبه ، وتعيّن مدرسته ، وتبرز شخصيته . وبهذا الجهد المتواصل انفصلت شخصية المذهب الحزمى عن شخصية المذهب الظاهرى الذى فضله ابن حزم على جميع المذاهب ، وأعجب به .

أما المهدى بن تومرت فلم يناضل المذاهب الكلامية نضالا علميا ، ولم يقدم لنا نظريات وآراء نستطيع بها أن نبنى له مذهبا خاصا .

وكل ما يمكن أن نعمله من مقارنة ، هو مقارنة عقيدته المدونة بكتابه أعزما يطلب بآراء غيره فى ميدان هذه العقيدة ، لنرى مدى التشابه أو المخالفة بينه وبين أهل المذاهب الكلامية المفصلة مثل ابن حزم .

وربما كان السبب فى تخلف ابن تومرت عن أن يترك للناس مذهبا دراسيا على نمط المعتزلة والأشعرية والحزمية وغيرهم ، أنه أفرغ نشاطه فى مقاومة المرابطين ، والتفنن فى كيفية قهرهم ، وصرف الناس عن اتباع مذهب السلف الذى قد يجر معتنقيه إلى التشبيه والتجسيم . وابن تومرت فى هذا الميدان العلمى يعتبر من الشخصيات العلمية البارزة فى التاريخ الإسلامى ، فقد انتهت دعوته باسقاط دولة عتيدة وإقامة دولة مكانها ، بينما أخفق ابن حزم فى نشر مذهبه فى حياته ، إذ قهرته السلطات الحاكمة بالأندلس ، ونجح علماء المالكية فى الكيد له حتى أحرق المعتمد بن عباد كتبه ، ومات مهيض الجناح . وقد ضاق الغزالى بفساد أهل زمانه ، ولكنه لم يجترىء على مساجلة الدولة السلجوقية ، بل كان لها أداة طيعة . والمعتزلة من قبل قد نجحوا فى جذب المأمون إلى صفوفهم . كما جذبوا المعتصم والواثق ، ولم يهادنهم الزمن بعد ذلك ، فهزموا على يد السنيين هزيمة لم تقم لهم بعدها قائمة .

وابن تومرت مصلح دينى عملى ، وإن لم يترك مذهباً كلامياً كاملا . وسوف نقدم نصاً من عقيدته كما دونها فى كتابه «أعز ما يطلب» . قال المهدى ابن تومرت تحت عنوان : «توحيد البارى سبحانه» لاإله إلا الذى دلت عليه الموجودات ، وشهدت عليه المخلوقات ، بأنه جل وعلا ، وجب له الوجود على الإطلاق ، من غير تقييد ولا تخصيص بزمان

ولا مكان ، ولا جهة ولا حد ولا جنس ولا صورة ولا شكل ولا مقدار ولا هيئة ولا حال .

أول ، لا يتقيد بالقبلية ، آخر ، لا يتقيد بالبَعدية ، أحد ، لا يتقيد بالأينية[1] صمد . لا يتقيد بالكيفية ، عزيز ، لا يتقيد بالمثلية ، لا تحده الأذهان ، ولا تصوره الأوهام ، ولا تلحقه الأفكار ، ولا تكيفه العقول ، لا يتصف بالتحيز والانتقال ، ولا يتصف بالتغير والزوال ، ولا يتصف بالجهل والاضطرار ، ولا يتصف بالعجز والافتقار ، له العظمة والجلال ، وله العزة والكمال ، وله العلم والاختيار ، وله الملك والاقتدار ، وله الحياة والبقاء ، وله الأسماء الحسنى .

واحد فى أزليته ، ليس معه شىء غيره ، ولا موجود سواه ، لا أرض ولا سماء ولا ماء ولا هواء ولا خلاء ، ولا ملاء[2] ولا نور ولا ظلام ، ولا ليل ولا نهار ولا أنيس ولا حسيس .

ولا رز[3] ، ولا همس ، إلا الواحد القهار . انفرد فى الأزل بالوحدانية والملك والألوهية ، ليس معه مدبر فى الخلق ولا شريك فى الملك ، له الحكم والقضاء ، وله الحمد والثناء ، لا دافع لما قضى ولا مانع لما أعطى ، يفعل فى ملكه ما يريد ويحكم فى خلقه ما يشاء ، لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، ليس فوقه أمر قاهر ولا مانع ، زاجر ليس عليه حق ولا عليه حكم ، فكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون[4] .

تأثر ابن حزم بمذهب داود الظاهرى فى الفقه والعقيدة على السواء ، بل لقد زاد عليه فى تمسكه الشديد بظاهر القرآن الكريم والحديث الشريف فى العقيدة . فكان ابن حزم لا يقول بصفات الله ولا يقول بالتأويل . ولذلك حمل على المعتزلة وعلى الأشعرية فى غير هوادة . يقول ابن حزم[5] :

« وأما إطلاق لفظ الصفات لله تعالى عز وجل فمحال لا يجوز ، لأن الله تعالى لم ينص

---

(١) أى لا يتقيد بالمكان ، فالأينية نسبة إلى أين التى يسأل بها عن المكان .

(٢) يقصد بالخلاء الفضاء الأرضى وبالملاء الفضاء الجوى ، من قولهم : الملأ الأعلى ولكن اللفظة اللغوية تعطى معنى آخر . فالملأ والملاءة شدة الثقة : انظر مختار الصحاح مادة « ملأ » .

(٣) الرز (بفتح الراء مع التشديد) ، أن يسكت اللسان فجأة .

(٤) أعز ما يطلب ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٥) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ١٢٠ .

قط فى كلامه المنزل على لفظة الصفات ولا على لفظة الصفة ، ولا حفظ عن النبى صلى الله عليه وسلم أن لله تعالى صفة أو صفات . نعم ! ولا جاء قط ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولا عن أحد من خيار التابعين ، ولا عن أحد من خيار تابعى التابعين » .

ويذكر ابن حزم أن لفظ الصفات قد ابتدعه المعتزلة ورؤساء الرافضة ، ثم سلك سبيلهم قوم من أصحاب الكلام الذين لم يتبعوا سبيل السلف الصالح. ويبين ابن حزم منهجه الكلامى فى هذه العبارة : « إنما الحق فى الدين ما جاء عن الله تعالى نصاً أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك ، أو صح إجماع الأمة كلها عليه ، وما عدا هذا فضلال[1] » .

ويفسر ابن حزم ما يسميه الأشعرية « صفات » الله تفسيراً بارعا ، إذ يقول فى قوله تعالى (والله بكل شىء عليم) « إن الله له معلومات بالأشياء كلها ، وهو لا يخفى عليه شىء ، ولا يفهم منه البتة أن له علما هو غيره » [2] .

من ذلك نرى أن ابن حزم قد زاد على السنة السلفية فى التمسك بنص الكتاب والسنة ، إذ أن السلفيين رفضوا الدخول فى مناقشات فى العقيدة ، واعتبروا أهل الكلام كفاراً أو زنادقة . ولكن ابن حزم لم يقف من علماء الكلام موقفا سلبيا كما وقف أهل السنة السلفية ، بل نازلهم وناقشهم بالحجة والبرهان ، واستعمل فى مناقشته آيات قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة . فحمل على المعتزلة وعلى تلاميذهم الأشعرية . وكان لمذهبه أتباع كثيرون فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى ، بل إنه ترك وراءه فرقة تحمل اسمه وتعرف بالحزمية . وقد انضم إلى هذه الحزمية كثير من الظاهرية . ومال يعقوب المنصور الموحدى إلى مذهب ابن حزم فى التوحيد ، واعتنق مذهبه فى التوحيد رجوعاً إلى الكتاب والسنة .

(و) النحو :

حفل العصر السلجوقى بطائفة من مشهورى النحاة ، نخص بالذكر منهم أبا البركات عبد الرحمن الأنبارى [3] (ت ٥٧٧ هـ) . وقد رحل إلى بغداد فى صباه وقضى بقية حياته فيها ، وتلقى العلم بالمدرسة النظامية ، ودرس اللغة على أبى منصور الجواليقى ونبغ فى الأدب.

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢١ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٩ .

انظر عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ١٥٢ — ١٥٤ ، ١٥٥ — ١٥٦ .

(٣) نسبة إلى الأنبار وهى بلدة قديمة على الفرات ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ . وقد قيل إنها سميت بهذا الاسم لأن كسرى كان يتخذ فيها أنابير للطعام . والأنابير جمع أنبار ونبر كصرد : القمح الضخام . راجع القاموس المحيط مادة نبر .

وقد عهد إليه بتدريس النحو بالمدرسة النظامية ، وصنف فيه كتاب « أسرار العربية » وكتاب « الميزان » .

ومن مشهورى النحاة أبو نزار البغدادى . وكان من المبرزين فى النحو حتى صار « أنحى طبقته » . وكان يعجب بنفسه حتى لقد لقب نفسه ملك النحاة . وكان يسخط على من يخاطبه بغير هذا اللقب . وقد تلقى أبو نزار الحديث وأصول الدين والفقه وعلم الكلام على أئمة زمانه ، وأخذ النحو على القصبجى الذى أخذه على عبد القادر الجرجانى . ثم رحل أبو نزار إلى جرجان وكرمان وغزنة ثم إلى الشام ، واتخذ مدينة دمشق موطناً له وتوفى بها سنة ٥٦٨ هـ[1] .

ومن مشهورى النحاة أيضاً ابن الدهان ، وكان يسمى « سيبويه » عصره . وقد وضع كثيراً من المصنفات القيمة فى النحو ، منها « شرح الإيضاح والتكملة » ويقع فى ثلاثة وأربعين مجلداً ، و « الفصول الكبرى » و « الفصول الصغرى » . كما شرح كتاب « اللمع » لابن جنى (بكسر الجيم والنون مع التشديد) فى مجلدين وسماه « الغرة » . وألف فى النحو كتاب « العروض » وكتاب « الدروس » وكتاب « الرسالة السعيدية فى المآخذ الكندية » (ويشتمل على سرقات المتنبى كما ذكر ابن خلكان) . كما ألف ابن الدهان كتاب « زهر الرياض » فى سبع مجلدات ، وكتاب « الغُنْية فى الطاء والظاء » ، وكتاب « العقود فى المقصود والممدود والراء » ، وكتاب « الغنية فى الأضداد » .

وقد عاصر ابن الدهان كثيراً من أئمة النحاة كالجواليقى ، وابن الخشاب ، واشتهر فى النحو وبرز فيه حتى كان العلماء يفضلونه على هؤلاء النحاة مع ذيوع شهرتهم فى هذا المضمار.

ترك ابن الدهان بغداد إلى الموصل ، فتلقاه الوزير جمال الدين بالقبول وأحسن إليه . ولكن كتبه التى خلفها ببغداد قد تلفت بسبب فيضان دجلة ووصول مائه إلى داره . ولما حملت هذه الكتب إلى ابن الدهان على هذه الصورة ، أشير عليه بإصلاح ما أمكن إصلاحه منها ، فقام بتبخيرها بنفسه بثلاثين رطلا من اللاذن ، فصعد البخار إلى رأسه وعينيه حتى قيل إن ذلك أفقده بصره ، ولم يحل ذلك دون انتفاع الطلاب بتصانيفه .

وكان ابن الدهان فوق تفوقه فى النحو ينظم الشعر ، كما كان ابنه أبو زكريا يحيى ابن سعيد أديبا شاعراً .

وقد توفى ابن الدهان بالموصل سنة ٥٦٩ هـ[2] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧١ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٤ — ١٢٦ .

ومن أئمة النحو فى هذا العصر ابن الخشاب البغدادى ، وكان متبحراً فى النحو والأدب والتفسير والحديث والنسب والفرائض والحساب والقراءات ، كما اشتهر بجودة الخط . وقد شرح كتاب « الجمل » لعبد القادر الجرجانى وسماه « المرتجل فى شرح الجمل » ، كما شرح كتاب « اللمع » لابن جنى (ولم يكملها) وتوفى سنة ٥٦٧ هـ (١) .

وقد أخذ النحو على ابن الخشاب : أبو البقاء (الضرير) العكبرى(٢) الأصل البغدادى المولد والدار . وقد اشتهر بالفقه على المذهب الحنبلى ، كما اشتهر بالحساب والفرائض ، وأخذ النحو على ابن الخشاب وغيره من أئمة النحو فى عصره . ووضع أبو البقاء كتباً قيمة فى النحو وشرح كتاب « الايضاح » لأبى على الفاسى . كما شرح ديوان المتنبى . وألف من الكتب النافعة كتاب إعراب القرآن الكريم (فى مجلدين) ، « وإعراب الحديث » و « شرح اللمع » لابن جنى و « اللباب فى علل النحو » و « إعراب شعر الحماسة » لأبى تمام » ، و « شرح المفضل » للزمخشرى » : والخطب « النباتية » و « المقامات الحريرية » ، وكذلك ألف فى النحو والحساب وانتفع به الطلاب وذاع اسمه فى البلاد .

وتوفى أبو البقاء سنة ٦١٦ هـ .

ومن أئمة النحو أبو البقاء ويعرف بابن الصائغ . وكان موصلى الأصل . ولد بحلب ونشأ بها وأخذ العلم فيها وفى دمشق والموصل وبغداد وغيرها . واتصل به عدد من جلة علماء عصره مثل بهاء الدين بن شداد قاضى حلب وصاحب كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » (ت ٦٣٢ / ١٢٣٤) وابن الأثير (ت ٦٣٠ / ١٢٣٢) صاحب كتابى « الكامل فى التاريخ » و « أسد الغابة فى تمييز الصحابة » . وقد شرح أبو البقاء كتاب « المفصل » للزمخشرى وكتاب تصريف الملوكى لابن جنى ، وتوفى بحلب سنة ٦٤٣ هـ (٣) .

وفى عهد بنى نجاح فى اليمن ظهر كثير من العلماء والشعراء والفقهاء . وكان الحسن ابن أبى عباد إمام النحاة فى عصره . وقد صنف فى النحو مختصراً ذاع صيته فى أوائل القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . كما كان الحسن من أئمة اللغة ، وكذلك كان ابن أخيه إبراهيم من بعده .

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٨ — ٢٩٠ .

(٢) نسبة إلى عكبراء (بضم العين وسكون الكاف وفتح الباء) : بليدة على نهر دجلة تبعد عن بغداد بعشرة فراسخ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٤٥ — ٥١ .

ومن العلماء الذين ذاع صيتهم فى هذا العصر أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى القيروانى (وكان لغويا نحويا) ،وأبو طاهر النحوى فى عهد الخليفة الحاكم ، وأبو يعقوب النجيرمى[١] فى عهد الخليفة الظاهر ، وابن البركات (ت ٤٢٠ هـ) ، وأبو الحسن على بن إبراهيم بن الأغلب . وقد صنف فى النحو كتابا كبيراً ، كما صنف فى إعراب القرآن كتابا يقع فى عشر مجلدات . وكان فوق ذلك عالما بالتفسير واللغة ، وتوفى فى أوائل عهد الخليفة المستنصر[٢].

ومن نحاة العصر الفاطمى أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ (ت ٤٦٩ هـ) . وقيل إنه ديلمى الأصل . وكان إمام عصره فى علم النحو . وقد صنف كثيراً من الكتب القيمة ، نذكر من بينها : المقدمة ، وشرح الجمل للزجاجى ، وشرح كتاب الأصول لابن السراج .كما جمع وهو فى عزلته طائفة كبيرة من المسائل النحوية قيل إنها لو نسخت لقاربت خمس عشرة مجلدة . وقد سماها النحاة الذين جاءوا بعده « تعليق الغرفة » ، وقد انتقلت هذه التعاليق إلى تلميذه أبى عبد الله محمد بن بركات النحوى ، ثم إلى صاحبه ابن برى (بفتح الباء وكسر الراء مع التشديد) ، ثم إلى صاحبه أبى الحسين النحوى . وكان كل من هؤلاء النحاة المشهورين يهبها إلى تلميذه ويعهد إليه بحفظها[٣] .

ومن نحاة هذا العصر أيضاً : إسماعيل بن خلف المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .وقد أتقن القراءات ونبغ فى الأدب . وكان من أهل سَرَقُسْطة فى شرقى الأندلس . ومن نحاة الأندلس أيضاً : عبد الله البطليوسى . ومن مؤلفاته كتاب « الحلل فى شرح أبيات الجمل » و « الحلل فى أغاليط الجمل » و «شرح كتاب سقط الزند» لأبى العلاء المعرى» ، وكتاب « شرح الموطأ» للإمام مالك ، وقد أقام البطليوسى بمدينة بلنسية شرقى الأندلس ، وأخذ عنه كثير من الطلاب ، وكان يجيد نظم الشعر . فمن قوله فى نظم العالم .

أخو العلم حيٌّ خالدٌ بعد موته ... وأوصاله تحت التراب رميم

وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى ... يُظنُّ من الأحياء وهو عديم[٤]

ومن نبغ فى النحو فى الأندلس أبو الحجاج يوسف المتوفى سنة ٤٧٦ هـ . وكان من

---

(١) بفتح النون مع التشديد وكسر الجيم وفتح الراء ، نسبة إلى نجيرم (ويقال نجارم) وهى محلة أو قرية بالبصرة .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٦١ — ٤٦٢.

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

أهل شنتمرية [١] . وقد رحل إلى قرطبة وأخذ العلم بها . وكان عالماً باللغة حافظا للأشعار ملماً بمعانيها حريصاً على ضبطها وإتقانها . وقد قصده الطلاب من البلاد لأخذ العلم عنه . وقد كف بصره فى آخر أيامه .

وقد شرح أبو الحجاج كتاب « الجمل » فى النحو لأبى القاسم الزجاجى ، وشرح أبيات الجمل فى كتاب مفرد [٢].

ومن أئمة نحاة الأندلس أيضاً أبو على عمر (بن محمد بن عبيدالله الأزدى) الشلوبينى [٣] ، وكان إماما فى علم النحو حتى كان أهل الأندلس يعتزون بعلمه ويقولون : « ما يتقاصر الشيخ أبو على الشلوبينى عن الشيخ أبى على الفاسى » ، وقد شرح الشلوبينى المقدمة الجزولية (فى القراءات والنحو) شرحا وافياً وشرحاً موجزاً . ومن مؤلفاته فى النحو كتابه الكبير « التوطئة » . وقد أقام الشلوبينى بإشبيلية مسقط رأسه . وذكر ابن خلكان [٤] أن الشلوبينى كان خاتمة أئمة النحو فى الأندلس .

(ز) علم اللغة :

ذكرنا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب [٥] أن علم اللغة قد تطور فى العصر العباسى الثانى تطوراً ملحوظا بارتقاء النحو وتنظيم المعاجم . فقد رأينا كيف وضع أبو الأسود الدؤلى أساس علم النحو فى البصرة ، وكيف نبغ فى مدرستى البصرة والكوفة كثير من العلماء المبرزين كأبى عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد الذى وضع علم العروض ووضع كتاب العين الذى يعتبر أول موسوعة فى اللغة العربية كما يعتبر أول معجم عربى مرتب على حسب الحروف الأبجدية . كذلك نذكر سيبويه الفارسى تلميذ الخليل بن أحمد . وقد أخذ الفراء عن أستاذه الكسائى النحو واللغة وفنون الأدب . ومن أشهر كتب الفراء كتاب معانى القرآن وهو تفسير لغوى شرح فيه دقائق النحو واللغة .

---

(١) بفتح الشين المعجمة وسكون النون وفتح الفاء الممتناه من فوقها والميم وكسر الراء وبعدها ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة : وهى مدينة فى غربى الأندلس ببلاد البرتغال الآن . وقد قيل له الأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا .

(٢) ابن خلكان ج ٦ ص ٧٩ — ٨١.

(٣) وهذه الكلمة بلغة الأندلس معناها الأبيض الأشقر :

(٤) وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٢٤ .

(٥) ج ٣ ص ٣٥٢ — ٣٥٦ .

وقد نهض لغويو القرن الثالث نهضة مشكورة لاستكمال ما فات كتاب العين من نقص واستدركوا ما فيه من تصحيف وتحريف ربما وقع فيه الناسخون ، فوضعوا المعاجم المنظمة على طريقة الخليل من حيث ترتيب حروف المعجم على المخارج الصوتية والابتداء بحروف الحلق ، وأولها حرف العين . فأنشأ ابن دريد (بضم الدال وفتح الراء وسكون الياء) (٢٢٣ — ٣٢١ هـ) جمهرة اللغة ، وإن كان لا يخلو من بعض المآخذ لما يلاقيه الباحث الذى يؤثر السرعة من صعوبة فى الوصول إلى غايته من كتب اللغة. ولعل ابن دريد أول من اخترع فن المقامات فى اللغة العربية . وعنه روى تلميذه أبو على القالى (٢٢٨ — ٣٥٦ هـ) « كتابه الأمالى » من أحاديث مضبوطة شبيهة بالمقامات والقصص القصيرة .

ومن علماء اللغة أيضاً الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ — ٣٨٥) صاحب كتاب « المحيط » ، ويقع فى سبع مجلدات ، وابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ صاحب كتاب « المجمل » ، وأبو منصور الأزهرى (٢٨٢ — ٣٧٠ هـ) صاحب كتاب التهذيب ، وقد رتب المادة اللغوية على الحروف مع ملاحظة أن يكون الحرف الأخير فى الكلمة هو الباب والحرف الأول منها هو الفصل . وقد ذاعت هذه الطريقة بعد الجوهرى فى تأليف المعاجم فى المشرق والمغرب .

ومن علماء اللغة فى شرح الدواوين الأدبية ابن بسطام (بكسر الباء) الشيبانى المعروف بالخطيب التبريزى (٤٢١ — ٥٠٢ هـ) . وقد تلمذ لأبى العلاء المعرى ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد . وكان أحد أئمة اللغة والبلاغة فى عصره ، وصنف كتباً كثيرة فى الأدب مثل تهذيب غريب الحديث ، وتهذيب إصلاح المنطق ، وكتاب الكافى فى علم العروض والقوافى ، وكتاب الملخص فى إعراب القرآن[1] . ومن كتبه أيضاً شرح ديوان الحماسة وشرح ديوان المتنبى وشرح سقط الزند وهو ديوان أبى العلاء المعرى ، وشرح المعلقات السبع وشرح المفضليات .

وقد ألف الجوهرى من علماء المشرق كتاب الصحاح على الترتيب المعروف لحروف المعجم ، فجعل البداءة منها بالهمزة ، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الاخير من الكلمة لاضطرار الناس فى الأكثر إلى أواخر الكلم ، وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل ابن أحمد .

---

(١) وقد أطلع عليه ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٣٣) ويقع فى أربع مجلدات .

ومن أئمة اللغة فى العصر الفاطمى بمصر أبو القاسم السعدى . ولد بجزيرة صقلية سنة ٤٣٣ هـ ، ثم وفد إلى مصر حول سنة ٥٠٠ هـ ، واتخذها مقراً له ، واشتهر بالتبحر فى اللغة . وكان من أئمة الأدب فى عصره ، وقد صنف كتاب الأفعال وكتاب أبنية الأسماء ، وكتاب الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة (يعنى جزيرة صقلية) ، وكتاب لمح الملح الذى جمع فيه كثيراً من أشعار الأندلس ، وتوفى بمصر سنة ٥١٥ هـ[١] .

وقد اشتهر أبو محمد عبد الله بن أبى الوحش بن برى المقدسى الأصل فى اللغة والنحو والرواية . وكان كما وصفه ابن خلكان [٢] « علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره » . وقد أخذ علم اللغة عن أبى بكر محمد بن عبد الملك الشنترينى (بفتح الشين مع التشديد والتاء) النحوى وأبى طالب المعافرى القرطبى ؛ كما سمع الحديث وحفظ كلام العرب ، وذيل كتاب الصحاح بحواشى قيمة ، واستدرك عليه فى مواضع كثيرة تدل على سعة علمه واطلاعه وغزارة مادته . وأخذ عنه فريق من العلماء كأبى موسى الجزولى صاحب المقدمة فى النحو . وكان لا يصدر بديوان الإنشاء كتاب إلى ملك من الملوك إلا بعد أن يتصفحه ابن برى ويصلح ما قد يجده فيه من خطأ ، وتوفى ابن برى بمصر فى سنة ٥٨٢ هـ .

ومن أئمة اللغة والأدب أبو طالب عبد الجبار المعافرى[٣] المغربى . وقد جاب البلاد وانتهى به المطاف إلى بغداد حيث تلقى العلم بها ، وأخذ عنه كثير من الطلاب . وفى سنة ٥٥١ هـ وصل إلى مصر واشتغل بالتدريس فيها . ومما يؤثر عنه أنه كان يجيد الخط المغربى ويعنى بضبط ما يكتب . وقد غادر مصر سنة ٥٦٨ هـ ، ولكنه مات وهو فى طريقه إلى بلاده[٤] .

ومن علماء اللغة فى الأندلس أبو على القالى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٦ — ٩٦٧ م) . وقد استقدمه عبد الرحمن الناصر من العراق لتأديب ابنه الحكم المستنصر ، وألف كتابه « الكامل فى اللغة » ، وأصبح كتابه « الأمالى » مرجعاً أساسياً يعتمد عليه فى اللغة والأدب . وأبو على القالى أول من أسس علوم اللغة وآدابها فى الأندلس ، وعليه تخرجت الطبقة الأولى من اللغويين وأكابر الأدباء فى هذه البلاد .

---

(١) ابن خلكان جـ ٣ ص ١١ — ١٢ .
انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٧ — ٤٣٩ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٩٢ .

(٣) نسبة إلى المعافر (بضم الميم) بن يعفر (بفتح الياء وسكون العين وضم الفاء) وهى قبيلة كبيرة يقيم أكثرها فى مصر .

(٤) ابن خلكان جـ ٢ ص ٣٨٤ .

ويحتل ابن سيدة (بكسر السين وفتح الدال) الأعمى الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ — ١٠٦٦ م) مكاناً بارزاً بين علماء اللغة فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى). وكان ينعم بتعضيد الموفق صاحب دانية. وهو الذى ألف كتاب «المحكم». وتعرّض فيه لاشتقاقات الكلم وتصاريفها، ثم لخصه محمد بن أبى الحسين. وكان معاصراً للدولة الحفصية بتونس، ورتبه على نمط كتاب الصحاح للجوهرى على أساس اعتبار أواخر الكلمات. فكان هذان المعجمان — كما يقول ابن خلدون — «توأمى رحم وسليلى أبوّة». ويعتبر كتاب «المخصّص» لابن سيدة الذى يقع فى عشرين جزءاً (بولاق سنة ١٣٢١ هـ) دائرة معارف جليلة.

وقد ذكر المقرى[1] فى ترجمة ابن سيدة أنه إمام اللغة فى عصره وأنه رحل بعد موت الموفق صاحب دانية لأنه لم يأمن جانب ابنه، ففر إلى بعض البلاد المجاورة وكتب إليه مستعطفا.

وممن نبغ فى اللغة أيضاً: ابن مالك الأندلسى مؤلف الألفية المنسوبة إليه. وقد ولد فى جيّان ورحل فى صباه إلى الشام وبقى بها حتى مات بدمشق سنة ٦٧٢ هـ (١٣٧٢ م).

(ح) الأدب

(ا) الشعر

(ا) تمهيد: ذكرنا من قبل[2] أن نزعة الأمويين فى الشعر كانت جاهلية لا تميل إلى الفلسفة، وأنه لما انتقل الحكم إلى العباسيين ظهر كثير من الشعراء انتهجوا مناهج جديدة فى المعانى والموضوعات والأساليب فى الشعر خاصة وفى الأدب عامة. وذلك يرجع إلى اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء فى الدولة العباسية عما كانت عليه فى الجاهلية. كما يرجع ذلك إلى انتشار الشعوبية وأثر الثقافة الأجنبية والفارسية خاصة. ومع ذلك فما زلنا نرى فى اللغة العربية بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافى والأوزان والتزام اتخاذ أواخر الأبيات فى جميع أبيات القصيدة الواحدة. وتعرف هذه الطريقة بمذهب المحافظين فى أيامنا هذه.

على أن شعراء الفرس لم يدخلوا على الشعر العباسى تغييرات من الناحية الشكلية. غير

---

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ١٧١.

(٢) انظر كتابى تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٥٦ — ٣٥٧.

أنهم أمدوه بكثير من ألوان الخيال الخصيب والتعبير الدقيق والإحساس العميق . كما أمدوه بطائفة كبيرة من الآراء والأفكار التى أكتسبوها من الحياة الإسلامية الجديدة ، إذ كان الإسلام ذا تأثير عميق فى الحياة العامة . ونرى أن الشعر فى هذا العصر يتميّز بصفة عامة بالرقة والعمق والتفنّن فى المعانى ، كما يتميز بالنقد الدقيق .

وربما ترجع نهضة الشعر والأدب إلى تشجيع الخلفاء والسلاطين والوزراء ، رجال الأدب بالعطايا الجزيلة تارة وتقليدهم المناصب الرفيعة تارة أخرى . ولذلك نلاحظ انتشار المدح فى هذا العصر واشتداد روح التنافس بين الشعراء والكتاب الذين كان من أهم أغراضهم أن يحظوا بالتقرب إلى رجال الحكم رغبة فى استدرار عطفهم وكرمهم . على أن المدح وكثرته يدل من ناحية أخرى على مدى استبداد هؤلاء الحكام ، وأنه لم يكن من سبيل للوصول إليهم أو اكتفاء شرهم إلا بالتقرب إليهم بكثرة المدائح .

وكان السلاجقة بوجه عام يميلون إلى الشعر . فقد ذكر نظامى عروضى أن طُغانشاه ابن ألب أرسلان (وكان حاكما لخراسان أيام أبيه) كان من أكثر السلاجقة ولعاً بالشعر ، وأن أكثر ندمائه كانوا من الشعراء[1] .

وقد أثر عن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى أنه كان لا يميل إلى الشعر لأنه لم يكن يجيد نظمه ، وأنه عنى بالأئمة والمتصوفة أكثر من عنايته بغيرهم من رجال العلم والأدب .

ويقول نظامى عروضى فى المقال الثانى من كتابه « جهار مقاله »(أو المقالات الأربع) الذى عنون له : « فى ماهية الشعر وصلاحية الشاعر » .

« الشعر صناعة بها الشاعر يؤلف المقدمات الموهمة والقياسات المُنتِجة على وجه يجعل المعنى الصغير كبيراً والكبير صغيراً ، ويرد الحسن فى زى القبيح فى صورة الحسن ، ويثير بالإيهام القوى العصبية والشهوانية ، فيحدث بهذا الإيهام للطباع انقباض وانبساط ، وتنشأ فى العالم الأمور العظام »[2] .

ويقول نظامى عروضى فى موضع آخر عن أثر الشعر فى تخليد أسماء الملوك وبقاء ذكرهم عن طريق قصائد الشعراء فى الدواوين والكتب :

---

(١) نظامى عروضى : جهار مقاله الترجمة العربية ص ٥١ ، ١٣٢ — ١٣٥ هامش رقم (١٩) .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٥ .

« وأسامى ملوك العصر وسادات الزمان خُلِّدَت بذكر جماعة لهم نظم رائع وذكر شائع . كما بقيت أسماء آل ساسان بالأستاذ أبى عبد الله جعفر بن محمد الرُّودكى ، وأبى العباس الربَنْجَنى ، وأبى المثل البخارى، وأبى إسحاق الجوبيارى ، وأبى الحسن الأعجمى، والطحاوى ، والخبّازىّ النيسابورى ، وأبى الحسن الكسائى [1] . وأما أسامى آل سلجوق فبقيت بفَرَّخى الجرجانى ، ولامعى الدهستانى ، وجعفر الهمذانى . . . وبرهانى . . . وأسامى ملوك الغور آل شَنْسَب خلد الله ملكهم بقيت بأبى القاسم الرفيعى وعلى الصوفى.[2]

أما عن الشروط التى يجب أن تتوافر فى الشاعر فهى أن يكون « سليم الفطرة صحيح الطبع جيدّ الرويّة رقيق النظر ، متنوّعاً فى أنواع العلوم آخذاً بأطراف الرسوم ، لأن كل علم يتصل بالشعر كما يتصل الشعر بكل علم » .

وينبغى أن يكون الشاعر منطقيا فى مجلس المحاورة طَلْقَ الوجه فى مجلس المعاشرة . وينبغى أن يكون شعره من الجودة بحيث يكون فى صحائف الزمان مسطوراً وعلى ألسنة الأحرار مذكوراً ، يكتب فى السفائن ويقرأ فى المدائن ، وخير ما فى الشعر تخليد الاسم . ولا يبلغ هذا المقصد مالم يكن مسطورا مقروءاً . وإذا لم يبلغ الشعر هذه الدرجة لم يبق أثره ومات قبل قائله . وكيف يُخَلِّدُ غيره (يعنى الشعر) إن لم يخلد نفسه » [3] .

وكان الخليفة المسترشد (٥١٢ — ٥٢٩ هـ) أديباً بليغاً وخطيباً مفوها ، وكان ينظم الشعر . فمن شعره حين أسر .

ولا عجباً للأُسْد إنّ ظفرتْ بها كلابُ الأعادى من فصيح وأعجم
فحربة وحشيّ سقت حمزة الردى وموتُ عليّ من حسام ابن مُلجم

قال الذهبى يصف بلاغة المسترشد وفصاحته : « وفد بالناس يوم عيد أضحى فقال»: « الله أكبر ما سبحت الأنواء وأشرق الضياء وطلعت ذكاء وعلت على الأرض السماء . الله أكبر ما همى سحاب وأنجب طِلاب وسَرَّ قادماً إياب ... اللهم أصلحنى فى ذريتى وأعنّى على ما وليتنى ، وأوزعنى شكر نعمتك ووفقنى وانصرنى » .

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٧ .

فلما انتهى المسترشد من خطبته أنشده أحد شعراء هذا العصر وهو أبو المظفر الهاشمى قصيدة طويلة نذكر منها هذه الابيات .

عليك سلامُ الله يا خيرَ مَنْ علا ... على منبرٍ قد حفَّ أعلامَه النصر
وأقفلَ أهل الأرض شرقاً ومغرباً ... ومَنْ جَدُّه من أجله نزل القطر
لقد شنَّفَتْ أسماعَنا منك خُطْبَةٌ ... وموعظةٌ فصـل يلين لها الصخر
ملأتَ بهـا كل القلوب مهابةً ... فقد رجفت من خَوف تخويفها مصر
فلله عصرٌ أنت فيه إمامُنا ... ولله دينٌ أنت فيه لنا الصـدر[1]

وقد ذكر السيوطى[2] أن الخليفة الراشد (٥٢٩ — ٥٣٠ هـ) كان أديباً شاعراً .

(ب) الطُّغْرائى (ت ٥١٣ هـ)

ومن أئمة الأدب فى العصر السلجوقى أبو إسماعيل الحسين بن على بن عبد الصمد (ويلقب مؤيد الدين الأصفهانى) المعروف بالطغرائى[3] . ولد بأصبهان وأخذ العلم على أئمة علمائها وأدبائها . وكان الطغرائى يسمى الأستاذ لغزارة علمه . وقد وزر للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى بالموصل . فلما قامت الحرب بين مسعود وأخيه محمود وانتصر محمود على أخيه ضم الطغرائى إليه ، ولكن الكمال نظام الدين وزير محمود نفس على الطغرائى ورماه بالإلحاد فقُتل ظلماً فى سنة ٥١٣ هـ[4] .

وللطغرائى ديوان شعر معروف . ومن شعره قصيدته اللامية المشهورة بلامية العجم التى نظمها ببغداد فى سنة ٥٠٥ هـ يصف فيها حاله ويشكو زمانه ، ومنها :

أصالةُ الرأى صانتنى عن الخطل ... وحلية الفضل زانتنى لدى العَطَلِ[5]

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٧ — ٢٨٨

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٩ .

(٣) الطغرائى (بضم الطاء وسكون الغين وفتح الراء بعدها ألف مكسورة) نسبة إلى من يكتب الطغرى (بضم الطاء المشددة وسكون الغين وفتح الراء) وهى الطرة التى تكتب فى أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ ، ومضمونها نعوت الملك الذى صدر الكتاب فى عهده ، وهى كلمة أعجمية .

(٤) وقيل سنة ٥١٤ هـ كما قيل سنة ٥١٨ هـ .

(٥) الخطل العيب والعطل التعطل .

مجدى أخيراً ومجدى أولا شَرَعٌ
والشمسُ رأدُ الضحى كالشمس فى الطَّفَلِ (١)

فيمَ الإقامةُ بالزوراء (٢) لا سكنى بها ولا ناقتى فيها ولا جملى
ناءٍ عن الأهل صِفْرُ الكفِّ مُنْفَرِدٌ كالسيف عُرِّىَ مَتْناهُ عن الخلل (٣)
فلا صديقٌ إليه مُشْتَكَى حَزَنى ولا أنيسٌ إليه ينتهى جذلى
طال اغترابى حتى حنّ راحلتى ورحْلُها وقِرى العسَّالةِ الذُّبُلِ (٤)
حُبُّ السلامة يُدْنى هَمَّ صاحبه عن المعالى ويُغْرى المرء بالكسل
فإنْ جَنَحْتَ إليه فاتَّخِذْ نَفَقاً فى الأرض أو سُلَّماً فى الجو واعْتَزِلِ
ودع غِمار العُلى للمُقْدمين على ركوبها واقْتَنِعْ منهنَّ بالبلل
رضا الذليل بخفض مَسْكَنَةٌ والعز تحت رسيم الأينُقِ الذُّلُل (٥)
إنّ العلا حدّثتنى وهى صادقةٌ فيما تُحَدِّث أنّ العزَّ فى النَّقَلِ
لو أنّ فى شرف المأوى بلوغَ مُنًى لم تَبْرَح الشمس يوماً دارةَ الحَمَلِ (٦)
أعَلِّلُ النفس بالآمال أرْقُبُها ما أضْيَقَ العَيْشَ لولا فُسْحَةُ الأمَلِ

(ح) شعراء اليمن :

وقد فطن الملك على الصليحى إلى أهمية الشعر باعتباره وسيلة من أهم وسائل الدعاية للمذهب الإسماعيلى مذهب الفاطميين الذى كان يدين به الصليحيون . وقد استغل على الصليحى الشعر فى الرد على خصومه واستخدمه فى الدفاع عن دولته والإشادة بذكرها ، فأجزل

(١) يفتخر بأن مجده الأخير الذى هو خلاصة حياته هو امتداد لمجده الأول الموروث عن آبائه ، كالشمس فى مطلعها شبيهة بها وقت غروبها .
(٢) يقصد مدينة بغداد التى يطلق عليها الزوراء لازورار نهر دجلة عندها .
(٣) يشبه حاله بالسيف المتلوم متناه من الخلل .
(٤) يقصد حتى تاقت راحلتى إلى الانتقال ، والرحل : الرحيل . والقرى : كرم النوق الجميلة التى لا تكرم عادة إلا بانتقالها ومسيرها فى المراعى النضرة .
(٥) يعنى أن الذليل يرضى بالسكن والإقامة فى عيش حقير . ومن يريد العيش الكريم والعز الأثيل فعليه أن يركب النوق التى ذللت على السفر واعتادت على الرحيل .
(٦) لو كان فى عدم الحركة شرف وعزة وعلا لما تحركت الشمس من مكانها .

العطاء للشعراء فى اليمن كما فعل الفاطميون فى مصر وسورية . وكان على الصليحى نفسه عالما فقيها متضلعا فى علم التأويل كما كان خطيبا مفوها .

وكان الداعى ابن نجيب الدولة الذى آل إليه الأمر فى اليمن فى أوائل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) غزير العلم متفقها فى الدين . ولعل إشرافه على خزانة المدرسة الأفضلية قد ساعده على الانصراف للعلم والتزود من مورده . ولاعجب فقد كانت مدارس صنعاء والقيروان والقاهرة ودمشق تتبادل الدعاة والعلماء والطلاب وتتلاقى فى وحدة فكرية عميقة الجذور بعيدة الأثر ، وانتهت هذه الكتلة العربية إلى اتحاد شامل تحت راية الجهاد لطرد الصليبيين من بلاد الشام وتخليص البلاد العربية من هذا العدوان .

وفى عهد بنى نجاح (٤١٢ — ٥٥٤ / ١٠٢١ — ١١٥٩) اشتهر جياش بن نجاح الحبشى صاحب تهامة الذى هرب إلى الهند بعد مقتل أخيه على بن المكرم بن أحمد الصليحى، ثم عاد بعد موته إلى اليمن وحارب الصليحيين واستعاد تهامة منهم . وكان جياش شاعراً فصيحا ، له ديوان شعر (١) ، وله أيضا كتاب المفيد فى أخبار زبيد الذى اختصره عمارة اليمنى (٢) .

وفى عهد بنى نجاح امتاز الوزير مفلح بن منصور الفاتكى بالأدب . وقد أنشد عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الشاعر المصرى صاحب ديوان الإنشاء فى اليمن قصيدة فى مدح هذا الوزير أجازه عليها بخمسمائة دينار ، كما أجازه ابنه منصور بن مفلح بثلمائة دينار بعد أن أنشده قصيدة أخرى فى مدحه . ومن الشعراء الذين مدحوا بنى زريع (٤٧٦ — ٥٦٩ / ١٠٨٣ — ١١٧٣) شاعر مصرى من أهل الإسكندرية يدعى ابن قلاقس فقال :

سافرْ إذا حاولت قـــدراً سار الهـــلال فصار بدراً

ويعد عمارة بن أبى الحسن الحكمى اليمنى من مشهورى شعراء اليمن . وقد خلف لنا فى ديوانه قصائد رائعة فى مدح الفائز والعاضد آخر الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وكبار رجال دولتهم، كما سنرى ذلك واضحا عند كلامنا على الشعراء فى الشطر الأخير من أيام الفاطميين .

---

(١) وقد وردت نماذج من شعره فى مختصر المفيد لعمارة اليمنى — لوحة ١٤٨ نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٨٠٤٨ ح .

(٢) الجندى : طبقات فقهاء اليمن ص ١٠٤ .

(د) الشعر فى العصر الفاطمى الأخير

٤٦٦ — ٥٦٧ / ١٠٧٣ — ١١٧١

حفل العصر الفاطمى الأول بطائفة من الشعراء الذين نظموا قصائدهم فى مدح الخلفاء الفاطميين الذين أغدقوا عليهم الخلع والجوائز والأرزاق . ومن هؤلاء الشعراء : ابن هانىء الأندلسى فى عهد المعز ، ومحمد بن أبى الجَرْع وأبو حامد الأنطاكى فى عهد العزيز ، وعبد الوهاب بن نصر المالكى الذى وفد على مصر من بغداد فى عهد الخليفة الظاهر الفاطمى.

وقد أمدنا أحد الكتاب المعاصرين ، وهو عماد الدين الأصفهانى [١] ، بمادة غزيرة عن الدور الذى قام به الشعراء فى العصر الأخير من أيام الفاطميين .

ولد أبو عبد الله محمد هبة الله الأصفهانى الملقب عماد الدين بأصفهان سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) . وكان شافعى المذهب درس الفقه بالمدرسة النظامية ببغداد وتخرج فيها ، وأتقن المجادلة وفنون الأدب ، واتصل بخدمة الوزير عون الدولة بن هبيرة ، فأحسن إليه وقربه وشمله بعطفه . فلما توفى هذا الوزير رحل عماد الدين إلى دمشق حيث تقلد إدارة البريد (٥٥٢ / ١١٦٥) . وفى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) تولى التدريس بدمشق . ولما توفى نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ذهب عماد الدين إلى الموصل حيث مرض مرضا شديداً وظل بها حتى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) ، ثم رحل إلى حلب واتصل بخدمة صلاح الدين الأيوبى حتى وفاته ، فعاد إلى دمشق وعكف على الأدب حتى مات سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) .

وهناك كثير من الكتاب المعاصرين ، من أمثال عمارة اليمنى وأسامة بن منقذ ، وابن مُيَسَّر. والعصر الذى تناوله عماد الدين الأصفهانى فى كتابه خريدة القصر وجريدة العصر [٢] يمكن تقسيمه قسمين .

الأول — يبحث فى الشعراء الذين عاشوا بين سنتى ٤٨٦ — ٥٤٩ هـ (١٠٩٣ — ١١٥٤ م) . وذلك فى عهد الخلفاء الفاطميين المستعلى والحافظ والظافر .

الثانى — ويتناول الكلام على الشعراء الذين عاشوا فى عهد الفائز والعاضد آخر الخلفاء الفاطميين .

---

(١) انظر ياقوت : ارشاد الأريب ج ٨ ص ٨١ — ٩٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٩٧ — ١٠٠ .
(٢) مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس .

ومن هؤلاء الشعراء أبو الفتيان مُفَضّل العسقلانى . وقد جاء إلى مصر فتمتع بصلات الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى .. وقد مدحه بقصيدة طويلة جاء فيها .

أقول والنَّجْمُ مرقومٌ بغرته سطراً نظرتُ وضوء الصبح مبتسمُ
أماء خدَّيْه أضحى فى زجاجته يديرُ أم ماؤها فى وجنتيه دمٌ ؟
صيغ الصباحُ ضياءً من مياسمه فاستنبطت حلفاً فى شعره العُتَم (١)

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر فى ذلك العصر وأفادوا من تشجيع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم : أبو الحسن على بن جعفر بن البُوَيْن ، (٢) وهو من أهل معرة النعمان منبت أبى العلاء المعرى . وقد حاز ثقة الوزير الأفضل بدر بن الجمالى الذى قربه إليه وأدر عليه صلاته ولقبه بأمين الملك . ومن قصيدته يمدح الوزير الأفضل .

يامنْ تنافس فيه السمعُ والبصرُ كما تغاير فيه الشمس والقمر
ومنْ تحكّم فى الأرواح فاحتكمتْ ألا يُحَكَّم فيها بعده بشر (٣)

كذلك أمدنا عماد الدين بمعلومات ذات غناء عن الشاعر أبى الحسن على بن محمد الأخفش وهو من أشراف المغاربة . وقد مدح الخليفتين الآمر والحافظ . من ذلك قوله فى إحدى قصائده .

إلى ذروة النور العلاىّ إنه إلى ذروة النور الإلهى يُنْسَب

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً جعفر بن أبى زبيد . وقد عبر عما خالج ضميره من أسى بعد مغادرته مصر إلى بغداد فى قصيدة نذكر منها هذين البيتين :

وما قصدُنا بغدادَ شَوْقاً لأهلها ولا خَفِيتْ مُذْ قط أبصارنا عنها
ولا أننا أخترنا على مصر بلدةً سواها، ولكنَّ المقادير ساقتنا (٤)

---

(١) المصدر نفسه : ورقة ١٨١ ب .
(٢) المصدر نفسه ورقة ١٤٣ (١)
(٣) المصدر نفسه ورقة ١١٨ (١).
(٤) المصدر نفسه ورقة ١١٠ (١)

ومن الشعراء الفاطميين الذين كان لهم أثر عظيم فى نشر العقائد الفاطمية : أبو الحسن ابن الزُّبد . وقد وصفه عماد الدين الأصفهانى ، نقلا عن القاضى الفاضل ، فقال : « وإنه فى فنه لم يسمح الدهر بمثله » . ومما قال يهنىء الخليفة الحافظ بانتصاره على الصليبيين : « الحمد لله الذى فضل دولة أمير المؤمنين على سائر الدول . . وجعل أيامه واضحة الحجول والغرر مخصوصة بالفتوح والظفر ، « يخفق النصر على بنوده ، وتسير السعادة أمام جنوده . نسأل الله أن يجعل الأرض قبضة يده والأفلاك الجارية من أعوانه وعدده »[1] .

الشعراء بين سنتي ٥٤٩ و ٥٦٧ هـ (١١٥٤ — ١١٧١ م) .

ومن الشعراء الذين عاشوا فى العصر الفاطمى الأخير : المُهَذَّب الحسن بن على بن الزبير . وقد ذكر عمارة اليمنى أن الحسن كان من أشهر شعراء عصره ، [2] وقال أيضاً « ولم يكن فى زمانه أشعر منه » [3] وهو من الشعراء الذين جذبهم تعضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال دولتهم . ومما قاله المهذب فى قصيدة طويلة يخاطب فيها الوزير الصالح طلائع بن رُزيك يصف بطولته فى الجهاد :

أفارسَ المسلمين اسمعْ ، فلا سمعتْ ... عداك غير صليل البيض فى القُلل
مقال ناءٍ غريب الدار قد عدم أل ... أنصار ، لولاك لم يسمع ولم يقل
يشكو مصائبَ أيامٍ قد اتَّسَقَتْ ... فضاق منها عليه أوْسعُ السبل
وكيف ألقى من الأيام مُرْزِية ... حلَّت ولى من بنى رُزِّيك كُلُّ وَلى ؟

وقد أشاد بعض الشعراء بمدح الفاطميين وأنصارهم وهم فى بلادهم لم يفدوا إلى مصر ، ومن هؤلاء الشعراء المهذب بن أسعد ، وكان من أهل الموصل ، ثم قام بالتدريس فى مدرسة حمص . وكان من أعلام الفقهاء والشعراء النابهين . استمع عماد الدين الأصفهانى لشعره سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ — ١١٦٨ م) حين لقيه بحمص . من ذلك ما أنشده ابن سعد فى مدح الوزير الصالح طلائع بن رزيك هذه القصيدة التى بعث بها إليه ، نقتطف منها هذه الأبيات :

---

(١) المصدر نفسه ورقة ١١٠ (ب)
(٢) عمارة اليمنى : النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ص ٣٥ .
(٣) انظر عماد الدين الأصبهانى ورقة ٣٧ (ب)
(٤) المصدر نفسه ورقة ٣٩ (ا)

هادى الدعاية أبو الغارات خيرُ فتًى أدنى عطيـاته أدنى أمانيـكا
يشكو إليك بنو الآمال فقرَهُمُ فينثنون وبيتُ المـال يشـكوكا
مَنْ أرتضى يا كريمَ الدهر تُنْعِشُنى جدواه إنْ خاب شعبى فى رجاييكا؟
أأمدَحُ الترك أبْغى الخير عندهم والشعر مازال عنـد الترك متروكا[1]

وكان الوزير ابن رزيك نفسه شاعراً ، ينصر الشعر ويقرب إليه الشعراء ، ويذكر عماد الدين الأصفهانى أنه لقى الفقيه والشاعر النابه نصر بن عبد الرحمن (وكان من أهل الإسكندرية) فى بغداد سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ — ١١٦٥ م) ونقل عنه قصيدة نظمها الوزير طلائع بن رزبك يرد بها على قصيدة يمتدحه فيها هذا الشاعر ، وفيها يقول الوزير :

أهدى لى القاضى الفقيه عرائسا فيها بديعُ الوشى من تنميقهْ
فأجلت طرفى فى بديع رياضه من ورده وبهـاره وشَقيقه
فـكأنما اجتمع الأحبة فانبرتْ يد عاشقٍ تهوى إلى معشوقه
نزّهتُ فى بستان نظمك ناظرى فحظيتُ من زهر الرُّبا بأنيقه

(هـ) عمارة اليمنى

خلف لنا أبو محمد نجم الدين عمارة بن أبى الحسن الحـكمى سيرته . وكان من أهل تهامة باليمن[2] . وفى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ — ١١٥٥ م) حج عمارة بيت الله فى مكة ، وأوفده أميرها القاسم بن فليتة[3] رسولا إلى مصر ، فوصل إليها فى غرة ربيع الأول سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) ، فتلقاه الخليفة الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزيك بالعطف والقبول على أثر إنشاده أولى مدائحه فى قاعة الذهب بالقصر . وقد أقام عمارة فى مصر إلى شهر شوال سنة ٥٥٠ هـ ، ثم عاد إلى مكة ، حيث أنفذه أميرها بمهمة أخرى (صفر ٥٥١/ إبريل ١١٥٦)[4] إلى مصر ، حيث أقام فى القاهرة وأصبح من مشاهير شعراء البلاط الفاطمى فى عهد الفائز والعاضد . وبلغ من تشجيع الفاطميين له وإغداقهم المنح عليه أن أصبح من أنصارهم على الرغم من أنه كان سنياً شافعى المذهب . وقد ظهرت

---

(١) عماد الدين الأصفهانى ورقة ٧٧ (ا) — ١٧٨ (ب)
(٢) عمارة اليمنى : النـكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ص ٧ — ٨ .
(٣) بضم الفاء وفتح اللام والتاء الأولى وسكون الياء .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٢ — ٣٤ ، ٤١ ، ٤٢ .

ميول عمارة للفاطميين ظهوراً واضحاً حتى إنه اتهم بالاشتراك فى الحركة التى قامت لإزالة سلطان الأيوبيين وشنق فى شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤م) . ويحسن أن ننقل بعض أبيات من أولى قصائده ، وقد أنشدها فى قاعة الذهب فى القصر :

١ الحمدُ للعِيس بعد العزم والهممِ ... حمْداً يقوم بما أوْلَتْ من النعمِ

٣ قرَّبن بُعد مزار العز من نظرى ... حتى رأيتُ إمام العصر من أمم

٤ ورُحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفْدا إلى كعبة المعروف والكرم

٦ حيث الخلافةُ مضروبٌ سُرادقُها ... بين النقيضين من عفو ومن نقَمِ

٧ وللإمامة أنوارٌ مقدسةٌ ... تجلو النقيضين من ظُلْم ومن ظُلَمِ

٨ وللنبوة آياتٌ تَنُصُّ لنا ... على الحقيقين من حُكْم ومن حِكَمِ

١٢ أقسمتُ بالفائز المعصوم معتقدا ... فوزَ النجاة وأجر البر فى القَسَمِ

١٣ لقد حمى الدينَ والدنيا وأهلَهما ... وزيرُه الصالح الفراج للغمم

١٧ أرى مقاماً عظيم الشأن أوهمنى ... فى يقْظتى أنها من جملة الحلم

١٩ ليت الكواكبَ تدنو فأنظمَها ... عقودَ مدح فما أرضى لكم كلمى

٢٠ ترى الوزارةَ فيه وهى باذلةٌ ... عند الخلافة نصحاً غير متهم

٢٢ خليفةٌ ووزير مَدَّ عدلهما ... ظِلاً على مَفرَق الإسلام والأمم

٢٣ زيادةُ النيل نقصٌ عند فَيْضهما ... فما عسى يتعاطى مِنّة الديم[1]

وقد نالت هذه القصيدة إعجاب الخليفة الفائز ووزيره ، كما يحدثنا عمارة نفسه ، حيث يقول إنه بعد أن أنشد قصيدته خلعت عليه الخلع الموشحة بالذهب ، ودفع إليه الوزير خمسمائة دينار ، وأتته مثلها من السيدة أخت الخليفة ، وأطلقت له الرسوم من دار الضيافة فى مناسبات كثيرة ، وأقام له أمراء الدولة الولائم فى بيوتهم تكريماً له ، وانتظم عمارة فى سلك جلساء الوزير[2] .

بقى عمارة فى مصر ينعم بكرم الدولة الفاطمية ، وقبل عودته إلى اليمن أنشد قصيدة يودع فيها الخليفة ووزيره ابن رزيك ، فمنحه الخليفة وأخته ألف دينار ، ومنحه الوزير

---

(١) النكت العصرية ص ٣٢ — ٣٤ .

(٢) عمارة اليمنى : النكت العصرية فى الوزراء المصرية ص ٣٧ .

مائتى دينار لقصيدة أخرى أنشدها له فى داره. وكان لتدخل هذا الوزير أثر فى إعفاء عمارة من دفع ثلاثة آلاف دينار كانت عنده لداعى اليمن السابق وقد مات، فأشير على ولده ووريثه أن يعدل عن المطالبة بها.

ولما مات ابن رزيك وآلت الوزارة إلى شاور[١]، قرّب عمارة إليه وأولاه رعايته وضمه إلى جماعته، فصار يتردد على داره ويجلس إلى مائدته، ونال الكثير من صلاته[٢].

ولقد أحصى لنا عمارة هبات الوزير ابن رُزِّيك[٣] وذوى قرباه وغيرهم من الأمراء، وختم كلامه بهذه الكلمات: «ذكر الله أيامهم بحمد لا يكلُّ نشاطه ولا يُطوى بساطه، فقد وجدت فقدهم وهُنت بعدهم»[٤].

ولما عاد عمارة إلى مصر فى شوال سنة ٥٥٠ (ديسمبر سنة ١١٥٦)، أحسن إليه الوزير ابن رزيك وبنوه وأهله كل الإحسان، وصحبوه لما امتاز به من حسن الصحبة وسمو المواهب، على الرغم من اختلافه وإياهم فى المذهب الدينى[٥].

وقد أبى عمارة اعتناق عقائد الفاطميين، وأشار إلى ذلك فى ديوانه ببضعة أبيات خاطب بها الوزير الذى ألح عليه فى التحول إلى المذهب الشيعى، ومنحه ثلاثة آلاف دينار ووعد أن يزيد فى إغداقه عليه إن هو أجاب إلى ما طلبه منه. ولكن عمارة اعتذر بلباقة.[٦] وهو يشير إلى هذا الاختلاف فى العقيدة فى هذا البيت:

مذاهبُهمْ فى الجود مذهبُ سُنَّةٍ وانْ خالفونى فى اعتقاد التشيع[٧]

ولما مات ابن رزيك (١٩ رمضان ٥٥٦ / سبتمبر سنة ١١٦١)، أصبح حزن عمارة على وفائه مثاراً لنظم قصائده، وظل على ولائه للفاطميين حتى بعد أن زال سلطانهم وسقطت دولتهم. وقد نظم فى هذا الحادث قصيدة طويلة تناقلها عنه الكتاب، من أمثال ابن واصل والقلقشندى والمقريزى. كما نظم شعراً كثيراً فى الإشادة بذكر صلاح الدين وغيره من أهل بيته. ولكن إخلاصه للفاطميين أقصاه عن عطف الدولة الأيوبية. ونستطيع أن نقف على

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٧٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٩٣ — ١٢٠.
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٠.
(٥) ابن خلكان: ج ١ ص ٤٧٦.
(٦) النكت العصرية ص ٤٥.
(٧) ديوان عمارة ص ٢٨٨ و ٢٩٣.

مبلغ ما لحقه من بؤس وشقاء من هذه القصيدة التى وجه بها إلى صلاح الدين ، وعنوانها : « شكاية المتظلم ونكاية المتألم » (١) .

ولا غرو فإن تحيز عمارة للفاطميين قد جلب عليه كراهة الأيوبيين ، وانتهت حياته الحافلة بشنقه لأنه أتهم بالاشتراك فى التآمر لإعادة سلطان الفاطميين (٢) .

(و) البهاء زهير (ت ٦٥٦ / ١٢٥٨)

« البهاء زهير مثال من مثل الخلق العظيم ، يجمع إلى حب الخير وفضيلة العفو ، قوة الشخصية وشرف النفس وعزة الإباء . وتلك صفات لا تجتمع إلا لأهل الفطر الفائقة خصوصا فى عصر كعصر البهاء زهير ولمن كان فى مثل منصبه » .

هكذا استهل الأستاذ مصطفى عبد الرازق مقدمة بحثه عن البهاء زهير (٣) .

ينتسب أبو الفضل زهير بن محمد بن على إلى المهلب بن أبى . صُفْرة . ويطلق عليه بعض المؤرخين البهاء زهير الحجازى ، ويصفه بعضهم بالمصرى ، ويطلق عليه آخرون الوصفين معا.

ولد البهاء زهير بمكة (أو بوادى نخلة على مقربة من مكة) على ما ذكره ابن خلكان (٤) الذى عرفه واجتمع به وشاد بسمو أخلاقه . والبهاء زهير مصرى النشأة والروح والعاطفة وفى ذلك يقول :

فرعى الله عهدَ مصرٍ وحيّا ما مضى لى بمصر من أوقاتِ
حبّذا النيل والمراكب فيه مُصْعِداتٍ بنا ومُنْحَدِراتِ
هاتِ زِدْنى من الحديث عن النيـ ـلِ ودعنى من دجلةٍ والفراتِ

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٧ — ٢٩١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٨ — ٢٨٨ .

ابن دقماق (ج ٥ ص ٩٣ — ٩٤) ، نقلا عن ابن المتوج (ت ٧٣٠ / ١٣٣٠) فى كتابه خطط مصر المسمى إيقاظ المتغفل وانعاظ المتامل . انظر الحاشية التى كتبها مسيو ديرنبور (سيرة عمارة ج ٢ ص ٥٥٢) .

راجع حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٦٢) ص ٤٤٨ـ٤٦٣

(٣) مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٤٨ / ١٩٣٠ ص ١ .

(٤) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٢ ، ٨٥ .

ولد البهاء زهير فى ٥ ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ (فبراير ١١٨٦ م) وتوفى فى ٤ ذى القعدة سنة ٦٥٦ هـ (نوفمبر ١٢٥٨ م) . ونشأ بمدينة قوص من أعمال صعيد مصر كما ذكر السيوطى (١) ، وكانت قوص من أهم مراكز العلم فى مصر فى ذلك العصر ، حتى قيل إنه كان بها ستة عشر معهداً للعلم (٢) .

وقد سمع البهاء زهير بقوص بعد أن سمع فيها الحديث ودرس الأدب ، ثم انتقل إلى القاهرة واتصل بخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل الأيوبى ، (٣) وبقى فى خدمته حتى قبض عليه ابن عمه الملك الناصر داود صاحب الكرك واعتقله بقلعتها . فأقام بهاء الدين بنابلس وحافظ على عهده لنجم الدين حتى عاد إلى ملكه ، فعاد بهاء الدين إلى خدمته (٦٣٧ هـ) ، فكان لذلك « كبير القدر عنده لايطلع على سره الخفى غيره » (٤).

ويمتاز شعر البهاء زهير بالرقة والعذوبة وشرف المعنى . وله ديوان شعر معروف . ومن شعره يحن إلى صعيد مصر الذى نشأ به وترعرع .

أحنُّ إليكم كلَّ يومٍ وليلة ... وأهذى بكم فى يَقْظَتى ومنامى
فلا تنكروا طيب النسيم إذا سرى ... إليكم فذاك الطيبُ فيه سلامى
فهل عائدٌ منكم رسولى بفرحةٍ ... كفرحة حُبْلَى بُشِّرت بغلامى ؟
ويرتاح قلبى للصعيد وأهله ... وعيشٍ مضى لى عندكم ومُقامى
وأهوى ورودَ النيل من أجل أنه ... يمرُّ على قومٍ لدىّ كرامِ (٥)

ومن مليح شعر البهاء زهير يتفكه بحال عجوز يتصابى .

كم ذا التصاغُرُ والتّصابى ... غالطْتِ نَفْسَكِ فى الحسابِ ؟

---

(١) حسن المحاضرة (طبعة القاهرة ١٣٢٧ هـ) ج ١ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .
(٢) الأدفوى (ت ٧٤٨ هـ) صاحب كتاب الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد (القاهرة ١٣٣٣ / ١٩١٤) .
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨١ .
(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٢ .
(٥) أنظر ديوان البهاء زهير . مصطفى عبد الرازق . البهاء زهير ص ٢٦ .
(٦) مصطفى عبد الرازق : البهاء زهير ص ٢٩ .

لم يَبْقَ فيكِ بَقِيَّةٌ إلا التعلُّلُ بالخضاب
لا أقتضيك مودَّةً رُفع الخراج عن الخراجِ
ما العيش إلا فى الشبا بِ وفى معاشرة الشبابِ
ولقد رأيتك فى النقاب وذاك عنوانُ الكتابِ
وسألتُ عما تحته قالوا عظامٌ فى جرابِ
ياهذه ذهب الصِّبا فإلى متى هذا التصابى ؟

(ز) الشعر فى الأندلس

١ — ابن زيدون :

امتازت الأندلس بجمال الطبيعة واعتدال المناخ والثروة الطبيعية التى تتمثل فى المياه المتدفقة والرياض المزهرة والسماء الصافية ، والخيرات الوفيرة . وقد تنافس الأندلس مع الشرق عند قيام الدولة الأموية فى هذه البلاد . وكان لهذا التنافس أثره البالغ فى ازدهار الحضارة والعمران بصفة عامة والأدب بصفة خاصة ، حيث كان للأدباء والعلماء منزلة رفيعة ومكانة مرموقة . فكان منهم الوزراء وحكام الأقاليم والقواد وغير هؤلاء من ذوى الجاه وأصحاب السلطان . وامتاز عصر ملوك الطوائف بازدهار العلوم والآداب وتشجيع رجال العلم والأدب ، فزخر هذا العصر بطائفة من الشعراء والأدباء الذين لاتزال آثارهم إلى اليوم شاهدة بما بلغه الأدب من منزلة رفيعة فى هذه البلاد .

ومن أبرز شعراء الأندلس فى عهد ملوك الطوائف : الوزير أبو الوليد (أحمد بن عبد الله بن أحمد) بن زيدون ، وينتمى إلى بيت اشتهر بفقهائه وأدبائه . وقد نبغ فى الأدب وهو فى حداثة سنه ، واشتغل بالسياسة ، فانضم إلى بنى جهور الذين تولوا الحكم فى قرطبة بعد سقوط الدولة الأموية ، فولوه الوزارة ، فحسده أعداؤه وأفسدوا مابينه وبين بنى جهور.

وقد احتال ابن زيدون كثيراً فى طلب الصفح فلم يظفر بطائل ، ففر من سجنه إلى إشبيلية واتصل بصاحبها المعتمد بن عباد الذى قربه إليه لعلو كعبه فى الأدب (١) .

---

(١) المراكشى : المعجب فى أخبار المغرب ص ١٠٥ .

وكان لعلاقة ابن زيدون مع ولاده بنت المستكفى التى اشتهرت بالأدب أثر بعيد فى حياته ، حتى لقد زخرت بها كتب الأدب ، وأضحت قصيدته الشهيرة التى نظمها متشوقا إلى ولّادة من القصائد الخالدة فى الأدب العربى بصفة عامة . وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة(١) .

أضحى التّنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لُقيانا تجافينا
بِنْتُمْ وبِنّا فما أبْتلّت جوانِحُنا ... شوقاً إليكم ولا جَفّت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائِرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لفقدِكمُ أيامنا فغدتْ ... سوداً وكانت بكم بيضا لياليا
إذْ جانبُ العيشِ طَلْقٌ من تألُّفنا ... ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
إن الزمان الذى مازال يُضْحكنا ... أُنْسا بقربهمْ قد عاد يُبْكينا
غيضَ العِدى من تساقينا الهوى فدَعوْا ... بأنْ نَغَصَّ فقال الدهر آمينا
فأنحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانْبتَّ ماكان موصولا بأيدينا
وقد نكون وما يُخْشى تَفرُّقنا ... فاليوم نحن وما يُرْجى تلاقينا
إنْ كان قد عزّ فى الدنيا اللقاء ففى ... مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا
عليكِ منى سلامُ الله ما بقيتْ ... صبابةٌ منك تُخفيها فتخفينا

وقد توفى ابن زيدون بإشبيلية سنة ٤٦٣ هـ ، وكان له ولد يكنى أبا بكر تقلد الوزارة للمعتمد بن عباد بعد أبيه : وقتل فى اليوم الذى سقطت فيه قرطبة فى يد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين .

(٢) ابن عمار

ومن أشهر الشعراء فى عصر ملوك الطوائف أيضاً : الوزير أبو بكر محمد بن عمار (ت ٤٧٩ هـ) ، وقد سار على نهج ابن هانىء الأندلسى الذى أطلق عليه لقب متنبّى

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٦ — ١٠٩ .

المغرب ، وإن كان عبد الواحد المراكشى يفضل ابن عمار أحياناً على ابن هانىء فيقول : « ربما كان أحلى مَنْزَعاً منه فى كثير من شعره » .

وينسب ابن عمار إلى مدينة شِلْب (بكسر الشين وسكون اللام) التى نشأ فيها وأخذ الأدب على علمائها . ثم رحل إلى قرطبة فأتم دراسته ، ونبغ فى نظم الشعر وتكسب به وجال فى الأندلس مادحاً الملوك ابتغاء منحهم وعطاياهم[1] ، ولم يقتصر مدح ابن عمار على الملوك والأمراء بل مدح السوقة طلباً للرزق ، وظل على هذه الحال إلى أن اتصل بالمعتضد بالله أبى المعتمد بن عباد ، فمدحه بقصيدة استهلها بقوله :

أَدِرِ الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجمُ قد صرف العنان عن السُّرى[2]

والصُّبحُ قد أهدى لنا كافورةً لما استردّ الليلُ منه العَنْبَرا

ثم يخلص ابن عمار إلى مدح المعتضد فيقول :

عَبَّادُ المُخْضَرُّ نائلُ كفه والجود قد لبس الرداء الأغبرا

قداحُ زَنْد المجد لا ينفك مِن نار الوغى إلا إلى نار القِرى[3]

وقد وقعت هذه القصيدة من نفس المعتضد موقعاً حسناً ، فأمر لابن عمار بمال وثياب ومَوْكب وألحقه بديوان الشعراء ، ثم اتصل بالمعتمد بن عباد اتصالا وثيقاً حتى إنه كان لا يفارقه ليلا أو نهاراً ، فاتخذه وزيراً حين ولاه أبوه ولاية شِلْب .

وقد قام ابن عمار بدور سياسى هام فى المفاوضات التى دارت بين المعتمد بن عباد والفونس السادس زعيم نصارى الأندلس[4] . على أن المعتمد بن عباد قد ساورته الشكوك فى إخلاص وزيره ابن عمار ، إذ كان يطمع فى انتزاع أحد الأقاليم الشمالية التابعة لابن عباد ليكون ملكا مستقلا . ولكن ابن عباد اكتشف هذه المؤامرة وأمر بتقييده وحمله إلى مدينة قرطبة (وكان المعتمد قد انتزعها من بنى جهور)[5] ، فسجن ، فكتب ابن عمار أشهر قصائده متوسلا طالباً العفو . ومن هذه القصيدة :

---

(١) المصدر نفسه ص ١١١ .

(٢) بضم السين المشددة وفتح الراء السفر ليلا .

(٣) المصدر نفسه ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ١١٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

سجاياك إنْ عافَيْتَ أندى وأسجح[1] وعذرك إنْ عاقبت أجلى وأوضحُ
وإنْ كان بين الخطّتين مزيةٌ فأنت إلى الأدنى إلى الله تجنح
حنانَيْك فى أخذى برأيك لا تُطع عداىَ ولو أثنوا عليك وأفصحوا
فإنّ رجائى أن عندك غيرَ ما يخوص عدوى اليومَ فيه ويمرح
ولمْ لا وقد أسلفت وُدا وخدمة يكران فى ليل الخطايا فيُصْبح
وهبنى وقد أعقبت أعمال مُفْسد أما تَفْسُد الأعمالُ ثمتَ تَصْلح
إقِلْنى بما بينى وبينك من رضى له نحو روح الله بابٌ مُفَتح
وعفٌ على آثار جُرم سلكتُها بهبّة رُحْمَى منك تمحو وتُمْصِحُ[2]
ولا تلتفتْ قول الوشاة ورأيَهُم فكل إناءٍ بالذى فيه يرشح
وماذا عسى الواشون أن يتزيّدوا سوى أنّ ذنبى واضح مُتَصَحِّحُ

ولم يزل ابن عمار بسجن المعتمد إلى أن قتله صَبْرا فى سنة ٤٧٩ هـ[3] .

(٣) الشعر الفنى : الزجل والموشحات

ذكر المقرى أنه لما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وعذوبة ألفاظه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منوال التوشيح ، ونظموا فى طريقتهم بلغتهم العامية الحضرية ، من غير أن يلتزموا فيه إعراباً ، واستحدثوا فناً سموه بالزّجل ، والتزموا النظم فيه على طريقتهم ، فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة . وأول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قُزْمان ، وإن كان هذا النوع من الشعر قد استعمل من قبلُ بالأندلس . لكن لم تظهر حُلاها ولا انسبكت معانيها إلا فى زمانه . ويعد ابن قزمان إمام الزجالين على الإطلاق . وليس أدل على ذلك من قول ابن سعيد المقرى (ت ٦٧٣/١٢٨٥) : « رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب » . وهذا يدل على أن

---

(١) السجاعة : غزارة الماء ويقصد بها الكرم .
(٢) تمصح : أى تزيل .
(٣) المعجب ص ١٢٥ — ١٢٦ ، ١٢٧ .

أهل المشرق قد اقتبسوا الأزجال عن المغرب كما عرفوا فن التوشيح عن الأندلس أيضاً . كما يقول ابن سعيد : سمعت أبا الحسن بن جَحْدر الإشبيلي إمام الزجالين فى عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة » .

وقد خرج ابن قزمان إلى متنزّه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء على صفائح من الحجر فقال :

وعريشٍ قد قام على ركانٍ ... بحـــــال الرواقْ
وأسدٍ قد ابتلع ثعبان ... من غِلَظ ســاق
وفتح فَمُو بحال إنسان ... به الفُـــواق
وانطلق مِنْ ثَمَّ على الصفاح ... وألقى الصبـــاح

ونرى أن هذا الشعر لا يلتزم وزنا ولا قافية ولا انتظاما بين شطرى البيت الواحد ، كما تلاحظ أن بهذا الشعر كلاما ملحونا وكلاما عاميا . فمن الخطأ النحوى قول ابن قزمان « ابتلع ثعبان » ، ومن الخطأ اللغوى قوله « فتح فَمُو » . وهذا يدل على أن هذا الشعر ، قد قيل بالعامية ولم تراع فيه مقاييس أو اللغة أو العرف الشعرى بخلاف التوشيح ، فإنه ، وإن كان لم يسر على نظام القصيدة العربية ، قد روعى فيه التزام قواعد النحو واللغة ، وهذا هو الفرق الأصيل بين التوشيح والزجل .

ومع أن ابن قزمان كان قرطبي الدار كان يتردد على إشبيلية ويقول فيها كثيراً من أزجاله لحضارتها وجمال طبيعتها وشدة إقبال الناس على سماع أزجاله فيها (١) . ولا ريب أن ابن قزمان قد نهض بفن الزجل نهضة لم يسبق إليها ، وأنه كان رائدا للزجالين الذين جاءوا بعد عصره .

ويحسن أن نعرض فى إيجاز للشعر الغنى فى هذا العصر الذى خصصناه فى هذا الجزء الرابع ، حيث نلمس تطورا فى الشعر العربى بالأندلس : فى أوزانه وقوافيه وفى نظامه بصفة عامة . وكان ذلك التطور راجعا إلى طبيعة الأندلس الجميلة التى تتميز بالأنهار الجبارية والجنان المزهرة والأشجار المشرقة والطيور المغردة والجبال المنيفة والروابى السحيقة والطبيعة

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

التى لا تستقر على حال . كل هذا قد تحكّم فى الخيال الشعرى وفى الشعر العربى . فتغنى الأندلسيون بطبيعتهم وجمال بلادهم ، ولم يستطيعوا أن يحصروا شعورهم فى تلك القيود الشعرية التقليدية التى نقلوها عن المشرق ، بل انطلقوا يعبرون عن إحساسهم ومشاعرهم بلغة حرة . فتخلصوا من هذه القيود فى قصائد لم تلتزم وزنا ولا قافية ولم تلتزم نظاما معيّنا فى القصيدة . وقد أطلق على هذا النوع من الشعر اسم « الموشحات » .

وكان أول من برع فى هذا النوع « مقدم (بضم الميم وفتح القاف والدال مع التشديد) القَبْرى » من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى . وقد عاش مقدم هذا فى صدر الدولة الأموية بالأندلس ، ثم أخذ عنه ذلك ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد . وكان أول من ظهر فى هذا الميدان بعدهما عُبادة القزّار شاعر المعتصم بن صُمادح صاحب المرّية . وقد ذكر الأعلم البطليَوْسى أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول : كل الوشاحين عيال على عبادة القزار فيما وجد له من قوله :

بَدْر تمٍّ (١) شَمْس ضحًى غُصْنُ نقًى مشك شمّ
ما أتمَّ (٢) ما أوضحا ما أورقا (٣) ما أنمّ (٤)
لا جَرَمْ (٥) من لحظا (٦) قد عَشَقا قد حُرم

ثم جاء فريق الموشحين فى عصر المرابطين ، فنهضوا بالموشحات نهضة مباركة . وعلى رأس هؤلاء الموشحين الأعمى التُطَيْلى ، ثم يحيى بن بَقِىّ . ومن موشحات التطيلى قوله :

كيفَ السبيلُ إلى صبرى وفى المعالم أشجان

---

(١) يقصد البدر قد بلغ التمام فى ليلة الرابع عشر من الشهر الهجرى .
(٢) يعنى أن محبوبته قد بلغت الكمال .
(٣) يشبه محبوبته هنا فى الرونق بالشجرة المورقة .
(٤) من النمو .
(٥) لا شك .
(٦) يلاحظ أن الألف للاطلاق لوزن الشعر ومثلها عشقاً .

والرَّكب[١] وسْط الفلا بالخُرّدِ[٢] النواعمِ قد باتوا[٣]

ومن قول التطيلى أيضاً .

ضاحكٌ عن حُمات[٤] سافرٌ عن بَدْرِ
ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

ومن اشتهر بالموشحات فى صدر الدولة الموحدية : محمد بن أبى الفضل بن شرف ، وابن هردوس (بكسر الهاء وسكون الراء وفتح الدال ولعله اسم محرف عن الإسبانية) ، الذى يقول :

يا ليلة الوصل والسعود بالله عودى

ومن موشحى الموحدين : ابن مؤهِّل الذى يقول :

ما العيد فى حُلّةٍ وطاقِ وشَمٍّ طِيب
وإنما العيد فى التلاقى مع الحبيب

ومن هؤلاء الموشحين فى عهد الموحدين أبو إسحاق الدُّوَيْني الذى قال عنه ابن سعيد المغربى ، سمعت أبا الحسن بن سهل بن مالك يقول : إنه (أى الدوينى) دخل على ابن زُهر وقد أسنّ وعليه زى البادية إذ كان يسكن بحصن سَبْتة ، فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به المجلس وجرّت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها (أى جاء فيها) .

كُحْلُ الدُّجَى يَجْرى من مُقْلة الفجرِ على الصباحْ
ومِعْصمُ النهر فى حُلَل خُضْر من البطاحْ

فتحرك ابن زهر وقال : أنت تقول هذا ؟ قال : اختبره ، فقال : ارتفع فوالله ماعرفتك . (٥)

ومن اشتهر بالموشحات فى عصره أبو بكر بن زهر الطبيب الفيلسوف الذى « شَرَّقتْ موشحاته و غرَّبت » على حد تعبير ابن سعيد الأندلسى . وقد نسب إلى ابن زهر قوله :

---

(١) الركاب عامة ويعنى هنا ركاب الإبل .
(٢) جمع خريدة وأصلها اللؤلؤة قبل الثقب أطلقت على الفتاة العذراء .
(٣) باتوا فارقوا الحى .
(٤) الجمات اللؤلؤة يشبه بها أسنان محبوبته .
(٥) نفح الطيب ج ٩ ص ٢١٩ — ٢٢٣ .

ما المُـوَلَّه[١] من سُكره لا يُفيق يا له سكران
من غير خمرٍ ما للكَثيب[٢] المَشوق يندُب الأوطان
هـل تُستعادُ أيامُنـا بالخليج ولياليـنا ؟
إذْ يستفـادُ من النسيم الأريج[٣] مسكُ دارينا
وإذْ يكادُ حُسْنُ المكانَ البهيجِ أنْ يُحيينا
نَهْرٌ أظلَّه دَوْحٌ[٤] عليه أنيقُ مؤنَّقٌ فَيْنانُ[٥]
والماء يجرى وعائمٌ وغَريقُ مِن جَنْى الرَّيحان[٦]

ومما هو جدير بالذكر أن فن الموشحات الذى هو من ابتكار مسلمى الأندلس قد نهض نهضة ملموسة فى عهد ملوك الطوائف وفى عهد المرابطين والموحدين كما ذكرنا .

الشعر فى المغرب

الحُصَرى

ويعتبر الشاعر القيروانى المشهور أبو الحسن على بن عبد الغنى الكفيف المعروف بالحصرى زعيم صناعة الشعر فى عصره . وقد ولد بالقيروان ونشأ بها واشتهر أمره وذاع ذكره فيها . ولما غزا الهلاليون تونس ودمروا مدينة القيروان وحطموا مسجدها الجامع ، فر الحصرى محزوناً إلى مدينة سَبْتة بالمغرب الأقصى ، ومنها إلى بلاد الأندلس ، وذلك فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، فتنافس عليه ملوك الطوائف لذيوع شهرته وعلو مكانته الأدبية .

وكان أبو الحسن الحصرى معاصراً لأبى العلاء المعرى[٧] ، وهما يجتمعان فى الأدب

---

(١) من الوله (بفتح الواو واللام) الحيران الحزين .
(٢) الكثيب : التل من الرمل .
(٣) ذو الرائحة الزكية .
(٤) الدوح : الشجر الملتف .
(٥) من الفنن (بفتح الفاء والنون) الغصن .
(٦) يقصد أن النهر قد نثرت عليه الرياحين ، فمنها العائم ومنها الغريق ، وقد أوجدت جواً عطريا ، فالرائى ينظر ماء كالفضة ويشم رائحة عطرية ويعجب بهذه الطبيعة التى تتفنن و الجمال .
(٧) أنظر ما ذكرناه عن أبى العلاء المعرى فى الجزء الثالث من هذا الكتاب (الطبعة السابعة ، القاهرة ١٣٦٥) ص ٣٦٥ — ٣٦٨ .

وفقد البصر ، ولكنهما يختلفان فى كثير من الأمور . فقد عاش أبو العلاء فى عزوبة وعزلة ، وكان عفيف اللسان كريم الخلق لا يميل إلى الهجاء ، يغلب على شعره الحكمة والموعظة ، على حين نرى الحصرى قد تزوج بمن هى دونه فى السن بالشىء الكثير حتى فارقته ، كما كان يتكسب بشعره ، مولعاً بهجاء الناس . وقد وصفه ابن بسام[١] بقوله : « كان فيما بلغنى ضيق العَطَن[٢] مشهور اللسن يتلفّت تَلَفُّت الظمآن إلى الماء . . . اشتملت عليه مدينة طنجة (بعد أن خلع ملوك الطوائف) . وقد ضاق ذرعه وتراجع طبعه[٣] ، وله على ذلك سجع يَمَجُّ أكثره السمع ، لم يسمح نقدى أن أكتبه ولا راقنى أن أرويه ، وما أراه يسلك إلا سبيل المعرى فيما انتحاه ، وكان هو وإياه كما وصف العباس بن الأحنف :

هى الشمس مسكنها فى السماء فعزِّ الفؤاد عزاءً جميلا
فلن تستطيع إليها الصعودَ ولن تستطيع إليها النزولا

وإن قصيدته الشهيرة التى خلفها لنا فى كتابه « زهر الآداب وثمر الألباب » والتى استهلها بقوله :

يا ليلُ الصَّبُّ منى غَدُهُ أقيامُ الساعةِ مَوْعِدُهُ

قد عارضها كثير من الشعراء والشواعر فى كثير من العصور والبلدان ، ونذكر منهم على سبيل المثال ابن الأبّار البلنسى وإسماعيل الزبيدى اليمانى ، وشمس الدين الحصرى الدمشقى[٤] ، وناصر الدين الأرّجانى ، ومن المحدثين أحمد شوقى ، وإسماعيل صبرى ، وولى الدين يكن ، وعاتكة الخزرجى العراقية .

ولا بأس أن نذكر بعض أبيات فى معارضة الشاعر ولى الدين يكن لذيوع شهرته :

الحُسْنُ مكانُك مَعْبَدُه واللحظُ[٦] فؤادىَ مَغمِدُهُ[٧]

---

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ج ١ القسم الرابع ص ١٩٢ .
(٢) يعنى أنه كان عصبى المزاج يضيق بالناس .
(٣) يقصد بذلك أنه قد ضاق بالناس وبالحياة بعد زوال حكم ملوك الطوائف الذين يغدقون عليه الأرزاق فرجع إلى هجاء الناس والضيق بالحياة .
(٤) المصدر نفسه ج ١ القسم الرابع ص ١٩٣ .
(٥) وكثيرا ما وقع اللبس عقد الأدباء فى الحصرى القيروانى والحصرى الدمشقى .
(٦) اللحظ : العين أو نظرتها .
(٧) المغمد (بفتح الميم الأولى وكسر الميم الثانية) غمد السيف ويريد أن يقول :
أنت معبد الحسن فى هذه الدنيا ومحج عشاقه وقلبى غمد لسهم لحظك الفتاك

يا سيدتى هـــذا حُرٌّ لم يعرفْ قَبْلَكِ سَيِّدَه
الليـــل وطيفُك يعـرفه إنْ كان فؤادك يَجْحَدُه
كم يوحى طرفُك لى غزلاً وأنا فى شِعْرِىَ أُنْشـــده
وتســاجلنى الأطيـارُ هَوًى فى الدَّوْح[1] أبيت أُرَدِّدُه
للصبح سناؤك[2] أبْيَضُـــه لليـــلِ غرامِىَ أسودُه[3]
أحببتُ قلاك[4] فمُطْلقُه عنـدى عذبٌ ومُقَيَّدُه
إنْ ضلَّ حنانُكِ عن قلبى فأنا بولوعى أُرْشِـدُه
شوقى إنْ بنتِ يضـــاعفه صـبرى إن جُرْتِ يؤكده
خِـــلاّن هما شمسا فَلَكٍ طرفى مع طرفك يرصـده[5]

ومن آثار الحصرى ديوان زهر الآداب وثمر الألباب الذى تقدمت الإشارة إليه، وكتاب المصون فى سر الهوى المكنون. وله ديوان « المُعَشّرات ». وهو فى شعره فى هذا الديوان وفى ديوان « ذيل الاقتراح » متأثر بأبى العلاء المعرى فى لزومياته فى التقيد فيما ليس بضرورى من قيود فيما نظم. فقصائد « المُعَشّرات » مرتبة على حروف الهجاء. وكل قصيدة منها عشرة أبيات تبدأ جميعها بحروف الهجاء فى القافية. فإذا كانت القصيدة من قافية الهمزة أو التاء أو الظاء، جاءت أبياتها العشرة مبدوءة بالحرف نفسه. وقصائد ديوان « ذيل الاقتراح » عددها تسع وعشرون بعدد حروف الهجاء. وكل قصيدة منها خمسة عشر بيتا يلتزم الحرف الواحد فى أوائل الأبيات وأواخرها.

ولأبى الحسن الحصرى ديوان فريد فى نوعه سماه « اقتراح القريح واجتراح الجريح » فى رثاء ولده عبد الغنى الذى أنجبه من زوجته التى هجرته ومات وهو فى التاسعة من عمره،

---

(١) الدوح : الشجر الملتف.

(٢) السنى الضوء.

(٣) يقصـد أن بياض الصبح مصدره نورها وغرامى يثير آلامى فكأن سواد الليل مأخوذ من غرامى.

(٤) القلى الصدود.

(٥) فى كلمة شوقى تورية، يقصد شوقى الشاعر وشوقه بمعنى الحب وهو المقصود. فحيثما تبعد يضاعف كلفه بها. وفى لفظة صبرى تورية كذلك، فأحد المعنيين صبرى الشاعر والمعنى الثانى الصبر على بعدها.

إذ تركته أمه فآثره أبوه على إخوته ومنحه كل عواطف الأبوة وحنانها . فلما مات هذا الابن أفرغ الشاعر المحزون أحزانه وأشجانه فى ديوان كامل من الرثاء ربما كان الديوان الوحيد فى العربية فى رثاء ولد .

ومما يثير الأسف أن الباحثين فى ميدان الأدب لم يوفوا هذا الشاعر حقه من البحث ودواوينه من الدراسة الواجبة . ولكنه ظهر فى تونس أخيراً كتاب « أبو الحسن الحصرى القيروانى » للأستاذين الجيلانى بن الحاج يحيى ومحمد المرزوقى . وقد تناول هذان المؤلفان حياة أبى الحسن الحصرى كما تناولا الكلام عن تراثه الأدبى [١] .

(٢) النـــثر

(ا) الحريرى :

ظهر بين كتاب العرب كتاب ألفوا كتابة النثر المسجوع متأثرين فى ذلك بالقرآن الكريم وخطب الجاهلية ، كخطب أكثم بن صيفى الذى يقول : « أيها الناس ! من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت . . . الخ . وهذا السجع له نغم عذب يحرك النفس ويثير الشوق إلى سماعه .

وقد ظهر هذا النوع فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فى خطب الخلفاء وعمال الأقاليم ، ثم تطور هذا الفن على أيدى الكتاب المحترفين من أمثال ابن نباته (ت ٣٧٤ / ٩٨٤) ، كما تطور على أيدى كتاب البلاط من أمثال إبراهيم بن هلال الصابى (ت ٣٨٤ / ٩٩٤) . ومن ثم أصبح السجع من مميزات الأدب الذى التزمه الأدباء . ومن هنا ظهرت طائفة من بين كتاب العربية من العرب والفرس ابتدعوا فنا خاصا من بين فنون الأدب يدعى فن المقامات . وإلى بديع الزمان الهمذانى (ت ٣٩٨ / ١٠٠٧) يرجع الفضل فى ابتكار هذا النوع الجديد المميز من السجع المعروف باسم المقامات .

والمقامة حكاية تقال فى مقام معين على نحو ماصنع أبو محمد القاسم الحريرى (ت ٥١٥ / ١١٢١) [٢] صاحب المقامات المشهورة التى تشتمل على الكثير من درر اللغة وفرائد الأدب

---

(١) انظر مقال الدكتورة عائشة عبد الرحمن فى جريدة الأهرام (صفحة الأدب) فى ١٣ يناير ١٩٦٤ .

(٢) ولد الحريرى فى البصرة سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) ومات بها .

والحكم والأمثال والأشعار النادرة التى تدل على سعة إطلاعه وغزارة مادته وطول باعه وعلو مقامه فى عالم الأدب . ويرى نيكلسون [١] أن الحريرى دون بديع الزمان من حيث الابتكار والابتداع ، على حين أن الحريرى أغزر مادة وأكثر وأشد تعمقا فى اللغة مما جعل لمقاماته منزلة خاصة جعلتها فى المنزلة الثانية بعد القرآن الذى يعتبر كنز اللغة العربية الذى لا ينقد والحديث الشريف ، كما يرى نيكلسون أن مقامات الحريرى تحفة أدبية رائعة .

ويعزى السبب الذى من أجله وضع الحريرى مقاماته ، إلى أنه كان جالساً فى المسجد ببنى حرام ، فدخل شيخ رقيق الحال رث الثياب تبدو عليه أهبة السفر . وكان هذا الرجل فصيح العبارة ، فسأله الحاضرون مِنْ أين الشيخ ؟ فقال من سروج [٢] ، فسألوه عن كنيته فقال : أبو زيد : فوضع الحريرى مقامته الأولى المعروفة بالحرامية أو السروجية وعزاها إلى أبى زيد السروجى . فلما بلغ خبر هذه المقامة الوزير الفارسى والسياسى المشهور أنا نصر شِرْوان بن خالد وزير الخليفة المسترشد [٣] ، أعجب بها وأشار على الحريرى بأن يضم إليها غيرها ، فأتمها خمسين مقامة .

وقد أشار الحريرى إلى هذا الوزير بقوله : «فأشار مِنْ إشارته حُكم وطاعته غُنم إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع [٤] وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع [٥] .

وللحريرى أيضاً « ملحمة الإعراب » وهى منظومة فى النحو ، ودرة الغواص فى أوهام الخواص» ، و «مُلْحة الإعراب » . وله أيضاً ديوان رسائل وشعر غير شعره الذى أنتجه فى ثنايا المقامات .

وقد حقد على الحريرى طائفة من أدباء عصره وطعنوا فى نسبة هذه المقامات إليه ، فأستقدمه الوزير أنو شروان وطلب منه أن ينشىء رسالة فى موضوع عينه هذا الوزير ،

---

(١) Lit. Hist. of the Arabs, p. 329.

(٢) هى مدينة فى سواد العراق قريبة من الرها .

(٣) توفى هذا الوزير سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨م) ، وهو صاحب تاريخ السلاجقة الذى طبعه « هوتسما » (ليدن ١٨٨٩) ضمن مؤلف البندارى .

(٤) يقصد أن يسير فيها على نهج بديع الزمان الهمذانى فى رسائله أو مقاماته . ويعتبر بديع الزمان أول من وضع المقامات بالمشرق .

(٥) وهو يشبه نفسه بالظالع أى المائل عن الطريق المستقيم ، ويشبه بديع الزمان بالضليع أى القوى وهو يقصد تأدبا منه أن مقاماته لا ترقى إلى منزلة مقامات بديع الزمان لأن الفضل للسابق . أنظر مقامات الحريرى (طبعة القاهرة ص ٥)

فلم يوفق فى هذا المقام فخرج . وبعد حين قدم إلى الوزير عشر مقامات .

وكان الحريرى ضئيل الجسم زرى المنظر عصبى المزاج ، يقتلع شعرات لحيته إذا اشتغل بالتفكير أو الكتابة . ولكنه مع هذا كان موضع تقدير الناس وإكبارهم . ويحكى أن شخصاً زاره ، وأراد أن يتلقى عليه شيئاً من العلم لذيوع شهرته ، فلما وقع بصره عليه استزرى منظره فأدرك الحريرى ما دار فى نفسه . ولما طلب هذا الشخص إلى الحريرى أن يملى عليه شيئاً من الأدب قال له : اكتب وأملاه هذين البيتين .

ما أنت أول سارٍ غَرّه قمرٌ ورائدٍ أعجبتـه خُضْرَةُ الدِّمَنِ[1]

فاختر لنفسك غيرى إننى رجلٌ مِثْل المَعَيْدى[2] تسمعُ بى ولا تَرَنى[3]

اشتملت مقامات الحريرى على فوائد جمة عددها فى قوله : « وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خالدة وروية ناضبة وهموم ناصبة ، خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر[4] البيان ودرره وملح الأدب ونوادره إلى ما وشّحتُها[5] به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصّعته فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والاحاجى[6] النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المُحَبَّرة[7] والمواعظ المبكية والأضاحيك المُلْهية ، مما أمليت جميعه على لسان أبى زيد السَّروجى وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصرى[8] . وما قصدت بالإحماض[9] فيه إلا تنشيط قارئيه وتكثير سواد طالبيه . ولم أودِعْه من الأشعار

---

(١) يشير إلى الحديث النبوى وهو قوله صلى الله عليه وسلم إياكم وخضراء الدمن . قالوا : وما خضراء الدمن يارسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء . ويشير الرسول إلى أن النبات يخرج رائعا شديد الخضرة فوق السماد المتخلف من فضلات الحيوان.

(٢) بضم الميم وفتح العين وسكون الياء وفتح الياء الثانية مع التشديد .

(٣) يشير إلى المثل العربى « لأن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . والمعيدى شخص قمىء المنظر ذو شهرة . انظر ابن خلكان ج ٣ ص ٢٢٧ — ٢٣١ .

(٤) جمع غرة وهى خيار الشىء .

(٥) من الوشاح وهو القلادة .

(٦) جمع أحجية وهى الأغلوطة يختبر بها العقل .

(٧) من التحبير وهو التزيين .

(٨) يقصد نفسه ، وهذا مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام : كلكم حارث وكلكم همام .

(٩) الإحماض : الإنتقال من أسلوب إلى آخر ، مأخوذ من إحماض الإبل وهو انتقالها من مرعى حلو إلى مالح .

الأجنبية إلا بيتين فذّين[١] أسست عليهما بنية المقامة الحُلْوانية وآخرين توأمين[٢] ضمنتهما خواتم المقامة الكَرَجية . ما عدا ذلك فخاطرى[٣] أبو عُذْرة[٤]، ومقتضب[٥] حُلوه ومُره[٦] (أى جيده ورديئه) .

ولنبدأ بتقديم المقامة الأولى التى أنشأها الحريرى، والتى لفتت نظر الوزير «أنوشروان» إذ يقول الحريرى فى هذه المقامة التى سماها « الحرامية » : روى الحارث بن همام عن أبى زيد السَّروجى قال : مازلتُ مذ رحلتْ عَنْسى[٧] وارتحلتُ عن عِرْسى[٨] وغَرْسى[٩] أحنّ إلى عِيان[١٠] البصرة حنين المظلوم إلى النصرة ، لِما أجمع إليه أرباب الدراية وأصحاب الرواية وعلمائها من خصائص معالمها ومآثر مشاهدها وشهدائها، وأسأل الله أن يُوَطئَني ثراها لأفوز بمراها[١١] ، وأن يُمْطينى قَراها[١٢] لأفترى[١٣] قُراها ، فلما أحلّتنيها الحظ وسرح لى فيها اللحظ .

رأيتُ بها ما يملأُ العينَ قُرَّةً[١٤] ويُسلى عن الأوطان كلَّ غريب

---

(١) الفذ الفرد وأحد البيتين للوأواء الدمشقى والثانى للبحترى .

(٢) التوأم المولود مع آخر فى بطن واحد، سمى البيتان بذلك لكونهما لقائل واحد وهو ابن سكرة .

(٣) يريد قلبه .

(٤) يقال هو أبو عذرها إذا كان هو الذى افتضها والأصل فيه أبو عذرتها ، فحذفت التاء منه . والمراد أنه أول قائل لهذا الكلام .

(٥) يعنى الحريرى نفسه. والمقتضب المرتجل خطبة أوشعراً من اقتضب الغصن أى اقتطعه على البديهة .

(٦) مقامات الحريرى ص ٦ — ٧

(٧) العنس الناقة القوية .

(٨) العرس : الزوجة .

(٩) الغرس الأولاد .

(١٠) العيان المشاهدة .

(١١) يقصد مرآها .

(١٢) أى يركبنى ظهرها .

(١٣) أفترى أتتبع

(١٤) قرة أى سرورا .

فغلّست[١] فى بعض الأيام حين نصل خضاب الظلام وهتف أبو المنذر[٢] بالقُوّام ، لأخْطُوَ فى خِططها وأقضى الوتر من توسّطها ، فأدانى الاختراق فى مسالكها والإنصلات[٣] فى سككها إلى مَحَلة[٤] موسومة[٥] بالاحترام ، منسوبة إلى بنى حرام[٦] ، ذات مساجد مشهودة وحياض موروده ، ومبان وثيقة ومغان أنيقة وخصائص أثيرة[٧] ومزايا كثيرة .

بها ما شئتُ من دينٍ ودنيا ... وجيرانٍ تنافَوْا[٨] فى المعالى
فمشغوف بآيات المثانى[٩] ... ومفتون برنّات المثانى[١٠]
ومضطلع بتلخيص المعانى ... ومطلع إلى تخليص عانى[١١]
وكم من قارئٍ فيها وقارٍ ... أضرّا بالجفون وبالجفان[١٢]
وكم من مَعْلَمٍ[١٣] للعلم فيها ... ونادٍ للندا[١٤] حُلو المجانى[١٥]
ومَغْنَى[١٦] لا تزال تُغنّ فيه ... أغاريدُ الغوانى[١٧] والأغانى

---

(١) أى خرجت فى الغلس وهو ظلمة آخر الليل عند بزوغ الفجر .
(٢) كنية الديك .
(٣) الانصلات الخروج بسرعة والسير السريع .
(٤) أى منزلة .
(٥) موسومة أى معروفة .
(٦) بنو حرام قبيلة معروفة .
(٧) الخصائص الفضائل والأثير ذو الفضل يعنى أنه يتمتع بمزايا مأثورة ممتازة .
(٨) تنافوا اختلفوا .
(٩) أى مفتون بقراءة القرآن .
(١٠) أى مفتون بنغم أوتار العود .
(١١) أى فك أسير .
(١٢) الأول من القراءة والثانى من القرى للضيف .
(١٣) أى مدرسة .
(١٤) يقصد مجلس الكرم .
(١٥) المجانى الثمار .
(١٦) المغنى المنزل .
(١٧) جمع غانية وهى التى استغنت بجمالها عن الزينة .

فَصِلْ إنْ شئتَ فيها مَنْ يُصَلِّي وإمّا شئتَ فادْنُ من الدِّنان[١]

ودونك صُحْبَةَ الأكياس فيها أو الكاسات مُنْطَلِقَ العِنان[٢]

من ذلك نرى أن الحريرى غنى بمادته اللغوية ، إذ استعمل كثيراً من الألفاظ اللغوية التى تحتاج إلى تفسير . كما نرى أنه يقول الشعر عن طبع وموهبة متصرفاً فى شعره تصرف الواثق من نفسه ، لغزارة أدبه وسعة اطلاعه وعلو باعه . ونراه أيضاً قد التزم السجع التزاماً ، وأكثر من المحسنات البديعية الأخرى ، ولا سيما الجناس الذى كان يقوله تاماً وناقصاً . فمن التام قوله بآيات المثانى ورنات المثانى فى البيت الثانى ، إذ يقصد بالمثانى الأولى آيات القرآن الكريم وبالمثانى الثانية رنات أوتار العود . واللفظتان متفقتان فى الشكل وعدد الحروف وترتيبها ، فهو من الجناس التام ، ومن الجناس الناقص قوله فى البيت الثالث تلخيص المعانى وتخليص عانى . فبين كلمتى تلخيص وتخليص جناس ناقص وبين كلمة المعانى وعانى جناس ناقص أيضا .

وقد أنشأ الحريرى مقامته الصنعانية فى صنعاء حاضرة اليمن التى يعتقد أنها أول بلدة صنعت بعد طوفان نوح عليه السلام . وجعل هذه المقامة الأولى ، وكان بطلها أيضاً أبا زيد السروجى الذى سماه سراج الغرباء وتاج الأدباء . ولم يستطع الحارث بن همام (وهو الحريرى) أن يكلم السروجى إجلالا له واحتراماً ، فسأل عنه تلميذه قائلا : « عزمتُ عليك بمن تستدفع به الأذى لتُخْبِرَنى مَنْ ذا ، فقال هذا أبو زيد السروجى » .

قال الحريرى فى هذه المقامة : حدث الحارث بن همام قال : لما اقتعدت غارب[٣] الاغتراب وأْناتنى المتربة[٤] عن الأتراب[٥] ، فوَّحَتْ بى طوائح الزمن إلى صنعاء اليمن . فدخلتها خاوىَ الوفاض[٦] بادى الإنقاض[٧] ، لا أملك بلغة[٨] ولا أجد فى جرابى

---

(١) يعنى أنك مخير بين أن تجلس مع العباد المصلين أو مع أهل السكر الغاوين .

(٢) مقامات الحريرى ص ٥٥٧ — ٥٥٩ .

(٣) غارب كل شىء أعلاه ويريد أنه تغرب عن الوطن .

(٤) المتربة الفقر .

(٥) جمع ترب وهو أمثال الشخص .

(٦) أى فارغ الوفاض والوفاض هو الشىء الذى يضع فيه الإنسان زاده .

(٧) الإنقاض هو فناء المال والزاد يريد ظاهر الفقر .

(٨) البلغة ما يتبلغ به من العيش وهو اليسير من الزاد .

مُضْغة[١] ، فطفقت أجوب طرقاتها مثل الهائم وأجول فى حوماتها جَوَلان الحائم[٢] ، وأرود فى مسارح لحاتى ومسايح غدَواتى ورَوْحاتى ، كريماً أُخلق له ديباجتى[٣] وأبوح إليه بحاجتى ، أو أديباً تُفرَج رؤيته غُمَّتى[٤] وتُرْوى روايتَه غُلتى[٥] حتى أدتنى خاتمة المطاف وهدتنى فاتحة الألطاف إلى نادٍ رحيب . . . فرأيت فى بُهْرة[٦] الحلقة شخصاً شَخْتَ[٧] الخلقة . . . يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه . وقد أحاطت به أخلاط الزُّمَر إحاطة الهالة بالقمر والأكمام بالثمر[٨] ، فدلفت إليه لأقتبس من فوائده وألتقط بعض فرائده ، فسمعته يقول حين خَبَّ فى مجاله وهدرت شقائق ارتجاله ، أيها السادر فى غلوائه السادل ثوب خُيلائه[٩] . . .[١٠] » .

من ذلك نرى أن الحريرى التزم السجع والمحسنات البديعية الأخرى ولاسيما الجناس ، وأنه يتصرف فى اللغة تصرف الغنى بثروته اللغوية المدرك لبراعة الكلام . والمقامة تدور حول الاتعاظ بشخصية أبى زيد السروجى الذى اتشح بالفقر وتزين بالأدب . فكان أدبه أبهى جمالا من ثروة أغنياء المال . ثم إن الحارث بن همام (وهو الحريرى) أعجب بهذا الشخص الذى يفيض أدبا وبلاغة وجلس يستمع إلى نصائحه الغالية وحكمه البارعة . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على سعة اطلاع الحريرى وامتلاكه ناصية الكلام والثقافة فى عصره .

وهناك مقامات أخرى[١١] يطول بنا المقام إذا تصدينا لدراستها ، وهى حرية بالدراسة الأدبية المتخصصة .

---

(١) المضغة هى ما يمضغ .
(٢) الحائم هو الطائر الذى يحوم ليرى ماء يشربه .
(٣) أى أبذل وجهى .
(٤) الغمة ما على القلب من الأسى والغم .
(٥) الغلة شدة العطش .
(٦) البهرة وسط الحلقة .
(٧) الشخت هو الدقيق النحيل .
(٨) الأكمام جمع كم وهو وعاء التمر .
(٩) سدل الثوب أرخاه والخيلاء الكبر .
(١٠) مقامات الحريرى ص ١٠ — ١٦ .
(١١) من هذه المقامات المقامة الحادية عشرة الساوية (مقامات الحريرى ص ٩٧ — ١٠٦) والمقامة الثانية عشرة الدمشقية (ص ١٠٦ — ١١٩) والمقامة الثالثة عشرة البغدادية (ص ١٢٠ — ١٢٨) =

ويذكر براون (١) أن الحريرى بأسلوبه فى مقاماته هو الملك المتوج على رأس الكتاب الذين تخصصوا فى المقامات ، إذا ماقورنت مقاماته بما كتب بالعربية كمقامات بديع الزمان الهمذانى ، أو ما كتب بالفارسية كمقامات حميد الدين البلخى ، على الرغم من أن بديع الزمان أسبق إلى ابتكار فن المقامات وترويجه . وقد قدره الأدباء من المشارقة والأوربيين . وحسبنا أن نذكر أن الزمخشرى قدر الحريرى بقوله إن مقاماته حرية بأن تكتب بماء الذهب ، وإن مؤلفاته ومقاماته قد درست وشرحت وترجمت أكثر من مرة فى بلاد المشرق وأوربا (٢) . كما نالت مقامات الحريرى شهرة عظيمة فى بلاد الأندلس فى حياته ، ثم جاء الشريشى الأندلسى بعده بنحو قرن ، فشرحها شرحا قيما .

(ب) القاضى الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) .

ويعتبر القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى زعيم النثر فى عهد الأيوبيين . وله مدرسة عرفت به تدعى مدرسة المحسنات البديعية التى اقتبسها من ابن العميد ، ولكن طريقة القاضى الفاضل قد تدهورت على أيدى تلاميذه الذين غالوا فيها مغالاة شديدة وانحرفوا بها عن الغاية المنشورة منها ، فأضحت نوعا من الحلية اللفظية التى ضعف المعنى بجانبها ، واستمرت فى هذا التدهور حتى أصبحت مظهراً سيئا للأدب فى عهد المماليك والأتراك العثمانيين .

ولد القاضى الفاضل بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ هـ وتولى أبوه القضاء بمدينة بَيْسان (بين بيت المقدس ويافا) . ولذلك نسب القاضى الفاضل إلى هذه البلدة فسمى البيسانى . وقد أخذ العلم على علماء عصره ومنهم أبوه ، ثم قدم القاهرة وخدم فى ديوان الإنشاء فى عهد الخليفة الحافظ الفاطمى (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) . ثم أخذ يتدرج حتى أصبح صاحب هذا الديوان . ولما قدم أسد الدين شيركوه مصر وآلت إليه الوزارة اتخذ القاضى الفاضل

= والمقامة الرابعة عشرة المكية (ص١٢٨ — ١٣٦) والمقامة السادسة عشرة المغربية (ص ١٥٠ — ١٦٠) والمقامة الثانية والعشرون الفراتية (ص ٢٠٩ — ٢٢٠) والمقامة الخامسة والثلاثون الشيرازية (ص ٣٨٣ — ٣٩٠) وهكذا .

(١) تاريخ الأدب فى إيران ، ترجمة ج ٢ ص ٤٥٦ — ٤٥٧ .

(٢) Chenery, Assemblies or maqamat (London, 1867)

يجد القارىء عبارة وافية عن حياته فى مقدمة

Houtsma, Receuil de textes relatifs à l' Histoire des Seldjouciies (Leyden, 1889), p. II et seq.

كاتبا له . ثم آلت الوزارة إلى صلاح الدين الأيوبى فقرب القاضى الفاضل إليه واستعان به فى إزالة الدولة الفاطمية ، ثم اتخذه وزيراً له يرجع إليه فى أمور الدولة . وظل فى الوزارة إلى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) حيث خرج لقتال الملك العادل بن أيوب وهو فى طريقه للاستيلاء على مصر (١) .

ومن آثار القاضى الفاضل المدرسة الفاضلية التى أسسها فى القاهرة سنة ٥٨٠ هـ . ويحدثنا المقريزى أن هذه المدرسة كانت تضم مكتبة نفيسة حوت نحو مائة ألف مجلد (٢) .

ومن الرسائل التى وجهها القاضى الفاضل إلى صلاح الدين الأيوبى رسالة يتشفع فيها لخطيب عَيْذاب رجاء توليته خطابة الكرك (بفتح الكاف والراء) لعدم احتماله المقام فى هجير عيذاب ، ولأن خطابة الكرك تدر عليه رزقا أكثر لكثرة عياله . وإليك هذه الرسالة .

« أدام الله السلطان الملك الناصر وثبّته وتقبل عمله بقبول صالح وأثبته ، وأخذ عدوه قائلا أو بيته (٣) ، وأرغم أنفه بسيفه أو كبته . خدمة الملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب . ولما نبا (بعد) به المنزل عنها وقل عليه المرفق فيها ، وسمع هذه الفتوحات التى طبق الأرض ذكرها ، ووجب على أهلها شكرها ، هاجر من هجير عيذاب وملحها ، ساريا فى ليلة أمل كلها نهار فلا يسأل عن صبحها . وقد رغب فى خطابة الكرك وهو خطيب ، وتوصل بالمملوك فى هذا الملتمس وهو قريب ، ونزع من مصر إلى الشام ومن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب ، والفقر سائق عنيف والمذكور عائل ضعيف ، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف والسلام » (٤) .

وللقاضى الفاضل شعر أيضاً ، ولكنه لم يبلغ منزلة النثر عنده . ومن هذا الشعر قوله عند بلوغه الفرات فى خدمة صلاح الدين متشوقا إلى نيل مصر .

بالله قـل للنيل عنى أننى لم أشْفِ من ماء الفرات عليلا
وسلِ الفؤاد فإنه شاهدٌ إن كان جَفْنى بالدموع بخيـلا

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ — ٣٣٧ .
(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٦٦ .
(٣) يقصد أن الله سبحانه وتعالى يأخذ عدو صلاح الدين وقت القيلولة (ويكنى بها عن النهار) أو بيته بمعنى يأخذه فى الليل .
(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ .

ياقلب كم اختلفت ثمّ بثينةً وأعيد صبرك أن يكون جميلا[1]

(ح) النثر فى المغرب والأندلس :

وقد اتخذ المرابطون عدة كتاب على رأسهم صاحب ديوان الرسائل ، وكان بهذا الديوان طائفة من النساخين يقومون بنسخ عدة نسخ من الكتاب الأصلى توجه إلى عمال الأقاليم وغيرهم من الحكام . يذكر المراكشى بأنه اجتمع ليوسف بن تاشفين ولابنه على من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه فى عصر من عصور المغرب .

وكان أكثر هؤلاء الكتاب من رجال الأدب فى الأندلس الذين عملوا فى بلاط ملوك الطوائف أو فى قصور العمال المرابطين . ومن هؤلاء الكتاب عبد المجيد بن عبدون وعبد العزيز الأنصارى . ويبدو أن هذا الاختيار كان راجعا إلى درايتهم بفن الكتابة الذى توارثوه عن الدولة الأموية بالأندلس التى عرفت بالتفوق الأدبى الذى اقتبسوه من الشرق. لذلك نرى المرابطين يعينون الكتاب والقضاة والمحتسبين وغيرهم من أهل الأندلس . ومن أشهر أدباء المرابطين :

(١) أبو جعفر بن عطية

ومن هؤلاء الكتاب أبو جعفر بن عطية ، وقد نشأت أسرته بمدينة طرطوشه التى ينتمى إليها الفقيه أبو بكر الطرطوشى صاحب كتاب سراج الملوك . وقد كتب ابن عطية لعلى ابن يوسف ثم لابنيه تاشفين وإسحاق حتى أواخر عهد المرابطين ، ثم انخرط متنكراً فى جيش عبد المؤمن بن على . وكان يحسن الرماية . ثم صحب أبا حفص عمر لحرب الثائر محمد ابن هود الماسى السلاوى الذى انضم إلى عبد المؤمن أولا ثم خرج عليه ثانيا ، وأخذ يدعو إلى نفسه باسم الهادى ، وكاد يطيح بعرش الموحدين ، ولكنه قتل على يد أبى حفص قائد الموحدين .

وقد كتب أبو جعفر بن عطية إلى عبد المؤمن رسالة طويلة يشيد فيها بانتصار الموحدين على ابن هود ، فأعجب بها عبد المؤمن واستدعاه إلى بلاطه وقلده الكتابة ثم الوزارة فيما بعد . ومما جاء فى هذه الرسالة : « كتبنا هذا فى وادى ماسة بعد ما تزحزح من أمر الله

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٣٥ .

الكريم ونصره العلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . فتح فاق الأنوار إشراقاً وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقا » (١) .

على أن ابن عطية على الرغم مما بلغه من جاه ونفوذ فى عهد الموحدين كان يعطف على المرابطين الذين تقلب فى نعمتهم من قبل ، حتى إنه تزوج بنت أبى بكر بن يوسف بن تاشفين. وقد نصح أخاها يحيى بالهجرة إلى جزيرة ميورقة ، فنمى الخبر إلى ابن عبد المؤمن ، فأمر بالقبض عليهما وعلى أخيه ، وحاول ابن عطية أن يستدر عطف عبد المؤمن بما نظم من شعر وبعث برسائل يعتذر فيها عما فرط منه . ومن شعره قوله :

عطفا علينا أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البثّ والحزن
مَنْ عِنْدَكُمُ يسعى على ثقةٍ ... بنصره لم يخف بطشاً من الزمن
أنتم بذلْتم حياة الخلق كلهم ... مِن دون منٍّ عليهم ولا ثمن
قد أوجدتهم حياةٌ منك سابقة ... والكل لولاك لم يوجَد ولم يَكنِ

على أن عبد المؤمن أجابه بقوله متمثلا بالآية الكريمة : (الآن وقد عصيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)(٢) ، وأمر به فقتل . وقد ذكر المقرى(٣) أن بيت ابن عطية كان غنيا بأدبائه .

(٢) ابن أبى الخصال

ومن كتاب النثر فى المغرب مسعود بن أبى الخصال . وقد تقلد منصب الكتابة فى عهد المرابطين ، وقد ولد بالأندلس ونشأ بقرطبة وطلب العلم فيها ومرن على الكتابة ، كأخيه أبى مروان الذى تقلد الكتابة لابن الحاج الذى خرج على أمير المسلمين على بن تاشفين ودعا لنفسه بقرطبة ثم قبض عليه . ولكن علياً عفا عنه وولاه « فاس » ونواحيها ، ثم قلده ولاية سرقسطة حيث قتل فى حربه مع النصارى فى سنة ٥٠٨ هـ . وقد وصف عبد الواحد المراكشى(٤) ابن أبى الخصال بقوله : « إنه كان من أنبههم وأكبرهم مكانةً لديه (يعنى علياً بن يوسف) إذ هو آخر الكتاب(٥) وأحد من انتهى إليه علم الآداب » .

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٩٨ . المقرى : نفح الطيب ج ٧ ص ١١٠ .
(٢) سورة يونس ١٠ : ٩١ .
(٣) انظر نفح الطيب ج ٧ ص ١١٠ — ١١٥ .
(٤) المعجب ص ١٧٣ .
(٥) يقصد بذلك أنه آخر الذين اشتهروا بالكتابة فى عهد المرابطين .

ولابن أبي الخصال ديوان رسائل تداوله الكتاب والأدباء واتخذوه نموذجاً لرسائلهم[١] . وقد قيل إن علياً بن يوسف أمر ابن أبي الخصال وأخاه أبا مروان أن يكتبا إلى جند بلنسية كتاباً يؤنبانهما فيه على تخاذلهم عن نصرة إخوانهم بسرقسطة . إلا أن كلا من الأخوين كتب رسالة تنم عن احتقارهما للمرابطين ووصفهما إياهم بأنهم بدو عراة صحراويون لا إلمام لهم بأساليب السياسة وأمور الحضارة والمدنية ، مما أغضب أمير المسلمين علي بن يوسف عليهما فعزلهما عن الكتابة . ومما جاء في هذه الرسالة :

« أي بني اللئيمة وأعيار الهزيمة ، إلام يزيفكم الناقد ويردكم الفارس الواحد ؟ فليتَ لكم بارتباط الخيول ضافاً لها حالب قاعد . لقد آن أن نوسعكم عقاباً وألا تلوثوا على وجه نقابا[٢] ، وأن نعيدكم إلا صحرائكم ونطهر الجزيرة من رحضائكم[٣] » .

وقد أثار هذا الكلام غضب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، فأمر بتنحية أبي مروان وقال لأخيه أبي عبد الله : كنا في شك من بغض أبي مروان المرابطين ، والآن قد صح عندنا . فلما رأى ذلك أبو عبد الله ، استعفاه فأعفاه ، فعاد إلى قرطبة بعد موت أخيه أبي مروان بمدينة مراكش . وظل أبو عبد الله بن أبي الخصال بقرطبة حتى مات .

ومن كتاب النثر في المغرب أبو بكر بن القصير ، وقد تقلد الكتابة لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين . وكان قد تقلد الكتابة للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية . وقد وصفه المراكشي[٤] بقوله : « أحد رجال الفصاحة والحائز قصب السبق في البلاغة ، كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جَزْل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب ، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء » .

ومن كتاب النثر الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، تقلد للكتابة للمظفر صاحب بطليوس ، ثم لسير بن أبي بكر ، ثم لعلي بن يوسف بن تاشفين ، وبلغ عنده مكانة عالية .

---

(١) المعجب ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٢) يعني أنكم غير جديرين بوضع اللثام على وجوهكم . وكان ذلك اللثام عند المرابطين علامة على الشجاعة والفروسية والقسوة .

(٣) ارتحض : افتضح والرحضاء أيضاً يطلق على العرق ، يعني بذلك أنهم صحراويون لا يعنون بالنظافة .

(٤) المعجب ص ١٦٤ .

وهو كما يقول المراكشى من أهل يابرة[١] . وكان شاعراً مجيداً[٢] ، كما كان كاتباً مجيداً . فمن رسائله قوله : « أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبى الحسن على ابن يوسف بن تاشفين ، خافقةً بنصرة الدين أعلامه ، نافذةً فى السبعة الأقاليم أقلامه ، من داخل مدينة شنترين ، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك ويمن نقيبتك على المسلمين »[٣] ...

الفتح بن خاقان (٥٢٩/١٠٣٤ — ١٠٣٥)

ومن أشهر كتاب الأندلس أبو نصر الفتح بن خاقان ، وكان أديباً كاتباً شاعراً ، غير أن شعره كان وسطاً وكتابته فائقة كما يقول المقرى[٤] . وقد أخذ العلم عن طائفة من أدباء عصره كأبى بكر بن القصيرة ، وابن اللبانة ، وأبى جعفر بن سعدون ، وأبى محمد بن عبدون . ولما شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال أصبح من كتاب الأندلس الذين يشار إليهم بالبنان ، كما أحرز قصب السبق فى الكتابة فألف « بداية المحاسن وغاية المحاسن » ، ومجموعة تتضمن ما أنتجه من نثر أدبى ، كما ألف من الكتب « قلائد العقيان ومطمح الأنفس »[٥] ، ومن رسائله قوله :

« سيدى : لا عَدِمْتَ ارتفاقاً[٦] ولا حُرمت تكَيُّفاً من السعد واتفاقاً ، أما الآن مشتغل البال لا أُفَرِّق بين الإعراض والإقبال . وعند توجهى أفرغ لك ما حضر[٧] ، ومثلك أرجأ الأمر وانتظر[٨] ، وفى علم الله تعالى لو أمكننى لحملتك على كاهل وأوردتك منه أعذب المناهل ، وأَبَحْتُ لك السعد ثغراً ترتشفه ، وخلعته بُرْدا عليك تلتحفه ، لكن الزمان لا يجد[٩] وصروفه لا تنجد .

وعلى أى حال فلا بد أن تجد قراك ونُحمد سِراك (سفرك) إن شاء الله تعالى .

---

(١) نسبة إلى يابرة إحدى مدن البرتغال .
(٢) المعجب ص ٧٥ — ٧٦ .
(٣) المصدر نفسه ١٦٥ — ١٦٦ .
(٤) نفح الطيب ج ٩ ص ٢٤٢ .
(٥) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٤٨ .
(٦) يقصد الرفق .
(٧) يقصد أنه يعبر له عما يجيش فى صدره من هموم عند أول لقاء .
(٨) يعنى أن لك من السلطات ما يستطيع إرجاء الأمور أو النظر فيها سريعا .
(٩) يعنى أن الزمان لا ينيل الإنسان كل رغائبه .

ومن كتب الفتح بن خاقان البليغة هذه الرسالة التى بعث بها إلى أبى بكر بن على (ابن تاشفين) عند ولايته إشبيلية :

« أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجل أبى بكر للأرض يتملكها ويستدير بسعده فلكها . استبشر الملك وحقّ له الاستبشار وأومأ إليه السعد فى ذلك وأشار ، بما اتفق له من توليتك وخفق عليه من ألويتك . فلقد حُبِىَ منك بملك أمضى من السهم المسدَّد ، طويل نجاد السيفَ رحْب المُقَلّد[١] يُقدم حيث يتأخر الذابل[٢] ويُكرم إذا بَخِل الوابل (المطر) ، ويَحمى الحِما كربيعة بن مُكَدَّم (بضم الميم وفتح الكاف مع الدال المشددة هو أحد فرسان الجاهلية) ويسقى الظبا[٣] نجيعا[٤] كلون العندم[٥] . فهنيئا للأندلس لقد استردّت عهد خلفائها واستمدت تلك الإمامة بعد إغفائها ، حتى كأن لم تمر إعصارها ولم يمت حكمها ولا ناصرها اللذان عمرا الرصافة والزهرا (يقصد مدينة الزاهر التى بناها عبد الرحمن الناصر) ونكحا (تزوج) عقائل الروم وما بذلا إلا المشرفية (سيف اليمن) مهراً . والله تعالى أسأله انتصار أيامك ، وبه أرجو انتشار أعلامك حتى يكون عصرك أعجب من عصرهم ونصرك أعز من نصرهم والسلام »[٦] .

وللفتح بن خاقان شعر كثير ، ولكنه لا يرتقى إلى منزله نثره البليغ ، ومن أحسن ما نظم قوله يستعطف الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) ويحن إلى مثواه بإشبيلية :

وَيْحَكِ يا سَلْمَ لا تُراعى[٧] لا بد للبَيْن من مَساعِ
لا تحسبينى صَبَرْت إلا كصبر مَيْتٍ على النزاع[٨]
ما خلق الله من عذابٍ أشدَّ من وقْفَة الوداع

---

(١) إشارة إلى سعة الصدر الدال على الشجاعة ، وكان يعلق به السيف ، ويرمز به إلى فراهة الجسم .
(٢) يريد به الرمح أو حامله .
(٣) جمع ظبة (بضم الظاء) حد السيف .
(٤) النجيع دم القلب .
(٥) هو زهر لونه كلون الدم .
(٦) المقرى : نفح الطيب ج ٩ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .
(٧) يقصد لا تخافى .
(٨) النزاع نزعة الموت .

ما بينها والحمـــامَ فرقٌ إلا المناحاتُ فى النواعى
إنْ يفترق شملنـــا وشيكًا مِن بعد ما كان فى اجتماع
فكل شمل إلى افتراقٍ وكل شَعْب إلى انصـداع
وكل قرب إلى بعـــادٍ وكل وصـل إلى انقطاع[1]

العلوم العقلية

(١) الطب فى العصر العباسى الثانى

أشاد نظامى عروضى السمرقندى[2] بأهمية صناعة الطب وعرض للشروط التى يجب أن تتوافر فى الطبيب فقال :

« الطب صناعة تحفظ الصحة فى بدن الإنسان وهى كائنة وتستردها وهى مفقودة ، وبواسطتها يزدان البدن بطول الشعر وصفاء البشرة وطيب الرائحة والنشاط . وأما الطبيب فينبغى أن يكون رقيق الخلق حكيم النفس صائب الفكر قوى الاستنتاج ، ولا يكون الطبيب رقيق الخلق ما لم يعرف شرف النفس الإنسانية ، ولا يكون حكيم النفس ما لم يعرف المنطق . كما أنه لا يكون جيد الحدس ما لم يكن مستمداً العون من الله سبحانه . والطبيب الذى لا يكون جيد الحدس لا يصل إلى معرفة العلة : ذلك أنه يستدل على حالة المريض بالنَّبض ، والنبض حركة الانقباض والانبساط وما بينهما من سكون » .

وقد أوصى نظامى عروضى أن يتزود من يريد مزاولة الطب بدراسة مصادره الأصيلة مثل أصول أبقراط ومسائل حنين بن إسحاق[3] ، « ومرشد محمد بن زكريا الرازى[4] ، و « شرح النيلى[5] » الذى أجمل هذه المؤلفات ، « وذخيرة ثابت بن قرة[6] (بضم القاف

---

(١) الشعب التحام المنكسر والانصداع الكسر . المقرى : نفح الطيب ج ٩ ص ٢٥١ .

(٢) جهار مقاله ، ترجمه إلى الإنجليزيه أدوارد براون ، وإلى العربية عزام والخشاب . الترجمة العربية ص ٧٤ — ٧٥ .

(٣) اسم هذا الكتاب « المسائل فى الطب للمعلمين » ، انظر ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٢٩٤ . القفطى : تاريخ الحكماء ص ١٧٣ .

(٤) اسم هذا الكتاب الفصول فى الطب ويعرف باسم المرشد ، انظر ابن النديم : الفهرست ص ٣٠١ . والقفطى : تاريخ الحكماء ص ٢٧٥ .

(٥) هو أبو سهل سعيد بن عبد العزيز ، وله كتاب « اختصار كتاب المسائل لحنين بن إسحاق » وتلخيص شرح حالينوس لكتاب الفصول لبقراط ، وكان من أهل نيسابور .

(٦) يشك القفطى ص ١٢٠) فى نسبة هذا الكتاب لثابت .

وفتح الراء مع التشديد) ، و « المنصورى » و « الحاوى » لمحمد بن زكريا الرازى[١] ، أو « الهداية » لأبى بكر الأجوينى ، أو « الكفاية » لأحمد بن فرج أو « الأعراض »[٢] لسيد بن إسماعيل الجرجانى ، ثم يدرس أحد الكتب المفصلة مثل « الست عشرة رسالة » لجالينوس أو « الحاوى »[٣] لمحمد بن زكريا أو « كامل الصناعة »[٤] أو « صد باب »[٥] (مائة باب) لأبى سهل المسيحى ، أو « القانون » لأبى على بن سينا ، أو « الذخيرة »[٦] للخوارزمى ، وأن يقرأ هذا الكتاب المفصل فى وقت الفراغ ، فإذا أراد الاستغناء عن هذه الكتب كلها فقد يكتفى بالقانون ، فإن سيد الكونين وإمام الثقلين[٧] يقول : كل الصيد فى جوف الفرا » ، فكل ما ذكرت موجود فى « القانون » مع زيادات كثيرة . وكل من

---

(١) كتاب المنصورى أو كتاب الطب المنصورى ، ويحتوى على عشر مقالات ، وقد ألفه الرازى باسم منصور بن محمد بن إسحاق بن أسد ، وكان والياً على الرى من قبل عمه أحمد بن إسماعيل بن أحمد ابن أسد السامانى ، وقد خرج منصور على نصر بن أحمد ثالث أمراء السامانيين . انظر تعليق ميرزا محمد على كتاب جهار مقاله ، ترجمة ص ١٦٣ — ١٦٤ .

(٢) وهو فى علم الطب بالفارسية ، وقد ترجمه عن كتابه « ذخيرة خوارزمشاهى » بأمر مجد الدين أبى محمد الصاحب بن محمد البخارى وزير آتسز خوارزمشاه (٥٢١ — ٥٥١ هـ) . ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٣٢ .

(٣) ويعرف باسم « الجامع الحاضر لصناعة الطب » وهو أعظم وأهم مؤلفات محمد بن زكريا الرازى . القفطى ص ٢٧٤ .

(٤) كامل الصناعة الطبية ، ويعرف بالملكى لعلى بن العباس المجوسى الأهوازى (ت ٣٨٤/٩٩٤) . وهو أشهر أطباء عصره ، وكان طبيب عضد الدولة البويهى ، ويعرف مؤلفه فى أوربا باسم Haly Abbas ، وقد طبع فى القاهرة فى جزأين (١٣٩٤/١٨٧٧) ويحتوى الجزء الأول على الجانب النظرى ويبحث الثانى عن الناحية العملية .

(٥) ويعرف باسم « كتاب المائة فى الطب » . وقد ولد المسيحى فى جرجان وأتم دراسته فى بغداد، وهو أحد أساتذة ابن سينا ، وكان صديقاً لأبى الريحان البيرونى : ابن أبى أصيبعة ج ١ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ ، ج ٢ ص ١٩ .

(٦) أو « ذخيرة خوارز مشاهى » وهو كتاب مفصل باللغة الفارسية فى جميع فروع علم الطب ، ألفه زين الدين (شرف الدين) إسماعيل بن حسن الحسينى الجرجانى المتوفى بمرو سنة ٥٣١ / ١١٣٦ . وقد وضعه كما يقول فى مقدمة كتابه باسم قطب الدين محمد خوارزمشاه مؤسس الدولة الخوارزمية سنة ٥٠٤/ ١١١٠ . وقد ذكره ريو Rieu فى فهرست الكتب الفارسية (ص ٤٦٦ — ٤٦٨) ترجمة المؤلف وترتيب فصول وأبواب كتابه . ويلاحظ براون أنه قد يكون أول مسلم يستعمل اللغة الفارسية فى المسائل العلمية أو على الأقل هو أول من عرفنا كتبهم . ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٣١ — ٣٢ . نظامى عروضى : جهار مقاله ، التعليق فى الترجمة العربية ص ١٦٦ .

(٧) يقصد على بن أبى طالب ، والثقلان يقصد بهما الجن والإنس .

يحيط علما بما فى المجلد الأول من القانون لا يخفى عليه شىء من علم الطب وكلياته ، ولو بعث بقراط وجالينوس إلى الحياة لحق لهما أن يسجدا لهذا الكتاب[١] .

ويرى نظامى عروضى أن الطبيب إذا علم ما فى المجلد الأول من « القانون » وهو فى الأربعين من عمره ، أصبح أهلا للاعتماد عليه . وإذا ما بلغ الطبيب هذه المرتبة وجب عليه أن يحرص على اقتناء أحد هذه الكتب الصغيرة التى ألفها أصحاب التجارب الطويلة من الأساتذة الأطباء مثل « تحفة الملوك » لمحمد بن زكريا الرازى ، أو « الكفاية » لابن مندويه الأصفهانى ، أو « تداركه أنواع الخطأ فى التدبير الطبى »[٢] لأبى على بن سينا ، أو « خُفّى علائى[٣] » لإسماعيل بن حسن الجرجانى ، أو « التذكرة » لسيد بن إسماعيل الجرجانى . «وقد نوه نظامى عروضى بهذه الشروط التى يجب أن تتوافر فى الطبيب والكتب التى لا غنى عنها لمزاولة مهنته على أتم وجه فقال : « ذلك أنه لا يجوز الاعتماد على الحافظة التى هى فى نهاية مؤخر الدماغ ، وأحد هذه الكتب يعينها إذا أبطأت فى العمل . وإذاً ينبغى لكل ملك أن يحرص على هذه الشروط التى عددناها فى الطبيب الذى يختار ، فإنه ليس من اليسير أن يضع روحه وعمره فى يد كل جاهل وأن يجعل تدبير حياته فى حجر كل عاقل[٤] » .

وكان الأطباء فى هذا العصر ملمين بأكثر فروع المعرفة . فكان الطبيب فوق تفوقه فى الطب فيلسوفا وفقيها وأديبا . فقد حكى نظامى العروضى السمرقندى ، وكان ينتمى إلى الغور ، أنه وقعت فى سنة ٥٤٧ هـ موقعة بين جيوش « سلطان العالم » سنجر السلجوقى وجيوش علاء الدين الحسين الغورى ، وأن الدائرة قد دارت على الغور الذين تعرضوا لحقد السلاجقة وحنقهم واضطهادهم . وقد اختفى نظامى العروضى عن أنظار السلاجقة

---

(١) وقد نوه نظامى عروضى إلى أهمية كتاب القانون لابن سينا وذكر أنه واجب القراءة لدرجة أنه من الممكن الاستغناء به عن الكتب الأخرى . جهار مقالة ص ٧٦ .

(٢) هو كتاب وضعه ابن سينا باسم الحسين أحمد بن محمد السهلى وزير على بن مامون خوارزمشاه الذى ولى الملك سنة ٣٨٧ / ٩٩٧ . وقد طبع هذا الكتاب فى سنة ١٣٠٥ / ١٨٨٧ باسم « دفع الضار الكلية عن الإنسانية بتدارك أنواع خطأ التدبير » على حاشية كتاب « منافع الأغذية ودفع مضارها » لمحمد بن زكريا الرازى (بولاق ، القاهرة) .

(٣) هو كتاب مختصر فى الطب باللغة الفارسية وهو مختصر لكتابه « خوارز مشاهى » بأمر علاء الدين آتسز . وقد اختصره على جلدين من القطع الطويل حتى يمكن الاحتفاظ بهما دائما فى الخفين . وعلائى نسبة إلى علاء الدولة وهو لقب من ألقاب آتسز . ميرزا محمد تعليقاته على كتاب جهار مقاله ، ترجمة ص ٧٧ ، ١٦٧ .

(٤) جهار مقالة الترجمة العربية ص ٧٧ .

فى مدينة هراة حيث دعاه أحد الأهالى لتناول طعام العشاء فى داره ، ثم عبر له عن حزنه لمرض ابنته الوحيدة التى كانت مصدر بهجته وسروره ، وقال إنها فى أيام الحيض تنزف عشرة أو خمسة عشر منا [١] من الدم حتى تخور قواها . ثم أضاف أنه استشار كثيراً من الأطباء الذين تولّوا علاجها ، ولكن على غير جدوى ، وقال إن الأطباء إذا وقفوا الدم انتفخ بطنها وزاد ألمها ، وإذا تركوه نزف وظهر عليها الهزال وتعرضت للهلاك . وطلب نظامى عروضى إلى الرجل أن يخبره حين يعود الحيض إلى ابنته .

ويقول نظامى عروضى : « فلما انقضت عشرة أيام جاءتنى أم المريضة ، فسرت معها وأحضرت البنت أمامى » ، فرأيتها رائعة الجمال حائرة يائسة من الحياة . فلما رأتنى ارتمت على قدمى وقالت : أى أبى ! أغثنى لوجه الله فإنى شابة ولم أر الدنيا . فانهمر الدمع من عينى وقلت لها : طيبى نفساً فهذا أمر يسير . ثم وضعت يدى على نبضها فوجدته قويا ، وكذلك كان لون وجهها عاديا ، وقد توفرت فيها أكثر الأمور العشرة كالامتلاء والقوة والمزاج والسمنة والسن (يقصد سن الشباب) والفصل وهواء البلد والعادة والأعراض الملائمة [٢] فدعوت فصاداً وأمرته بفصد عرق الباسليق فى يديها . ثم أخرجت النساء من حولها ، وقد خرج الدم الفاسد ، وأخذت منها بالإمساك والتسريح ألف درهم من الدم [٣] ، فسقطت المريضة لا تعى . فأمرت بإحضار النار وشويت بجانبها اللحم والطير حتى عبق البيت برائحة الكباب وصعد بخاره إلى دماغها ، فثابت إلى رشدها وتحركت وتأوهت . ثم أعددت لها شرابا مقويا لذيذ الطعم ، وعالجتها أسبوعا حتى استعادت الدم الذى فقدته وزالت عنها العلة وانتظم الحيض عندها . وكنت أناديها بابنتى وكانت تنادينى بأبى ، وهى اليوم منى كأبنائى (٤) .

من ذلك نرى أن المسلمين الأوائل كانوا على دراية بالتشريح ودراسة أعضاء الجسم دراية عميقة تمكنهم من إجراء العمليات الناجحة .

---

(١) كيل أو ميزان وهو يساوى رطلين .

(٢) لعل نظامى عروضى يقصد أن حالتها الاجتماعية تجعلها فى رخاء وسعة من العيش مما يضمن سلامة جسمها وعدم تعرضها للمرض لنقص الغذاء .

(٣) يقصد أنه تحكم فى دورتها الدموية باستنزاف الدم الفاسد وحفظ الدم النقى وظل على هذا النمط حتى بلغ ما استنفده من الدم الفاسد وما استطاع حفظه فى الجسم من الدم النقى نحو ما يساوى ألف درهم . وكان ذلك فى مدة من الزمن تجرى لإجراء العملية بهذا المقدار .

(٤) نظامى عروضى : جهار مقاله ، الترجمة العربية ص ٨٩ — ٩٠ .

ومن أطباء العصر السلجوقى الأول : أبو على يحيى بن جَزْلة الطبيب (ت ٤٩٣ هـ) . وكان نصرانياً فأسلم ، وقد صنف كتاب « المنهاج » فى الطب[١] .

ومن مشهورى الأطباء : أبو الحسن المختار بن بُطْلان (بضم الباء وسكون الطاء) . ولد ببغداد فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، وسافر فى رحلات علمية إلى مصر والقسطنطينية وسورية ، وألف كثيراً من الكتب فى الطب ، نخص بالذكر منها كتاب « دعوة الأطباء » .

وقد ذكر ابن بطلان فى هذا الكتاب أنه دعا طبيباً لتناول الغداء معه وسماع درسه عن الطب . وحينما جلسا إلى المائدة أخذ ابن بطلان يشرح خواص ما قدم لضيفه من ألوان الطعام . وقد اشتملت هذه الألوان على اللحوم والسمك والشكوريا والأرز والفطير والفاكهة . وبعد أن فرغ كل منهما من تناول الحلوى جاء الخادم بطبق مغطى بقماش ظن المدعو أنه طبق آخر من الحلوى . وقد تملكه الدهش حين رأى الآلات الطبية التى كان يستعملها ابن بطلان ، نذكر منها كليتى الأضراس ، ومكاوى الطحال ، وزراقان الكولنج[٢] ، وقناطير التبويل[٣] ، وملزم البواسير[٤] ، ومجرفة الأذن[٥] ، ومخرط المناخير ، ومخالب التشمير ، ومحك الجرب ، ومنشار المقطع ، وخَشبة الكف ، ومفتاح الرحم[٦] ، ودرج المكاتل وموهمدان المراهم .

ومن مشهورى الأطباء : محمد بن على السمرقندى . وقد عاش فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) وألف كثيراً من الكتب فى الطب ، نذكر منها كتاب « أغذية المرضى » . وقد تناول فيه الكلام على الأمراض والأغذية التى توافق كل مرض ، وكتاب أبقراط وجالينوس وابن سينا والمجوسى (ت ٣٨٤/٩٩٤) . وهذا الكتاب من كتب الطب المشهورة .

ومن مشهورى أطباء هذا العصر أيضاً : هبة الله بن أبى الغنائم (ت ٥٦٠ هـ) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١١٢ .

(٢) هى آلة من آلات الجراحة التى تستعمل بنوع خاص للقولون (المصران الغليظ) .

(٣) هى آلة تستعمل لقياس أمراض المثانة .

(٤) هى آلة أشبه بالمبضع تستعمل للكشف عن البواسير ..

(٥) هى آلة تستعمل لجرف الأوساخ التى تتولد بالأذن .

(٦) هى آلة تستعمل لكشط الزائد بالرحم والتى تمنع الحمل إذا لم تكشط .

روى ابن خلكان[١] عن كتاب خريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الأصفهانى أن هبة الله «سلطان الحكماء»، كما قال: «وهو مقصد العالم فى علم الطب، بقراط عصره وجالينوس زمانه، ختم به هذا العلم، ولم يكن فى الماضيين من بلغ مداه فى الطب».

(ب) الطب فى العصر الفاطمى

وكما زخرت بلاد المشرق بطائفة من الأطباء الذين ضربوا بسهم وافر فى الطب، كذلك حفل المغرب الإسلامى بطائفة من أشهر الأطباء. وقد اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح وقلدوهم المناصب العالية وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط. وقد ساعد ذلك على تقدم الطب الذى أصبح يدرس نظرياً وعملياً فى المارستانات التى كانت أشبه بكليات للطب تخرّج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والكحالين.

وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية، وخاصة السريانية واليونانية، بجانب إلمامه بالطب. وقد أورد القفطى وابن أبى أصيبعة تراجم كثير من الأطباء الذين نبغوا فى العصر الفاطمى، مثل موسى بن العازار الذى نبغ فى عهد المعز، وعلى بن رضوان الذى اشتهر فى عهد العزيز وخلف كثيراً من الكتب فى الطب والفلسفة والمنطق وغيرها.

ومن الأطباء الذين نبغوا فى عصر الأيوبيين (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ) ضياء الدين عبد الله ابن أحمد، وقد ولد بمالقة ببلاد الأندلس، ثم انتقل إلى مصر والتحق بخدمة الملك الكامل وابنه الملك الصالح نجم الدين. وكان كما يقول السيوطى[٢] «أوحد زمانه... انتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته وأماكنه ومنافعه، ومات بدمشق سنة ٦٤٦ هـ.

ومن أشهر أطباء هذا العصر علاء الدين على بن النفيس القرشى، وكان يعد إمام الطب فى زمانه، واشتهر بمؤلفاته الطبية. وهو كما وصفه السيوطى[٣] «أحد من انتهت إليه معرفة الطب» فوق إلمامه بالفقه وعلم الأصول والحديث واللغة والمنطق. وقد توفى سنة ٥٨٧ هـ.

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١١٩.
(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٣٣.
(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٣٣.

وكان أبو القاسم الزهراوى المتوفى بقرطبة سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) أشهر جراحى عصره . وقد ترك كتباً كثيرة فى الطب نذكر منها بحثه الصغير فى الجراحة ، يشرح فيه العمليات الجراحية والآلات الطبية التى تستعمل فى هذه العمليات . وقد وصف عملية شق المثانة وتفتيت الحصاة ، وذكر أنواع الحصى وطريقة تفتيتها وإخراجها والآلات التى تستعمل فى هذه العملية ، كما وصف الأربطة وغيرها من الأشياء التى يستعملها الجراح لتضميد جراح المريض .

وإلى ابن زهر (بضم الزاى وسكون الهاء) يرجع الفضل فى اكتشاف علاج للأمراض الجلدية قدمه إلى الخليفة يعقوب المنصور الموحدى .

وقد قصد الأطباء من كافة أرجاء العالم الإسلامى هؤلاء الأطباء المشهورين لتلقى العلم عليهم ، كما قصدهم المرضى لالتماس الشفاء على أيديهم . وكان المسيحيون يقصدون قرطبة كلما دعتهم الحاجة إلى جراح أو مهندس معمارى أو مطرب كبير . مثال ذلك ما حدث من أن « توتا » ملكة إناقار وندت بولدها سانكو البدين لمعالجته من السمنة فى قرطبة . وكان لنجاح علاجه أثر بعيد فى عقد معاهدة مع المسلمين .

وكما عرف الغرب كثيراً من أطباء الإسلام كمحمد بن زكريا الرازى الذى يعرفه الأوربيون باسم Rhazee الذى أفادوا من مؤلفاته الطبية مثل كتاب « الحاوى[1] » . ذاعت شهرة الرئيس ابن سينا الذى يعرفه الأوربيون باسم Avicenna ، كما اشتهر ابن رُشد الذى ولد بقرطبة وأتم دراسته الطبية فيها . ونبغ فى علوم الطب النظرية ، وتوفى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، وخلف كتابه المشهور المعروف باسم « الكليات » أى كتاب الطب العام ، وشرح كتاب « القانون » لابن سينا .

وقد عرف المسلمون نظام التخصص فى الطب ، وظهر بين أطباء المسلمين وأهل الذمة أطباء تخصصوا فى أعضاء الجسم والجراحة واستعملوا الآلات الطبية فى علاج الأمراض . وقد أطلق على من يشتغل بالطب فى العصور الوسطى لقب « حكيم » . والفلسفة كلمة يونانية معناها الحكمة ، ويطلق على من يزاولها « حكيم » ، لأن الطب كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة . وكان الأطباء بحسب تخصصهم أنواعاً مختلفة : كالطبائعية ،

---

(١) وينقسم اثنى عشر قسما ويقع فى ثلاثين مجلدا .

والكحالين ، والجرائحية والمجبّرين وغيرهم . وقد ذكر ابن القيّم الجوزية[1] أنواع الأطباء والآلات الطبية فى هذه العبارة حيث قال :

« والطبيب فى هذا الحديث يتناول من يطبّ بوصفه وقوله ، وهو الذى يختص باسم الطبائعى ، وبمرودة وهو الكحال ، وبمبضعه ومراهمه وهو الجراح (الجرائحى فى الأصل) ، وبموساه وهو الخاتن ، وبريشته وهو الفاصد ، وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجام ، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبّر وبمكواته وهو الكوّاء ، وبقريته وهو الحاقن . وسواء كان طبه لحيوان أو لإنسان فاسم الطبيب يطلق على هؤلاء كلهم » .

وكان لهذه المبادىء الإنسانية السامية التى قررها الإسلام أثر بعيد فى شفاء الأمراض وتخفيف الآلام . وقد خصّص بعض خلفاء المسلمين أعطيات ثابتة للمجذومين حتى يمتنعوا عن سؤال الناس ويحولوا دون انتشار الأمراض ، وجعل بعضهم فى المساجد خزائن وضعت فيها الأدوية والأشربة وعينوا لها الأطباء لإسعاف المصلين ، وبنوا المارستانات للمرضى وأباحوها للناس من غير تمييز فى الأديان والمذاهب وقدموا لهم العلاج والطعام بدون مقابل . بل لقد اشتهر كثير من أطباء المسلمين بالكرم والعطف على الفقراء والمرضى ، حتى كانوا يعالجونهم ويقدمون إليهم الأدوية والعقاقير ويقومون بالإنفاق عليهم حتى يتم شفاؤهم .

(ز) المدارس الطبية

وقد اهتم العباسيون بنشر الثقافة الطبية وتقدمها بترجمة ما خلفه اليونان ، وتأسيس البيمارستانات أو الكليات والمدارس الطبية والمستشفيات لتخريج الأطباء وعلاج المرضى . ولم تلبث المدارس الطبية أن انتشرت فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية . وحذق المسلمون صناعة الطب ومرنوا عليها ، وبرعوا فى تشخيص الأمراض ، ووصفوا الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها . واعتمدوا فى علاج المرضى على ما كسبوه من تجارب ، وما يستتبع ذلك من وضع المؤلفات الطبية فى الأدوية والعقاقير وفى أعضاء الجسم ووظائفه .

كما دعا المسلمون إلى عقد المؤتمرات الطبية التى كان يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد الإسلامية فى موسم الحج ، حيث يقدمون نتائج أبحاثهم ويعرضون نباتات بلادهم ويصفون

---

(١) زاد المعاد ص ١١٠ .

خواصها الطبية ، وأصبحت بغداد فى الشرق وقرطبة فى الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية .

وقد اعتمدت معاهد الطب العملية أو المارستانات على نظام معاهد الطب الأجنبية ، فقد اقتبس المسلمون فكرة المارستان عن السريان فى العصر العباسى الأول لتفوقهم فى مهنة الطب . وكان يطلق على مدير المارستان إذا كان سريانى الأصل اسم « الساعور » ومعناها بالسريانية متفقد المرضى . أما إذا كان مسلماً أطلق عليه اسم رئيس الأطباء ، وهو الذى يشرف عليهم ويأمر بممارسة مهنة الطب(١) .

وكان أبو منصور عبد الملك بن يوسف من علماء عصره ، وقد تسلم المارستان العضدى الذى بناه عضد الدولة البويهى بعد أن تطرق إليه الخراب ، فجدد عمارته وعين له ثمانية وعشرين طبيباً ، وثلاثة من الخزان ، واشترى له الأملاك التى يصرف رَيْعها على إدارة هذا المارستان الذى لم يكن له قبل ذلك طبيب ولا خزانة دواء . وقد اشتهر أبو منصور بأعمال البر وفعل الخير وإغداق الصلات على الناس . وكان يلقب بالشيخ الأجل ، ذلك اللقب الذى لم يلقب به أحد سواه فى زمانه ، ومات سنة ٤٦٠ هـ(٢) .

وقد عنى صلاح الدين الأيوبى ببناء المارستانات فى مصر . وفى مدينة مراكش بنى الخليفة المنصور الموحدى المارستان الذى وصفه عبد الواحد المراكشى(٣) فقال إنه يمتاز بالنقوش البديعة والزخارف المحكمة ، وأقيمت فيه الصيدليات وأجريت المياه المتفجرة وغرست الأشجار المزهرة والأشجار المثمرة ، وزود بثياب للمرضى من الصوف والكتان والحرير . ولم يقصر يعقوب المنصور هذا المارستان على الفقراء دون الأغنياء ، بل كان كل من مرض بمدينة مراكش نقل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت . وكان يعقوب المنصور يركب بعد صلاة الجمعة فيعود المرضى ويسأل عن أهل كل غرفة فيقول : كيف حالكم ؟ وكيف القومة عليكم ؟ (٤) إلى غير ذلك من الأسئلة ليقف بنفسه على أحوالهم (٥) .

---

(١) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الإسلام ص ١٩ ، ٢٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢١ — ٢٢ .

(٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٤) يقصد أطباء المارستان أو المستشفى والممرضين والخدم .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

٢ — الفلك والنجوم

(١) الفلك والنجوم فى العصر العباسى الثانى .

كان لعلم النجوم كما كان لغيره من العلوم العقلية فى العصور الوسطى أهمية فى المشرق وفى المغرب الإسلامى على السواء ، حتى إن علماء الدين كانوا يولونه اهتماما خاصا ، بل إنهم كانوا ينصرفون إلى دراسته والتبحر فيه ، لأن الخلفاء والأمراء والسلاطين كانوا لا يبرمون أمورهم ولا يقدمون على خوض غمار الحروب دون الرجوع إلى آراء المنجمين وكانت الجيوش لا تسير إلى ميادين القتال إلا فى الوقت الذى يقع عليه اختيار المنجمين .

وقد ذكر أبو الريحان البيرونى (ت ٤٤٠ / ١٠٤٨) فى كتاب « التفهيم فى صناعة التنجيم » [١] أن المنجم يجب أن يلم بأربعة علوم هى الهندسة والحساب والهيأة والأحكام . فى الهندسة يجب على المنجم أن يدرس كتاب أوقليدس الذى نقحه ثابت بن قرة ، وفى الحساب يدرس كتاب « أرثماطيقى » ليلم بأصول الحساب ، وأن يدرس فروع هذا العلم فى « تكملة أبى منصور البغدادى » المتوفى سنة ٤٢٩/١٠٣٧ أو « صد باب » (مائة باب) السجزى [٢] . والهيئة علم يعرف به أحوال العالمين العلوى والسفلى ، وأحوال حركات الكواكب والأفلاك ويجب على المنجم أن يدرس كتاب « المجيسطى » وأحسن تفاسيره وشروحه . مثل « تفسير النيريزى » [٣] « ومجسطى الشفا » . وفروع هذا العلم هى علم الزيجات وعلم التقاويم . ويقصد بالأحكام الاستدلال على أشكال الكواكب بقياس بعضها إلى بعض وأحوال أدوار العالم والممالك والبلدان والمواليد والتحاويل وغيرها . ويجب على المنجم أن يدرس تصانيف أبى معشر البلخى [٤] ، وأحمد بن عبد الجليل السجزى ، وأبى الريحان البيرونى وكوشيار الجيلى [٥] .

---

(١) هو كتاب فى مقدمات علوم الهيئة والهندسة والعلوم ألفه البيرونى سنة ٤٢٠ / ١٠٢٩ (وقيل سنة ٤٢٥ / ١٠٣٣) بالعربية والفارسية .

(٢) من مشاهير الرياضيين والمنجمين فى القرن الرابع الهجرى . وقد عاش معظم حياته تحت رعاية عضد الدولة البويهى فى شيراز (٣٣٨ — ٣٧٢ هـ) . ومن مؤلفاته كتاب « الجامع الشاهى » فى النجوم والطالع وغيرها .

(٣) كان إمام عصره فى العلوم الرياضية ، وكان معاصراً للمعتضد العباسى (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) . ومن كتبه تفسير مجسطى بطليموس . وينتسب إلى نيريز وهى بلد بفارس .

(٤) من مشاهير منجمى القرن الثالث الهجرى ، وكان معاديا ليعقوب بن إسحاق الكندى . وقد توفى أبو معشر فى شهر رمضان سنة ٢٧٢ / ٨٨٦ وقد جاوز المائة .

(٥) ينسب إلى بلاد جيلان وهو من مشاهير المنجمين والفلكيين فى عصره . وقد عاش فى =

« وينبغى أن يكون المنجم طيب النفس زكى الخَلْق رضى الخُلُق . . . وينبغى أن يكون طالع النجم الذى يريد أن ينبىء بالأحكام فى سهم الغيب أو فى مكان ملائم منه[١] . ومن توفر له برج سهم الغيب كان مسعوداً ، وكان مكانه محموداً ووقع ما يقول قريبا من الصواب . ويجب على المنجم أن يعلم « مجمل أصول كوشيار »[٢] وأن يداوم قراءة « كار مهتر »[٣] ، وأن ينظر فى « قانون المسعودى »[٤] و « جامع شاهى » .

وقد ذكر ابن الأثير[٥] أن قتلمش جد أمراء السلاجقة أصحاب قونية وقيصرية وملطية فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ثار على السلطان ألب أرسلان وهدد الرى فجمع السلطان جيشاً عظيما أحل به الهزيمة فى سنة ٤٦٥ هـ . وكان قتلمش يتقن علم النجوم ، فنظر أن طالعه فى ذلك اليوم قد قارنه النحس ، فحملت به الهزيمة ومات من يومه . وقد أضاف ابن الأثير إلى ما تقدم أن أولاد قتلمش قد حذوا حذو أبيهم فى دراسة علم النجوم » .

وقد روى نظامى عروضى السمرقندى[٦] قصة الحكيم الموصلى المنجم . وكان الوزير نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى يرجع إلى رأيه . ولما تقدمت به السن طلب من الوزير أن يعفيه من عمله ليذهب إلى نيسابور فيقيم بها على أن يبعث إليه تقويماً وتحويلا فى كل عام . وقد طلب منه الوزير أن ينظر فى تقويمه فينبئه بالوقت الذى يموت فيه . فقال الحكيم الموصلى : « بعد وفاتى بستة أشهر » .

وكان نظام الملك يسأل كل من يأتى من نيسابور عن حال الموصلى المنجم ، فإذا علم أنه سليم معافى « اعتدل طبعه وطاب قلبه إلى أن كانت سنة خمس وثمانين وأربعمائة

= النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . ومن مؤلفاته كتاب « مجمل الأصول » (مكتبة المتحف البريطانى ٤٩٠ Add ورقة ٢٢ ب .

(١) يعنى بذلك أن يكون المنجم قد ولد فى أحد الأبراج التى تشير إلى السعادة أو ترمز إلى الغيب .

(٢) هو مجمل الأصول لكوشيار . وتوجد منه نسخة ممتازة فى المتحف البريطانى ٧٤٩٠ .Add

(٣) كارمهتر اسم كتاب فى النجوم ألفه حسن بن الخصيب من حذاق المنجمين وكان معاصرا ليحيى بن خالد البرمكى .

(٤) هو من أنفس كتب البيرونى فى علمى الهيئة والنجوم ، وقد ألفه بين سنتى ٤٢٢ و ٤٢٧ هـ (١٠٣٠ — ١٠٣٦ م)باسم السلطان مسعود الغزنوى . ويشتمل هذا الكتاب على إحدى عشرة مقالة ، كل مقالة مقسمة إلى أبواب . وفى المتحف البريطانى نسخة ممتازة تشتمل على ٢٦٢ ورقة .
انظر تعليقات الأستاذ ميرزا محمد على كتاب جهار مقاله ، الترجمة العربية ص ١٤٦ — ١٥٢ .

(٥) الكامل ج ١٠ ص ١٣ — ١٤ .

(٦) جهار مقاله ص ٦٨ — ٦٩ .

(١٠٩٢ — ١٠٩٣ م) ، فقدم قادم من نيسابور فسأله الوزير عن الموصلى ، فتقدم الرجل بالتحية ثم قال : ليبق صدر الإسلام وارثا للأعمار ، لقد مات الموصلى . فقال الوزير : متى ؟ قال الرجل : ذهب فداء لصدر الإسلام فى نصف ربيع الأول . فتفطر قلب الوزير الكبير ، وأفاق فأعاد النظر فى أعماله وفى سجل الأوقاف ، ووقع الأمر بصرف الخيرات ، وكتب الوصية وحرر من رضى عنه من عبيدة وفى دَيْنِـه ، وأسعد كل من استظل بسلطانه ، وطلب العفو من خصومه ، وبقى ينتظر الموت حتى كان رمضان ، فاستشهد على يد تلك الجماعة[١] فى بغداد[٢] أبار الله برهانه وأسبغ عليه رضوانه » .

وكان الوزير نظام الملك مولعا بعلم النجوم مشجعاً للمنجمين . فقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٦٧ هـ أن نظام الملك والسلطان ملكشاه السلجوقى جمعا جماعة من أعيان المنجمين فجعلوا النوروز أول نقطة من « الحمل » وكان قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت ، وأصبح هذا العمل مبدأ التقويم .

وفى هذه السنة عهد السلطان ملكشاه إلى مظفر الاسفزارى بعمل الرصد ، فقام جماعة من عظماء المنجمين ومن بينهم عمر الخيام وميمون بن النجيب الواسطى وغيرهم بعمل التقويم الجلالى المعروف بالرصد الملكشاهى[٣] . وقد بقى هذا الرصد حتى مات السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ .

ويعتبر عمر الخيام بالإضافة إلى شهرته من مشاهير الفلاسفة والرياضيين فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس . وكان متبحراً فى الفقه عالماً باللغة والتاريخ . وكان أحد واضعى الزيج الملكشاهى . وقد ذاع صيته فى الشرق والغرب بفضل رباعياته . وكان ملكشاه السلجوقى يبزله منزلة الندماء ، ويعظمه الخاقان شمس الملوك فى بخارى غاية التعظيم ويجلسه على سريره . وكان صديقاً لنظام الملك وحسن الصباح [٤] .

ويروى نظامى عروضى[٥] أن عمر الخيام ومظفر الاسفزارى نزلا دار الأمير أبى سعيد فى مدينة بلخ سنة ٥٠٦ هـ . وكان نظامى عروضى متصلا بهذا الأمير ، فسمع عمر الخيام

---

(١) يعنى الباطنية أو النزارية أتباع الحسن بن الصباح .

(٢) اتفق المؤرخون على أن نظام الملك قتل فى نهاوند .

(٣) انظر نظامى عروضى : جهار مقاله تعليقات ميرزا محمد ـ الترجمة العربية ص ١٦٠ هامش رقم ١٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٥) المصدر نفسه ص ٦٩ — ٧٠ .

يقول أثناء مجلس السمر : « سيكون قبرى فى موضع تؤرّجه ريح الشمال بشذى الورد كل ربيع » . وقد أضاف نظامى عروضى أنه لمازار نيسابور سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥ - ١١٣٦م) وقد مرت أربع سنين على وفاة الخيام ، ذهب لزيارة قبر أستاذه يوم الجمعة ، فرأى قبره أسفل جدار بستان قد أطلّت منه أشجار الكمثرى والمشمش ، وقد تناثر على القبر كثير من الزهر حتى غطاه »[١] .

وفى شتاء سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ — ١١١٥ م) أرسل سنجر وهو بمرو رسولا إلى وزيره صدر الدين محمد[٢] يقول له : « قل للإمام عمر (الخيام) يختار بضعة أيام لا يكون فيها ثلج ولا مطر حتى نخرج للصيد . . فذهب الخيام وأعمل جهده يومين واختار وقتاً حسناً ، ثم ذهب بنفسه وسار بصحبة السلطان . فلما ركب السلطان وسار فى طريقه قليلا تجمّعت السحب وهبت الريح وهطل الثلج وانتشر الضباب ، وضحك الرّكب وهمّ السلطان بأن يعود . فقال عمر الخيام : « ليطمئن قلب السلطان فإن المطر سينقطع لساعته ولن تنزل هذه الأيام الخمسة قطرة منه . فسار السلطان وانقشعت السحب . ولم ينزل طلّ فى هذه الأيام الخمسة ، ولا رأى أحد سحابا » .

وعلى الرغم مما بلغه عمر الخيام من شأن فى علم النجوم لم يعتقد فى أحكامها قط ، وربما كان ذلك لسيطرة العقيدة الدينية عليه ، إذ ورد فى الأثر الشريف « كذب المنجمون ولو صدقوا » . وقد علق نظامى عروضى على أحكام النجوم بقوله : إنه برغم انتشارها لا يجوز الاعتماد عليها ولا ينبغى للمنجم أن يمعن فيها ، بل عليه أن يحيل كل حكم يراه على القضاء[٣] . وقد دلّل نظامى عروضى على رأيه الذى يتفق مع رأى أستاذه الخيام بقصة تتعلق بغزنوى كان قليل المعرفة بعلم النجوم ، وكانت النساء يجتمعن حوله ليكتب لهن تعاويذ فى الحب . وقد طلب السلطان من المنجمين أن يختاروا له طالعاً إذ عزم على

---

(١) اختلف المؤرخون فى سنة وفاة عمر الخيام، فقيل سنة ٥١٧ هـ وقيل سنة ٥٢٦ هـ . ويظهر أن التاريخ الثانى أقرب إلى الصواب لأنه يتفق مع ماذكره نظامى عروضى عن أستاذه الخيام حيث يقول : (ص ٦٩ — ٧٠) « فلما بلغت نيسابور سنة ثلاثين وخمسمائة وقد خلت أربع سنوات على إيداع هذا الرجل العظيم الثرى » .

(٢) ابن فخر الملك أبى الفتح المظفر بن نظام الملك ، وقد قتل سنجر أباه فخر الملك ، وكان وزيره سنة ٥٠٠ / ١١٠٦ ، ثم أسند الوزارة إلى صدر الدين وقتله سنه ٥١١/١١١٧ بيد أحد المماليك .راجع ابن الأثير : الكامل فى حوادث سنة ٥١٣ هـ

(٣) نظامى عروضى ص ٧٠ .

حرب صدقة بن مزيد أمير الحلة حين ثار الخلاف بينهما . ولما يئس السلطان من عجز المنجمين على اختيار الطالع ، تقدم هذا الغزنوى عن طريق أحد خدم السلطان ومثل بين يديه وأعد له الاختيار وشجعه على المسير على حرب صدقة .

ولما انتصر السلطان على صدقة عاب على عظماء المنجمين إخفاقهم فى إعداد الاختيار ، ولكنهم عابوا اختيار هذا المنجم الغزنوى ودبروا طريقة لكشف أمره . فأمر السلطان أحد ندمائه بأن يدعو المنجم الغزنوى ويشرب معه الخمر حتى تلعب بلبه ثم يسأله . فقام النديم بتنفيذ الأمر وسأل هذا المنجم فأجاب : « إنى علمت أن هذا الأمر لا يعدو واحداً من اثنين : إما أن يهزم هذا الجيش أو ذاك ، فإن هزم ذلك الجيش لقيت التشريف ، وإن حلت بهذا الهزيمة فمن ذا يبالى بى ؟ »[١] . وهذا يدل على أن البعض يحترف التنجيم وهو غير عالم بأصوله ، كما يدل كذلك على أن أخبار المنجمين غير صادقا فى بعض الأحيان .

ومن أشهر علماء النجوم فى العصر السلجوقى أبو القاسم هبة الله المشهور بالبديع الأسْطُرْلابى[٢] . وكان كما يقول ابن خلكان[٣] « وحيد زمانه فى علم الآلات الفلكية متقناً لهذه الصناعة » . وقد اشتهر فى عهد الخليفة المسترشد العباسى ، ومات فى سنة ٥٣٤ هـ .

(ب) الفلك والنجوم فى مصر والمغرب .

كان لعلم النجوم أثر كبير فى توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتمدون على التنجيم فى تنفيذ سياستهم . فقد رأينا كيف اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم فى تأسيس مدينة بغداد ، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسى للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم الذى أخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها .

وقد اختار الإسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم فى بلاد اليمن ، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون له شأن فى نشر هذه الدعوة فى هذه البلاد[٤] ، كما استعان جوهر

---

(١) نظامى عروضى : جهار مقاله ص ٧١ — ٧٢ .

(٢) نسبة إلى الاسطرلاب (بضم الهمزة وسكون السين وضم الطاء). وهى كلمة يونانية معناها ميزان الشمس ، إذ كان الاسطرلاب آلة توزن بها أشعة الشمس فى مواقيت مختلفة ويستعان بها فى معرفة كثير من نتائج علم التنجيم القائم على أبراج الشمس وهى الحمل (بفتح الحاء والميم) . والمريخ والسرطان وغيرها . وقيل إن أول من وضع الاسطرلاب هو بطليموس المجسطى .

(٣) وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن (طبعة هنرى كاسيل ، لندن ١٨٩٢) ص ١٤٠ .

الصقلى بالمنجمين ليختاروا له طالعا سعيداً لوضع أساس مدينة القاهرة [١] ، واهتم الحاكم بعلم النجوم حتى إنه أنشأ بسفح المقطم فى القاهرة رصداً أطلق عليه « الرصد الحاكمى » .

وكان حكام المغرب يهتمون بعلم النجوم فى عهد المرابطين السنيين . وفى عهد الموحدين الذين كان مذهبهم يميل نحو الاعتزال والتشيع . ففى عهد المرابطين نرى مالك بن وُهَيْب (بضم الواو وفتح الهاء وسكون الياء) رئيس العلماء قد أخذ بحظ وافر من علم النجوم : إذ كان حزاء [٢] ينظر فى النجوم . وكان الكهان [٣] يتحدثون بأن ملكا من الملوك كائن بالمغرب لأمة من البربر . فقال مالك بن وهيب للسلطان على بن يوسف بن تاشفين المرابطين (٥٠٠ — ٥٣٧ هـ) محذراً إياه من ابن تومرت بأنه الرجل الذى يقصده الكهان : « احتفظ بالدولة من الرجل » [٤] .

على أن مذهب الموحدين يرتكز على القرآن والسنة كما يقول الخليفة يعقوب المنصور (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) فى إحدى جلساته : « وليس لنا إلا هذا » ، مشيراً إلى المصحف الشريف « أو هذا » ، مشيراً إلى كتاب آخر من أمهات كتب الحديث .

ومع هذا فقد كان لعلم النجوم أهمية خاصة فى نظر الموحدين ، إذ كانوا يعتمدون فى أعمالهم على الجفر [٥] (بفتح الجيم وسكون الفاء) ، وفى طليعتهم المهدى محمد بن تومرت

---

(١) ابن الجيعان : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٦ ص ٣٥ . رموز وطلاسم مقلقة لا يدركها إلا العالمون بطرائقها . وظاهر القرآن الكريم يبطل زعم المؤمنين بهذه الجفور وما جاء بها من الغيبيات. إذ يقرر القرآن الكريم أن علم الغيب يختص بالله سبحانه وتعالى ، كما ذكر ذلك فى آيات كثيرة . من ذلك قوله تعالى فى سورة النمل (٢٧ : ٦٥) : (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون) ، وقوله تعالى فى سورة هود (١١ : ١٢٣) . (ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) .

انظر عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٨٩ — ٩١ .

(٢) أى متطلعا ومتابعا لرصد النجوم .

(٣) جمع كاهن وهو عالم من علماء الدين عند غير المسلمين ، والمقصود به هنا علماء النجوم .

(٤) ابن خلدون : العبر (طبعة بيروت) ج ٦ قسم ٢ ص ٤٦٩ .

(٥) الجفور جمع جفر . والجفر من أولاد الماعز ما بلغ أربعة أشهر . وكان القدماء يكتبون على جلود أولاد الماعز ويسمون هذه الجلود جفور على سبيل التجوز . وقد زعمت الخطابية (وتنسب إلى أبى الخطاب محمد بن زينب الأسدى) أن جعفر الصادق الإمام السادس عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية أودعهم جفراً فيه علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، كما زعموا أنه لا يقرأ فيه إلا من كان منهم . ولما أعلن أبو الخطاب أن الأئمة أنبياء ثم آلهة (الشهرستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ١١ ، ١٥) ، وقال أتباعه بألوهيته (البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٣٨) تبرأ منه الإمام جعفر الصادق (الشهر =

صاحب الدعوة الموحدية ، حتى لقد قيل إنه أقر عبد المؤمن على الجيش بعد أن رأى ذلك فى الجفر . ويظهر هذا الاعتقاد واضحا فى المذهب الموحدى ، لأن صاحب الدعوة الموحدية ادعى المهدوية التى تعد أصلا وهدفا عند الشيعة الذين اعتمدوا فى أخبارهم الغيبية على الجفور كما يتضح ذلك من خطبة المأمون الموحدى. وإن كان قد أنكر المبادىء الموحدية لم ينكر الأخذ بالتنجيم القائم على الجفور فى أغلب الأحيان . لذلك نراه يقول فى إحدى خطبه : « لا تظنوا أنى أنا إدريس الذى تندرس دولتكم على يده . كلا إنه سيأتى بعدى إن شاء الله » ، مشيراً بذلك إلى الإخبار بالغيب .

٣ — الرياضيات

ومن العناصر الأساسية فى قيام الثقافة الكتابة والعدد لتيسير طرق التفاهم ووسائل التعاون بين الناس . وهما يعتبران عنصرين هامين كان لهما أثر كبير فى الثقافة الأوربية . وكان العرب وسطاء فى تيسير الكتابة ونشرها فى الغرب . فالحروف الأبجدية الحالية مأخوذة رسما واسما عن السامية ، إما مباشرة أو عن طريق الفينيقيين . وقد عجز الخط اليونانى عن مجاراة الخط السامى وما طرأ عليه من تطور فنى عظيم .

والغرب مدين للشرق بنظام العدد العربى . ونحن ندرك قيمة الأعداد العربية إذا ذكرنا العلوم الرياضية والميكانيكية والفلكية الحديثة فى عمليات جمع أو طرح أو ضرب أو قسمة بحروف رومانية مثل CL XXXV·II . وإننا لندرك صعوبة وضع هذا العدد على غلاف كتاب ، كما كانت الحال قبل سنة ١٨٨٨ . كما نرى أن استخدام الأعداد الرومانية مصدر أخطاء مطبعية جسيمة . والأعداد العربية المستعملة فى الشرق العربى الآن هندية الأصل . أما الأعداد العربية الأصل فهى المستعملة بالمغرب العربى الآن . وقد اقتبسها الأوربيون عن طريق الأندلس والمغرب . وكان العرب وسطاء فى نقل هذه الأعداد إلى الأوربيين بدليل كتابتها من اليسار إلى اليمين ، بخلاف ما نراه فى كتابة الحروف الأبجدية فى معظم اللغات السامية ، أى من اليمين إلى اليسار .

= ستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ١٦) وانتهى الأمر بقتل أبى الخطاب على يد عيسى بن موسى فى عهد أبى جعفر المنصور .

انظر عبد الله علام : الدعوة الموحدية ص ٨٩ ، ٩٠ — ٩١ .

أما ترتيب كتابة الأعداد والصفر فهو من اختراع الهنود الذين أخذ الناس عنهم علم النجوم . ولم يعرف الأوربيون الصفر الذى هو من اختراع الهنود أيضاً . فإن أوربا لم تعرف شيئاً عنه قبل منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، على حين تحدثنا المصادر العربية أن المسلمين كانوا يعرفونه منذ زمن طويل . وكانوا يسمونه حلقه ومعناها لا شىء أو عدم وجود القيمة التى يعبر عنها المسلمون بالصفر الذى يضعه المشتغلون بعلم الحساب على العدد المعدوم . وأما لفظ Zero فهو العربى صفر بمعنى « خلا » . وقد استخدم مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتى المعروف « صفر » للتعبير عن ضعف الأساقفة أمام البابا ، فقال ما معناه إنهم يجلسون أمامه كالأصفار . واستخدام لفظ Zero للدلالة على لا شىء . ويعبر عن الصفر أحيانا بواسطة دائرة صغيرة ، وأحيانا بواسطة نقطة .

وقد استخدم الصفر للمرة الأولى كوحدة حسابية ، واستخدم لفظ صفر فى الشعر الجاهلى للتعبير عن معنى « خلا » كما يتضح ذلك من هذا البيت :

ترى أن ما أهلكتُ لم يك ضرّنى وأنّ يدى مما بخلت به صفرُ
(أى خالية)

٤ — الفلسفة

(ا) أبو حامد الغزالى (ت ٥٠٥/١١١١)

تأثر مسيحيو الأندلس بدراسة القرآن والحديث ، وكانوا يكتبون العربية ويتكلمون بها ، كما أعجبوا بالدراسات الإسلامية وتأثروا بآراء الفلاسفة الإسلاميين . وقد أخذ الأوربيون عن المسلمين حكم الفلاسفة بعد أن درسوا مؤلفات الكندى المتوفى سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ م) فيلسوف العرب ، وأبى نصر الفارابى (ت ٣٣٩/٩٥٠) الذى لقب المعلم الثانى تمييزاً له عن أرسطو الذى لقب المعلم الأول . وكذلك أدخل مسيحيو الأندلس مؤلفات الرئيس أبى على بن سينا (ت ٤٢٩/١٠٣٧) الذى نبغ فى الفلسفة والطب وأحيا آثار أرسطو وأفلاطون فى الفلسفة وأبقراط وجالينوس فى الطب ، وقصده المرضى من كل فج كما جذبه الأمراء إليهم .

كما درس الأوربيون مؤلفات أبى بكر الرازى الذى يعرفونه باسم Phrazes ، ومؤلفات حجة الإسلام الغزالى (ت ٥٠٥/١١١١) فى المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة .

وعن التصوف الإسلامى أخذ الأوربيون نظام التصوف ونظام الدراويش . وتتفق الفلسفة المسيحية فى العصور الوسطى مع الفلسفة الإسلامية تماماً . والتصوف الأوربى ،

والألمانى بوجه خاص ، أقرب إلى التصوف الإسلامى والفارسى بصفة عامة ، منه إلى تصوف العالم القديم . والراهب الغربى والدرويش فى الشرق يتبعان فى حياتهما نظاماً خاصاً وضعه مؤسس الطريقة التى يتبعها الراهب أو الدرويش ، ولو أن هناك بعض التباين بين الخلوة والدير . وتعتبر مقدمة ابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٥ — ١٤٠٦) أساس علم الاجتماع الذى أخذه الأوربيون عن المسلمين فى عصر النهضة الحديثة . وقد عالج فى هذه المقدمة نواحى الاجتماع والعمران ونظم الحكم والمذاهب الدينية وغيرها . وابن خلدون أول من كتب فى فلسفة التاريخ .

ويعد أبو حامد محمد الغزالى إمام عصره ووحيد زمانه فى علوم الدين الإسلامى الحنيف ولا سيما فى علم أصول الفقه وعلم الكلام ، كما عرف بحجة الإسلام . وكان الغزالى مصلحاً دينياً واجتماعياً ، فقد ثار على المجتمع وندد بما وصل إليه حال المسلمين فى عصره من الانحراف عن أصول الدين القويم المستمد من كتاب الله وسنة رسوله . فعمل على إيقاظ الفضيلة بين المسلمين ودعا إلى إصلاح المجتمع الإسلامى إصلاحا شاملا لأنه لم يطمئن إلى ما وصل إليه العالم الإسلامى حينئذ من تفكك وانحلال ، فى الوقت الذى كان الصليبيون فى أوربا يتأهبون لاكتساح العالم الإسلامى .

ولد أبو حامد بطوس من أعمال فارس سنة ٤٥٠ هـ ، ثم قدم نيسابور ، واختلف إلى دروس إمام الحرمين الجوينى (بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء) ، وظهرت موهبته العلمية أثناء طلب العلم حتى نال إعجاب أستاذه الذى كان يفخر به ويثنى عليه فى مجالسه العلمية . وكان أبو حامد مقربا إلى أستاذه حتى توفى ، فخرج من نيسابور والتقى بنظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى الذى أعجب بمواهبه وأكرمه وقربه إليه . وقد لمع اسم الغزالى فعهد إليه الوزير بالتدريس بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ هـ . وكانت هذه المدرسة تعد أعظم المعاهد العلمية العالية . وقد ظهر نبوغ الغزالى وعم به النفع عند تلاميذه وعلماء عصره .

ويبدو أن سعة اطلاع أبى حامد الغزالى وتبحره فى العلم قد سما به نحو عالم الروح ، حيث مال إلى حياة الزهد والتقشف والعزلة ، فترك التدريس بالمدرسة النظامية وحج بيت الله . ولما أدى مناسك الحج قصد دمشق حيث أخذ يدرس علوم الدين فى زاوية المسجد . ثم انتقل إلى بيت المقدس وانصرف إلى العبادة وعاش عيشة المتصوفة ، وأخذ يتردد على المشاهد والأماكن المقدسة . ثم قصد الغزالى مصر وأقام بالإسكندرية حيث التقى بالفقيه

المشهور أبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك . وكان الطرطوشي يقوم بالتدريس في هذه المدينة التي أقام بها حتى وفاته .

وقد ذكر ابن خلكان[١] أن أبا حامد الغزالي عزم على الرحيل إلى المغرب الأقصى لزيارة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطي بعد انتصاره في موقعة الزلاّقة المشهورة على نصارى الأندلس ، وكسب بهذا الانتصار مكانة أدبية في العالم الإسلامي ، حتى إنه لما طلب إلى الخليفة العباسي إقراره على ملك المغرب والاعتراف له بلقب أمير المسلمين ، جمع الخليفة مجلساً ضم العلماء برياسة حجة الإسلام أبي حامد الغزالي الذي أفتى باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب لما أحرزه من نصر مؤزر على مسيحي الأندلس .

وقد عزم أبو حامد الغزالي على ركوب البحر إلى المغرب ، ولكنه عدل عن ذلك بعد أن بلغه نبأ وفاة يوسف بن تاشفين (٥٠٠ هـ) ، فعاد إلى طوس وانصرف إلى الاشتغال بالعلم ، ثم طلب إليه الوزير فخر الملك بن نظام الملك بمهمة التدريس بالمدرسة النظامية بنيسابور ، فلبى الإمام الغزالي طلب الوزير بعد تردد ، وظل يعمل بهذه المدرسة حتى عاد إلى مسقط رأسه طوس حيث وافته منيته (٥٠٥ هـ)[٢] .

وقد خلف لنا الغزالي آثاراً علمية خالدة . وقد قيل إنه وضع نحواً من مائتين وثمان وعشرين مؤلفاً أكثرها في الدين والفلسفة والتصوف والتاريخ . ومن أهم آثار الغزالي العلمية :

(١) إحياء علوم الدين ويعد من أهم كتب الغزالي . وقد عم به النفع في البلاد الإسلامية وغيرها . وقد نعى الغزالي في مقدمته ما صار إليه الإسلام من افتقاد علمائه الذين وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « العلماء ورثة الأنبياء » ، وهم الذين يقول فيهم الغزالي : « قد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون (المقلدون) . وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفاً به ؛ فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، حتى ظل عَلَم الدين مندرساً ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً . . . فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله

---

(١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

(٣) أودعت من هذا الكتاب نسخ خطية بمكتبات فينا وبرلين وليدن وباريس ولندن وأكسفورد ، وهناك نسخة خطية بدار الكتب المصرية في القاهرة .

سبحانه فى كتابه فقهاً وحكمة وعلماً وضياء ونوراً وهداية ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسياً . ولما كان هذا ثلماً فى الدين ملمّا ، وقد رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما ، إحياء لعلوم الدين وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحاً لمناهى العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين »[١] .

من هذا نرى أن الغزالى وضع كتابه ليلفت أنظار المسلمين إلى أصول دينهم القويم ، ومشيراً إلى ماحل بالإسلام من انصراف أهله إلى شئون الدنيا وإهمالهم شعائرهم الدينية ، وما نص عليه القرآن الكريم من مثل عليا وآداب اجتماعية عالية ، وما انطوى عليه الحديث الشريف من قواعد دينية قويمة وحكم عالية رفيعة .

وقد نهج الغزالى فى تقسيم كتابه نهجاً واضحاً ، إذ قسمه إلى أربعة أرباع سماها ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات . وقد صُدِّرت جميع هذه الأرباع بكتاب العلم الذى يقول فيه الغزالى إنه غاية المهم . لأكشف أولا عن العلم الذى تعبّد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيانُ إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم »[٢] وأميِّز فيه العلم النافع من الضار . إذ قال صلى الله عليه وسلم : « تعوذ بالله من علم لا ينفع وأحقق ميل أهل العصر عن مشاكلة الصواب وانخداعهم بلامع السراب واقتناعهم من العلم بالقشر عن اللباب » .

ويشتمل ربع العبادات على عشرة أبواب هى :

(١) كتاب العلم (٢) كتاب قواعد العقائد (٣) كتاب أسرار الطهارة (٤) كتاب أسرار الصلاة (٥) كتاب أسرار الزكاة (٦) كتاب أسرار الصيام (٧) كتاب أسرار الحج (٨) كتاب آداب تلاوة القرآن (٩) كتاب الأذكار والدعوات (١٠) كتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات .

وكذلك يشتمل ربع العبادات على عشرة أبواب هى :

(١) كتاب آداب الأكل (٢) كتاب آداب النكاح (٣) كتاب أحكام الكسب[٣] (٤) كتاب الحلال والحرام[٤] (٥) كتاب أدب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين (طبعة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ١٣٤٨ هـ) ج ١ ص ٣ .
(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٣ .
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٥ — ٦٥ .
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٩ — ٨٤ .

(٦) كتاب العزلة (٧) كتاب آداب السفر (٨) كتاب السماع والوجد (٩) كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (١٠) كتاب المعيشة وأخلاق النبوة .

كما يشتمل ربع المهلكات على عشرة أبواب هى :

(١) كتاب شرح عجائب الخلق (٢) كتاب رياضة النفس (٣) كتاب آفات الشهوتين (شهوة البطن وشهوة الفرج) (٤) كتاب آفات اللسان (٥) كتاب آفات الغضب والحقد والحسد (٦) كتاب ذم الدنيا (٧) كتاب ذم المال والبخل (٨) كتاب ذم الجاه والرياء (٩) كتاب ذم الكِبْر والعُجْب (١٠) كتاب ذم الغرور .

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب كذلك وهى :

(١) كتاب التوبة (٢) كتاب الصبر والشكر (٣) كتاب الخوف والرجاء (٤) كتاب الفقر والزهد (٥) كتاب التوحيد والتوكل (٦) كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا (٧) كتاب النية والصدق والإخلاص (٨) كتاب المراقبة والمحاسبة (٩) كتاب التفكر (١٠) كتاب ذكر الموت[١] .

(٢) كتاب المنقذ من الضلال

ويعد هذا الكتاب من أهم آثار الغزالى العلمية ، ويعرض لمسائل علمية هى فى جملتها من المسائل المتعلقة بالفلسفة ، إذ يتناول موضوعات : الشك — انتقاد الفرق — النبوة والإصلاح الدينى — مداخل السفسطة وجُحْد العلوم — علم الكلام ومقصوده وحاصله — الفلسفة وأصناف الفلاسفة ووصمة الكفر — الدهريون، الطبيعيون — الإلهيون — أقسام علوم الفلسفة (الرياضيات — المنطقيات — الطبيعيات) — الإلهيات — السياسيات — الخُلقيات — آفتا الفلسفة (آفة الرد — آفة القبول) — مذهب التعليم وغائلته — طريق الصوفية — حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها — سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه[٢] .

ويطول الكلام إذا حاولنا التعليق على جميع مؤلفات الغزالى ، ونكتفى بطائفة من أسمائها مثل :

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣ — ٤ .

(٢) الغزالى : كتاب المنقذ من الضلال (مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٤) ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(١) آداب الصوفية[١] ، وقد طبع بمصر .

(٢) أيها الولد ، وقد كتبه لبعض تلاميذه ويتضمن نصائح ووصايا فى الزهد والترغيب والترهيب .

(٣) بداية الهداية[٢] .

(٤) تهذيب النفوس بالآداب الشرعية .

(٥) جواهر القرآن ودرره[٣] .

(٦) خلاصة التصانيف . وقد ألفه الغزالى بالفارسية ، وترجمه إلى العربية محمد أمين الكردى (ت ١٣٣٢ هـ) .

(٧) الرسائل القدسية فى قواعد العقائد (الإسكندرية دون تاريخ) .

(٨) فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية ، ويسمى المستظهرى[٤] .

(٩) أسرار الحج فى الفقه الشافعى (القاهرة دون تاريخ) .

(١٠) تهافت الفلاسفة[٥] .

(١١) معيار العلم فى المنطق (طبع فى مصر سنة ١٣٢٩ هـ)[٦] .

وفى أواخر حياة الغزالى عاد إلى موطنه بطوس واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم فى جواره ، ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ومجالسة الصوفية والتدريس حتى توفى سنة ٥٠٥ هـ كما تقدم[٧] .

وقد أحدثت مؤلفات الغزالى فى المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة أثرها البعيد فى فى الشرق والغرب ، وقام بترجمتها مسيحيو طليطلة فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

---

(١) وقد طبع مع ترجمة ألمانية (فينا ١٨٣٨ ، ١٨٤٢) كما طبع فى مصر ، ومنه نسخ خطية فى مكتبات أوربا ودار الكتب المصرية .

(٢) القاهرة ، ومنه نسخ خطية بمكتبات باريس وبرلين ولندن والجزائر وليننجراد .

(٣) طبع بمكة وبمباى والقاهرة ، ومنه نسخ خطية بمكتبة ليدن ومكتبة المتحف البريطانى ودار الكتب المصرية .

(٤) وقد نشر جولدتسيهر قسما كبيراً منه وقدم له بحثا باللغة الألمانية (ليدن ١٩١٦) .

(٥) وقد طبع فى القاهرة غير مرة ، كما طبع فى بمباى (١٣٠٤ هـ) وترجم إلى العبرية .

(٦) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ٤ — ١٦ .

(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٤ .

(ب) ابن باجة (ت ٥٣٣ / ١١٣٨) .

كانت الأندلس فى نهاية القرن الخامس الهجرى قد انقسمت عدة ممالك صغيرة عرف حكامها بملوك الطوائف ، وكان نصارى الشمال يهددون هذه الممالك حتى جاء المرابطون وقضوا على هؤلاء الملوك الذين انغمسوا فى الترف ، « ولاح إذ ذاك أن زمن الثقافة الرفيعة والبحث الحر قد انقضى » كما يقول دى بور[١] ، ولم يجرؤ على الظهور إلا رجال الدين ولا سيما رجال الحديث ، أما الفلاسفة فقد كانوا عرضة للاضطهاد أو القتل . ويؤيد هذه الحقيقة إحراق كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام أبى حامد الغزالى بأمر أمير المسلمين المرابطى على بن يوسف بن تاشفين .

على أنه برغم هذا نرى الأمير المرابطى أبا بكر بن إبراهيم (صهر السلطان على بن يوسف المرابطى) ، وكان يلى ولاية سرقسطة ، يتخذ أبا بكر بن باجة السَّرَقُسْطى جليساً له ثم يقلده الوزارة . ولكن هذا قد أثار غضب الجند والفقهاء ، وكان بين ابن باجة وبين الفتح بن خاقان عداوة راسخة ، مما حمل ابن خاقان على هجاء ابن باجة فى كتابه « قلائد العقيان »[٢] فقد جعل ابن خاقان ترجمة ابن باجة آخر تراجم كتابه وقال فيه ما نصه :

« الأديب أبو بكر بن الصائغ هو رمدُ عين الدين وكمد نفوس المهتدين ، اشتهر سُخفا وجنوناً وهجر مفروضا ومسنونا »[٣] . فما يتشرَّع[٤] ولا يأخذ فى غير الأضاليل . ولا يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهّر منْ جَنَابة ولا أَظْهر مَخِيلةَ إنابة[٥] ولا استَنْجى من حَدَث ، ولا أَشْجى نؤاده بتَوارٍ فى جَدَث[٦] ، ولا أقرّ بباريه ومصوِّره ، ولا قرّ بقباريه[٧] فى ميدان تهوره[٨] . والإساءة إليه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان . نظر فى تلك التعاليم (يقصد الفلسفة) وفكّر فى أجرام

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة أبى ريدة (الطبعة الثانية) ص ٣٦٦ .
(٢) طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ . انظر ص ٣٠٠ — ٣٠٦ .
(٣) أى أنه هجر الشريعة الإسلامية وما تشتمل عليه من فروض وسنن .
(٤) أى لا يأخذ بالشريعة الغراء .
(٥) أى أنه ما أظهر ميلا للانابة أو التوبة إلى الله .
(٦) أشجى أى حزن والتوار الاختفاء والجدث القبر .
(٧) أى بتسابقه .
(٨) يعنى أنه كان متهورا فى الدين ولم يعترف بتهوره .

الأفلاك وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله الحكيم العليم ، ونبذه وراء ظهره ، ثانى عِطفه [١] وأراد إبطالَ ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [٢]. واقتصر على الهيئة [٣] ، وأنكر أن تكون منه إلى الله تعالى فيئة [٤] ، وحكَم للكواكب بالتدبير ، واجترم على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهى والإيعاد [٥] ، واستهزأ بقوله تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد) [٦] .

وهذا يدل على مدى كراهية الفقهاء للفلاسفة وتشنيعهم بهم وتقبيحهم لآرائهم كما يدل أيضاً على مدى كراهية هذا العصر للفلاسفة واضطهادهم .

لا يعرف الكثير عن حياة ابن باجة الأولى . قيل ولد سنة ٥١٣ هـ (١١١٨ م) حيث عاش بسرقسطة وألف فيها كثيراً من كتبه . ثم رحل إلى غرناطة وقدم على بلاط المرابطين فى فاس حيث مات مسموماً بتدبير أحد حساده . ويذكر المقرى [٧] عن الأمير ركن الدين بيبرس فى كتابه « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » أن ابن باجه « كان عالماً فاضلا له تصانيف فى الرياضيات والمنطق ، وأنه وزر لأبى بكر الصحراوى (يعنى المرابطى) صاحب سرقسطة ، ووزر أيضاً ليحيى بن يوسف بن تاشفين عشرين سنة بالمغرب ، وأن سيرته كانت حسنة ، فصلحت به الأحوال ونجحت على يديه الآمال ، فحسده الأطباء والكتاب وغيرهم وكادوه فقتلوه مسموما » [٨] .

ويكاد ابن باجة يقتفى أثر فيلسوف المشرق الفارابى ، فأحب العزلة مثله وضاق ذرعا بالحياة ، ولم يحاول كالفارابى أن يضع له مذهبا . ورسائله المبتكرة قليلة ، ومعظمها شروح قصيرة لكتب أرسطو وغيرها من مصنفات الفلاسفة [٩] . وبعضهم يرى أن ابن باجة من هواة الفلسفة لا من الفلاسفة . ويكاد ابن باجة يتفق مع الفارابى فى الطبيعة وفيما وراء الطبيعة . وكلاهما متأثر بآراء أرسطو (المعلم الأول) . ومن أمثلة آراء ابن باجة الفلسفية « أن

---

(١) يعنى الملتوى سخرية من الناس وضيقاً بهم .
(٢) أى أنه يريد إبطال كتاب الله .
(٣) أى أنه يؤمن بالطبيعة .
(٤) أى أنه رجع إلى الله .
(٥) يعنى يوم الحساب .
(٦) المقرى : نفح الطيب ج ٩ ص ٢٣٠ — ٢٣١ .
(٧) نفح الطيب ج ٩ ص ٢٤٠ .
(٨) القفطى : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٣ — ٦٤ . دى بور ص ٣٦٧ .
(٩) المصدر نفسه .

الموجودات قسمان » متحرك وغير متحرك . والمتحرك جسمى متناه . وهو متحرك حركة أزلية . وهذه الحركة لا يمكن القول بأنها من ذاته لأنه متناه . فلا بد فى تعليل هذه الحركة التى لاتتناهى من أن نردها إلى قوة أو إلى موجود أزكى (أعنى إلى العقل) (١) .

كذلك أبدى ابن باجه رأيه فى النفس والعقل فقال إن الهيولى لا يمكن أن توجد مجردة عن صورة ما . أما الصورة فقد توجد مجردة عن الهيولى ، وإلا لما استطعنا أن نتصور إمكان أى تغير ، لأن التغير إنما يكون ممكنا بتعاقب الصور الجوهرية . . . والإنسان بعروجه فى درجات متتالية وترقيه من الجزئى والمحسوس وتصورهما ، يكوّن مجموعة العقل، ويصل إلى ماهو فوق طور الإنسان وإلى ماهو إلهى. والذى يرشد الإنسان فى هذا العروج هو الفلسفة » (٢) .

وكذلك تعرض ابن باجة للإنسان المتوحد فقال إن الفرد لا يستطيع أن يعيش كما ينبغى . ولكى يستطيع أن يمضى فى أعماله على أساس عقلى فإنه يجب عليه أن يعتزل المجتمع فى بعض الأحيان . ويسمى ابن باجه كتابه فى الأخلاق « تدبير المتوحد ». وهو يطالب الإنسان بأن يتولى تعليم نفسه بنفسه . على أن الإنسان يستطيع بوجه عام أن ينتفع بمحاسن الحياة الاجتماعية دون أن يتأثر بمساوئها (٣) .

وقد اشتغل ابن باجة بالأدب ونبغ فى الشعر . ومن شعره قوله يمدح الأمير أبا بكر بن إبراهيم.

همٌ جوده يصف السوارى وسطوتُه يغيرها البحير
وقلنا نحن كيف وراحتاه بحورٌ يلتطى (٤) فيها سرور (٥)

(ح) ابن طفيل (ت ٥٧١ / ١١٧٥) .

كانت الدولة المرابطية تسير على هدى الفقهاء الذين كان لهم رأى فى إدارة شئون البلاد والإشراف على الحياة الفكرية . وقد ارتاب المرابطون فى آراء الفلاسفة تمسكا بمذهب

---

(١) دى بور ص ٣٦٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٧٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٧٣ — ٣٧٤ .
(٤) من قولهم لطى الرجل بالأرض أى لزق .
(٥) المقرى ج ٩ ص ٢٣٢ .

السلف الصالح الذى لا يقبل أن يحيد عما جاء به القرآن والسنة ، وظل الأمر على ذلك حتى قام المهدى محمد بن تومرت بدعوته التى قامت على مذهب التوحيد الكلامى المستمد من آراء علماء الكلام وفلاسفة المسلمين . ومن هنا كانت الدولة الموحدية أول دولة بالمغرب ناصرت الفلسفة الإسلامية ، وظهر فيها حرية الرأى لأول مرة فى تاريخ المغرب . وكان من حسنات هذه الدولة ظهور طائفة من كبار الفلاسفة مثل ابن طفيل وابن رشد .

ولد أبو بكر محمد بن طفيل فى مدينة قادس ببلاد الأندلس . وقد عاش بخلاف ابن باجة حياة هادئة وأقبل على دراسة الكتب وانقطع إلى العلم وأثر ذلك على الاختلاط بالناس ، وشغف بالفلسفة وكلف بها ، ولكنه لم يتخصص فيها . فقد كان يلم بآراء دون أن يتأثر بها ويؤثر فيها . لذلك كان ابن طفيل يميل إلى الاستمتاع بالتأمل أكثر من ميله إلى التأليف . كما كان يشغف بالأدب ويميل إلى الشعر ، حتى نظم كثيراً من القصائد .

على أن أكبر همّ ابن طفيل أن يمزج الحكمة اليونانية بحكمة أهل المشرق ليخرج للناس رأيا جديدا فى الكون . كما أثار اهتمام ابن طفيل أمر العلاقة بين الفرد والمجتمع وذهب فى ذلك إلى أبعد ماذهب إليه ابن باجه ، فبينما نرى ابن باجه يجعل المفكر المتوحد أو طائفة صغيرة من المفكرين المتوحدين يكونون دولة داخل الدولة كأنهم نموذج لحياة سعيدة ، نرى ابن طفيل يرجع منشأ الجماعة إلى الفرد (١) .

قصة حىّ بن يقظان

يتكون مسرح قصة حىّ من جزيرتين ، يضع ابن طفيل فى إحدى هاتين الجزيرتين المجتمع الإسلامى بما فيه من عُرف وتقاليد وعادات وأديان ، ويضع فى الثانية إنساناً ينشأ وينمو على الفطرة ، وتسود ذلك المجتمع المشتمل على هاتين الجزيرتين نزعات دنيوية . وفى هذا العالم ملة أو دين يُحاكى الفطرة ويدين أصحابها بها تديناً سطحياً ، ثم يظهر فى هذا العالم (أى فى الجزيرتين) فتيان من أهل الفضل يسمى أحدهما سلامان (أو سلمان) والآخر آسال (أو أبسال) يسموان بعقلهما إلى المعرفة والتغلب على الشهوات . وأول هذين الفتيين ينزع بعقله نزعة عملية ، فهو يساير دين العامة حتى يسوده . وثانيهما ينزع إلى النظر العقلى الفلسفى الصوفى ، إذ يرتحل إلى الجزيرة المقابلة لجزيرته ، ظنا منه انها غير مسكونة . وفى هذه الجزيرة ينقطع هذا الفتى إلى الدرس والزهد .

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .

وحى بن يقظان الذى نحن بصدده قد ترعرع فى هذه الجزيرة حتى أصبح فيلسوفا كاملا ؛ وربما قد جىء به إلى أرضها وهو طفل أو نشأ فيها بالتولد الطبيعى من العناصر الأرضية وأرضعته ظَبْيه ، ثم توصل إلى تحصيل حاجاته المادية بوسائله الخاصة ، واستطاع بالملاحظة والتفكير أن يتوصل إلى معرفة الطبيعة والسماء ومعرفة الله ومعرفة نفسه . وقد وصل حى ابن يقظان وهو فى التاسعة والأربعين من عمره إلى الله ، أى أنه بلغ ما يبلغه الصوفية من الشهود لله والفناء فيه .

عند ذلك لقى حى بن يقظان : آسال (الذى سما إلى النظر العقلى والتصوف) . ولم يكن حى يعرف اللغة ، ولكنه استطاع أن يتفاهم مع آسال بعد جهد ، حيث ظهر أن فلسفة حى وشريعة آسال صورتان لحقيقة واحدة، ولكنها عند الأول أكثر وضوحاً منها عند الثانى .

ولما عرف حى أن فى الجزيرة المقابلة لجزيرته أمة بأسرها مازال تتخبط فى دياجير الخطأ صحت عزيمته على أن يذهب إلى أولئك القوم ويكشف لهم عن الحقيقة. فعلمته التجربة عند هؤلاء القوم أن العامة لا قدرة لهم على إدراك الحقيقة مجردة ، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام كان على صواب ؛ إذ بين للناس الحقيقة بضرب الأمثال الحسية ، ولم يكاشفهم بالنور الكامل (وهو نور الله سبحانه وتعالى) .

وبعد أن أنتهى حى بن يقظان إلى هذه النتيجة عاد مع صديقه آسال إلى جزيرتهما الأولى الخالية ليعبدا ربهما عبادة روحية خالصة مابقى من حياتهما (١) .

وفى هذه القصة يصور ابن طفيل حياة الإنسان والأطوار التى يجب أن يتطور فيها من يصل إلى الكمال ، غير أن ابن طفيل لايرى أن الفرد يستطيع وحده (معتزلا عن المجتمع) أن يبلغ الكمال وأن يسمو إلى الحقيقة . وإذا استطاع فرد بطريق التصوف والعزلة أن يسمو إلى معرفة الله ، فإن ذلك لا يتأتى لكل البشر . ومن هنا بعث الله سبحانه وتعالى الرسل إلى الناس ، وكانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم التى بعث بها إلى الناس كافة .

وتتمثل فى قصة حى بن يقظان الأطوار التى مر بها الدين ، كما يتمثل تطور الحكمة الهندية والفارسية واليونانية .

وقد صور ابن سينا قبل ابن طفيل بقرنين الإنسان وتطوره ، واعترف ابن طفيل بذلك. ولكن ابن طفيل صور العقل الإنسانى الطبيعى الذى يشرق عليه نور من العالم العلوى ،

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام الترجمة العربية من ٣٧٧ — ٣٧٩ .

على أن هذا العقل يجب — بحسب منطق ابن طفيل — أن يتفق مع رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وكان ابن طفيل فى هذا سائرا فى نفس الطريق الفلسفى الذى سار فيه مفكرو المشرق من أن الدين يجب أن يقصر على العامة ، إذ لا قدرة لهم على المضى فيما وراءه . أما الفلاسفة فهم القادرون على ما وراء ظواهر الدين . وعلى هذا فكلام النبى صلى الله عليه وسلم ينطوى على تأويلات لا يسمو إليها إلا المفكرون . ومن المؤكد أن التفكير لايتسنى لأحد إلا بعد بلوغ سن معينة . ويعتبر الاشتغال بالأمور المادية كالصناعات والعلوم خطوة طبيعية للوصول إلى الكمال الروحى .

ويعنى ابن طفيل بنشاط حى بن يقظان الصوفى الذى يحل محل العبادات التى فرضتها الشريعة الإسلامية على الدهماء . فالرجل الصوفى أسمى من المتعبد العادى . ولعل فى ذلك مسحة من الأفلاطونية الحديثة والفيثاغورية . وقد تبيّنت لحىّ الغاية التى يرمى إليها من التماس الواحد فى كل شىء والاتصال به ، وهو يرى أن الطبيعة جميعها تنجذب نحو الواحد وهو الله سبحانه وتعالى . والإنسان هو أسمى المخلوقات لأنه القادر على الفكر . وهو يأكل النباتات والفواكه الناضجة ولا يأكل من الحيوان إلا الضرورى . وهذا ما التزمه حى بن يقظان لمطالب جسده المادية . أما روحه فهى مرتبطة بالعالم العلوى ، وهو يتشبه بالعالم الذى يعيش فيه ، فهو بذلك يفيد ويستفيد . كما يرى أنه يجب أن يحيى حياة بريئة من شوائب المادة وأن يتعهد النبات ويحمى الحيوان ملتزما النظافة والعناية بملبسه ، مُنَسِّق الحركات ليماثل الأجرام السماوية المعتدلة . وهكذا يصبح حى بالتدريج قادرا على أن يسمو بنفسه فوق الأرض والسماء ، حتى يصير عقلا صرفا . وهذه هى حالة الفناء التى يريدها المتصوفة (١) .

(د) ابن رشد (ت ٥٩٥ / ١١٩٨ م)

ولد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس فى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ونشأ فى بيت عريق فى العلم والأدب ، وذلك فى أعقاب ملوك الطوائف الذين عرف عصرهم بالعصر الذهبى فى الأندلس ، ذلك العصر الذى بلغت فيه هذه البلاد أوج عزها الفكرى والحضارى ، كما بدأت حرية الفكر ببلاد المغرب بظهور المهدى محمد بن تومرت .

---

(١) انظر دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام الترجمة ص ٣٧٩ — ٣٣٨ .

وقد ظهر ابن رشد فى ميدان الفكر والفلسفة بعد أن زالت الدولة المرابطية التى كانت تناهض الفلسفة والفلاسفة . وقد قيل إن ابن طفيل هو الذى أخذ بيد ابن رشد ودفعه إلى الحياة العامة فقدمه إلى الأمير أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على فى سنة ٥٤٨ هـ . ولم يكن هذا الأمير الموحدى قد تولى الحكم قبل سنة ٥٥٨ هـ . ولكن هذا الأمير كان مشغوفاً بمجالسة العلماء والفلاسفة .

ويقال إن هذا الأمير سأل ابن رشد عن اسمه واسم أبيه ونسبه ، ثم بادره بقوله : ما رأى الفلاسفة فى السماء ؟ أقديمة هى أم حادثة ؟ فاستولى الحياء وأخذ الخوف يستولى على ابن رشد وخشى أن يبطش به الأمير ، وأخذ يتعلل وينكر اشتغاله بالفلسفة . ولكن الأمير ظل يتكلم فى هذه المسألة مع ابن طفيل ، فأعجب ابن رشد بغزارة علم الأمير ومعرفته بفلسفة أرسطو وأفلاطون والمتكلمين وفلاسفة المسلمين . عند ذلك ذهب الخوف عن ابن رشد وأخذ يتكلم دون خوف أو وجل من بطش الأمير ، الذى أعجب به ، فقربه منه ، وكلفه بشرح مذهب أرسطو(١) .

وقد قام ابن رشد بهذا العمل على أكمل وجه ، « فأورث الإنسانية علم أرسطو كاملا بريئا من الشوائب » .

وكان ابن رشد إلى جانب هذا فقيهاً وطبيباً ، إذ تولى قضاء إشبيلية سنة ٥٦٥ هـ . وكان فى سنة ٥٧٨ هـ طبيباً للسلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) ، ثم تقلد ابن رشد القضاء ثانية فى قرطبة مسقط رأسه ، وشغل المنصب الذى شغله أبوه وجده من قبله .

غير أن الأيام تنكرت لابن رشد حين حل السخط بالفلاسفة فصارت كتبهم يلقى بها فى النار . فنرى أبا يوسف يعقوب المنصور (٥٥٨ — ٥٩٥/ ١١٨٤ — ١١٩٩) يأمر بإبعاد ابن رشد ، وقد بلغ سن الشيخوخة ، فى بلدة قريبة من قرطبة تدعى أليسانة ، ثم يستدعيه إلى مدينة مراكش حاضرة الموحدين ، فتحين منيته فى هذه المدينة سنة ٥٧٥ (١١٩٨ م) وقد بلغ الخامسة والسبعين من عمره(٢) .

ابن رشد وأرسطو

وقف ابن رشد حياته على دراسة أرسطو ، فتناول كل ما استطاع أن يحصل عليه من مؤلفات هذا الفيلسوف أو من شروحها بالدراسة العميقة والمقارنة الدقيقة ، وقد

---

(١) راجع مادة ابن رشد فى دائرة المعارف الإسلامية .

Ernest Revan, Averoès et l Averoisme

(٢) المراكشى ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

اطلع على ما ترجم به من كتب اليونان التى ضاع أغلبها فيما بعد ، أو وصل إلينا بعضها ناقصاً . وقد اتبع ابن رشد فى شروحه الطريقة المبنية على التحليل الدقيق والنقد السليم ، وهو فى شرحه لفلسفة أرسطو يوجز حيناً ويطنب حيناً آخر ، فترى هذه الشروح ملخصة أو مبسوطة ، وقد أطلق عليه « دانتى » فى كتابه « الكوميديا الإلهية » لقب الشارح ، فكان ذلك اصطلاحاً جرى عليه الفلاسفة بعد دانتى .

وقد بلغ فلاسفة المسلمين شأواً بعيداً فى فهم فلسفة أرسطو وتقريبها إلى الأذهان بفضل ابن رشد .

كان ابن رشد يرى أن أرسطو هو الإنسان الأكمل والمفكر الأعظم الذى استطاع أن يكشف عن الحقيقة وأن الزمن لن يستطيع أن يغيّر من آراء فيلسوف اليونان العظيم .

وكان ابن رشد شديد الوطأة فى نقد المعلم الثانى أبى نصر الفارابى (ت ٣٣٩ هـ) والرئيس أبى على بن سينا (ت ٤٢٩ هـ) . وترى ابن رشد فى نقده لأسلافه أقسى من أرسطو فى نقده لأفلاطون ، على حين نراه يبالغ فى مدح أرسطو إذ يرى مذهب أرسطو — إذا فُهم على حقيقته — لا يتعارض مع أسمى معرفة يستطيع أن يبلغها إنسان . « بل كان يرى أن الإنسانية فى مجرى تطورها الأزلى بلغت فى شخص أرسطو درجة عالية يستحيل أن يسمو عليها أحد ، وأن الذين جاءوا بعده تجشموا كثيراً من المشقة وإعمال الفكر لاستنباط آراء انكشفت بسهولة للمعلم الأول . وستتلاشى بالتدريج كل الشكوك والاعتراضات على مذهب أرسطو ، لأن أرسطو إنسان فوق طور الإنسان . وكأن العناية الإلهية أرادت أن تبيّن فيه مدى قدرة الإنسان على الاقتراب من العقل الكلى . وابن رشد يعتبر أرسطو أسمى صورة تَمَثَّل فيها العقلُ الإنسانى ، حتى إنه ليميل إلى تسميته بالفيلسوف الإلهى »[1] .

وابن رشد من المتعصبين لمنطق أرسطو ، فهو يرى أنه لا سعادة لأحد دونه ، ويأسف لأن سقراط وأفلاطون لم يكونا على علم بمنطق أرسطو ، وسعادة الإنسان تكون على قدر معرفته بهذا المنطق .

وكان ابن رشد يهتم فى علم اللغة بما هو مشترك بين جميع اللغات متأسياً فى ذلك بأرسطو

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٢٨٦ .
ويتضح إعجاب ابن رشد بأرسطو فى كتابه تهافت التهافت وفى مقدمة كتابه الطبيعة .

الذى راعى هذا فى كتاب « العبارة » وفى كتاب « الخطابة » إذ كان يضع نصب عينيه هذا العنصر المشترك بين لغات الخلق جميعاً .

يرى ابن رشد أن الحقيقة قد تضمنتها آراء أرسطو . ومن هنا ننظر إلى علم الكلام عند المسلمين نظرة عابرة . نعم إن ابن رشد يؤمن بالإسلام على أنه حقيقة من نوع خاص[١] . ومع إيمان ابن رشد بالإسلام فإنه لا يؤمن بعلم الكلام ، لأن هذا العلم يهدف إلى إثبات أشياء يتعذر إثباتها بمناهج أرسطو التى تقوم على المنطق . « ويذهب ابن رشد إلى ما ذهب إليه إسبينوزا من أن الوحى الذى جاء به القرآن لا يرمى إلى إعطاء الناس علماً ، وإنما يرمى إلى إصلاحهم ، وليس غرض الشارع فى رأيه تلقين العلم ، بل غرضه أخذ الناس بالطاعة ، وبالأعمال الصالحة ، لأن الشارع يعلم أن السعادة الإنسانية لا تتحقق إلا فى مجتمع »[٢] .

وأظهر ما يميز ابن رشد عن فلاسفة الإسلام ولا سيما ابن سينا ، هو كيفية تصوره للعالم على أنه عملية تغير وحدوث منذ الأزل . والعالم فى جملته وحدة أزلية ضرورية لا يجوز عليها العدم ، ولا يمكن أن يقوم على ما هو عليه . وإذا كان التغير داخل نظام الكون أزلياً فإنه يستلزم حركة أزلية ، وهذه تحتاج إلى محرك أزلى . ولو كان العالم حادثا لتحتم علينا القول بوجود عالم آخر حادث نشأ منه ، وهكذا إلى غير نهاية . ولذلك يذهب ابن رشد إلى أن القول بأن العالم كله متحرك منذ الأزل ضرورة ، هو وحده الذى يضمن لنا إمكان الوصول إلى إثبات موجود مفارق للعالم محرك له منذ الأزل . وهذا الموجود بإيجاده تلك الحركة الدائمة وبإيجاده لنظام العالم البديع خليق بأن يسمى موجد العالم .

وكذلك يرى ابن رشد أن ماهية المحرك الأول أى الآلة وماهية عقول الأفلاك هى أنها فكر تتجلى فيه الوحدة العقلية الوجودية .

والموجودات العقلية (أى الأفكار) تتجلى فيها الوحدة أو كمال الوجود . وكل العقول تعقل ذاتها ولكنّ فى معرفتها بذاتها صلتها بالعلة الأولى . وابن رشد يجزم بأن تعلق النفس الإنسانية بجسدها كتعلق الصورة بالهيولى . فهو يقول بهذا جادا غاية الجد ، وهو يرفض

---

(١) يقصد أن الدين قائم على الغيب وليس على المنطق فى أغلب الأحيان . وهو يؤمن بغيبيات الدين . وهذا هو معنى قوله إن الدين حقيقة من نوع خاص .

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٣٨٩ .

المذهب القائل بعدم فناء النفوس الجزئية المتكثرة[١] رفضا باتا ، مخالفاً فى ذلك مذهب ابن سينا . ولا بقاء للنفس عنده إلا باعتبارها كمالاً لجسدها .

ويشتمل مذهب ابن رشد على ثلاثة آراء : إلحادية تجعله مخالفاً للديانات السماوية الثلاث وهى : اليهودية والمسيحية والإسلام . وأولها قوله بقدم العالم المادى والعقول المحركة له[٢] ، وثانيها قوله بارتباط حوادث الكون جميعها ارتباط علة بمعلول على وجه ضرورى لا يترك مجالا للعناية الإلهية أو للخوارق أو نحوها ، وثالثها قوله بفناء جميع الجزئيات[٣] ، وهو قول يجعل الخلود الفردى غير ممكن .

وعلى كل فابن رشد مفكر جرىء منطق لا اضطراب فى فكره ، وإنْ لم يكن مفكراً مبتدئاً . وعلى الرغم من توليه مناصب قضائية إسلامية فكثيراً ما هاجم المتكلمين وغيرهم من فقهاء المسلمين . فقد كان ابن رشد قاسياً على الذين يقولون إنّ الخير خيرٌ لأن الله أمر به ، والشر شر لأن الله نهى عنه . ويقول إن العمل يكون خيراً أو شراً لذاته أو بحكم العقل ، والعمل الخلقى هو الذى يصدر فيه الإنسان عن معرفه عقلية . وينبغى بالطبع ألاّ يكون مرجعنا الأخير إلى عقل الفرد بل إلى ما تمليه مصلحة الدولة .

وابن رشد ينظر إلى الدين أيضاً بعين النظر السياسى ، فهو يعظم الدين لما يرمى إليه من غايات خلقية ، ويقول إن الواجب يحتم على الناس أن يؤمنوا بما جاء به الكتاب كما هو ، وما فى الكتاب حقٌ ، وهو يروى فى صورة قصص لأنه موجه إلى أطفال كبار . ومجاوزة العامة ذلك شرٌ لهم .

على أن ابن رشد يرى أنه يجوز للفلاسفة أن يؤولوا آيات القرآن وهم إذ يفهمون مراميه على نور يكون فى ذلك الحقيقة العليا .[٤]

وقد أثرت مؤلفات ابن رشد فى الأندلس وفى الفكر الأوربى ولا سيما فى إيطاليا حتى القرن السادس عشر الميلادى . « وكان لمذهبه أتباع من المسلمين والأوربيين . وعلى الرغم

---

(١) أى المتوالدة تناسليا .

(٢) بمعنى أنه لم يجعل الله سبحانه هو القديم وحده كما قالت بذلك الكتب السماوية بل إن العالم قديم كذلك .

(٣) وبهذا لا يمكن أن يكون هناك بعث .

(٤) انظر دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٣٩٤ — ٣٩٨ .

من أن جامعة باريس عملت على اضطهاد أتباعه ، فقد عادت فطلبت من خريجها ألاّ يعلموا تلاميذهم إلا المعلومات التى تتفق مع تعاليم أرسطو كما قررها ابن رشد .

(هـ) محيي الدين بن عربى [1] (ت ٦٣٨ / ١٢٤٠) .

ويعتبر محيي الدين بن عربى من أشهر فلاسفة ومتصوفة الأندلس . ولد ابن عربى بمُرْسية فى شهر رمضان سنة ٥٦٠ هـ ونشأ بها وتلقى العلم فيها حتى انتقل إلى إشبيلية سنة ٥٦٨ هـ وأقام حتى سنة ٥٩٨ هـ . ثم اختلف إلى كثير من بلاد المشرق كمصر والحجاز وبغداد والموصل وأخذ العلم على كبار علمائه من أمثال الحافظ السِّلفى وابن عساكر ، وأبى الفرج ابن الجوزى . ثم رحل إلى بلاد الروم وأقام بها مدة طويلة ، ثم ذهب إلى دمشق وظل بها حتى مات .

وقد اشتهر ابن عربى بالتصوف وأخذ نفسه بالزهد والتقشف وحرمان النفس من ملذات الحياة ليخلص إلى الله سبحانه وتعالى . وكان ابن عربى يدين بعقائد المذهب الظاهرى الذى أخذه عن ابن حزم الأندلسى ، كما كان يجنح فى تصوفه نحو مذاهب الشيعة . وكان ابن عربى « محصلا بفنون العلم أخصّ تحصيل ، وله فى الأدب الشأو الذى لا يُلحق به والتقدم الذى لا يسبق [2] » . ولابن عربى مؤلفات قيمة فى الفلسفة والتصوف نخص بالذكر منها :

(١) كتاب ضمنه مقامات رأى فيها النبى صلى الله عليه وسلم ومنامات حدث بها عن النبى .

(٢) كتاب خيار مشايخ العرب وزهادهم .

(٣) كتاب الفتوحات المكية (ويقع فى عدة أجزاء) ويشهد بطول باعه فى التصوف والتأثر بالمذهب الشيعى ، حتى إنه كتب كثيراً عن المهدى المنتظر ، وأشراط الساعة بظهور المسيح الدجال ثم المسيح عليه السلام ، والأئمة العلويين ولاسيما الأئمة الاثنا عشرية ، حتى لقد وصفه المقرى [3] بقوله إنه كان ظاهرى المذهب فى العبادات باطنى النظر فى

---

(١) كان يعرف بالمغرب بابن العربى ، واصطلح أهل الشرق على تسميته بابن عربى بدون الألف واللام .

(٢) المقرى ج ٢ ص ٣٦١ — ٣٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٣ .

الاعتقادات [١] . ويغلب على الظن أن البابية والبهائية فى إيران قد تأثروا إلى حد بعيد بآراء محيى الدين بن عربى ، ولكنهم غلوا فى تشيعهم ومبادئهم . كما تأثر به كثير من متصوفى مصر ، نخص بالذكر منهم الشيخ الشعرانى [٢] والشيخ على الخواص ، والشيخ عبد الوهاب العفيفى وغيرهم من المتصوفة . ومن هذا نرى كيف سمى المؤرخون ابن عربى إمام المتصوفة فى العالم العربى .

ولما صنف ابن عربى كتابه « الفتوحات المكية » كان يكتب كل يوم ثلاث كراسات [٣] .

(٤) تلقين المهتدى .

(٥) الأحكام الكبرى والوسطى والصغرى .

(٦) كتاب التهجد .

(٧) كتاب العافية .

(٨) كتاب المعارف الإلهية .

(٩) كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم .

(١٠) رسالة مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية .

(١١) كتاب فصوص الحكم [٤] .

ومما قاله ابن عربى فى كتابه هذا : « اعلم أن القلب (أعنى قلب العارف بالله) هو من رحمة الله ، وهو أوسع منها ، فإنه وسع الحق جل جلاله ورحمته لاتسعه [٥] . هذا لسان العموم من باب الإشارة ، فإن الحق راحم ليس بمرحوم ، فلا حكم للرحمة فيه [٦] . وأما الإشارة من لسان الخصوص فإن الله وصف نفسه بالنفس وهو من التنفيس ، وإن الأسماء الإلهية عين المسمى وليس إلا هو » .

---

(١) أى أنه أخذ عن الشيعة مذهب التأويل .

(٢) المقرى ج ٢ ص ٣٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٤) نشره الدكتور أبو العلا عفيفى (القاهرة ١٩٤٦) ص ١١٩ .

(٥) يعنى أن قلب العارف بالله ، أى قلوب المتصوفة ، أكبر وأعظم من رحمة الله ، لأن هذه القلوب وسعت الله جل شأنه ، على حين أن رحمة الله لاتسعه ، لأن الرحمة جزء صغير من فضل الله وصفاته جل شأنه ، على حين أن القلب الله ذاتا وصفاتا .

(٦) يعنى أن الرحمة فضل من الله وليس الله فضلا منها لأنه سبحانه صانع الرحمة .

وقد قال ابن عربى فى الفص الثالث والعشرين [١] الذى عقده تحت عنوان « الحكمة الإحسانية »: موضوع هذا الفص الإحسان ، وهو فى اللغة فعل ما ينبغى أن يفعل من الخير بالمال أو بالقول أو بالعمل . وفى الشرع أن تتوجه إلى الله فى عبادتك بكليتك وتتمثله فى محرابك ، كما ورد فى الحديث المشهور عندما سئل النبى عن الإحسان ماهو ؟ فقال أن تعبد الله كأنك تراه ، وهو (أى الإحسان) فى عرف أصحاب وحدة الوجود شهود الحق [٢] فى جميع المراتب الوجودية والتحقق من أنه متجل فى كل شىء . وهذا الأخير [٣] هو المعنى الذى يدور عليه هذا الفص (أى الباب) . والذى يستخلصه المؤلف (يعنى نفسه) من الآيات الواردة فى حق لقمان فى قوله تعالى (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) [٤] (يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) [٥] . فلقمان فى هذا الفص لسان من ألسنة وحدة الوجود .

وقد زاد فى شهرة ابن عربى تفوقه فى الأدب ولاسيما الشعر . ومن شعره الصوفى قوله فى الله جل شأنه :

يا مَنْ يرانى ولا أراه كم ذا أراه ولا يرانى

وقد سئل ابن عربى فى قوله إنه يرى الله ولا يراه الله فقال مرتجلا :

يا مَنْ يرانى مجرماً ولا آراه آخـــذا
كم ذا أراه منعّماً ولا يرانى لائذا

وهذا يؤكد أن ابن عربى كان يأخذ بمبدأ التأويل الذى سار عليه الشيعة وجمهرة المتصوفين ، على حين أنه كان ظاهريا فى العبادات كالصوم والصلاة والزكاة والحج. من ذلك قوله فى ضبط ليلة القدر التى اختلف الفقهاء فى تحديدها .

وإنّا جميعا إن نَصُمْ يوم جُمعة ففى تاسع العشرين خذ ليلة القدر

---

(١) المصدر نفسه : تعليقات الدكتور أبو العلا عفيفى ص ٢٧٦ .
(٢) يعرفه باصطلاح أهل الباطن .
(٣) يعنى اصطلاح أهل الباطن .
(٤) سورة لقمان ٣١ : ١٣ .
(٥) سورة لقمان ٣١ : ١٦ .

وإنْ كان يوم السبت أول صومنا ... فحادى وعشرين اعتمده بلا عـذر
وإنْ تَصُمْ الشهر فى أحـدٍ فخذْ ... ففى سابع العشرين ماشئتَ فاستَقْرى
وإن هلّ بالإثنين فاعلمْ بأنه ... يواتيك نيل المجـد فى تاسع العَشْر
وفى يوم الثلاثا إنْ بدا الشهر فاعتمد ... على خامس العشرين فاعمل بها تدرى
وفى الأربعا إن هلّ يامن يرومها ... فدونك فاطلب وصلها سابع العَشْر
ويوم خميس إنْ بدا الشهر فاجتهدْ ... ففى ثالث العشرين تظفَرُ بالنصر
وضابطها بالقول ليـلةَ جُمْعةٍ ... توافيك بعد النصف فى ليلة الوِتر[1]

ويروى المقرى عن الإمام الصفى بن ظافر الأزوى قوله فى ابن عربى[2] : « وكان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وقر له من العلوم الوهبية ، ومنزلته شهيرة ، وتصانيفه كثيرة ، كأنْ غلب عليه التوحيد علما وخُلُقا وحالا ، لا يكترث بالوجود مقبلا كان أو معرضاً . وله علماء أتباع ، أرباب مواحيد وتصانيف » .

« ولو قيس ابن عربى بغيره من كبار مؤلفى الإسلام المتفلسفين أمثال ابن سينا والغزالى ، لبذهم جميعا فى ميدان التأليف من ناحية الكم والكيف على السواء . أما من ناحية الكم فقد ألف نحواً من مائتين وتسعة وثمانين كتابا ورسالة على حد قوله فى مذكرة كتبها عن نفسه سنة ٦٣٢ هـ ، أو خمسمائة كتاب ورسالة على حد قول عبد الرحمن جامى صاحب كتاب « نفحات الأنس » ، أو أربعمائه كتاب كما يقول الشعرانى فى اليواقيت والجواهر . وقد وصفه بروكلمان بأنه مؤلف من أخصب المؤلفين عقلا وأوسعهم خيالا »[3] .

(٥) التاريخ

(١) مؤرخو المشرق الإسلامى :

وقد زخر أواخر العصر البويهى والعصر السلجوقى فى الشرق ومصر والمغرب والأندلس بطائفة كبيرة من المؤرخين الذين أمدونا بمادة غزيرة تصور لنا ما وصلت إليه الدراسات التاريخية من نهضة مباركة فى ميدان الثقافة الإسلامية .

---

(١) المقرى ج ٢ ص ٣٦٨ .
(٢) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٣٨١ .
(٣) فصوص الحكم (نشره أبو العلا عفيفى (القاهرة ١٩٤٦) ص ٥ .

وقد وضع أبو نصر العُتْبى (بضم العين وسكون التاء) (ت ٤٢٨ هـ) كتابه عن حياة السلطان محمود الغزنوى وسماه « تاريخ اليمينى » نسبة إلى يمين الدولة محمود الغزنوى (القاهرة ١٢٨٦ هـ) ويقع فى جزأين .

وهناك ثلاثة من المؤرخين هم أبو الحسن مسكويه (ت ٤٢١ هـ) وهلال الصابى (ت ٤٤٨ هـ) وأبو شجاع (ت ٤٨٨ هـ) .

ويعتبر تاريخ مسكويه المسمى « تجارب الأمم » من أهم الكتب التاريخية ، ويتناول جزء منه الكلام على الحوادث المتممة لتاريخ الطبرى ، وينتهى فى سنة ٣٦٩ هـ . ولا يكتفى مسكويه بذكر الحوادث التاريخية بل يعنى بالشئون الاجتماعية وخاصة الأحوال الاقتصادية عناية كبيرة . وبذلك خطا خطوة جديدة نقل بها دراسة التاريخ من سرد الحوادث الجافة إلى معالجة الشئون الاجتماعية والعمرانية . وقد تناول مسكويه بإسهاب تاريخ الصدر الأول من عصر بنى بويه .

وقد نشر المستشرقان دى غويه ودى يونج جزءا من كتاب تجارب الأمم ، ويتناول الكلام على الحوادث التاريخية التى وقعت من خلافة المأمون سنة ١٩٨ هـ إلى أواخر خلافة المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) سنة ٢٥١ هـ . وقد نشر المستشرقان دى غويه ودى يونج أيضا الجزء الثالث من كتاب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق لمؤلف مجهول ، ويتناول الحوادث التاريخية من خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦ هـ إلى نهاية خلافة المعتصم العباسى سنة ٢٢٧ هـ . (ص ١ — ٤١٠) وذيلاه بهذا الجزء من كتاب تجارب الأمم لمسكويه (ص ٤١١ — ٥٨٣) (ليدن ١٨٦٩ — ١٨٧١) .

وقد ذيل ظهير الدين محمد بن الحسين الدوذراورى وزير الخليفة العباسى المقتدى (٤٧٦ — ٤٨٧ هـ) المعروف بأبى شجاع تاريخ مسكويه بتاريخه الذى تناول فيه الكلام على الحوادث التى وقعت بين سنتى ٣٦٩ و ٣٨٩ هـ . ثم تلاه هلال الصابى فى تاريخه الذى ذيل به « أمدروز » كتاب الوزراء إلى سنة ٣٩٣ هـ ، ونقله عنه « مرجليوث » .

كما تناول هلال الصابى الكلام على الحوادث التى وقعت بين سنتى ٣٨٩ هـ و ٣٩٣ هـ . وترجمها مرجليوث إلى الإنجليزية .

وقد طبعت هذه الكتب الثلاثة فى القاهرة فى سنتى ١٩٣٣ — ١٩٣٤ م .

ويعد كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ) بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصابى . ويظهر أن ابن القلانسى اعتمد كثيرا على كتاب أبى شجاع وكتاب هلال . وكذلك يعد كتاب ابن القلانسى من كتب التاريخ العامة ، لأنه يتناول فترة طويلة تتعلق بجزء كبير من أنحاء العالم الإسلامى تمتد بين سنتى ٣٦٠و ٥٥٥ هـ . ، كما يعد هذا الكتاب ذا صفة محلية ، لأنه يتناول الحوادث التى جرت فى الشام والجزيرة ولاسيما مايتعلق منها ببيت عماد الدين زنكى الذى كان معاصراً له ، وكان شاهد عيان لما وقع بين زنكى وحكام دمشق من حروب وما أبرم من معاهدات وجرى من مفاوضات . ويمكن الاعتماد على المعلومات التى أوردها ابن القلانسى عن أسرة زنكى وعلاقتها بالصليبيين . على أنه يلاحظ على أسلوب ابن القلانسى كثرة السجع والتكرار اللذين يثيران الملل فى نفس القارىء .

وتعتبر مؤلفات أبى الريحان البيرونى الخوارزمى (ت ٤٤٠ هـ) من أهم مصادر التاريخ والاجتماع . وقد قضى البيرونى حياته تحت كنف مأمون بن مأمون أمير خوارزم ، ثم زار حول سنة ٣٩٠ هـ بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير الذى اشتهر فى طبرستان بتشجيع العلماء ، وأهدى إليه البيرونى تاريخه المشهور « الآثار الباقية عن القرون الخالية » الذى نشره إدوارد سخاو E. Sachau مع ترجمته الإنجليزية (لندن ١٨٧٩ و ليبزج ١٨٧٨ - ١٨٧٩) . ويتناول هذا الكتاب القيم نظم الطوائف والجماعات المختلفة والإحتفال بالأعياد القومية والدينية بوجه خاص .

ثم عاد البيرونى إلى موطنه خوارزم حيث قضى بقية حياته فى بلاط محمود الغزنوى صاحب الفتوح المشهورة فى بلاد الهند التى غزاها اثنتى عشرة مرة ونشر الإسلام فى كثير من ربوعها . وقد صاحب البيرونى السلطان محمود الغزنوى فى أغلب غزواته لبلاد الهند حيث لزم البيرونى العلماء والفلاسفة وتعلم اللغة السَّنْسكْرِيتية ، واتسعت ثقافته بما أفاد من العلماء الهنود فى التاريخ والرياضة والجغرافيا والعلوم الطبيعية .

وفى هذه الرحلات جمع البيرونى علوم الهنود ومذاهبهم وعاداتهم ، وهى المعلومات التى ألف منها كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » ، ويعرف باسم « تاريخ الهند » (١) . ومن هذا الكتاب يتضح أن البيرونى كان ملما باللغة السنسكريتية

---

(١) نشره إدوارد سخاو وطبعت نسخة هذا الكتاب العربية مع ترجمتها الإنجليزية على نفقة حكومة الهند (لندن ١٨٨٧) .

وبقليل من العبرية والسريانية ، وأنه لم يكن يعرف اليونانية ، بل استقى كثيراً من معلوماته عنها من التراجم العربية أو السريانية. وقدقيل إن مؤلفات البيرونى أربت على المائة مؤلف.

وللبيرونى أيضا كتاب « تاريخ خوارزم » . ويقال إنه جمع فيه جميع الأخبار والآثار والقصص المتعلقة بوطنه وخاصة الوقائع التاريخية التى شاهدها بنفسه . وقد أورد أبو الفضل البيهقى عدة فصول من هذا الكتاب فى كتابه « تاريخ المسعودى » .

ومن مؤلفات البيرونى كتاب « التفهيم فى صناعة التنجيم » وهو فى مقدمات علم الهيئة والهندسة والنجوم بطريق السؤال والجواب . وقد ألفه حول سنة ٤٢٠ / ١٠٢٩ (وقيل سنة ٤٢٥ / ١٠٣٣) ، وقدمه لريحانة بنت الحسن الخوارزمية ، وكتبه باللغتين العربية والفارسية ، غير أنه جعل إحداهما ترجمة للآخر (١) .

ومن مصادر العصر السلجوقى كتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى (ت ٤٦٣ هـ) . ولو لم يكن للخطيب البغدادى كما يقول ابن خلكان (٢) «سوى التاريخ لكفاه » . وقد خلف الخطيب البغدادى نحو مائة كتاب . وكان فقيها يغلب عليه الحديث والتاريخ . وكان الخطيب البغدادى حافظ المشرق كما كان ابن عبد البر صاحب كتاب « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » حافظ المغرب . وقد ماتا فى سنة واحدة .

وكتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام من أمهات الكتب التى يعتمد عليها فى دراسة تاريخ الدولة العباسية من تأسيس مدينة بغداد فى عهد أبى جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ إلى سنة وفاة هذا المؤلف . ويشتمل هذا الكتاب على وصف مدينة بغداد وأخبار من عاش فيها من الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء وغيرهم . ويقع هذا الكتاب فى أربعة عشر مجلدا ، ويتناول تاريخ الدولة العباسية فى أزهى عصورها وفى أيام انحلالها .

ومن أشهر المؤرخين على بن أحمد بن أبى الكرم بن الأثير (ت ٦٣٠ / ١٢٣٢) الجزرى ، وينسب إلى موطنه الأصلى جزيرة ابن عمر القريبة من الموصل ، ونشأ بها ، ثم

---

(١) ويوجد من هذا الكتاب نسخ عديدة فى مكتبات أوربا . انظر كتاب جهار مقالة ، تعليقات ميرزا محمد ، الترجمة العربية ص ١٤٦ — ١٤٨ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٦ .

سار إلى الموصل وأخذ العلم على بعض علمائها، ثم قدم بغداد مرارا بعد أن أدى فريضة الحج وسمع من شيوخها . ثم رحل إلى الشام وبيت المقدس وسمع بها، ثم عاد إلى الموصل مسقط رأسه وانصرف إلى العلم والتأليف ، واشتهر بتبحره فى علم الحديث والتاريخ وعلم الأنساب. وقد اختصر كتاب الأنساب للسمعانى واستدرك عليه فى مواضع كثيرة وسماه كتاب « اللباب فى معرفة الأنساب » ، ويقع فى ثلاث مجلدات .

وقد لقى ابن الأثير شمس الدين بن خلكان (ت ٦٨١ هـ) فى مدينة حلب سنة ١٢٢٩/٦٢٧ هـ وتردد عليه كثيراً وانتفع بعلمه وأثنى على فضله وتواضعه وكرم أخلاقه. وفى السنة التالية رحل ابن الأثير إلى دمشق ثم عاد إلى حلب حيث انتفع ابن خلكان بعلمه ، ثم عاد إلى الموصل .

ويعتبر كتاب « الكامل فى التاريخ » من المصادر الأصيلة التى يعتمد عليها فى دراسة التاريخ الإسلامى ، وعلى الأخص مايتعلق منه بالحوادث التى وقعت بعد سنة ٣٠٢ هـ ، وهى السنة التى انتهى إليها الطبرى فى تاريخه . والجزء الذى تناول فيه ابن الأثير الكلام على بنى بويه من أهم ما كتب عن هذه الدولة . ولعل ابن الأثير استمد أكثر معلوماته عن بنى بويه مما كتبه المسعودى عن صدر هذه الدولة فى شىء من الإسهاب .

وكذلك يمكن الاعتماد على ما كتبه ابن الأثير عن السيرة النبوية حيث نجد معلومات هامة مركزه ، وكذلك ما كتبه عن الفتوح الإسلامية فى جزائر البحر الأبيض المتوسط ، وعن غزوات المغول على يد چنكيزخان إلى سنة ٦٢٨ هـ ، أى إلى ما قبل وفاته بسنتين .

على أنه يلاحظ على كتاب الكامل لابن الأثير كثير من الجمود والغموض اللذين يدعوان إلى الملل والسأم ويبعدان عن التشويق فى كثير من الأحيان .

وقد خلف لنا ابن الأثير كتابه عن تاريخ الدولة الأتابكية فى الموصل ، ويسمى التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (بالموصل). وقد تناول فيه الكلام على بيت زنكى منذ ولاية آق سُنْقر والد عماد الدين زنكى إلى عهد السلطان مسعود (٤٧٧ — ٦٠٧ هـ) . وأسرة زنكى هذه هى الأسرة التى نشأت فى كنفها أسرة ابن الأثير . وفى هذا الكتاب اعتراف بفضل أسرة زنكى عليه[1] . وقد عبر ابن الأثير عن وفائه لهذه الأسرة فخص أحد أحفاد زنكى وهو الملك القاهر (٦٠٧ — ٦١٥ هـ) بكتابه « الباهر » الذى أهداه إليه .

---

(١) وقد نشر هذا الكتاب فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية أى فى الجزء الثانى من المجموعة الشرقية .

ويعد كتاب « الباهر » مصدراً رئيسا لتاريخ أسرة زنكى ، ويشتمل على معلومات قيمة عن سيرة عماد الدين زنكى . وقد نقل ابن الأثير هذه المعلومات المفصلة عن أبيه الذى عاش تحت كنفهم . كما يمدنا ابن الأثير بمعلومات هامة عن نظام الجيش وفرقه وأساليب القتال ونظام الاقطاع فى عهد هذه الأسرة ، وعن سياسة زنكى فى الموصل وإربل وجزيرة ابن عمر ومناطق الأكراد .

أما المناطق الأخرى كبغداد والجزيرة ودمشق وحلب فقد اعتمد ابن الأثير فى كتابه « الباهر » على ما دونه أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ / ١١٨٨) فى كتابه « الاعتبار » أو « حياة أسامة » . ويعد هذا الكتاب من المصادر الهامة لأن مؤلفه عاصر عماد الدين زنكى سنين عدة واتصل به اتصالا وثيقا ووقف على حياته السياسية والخاصة ، وكان شاهد عيان لما جرى فى عهده من أحداث وأمور .

كذلك اعتمد ابن الأثير فى كتابه « الباهر » على يحيى بن أبى طى [1] (١٣٠٢ / ١٢٣٢ — ١٢٣٣) والقاضى بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢ / ١٢٣٤) فى كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (يعنى صلاح الدين يوسف بن أيوب) .

ويتبع ابن الأثير فى كتابه « الباهر » التسلسل الزمنى للأحداث التاريخية اللهم إلا إذا استثنينا ما كتبه عن سيرة عماد الدين زنكى . ويتسم ابن الأثير فى كتابه « الباهر » بالتحيز لعماد الدين زنكى والمغالاة فى مدحه ويغفل اخطاءه ولعل مرد ذلك أنه قدم هذا الكتاب هدية لأحد أحفاد عماد الدين زنكى ونرى ابن الاثير أقل تحيزا لزنكى فى كتابه « الكامل فى التاريخ » .

ومن مؤلفات ابن الأثير كتاب « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » ويقع فى ستة أجزاء

---

(١) وأصله من حلب . وقد اعتنق (كأبيه من قبله) العقائد الشيعية . ومن مؤلفاته كتاب « معجم شعراء الشيعة » و « رسالة فى فضائل الأئمة الاثنا عشرية » . كما وضع ترجمة حياة صلاح الدين الأيوبى فى متناول أيدينا عن طريق أبى شامة (ت ٦٦٥ / ١٢٦٧ — ١٢٦٨) وتقى الدين المقريزى (ت ٨٤٥ / ١٤٤١) ، وله « شرح لامية العرب » للشنفرى (بكسر الشين وسكون النون وفتح الفاء والراء) الذى وضعه سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) .

انظر مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الشرقيون) ج ١ ص ٤٠٧ حاشية رقم ٣ مقدمة ب . ل . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥١٧ — ٥١٨ .

وهناك كتاب « الاصابة فى تمييز الصحابة » لشهاب الدين ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٣ / ١٤٤٩) [١] .

ومما يؤخذ على ابن الأثير ركاكة عباراته وغموضها فى كثير من الأحيان ، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية مؤلفاته التى تتميز بغزارة المادة التاريخية وعمق الفكرة ودقة البحث .

ومن أشهر العلماء فى هذا العصر الحافظ أبو سعد (ويقال أبو سعيد) عبد الكريم التميمى السمعانى المتوفى سنة ٥٦٢ هـ . وقد ولد السمعانى بمدينة مرو حاضرة خراسان سنة ٥٠٦ هـ ، وتبحر فى الفقه والحديث والأنساب ، واختلف فى سبيل طلب العلم إلى كثير من البلدان ، إذ رحل إلى بلاد ماوراء النهر وخراسان وإلى قومس والرى وأصبهان وهمذان وبلاد الجبل والعراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وغيرها من البلاد . ولقى فى رحلاته كثيراً من العلماء الذين أخذ عنهم وروى عنهم حتى قيل إن عدد شيوخه قد نيف على الأربعة آلاف ، ولو أن هذا الكلام يتسم بكثير من المبالغة.

وقد خلف لنا السمعانى كثيراً من الكتب نخص بالذكر منها : كتاب « تذييل تاريخ بغداد » للخطيب البغدادى ويقع فى نحو خمسة عشر مجلدا . كما خلف « تاريخ مرو » الذى يزيد على عشرين مجلدا . ولعل أشهر كتب السمعانى كتاب « الأنساب » ويقع فى ثمان مجلدات . وقد نشر فى سلسلة ذكرى جب التذكارية رقم ٢٠ (١٩١٢) . وقد لخص ابن الأثير كتاب الأنساب للسمعانى ويعرف باسم « اللباب فى معرفة الأنساب » .

وكان أبو سعد السمعانى من بيت علم ودين . فقد ظهر من هذا البيت كثير من العلماء والرؤساء . وكان أبوه محدثا وفقيها [٢] .

ومن أشهر مؤرخى هذا العصر نجم الدين عمارة اليمنى الذى نبغ فى الشعر والفقه والتاريخ الذى تقدمت الإشارة إليه عند كلامنا على الشعر ونظم الحكم . وقد أقصاه إخلاصه للفاطميين عن عطف الأيوبيين وانتهت حياته الحافلة بشنقه فى شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) لاتهامه بالاشتراك فى التآمر لإعادة سلطان الفاطميين . وقد خلف لنا عمارة اليمنى هذه المؤلفات التى تعد ذخيرة علمية وهى :

---

(١) ويقع فى ستة أجزاء (القاهرة ١٢٨٠ هـ) وقد قام سبرنجر على طبعه (كلكتا ١٨٥٦ — ١٨٧٣) ، (والقاهرة ١٢٨٠ هـ ، ١٣٢٣ هـ) .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٧٨ — ٣٨٠ .

(١) كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية (باريس ١٨٩٧) .

(٢) كما خلف لنا عمارة تاريخ حياته .

(٣) كتاب تاريخ اليمن ، وعليه المختصر المنقول من كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون، ثم أخبار القرامطة باليمن تأليف القاضى البهاء الجندى (لندن ١٣٠٩ هـ) .

ومن أشهر علماء هذا العصر ومؤرخيه الحافظ جمال الدين عبد الرحمن بن جعفر بن الجوزى (١) الذى ينتسب إلى أبى بكر الصديق . وقد عاش ببغداد ، وكان ، كما وصفه ابن خلكان ، علامة عصره وإمام وقته فى الحديث والوعظ . وقد ألف فى كثير من أنواع العلوم ، ومن مؤلفاته .

(١) زاد المسير فى علم التفسير ويقع فى أربعة مجلدات .

(٢) الموضوعات ويتناول الأحاديث الموضوعة ويقع فى أربعة مجلدات .

(٣) تلقيح فهوم الأثر وهو تعليق على كتاب المعارف لابن قتيبة .

(٤) لقط المنافع فى الطب .

(٥) وربما كان أهم كتب أبى الفرج بن الجوزى جميعا كتاب « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم (٢) .

وقد قيل إن الكراريس التى كتب أبو الفرج بن الجوزى كثيراً منها بخطه لو جمعت وقسمت على أيام حياته لكان له كل يوم تسع كراريس . وهذه المبالغة إن دلت على شىء فانما تدل على غزارة علمه وكثرة مؤلفاته . وقد توفى ابن الجوزى ببغداد سنة ٥٩٧ هـ (٣) .

ويعد كتاب « تاريخ جهان » كشا أو « تاريخ فاتح العالم » (أى چنكيزخان) الذى ألفه عطا ملك الجوينى (بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء) من أهم المصادر التى يعتمد عليها فى تاريخ المغول . ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء ، يتناول الجزء الأول منها الكلام على أصل المغول وغزوات چنكيزخان ، والثانى يبحث فى تاريخ ملوك خوارزم المعروفين باسم «خوارزمشاه» ، والثالث يتحدث عن الحشاشين أو إسماعيلية حصن ألموت وقهستان وحروب هولاكو معهم .

---

(١) الجوزى نسبة إلى موضع يقال له فرضة الجوز .

(٢) يقع فى خمسة أجزاء مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الدكن بالهند (١٣٥٩ هـ) .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٢٠ — ٣٢٢ .

وقد نشر هذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء ضمن سلسلة جب التذكارية وحققه الأستاذ محمد عبد الوهاب القزوينى (١) .

ويعتبر كتاب « تاريخ دولة آل سلجوق » من أهم المصادر التى يعتمد عليها فى دراسة تاريخ السلاجقة . وقد ألف هذا الكتاب أبو شروان خالد بن محمد القاشانى وزير الخليفة المسترشد العباسى (٥١٢ — ٥٢٩ هـ) ، ثم ترجمه إلى العربية عماد الدين الأصفهانى (ت ٥٩٧ هـ) الكاتب المشهور وصاحب كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » ، ثم اختصر هذه الترجمة الفتح بن على بن محمد البندارى (بضم الباء وسكون النون وكسر الراء) الأصفهانى فى سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦ م) .

ويتناول مختصر البندارى فى تاريخ آل سلجوق تراجم سلاطين السلاجقة وعلاقتهم بالخلفاء العباسيين فى عهدهم ، كما يبحث نشأة دول الأتابكة ، ويتناول الكلام على الوزراء وما قام به الإسماعيلية من الأعمال العدوانية ضد السلجوقيين (٢) . وقد لخص البندارى كتاب الشاهنامة للفردوسى بأسلوب نثرى . على أنه يؤخذ على كتاب تاريخ دولة آل سلجوق للبندارى ركاكة الأسلوب وغموضه وتعقيد المعانى فى كثير من الأحيان .

ومن المصادر التاريخية باللغة الفارسية كتاب « منهاج السراج » للجوزجانى (٣) . وله أيضا كتاب « طبقاتى ناصرى » . وقد ولد حول سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) والتحق ، كأبيه وجده ، بخدمة ملوك الغور . وفى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) خرج الجوزجانى إلى الهند والتحق بخدمة السلطان ناصر الدين قباجة (بضم القاف) ، وظل الجوزجانى فى خدمته حتى انهزم بعد سنة ، فالتحق بخدمة شمس الدين إيلتتمس الذى تغلب على قباجة ، وأهدى كتابه منهاج السراج إلى ابنه ناصر الدين محمود .

ويشتمل كتاب « طبقاتى ناصرى » على عشرين فصلا تبدأ بالأنبياء والأولياء وتنتهى بغارة المغول التى تناول المؤلف الكلام عليها فى شىء من التفصيل الذى لانجده فى المراجع الأخرى . وقد طبع الكاتب « نساو ليز » جزءا من هذا الكتاب ترجمه رافيرتى فى سلسلة

---

(١) وقد اعتمد دوسون على هذا الكتاب كثيراً فى تأليف كتابه تاريخ المغول .
Histoire des Mongols
انظر براون : تاريخ الأدب فى إيران : الترجمة العربية للدكتور الشوارب . ج ٢ ص ٥٩٩ — ٦٠٠ .

(٢) نشر المستشرق هوتسما الفصلين الثالث والأخير من هذا الكتاب .
راجع براون : تاريخ الأدب فى إيران : الترجمة العربية ص ٥٩٨ — ٥٩٩ .

(٣) نسبة إلى جوزجان (بفتح الجيم والزاى وسكون الواو) بالقرب من بلخ .

مكتبة الهند . ويتناول هذا الجزء المطبوع الدول المتصلة بالهند ، ويغفل كل ما له صلة بأمراء الطاهريين والصفاريين والسامانيين والديلم والسلاجقة والخوارزميين وغيرهم من الحكام الذين كانت لدولهم أهمية خاصة لدى المعنيين بدراسة تاريخ إيران (١) .

ومن أشهر مؤرخى العصر السلجوقى الأخير جرجيس المكين(٢) (ت ٦٨٠ / ١٢٧٣) . وكتابه « المجموع المبارك » (٣) من أوائل الكتب الأصيلة التى طبعت فى أوربا . وقد نشر المستشرق الهولندى إربنيوس (Erpenius) كتاب المكين مع ترجمته اللاتينية بمدينة ليدن سنة ١٦٢٥ . ثم ترجم برجاس (Purchas) هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية فى السنة التالية . ثم ترجمه فاتيير Vattier إلى الفرنسية سنة ١٦٥٧ (٤) .

ومن أشهر مؤرخى هذا العصر غريغورس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبرى (أى اليهودى) لأن أباه أهرون ترك ديانته اليهودية واعتنق المسيحية . ويعرف ابن العبرى أيضا باسم « جريجوريوس » أو غريغوريوس ، وهو الاسم الذى أطلقه على نفسه سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) عند ما تولى أسقفية جوباس .

ولد ابن العبرى سنة ١٢٢٦ م فى مدينة ملطية بأرمينية الصغرى ، وتعلم فى صغره اليونانية والسريانية والعربية ، ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت . فلما عم الفزع الناس من غارات المغول فرّ به أبوه - وكان طبيبا - إلى مدينة أنطاكية فى سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) .

وقد عاش ابن العبرى عيشة الزهد والنسك وانفرد فى مغارة بالبرية ، ثم سار إلى مدينة طرابلس الشام حيث أتم دراسة البيان والطب ورقى وهو فى العشرين من عمره إلى أسقفية جوباس من أعمال ملطية . وفى سنة ١٢٦٤ م انتخب مفريانا . ويعد هذا المنصب من أكبر المناصب بعد منصب البطريركية (وهو أشبه بكبير رؤساء الأساقفة) (٥) على جهات ما بين النهرين والعراق العجمى . وكان يقيم أحيانا فى الموصل وأحيانا أخرى فى إقليم أذربيجان أى

---

(١) براون : تاريخ الأدب فى إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٥ — ٥٩٦ .

(٢) أو عبد الله بن أبى الياسر بن أبى المكارم بن العميد ، وهو مسيحي مصرى .

(٣) أصبح كتاب « التاريخ المبارك » وكتاب « المختصر فى أخبار البشر » لأبى الفدا صاحب حماه أهم المصادر العربية التى ظلت فى متناول المستشرقين الأوربيين المشتغلين بالتاريخ الإسلامى فترة طويلة .

(٤) انظر براون : تاريخ الأدب فى إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٦ — ٥٩٧ .

(٥) وهى كلمة فارسية معناها المشمر .

فى تبريز والمراغة فى الشمال الغربى من إيران ، ومات فى مدينة المراغة سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) [١] .

وقد ألف ابن العبرى أكثر من ثلاثين كتابا بالعربية والسريانية فى الفلسفة وعلم الهيئة والطب والتاريخ والنحو والشعر وغيرها ، نخص بالذكر منها كتابه المعروف « مختصر تاريخ الدول » . وقد كتبه فى الأصل باللغة السريانية ، ولكن جماعة من كبار المسلمين طلبوا إليه أن ينقله إلى العربية ، ففعل ذلك فى السنوات الأخيرة من حياته ، وطبع هذا الكتاب أكثر من مرة ، وترجم إلى اللاتينية والألمانية ، وطبع فى بيروت سنة ١٨٩٠م فى ٦٣٠ صفحة .

وقد تناول ابن العبرى فى كتابه عشر دول هى :

(١) دولة الأولياء من آدم إلى « البرنساء » أى الناس .

(٢) دولة قضاة بنى إسرائيل .

(٣) دولة ملوك بنى إسرائيل .

(٤) دولة ملوك الكلدانيين .

(٥) دولة ملوك المجوس ، أى ملوك إيران منذ الملك الأسطورى « كيومرت » إلى « دارا » ومقتله على أيدى الإسكندر الأكبر .

(٦) دولة ملوك اليونانيين الوثنيين .

(٧) دولة ملوك الفرنج ويقصد بهم ملوك الرومانيين .

(٨) دولة ملوك اليونانيين المتنصرين أى البيزنطيين .

(٩) دولة ملوك العرب المسلمين .

(١٠) دولة ملوك المغول (إلى سنة ٦٨٣ / ١٢٨٤) ، وهى السنة التى تولى فيها « أرغون » الحكم [٢] .

---

(١) ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول (طبعة بيروت ج س : ح . د . هـ . و .

(٢) وقد كتب « تولدكة » مقالا عن ابن العبرى والعصر الذى عاش فيه نشره فى كتابه « صور من التاريخ الشرقى » ، وقد ترجم جون بلاك هذا الكتاب إلى الإنجليزية .

انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص (القاهره ١٩٢٦) ص ١٠٧ هامش رقم (١) .

براون : تاريخ الأدب فى إيران : الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٣ — ٥٩٥ .

وقد كتب شهاب الدين أحمد النسوى سيرة جلال الدين منكبرتى (١) آخر سلاطين الدولة الخوارزمية ، وقد تولى النسوى ديوان الإنشاء فى بلاط هذا السلطان ودون مذكراته عنه فى كتاب أسماه « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ».

وقد دون هذا المؤلف مذكراته فى سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) ، أى بعد وفاة هذا السلطان بنحو عشر سنوات . وكان النسوى شديد الصلة بهذا السلطان كما كان شاهد عيان للأحداث والمغامرات التى جرت فى حياته . قال هوداس Houdas فى مقدمته لسيرة السلطان جلال الدين منكبرتى (باريس ١٨٩١ — ١٨٩٥) :

« وفى المدة الطويلة التى حكم فيها السلطان جلال الدين ، لم يتركه النسوى إلا فى فترات قليلة نادرة كان يؤدى له فيها بعض المهمات الخاصة . وكان النسوى إلى جواره ليلة هربه حين هم أحد الأكراد بقتله بخنجره . لذلك يمكن القول بأن كتاب « سيرة جلال الدين منكبرتى » من أصدق ما كتب عنه ، إذ كان المؤلف ملازما لهذه الأحداث ، وكان يكشف عن أسبابها وعللها ، كما أستطاع أن يتحدث عن سيرته وما جرى فى عهده من أحداث فى صراحة تامة ، إذ أنه كتب هذه السيرة بعد وفاة صاحبها بنحو عشر سنوات على الرغم من أنه كان متحفظاً بعض الشىء ، لأنه كان بطبيعة الحال يحرص على ألا يمس بعض أصدقائه الذين عاصروا هذه الأحداث بسوء (٢) .

على أن التزام النسوى للسجع والمحسنات البديعية قد فوت عليه كتابة كثير من الأحداث التاريخية فى دقة ووضوح . ومع ذلك فقد كان النسوى يجيد اللغتين التركية والفارسية ، ولكنه كان ضعيف الكتابة باللغة العربية . لذلك لجأ إلى المحسنات البديعية ليستر بها هذا الضعف . وقد اعترف النسوى بأنه ليس من مؤرخى العصر البارزين أو من كتابه النابهين .

ولم يقتصر النسوى على سرد تاريخ السلطان جلال الدين منكبرتى . فقد استهل كتابه بسرد حوادث المغول الأول وتتبع أحداثهم حتى حطوا رحالهم على حدود الشرق الإسلامى . ثم تكلم على تاريخ الدولة الخوارزمية فى عهد علاء الدين محمد خوارزمشاه الذى يعد بحق أشهر سلاطين هذه الدولة ، وعن صراعه مع المغول ، ثم اهتم بتاريخ الدولة الخوارزمية فى عهد آخر سلاطينها وهو جلال الدين منكبرتى (٣) .

---

(١) بفتح الميم وسكون النون وضم الكاف وكسر الباء .

(٢) انظر براون : تاريخ الأدب فى إيران : الترجمة العربية ج ٢ ص ٦٠١ — ٦٠٢ .

(٣) سيرة جلال الدين منكبرتى (نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدى (القاهرة ١٩٥٣) ص ٢٤ — ٢٥ .

كتاب التراجم :

وقد حفل العصر السلجوقى بعدد من كتاب التراجم نذكر منهم القفطى (ت ٦٤٦ / ١٢٤٨) وابن أبى أصيبعة ومحمد عوفى وابن خلكان .

ولد جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى وزير حلب (ويعرف بالقاضى الأكرم) بمدينة قفط من أعمال صعيد مصر سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) حيث رحل إليها آباؤه من مدينة الكوفة ، ويرجع نسب أمه إلى قبيلة قضاعة .

وقد أخذ القفطى العلم بمدينتى قوص والقاهرة حتى بلغ الخامسة عشرة من عمره . ثم قلد صلاح الدين الأيوبى أباه يوسف القضاء بمدينة القدس حيث التحق على بأسرته وأقام فيها حتى ذهب أبوه سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ م) إلى حران ، وكانت من أهم مراكز الدراسات الفلسفية اليونانية فى آسيا حتى إنها سميت « هلينوپوليس » . وقد تقلد يوسف أبو على الوزارة للملك الأشرف الأيوبى وأدى فريضة الحج بمكة حيث مات سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) .

انتقل على بن يوسف المشهور بالقفطى إلى حلب حيث تقلد الخراج ولقب القاضى الأكرم ، واشتهر بالكفاية والأمانة وولع بالاستزادة من العلم وتشجيع رجاله . ومن هؤلاء ياقوت الحموى (أو الرومى) الذى فر من خراسان إلى هذه المدينة أمام غارات المغول ، فشمله القفطى بعطفه وأحاطه برعايته . ثم تولى القفطى الوزارة للملك العزيز الأيوبى ، فظل فيها إلى أن مات سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) .

وقد ألف القفطى كثيراً من الكتب ذكر منها ياقوت الذى توفى قبله بنحو عشرين سنة ، كتاب « تاريخ الحكماء » الذى يشتمل على معلومات ذات غناء استمد كثيراً منها من كتاب معجم الأدباء لياقوت . ويشتمل كتاب تاريخ الحكماء على ٤١٤ سيرة من سير الفلاسفة والأطباء والرياضيين والمنجمين الذين ظهروا فى مختلف العصور حتى أيامه [١] .

وهذا الكتاب الذى رتبه مؤلفه على الحروف الهجائية وليس وفقا للترتيب الزمنى هو مختصر من الكتاب الأصلى الذى وضعه القفطى . وقد أفاد منه كثير من أهل عصره ومن الكتاب المتأخرين ، نخص بالذكر منهم ابن أبى أصيبعة وابن العبرى وأبا الفدا ، وقد نشر مرجليوث كتاب تاريخ الحكماء [٢] كما طبع هذا الكتاب فى القاهرة .

---

(١) وقد طبع هذا الكتاب فى لايبسك سنة ١٣٤٠ / ١٩٠٢ .

(٢) راجع براون : تاريخ الأدب فى إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٣ .

أما ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٩ / ١٢٧٠) مؤلف كتاب « طبقات الحكماء » فقد ولد في مدينة دمشق سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) حيث درس الطب فيها وفي مدينة القاهرة وزاول كأبيه هذه المهنة واختص بطب العيون ، واشتغل فترة من حياته بأحد المستشفيات التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي في مدينة القاهرة .

وقد نشر مولر هذا الكتاب في مدينة كونجزبرج سنة ١٨٨٤ م ، كما نشر في القاهرة سنة ١٨٨٢ ، واعتمد وستنفلد اعتماداً كليا على كتاب ابن أبي أصيبعة في كتابه الذي ألفه بالألمانية وعنوانه : « تاريخ الطب والنبات عند العرب » (جوتنجن ١٨٤٠) (١) .

ومن كتب التراجم كتاب « لباب الألباب » وكتاب « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » لمحمد عوفي . ويرجع نسبه إلى عبد الرحمن بن عوف الصحابي المشهور . وقد قضى عوفي معظم طفولته في خراسان وبلاد ماوراء النهر ولا سيما في مدينة بخارى . ثم رحل إلى الهند والتحق بخدمة السلطان « ناصر الدين قباجه » (بضم القاف) ، وأهدى إلى وزيره عين الملك حسين الأشعري معجمه الذي صنفه عن شعراء الفرس باسم « لباب الألباب » . فلما اغتيل هذا السلطان سنة ٦٢٦ / ١٢٢٨ بقي عوفي في خدمة السلطان الذي قهره وهو شمس الدين إيلتتمش وأهدى إليه كتابه « جوامع الحكايات » . وهو عبارة عن مجموعة واسعة من الحكايات تنقسم أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على خمسة وعشرين بابا ويشتمل كل باب على مجموعة من الحكايات في أسلوب سهل بسيط .

أما كتاب « لباب الألباب » فهو مجموعة مقالات كتبها عوفي عن شعراء الفرس الأوائل . ويعتبر من أهم الكتب في الأدب الفارسي ، ويشتمل على تراجم بعض الشعراء الذين كادت أخبارهم أن تندرس تماماً . ولم يرد ذكرهم قبل ذلك على الرغم من خلو هذا الكتاب من التواريخ الدقيقة أو التفاصيل الممتعة فضلا عن مختاراته الرديئة عن أقوال الشعراء . ويلاحظ أن المؤلف أهمل جماعة من الشعراء المشهورين كناصر خسرو وعمر الخيام . وعلى الرغم من ذلك كله يعتبر هذا الكتاب ، كما يقول براون ، من الكتب القيمة ، إذ أنه يشتمل على نحو ثلثمائة من تراجم شعراء الفرس الذين ظهروا قبل السعدي . وقد تم طبع الجزأين ، وهما من أهم المراجع التي يعتمد عليها الباحثون في دراسة شعراء الفرس .

---

(١) انظر براون ، المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٠٥ .

وكتاب « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان [١] (ت ١٢٨٢/٦٨١) من أهم المراجع التي لاغنى عنها لطلاب الدراسات الإسلامية . ولا ريب أنه يحتل المكانة الأولى بين كتب التراجم . وقد بدأ ابن خلكان في تصنيفه في القاهرة سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ، وانتهى منه في سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م)[٢].

وينتسب ابن خلكان إلى البرامكة ، وولد في إربل سنة ٦٠٨ / ١٢١١ . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره انتقل إلى حلب ، ثم إلى دمشق ، ثم إلى القاهرة ، ثم إلى الإسكندرية حيث شغل كثيراً من المناصب في التعليم والقضاء .

وقد عنى الكتاب بعد ابن خلكان بتذييل معجمه الكبير « وفيات الأعيان » ، فوصل فضل الله الصَّفاعي كتاب وفيات الأعيان إلى سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م) . ثم صنف ابن شاكر الكتبي (ت ١٣٦٢/٧٦٤) كتابه « فوات الوفيات » وهو تتمة أيضاً لكتاب وفيات الأعيان .

التواريخ المحلية

وهناك تواريخ محلية خاصة بالمدن والأقاليم ، ومن هذه التواريخ ما يتعلق بتاريخ مكة أو المدينة أو الحجاز .

وممن ألف في تاريخ مكة الأزرقي (ت ٨٥٨/٢٤٤) والفاكهي (ت ٨٨٥/٢٧٢) . ويعتبر كتاب « أخبار المدينة » لعمر بن شَبَّة (بفتح الشين والباء مع التشديد) (ت ٢٦٢ هـ) من أهم مصادر المدينة المنورة . فقد عني بوصفها من الناحية التخطيطية (أو الطبوغرافية) معتمداً على مشاهداته الشخصية وما نقله عن كثير من الرواة ، وتكلم عن آبارها ووديانها وأسواقها ومساجدها ، وتناول الكلام عليها من الناحية الاجتماعية ولا سيما خطط المهاجرين وعشائرهم ودورهم وأخبارهم . ولابن شَبّة كتب أخرى عن البصرة والكوفة ومكة . ويروى الطبري أخبار ابن شَبّة التي رواها عن المدائني وزاد عليها زيادات شاملة حتى أصبحت مرجعاً أساسياً لمن أتى بعده من المؤرخين .

---

(١) بفتح الخاء وكسر اللام مع التشديد .

(٢) وقد نشره وستنفلد (١٨٣٥ — ١٨٤٣) وطبع أكثر من مرة ، كما ترجمه دي سلان إلى الإنجليزية في أربعة مجلدات (١٨٤٢ — ١٨٤٨) ، وطبع أخيراً في القاهرة (١٩٤٨/١٣٦٧) بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

وممن كتب عن المدينة الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) . ويعد كتابه « أخبار المدينة » من الكتب التى لعبت بها يد الدهر . وقد اعتمد البكرى وياقوت الحموى على ما كتبه الزبير عن المدينة(١) .

وهناك تواريخ محلية أخرى تتعلق بتاريخ فارس وخراسان وطبرستان والعراق ومصر والمغرب وغيرها .

ومن هذه التواريخ « تاريخ طبرستان » تأليف محمد بن الحسن بن إسفنديار . وقد اعتمد فى وضع كتابه الفارسى على النسخة العربية من كتاب « تاريخ طبرستان » التى عثر عليها فى مكتبة الملك « رستم بن شهريار » وقام بتأليفها اليزدادى فى أيام قابوس بن وشمكير (٣٦٦ — ٤٠٣/٩٧٦ — ١٠١٢) . وبعد ذلك عاد ابن إسفنديار إلى آمل ثم انتقل منها إلى مدينة خوارزم وقال عنها إنها مدينة عامرة برجال العلم والأدب ، ووجد فيها كثيرا من المادة التى ساعدته على استكمال كتابه . ومن المرجح أن ابن إسفنديار مات على أيدى المغول فى أثناء غارتهم على خوارزم فى سنة ٦١٧/١٢٢٠ .

وتشتمل الأجزاء الأولى من هذا الكتاب على كثير من الأمور المتصلة بالأساطير ، فإذا وصل ابن اسفنديار إلى العصر الإسلامى أفاض فى ذكر الحقائق التاريخية والجغرافية والإخبارية وخاصة التفاصيل التى تتعلق بسير المشهورين من الرجال المحليين سواء فى طبرستان أم فى خارجها ولا سيما سير الشعراء الذين نظموا أشعارهم باللهجة الطبرية المستعملة استعمالا واسعاً فى طبرستان .

وقد انتهى ابن إسفنديار من تاريخه حتى سنة وفاة رستم بن أردشير سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ، ثم جاء مؤرخ آخر فاستكمل هذه الأحداث التاريخية إلى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) .

وقد ألف أبو سعد السمعانى (ت ٥٦٢ هـ) « تاريخ مرو » ، ويقع فى أكثر من عشرين مجلداً كما تقدم .

وهناك تواريخ محلية أخرى كثيرة فى الأدب الفارسى شبيهة بتاريخ ابن إسفنديار تتعلق بتاريخ بعض المدن الإيرانية مثل أصفهان ، وشيراز ، وقُمّ ، وهراة ، وسجستان ، وشُستر ، ومؤلفات أخرى وضعت عن طبرستان وحدها ، ولا زال أغلب هذه المؤلفات

---

(١) صالح أحمد العلى : « المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز (بحث مُسْتَلّ من المجلد الحادى عشر لمجلة المجمع العلمى العراقى (بغداد ١٣٨٣/١٩٦٤) ص ١٥ — ٢٠ .

مخطوطاً.[١] ومن هذه التواريخ المحلية كتاب « تاريخ خوارزم » لأبى الريحان البيرونى ، وقد أورد البيهقى عدة فصول من هذا الكتاب فى كتابه « تاريخ المسعودى »،[٢] ويعتبر هذا الكتاب مفقودا .

ومن كتب التاريخ التى ألفت عن دولة معينة تاريخ العُتْبى « تاريخ اليمينى » نسبة إلى السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى ، وقد كتب العتبى هذا الكتاب باللغة العربية ، ثم ترجمه إلى الفارسية ناصح الجزباذقانى[٣] ، وقد طبعت هذه الترجمة على الحجر فى طهران سنة ١٢٧٢ هـ (١٨٢٥ م) . ثم نقلت إلى التركية والإنجليزية .

ومن كتب التاريخ الخاصة التى نقلت عن دولة معينة كتاب « تاريخ جهان كُشا » أو « تاريخ فاتح العالم »[٤] لمؤلفه عطا مَلِك الجوينى (بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء) .

ومن الكتب المحلية التى ألفت بالعربية كتاب « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادى ، وكتاب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » لعبد الواحد المراكشى ، وكتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » لتقى الدين المقريزى ، وكتاب « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » للمقرى .

(ب) مصادر العصر المغولى الأول

إن المصادر التى يعتمد عليها المؤرخ فى استقصاء غزوات المغول ، وحصار بغداد على يد هولاكو وزوال الخلافة العباسية وما كان لذلك من أثر تكاد تكون فارسية فى جملتها . فإن ابن الأثير (ت ٦٣٠ / ١٢٣٢) قد تناول غزوات المغول الأولى إلى سنة ٦٢٨ هـ وهى آخر السنين التى تناول فيها الحوادث التاريخية فى كتابه « الكامل فى التاريخ » .

وقد أمدنا بعض المؤرخين بمعلومات ذات غناء عن غزوات المغول من أمثال

---

(١) براون : تاريخ الأدب فى إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٦٠٨ — ٦١٠ .

(٢) انظر ما ذكرناه عن البيرونى نقلا عن كتاب جهار مقاله لنظامى عروضى السمرقندى ، الترجمة العربية ، الحواشى ص ١٤٦ .

(٣) نسبة إلى جزباذقان ، وهو مكان بين استراباذ وجرجان من نواحى طبرستان .

(٤) ويقصد بعبارة فاتح العالم « جنكيزخان » .

ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ / ١٢٢٩) فى كتابه « معجم البلدان » وقد اختصره عبد المؤمن ابن عبد الحق (ت ٧٣٩ / ١٣٣٨)[١] .

وممن كتب عن المغول أبو الفرج الملطى المعروف بابن العبرى (ت ٦٨٥/١٢٦٦) . وقد طبع كتابه « تاريخ مختصر الدول » أكثر من مرة وترجم إلى اللاتينية والألمانية كما تقدم ، وقد تناول فى كتابه عشر دول ، وتناول فى الباب العاشر (دولة المغول إلى سنة ٦٨٣ / ١٢٨٤) وهى السنة التى تولى فيها أرغون إيلخان المغول فى فارس الحكم .

ومن هؤلاء أيضاً ابن طباطبا (ت ٧٠٩ / ١٣٠٥) ؛ فقد وصف فى كتابه « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » الذى انتهى من تأليفه فى سنة ٧٠١ هـ المستعصم آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد وبين كيف استولى عليه أصحابه من الجهال وما عرف عنه من سوء التدبير والانصراف إلى اللهو واستهتاره بقوة التتار وعدم أخذه الحيطة لمواجهة خطرهم .

وممن تناول غزوات المغول الأولى : ابن خلكان (ت ٦٨١ / ١٢٨١) فى كتابه وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، وابن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤ / ١٣٦٢) الذى يعتبر كتابه « فوات الوفيات » متمما لكتاب ابن خلكان ، وتاج الدين السبكى (٧٧١ / ١٣٧٠) فى كتابه « طبقات الشافعية الكبرى » ، وعماد الدين (إسماعيل بن عمر) بن كثير (٧٧٤ / ١٣٧٢ — ١٣٧٣) فى كتابه « البداية والنهاية » ، وابن بطوطة (٧٧٩ / ١٣٩٤) ، وابن خلدون (ت ٨٠٨ / ١٤٠٥) فى كتابه المسمى « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، والقلقشندى (ت ٨٢١ / ١٤١٨) فى كتابه « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » والمقريزى (٨٤٥ / ١٤٤١) فى كتابيه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » و « السلوك فى معرفة دول الملوك » .

أما عن المصادر الفارسية فأشهرها ثلاثة :

(١) تاريخ « جهان كُشا »[٢] Taîrikhi - Djihan - Kushai

أو « تاريخ فاتح العالم » (يقصد جنكيزخان) تأليف علاء الدين عطا ملك الجوينى وزير

---

(١) ويقع فى أربعة أجزاء (طبعة جوينبل ، لندن ١٨٥٣)

(٢) وقد نشر « شيفر » جزءاً من هذا الكتاب فى الجزء الثانى من كتابه « مختارات فارسية » ج ٢ ص ١٠٦ — ١٦٩ . ويبدأ بغارة المغول على خوارزم وينتهى بغارتهم على نيسابور . ونشر « كترمير » جزءاً آخر مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٣٦ ويتناول أحوال هولاكو ، ونشر « برزين » (Berésine) جزءاً آخر من هذا الكتاب ، وقد تم طبع هذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء .

هولاكو . ويعد من أحسن الكتب المعاصرة ومن أقدم المراجع التى كتبت عن تاريخ المغول وانتصاراتهم . وقد تنقل «عطا ملك» بين ربوع منغوليا ، فوصف ما شاهده وصفاً دقيقاً ، وإليه وإلى « وليام روبروك » يرجع الفضل فى وصف مبانى المغول وكثير من وقائع چنكيزخان.

(٢) طبقاتى ناصرى أو منهاجى سراج الجوزجانى (كلكتا ١٨٦٤) للجوزجانى الذى ألفه بعد سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) بسنتين . وكان الجوزجانى أحد المؤرخين المعاصرين لهولاكو .

(٣) تاريخ المغول ، ويعرف بجامع التواريخ (لندن ١٩١٠)[١] . وقد انتهى رشيد الدين فضل الله الهمذانى (ت ٧١٨) من تأليفه سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) . وقد أفاض رشيد الدين فى تاريخ إيلخانات المغول فى فارس ، وخصص الجزء الأول من هذا الكتاب لحياة هولاكو (ص ٨٥ — ٤٢٥) . وقام كتيرمير بترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية بعنوان Histoire des Mongols de la Perse: Rachid El Din

ويمدنا هذا الكتاب بشىء كثير عن حصار بغداد على أيدى المغول . ويعد أوفى هذه المصادر وأهمها ، وقد قامت وزارة الثقافة والإرشاد القومى (ج . ع . م) على ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية .

(٤) وهناك مصدر آخر لا يقل أهمية عن المصادر السابقة هو كتاب تجزئة الأمصار أو « تاريخى وصاف » الذى كتبه بالفارسية عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف الحضرة ومؤرخ حياة غازان (٦٩٤ — ٧٠٣ / ١٢٩٥ — ١٣٠٤) ، أشهر إيلخانات المغول فى فارس . وقد ولد ابن فضل الله سنة ٦٦٣ هـ ، أى بعد حصار بغداد بسبع سنين ، ولا يبعد أن يكون قد أخذ من المؤرخين الذين شهدوا حصار مدينة بغداد على يد هولاكو[٢] .

وهناك مصادر أوربية حديثة تمدنا بتفاصيل وافية عن تاريخ المغول نذكر منها ثلاثة تعتبر أحسنها وأدقها وهى :

---

(١) وقد طبع هذا الكتاب فى سلسلة « جيب » التذكارية .

(٢) راجع مقال الأستاذ براون عن هذا الكتاب فى المجلة الأسيوية الملكية بإنجلترا .
J. R. A. S., vol. XL, pp. 17—37.

(١) كتاب Histoire des Mongols (Tamerlan) تأليف البارون «دوسون». ويتناول هذا الكتاب تاريخ المغول من عهد چنكيزخان إلى عهد تيمورلنك. وقد طبع فى أربعة أجزاء استقصى فيها المؤلف تاريخ المغول معتمداً على أحسن المصادر العربية والفارسية كما حدثنا فى مقدمة الجزء الأول من كتابه[١].

ويقول «دوسون» إنه كان لغارات المغول آثار بعيدة، وإن حكومتهم كانت انتصاراً للفساد وانحطاط الخلق، وتاريخهم يتميز بطابع الوحشية والقوة والبطش واضطهاد الشعوب وابتزاز الأموال[٢].

(٢) كتاب History of the Mongols (تاريخ المغول)، تأليف سير هنرى هوورث Sir Henry Howorth، وهو فى ثلاثة أجزاء، يتألف الجزء الثانى منها على المجلدين الثانى والثالث، ويتناول الجزء الثالث (الذى يكوّن المجلد الرابع من الكتاب) الكلام على دولة المغول فى فارس (لندن ١٨٧٦ — ١٨٨٨)[٣].

ويختلف رأى «هوورث» عن رأى «دوسون» فى المغول، ويرى أنه لم يكن بد من القضاء على الترف والفساد اللذين سادا فى ذلك العصر حتى يتكون جيل جديد يقوم على الفضيلة. ويشبّه هوورث المغول بالمعاول التى قوضت هذا الفساد، ويقول إن الفتوحات المغولية قد أدت إلى اتصال أمم الشرق والغرب، وإن الطباعة والبوصلة البحرية والأسلحة النارية وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية قد انتقلت إلى أوربا بتأثير هذه الغارات.

(٣) والمصدر الثالث الذى يسترعى الانتباه وعلى الأخص من حيث تأثيره فى تركيا ونشوء الحركة الطورانية (Pan Turanian Movement) فهو كتاب «مقدمة لتاريخ آسيا والأتراك والمغول إلى سنة ١٤٠٥ م» لمؤلفه «كاهون[٤]».

ويذهب هذا المؤلف إلى أبعد مما ذهب إليه «هوورث» فى إعجابه بالمغول وتمجيده لكل الشعوب التركية وإطرائه صفاتهم الحربية، وما أدوه من خدمات للإنسانية، وتضامنهم السياسى ووقوفهم فى وجه آل ساسان من الفرس وفى وجه النفوذ الإسلامى

---

(١) دوسون ج ٢ ص ١٠ — ٦٨.

(٢) نفس المصدر ص ٧ — ٨.

(٣) Howorth, History of the Mongols, vol. II, pp. 10—11.

(٤) Cahun, pp. 9, 79.

فى فارس . ويقول « كاهون » عن المغول إنهم قوم شجعان أقوياء كرماء ، ويعجب بنظامهم الإدارى الدقيق وانعدام روح التعصب الدينى فيهم .

كذلك يقول « كاهون » إن الحركة الطورانية من الناحية الأدبية ترمى إلى تفضيل الكلمات والتعبيرات والاصطلاحات التركية على العربية والفارسية ، على حين أنها تهدف من الناحية السياسية إلى مزج جميع الشعوب التركية التى تقطن شرقى بحر قزوين وغربيه (ويدخل فى ذلك المغول والتتار) وانضواء هؤلاء جميعاً تحت لواء دولة واحدة ، ثم إلى إقامة إمبراطورية تركية أو طورانية تشبه الإمبراطورية التى قامت على يد چنكيزخان . ولهذا نجد الأتراك فى القرن العشرين يستمدون آراءهم من هذا الكتاب لدعم حركتهم الطورانية .(١)

(٤) أضف إلى ذلك ما ورد عن المغول فى المصادر الأخرى ، نخص بالذكر منها ما كتبه سير توماس أرنولد Thomas W. Arnold فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام(٢) » (لندن ١٩٣٥) عن انتشار الإسلام بين التتار والمغول فى فارس والهند وأوربا ، وما كتبه إدوارد براون Edward E. Browne فى كتابه تاريخ الأدب فى إيران A Literary History of Persia, Vols. II and III.

وهناك طائفة أخرى من المؤرخين كتبوا عن المغول فى فارس وبخاصة فى عصر تيمور من أمثال :

(١) شرف الدين على يَزْدى الذى ألف كتابه « ظفر نامه(٣) » (طبع فى كلكتا فى جزأين فى مجموعة المكتبة الهندية) Bibliotteca Indica. (١٨٨٧ — ١٨٨٨) ويقع فى نحو ١٥٦٠ صفحة .

وقد ألف شرف الدين على يزدى كتابه بأسلوب منمق الألفاظ يمتاز بشىء كثير من الملق والرياء ، ولا غرو فقد أسرف فى مدح تيمور الذى وضع كتابه تحت رعايته . وقد ترجم Mercier de la Petit Croix هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية .

(٢) على أننا نرى من ناحية أخرى مؤرخاً آخر وضع كتاباً فى أخبار تيمور هو كتاب « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » لأحمد بن عربشاه الذى كتب كتابه فى لهجة

---

(١) المصدر نفسه ص ١١١ — ١١٨ .

(٢) الترجمة العربية : لحسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل محمود النحراوى (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧) .

(٣) وليدن ١٨٣٦ م ، والقاهرة ١٢٨٥ هـ .

شديدة ، ووصف هذا الفاتح العظيم بعبارات مثل «هذا الخائن» و « هذا المجرم » و « هذا الكلب المجنون » . ويقول الأستاذ براون (ج ٣ ص ١٨١) : « ولكن لهجة التملق التى انتهجها شرف الدين على يزدى أقل مغالاة من قذف ابن عربشاه ، لأنه لم يستطع إنكار مذابح تيمور وأهرامه من الجماجم » .

(٣) وهناك كتاب تاريخ فارس تأليف سيرجون مالكولم[1] الذى يقول إن قائداً كتيمور أصبح معبود جنده .

وممن كتب فى تاريخ المغول ستانلى ليبنول فى كتابه « الدول الإسلامية » ، وفى كتابه « تاريخ أباطرة المغول فى الهند » ، وما كتبه عن أورانجب فى كتابه « حكام الهند » ، وما كتبه أيضاً لى سترينج فى كتابه « بغداد فى عصر الخلافة العباسية » وبارتولد فى كتابه « هولاكو — بغداد » فى دائرة المعارف الإسلامية .

وكتاب « مختصر تاريخ الهند » هو موجز « كتاب كيمبريدج فى تاريخ الهند » ، ويقع فى ستة أجزاء ، وهذه الكتب كلها بالإنجليزية كما سيتضح عند ذكرها فى مصادر الكتاب .

ويتناول الجزء الثالث من هذا الكتاب الكلام على تاريخ الهند الإسلامية ، ويتناول الجزء الرابع منه الكلام على إمبراطورية المغول فى الهند .

وهناك كتاب ظهر حديثاً عن تاريخ المغول فى الهند هو كتاب « الإمبراطورية المغولية فى الهند » ، وما كتبته السيدة « بيفريدج » عن حياة أكبر خان أعظم أباطرة المغول فى الهند .

(ح) مصادر تاريخ الفاطميين والأيوبيين

ومن الكتب التى ألفها ابن زولاق فى تاريخ مصر سيركافور وجوهر والمعز والعزيز . بيد أن معظم تصانيف ابن زولاق قد تلاشت لسوء الحظ ، ولا يعرف عنها شىء الآن إلا ما أخذه منها غيره من الكتاب الذين جاءوا بعده ، وتصانيف ابن زولاق التى بقيت إلى اليوم هى :

١ — تاريخ مصر .

٢ — سيرة الإخشيد المسماة « العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج » التى نقلها ابن سعيد فى كتاب « المغرب فى حلى المغرب » .

---

(١) History of Persia, pp. 482—483.

٣ — كتاب فضائل مصر (وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس)، وهو مختصر لهذا السفر الكبير الذى ألفه صاحبه عن تاريخ مصر .

ومن مؤلفات العصر الفاطمى كتاب « الديارات » لأبى الحسن على الشابشتى (ت ٣٨٨ هـ) (برلين مخطوط فيمار رقم ١١٠٠) . وهناك كتاب آخر هو كتاب « كنائس وأديرة مصر » لأبى صالح الأرمنى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ . وقد ألفه عقب غزو الأكراد والغز هذه البلاد بقيادة شيركوه . وقد كتب أبو صالح جزءاً لا يستهان به من مؤلفه ، اعتمد فيه على ما سمعه ورآه بنفسه فى زيارته للكنائس والأديرة فى القاهرة وضواحيها . والكتاب حافل بأمثلة كثيرة عن الخيرات التى أغدقها الخلفاء الفاطميون وكبار الموظفين من المسلمين على القبط وهم مسيحيو مصر (طبعة وترجمة أ . ت . ايفتس ، اكسفورد ١٨٩٥) .

وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسبِّحى (ت ٤٢٠ هـ) الذى كتب عن مصر كتاباً مسهبا هو « تاريخ مصر » يقع فى ستة وعشرين ألف صفحة ، ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعون بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا ، وهو واحد من جملة تصانيفه التى بلغت الثلاثين ولم يعد لها الآن وجود اللهم إلا فى هذه المقتبسات التى نجدها فى المصادر الأخرى . وكان المسبحى رجل فضل وعلم ، وكان على زى الأجناد : اتصل بخدمة الخليفة الفاطمى الحاكم (٣٨٦ — ٤١١ هـ) ، وتقلد فى عهده القيس والبهنسا من أعمال الصعيد . ثم تقلد ديوان الترتيب ، وهو المكان الذى تنظم فيه الرواتب وتدفع لمستحقيها . وقد ذكر تصانيف المسبحى من جاء بعده من المؤرخين ، كابن منجب ، وابن ميسر ، وابن خلكان ، والمقريزى ، وأبى المحاسن ، والسيوطى .

ومما نأسف له أشد الأسف ضياع مؤلفات القضاعى (ت ٤٥٤ / ١٠٦٢ هـ) ، ومن بينها كتاب « عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف » ، وهو مختصر كتاب « الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء الامويين والعباسيين والفاطميين » . وهذا الكتاب مخطوط فى المكتبة الأهلية بباريس ، وهو عبارة عن خلاصة الكتاب الأصلى الذى لعبت به يد الضياع . أما مؤلفات القضاعى فقد عددها ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٨٥) ، فذكر منها كتاب « مناقب الإمام الشافعى » وكتاب « تواريخ

---

(١) ابن منجب الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٥ ، ٣٧ .

الخلفاء » وكتاب « خطط مصر » . ويظهر أن المقريزى نقل هذا الكتاب برمته ، وأودعه كتابه الذى يعرف باسم كتاب « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » .

والقضاعى حجة فى تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين ، وكان من كتاب البلاط ، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرجرائى يعهد إليه فى أن يكتب العلامة أو الإشارة التى يذيل بها الأوراق الرسمية لإعطائها الصفة الرسمية ، وتشمل هذه الكلمات : « الحمد لله شكراً لنعمته » .

ومن مؤرخى العصر الفاطمى ابن أبى طىّ (ت ٦٣٠ /١٢٣٢ — ١٢٣٣) . واسمه يحيى بن حميدة (أو حافظ) ، ويرجع أصله إلى حلب ، وقد طرده نور الدين محمود لخروجه فى آرائه على الدين ، وربما كان ذلك لاعتناقه العقائد الشيعية ، وقد اعتنق ابنه يحيى هذه العقائد . يؤيد ذلك كتاباه « معجم شعراء الشيعة » و « رسالة فى فضل الأئمة الاثنا عشرية[1] » . وقد وضع حاجى خليفة ووستنفلد ترجمة ابن أبى طى لحياة صلاح الدين فى متناول أيدينا . ومن مؤلفات ابن أبى طىّ « شرح لامية العرب » للشنفرى (بكسر الشين مع التشديد وسكون النون وفتح الفاء والراء) .

ومن مؤرخى هذا العصر أيضاً : « أبو عبد الله القُرْطى[2] » . ويرجع نسبه إلى عمار ابن ياسر الصحابى ، وكان مولعاً بالتاريخ . وقد رحل إلى بلاد اليمن والهند ، وصنف كتاب « تاريخ مصر » فى عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . وقد وقف عليه ابن سعيد واستعاره من رجل كان هذا الكتاب فى حوزته ، وقيد منه بعض ما أودع كتابه « المغرب فى حلى المغرب » . والقرطى المؤرخ من أحفاد محمد بن جعفر القرطى . وكان معاصراً للإخشيديين فى مصر ، وقد قلده مؤنس الحسبة فى مصر ، ثم قلده الخراج (ابن سعيد : المعجب ص ٨ — ٩) ، ثم تقلد خراج مصر والشام فى عهد ولاية تكين الثانية الذى ولى مصر ثلاث مرات (٢٩٧ — ٣٠٣ ، ٣٠٧ — ٣٠٩ ، ٣١١ هـ) . (انظر كتاب تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٥١٧ — ٥١٨) . وكتاب « ذيل تاريخ دمشق » لأبى يعلى حمزة بن القلانسى (ت ٥٥٥ — ١١٦٠) (بيروت ١٩٠٨) مصحوب

---

(١) راجع حاجى خليفة رقم ١٠٩٤ ووستنفلد رقم ٣١٥ .

(٢) راجع القاموس المحيط وكتاب الأنساب للسمعانى . وهذا اللفظ منسوب إلى القرط الذى يعلق فى الأذن ، أو إلى قروط ويطلق هذا الاسم على أفخاذ بنى كلاب إخوة قرط وقريط وقريط . والقرطى المؤرخ مشتق اسمه من القرط الذى تأكله الدواب .

بشذرات من تواريخ ابن الفارقى وسبط بن الجوزى والذهبى . ويعد بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصابى ، وهو ذو أهمية خاصة لاستقصاء بحث تاريخ الفاطميين . ويظهر أن ابن القلانسى نقل كتاب أبى شجاع وكتاب هلال .

ويجب أن نشير فى هذا المقام إلى ما كتبه عمارة اليمنى (ت ٥٦٩ / ١١٧٤) وأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ / ١١٨٨) . فقد شاهد كل منهما بنفسه ما وقع فى مصر من الحوادث فى أواخر أيام الفاطميين ، والدور الذى قام به الشعراء فى نشر الدعوة الفاطمية . ذلك أن عمارة كان شاعراً نابه الذكر بين شعراء البلاط فى عهد الخليفة الفائز والخليفة العاضد ، وهما آخر من تولى عرش مصر من الفاطميين ، وقد أمدنا عمارة فى ديوانه المسمى « النكت العصرية فى اخبار الوزراء المصرية (باريس ١٨٩٧ م) ، بمعلومات ذات غناء عن هذين الخليفتين وعن الوزراء وغيرهم من علية القوم الذين رتع عمارة فى بحبوحة كرمهم وفسيح عطفهم . ولا غرو فقد أتحفنا عمارة بمعلومات صحيحة عن الدور الذى لعبه الشعراء فى نشر تعاليم الفاطميين ومعتقداتهم ، وكذلك عن سقوط الدولة الفاطمية (نشر هذا الكتاب ديرانبور ، باريس ١٩٠٩) .

أما أسامة بن منقذ فقد كان من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم . وله تصانيف عدة فى فنون الأدب . رحل عن بغداد كمعظم شعراء عصره يريد مصر ، فأقام فيها مؤمراً إلى أيام الوزير الصالح بن رُزِّيك سنة ٥٤٩ هـ ، ثم عاد إلى الشام . وأخبار أسامة جليلة الخطر ، لأنه شاهد بنفسه حال مصر فى زمنه وما وقع فيها من الحوادث التى تتعلق بسقوط الخلافة الفاطمية — وقد ألف كتابه الاعتبار أو حياة أسامة (باريس ١٨٨٩) .

ومن مؤرخى مصر الإسلامية ابن ميسر [1] (ت ٦٧٧/١٢٧٨) الذى ألف كتابه « أخبار مصر » ، ولم يصل إلينا من هذا الكتاب إلا الجزء الثانى الذى تناول فيه الكلام على تاريخ مصر من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٥٣ هـ .

ومن المصادر الحديثة كتاب « تاريخ الدولة الفاطمية » لحسن إبراهيم حسن (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤) وكتاب كنوز الفاطميين لزكى محمد حسن (القاهرة ١٩٣٧) وكتاب « موجز تاريخ الخلافة الفاطمية » تأليف « دى ليسى أوليرى » وكتاب De Sacy, Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols. (Paris,1838).

---

(١) طبعة هنرى ماسيه (القاهرة ١٩١٩) .

ومن فلاسفة الإسماعيلية أولاد إسماعيل بن جعفر الذين ينتسب إليهم الفاطميون أبو حاتم الرازى (ت ٣٢٢ هـ) ، ويسميه الإسماعيلية سيدنا أبا حاتم . وكان داعى الإسماعيلية فى بلاد الرى ، ويمثل نشاط الدعوة الفاطمية فى عهد إمامة عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين وخلافته . وقد لعب أبو حاتم دوراً عظيما فى الشئون السياسية فى طبرستان والديلم ، ولا سيما فى أصفهان والرى ، حتى استجاب له جماعة من كبار رجال الدولة . وكان لجهود أبى حاتم أثر كبير فى اتصال مرداويج بن زيار الديلمى بعبيد الله المهدى الفاطمى فى المغرب . ومن مؤلفات أبى حاتم الرازى كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، نشره سامى النشار (القاهرة ١٩٣٩) .

ومن فلاسفة الإسماعيلية أيضاً أبو عبد الله النسفى (ت ٣٣١ هـ) الذى تقرب إلى كبار القواد فى حكومة نصر بن أحمد السامانى واستطاع أن يجذب إلى الإسماعيلية كثيرين من أهالى خراسان ، وعبر نهر جيحون واتجه إلى بخارى حيث نجح نجاحاً عظيما فى تحويل كثير من كبار رجالها إلى المذهب الإسماعيلى ، وقد رحب الأمير نصر بن أحمد السامانى بمبادىء الإسماعيلية فى عهد عبيد الله المهدى . ولكن قواد الأمير نصر من السنيين دبروا مؤامرة للتخلص منه لانضمامه إلى المذهب الإسماعيلى ، فخلع نصر نفسه وتولى بعده ابنه نوح الذى عمل على مطاردة الإسماعيلية فى بلاده بعد أن قتل النسفى .

وقد ذاعت شهرة النسفى فى عالم الأدب وفى فلسفة المذهب الإسماعيلى . ومن أشهر مؤلفاته « كتاب المحصول » وكتاب « عنوان الدين » وكتاب « أصول الشرع » وكتاب « الدعوة المنجية » .

ومن أشهر علماء المذهب الإسماعيلى ودعاته : أبو يعقوب السجزى (ت ٣٣١ هـ) ، وكان اليد اليمنى للداعى النسفى ، وقام بقسط كبير من النهوض بفلسفة المذهب الإسماعيلى . ولأبى يعقوب السجزى مؤلفات كثيرة كان لها أثر كبير فى نهضة الفكر الإسلامى بوجه عام وفى فلسفة المذهب الإسماعيلى بوجه خاص . ومن أهم مؤلفاته كتاب « إثبات النبوة » ، وينقسم إلى سبع مقالات أو أبواب ، وتنقسم كل مقالة إلى اثنى عشر فصلا ، وكتاب « الينابيع » وهو فى حوزة البهرة من الإسماعيلية فى بمباى فى الهند .

هؤلاء هم أشهر دعاة الإسماعيلية فى بلاد المشرق . أما دعاتها فى المغرب فنذكر منهم أبا حنيفة النعمان المغربى (ت ٣٦٣ هـ) ، ويسميه الإسماعيلية « سيدنا القاضى النعمان » ليميزوا بينه وبين أبى حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفى المشهور . وقد عاصر

أبو حنيفة الفاطميين فى المغرب وعاصر عبيد الله المهدى والقائم والمنصور والمعز ، واتخذه المنصور والمعز قاضياً لهما . ويعد أبو حنيفة من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية . وقد أفادت هذه الدعوة من كثرة مؤلفات أبى حنيفة فى الفقه الإسماعيلى ، وقد ألف بضعة وأربعين كتابا .

وأهم هذه الكتب كتاب « دعائم الإسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام » ، ويتناول الكلام على فقه الإسماعيلية ، ويقع فى مجلدين ضخمين ، يشتمل كل منهما على سبعمائة صفحة ، ويعتز به البهرة فى اليمن والهند . وقد أطنب الدعاة المتأخرون فى وصف هذا الكتاب ، فذكره حميد الدين الكرمانى داعى دعاة الخليفة الفاطمى الحاكم فى فارس فى كتابه « راحة العقل » وأشاد به حتى جعله فى المرتبة التى تلى القرآن والحديث .

وقد ترك أبو حنيفة النعمان المغربى فى مؤلفاته الرائعة الكثيرة ثروة ثمينة . وعلى الرغم من ضياع كثير من مؤلفاته لا يزال أكثر ما بقى منها فى حوزة البهرة فى الهند . وقد أفاد الإسماعيلية كثيراً من هذه المؤلفات . ولنلق الآن نظرة على كتابى النعمان القيمين وهما :

١ — كتاب « المجالس والمسايرات » ، ويعد أهم ما كتب فى وصف حياة الخلفاء الفاطميين فى الدور المغربى ، فقد تناول أبو حنيفة فى مؤلفه حياة الخلفاء الفاطميين الأربعة وهم : المهدى والقائم والمنصور والمعز خاصة . ومن هذا الكتاب نستطيع أن نقف على حياة الخلفاء الخاصة وعلى وصف قصورهم وأوقات فراغهم . وقد أمدنا هذا الكتاب بوثائق ذات قيمة تاريخية كبيرة عن نظام الحكم فى عهد المعز : فمن نصائح يسديها المعز للولاة والحكام والقضاة ، إلى استقصاء أحكام الأئمة من أهل البيت مثل جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر وجدهما على بن أبى طالب إلى غير ذلك . كما يتناول هذا الكتاب الكلام على علاقة المعز بالأمويين فى الأندلس ، وعلى الحملات البحرية التى شنها المعز على عبد الرحمن الثالث الناصر الأموى فى الأندلس وخلفائه . وتعتبر الرسائل التى تبودلت بين الفريقين من أحسن ما كتب فى الأدب والمنطق ، وتصور الصراع الذى قام بين الفاطميين والبيزنطيين تصويراً رائعاً . وصفوة القول أن هذا الكتاب مرآة صادقة للأدب الإسماعيلى والعقائد الإسماعيلية ، ولا يستغنى عنه الباحثون فى تاريخ الفاطميين فى المدور المغربى بوجه عام وفى عهد المعز بوجه خاص .

٢ — أما كتاب ، الهمة وفضل الأئمة ، فيتكون من جزأين يشغل كل منهما ستا وأربعين صفحة ، وقد قسم المؤلف القسم الأول إلى ثمانية فصول والقسم الثانى إلى أحد عشر فصلا . وترجع أهمية هذا الكتاب الذى عثر عليه سنة ١٩٣٤ إلى أنه من أقدم المراجع التى تمثل الأدب الإسماعيلى فى عصوره الأولى أصدق تمثيل ، كما يعد من أقدم كتب الإسماعيلية التى وضعت بقصد تربية أفراد هذه الطائفة وتدريبهم على التفانى فى الإخلاص لمبادئها .

ويتناول هذا الكتاب بقسميه الحدود الدينية ، ويهتم مؤلفه اهتماماً خاصاً بشرح واجبات الأتباع نحو رؤسائهم المباشرين وهم الدعاة ونحو الأئمة ، كما يعنى بشرح واجبات المستجيبين بعضهم نحو بعض ، ويرسم لهم الخطط التى يجب عليهم أن يسلكوها فى حياتهم . ويعد كتاب الهمة من أهم وأقدم كتب الاشتراع المالى عند الإسماعيلية . وقد اهتم أبو حنيفة النعمان اهتماماً بالغاً بتحديد العلاقة بين الدعاة ومستجيبيهم من جهة وبينهم وبين الأئمة من جهة أخرى ، فوضع الخطوط الرئيسية التى يجب على الدعاة أن يسلكوها فى جذب الأشياع ، وحثهم على التجمل بالصفات الطيبة ، كالورع والتقوى والصلاح والعفاف لكى يكون تأثيرهم فى النفوس كبيرا ، وبذلك يجعل الداعى من نفسه للمريدين أبا وأخا ومعلما ، وقاضيا نزيها يحكم بين المستجيبين بالقسطاس المستقيم .

ومن دعاة الإسماعيلية جعفر بن منصور اليمن الذى اشتهر منذ نعومة أظفاره بحب الفاطميين . وقد قصد بلاد العرب سنة ٣٢٢ هـ وتمتع بمركز رفيع فى الدولة الفاطمية . وكان موضع تقدير القائم والمنصور ، كما نال تقدير المعز ، حتى اتخذه « باب أبوابه » فى مصر ، وهى أعلى من رتبة قاضى القضاة . ولا غرو فقد ضرب جعفر بأوفر سهم فى التأويل الإسماعيلى وترك كثيرا من الآثار العلمية التى لا تزال عند البهرة إلى اليوم . ومن أهم كتبه كتاب « تأويل الزكاة » وهو بمكتبة الجامعة بليدن . ولجعفر بن منصور اليمن أيضا كتاب « سرائر النطقاء » وكتاب « أسرار النطقاء » وكتاب « الشواهد والبيان » المحفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

ويعد كتاب « أسرار النطقاء » من أقدم مصادر الإسماعيلية ومن أهم الكتب التى ألفت للدفاع عن المذهب الإسماعيلى وأنصاره ، كما يعد من أحسن الكتب التى تمثل الأدب الإسماعيلى القديم أصدق تمثيل . وقد بحث هذا المؤلف تاريخ الأئمة العلويين الذين سبقوا إسماعيل بن جعفر الصادق بحثا دقيقاً . ولهذا يعد كتابه « أسرار النطقاء » من أحسن

المراجع فى تاريخ الأئمة من على بن أبى طالب إلى جعفر الصادق . كما يتناول هذا الكتاب بعض المبادىء الشيعية . من ذلك نظرية « الغيبة » أى إختفاء الإمام ونظرية « الإمام الصامت » . ويقصد بذلك أن لكل نبى عند الإسماعيلية إماما يعاصره ويأخذ عنه ويشرح شريعته ، ويسمونه الأساس ، أى أساس النطق . ويتبع هذا الأساس ستة أئمة بالتوالى ، يسمى كل منهم «الصامت » . وعندهم أن على بن أبى طالب أساس ، ومن جاء بعده من الأئمة حتى جعفر الصادق أئمة صامتون . فعلى زين العابدين وجعفر الصادق أئمة صامتون .

ومن فلاسفة الإسماعيلية حميد الدين الكرمانى (ت ٤٠٨ هـ) ، وكان من دعاة الفاطميين فى عهد الخليفة الحاكم ، ويلقب بحجة العراقين ، وكبير دعاة الإسماعيلية فى العراق . وقد ألف الكرمانى فى الرد على الدرزية رسالة سميت « الرسالة الواعظة » يبرىء فيها الحاكم من ادعائه الألوهية . وقد ألف طائفة من المؤلفات عرض فيها لكثير من المشكلات الفلسفية ، ومزج تعاليم الإسماعيلية بعلوم الشرع والمعارف الفلسفية الأخرى مما يشهد برسوخ قدمه وعلو كعبه فى العلم وتضلعه فى فقه الدعوة .

ومن أشهر كتب الكرمانى كتاب « راحة العقل » (نشره الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمى) ، و « الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله » (فصلة من مجلة كلية الآداب ، المجلد الرابع عشر مايو ١٩٥٢ ، نشره الدكتور محمد كامل حسين) .

ومن أشهر فلاسفة المذهب الإسماعيلى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى (ت ٤٧٠ هـ) . وقد انحدر من أسرة اتخذت التشيع لها مذهبا . فكان أبوه داعيا للمذهب الفاطمى بشيراز . وقد راسل الخليفة الحاكم الفاطمى ، واتصل بالسلطان أبى كاليجار البويهى وكسب عطفه واستطاع أن ينشر المذهب الإسماعيلى فى شيراز . ودخل أبو كاليجار فى الدعوة الفاطمية وأخذ يجتمع بالمؤيد مساء كل خميس للاستزادة من فهم المذهب الإسماعيلى . ثم رحل المؤيد إلى مصر سنة ٤٣٩ هـ فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى وتقلد ديوان الإنشاء ، وحث البساسيرى على دخول بغداد وإقامة الدعوة الإسماعيلية للخليفة المستنصر الفاطمى . ولكن البساسيرى لم يلبث أن تفرقت جموعه وطرده طغرلبك السلجوقى من بغداد سنة ٤٤٩ هـ . بيد أن الخليفة الفاطمى قدر جهود المؤيد فى الدين وأسند إليه رياسة الدعوة الفاطمية وأصبح داعى الدعاة سنة ٤٥١ هـ .

وكان المؤيد بارعا فى الكتابة بالعربية والفارسية وخلف عدداً كبيراً من الكتب

لازالت تعد من أمهات كتب الإسماعيلية إلى اليوم . ومن المؤلفات التى تنسب إلى المؤيد كتاب « المجالس المؤيدية » ، و « ديوان المؤيد » (نشره الدكتور محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩) ويصور عقائد الفاطميين تصويرا تاماً ، و « السيرة المؤيدية » (مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٥٦) . ومن أهم آثار المؤيد التى تكشف عن تعمقه فى فلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب « المجالس المؤيدية » ، وهو مجموعة محاضرات ألقاها فى مجالس الدعوة شرح فيها عقائد المذهب الفاطمى .

وينبغى أن نشير فى هذا المقام إلى كتاب « تاريخ الدولة الفاطمية » للدكتور حسن ابراهيم حسن ، ويقع فى نحو سبعمائة وخمسين صفحة ، ويتناول بحث تاريخ هذه الدولة فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب (الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤) .

من المصادر التى يعتمد عليها فى دراسة عصر الأيوبيين كتاب « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعـــاينة بأرض مصر » لعبد اللطيف البغدادى (ت ٦٢٩/١٢٣١) ، وكتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » لابن شداد (ت ٦٣٢/١٢٣٤ هـ)[١] ، وهو من أنفس ما كتب عن حياة صلاح الدين ، وكتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » لأبى شامة (ت ٦٦٥/١٢٦٧ هـ)[٢] ، ويتضمن أخبار مصر والشام فى عهد نور الدين محمود صاحب دمشق وصلاح الدين الأيوبى سلطان مصر . وقد استقى أبو شامة أخباره من الوثائق الرسمية فى الكتب التى ألفها القاضى الفاضل (ت ٥٩٦/١١٩٩هـ) وعماد الدين الأصفهانى (ت ٥٩٧/١٢٠١هـ) وابن شداد (ت ٦٣٢/١٢٣٤) (القاهرة ١٢٨٧ هـ) .

ومن الكتب التى تناولت الكلام على هذا العصر كتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » (فى جزئين ، القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧) لجمال الدين بن واصل (ت ٦٩٧ هـ). وهذا الكتاب يمدنا بحقائق تاريخية عن الأعمال الدينية والسياسية التى قام بها الفاطميون فى مصر ، كما يعتمد عليه فى دراسة تاريخ الدولة الأيوبية وعصر المماليك إلى سنة ٦٨١ هـ .

---

(١) مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ، المؤرخون الشرقيون ، المجلد الثالث .
(٢) المصدر نفسه المجلد الثالث .

(د) مصادر المغرب والأندلس :

١ — البكرى (ت ٤٨٧ / ١٠٩٧) : أبو عبيد

« كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » (طبعة دى سلان باريس ١٩١١)

٢ — المراكشى (ت ٦٦٩ / ١٢٧٠) : عبد الواحد بن على

يعتبر عبد الواحد بن على المراكشى من أشهر المؤرخين الذين تناولوا تاريخ المغرب والأندلس من فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ إلى ما قبل نهاية عصر الموحدين (٦٦٩ هـ) بسنتين. ويمتاز كتابه « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » (القاهرة ١٩٤٩) بأنه جمع أخبار الشعراء وأعيان الكتاب والعلماء والفلاسفة الذين ظهروا فى هذه البلاد فى العصور التى تناولها المؤلف . كما يمتاز كتاب المعجب بأسلوبه الرائق ؛ فهو مؤرخ وأديب فى آن واحد .

ولد عبد الواحد المراكشى بمدينة مراكش التى بناها يوسف بن تاشفين أعظم أمراء المرابطين فى شهر ربيع الثانى سنة ٥٨١ هـ ، وذلك فى مستهل حكم أبى يوسف يعقوب (المنصور) بن يوسف بن عبد المؤمن بن على الموحدى[١] . ولما بلغ عبد الواحد التاسعة من عمره رحل مع أبيه إلى مدينة فاس حيث قرأ القرآن وجوده . ولما أتم دراسته عاد إلى مدينة مراكش ، وأخذ يتردد بينها وبين مدينة فاس .

وفى سنة ٥٩٥ هـ التقى عبد الواحد المراكشى بالعالم المشهور أبى بكر بن زهر (بضم الزاى وسكون الواو) وبالفيلسوف ابن طفيل (بضم الطاء وكسر الفاء) . ثم رحل إلى الأندلس وأخذ العلم على كبار علمائه . ولما حل بمدينة إشبيلية قدمه صديق له يسمى محمد ابن الفضل إلى صاحب المدينة الأمير ابراهيم بن أبى يعقوب المنصور أخى الخليفة الموحدى الناصر بن يعقوب المنصور ، وأصبح عبد الواحد من خواصه المقربين ، كما اتصل بكبار رجال الدولة فى المغرب والأندلس[٢] .

---

(١) المراكشى : المعجب (القاهرة ١٩٤٩) ص ٣٦٠

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٨

عاد عبد الواحد إلى مدينة مراكش سنة ٦١٠ هـ ، ولكنه لم يطب له المقام بالمغرب ، فعبر البحر ثانية إلى الأندلس حيث أقام فى كنف الأمير إبراهيم صاحب إشبيلية . وفى سنة ٦١٤ هـ ترك عبد الواحد المغرب والأندلس ميممًا شطر المشرق ، وكان إذ ذاك فى الثانية والثلاثين من عمره . ولسنا ندرى العوامل التى دفعته إلى ترك بلاده والمسير إلى مصر فى غضون سنة ٦١٩ هـ[١] . وكانت حياته قلقة مضطربة كلها حنين وشكوى وضيق ، إذ يقول فى مقدمة كتابه المعجب[٢] : « . . . والوجه الثالث أن محفوظاتى فى هذا الوقت[٣] على غاية الاختلال والتشتت أوجب ذلك هموم تزدحم على الخاطر وغموض تستغرق الفكر » .

وقضى عبد الواحد بمصر سنين ، ثم غادرها إلى الحجاز ، ثم إلى الشام ، ثم إلى بغداد . ثم بسم له الدهر فحظى بعطف وزير الخليفة الناصر العباسى . وقد عبر عبد الواحد عن سروره مخاطبا الوزير العباسى بقوله : « أيها السيد الذى توالت علىّ نعمته وأخذ بضَبْعَى[٤] من حفيضى الفقر والخمول اعتناؤه وكرمه ، وقضى إحسانه إلىّ ومحبته التى جبلت عليها بأن ألتزم من بره وطاعته ما أنا ملتزمه »[٥] .

وقد عهد ذلك الوزير إلى عبد الواحد المراكشى أن يؤلف كتابا فى أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره وشىء من سير ملوكه ولاسيما ملوك المصامدة (يعنى الموحدين) بنى عبد المؤمن من لَدُنْ ابتداء دولتهم . وقد لبى عبد الواحد نداء الوزير ، فألف كتابه « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ، وانتهى من تأليفه فى شهر جمادى الآخرة سنة ٦٢١ هـ[٦] .

ومما هو جدير بالملاحظة أن عبد الواحد المراكشى انتهى من وضع كتابه « المعجب » حيث لم تفته دولة الموحدين إلا فى سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) .

وكتاب « المعجب » من المصادر الأصيلة فى تاريخ المغرب . وترجع أهميته إلى أن

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٣

(٢) المصدر نفسه ص (٤)

(٣) يقصد الوقت الذى كان يؤلف فيه كتابه المعجب .

(٤) بسكون ثانيه العضد ويضمه الحيوان المعروف .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٣

(٦) المصدر نفسه ص ٣٣٦

مؤلفه ، فوق سعة إطلاعه وعلو مكانته فى الأدب قد عاصر الأحداث التى كتب عنها . أما ما كتبه عن أخبار المغرب والأندلس من الفتح الإسلامى إلى قيام الدعوة الموحدية فقد اعتمد على مانقله من مؤلفات كثيرة نوّه فيها بكتاب الحميرى الذى لا نراه بين أيدينا الآن[1].

٣ — ابن سعيد (ت ١٢٧٥/٦٧٣) : على بن موسى الغرناطى

* كتاب « المغرب فى حِلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق » (ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩) (القاهرة ١٩٥٣) نشره زكى محمد حسن ، وشوقى ضيف ، وسيدة إسماعيل كاشف .

٤ — ابن القاضى : أحمد بن محمد المكناسى

« جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس »

مخطوط رقم ج ١٢٤٢ (الرباط)

٥ — المالكى : أبو بكر عبد الله

« رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم » (القاهرة ١٩٥١) .

٦ — ابن عذارى (ت فى أواخر القرن السابع الهجرى) : أبو عبد الله محمد المراكشى

« البيان المغرب فى أخبار المغرب » ٣ أجزاء ، نشره « دوزى » (ليدن ١٨٤٨ — ١٨٥١م) (باريس ١٩٣٠) .

٧ — ابن سيده (٤٥٨ / ١٠٦٥) : أبو الحسن على الأندلسى

« كتاب المخصّص » ٢٠ جزءا (بولاق ١٣٢١ هـ)

٨ — ابن بسّام (ت ١١٤٧/٥٤٢) : أبو الحسن على الشنترينى

« الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » . نشرت الأجزاء الأربعة منه (القاهرة ١٣٥٨ — ١٩٣٩/١٣٦٤ — ١٩٤٥) .

٩ — الطرطوشى (ت ١١٢٦/٥٢٠) : أبو بكر

« سراج الملوك (القاهرة ١٢٨٩ هـ)

---

(١) وقد نشره « دوزى » سنة ١٨٤٧ م، ثم أعاد طبعه سنة ١٨٨١ م ، وترجمه فانيان Fagnan إلى الفرنسية ونشرت ترجمته فى الجزائر سنة ١٨٩٣ ، كما طبعه الأستاذ محمد سعيد العريان سنة ١٩٤٩ .

١٠ — الخشنى : أبو عبد الله محمد بن الحارث
كتاب القضاة بقرطبة « نشره ريبرا » Ribera (مدريد ١٩١٤)

١١ — ابن بشكوال (ت ٥٧٨ / ١١٨٢) : أبو القاسم خلف بن عبد الملك الأندلسى
« كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم » نشره عزت العطار (القاهرة ١٣٧٤ / ١٩٥٥)

١٢ — ابن الأبّار (ت ٦٥٩ / ١٢٦١) أبو عبد الله القضاعى
« كتاب التكملة لكتاب الصلة » جزآن (مدريد ١٨٨٦) (القاهرة ١٣٧٥/١٩٥٦)

(٦) الجغرافيا :

ظهر فى العصر السلجوقى كثير من الجغرافيين والرحاليين . ومن أشهرهم :

١ — شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشارى المقدسى (ت ٣٨٧ / ٩٩٧) . وكتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » الذى نشره دى غويه فى مجموعة المكتبة الجغرافية العربية (ليدن ١٨٧٧) ذو قيمة عظيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية .

٢ — أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (ت ٤٤٠ / ١٠٤٨) . وقد خلف لنا كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » . ويتناول الكلام على نظم الطوائف والجماعات فى البلاد التى زارها وبخاصة طبرستان وخوارزم والهند . وقد ساعده اتصاله بعلماء البلاد التى اختلف إليها وإلمامه ببعض اللغات الأجنبية كالفارسية والعربية والسنسكريتية على التبحّر فى كثير من العلوم كعلم الهيئة والنجوم والرياضة والجغرافية والتاريخ والعلوم الطبيعية . وقد أفاد من رحلاته فى الهند فجمع علومها ومذاهبها وعادات سكانها التى أودعها كتابه « تاريخ الهند » .

٣ — ناصر خسرو (ت ٤٨١ / ١٠٠٨) . وقد خلف لنا كتابه « سفر نامه » (أو زاد المسافر) . ويتضمن كثيرا من مشاهداته فى فارس والعراق والحجاز والشام ومصر التى زارها فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) وظل فيها نحو سنتين (٧ صفر ٤٣٩ — ١٤ ذى الحجة ٤٤١ هـ) ووصف ثروة البلاط الفاطمى وأبهته .

وكان ناصر خسرو وزيرا فى بلاط خراسان ثم اعتزل السياسة فحج بيت الله وأصبح داعياً للإسماعيلية ، فاعتبر القاهرة حاضرة الفاطميين المركز الرئيسى للمذهب الإسماعيلى الذى يدين بعقائده ، واعتقد أن الفاطميين هم الأئمة حقا . وقد ألف ناصر خسرو كتابه بالفارسية وترجمه شارل شيفر إلى الفرنسية سنة ١٨٨١ م .

٤ — أبو عبيد محمد بن عبد العزيز البكرى (ت ٤٨٧ / ١٠٩٧) . ويرجع نسبته إلى أبى بكر الصديق. وقد ألف كتابه « المُغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب »[١] . وهو جزء من أجزاء الكتاب المعروف باسم كتاب المسالك والممالك . ولا غنى للطالب عن هذا الكتاب فى دراسة تاريخ المغرب .

٥ — أبو الحسن محمد بن جبير (ت ٦١٤ / ١٢١٧) . ولد فى بلنسية[٢] بالأندلس سنة ٥٣٩ هـ ثم استوطن غرناطة . وينتمى إلى معد بن عدنان . وقد تلقى ابن جبير العلم على أبيه وعلى ابن أبى العيش وكثير من علماء عصره ، وأفاد من علمه كثير من علماء المغرب ومصر .

وكان ابن جبير على درجة كبيرة من الورع والدين . وقد عاصر الدولة الموحدية التى كانت تحكم بلاد المغرب والأندلس ، ثم سافر إلى المشرق ثلاث مرات ، حج فى كل منها بيت الله بمكة . وقد بدأ رحلته الأولى فى شهر شوال سنة ٥٧٨ هـ ، ثم عاد إلى غرناطة بعد سنتين . وقد صنف فيها ما شاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع . وهو كتاب ممتع يحبب المرء فى زيارة هذه المعالم . ولما علم ابن جبير بفتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبى قوى عزمه على القيام برحلته الثانية إلى المشرق (٥٨٥ هـ) . ثم عاد إلى غرناطة سنة ٥٨٧ هـ ثم رحل إلى سَبْتَه بالمغرب الأقصى وانصرف إلى الحديث والتصوف .

ولما ماتت زوجة ابن جبير (وهى عاتكة بنت الوزير أبى جعفر) عظم وجده عليها ففكر فى القيام برحلته الثالثة ، فخرج من مدينة سَبتة إلى مكة ، فبقى فيها فترة طلب فيها العلم ، ثم غادرها إلى بيت المقدس فالقاهرة ثم إلى الإسكندرية حيث قام بتدريس الحديث حتى وافاه أجله سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ، ولم يترك لنا إلا حديثه عن الرحلة الأولى من هذه الرحلات الثلاث .

---

(١) طبعة دى سلان ، باريس ١٩١١ .

(٢) وقيل إنه ولد بشاطبة .

وكان ابن جبير أديباً شاعراً ، مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصائد طويلة تشهد بطول باعه فى الشعر والنثر ولاسيما الصوفى منها. وقد أشار الوزير[١] لسان الدين بن الخطيب بعلم ابن جبير وفضله وعلو باعه فى الفقه والحديث[٢] .

٦ — شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى (ت ٦٢٦/ ١٢٢٩) . وكان إغريقى المولد ، ومن أجل ذلك سمى الرومى. أسر صغيرا وبيع لأحد تجار مدينة حماة ، ومن أجل ذلك نسب إليها فسمى الحموى . وقام مولاه بتعليمه وأوفده فى تجارته إلى الخليج العربى وغيره . فجرت بينه وبين مولاه نَبْوة أدت إلى عتقه ، فعاش من نسخ الكتب وبيعها ؛ أى أنه احترف الوراقة كما كانت تسمى ، وأفاد من وراء هذه الصناعة بما تركه لنا من مؤلفاته النفيسة .

وقد نال ياقوت حظا وافرا من التعليم وجاب كثيرا من البلاد وأقام بمدينة مرو حاضرة خراسان وأفاد من مكتباتها الزاهرة حتى بدأت غزوات المغول فاضطر إلى الهرب إلى الموصل (٦٦٤ / ١٢٢٤) حيث أتم مؤلفه « معجم البلدان ». ومن مؤلفات ياقوت :

١ — كتاب « معجم البلدان[٣] . ويعتبر من أهم المراجع التى يعتمد عليها الباحثون فى كل مايتعلق بجغرافية وتاريخ بلاد غربى آسيا .

٢ — كتاب « مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع » . وقد اختصره عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩ /١٣٣٨) [٤] .

٣ — إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب[٥] .

٧ — عبد اللطيف موفق الدين أبو محمد الطبيب البغدادى (ت ٦٢٩ /١٢٣١) :

كان كما يقول السيوطى [٦] كان عالما بأصول الدين والنحو واللغة والطب والفلسفة والتاريخ . ولد ببغداد سنة ٥٥٧ هـ . وقد خلف لنا كتابيه :

---

(١) انظر ما كتبه عنه الوزير لسان الدين بن الخطيب فى كتابه تاريخ غرناطة .

(٢) وقد نشر وليام رايت أسفار ابن جبير (ليدن ١٨٨٢) وتعرف هذه الأسفار باسم رحلة ابن جبير . وقد ترجمه برود هيرست إلى الانجليزية (لندن ١٨٥٢) .

(٣) نشره وستنفلد فى ستة أجزاء (١٨٦٦ — ١٨٧١) وطبع فى القاهرة فى ثمانية أجزاء (١٣٢٣ هـ)

(٤) طبعة جوينبول فى أربعة أجزاء (لندن ١٨٥٣) .

(٥) طبعة سلسلة ذكرى جب ، ٧ أجزاء (القاهرة ١٩٠٧ — ١٩١١)

(٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٢ — ٢٣٣

١ — « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . وقد ترجمه دى ساسى إلى الفرنسية .

٢ — مختصر تاريخ مصر ، طبعة ج . هوايت (أكسفورد ١٨٠٠) .

٣ — شرح مقامات الحريرى .

٤ — الجامع الكبير فى المنطق والطبيعى والإلهى ، ويقع فى عشر مجلدات . وقد أقام بمصر وتوفى ببغداد فى ١٢ المحرم سنة ٦٢٩ هـ .

٨ — زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (ت ٦٨٢ / ١٢٨٣) ، ولد بمدينة قزوين فى إيران سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣م) وأقام فترة من حياته بمدينة دمشق وتولى القضاء فى عهد الخليفة المستعصم فى واسط والحلة ، وقد خلف لنا القزوينى كتابيه « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد » اللذين قام وستنفلد على نشرهما فى سنتى ١٨٤٨ و ١٨٤٩ .

١ — ويشتمل كتاب « عجائب المخلوقات » على بيان التقويم الشمسى والنجوم والأجرام السماوية والحيوانات والنباتات والمعادن وكل ما يتعلق بالوحوش والحيوانات الخرافية المختلفة .

٢ — ويشتمل كتاب « آثار البلاد » على كثير من المعلومات الجغرافية الهامة ، كما يشتمل على كثير من الأخبار المتصلة بتراجم شعراء الفرس الذين اتصل بهم القزوينى ، كالفردوسى وناصر خسرو وعمر الخيام وعنصرى ورشيد الدين الوطواط .

على أن المعلومات الجغرافية التى وردت فى كتاب « آثار البلاد » لا ترقى إلى المستوى الذى بلغته المعلومات التى أوردها ياقوت الحموى وغيره من الجغرافيين المبكرين ، ولو أنها تزخر بكثير من الأخبار الممتعة المسلية .

ومن الغريب أن هذا الكتاب لا يتعرض لذكر إنجلترا فيما دونه القزوينى عن الإقليم السادس ، ولو أنه تعرض لإيرلندة ووصف فى إيجاز صيد الحيتان ، كما وصف مدينة رومة فى شىء من الإسهاب . ولما تناول القزوينى الإقليم السابع ، تحدث عن الطقوس التى يتبعها الفرنجة فى الماء والنار والمعارك ، كما تحدث عن السحر والسحرة وعن الخليج الفارنجى Varangian Fiord فى أقصى الشمال . يقول براون : « وفى رأيى أننى لم أصادف بين الكتب العربية كتاباً ممتعا جديرا بالقراءة مثل هذا الكتاب[1] .

---

(١) انظر براون : تاريخ الأدب فى إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٦١٢ — ٦١٤ .

٩ — محمد بن عبد العزيز الشريف الإدريسى (ت ٦٤٩ / ١٢٥١) . وكان من أهل سَبْتة بالمغرب الأقصى . وقد بدأ رحلاته وهو فى السادسة عشرة من عمره ؛ فزار بلاد الأندلس وفرنسا وإنجلترا . ثم زار معظم أرجاء شمالى إفريقيا ، ثم رحل لحج بيت الله ، فزار مصر والحجاز وآسيا الصغرى وبلاد اليونان التى وصل إليها سنة ٥١١ هـ .

ولم يكن الإدريسى رحّالة فحسب ، بل كان عالما موفقا عميقاً فى بحثه . ولما لم يجد فى الشرق ما كان يؤمله عاد إلى بلده وفى نفسه شىء من المرارة . وعاصر الدعوة الموحدية التى قام بنشرها المهدى محمد بن تومرت .

وقد اتصل بمسامع الملك رودجر الثانى النورمندى ما يمتاز به الإدريسى من سعة الاطلاع ، فدعاه إلى بلاطه بصقلية سنة ٥٣٣ هـ ، فرحب الإدريسى بهذه الدعوة ، وعهد إليه هذا الملك بوضع كتاب فى جغرافية العالم . ووضع تحت إشرافه لجنة قامت بزيارة البلدان النائية . كما وضع تحت تصرفه ٤٥٠/٠٠٠ رطل من الفضة الخالصة ليضع له كرة يرسم عليها المصورون مواقع البلدان وأسماءها . وقد شرح الإدريسى ما فى هذه الخريطة والكرة فى كتابه « نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان . واستغرق هذا العمل خمس عشرة سنة .

وقد ألف الإدريسى كتابة نزهة المشتاق ، وهو مختصر لكتابه نزهة المشتاق الذى طبع فى روما سنة ١٥٩٢ م . ورسم الإدريسى خريطة العالم . ويبين لنا هذا العمل الدقيق مدى معرفة العرب ببلاد العالم المختلفة ، ومنه نعلم أن العرب لم يجهلوا ألمانيا والسويد والنرويج وغيرها من البلاد الواقعة شمالى القارة الأوربية .

ولا يبعد أن تكون معلومات الإدريسى نتيجة اتصال المسلمين بأوربا عن طريق الأندلس والحروب الصليبية . وقد طبع كنراد ميللر خريطة الإدريسى طبعة أنيقة مزينة بالألوان سنة ١٩٢٦ . وقام المجمع العلمى العراقى حديثا بطبع هذه الخريطة التى حددت أجزاء العالم الإسلامى قبل غزوات المغول فى القرن الثالث عشر الميلادى ، كما عينت منابع النيل بدقة ، وصورت بحر قزوين وصحراء فارس . ولولا خريطة الإدريسى لظلت هذه الناحية مجهولة لدينا .

وتمتاز خريطة الإدريسى بعدم المبالغة . وقد أشار فى كتابه « نزهة المشتاق » إلى مقياس خريطته ، فذكر أن كل درجة ٢٥ فرسخا ، والفرسخ ثلاثة أميال ، فيكون طول

الدرجة ٧٥ ميلا . وجاءت خريطة الإدريسى مطابقة لمواقع البلدان . وكانت فى الأصل ثلاثة أمتار ونصف طولا ومتر ونصف عرضا . ثم نقلها « ميللر » فى متربن طولا ومتر عرضا . ولم يخطىء الإدريسى إلا فى مواقع قليلة . مثال ذلك أنه وضع « كليمار » فى السويد فى درجة ٥٦ ½ بدل ٥٦ ¼ ؛ وأخطأ فى تعيين موقع انجلترا والدانيمرك بنصف درجة . ولم يضع خطوط الطول لعدم استطاعته تحقيق مواضعها ، وإنما أثبت خطوط العرض التى تبدأ أفقية من خط الاستواء إلى الشمال ، ووضع ست درجات بين كل خط وخط . وقد قيل إن الإدريسى أسرع فى إنجاز خريطته بسبب مرض رودجر ملك صقلية .

وكان الإدريسى محدثا لامعا ، ألف كتاب « المفيد فى أخبار الصعيد » ، ومات بالقاهرة فى شهر صفر سنة ٦٤٩ هـ[1] .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٨

الباب الحادى عشر

الفن

تخطيط المـــدن

(أ) تقسيم المدن :

يمكن تقسيم المدن إلى مدن تبنى بطريقة تلقائية أو اختيارية ، ومدن تبنى بطريقة ابتكارية أو مبتدعة ، وهذا النوع الثانى قد أولع به الفرنسيون سكان المدن . ويمكن أن ينطبق هذا النوع الأخير على المدن الإسلامية :

١ ــ فالمدن التى تبنى بطريقة تلقائية أو اختيارية هى التى بنيت لاستيطان الجاليات أول الأمر ، ويكتفى سكانها بالاحتفاظ بمقومات هذه الأبنية التى تؤدى إلى تحقيق الأغراض التى بنيت من أجلها .

ذلك أن العرب لم يرغبوا فى الإقامة بالمدن القديمة كأقلية معرضة لمقاومة أهالى البلاد الأصليين الذين ينظرون إليهم باعتبارهم أجانب عنهم . لذلك نرى المدن الأولى التى بناها العرب أشبه بمعسكرات حصينة (مثال ذلك الفسطاط أو مصر القديمة) ، وأحياناً تكون المدن منعزلة إنعزالاً نسبياً عن المراكز الأخرى المنافسة لها (مثل الكوفة والقيروان) . وقد يدفع الموقف السياسى للدولة الجديدة الحكام على تأسيس مدينة جديدة لإخضاع مدينة أخرى قصد القضاء على مقاومتها (مثال ذلك مدينة المنصورية التى بناها بنو مرين فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) لتحل محل تلمسان التى احتلها بنو زيّان ، وتبعد عنها بنحو ميل ونصف وقد اتخذها المرينيون حاضرة لهم) . كذلك اقترن قيام دولة الأدارسة فى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة (القرن التاسع الميلادى) بتأسيس مدينة فاس سنة ١٩٢ هـ . واقترن قيام الدولة المرابطية ببناء مدينة مراكش على يد يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢م) . وقد ينقل الحاكم مقر دولته من الحاضرة التقليدية كما فعل المعتصم العباسى الذى بنى مدينة سامرا (على بعد سبعين ميلا شمالى بغداد) سنة ٢٢١ هـ ، وظلت حاضرة الخلفاء العباسيين نحو ستين سنة حتى نقل المعتضد حاضرة الخلافة العباسية إلى بغداد سنة ٢٧٩ هـ . وينطبق هذا المثل أيضا على رقّادة (بفتح القاف

مع التشديد) التى اتخذها الأغالبة حاضرة لدولتهم (وتبعد عن القيروان بستة أميال لتحل محل العباسية (وتبعد عنها بميلين ونصف ميل) سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) . كذلك نذكر مدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر الأموى على بعد أربعة أميال ونصف من قرطبة .

٢ — وقد تستخدم المدن التى تبنى بطريقة ابتكارية فى تحصين الدولة عند الحد الذى يفصل بينها وبين الدولة المجاورة لها أو تبنى فى قلب الدولة نفسها . وقد تنمو هذه الحصون وتصبح على مر الزمن مدنا حصينة . فمدينة الرباط ، الحاضرة الإدارية الحالية للمملكة المغربية تحتفظ بطابعها الأصلى وهو رباط الحرب[١] .

وسنرى الآن كيف تنطبق هذه القواعد على المدن الإسلامية ، إذ أن الموحدين كانوا يرابطون فيها بجندهم وخيلهم وأسلحتهم فى الكفاح الحربى مع المرابطين ، ثم مع نصارى الأندلس ، ثم فى فتحهم مدينة المهدية وطردهم الروم من إفريقية .

وقد أولع السلطان ألب أرسلان السلجوقى بالبناء . وكان إذا أراد أن يبنى بناء حرص على أن يكون شامخا يقوى على تحمل الأحداث دالاً على عظمة الدولة . كما كان يحرص على اختيار المكان الذى يبنى فيه بحيث يكون بهيجا مشرقا . وكان يقول : « آثارنا هذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا »[٢] .

وكان السلطان ملكشاه السلجوقى (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) مغرما بالعمائر ، فحفر كثيرا من الأنهار وأحاط كثيرا من المدن بالأسوار ، وأنشأ الربط والقناطر فى المفاوز ، وعمر جامع السلطان ببغداد (٤٨٥ هـ) وزاد فى دار السلطنة بها ، وحفر الآبار فى طريق مكة . وقد خرج من الكوفة لتوديع الحاج سنة ٤٨٠ هـ ، فصاد فى طريقه وحشاً كبيرا ، فبنى بالسبيعى منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التى صادها فى هذا الطريق . وكانت هذه المنارة تعرف بمنارة القرون . كما بنى منارة أخرى ببلاد ما وراء النهر[٣] .

ولنذكر الآن بعض المدن الشهيرة فى العصر الذى خصصنا له هذا الجزء الرابع من كتابنا (٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) :

---

(١) Grunebaum, Islam, pp. 144-145 ; E. Pautey, Villes Spontanées, etc

(٢) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٥

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٩ .

(ب) مدينة قرطبة :

كانت قرطبة فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أكثر المدن الإسلامية حضارة فى الأندلس بصفة خاصة والمدن الأوربية بصفة عامة . وكان العجب يأخذ من قلوب الرحالة الذين زاروا هذه المدينة كل مأخذ حين يشاهدون بها سبعين داراً للكتب وتسعمائة حمام للجمهور . وقد اعترف ابن حوقل الجغرافى ، برغم تحامله على أمويى الأندلس ، بعظمة قرطبة التى سماها بغداد الثانية ، كما أعجب بجمال مدينة الزهراء المتاخمة لقرطبة وبثراء حى الرصافة وفخامته .

وقد تأثر الفن الأوربى بالفن الإسلامى الذى أخذ عن الفن المصرى القديم وعن فن الشرق الأدنى . فالأساطين الأيونية فى البناء الكلاسيكى شرقية الأصل . كما أخذ اليونان عن طريق الشرق الأدنى أهم عناصر الفن الهللينى الشرقى . وليست هذه الخطوط المنقوشة إلا باقات وسيقان البردى التى نشاهدها على الأعمدة المصرية القديمة ، إذ أن بلاد بابل تعد موطن النقش على الأحجار الكريمة . كما أن الأعمدة التى استخدمت كعنصر زخرفى فى البناء مصرية الأصل ، انتقلت إلى سورية وسائر بلاد الشرق الأدنى حول الألف الثانى قبل الميلاد ، ثم إلى بلاد اليونان فى القرن السابع الميلادى .

كذلك انتقل فن البناء العربى ، ولاسيما القباب ، إلى أوربا محاكاة لمسجد عمر فى بيت المقدس . وقد أثبت مؤرخو الفنون أن أهم عناصر الفن الرومانى كانت متداولة فى الشرق قبل أن تعرفها أوربا بقرون ، وأن العوامل التى أدت إلى وجود الفن القوطى شرقية الأصل .

وإنا لنرى التأثير العربى فى أوربا واضحا فى الفنون والصناعات المنزلية . فقد كانت دور الأغنياء فى مملكة بيت المقدس على الطراز العربى . كذلك كانت الزخرفة والأثاث الداخلى والمصوغات الذهبية والحلى ولا سيما فى إيطاليا وفى البندقية بوجه خاص . أضف إلى ذلك صناعة العاج والمينا والسجاجيد والأبسطة . وإن خزف مدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر يثبت ، كما يقول بروفنسال[1]، بفنه وألوان تصويره ومناظره ، أنه من أصل عراقى .

---

(١) الشرق الإسلامى والحضارة العربية ص ٣٣ — ٣٤ .

أما الصناديق الصغيرة المصنوعة من العاج التى هى فخر مصانع الخليفة ، فقد اتخذت موضوعاتها وصورها ومناظر الصيد والموسيقى عن الفن الأسيوى .

وعن الفن الإسلامى أخذ الأوربيون كثيرا من فن النقش والزخرفة وصناعة السجاجيد . وعن عرب صقلية وأسبانيا تأثرت الحضارة الأوربية بالحضارة الإسلامية فى الثقافة والفن ، وفى نظم الحكم ، وفى الحياة الاجتماعية وغيرها . وبذلك يظهر أثر التراث الإسلامى فى الحضارة الأوربية ، وينمحى الرأى القديم الذى ذهب أصحابه إلى القول بأن الغرب أسبق من الشرق فى تطور الفكر البشرى ورقى الحضارة الإنسانية .

(ح) مدينة القاهرة :

ذكرنا من قبل أنه كان من أهم ما يرمى إليه الولاة فى البلاد الإسلامية أن يؤسسوا قاعدة تسع جندهم وتأوى أنصارهم وتضم بين جوانبها دواوين حكومتهم ، ثم يبنون مسجدا يقيمون فيه شعائرهم الدينية . وقد سنّ هذه السنة ولاة مصر منذ فتحها عمرو بن العاص ، فأسس مدينة الفسطاط ، وجاء بعده صالح بن على فأسس هو وأبو عَوْن مدينة العسكر ، وأسس أحمد بن طولون مدينة القطائع . ثم جاء جوهر الصقلى فوضع أساس مدينة القاهرة حاضرة الفاطميين الجديدة فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ بعد أن استولى على مدينة مصر (يعنى الفسطاط وأطلال العسكر والقطائع) ، كما وضع جوهر أساس قصر مولاه المعز لدين الله .

وكانت القاهرة وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة . وكانت حدودها الشرقية هى بنفسها حدود القاهرة الحالية ، وأما من الجهة الغربية فلم تجاوز شارع الخليج .

وقد ذكر على مبارك باشا أن طول كل جانب من جوانب مدينة القاهرة كما أسسها جوهر كان يبلغ ألفا ومائتى متر ، ومساحة هذا المكان ٣٤٠ فدانا كان القصر الخلافى يشغل منها مساحة مقدارها سبعون فدانا . وكانت حديقة كافور تشغل خمسة وثلاثين فدانا ، وخمسة وثلاثين فدانا للمكان المخصص لاستعراض الجند ، والباقى وقدره مائتا فدان لسكنى الجند . وقد زاد السور الذى أقامه أمير الجيوش بدر الجمالى فى مساحة المدينة ستين فدانا . وقد بنى هذا السور من الحجر الكبير الحجم ، وبه ثلاثة أبواب لا تزال باقية إلى اليوم[1] .

---

(١) راجع كتاب على مبارك باشا : الخطط التوفيقية . ج ١ ص ٤ — ٢٢ .

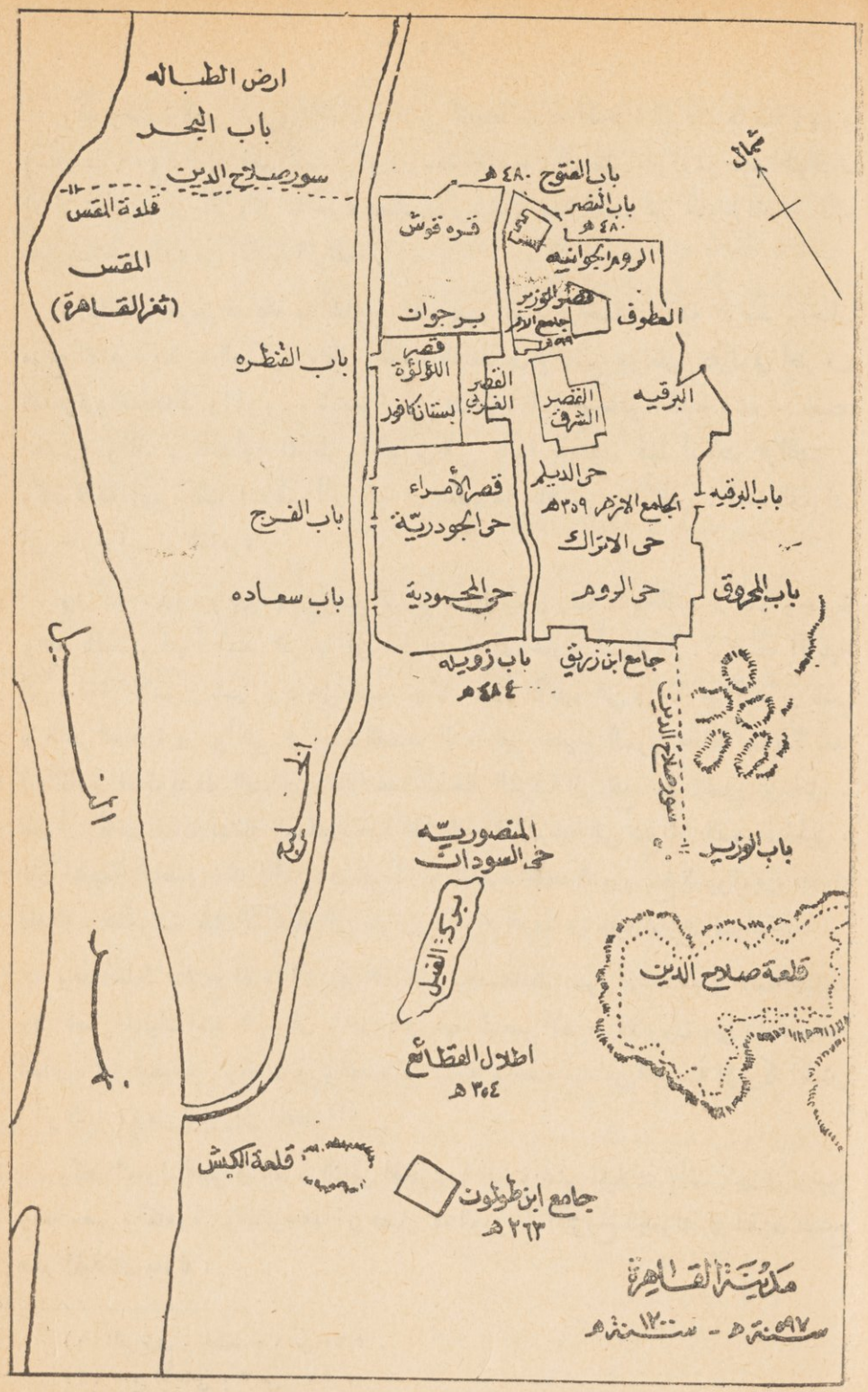
ارض الطباله
باب البحر
سور صلاح الدين
قلعة المقس
المقس
(ثغر القاهرة)
باب الفتوح ٤٨٠ هـ
باب النصر
٤٨٠ هـ
قصر قوش
برجوان
الروم الجوانيه
قصر الوزير
جامع الازهر
العطوف
باب القنطره
قصر اللؤلؤة
بستان كافور
القصر الغربي
القصر الشرقي
البرقيه
حي الديلم
قصر الأمراء
حي الجودرية
الجامع الازهر ٣٥٩ هـ
حي الاتراك
حي الروم
حي المحمودية
باب البرقيه
باب المحروق
باب الفرج
باب سعاده
جامع ابن رزيق
باب زويله
٤٨٤ هـ
سور صلاح الدين
باب الوزير
المنصوريه
حي السودان
الخليج الغربي
اطلال القطائع
٣٠٤ هـ
قلعة صلاح الدين
قلعة الكبش
جامع ابن طولون
٢٦٣ هـ
مدينة القاهرة
سنة ٩٧ هـ - سنة ١٢٠٠ هـ

وقد وصف ناصر خسرو الرحالة الفارسى تخطيط مدينة القاهرة التى زارها سنة ٤٤١ هـ (سنة ١٠٤٩ م) فقال إن قصر الخليفة يقع فى وسط القاهرة ، وأنه طلق الهواء من جميع الجهات ، إذ لا يتصل به أى بناء وكل ما حوله فضاء . . . ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة مافيه من الأبنية المرتفعة .

وإذا كان جوهر قد فاته ما أشار به المعز لدين الله من اختيار منطقة الرصد واختار موقع القاهرة بنظرته العسكرية ، فإن الخلفاء الفاطميين لم تفتهم مواطن الجمال فى أطراف القاهرة والفسطاط والجزيرة ، فانتفعوا بها وبشاطىء النيل وحافتى الخليج وشبرا ، حيث الخضرة والماء ، فأنشأوا المناظر والحدائق التى كانوا يقضون فيها أوقات فراغهم . وكان لانتفاعهم بتلك المناطق أثر كبير فى تعميرها بخاصتهم من الناس ، فامتد العمران إلى خارج أسوار القاهرة .

وفى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧م) وسع الوزير بدر الجمالى رقعة مدينة القاهرة شمالا وجنوبا وسمح بالسكنى فيها ، فامتد عمرانها إلى أطرافها ثم إلى خارج أسوارها ، وسميت الأبنية التى بداخل الأسوار باسم « داخل السور » كما سميت الأبنية التى فى خارج الأسوار باسم « ظاهر القاهرة » ، وأنشىء فى هذا الفضاء الذى هو خارج السور خطط جديدة بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين . هذا عدا الناحية الشرقية التى تقع بين السور والجبل ، بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين هذا عدا الناحية الشرقية التى تقع بين السور والجبل ، فإن الخليفة الفاطمى الحاكم أمر بأن تلقى أتربة القاهرة خلف السور لمنع السيول من دخول المدينة ، فتكونت تلك الأكوام التى تعرف بأكوام البرقية فى نهاية شارع الدراسة .

وقد أحاط صلاح الدين الأيوبى القاهرة والفسطاط بسور واحد وبنى قلعة الجبل . وفى عصر المماليك امتد العمران وخاصة فى عهد الناصر محمد بن قلاوون حتى زادت رقعة القاهرة نحو النصف ، وغدت هى والفسطاط مدينة واحدة تمتد من العباسية إلى بركة الحبش (أثر النبى) ومن النيل إلى المقطم[1] .

وكان لتحول النيل فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أثر كبير فى توسيع رقعة مصر والقاهرة . وقد وصفها ابن فضل الله العمرى[2] المؤرخ الجغرافى فى القرن الرابع عشر الميلادى بقوله :

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٦٥ .

(٢) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٧٠ .

« ولم تزل القاهرة فى كل وقت تتزايد عمارتها، وتتجدد معالمها، بعد حريق الفسطاط (فى عهد وزارة شاور) سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) وانتقال أهلها حتى صارت على ما هى عليه فى زماننا من القصور العالية والدور الضخمة، والمنازل الرحيبة والأسواق الممتدة والمناظر النزهة والجوامع البهجة والمدارس الرائعة والخوانق الفاخرة، مما لم يسمع بمثله فى قطر من الأقطار ولا عهد نظيره فى مصر من الأمصار ».

(٤) مدينة مراكش :

إن بناء مدينة مراكش باعتبارها حاضرة للدولة المرابطية مع وجود مدينة « أغمات » الكبيرة، التى كانت مزدهرة قبل مراكش، والتى لا تبعد عنها بأكثر من ثلاثين كيلو مترا لم يكن مجرد صدفة أو ارتياد مكان لغرض غير معين.

ذلك أن أغمات المدينة البربرية الأصيلة التى يرجع تاريخ بنائها إلى العصور القديمة كانت تحفّ بها أشجار الزيتون فى سفح جبال الأطلس[1] وتكثر بها البساتين والأنهار. ولم تكن هذه المدينة تلائم البيئة الصحراوية التى تعودها المرابطون فضلا عن أنها ضاقت بسكانها الجدد من المرابطين.

وقد وصف اليعقوبى[2] أغمات بأنها « بلد خصب فيه مرعى ومزارع فى سهل وجبل، وأهله قوم من البربر ». وقد ذكر الإدريسى[3] الذى عاصر المرابطين والموحدين أن أهل أغمات يتوفرون على ثروات ضخمة من تجارة النحاس والثياب الصوفية والعمائم والآلات الحديدية، وما منهم رجل يسافر عبيده ورجاله إلا وله فى قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملا موقّرة[4]. ولم يكن فى دولة الملثمين أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا.

عاد أبو بكر بن عمر إلى مدينة أغمات وكانت مدينة مشهورة بعلمها وحضارتها. وكانت عبارة عن مدينتين تسمى كل منهما أغمات، وتنسب إحداهما إلى قبيلة وريكة فيقال لها أغمات وريكة، والأخرى تنسب إلى قبيلة هيلانة فيقال لها أغمات هيلانة

---

(١) Terasse, tome I. p. 222

(٢) كتاب البلدان ص ٢١ — ٢٢

(٣) كتاب الأندلس وأرض السودان ص ٦٧.

(٤) أى مثقلة بالأحمال.

أو إيلان أو إيلانة هيلانة). وما زال أهل مراكش حتى اليوم يسمون أحد أبواب مدينتهم « باب إيلان » . وقد قامت منافسة شديدة بين هاتين المدينتين ، حتى إن كل فريق منهما كان يصلى فى الجامع منفرداً . وفى ذلك الوقت استقر أبو بكر بن عمر فى هذه المدينة وتوافدت عليه الوفود والجيوش من الصحراء حتى ازدحمت بالسكان فضج أهلها بالشكوى لما كانوا يجدونه من عناء بسبب مضايقة المرابطين لهم . فقال لهم أبو بكر : عينوا لنا موضعاً نبنى فيه مدينة إن شاء الله . فأشاروا عليه فى بادىء الأمر بمكان يقع على نهر تانسفت[1] (بسكون النون والفاء وكسر السين) شمالى مراكش . ولكن أبا بكر خاف من فيضان هذا النهر وقال لهم : إننا قوم صحراويون ولا نستطيع العيش بجوار الأنهار . وأخيراً أشاروا عليه بفحص[2] مراكش وقالوا له : أيها الأمير قد نظرنا لك موضعاً صحراء رحب الساحة واسع الفناء يليق بمقصدك ، يكون وادى نفيس (بفتح النون) جنانها ، وبلاد دُكالة[3] (بضم الدال وفتح الكاف مع التشديد) فَدّانها ، وزمام جبال درن (بفتح الدال والراء) (بالأطلس الكبير) بيد أميرها . أضف إلى ذلك وقوع مدينة مراكش فى مكان متوسط من بلاد المغرب الأقصى .

عند ذلك ركب الأمير أبو بكر بن عمر فى صحبة نفر من قومه من لمتونة وشيوخ المصامدة ووجوه الناس إلى فحص مراكش . وكان خاويا موحشاً ، لا أنيس به إلا الغزلان والنعام ولا ينبت به إلا السدر والحنظل ؛ فوجدوا بجواره مكاناً خصيباً فسيحاً ورأوا فى هذا السهل من العشب لجالهم ودوابهم ما سرهم[4] .

٢ — تسمية مراكش :

وقد ذكر عبد الواحد المراكشى[5] أن مراكش كانت فى مبدأ أمرها غيضة لا عمران فيها ، وكانت مأوى للصوص ، وربما سميت مراكش باسم عبد أسود يدعى « مراكش » ، استقر بها أو لأنها كانت بمكان موحش مخيف . فكان المارة يقولون لرفقائهم :

---

(١) ويصب جنوبى مدينة آسفى .

(٢) بفتح الفاء وسكون الحاء كل موضع يسكن .

(٣) لا تتصل وكالة اليوم بمراكش ، وكان اسمها قديما يطلق حتى على القبائل التى تدعى عبدة اليوم بجوار مدينة مراكش .

(٤) الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية (لمؤلف مجهول) . نشره علوش ، ص ٥ — ٦ .

(٥) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٩٥ وما يليها .

« مراكش » ، ومعناها مرّ مسرعا بلغة المصامدة ، فعرف المكان بهذا الاسم ، وهو مراكش (بفتح الميم والراء مع التشديد وضم الكاف)[١] ، وبعضهم ينطقها بفتح الكاف وضبطها بعضهم بضم الميم وكسر الكاف . ويطلق لفظ مراكش على المملكة المغربية كلها فيقال سلطنة مراكش ومملكة مراكش (Maroe بالفرنسية و Morocco بالإنجليزية) و Marrakesh على المدينة .

٣ — تخطيط مراكش

وقد بدأ الأمير أبو بكر بن عمر عملية التعمير والبناء ببناء قصره ، وتبعه الناس فى بناء الدور بغير أسوار [٢] . ثم بنى معسكرا ومخازن للسلاح والأموال إلى جانب مسجد لإقامة الصلاة . وليس من شك فى أن المدينة بدأت فى غاية البساطة ، حيث سكن الناس أولاً فى خيام من الوبر ، ومنهم رجال الدولة . واستمر هذا العمل نحواً من سنة ، وقيل ثمانية أشهر .

ولما نزل الأمير أبو بكر بن عمر بموضع مراكش وبدأ عملية التعمير والبناء ، وفد عليه رسول من قبيلة لمتونة بالصحراء يعلمه أن جدالة قد أغارت عليهم ، فأقام أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين على حكم المغرب وسار نحو الصحراء لنجدة قومه [٣] .

وينسب بعض المؤرخين بناء مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين ويحدد تاريخ بنائها بسنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٣ م) ، على أنه مما لا شك فيه أن يوسف بن تاشفين كان يشرف على البناء حين كان أبو بكر بن عمر مشغولا بإخماد الفتنة التى قامت بين قبائل المرابطين قبل أن يعود إلى الصحراء ويقضى بقية حياته فيها . على أننا نرى أن المؤسس الحقيقى لمدينة مراكش هو أبو بكر بن عمر ، وأن يوسف بن تاشفين قد أتم ما بدأه أبو بكر بن عمر . ومراكش تشبه كثيراً من حيث جوها والحركة الدائبة فيها مدينة بغداد ، كما تشبه مدينة

---

(١) أنظر لفظ مراكش فى معجم البلدان لياقوت .

(٢) كان المرابطون يكرهون أن تكون المدن مسورة ، وذلك لطبيعة نشأتهم الصحراوية الطلقة ، حتى إن يوسف بن تاشفين لما فتح مدينة فاس ، خرب السور الذى يفصل بين عدوتيها (أى عدوة الأندلسيين وعدوة القرويين) وقال : إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا . ولما فكر على بن يوسف بن تاشفين فى تسوير مدينة مراكش سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) استفتى الفقهاء فى المغرب والأندلس فى هذا العمل .

(٣) عباس بن إبراهيم : الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام (فاس ١٣٥٥ / ١٩٣٦) ج ١ ص ٦٣ وما يليها .

فاس من حيث كثرة غياضها وأشجارها وطقسها مدينة دمشق ، وتزخر مدينة مراكش بالآثار والمعالم الحضارية .

ويذكر ابن خلدون (١) أن يوسف (بن تاشفين) جعل مدينة مراكش لنزوله ونزول عسكره ولمراقبة قبائل المصامدة التى كانت تقيم بجبال درن (بفتح الدال والراى) المتاخمة لمراكش . وهكذا يرجع تأسيس مدينة مراكش إلى عوامل أهمها :

(١) إيجاد مقر للحكومة ومعسكر يتسع لجند المرابطين .

(٢) اتخاذ حاضرة الدولة بقرب مواطن المصامدة الأصلية لدفع إغاراتهم .

(٣) ارتياد مكان فسيح من حيث موقعه الملائم لطبيعة حياة المرابطين الصحراوية .

وقد اختط أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين من بعده مدينة مراكش فى بسطة من الأرض حولها جبل إيجليز (ويسمى الآن جيليز) القريب من مراكش واقتطع منه الحجر وبنى منه دارا لحرمه ، وقصرا يعرف بدار الحجر . ولا يعرف موقع هذا القصر على وجه التحقيق ، أما المبانى الأخرى فكانت من الطين والحجر .

وبعث يوسف بن تاشفين فى طلب عبيد الله بن يونس الذى برع فى الهندسة ، فاستخرج الماء الذى جرى إلى المبانى والبساتين والمتنزهات التى يسمونها البحائر (٢)، حتى كثرت قصور الأمراء والقواد وغيرهم . وقد أمد يوسف بن تاشفين مدينة مراكش بالماء ، فحفر آبارا أطلق عليها « الخطاطير » وجلب إليها الماء من أغمات (٣) .

وقد اتفق المؤرخون على أن المرابطين لم يتخذوا فاس حاضرة لدولتهم ، لبعدها عن مواطنهم وعن مواطن المصامدة الذين كانت تعمر بهم جبال الأطلس .

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد السنة التى بنيت فيها مدينة مراكش ، فيذكر ابن خلدون (٤) وابن أبى زرع (٥) أنها بنيت سنة ٤٥٤ هـ .

---

(١) العبر ج ٦ ص ٣٧٨ .

(٢) جمع بحيرة (بفتح الباء) والمراد بها الفدان الذى يحرث (أى حقل) ، وهى ما يسمى اليوم أجدال (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الدال) .

(٣) عباس بن إبراهيم : الأعلام ج ١ ص ٦٣ .

(٤) العبر ج ٦ ص ١٨٤ .

(٥) روض القرطاس ج ٢ ص ٣٩ — ٤١ .

٤ — اتساع مدينة مراكش .

وقد أجمع المؤرخون على أن بناء مدينة مراكش تم فى ثمانية أشهر ، وأن عليا بن يوسف هو الذى سورها وأنفق على بنائها سبعين ألف دينار مرابطية ، وبنى بها مسجدا قام بترميمه المولى سليمان العلوى . كما بنى قنطرة تانسيفت واستعان بصناع الأندلس وغيرهم من مهرة المعماريين . ولكن سيول هذا النهر لم تلبث أن هدمت هذه القنطرة وأطاحت بها فى النهر ، ولم يبق منها إلا عقدها ، فقام الموحدون بترميمها .

وقد ذكر المؤرخون أنه كان بمدينة مراكش سبعة عشر بابا ، واشتهرت مراكش باتساع أزقتها ورحابة دورها وارتفاع مبانيها وزخرت أسواقها بالسلع .

ولما انتقل الحكم إلى الموحدين سنة ٥٢٤ هـ فتح عبد المؤمن بن على (٥٢٤ — ٥٥٨ هـ) أول خلفاء الموحدين مدينة مراكش [١] . وقد عنى هو ومن جاء بعده من الخلفاء بتشييد المبانى ، فبدأ بناء جامع الكتبية الذى اشتهر بمنارته العظيمة التى تحاكى منارة « الخالدة » باشبيلية . ثم أتمه ابنه أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) ، وجلب عبد المؤمن ابن على المياه من أودية جبال دَرَن وغرس فى غربى المدينة بحيرة (بفتح الباء) عظيمة بلغت دائرتها ستة أميال وبنى فيها وفى خارجها صهريجين عظيمين ، كما غرس ابنه أبو يعقوب يوسف بحائر أخرى جلب إليها الماء وبنى فيها صهريجا ضخما ، كما بنى فى جنوبى المدينة حصنا أتمه ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) وبنى بجوار مراكش مدينة أخرى تزخر بالبساتين والقصور والأسواق والفنادق ، كما بنى بها جامعا وقيسارية ذكر المؤرخون أنه لم يُبْن فى المدن الإسلامية قيسارية أعظم منها [٢] .

وقد بلغت مدينة مراكش أوج ازدهارها فى عهد الموحدين ثم فى عهد بنى مرين (٥٩١ — ٨٧٥ / ١١٩٥ — ١٤٧٠) ولا سيما فى عهد المنصور الذهبى (٦٥٦ — ٦٨٥ / ١٢٥٨ — ١٢٨٦) حتى بلغت مساحتها أربعة فراسخ [٣] طولا ومثلها عرضا . وبلغت قصورها درجة عظيمة من الروعة والجمال [٤] . فاشتهرت ببساتينها وأعنابها وفواكهها

---

(١) هدم الموحدون مسجد يوسف بن تاشفين بمدينة مراكش ولم يبق من معالمها سوى سورها وخطاطيرها ودمرت المبانى الأخرى وأقيم مكانها أبنية أخرى .

(٢) عباس بن إبراهيم : الأعلام . ج ١ ص ٦٣ .

(٣) والفرسخ أربعة أميال .

(٤) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٦٠ .

وثمارها وغرست فيها أشجار الزيتون ومعاصر الزيت ودهن المرجان [١] . وقد شيد يعقوب المنصور الموحدى ساقية تشق وسط المدينة ساق منها الماء إلى قصره ، وجعل حولها سقايات يشرب منها الناس وتسقى منها الخيل والدواب ، كما بنى فى شرقى المدينة دار الفرج وهو مارستان المرضى الذى وصفه عبد الواحد المراكشى [٢] فقال . « ما أظن أن فى الدنيا مثله » .

وقد ظلت مدينة مراكش حاضرة للدولة المرابطية نحواً من ست وسبعين سنة حتى زالت هذه الدولة سنة ٥٤٠ هـ .

ولمدينة مراكش أهمية كبيرة من حيث موقعها الجغرافى : فهى تقع فى وسط المغرب الأقصى بين الصحراء والسهول ، وهى ملتقى الجبل والسهل ومجتمع العرب والبربر حتى أطلق عليها بعض أهلها خراسان المغرب ، لأنه يسكنها أقوام من أجناس مختلفة يتكلمون لهجات متعددة . وهى سوق نافقة للتجارة بين العرب سكان الأراضى السهلية غربا وشمالا ، كالرحامنة وحمير والسّراغنة ودكّالة والشاوية ، وبين البربر سكان الجبال شرقا وجنوبا . فالخارج من مراكش من باب أغمات لا يسمع إلا اللغة البربرية من قبيلة مسفيوة شرقا إلى ما وراء الأطلس الكبير ومنها جنوبا إلى بلاد السوس . وإذا خرج من باب الخميس لا يسمع إلا اللغة العربية من قبيلة الرحامنة غربا إلى سواحل المحيط الأطلسى ، ومنها شمالا إلى أقاصى قبيلة الشاوية . وكان يعبّر عن هذا الإقليم بالحور وحاضرته مراكش ، ويقابله الغرب وحاضرته فاس .

ومن الجهات الجبلية البربرية تجلب إلى السهل الزيوت والفواكه والأخشاب والجلود المدبوغة وسائر منتجات الأراضى الجبلية ، ويجلب من أراضى السهول إلى الأراضى الجبلية الماشية والسمن والصوف وغيرها من منتجات السهول . ومما ساعد على رواج التجارة إصلاح الطرق التى تخترق الجبال وبناء القناطر التى تخترقها قوافل السيارات ليلا ونهاراً [٣] .

(هـ) مدينة الرباط :

لما ولى يعقوب المنصور الخلافة رأى أنه من الصعب أن يرسل النجدات من مدينة

---

(١) ويعرف بالأرجان اليوم ، وهو شجر يستخرج الزيت من حبه .

(٢) المعجب ص ٣٦٠

(٣) أحمد بوستة : مجلة المغرب (ربيع الثانى — جمادى الأولى ١٣٥٥ / يونية — يولية ١٩٣٦) ص ٢٣ .

مراكش إلى الأندلس ، لبعد الشُّقة بينهما . لذلك فكر يعقوب المنصور وأبوه يوسف بن عبد المؤمن من قبله فى بناء مدينة على ساحل البحر يستطيع أن يقضى فيها فصل الصيف مع جيوشه . وقد أشار عليه بعض رجال بلاطه بأن يتخذ مدينة سَبْتة معسكرا لجنده . ولكن يعقوب المنصور رأى أن إقليم سبتة يقصر عن تزويد جنده ورجال بلاطه وخدمه بما يحتاج إليه من أقوات مدة ثلاثة أو أربعة أشهر فى السنة ، لعدم خصوبة أرض هذا الإقليم ، ولأنه لا يتسع لسكنى هؤلاء الجند والخدم ورجال البلاط . لذلك استقر الرأى على اختيار موقع الرباط . وقد بدأ يوسف البناء وأتمه ابنه يعقوب المنصور فى بضعة أشهر ، وذلك سنة ٥٩٣هـ (١١٩٦ — ١١٩٧ م) على أثر انتصاره فى موقعة الأرك المشهورة . وقد بنيت فى هذه المدينة المساجد والمدارس والقصور والدور والحوانيت .

وفى خارج سور المدينة من ناحية الجنوب أقام يعقوب المنصور منارة تشبه منارة جامع الكتبية بمدينة مراكش ، ولكنها أعظم منها ، وجعل حيًّا خاصاً لكل جماعة من السكان ، كالصناع والتجار والأدباء وغيرهم . وسرعان ما ازدهرت مدينة الرباط وأصبحت من أغنى مدن القارة الإفريقية ، وساعد على ذلك حسن موقعها ورواج تجارتها بسبب سكنى الجند والخدم ورجال البلاط . وكان يعقوب المنصور يقيم فيها بين شهرى إبريل وسبتمبر .

على أنه يلاحظ أن ماء وادى (نهر) أبى الرقراق (بفتح الراء مع التشديد وسكون القاف) الذى يصب فى البحر عند مدينة الرباط يتصف بملوحة مائه . لذلك فكر يعقوب المنصور فى جلب الماء من مكان يبعد عن المدينة باثنى عشر ميلا بواسطة قنطرة حسنة البناء مقامة على أعمدة ، تشبه القناطر التى كانت مستعملة فى بلاد الدولة البيزنطية . ويخرج من هذه القنطرة فروع كثيرة تجلب الماء إلى جميع أحياء المدينة[١] .

ويقول المراكشى[٢] إن طول سور مدينة الرباط (الذى يشبه سور مدينة مراكش) بلغ فى مبدأ أمره نحوا من فرسخ وعرضه أقل من ذلك بكثير . وقد اتسعت رقعة المدينة ، وألحقت بها أحياء كثيرة ، مثل حىّ يعقوب المنصور وحى أجْدال وغيرهما . وأصبحت الرباط حاضرة رسمية لبلاد المغرب الأقصى منذ سنة ١٩١٢ .

---

(١) الحسن الوزان (ليو الإفريقى) « وصف إفريقية » بالفرنسية) ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٦ .

(٢) المعجب ص ٢٦٦ .

(٢) المنشئات المعمارية

(١) القصور

بعد أن تم لجوهر فتح مصر ودخل مدينة الفسطاط سنة ٣٥٨ هـ ، عسكر فى السهل الرملى الذى يقع إلى شماليها ، ويحده من الشرق تلال المقطم ومن الغرب خليج أمير المؤمنين . وقد بنى فى هذا المكان القصر الشرقى الذى أعده جوهر لاستقبال مولاه المعز ، واتخذ حول هذا القصر دوراً للجند والموظفين والأتباع . وموضع هذا القصر هو المكان الذى يقع فيه مسجد الحسين وخان الخليلى الآن . وقد بنى العزيز كثيراً من المنشئات التى تدل على وفرة ثروة مصر فى عهده ؛ فبنى « القصر الغربى » الذى يقع غربى القصر الشرقى . وكان القصر الغربى الذى بناه العزيز أصغر من قصر المعز ، لذلك أطلق عليه « القصر الغربى الصغير » تمييزاً له عن « القصر الشرقى الكبير » . وكان يقع مكان سوق النحاسين وجامع قلاوون تقريباً . وبين القصرين ميدان فسيح لعرض الجند أطلق عليه « بين القصرين » .

وقد ذكر ابن دقماق أسماء أبواب القصر الشرقى الكبير : وهى باب الذهب ، وتعلوه منظرة يشرف منها الخليفة فى الأعياد ، وباب البحر ، وباب الريح ، وباب الزمرد ، وباب العيد ، وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجند فى يومى العيدين وتعرف برحبة العيد . وبجواره دار الضيافة ، وتسمى بدار سعيد السعداء ، وباب قصر الشوك ، وباب الديلم ، وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويقابله الجامع الأزهر إلى الجنوب الشرقى من القصر ، وباب تربة الزعفران ، وباب الزهومة ؛ أعنى الباب الذى يشم منه رائحة اللحم ، وبين هذا الباب والجامع الأزهر تقع خزائن القصر[١] .

وقد وصف ناصف خسرو حين زار مصر فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٣٩ — ٤٤١ هـ) القصر الخلافى ، فذكر أنه كان به ثلاثون ألف جارية واثنا عشر بهوا وعشرة أبواب . وكان موضعه وسط القاهرة التى كان بها عشر حارات ، وبلغ عدد حراسه ألفاً ، منهم خمسمائة فارس وخمسمائة راجل . وإذا ماانتهت صلاة العشاء ضربت الطبول والأبواق ، وعزفت الصنوج وكون الحرس من أنفسهم دائرة ، وظلوا كذلك حتى مطلع الشمس[٢] . كما وصف المقريزى هذا القصر ، فذكر أنه كان به عشرة آلاف

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٥٦ — ٥٧ .

(٢) ناصر خسرو : سفر نامه ص ١٢٨ .

من الأشراف وثمانية آلاف من الخدم ، كما ذكر أنه كان بهذا القصر حين استولى عليه صلاح الدين الأيوبى اثنا عشر ألفاً كلهم من الإناث عدا الخليفة وأولاده ، وأن هذا القصر قد جدده الخليفة الآمر فى سنة ٥٢٢ هـ . وكان يجلس فى أعلاه ويشاهد ذكر الصوفيين من نافذة خاصة ، وألويتهم بين أيديهم ، والشموع تضىء لهم : وكانت تقام لهم الموائد وعليها مالذ وطاب من سائر أنواع الأطعمة[١] .

وكان الخلفاء الفاطميون يبنون المناظر ، فبنوا بالمقس ثلاثاً منها ، إحداها تقع بين باب الذهب وباب البحر ، والثانية على قوس باب الذهب ، والثالثة يقال لها الزاهرة والناضرة والفاخرة . وكان الخليفة يجلس فى إحدى هذه المناظر يعرض العساكر يوم غدير خُمّ ، ويقف الوزير فى قوس باب الذهب[٢] .

وقد أنشأ الفاطميون كثيراً من المنشئات العامة كالفنادق والحمامات ، وكانت كلها ملكا خاصاً للخليفة . كما كانت الدكاكين فى القاهرة كذلك ملكا خاصاً له ، يتراوح إيجار كل منها بين دينارين وعشرة دنانير فى الشهر . وكانت الدور محكمة البناء مبنية بالحجر لا باللبن ، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة[٣] .

(ب) الحمامات

ومن أهم مظاهر الحياة فى المدينة الإسلامية الحمام . ففى القرآن والسنة نرى النظافة الشخصية والصحة العامة أمراً أساسياً لتطهير الجسم ونظافته ، حتى لقد ورد فى الأثر الشريف قول الرسول الكريم : « النظافة من الإيمان » . لذلك نرى الإسلام يهتم بالوضوء والاستحمام واستعمال السواك ، فالسنة الشريفة تقرر على المسلم أن يستحم مرة على الأقل فى الأسبوع ، وعلى الأخص فى يوم الجمعة . وقد اعتاد الرسول الكريم نفسه أن يستحم فى عيدى الفطر والأضحى ، كما أثر عنه أنه أوصى المسلمين بالاستحمام فى مناسبات معينة : بعد الجنابة والجماع وفى يوم الجمعة وعند الحجامة وبعد غسل الميت . كما شجع العرب فى السباحة برغم عدم وجود خزانات لمياه الشرب ببلادهم واعتمادهم على مياه السيول .

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٨٤ وما يليها .
(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤٠٤ .
(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٣٢ .

وكان الاستحمام بالماء الحار[١] شائعاً عند العرب فى صدر الإسلام ، وربما أخذوه عن أهالى البلاد التى فتحوها ولا سيما فى سورية ومصر . وقد رحب المسلمون بهذه العادة لأنها جزء من الطهارة التى هى باب الصلاة وشرط لكثير من العبادات . على أن بعض المسلمين قد امتنعوا أول الأمر عن دخول الحمامات التى قامت فى مداخلها التماثيل وزينت جدرانها بالصور التى تنم عن الكبرياء والجبروت . ومع ذلك فقد بقيت هذه التماثيل عدة قرون .

ويشبه تصميم بناء الحمام عند العرب حمامات رومة إلى حد كبير ، فنجد فى داخل الحمام غرفة رطبة الجو بها مساطب حجرية مغطاة بحشيات أو سجاجيد لجلوس صاحب الحمام (المعلم) خلف عارضة تعلوها أقداح القهوة ، ثم تأتى غرفة ثانية مدفأة لخلع الثياب والاستراحة فى الشتاء ، وتتوسط الغرفة الباردة وغرفة « الحرارة » التى يتصبب فيها الإنسان عرقاً ، وتحاط بغرف فرعية صغيرة يجد فيها المستحم الماء الحار والبارد ، وتجد فيها موظفاً يقوم بتدليك وغسل المستحم بالصابون فى « الحرارة » أى فى إحدى الغرف الصغيرة ، وعند ما يمر المستحم بالغرفة المتوسطة يظل فيها للاستراحة فى الشتاء . وإذا كان الفصل صيفاً ذهب المستحم رأساً إلى الغرفة الباردة (المسلخ) . وقد أولع بعض السيدات باستئجار حمام خاص بعد الظهر حيث يقمن مع قريباتهن وصديقاتهن حفلات فى مناسبات الزواج أو الأعياد . وقد يستأجر الرجال حمامات خاصة فى مناسبات الزواج . أما الأغنياء فيبنون حمامات خاصة بدورهم[٢] .

ويستفاد مما كتبه يحيى بن سعيد الأنطاكى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) أنه كانت هناك فى العصر الفاطمى حمامات خاصة بالمسلمين وأخرى باليهود وثالثة بالنصارى ، وأن الخليفة الحاكم الفاطمى حرم أن يدخل أحد الحمام بدون إزار ، ثم عاد فحرم على النساء دخول الحمامات العامة[٣] . وكان تجار مصر فى عهد الفاطميين يجلبون العطور التى توزع على الحمامات فى كل يوم جمعة ، كما يوزع الطيب على قصور الأمراء والوزراء وغيرهم من

---

(١) الحمام والحميم والحمية جميعاً : الماء الحار (والحمية أيضاً المخض إذا سخن) والحميمة هو الماء الحار لغة ، وجمعها حمامات ، والحميم العرق ، واستحم الرجل : عرق : وقولهم لمن دخل الحمام : طاب حميمك يمنون بذلك العرق أى طاب عرقك ، وإذا دعوا له بطيب العرق فقد دعوا له بالصحة لأن الصحيح يطيب عرقه .

(٢) ديمومبين : النظم الإسلامية ، ترجمة ص ٢٢٧ .

(٣) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوتيخا ص ١٨٧ و ٢٠٨ .

كبار رجال الدولة [١] . كما كانوا يستوردون العطر والند والمسك والعود والعنبر من جزر الهند الشرقية وبلاد الملايو والكافور من ساحل زنجبار [٢] .

وقد ذكر المقريزى أنه كان بمدينة الفسطاط ١١٧٠ حماما ، وقد روى هذا المؤلف عن ابن عبد الظاهر أن حمامات مصر (يعنى الفسطاط والمعسكر وأطلال القطائع) بلغت فى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) نحو ثمانين حماما [٣] . وكان الخليفة الفاطمى يخرج فى العيد من باب الساباط بالقصر الغربى الصغير إلى الميدان (وموضعه الآن الخرشنف ، وينطقه العامة الخرنفش) إلى المنحر لينحر فيه الضحايا . ويعرف حمام الساباط إلى زمن المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) بحمام المارستان المنصورى . وقد خصص للنساء ، ويعرف أيضا بحمام الصنيعة . وقد بيعت فى عهد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبى للأمير عز الدين أيبك مع بعض الأراضى المجاورة سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) بمبلغ ١٢٠٠ دينار ، ثم بيعت بعد ذلك بمبلغ ١٦٠٠ دينار [٤] . وبلغ من شهرة حمامات دمياط أن وصفها المقدسى [٥] بقوله إن حماماتها كانت أجود حمامات مصر .

وذكر اليعقوبى [٦] أن حمامات بغداد بلغت ١٠٫٠٠٠ وأن القسم الشرقى (الرصافة) كان به ٥٫٠٠٠ حمام . وهذا القول لا يخلو من المبالغة . وقد وصف ابن جبير [٧] الذى عاش فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) حمامات بغداد فى هذه العبارة فقال : « وأما حماماتها فلا تحصى عدة . ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفى حمام ، وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به ، فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل . وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم لأن شأنه عجيب . يجلب من عين بين البصرة والكوفة . وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار . فهو يصير فى جوانبها كالصلصال فيجرف ويجلب ، وقد انعقد . فسبحان خالق مايشاء لا إله إلا سواه » . ونقرأ فى المقرى [٨] شيخ مؤرخى الأندلس الإسلامية أنه كان بمدينة قرطبة

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤٢٠ — ٤٢١ .
(٢) ابن إياس : تاريخ مصر جـ ١ ص ٦٣ .
(٣) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٨٠ .
(٤) أنظر ما ذكره المقريزى فى الخطط جـ ٢ ص ٧٩ — ٨٦ .
(٥) أحسن التقاسيم ص ٢٠٢ .
(٦) كتاب البلدان ص ٢٤٠ — ٢٤٩ .
(٧) رحله ابن جبير ص ١٧٦ — ١٧٧ .
(٨) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٥٦ — ٢٥٩ .

ثلثمائة حمام . وبالمغرب الآن كثير من هذه الحمامات التى يعنى بها الأهالى ويؤمونها بصفة دائمة ، إذ أن كثيراً من الناس لا يستحمون فى منازلهم على ما هو شائع فى مصر . وهذه العادة ترجع إلى العصور القديمة .

(ح) المدارس :

ولم تكن هناك مدارس خاصة يتلقى فيها التلاميذ العلوم الدينية بانتظام ، بل كانوا يختلفون إلى المسجد . ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . وكانت المدرسة الأولى بهذا المعنى هى المدرسة البيهقيّة فى نيسابور [١] . ثم أنشأ نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى وصديق عمر الخيام المدارس النظامية المشهورة فى بغداد سنة ٤٥٧ هـ ، ثم فى نيسابور وغيرها . ثم اقتدى الناس بنظام الملك فأسسوا المدارس فى العراق وخراسان وما وراء النهر وفى الجزيرة وديار بكر . وقد حذا السلطان نور الدين محمود بن زنكى حذو السلطان ملكشاه حيث قام فى القرن السادس للهجرة ببناء عدة مدارس للشافعية والحنفية لنشر المذهب الحنفى فى دمشق وحلب وغيرهما [٢] ، ثم نقل صلاح الدين الأيوبى هذا النظام إلى مصر .

وكانت عمارة المدارس التى أنشأها صلاح الدين فى القاهرة فتحا جديدا فى عالم البناء . فكانت المساجد إلى هذا الوقت ذات شكل واحد هو شكل الجامع الذى تقام فيه صلاة الجمعة .

وكان صلاح الدين يعمل على مقاومة الشيعة . لذلك عنى عناية خاصة ببناء المدارس أو المساجد المدرسية بعبارة أدق لتعليم عقائد المذهب السنى ، ولهذا انفق صلاح الدين على هذه المعاهد من بيت المال . وإن الأبنية التى يعرفها الناس باسم مساجد هى فى الحقيقة مدارس أو معاهد علمية . وهى أفخم ما كان فى القاهرة من عمائر ، مثل : مساجد السلطان حسن ، وبرقوق ، وقلاوون والناصر محمد بن قلاوون ، وهى تختلف تماماً عن المساجد فى شكلها وفى الغرض الذى شيدت من أجله . ذلك أنها لم تشيد لأداء صلاة الجمعة ، بل كانت تبنى بناء مدرسيا لكى يتلقى فيها الطلاب العلوم الدينية والعربية . وكان لهذا أثر بعيد فى تشييد المسجد وفى شكل بنائه .

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٦٣ .

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٠٩ .

وكانت المدرسة فى عصر الأيوبيين عبارة عن بناء متجه إلى القبلة وفى وسطه صحن كبير مربع ، وفى كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان تعلوه قبة تحتها محراب ، ومن ثم لم تختلف هيئة المدارس فى الجملة عن هذه المساجد ، لأن المدرسة كان يقصد بها أول الأمر دراسة الدين فى كل شىء ، مما يدل على أن تصميم بناء المساجد قد أدخل عليه تطوير خاص بحيث أضحى عمارة مدرسية وليس عمارة خاصة بالمساجد كما كانت الحال من قبل[١] . ويحيط بالصحن من جوانبه الأربعة أروقة طويلة مقنطرة السقف كأنها أجنحة المسجد . وأما الجناح الشرقى وهو أطولها فيخصص إيوانه للصلاة ، وفيه المحراب والمنبر والميضأة وغيرها مما يحتاج إليه المصلون . وكانت الأروقة الأربعة تستقبل طلابها حسب المذاهب : فأحدها للحنفية ، والثانى للشافعية ، والثالث للمالكية ، والرابع للحنابلة . وكان الطلبة والعلماء يبيتون فى أروقتهم الخاصة حسب توزيع مذاهب السنة ، كما كانت هذه الأروقة تستعمل للدراسة والمكتبات وما إليها من شئون الدراسة[٢] .

وكانت السلطة فى مصر أثناء غياب صلاح الدين توضع فى يد ابنه أو أخيه ، وكلاهما كان يرجع إلى رأى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى[٣] . وبفضل تأثيره بدأ الطلاب يفدون إلى مدارس مصر من أقصى بلاد فارس وتركستان وغيرهما ، واتصلوا بالعلماء الذين جاءوا من قرطبة وإشبيلية . ومن هؤلاء « ابن فرو » الذى استهوته حركة إحياء العلوم والثقافة فى المشرق فجاء إلى مصر من أقصى بلاد الأندلس . ولما جلس هذا الفقيه فى حلقة الدرس التف حوله جمهور من المستمعين ، فقربه إليه القاضى الفاضل ، وأنزله فى داره ووارى التراب بعد موته فى مقبرته الخاصة[٤] .

وقد بنى صلاح الدين مدرسة بالقرب من قبر الإمام الشافعى بالقرافة ، كما بنى مدرسة الناصرية سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) بجوار جامع عمرو لتدريس المذهب الشافعى الذى

---

(١) ماكس هيرتز بك : لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية المصرية ، تعريب على بهجت بك ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢) ليبول : سيرة القاهرة ، ترجمة المؤلف ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٣) وقد تقلد ديوان الإنشاء فى عهد الخليفة الحافظ الفاطمى (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) ، وقلده صلاح الدين قضاء الفضاة ثم اتخذه وزيراً له . وله طريقة كتابية معروفة فى الأدب تعرف بطريقة القاضى الفاضل وهى مقتبسة من طريقة ابن العميد التى تقوم على السجع والمحسنات البديعية .

(٤) المصدر نفسه ص ١٧١ — ١٧٣ .

كان يدين بعقائده ، كما أنشأ على مقربة من هذه المدرسة مدرسة أخرى لتدريس الفقه المالكى عرفت باسم المدرسة القمحية[١]. وكذلك أنشأ صلاح المدرسة السيفية التى ما تزال أطلالها باقية حتى اليوم فى المكان المعروف بالسيوفية بحى الخليفة فى القاهرة . وأسس القاضى الفاضل المدرسة الفاضلية سنة ٥٨٠ هـ ، وكان بها مكتبة تشتمل على مائه ألف مجلد[٢] .

وقد حذا خلفاء صلاح الدين حذوه فى الاهتمام ببناء المدارس ، حتى بلغ عدد المدارس التى شيدت فى العصر الأيوبى ستا وعشرين مدرسة ، نذكر من بينها « دار الحديث » التى بناها السلطان الملك الكامل محمد بين القصرين ، وتعرف بالمدرسية الكاملية. وبعد بضع سنين بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب المدرسة الصالحية . وقد أثر تأسيس هذه المدارس على الجامع الأزهر من ناحيتين :

الأولى : أنه كان من المتعذر أن يساير الأزهر النظم الجديدة ، حتى لقد أصبح فى المرتبة الثانية من الأهمية فى عهد صلاح الدين وخلفائه ، وذلك لأن الأزهر كان أكبر معهد شيعى يعتمد عليه الفاطميون فى نشر العقائد الشيعية أولا وفى مقاومة أهل الشيعة ثانياً ، فكان طبعياً أن تتخلف شهرته فى عهد الأيوبيين السنيين ، وكان طبعياً كذلك أن تكون الصدارة للمدارس الأيوبية السنية .

الثانية : كانت المناهج الدراسية فى الأزهر حين استعاد مكانته فى عهد المماليك تشبه نظام المدارس الجديدة أكثر مما تشبه نظام الدراسة فى العصر الفاطمى . على أن الأزهر نفسه لم يلبث أن ساير الحياة الجديدة حتى أضحى فيما بعد كعبة للمذاهب السنية الأربعة ، كما تطور الآن وأضحى به جامعة حديثة إلى جانب طابعه التقليدى القديم .

وكانت هذه المدارس فى العهد الأيوبى تعنى بتدريس العلوم النقلية والأدب كالتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام واللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب ، كما كانت تعنى أيضاً بتدريس العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق وعلم النجوم والفلك والرياضيات . وكان بعض العلوم كعلم النجوم والتاريخ الطبيعى والرياضيات العالية تدرس لبعض الطلاب على أيدى أساتذة إخصائيين فى منازلهم الخاصة . أما الطب فقد كان يدرس فى المستشفيات[٣] .

---

(١) ذكر المقريزى (خطط جـ ٢ ص ٣٦٤) أن صلاح الدين وقف على هذه المدرسة قيسارية الوراقين وما يتبعها وضيعة فى الفيوم . وعين بهذه المدرسة أربعة من المدرسين وزع عليهم وعلى الطلاب غلة هذه الضيعة من القمح ، فعرفت هذه المدرسة بالمدرسة القمحية .

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٥٧ — ٣٥٩ . المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) Dodge, Al-Azhar (Washington D. C. 1961), pp. 40 — 41.

(٣) المنشئات الحربية

(١) أسوار القاهرة :

أحيطت القاهرة عند إنشائها بسور كبير من اللَّبِن يضم الخطط التى تكونت منها هذه المدينة . وكان هذا السور بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة ، وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، على حين كان الجزء الواقع بخارجها يعرف بظاهر القاهرة . وهو عبارة عن خطط وأحياء جديدة تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل (التى بناها فيما بعد صلاح الدين الأيوبى) وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وتعرف الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق والحسينية[1]. وكان سور هذه المدينة الغربى يبعد عن خليج أمير المؤمنين بنحو ثلاثين مترا . وفى سنة ٤٨٦ هـ هدم هذا السور وبنيت الأبواب من الحجر ، وكان ذلك فى عهد وزارة بدر الجمالى وزير المستنصر الفاطمى .

وفى سنة ٤٦٥ هـ بنى بدر الجمالى باب زويلة الكبير . ونقل باب النصر الذى بناه جوهر إلى المكان الذى به الآن ، كما بنى باب الفتوح فى مكان آخر غير المكان الذى بنى فيه جوهر بابه . وهذه الأبواب الثلاثة من عمل ثلاثة إخوة أصلهم من الرُّها[2] .

وكانت المناظر التى تستخدم أماكن للنزهة تستخدم فى الواقع فى الأغراض العسكرية ، بدليل أنها كانت تبنى على مشارف الحاضرة الفاطمية أو على تلال المقطم المشرفة على ما وراء الجبل وعلى الحاضرة معاً ، بدليل خروج الخلفاء إليها فى حالة توديع الجيوش قبل سيرها للقتال أو استقبالها عند عودتها من ميادين القتال ، ويدعونا هذا الزعم إلى القول بأن فكرة إنشاء المناظر كانت فكرة حربية ، بدليل أن أمير الجيوش

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) وقد ذكرنا فى كتابنا تاريخ الدولة الفاطمية (ص ٥٣٤) أن جوهراً لما اختط مدينة القاهرة جعل لها أربعة أبواب هى بابا زويلة وباب النصر وباب الفتوح — ويتكون بابا زويلة من بابين متجاورين ، أحدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام ، ولهذا سمى باب القوس ، وقد مر منه الخليفة الفاطمى المعز عند قدومه من بلاد المغرب ، فكان الناس يمرون منه تبركاً ، أما الباب الثانى فقد تشاءم منه الناس وهجروه (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٢ . المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٨١ .

بدر الجمالى أحس بالحاجة إليها حين فكر فى إعادة تحصين مدينة القاهرة وتجديد أسوارها[1] .

وليس لأحد من الحكام الذين سبقوا صلاح الدين ماله من الآثار الخالدة ، فإليه يرجع الفضل فى اتساع مدينة القاهرة وتنسيق هندستها التى كانت تفخر بها إلى عهد قريب : فالقلعة وهى أبرز معالمها من إنشائه ، والمدرسة التى بناها هى أكثر عمائرها ذيوعا وشهرة ، وكل هذه التطورات قد تمت بفضل توجيهاته ، وكان بعض هذه الآثار من أجل الدفاع عن البلاد وبعضها من أجل الدين . فأما الأعمال الدفاعية فقد تجلت فى إنشاء القلعة والسور وجسر النيل ، وكلها من الأعمال الدفاعية التى لم يُسبق إليها ، إذ أن الحكام الذين جاءوا قبله جعلوا هدفهم بناء مبان حكومية أو ضواح ملكية ، كل يبعد عن ساقه نحو نصف ميل إلى الجهة الشمالية الشرقية من المدينة ، حتى إن القاهرة الفاطمية نفسها لم تكن تشمل سوى قصور الخلفاء والموظفين .

أما صلاح الدين فكان أول من وضع تصميما شاملا لحاضرة عظيمة ، إذ أنه بدلا من أن يحذو حذو من سبقوه من الحكام ويقيم ضاحية جديدة لدولته كما فعل أسلافه ، أخذ يوحّد جميع الأحياء الآهلة بالسكان ويحيطها بسور عظيم وقلعة منيعة . لذلك نرى صلاح الدين يجمع شتات المبانى المبعثرة فى الأطراف ويضم ميناء المَقْس إلى مدينة القاهرة . وقد أراد صلاح الدين أن يكون السور من الحجارة وأن يكون امتداد سور بدر الجمالى وزير المستنصر الفاطمى حتى ميناء المقس غربا وجبل المقطم جنوبا ، ومن هناك يمتد إلى النيل ليضم بقايا مدينة الفسطاط . غير أن هذا المشروع العظيم لم يتم قط ، لأن صلاح الدين كان منشغلا بحروبه مع الصليبيين . وقد جمع أعوانه فى القاهرة الأموال والرجال الذين يحتاج إليهم فى حروبه والذين يقومون ببناء ما تقضى به الضرورة من المبانى . وكل ما تم هو مدّ سور بدر الجمالى فى الشمال من الخليج إلى النيل حيث أقيمت أبراج المقس لتحصنه . أما من الجهة الشرقية فقد مد السور الفاطمى جنوبا إلى باب الوزير بالقرب من سور القلعة الجديدة . غير أن موت صلاح الدين حال دون إتمام هذا العمل الهندسى قبل أن يتم ضم الأسوار . أما الأسوار الجنوبية فلم يكن قد بدىء بعد فى بنائها . ولا يزال بعض أسوار صلاح الدين قائمة إلى الآن . ومن الممكن أن يقارن رجال الفن المعمارى بين الأبراج

---

(١) انظر كتابى تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٣ — ٥٣٤ .

الفاطمية القديمة والأبراج المستديرة فى سور صلاح الدين بما تشتمل عليه من أبراج ومنافذ للمراقبة .

ونلاحظ هذه المميزات المعمارية فى السور الشرقى الذى يفصل مدينة القاهرة عن قرافة قايتباى . ثم يظهر مرة أخرى طراز جديد عند باب الوزير [١] ، إذ أن جانبا من السور عند الزاوية الشمالية الشرقية — بما فى ذلك برج الظافر — يتوغل فى الصحراء ، مما يدل على أن المدينة قد انكمشت فى هذا المكان إلى حدودها التى كانت عليها فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . وفى الحق أن أسوار صلاح الدين لم تكن إلا امتدادا لأسوار بدر الجمالى [٢] .

(ب) قلعة الجبل :

وقد عمل صلاح الدين الأيوبى على ضم الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع والقاهرة بعضها إلى بعض ، وبنى قلعة الجبل ، وشرع فى بناء سور حول مدينتى القاهرة والفسطاط يبلغ طوله خمسة وعشرين كيلو مترا ومتوسط عرضه نحو ثلاثة أمتار ، ويتراوح ارتفاعه بين تسعة أو عشرة أمتار . وقد بنى وجه هذا السور من الحجر المنحوت ، تتخلله الأبراج فى جهات مختلفة . وقد استدعى هذا العمل الإنشائى هدم الأماكن الواقعة بين مصر القديمة ومشهد السيدة نفيسة حيث غرست البساتين وأنشئت المتنزهات محلها .

وربما كان بناء القلعة فكرة جديدة استوحاها صلاح الدين من كراهيته للسكنى فى القصور الفاطمية التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالشيعة .

وقد بنى صلاح الدين هذه القلعة الحصينة على سفح جبل المقطم على ارتفاع مائتين وخمسين قدما عن سفح البحر فى المكان الذى كان يعرف فى بقية الهواء التى بناها حاتم ابن هرثمة فى القرن الثانى للهجرة (الثامن الميلادى) . وقد عرفت هذه القلعة باسم قلعة صلاح الدين ، وعرفت فيما بعد باسم قلعة الجبل تمييزا لها عن قلعة الروضة . وفى سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٦ م) عهد صلاح الدين ببناء قلعة الجبل إلى بهاء الدين قراقوش [٣] ، لتكون

---

(١) انظر مذكرات « فان برشم » (١٩١١) ص ٥٥ ، ٦٨ — ٧٠ .

(٢) ليبنول : سيرة القاهرة ، ترجمة المؤلف ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٣) معنى قراقوش بالتركية « طائر أسود » . وقد قام بإنشاء عدة أبنية عبرت معالم القاهرة ، مثل قلعة الجبل وقناطر الجيزة وسور القاهرة ، ولما فتح صلاح الدين عكاء سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) =

مركزا للحكومة وثكنات للجند ، وتم بناؤها سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) فى عهد الملك الكامل بن الملك العادل الأيوبى .

ويحيط بهذه القلعة سور من الحجر له أبراج ، ولها بابان : أحدهما مواجه لمدينة القاهرة ويسمى الباب المدرّج ، ويطلق على الباب الثانى باب القرافة . وبين هذين البابين مكان متسع يوصّل إلى دهاليز ، على يسرة الداخل منها باب يصل إلى جامع فسيح الأرجاء مرتفع البناء مبلط بالرخام ، وسقوفه مبطنة بصفائح الذهب ، وفى وسطه قبة تليها مقصورة يصلى فيها السلطان الجمعة والعيدين . وتحف الأروقة بصحن الجامع من جميع جهاته . ويصدر هذه الدهاليز مصطبة على جانبيها ممر يدخل منه إلى ساحة يواجه الداخل إليها باب الإيوان الكبير . وهو مرتفع البناء ، به أفنية متسعة وعمد ضخمة . ويصدر هذا الباب سرير الملك ، وهو عبارة عن منبر مرتفع من الرخام ، يجلس عليه السلطان فى الأيام التى يستقبل فيها سفراء الملوك . وإلى يمين هذا الإيوان ساحة كبيرة بها القصر الأبلق الذى بناه الناصر محمد بن قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية . وقد بنى بالحجر الأبيض والأسود ، ولهذا سمى القصر الأبلق لأن لونه خليط من البياض والسواد . وفى هذا القصر إيوان يطل على الإسطبلات السلطانية .

وقد عنى سلاطين المماليك بتربية مماليكهم وتثقيفهم وتعليمهم فنون الحرب فى طباق قلعة الجبل التى شاهدها تقى الدين المقريزى المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م)، وهى عبارة عن ثكنات الجيش المملوكى . وقد بلغ عدد هذه الطباق اثنتى عشرة طبقة تشبه كل طبقة منها الحارة اليوم . وتشتمل على عدة مساكن ، ويسع كل طبقة نحو ألف مملوك .

= عين بهاء الدين واليا عليها فى السنة التالية . وقد أسر بهاء الدين حين استولى الفرنجة عليها سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ، لكنه افتدى نفسه بمبلغ كبير ، ثم عاش فى القاهرة حتى توفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م).

انظر عبد اللطيف البغدادى (طبعة دى ساسى ص ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٣) وابن الأثير (طبعة القاهرة) ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، وابن شداد : مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين ج ٣ ص ١٢٠ ، ١٣٥ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٣٠٤ ، ٣١٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، وابن خلكان ج ١ ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ج ٢ ص ٥٠٢ ، ٥٢٦ .

وينبغى ألا تخلط بين اسم بهاء الدين قراقوش وشرف الدين قراقوش الأرمنى الذى خدم الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب . وكانت حياته عبارة عن سلسلة مغامرات وقلاقل ومؤامرات ومذابح ونهب وسلب . وبذلك ألقت أعماله فى قلوب الناس الهلع الذى لا تزال ذكراه باقية إلى اليوم .

Derenbourg, Vie d'Ousama, p. 450, note 4..

وقد أصبحت قلعة الجبل منذ بنائها مقراً لدور الحكومة . وهى حصينة ، تشتمل على كثير من « الطباق » والقصور والميادين والمساجد والمدارس والأسواق والحمامات والإسطبلات . وبها دار الوزارة وديوان الإنشاء وديوان الجيش ودار النيابة وبيت المال وخزانة السلطان الخاصة ، والدور السلطانية والحب والأبراج التى كان يحبس فيها الأمراء والمماليك الخارجون على السلطان .

وكان لقلعة الجبل حاكم يطلق عليه « نائب القلعة » أو « والى القلعة » ، ويشرف على فتح وإغلاق باب القلعة الكبير الذى خصص لخروج الجند ودخولهم . ويتفقد نائب القلعة أسوارها ومنافذها ويعمل على إصلاح مبانيها . وكان يصدر بتعيينه مرسوم سلطانى أسوة بنواب قلاع دمشق وحلب وصفد (بفتح الصاد والفاء) والكرك (بفتح الكاف والراء) وغيرها من قلاع بلاد الشام وفلسطين التى كانت تابعة لمصر فى ذلك العصر .

وقد أورد ابن فضل الله العمرى المؤرخ المصرى المشهور نصّ اليمين التى كانت تؤخذ على نائب القلعة عند تقليده أعباء منصبه . وإليك طرفاً من هذه الوثيقة التاريخية الهامة : « وإننى أجمع رجال القلعة على طاعة مولانا السلطان وخدمته فى حفظ هذه القلعة وحمايتها وتحصينها والذب عنها والمدافعة عنها بكل أنواع ما فيها من الأقوات والأسلحة ، وإننى لا أخرج شيئاً منها إلا فى أوقات الحاجة والضرورة الداعية المتعيّن فيها تفريق الأقوات والسلاح على قدر ما تدعو الحاجة إليها » .

وكذلك اتخذ سلاطين المماليك قلعة الجبل مركزاً للبريد ، وخاصة حمام الزاجل الذى يقوم مقام البريد الجوى اليوم . وكان لهذا النوع من البريد محطات فى مصر والبلاد التابعة لها تتصل بالمركز الرئيسى فى القلعة .

وعلى الرغم من ارتفاع قلعة الجبل حُفر بها بئر مملوءة بالماء العذب منقوبة فى الحجر . وقد حفرها بهاء الدين قراقوش . وهى من أعجب الآبار . وفى أسفلها سواق تنقل الماء إلى وسطها ثم إلى أعلاها[1] .

وقد نقش على باب القلعة هذه العبارة التاريخية :

«بسم الله الرحمن الرحيم : أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة ، المجاورة لمحروسة القاهرة بالعرمة[2]

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٠ — ٣٧٢ . المقريزى : خطط ج٢ ص ٢٠١ — ٢٠٤ .

(٢) العرمة (بضم العين وسكون الراء) سواد مختلط ببياض . العرمة (بفتح العين والراء والميم) مجتمع الرمل وأرض صلبة .

التى جمعت نفعا وتحصينا واسعاً ، على من التجأ إلى ظل ملكه ، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين ، على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش عبد الله المكى الناصرى ، فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة » .

وقد زار الرحالة الأندلسى ابن جبير مصر فى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣م) ، وشاهد العمل فى بناء قلعة الجبل يجرى على قدم وساق ، فقال : « وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة ، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه وَيَمُدُّ سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة . والمسخرون فى هذا البنيان والمتولون لجميع أمتهاناته[1] ومئونته العظيمة كنشر الرخام وتحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول نقراً فى الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار ، لعلوج الأسارى[2] من الروم ، وعددهم لا يحصى كثرة . ولا سبيل أن يمتهن فى ذلك البنيان أحد سواهم . وللسلطان أيضاً بمواضع أخر بنيان ، والأعلاج يخدمون فيه ، ومن يمكن استخدامه من المسلمين فى مثل هذه المنفعة العامة مُرَفَّهٌ[3] عن ذلك كله ولا وظيفة فى شىء من ذلك على أحد[4] » .

وقد أجريت بالقلعة تعديلات كثيرة ، وعمل على توسيعها كثير من سلاطين المماليك ، وقام محمد على ببعض هذه التعديلات ، حتى إنه يبقى حينذاك من المساجد أو القصور التى بنيت فى عصر صلاح الدين شىء ، وبئر يوسف التى يعتقد بعض الناس أنها من بناء صلاح الدين لم تكن سوى جانب من أحد قصور المماليك . كذلك الأبراج الداخلية لم تكن من البناء الأصلى ، وقد بنى الباب الذى يؤدى إلى الرميلة فى أواسط القرن الثامن عشر . وعلى الرغم من ذلك كله ، لم تزل هناك أجزاء البناء الأصلى بخلاف البئر المشهورة باسم بئر السبع سقايات التى حضرها قراقوش ، يبلغ عمقها مائتين وعشرين قدماً . وهناك أيضاً أجزاء من السور الذى بناه صلاح الدين . ويرجع تاريخ بناء بعض الممرات الداخلية إلى وقت بناء القلعة . ومما هو جدير بالذكر أن شيوع استعمال الأبراج المستديرة البارزة التى تحمى جانباً

---

(١) يقصد الأعمال التى يقوم بها العمال والصناع .

(٢) فى الأصل العلوج الأسارى ويقصد الآثار التى قام بها الأسارى من الروم .

(٣) فى الأصل موفه بالواو وهو يقصد مرفه بالراء ، أى أن المسلمين أعلى من أن يعملوا فى هذه الأعمال المتهنة .

(٤) رحلة ابن جبير (طبعة عبد الحميد أحمد صفى) ص ٤١ — ٤٢ .

من السور ، وانعدام الممرات الداخلية ، والحجرات والفتحات فى الجزء الأسفل من الأسوار ، وكثير من النقط الصغيرة الأخرى - يكشف لنا عن أن هندسة البناء الأصلى أقرب إلى الطراز السورى العربى منه إلى الطراز البيزنطى[١] .

(٣) جسر الجيزة :

وآخر الأعمال الإنشائية التى ترجع إلى عهد صلاح الدين جسر الجيزة الذى شيد على الضفة الغربية للنيل . وقد وصفه ابن جبير فى هذه العبارة فقال : «من مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين ، القناطر التى شرع فى بنائها بغربى مصر ، وعلى مقدار سبعة أميال منها ، بعد رصيف ابتدىء به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير به مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة ، وهى نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسى القناطر . والقنطرة متصلة بالصحراء التى تفضى منها إلى الإسكندرية . له فى ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة — إعداداً لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به وامتناع ملوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكا فى كل وقت إن احتيج إلى ذلك . والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحذور بمنه . ولأهل مصر فى شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحدثانية ، يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات الشرقية . والله أعلم بغيبه ولا إله سواه[٢]» .

وقد تناول المقريزى[٣] الكلام على قناطر الجيزة فقال : «إن القناطر الموجودة اليوم فى الجيزة من الأبنية العجيبة ومن أعمال الجبارين . وهى ونيف وأربعون قنطرة ، عمرها الأمير قراقوش الأسدى ، وكان على العمائر فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بما هدمه من الأهرام التى كانت بالجيزة وأخذ حجرها ، فبنى منه هذه القناطر وبنى سور القاهرة ومصر وما بينهما ، وبنى قلعة الجبل . وكان خصياً رومياً سامى الهمة ، وهو صاحب الأحكام المشهورة والحكايات المذكورة ، وفيه صنف الكتاب المشهور المسمى بالفاشوش فى أحكام قراقوش . وفى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، تولى أمر هذه القناطر من لا بصيرة

---

(١) لينبول : سيره القاهرة (ترجمة) . ص ١٦٣ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٤٣ .

(٣) خطط ج ٢ ص ١٥١ .

عنده ، فسدها رجاء أن يحبس الماء ، فقويت عليها جرية الماء ، فزلزلت منها ثلاث قناطر ، وانشقت ، ومع ذلك فما روى مارجا (أى ما يحب) أن يروى . وفى سنة ثمان وسبعمائة ، رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير برمها ، فعمر ما خرب منها وأصلح ما فسد فيها ، فحصل النفع بها . وكان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفاً من حجارة ابتدأ به من حيز النيل بإزاء مدينة مصر كأنه جبل ممتد على الأرض مسيرة ستة أميال حتى يتصل بالقناطر[1] » .

وليس هناك شك فى أن الغرض من بناء هذا الجسر ، هو الدفاع عن البلاد . فلم ينس صلاح الدين قصة غزوات الفاطميين العديدة من ليبيا ، حيث أنه لم يكن هناك ما يصدهم عن الوصول إلى النيل ، ولهذا اتخذ الحيطة لدرء مثل هذا العدوان . ويذكر ابن جبير أنه كانت هناك مخاوف من هجوم الموحدين .

ولما تقلد محمد على ولاية مصر سنة ١٨٠٥ م أصلح قلعة الجبل وبنى بها مسجده الذى يعرف باسم مسجد محمد على ، ويعد آية من آيات الفن . كما بنى بقلعة الجبل قصر الجوهرة وقصر العدل وثكنات الجند ، وديوان النظار ودار سك النقود ، واتخذها مقرا لولايته[2] .

(٤) المنشئات الدينية : المساجد

(ا) الجامع الأزهر :

لما تم لجوهر فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ لم ير أن يفاجئ السنيين فى مساجدهم بإقامة شعائر المذهب الفاطمى حتى لا يثير كراهة المصريين . لذلك وضع جوهر أساس الجامع الأزهر فى ١٤ رمضان سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) ، وتم بناؤه فى سنتين تقريباً ، وأقيمت الصلاة فيه فى ٧ رمضان سنة ٣٦١ هـ[3] .

ويشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً ، عدا الملحقات التى تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها . أما المقصورة التى بناها جوهر ففيها ستة وسبعون عموداً من الرخام الأبيض فى صفوف

---

(١) لينبول : سيرة القاهرة ، ترجمة المؤلف ص ١٦١ — ١٦٤ .

(٢) Lane-Poole, Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 201, 309,354.

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٤ . المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٧٣ .

متوازية . وفى سنة ١١٦٧ هـ بنى الأمير عبد الرحمن كتخدا أحد ولاة الأتراك العثمانيين مقصورة ثانية بها خمسون عموداً من الرخام . وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان بلغ عدد أعمدتهما مائة وستة وعشرون عموداً . وإذا أضيف إلى هذا العدد الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع ، بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترتفع المقصورة الجديدة نحو ذراع عن المقصورة التى بناها جوهر القائد . وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفى كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء .

وأما صحن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف ، مرصوف بالحجر ، تقام فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين . ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائك مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو ، وزينت حيطانه بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفى الجميل .

وقد أنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محراباً يسمى الآن « القبلة القديمة » ؛ ثم أقيمت فيه تسعة محاريب أخرى ، لم يبق منها سوى ستة محاريب أشهرها اثنان : أحدهما بالمقصورة القديمة والآخر بالمقصورة الجديدة ، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه فى المذهب الفقهى .

وللجامع الأزهر منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع . وقد نقل المنبر الأصلى الذى أنشأه جوهر إلى جامع الحاكم .

وأنشىء بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات ، يؤذن عليها فى أوقات الصلوات الخمس وفى ليالى رمضان والمواسم .

وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتى ، ومهمته التنبيه على أوقات الصلاة . وكانت تعرف عن طريق المزولة التى لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر ، وكانت مساجد القاهرة تتبع مؤذنى الأزهر .

وأهم خصائص الأزهر أنه وإن بدأ كغيره من المساجد لإقامة الشعائر ، لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب مختلف العلوم والفنون . ففى سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية . وسرعان ما أصبح الأزهر مثابة لطلاب العلم . وقد عمل العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين على جذب طلاب العلم

إليه من كافة أرجاء البلاد الإسلامية ، بما كانوا يقدمونه إليهم من المأكل والمسكن ، بما يسهل عليهم طلب العلم . وقد بنى الخليفة العزيز بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر ، وقد أجرى على هؤلاء الأرزاق وأغدق عليهم وزيره ابن كلس الصلات .

ثم زاد فى بناء هذا الجامع كثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين ، وأنشئوا فيه مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع ، كما حبسوا عليه كثيراً من الأوقاف وأهدوا إليه الهبات الجليلة .

وكان الخليفة العزيز الفاطمى أول من بنى بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء ، قيل إن عددهم بلغ خمسة وثلاثين كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر .

وقد نقل إلى جامعى راشدة والأزهر ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلا ، خص الأزهر منها تنوران وسبعة وعشرون قنديلا . وكان فى محراب الأزهر منطقة من الفضة على مثال المنطقة الموجودة بمحراب جامع عمرو ، فاقتلعهما صلاح الدين كما اقتلع غيرهما من المناطق فى كافة المساجد (٥٦٩ / ١١٧٣) ، بعد سقوط الدولة الفاطمية بسنتين[١] .

وقد تعاقبت الزيادات على بناء الأزهر ، وزيد فى العين الموقوفة عليه عاماً بعد عام ؛ فتحول هذا الجامع من مسجد تقام فيه الصلوات إلى جامعة علمية تدرس فيها العلوم بصفة عامة والعلوم الدينية بصفة خاصة .

وقد زاد فى بناء هذا الجامع كثير من الأمراء الذين ولوا مصر بعد المعز ، فاستغنى بما أغدقوه عليه من هبات وأوقاف . وفى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) بنى الخليفة الآمر فى الجامع الأزهر مقصورة عليها كتابة منقوشة حفراً[١] .

وكان للأزهر فى العصر الفاطمى موارد أخرى غير الأحباس تشمل الأعطيات ومال النجوى[٢] الذى يؤديه المستمعون للمحاضرات التى تلقى بمجالس الدعوة . وكان بعض هذا المال ينفق على الدعاة وبعضه الآخر يخصص للجامع الأزهر ليوزع على من يحتاجون إليه من الطلاب الذين كان لهم أيضاً نصيب من الصدقات النوعية والمالية التى يمنحها بعض

---

(١) المقريزى : خطط. ج ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٥ .

(٢) المقريزى : خطط. ج ١ ص ٣٩١ .

الأمراء والكبراء لهم . ولم تنقطع هذه الموارد عن الأزهر طوال العصر الفاطمى ، بل لقد توالت الأرزاق والأعطيات الثابتة لأساتذته وطلابه[١] .

ظل الأزهر يتمتع برعاية الخلفاء الفاطميين ، حتى تقلد صلاح الدين الأيوبى الوزارة فى عهد الخليفة العاضد ، فوجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعى مذهب الفاطميين ، فأنشأ المدرسة الناصرية لتدريس المذهب الشافعى الذى كان صلاح الدين يدين بعقائده ، كما أنشأ على مقربة من هذه المدرسة المدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكى .

وقد عزل صلاح الدين قضاة الشيعة ، وأسند قضاء مصر إلى قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى المذهب ، فأناب قضاة من الشافعية فى كل أنحاء البلاد ، واستعاد المذهب السنى بهذا قوته ، وأخذ المذهب الإسماعيلى فى الضعف حتى زال ولم يبق له فى مصر أنصار[٢] .

(ب) مساجد العصر الفاطمى الأخير :

ومن المساجد التى بنيت فى العصر الفاطمى الأخير « الجامع الأقمر » الذى بناه الخليفة الآمر الفاطمى سنة ٥١٩ هـ ووقف عليه الأوقاف ورتّب له المؤذنين والخطباء . وقد جدده الأمير « يَلْبُغا » سنة ٧٩٩ هـ (١٣٦٦ — ١٣٩٧ م) . ولعل أبدع ما فى هذا المسجد واجهته الغنية بأنواع الزخرفة ، كما أن بها حنايا تنتهى بطاقيات وعقود ومقرنصات ، وقد بنيت العقود على الطراز الفارسى ، وتقوم على عمد من الرخام ، وسقف الجامع مغطى بقبوات صغيرة[٣] .

ومن مساجد الفاطميين فى هذا العصر جامع الصالح الذى بناه الصالح طلائع بن رزِّيك (بضم الراء وكسر الزاى مع التشديد) . وقد أراد أن يتخذه مدفناً له ، وبنى فيه صهريجاً كبيراً تملؤه ساقية . وقد أقيم على خليج القاهرة الذى يطلق عليه خليج أمير المؤمنين . وقد تهدم فى الزلزال الذى حدث بمصر سنة ٧٠٢ هـ ، فعمره الأمير سيف الدين الجوكندار وأصلح ما تهدم منه . ولهذا الجامع أربع وجهات مشيدة بالحجر . وكانت أرضيته عند تأسيسه ترتفع عن مستوى الطريق الذى بجانبه . ويقع باب المسجد الرئيسى بواجهته

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٥ — ٥٣٧ .

(٢) انظر حسن إبرهيم حسن فى كتاب سجل الأزهر (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٧ .

(٣) المقريزى خطط جـ ٢ ص ٢٩٠ : زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٤ .

الغربية ، وأمام هذا الباب رواق قائم على أربعة أعمدة من الرخام ويحمل عقوداً حليت حافاتها بالزخارف الجميلة . ولهذا الجامع صحن كبير حوله أربعة إيوانات ، وعقوده محمولة على عمد من الرخام محلاة بكتابات كوفية على شكل أزهار[١] .

ومن منشئات الفاطميين فى إقليم أسوان مأذنة بدر الجمالى فى إسنا ، وترجع إلى سنة ٤٧٤/١٠٨١ — ١٠٨٢ ، وذلك فى عهد الخليفة المستنصر . كما نجد مأذنة جامع الحجاج فى الأقصر . وقد بنى هذا الجامع على أرض تمثّل ثلاث ديانات : الوثنية والمسيحية والإسلام . فى أسفل هذه الأرض نجد معبداً وثنياً يرجع إلى العهد الفرعونى فى الدولة الحديثة التى تنتظم الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . وقد تحول جزء من هذا المعبد بعد ظهور المسيحية إلى كنيسة . ويعلو جزء من البناء الفرعونى مسجد بنى فى أواخر العصر الفاطمى ، هو مسجد الحجاج الذى تزوج من سيدة مسيحية غنية أسلمت ووقفت جميع أملاكها على أعمال الخير .

كما نجد على مقربة من شلال أسوان منارة المسجد القبلى والمسجد البحرى وعليهما نقوش كوفية . وهما مبنيان بالآجر . وتنسب هذه الأبنية إلى بدر الجمالى وزير المستنصر . وقد أمر بدر ببناء هذه الأبنية على أثر انتصاره على النوبيين . ونجد فى ثكنات خفر السواحل بأسوان مأذنة قديمة ضاعت قبلتها ، ويحيط بأعلى هذه المأذنة نقوش كوفية[٢] .

(ح) جامع القرويين بفاس :

وصف الحسن الوزان مدينة فاس وصفا شائقا فقال إنها كانت فى أيامه تشتمل على سبعمائة مسجد ، منها خمسون مسجدا فخمة البناء عظيمة الزخرفة تحمل سقوفها على أعمدة من الرخام . وهذه المساجد مفروشة بحصر جميلة تغطى الأرض كلها ، كما غطيت حيطانها بحصر بقدر ارتفاع قامة الرجل . وبكل مسجد منارة يصعد إليها المؤذن فى أوقات الصلاة . ولكل مسجد من مساجد فاس صهريج من الرخام .

ومن هذه المساجد جامع القرويين ، ومساحته نحو ميل ونصف باعتبار إضافة أبنية

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٩٣ . زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٥ .

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٩ — ٥٤٠ .

الطلاب الملحقة به وله ثلاثة عشر بابا [1] ضخمة البناء . ويبلغ طول الجزء المسقوف من المسجد مائة وخمسين ذراعا ، ولا يقل عرضه عن ثمانين ذراعا . ومنارة الجامع شاهقة وسقفه يحمل طولا على ثمانية وثلاثين قوسا وعرضه على عشرين قوسا . وتحيط بالجامع من الشرق والغرب والشمال أروقة ذات أقواس ، عرض كل منها ثلاثون ذراعا وطوله أربعون ذراعا ، وفى أسفلها خزائن يودع فيها الزيت والمصابيح والحصر وغيرها . وتوقد فى الجامع فى كل ليلة تسعمائة مصباح ، على كل قوس منها مصباح .

وفوق الأقواس التى تشق وسط الجامع قبالة المحراب مائة وخمسون مصباحا . وهناك ثريات من النحاس تسع ألفا وخمسمائة مصباح اتُّخذت من نواقيس نقلها بعض ملوك فاس من كنائس النصارى . وحول حيطان الجامع كراسى منصوبة مختلفة الأشكال يجلس عليها العلماء المدرسون الذين يعلمون الناس أمور دينهم ودنياهم ، ويبدءون دروسهم قبل طلوع الشمس بساعة وينتهون فى الساعة الواحدة بعد الزوال . وفى الصيف يبدءون فى الساعة الثامنة مساء وينتهون فى الساعة الواحدة والنصف صباحا ، ويقومون بتدريس العلوم الدينية والعقلية والاجتماعية ، ويتقاضون رواتب عالية فوق ما يصرف لهم من الكتب والشمع للقراءة ليلا .

(ء) مسجد الكُتُبية بمراكش :

امتاز الفن الموحّدى على الفن المرابطى . وكان المهدى محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية يعتبر الفن نوعا من اللهو . ومن هنا قاوم الموسيقى والغناء والنقش والزخرفة . وكان المغاربة يدركون مذهب الدولة الجديدة وميولها الدينية ، حتى إن أهل مدينة فاس طمسوا معالم الأبنية الجميلة المزخرفة ليخفوها عن نظر عبد المؤمن وهو بمدينة فاس . على أن عبد المؤمن لم يلبث أن تجاوز عن زخرفة المنشئات فى عهده . ولعل ذلك بعد مشاهدته معالم الحضارة والفن الأندلسى فمال إلى اقتباس هذه الحضارة الرفيعة بالمغرب . وقد زاد هذا الفن ازدهاراً فى عهد ابنه أبى يعقوب يوسف الذى اشتهر بالأدب . وكان يتطلع

---

(١) ذكر الحسن الوزان (الترجمة الفرنسية) ٣١ بابا . وفى الواقع أنه لا يوجد اليوم غير ١٤ بابا ، مما يرجح أن رقم ٣١ هو مقلوب رقم ١٣ . ويظهر أن عدد الأبواب قد زاد بابا واحدا بعد العصر الذى عاش فيه الوزان .

إلى بلاد الأندلس ويعطف عليها ، لأنه قضى فيها شطرا من حياته نائبا لأبيه قبل أن يلى الخلافة (١) .

على أن الفن الموحدى قد بلغ غايته فى عهد يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن . وإن ما نشاهده من آثار الموحدين ليدل دلالة واضحة على ما بلغه الموحدون من رقى فنى وحضارى رفيع ولا سيما فى عهد يعقوب المنصور . والطابع الفنى العام الذى يتسم به فن الهندسة المعمارية فى عهد الموحدين لا يرتكز فى أساسه على الفسيفساء والزخرفة الدقيقة والخطوط الهندسية الجميلة التى امتاز بها الفن فى عهد المرينيين ، ذلك الفن الذى يمثل أجمل وأرق ما بلغه الذوق المغربى الذى اقتبس من الفن الأندلسى . على أن سمة الموحدين لم تكن فى فنهم بقدر ما كانت فى رقى أدبهم وقوة جيشهم وضخامة أسطولهم وشموخ أبنيتهم.

وكانت الأبنية الموحدية تعتمد كثيراً على الجير الذى يكوّن ثلث مواد البناء والذى هو نتيجة لميلهم إلى اللون الأبيض . ومما يمتاز به الفن الموحدى بناء الحصون والأبراج. يدل على ذلك أنهم بنوا فى مدينة الرباط وحدها أربعة وسبعين برجا . ويمتاز الفن المعمارى الموحدى بإدخال عناصر « الميكانيكا » أو علم الحِيَل كما يسميه المغاربة . ولعل ذلك هو السبب الذى جعل هذه الآثار تحتفظ بمناعتها وتثبت على صروف الحَدَثان أكثر من ثمانية قرون .

وقد ظهرت فى هذا العصر فى جميع أنحاء المغرب حضارة مزدهرة مؤتلفة القسمات أثرت فى الدولة المرينية التى أعقبت الموحدين بالمغرب الأقصى . واستعمل الموحدون أساليب قائمة على علم الحيل أو الهندسة المعمارية التى تعتمد على الدراسة (٢) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الموحدين اقتبسوا فنهم من الأندلس ومن القيروان ، ذلك الفن الذى يمثل الفن المشرقى الذى تأثر فى العصور السابقة بحضارة العباسيين فى بغداد والفاطميين فى القاهرة .

ويتميز جامع الكتبية(٣) بمراكش بأساطينه وصحونه وأقواسه المقرنصة وبجمال قبابه

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٧٦ .

(٢) عبد العزيز بن عبد الله : مجلة البينة (الرباط) العدد التاسع ص ٧٤ .

(٣) وقد قيل إنه سمى الكتبية لأن باعة الكتب كانوا يحيطون به عند تأسيسه أو لأن الموحدين أنشئوا به مكتبة حوت كثيرا من الكتب فى مختلف العلوم والفنون .

وارتفاع سقوفه وامتداد أروقته[1]. وقد اقتبست هندسة بناء جامع الكتبية من الفن الأندلسى ، كما يلاحظ هذا فى أساطينه وفى الأعمدة الأربعة التى يعلوها قوس المحراب .

أما منبر الجامع فقد بلغ حداً كبيراً من الإبداع . ويرجع بناء هذا الجامع إلى عهد عبد المؤمن.[2] ويرى تيراس (Terrasse) أن هذا المنبر أجمل منبر فى الغرب بل إنه أروع منبر فى العالم الإسلامى كافة . وما برح هذا المنبر التاريخى ماثلا للعيان . بيد أن بعض أطرافه قد بدا عليها القدم . ويعتبر جامع الكتبية الثانى من نوعه فى عهد الموحدين . أما الكتبية الأولى فقد أسست فى إشبيلية فى عهد يوسف بن عبد المؤمن ، ثم أتم بناءها ابنه يعقوب المنصور ، وما زال هذا الجامع إلى الآن من أهم آثار المسلمين فى الأندلس .

وتعتبر منارة جامع الكتبية التى بناها يعقوب المنصور من أجل الآثار التى خلفها الموحدون . وتتألف هذه المنارة من طبقات من الغرف المقوسة السقوف أو الحنايا ، يصل بينهما درج (بفتح الدال والراء) لا مرقاة بها . ويلاحظ هذا الأسلوب فى البناء فى مرصد « الخالدة » فى إشبيلية وفى منارة حسان بالرباط . وجدران هذه المنارة مطلى بالجص الأصفر . وهذا النوع منتشر فى أبنية مدينة مراكش إلى اليوم ، ويوصل هذا الدرج إلى الجزء الأعلى من منارة جامع الكتبية . وهذه النقوش الدقيقة قد صممت على شكل الأزهار وسعف النخل . وتعلو القاعة السادسة قبة مثمنة الشكل ذات أضلاع ومقرنصات تكوّن مجموعة هندسية بديعة .

وقد أكد « تيراس » وباسى Bassé أن الكتبية أروع مسجد بناه الموحدون فى المغرب وأنه يعادل فى جدة أسلوبه روائع الجامع الكبير بقرطبه .

(ه) مسجد ومنارة حسان :

يقع مسجد حسان فى الشمال الشرقى من مدينة الرباط على أرض منحدرة يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثين متراً عن سطح البحر . وقد يكون اسم هذا المسجد مستمداً من قبيلة تسمى بهذا الاسم تقيم باقليم الرباط (وهم بنو حسان) . ويرى ابن أبى زرع أن يعقوب المنصور الموحدى فرغ من بناء مسجد حسان سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٧ م) . وقد قيل إن سبعمائة من أسرى الحرب المسيحيين عملوا فى بناء منارة المسجد .

---

(١) La Pensée (Rabat), No. 5 (Mars, 1963), p. 31.

(٢) الحلل الموشية .

وتعد هذه المنارة من أروع كبريات المنارات الموحدية . وقد بنيت بعد منارة الكتبية بمراكش ومنارة « الخالدة » بإشبيلية . وقد تناول الحسن الوزان (ليو الإفريقى)[١] الكلام على هذه المنارة فقال : إنها جديدة عريضة بحيث يستطيع ثلاثة من الفرسان الصعود إليها جنباً إلى جنب . ومن فوق هذه المنارة يستطيع المرء أن يشاهد السفن على بعد عشرين فرسخاً[٢] (أى ثمانين ميلا) . ولم يكن الغرض الذى بنيت هذه المنارة من أجله دينيا فحسب بل إن ذلك كان راجعاً إلى أغراض حربية ، بحيث يستطاع مراقبة السفن التى قد تهاجم مدينة الرباط أو سلا (بفتح السين) بوساطة هذه المنارة التى يبلغ ارتفاعها أربعة وستين متراً ، والتى يتجلى فيها الفن المغربى بصورة عامة والفن الموحدى بصفة خاصة .

وفى السنة التى انتصر فيها يعقوب المنصور على نصارى الأندلس فى موقعة «الأرك» المشهورة ، أكمل بناء الجامع الأعظم بمدينة إشبيلية ، وشيد به منارة عظيمة قيل إنه ليس فى بلاد الإسلام منارة أعظم منها . ولما أتم يعقوب المنصور جامع إشبيلية ومنارته أمر ببناء حصن البرج على وادى إشبيلية .

ويذكر ابن صاحب الصلاة[٣] أن جامع إشبيلية بنى فى عهد يوسف بن عبد المؤمن ، وأن ابنه يعقوب المنصور أتم بناءه وأقام فيه الصلاة ، ثم أتم بناء منارة جامع حسان التى تعرف الآن باسم صومعة حسان . «فلما بويع أمير المؤمنين أبو يوسف (يعقوب المنصور) ... أمر العامل الذى ولى بإشبيلية . . . محمد بن أبى مروان الغرناطى ببناء الصومعة المذكورة ، وإمضاء أمر أبيه فى بنائها والجد فى عملها . فابتدأ فى بنائها (حيث) بناها « العريف » بالحجر المسمى بالطجون[٤] العادى المنقول من سور قصر ابن عباد » .

---

(١) Description de L'Afrique, tome I, pp. 164 — 165

(٢) La Pensée, No. 4, pp. 71, 93.

(٣) كتاب المن بالإمامة ، مخطوط بخزانة الرباط رقم ٣٣٧ ورقة ١ .

(٤) الطجن (بفتح الطاء مع التشديد وإسكان الجيم) القلو . والإناء الذى يقلى فيه يسمى الطاجن . ومن هنا كانت حجارة الطجن هى الطوب المحروق المعروف بالآجر . ويسمى طجنا فى لغة الأندلسيين والمغاربة القدماء .

الباب الثانى عشر

الحـــالة الاجتماعية

١ — طبقات الشعب :

(أ) فى عهد العباسيين :

يتألف المجتمع الإسلامى عادة من الخاصة ، وهم أصحاب الخليفة من ذوى قرباه ، ومن رجال الدولة البارزين كالأشراف والوزراء والقواد والكتاب والقضاة والعلماء والأدباء ، وكان لهؤلاء باب خاص يدخلون منه لمقابلة الخليفة أطلق عليه « باب الخاصة » . كما جعل لهم مطابخ خاصة واسطبلات خاصة .

ويقابل الخاصة : العامة ، وهم السواد الأعظم من الناس ولهم مرافق خاصة بهم كباب العامة ومطابخ العامة . وتنتظم هذه الطبقة أهل الحرف والصنائع والتجار والفلاحين والجند والرقيق . ويقال لهم العامة والدهماء والغوغاء . وهم فى العادة أقل ثقافة ودراية بأمور دينهم حتى ولو كانوا من ذوى اليسار كطبقة التجار .

وقد ذكر ابن الجوزى(١) أن عامة بغداد كانوا يؤلفون خليطاً من العرب والفرس والترك والنبط والأرمن والجركس والأكراد والكرج والبربر ، ولو أن تسمية هؤلاء جميعاً بالعرب قد غلبت عليهم لانصهارهم فى بوتقة الشعب العربى وسيادة اللغة العربية التى هى اللغة الأصلية للوطن العباسى .

وقد ذكرنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى الأول كان يتألف من العرب ، ومن الفرس ، وخاصة الخراسانيين الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية ، وقد قويت شوكتهم فى عهد المأمون لأن أمه كانت منهم . كما كان هذا المجتمع يتألف من الأتراك ، وخاصة فى عهد المعتصم الذى كانت أمه تركية . وقد اتخذ الترك حرساً له وأسند إليهم مناصب الدولة العالية وأهمل العرب والفرس ، وأصبح هؤلاء الأتراك فيما بعد خطراً على حياة الخلفاء الذين استعانوا بالمغاربة (ويقصد بهم المصريون) والفراغنة وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد والقرامطة الذين استعانت

---

(١) المنتظم ج ٩ ص ٢٢٨ .

بهم الدولة فى عهد الخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) . ولما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين ينتسب إليهم بنو بويه .

وقد أصبح الحنابلة السنيون قوة يخشى بأسها ، ولم تنقطع المنازعات بين السنيين والشيعيين . ويذكر لنا المؤرخون أن الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة عملوا على إحلال الوئام بين أبناء الطائفتين . وقد ذكر ابن الأثير[١] أن السلطان محمد بن ملكشاه الثانى السلجوقى (٤٩٨ — ٥١١ هـ) لما قتل صدقة بن مَزْيد أمير الحلة ، وكان يدين بعقائد المذهب الشيعى ، ساورت الشيعيين المخاوف من ناحية السنيين وكادت تقع الفتن بينهم . وقد اتفق أن احتفل السنيون فى شهر رمضان سنة ٥٠٢ هـ بزيارة قبر مصعب ابن الزبير ، فلم يعترضهم الشيعيون الذين خرجوا ليلة النصف من شعبان لزيارة مشهد الإمام موسى الكاظم ، فلم يعترضهم السنيون ، وهكذا أدخل الله سبحانه وتعالى السكينة إلى قلوب هؤلاء وأولئك .

ومن طبقات المجتمع الرقيق الذين كانوا يكونون طبقة كبيرة من أسرى الحروب ، ومنهم الرقيق الصقلى والرومى والزنجى والتركى ، ولهم ببغداد شارع خاص أطلق عليه شارع دار الرقيق[٢] ، وموضع آخر سمى باب النخاسين . وكان الخدم والرقيق رجالا ونساء يقومون بخدمة الخليفة وحاشيته فى دار الخلافة ويقومون بخدمة الناس . ولم يترك لنا المؤرخون شيئاً ذا غناء عن الخدم الأحرار . وكان الرقيق يؤلفون الأغلبية الساحقة من طبقة الخدم ، وهم الجوارى ، والرقيق والخصيان .

وقد جلب أغلب الرقيق فى العصر السلجوقى من بلاد ما وراء النهر على أيدى النخاسين الذين اتخذوا من تجارة الرقيق صناعة لهم[٣] . وكانت مصر وشمالى أفريقيا وشمالى بلاد العرب من أهم أسواق الرقيق . كما جلب إلى العراق كثير من الزنجيات ومن الزنج لفلاحة الأرض وحراسة الدور .

ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان ، بدليل أن أغلبهم من أمهات أولاد[٤] . وكان بعض الخلفاء من أم رومية أو أرمنية أو تركية ، وكان بعضهم يشترى

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ١٧٧ .
(٢) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٨ ص ٤ .
(٣) متز : الحضارة الإسلامية ، ترجمة أبى ريدة جـ ١ ص ٢٦٨ .
(٤) وكان بعض الخلفاء من أبناء العربيات الحرائر كالسفاح والأمين .

الجارية لجمال منظرها أو لعذوبة صوتها أو علو ذكائها وجودة شعرها . ومن أصناف الجوارى ، الهنديات والسنديات والمكيات والمدنيات والطائفيات والنوبيات والزنجيات والحبشيات والتركيات والديلميات والأرمنيات والعراقيات .

وقد شاع استخدام الخصيان فى المجتمع العراقى لحماية الحريم ، ولذلك راجت تجارتهم وارتفعت أثمانهم(١) .

ومن طبقات المجتمع أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود ، وكانوا يتمتعون بكثير من من سياسة التسامح الدينى ويقيمون شعائرهم فى أمن وطمأنينة . وكان كثير من الخلفاء يحضرون مواكبهم ويشتركون فى الاحتفال بأعيادهم ويزورون أديرتهم فى مناسبات معينة ويغدقون عليهم الهبات والعطايا . وكان لليهود رئيس خاص يلقب أحياناً بلقب « ملك » ، ويطلق على رئيس اليهود ببغداد « رأس الجالوت » .

كما كان المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى الثانى يتألف من المغاربة (ويقصد بهم المصريون كما تقدم) والفراغنة والأكراد . وتتمثل هذه العناصر فى أجناس الجند حيث نرى بينهم العربى والكردى والخراسانى والتركى أو السلجوقى (ويؤلفون أغلبية الجند) والديلمى والرومى والأرمنى والعراقى .

(ب) فى عهد الفاطميين والأيوبيين :

وكان المجتمع المصرى فى عهد الفاطميين (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) يتألف من السنيين الذين كانوا يؤلفون الأغلبية الساحقة من المصريين ، ومن الشيعيين وخاصة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم فى بلاد المغرب أولا ، ثم فى مصر والشام والحجاز ، إذ كانوا يؤلفون الجيش الفاطمى . ولم تخمد جذوة العداء بين السنيين والشيعيين طوال العصر الفاطمى .

والطبقة الثالثة هى طبقة أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود . وقد دفعت رغبة كثير منهم فى المناصب والهبات إلى اعتناق الإسلام والدخول فى المذهب الإسماعيلى مذهب الفاطميين . وقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، فشغلوا كثيراً من المناصب المالية فى الدولة ، بل تقلدوا الوزارة وتمتعوا بقسط وافر من سياسية التسامح الدينى ، وسمح لهم ببناء عدد من الكنائس أو إعادتها إلى ما كانت عليه .

---

(١) انظر بدوى محمد فهد : العامة فى بغداد ، رسالة ماجستير ص ٣ وما يليها .

والطبقة الرابعة هى طبقة الأتراك الذين كثر عددهم منذ أيام الدولة الطولونية وظهر أمرهم فى مصر فى عهد الخليفة الحاكم الفاطمى .

والطبقة الخامسة هى طبقة السودانيين الذين كثر عددهم فى مصر منذ أيام كافور الإخشيد وظهر أمرهم منذ أيام الخليفة الحاكم الذى استعان بهم على الأتراك ، ثم ظهر أمرهم من جديد فى عهد الخليفة الظاهر الذى تزوج بسيدة سودانية . وقد تفاقم خطر الجند السودانيين فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى حتى بلغ عددهم خمسين ألفا . وقد طاردهم الأتراك إلى صعيد مصر ، وأثار الفالة منهم الرعب فى قلوب الأهلين وحالوا دون زراعة الأراضى ، واكتسحوا دلتا النيل حتى وصلوا إلى الإسكندرية ، ولكنهم ظلوا يكونون طبقة هامة من طبقات المجتمع الفاطمى . ثم جاء الأيوبيون فأكثروا من المماليك . فقد أثر عن السلطان نجم الدين أيوب أن عدد الرقيق بلغ فى عهده اثنى عشر ألفا كانوا نواة دولة المماليك البحرية ، واشتهر كثير منهم بالفروسية والفقه وتقلدوا المناصب العالية (١) .

ولننتقل الآن إلى الكلام على المجتمع الإسلامى فى المغرب .

(ح) فى المغرب :

كان المغاربة فى عهد المرابطين (٤٤٨ — ٥٤١ هـ) يدينون بالإسلام فى بساطته وسماحته ، وكان مجتمعهم فى أيام يوسف بن تاشفين ومن جاء بعده من المرابطين والموحدين والمرينيين والوطاسيين يتألف من عنصرى البربر والعرب . وكان هذا المجتمع فى عهد الموحدين (٥٢٤ — ٦٦٧ هـ) يتألف من جماعات مختلفة وأجناس متباينة . فهناك قبائل العرب من زُغبة وهلال ورياح تنحدر إلى المغرب ثم تمتزج بالمغاربة امتزاجا قويا ، ولا سيما فى عهد عبد المؤمن وأبى يعقوب المنصور . ثم انضوت هذه القبائل العربية تحت لواء الجيش الموحدى وقامت إلى جانب المغاربة نصارى الأندلس وغيرهم . وقد ساعد وفود هذه القبائل العربية النازحة ، ولا سيما بنى هلال وبنى سُلَيْم ، على بلاد المغرب عن طريق مصر فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى على تعريب قبائل البربر (٢) .

---

(١) انظر كتابى تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢١ — ٦٢٦ وكتابى النظم الإسلامية ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢) يقال إن هذه القبائل وزعت على الجهات المختلفة بسبب إغاراتهم وتعدياتهم .

وهناك عناصر الأكراد والجراكسة الذين بعث بهم صلاح الدين الأيوبى لقتال يعقوب المنصور الموحدى (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ)، الذى استطاع أن يستميلهم إليه ويستخدمهم فى الجيش الموحدى .

وكان لهذا التمازج البربرى العربى أثر بعيد فى نشر المذهب الموحدى المهدوى وفيما أحرزه المسلمون من انتصارات ، كما كان له أثر بعيد فى الحياة المغربية .

وكان بالمغرب طبقة تمثل أهل الحرف والصناعات . وهى تعطينا صورة واضحة عما كان عليه المجتمع المغربى فى العصر الوسيط . ويتمثل ذلك فى وصف الحسن الوزان عند كلامه على مدينة فاس حيث يقول إنه كان بسوق الحقائب أمين خاص يختار من مهرة هذه الحرفة . وكان صانعو الحقائب يجمعون ما يحصلون عليه من نقود فى صندوق له مفاتيح عدة ، يحتفظ كل رئيس فرقة بالمفتاح الخاص بفرقته . وإذا انتهى الأسبوع اقتسم العمال النقود التى جمعوها ، وقد كونوا بذلك جمعية تعاونية . وإذا مات أحد العمال تعهد رفاقه بالإنفاق على زوجته وولده الصغير ، وزوجوا أرملته إذا شاءت ، وتولوا تنشئة الأطفال حتى يبلغوا السن التى تسمح لهم بممارسة المهنة . وإذا تزوج أحد الصناع أو ولد له ولد ، دعا جميع زملائه إلى وليمة وقدم له كل منهم هدية . وقد أعفى الملوك صناع الجلود من أداء أية ضريبة ، كما كانوا لا يؤدون أية نقود لأصحاب الأفران عن صنع خبزهم . وكان لهم لباس قصير فى وقت العمل . وإذا فرغوا من أعمالهم ارتدوا ماشاءوا من الملابس ، وكانوا على جانب عظيم من الاستقامة وحسن الخلق (١) .

(٤) فى الأندلس :

وفى بلاد الأندلس أصبح المجتمع الإسلامى يتألف من عدة طبقات تتفاوت فى الحقوق والاعتبار . وكان هذا المجتمع يتألف من العرب الذين قاموا بدور هام فى تاريخ هذه البلاد . ولكن قيام العصبية بينهم قد أتاح الفرصة لمسيحيى الشمال لشن إغاراتهم على المسلمين حتى استردوا بلادهم نهائيا فى سنة ١٤٩٢ م ، وفر من نجا من المسلمين إلى شمالى القارة الإفريقية .

---

(١) الحسن الوزان : وصف أفريقيا ج ١ ص ١٩٥ .

ومن العناصر التى تألف منها المجتمع الإسلامى فى الأندلس : البربر الذين تحملوا أكثر أعباء الفتح ولكنهم خرجوا على أمرائهم واحتلوا الأماكن الهامة فى البلاد . ومن هؤلاء أسرة ذى النون بطليطلة التى أسست لها دولة بالأندلس (١) . وحذا حذوهم ملوك الطوائف كابن عباد فى إشبيلية وابن الأفطس فى بطليوس وابن أبى عامر فى بلنسية وابن هود فى سرقسطة ومجاهد العامرى بدانية الجزائر .

وكان مسيحيو الأندلس فريقين : فريق تمسك بدينه القديم ، وفريق عُرف باسم المستعربين . وقد تمتعوا بقسط وافر من التسامح الدينى . وكان يحكمهم حاكم من بينهم يسمى « الكونت » ، ولهم ممثل فى البلاط ، وقاض ومحكمة استئنافية برياسة الكونت . وكان كثير منهم يعينون فى أرقى المناصب المدنية والحربية . وكان المسيحيون يتكلمون العربية ويصنفون بها الكتب وينظمون بها الشعر .

كذلك سمح العرب لليهود الذين رزحوا تحت حكم القوط بمزاولة التجارة وبحرية الملكية ، واشتغل كثير منهم بالعلوم والآداب والطب والفلسفة (٢) . كما تمتعوا بكثير من التسامح الدينى ، وأسند إليهم كثير من مناصب الدولة ، وأضحت قرطبة مركزا للدراسات العبرية . وقد ذكر الإدريسى (٣) أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلا جنوبى قرطبة كان أهلها أكثر غنى من بنى جلدتهم فى سائر البلاد الإسلامية .

وقد نال الرقيق كثيراً من الحقوق المدنية فزرعوا الأرض لحسابهم على أن يؤدوا الخراج للدولة .

ومن أهم طبقات المجتمع فى الأندلس : الصقالبة ، وكانوا يجلبون من أسرى الحروب أو من هؤلاء الذين استولى عليهم القراصنة من السواحل الأوربية أو من سواحل البحر الأبيض المغربية . وقد ذكر المقرى (٤) أن عدد الصقالبة بقصر الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر بلغ ٣٫٧٥٠ ، واستخدم المنصور بن أبى عامر الحاجب الصقالبة فى جيشه .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٣ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٠ — ٢٨١ . سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢١٦ .

(٣) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ليدن ١٨٦٦) ص ٢٠٥ .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢٩٦ .

ولا ننسى طبقة الفقهاء الذين اشتد نفوذهم بالأندلس منذ أيام الدولة الأموية ، ولكن نفوذهم قد اشتد فى عهد المرابطين الذين يرجع الفضل فى تأسيس دولتهم إلى الفقيه المالكى عبد الله بن ياسين . وها هو أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنّى[١] يقول عن الفقهاء فى عهده :

أهلَ الرياء لبستموا ناموسكم كالذئب أدلج فى الظلام العاتم
فملكتموا الدنيا بمذهب مالكٍ وقسمتموا الأموال بابن القاسم

٢ — مجالس الغناء والطرب

كان للغناء قواعد متبعة ومدارس معروفة ، حتى لقد وضعت مؤلفات كثيرة فى الغناء والموسيقى . وحسبنا أن نُنَوّه بكتاب الأغانى الذى وضعه أبو الفرج الأصفهانى فى المغنين والمغنيات ، وتبع ذلك التعرض للأدب والأدباء[٢] . وكان العامة يحفلون بهذه المجالس ويطربون لها للترويح عن مشاغل الحياة ومتاعبها[٣] .

ويبدو أن الموسيقى لم تلق إقبال الناس فى العصر العباسى الثانى . ويعلل « فارمر »[٤] ذلك إلى مناهضة فقهاء الحنابلة لأسباب اللهو واللعب عامة ، ومن بينها الموسيقى . وقد تبع ذلك إهمال المؤلفين لتدوين الموسيقى والغناء . فلم نجد مؤلفين للموسيقى كأبى الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى ، حتى تصل إلينا أخبار المغنين والمغنيات فى هذا العصر الذى سيطر عليه الفقهاء ولا سيما العلماء الحنابلة .

ومما يدل على عدم تقدير هذا الفن فى هذا الزمن أن بعض الفقهاء كانوا لا يقبلون شهادة المغنى والرقاص . غير أن بعض العلماء أجاز لنفسه حضور مجالس الغناء ، كما كانت العامة تحضر فى العادة مجالس الغناء والتسلية بما يجرى فى مجالسه من رقص وتمثيليات يُقصد بها الفكاهة .

والرقص كالغناء من حيث أصالته فى المجتمع العراقى . وقد اخترعت له آلات خاصة

---

(١) من أدباء مدينة جيان بالأندلس .

(٢) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ترجمة حسين نصار (القاهرة ١٩٥٦) ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

(٣) ومن هذه المؤلفات أيضاً كتاب الأدوار فى معرفة النغم والأدوار لصفى الدين عبد المؤمن (ت ٦٩٣/١٢٩٤) .

(٤) تاريخ الموسيقى العربية ، ترجمة ص ٢٤٩ — ٢٦٠ .

مثل « السكرج » وهى تماثيل خيل مُسرجة من الخيش معلقة بأطراف أقبية تلبسها الجوارى ، ويركبن بها الخيل ، فيحدثن أصواتاً عند الكر والفر . وكان الراقصون والراقصات يعرضن فنونهن أمام الجماهير فى الولائم والأعياد وأوقات الفراغ ومجالس اللهو . وقد انتقلت هذه العادات من بغداد إلى غيرها من المدن والقرى(١) .

وهناك نوع آخر من الفن ظهر فى كنف الغناء والرقص وهو العزف . ولم يكن العازفون من الرجال فقط ، بل اشتركت فيه النساء كذلك . وكان العازف يلقب باسم آلته ، فيقال : الطبال والصّناج والعوّاد والزامر والطُّنبورى(٢) . وكانت الآلات الموسيقية المعروفة حينئذ هى : الدّف والناى والعود والطبل والطنبور ، ومنه الطنبور الميزانى والبغدادى . وهنالك أيضاً المِعْزفة والمزمار والشهروز والرّباب والجرافة والجَنك والقضيب والسرناى .

ويبدو أن الرذيلة قد تفشت فى العراق فى القرن الخامس الهجرى لضعف الحكم ، فانتشر شرب الخمر وكثرت المواخير والحانات وظهرت موجة انحلال خلقى بين المغنيات فى عهد الخليفة القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) ، وقام بعض الصالحين فى وجه محاربة هذا التيار ، وأنكروا تفشى الخمور . ويذكر ابن الأثير(٣) أن شخصاً أتلف آلة الغناء التى تستعملها إحدى المغنيات كانت تصطحب جندياً من السلاجقة الأتراك ، فاجتمعت العامة بزعامة علماء الدين واستغاثوا بالخليفة القائم طالبين إليه أن يأمر بهدم المواخير والحانات وتعطيلها . ويظهر أن الخليفة الذى لم يعد له من الأمر شىء اكتفى بأن وعد بعرض الأمر على السلطان السلجوقى .

وقد ذكر ابن الأثير(٤) أن الخليفة المقتدى (٤٦٧ — ٤٨٧ هـ) أمر بنفى المغنيات والمفسدات من النساء من بغداد ، وخرب أبراج الحمام ومنع اللعب بها صيانة لحرم الناس ؛ كما منع دخول الناس الحمامات إلا إذا لبسوا مئزراً ، ومنع الملاحين من أن يحملوا

---

(١) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٦١) ص ٧٦٦ .

(٢) الأزدى : حكاية أبى القاسم البغدادى (هيدلبرج ١٩٠٢) ص ٥٠ . الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ١٣٦ .

(٣) الكامل ج ١٠ ص ٣٨ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٨٥ — ٨٦ .

الرجال والنساء مجتمعين ، مما جعل الناس يمتدحونه ويطرون خلافته ويعدونه من أحسن الخلفاء العباسيين .

ذكر المقريزى[١] أن الخليفة الحاكم الفاطمى أصدر بين سنتى ٣٩٨ ، ٤٠١ هـ قوانين تحرم اجتماعات اللهو والطرب على شواطىء خليج القاهرة ، كما حرم فتح الأبواب والنوافذ التى تطل على هذه الشواطىء . وقد تلت هذه القوانين قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها ، ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات . ويقول ابن خلكان[٢] إن النساء قبعن فى بيوتهن سبع سنين حتى ولى الخلافة الظاهر ابن الحاكم سنة ٤١١ هـ . وقد ذكر المؤرخون أن البساسيرى لما أقام الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر على منابر العراق نحواً من سنة ، أشادت إحدى المغنيات بهذا الحادث وغنت فى حضرة الخليفة الفاطمى هذين البيتين :

يا بَنى العبـــاسِ صُدُّوا ملكَ الأمرَ مَعَدُّ
ملـكُـكُم كان مُعارًا والعـــوارى تُسْـــتَرَدُّ

فطرب الخليفة وأقطعها أرضاً بمدينة القاهرة لا تزال إلى اليوم تعرف باسم أرض الطبالة .

وقد ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن تأثير زرياب على المجتمع القرطبى كان عميقاً فى الموسيقى والغناء وفى الطعام وآداب المائدة . فقد علم زرياب أهل قرطبة أرقى أنواع الطهى البغدادى ، وأذاع فيهم أنماطاً جديدة فى تنظيم المائدة ، فكانوا يبدءون بالحساء ، ثم يقدمون اللحوم والطيور وينتهون بالحلوى . واستبدل زرياب مفارش المائدة من الكتان بأخرى مصنوعة من الجلد الرقيق ، وأظهر لهم أن الكؤوس المصنوعة من الزجاج الثمين أكثر انسجاماً مع منظر المائدة من الأكواب الذهبية أو الفضية .

ومن مآثر زرياب أنه فتح فى قرطبة معهد جمال كان يدرس فيه فن التجميل ، واستعمل معجون الأسنان ، وعلم أهل الأندلس أن يفرقوا شعورهم فى وسط الرأس بدلا من أن يتركوا خُصلات الشعر تتدلى فوق جبينهم وتغطى أصداغهم . كما كانوا يعقصونه (يلوونه) حول شعورهم ، وأن يظهروا الحاجبين والأذن ، ويلبسوا ملابس

---

(١) خطط ج ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٧ .

بيضاء من أول يونية إلى نهاية سبتمبر . كما علمهم زرياب أن الربيع هو موسم الملابس الحريرية الخفيفة ، والقمصان ذات الألوان الزاهية ، وأن الشتاء فصل الفراء والملابس الثقيلة .

وبتأثير زرياب تغير البلاط الأموى والمجتمع القرطبى بسبب ما نقله إليهم من نظام البلاط العباسى ، حتى فى أزيائهم وأثاث منازلهم وطرق طهيهم[١] .

٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ودور العامة

لم تنل دور العامة فى البلاد الإسلامية عناية المؤرخين والرحالة ، بل إنهم اقتصروا على وصف قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة . وقد اقتصرت دور العامة على سكنى أصحابها غالباً ، وكانوا يؤجرونها كلها أو بعضها . وكان الزهاد والمتصوفة يتخذون من المساجد مساكن أو يلجئون إلى سكنى الأكواخ[٢] . وكانت دور العامة تبنى غالباً من طابق واحد ، وقد تبنى من طابقين[٣] .

أما مواد البناء فكانت الجص والآجر والكَلْس والنورة (الجير) . وكانت السقوف تتخذ من جذوع النخل أو أغصان الأشجار[٤] .

وللدار مرافق صحية كالحمام والبئر وغيرهما . وللأغنياء مرافق صحية خاصة لا يستعملها الخدم . ونرى عادة فى بيت العامة رحى للطحين وتنوراً للطبخ وشجرة أمام المنزل وكلباً للحراسة .

وكان بعض العامة يزينون دورهم ويؤثثونها بأثاث يتمشى مع حالتهم الاجتماعية ، ويفرشون الأرض بالحصير الشائع الاستعمال بالعراق . ويفرش أهل اليسار الزرابى ويستعملون الوسائد والستائر ، ويضيئون دورهم بالمسارج والقناديل أو الشموع . وهذا يعلل لنا إغلاق الحوانيت بعد مغيب الشمس ، فتنقطع الحركة التجارية فى الشوارع والطرقات .

وكانت قاعة الذهب التى ينعقد فيها مجلس الملك فى عهد الفاطميين مؤثثة أثاثا فخماً ،

---

(١) ليفى بروفنسال : الشرق الإسلامى والحضارة العربية الأندلسية عن مخطوط المؤرخ الأندلسى أحمد بن محمد الرازى — منشورات معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الأسبانية ص ٣٠ — ٣٤ .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ٢٨٦ .

(٣) ابن الجوزى : الأذكياء ص ٦٠ .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٥٥ .

ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، وفى صدر هذه القاعة حَشِيَّة عليها عرش الخليفة المحجوب بستور ، حتى إذا ما استوى الخليفة على عرشه والتأم المجلس رُفعت الستور .

ومن قصور الخلفاء الفاطميين ذلك القصر الفخم الذى بناه الخليفة الآمر فى جزيرة الروضة[١] لزوجته الطائية ، وقد بنى لها الخليفة هذا القصر بطريقة لا تجعلها تشعر بالانتقال من حياة البادية ، وكان له حديقة رحبة ممتدة على شاطىء النيل[٢] .

وكان الوزراء يعيشون عيشة قوامها الترف والإسراف وحب الظهور كما يعيش الخلفاء . فقد وجد فى قصر الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى الذى أطلق عليه « دار الملك » ٦,٤٠٠,٠٠٠ دينار من الذهب ، وسبعمائة طبق من الفضة والذهب ، وكثير من الصحاف والأباريق والأوانى المستعملة فى اللبن (الزبادى) . وهناك أيضاً كثير من البَرَانى[٣] الصينى الكبيرة المملوءة بالجوهر[٤] .

وقد وصف ابن مُيَسَّر[٥] مجلس شراب الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى فقال إنه كان فيه ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات ، منهن أربع بيض مصنوعة من الكافور ، وأربع أخرى سود مصنوعة من العنبر . وكن مرتديات أفخر الثياب ومتزينات بأثمن الحلى ، ويمسكن بأيديهن أثمن الأحجار الكريمة .

وكان الأفضل إذا دخل من باب المجلس نكس تلك التماثيل رءوسهن إجلالا له ، فإذا أخذ مكانه فى صدر المجلس استوين قائمات . ويظهر أن هذه التماثيل كانت تتحرك بوسائل هندسية مرتبطة بمكان دخوله إلى مجلسه[٦] .

وقد ذكر ابن الأثير[٧] أن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بالمغرب بعد أن استولى على غرناطة من صاحبها عبد الله بن بلكين (بضم الباء واللام وكسر الكاف مع التشديد)

---

(١) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٦ .
(٢) المقريزى خطط ج ١ ص ٤٨٥ .
(٣) جمع برنية وتسمى المحلبية وهى إناء مدور من الخزف .
(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠٠ .
(٥) تاريخ مصر ص ٥٧ .
(٦) انظر كتابى : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٥٦ — ٥٥٧ .
(٧) الكامل ج ١٠ ص ٥٧ .

وأخرجه منها رأى فى قصوره من الأموال والذخائر مالم يملكه ملك قبله بالأندلس . ومما وجده عنده سبحة فيها أربعمائة جوهرة قومت كل جوهرة منها بمائة دينار ، إلى غير ذلك من النفائس الثمينة والثياب وغيرها .

٤ — الطعام :

اهتم العباسيون بالطعام وتفننوا فى طهيه وتصنيفه وترتيب تقديمه على موائدهم . وقد عنى العباسيون بوضع المؤلفات التى تصف الطعام وطريقة تقديمه . وممن ألف فى هذا الباب : محمد بن عبد الكريم الكاتب البغدادى الذى ألف كتابه « الطبيخ » فى سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) . ويصف لنا هذا الكتاب الطعام فى عصر المؤلف وفيما سبقه من العصور العباسية .

وقد قسم هذا المؤلف الطعام على أساس طبقات المجتمع فى عصره ، فذكر طعام طبقة الأغنياء ، وطبقة الفقراء[١] ، والطعام الشعبى .

ويتألف طعام الأغنياء من الدجاج ، وكانت الدجاجة تسلق وتقطع ثم تُعَرّق بالشيرج[٢] المضاف إليه الكزبرة والمستكة والدار الصينى . ويعتبر الدجاج أساس المائدة . ولذلك كان سعره مرتفعاً . ولهم فى طهى الدجاج طرائق مختلفة حسب رغبة الآكلين[٣] .

ومن ألوان الطعام المضيرة[٤] ، فيقطع اللحم السمين مع الإلية ويوضع فى قدر ثم يضاف إليه ماء وملح ، ثم يغلى . فإذا قارب النضج أضيف البصل والكرات والكمون والمستكة والدارصينى ، فإذا نضج وجف ماؤه ولم يبق سوى الدهن غُرف فى إناء ، وأضيف إليه اللبن والليمون والنعناع ، ثم ترك على النار حتى يغلى قليلا ، وأضيف إليه التوابل ، ثم مسح جوانب القدر وترك وغطى حتى يهدأ .

ومن ألوان الطعام أيضاً : السكباج[٥] . وطريقة طهيه أن يقطع اللحم السمين ويوضع

---

(١) ويدخل فى هذه الطبقة طبقة المتصوفة والزهاد الذين يكتفون بالقليل من الطعام ولا سيما من الخبز الجاف والملح أو الأدم القليل .

(٢) وهو زيت السمسم .

(٣) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ١٠٠ .

(٤) بفتح الميم وكسر الضاد بعدها ياء . انظر البغدادى : كتاب الطبيخ ص ٢٣ .

(٥) بكسر السين المشددة .

فى قدر ، ثم يضاف إليه الكزبرة الخضراء والدار صينى والملح ، ويظل على النار حتى يغلى ، ثم يضاف إليه الكزبرة اليابسة وتنحى الكزبرة الخضراء من القدر ، ثم يضاف إليه البصل والكراث والجزر أو الباذنجان .

وهناك ألوان أخرى من أطعمة الأغنياء ، نذكر من بينها المشهيات كالسلاطة والحصرمية والكسكية والعدسية والمهلبية .

وتتألف الأطعمة الشعبية من اللحم والخبز والدبس والخل والسمك ، ومنه المشوى والمقلى والمطبوخ . وكان المحتسب يشرف على باعة السمك بصفة خاصة لئلا يخلطوا السمك الطازج بالسمك الفاسد .

وقد اعتاد أهل العراق عدم شرب الماء بعد أكل السمك كما كانوا لا يشربون اللبن بعده ولا يأكلون البيض أو اللحم إذ يعتبرون ذلك ضاراً بالصحة .

ومن الأكلات الشعبية الباقلاء ، والهريسة وهى نوع من الحلوى تباع فى الأسواق فى الصباح . وهى من الأنواع القديمة بالعراق ، فتطبخ فى البيوت أو تباع فى الأسواق . ومن الأكلات الشعبية أيضاً العصيدة والثريد ، وتعمل العصيدة من التمر ويضاف إليه السكر والعسل[1] ، ويعمل الثريد من المرق واللحم وقد يضاف إليه الحمص ، ويؤكل فى الغداء والعشاء . ومن الأكلات الشعبية أيضاً الأرز ، ويؤكل مع اللبن أو السمن ، والسكر ويقدم مع غيره من الأطعمة .

ومن الأكلات الشعبية الكباب وهو اللحم المقطع إلى شرائح ، وتشوى الآن من اللحم المفروم . والكباب من الأكلات المتوفرة والرخيصة إلى اليوم ، وهو من الأكلات المفضلة عند الشعب العراقى . كذلك نذكر من بين الأكلات الشعبية الرءوس والأكارع ، وتباع فى الأسواق مطبوخة ونيئة[2] . ويزيد فى قيمة الطعام ما يضاف إليه من المسك والعنبر والعود والزعفران والقرنفل والكبابة (الصينى) والفواكه اليابسة كالجوز واللوز والفستق والبندق والعنب والزبيب والتمر والتفاح والرمان والموز وغيرها[3] .

وكان السلطان ألب أرسلان السلجوقى بارًّا بالناس يطبخ بمطبخه كل يوم خمسون

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ٣٩٥ .

(٢) ابن الجوزى : أخبار الحمقى والمغفلين ص ٣٤ .

(٣) بدوى محمد بدر : العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى — رسالة ماجستير مخطوطة ص ٨٣ وما يليها .

رأساً من الغنم للفقراء ، ما عدا المال الذى خصص لسماط الخاصة والعامة والعسكر والأمراء وغيرهم[١] .

وقد ذكر المؤرخون والرحالة أن الفاطميين والأيوبيين فى مصر اهتموا بتربية الحيوانات وخاصة البقر وبتربية الجاموس وتفريخ الدجاج وتربيته . وكانت مصر فى رغد من العيش ، فزرعت فيها الحنطة والذرة والأرز والقمح والشعير والفول والحمص والعدس والبصل والثوم واللفت والسلجم (وهو نوع من اللفت) والقلقاس والباذنجان واللوبيا والكراويا . كما عمرت الأسواق بالفواكه على اختلافها كالكروم والتين والتفاح والخوخ والمشمش والموز والتمور والتوت واللوز . وكانت هذه الأسواق تزخر بالأطعمة كالدجاج والأوز والزبيب والسمك والحمام وسائر اللحوم[٢] . وكانت الاحتفالات الرسمية تقترن بالاحتفالات والمآدب الشعبية ، ويستقبل الشعب المصرى هذه المواسم بمظاهر البهجة إلا يوم عاشوراء الذى كان يعتبر يوم حزن شامل تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر حيث يرتلون الأناشيد الحزينة فى رثاء الإمام الحسين[٣] .

وقد ابتدع زرياب فى بلاد الأندلس ألواناً من الطعام ، فأدخل بقلة الهليون المسماة عندهم الأسفراج وزاد فى الأطعمة لوناً أطلقوا عليه « القايا » ، ويصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب ، ولوناً من التقلية أطلقوا عليه تقلية زرياب ، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب فى مرق كثير الأفاويه والتوابل . كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة ، وابتكر أسمطة الطعام من الأديم (الجلد) . وقد اتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤهم وخواصهم زرياب قدوة فيما سنه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التى نسبت إليه .

ويتميز المغرب بألوان خاصة من الطعام « كالكفتة » التى تطهى بالزيت ويضاف إليها كمية كبيرة من التوابل وتصنع على شكل كور كبيرة الحجم ، وتصنع من لحم البقر الخالى من الشحم . وقد ذكر الحسن الوزان أنه كان بمدينة فاس سوق يباع فيه الخبز المقلى بالزيت ، ويشبه الخبز الصغير ، ويحلى بالعسل ، ويتناول الناس هذا الخبز مع طعام

---

(١) البندارى . تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٥ .

(٢) أنظر كتابى تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٨٨ — ٣٨٩ ، ٤١٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٤٢ .

الإفطار ولا سيما فى أيام الأعياد ، وتؤكل هذه الفطائر مع اللحم المشوى أو مع العسل أو مع الحريرة . ويلاحظ أن أهل فاس لا يزالون حتى اليوم يحتفظون بهذه العادة ويتناولون هذه الفطائر فى الصباح ولا سيما مع رءوس الغنم المشوية . وللأديب الأزمورى الفاسى المولد والنشأة قصيدة طويلة فى الأطعمة يذكر فيها رءوس الغنم المشوية .

وطريقة طهى الحريرة هى أن يدق اللحم ثم يطبخ ثم يدق من جديد ، ويدخل فى صنع الحريرة وتضاف إليها كمية من التوابل والمرق والبقول ، وفى فاس وغيرها من المدن المغربية يشوى اللحم فى السفافيد ، ويبنى كانونان أحدهما فوق الآخر ، وتوقد النار فى الكانون الأسفل ، وعند ما يُحمى الكانون العلوى يوضع فيه الحمل كاملا من فوهة فى أعلى الكانون حتى لا تحترق الأيدى . وهكذا يتم شواء اللحم ويأخذ لوناً جميلا ونكهة لطيفة ، لأن الدخان لا يصل إلى اللحم وإنما يصل إليه اللهب المشتعل ، ويستمر شى اللحم على نار ضعيفة طول الليل ، وفى الصباح يبدأ بيع هذا اللحم فى الأسواق ، حيث يباع فيها كذلك اللحم المقلى والسمك المقلى ، وهناك حوانيت الأكارع .

أما سوق الجزارين فقد كانت المواشى قبل أن تحمل إلى الحوانيت تعرض على أمين الجزارين لفحص اللحم ، والتأكد من سلامته من الأمراض ، ثم تسلم لحاملها ورقة يحدد فيها ثمن البيع بحيث يستطيع كل شخص أن يراها ويقرأ الثمن الذى يباع به اللحم . وهكذا سبق المسلمون بالمغرب غيرهم من الأمم إلى تحديد أسعار السلع ، ثم نقل عنهم الأوربيون هذا النوع من المعاملات .

وفى سوق الأسماك يبيع الصيادون أنفسهم ما يصطادونه من السمك بأسعار بخسة . وكان من عادتهم أن يصطادوا سمكا ممتازاً هو « الشابل » الكبير الجيد الطرى ، ويسمى « لاكّا » بالإيطالية وبالفرنسية « لالوز » ، ويبدأ صيده من الأنهار خلال فصل الربيع . وقد ذكره المقرى فى رسالة المفاخرة بين سلا ومالقة فقال عند كلامه على مدينة سلا : « وكفى بالشابل لحماً طريا » .

وكان لأهل المدن المغربية ولا سيما أهل فاس ولع بتربية الدجاج ، وكانوا يعنون بنظافة دورهم ويحفظون الدجاج فى أقفاص كبيرة .

ويزخر سوق الزياتين بزيت الزيتون والزبد والعسل والجبن الطازج والليمون

---

(١) Léon l'Africain, Description de l' Afrique, tome I, p. 194 seq.

والجزر واللفت والفول الطرى وغيرها ، ويشرف المحتسب وأعوانه على جميع السلع المستهلكة .

٥ — الملابس :

كان للخاصة فى العصر العباسى الثانى ملابس رسمية تميزهم . أما ملابس العامة فكانت تختلف باختلاف حياتهم الاجتماعية ؛ فكان أغنياؤهم يعنون بملابسهم أكثر من فقرائهم . ويعرف الزهاد والمتصوفة بملابسهم الصوفية الخشنة .

والملابس ثلاثة أنواع : ملابس للرأس ، وملابس للبدن ، وملابس للأرجل والقدمين بالإضافة إلى الحلى .

فملابس الرأس هى العمامة التى تميز الرجل عن المرأة وتقى الرأس من الحر والبرد . ولم يسمح الفقهاء للمرأة بلبس العمامة ليتميز بها الرجل . وقد أخذ العرب العمامة عن آبائهم منذ أيام الجاهلية وورثها المجتمع العراقى فى القرن الخامس الهجرى . فكان لايجوز خلع العمامة وكشف الرأس إلا فى مناسك الحج . وكانت العمامة السوداء تلبس فى الاحتفالات والمواسم وعند مقابلة الخليفة لأن السواد كان شعار العباسيين الرسمى .

أما ملابس البدن فكانت تختلف باختلاف طبقات الناس . فالزهاد يلبسون الملابس الخشنة أو الممزقة ، والفقراء يلبسون المدرعة (بكسر الميم وسكون الدال وفتح الراء) ، وهى نوع من الجباب وتكون عادة من الصوف . وكان عمال الحمامات يلبسون التبان (بضم التاء مع التشديد وفتح الباء مع التشديد) وهى سراويل صغيرة تستر العورة . ويلبس الفلاحون الملابس الغليظة المصنوعة من القطن . ويلبس الأغنياء الملابس الحريرية والإبريسمية وهى نوع من الحرير . وكان الناس يلبسون فى أرجلهم الجوارب وفى أقدامهم النعال(١) .

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين من أهم مراكز النسيج . وقد بلغ نظام الطراز الذى يصنع بدار الكسوة مبلغاً عظيماً من الرقى كما تقدم . كما اشتهرت مصر بأنواع خاصة من الثياب الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية . وكان يصنع بدار الكسوة كسى مختلفة يصلح كل منها فى مناسبة معينة ، كالاحتفال بآخر رمضان وبالعيدين ، والجلوس إلى السماط

---

(١) بدرى محمد فهد : العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى (رسالة مخطوطة) ص ١١٧ وما يليها .

فى أول أيام العيد . وكانت هذه الملابس موشاة بخيوط الذهب والفضة ، حتى لقد بلغ ثمن بعض الكسى خمسمائة دينار وثمن المنديل خمسة دنانير . كما كانت الحلل المزركشة بالذهب تقدم إلى الوزراء والأمراء والأشراف وكبار رجال الدولة فى أول رمضان وفى الاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه ، وفى عيدى الفطر والأضحى وفى الاحتفال بوفاء النيل وغيرها يمنحون فى هذه المناسبات حللا حريرية أو مزركشة بالذهب(١)

٦ — المرأة :

كانت المرأة فى العصر العباسى لا تختلط بالرجال الغرباء . فإذا أقيمت الحفلات لجأت إلى غرفة خاصة بالنساء أو طلعت فوق سطح منزلها لرؤية الحفل وحدها أو مع بعض زميلاتها . وكان المجتمع البغدادى لايسمح للرجل بأن ينظر إلى جيرانه من نافذة . ومن تعمد كشف عورات الناس كان جزاؤه من السلطات الحاكمة الجزاء الصارم . وكان المحتسب لايسمح باختلاط الرجل بالمرأة فى الطرقات العامة ولوكانا زوجين(٢). وعلى ذلك فقد كانت المرأة تحضر مجالس الوعظ فى المساجد(٣) . وهذا يدل على مشاركتها للرجل فى إقامة الشعائر الدينية وفى ميدان العلم والثقافة . على أن هذا لم يمنع من اختلاط الرجل بالمرأة فى الأسواق وعلى شواطىء الأنهار وفى زيارة القبور وفى قضاء المصالح بالدواوين الحكومية (٤) .

وقد تمتعت المرأة فى العصر السلجوقى بقسط وافر من الحرية. وكان لبعض نساء هذا العصر تأثير عظيم على الخلفاء والسلاطين ، حتى إنهن تدخلن فى شئون الدولة . ونذكر على سبيل المثال « تركان خاتون » زوجة السلطان ملكشاه التى اشتهرت بذكائها ودهائها ، واتسع نفوذها حتى إنها استطاعت تحت تأثير طموحها الشخصى أن تحمل الخليفة العباسى القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) على تقليد ابنها الصغير محمود السلطنة . ولم يكن بد من أن يلبى الخليفة طلبها بمعاضدة وزيرها تاج الملك وتأييد جعفر ابن الخليفة وابن « ماه مالك » أخت السلطان ملكشاه وغيره من رجال الدولة . وبذلك تحقق طموح تركان خاتون وتقلد

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٠٩ — ٤١١ .
(٢) الماوردى ص ٢٥٧ .
(٣) الخطيب البغدادى ج ١٢ ص ٧٦ .
(٤) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ٢٧٨ .

ابنها محمود السلطنة دون أخيه الأكبر بركياروق بن زبيدة [١] . وقد أدى هذا العمل إلى انقسام البيت السلجوقى على نفسه ، فدبرت المؤامرات واشتعلت الحروب وطمع بعض أعضاء البيت السلجوقى فى السلطنة [٢] .

وكان كثير من الخلفاء من أمهات أولاد . فقد كانت أم المأمون فارسية وأم المعتصم تركية . وكانت شجاع أم المتوكل رومية (أو خوارزمية) ، والسيدة أم المقتدر رومية ، وأم المطيع صقلبية ، وأم الظاهر الفاطمى سودانية .

وكان للمرأة شأن عظيم فى عهد الدولة الفاطمية ، فكانت تتدخل فى شئون الدولة . واشتهر كثير من النساء بالثراء والبذخ . فقد تمتعت ست الملك أخت الخليفة الحاكم بالحزم ورجاحة العقل واشتهرت بالكرم والحلم وعرفت بالتسامح الدينى . ومن نساء العصر الفاطمى الأخير زوجة الظاهر وأم المستنصر . وكانت سودانية ، على ماتقدم . وقد اشتهرت بالعطف على أبناء جلدتها السودانيين الذين كثر عددهم ، وبلغ جندهم خمسين ألفاً . ومن نساء هذا العصر زوجة الخليفة الآمر الطائية البدوية التى شغف بجمالها ومواهبها . ولم يظهر بين طبقة العامة فى ذلك العصر نساء كان لهن أثر فى الحياة السياسية أو فى ترقية المجتمع ، بل كان النشاط فى هذه النواحى مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة .

وقد تمتعت شجر الدر زوجة الملك الصالح أيوب بنفوذ عظيم فى الدولة الأيوبية حتى لقد تقلدت سلطنة مصر ردحاً من الزمن . وقد تقربت من أمراء الدولة ومنحتهم الإقطاعات وخفضت الضرائب عن الأهالى واستطاعت بمهارتها أن ترد الصليبيين على أعقابهم بعد أن حلت بهم الهزيمة فى موقعة المنصورة سنة ١٢٤٩ م .

وقد اشتهر بعض نساء المغرب برجاحة العقل وتدخلن فى شئون الدولة . ومن هؤلاء زينب النفزاوية التى اشتهرت بجمالها ورجاحة عقلها وظرفها . وقد تزوجها أبو بكر بن عمر اللمتونى الذى عينه عبد المؤمن بن على أميراً على بلاد المغرب . وقد ذكر ابن الأثير [٣] فى حوادث سنة ٥٠٠ هـ أن ثلاثة أشخاص اجتمعوا ، فتمنى أحدهم ألف دينار يتّجر بها ، وتمنى الآخر عملا يعمل فيه لأمير المسلمين ، وتمنى الثالث زوجة يوسف بن تاشفين .

---

(١) كانت زبيدة إبنة ياقوتى بن داود وابنة عم السلطان ملكشاه .

(٢) انظر الباب الثانى من هذا الكتاب ص ٣٧ .

(٣) الكامل ج ١٠ ص ١٥٦ .

ولما بلغ ابن تاشفين هذا الخبر ، أحضر هؤلاء الثلاثة وأعطى الأول ما تمناه من المال وهو ألف دينار ، وقلد الآخر عملا من الأعمال ، وقال للشخص الذى تمنّى زوجته : «ياجاهل! ما حملك على هذا الذى لا تصل إليه ؟» ثم أرسله إلى زوجته ، فتركته فى خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه كل يوم طعاماً واحداً . ثم أحضرته وقالت له : « ماأكلت هذه الأيام ؟ » قال : «طعاماً واحدا ؟» فقالت : « كل النساء شىء واحد » وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته .

وقد تطور نفوذ المرأة فى عهد علىّ بن يوسف بن على بن تاشفين ، فتدخلت فى شئون الدولة تدخلا أضرّ بالملك فى عهده ، « واستولى النساء على الأموال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومَسُّوفة مشتملة على كل مُفْسد وشرير وقاطع سَبيل وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزيّد تغافله[1] ».

وفى الأندلس كثر زواج المسلمين بالمسيحيات ، وغدا المسلمون يؤثرون اتخاذ أمهات أولادهم من السبايا اللاتى كن يؤتى بهن من شمالى أسبانيا[2] .

ولم يكن شراء الجارية فى الأندلس من الأمور الهينة ، بل كان شراؤها يتم بحضور كاتب العقود ، فتوضح الأسباب التى تطلب الجارية من أجلها بكل دقة . وقد تمتعت المرأة فى عهد الأمويين فى الأندلس بنصيب كبير من الحرية وحظ وافر من الاعتبار ، وإن نقص صفاء الجنس العربى كان نتيجة التزاوج من الأسبانيات على الرغم من أن ذريتهن أصبحت تحمل أسماء الآباء .

٧ — الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات

(ا) الأعياد والمواسم والمواكب

كان العامة فى المشرق الإسلامى يحتفلون بالأعياد الدينية كشهر رمضان ثم يحيون لياليه بتلاوة القرآن الكريم وصلاة التراويح . كما كانوا يحتفلون بعيدى الفطر والأضحى ، فيخرج الناس صبيحة يوم العيد بملابسهم الجديدة إلى المساجد لأداء صلاة العيد وتوزيع الفطرة على الفقراء والمساكين . وكانت الدولة العباسية تحتفل بهذا العيد بحضور الخليفة

(١) المراكشى : المعجب ص ١٧٧ .

(٢) ترنْد : تراث الإسلام ، الترجمة العربية (القاهرة ١٩٣٦) جـ ١ ص ١٢ — ١٣ .

مرتديا أفخر الملابس وبصحبته كبار رجال دولته . وكان العامة يقفون على جانبي الطريق لتحية الخليفة وهو فى طريقه إلى المسجد وهم ينادون: السلام على أمير المؤمنين ونور الإسلام».

وكانت بغداد تزين بالأعلام والأقمشة الحريرية ذات الألوان الزاهية ، وتضرب الطبول وتدق الأبواق . كما كانوا يحتفلون بموسم الحج . فإذا حل اليوم العاشر من شهر ذى الحجة احتفل الناس بعيد الأضحى وذبحت الأضاحى ووزع منها على الفقراء . وكان الصناع ينتهزون حلول العيد ليصنعوا تماثيل حيوانية للأطفال (١).

ومن الأعياد الدينية عيد الغدير عند الشيعة . وكان معز الدولة بن بويه أول من احتفل بهذا العيد فى سنة ٣٥٢ هـ . كما كان العامة يحتفلون بعيد النوروز ، وبأعياد النصارى فى الأديرة القريبة من بغداد ، ويحتفلون بالانتصارات الحربية كما حدث فى سنة ٤٦٣ هـ حيث احتفل السلطان ألب أرسلان على البيزنطيين فى موقعة ملازكرت الشهيرة .

وفى العصر الفاطمى فى مصر كانت هناك عدا مواكب الخلفاء الملكية فى أيام السبت والثلاثاء وأيام الجمع والعيدين، أيام دينية أخرى . وكانت الأسمطه تقام ابتهاجا بهذه الأعياد فى قصور الخلفاء وتوزع الإنعامات بمقادير وافية . وفيما يلى بيان بأسماء الأعياد التى كان يحتفل بها الفاطميون :

(١) رأس السنة (٢) أول العام (٣) يوم عاشوراء (وهو يوم مقتل الحسين) (٤) مولد النبى صلى الله عليه وسلم (١٢ ربيع الأول) (٥) مولد علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه (٦) مولد الحسن عليه السلام (٧) مولد الحسين عليه السلام (٨) مولد السيدة فاطمة الزهراء (٩) مولد الخليفة الجالس على العرش (١٠) ليلة أول رجب (١١) ليلة نصف رجب (١٢) ليلة أول شعبان (١٣) ليلة نصف شعبان (٢) (١٤) موسم ليلة رمضان (١٥) غرة رمضان (١٦) وفاء النيل (١٧) يوم النَّوْرُوز (١٨) يوم الغطاس (١٩) يوم الميلاد (٢٠) عيد النصر (٣) (٢١) خميس العهد (٤) .

---

(١) انظر بدرى محمد فهد : العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى (نسخة مخطوطة) ص ١٦٠ وما يليها .

(٢) كانت هذه الليالى الأربع الأخيرة تسمى ليالى الوقود .

(٣) كان للاحتفال بهذا العيد فى ١٦ المحرم وهو اليوم الذى أطلق فيه سراح الخليفة الحافظ وجعلة فى عزلة عن الناس منذ شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) . (ابن ميسر ص ٧٤ و ٧٥) .

(٤) هو الخميس الذى يحتفل فيه النصارى بإنجيلهم ، وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام . وهو أحد الأعياد التى بقيت فى عهد الفاطميين مشاركة للنصارى فى شعورهم الدينى . ولفظ عهد استبدلت خطأ بلفظ =

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون فى مناسبات متعددة ، لكنهم عنوا عناية خاصة ببعض المواكب التى كانت تسمى بالمواكب العظام ؛ وهى موكب أول العام ، وأول رمضان ، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدى الفطر والأضحى ، ووفاء النيل.(١) أما المواكب الأخرى فكانت تسمى المواكب المختصرة (٢) .

(ب) الخطبة فى الأزهر :

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤم الناس فى الصلاة باعتباره زعيما للمسلمين . وقد ندب وهو فى مرضه الأخير أبا بكر ليصلى بالناس بدلا منه . وكانت إمامة المسلمين فى الصلاة من أهم الأدلة التى استند إليها السنيون فى أحقية أبى بكر بالخلافة بعد الرسول الكريم . ولفظ إمام تتمثل فيه الصفة الدينية من حيث الإمامة فى الصلاة التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين ، بل إنها تعتبر ثانى أركان الدين بعد الشهادتين ، ويعدها بعضهم الركن الأول ، لأن الشهادتين تذكران فى سائر الأركان . ولذلك نرى الشيعة يستعملون لفظ إمام ، لأنهم يعتقدون أن لأفراد البيت العلوى قوة إلهية مقدسة . كما ورد لفظ إمام فى القرآن الكريم بمعنى الزعيم أو الدليل أو الرئيس ، فقال تعالى فى سورة الأنبياء (٢١ : ٧٣) : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة »(٣) . كذلك نرى الخلفاء يحافظون على وظيفة الإمامة فى الصلاة لما تدل عليه من صفة الزعامة ، حتى لقد أصبحت الإمامة فى الصلاة من أهم أعمال الخلفاء وولاتهم فى الأمصار الإسلامية . وقد حرص الخلفاء على إمامة المسلمين فى الصلاة بأنفسهم .

وقد عنى الفاطميون بتنظيم الإشراف على الأزهر ، فعينوا له فقيهاً يتولى الخطابة فى صلاة الجمعة والحفلات الدينية بين يدى الخليفة أو نائبه ، كما نظموا شئون المسجد بصفة عامة . وفى أواخر العصر الفاطمى كانت الخطابة تسند إلى رجال الدين ومنهم داعى الدعاة . أما الشئون الخاصة بالدراسة والأساتذة والطلاب فكان يرجع فيها إلى الخلفاء ونوابهم من كبار رجال الدولة الفاطمية .

= عدس ، وسماه أهل الشام خميس الأرز أو خميس البيض ؛ واستمر ذلك إلى اليوم (المقريزى ، خطط ج ١ ص ٤٩٥) .

(١) القلقشندى ج ٣ ص ٥٠٣ — ٥٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢١ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : كتاب النظم الإسلامية (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٢) ص ٤ ـ ٥ .

وقد أصبح الأزهر منذ إنشائه مسجد الدولة الفاطمية الرسمى . فكانت تقام فيه صلاة الجمعة وعيدا الفطر والأضحى ، وكان الخليفة يؤم الناس بنفسه . . وقد ركب الخليفة المعز الفاطمى إلى الجامع الأزهر وأم الناس فى الصلاة ، وألقى خطبة رائعة كان لها تأثير بالغ فى نفوس المصلين . وكانت هذه أول صلاة يقيمها الخليفة الفاطمى فى الأزهر . وقد ظل المعز يخطب فى هذا الجامع بنفسه فى الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان وفى الأعياد حتى تم إنشاء جامع الحاكم بأمر الله ، فأقيمت فيه صلاة الجمعة فى شهر رمضان سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) حيث أم الخليفة الحاكم الناس فى الصلاة . وأصبحت صلاة الجمعة تقام من حين إلى آخر فى بعض المساجد الأخرى ، مثل جامعى راشدة والمقس اللذين أنشأهما الحاكم بأمر الله .

وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون على الركوب فى الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهر وعمرو على التوالى لصلاة الجمعة ، ويستريح الخليفة فى هذا الشهر جمعة ، تسمى « جمعة الراحة » .

وكان صاحب بيت المال يشرف بنفسه فى صبيحة كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تأثيث المسجد الذى يصلى فيه الخليفة الجمعة ، فيوضع فى مقصورة الجامع ثلاث طنافس دبيقية[١] أو سامانية ، بعضها فوق بعض . وتعلو هذه الطنافس الحصيرة التى يقال إنها كانت لجعفر الصادق الإمام السادس عند الشيعة الاثنا عشرية ، وأحضرت إلى مصر سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) فى عهد الخليفة الحاكم[٢] .

وكان ينصب على جانبى المنبر ستران ، يكتب على الستر الأيمن منهما البسملة والفاتحة وسورة الجمعة ، وعلى الأيسر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين[٣] .

وقبل وصول الخليفة بقليل يقف قاضى القضاة يحمل بيده مبخرة ، يبخر بها المنبر والقبة التى يقف تحتها الخليفة عند إلقاء الخطبة التى كان يقوم بوضعها أحد كتاب البلاط فى ديوان الإنشاء . ويبدأ موكب الخليفة من باب الذهب بالقصر الخليفى وعلى رأسه المظلة والطيلسان ، وهو كساء مدور ، ويرتدى الخليفة ثوباً من الحرير الأبيض ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق ، ويحمل قضيب الملك بيده ، ويحف به عدد كبير من القراء

---

(١) الدبيقية نسبة إلى دبيق (قرية بمصر) اشتهرت بالنسيج الفاخر .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة جوينبول) مجلد ٣ جـ ١ ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ .
(٣) رقم ٤٣ . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥١١ .

ومن حرس الخليفة الخاص ومن الجنود والأشراف . ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس . وقد ذكر بعض المؤرخين أن الخليفة المعز كان يحيط به فى موكب صلاة الجمعة جنده وأولاده الأربعة ، ممتطين الخيل ، وعليهم الخوذات والدروع ، ويتبعهم فيلان . وذكر بعض المؤرخين أن الخليفة الآمر (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) كان يحف به فى موكب صلاة الجمعة الفيلة والأسود وهى مزينة بفاخر الكسى ، وعليها الأسلحة اللامعة . وكان يسلم لكل واحد من مقدمى الركاب فى الميمنة والميسرة أكياس الذهب والورق (بكسر الراء ، أى الفضة) ، سوى الرسوم المقررة والهبات والصدقات التى تمنح للناس على طول الطريق . وقد زينت الحوانيت المملوءة بأوانى الذهب والفضة .

وكان الخليفة الفاطمى يركب بين قرع الطبول ورنين النصوج وتلاوة القرآن بنغمات شجية حتى يصل إلى الجامع . ثم يطلق البخور وتغلق أبواب الجامع ويقف عندها الحجاب والبوابون ، فلا يدخل إلا مَن كان معروفاً من الخواص والأعيان . ثم يأخذ الخليفة طريقه إلى قاعة الخطابة المخصصة لاستقباله ، ويقوم بحراستها قائد القواد وكبير الأمناء ونخبة من حرس الخليفة الذى يظل فى هذه القاعة حتى ينتهى الأذان .

عندئذ يدخل قاضى القضاة ويقول : « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله ! » فيخرج الخليفة يحف به الأستاذون المحنكون ، ويتبعه وزيره الأول ، وجماعة من حرسة المدججين بالسلاح ، فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر . ويستمر الخليفة فى مسيره حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر . ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة . فإذا أومأ إليه صعد وقبّل يدى الخليفة ، وزرّ السترين عليه . وبذلك يكون المنبر والقبة أشبه بالهودج . ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر[1] .

ويرجع السبب فى استعمال الستور إلى أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا كسائر الخطباء يرتجلون خطبتهم التى كانت تعد لهذا الغرض فى ديوان الإنشاء . كما يرجع السبب فى كتابة آيات من القرآن بخيوط حريرية حمراء ظاهرة على سترين يوضعان على جانبى الخليفة ، أحدهما عن يمينه ليقرأ ما فيه فى الركعة الأولى ، والآخر عن يساره ليقرأ ما فيه فى الركعة الثانية ، إلى ما قد يتعرض له الخليفة من النسيان أو التلعثم حال إقامة الصلاة . فقد أثر

---

(١) ذكر المقريزى أنه إذا لم يكن الوزير صاحب السيف ، بمعنى أنه يجمع فى يده كافة السلطات المدنية والعسكرية والقضائية ، قام قاضى القضاة بزر السترين .

عن الخليفة الفاطمى الحاكم أنه برغم شغفه بأن تكون مواكبه فى غاية الأبهة ، رأى أن ينيب وزيره فى صلاة الجمعة ، لأنه كان يرتج عليه فى الخطبة أحياناً .

وكانت الخطبة التى يلقيها الخليفة الفاطمى قصيرة وتشتمل على آية من القرآن . وكان الخليفة يذكر نفسه وأهل بيته بعبارة موجزة ، ويتلو قوله تعالى فى سورة النمل (٢٧ : ١٩) « ربِّ أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمتَ علىَّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » . ثم يدعو الخليفة لأبيه وجده ، ولمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولعلى كرم الله وجهه ، ولأسلافه الخلفاء ، وأخيرا يدعو لنفسه فيقول : اللهم أنا عبدك وابن عبدك ، لا أملك لنفسى نفعا ولا ضَرّا ، « ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسَّنِىَ السوء ، إنْ أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (سورة الأعراف ٧ : ١٨٨) .

وكان الخليفة يختم خطبته بالدعاء للوزير وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين . فإذا فرغ من خطبته قال : أذكروا الله يذكركم . ثم يصعد الوزير فيحل الستترين ، ويظل هو وقاضى القضاة على الباب ، ويقوم الأستاذون المخنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة .

بعد ذلك يبدأ الخليفة الصلاة ، فيبلِّغ عنه الوزير ، ثم قاضى القضاة ثم المؤذنون . فإذا انتهت الصلاة خلا الجامع من الناس ، وخرج الخليفة ، والوزير عن يمينه وقاضى القضاة وداعى الدعاة [١] عن يساره ، ويحيط به حرسه الخاص ، ويعود بموكبه على النحو الذى سار عليه فى ذهابه إلى الجامع [٢] .

فإذا انتهت الصلاة استراح الخليفة فى الجامع بقدر ما توزع الهبات . فكان يعطى للنائب فى الخطابة ثلاثة دنانير ، وللنائب فى الصلوات الخمس ثلاثة دنانير ، وللمؤذنين أربعة دنانير ، وللمشرف على خزانة الفرش وفراشها ومتوليها لكل منهم ثلاثة دنانير ، ولصبيان بيت المال ديناران . وقد خصصت رسوم للقراء ، وتعم الصدقات الناس من وقت خروج الخليفة من القصر إلى الجامع حتى يعود [٣] .

---

(١) كان داعى الدعاة يتبع قاضى القضاة .

(٢) القلقشندى : ج ٣ ص ٥٠٩ — ٥١٢ .

(٣) أبو المحاسن : (طبعة القاهرة) ج ٢ ص ١٠٢ — ١٠٤ .

كذلك اهتم الخلفاء الفاطميون بإقامة صلاة العيدين ، فقد ذكر المؤرخون أن الخليفة المعز ركب إلى « مُصَلى القاهرة » الذى بناه جوهر خارج باب النصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) . وهنا أقام الصلاة على طريقة الإسماعيلية ، فقرأ فى الركعة الأولى : الفاتحة فسورة الغاشية (سورة رقم ٨٨) ، ثم كبر وأطال الركوع والسجود ، فسبح فى كل ركعة وسجدة ثلاثين تسبيحة (١) . وكان القاضى محمد بن النعمان يبلغ عنه التكبير .

ثم قرأ الخليفة المعز فى الركعة الثانية الفاتحة فسورة الضحى (سورة رقم ٩٣) ، ثم كبر وفعل ما فعله فى الركعة الأولى ، وجهر بالبسملة ، مقتديا بعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه . ولما فرغ الخليفة من الصلاة ، صعد المنبر وسلم على الناس يمينا وشمالا فقال : « السلام عليكم ورحمة الله ! » . وكان فى أعلى المنبر وسادة من ديباج مُثْقَل أعدت لجلوس الخليفة بين الخطبتين . وكان يصحب الخليفة على المنبر : جوهر الصقلى وابن عمار من رؤساء قبيلة كتامة المغربية ، وشفيع حامل المظلة .

وبعد ذلك نشر العلمان اللذان كانا على المنبر : ثم قرأ الخليفة خطبة أخرى بدأها بالبسملة جهرا وأعقبها بالتكبير مرتين . وقد ألقى الخليفة المعز الخطبة فى خشوع ، وكانت من الفصاحة والتأثير بحيث استدرت دموع المصلين .

ولما فرغ الخليفة من الخطبة والصلاة انصرف فى عساكره ، وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخوذ ، ممتطين الخيل وهم فى أحسن زى ، يحف بهم فيلان : فلما وصل الخليفة إلى القصر سمح للناس بالدخول ، فمدت لهم الموائد فأكلوا ما يشتهون (٢) .

(ح) الحج

وكان المسلمون يقيمون الاحتفالات ابتهاجا بحلول موسم الحج ، إذ يتوافد الناس من أمهات مدن العراق كواسط والبصرة والكوفة ، بل من المناطق الواقعة شرقى العراق كفارس وخراسان ، فيجتمعون فى بغداد ويقيمون هناك فى خيام . وكانت الدولة تهتم

---

(١) التسبيح فى الصلاة هو أن يقال فى الركوع : « سبحان ربى العظيم » مرة أو أكثر ، كما يقال فى السجود : « سبحان ربى الأعلى » مرة أو أكثر كذلك .

(٢) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤٥١ ، ٤٨٤ و جـ ٢ ص ٤٧ و ٣٦٤ . المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٢ .

باستقبال هذه الوفود ، فتعين لهم مواضع لشرب الماء وتقدم لهم الأطعمة وتوفر لهم وسائل الراحة فى هذا الموسم . وكان عدد الحجاج يبلغ عدة آلاف . وقد قدر ابن الجوزى هذا العدد بعشرين ألف حاج فى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) (١) .

وكانت شوارع بغداد تزخر بالعامة على اختلاف أعمارهم وأجناسهم لمشاهدة مواكب الحاج من البلاد المختلفة ، مرتدين الملابس الزاهية .

وكانت الدولة العباسية تعين أمير الحاج ، ويختار عادة من الأشراف الطالبيين ، وتقيم لذلك احتفالا رسميا يحضره السلطان والأشراف وقاضى القضاة والقضاة والفقهاء . ويقام هذا الاحتفال فى دار الخلافة حيث تخلع الخلع على أمير الحج . ومن هؤلاء الذين تقلدوا إمارة الحج : أبو الحسين بن موسى الموسوى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ، والشريف المرتضى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م). ويرجع الاحتفال بتنصيب أمير الحج إلى عهد الخلفاء الراشدين (٢).

وقد أمدنا الخزرجى (٣) (ت ٨١٢ / ١٤٠٩) بمعلومات قيمة عن التقاليد والحفلات التى كانت تقام ببغداد فى موسم الحج . وقد اشتملت هذه المعلومات على بيان بالهدايا التى تقدم والخلع التى تخلع على الناس ، فذكر فى حوادث سنة ٦٥٦ هـ أن أم الخليفة المستعصم عزمت على أداء فريضة الحج ، فعين الخليفة أيبك الخاص الدويدار الصغير أميرا للحج ، فحمل معه نفقات الحج ، وهى خمسون ألف دينار ، ومعها الكسوة الشريفة وكسوة حجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وصدقة فقراء الحرمين ، ومقدرات الكعبة ، ثم أُخرجت باقى السُّبُل (٤) ، وهى سبيل الخاص ، ويشتمل على مائتى جمل ، وسبيل المستنصر بالله ويشتمل على مائة وخمسين جملا ، وسبيل الناصر لدين الله ويشتمل على مائة جمل ، وسبيل أم الخليفة الناصر ويشتمل على ثمانين جملا ، وسبيل الخلاطية زوجة الخليفة الناصر .

---

(١) المنتظم ج ٨ ص ٤٤ .

(٢) انظر واجبات أمير الحج فى كتابى تاريخ الإسلام السياسى (الطبعة السابعة ١٩٦٤) ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

(٣) العسجد المسبوك فى سيرة الخلفاء والملوك ، مخطوطة مصورة بمكتبة المجمع العلمى العراقى رقم ٥٥ ، ٣ أجزاء ، ورقة ١٦١ .

(٤) جمع سبيل ، ويراد بذلك أن ينيب شخص آخر ليحج عنه نظير اجر معين ، والسبيل أيضا السقاية .

وفى هذه السنة نفسها عزمت أم الخليفة المستعصم على الحج . ففى اليوم الثالث والعشرين من شهر شوال خرجت المحفتان[١] والشمسة[٢] ، وقد ألبست إحداهما فى باب الحجرة ، وبين يديها أستاذ الدار ووكيل الخليفة وجماعة من الخدم ، وحاشية دار الخلافة مشاة . ثم خرجت جمال باب الحجرة ، وهى تربو على ألف جمل تحمل مختلف المواد من بغداد إلى مكة . وقد خصص لكل مادة من المواد التى نقلت معهم عدد معين من هذه الجمال نقل علها صناديق التشريفات والخيم والسرادقات والملابس المعدة للصدقة ، والكسوة والأطعمة والأشربة والحلوى والأبلوج[٣] وجرار الخزف والأوانى الزجاجية والمخابز وحوائج المطبخ وآلة الحلاويين والقصابين والخبازين وقرب الماء العذب وعلف الجمال .

ومما ذكره المقريزى نرى أن نفقات قافلة الحج بلغت فى عهد وزارة أمير الجيوش بدر الجمالى ١٢٠٫٠٠٠ دينار ، منها ثمن طيب وحلواء وشمع ١٠٫٠٠٠ دينار ، ونفقة الذين يرافقون الكسوة ٤٠٫٠٠٠ دينار ، وما يدفع لحماية القافلة وأجر الجمال وحفر الآبار فى طريق قافلة الحج ٦٠٫٠٠٠ دينار . وقد ذكر المقريزى أن نفقات قافلة الحج بلغت فى عهد وزارة اليازورى ٢٠٠٫٠٠٠ دينار[٤] .

(٤) المحفلات : الزواج

اقترنت حفلات الزواج بالبذخ والإسراف وحب الظهور . فإن السلطان طغرلبك الذى تقدمت به السن خطب بعد موت زوجته سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦١ — ١٠٦٢ م) ابنة الخليفة العباسى القائم (وقيل أخته) . ومع أن هذا الطلب لم يلق قبولا من الخليفة أول الأمر لم يسعه إلا القبول ، وعقد الزواج فى مدينة تبريز على صداق قدره ثلثمائة ألف دينار ، بالإضافة إلى خراج واسط وأعمالها . ثم غادر طغرلبك بغداد إلى بلاد الجبل (جنوبى بحر الخزر) ، فوصل إلى الرى ومعه إبنة أخيه أرسلان خاتون التى تزوج منها

---

(١) وتشبه الهودج : سميت بذلك لأن الجند كانوا يحفون بالخليفة وهو راكب فى المناسبات المختلفة .

(٢) الشمسة المحفة كالهودج ، والشمسة هى المظلة ، وهى عبارة عن قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب تحمل على رأس الخليفة أو السلطان فى العيدين . راجع صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ . والشمسة هى الستور التى تكسى بها الكعبة . وهى أيضاً نافذة مربعة فى أعلى الحيطان ، تترك مفتوحة عادة أو تزين بالزجاج لمرور الهواء أو الضوء فقط . انظر ما ذكرته عن هذا اللفظ فى كتابى تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة ص ٥٤١ — ٥٤٢) هامش رقم (٤) .

(٣) بضم الألف المهموزة ، ويسميه الناس سكر النبات .

(٤) خطط ج ١ ص ٤٥٠ . انظر كتابى تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٦٠ .

الخليفة ، فمرض السلطان وهو فى الطريق ومات فى شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ[١].

وقد وصف ابن الأثير[٢] عند كلامه على حوادث سنة ٤٨٠ هـ زواج ابنة السلطان ملكشاه السلجوقى إلى الخليفة العباسى المقتدى (٤٦٧ — ٤٨٧ هـ) والحفلات التى أقيمت بمناسبة هذا الزواج . ففى شهر المحرم من هذه السنة نقل جهاز ابنة السلطان إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملا مجللة بالديباج الرومى وأربعة وسبعين بغلا مجللة (مكسوة) بأنواع الديباج ، وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقاً من الفضة لا يقدر ما تحويه من الجواهر والحلى بثمن ، كما اشتمل الجهاز على مهد عظيم مزين بطبقة سميكة من الذهب . وقد أرسل الخليفة الوزير أبا شجاع إلى تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه (وكان قد خرج عن بغداد للصيد) ، يحمل التحف والمشاعل ومحفة بلغت غاية الحسن . وقال الوزير لتركان خاتون إن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يذكرنا بقوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)[٣] ، وقد أذن فى نقل الوديعة إلى داره ، فأجابت بالسمع والطاعة ، وحضر الوزير نظام الملك ومن معه من أعيان الدولة ، ومع كل منهم عدد كبير من الشمع والمشاعل ، وجاء نساء الأمراء ومن دونهن كل واحدة منهن منفردة فى جماعتها وبين أيديهن الشمع والمشاعل يحملها الفرسان . ثم جاءت « الخاتون » ابنة السلطان فى محفة مزينة بالذهب والجواهر . وقد أحاط بها مائتا جارية من الأتراك فى المراكب الجميلة التى سارت إلى دار الخلافة . وكانت ليلة مشهودة لم يُر ببغداد مثلها . فلما كان الغد دعا الخليفة أمراء السلطان إلى السماط ، وخلع عليهم وعلى كبار القواد ، وأرسل الخلع إلى زوجة السلطان وإلى سائر الأميرات .

وفى سنة ٥٠٢ هـ تزوج الخليفة المستظهر (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) أخت السلطان محمد بن ملكشاه بأصبهان على صداق قدره ١٠٠,٠٠٠ دينار ، وتولى كتابة العقد القاضى أبو العلاء صاعد النيسابورى . وكان الوزير أحمد بن نظام الملك وكيلا عن الخليفة . ونثرت الجواهر والدنانير على الحاضرين[٤].

---

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨ — ٢١ . ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧ ، ٩ — ١٠ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٣) مقتبسة من سورة النحل .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٧٨ و ١٨٣ .

وفى سنة ٥٣١ هـ خطب الخليفة المقتفى (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) فاطمة ابنة محمد بن ملكشاه . وكان الوزير أبو القاسم الزينبى وكيلا عن الخليفة فى عقد الزواج . وحضر العقد أيضاً أخوها السلطان مسعود . وقد زُفت فاطمة إلى الخليفة فى سنة ٥٣٤ هـ . ويذكر ابن خلكان[1] أن فاطمة اشتهرت بحسن التدبير ، ولكنها لم تعمر طويلا مع الخليفة ، إذ توفيت فى ٢٢ ربيع الآخر سنة ٥٤٢ هـ .

وقد أمدنا الخزرجى (ت ٨١٢)[2] بمعلومات قيمة عن زواج مجاهد الدين أيبك الدويدار المستنصرى . ففى ليلة زفاف مجاهد الدين ، أرسل إلى داره كثير من أوانى الذهب والفضة والثياب والجواهر يزيد ثمنها على ثلثمائة ألف دينار . وقد عُرضت الهدايا والتحف على الأمير مجاهد الدين . وكانت تتألف من مماليك الترك والخدم والأحباش والثياب والطيب والخيل وغيرها مما قدمه الزعماء وكبار رجال الدولة ، كما أرسل إليه الخليفة المستنصر (٦٢٣ — ٦٤٠ هـ) ثلثمائة ألف دينار عينا .

٨ — أوقات الفراغ :

كان الناس يقضون أوقات فراغهم فى الاستماع إلى الغناء أو الموسيقى أو فى حضور مجالس الوعظ ومجالس القصص أو مشاهدة حفلات سباق الخيل أو اللعب بالطيور وغير ذلك . .

ومجالس الوعظ كالمدارس الشعبية . وقد ظلت المساجد تؤدى مهمة الوعظ حتى أنشئت المدارس ، كالمدرسة النظامية التى أسست فى سنة ٤٥٧/١٠٦٤ ، ومدرسة أبى حنيفة (٤٥٩/١٠٦٦) . وتمتاز مجالس الوعظ عن مجالس الثقافة بحضور الناس فيها دون شرط أو قيد . وهى تعالج مسائل الدين والدنيا . ولا شك أنه كان لمجالس الوعظ أثر ملحوظ فى حفظ بعض التراث الإسلامى ولا سيما ما يتعلق منه بالقيم والمثل الإسلامية العليا .

ومجالس القصص تستهوى العامة عادة . فهى تعقد فى الطرقات وفى المنازل وفى المساجد . ويختلف القاص عن الواعظ فى أنه يقص حكايات الأقدمين وما تنطوى عليه من شجاعة أو صفات عالية كالنجدة والكرم والوفاء ونحوها . وعمل الواعظ ينطوى على تخويف

---

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٥ .

(٢) كتاب العسجد المسبوك فى سيرة الخلفاء والملوك ، انظر ناجى معروف كتاب المجالس الشرابية ص ٣١ — ٣٢ .

الناس من عذاب الله ويحض على التمسك بأحكام الدين . ومجالس القصص هى تراث شعبى أصيل ، ورثه العرب عن آبائهم الأقدمين . لذلك فإن مادة القصص تقوم على ذكر أيام العرب وأخبار الأمم المجاورة .

وقد ذكر القرآن الكريم كلمة « قَصَص » فى مواضع كثيرة (١) . وهذا دليل واضح على مدى شيوع القصص عند العرب .

وقد تمتع رجال القصص الدينى باحترام العامة ورجال الحكم ، على حين وقف الفقهاء من القصاصين العامين موقفا عدائيا ورموهم بالجهل وتضليل العامة .

وقد ذكر نظامى عروضى (٢) أن الأمير طغانشاه بن ألب أرسلان حاكم هراة فى عهد أبيه كان ذات يوم يلعب النرد (٣) مع البديهى الشاعر . وكان اللعب على عشرة آلاف دينار . ولما أوشك اللعب على الانتهاء « كان عند الأمير حجران فى بيت (٤) » « الشيش » ولأحمد البديهى حجران (٥) فى بيت « اليك » واللعب للأمير . فاحتاط كثيراً ، ثم رمى ليأتى « بالدش » فجاء الزهر « هَبْيَك » . فغضب الأمير غضبا شديداً وخرج عن طبعه ، واشتد به الغضب ، فكان يمسك السيف كل لحظة ، وارتعدت فرائص الندماء . فقد كان أميراً حدثا ومَقْمورا (٦) محرجا (٧) . فنهض أبو بكر الأزرقى واقترب من المطربين وأنشد هذا الدوبيت (٨) .

إذا طلب دوش يأتى الهبيك
حتى لا تظن أن الزهر لا يعدل
فإن هذه « الضربة » التى ضربها هى مقصد الملك
جاءت على الخدمة ساجدة على الأرض (٩) .

---

(١) أنظر سورة القصص ٢٨ : ٢٥ ، وسورة الأعراف ٧ : ١٠١ ، وسورة يوسف ١٢ : ٣.
(٢) جهار مقاله ، ترجمه ص ٥١ — ٥٢ .
(٣) وتسمى هذه اللعبة عند جمهور المصريين « الضمنة » .
(٤) يعنى إحدى خانات لوحة هذه اللعبة .
(٥) هو حجر من أحجار النرد عليه علامتان .
(٦) أى أنه يلعب القمار .
(٧) أنانى يحب أن يحرج زميله .
(٨) نوع من أوزان الشعر يجرى على خلاف بحور الشعر التى أقرها العرب وهى ثمانية عشر بحرا .
(٩) يقصد أن الدش قد جاء كما أراد الأمير ، إلا أنه احتراما للأمير قد وضع وجهه على الأرض فظهر الهبيك . وهذا يدل على مبلغ استهتار الأمراء بالشعوب وأنانيتهم وحبهم للسيطرة .

وكان السلطان ملكشاه السلجوقى مولعا بلعب الجوكان ولعبة البولو . وكان كثيراً ما يخرج للصيد [١] . اصطاد ذات مرة طيراً كثيراً ، فأمر بعده ، فكان ، كما قيل ، عشرة آلاف ، فتصدق بعشرة آلاف دينار ، وقال إننى أخاف من الله كيف ازهقت أرواح هذه الحيوانات دون سبب يدعو لاستعمالها فى الطعام ، وفرق كثيراً من الثياب والأموال بين أصحابه . وكان كلما صاد شيئا من الطير أو الحيوان تصدق بعدده دنانير [٢] . وقد ضرب المثل بمهارة ملكشاه فى الصيد ، حتى قيل إنه كان يحتفل ببناء المآذن من جماجم وقرون الحيوانات التى اصطادها . وقد بلغ من ولعه بالصيد أنه أمر بأن يحتفظ بسجل خاص لكل ما كان يصيده فى كل مرة ، حتى قيل إن ما صاده بلغ سبعين غزالا فى اليوم . وقد رأى مؤلف كتاب « راحة الصدور » نفسه أحد هذه السجلات بخط الشاعر أبى طاهر الخاتونى الذى نظم ديوانا يعد من أقدم دواوين الشعر الفارسى ، عنوانه « مناقب الشعراء » [٣] . وليس لهذا الديوان وجود الآن .

وقد سارت مهارة السلطان ملكشاه فى الصيد على كل لسان ، حتى إنه بنى فى السبعينى بطريق مكة منارة من جماجم الحيوانات التى اصطادها بنفسه ، كما بنى منارة أخرى مماثلة ببلاد ما وراء النهر [٤] .

ومن أنواع التسلية اللعب بالطيور ويقصد بها الحمام ، وتربيته هواية محببة إلى كثير من الناس [٥] . ولم يكن اللعب بالطيور مقصورا على العامة ، فقد شاركتهم فى ذلك الطبقات الأخرى على اختلاف مستوياتها الاجتماعية . واستمر اللعب بالطيور والاهتمام بها طوال العصر العباسى الثانى . ولكن أكثر الناس كلفا بها هم الخصيان . وقد عنى الخلفاء بالطيور فاستخدموها فى المراسلة ، فاقتنوا أجودها وحسنوا سلالتها [٦] .

وقد عملت بعض الحكومات على محاربة هذه الهواية ، لأن بعض الشبان اتخذوها وسيلة للنظر إلى نساء الجيران وإقلاق راحة الناس وما يستتبع ذلك من الصياح ورمى الأحجار وتساقطها على سطوح المنازل المجاورة [٧] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٨ .
(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٧٩ .
(٣) Browne, II, 183 — 184.
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٩ .
(٥) الدميرى : حياة الحيوان الكبرى ج ١ ص ٣٢٧ .
(٦) الغزولى : مطالع البدور فى منازل السرور ج ٢ ص ٢٦٠ .
(٧) الدميرى ج ١ ص ٣٢٧ ، ٣٣٣ .

وكان سباق الخيل من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والأمراء والولاة وكبار رجال الدولة . وقد أباح الفقهاء هذه الرياضة على ألا تكون وسيلة للحصول على المال ، لما فيها من إعداد الجند لركوب الخيل عند نشوب الحرب . وقد بلغ من شغف الناس بالسباق أن كان السابق يستولى فى بعض الأحيان على الحصان المسبوق(١) .

وسباق الخيل هواية قديمة فى بلاد العراق ، وكان الخلفاء يحرصون على مشاهدة هذه الرياضة . ومن الخلفاء الذين عنوا بها المقتدر (ت ٣٢٠ هـ) . كما كان العامة يحرصون على مشاهدة سباق الخيل ويبادرون إلى تهنئة الفائز . وكانت الفروسية ، شأنها فى كل زمان ، تستهوى نفوس الشباب ، وأصبح من الشائع التدريب على الرمى(٢).

وقد وصف الفقيه القضاعى (ت ٤٥٤ هـ) عرض الخيل فقال إنه من عجائب الإسلام الأربعة ، وهى هذا العرض ورمضان بمكة والعيد بطرسوس والجمعة ببغداد . وقد أضاف هذا الفقيه المؤرخ أنه بقى منها فى أيامه شهر رمضان بمكة والجمعة ببغداد(٣).

وكانت حلبة السباق بمثابة الأعياد لما كان يصحبها من إقامة معالم الزينة وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة التامة . وفى هذه الحلبات يجلس الناس لمشاهدة السباق ، كما جرت عادتهم بمثل ذلك فى الاحتفال بالأعياد .

وقد عنى الخلفاء الفاطميون بعرض الخيل قبل سيرها فى الموكب ، فيجلس الخليفة على مرتبة عالية فى الشباك(٤) .

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية : ترجمة جـ ٢ ص ٢١٥ .

(٢) ابن الجوزى . المنتظم جـ ٩ ص ٤٩ .

(٣) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣١٨ — ٣١٩ .

(٤) وهو بناء مغلق من ثلاث جهات ومفتوح من الجهة الرابعة التى قد يوضع فيها حاجز من الحديد . المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤٧٧ .

مصادر الكتاب

أولاً — المصادر العربية والفارسية

ابن الأثير (ت ٦٣٠ / ١٢٣٢) : على بن أحمد

١ — الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزءاً (القاهرة ١٢٩٠ هـ)

٢ — التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل ، ج ٢ من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ، المؤرخون الشرقيون .

الإدريسى (ت ٦٤٩ / ١٢٥١) : الشريف محمد بن عبد العزيز

٣ — نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان (رومة ١٥٩٢)

٤ — المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ليدن ١٨٩٤)

خريطة الإدريسى (طبعها كنزاد ميلر ١٩٢٦) والمجمع العلمى العراقى .

الإدفوى (ت ٧٤٨ / ١٣٤٧)

٥ — الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد (القاهرة ١٣٣٣ / ١٩١٤)

ابن اسفنديار (ت ٦١٧ / ١٢٢٠) : محمد بن الحسن

٦ — تاريخ طبرستان ، انتهى من تاريخه سنة ٦٠٦ هـ ، ثم أكمله مؤرخ آخر إلى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) . حققه عباس إقبال (القاهرة ١٣٢٠ هـ)

ابن إياس (ت ٩٣٠ / ١٥٢٣) محمد بن أحمد

٧ — بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ويعرف بتاريخ مصر .

٣ أجزاء (بولاق ١٣١١ — ١٣١٢ هـ)

ابن بسام (ت ٥٤٢ / ١١٤٧) : أبو الحسن على

٨ — الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨ هـ — ١٣٦٣ م)

ابن بطوطة (ت ٧٧٩ / ١٣٧٨) أبو عبد الله محمد

٩ — تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، ٤ أجزاء ، طبعه وترجمه إلى الفرنسية ديفريمرى وسانجونيتى (باريس ١٨٦٩ — ١٨٧٩) ، والقاهرة ، جزآن ١٣٤٦ / ١٩٢٨) .

البغدادى (ت ٤٦٣ / ١٠٧٠) : الحافظ أبو بكر الخطيب

١٠ — تاريخ بغداد ، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٣٤٩ / ١٩٣١)

البكرى (ت ٤٨٧ / ١٠٩٧) : عبيد الله الأندلسى

١١ — كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، طبعة دى سلان والطبعة الثانية (الجزائر ١٩١١) .

دى بور : ت . ج .

١٢ — تاريخ الفلسفة فى الإسلام (الترجمة بالانجليزية ، لندن ١٩٣٣) ، ترجمة أبى ريدة (الطبعة الثانية ، القاهرة)

البيرونى (ت ٤٤٠ / ١٠٤٨) : أبو الريحان محمد

١٣ — الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبعة أ . سخاو (لندن ١٨٧٩)
وليبزج ١٨٧٨ — ١٨٧٩) .
١٤ — تاريخ الهند ليبزج ١٩٢٥) ترجمه إلى الانجليزية أ . سخاو لندن ١٨٨٧) .
التطيلى (ت ٥٦٩ / ١١٧٣) بنيامين النبارى الأندلسى
١٥ — رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد (بغداد ١٩٤٥) .
جب : سير هاملتون
١٦ — دراسات فى حضارة الإسلام ، ترجمه عن الانجليزية إحسان عباس ، ومحمد نجم ، ومحمود زايد (بيروت ١٩٦٤) .
ابن جبير (ت ٦١٤ / ١٢١٧) : أبو الحسن محمد
١٧ — رحلة ابن جبير ، طبعة و . رايت (ليدن ١٨٥٢) ، ترجمها إلى الانجليزية برود هيرست (لندن ١٨٥٢) .
جرجيس المكين (ت ٦٨٠ / ١٢٧٣) عبد الله .
١٨ — المجموع المبارك ، نشره المستشرق أربنيوس مع ترجمته اللاتينية (ليدن ١٦٢٦) ، وترجمه فاتيير إلى الفرنسية (١٦٥٧) .
الجزنائى : أبو الحسن على
١٩ — زهرة الآس فى بناء مدينة فاس (تلمسان ١٩٢٢) ، (فاس ١٩٢٢)
الجعدى : عمر بن على (ألفه سنة ٥٨٦ هـ)
٢٠ — طبقات فقهاء اليمن ، حققه فؤاد سيد (القاهرة ١٩٥٧) .
الجوزجانى
٢١ — كتاب طبقاتى ناصرى ، طبعه نساو ليز ، وترجمه رافيرتى فى سلسلة مكتبة الهند ، ويتناول الدول المتصلة بالهند . ألفه بعد فتح بغداد (٦٥٦ هـ) بسنتين
ابن الجوزى ت ٥٩٧ / ١٢٠٠ — ١٢٠١) : أبو الفرج عبد الرحمن .
٢٢ — المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم (الهند ١٣٥٨ هـ) .
الجوينى (ت ٦٨١ / ١٢٨٣) : علاء الدين عطا ملك
٢٣ — تاريخ جهان كشا (أو تاريخ فاتح العالم) ٣ أجزاء سلسلة مجموعة جب التذكارية حققه الأستاذ محمد عبد الوهاب القزوينى ، نشر المستشرق هوتسما الفصلين الثالث والأخير من هذا الكتاب .
شلبى : أحمد
٢٤ — التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٤)
٢٥ — المجتمع الإسلامى (القاهرة ١٩٦٣) .
حاجى خليفة (ت ١٠٦٧ / ١٦٥٧) : مصطفى
٢٦ — كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، طبعة فلوجل ، ٧ أجزاء (ليبزج ولندن ١٨٥٣ ـ ١٨٥٨) .
ابن حزم (ت ٤٥٦ / ١٠٦٤) أبو محمد على
٢٧ — الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ) .

حسين أمين

٢٨ — تاريخ العراق فى العصر السلجوقى (بغداد ١٣٨٥ / ١٩٦٥) .

ابن خلدون (ت ٨٠٨ / ١٤٠٥) : عبد الرحمن بن محمد

٢٩ — العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٧٤ هـ ، بيروت ١٨٨٦ م) .

٣٠ — مقدمه ابن خلدون (بيروت ١٩٠٠) ، وترجمها إلى الفرنسية دى سلان وإلى الانجليزية روزنثال .

ابن خلكان (ت ٦٨١/١٢٨١) : شمس الدين أحمد .

٣١ — وفيات الأعيان ، مجلدان (القاهرة ١٣١٠ هـ) . ٦ مجلدات (القاهرة ١٩٤٨) . ترجمه إلى الإنجليزية البارون دى سلان .

الدباغ (ت ٦٩٦/١٢٩٦) : عبد الرحمن .

٣٢ — معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، ٤ أجزاء (تونس ١٣٢٠ هـ) .

ابن دقاق (ت ٨٠٩/١٤٠٦) : إبراهيم بن محمد المصرى

٣٣ — الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ، ٥ (القاهرة ١٣٠٩/١٨٩٣) .

ابن أبى دينار (ت ١١١٠/١٦٩٨) : محمد بن أبى القاسم القيروانى

٣٤ — المونس فى ذكر بلاد إفريقية وتونس (تونس ١٢٨٦ هـ)

الدورى : عبد العزيز

٣٥ — النظم الإسلامية (بغداد ١٩٥٠)

٣٦ — دراسات فى العصور الإسلامية المتأخرة (بغداد ١٩٤٥)

رشيد الدين (ت ٧١٨/١٣١٨) : فضل الله الهمدانى

٣٧ — جامع التواريخ ويتناول تاريخ المغول ، سلسلة جب التذكارية (لندن ١٩١٠) ترجمه إلى الفرنسية « كترمير » .

الحريرى (ت ٥١٥/١١٢١) : أبو محمد القاسم البصرى

٣٨ — مقامات الحريرى (المكتبة التجارية الكبرى ، القاهره)

ابن حزم (٤٥٦/ ١٠٦٤) : أبو محمد على

٣٩ — الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ)

٤٠ — جمهرة أنساب العرب ، طبعة عبد السلام هارون ، دار المعارف (القاهرة ١٩٦٢) .

حسن إبراهيم حسن

٤١ — تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى الاجتماعى ط ٧ جزء أول (القاهرة ١٩٦٤) ، جزء ثان (القاهرة ١٩٦٤) ، جزء ثالث (القاهرة ١٩٦٥) ترجم إلى الفارسية والأردية .

٤٢ — تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٤) .

٤٣ — النظم الإسلامية بالاشتراك ، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٢) .

٤٤ — اليمن البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٨) .

٤٥ — انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٤) .

الراوندى (ت ٥٩٩/١٢٠٢) : محمد بن على

٤٦ — راحة الصدور وآية السرور ، ترجمه لبراهيم أمين ، ونشر النص محمد إقبال ، سلسلة جب التذكارية (لندن ١٩٢١) .

زامباور : إدوارد فون
٤٧ — معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، أخرجه الدكتور زكى محمد حسن ، وحسن أحمد محمود ، جزآن (القاهرة ١٩٥١)
ابن أبى زرع (ت ٧٢٦/١٣٢٦) : أبو الحسن على
٤٨ — الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (الرباط ١٩٣٦)
زهير (ت ٦٥٦/ ١٢٥٨) : أبو الفضل البهاء
٤٩ — البهاء زهير (تأليف الشيخ مصطفى عبد الرازق) القاهرة ١٣٤٨/١٩٣٠
زيادة : نيقولا
٥٠ — الحسبة والمحتسب فى الإسلام (بيروت ١٩٦٢) .
زيدان : جرجى
٥١ — تاريخ التمدن الإسلامى ، ٥ أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٥) .
زيدان : عبد الرحمن
٢٢ — إتحاف أعلام الناس بجمال مدينة مكناس ، ٥ أجزاء (الرباط ١٩٢٩) .
٥٣ — العز والصولة فى معالم الرتبة (الرباط ١٣٨١/١٩٦١) .
السبكى (ت ٧٧١/١٣٦٩) : عبد الوهاب تاج الدين
٥٤ — طبقات الشافعية ، ٦ أجزاء (القاهرة ١٣٢٤ هـ)
ستريتج : جى لى
٥٥ — بغداد فى عهد الخلافة العباسية ، ترجمه بشير فرنسيس ، مطبعة الرابطة (بغداد ١٣٧٣/١٩٥٤) .
٥٦ — بلدان الخلافة الشرقية ، مطبعة الرابطة (بغداد ١٣٧٣/١٩٥٤) .
السخاوى (ت ٩٠٢/١٤٩٦) : أبو الحسن على
٥٧ — تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات (القاهرة ١٣٥٦/١٩٣٧) .
ابن سعيد (ت ٦٧٣/١٢٧٥) : على بن موسى الأندلسى
٥٨ — كتاب المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق (ليدن ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩) ،
السلاوى : أبو العباس أحمد
٥٩ — الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٤ مجلدات (القاهرة ١٩١٠ ـ ١٩١٢) ، ١٠ مجلدات (الدار البيضاء ١٩٥٤) .
السمرقندى : أحمد بن عمر نظامى عروضى
٦٠ — جهار مقالة (ليدن ١٣٢٧ هـ) ترجمه إلى الانجليزية إدوارد براون ، وإلى العربية عزام والخشاب ، مع تعليقات ميرزا محمد .
السمعانى (ت ٥٦٢/١١٦٦ ـ ١١٦٧) : القاضى أبو سعيد عبد الكريم .
٦١ — كتاب الأنساب ، سلسلة جب التذكارية ، ج ٢٠ (لندن ١٩١٢) .
ابن سيدة (ت ٤٥٨/١٠٦٥) : أبو الحسن على الأندلسى

٦٢ — كتاب المخصص ، ٢٠ جزءا (القاهرة ١٣٢١ هـ) .

السيوطى (ت ٩١١/١٥٠٥) : جلال الدين عبد الرحمن

٦٣ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزآن (القاهرة ١٢٣٧ هـ) ، ترجمه إلى الانجليزية هـ . جاريت (كلكتا ١٨٨١) .

٦٤ — تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٣٥١ هـ) .

أبو شامة (ت ٦٦٥/١٢٦٧) .

٦٥ — الروضتين فى أخبار الدولتين ، مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ، المؤرخون الشرقيون ، المجلد الثالث ، (القاهرة ١٢٨٧ هـ)

أبو شجاع (ت ٤٨٨/١٠٩٥) : محمد بن الحسين الروذراوردى

٦٦ — ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه ، طبعة أمدروز ، ترجمه إلى الانجليزية أمدروز ، (أكسفورد ١٩٢١) .

ابن شداد (ت ٦٣٢/١٢٣٤) .

٦٧ — النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ، المؤرخون الشرقيون ، المجلد الثالث ، (القاهرة ١٣١٧) .

الشيزرى (ت ـ حول ٥٨٩/١١٩٣) : عبد الرحمن بن نصر

٦٨ — نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، طبعة السيد الباز العرينى (القاهرة ١٣٦٥/١٩٤٦)

أبو صالح (ت ٦٠٥/١٢٠٨) : الأرمنى .

٦٩ — كتاب كنائس وأديرة مصر ، طبعة ب . إفيتس (اكسفورد ١٨٩٥) .

الطرطوشى (ت ٥٢٠/١١٢٦) : أبو بكر محمد .

٧٠ — سراج الملوك (القاهرة ١٢٨٩ هـ) .

ابن طباطبا (ت ٧٠٩/١٣٠٩) : محمد بن على ويعرف بابن الطقطقى .

٧١ — الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية (القاهرة ١٣٤٥/١٩٢٧) ، ترجمه إلى الإنجليزية هويتنج (لندن ١٩٤٧) .

الطوسى (ت ٤٦٠/١٠٦٧) : محمد بن الحسن

٧٢ — فهرست الشيعة (كلكتا ١٨٥٥) ، النجف (١٣٨٠/١٩٦١) .

ابن أبى طى (ت ٦٣٠/١٢٣٢) : يحيى بن حميدة

٧٣ — شرح لامية العرب للشنفرى

ابن عبد الحق (ت ٧٣٩/١٣٣٨) .

٧٤ — مراصد الاطلاع ، أربعة أجزاء (لندن ١٨٥٣) .

العماد الأصفهانى (ت ٥٩٧/١٢٠٠ ـ ١٢٠١) : أبو عبد الله محمد

٧٥ — زبدة النصرة ونخبة العصرة ، طبعة هوتسما (ليدن ١٨٨٦ م) .

عبد اللطيف (ت ٦٢٩/١٢٣١) : موفق الدين البغدادى

٧٦ — الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، نشره وترجمه دى ساسى (باريس ١٨١٠)

٧٧ — مختصر تاريخ مصر ، ترجمة ج . هوايت (اكسفورد ١٨٠٠)

عبد النعيم حسنين

٧٨ ـــ سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩) .
العتبى (ت ٤٢٨ /١٠٣٧) : أبو نصر
٧٩ ـــ حياة السلطان محمود الغزنوى المسمى تاريخ اليمينى . جزآن (القاهرة ١٢٨٦ هـ)
ابن عذارى (ت القرن السابع الهجرى) : أبو عبد الله محمد المراكشى .
٨٠ ـــ البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ٣ أجزاء ، طبعة دوزى (ليدن ١٨٤٨ ـ ١٨٥١) .
ابن عربى (ت ٦٣٨/١٢٤٠) : محيي الدين
٨١ ـــ كتاب فصوص الحكم (نشره الدكتور أبو العلا عفيفى (القاهرة ١٩٤٦) .
الغزولى (ت ٨١٥/١٤١٢) : علاء الدين الدمشقى
٨٢ ـــ مطالع البدور فى منازل السرور (القاهرة ١٣٠٠ هـ)
علام : عبد الله
٨٣ ـــ الدعوة الموحدية بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤) .
العلى : صالح أحمد
٨٤ ـــ المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز (بحث مستل من المجلد الحادى عشر لمجلة المجمع العلمى العراقى ، بغداد ١٣٨٣/١٩٦٤) .
عمارة اليمنى (ت٥٦٩/١١٧٤) .
٨٥ ـــ تاريخ اليمن (طبعة هنرى كاسيل ، لندن ١٨٩٢) .
الغزالى (ت ٥٠٥/١١١١) : الإمام أبو حامد
٨٦ ـــ إحياء علوم الدين ، ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٤٨ هـ)
٨٧ ـــ المنقذ من الضلال (دمشق ١٣٥٣/١٩٣٤)
٨٨ ـــ بداية النهاية ، ومنه نسخ خطية ، بمكتبات باريس وبرلين والجزائر .
٨٩ ـــ فضائح الباطنية ، النص العربى والترجمة الألمانية (طبعة ا . جولدسيهر) ليدن ١٩١٦ .
٩٠ ـــ التجريد فى علم التوحيد ، مخطوط بمكتبة الاسكوريال
٩١ ـــ تهافت الفلاسفة ، طبع فى القاهرة غير مرة (بمبلى ١٣٠٤ هـ)
أبو الفدا (ت ٧٣٢ / ١٣٣١) : اسماعيل عماد الدين
٩٢ ـــ المختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء (القسطنطينيه ١٢٨٦ هـ) وجزآن (القاهرة ١٣٥١ هـ)
أبو الفرج (ت ٦٨٥/١٢٨٦) : غريغورس أبو الفرج المعروف بابن العبرى .
٩٣ ـــ مختصر تاريخ الدول ، طبع أكثر من مرة (بيروت ١٨٩٠)
ابن الفوطى (ت ٧٢٣ / ١٣٢٣) عبد الرزاق أحمد الصابونى
٩٤ ـــ الحوادث الجامعة .
ابن القاضى : أحمد بن محمد المكناسى
٩٥ ـــ جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، مخطوط رقم ١٢٤٢ (الرباط) .
القزوينى (ت ٦٨٢ / ١٢٨٣) : أبو عبد الله زكريا
٩٦ ـــ عجائب المخلوقات (لايبسك ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩)
ابن القلانسى (ت ٥٥٥ / ١١٦٠) : أبو يعلى حمزة

٩٧ — ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) .

الكتبي (ت ٧٦٤ / ١٣٦٢ محمد بن شاكر الحلبي

٩٨ — فوات الوفيات ، مجلدان (القاهرة ١٩٥١)

ابن كثير (ت ٧٧٤ / ١٣٧٢) : عماد الدين اسماعيل الدمشقي

٩٩ — البداية والنهاية ، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٣٥١ / ١٩٣٢)

ماجد : عبد المنعم

١٠٠ — نظم الفاطميين ورسومهم جزآن (القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٥) .

الماوردي (ت ٤٥٠ / ١٠٥٧) : أبو الحسن علي البصري

١٠١ — الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨ هـ) وترجمه إلى الانجليزية ك . ا . ج . هويتنج (لندن ١٩٤٧) .

١٠٢ — أدب الوزير ، ويعرف بقوانين الوزارة وسياسة الملك (القاهرة ١٣٤٨ / ١٩٢٩)

متز : آدم

١٠٣ — الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (ترجمه عن الألمانية والانجليزية محمد عبد الهادي أبو ريدة ، جزآن (القاهرة ١٩٤٠ — ١٩٤١)

المراكشي (ت ٦٦٩ / ١٢٧٠) : عبد الواحد

١٠٤ — كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، طبعة دوزي (ليدن ١٨٨١) ، وترجمه إلى الفرنسية فانيان (الجزائر ١٨٩٣) ، (القاهرة ١٩٤٩) .

المقدسي (ت ٣٨٧ / ٩٩٧) شمس الدين أبو عبد الله

١٠٥ — أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن ١٨٧٧) .

المقري (ت ١٠٤١ / ١٦٣٣) : أحمد بن محمد التلمساني

١٠٦ — نفح الطيب من غصن الأندلسي الرطيب ، ٤ أجزاء (القاهرة ١٢٧٩ / ١٨٦٢) ، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٣٦٩ / ١٩٤٩)

١٠٧ — أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨ — ١٣٦٠) .

المقريزي (ت ٨٤٥ / ١٤٤١) : تقي الدين أحمد .

١٠٨ — المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، جزآن (القاهرة ١٢٧٠ هـ) .

١٠٩ — اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا (الفاطميين) [بيت المقدس ١٩٠٨] ، [القاهرة ١٣٦٧ / ١٩٤٨] .

ابن القلانسي (ت ٥٥٥ / ١١٦٠) أبو يعلى حمزة

١١٠ — ذيل كتاب تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ / ١٤٦٩) : جمال الدين بن تغرى بردى .

١١١ — النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٢ جزءاً [القاهرة ١٣٢٨ — ١٣٧٥] .

ابن مماتي (ت ٦٠٦ / ١٢٠٩) : شرف الدين

١١٢ — كتاب قوانين الدواوين طبعة عزيز سوريال عطية (القاهرة ١٩٤٣) .

المؤيد في الدين (ت ٤٧٠ / ١٠٧٧) : الداعي علم الإسلام هبة الله

١١٣ ـــ ديوان المؤيد ، نشره محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩)
١١٤ ـــ السيرة المؤيدية ، (القاهرة ١٩٤٩)
١١٥ ـــ كتاب المجالس المستنصرية ، نشره محمد كامل حسين
١١٦ ـــ نبذ تاريخية جامعة فى أخبار البربر فى القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى كتاب « مفاخر البربر » لمؤلف مجهول الاسم ألفه سنة ٧١٢/١٣١٢ : نشره بروفنسال (الرباط ١٩٣٤)

النسوى (ت قرن ١٣ م) شهاب الدين محمد .
١١٧ ـــ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى (نشره وحققه حافظ أحمد حمدى (القاهرة ١٩٥٣) .

النووى (ت ٦٧٦/١٢٧٧) : أبو زكريا بن شرف
١١٨ ـــ تهذيب الأسماء واللغات ، جزآن [القاهرة بدون تاريخ] .

هلال الصابى (ت ٤٤٨/١٠٥٦) : أبو الحسن بن المحسن
١١٩ ـــ تاريخ ج ٨ [٣٨٩ ـ ٣٩٣ هـ] . ذيل لكتاب تجارب الأمم لمسكويه ، وترجمه مرجليوث .
١٢٠ ـــ تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، طبعة أمدروز

الهنى : محمد بن أحمد
١٢١ ـــ المورد الهنى ، مخطوط بالخزانة العامة ، الرباط

ابن واصل ـــ [ت ٦٩٧ / ١٢٩٧] : جمال الدين
١٢٢ ت مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب . طبعه جمال الشيال ، جزآن [القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧)

وصاف الحضرة [ولد ٦٦٣ هـ] : عبد الله بن فضل الله مؤرخ حياة غازان
١٢٣ ـــ تجزئة الأمصار أو « تاريخى وصاف »

ياقوت [ت ٦٢٦ / ١٢٢٩] : شهاب الدين الرومى
١٢٤ ـــ معجم البلدان ، ١٠ أجزاء [القاهرة ١٣٢٣ / ١٩٠٦] .
١٢٥ ـــ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ويعرف باسم معجم الأدباء طبعة سلسلة جب التذكارية ، ٧ أجزاء [القاهرة ١٩٠٧ ـ ١٩١١] .

ثانيا ــ المصــادر الأفرنجية

Amari, M.

1 — Storia dei dusulmani di Sicilia (Firenze, 1854 - 72).

Amedroz, H.F.

2 — The Office of the cadi in the Ahkâm Sultâniyya of Mâwardî (J.R.A.S., July, 1910).

3 — The Mazâlim jurisdiction in the Ahkâm Sultâniyya of Mâawardi (J.R.A.S., July, 1911).

4 — The Hisba jurisdiction (J.R.A.S., 1916).

Arnold, Sir T.W.

5 — The Preaching of Islam, a history of the Propagation of the muslim Faith, 3rd ed. by Reynold Nicholson (London, 1935).

6 — The Caliphate, Oxford at theClarendon Press (1924).

7 — The Legacy of Islam (edited by T.W. Arnold and A. Guillaume) (Oxford, 1931).

Barker, E.

8 — The Crusades (London, 1925).

Brockelmann, Carl.

9 — Geschichte der Arabischen Litteratur, 2 vols. (Weimar, 1898-1902).

Browne : E.

10 — Literary History of Persia

1. From the Earlies Times until Firdawsi (London, 1909). 2. From Firdawsi to Sa'dî (London, 1906). 3. Persian Literature under Tartar Dominion (1265 - 1502 A.D.). 4. Modern Times (1500 - 1924), (Cambridge, 1930).

11 — An Account of a Rare manuscript History of the Seljuks (London, 1906).

Cahun

12 — Pan Turanian Movement.

مقدمة لتاريخ آسيا والأتراك والمغول الى سنة ١٤٠٥ م .

Darmesteter, James

13 — Le Mahdi depuis les origines de l'Islam jusqu' à nous jours (Paris, 1885).

Dozy, R.

14 — Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu' à la conquête de l'Andalusie par les Almoravides (711 - 1110 A.D.), 4 vols. (Leyden, 1861). Translated into English under the title Spanish Islam by F. G. Stokes (London, 1913).

15 — Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyden, 1861).

16 — Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes (Amsterdam, 1845).
Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 vols. (Leyden, 1881).
Fage, J.D.
17 — An Introduction to the History of West Africa (Cambridge at the University Press, 1955).
Fagnan, E.H.
18 — Additions aux dictionnaires arabes (Algier, 1923).
19 — L,Afrique Septentrionale au XII siècle de notre ère (Constantine, 1900).
Fayzee, Asaf A.A.
20 — Outlines of muhammadaw Law (Oxford University Press, 1955).
Finlay, George
21 — History of the Byzantine Empire (716 - 1500), (London, 1856).
Fischel, Walter J.
22 — The Origin of Banking in Mediaeval Islam : A Contribution to the Economic history of the Jews of Baghdad in the tenth century (J.R.A.S., April, 1933).
23 — Jews in the Economic and political life of mediaeval Islam (London, 1937).
Friedlaender, Israël.
24 — The Heterodoxies of the Shî'ites in the Presentaion of Ibn Hazm, Journal of the American Society, vols. 28 and 29 (New Haven, 1907 and 1909).
Gardet.
25 — La Cité musulmane (Paris, 1954).
Gobineau, De
26 — Religion et Philosphie dans l'Asie Centrale (Paris, 1865).
Goldziher, I.
27 — Mohammed anische Studien (Halle, 1888 - 90).
28 — Le Aogme et la Loi de l'Islam, trans. by Felix Aren (Paris, 1920),
Grunebaum, G.E. von.
29 — Medieval Islam, A Study in the Cultural Orientation, 2nd ed. The University of Chicago Press (Chicago, Illinois, 1953).
30 — Islam, Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition, Rutledge and Kegan Paul Ltd., London (Chicago, 1955).
Guyard, S.
31 — Unity and Variety in Muslim Civilization (ed. by), The University of Chicago Press (Chicago, 1955).
Guyard, S.

32 — Fragments relatifs à la doctrine des Ismaélîs (Paris, 1874).
Haines, Grove.

33 — Africa To Day, ed. by. (Baltimore, 1955).
Hamdânî, H.

34 — Some Unknown Ismâ'îlî Authors (J.R.A.S.), 1933.
Heyd. W.

35 — Histoire du Commerce du Levant au Moyen - Age, 2 vols. (Leipsiz, 1923).
Hitti, Philip K.

36 — History of the Arabs (5th ed. London, 1953).

37 — The Origin of the Islamic State (New York, 1916).
Houtsma

38 — Receuil de textes relatifs à l'Histoire des Seldjoucides (Leyden, 1889).
Howorth, Sir Henry

39 — History of the Mongols, 3 vols. in 4 parts. (London, 1876 - 1888).
Huart, C. L.

40 — Histoire des Arabes, 2 vols. (Paris, 1912).
Hughes, Thomas Patrick

41 — A Dictionary of Islam (London, 1885).
Kremer, Von A.

42 — Orient Under the Caliphs, translated by Khuda Bukhsh (Calcutta, 1920 - 1927).
Lane, Edward W.

43 — Arabian Society in the Middle Ages, ed. by Stanley Lane - Poole, (London, 1883).

44 — Arabic - English Lexicon, 8 parts (London, 1863 - 1893).
Lane - Poole, Stanley

45 — The Story of Cairo (London, 1912).

ترجمه حسن ابراهيم حسن وآخرون الى العربية بعنوان سيرة القاهرة.

46 — History of Egypt in the Middle Ages (London, 1901).

47 — Coins and Medals (London, 1892).

48 — Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem (London, 1893).

49 — The Muhammadaw Dynasties (Paris, 1925).

50 — The Moors in Spain (London, 1887).

51 — Catalogue of the Collection of Arabia Coins Preserved in the Khedivial Library at Cairo (London, 1897).

52 — Coinage of Egypt A. H. 358 - 922, Collection of the British Museum, Oriental Coins (1892).

Lavoix, H.

53 — Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris, Dccoxoi.

Léon l'Africain, Jean.

54 — Description de l'Afrique, trans. by A. Epaulard, 2 vols. (Paris, 1955). English translation under the title : The History and Description of Africa by J. Pory, 3 vols. (London, 1846).

Levy, Reuben.

55 — A Baghdad Chronicale (Cambridge, 1929).

56 — The Social Structure of Islam, 2nd ed. (Cambridge at the University Press (1957).

Lewis, Bernard.

57 — The Origins of Ismâilism (Cambridge,1940).
Isma' ili Notes Reprinted from the B. S. O. F. S. (University of London), vol. XII, Parts 3 and 4 (1948).

58 — The Arabs in History, Hutchison's University Library History (Oxford,1950).

59 — The Fatimids and the Route to India, Extrait de la Revue de la Faculté des Sciences Economiques de l'Université D'Istanbul, 11e année, No. 1 — 4 (Istanbul, 1952).
Mann, J.

60 — The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliph 2 vols. (Oxford, 1920, 1922).
Migeon, G.

61 — Manuel d'Art Musulman, 2 vols. (Paris, 1927).
Nâsir Khosrau (d. 481/1088).

62 — Rélation du voyage de Nasiri Khosrau en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse, Persian Text and Translation by Charles Schefer (Paris, 1881).
Nicholson, Reynold A.

63 — Literary History of the Arabs (Cambridge, 1930).
Nizâm al - Mulk (d. 485/1092), Hassan al - Tûsî

64 — Siasset Naméh, French translation from Persian by C. Schefer, 3 vols. (Paris, 1891 - 97), English translation by Robert Darke (The Book of Government or Rules of Kings) (London, 1960).
O'Leary, De Lacy.

65 — A Short History of the Fatimid Khalifate (London, 1923).
Pauty, E.

66 — Villes spontanées et Villes crées en Islam, Annales de l' Institut d'Etudes Orientales, Université d'Alger, IX (1951).
Provencal, Levi

67 — L' Espagne musulmane au xe siècle, Institutions et vie sociale (Paris, 1932).

68 — La Civilisation arabe en Espagne (Paris, 1948).

69 — Histoire de l' Espagne musulmane, Tome III C L' Espagne du Califat de Cordow (Paris Editions G. P. maisonneuve v Co., 1957).
الشرق الاسلامى والحضارة العربية الأندلسية (تطوان ١٩٥١)
De Reinaud, M.

70 — De l'Art militaire chez les Arabes au Moyen Age, IX/12 (Journal Asiatique, 1848).

71 — Relations Politiques et commerciales de l' Empire romain avec l'Asie Orientale (Journal Asiatique, 1863).
Ross, D.

72 — The Empire of the Seljuk Turks (The Universal History of the World, Vol. V.
De Sacy, Siluestre

73 — Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols. (Paris, 1838).
Sanaullah, M. F.

74 — The Decline of the Seljukid Empire (Calcutta, 1938).
De Slane, M.

75 — Histoire des Berbères et des dynaties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale, Introduction (Algiers, 1852).
Steingass : F.

76 — Persian - English Dictionary (London, 1930).
Stern, G.H.

77 — The Succession to the Fatimid imam al - Amir, the claims of the later Fatimids to the imamate, and the rise of the Tayyibi Ismailism, in Oriens, vol. 4, No. 2 (December, 1951), pp. 193-255.

78 — Marriage in Early Islam (London, 1939).
De Sacy, Silvestre,

79 — Crestomathie Arabe, 3 vols., 2nd. ed. (Paris, 1826 - 1827).
Vasiliev, Alexander A.

80 — History of the Byzantine Empire (324 - 1453), (Wisconsin, 1952).

Whishaw, Bernard

81 — Arabic Spain (London, 1912).

Wiet, Gaston

82 — Précis d'Histoire musulmane d'Egypte, 4 vols. (Le Caire - Rome, 1932 - 35), ed. by G. Wiet.

83 — Histoire de la Nation Egyptiénne, 7 vols. (Paris, 1931 - 40), vol. IV (1939) : L' Egypte Arabe, par G. Wiet (ed. by Hanoutau).

Wüstenfeld, F.

84 — Genealogische Tabellen der Arabischen Stämme und familion (Gottingen, 1852 - 3).

85 — Geschichte der Fatimiden Chalifen (Gottingen, 1881).

86 — Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke (Gottingen, 1882).

Sacy, Siluestre de

87 — Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols. (Paris, 1838).

فهرست

أبان بن عثمان ٤٤٠
إبراهيم بن عبد الملك ٢٢٣
إبراهيم بن يعفر ٢١٧
إبرو – نهر ٣٨٨
أتابك – أتابكة ٢٦ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٨ ، ١٥٧ ، ١٨٤ ، ٢٠٩ ، ٣٠٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٢٤٨ ، ٤٢٦ ، ٥٢٥ ، ٥٥٨
أجتاى – أغطاى ٩٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢
الجوينى ٥١٦
الأحباس ٣٥٩ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢
الأحباش ٢٠٥ ، ٢١١ ، ٦٥٣
الأحساء – الحسا ٢٠ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٤٠٤
أحمد خان ٣٥
أحمد بن المدبر ٣٢٢
أحمد بن يوسف – الكاتب ٣٢٢
الإخشيديون ٣٤٣ ، ٣٧٣ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٥٧١ ، ٥٧٣ ، ٦٢٨
إخوان الصفا ٣٠٥
إدريس الأول ١٢٥ ، ٢٩٣ ، ٣١٠
إدريس الثانى ٢٩٠
أذربيجان ٤ ، ١٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ٥٥٩
أربان الثانى – البابا ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨
أرتق بن أكسب ٦٢ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠٤
الأرجانى ٤٩٩
إبراهيم بن شاه رخ ٩٤
إبراهيم النبى ٢٥٥ ، ٤٦٥
أبق – معز الدين ٦٣
أبين ٤٥٥
أتسز ٢٣ ، ٣٥ ، ٥٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧
ابن الأثير ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١١٩ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٩٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٦٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٤٢٥ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٥٣–٥٥٦ ، ٥٦٦ ، ٦٢٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٤٢ ، ٦٥٤
أحمد بن ملكشاه ٢٩
الأخرم – الحسن بن حيدره ٢٥٩
الأخفش – أبو الحسن على ٤٨٤
أخلاط ٨٥ ، ٨٦ ، ٢٣٤
الأدارسة ١٢٥ ، ١٧٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٣١١ ، ٥٨٩
الإدريسى ٣٧٥ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٨ ، ٥٨٧ – ٥٨٨ ، ٥٩٥ ، ٦٣٠
آران ٨٥ ، ٨٧
أرانيا ٤٢ ، ٥١
أربيل ٧١ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٥٠ ، ٥٥٥ ، ٥٦٤
أرغون ٣١٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦٧
أرسلان خاتون ١٩ ، ٦٥١
أرسلان بن أرغون ٢٤ ، ٣٩
أرسلان بن سلجوق ٢ ، ٤ ، ١٠

أرسوف ١٠٩ ، ١١٠
الأرك ـ موقعة ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٦٠١ ، ٦٢٤
الأرمن ـ أرمنى ٢٢ ، ٢٤ ، ٨٥ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧
الرها ٢٨ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٣٦١ ، ٦٠٩
الأزهر ٣٨٥ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٩ ، ٦٠٢ ، ٦٠٨ ، ٦١٦ ـ ٦١٩ ، ٦٣٨ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦
أسامة بن زيد ٣٩٠
أستراخان ١٣١
أسد أباد ٤١
أسماء بنت شهاب زوجة الصليحى ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥
إسماعيل بن جعفر ٥٧٥ ، ٥٧٧
إسماعيل بن طغتكين ٢١٤
إسماعيل بن لؤلؤ ٦٤
إسماعيل بن نور الدين ٧٧ ، ٧٨ ، ١٠٨ ، ١٠٩
الإسكندرية ١٢٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٩٥ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٣٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٣ ، ٤٨٢ ، ٤٨٦ ، ٥٣٦ ، ٥٦٤ ، ٥٨٤ ، ٦١٩ ، ٦٢٨
إسوان ٣٩٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٦٢٠
آسيا الصغرى ١ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٦٧ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٥٤ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٣٠٩ ، ٣٨٨ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٥٨٧ .
أرسطو ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٥٣١ ، ٥٣٨ ، ٥٤٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧
أرمينية ٤٢ ، ٦١ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١١١ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٨٣ ، ٣٩٣ ، ٥٩٥ .
أروى الصليحية ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٤٢
الرى ١٤ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٦٨ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ٢٦٩ ، ٣٢٥ ، ٤٢٠ ، ٥٧٥ ، ٦٥١
أسامة بن منقذ ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٤٨٣ ، ٥٥٥ ، ٥٧٤
إسحاق بن حنين ٥١٥
الأسطول ٤٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠٩
الأسطول البيزنطى ٢٣٥
الأسطول الموحدى ٢٢٩
الأسطول المصرى ٢٢٩
الإسماعيلية ١٣ ، ٣٥ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٤٤ ، ٣٧٩ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٨١ ، ٥٢٨ ، ٥٥٨ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٦١٩ ، ٦٢٩ ، ٦٤٩
آسيا ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٣٠٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٥٦٩
أشباخ ١٢٢
أشبونه ـ لشبونه ١٢٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥
الأشرف ـ الملك ٧٨ ، ٨٦ ، ١٣٥ ، ١٤٥
الأشعرى ـ الحسين ٥٦٣

الأشعرية ٣١ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠
الأشمونين ١٨٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٧٧
أطلس ـ جبال ٣١٠ ، ٥٩٥ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠
إعزاز ١٠٨
إغريق ـ إغـريق ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٥٨٥
إغمات ٢٩٨ ، ٥٩٥
أفامية ٦٧
أفريقيا ٣٠٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٥٨٧ ، ٦٢٦
إفريقية (تونس) ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٧٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٩١ ، ٢٩٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٩٤ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٥٦ ، ٤٧٧ ، ٤٩٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٨٤ ، ٥٩٧ ، ٦٠١ ، ٦٢٩
الأفضل ـ بن بدر الجمالى ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٠٧ ، ٢٦٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٦٧ ، ٣٧٩ ، ٤٣٢ ، ٤٥٣ ، ٤٨٤ ، ٦٣٥
ألتـكين ٢٦
ألموت ـ قلعة ٣٥ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢
إشـبيلية ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٦٨ ، ٤٧٤ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥٤٣ ، ٥٤٧ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٩٩ ، ٦٠٧ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٣٠
أصبهان ـ إصفهان ٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٧ ، ٩٤ ، ٢٦٨ ، ٣٢٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٥٦٥ ، ٥٧٥ ، ٦٥٣
أفتـكين ١٨٠ ، ١٨١
الأفضلية ـ مدرسة ٤٨٢
أفغان ـ أفغانستان ١٣١ ، ٣٨٧ ، ٤٠٠
فـلاطون ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٥٣١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤
أقسنقر البرسقى الحاجب ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٣٦٥
الإقطاع ٢٤٤ ، ٢٥٣ ، ٣٤٩
الأكحل ٢٤٠
ألب أرسلان ٧ ، ١٠ ، ١٩ ، ٢٠ ـ ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٤٦١ ، ٤٧٨ ، ٥٢٥ ، ٦٣٧ ، ٦٤٤ ، ٦٥٤
البانيا ٢٦٧
آمد ٦٧ ، ٨١
الآمر ـ الفاطمى ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٠٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٦٧ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٤٣٦ ، ٤٨٤ ، ٦١٨ ، ٦٤٧
الأناضول ٨٥
الأندلس ـ أسبانيا ١١٢ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٣٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٩٤ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٩ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣ ،

٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ،
٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ،
٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ،
٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ ،
٥٣٧ ، ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ،
٥٥٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ،
٥٨٢ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ،
٦٠١ ، ٦٠٧ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٨ ،
٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦ ،
٦٣٨ ، ٦٤٣

أنوسنت الثالث ـ البابا ٢٥١
أنوشتكين ٢٦ ، ٩٥ ، ٩٧
أنوشروان ـ كسرى ٤٢٧
الأهواز ١٤ ، ٢١٦ ، ٤٥٢
أوتو ـ الامبراطور ٣٣٢
أورال ـ جبال ٩٦
الأنبار ٣٢٤
إندونيسيا ٤٠١
أنطاكية ٢٩ ، ١١٠ ، ١٨١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،
٢٤٩ ، ٢٧٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،
٤٠٨ ، ٤١٩
أنو شروان ـ خالد ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ،
٥٠٥ ، ٥٥٨
أوال ـ جزيرة ٢٥٦ ، ٢٥٨
أود غشت ٣١٢
أوربة ـ قبيلة بربرية ١٢٥ ، ٢٢٢ ، ٢٩٠
أوزون حسن ٣١٩
أوغنده ٢ ٤
إياز ٢٤ ، ٢٦ ، ٤٣
أيبك ـ قطب الدين ١٧١
إيطاليا ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٣٧٣ ،
٣٧٥ ، ٤٠٨ ، ٥٤٦ ، ٦٣٩
أيلة ٤٠٧
إيلك خان ٤
الكسيس ٢٥١
أيوب بن طغتكين ٢١٤
الأيوبيون ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٤ ـ ١١٥ ،
١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،
٢١٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤ ،
٣٣٨ ، ٣٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥ ،
٣٨٥ ، ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٨٧ ،
٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥٠٨ ، ٥٢٠ ، ٥٧١ ،
٥٧٩ ، ٥٩١ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٢٧ ،
٦٢٨ ، ٦٣٨ ، ٦٤٢
أورشليم ١١٣ ، ٢٤٧
أونك خان ١٣٦
إيران ـ فارس ٣٤ ، ٣٥ ، ٧٢ ، ٩٦ ، ١٠١ ،
١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ٥٤٨ ، ٥٦٠ ،
٥٨٦
أينال ـ إبراهيم ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٩
الأوزاعى ٤٥٠
أيبك ـ عز الدين ٣٢٢ ، ٣٦٧
أيل أرسلان ٩٨
ايلغازى ٤١ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٣٦٦
الكسيوس ـ الامبراطور ٢٤٦

ب

باب الأبواب ٤٢ ، ٣٤١
البابا ١٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٥٣٠
ابن بابشاذ ٤٧٣
باب كلواذى ١٥٩
البابين ـ موقعة ١٩١
باتو بن جوجى ١٥١ ، ١٥٢
ابن باجه ٢٤٤ ، ٥٣٧ ـ ٥٣٩ ، ٥٤٠
باجو ١٥٧ ، ١٥٨
باريس ١٢٢ ، ٥٤٧ ، ٥٧١ ، ٥٨٠
باشر ـ تل ٦٨ ، ١٨٣

الباطنية ١٣ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٨٢ ، فى فارس والشام ٢٦٨ — ٢٧٩ ، ٣٢٤ ، ٣٤٤ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٦٣ ، فى رأى المؤيد ٤٦٤ — ٤٦٦ ، ٥٣٦

باميان ١٠٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧

بانياس ٥٢

بايزيد الثانى العثمانى ١٣٠

بجاية ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٩٥ ، ٣٧٦ ، ٤١٧

البحيرة — موقعة بالمغرب ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٧٠

البحرين ٩٤ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩

بخارى ١ ، ٢ ، ٢٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٣٤٤ ، ٤٠٥ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٥٢٦ ، ٥٦٣ ، ٥٧٥

البخارى ٣٦ ، ٤٤٦ — ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٧٩

بدر الجمالى ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ٢٠٦ ، ٢٦٨ ، ٣١٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٤٣٢ ، ٤٥٣ ، ٤٨٤ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٢٠ ، ٦٣٥ ، ٦٥١

البديعية ١٨٢

براك حاجب ٩٢

البرامكة ٣٠ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٥٦٤

البرانس — جبال ١١٩

البرانس — قبيلة مغربية ٢٨٩ ، ٢٩٠

البربر ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ٢٢١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣١١ ، ٣٨٢ ، ٤٠٠ ، ٤١٢ ، ٥٢٩ ، ٥٩٥ ، ٦٠٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠

البرتقال ١٢٨

برغواطة — البرغواطيين ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩

البغوى — الفراء ٣٦ ، ٤٤٧

بركياروق بن ملكشاه ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ — ٤٣ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٩٥ ، ٣٢٧ ، ٢٢٨ ، ٦٤٢

بروقانس — مقاطعة بفرنسا ٤٠٤ ، ٤٠٥

ابن برى النحوى ٤٧٣ — ٤٧٦

البريد ٣٤٣

البساسيرى — أبو الحارث ١١ — ١٧ ، ١٤١ ، ٢٣٧ ، ٤٥٢ ، ٥٧٨ ، ٦٣٣

بست ١٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٦

ابن بسطام — التبريزى اللغوى ٣٦ ، ٤٧٥

ابن بشكوال ٤٤١ ، ٥٨٣

البصرة ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٢١٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٦ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٥٣ ، ٤٧٤ ، ٥٠٤ ، ٥٦٤ ، ٦٠٥ ، ٦٤٩

البطائح ٤٢

ابن البطائحى — الوزير المأمون ٣٣٠ ، ٣٨٠

بطرس الناسك ٢٤٤ ، ٤٢٥

ابن بطلان — الطبيب ٥١٩

البطليوسى النحوى الأندلسى ٤٧٣

ابن بطوطة ٥٦٧

بعقوبا — درب شرقى بغداد ١٥٩

بعلبك ١٠٤ ، ١٠٨ ، ٣٤٤

بغداد البساسيرى يهدد بغداد ١١ — ١٩ ، ٢١

فى عهد ملكشاه ٢٧ — ٢٩

المدرسة النظامية فى بغداد ٣١ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ،

٥٠ فى عهد مسعود بن محمد بن ملكشاه ٥٢ — ٥٨ ، علاقة عماد الدين زنكى ببغداد ٦٩ — ٧٣ ، ١١٧ سقوط بغداد ١٥٤ — ١٦٣ ، ٢١٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٩٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ،

٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ،
٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٣ ،
٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ،
٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٩٧ ،
٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ،
٤٢٥ ، ٤٣٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ،
٤٥٣ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ،
٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٩٤ ، ٥١٩ ،
٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣٢ ، ٥٤٧ ، ٥٥٥ ،
٥٥٧ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٧٤ ،
٥٧٨ ، ٥٨١ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٩ ،
٥٩٠ ، ٥٩٧ ، ٦٠٥ ، ٦٢٢ ، ٦٢٥ ،
٦٢٦ ، ٦٣٢ ، ٦٤٤ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ،
٦٥١ ، ٦٥٦

البغدادى ـ الخطيب ١٥ ، ٢٧ ، ٥٥٣ ،
٥٥٦ ، ٥٦٦

البغدادى ـ عبد اللطيف ١١٢

بغراخان ـ ملك تركستان ٢ ، ٤

ابن بطوطة ٥٦٧

البغوى ـ الفراء ٣٦ ، ٤٤٧

بقراط ـ أبقراط ٥١٧ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٣١

أبو بكر بن عمر ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٦٤٢

أبو بكر ـ الصديق ٢٠٢ ، ٥٥٧ ، ٥٨٤

البكرى ـ أبو عبيد ٥٦٥ ، ٥٨٠ ، ٥٨٤

بكين ١٣٤ ، ١٥٤

بلال بن نجاح اليمنى ٢٠٦

بلبيس ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢

بلخ ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٥٨ ، ٩٦ ، ١٤٠ ،
١٤٣ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،
٥٢٦

البلخى ـ حميد الدين أبو بكر ٣٦ ، ٥٠٨

بلدوين ـ ملك بيت المقدس ٤٥ ، ٨١ ، ٢٤٧ ،

بلنسية ١٢٤ ، ٢٢٥ ، ٤٥٣ ، ٤٧٣ ، ٥١٢ ،
٥٨٤ ، ٦٣٠

البلبار ـ جزائر ٣٧٥

بمبلونه ٢٣١

بهاء الدين سام الغورى ١٤٦ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ،
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥

البهاء زهير ٤٨٩ ـ ٤٩١

البهائية ٥٤٨

بهرام الأرمنى ١٨٣ ، ١٨٤

بهرام شاه ٣٥ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦

البهرة ٢٤٢ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧

البهنسا ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٥٧٢

البوذية ١٣٤ ، ١٥٢

البوسفور ٢٤٦

بولنده ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٢

البويهيون ـ بنو بويه ـ فى أواخر عهدهم
١٠ ـ ١٧ ، ٣١ ، ٤١ ، ٢٣٥ ،
٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٤٣ ، ٤٢٠ ، ٥٥٤ ،
٦٢٦

بيبرس ١١٤ ، ١١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ،
٣٢٤ ، ٤٠٨ ، ٥٣٨

بيت المال ٤٠ ، ٥٠ ، ١٠٥ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ،
٣٤٠ ، ٣٤٦ ـ ٣٥٩ ، ٣٧٧ ،
٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٤٢٨ ، ٤٣٧ ، ٦٠٦ ،
٦١٣ ، ٦٤٦

بيت المقدس ٢٣ ، ٤٥ ، ٨١ ، ١٠٥ ، ١١٠ ،
١١١ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ،
٢٤٧ ، ٣١٢ ، ٤٠٨ ، ٤٥٣ ، ٥٠٨ ،
٥٣٢ ، ٥٥٤ ، ٥٨٤ ، ٥٩١

بيدار ـ التتارى ١٥١ ، ١٥٢

البيدق ـ أبو بكر الصنهاجى ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،
٣٠٢

بيروت ٥٦٠ ، ٥٧٣

البيرونى ٣٠٣ ، ٥٢٤ ، ٥٥٢ ـ ٥٥٣ ،
٥٦٦ ، ٥٨٣

بيزه ٢٤٤

البيزنطيون ٢١ ، ٢٢ ، ٨٥ ، ١٦٤ ، ٢٣٤ ،
٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ،

٤١٨ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٥٧٦ ، ٦٠١ ،
٦١٥ ، ٦٤٤
بيسان ٥٠٨
البيسانى ـ القاضى الفاضل ٣٣٤ ، ٤٢٦ ،
٤٣٢ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠
ابن البيطار ٣٨٨
بيغو ٢ ، ٤ ، ١٠
بيمارستان ٥٢٢ ، ٥٢٣
بيهق ـ البيهقية ٥٨ ، ٤٢٥ ، ٦٠٦

(ت)

تاجة ـ نهر بالأندلس ٣٣٨
تارودانت ـ مدينة بالمغرب ١١٨ ، ٢٨٨
تازا ـ مدينة بالمغرب ٢٢٢
ابن تاشفين ـ يوسف ١١٨ ـ ١٢٥ ، ١٢٦ ،
٢٨٧ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦
ابن تاشفين ـ على ١٢٥ ـ ١٢٩ ، ٣٠٢ ،
٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٣٦ ،
٣٣٩ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٤٠٣ ،
٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،
٤٨٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ،
٥١٤ ، ٥٢٩ ، ٥٣٣ ، ٥٣٨ ، ٥٨٠ ،
٥٨٩ ، ٥٩٧ ، ٦٢٨ ، ٦٣٥ ، ٦٤٢ ،
٦٤٣ .
تانكرد ـ أحد قواد الصليبيين ٢٤٧
تايلاند ٤٠١
تبريز ٥٣ ، ٥٤ ، ٨٧ ، ١٤٥ ، ٣٩١ ،
٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٦٥١
التبت ٥٤ ، ٤٠٠
التتار ـ المغول ١ ، ١٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٩٤ ،
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٠ ـ ١٦٣ ،
٢٦٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٧ ، ٣٦٣ ، ٤٢١ ،
٤٣٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ،
٥٦٢ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ،
٥٦٩ ، ٥٧٠
تتش ٢٤ ، ٣٩ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٨٠
التختجية ـ إحدى فرق النصيرية ٢٦٧
تركان خاتون ـ زوجة ملكشاه ٢٩ ، ٣٢ ،
٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٦٤١ ، ٦٥٢
تركستان ٩٨ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
١٥٤ ، ٢٦٧
التركمان ٦٧ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٣١ ،
١٤٥ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
١٩٥ ، ٣٦٢
تركيا ٢٦٧ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٦٢٦ ،
٦٢٧ ، ٦٤٢
ترمذ ـ الترمذى ٢٦ ، ٩٦ ، ٤٤٧
تستر ـ أشهر مدن خوزستان ٣٩٣
التسترى ـ نوع من الحرير ٣٩٣
تعز باليمن ٢١٦
التفسير ٣٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ — ٤٤٦ ،
٥٥٧
تفليس ٨٧ ، ١٤٥ ، ١٥٠
تقاق أبو سالجوق ١ ، ٣
تكريت ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٨٠ ،
١٠٤ ، ١٣٤
تكش بن ملكشاه ٢٤ ، ٩٧ ، ٦٨
تلمسان — مدينة بالجزائر ١٢٩ ، ٢١٩ ،
٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٣١١ ،
٣٧٦ ، ٤٠٥ ، ٤١٧ ، ٥٨٩
تمبكتو — قرب نهر النيجر ٣١١
تميم بن يوسف بن تاشفين ١٢٧
تنيس — جزيره وبلدة بمصر ٣٧٣ ، ٣٩٢ ،
٣٩٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٦
تهامه ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٤٨٢ ، ٤٨٦
تورانشاه ٨٧ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ٢٠٩ ،
٢١٤ ، ٣٢٣
ابن تومرت — المهدى محمد ١٢٥ ، ٢١٩ ،

٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٩٢ ـ ٣٠٢ ، ٣٠٦ ،
٣٠٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،
٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٥٢٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤٢ ،
٥٨٦ ، ٦٢١
تيمورلنك ٨١ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٥٦٩ ،
٥٧٠ ، ٥٧١
تينمل ـ قبيلة بالمغرب ٢٢٠ ، ٢٩٨ ، ٣٠١
تيودور ـ الإمبراطور ٢٣٥

(ث)

ابن ثعلبه ـ تيم الله ـ وادى غربى دمشق ٢٦١
ثغر ـ ثغور ١٠٦ ، ٢٣٠ ، ٢٨٥ ، ٣٣١ ،
٣٦١ ، ٣٧٢ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٦ ،
٤١٣ ، ٤٢٤ ، ٤٣٧ ، ٦١٥

(ج)

جالينوس ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ،
٥٢١
جاوه ٤٠١
الجبل ـ الجبال ـ بلاد ال ١٩ ، ٤٢ ، ٤٧ ،
٥٢ ، ٥٣ ، ٨٧ ، ١٠١ ، ١٣٥ ،
١٤٤ ، ١٤٦ ، ٢١٧
ابن جبير ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٥٨٤ ـ ٥٨٥ ،
٦٠٥ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦
الجدالى ـ يحيى بن إبراهيم ٣١٢
جدميوه ـ قبيلة مغربية ٢٨٨ ، ٣٠١
جده ٤٠٧
جزوله ـ قبيلة مغربية ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠
جرجان ٥ ، ١٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٩٨ ،
٩٩ ، ١٥٠ ، ٤٧١
الجرجانى ـ عبد القادر ٤٧١ ، ٤٧٢
الجرجرائى ـ أبو القاسم الوزير الفاطمى ٣٣٤ ،
٤٣٦
الجزائر ١٢٧ ، ٢١٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٦٣٠
ابن جزلة الطبيب ٥١٩
جزولة ـ قبيلة مغربية ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠
الجزيرة ـ بلاد ال ٤١ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٥٣ ،
٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ،
٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ،
٨٠ ، ٨١ ، ١٠٧ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ،
١٩٣ ، ٢١٤ ، ٢٤٠ ، ٢٦٩ ،
٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٠٢ ، ٥٥٥ ،
٥٥٦ ، ٥٩٤ ، ٦٠٦
الجزيرة الخضراء ـ بالأندلس ١١٢ ، ١٢٣ ،
٢٢٣ ، ٢٢٥
جزيرة ابن عمر ـ قرب الموصل ٥٥٣ ، ٥٥٥
الجزية ١٢٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١٢ ، ٣٤٦ ،
٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٧ ، ٤٠٥
الجسور ٣٥٥ ، ٣٨٩ ، ٦١٠
جعفر بن منصور اليمن ١٩٨ ، ٣٤١ ، ٤٥١ ،
٥٧٧
جغطاى ١٣٨ ، ١٥٠
جموشتكين ٢٦
جنفيسة ـ قبيلة مغربية ٣٠١ ، ٣٠٢
جنوه ٣٥
جنده ٢ ، ٤ ، ٢١ ، ٩٦
جند يسابور ٤٢٧
جنكيزخان ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ،
١٣٦ ـ ١٤٧ ، ١٥٠ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧ ،
٥٦٧ ، ٥٦٨
جنوه ٢٤٤
الجهبذة ٣٣٤ ، ٤٣٦
بنو جهور ـ أصحاب قرطبه ١٢٠ ، ٤٩١ ،
٤٩٣
ابن جهير ـ عميد الدولة الوزير ٣٢٤ ـ ٣٢٥
٣٢٦
ابن جهير ـ فخر الدولة الوزير ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،
٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٦٦

جوا ٢٩٨ ، ٤١٢
جورجيا ١٠٣ ، ١١١ ، ١٥٥ ، ١٦٢
الجوزجانى ١٥٢ ، ١٦٢
جوهر الصقلى ٢٥٦ ، ٣٣٣ ، ٤٢٨ ، ٥٢٨ ،
٥٧١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٩ ،
٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦٤٩
ابن الجوزى — شرف الدين ١٥٥ ، ١٥٦ ،
١٥٩
ابن الجوزى — أبو الفرج ٥٥ ، ٧٢ ، ٥٤٧ ،
٥٥٧ ، ٦٢٥ ، ٦٥٠
جهان كشا ١٥٧
الجوينى — عطا ملك ١٥٧
جياش بن نجاح اليمنى ٢٠٦ ، ٢١٠
جيان — مدينة بالأندلس ١٢٤ ، ٣٦٨ ، ٤٧٧
جيحون — نهر ٢٣ ، ٢٩ ، ١٥٥ ، ٣٤٤ ،
٤٠٤ ، ٥٧٥
الجيزه ١٨٤ ، ١٩٤
الجيش — فى العصر السلجوقى ٣٦٠ — ٣٦٣ ،
أسلحة الجيش ٣٦٣ ، إدرة الجيش ٣٦٤
— ٣٦٦ ، الجيش فى مصر ٣٦٦ — ٣٦٨ ،
فى المغرب ٣٦٨ — ٣٧٢ ، إمرة الأسطول
٣٧٢ — ٣٧٣ ، البحرية ٣٧٣ — ٣٧٦

(ح)

الحاجب — المنصور بن أبى عامر ٦٣٠
الحارث بن هام ٥٠٤ — ٥٠٦ ، ٥٠٧
الحافظ السلفى — الفقيه ١٨٦
الحافظ الفاطمى ١٨١ — ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٩ ،
٣٢١ ، ٣٣٠ ، ٣٦٧ ، ٣٧٩ ، ٤٨٣ ،
٤٨٥ ، ٥٠٨
الحاكم الفاطمى ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
٢٦٤ ، ٣٤٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٧ ، ٤٥١ ،
٤٧٣ ، ٥٢٩ ، ٥٧٢ ، ٥٨٩ ، ٥٩٢ ،
٦١٧ ، ٦٢٨ ، ٦٣٣ ، ٦٤٢ ، ٦٤٦
الحبشة ٢٠٠ ، ٢١٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٩ ، ٤٨٢
ابن حبيب — صاحب الواضحة ٤٤٨
أبو الحجاج يوسف النحوى الاندلسى ٤٧٣ —
٤٧٤
الحج ١٠٩ ، ١١١ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٣ ،
٣١٣ ، ٣٢٥ ، ٤٠٨ ، ٤٥٩ ، ٤٨٦ ،
٥٢٢ ، ٥٣٤ ، ٥٣٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٤ ،
٥٦٢ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٦٤٠ ،
٦٤٤ ، ٦٤٩ ، ٦٥١
الحجاب — الحجابه ٨ ، ٦٧ ، ٩٥ ، ١٢٠ ،
٢١٥ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ،
٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٦١ ، ٣٧٨ ،
٣٨٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦
الحجاز ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٧٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
٢٤٢ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٤٠ ،
٤٠٧ ، ٤١٥ ، ٤٥٣ ، ٥٤٠ ،
٥٤٧ ، ٥٥٦ ، ٥٦٤ ، ٥٨١ ، ٥٨٣ ،
٥٨٦
الحاج بن يوسف ٢٢٢ ، ٢٣٢
الحديث ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣٧ ، ٤٢٥ ، ٤٤٤ ،
٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٨٩ ،
٥٣١ ، ٥٥٦ ، ٥٨٤
ابن حجر العسقلانى ٥٥٦
حران ٢٩ ، ٨٠ ، ٥٦٢
الحريرى — أبو القاسم ٣٢٨ ، ٥٠١ — ٥٠٨ ،
٥٨٦
ابن حزم الظاهرى ٢٧ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٤٤٨ ،
٤٥٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ،
٤٧٠ ، ٥٤٧
الحسن البصرى ٣٥٢
الحسن بن جعفر البرمكى ٢٣٧
الحسن الصباح ٢٦٩ — ٢٧٢ ، ٢٧٧
الحسن الوزان — ليون الإفريقى ٣٨٨ ، ٣٩٦ ،
٤١٧ ، ٦٢٤ ، ٦٢٨

الحسين المحتسب ٢٩٦ ، ٣٤٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٤ ـ ٣٨٦ ، ٥٧٣ ، ٦٤٠ ، ٦٤١
الحسين بن على ٢٨ ، ٤٤٦
الحسين بن القاسم الرسى ٢١٦
الحشاشين ـ الباطنية ١٠٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ـ ٢٧٥ ، ٥٥٧
الحصرى ـ أبو الحسن على ٤٩٨ ـ ٥٠١
حضرموت ٢١٥ ، ٤٠٢
ابن الحضرمى ـ أبو الربيع سليمان ٣٠٠
حطين ـ موقعة ١٠٩ ، ١١١
أبو حفص الصنهاجى ٣٠٠
الحفصيون ٣١٩
حلب ٢٢ ، ٢٨ ، ٤٩ ، ٦٢ . ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ـ ٧٨ ، ٨١ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٤٦ ، ١٨٨ ، ٢٦٥ ، ٣٢٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٧٤ ، ٣٩٤ ، ٤٢١ ، ٤٢٧ ، ٤٧٢ ، ٤٨٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٦٠٦ ، ٦١٣
الحلة ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٣٦٥ ، ٥٢٨ ، ٥٨٦ ، ٦٢٦
حلوان ١٦ ، ١٣٤ ، ٣٤٤ ، ٣٩٠
حمام ـ حمامات ٣٨ ، ٣٨٥ ، ٦٠٣ ، ٦٠٦ ، ٦١٣ ، ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٤٠
حمام الزاجل ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٦١٣
حماه ٦٧ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ٢٦٥ ، ٣٤٤ ، ٥٨٥
ابن حمدين ٤٥٦
حمزه بن على الدرزى ٢٦١ ـ ٢٦٤
حمص ٢٨ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٤ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ٢٦٥ ، ٣٤٤ ، ٤٨٥
ابن حنبل ـ الحنابلة ٢٨ ، ٤٤٧ ، ٤٦١ ، ٤٧٢ ، ٦٠٧ ، ٦٢٦ ، ٦٣١
أبو حنيفة الإمام الأعظم ـ الحنفية ٢٨ ، ١٧٣ ، ١٨٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٩٤ ، ٣٧٧ ، ٤٣٩ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٦٥٣
أبو حنيفة النعمان المغربى ٤٢٨ ، ٤٥١ ، ٥٧٥ ـ ٥٧٧
ابن حوشب ـ الداعى اليمنى ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٤١ ، ٤٥٥ ، ٥٢٨
ابن حوقل ٥٩١
حيدران ـ موقعه ٢٠٣ ، ٢٣٩
ابن حيوس ١٢٤

(خ)

خازن ديوان الحكم ٣٧٨
خازن بيت المال ٣٥٩
خاصبك بن بلنكرى ـ أحد أمراء السلاجقة ٥٨
خان ـ خانات ٦٢
خانقاه ـ خوانق ٣٤٧
خانقين ـ بالعراق ١٥٨
ختكين ـ داعى دعاة الاسماعيلية ٢٦١
الخراج ٢ ، ٢٥ ، ١٥٩ ، ١٨٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣٤٦ ـ ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٣٩٠ ، ٤١٧ ، ٤٨٩ ، ٥٦٢ ، ٥٧٣ ، ٦٥١
خراسان ٤ ، ١٠ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٥ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٣٢٧ ، ٣٤٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٩١ ، ٤٠٥ ، ٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٣٠ ، ٤٧٨ ، ٥٥٦ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ٥٧٥ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ،

٦٠٠ ، ٦٠٦ ، ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٤٩
خزانة المدرسة الأفضلية ٤٨٢
الخزر ـ قزوين ٢٢ ، ٤٠٥ ، ٥٧٠
خسروشاه بن بهرام شاه ١٦٦ ، ١٦٨
ابن الخشاب البغدادى ٤٤١ ، ٤٧١ ، ٤٧٢
الخشبي ـ مؤسس النصيرية ٢٦٦
ابن أبى الخصال ـ من كتاب النثر بالمغرب ٥١١ ـ ٥١٣
الخطا ٩٢ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٣٤ ، ١٦٩ ـ ١٧٣ ، ١٧٧
ابن خلدون ١١٦ ، ٢٢٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٦ ، ٤٣٤ ، ٤٤٠ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٦٧ ، ٤٧٧ ، ٥٣٢ ، ٥٥٧ ، ٥٦٧ ، ٥٩٨
ابن خلكان ١ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٤٦ ، ١٨٥ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٤٢٥ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٨٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٨ ، ٥٣٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٦٣٣ ، ٦٥٣
الخليل بن أحمد ٤٧٤ ، ٤٧٥
الخندق ـ موقعة شمالى الأحساء ٢٥٨ ، ٢٥٩
الخوارج ٣٠٦ ، ٤٦٨
خوارزم ـ خوارزمشاه ١٥ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٤ ـ ٩٦ ، ٩٨ ـ ١٠٢ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، غزو المغول ١٤١ ـ ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٨ ـ ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٣٠٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦١ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٨١
خوارزمشاه ـ علاء الدين محمد ٥٨ ، ٩٤ ، ٩٨ ـ ١٠٢ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٧٦
الخوارزمية ـ الدولة ١ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٤ ، ١٠٤ ، ١٣٣ ، ١٣٤
خوزستان ٤٢ ، ٩٦ ، ٣٨٤ ، ٣٨٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٤٢٧
خيوه ـ بلاد خوارزم ٤٢٠

(د)

دار الإسلام ٢ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤
دار الإمارة ٤ ، ١٧٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤
دار الحديث ـ المدرسة الكاملية ٦٠٨
دار الحرب ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤
دار الحكمة ٢٥٩ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٥١
دار السلطنه ٥٤
دار العلم ١٨٢ ، ٤٣١
دار الضرب ٣٤١ ـ ٣٤٢ ، ٦١٦
دار النيابة ٦١٣
داعى الدعاه ١٢ ، ١٩٨ ، ٢٤١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٤٢٧ ـ ٤٣٠ ، ٤٥٢ ، ٤٦٢ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٦٤٨
دامغان ١٠ ، ٢٦٩
دانية الجزائر ١٢٤ ، ٤٧٧ ، ٦٣٠
الدانيمارك ٥٨٨
داهستان ٤
داود بن سلجوق ٢ ، ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ٢٠
داود بن على ١٢ ، ١٨
دبيس بن صدقة ٤٤ ، ٤٧ ـ ٤٩ ، ٥١ ، ٦٩ ـ ٧٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦
دجلة ـ نهر ٣٨ ، ٤٩ ، ١١٤ ، ١٣٤ ، ١٥٨ ، ٣٠٩ ، ٣٤٤ ، ٣٦٥ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ ، ٤٧١ ، ٤٨٩
دجيل ١٥٨
أبو الدرداء ٤٤٠
الدرزية ـ الدروز ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، دعاة الدروز ٢٥٩ ـ ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٤٥١

درعة ٢٢١ ، ٢٨٧ ، ٤٢٤
الدركزينى — وزير طغرل ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤
درن — جبل بالمغرب ٢٨٨ ، ٣٠٢ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩
الدز ١٠٠ — ١٠١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧
ابن دقاق ٣٩٥ ، ٦٠٢
دقاق بن طغتكين ٦٢ ، ٦٣
الدقهلية ٣٣٨
دلهى ٣٠٩
دمشق ٢٧ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١٠٤ — ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢١٠ ، ٢٦١ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ — ٤٠٦ ، ٤٢٦ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٧ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٥٢٠ ، ٥٣٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٧٣ ، ٥٧٩ ، ٥٨٦ ، ٥٩٨ ، ٦٠٦ ، ٦١٣
دمياط ١٠٤ ، ١١٣ — ١١٥ ، ١٩٤ — ١٩٥ ، ٣٢٣ ، ٣٤٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ — ٣٩٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٦ ، ٤٣٨
دندره ٣٩٠
ابن الدهان النحوى ٤٧١ — ٤٧٢
دهقان ٤
دوسون ١٤٠ ، ١٤١ ، ٥٦٩
الدون — نهر ال ٤٠٧
الدوينى — أبو إسحاق ٤٩٧
الديبل ٤٠٠
ديار بكر ١٠ ، ١١ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٥٠ ، ٢٦٩ ، ٦٠٦
ديار ربيعة ٥٩
ديروط ٣٩٥
الديلم ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٦٩ ، ٣٦٦ ، ٤٥١ ، ٤٧٣ ، ٥٧٥ ، ٦٠٦
دينور ١٥٧
ديوان — دواوين ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٧ ، ٣٨٣ ، ٤٣٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨
ديوان الأحباس ٣٤٠
ديوان الأسطول ٣٧٤
ديوان الانشاء ٢٠٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٤٥٢ ، ٤٧٦ ، ٤٨٢ ، ٥٠٨ ، ٥٦١ ، ٥٧٨ ، ٦٠٣ ، ٦٤٧
ديوان الترتيب ٥٧٢
ديوان الجيش ٢٩ ، ٣٤٠ ، ٣٦١ ، ٦١٣
ديوان الحجاز ٣٤٠
ديوان الخاصة ٣٣٥
ديوان خزائن الكسوة ٣٤٠
ديوان الرسائل ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ — ٣٣٦ ، ٥١٠
ديوان الرواتب ٣٤٠
ديوان الزمام ٣٢٤
ديوان الشام ٣٤٠
ديوان الضرب ٣٧٧
ديوان العامة ٣٣٥
ديوان قاضى القضاة ٣٧٨
ديوان الماء ٣٨٧
ديوان المال ٢١٥
ديوان المجلس ٣٨٠
ديوان المظالم ٣٨٣
ديوان النظار ٦١٦
ديوان الوزارة ٣٢٦
ديوجينيس ٢٢ ، ٢٣٤

(ذ)

أهل الذمة ٣٨٢ ، ٥٢١ ، ٦٢٧
ذو النون بطليطلة ٦٣٠

(ر)

الرازى — أبو بكر ٥٣١
الرازى — أبو حاتم داعى الاسماعيلية فى الرى ٥٧٥
الرازى — فخر الدين المفسر ١٧٣
الراشد العباسى ٧٣ ، ٧٤
الرافضة ٣١

الراوندية ٢٥٥
الرباط ١٢٩ ، ٢٢٩ ، ٢٨٩ ، ٤٣٦ — ٤٣٩ ، ٥٩٠ ، ٦٠٠ — ٦٠١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤
الرحامنة — قبيلة بالمغرب ٦٠٠
ابن رزيك — الوزير الفاطمى ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٥٠ ، ٦٠٩
رستم بن شهريار ٥٦٥
بنو الرسى ٢١٥ — ٢١٧
ابن رشد ٢٢٤ ، ٢٤٠ ، ٥٤٢ — ٥٤٧
رشيد الدين الهمذانى ٥٦٨
رضوان بن الوخشى الوزير الفاطمى ١٨٣ ، ١٨٤
الرضى — الشريف ٢٣٦
الرفاق ٢٧٢
رقادة بالمغرب ٥٨٩
الرقه ٢٩
الرقيق ٦٢٥ ، ٦٢٦ — ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٤٦
الركاز ٣٥٢
الرمانى بالمغرب ٢٨٩
الرملة ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ٣٤٤
روبرت دوق نرمنديه ٢٤٦
روبرت كونت شارتر ٢٤٦
رودجر النرمندى ١٧٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩
الروس ٢٢
الروم ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٤٩
الرميلة ٦١٤
رومانوس ٢٢
الرها ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨
الرى ١٤ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٦٨ ، ٨٥ ، ٨٧
الرياحية ٢٣٩
ريازان ١٥١
الرياضيات ٥٣٠ — ٥٣١ ، ٥٣٨ ، ٦٠٨
رئيس الرؤساء ١٤ ، ١٨
ريتشارد قلب الأسد ١١٠ ، ١٩٥ ، ٢٠٠
ريموند كونت تولوز ٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧
رينولد ١٠٩

(ز)

زبيد ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢
الزبير بن بكار ٥٦٩
الزراد شتيه ٢٥٤
ابن أبى زرع ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٩٣ ، ٥٩٨
زرياب المغنى ٦٣٣ — ٦٣٤ ، ٦٣٨
بنو زريع باليمن ٢٠٩ ، ٢١٣ — ٢١٤
زغبة — الزغبية ٢٢٩
الزكاه ٣٤٦ ، ٣٥٠ — ٣٥٢ ، ٥٤٩
الزنج ٦٢٦
الزلاقه — موقعة بالأندلس ١٢١ ، ٥٣٣
ابن زلو ٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
زليخه خاتون ٢٩
الزمام ٣٣٤
الزمخشرى ٣٦ ، ٤٤٤
زناته — الزناتيون ١٢٥ ، ١٢٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٣١١ ، ٣١٢
الزنادقة ٢٦٧
الزنج ٦٢٦
زنجان ١٠ ، ٤٧ ، ١٤٥
زنجبار ٦٠٥
زنكى — أبو بكر سعد ١٥٧
زنكى — عماد الدين ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨ — ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٤ ، ١٨٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٣٤٩ ، ٣٦١ ، ٥٥٢ — ٥٥٥
ابن زهر — أبو بكر ٢٢٤ ، ٥٨٠
الزهراء ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٥٩١ قصر ال ٦٣٠
الزواج — حفلات ال ٦٥١ — ٦٥٣
الزواحى ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢٤١
الزوزنى ٣٦ ، ٢٥٩

زويلة ـ قبيلة مغربية ٣١٢
بنو زيان ٣١٨
أبو زيد البلخى ٣٦
الزيدية ٢١٦ ، ٢١٧
بنو زيرى ـ الزيرية ٢٣٩
الزينبى ـ الوزير أبو القاسم ٥٧ ، ٣٢٦، ٦٥٣
زين الدين على بن بكتكين ٨٠
زين الدين يوسف ٨٠

(س)

سابوتاى ـ المغولى ١٥١
آل ساسان ٢ ، ٤ ، ٣١٠ ، ٣٢٠
الساقى ٦٢ ، ٩٥
سامرا ٥٨٩
ساوه ٣٧ ، ٤١ ، ٤٧
سبأ ـ أبو حمير ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٣
ابن سبأ ـ عبد الله ٢٥٤
ابن سبأ ـ عمران بن محمد ٢٠٨
ابن سبأ ـ محمد الداعى ٢٠٨ ، ٢١٣
سبته ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ٣١٣ ، ٣١٧، ٣٤٤ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٦٠١
السبعية ١٣
السبعينى ـ فى طريق مكة ٣٠ ، ٦٥٥
السبكى ـ تاج الدين ٥٦٧
السبئيه ١٢٦ ، ٢٥٨
السجزى ـ داعى دعاة الاسماعيلية ٥٧٥
سجستان ٣٥ ، ١٧٦ ، ٥٦٥
سجلماسة ١١٥ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٧
سرخس ٥٨، ٤ ، ٩٦ ، ١٦٨
سردانيه ـ جزيرة ٣٧٤
سرقسطه ـ بالأندلس ١٢٦ ، ١٢٨ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٦٣٠
السريانية ـ لغه ٥٥٣ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠
سستان ١٠
سعد الدولة آثين ٢٢ ، ٢٤
سعد بن زنكى ٩٤
ابن سعيد الغرناطى صاحب المغرب ٥٨٢
سعيد الأحول اليمنى ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١١
سعيد بن نجاح اليمنى ٢١١
السلاجقة ٥ ، ١٠ ـ ١١ ، ١٣ ـ ١٧ ، ٢٦، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٥٦، ٥٨ ، ٦٠ ـ ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٠، ٧١ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٦، ٩٨، ١٠١، ١٣٥ ، ١٤١ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣، ٢٤٤، ٣٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١، الخلافة فى عهدهم ٣٠٦ ـ ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٢، ٣٨٤، ٤٠٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٦٢٧، ٦٣٢، ٦٤١ ، ٦٤٢
سلبطره ـ حصن بالأندلس ٢٣١ ـ ٢٣٢
سلجوق بن تقاق ١ ، ٢ ، ٢١
سلجوقشاه ٧٢
ابن السلار ـ الوزير الفاطمى ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦
سلطنة الروم ١٣٥ ، ١٤٦
سلغر ـ من قواد السلاجقة ٦٢ ، ٩٤
السلاوى ـ المؤرخ ٢٩٠ ، ٣١٣ ، ٣١٨
سليم ـ قبيلة عربية ٢٣٩
سليم الأول العثمانى ٢٦٤
سليمان بن داود السلجوقى ١٩ ، ٢٠
ابن سليمان ـ محمد بن عم ملكشاه ٣٩
السليمانى ـ المتوكل أحمد ٢١٨
السليمانيه ٢١٧
السمعانى ٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٥٦٥
سمرقند ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ٩٨، ١٠٠، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤ ، ١٧٢ ، ١٨٠، ٣٤٤ ، ٥٦٥
السمرقندى ـ انظر نظامى عروضى

السنه ١٥ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢٧١ ، ٢٩١
سنج خان ملك التتار ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٥٠
سنجار ١٠ ، ١٢ ، ٤٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٣٤٤
سنجر بن ملكشاه ٢٧ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ — ٥٦ ، ٥٨ — ٥٩ ، ٧٠ — ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٩٥ — ٩٦ ، ١٦٤
السند ١٠٠ ، ١٩٧
السنسكريتيه — لغه ٥٥٢ ، ٥٨٣
السنغال — نهر ال ١٢٥
سنقر بن مودود السلجوقى ٩٤
السواد ٢٠١ ، ٢٣٩ ، ٣٧٨
السودان — السودانيون ١١٩ ، ١٨٤ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٦٦ ، ٦٢٨
سور — أسوار ٦٠٩ — ٦١١
سوريه — انظر الشام
السوس — بلاد ال ٢٢١ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٦٠٠
سوق — اسواق ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ — ٤١٨
سونج — اسره صينيه ١٥١
السهروردى — شهاب الدين ٣٠٥
بنو سهل ٣٢٧
سيبريا ١٣١
سيتيا — سكيثيا ١٣٠
ابن سيده الاندلسى ٤٧٧ ، ٥٨٢
سيرى بن أبى بكر اللمتونى ١٢٣ ، ١٢٤
سيف الدين غازى — بن زنكى ٧٣ ، ٧٦ — ٧٩
ابن سينا ٢٧ ، ٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ — ٥٥٠
السيوطى — جلال الدين ٥٧٢ ، ٥٨٥

(ش)

الشابشتى — صاحب كتاب الديارات ٥٧٢
شاطبه ١٢٤
الشافعى ١٨٢ ، ١٨٦ ، ٢١٥ ، ٣٧٧
الشام ١ ، ١٦ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٨ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٩ ، ٥٨١ ، ٥٨٣ ، ٥٩١ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦٢٧
الشامانية ١٣٣ ، ١٣٧
أبو شامه ٥٧٩
شاور ١٠٥ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٥٠ ، ٣٣٠
الشاوى — عبد الله ١٩٧ ، ٢١٢
ابن شبه ٥٦٤
ابن شبروط — حسداى ٣٣٢
أبو شجاع — الوزير المؤرخ ٣٥ ، ٤٣ ، ٣٢٥ — ٣٢٦ ، ٣٥١ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٧٤ ، ٦٥٢
شحنة بغداد ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢
شجر الدر ٣٢٣ ، ٦٤٢
ابن شداد — بهاء الدين ٥٥٥ ، ٥٧٩
الشراب — صاحب ال ٥١
الشرطه ٣٤٥ — ٣٤٦
ششتر ٥٦٥
الشعرانى ٥٤٨ ، ٥٥٠
شغرى بك داود ٢ ، ١٠
الشقيف ٢٦٤
شمس الدين الغورى ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢
الشوبك ١٩٤

شهاب الدين محمد الغورى ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ — ١٧٧
الشهرستانى ٣٠٤
شيخ الجبل ٢٧١ ، ٢٧٢
شيراز ١٣ ، ٩٤ ، ١٥٧ ، ٥٦٥ ، ٥٧٨
الشيرازى — انظر المؤيد هبة الله
شير زاد ١٦٣
شيركوه — أسد الدين الوزير الفاطمى ٧٦ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٨٩ — ١٩٣ ، ٢٥٠ ، ٣٣٠ ، ٥٧٢
شيزر — قلعة بفلسطين ٦٧ ، ٥٧٤
الشيزرى ٣٨٥
الشيعة — الشيعيون ١٤ ، ١٥ ، ٣١ ، ١٦٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٩١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ، ٥٧٣ ، ٦١٩ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦

(ص)

صاحب الباب ٣٣٥ ، ٣٤٠
صاحب الدية ٣٥٩
صاحب الرساله ٣٤٠
صاحب الشراب ٥١
صاحب الصلاة ٣٨٣ ، ٥٤٩ ، ٥٩٧
صاحب القلم الجليل ٣٣٣
صاحب القلم الدقيق ٣٣٣
الصالح إسماعيل بن نور الدين ٧٨ ، ١٠٨ ، ١٠٩
الصباح — الحسن ٢٦٩ — ٢٧٢
الصدقة ٣٥٢
ابن صدقه — بدران ٤٤
ابن صدقة — دبيس ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ — ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٩ — ٧٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٦٥
صدقه بن مزيد ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ — ٤٥ ، ٦٢٦
صرخد ١٨٣
صعدة باليمن ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧
الصعيد بمصر ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٣٩
صفانيان ٢١
الصفارية ٥٥٩
الصقاعى — صاحب ذيل وفيات الأعيان ٥٦٤
صفد ٦١٣
الصقالبة ٣٧١ ، ٦٣٠
الصقلى — انظر جوهر
صقلية ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٧٦
صلاح الدين الأيوبى ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ ، ١٠٤ — ١١٣ ، ١٣٥ ، ١٧٧ ، ١٨٩ ، ١٩١ — ١٩٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ — ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٥٠ ، ٣٠٩ ، ٣٢٢ ، ٣٣٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢ ، ٥٥٢ ، ٥٦٣ ، ٥٩٤ ، ٦٠٣ ، ٦٠٥ — ٦١١ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٩ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩
صلاح الدين يوسف بن الكامل ٢١٥
صلح الرمله ١٠٧
الصليبيون ١ ، ٤٠ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٨ — ٧١ ، ٧٤ — ٨١ ، ١٠٥ ، ١٠٧ — ١١٥ ، ١١٩ ، ١٨١ ، ١٨٥ — ١٩٥ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٤٣ — ٢٥٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٣١٢ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٦٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥
الصليحيون ١٩٧ ، ٢٠١ — ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤
الصليحى — على بن محمد ١٩٨ ، ٢٠٠ — ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٤٨١
صمصام الدولة ٢٤٠ ، ٢٥٧
الصناعة ٣٧٣ — ٣٧٤
صنعاء ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧
صنهاجة — قبيلة مغربية ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ،

١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ،
٢٤٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٠ ،
٣١٢
الصيمرى — أبو عبد الله ٢٣٦
الصين — الصينيون ٢٩ ، ١٣٩ ، ١٥٤ ،
١٦٢ ، ٣٢٩ ، ٣٦٣

(ض)

الضرائب ٣٤٦ — ٣٤٧ ضريبة الاقطاع ٣٤٧ —
٣٤٨ ، فى العصر العباسى الثانى ٣٥٤ —
٣٥٥ فى العصر الفاطمى ٣٥٥ — ٣٥٨
فى الأندلس ٣٥٩

(ط)

أبو طاهر النحوى ٤٧٣
الطاهريون ٥٥٩
الطب فى العصر العباسى الثانى ٥١٥ — ٥٢٠
فى العصر الفاطمى ٥٢٠ فى المغرب والأندلس
٥٢١ — ٥٢٢ المدارس الطبيه ٥٢٢ —
٥٢٣
ابن طباطبا صاحب الفخرى ١٥٩ ، ١٦٢ ،
٣٢٩ ، ٥٦٧ ، ٦٧٧
طبرستان ٥ ، ٩٩ ، ٥٥٢ ، ٥٦٥ ، ٥٧٥ ،
٥٨٣
الطبرى ٤٤٢ ، ٥٥١ ، ٥٥٤ ، ٥٦٤
طبقات الحكماء لابن أبى أصيبعه ٥٦٣
طبقاتى ناصرى للجوزجانى ٥٥٨ — ٥٥٩ ،
٥٦٨
طبقات الشعب — فى عهد العباسيين ٦٢٥ —
٦٢٧ فى عهد الفاطميين والايوبيين ٦٢٧ —
٦٢٨ ، فى المغرب ٦٢٨ — ٦٢٩ ، فى
الأندلس ٦٢٩ — ٦٣١
طرابلس الشام ٧٧
طرسوس ٦٥٦
طرطوشه — مدينة بالأندلس ٣٧٦
الطرطوشى — أبو بكر صاحب سراج الملوك
٣٨٠ ، ٤٥٣ ، ٥٣٣ ، ٥٨٢
طغانشاه — الأمير ٦٥٤
الطغرائى ٣٩ ، ٤٨٠ — ٤٨١
طغرلبك السلجوقى ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٩ — ٢٠ ،
٢٥ ، ٣١ ، ٣٥
طغرل بن محمد بن ملكشاه ٥٤
ابن طفيل ٥٣٩ — ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٨٠
طليطلة ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ٥٣٦ ، ٦٣٠
طهران ٦٦
الطوائف — ملوك ال ٦٣٠
طوس ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٦
ابن طولون — مسجد ٦٠٩
الطولونيون ١٢٨ ، ٦٢٨
ابن أبى طى المؤرخ ٥٧٣
الطيبية فى اليمن ٢٧٩ — ٢٨٢
الظاهر الفاطمى ٦٢٨

(ع)

العادل الأيوبى ٦٤ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،
١٠٦ ، ١١٣ ، ١٣٥ ، ١٨٨ ، ٢٣٣
العادل بن السلار الفاطمى ٢٤٨
العاضد الفاطمى ١٠٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ،
١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٣٢٢ ،
٣٣٠ ، ٣٧٤ ، ٤٨٥ ، ٦٠٩
عبادة القزاز البطليوسى الشاعر ٤٩٦
ابن أبى عامر الحاجب ٣٣٢ ، ٦٣٠
عامر بن عبد الله الزواحى باليمن ١٩٨ ، ٢٤٠ ،
٢٤١ ، ٦٣٠
العامة ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٤٠ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ،
٦٤٤ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦
عانه ٨١
ابن عباد — المعتمد ١٢٠ — ١٢١ ، ١٢٣ ،
١٤٤ ، ٦٣٠
العباس بن الأحنف ٤٩٩
ابن عباس — عبد الله ٤٢٠
عباس عم علاء الدين الغورى ١٧٦ ، ١٨٦ ،
١٨٧

العباسيون ١٢ ، ١٤ ، ١٧ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٨٥ ، ١٢٥ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٦١ ، ١٧٧ ، ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩
ابن عبد البر صاحب الاستيعاب ٥٥٣
عبد الجبار المعافرى ٢٧٦
ابن عبد ربه صاحب العقد ٤٩٦
عبد الرحمن بن عوف ٥٦٣
ابن العبرى صاحب مختصر تاريخ الدول ٥٥٩ — ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٧
عبد الرحيم بن إلياس داعى دعاة الدروز ٢٦١
عبد الرحمن الناصر ٣١٠ ، ٣٣٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٤٣٣ ، ٤٣٨ ، ٤٧٦ ، ٥٨٩ ، ٥٩١ ، ٦٣٠
العتبى صاحب تاريخ اليمينى ٥٥ ، ٥٦٦
عبد القادر الجرجانى ٤٧١
عبد الله بن أبى الوحش المقدسى اللغوى ٤٧٦
عبد الله الانصارى — شيخ الإسلام فى العصر السلجوقى ٤٦١ — ٤٦٢
عبد الله بن بلكين ١٢٣
عبد الله بن محمد المروانى — شاعر اندلسى ٤٩٦
عبد الله بن على العلوى — أمير الأحساء ٢٤٢
عبد الله بن مسعود الصحابى ٢٤٠
عبد الله بن ميمون القداح ٣٤٤ ، ٣٧٦
عبد الله بن ياسين ٢٨٣ — ٢٩٢ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٤٣٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٦
عبد المؤمن الموحدى ٢١٩ — ٢٢٢ ، ٢٢٩ — ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٥١١ ، ٥٩٩ ، ٦٢١ ، ٦٢٣ ، ٦٢٨ ، ٦٤٢
عبد المؤمن بن عبد الحق الجغرافى ١٦١ ، ٥٦٧
عبد النبى بن على بن مهدى باليمن ٢١٢ — ٢١٤ ، ٢٨١
العبيد بالاندلس ١٢٨ ، ٢٠٤ — ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢٢٦
عبيد الله المهدى ١١٨ ، ١٩٧ ، ٣٢٠ ، ٤٠٩ ، ٤٢٧ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦
عثمان — جمال الدين والى مرو ٣٢
عثمان بن عفان ٣٥٩ ، ٤٤٠
العثمانيون — الأتراك ٩٠ ، ١٣١
عجائب المقدور فى أخبار تيمور لابن عربشاه ٥٧٠ — ٥٧١
ابن عذارى المراكشى المؤرخ ٥٨٢
العراق ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ٤٠ ، ٤٧ — ٤٩ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٦٢ ، ١٧٧ ، ٢١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٥ ، ٥٦٥ ، ٥٨٣ ، ٦٠٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٧ ، ٦٤٠ ، ٦٤٩ ، ٦٥٦
العراقين ٥٩ ، ١٠٥
عز الدين قيقاوس الثانى ٩
العزيز الفاطمى ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٥٧ ، ٣٠٦ ، ٣٢٠ ، ٥٧١ ، ٦٠٢ ، ٦١٧ ، ٦١٨
ابن عساكر صاحب الأنساب ٥٤٧
العسكر — مدينة ال ٥٩٢ ، ٦٠٠ ، ٦٠٥
العشور ٣٥٤
عسقلان ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ٢٥٦ ، ٣٤٢ ، ٤٣٨ ، ٥٠٨
عضد الدولة البويهى ٢٣٥ ، ٢٥٧ ، ٣٤٣ ، ٤٢٧ ، ٥٢٣
العطار — الشيخ فريد الدين ٣٦
العقاب — موقعة بالمغرب ٢٣١
عقبة بن نافع ١١٦ ، ٤٣٨
العقد الفريد ٢٧ ، ٤٩٦
العقيليون ٦٧
عكاء ١٠٩ ، ٢٠٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٣٢٩ ، ٤٣٨
علاء الدين حسين الغورى ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧

علاء الدين خوارزمشاه ٨٢
العلاف ـ أبو الهذيل المعتزلى ٤٥٧
علاء الدين قيقباذ الأول ٨٩
علاء الدين قيقباذ الثانى ٩٠
ابن العلقمى الوزير ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٤٣١
علاء الدين محمود الغورى ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦
على بن أبى طالب ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٣٢٠ ، ٣٤٥ ، ٤٢٤ ، ٤٣١ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥
على الداعى فى اليمن ١٩٩
على بن سبأ ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٥٧٨ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩
على بن محمد الصليحى باليمن ٢٤١
على بن مهدى صاحب زبيد باليمن ٢١٢
على بن النعمان داعى دعاة الإسماعيلية ٤٢٩
على بن يوسف بن تاشفين ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٥٩ ، ٤٤١
عماد الدين الاصفهانى ٤٣٣ ، ٤٥٧ ، ٤٨٣ ـ ٤٨٥ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢
عمارة اليمنى ١٨٨ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ـ ٤٨٩ ، ٥٥٦ ، ٥٧٤
عمان ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٤٢
عمر بن الخطاب ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٨٢
عمر بن عبد العزيز ٣٣٦ ، ٤٣٧
عمرو بن العاص ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٩٠ ، ٥٩٢
مسجد عمرو ٦٠٧ ، ٦١٧ ، ٦١٨
عمورى ـ ملك بيت المقدس ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣
عمورية ٤٣١
عوفى صاحب لب اللباب أو جوامع الحكايات ٥٦٣
عميد الدولة بن فخر الدولة ٦٧ ، ٥٦٣
عياض ـ القاضى ٤٥٦
عيذاب ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٥٠٩
عيسى ـ نهر ١٥٨
عيد ـ أعياد ٢٦٥ ، ٣٣٩ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٦٠٣ ، ٦٠٨ ، ٦٤٣ ـ ٦٤٥
عين جالوت ـ موقعة

(غ)

غازان ـ محمود ١ ، ٤ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ، ٤٠٥ ، ٤٢٠ ، ٤٣١ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨
غازى بن جمشتكين
غانه ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢
غانية بافريقية ٢٢٧
ابن غانية ـ صاحب افريقية فى عهد الموحدين ٢٣٠ ـ ٢٣١
غرناطة ٣١ ، ٣١٩ ، ٣٦٨ ، ٣٨٨ ، ٥٣٨ ، ٥٨٤ ، ٦٣٥
الغز ـ الأتراك ٢ ، ١٤ ، ٢٢ ، ٥٨ ، ٨٨ ، ١٦٧ ، ٣٦٦ ، ٤٢٥
الغزالى ـ الإمام أبو حامد ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٦ ، ٣١٦ ، ٤٤٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٥٣١ ـ ٥٣٦ ، ٥٥٠
الغزنويون البيت ال ١ ، ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ٣٥ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ـ ١٦٨ ، ١٧٣ ، ٤٢٠
الغزنوى ـ مسعود الأول ٤ ، ٥ ، ١٠
الغزنوى ـ مسعود الثانى ٢٩
غزنه ـ ٦ ، ٣٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥
الغساسنة ٢١٥
الغنيمه ٣٥٣ ـ ٣٥٤
الغور ـ بلاد ال ٣٥ ، ٥٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٤١ ، ١٦٦ ، ١٥٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٥١٧
الغوربون ١٠٠ ، ١٦٣ ـ ١٧٧

الغورى ـ علاء الدين حسين ١٦٤ ، ١٦٥ ـ ١٦٧ ، ١٧٥ ، ٥١٧ ، ٥٥٨
الغورى ـ غياث الدين محمد ١٦٧ ـ ١٦٨
الغورى ـ غياث الدين محمود ١٧٤ ، ١٧٥ ـ ١٧٧

(ف)

فاتك الثانى ٢١٢
فاتك الثالث ٢١٢
الفاتكى ـ أنيس ٢١١ ، ٢١٢
الفارابى ـ أبو نصر ٣٠٤ ، ٥٣١ ، ٥٣٨ ، ٥٤٨
فارسكور ١١٥ ، ٣٢٣
فاس ١٢٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٣ ، ٥٣٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨٩ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٩ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩
الفاضلية ـ المدرسة ال ٦٠٨
فاطمة الزهراء ٣٢٠ ، ٣٢١
الفاطميون ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٨٠ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٧٧ ـ ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ـ ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ ـ ٢٠٩ ، ٢٣٥ ـ ٢٣٧ ، ٣١٠ ـ ٣١٣ ، ٣٢٠ ، ٤٦٢ ، علاقتهم بالبيزنطيين ٢٣٥ ـ ٢٣٧ علاقتهم بالحجاز ٢٣٧ ـ ٢٣٨ علاقتهم بالمغرب ٢٣٨ ـ ٢٣٩ علاقتهم بصقلية ٢٤٠ ـ ٢٤١ الخلافة الفاطمية ٣١٧ ـ ٣٢٠ ، ٥٥٩ مصادر الفاطميين ٥٧١ ـ ٥٧٩ ، ٥٨٦ ، ٥٩٤ ، ٦٠٣ ، حمامات الفاطميين ٦٠٤ ـ ٦٠٥ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٦ مساجد الفاطميين ٦١٦ ـ ٦٢٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٣٤ ، ٦٣٨ ، ٦٤٠ ، ٦٤٢ ، ٦٤٤ الاعياد والمواسم والمواكب فى عهد الفاطميين ٦٤٤ ـ ٦٤٩ ، ٦٥٦
الفائز الفاطمى ١٨٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧
الفتح بن خاقان ٥١٣ ـ ٥١٤ ، ٥٣٧
فخر الملك الوزير ٥٣٣
أبو الفدا ٥٦٢
الفداوية ـ الفدائيون ٢٧١ ـ ٢٧٦
الفرات ـ نهر ال ١٢ ، ٤٥ ، ٧٥ ، ٩٦ ، ٣٤٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ ، ٤٨٩ ، ٥٠٩
ابن الفرات ـ الوزير ٣٨١
فردريك بربروسا ١١٠ ، ١١٣
الفردوسى الشاعر ٥٥٨ ، ٥٨٦ ، ٦٢٥
فرس ـ فارسى ١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٢٤ ، ١٤١ ، ١٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٩ ، ٣٨٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٤٣٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٥٣٢ ، ٥٣٦ ، ٥٤١ ، ٥٥٣ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧٨ ، ٥٨٣ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٩٤ ، ٦٠٧ ، ٦١٩ ، ٦٢٥ ، ٦٤٩
فرشابور ـ مهد الغور ١٧١ ، ١٧٢ ، ٥٧٠
الفرما ٤٠٤ — ٤٠٦
الفرنجة ٢٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٨١ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٣١ ، ١٨١ ، ١٨٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٣٧٤ ، ٤٣٨
فروخ شاه الخفاجى بن ملكشاه ٧٠ — ٧١
الفسطاط ١٩٢ ، ٢٥٠ ، ٣٥٧ ، ٣٧٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ، ٤٣٨ ، ٤٥٥ ، ٥٨٩ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٦٠٢ ، ٦٠٥ ، ٦١١
ابن فضل الله العمرى ٦١٣
فقه ، فقهاء ـ فقه الشيعة ٤٥٠ — ٤٥٣
الفقه فى اليمن ٤٥٤ ـ ٤٥٧ ، ٥٣٢ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٣ ، ٥٤٦ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦ ، ٥٨٥ ، ٦٠٧ ، ٦١٨ ،

٦٢٨ ، ٦٣١ ، ٦٤٠ ، ٦٥٠ ، ٦٥٤ ،
٦٥٦
فلسطين ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٣٠٩ ،
٣٤٢ ، ٤١٢ ، ٦١٣
الفلبين ٤٠١
الفلجا — نهر ال ١٣١ ، ١٥١
الفلسفة ٥٣١ — ٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٩ ،
٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٨٠ ، ٥٨٥ ، ٦٠٨ ،
٦٣٠
الفلك — النجوم — فى العصر العباسى ٥٢٤ —
٥٢٨ ، ٥٦٢ فى مصر والمغرب ٥٢٨ —
٥٣٠
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٥٦٤ ،
٥٦٧
الفونس السادس ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،
٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٣١٤ ،
٣١٥ ، ٤٥٧ ، ٤٩٤
الفيء ٣٥٣ — ٣٥٤
فيروزكوه حاضرة الغور ٥٨ ، ٩٩ ، ١٦٣ ،
١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦
فيليب الثانى ١١٠
الفينيقيون ٥٣٠

(ق)

قابوس بن وشمكير ٥٥٢ ، ٥٠٥
قادس ٥٤٠
القاسم الرسى ٢١٦ ، ٢١٧
القاسم بن محمد الجمحى ٤٥٤
القاضى الفاضل ٥٠٨ — ٥١٠
قاضى القضاة ٤٢٧ — ٤٣٠
القائم العباسى ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٨ ،
١٩ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣٢٤ ، ٥٧٦ ، ٦٣٢ ،
٦٤١ ، ٦٥١
القالى — أبو على اللغوى ٤٧٥ ، ٤٧٦
قانصوه الغورى ٣١٩
القاهرة ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢١٠ ،
٢٥٠ ، ٣١٢ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ،
٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ،
٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ ،
٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٨٢ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ،
٥٢٩ ، ٥٥١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ،
٥٧٢ ، ٥٧٧ ، ٥٨٨ ، ٥٩٢ — ٥٩٥ ،
٦٠٢ ، ٦٠٣
مدارس القاهرة ٦٠٦ — ٦٠٨ ، المنشئات الحربية
فى ال ٦٠٩ — ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٩ ،
٦٢٢ ، ٦٣٣ ، ٦٤٠
قايتباى ٣١٩
قاين ٢٤٨
القيامة — كنيسة ال ٢٣٥
القدورى — أبو الحسين الفقيه ٢٣٦
القراءات — علم ال ٤٤٠ — ٤٤٦
قرقوش — بهاء الدين ١٠٨ ، ٢٢٥
قراقيونلى ٨١
القرامطة ٢٥٤ — ٢٥٩ ، ٦٠٩ — ٦٢٥
قرسقة — جزيرة ٣٧٤
قرطبة ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ،
٣٦٨ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٤٠٩ ، ٤٢١ ،
٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٥٦ ،
٤٦٧ ، ٤٧٤ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ،
٥١١ ، ٥١٢ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٤٢ ،
٥٤٣ ، ٥٩١ — ٥٩٢ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ،
٦٣٠ ، ٦٣٣
القرطبى المؤرخ ٥٧٣
قرمونة — بالأندلس ١٢٤
قرواش بن المقلد العقيلى ٤٥٢
قره خطاى — بلاد الخطا السوداء ١٤١
قره قورم ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥٤
القرويين جامع ال ٦٢٠ — ٦٢١
قريش بن بدران ١٨

قزوين ـ الخزر ١٠٢ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ، ٢١٦ ، ٢٦٩ ، ٤٢٠
القزويني الجغرافي ٥٥٨ ، ٥٨٦
قسطنطين التاسع ٢٣٥
القسطنطينية ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٥١٨
قشتاله ١٢١
قصب السكر ـ صناعة ٣٩٥
قصة حي بن يقظان ٥٤٠ ـ ٥٤٢
قصر ـ قصور ٦٠٢ ـ ٦٠٣ ، ٦٠٤ ،
قصر الزهراء ٦٣٠ ، ٦٣٤ ـ ٦٣٦ ، ٦٤٨
القضاء في العصر العباسي الثاني ٣٧٧ ـ ٣٧٨
في عهد الفاطميين والأيوبيين ٣٧٨ ـ ٣٧٩
قانون الوراثة في عهد الفاطميين ٣٧٩ ـ ٣٨٢ القضاء في الأندلس ٣٨٢ ـ ٣٨٣ ، ٥٤٣ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٨٦
القضاعي ـ الفقيه المؤرخ ٣٣٤ ، ٤٣٥ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٦٥٦
القطائع ـ مدينة ابن طولون ٥٩٢ ، ٦٠٥
قطب الدين أيبك ١٧١ ، ١٧٢
قطب الدين ملكشاه الثاني من سلاجقة الروم ٨٩
قلعة الجبل بالقاهرة ٦١١ ـ ٦١٥
قطلغ خاتون أرملة قطب الدين محمد ٩١
قطلغ خان ـ لقب براك حاجب أتابك كرمان ٩٢
القطلغيون ٦٢
قطلمش عم أرسلان السلجوقي ٢٠
القطيف ٢٥٧
القفجاق ٦٠ ، ٦٢
قفط ٥٦٢
القفطي ـ مؤلف تاريخ الحكماء ١٤٦ ، ٥٢٠ ، ٥٦٢
قلامش ـ ابن (الشاعر) ٢١٣ ، ٤٨٢
ابن القلانسي ٥٥٢
قلاوون ـ السلطان ٢١٥ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٦ ، ٦١٢
القلزم ـ بحر ال ٤٠٤ ـ ٤٠٥
القلقشندي ـ صاحب صبح الأعشى ٥٦٧ ، ٦١٦
قلورية بايطاليا ٣٧٣
القلم الجليل ٣٣٣
القلم الدقيق ٣٣٣
قليج أرسلان ٨٩ ، ٢٤٦
قم ٥٦٥
القمحية ـ مدرسة أل ٦٠٨ ، ٦١٩

(ك)

كاشغر ١٣١ ، ١٤١
الكاظم ـ الإمام موسى ٢٨ ، ٦٢٦
كافور الإخشيد ٥٧١ ، ٦٢٨
أبو كاليجار ٥ ، ١٢ ، ١٣
الكامل الأيوبي ١١٣ ، ١١٤ ، ٦٠٨ ـ ٦١٢
الكاملية ـ المدرسة ٤٢٦
كاهون ـ صاحب كتاب مقدمة لتاريخ آسيا والأتراك والمغول ٥٦٩ ـ ٥٧٠
كبادوكيا ٨٥
الكتابة ٣٣٢ ـ ٣٣٤
كتامة قبيلة مغربية ٦٤٩
الكتبي ـ ابن شاكر ٥٦٤ ، ٥٦٧
الكتبية ـ مسجد بمراكش ٥٩٩ ، ٦٠١ ، ٦٢٠ ـ ٦٢٣
كتخدا ـ عبد الرحمن ٦١٧
ابن كثير ـ صاحب البداية والنهاية ٥٦٧
الكرج ٨٥ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٣٩١ ، ٦٢٥ ، ٦٣٢
الكرخ ١٦٢
كرد ـ أكراد ٥٠ ، ٨٦ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٥٦١ ، ٥٧٢ ، ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩
الكرك ٧٧ ، ١١٤ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٣٠٩ ، ٣٦٧ ، ٤٩٠ ، ٥٠٩ ، ٦١٣

كرمان ٥ ، ١٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٨٧ — ٨٨
أتابكية كرمان ٩٣ — ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٨
كرمانشاه — مدينة بفارس ٥٠
الكرمانى — حميد الدين داعى دعاة الفاطميين فى فارس ٥٧٦ ، ٥٧٧
الكلام — علم ال ٤٥٧ — التوحيد فى الإسلام ٤٥٨ — ٤٦٧ علم الكلام فى المغرب ٤٦٧ — ٤٧٠
ابن كلس — يعقوب ٦١٧ — ٦١٨
كليرمنت — مدينة بفرنسا ومهد الدعوة للحروب الصليبية ٢٤٥
الكندرى — عميد الملك الوزير ١٩ — ٢١ ، ٢٨
الكندرى — محمد بن عميد الملك ١١ ، ١٤ ، ٣٢٦ — ٣٢٧
كنراد الثالث — امبراطور ألمانيا ٢٤٩
كوبيلاى — ابن تولوى بن جنكيزخان ١٤٩
سقوط بغداد ١٥٤ — ١٦٢
كوريا ١٥١
الكوفة ٢٥٤ ، ٣٩١ ، ٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤٧٤ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٦٠٥ ، ٦٤٩
كوكر — الكوكرية ١٧١ — ١٧٣
الكونت بالأندلس ٦٣٠
كيخسرو — غياث الدين ٨٩ ، ٩٠
كيدو ١٥١ — ١٥٢
الكيسانية ٢٥٤
كيفا ٨٢ — ٨٤ ، ١١٤ ، ١٤٨
كيلكيا ١٥٠
كين — امبراطورية بالصين ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٥٠
كيوك — ابن أجتاى ١٤٩ ، ١٥٢ — ١٥٣
كينيا ٤٠٢
كييف — بالروسيا ١٥١

(ل)

لاهور — بالباكستان ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٧
لباب الألباب — لمحمد عوفى ٥٦٣
لغه — علم ال ٤٧٤ — ٤٧٧
لمبارديا — بايطاليا ٣٧٣
لمتونة — قبيلة بالمغرب ١١٨ ، ١٢٠ ، ٣١٢ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧
اللمتونى — يحيى بن ابراهيم ١١٨
لمطه — قبائل مغربية ٤١١
لمك بن مالك ٢٨٠
لؤلؤ — وزير بيت زنكى ٧٦
لويس السابع — ملك فرنسا ٢٤٩ ، ٣٢٣
ليبيا ٦١٦
ليتبول ٥٧١ ، ٦١٦
ليورقة ١٢٣
ليبط — حصن بالأندلس ١٢٣
ليون الأفريقى ٦٠١ ، ٦٢١ ، ٦٢٤

(م)

ماردين ٨١
مارستان — بيمارستان فى الشرق ٤٢٦ — ٤٢٧ ، ٥٢٢ — ٥٢٣
مالك بن وهيب ٥٢٩
مالكولم — سير جون — صاحب تاريخ فارس ٥٧١
مأمون بن مأمون — أمير خوارزم ٥٥٢
المأمون البطائحى — الوزير الفاطمى ٢٠٨
المأمون العباسى ٦٤٢
المأمون بن الناصر الموحدى ٢٣٣ ، ٥٣٠
مانجو خان بن تولوى بن جنكيزخان ٤٨ ، ١٥٣ — ١٥٤
الماوردى — صاحب الأحكام السلطانية ٢٠
المتوكل العباسى ٦٤٢
المجالس والمسايرات لأبى حنيفة النعمان المغربى ٥٧٦

مجاهد العامرى حاكم دانية الجزائر ٦٣٠
أبو المحاسن ٥٧٠
المحتسب ـ الحسبة ٣٨٤ ـ ٣٨٦
محمد صلى الله عليه وسلم ٥٤٢، ٦١٨
محمد على ٦١٤ ، ٦١٦
محمد بن ملكشاه ٤٣ ـ ٤٦ ، ٨١ ، ٦٢٦ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣
محمود بن محمد بن ملكشاه ٣٥ ، ٣٦ ـ ٣٨
المدائنى ٥٦٤
مدرسة ـ مدارس ٤٢٤ ـ ٤٢٦ ، ٦٠٦ ـ ٦٠٨ ، ٦١٠ ، ٦١٣ ، المدارس الطبية ٥٢٢ ـ ٥٢٣ ، ٦٥٣
المرابطون ـ بالمغرب ١٢٠ الدولة ال ١١٥ ـ ١٢٩ الدعوة المرابطية ٢٨٢ ـ ٢٩٣
المرابطون والخلافة العباسية ٣١٠ـ٣١٦، ٦٢٨ ، ٦٣١
المرأة ٦٤٠ ـ ٦٤١ ، ٦٤٤ ، ٦٥٠ ، ٦٥١
مراكش ـ مدينة ٥٤٣ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٩٥ ـ ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣
المراكشى ـ عبد الواحد صاحب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ٥٨٢ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١
المرتضى ـ الشريف ٦٥٠
مرداويج بن زيار الديلمى ٥٧٥
مرسية ـ مدينة بالأندلس ١٢٣ ، ٥٤٧
مرو ٥٥٦ ، ٥٦٥ ، ٥٨٥
المرينيون ٣١٨ ، ٣١٩
المسبحى ـ صاحب كتاب تاريخ مصر ٥٧٢
المسترشد العباسى ٣٠٧ ، ٥٥٨
المستظهر العباسى ٣٠٧ ، ٦٥٢
المستعربين بالأندلس ٦٣٠
المستعصم العباسى ٥٦٧ ، ٥٨٦ ، ٦٢٥ ، ٦٥٠ ، ٦٥١
مسجد ـ جامع ، وظيفة ال ٣٣٦ ـ ٣٣٧ ، ٤٢١ ـ ٤٢٣ الأزهر ٦١٦ — ٦٢٠ مساجد العصر الفاطمى الأخير ٦١٩ ـ ٦٢٠ مسجد الكتبية بمراكش ٦٢١ ـ ٦٢٤ مسجد القرويين بفاس ٦٢٠ ـ ٦٢١ مسجد ومنارة حسان بالرباط ٦٢٣ـ ٦٢٤ .
المستعلى الفاطمى ١٨٠ ، ١٨١
المستنصر الفاطمى ١٧٧ ـ ١٨٠ ، ٦٠٢ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦٢٠، ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣٣
مسعود الأول ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ٧٩
مسعود الثانى ٦٤ ، ٦٥
مسعود بن محمد بن ملكشاه ٥٢ ـ ٥٨ ، ٦٠ ، ٣٠٨ ، ٤٩٥
المسعودى ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٦٦
مسفيوه ـ قبيلة مغربية ٦٠٠
مصموده ـ قبيلة مغربية ٣٧٦ ، ٥٩٥
مصر ١٣ ، ٢٤١ ، ٥٣٢ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٥٠ ، ٥٦٢، ٥٦٥، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٨٤ ، ٥٨٧، ٥٩٢، ٥٩٤، ٦٠٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣ ، ٦١٤، ٦١٦ ، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٥ ، ٦٣٨ ، ٦٤٠، ٦٤٢ ، ٦٤٤، ٦٤٦
المصحفى ـ جعفر ٣٢٢
مصعب بن الزبير ٦٢٦
المطيع العباسى ٦٤٢
المظالم ٣٨٣ — ٣٨٤
المعتزله ١٢٧
المعتصم العباسى ٥٥١ ، ٦٢٥ ، ٦٤٢
المعتضد العباسى ٥٨٩
المعز الفاطمى ٥٧١ ، ٥٧٦ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ ، ٦١٨ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩
المغرب ـ بلاد ال ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٣، ٥٣٨، ٥٤٠ ، ٥٦٥ ، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٩، ٥٨٠ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧، ٥٩٦، ٥٩٧، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٦، ٦٢١، ٦٢٢،

٦٢٣ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٢
المغول — انظر التتار — التتر ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩
المقتدر العباسى ٦٤٢ ، ٦٥٦
المقتدى العباسى ٣٠٧ ، ٥٥١ ، ٦٣٢ ، ٦٥٢
المقتفى العباسى ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٦٥٣
المقدسى — صاحب أحسن التقاسيم ٥٨٣ ، ٦٠٥
المقرى ٥٣٨ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠ ، ٥٦٦ ، ٥٨٣ ، ٦٠٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٩
المقريزى ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٥ ، ٦١٢ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٣٣ ، ٦٥١
المقس — ميناء مصر ٦٠٣ ، ٦١٠
المقطم — جبل بمصر ٥٢٩ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٩ ، ٦١١
مكتبة — مكتبات ٤٣٠ — ٤٣٣ ، ٥٩٤
المكرم بن على الصليحى ٢٠٤ ، ٢٠٥ — ٢٠٦ ، ٢٤٢
مكة ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٨٤ ، ٦٥١ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦
المكين — جرجيس صاحب المجموع المبارك ٥٥٩
ملازكرد — موقعة ٢٢ ، ٦٤٤
الملايو ٦٠٥
ملبار ٤٠٠
ملطية — بارمينية الصغرى ٥٥٩
ملكشاه السلجوقى ٢٢ ، ٢٥ — ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٩٥ ، ٥٣٢ ، ٦٠٦ ، ٦٤١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٥
المماليك ٥٧٩ ، ٥٩٤ ، ٦٠٨ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦٢٨
المنثر ٦٠٧ ، ٦١٢ ، ٦١٧ ، ٦٢٣ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩
ابن منده — مؤرخ أصبهان ٣٦
المنصور — أبو جعفر ٥٥٣
المنصور — أبو يوسف يعقوب ٢٢٧ ، ٥٤٣ ، ٥٨٠ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩
منغوليا ٥٦٨
ابن منقذ — اسامه صاحب كتاب الاعتبار ٥٧٤
المنقذ من الضلال للغزالى ١٥٠ ، ٥٣٥ — ٥٣٦
منكبرنى — جلال الدين آخر سلاطين خوارزم ٥٦١
منهاج السراج للجوزجانى ٥٥٨
المهدية ٣٧٦ ، ٥٩٠
المواعظ والاعتبار للمقريزى ٥٦٧ ، ٥٧٣
الموحدون بالمغرب — الدولة الموحدية ٢١٩ — ٢٣٣ — الدعوة الموحدية ٢٩٢ — ٣٠٢ ، الخلافة الموحدية ٣١٦ — ٣١٧ ، ٥٩٩ ، ٦٢٨
مودود — قطب الدين ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٧
الموشحات — الزجل ٤٩٤ — ٤٩٨
الموصل ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٥٤٧ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٩ ، ٥٨٥
المؤيد هبة الله الشيرازى داعى الاسماعيلية ١٢ ، ١٤ — ١٥ ، ٢٣٧ ، ٤٦٢ — ٤٦٧ ، ٥٧٨ — ٥٧٩
مؤيد الدولة بن نظام الملك ٣٢٨
مؤيد الملك بن نظام الملك ٤٠ ، ٤١
ميافارقين ٨١
ابن ميسر المؤرخ صاحب كتاب أخبار مصر ٥٧٢ ، ٥٧٤ ، ٦٣٥

(ن)

ناصر خسرو ٥٦٣ ، ٥٧٣ — ٥٨٤ ، ٥٨٦ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣
الناصر العبامى ٥٨١ ، ٩٥٠
الناصر — عبد الرحمن الثالث ٥٩١ ، ٦٣٠
الناصر بن يعقوب بن المنصور الموحدى ٢٣٠ — ٢٣١ موقعة العقاب ٢٣١ — ٢٣٢

الناصرية — مدرسة ال ٦٠٧
النبط ٦٥٥
النثر ٥٠١ — ٥١٣
نجم الدين أيوب ١١٤ ، ١١٥ ، ٣٢٣ ، ٦٢٨
نحو ٤٧٠ — ٤٧٤
النزارية فى فارس والشام ٢٦٨ — ٢٧٩
النسفى — أبو عبد الله داعى الاسماعيلية ٥٧٥
النسوى ـ شهاب الدين صاحب سيرة منكبرتى ٥٦١
النسيج ٣٩١ — ٣٩٤
النصارى ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، نصارى الأندلس ٦٣٠
النصيرية ٢٦٥ — ٢٦٧
نظام الملك الوزير ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ـ ٣٣ ، ٥٣٢ ، ٦٠٦
النظامية — المدرسة ال ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٦٣٣
نظامى عروضى ٣٦ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ١٦٦ ، ٣٠١
النظام المعتزلى ٤٥٧ — ٤٥٨
نفيس — وادى بالمغرب ٥٩٦
نفيسة — مشهد السيدة ٦١١
النميرى — عمر بن على ٤٥٥
نور الدين محمود بن زنكى ٦٣ ، ٢٠٩ ، ٣٣٠ ، ٣٤٩ ، ٦٠٦
ذو النون — أسرة حاكمة بطليطلة ٦٣٠
نيسابور ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٦٠٦
النيل — نهرال ٥٩٤ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣٥ ، ٦٤١ ، ٦٤٥

(هـ)

ابن هبيرة — عون الدولة ٤٨٣
هراة ١٧٦ ، ٥٦٥ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥
بنو هلال ٦٢٨
هلال الصابى ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٧٤
الهمة وفضل الأئمة لأبى حنيفة النعمان المغربى ٥٧٧
همذان ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٥٦ ، ٦٠٥
الهند ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٤١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٣ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٦ ، ٥٨٣
بنو هود ملوك سرقسطة بالأندلس ٦٣٠
هولاكو — سقوط بغداد ١٥٤ — ١٦٢ ، ٥٥٧ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧١
هوورث — هنرى صاحب تاريخ المغول ٥٦٩
هيلانة — قبيلة بالمغرب ٥٩٥ ، ٥٩٦

(و)

واسط ٤٩ ، ٦٤٩ ، ٦٥١
ابن واصل — جمال الدين صاحب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ٥٧٩
الوزان — الحسن — انظر ليون الافريقى
وريكة — قبيلة بالمغرب ٥٩٥
وزير — وزارة ، فى عهد السلاجقه ٣٢٤ — ٣٢٩ فى مصر ٣٢٩ — ٣٣١ فى الأندلس ٣٣١ — ٣٣٢ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٧ ، ٥٥١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٨ ، ٥٦٢ ، ٥٧٤ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٦٠٤ ، ٦٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٧ ، ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٤١ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣
الوساطة ٣٣٣
وصاف الحضرة — عبد الله بن فضل الله صاحب تاريخى وصاف ٥٦٨
وفيات الاعيان ٥٦٤ ، ٥٥٧
الوليد ٥٥١

(ى)

ابن ياسين — عبد الله الفقيه المالكى ٦٣٠
ياقوت الحموى ٥٦٢ ، ٥٦٧ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦
يزدى — شرف الدين صاحب كتاب ظفر نامة ٥٧٠
اليساق ١٣٦ — ١٣٩
اليعقوبى ٥٩٥ ، ٦٠٥

أبو يعقوب يوسف المنصور الموحدى ٢٢٤ — ٢٢٥ ، موقعة الارك ٢٢٥ — ٢٢٧ ، أبو يعقوب وصلاح الدين ٢٢٨ — ٢٢٩ إصلاحات يعقوب ٢٢٩ ، ٥٤٣ ، ٥٩٩ ، ٦٠١ ، ٦٢١ ، ٦٢٣ — ٦٢٤
يلبغا — الأمير ٦١٩ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩
يليوشستى مستشار جنكيزخان ١٤٧
اليمن ـ الدولة الصليحيه فى اليمن ١٩٧ — ٢٠٧ الاسماعيلية فى اليمن بعد المستنصر ٢٠٨ — ٢١٠ بنو نجاح فى زبيد ٢١٠ — ٢١٢ بنو مهدى فى زبيد ٢١٢ — ٢١٣ ، بنو زريع فى عدن ٢١٣ ، اليمن فى عهد الأيوبيين ٢١٤ — ٢١٥ ، بنو رسول وبنو الرسى فى اليمن ٢١٥ — ٢١٩ الدعوة الصليحية فى اليمن ٢٧٩ — ٢٨٢
يوسف بن تاشفين ٥٩٧ ، ٦٢٨
يوسف بن عبد المؤمن أبو يعقوب المنصور ٦٢٣ ، ٦٢٤
اليهود — اليهودية ٥٤٦ ، ٥٥٩ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٣٠
اليونان ٥٣٠ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٥٣ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٨٧ ، ٥٩١

تصويب

أعتذر للقارىء الكريم عن وقوع أغلاط مطبعية ترجع إلى طبع الكتاب أثناء غيابى عن القاهرة حتى اضطررت إلى إعادة جمع وطبع كثير من الملازم ، راجيا التفضل بإصلاح هذه الأغلاط قبل قراءة الكتاب . وقد يجد القارىء بعض أغلاط أخرى لم تثبت فى هذا الثبت ولكنها لا تخفى على فطنته .

صفحة	سطر	خطأ	صواب
ك	٦	الفاطمين	الفاطميين
ن	٢	إمرة الجيش	الجيش فى مصر
١	١١	بسلاطين	لسلاطين
٣	٥	أرسلان بيغو	موسى أرسلان بيغو
٣	٥	موسى	تحذف
٤	٢٥	ج ٥	ج ٩
١٣	١١	nâmeh	naméh
١٣	٢ هـ	ص	ورقة
٢٠	١٣	١٦٠٣	١٠٦٣
٢٠	١٤	داود	شغرى داود
٢١	١٤	٤٦٣	٤٦٥
٢٢	١٢	سعد الدين	سعد الدولة
٣٢	٢	أين	أن
٣٤	١٧	راحة الصدور	راحة الصدور (٢)
٤٢	١٣	الممتدة	الممتدة من
٥٢	١٩	وخلف	وخلفه
٥٨	٢٢	أمر	أسر
٥٩	١	إرشاد	إرشاء
٦١	٤ هـ	طغنتكين	طغتكين
٧١	٢٤	أربل	أربيل
٨١	٢٣	الصليبين	الصليبيين (١)
٩١	١٤	يراك	براك
٩٢	٣ ، ٤	بران	براك
٩٢	٦ ، ٩	براق	براك
٩٦	٩	واطووه	واضطروه
١٠٠	٢٦	ويتخربها	ويخربها
١٠١	٢١	أو نزار	أو ترار
١٠٢	٩	توكان	تركان
١٠٢	٢١	بروان	براون
١٠٢	١ هـ	ج ١٢	ج ٢
١٠٣	٧	النهرر	النهر
١٠٣	١٩	المكان	المطاف
١٠٣	٢ هـ	هوادس	هوداس
١٠٣	٢٠	٦٢٩	٦٢٨
١٠٩	٨	الكرنك	الكرك
١٠٩	١٦	تبقْ	تُبق
١٠٩	٢١	صور فى	صور و
١١٠	٣	المقدس	المقدس (١)

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١١	٢٠	محالفة	محالفته
١١٢	٥	وناشدته	وناشدنه
١١٨	٦،٥	يحيي بن إبراهيم	يحيي بن عمر
١١٩	١٤	ولا يقف	ولم يقف
١٢٢	١٦	التار	الثأر
١٢٣	٨	ليورفة	ليورقة
١٢٣	٢٠	مالفة	مالقة
١٢٤	٩	المؤمنين	المسلمين
١٣٣	١٩	فى النصف	وفى النصف
١٣٣	هـ ١	Pool	Poole
١٣٥	١٨	١١٢٣	١٢٣١
١٣٧	١	أوتك	أونك
١٣٨	٨	بعث إليه	بعث إليه السطان
١٣٩	١٧	بلاد	فى بلاد
١٤٠	٦	أربعون	أربعون ألفاً
١٥٩	١	يعقوبا	بعقوبا
١٦١	هـ ١	Strang	Strange
١٦٢	٦	الشيوعيون	الشيعيون
١٦٤	٩	ويتنقل	ويتثقل
١٦٤	١٥،٩ ١٨	سورى	سوزى
١٦٤	هـ ٢	الكامل	تحذف
١٧٦	٤	أهلها	أهلها (١)
١٧٦	١٠	وتلقبه	وأن يلقبه
١٧٦	١٧	خوارزم	خوارزم شاه
١٧٦	١٨	خربل	خرميل
١٧٨	هـ ١	Ied	Ed.
١٧٩	١٤	الظاهر	الظافر
١٩٣	هـ ٢	Land	Laud.
١٩٤	١٥	كثيرة	كثيراً
١٩٤	٢٠	بذهاب فى .. فلسطين	تحذف
١٩٦	٥	لأن	وأن
١٩٦	١٠	أمره	أمره (٢)
١٩٦	٢٣	للطواشى	الطواشى
١٩٦	هـ ١	١٥٧	١٤٧
٢٠٥	هـ ١	٨٩	٧٩
٢٠٧	١٩	يغز	يفز
٢٠٨	١١	ثقة	ثقته
٢٠٨	١٣	البطائى	البطائحى
٢٠٨	٢٥	اليمين	اليمنى
٢١١	٢	نارلا	تادلا
٢١٣	١٦	ابن	بن
٢١٤	٧	عبد النبى بن مهدى	عبد النبى بن محمد بن على
٢٢٠	٤	وحب	وحسن
٢٧٧	١٥	٥٥٩	٥٥٧
٢٧٧	١٩	وخليفتيه	وخليفتاه
٢٧٨	١٢	يكشف	يكتنف
٢٧٨	١٤	ويتولى	وبتولى
٢٧٩	٢٦	489	439
٢٨٠	٥	يقامون	يقاومون
٢٨٠	١٩	داعب	داعيا
٢٨٠	٢٦	author	authors

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٨١	٢٤	esoteric	esoterics
٢٨١	٢٦	ولم يكون	تحذف
٢٨٢	١٧	الفارسى	الفاسى
٢٨٣	١٦	قهدى	مهدى
٢٨٣	٢٢	ونفذتم	ونصرتم
٢٨٤	٩	يفرآ – نهر	يفرا – بنهر
٢٨٥	٨	وحث من حسن	وحس مَنْ حسن
٣٠٩	١٤	أمراؤها	أمراؤها سلطانهم
٣٠٩	٢٣	المعتصم	المستعصم
٣١١	١٠	يقدم	يقوم
٣١١	٢٦	الغربية	القريبة
٣١٢	٢٠	الصنهاجين	الصنهاجيين
٣١٣	١٨	رحلهم	رجلهم
٣١٤	٣	لجأ	وإنما لجأ
٣١٤	١٦	يتعد	يتصد
٣١٤	٢٢	على بن	على أن
٣١٦	١٣	أو	أن
٣٢٢	١٧	غرايم	عزائم
٣٢٣	٢٠	فقتلها	فقتلنها
٣٦٥	١٤	فى	فى المعارك الحربية فقد
٣٦٥	٢٠	طواد	طراد
٣٦٦	٩	وجمع	وجميع
٣٦٦	١٠	نشر	نشز
٣٧١	١٣	للد حدين	للموحدين
٣٧٢	١٩	موظف آخرى	موظفا آخر
٣٧٣	١٩	المسائل	المسائل الشرعية
٣٨١	٧	والخالص	والخاص
٣٨٣	٢٠	الكتاب يقومون	والكتاب ويقومون
٣٩١	١	السادس	السادس عشر
٣٩٣	٢٥	الفدر	الغدر
٣٩٤	٩	والصليبين	والصليبيين
٣٩٦	١٠	أو	إذ
٣٩٦	١٠	ركاكين. حياة	دكاكين... أحياء
٣٩٦	١٧	الثمغ	الشمع
٣٩٦	١٩	واتخذ	واتخذت
٣٩٩	٦	والدرع	والدروع
٤٠٥	٥	الأيلة	الأبلة
٤٠٥	٩	المسيحيين	مسيحيين
٤٠٦	١٤	وأكثر	وأكبر
٤٠٧	٢	القصر	القصير
٤٠٧	١٣	الحرارة	الحر
٤٠٧	٢٠	تفرع	تفرغ
٤٠٨	١٩	الفسطاط	بالفسطاط
٤٠٩	١	تقطع	تنقطع
٤١١	٣	المغاره	المفازه
٤١٢	٩	المدينة	المدنية
٤١٢	١٧	حققت	خصصت
٤٢٠	٤	أثر كثير	أثر قيام كثير
٤٢٢	٨	وبمعنى	بمعنى
٤٨٩	١٥	أوفات	أوقات
٤٩٠	١٣	فذك	فذاك
٤٩٢	٦	بتتم	بنتم
٤٩٧	٣	حمات	جمات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٩٧	٢٠	ومن	وممن
٤٩٨	١٨	الحصر	الحصرى
٥٠٢	٥	لا ينقد	لا ينفد
٥٠٢	١٠	أنا نصر	أبا نصر
٥٠٥	٦	المعائى	المعانى
٥٠٨	٢٧	Seldjouc-iies	Seldjoucides
٥٠٨	١٣	المنشورة	المنشودة
٥١٣	٧	المقرى	المقرَّى
٥١٥	١٦	أن	بأن
٥٣٧	٢	انقسمت	انقسمت إلى
٥٨٧	١٥	كتابة	كتابه
٦٠٠	٧	٥٤٠ هـ	٥٤١ هـ
٦٣٦	٧	محمد بن عبد الكريم	محمد بن الحسن بن عبد
٦٤٣	١١	بينهما	بينها
٦٥٥	١	اليولو	البولو
٦٦٩	٢١	Siluester	Silvestre
٦٧٠	١٤	Caliph	Caliphs

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير — عابدين
ت ٩٠٦٠١٧

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير — عابدين
ت ١٧ ٩٠٦٠

الثمن ٨٠

Date Due

133612 NOV 29 74

Demco 38-297